

سلسلة أجمل الروايات العالمية

مرغريت ميتشل

ذهب مع الرّيح

الجزء الأول



سلسلة أجمل الروايات العالمية

مرغريت ميتشل

ذهب مع الريح

الجزء الأول

إعداد وتحليل وتقديم

الدكتور رحاب عكاوي



دار الحرف العربي

اسم الكتاب:
ذهب مع الريح / الجزء الأول
تأليف:
مرغريت ميتشل
إعداد وتحليل وتقديم:
الدكتور رحاب عكاوي

الناشر:
دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
زقاق البلاط ـ بناية فخر الدين
شارع خليل سركيس
تلفون وفاكس: ٣٦١٠٤٥ / ٠٠٩٦١١
بيروت ـ لبنان
E-MAIL : dar_al_haref_alarabi@yahoo.com

الطبعة:
الأولى ٢٠٠٨ م

تصميم الغلاف:
فؤاد سليمان وهبي

الترقيم الدولي:
ISBN : 978-9953-448-99-2

الطبعة الأولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م



طبع في لبنان Printed in Lebanon

مرغريت ميتشل

١٩٠٠ . ١٩٤٩

مرغريت ميتشل اسم الشهرة أو الاسم المستعار الذي اتخذته لآثارها القلمية السيدة (واسمها بيغي) جون مارش الروائية الأميركية المولودة بمدينة أتلانتا على رأس القرن العشرين في سنة ١٩٠٠ ، وهي الابنة الوحيدة ليوجين نيوز ميتشل . وقد تلقت علومها في أتلانتا بمدرسة دير واشنطن ، ثم أتمت دراستها في كلية سميث بولاية ماساشوستس .

فيما بين سنتي ١٩٢١ و١٩٢٦ عملت مخبرة صحفية ومحررة في صحيفة «أتلانتا جورنال» . وفي هذه المدة توطدت علاقتها برئيس تحرير تلك الصحيفة جون مارش وتحولت من الصداقة والإعجاب إلى الحب فتزوجا في سنة ١٩٢٥ . وبعد عقد الزواج بقليل - أي في سنة ١٩٢٦ اعتزلت العمل في الصحافة لتتفرغ لشؤون البيت ولا سيما أنها ابتليت في تلك السن المبكرة بداء هو روماتزم المفاصل جعل الحركة الكثيرة مصدر ألم مرهق لها ، وكانت الدلائل كلها تدل على أنها قد أخلدت نهائياً إلى حياة الراحة في البيت ومحاولة التغلب على أوجاعها الروماتزمية المتكررة التي تلزمها الفراش أوقاتاً طويلة متقاربة . ولكنها في واقع الأمر عاشت مدى ست سنوات على الأقل ، فيما بين سنتي ١٩٣٠ و١٩٣٦ تقوم في باطن سريرتها بنشاط جم يصل إلى حد الإفراط وهي قعيدة البيت أو طريحة الفراش ، على نحو لا يطمع في تحقيقه أصح الأصحّاء بدناً وأقدرهم على التنقل والمغامرة .



مرغريت ميتشل

وليس من النادر في سير الكتّاب والشعراء أن تكون أعمالهم الأدبية سبيلاً للتنفيس عمّا يعجزون عن تحقيقه في دنيا الواقع ، فرهين المحبسين شيخ معرة النعمان نفّس عن محبس العمى ومحبس الدار بأعظم رحلة من رحلات الخيال في الأدب العربي ، بل إنها من الرحلات العظيمة

المعدودة في آداب العالم أجمع ، فلم يكفه أن يجوب الأرض على غرار الرحالة أصحاء الجسم والنظر ، فطاف السماء وجاب الأزمان في رسالة الغفران ، ومثل ذلك صنع جون ملتون في فردوسه المفقود وفي فردوسه المستعاد .

والحقيقة أن روائيّتنا مرغريت ميتشل كانت منذ أيام الدراسة والتحصيل شغوفة بالدراسات التاريخية ، فانخرطت في عضوية جمعية الدراسات التاريخية بأتلانتا وجمعية «الهيمغونوت» في كارولينا الجنوبية . ومنذ سن السادسة عشرة تعلّق قلبها بالكتابة ، واتخذت منها هواية مثمرة ، وهذا ما حدا بها إلى احتراف الصحافة بمجرد تخرجها . وكان هذا الشغف بالتاريخ وتفصيلاته في نصف الكرة الغربية ، وتاريخ المستعمرات عموماً ، شغلها الشاغل طيلة الوقت . فلمّا تزوجت ومرضت واعتزلت الصحافة تفرغت تفرغاً تامّاً لإشباع هذا الشغف الذي تحوّل إلى نهم وجوع لا يشبع .

وقد كان الحافز الذي أطلق خيالها في هذا الاتجاه ما سمعته في طفولتها وصباها الباكر من أفواه المسنّين ، ولا سيما من طائفة الخدم الزنوج ، عن أحداث الحرب الأهلية ، وما جرى على ألسنة الناس من ذكر مشاهدها وكروبها وويلاتها ومعاركها ومغامراتها . ومن عادة العامة أن تتخذ هذه الصور على ألسنتهم ألواناً صارخة وتهاويل تلهب العاطفة الغضة وتستثير الفطرة التي رُزقت مخيّلة خصبة . وبذلك لم يكن شغف مرغريت ميتشل بتاريخ تلك الحقبة بالذات شغفاً علمياً منهجياً جافّاً ، بل كان شغفاً حيّاً متجسّداً على الدوام في صورة حسية تدخل في إطار الفن ولا تستخدم مادة التاريخ إلاّ لخدمة الأغراض الفنية والتصوير الإنساني النابض ، فكان من الحتم إذاً أن يثمر هذا الشغف عملاً من أعمال الفن يستخدم التاريخ أداة من أدواته ليجسده واقعاً حيّاً من خلال عواطف الناس وتفكيرهم وتصوّراتهم الاجتماعية وقيمهم الفردية والجماعية .

ومنذ ارتهنت مرغريت إلى حياة البيت والدعة في سنة ١٩٢٦ وهي تقرأ وثائق وأسانيد لا حصر لها عن تاريخ فترة الحرب الأهلية بين ولايات الشمال والجنوب بسبب أزمة تحرير العبيد التي أثارها الرئيس أبراهام لينكولن ، فتجمّع لها حتى سنة ١٩٣٠ كمّ ضخم جداً من المادة التاريخية والحقائق الاجتماعية في صدد تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الأمة الأميركية ، حتى إذا شعرت

بالامتلاء التام بموضوعها شرعت تكتب عملها الأدبي المفرد الذي لم تنتج غيره إلى أن لقيت مصرعها في سنة ١٩٤٩ على أثر حادث تصادم وهي مستقلة سيارة أجرة في مدينة أتلانتا . وهذا العمل الوحيد الذي أذاع شهرة مرغريت ميتشل ، وسيُبقي اسمها في أذهان الناس أمداً طويلاً من الدهر ، هو روايتها الضخمة «ذهب مع الريح» .

وقد سلخت مرغريت في كتابة هذه القصة المستفيضة ست سنوات كاملة أو أكثر قليلاً ، جعلت بؤرتها قصة حب بين شخصيّتين مغامرتين صلبتي العود من الرجال والنساء هما «سكارلت أوهارا» و«ريت بتلر» ، وأدارت حول هذا الحب المضطرم المعقّد أحداث الفترة التاريخية والاجتماعية مستعينة بعدد كبير من الشخصيات النابضة بالحياة في البيئة التي عاشت فيها سكارلت . وقصة غراميات سكارلت أوهارا ليست هي المقصودة في المقام الأول ، بل المقصود هو ما نُسج حول هذه الغراميات من جو الحرب وتأثيرها في حياة الناس وسلوكهم وأحوالهم من جميع الوجوه على نحو مجسّم لا تحيط به كتب التاريخ القائمة على المنهج العلمي الجاف وحده .

تجدر الإشارة إلى أن طريقة المؤلفة في كتابة هذه القصة المترامية الأطراف ، المائجة بالأحداث والشخوص ، تدعو إلى العجب ، إذ إنها كانت تكتب فصولها الكثيرة بغير نسق متعاقب ، فبعد الفصل الرابع قد تكتب الفصل الثلاثين ، وبعد الفصل الثلاثين قد تكتب الفصل العاشر ، ثم هي تكتب الفصل السابق للأخير ، لتعود إلى الفصل الخامس أو السابع ، وهكذا . وليس ذلك ممكناً بطبيعة الحال إلاّ إذا كانت المؤلفة تستحضر في ذهنها حلقات الرواية المستفيضة بجميع تفاصيلها وتشعباتها ودقائقها ، وتتمتع فوق هذا كله بذاكرة جبارة لا يفوتها شيء من تلك الدقائق والتفاصيل .

ونحن نعرف كتّاباً يصنعون مثل ذلك في أعمال غير قصصية مثل كتب الدراسات أو كتب السير ، فلا عجب في هذا ، لأن الفصول في تلك المؤلفات قائمة على معان ذهنية ، كل معنى منها يصلح أن يكون قائماً بذاته مستقلاً عن غيره . ولكن الأعمال الروائية الضخمة ليست من هذا القبيل ، ولا بد فيها من ابتناء اللاحق على السابق ابتناء كليّاً وجزئيّاً ، فلا يتسنى اتباع هذه الطريقة إلاّ

إذا كان العمل القصصي الضخم حاضراً برمته حضوراً واضحاً تامّاً في ذهن الكاتبة ، ولها أن تتبع في هذه الحالة وحي الساعة في كتابة هذا المشهد أو ذاك من مشاهد الرواية ، لأنها في الواقع تنقل عن أصل موجود بتمامه فعلاً ولا تبتدع ما تكتبه ابتداءً .

وهذا العمل إن دل على شيء فعلى امتلاء الكاتبة بروايتها امتلاء لا مزيد عليه . ومن القرائن على ذلك الامتلاء ما تعترف به مرغريت ميتشل من أنها كانت تعيد كتابة الكثير من فصول الرواية مراراً كثيرة ، لأنها لا تجدها مطابقة للأصل الماثل في ذهنها ووجدانها ، ويقال إن بعض هذه الفصول قد أعادت كتابته سبعين مرة .

لقد كانت مرغريت ميتشل المريضة قعيدة البيت طريحة الفراش وهي في إبان حيويتها تعيش تلك القصة وتتنفس فيها حيويتها المكبوتة الحبيسة ، فكأنها في حقيقة الأمر لم تكن تكتبها رغبة في الكتابة ، بل كانت تكتبها تحقيقاً لذاتها . وفي هذه الحالة لا يمكن أن تقنع بأقل من الكمال كما تتصوّره أو تشعر به .

يعزّز رأينا أن المؤلفة لم يدر بخلدها طيلة السنوات الست التي شغلت فيها بكتابتها أنها يمكن أن ترى النور من طريق المطبعة لضخامتها المفرطة ولأنها غير ذات ماض معروف أو مجهول في عالم التأليف الروائي . ولم تكن محاولات نشرها ، إلاّ من قبيل «إبراء الذمة» ـ كما ذكرت السيدة صوفي عبدالله في التأريخ لها ـ حتى لا تشعر بأنها قصّرت في حق عملها العزيز على قلبها بعد تمامه .

لقد شاءت المصادفة أن يقبل أحد الناشرين طبع الرواية الضخمة ، فكان ذلك طالع سعد للمؤلفة والناشر معاً ، فقد اختارها نادي الشهر لجائزة أحسن كتاب ، وغمرت الناس موجة شغف بهذه القصة فبيع منها في الشهور الستة الأولى أكثر من مليون نسخة في الطبعة المرتفعة الثمن ، وكان البيع في اليوم الواحد يزيد أحياناً على خمسين ألف نسخة . وفي سنة ١٩٣٧ حصلت الرواية على جائزة «بوليتزر» الرفيعة ، وبلغ عدد النسخ التي بيعت في أميركا وحدها في السنوات الست الأولى ثمانية ملايين نسخة ، عدا ما بيع في بريطانيا والبلاد

الناطقة بالإنكليزية وفي الترجمات العديدة التي ظهرت لها في جميع لغات العالم الغربي ، ومثلت على الشاشة الفضية ، حيث قامت الممثلة البارعة «ڤيڤيان لي» بدور سكارلت أوهارا ، فكانت من أطول الروايات التي أنتجتها السينما ومن أكثرها رواجاً .

على هذه الصورة هبطت الشهرة العالمية على مرغريت ميتشل بين عشية وضحاها ، ومعها ملايين الدولارات . وقد ثقُل ذلك على نفس السيدة المحبة للاعتكاف ، ولا سيما أنَّ الشهرة العريضة في بلاد كأميركا تثقل على كاهل الشهير ولا تترك له حياة خاصة ناعمة يلذّ بها . ولـمّا نشبت الحرب العالمية الثانية أسهمت فيها مرغريت ميتشل على نحو ما أسهمت به «ميلاني هاملتون» التي كانت شخصية ملائكية في رواية «ذهب مع الريح» ، ووقفت جهودها على التمريض في المستشفيات العسكرية .

وما إن آذنت الحرب بنهاية حتى نُكبت المؤلفة بزوجها الحبيب ، الذي ألمّ به داء من أدواء القلب أوهن قواه وأقعده ، كما أُصيب والدها بمرض مقعد أيضاً



عالم مرغريت ميتشل



مرغريت الكاتبة



المنزل الذي عاشت فيه في أتلانتا



ضريح مرغريت ميتشل



طابع بريدي يحمل صورة المؤلفة

أضناه سنوات إلى أن مات . وبعد ذلك وضعت الأقدار حداً لحياة مرغريت ميتشل في حادث تصادم وهي في التاسعة والأربعين من عمرها(*) .

ولا نحسب أن الأجل لو امتد بهذه الروائية المبدعة كان حرياً أن يضيف إلى تراثها الأدبي شيئاً مذكوراً بعد ذلك النجاح الهائل الذي حققته روايتها الوحيدة «ذهب مع الريح» ، فقد كانت هذه الرواية هي كلمتها التي فرغت رسالتها الأدبية بانتهائها منها .

ذهب مع الريح

لا شك أن رواية «ذهب مع الريح» حققت نجاحاً يكاد يكون منقطع النظير على مستوى الذيوع بين القراء وتحقيق أرقام قياسية في التوزيع والربح . ولكن ليس من الحتم أن يكون النجاح الأدبي في مستوى واحد مع ذلك النجاح المادي . فما هي حقيقة الحبكة الفنية لهذه الرواية الضافية التي تتجاوز كلماتها نصف المليون كلمة؟

إن أجواء الحرب من خلال قصة الحب عالجتها رواية تولستوي الخالدة الضخمة أيضاً والواسعة الانتشار كذلك ، ونعني بها رواية «الحرب والسلم» . فهل نجد فيما عدا تلك المشابهة في الموضوع مشابهة في النسيج الفني بين رواية مرغريت ميتشل ورواية ليو تولستوي؟

من الظلم للكاتبة الأميركية أن نقارن بينها وبين الكاتب الروسي العبقري ، فالفرق بينها وبينه في المستوى الفني هو الفرق بين النبوغ والعبقرية ، فدرجة إجادتها في فنها لا تصل إلى مستوى الحدث الخارق ، ومن الإنصاف أن نقول إنه قلّما يصلح عمل روائي من قلم أي إنسان للمقارنة بينه وبين رواية «الحرب والسلم» . فلنترك إذاً هذه المقارنة القاسية لننظر في أسلوب الكاتبة من حيث هو ، وسنجدها تستخدم طريقة الإفاضة والتجميع والتكتيل ، وحين تريد أن تعبّر عن معنى محدد أو ظاهرة معينة ، فإنها لا تؤدي ذلك بالعبارة الموجزة النفاذة ، بل تؤديه بالإفاضة وتجميع التفاصيل المختلفة التي تلم شتاتها على تباين ألوانها .

(*) ذكر البعض ممّن كتب سيرة حياة مرغريت أن حادث التصادم لم يقتلها بل جعلها طريحة الفراش تنتظر العملية الأولى والثانية والثالثة . . وأنها في تلك المدة ـ ثلاث سنوات ـ بدأت القراءة ومن ثم الكتابة .

على أن الطريقة النفاذة تحتاج إلى طاقة فنية لمّاحة لدى الكاتب أو المصوّر، وإلى حس مرهف نافذ لدى المتلقين، وفي هذه الحالة لا يكون الجمهور قاعدة عريضة تنتظم الملايين، بل يكون قلّة من الصفوة أوتيت الفطنة الذهنية والوجدانية، وتنشد ما يخاطب تلك الفطنة بحيث يزيد آفاقها سعة ويزيد أغوارها عمقاً. أما طريقة التجميع والتكتيل والإفاضة فلا تشبع الفطن الذهنية والوجدانية، بل تبتغي غاية أشد تواضعاً من هذه الغاية بكثير، وهي إشباع الفضول الساذج أو شبه الساذج الذي يتسم به سواد الناس وعامتهم، وهو فضول كالنار يتطلّب على الدوام وقوداً، ويجد حطبه في تلك التفاصيل التي تكشف الأستار وتفضح الأسرار، وكالنار أيضاً لا ينتهي نهم هذا الفضول ولا يبقي على شيء مّما يلتهمه أولاً بأول، وإنما هو الاضطرام الوقتي الذي يخبو بعد انتهاء زاده المبذول من غير أن يعقب أثراً باقياً من اتساع آفاق المعرفة العقلية والنفسية أو ارتقاء طريقة التفكير أو تعميق الإحساس.

وهذا في الواقع هو نمط الفن في مستوياته العامية، وإنه لنمط يجد إقبالاً من الناس ولكنه لا يؤثر في حياتهم ولا يغيّر عقولهم، لأنه يسير وراء تلك العقول ولا يقود زمامها بحال من الأحوال، فما أشبهه بالخادم الذي يمتع سيده ويؤدي له مطالبه ويحقق غاياته، وينال من سيده مكافأة الاستحسان على قدر تفانيه في إرضائه ومطاوعة هواه. وشتان هذا المقام ومقام الرائد أو المعلّم أو القائد الذي يظفر بالرضا من الكثيرين ولا يطاوع هواهم، ولكنه يغيّر حياتهم تغييراً بما يشكّل من تفكيرهم وما يصوغ من وجدانهم.

والكاتبة مرغريت ميتشل لا تملك تلك البوتقة التي تصوغ فيها النفوس والعقول، ولكنها تقدّم فنّاً قصصياً ممتعاً نافعاً في المستوى الذي يستهوي عامة القارئين والقارئات في كل مكان من أصقاع الأرض، لأنها تصوّر البشر في روايتها على النحو الذي يفهمه العامة ولا يشق عليهم، فيرون أنفسهم في الصورة التي يتوقعونها، ويجدون من الأحداث والأخبار ما يستثير تطلّعهم من غير مشقة عليهم في الفهم أو التصوّر، لأن المؤلفة تقدّم لهم كل شيء، وتخاطب العادي من غرائزهم وإحساساتهم، وتجيد تتبيل صحاف قصّتها بالأفاويه والأباذير التي تسيل اللعاب ـ على حد تعبير الأديبة صوفي عبدالله ـ

ولكنها لا تضمن للأكلة حسن التغذية واكتمال العناصر وسهولة الهضم .

من هنا جاءت الإفاضة في رواية «ذهب مع الريح» مزية لها عند هذا الجمهور العريض المتطلّع إلى ما يشبع فضوله الساذج ، لأنه كالوليمة الحافلة بألوان يتشهاها الأكول .

لقد حشدت الكاتبة في «ذهب مع الريح» أبطالاً تختلف بينهم المراتب كما تختلف منازع النفس ، وأرت القراء كيف تعتمل في صدورهم أصداء الأحداث ، وكيف يكون رجعها فيما يصدر عنهم من تصرفات ، وكيف يكون التجاوب لما يمر بهم من تجارب ، وأنت حين تلتقي بهذا الحشد في طوايا الرواية لا تلبث أن تندمج فيه ، فتخوض تلك المعارك التي خاضوها ، وتزاول تلك التجارب التي زاولوها ، وكأنك على أرضهم ، في زمنهم ، بل كأنك منهم ، كأحدهم ، بل كأنك هم جميعاً . وهنا سوف لن تجد الفكاك من تلك الجاذبية التي وصلتك بها الرواية ، فتشعر بأن نفسك قد تقسّمت أنفساً كثيرة حتى تستجيب لكل من حوت الرواية من شخوص ، ولا يبلغ كاتب منك هذا المبلغ إلاّ إذا أوتي تلك العصا السحرية التي يلوح بها في وجهك ، فيتضاءل النور أمام عينيك ، وتخف بك قوة خفيّة إلى آفاق من الأخيلة رحاب ، حيث تحيا كما شاء لك الكاتب أن تحيا عن طوع واختيار .

«ذهب مع الريح» العنوان وحده يشير إلى أن مرغريت لا علاقة لها بتلك المرأة الصغيرة «بيغي» . أحرزت تقدّماً ملحوظاً أكثر من أهلها وأجدادها . إن ما حدث قبل سبعين عاماً لا وجود له اليوم ، كما هو الحال بالنسبة إلى جميع الجنوبيين . الأمس . . لقد ذهب بالفعل . . كما تذبل أوراق الشجر وتذهب مع الريح . لقد كسبت شوطاً ، لكنها ما زالت تؤمن بأنها لا تستطيع أن تصبح روائية في يوم من الأيام : «أنا أنتج بشكل بطيء . . هذا لا يُسمى تأليفاً» .

«أعرف شيئاً واحداً» تقول مرغريت لزوجها في أحد الأيام «إذا انتهيت من كتابة هذه الرواية فلن أعيد الكرة ثانية إطلاقاً» .

*

ذهب مع الريح (في السينما)

ذهب مع الريح فيلم أنتج في عام ١٩٣٩ عن رواية مرغريت ميتشل

الشهيرة «ذهب مع الريح» . فاز الفيلم بعشر جوائز أوسكار ، واختاره معهد الفيلم الأميركي ليكون الرابع في قائمة الأفلام الأميركية المائة الأفضل في القرن العشرين ، وبحلول ٢٠٠٦ أصبح الفيلم أعلى الأفلام إيراداً في تاريخ السينما على الإطلاق .

القصة :

تدور قصة الفيلم ، كما في الرواية ، حول انعكاسات الحرب الأهلية الأميركية على المزارعين الجنوبيين ، وصعود المجتمع الصناعي مع فرض قيم المنتصرين ، تحرير العبيد ، وانهيار المجتمع الإقطاعي ، وتأثير ذلك في الأفراد عبر قصص حب متشابكة محورها البطلة الجنوبية سكارلت أوهارا التي تُحب أحد ورثة الإقطاع في الجنوب آشلي ويلكس ، والذي لا يُبادلها الحب بدوره ، لتتزوج من تشارلز هاملتون أخي زوجة ويلكس ميلاني ، لتبقى بقرب حبيبها . ومن ثم ظهور البطل المغامر ريت بتلر الذي يحب سكارلت ، لكنها لا تفطن لذلك إلاّ في النهاية ، بعد أن يتركها ، رغم أنها تزوجته .

يبدأ الفيلم في مزرعة قطن تُسمى تارا في ولاية جورجيا الأميركية عام ١٨٦١ عشية الحرب الأهلية الأميركية ، حيث تظهر سكارلت أوهارا ، الابنة الكبرى لمهاجر إيرلندي يُدعى جيرالد أوهارا (مالك مزرعة تارا) ، مع أمها إيلين ، وتبدو مستاءة جداً بسبب خطبة آشلي ويلكس لقريبته ميلاني هاملتون .

في الحفلة الكبيرة تلتقي سكارلت بالبطل ريت بتلر (كلارك غيبل) ، الذي تدور حوله الفضائح ، ويتقرب منها ، كما تدور نقاشات حول نتائج الحرب الأهلية ، يقول فيها بتلر إن الحرب ستنتهي لمصلحة الشمال بسبب تقدمه الصناعي ، وتقرر سكارلت أن تتزوج تشارلز هاملتون ، شقيق ميلاني ، لتبقى قريبة من آشلي .

يذهب آشلي وتشارلز إلى الحرب ، ويبقى ريت بتلر ليعمل في التهريب . يموت تشارلز هاملتون بالتهاب صدري فتصبح سكارلت أرملة ، غير أنها تتصرف بما لا يلائم وضعها ، ويظهر حين ذاك انجذاب ريت بتلر الشديد إليها ، كما يظهر معدنه الشجاع .

تضطر سكارلت إلى الهروب من مزرعتها إلى مدينة آمنة ، فتستعين بريت

ليساعدها، وتأخذ معها ميلاني الحامل التي تلد في الطريق وتساعدها سكارلت على الولادة. ويذهب ريت للانضمام إلى جيش الجنوب المنهزم، فيقاتل، ويأسره جنود الشمال.

تموت والدة سكارلت، وتصبح هي مسؤولة عن أختيها، وعن ميلاني زوجة آشلي، فتعود بهن جميعاً إلى تارا حيث يعانين الجوع، وتحاول اللجوء إلى ريت، لكنها تخدعه فيبتعد عنها، وتضطر للاعتماد على نفسها في إعالة الأسرة، والخدم، والعودة بالمزرعة إلى الحياة، خصوصاً بعد وفاة والدها جيرالد أوهارا الذي عانى من خبال قبل ذلك بسبب تأثير الحرب المدمر في الجنوب.

تساعد ميلاني الجنود العائدين، وفي يوم من الأيام، يعود آشلي، وتعود مشاعر سكارلت إلى حرارتها القديمة، لكنها تتزوج فرانك كندي، حبيب أختها سولين، طمعاً في أعماله المزدهرة، وتصبح سيدة أعمال ذات شأن. تتسبب سكارلت في مقتل زوجها الثاني فرانك بعد خروجه مع آشلي ويلكس وآخرين لتأديب السود الذين حاولوا الاعتداء عليها عند عبورها منطقة خطيرة، حيث ينقذها عبد والدها السابق الشهير ببيغ سام (سام الكبير)، وتطاردهم الشرطة، غير أن ريت بتلر يتدخل لإنقاذ من بقوا أحياء ويرسلهم إلى منزل صديقته سيئة السمعة بيل وتلنغ حفاظاً عليهم من استجواب الشرطة، ولا تأبه سكارلت بمصير زوجها المتوفى حيث تواصل أعمالها بشكل متصل، وتواصل تعلقها بآشلي ويلكس الذي تعطيه عملاً في ورشتها.

يكثر ريت بتلر من المجيء لزيارة سكارلت، ويحوم حولها، ثم يعترف لها في النهاية بحبه ويطلب منها أن تتزوجه، ويقيم معها في قصر كبير بناه لها، ويبدأ في تحسين صورته وسمعته بين الناس بالمساهمة في نشاطات المجتمع بشكل دائم. وتلد سكارلت له ابنة يسميها بوني بلو بتلر، ويستقيم تماماً لأجل أن يكسب سمعة جيدة لابنته. تستمر سكارلت في إهمالها الشديد لزوجها وابنتها، فيغادر بعد سنوات برفقة بوني إلى بريطانيا، لكنه يضطر إلى العودة فيما بعد بسبب شوق بوني إلى أمها، وتستقر الأمور بينهما، حيث يبدو أن علاقتهما في سبيلها إلى التحسن، غير أن سقوط بوني بلو من على حصانها وموتها بكسر عنقها (كما حدث لجدها جيرالد أوهارا) يصيب ريت بتلر بصدمة عنيفة تدفعه إلى ترك سكارلت.

تأتي ميلاني هاملتون لتعزية سكارلت وريت والإصلاح بينهما، غير أنها تسقط محتضرة وهي حامل، وتوصي سكارلت بالاعتناء بزوجها آشلي لأجلها، كما اعتنت بها من قبل لأجله، وحين تخرج سكارلت لرؤية آشلي تجده يبكي ميلاني ويقول إنها كل شيء بالنسبة إليه، فتكتشف أخيراً أنها قضت حياتها في مطاردة وهم، وتكتشف أنها تحب ريت حقاً، وأنها تريد بقاءه.

يرفض ريت البقاء، وحين تسأله ماذا ستفعل ومن سيهتم بها.. يجيبها بأنه لا يأبه على الإطلاق، ويغادر تاركاً إياها منهارة على درج القصر الكبير. وبين دموعها الغزيرة تتذكر سكارلت كلام أبيها وريت وآشلي عن مزرعة تارا التي تملكها الآن، فتقرر العودة إليها والاستقرار فيها لتبدأ من جديد، ومن ثم تفكر في كيفية استعادة ريت، وتقول: غداً يوم آخر. لينتهي الفيلم بها واقفة في شموخ.

إنتاج الفيلم:

قرر المنتج ديفد أو. سيلزنيك، رئيس شركة أفلام سيلزنيك العالمية، شراء حقوق رواية «ذهب مع الريح» لإنتاج فيلم مبني عليها، بعد أن أقنعه بذلك محرر قصصه كاي براون بعد شهر واحد من نشر الرواية في حزيران/ يونيو ١٩٣٦، واشتراها سيلزنيك بمبلغ ٥٠,٠٠٠ دولار أميركي، وهو سجل قياسي في ذلك الوقت. قُدم الجزء الأكبر من الدعم المالي للفيلم من طريق شريك سيلزنيك في العمل جون هاي ويتني، مستثمر أصبح فيما بعد سفيراً للولايات المتحدة الأميركية.

اختيار الممثلين للدورين الرئيسيين أصبح مسعى معقداً دام عامين. الكثير من الممثلات الشهيرات، أو القريبات من الشهرة، أدين تجارب في الأستوديو، أو أخذن بعين الاعتبار لأداء دور سكارلت، ومنهن: كاثرين هيبورن، نورما شيرير، بيتي ديفز، باربارا ستانويك، جوان كراوفورد، لانا تيرنر، سوزان هاوارد، كارول لومبارد، إيرين دوني، ميريل أوبيرون، إدا لوبينو، جوان فونتين، لوريتا يونغ، ميريام هوبكينز، تالولا بانكهيد، فرانسيس دي، ولوسيل بول.

أربع ممثلات، من ضمنهن جين آرثر وجوان بينيت، كن لا يزلن في الاعتبار

لأداء الدور بحلول كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٨ . وتأهلت اثنتان فقط لتصبحا المرشحتين النهائيتين ، بوليت غودارد ، وڤيڤيان لي ، فاختبرتا بتقنية تكنيكلور في ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر . وكان سيلزنيك مقتنعاً بڤيڤيان لي ؛ ممثلة إنكليزية شابة معروفة بعض الشيء في أميركا ، في دور سكارلت منذ شباط/ فبراير ١٩٣٨ بعد أن شاهدها في «النار فوق إنكلترا» و«أميركي في أوكسفورد» . كان وكيل لي هو ممثل لندن لوكالة مايرون سيلزنيك للمواهب (التي يديرها شقيق ديڤد سيلزنيك ، وأحد ملاك سيلزنيك العالمية) ، وطلبت أن يتقدم باسمها لأداء دور سكارلت . وبحلول صيف ١٩٣٨ كانت شركة سيلزنيك تفاوض ألكساندر كوردا الذي كانت لي مرتبطة بعقد معه . ولأسباب دعائية رتب ديڤد سيلزنيك لقاءه الأول معها ليكون ليلة ١٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٨ ، عند تصوير فيلم «حريق محطة أطلانطا» . وكانت القصة التي اخترعت للصحافة هي أن لي ولورانس أوليڤيه كانا يزوران الاستوديو فقط كضيفين لمايرون سيلزنيك الذي كان أيضاً وكيل أوليڤيه ، وأن لي كانت في هوليوود أملاً في الحصول على دور في فيلم لورانس أوليڤيه «مرتفعات ويذرنغ» . وفي رسالة لزوجته بعد يومين ، اعترف سيلزنيك بأن لي كانت «الحصان الأسود لسكارلت» ، وبعد سلسلة من اختبارات الشاشة ، أعلن اختيارها لأداء الدور في ١٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٩ .

لدور ريت بتلر ، كان كلارك غيبل المرشح الفوري المفضل للجمهور وسيلزنيك معاً . لكن سيلزنيك لم يكن مرتبطاً بعقد مع نجم ، لذا كان عليه أن يتفاوض لاستعارة ممثل من استوديو آخر . ولذا كان غاري كوبر اختياره الأول ، لأن عقد كوبر مع صامويل غولدوين يتضمن شركة توزيع معروفة ، يونايتد آرتيستس ، التي كان لسيلزنيك معها ثماني صفقات لأفلام . وعلى أي حال ؛ بقي سيلزنيك غير ملتزم في المفاوضات . عرضت ورنر بروزرز حزمة من بيتي ديفز ، إيرول فلين ، وأوليڤيا دوهافيلاند للدور الرئيسي مقابل حقوق التوزيع ، لكن سيلزنيك في ذلك الحين كان مصمماً على نيل كلارك غيبل ، وفي النهاية وجد طريقة لاستعارته من شركة ميترو غولدوين ماير . فقد عرض صهر سيلزنيك ، رئيس مترو غولدوين ماير لويس ب . ماير ، في مايو ١٩٣٨

المساهمة بنصف ميزانية الفيلم مقابل خمسين بالمائة من الأرباح تذهب إلى مترو غولدوين ماير، واحتكار حقوق توزيع الفيلم لإحدى شركات ماير، لويز إنك، مقابل ١٥٪ من الدخل. وقبل سيلزنيك العرض في آب/ أغسطس، ثم انضم غيبل إلى الطاقم، لكن ترتيبات الإصدار عبر مترو غولدوين ماير أخرت بدء الإنتاج إلى أن أنهت سيلزنيك العالمية عقود أفلامها الثمانية مع يونايتد آرتيستس.

بدأ التصوير الأساسي في ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٩، وانتهى في ٢٧ حزيران/ يونيو من العام نفسه، مع أعمال قبل إنتاج (تضمنت النسخة الخامسة من مشهد الافتتاح) امتد إلى ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٩. استبدل المخرج جورج كوكر الذي ربطته علاقة عمل طويلة بالمنتج سيلزنيك، وأمضى عامين في إنتاج ذهب مع الريح، بعد أقل من ثلاثة أسابيع على بدء التصوير، واستدعي مكانه فيكتور فليمنغ الذي أنهى لتوه إخراج «ساحر أوز» من قبل ميترو غولدوين ماير لإكمال الفيلم، بالرغم من أن كوكر تابع بشكل خاص تدريب لي ودوهافيلاند. وعمل سام وود لأسبوعين في أيار/ مايو لتصوير الفيلم عندما غادر فليمنغ الإنتاج مؤقتاً بداعي الإرهاق.

ردود الفعل على الفيلم

عندما سألت الصحافة ديفد سيلزنيك في أيلول/ سبتمبر عن شعوره إزاء الفيلم، أجاب قائلاً: «في الظهيرة أعتقد أنه إلـهي، وفي منتصف الليل أعتقد أنه تافه. أحياناً أعتقد أنه أعظم فيلم في التاريخ. لكن، إذا كان مجرد فيلم عظيم فقط سأظل راضياً».

عندما عرض الفيلم قبل انتهائه على عينة محدودة من الجمهور لقياس ردة فعله في ٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٩، هلل الجمهور بشدة عندما ظهر اسم مرغريت ميتشل، ومن ثم اسم المنتج سيلزنيك، الفيلم الذي قرأوا عنه الكثير خلال عامين صار أخيراً واقعاً.

بعد الفيلم، كان هناك احتفاء هائل به وبصنّاعه. حصل الفيلم على معدلات تقويم عالية بشكل غير عادي، وتوسل المشاهدون لئلا يقص منه أي جزء لتقصير مدة عرضه الطويلة.

استجابة ١٩٣٩

افتتح الفيلم في جورجيا، في ١٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٩، باعتباره ذروة احتفالات دامت ثلاثة أيام، استضافتها شركة ماير، وحضرها نجوم الفيلم، واشتملت على حفلات استقبال، وآلاف الرايات الخاصة بالفيلم، والصور المعلقة على المنازل والمحلات، أعلن حاكم جورجيا ذلك اليوم إجازة للولاية. وسيتذكر الرئيس الأميركي جيمي كارتر الحدث على أنه «أكبر أحداث الجنوب في حياتي».

منذ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٩ وحتى حزيران/ يونيو ١٩٤٠، كان الفيلم يعرض في دور محدودة، وتذاكره تحجز مسبقاً، قبل أن يعرض بشكل عام في عام ١٩٤١. وأصبح منذ ذلك الحين أعلى الأفلام مدخولاً في التاريخ (الأمر الذي يلائم سمعته).

عُرض الفيلم مجدداً في صالات السينما في الأعوام، ١٩٤٧، ١٩٥٤، ١٩٦١، ١٩٦٧، ١٩٧١، ١٩٨٩، ١٩٩٨. وفي حزيران/ يونيو ١٩٧٦ عُرض على شاشات التلفاز، وشاهده ٥ ,٤٧٪ من ملاك البيوت في أميركا، و٦٥٪ من مشاهدي التلفاز.

في ١٩٩٨، صنفه معهد الفيلم الأميركي في المرتبة الرابعة في قائمته لأعظم مائة فيلم، واختير لحفظه في سجل الأفلام الوطنية في الولايات المتحدة الأميركية حيث أعيد ترميمه رقمياً بالكامل.

صُوِّت لجملة «ريت بتلر» الشهيرة في وداع سكارلت أوهارا: «بصراحة، يا عزيزتي، أنا لا آبه إطلاقاً». في استفتاء لمعهد الفيلم الأميركي في ٢٠٠٥ كأكثر جملة قابلية للتذكر في تاريخ السينما.

في عام ٢٠٠٥، صنفت موسيقى ماكس شتاينر للفيلم على أنها ثاني أعظم موسيقى تصويرية في التاريخ.

استمرت الشائعات عن نية هوليوود إنتاج تتمة لفيلم ذهب مع الريح عقوداً، حتى ١٩٩٤، عندما أنتجت التتمّة أخيراً للتلفاز؛ مبنية على رواية ألكساندرا ريبلي سكارلت، وهي ذاتها تتمة لرواية ميتشل الأصلية. لقي الكتاب والسلسلة القصيرة مراجعات متعددة. في نسخة التلفزيون لعب ممثلون بريطانيون الدورين الرئيسيين: الممثل ويلزي المولد تيموثي دالتون لعب دور ريت، بينما لعبت الممثلة المولودة في مانشستر جوان والي دور سكارلت.

طاقم الفيلم

- **إخراج**
  - ڤيكتور فليمنغ
  - جورج كوكر (لم يُسجل اسمه ، ترك الإنتاج)
  - سام وود (لم يُسجل اسمه ، واصل العمل في غياب فليمنغ)
- **الكتّاب**
  - مرغريت ميتشل (الرواية)
  - سيدني هاوارد (السيناريو)
  - بين هيكت (لم يُسجل اسمه)
  - ديڤد أو . سيلزنيك (لم يُسجل اسمه)
  - جو سوربرلنغ (لم يُسجل اسمه)
  - جون فان دروتن (لم يُسجل اسمه)
- **الممثلون**
  - كلارك غيبل ـ ريت بتلر
  - ڤيڤيان لي ـ سكارلت أوهارا
  - ليزلي هاوارد ـ آشلي ويلكس
  - أوليڤيا دوهاڤيلاند ـ ميلاني هاملتون
  - توماس ميتشل ـ جيرالد أوهارا
  - باربارا أونيل ـ إيلين أوهارا
  - إيڤلين كيز ـ سولين أوهارا
  - آن رذرفورد ـ كارين أوهارا
  - جورج ريڤز ـ ستيوارت تارلتون
  - هاتي مكدانيل ـ مامي
  - أوسكار بولك ـ بورك
  - بترفلي مكوين ـ برسي
  - ڤيكتور جوري ـ جوناس ويلكرسون

o إيفيرت براون ـ بيغ سام
o هاوارد ك . هيكمان ـ جون ويلكس
o أليشيا ريت ـ إنديا ويلكس
o راند بروكس ـ تشارلز هاملتون
o كارول ني ـ فرانك كندي
o كامي كينغ ـ بوني بلو بتلر
o أونا مونسون ـ بيل واتلنغ

● إنتاج

o ديفد أو . سيلزنيك

جوائز الأوسكار

o أفضل فيلم ـ ديفد أو . سيلزنيك ، المنتج
o أفضل ممثلة في دور رئيسي ـ فيفيان لي
o أفضل ممثلة في دور ثانوي ـ هاتي مكدانيل
o أفضل مخرج فني ـ ليل ر . ويلر
o أفضل تصوير سينمائي ملون ـ إرنست هالر وراي ريناهان
o أفضل مخرج ـ فيكتور فليمنغ
o أفضل مونتاج ـ هال . ك . كيرن وجيمس إي . نيوكوم
o أفضل سيناريو ـ سيدني هاوارد
o جائزة تذكارية ـ ويليام كاميرون مينزيس ـ «للإنجاز المذهل في استخدام الألوان لتعزيز الحالة الدرامية في إنتاج ذهب مع الريح (لوحة تذكارية) .
o جائزة الإنجاز التقني ـ دون موسغريف ـ «للريادة في استخدام المعدات في إنتاج ذهب مع الريح» .

الترشيحات

o أفضل ممثل في دور رئيسي ـ كلارك غيبل .
o أفضل ممثلة في دور ثانوي ـ أوليفيا دوهافيلاند

○ أفضل مؤثرات خاصة ـ فريد ألبين (صوت) ، جاك كوسغروف (تصوير) ، وآرثر جونز (صوت)

○ أفضل موسيقى أصلية ـ ماكس شتاينر

○ أفضل تسجيل صوت ـ توماس ت . مولتون

الشخصيات الرئيسية في «ذهب مع الريح»

○ سكارلت أوهارا : هي الشخصية الرئيسية في الرواية ، وهي حسناء ورثت عن أمها المنحدرة من سلالة فرنسية الجمال وورثت عن أبيها الإيرلندي ملامح غليظة وثقيلة .

○ ريت بتلر : هو الشخصية الرئيسية الثانية وهو معجب بسكارلت ومن ثم يصبح زوجها الثالث .

○ آشلي ويلكس : متزوج من ميلاني

○ ميلاني هاملتون ويلكس : زوجة آشلي ، وهي امرأة لطيفة تصبح فيما بعد صديقة سكارلت المقربة

○ مامي : الممرضة التي ترعى سكارلت

○ جيرالد أوهارا : والد سكارلت وهو إيرلندي وصاحب مزرعة تارا

○ إيلين أوهارا : والدة سكارلت

○ سولين وكارين أوهارا : أختا سكارلت الصغيرتان

حقائق عن «ذهب مع الريح»

○ احتوت الرواية على ١٠٣٧ صفحة ، تحولت إلى فيلم سينمائي مدته ٣ ساعات و٤٢ دقيقة .

○ ترجمة الرواية إلى ثلاثين لغة منها اللغة العربية .

○ عند صدورها عام ١٩٣٦ وصل حجم مبيعاتها إلى ٥٠ ألف نسخة في يوم واحد .

○ بمناسبة مرور ربع قرن على صدور الرواية أصدرت الحكومة الأميركية طابعاً تذكارياً .

«ذهب مع الريح» في السينما العربية

في العام ١٩٦٥ أخرج إبراهيم عمارة فيلم «من أحب» المأخوذ عن فيلم «ذهب مع الريح» لڤيكتور فليمنغ، اشتركت الممثلة ماجدة في تمثيل دور البطولة فيه. وإذا تتبعنا مجال المقارنة بين العملين فلن يكون بأي حال لصالح الفيلم المصري. فيلم فليمنغ من أهم وأفضل الأفلام العالمية، وهو عمل كلاسيكي توفرت له كل سبل النجاح. وعند مقارنة شخصية ماجدة في الفيلم فسوف نجد أنها أفقدت سكارلت أوهارا كل تناقضاتها التي تميزت بها: كبرياءها أمام ريت بتلر وضعفها أمام آشلي، وعواطفها الجياشة وبرودها وجمودها، وجاء الصراع بينها وبين منافستها من أجل امتلاك آشلي، ولكن الصراع في الفيلم المصري لم يكن منطقياً، فتحوّل إلى علاقة بين امرأة تحب ورجل لا يعرف ماذا يريد. ولأن السينما المصرية لا تهتم في الكثير من الأحوال بتعميق الصراع الذي يدور في عالم متشابك، فإن هذه العلاقة جاءت مسطحة عند ماجدة التي نقلت أجواء الحرب الأهلية التي دارت في الفيلم الأميركي إلى زمن وباء الكوليرا الذي اجتاح مصر عام ١٩٤٧ ثم قيام ثورة تموز/ يوليو ٥٢ والعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦.



ماجدة «من أحب؟» عن فيلم «ذهب مع الريح»

القسم الأول

1

لم تكن سكارلت أوهارا في الحقيقة فتاة جميلة ، ولكن قلّما كان الرجال يعقلون ذلك حين كانت تفتنهم بسحرها الأخاذ كما افتتنت توأم عائلة تارلتَون . كانت تعابير وجهها العميقة تجمع بين ملامح أمها الرقيقة ، ابنة الساحل الأرستقراطية ، الفرنسية الأصل ، والملامح القوية لوالدها الإيرلندي المتورّد الوجه ، ومع ذلك فقد كان وجهها جذّاباً مدبب الذقن مربع اللحيين ، أما عيناها فكانتا خضراوين شاحبتين من غير صفرة ، تلمعان بنظرات لاسعة كالسياط ، في طرفيهما شيء من الزيغ ، وفوقهما حاجبان أسودان غليظان مائلان إلى الأعلى ومشكّلين خطاً مائلاً مثيراً في بشرة وجهها البيضاء بياض زهرة المانيوليا ، تلك البشرة التي يقدّرها نساء الجنوب كثيراً ويحرصن على المحافظة عليها من شمس جورجيا باتخاذ القبعات والقفازات والستائر .

بعد ظهر ذلك اليوم المشرق من أيام نيسان/ أبريل سنة ١٨٦١ ، بدت سكارلت رائعة وهي تجلس ، وسط التوأم ستيوارت وبرنت تارلتون ، في ظلال الرواق المعتدل البرودة ، في تارا ، مزرعة والدها . كان ثوبها الجديد الأخضر ، المخيط من الموسلين المزهر ، ينشر ياردات الاثنتي عشرة من القماش المواج من طوق كشحيها ، ملائماً كل الملاءمة خفّيها المراكشيين الأخضرين ، اللذين جلبهما لها والدها مؤخراً من أتلانتا . كان هذا الثوب يبرز ، بشكل دقيق تماماً ، خصرها البالغ محيطه أربعين سنتيمتراً تقريباً ، أكثر الخصور نحولاً في الولاية ، كما أن قميصها المحكم القياس كان يبرز ثديين ناهدين عارمي النضوج بالنسبة إلى عمرها الذي لم يتجاوز ستة عشر ربيعاً .

ولكن ، بالرغم من الحشمة التي توحي بها تنورتها الفضفاضة ، والوقار الذي يبديه شعرها المجموع برفق في شبكة خلف رأسها ، والسكينة التي تنبعث من يديها الصغيرتين البيضاوين ، المثنيتين داخل حجرها ، على الرغم من كل تلك المظاهر ، لم تكن حقيقة نفسها لتخفى : فالعينان الخضراوان في وجهها العذب كانتا تشيان بالصخب بالتصلب في الرأي ، بالنهم في الحياة ، تلك الأمور التي

تغاير سلوكها المحتشم تماماً . أما تعليل ذلك فيعود إلى أن تصرّفها كان وليد إرشاد والدتها الرحيمة وتأديب مربيتها الأكثر صرامة . . . وأما عيناها فلم تكونا لتعكسا سوى خصائص فطرية نابعة من ذاتها هي .

كان كل من التوأم يجلس إلى أحد جانبيها ، مسترخياً في كرسيه ، ينظر بمؤخر عينه إلى نور الشمس ، وهو في غمرة الحديث والضحك ، من خلال نظارات طويلة مزركشة ، بينما تشابكت ساقاه الطويلتان ، الغارقتان في جزمتين تبلغان الركبتين ، والغليظتان جراء ركوب الخيل ، باستخفاف ظاهر . كان كل منهما قد بلغ التاسعة عشرة من العمر ، ذا قامة تبلغ حوالى ١٩٠ سم ، مديد العظام ، قوي العضلات ، لوحت حرارة الشمس وجهه ، وكسا رأسه شعر بني أحمر ، أما عيناه فمرحتان تشوبهما نظرات الكبرياء ، وقد ارتدى كلاهما معطفين أزرقين متماثلين ، وسروالين بلون الخردل ، وخلاصة القول إنهما كانا شديدي التشابه كقرني نبتة القطن .

وكان حصانا التوأم مربوطين في الممر الخارجي ، حصانان ضخمان كميّتان ضاربان إلى الحمرة ، كشعر صاحبيهما ، تتنازع حول قوائمهما مجموعة من الكلاب العصبية الهزيلة التي كانت ترافق ستيوارت وبرنت حيثما ذهبا . وعلى مسافة قصيرة ، كان يضطجع كلب جر مرقط بالسواد ، معتزل صحبه اعتزال الأرستقراطي ، مغلف المخالب ، ينتظر بفارغ صبر انصراف سيديه إلى البيت لتناول العشاء .

وبين هذه الكلاب وذينك الحصانين والتوأم ، كانت تقوم صلة وثيقة ، أقوى من علاقة الرفقة الدائمة ، فقد كانوا جميعاً في صحة جيدة ، هانئي البال ، ناعمي الحال ، رشيقي الحركة ، ذوي معنويات عالية ، أما الشابان فكانا شديدي البأس كالحصانين اللذين يركبان ، شديدي المراس خطيرين ، ولكنهما رغم ذلك ، حسنا المعشر مع أولئك الذين يعرفون كيف يعاملونهما .

ولنعد إلى الثلاثة الجالسين في ظلال الرواق ، فهؤلاء رغم أن كلاً منهم ولد وترعرع في رغد حياة المزارع حيث يعتنى بالطفل اعتناء فائقاً منذ مولده ، لم تكن تنطق وجوههم بالخمول أو الخنوثة ، بل كانوا يمتلئون حيوية ونشاطاً ويقظة ، كأولئك القرويين الذين يقضون حياتهم في البرية ، لا يجهدون عقولهم

بمحتويات الكتب المضجرة ، إلاّ في ما ندر .

كانت الحياة في ولاية كلايتون ، بجورجيا الشمالية ، لا تزال حديثة العهد ، فجة قاسية ، إذا ما قيست بالحياة في أوغستا أو سافانا أو شارلستون . وكان أبناء الجنوب ، الذين هم أعرق مدنية وأكثر اتزاناً ، ينظرون بازدراء إلى الجورجيين الشماليين ، إلا أن فقدان طرائف الثقافة الكلاسيكية عند هؤلاء لم يكن ليثير في نفوسهم أي شعور بالنقص ، إذ كان يشترط في الرجل عندهم أن يكون حاذقاً في الأمور التي تهمهم ، والتي كانت تنحصر في إنتاج القطن الجيد ، والمهارة في ركوب الخيل ، والدراية بالرماية ، ثم الرقص بخفة ورشاقة ، ومعاملة السيدات بلباقة ، وتبادل أنخاب الشراب مع الآخرين بأدب واحترام .

وفي كل من هذه الأمور ، كان التوأم متفوقين بارزين كبروزهما في ما شهرا به من عجزهما عن تعلم أي شيء تتضمنّه دفتا كتاب ، إذ على الرغم من أن عائلتهما كانت تملك من المال والخيل والعبيد أكثر مما تملكه أية عائلة أخرى في الولاية ، فإن أبناءها كانوا أقل تعلماً من معظم أبناء جيرانهم «الكريكرز»(*) الفقراء .

ولهذا السبب عينه كان التوأم ، في ذلك المساء من نيسان/ أبريل ، مسترخيين في ظلال الرواق في تارا ، فلم يكن قد مضى على طردهما من جامعة جورجيا إلا زمن يسير ، وكانت رابع جامعة تفصلهما خلال السنتين الأخيرتين . أما أخواهما الكبيران : توم وبويد فقد تركا الجامعة وعادا إلى البيت إذ رفضا البقاء في مؤسسة لم ترحب بشقيقيهما التوأم ، اللذين اعتبرا موضوع طردهما الأخير مجرد فكاهة محبّبة ، وأيدتهما سكارلت في هذه النظرة ، هي التي لم تفتح كتاباً منذ غادرت أكاديمية فايتفيل للإناث في السنة الماضية .

- «أنا أعرف أنكما لا تحفلان بقضية فصلكما من الجامعة ، وكذلك توم . . ولكن ما شأن بويد؟ إنه مندفع للتحصيل العلمي نوعاً ما ، ولقد انتزعتماه من جامعات فرجينيا وألاباما وكارولينا الجنوبية ، وهاكما الآن تضطرانه إلى ترك جامعة جورجيا ، وإذا ما سارت الأمور على هذه الوتيرة ، فلن يستطيع إتمام

(*) اسم أطلق على فئة من فقراء البيض تسكن بعض الأجزاء الجنوبية الشرقية من الولايات المتحدة .

دراسته أبداً .

ـ «بلى . . . باستطاعته دراسة القانون في مكتب القاضي بارملي ، هناك في فايتفيل» ، أجاب برنت دون اكتراث . . . «هذا بالإضافة إلى أن مسألة الجامعة لم تعد ذا بال ، إذ كان علينا ، على كل حال ، الرجوع إلى البيت قبل نهاية الفصل الدراسي» .

ـ «لماذا»؟ .

ـ «الحرب . . . أيتها الوزة ! . . الحرب قد تندلع في أي يوم . . . وأنت بالطبع ، لا تتوقعين بقاء أي منا في الجامعة والحرب قائمة على قدم وساق . . . أليس كذلك؟» .

ـ «أنت تعرف أن الحرب لن تقع» ، أجابت سكارلت منزعجة . . . «وإنما هي مجرد لغو ، كيف لا . . . وفي الأسبوع الماضي بالذات ، أخبر آشلي ويلكس ووالده أبي أن وكلاءنا المفاوضين في واشنطن سيصلون إلى . . . إلى اتفاق ودي مع السيد لنكولن حول مسألة التحالف . . . وعلى كل حال فالشماليون فزعون جداً منا بحيث إنهم لن يحاربوا . . . لن تقع حرب . . . لقد سئمت الحديث عنها» .

ـ «لن تقع حرب !» صاح التوأم ساخطين ، كما لو أنهما طعنا على حين غرة . ثم أردف ستيوارت قائلاً :

ـ «كيف لا . . . ستنشب الحرب حتماً يا عزيزتي . . . قد يكون الجنود الاتحاديون فزعين منا ، ولكن بعد أن طردهم الجنرال بورغارد من قلعة سمتر ، رمياً بالقنابل أول أمس ، لن يكون أمامهم إلاّ أن يحاربوا ، أو أن يحجموا متسمين بالجبن أمام العالم بأسره . . . أما التحالف . . . .» وهنا قاطعته سكارلت برمة جزعة :

ـ «إذا تفوهت بكلمة حرب مرة أخرى فقط ، فسأدخل البيت وأغلق الباب خلفي . . . فأنا لم أضق ذرعاً بكلمة ما في حياتي كضيقي من كلمة الحرب ، اللهم إلا إذا كانت تعني «الانفصال» . . . إن أبي يتحدث عن الحرب في الصباح ، وعند الظهر ، وفي الليل . . . وكذلك الرجال الذين يأتون لزيارته ، جميعهم يتصايحون وهم يتحدثون عن قلعة سمتر . . . وحقوق الولايات وأيب

لنكولن . . . حتى لقد بلغ بي الضيق أشده أن لو أستطيع أن أصرخ في وجوههم . . ثم إن هذا الموضوع عينه هو ما يتحدث عنه الشبان أيضاً . . . عنه وعن فرقتهم العسكرية القديمة . . . حتى خلت جميع حفلات الربيع هذا العام من روح المرح والبهجة . . . فلم يكن للشباب من حديث سوى حديث الحرب .

. . . إنني جد مسرورة لأن ولايتنا جورجيا قد ارجأت عملية الانفصال إلى ما بعد عيد الميلاد ، وإلاّ لأفسدت جميع حفلات العيد . . . احذرا . . . إذا ما ذكرتما كلمة (حرب) مرة ثانية فسأدخل البيت !» .

كانت سكارلت تعني ما تقول ، إذ لم يكن بوسعها احتمال حديث لا تكون هي مداره الرئيسي ، ومع ذلك فحين كانت تتحدث وهي منفعلة كانت تبتسم معمِّقة غمازتي وجهها عن قصد ، مرنقة أهدابها القاسية السوداء ترنيق الفراش لأجنحته . وكما أرادت ، وقع الشابان تحت تأثيرها ، فأسرعا يعتذران عن إغضابها ، دون أن يقلل موقفها اللامبالي من تقديرهما لها ، بل إنما الحقيقة أن هذا التقدير لها قد زاد في نظرهما . . . فالحرب كانت من شؤون الرجال ، لا النساء ، الأمر الذي جعل موقفها شاهداً بليغاً على أنوثتها .

وهكذا بعد نجاح مناورتها في إبعادهما عن موضوع الحرب المزعج ، عادت تتحدث باهتمام عن وضعيهما الحالي :

- «وماذا قالت والدتكما عنكما وقد طردتما هذه المرة أيضاً؟» .

وعلت وجهيهما أمارات القلق ، إذ تذكرا موقف والدتهما في المرة السابقة ، يوم أُعيدا إلى البيت ، منذ ثلاثة أشهر ، بطلب من جامعة فرجينيا .

- حسناً ، أجاب ستيوارت . . . «لم يتح لها بعد أن تقول شيئاً ، فلقد غادرنا البيت برفقة توم في الصباح الباكر ولم تكن قد استيقظت بعد ، أما توم فقد انزوى في بيت آل فونتين ، وأما نحن فقد جئنا هنا» .

- «ألم تقل شيئاً عند وصولكما إلى البيت ليلة أمس؟» .

- «لا ، فقد حالفنا الحظ أمس ، إذ اتفق قبل وصولنا أن كان الحصان الذكر الجديد ، الذي اشترته والدتي من كنتكي ، في الشهر الماضي ، قد جيء به إلى داخل البيت ، فدب الهرج واختلط الحابل بالنابل . . . يا له من وحش

كبير . . . إنه حصان فحل يا سكارلت . . . ينبغي أن تخبري والدك أن يحضر حالاً ويراه . . . لقد نهش قطعة من لحم سائسه وهو في طريقه إلى البيت ، كما أنه داس زنجيين من رفيق والدتي ذهبا للقاء القطار في جونسبورو ، وقبل وصولنا إلى البيت ، كان قد قلب الإصطبل رأساً على عقب ، وكاد أن يقتل ستروبري ، أقدم خيول والدتي ، وعندما دخلنا البيت ، كانت أمي قد خرجت إلى الإصطبل تحمل له كمية كبيرة من السكر لتهدئته وتغذيته ، وبينما كان العبيد يتعلقون بالعوارض الخشبية ، وقد جحظت عيونهم ذعراً وهلعاً منه ، كانت أمي تتحدث إلى الحصان كما لو كان إنساناً وهو يأكل من يدها . ليس في الدنيا من يحسن معاملة الحصان كوالدتي . . . وما إن رأتنا ، وهي على تلك الحالة ، حتى قالت :

ـ «باسم الإلـه ، ماذا أتيتم تعملون في البيت ثانية . . . أنتم الأربعة؟ . . . إنكم أسوأ من طاعون مصر» .

ولكن حدث عندئذ أن بدأ الحصان يصهل ويثب ، فأردفت مسرعة :

ـ «اخرجوا من هنا ، ألا ترون عزيزي الضخم هائجاً؟ . . . سآمر بكم جميعاً صباح غد» .

وهكذا هرعنا إلى أسرّتنا ، وفي هذا الصباح ، أسرعنا بالخروج كيلا تتمكن من ضبطنا ، تاركين بويد يتدبر الأمر معها» .

ـ «وهل تعتقدان أنها ستضرب بويد؟» سألت سكارلت ، التي كانت ، كبقية سكان الولاية ، لم تألف أسلوب القصاص القاسي العنيف ، الذي كانت السيدة الصغيرة تارلتون تتبعه مع أبنائها الكبار ، فتحملهم الغلال التي تنقل بالعربات على ظهورهم إذا ما اقتضتها الضرورة إلى ذلك .

كانت بياتريس تارلتون امرأة نشيطة ، فبالإضافة إلى كونها مسؤولة عن مزرعة القطن الكبيرة ، ذات المائة زنجي ، والثمانية أطفال ، فإنها أيضاً كانت تشرف على أكبر مزرعة لتربية الخيول في الولاية ، وكأن ذلك قد جعل منها امرأة حادة الطبع ، تثور بسرعة ، عند زلات أولادها الأربعة المتكررة ، ورغم أنها كانت تمانع في جلد أي حصان أو عبد فإنها كانت تعتقد بأن ضربة توجه بين الفينة والأخرى ، لأحد أبنائها ، لم تكن لتؤذيه أبداً .

ـ «طبعاً لن تضرب بويد ، ولم يحدث أن ضربته كثيراً ، لأنه أكبرنا سناً وأصغرنا حجماً قال ستيوارت ذلك فخوراً بقامته الطويلة البالغة ١٩٠ سم ، ثم أردف «هذا ما دعانا إلى أن نبقيه في البيت ، ليوضح لها الأمور . . . يا لله العظيم . . . ينبغي أن تكف والدتنا عن ضربنا ! لقد بلغنا التاسعة عشرة ، ويلغ توم الواحدة والعشرين ، ومع ذلك فهي تعاملنا كما لو أننا في السادسة من العمر» .

ـ «وهل ستمتطي والدتك حصانها الجديد إلى حفل الشواء عند آل ويلكس غداً؟» .

ـ «إنها تريد امتطاءه ، غير أني أعتقد أن ذلك خطر جداً . وعلى كل حال ، لن تدعها الوصيفات تفعل ذلك ، إذ أعلن عن عزمهن على أن يجعلنها تذهب بالعربة ، ولو إلى حفلة واحدة ، كما تفعل السيدات الأخريات .

ـ «أرجو أن لا تمطر غداً» . قالت سكارلت ، ثم تابعت القول : «فمنذ أسبوع والمطر ينهمر كل يوم ، وليس أسوأ من حفلة شواء عندما تتحول إلى وليمة داخل الجدران» .

ـ «آه . . . ستصفو السماء غداً وترتفع الحرارة كأيام حزيران/ يونيو» أجاب ستيوارت ، «انظري إلى الغروب ، لم أر غروباً أشد احمراراً منه ، ومن الممكن دائماً أن يتنبأ المرء بما سيكون عليه الجو من لون الغروب» . فنظر ثلاثتهم نحو الأفق القاني ، عبر فدادين القطن الشاسعة ، المحروثة حديثاً ، والتي تخص جيرالد أوهارا والد سكارلت .

وأحس الجميع أن دفء شهر نيسان/ أبريل أخذ يتلاشى متحولاً إلى برودة خفيفة ، ولكنها منعشة ، بعد أن راحت الشمس تغيب وراء التلال عبر نهر فلنت ، وقد شيبت أضواؤها بلون قرمزي .

فجأة طرق مسامع الثلاثة ، الجالسين في الرواق ، صوت حوافز البغال ، تتخلله جلجلة سلاسلها المعدنية ، وتخترقه ضحكات الزنوج الحادة المستهترة وهم عائدون مع البغال من الحقول . ثم تهادى صوت والدة سكارلت الناعم ، إيلين أوهارا ، صادراً من داخل البيت ، داعياً الزنجية الصغيرة ، التي كانت تحمل حقيبة المفاتيح ، والتي أجابت بصوت طفلي زاعق «أمرك يا سيدة» وفي الوقت

ذاته كان يسمع وقع أقدام ، متجهة فوق الطريق الخلفية ، إلى مطبخ المزرعة ، حيث ستوزع إيلين الطعام على العمال العائدين إلى البيت . وعندما راح بورك ، خادم المائدة في تارا ، يعد مائدة العشاء ، علت قرقعة الصحاف الصينية ، جنباً إلى جنب ، مع صليل الأدوات الفضية ، وما إن لامست هذه الأصوات مسامع التوأم ، حتى أدركا أن وقت مغادرتهما إلى البيت قد حان ، ولكنهما كانا خائفين من مواجهة أمهما ، فتوانيا داخل الرواق ، يتوقعان بين اللحظة والأخرى ، أن تدعوهما سكارلت لتناول العشاء .

ـ «انتبهي يا سكارلت» ، قال برنت ، «في ما يتعلق بالغد ، لن يكون غيابنا وعدم علمنا بحفلة الشواء والرقص سبباً يمنعنا من الرقص كثيراً مساء . أنت بالطبع لم تعديهم جميعاً . . أليس كذلك؟» .

ـ «نعم! وعدتهم . . . إذ كيف يمكنني أن أعرف أنكم جميعاً عائدون إلى البيت ، لم يسعني المغامرة والبقاء كزهرة مهملة بانتظار قدومكما» .

ـ «أنت زهرة مهملة؟» وانفجر الاثنان بقهقهة مدوية ، ثم أردف برنت : «يا جميلتي ، ينبغي أن تمنحيني رقصة الولتز الأولى ، وتكرسي الرقصة الأخيرة لستيوارت ، كما ينبغي أن تتناولي العشاء معنا ، ومن ثم سوف نجلس على مصطبة الدرج ، كما فعلنا في حفلة الرقص الأخيرة ، ثم نستدعي «مامي»(*) جنسي لتنبئنا عن حظوظنا» .

ـ «أنا لا أحب نبوءات مامي جنسي ، فأنتما تعلمان ما قالته من أني سأتزوج بشاب ذي شعر أسود فاحم وشارب أسود طويل ، في الوقت الذي أمقت فيه هذا النوع من الرجال» .

ـ «إنك تحبين ذوي الشعر الأحمر ، أليس كذلك يا حلوتي؟» . . . قال برنت بابتسامة ساخرة ، ثم أردف : «والآن . . . هيا ، عدينا بكل الرقصات وبالعشاء معنا» .

ـ «إذا ما وعدتنا بذلك ، فسنخبرك بسرّ» . قال ستيوارت .

ـ «ماذا؟» صاحب سكارلت ، وقد أثارتها العبارة كطفلة صغيرة .

(*) كلمة تعني الأم في الأصل ، ثم صارت تطلق على المرأة الزنجية التي تعتني بأطفال الأسر الأميركية البيضاء في ولايات أميركا الجنوبية .

ـ «الأمر الذي سمعناه في أتلانتا أمس يا ستيوارت؟ إذا كان ذلك فاذكر أننا قطعنا على أنفسنا عهداً بعدم إفشائه» .

ـ «حسناً . . . الآنسة بيتي أخبرتنا» .

ـ «الآنسة مَن؟» .

ـ «أنت تعرفينها ، ابنة عمن آشلي ويلكس ، التي تعيش في أتلانتا ، الآنسة بيتي بات هاملتون . . . عمة تشارلز وميلاني هاملتون» .

ـ «أعرفها ، ولم أعرف عجوزاً أغبى منها في حياتي» .

ـ «على كل حال ، أمس ونحن في أتلانتا ننتظر القطار الذي سيحملنا إلى البيت مرت بعربتها أمام المحطة ، فأوقفتها لتتحدث إلينا ، وأخبرتنا أن نبأ خطوبة سيعلن في ليلة الغد في أثناء حفلة الرقص عند آل ويلكس» .

ـ ها . . . عندي علم بذلك ، قالت سكارلت بلهجة تنم عن الخيبة . . . ابن أخيها ، ذلك الأحمق شارلي هاملتون ، على هوني ويلكس . . . كل إنسان يعرف منذ سنين أنهما سيتزوج أحدهما الآخر ذات يوم ، رغم أن شارلي يظهر نوعاً من الفتور نحو هذا الزواج .

ـ هل تعتقدين أنه أحمق؟ سأل برنت . . . ولكنك تركته في عيد الميلاد المنصرم يهمس في أذنك كلاماً كثيراً .

ـ لم تكن لي مندوحة عن ذلك ، أجابت سكارلت وهي تهز كتفيها دون اكتراث . . . يبدو أنه شاب في غاية التخنث .

ـ ومع ذلك ، فليست خطوبته هي التي ستعلن ، قال ستيوارت وهو يشعر بالظفر ، إنها خطوبة آشلي على شقيقة شارلي ، الآنسة ميلاني .

وابيضت شفتا سكارلت شحوباً ، رغم أن وجهها لم يمتقع لونه . كانت كمن يتلقى ضربة شديدة دون سابق إنذار ، فلا يدرك في اللحظات الأولى التي تلي الصدمة حقيقة ما حدث ، ولذا احتفظ وجهها بطمأنينته وهي تحملق في ستيوارت ، ما حدا به ، وهو الذي لم يعتد تحليل الأمور ، إلى الاعتقاد بأن النبأ لم يثر فيها أكثر من الدهشة والاهتمام الشديد .

ـ وأخبرتنا الآنسة بيتي أيضاً أنهم كانوا قد قرروا إرجاء الخطوبة حتى السنة القادمة نظراً لأن الآنسة ميلاني ليست في صحة جيدة ، ولكن أحاديث الحرب

المتواترة جعلت كلاً من أفراد العائلتين يعتقد أن من الأفضل إتمام الزواج حالاً ، ولذا تقرر إعلان الخطوبة في مساء الغد ، في أثناء فترة العشاء . والآن يا سكارلت ، لقد أطلعناك على السر ، فواجبك إذاً أن تعدينا بتناول العشاء معنا .

ـ طبعاً ، سأتناوله معكما .

ـ وبكل الرقصات أيضاً؟

ـ كلها .

ـ إنك جميلة رائعة ! أراهن أن الشبان الآخرين سيطيشون جنوناً .

ـ «دعهم بجنون» ، قال برنت . . . «فباستطاعتنا تدبير أمرهم . . . انتبهي يا سكارلت ، اجلسي معنا في أثناء حفلة الشواء غداً» .

ـ ماذا؟

وكرر ستيوارت رجاءه ، فأجابت :

ـ طبعاً .

وتبادل الأخوان نظرات فرح تشوبها بعض الدهشة ، إذ رغم أنهما كانا يعتبران أنفسهما المرشحين المحظيين للتزوج بها ، إلا أنه لم يتفق لهما أن نعما بمظاهر هذه الحظوة بمثل هذه السهولة ، إذ كانت قد عوّدتهما على التوسّل والاستعطاف وهي تعرض عنهما ، دون أن تنبس بكلمة لا أو نعم ، كانت تضحك إذا ما تجهّما ، وتتجالد إذا غضبا ، فما بالها الآن تعدهما عملياً بكل غدها . . . بالجلوس إلى جانبهما في حفلة الشواء ، بكل الرقصات (وقد حرصا على أن تكون جميعها من رقصات الولتز) وبالعشاء . . . إن هذه المكاسب لتعوض دون شك عن خسارة فصلهما عن الجامعة .

وهكذا راح التوأم ، وقد أفعمت روحيهما حماسة الظفر ، يتوانيان ويستطردان في التحدث عن الحفلة والرقص ، وعن آشلي ويلكس وميلاني هاملتون ، يقاطع كل منهما الآخر ، ويبتدعان الفكاهات ويضحكان من جرائها ، ملمحين بصراحة بدعوتهما للعشاء . ومضى وقت ليس باليسير ، قبل أن ينتبها إلى أن سكارلت لم يكن لها ما تقوله غير القليل ، وأن جو الجلسة قد تغيّر نوعاً ما ، ولكن كيف؟ هذا ما لم يعرفه الأخوان ، وكل ما لحظاه أن حرارة الأصيل البديعة المحببة قد غادرتهم ، وأن سكارلت تعير حديثهما قليلاً من

انتباهها ، رغم إجاباتها الصائبة . وعندئذ ، وبعد تحسسهما ذلك الشعور الذي لم يفهما كنهه ، والذي حيّرهما وأزعجهما ، جاهدا للاستمرار في الجلوس برهة قصيرة ، ثم نهضا مكرهين ، وكل منهما ينظر إلى ساعة يده .

كانت الشمس قد تسللت عبر الحقول الحديثة الحرث ، وأخذت أشجار الغابات الباسقة ، خلف النهر ، تلوح سوداء للوهلة الأولى ، بينما غدت سنونو المداخن تندفع سريعة كالسهام عبر الساحة ، أما الدجاج والبط والديوك الرومية ، فكانت تتخطر وتتهادى هائمة وهي في طريق عودتها من الحقل .

وصاح ستيوارت فجأة : «جيمس» .

وما هي إلا ثوان حتى اندفع شاب مديد القامة أسود ، يناهزهما سناً ، مسرعاً حول البيت ، ثم خارجاً إلى حيث ربط الحصانان . كان جيمس هذا خادمهما الخاص ، يرافقهما حيثما ذهبا ، كالكلاب تماماً . لقد كان في البدء زميل اللعب في طفولتهما ، ثم قدم لهما هدية في عيد ميلادهما العاشر . وما إن رأته كلاب التوأم حتى نهضت من فوق التراب الأحمر ، ووقفت تنتظر متوقعة قدوم صاحبيها اللذين انحنيا وصافحا سكارلت ، قائلين إنهما سيكونان بانتظارها في بيت عائلة ويلكس ، في ساعة مبكرة من الصباح ، ثم اندفعا فوق الممشى مسرعين ، وامتطيا حصانيهما ، يتبعهما جيمس ، وانحدرا خبباً في الطريق الواسع المكتنف بأشجار الأرز من كلا جانبيه ، وهما يودعان سكارلت ويلوّحان لها بقبعتيهما .

وعندما انتهى التوأم من الدوران حول منعطف الطريق المغبرة التي حجبتهما عن تارا ، أوقف برنت حصانه وتبعه ستيوارت ، بينما انسحب الخادم الأسود إلى بعد خطوات قليلة خلفهما . وما إن شعر الحصانان باسترخاء عنانيهما ، حتى مدا عنقيهما سفلاً يجزان عشب الربيع الطري ، بينما ربضت الكلاب الصبورة ثانية فوق التربة الحمراء الناعمة ، تتطلع بشوق إلى سنونو المداخن المحلق في ثنايا الغسق المتجمع .

وتكلم برنت ، ووجهه العريض الذي ينم عن الذكاء ينطق بالحيرة المشوبة بالسخط ، قال :

- انتبه ، ألم يبدُ لك كما لو أنها كانت تريد دعوتنا للعشاء؟

- ظننت أنها سوف تفعل ذلك ، وقد انتظرت حتى تنطق بالدعوة ، ولكنها

لم تفعل ، ماذا تستنتج من ذلك؟

ـ لا شيء ، إنما يبدو لي كأنها كانت ترغب في ذلك ، ولا سيما أن هذا هو يوم عودتنا الأول ، وهي لم ترنا منذ زمن ، كما أن بجعبتنا الكثير لنخبرها به !

ـ والذي ظهر لي أنها كانت مسرورة جداً عندما رأتنا قادمين .

ـ هذا ما اعتقدته أيضاً .

ـ ومن ثم ، وقبيل نصف ساعة فقط ، انتابها نوع من السكينة كما لو أن صداعاً أصابها .

ـ لقد لاحظت ذلك ، ولكني لم أعره أي اهتمام آنذاك . ما الذي آلمها في اعتقادك؟

ـ لا أدري . هل تعتقد أننا تكلمنا ببعض ما أفقدها صوابها؟

وفكر الاثنان لحظات .

ـ لا أظن ، هذا بالإضافة إلى أن سكارلت حين تفقد صوابها يدرك ذلك كل إنسان ، فهي لا تكبح جماح غضبها كما تفعل بعض الفتيات .

ـ نعم ، وهذا ما أحبه فيها ، فهي لا تراوغ متجلدة حاقدة ، إذا ما ثارت وفقدت أعصابها ، وإنما تصارحك بالأمر . . . ولكن لا بد أننا ارتكبنا خطأ أو قلنا شيئاً ، جعلها تلوذ بالصمت وتبدو كأنها مريضة ، وبوسعي أن أقسم أنها سرت بزيارتنا ، وأنها كانت تريد دعوتنا للعشاء .

ـ ألا تظن أن فصلنا من الجامعة ربما كان سبب ذلك؟

ـ يا للجحيم ! لا ! لا تكن أحمق . فقد ضحكت كعادتها عندما أخبرناها بقضية الفصل ، ثم إن سكارلت لا تعلق على التعلم من الكتب أهمية أكثر مما نعلق نحن .

ثم التفت برنت وهو فوق سرجه ، ونادى السائس الأسود :

ـ جيمس !

ـ سيدي .

ـ هل سمعت عما كنّا نتحدث والآنسة سكارلت؟

ـ لا يا سيدي برنت ، كيف خطر لك أن تفكر أني أتجسس على الناس البيض؟

ـ تتجسس ! يا إلــهي ! أنتم السود تعرفون كل ما يدور حولكم . . .

. . . أيها الكذاب . . . لقد رأيتك بأم عيني تتسكع حول زاوية الرواق وتجلس القرفصاء خلف شجيرة الياسمين ، بجانب الحائط . والآن ، هل سمعتنا نتفوه بشيء يمكن أن يكون أفقد الآنسة سكارلت صوابها ، أو آذى شعورها؟

ونتيجة لهذا الالتماس أحجم جيمس عن الإغراق في التظاهر بعدم استماعه للحديث ، فقطب جبينه وقال :

ـ لا يا سيدي ، لم أسمع أنكما تحدثتما بأي أمر يمكن أن يثيرها ، بل ظهر لي أنها كانت مسرورة برؤيتكما ، كما لو أنها قد افتقدتكما قبلاً ، وقد بقيت مرحة كطائر مغرد ، إلى أن رحتما تتحدثان عن السيد آشلي والآنسة ميلي هاملتون ، وعن زواجهما ، عندئذ سكنت كعصفور حلق الصقر فوقه .

فتبادل التوأم النظرات ، وأطرقا رأسيهما بالموافقة . ثم قال ستيوارت :

ـ جيمس على صواب ، رغم أنني لم أستطع إدراك السبب . . . يا إلـهي ! إن آشلي لا يعني شيئاً بالنسبة إليها ، إنه مجرد صديق ، فهي ليست متيمة به ، وإنما هي متيمة بنا نحن .

فأطرق برنت موافقاً ، ثم قال :

ـ ولكن هل تظن أن من المحتمل ألاّ يكون آشلي قد أخبرها أن خطوبته ستعلن ليلة الغد ، فثارت عليه لعمله ذاك ، وهي صديقته القديمة التي يجب إخبارها قبل أي شخص آخر؟ البنات يعلقن أهمية كبيرة على معرفة أنباء كهذه قبل غيرهن .

ـ حسناً ، ربما كان الأمر كذلك ، ولكن ماذا لو لم يخبرها بأن خطوبته ستتم غداً؟ فالمفروض أن يبقى الأمر سراً ومفاجئاً ، وللرجل الحق في أن يحتفظ بأمر خطوبته دون ضجيج ، ونحن ، هل كان لنا أن نعلم بالأمر لو لم تفشه عمة الآنسة ميلي . كان ينبغي لسكارلت أن تعرف أنه سيتزوج بميلي ذات يوم ، كيف لا . . . فنحن نعرف ذلك منذ سنين . إن أفراد آل ويلكس وآل هاملتون يتزوجون دائماً ببنات أعمامهم ، ولذلك ، فكل إنسان كان يعرف أن من المحتمل أن يتزوجا يوماً ما ، تماماً كما ستتزوج هوني ويلكس من شقيق الآنسة ميلي ، شارلي .

ـ حسناً ، لقد سلمت بهذا الرأي ، ولكني آسف لأنها لم تدعنا للعشاء . وأقسم لك أني لا أرغب في الذهاب ، إلى البيت والإصغاء إلى أمي وهي

تسترسل في موضوع طردنا ، ألا تشعر كما لو أنها المرة الأولى التي نطرد فيها؟

ـ من الممكن أن يكون بويد قد هدأ ثائرتها الآن ، فأنت تعرف أي محدث لَسِن هو ذاك الشقي ، وكيف ينجح دائماً في تهدئة ثورتها .

ـ حقاً ، بإمكانه ذلك ، ولكنه يستغرق وقتاً طويلاً ، فعليه أن يداور ويراوغ ، حتى يلتبس الأمر على والدتنا ، وتستسلم طالبة منه أن يوفر صوته للتدرب على المرافعات القضائية ، وأظن أنه لم يتسن له الوقت للآن حتى ينتهز المبادرة الطيبة ، إذ إنني على يقين من أن أمّنا ما زالت مضطربة الفكر حول الحصان الجديد ، بحيث أنه لن يتاح لها أن تتحقق أمر عودتنا إلى البيت إلاّ عندما تجلس لتناول العشاء مساء اليوم ، وتشاهد بويد ، وما إن يشارف العشاء على النهاية حتى تكون قد ثارت وأخذت تنفث الحمم حانقة غضبى ، ولن تسنح الفرصة أمام بويد قبل العاشرة ليلاً كيما ينبئها بأنه لم يكن من المشرف لأي منا أن يستمر في الجامعة ، بعد الأسلوب الفظ الذي اتبعه العميد في حديثه مع كلينا ، فإذا تم لبويد ذلك ، فلن ينجح في قلب وجهة نظرها ، وتبديل موقفها ، حتى تثور على العميد ثورة ناقمة ، بحيث تسأل بويد لماذا تقاعس عن إطلاق النار عليه . . . لن ينجح بويد في بلوغ تلك النقطة المطلوبة قبيل أن يكون الليل قد انتصف . . . إننا لن نتمكن من الذهاب إلى البيت إلاّ بعد منتصف الليل .

وتبادل التوأم النظرات الكئيبة . كانا لا يخافان الخيول البرية أبداً ، وكانا يتعمدان الشغب والمشاجرات وإثارة سخط الجيران ، ولكنهما رغم ذلك كانا يخافان جداً من تعنيف أمهما ، ذات الشعر الأحمر ، ومن أكياس المحاصيل التي لا تتورع عن تحميلهما إياها .

ـ حسناً ، فلنذهب مباشرة إلى بيت آل ويلكس ، قال ذلك برنت ، ثم أردف : سيسر آشلي والبنات إذا ما تناولنا العشاء معهم .

وبدا على ستيوارت أنه غير مرتاح كثيراً للفكرة . . .

ـ لا ، لا تدعنا نذهب هنالك ، فهم الآن في هرج ومرج ، استعداداً للحفلة غداً ، هذا بالإضافة إلى . . .

ـ آه ، لقد نسيت ذلك ، قال برنت مستدركاً . لا . . لا تدعنا نذهب هنالك .

وهمزا حصانيهما ، وسارا صامتين لبرهة قصيرة ، وقد كست وجنتي

ستيوارت حمرة الانفعال ، فحتى الصيف الماضي كان مستمراً في معاشرة إنديا ويلكس بموافقة عائلتيهما واستحسان أهل الولاية جميعاً ، أولئك الذين اعتقدوا أن مسكنة إنديا وغنى نفسها ، يمكن أن يؤثرا في ترويض خلقه ، الأمر الذي كانوا يرجون حدوثه بلهفة ، وبأي ثمن . وكان من المحتمل أن يستمر ستيوارت حتى نهاية الشوط لولا أن برنت لم يكن راضياً ، إذ رغم مودته لإنديا ، كان يراها في منتهى السذاجة والاستكانة ، أي أنه بكل صراحة ، لا يمكن أن يقع في حبها ، كي يتمكن من الحفاظ على رفقة ستيوارت . وكانت هذه هي المرة الأولى التي تتنافر فيها ميول التوأم ، حيث استاء برنت لاهتمام أخيه بفتاة لا يراها هو جديرة بالاعتبار أبداً .

واتفق بعد ذلك ، في الصيف الماضي في أثناء محاضرة سياسية داخل حديقة ، في جونسبورو ، أن أخذ كلا التوأم فجأة بشخص سكارلت أوهارا . لقد كانا يعرفانها منذ سنين ، فمنذ عهد الطفولة كانت زميلة اللعب الحميمة ، نظراً لمقدرتها الشبيهة بمقدرتهما على ركوب الخيل وتسلق الأشجار . أما الآن فقد غدت شابة يافعة ، بل لقد غدت أروع فتيات الدنيا سحراً وتأثيراً ، الأمر الذي أذهلهما .

كان ذلك اليوم يوماً بارزاً في حياتهما ، وفيما بعد ، عندما كانا يسترجعان أحداثه وأحاديثه ، كانا يتساءلان دوماً كيف لم ينجحا في اكتشاف مفاتن سكارلت قبل ذلك اليوم؟ ولكنهما لم يتوصلا إلى الجواب الصحيح ، ذلك الجواب الذي سينحصر في أن سكارلت نفسها كانت قد عزمت على التصدي لهما بمفاتنها في ذلك اليوم ، إذ لم يكن بمقدورها ، بدافع من طبعها الأصيل ، أن تحتمل رؤية إنسان متيم بفتاة غيرها ، لذلك كان منظر إنديا ويلكس بصحبة ستيوارت في أثناء المحاضرة أكثر مما تستطيع طبيعتها الضارية السكوت عنه ، ولم تكتف بفتن ستيوارت وحده ، بل تصدت لبرنت أيضاً بمهارة وإتقان غمر مفعولهما كلا التوأم .

والآن ، لقد وقع الاثنان في حبها ، وهبطت إلى الحضيض من تفكيرهما مكانة كل من إنديا ويلكس وليتي مونرو اللوفجويية ، التي كان برنت يعاشرها بشيء من العاطفة القلبية . ولكن ، ماذا سيفعل الخاسر إذا ما اختارت سكارلت

أحدهما؟ هذا ما لم يكترث له التوأم ، إذ اعتقدا أنهما سيجتازان تلك العقبة في حينها ، والمهم أنهما في الوقت الحاضر ، مقتنعان أيما اقتناع بأن يكونا على وفاق مرة ثانية ، حين يهيمان بفتاة واحدة ، ولا سيما أنه لا أثر للتحاسد بينهما . وهكذا كان ، وقامت العلاقة بين الثلاثة ، تلك العلاقة التي أثارت اهتمام الجيران ، ولكنها أقلقت والدتهما التي لم تكن لتحب سكارلت ، والتي قالت عنها مرة :

ـ «سيخدمكما الحظ تماماً إذا ما رضيت تلك الفتاة الخبيثة بأحدكما . ومن يدري ، فربما قبلت كليكما معاً ، وفي هذه الحالة ، ستضطران للسفر إلى أوتا إن قبلكم آل مورمون ، الأمر الذي أشك فيه . . . كل ما أخشاه ويزعجني هو أن تستبد بكما الخمرة ذات يوم ، ويدب بينكما الحسد على تلك الدمية الصغيرة ، الخضراء العينين ، ذات الوجهين ، فتطلقا النار الواحد على الآخر ، ومهما يكن من أمر ، فقد لا تكون تلك الفكرة سيئة أيضاً» .

ومنذ يوم المحاضرة ، أضحى ستيوارت يشعر بالضيق في أثناء وجود إنديا ، ليس ذلك لأنها أنبته أو لمحت بالإشارة أو بالعين إلى معرفتها بتحول وداده المفاجئ ، لا ، هي لم تفعل ذلك ، فقد كانت على جانب كبير من الاتزان ، وإنما لأنه كان يشعر بالإثم والقلق وهو معها . كان يعرف أنه هو الذي أوقعها في حبه ، ويعرف أنها لا تزال تحبه ، وكان يحس في أعماق قلبه أنه لم يتصرف تصرف السيد المحترم . والواقع أنه كان لا يزال يودّها للغاية ، ويحترمها لتربيتها الصالحة الرصينة ولعلمها ، ولجميع الصفات الطيبة الخالصة التي تتمتع بها ، ولكن ، قاتل الله الشيطان ، إنها دائماً شاحبة ، لا تثير الإعجاب ، دوماً على وتيرة واحدة ، فأين هي من سكارلت ذات الفتنة الوضاءة المتجددة أبداً . إنك تعرف دائماً أين أنت وأنت مع إنديا ، بينما تقف مشدوهاً مأخوذاً وأنت مع سكارلت ، ورغم أن هذا يكفي كي يذهل الإنسان ويحيره ، إلا أن له سحره وفتنته .

ـ «إذاً ، دعنا نذهب إلى منزل كيد كالفرت ونتناول العشاء هنالك ، لقد سمعت سكارلت تقول إن كاثلين قد عادت من شارلستون ، ربما كان بجعبتها بعض الأخبار التي لم نسمع بها عن قلعة سمتر» .

ـ «ليس ذلك من عادة كاثلين . إنني أراهنك على أنها لا تعرف حتى عن

وجود القلعة خارجاً في الميناء ، وتعرف أقل من ذلك بكثير عن أنها كانت ملأى بالجنود الاتحاديين قبل أن أخرجناهم بالقنابل . إن كل ما تعرفه لا يتعدى حفلات الرقص التي حضرتها والعشاق المعجبين الذين جمعتهم حولها» .

- «حسناً ، من المبهج سماع مغامراتها . والآن لنتخذ مأوى نتوارى فيه حتى تكون والدتنا قد أوت إلى فراشها» .

- لا بأس ، ليكن ذلك ، فأنا أحب كاثلين ، وهي مسلية ، كما أحب أن أسمع عن كارورت ، وبقية الجماعة في شارلستون ، ولكن ، ليلعنني الله ، إذا كان بوسعي أن أظل جالساً طيلة وجبة طعام أخرى مع تلك الشمالية ، زوجة أبيها» .

- «لا تقس عليها كثيراً يا ستيوارت ، فهي تقصد خيراً» .

- «أنا لا أقسو عليها ، إنما أشفق عليها ، ولا أحب من الناس من أشعر بالشفقة من أجلهم ، ثم إنها تلهج وتضج كثيراً ، محاولة أن تأتي بالصواب لتشعرك أنك في بيتك الخاص ، ولكن الذي يحدث هو أنها تفعل العكس تماماً قولاً وعملاً . إني أضيق بها ذرعاً . إنها تعتقد أن الجنوبيين برابرة متوحشون ، فقد صرحت بذلك لوالدتنا ، إنها تخاف الجنوبيين ، وكلما تكون في زيارتهم ، كلما يظهر عليها الفزع حتى الموت ، فأتصورها دجاجة هزيلة رابضة فوق كرسي ، وقد برقت عيناها ببريق الفزع والجبن واستعدت للقفز والزعيق ، عند أدنى حركة تصدر من أحد الحاضرين» .

- «لا بأس ، ولكن ليس بإمكانك أن تلومها في ذلك ، أفلم تطلق النار على ساق كيد؟» .

- «كنت مخموراً وإلاّ لما أطلقتها» ، «ثم إن كيد نفسه لم يحمل لي أي شعور بالعداء ، وكذلك كاثلين وريفورد والسيد كالفرت ، فقط تلك الشمالية ، زوجة الأب ، التي صرخت قائلة إني بربري متوحش ، وإن الناس الطيبين لا يأمنون على أنفسهم في جوار الجنوبيين غير المتحضرين» .

- «ومع ذلك ، لا يمكنك أن تلومها ، فهي شمالية ، وليست على خلق حسن ، إضافة إلى أنك أصبت لها كيد ، وهو ابن زوجها» .

- يا للجحيم ، ليس في ذلك ما يسوغ إهانتي ، أنت ابن شرعي لماما ، فهل ثارت يوم أصابك طوني فونتين في ساقك؟ لا ، إن كلما فعلته هو أنها

استدعت الطبيب العجوز فونتين ليضمد الجراح ، واستفسرت منه عن مدى الألم ، ثم قالت إنها تعتقد أن الخمرة قد أفسدت رجولة طوني . تذكر كم كان أثر ذلك الموقف في طوني الذي كاد أن يجن .

وانفجر التوأم ضاحكين ، ثم قال برنت باستحسان محبب :

ـ «إن ماما كورقة اللعب ، فبإمكانك أن تعتمد عليها دائماً لعمل الشيء الصائب ، دون أن تجرح شعورك أمام الناس» .

ـ «نعم ، ولكن من المحتمل جداً أن تجرح شعورك أمام أبيك وأمام البنات ، وذلك عندما نعود إلى البيت هذه الليلة» أجاب ستيوارت مكتئباً . ثم أردف :

ـ «انتبه يا برنت ، أظن أن النتيجة ستكون عدم سفرنا إلى أوروبا ، فأنت تذكر أن أمنا قالت إنه إذا ما طردنا من كلية أخرى فستحرمنا من رحلتنا» .

ـ «يا للجحيم . . . لن نبالي . . . أليس كذلك؟ . . . وماذا هنالك مما يستحق الرؤية في أوروبا؟ أنا أراهن أن ليس باستطاعة أولئك الأجانب أن يرونا شيئاً لا نملك مثله هنا ، في جورجيا ، أراهن أن خيلهم ليست سريعة كخيلنا ، وأن بناتهم لسن جميلات كبناتنا» .

ـ «يقول آشلي ويلكس إن عندهم الكثير جداً من المشاهد الطبيعية ومن الموسيقى . ولقد أحب آشلي أوروبا ، فتراه دائم التحدث عنها» .

ـ «حسناً ، أنت تعرف طبيعة آل ويلكس ، هؤلاء . إنهم مولعون إلى حد الغرابة بالموسيقى والكتب والمناظر الجميلة ، وتعزو والدتك ذلك إلى أن جدودهم قد قدموا من فرجينيا ، وتقول إن الفرجينيين يعلقون أهمية كبرى على مثل هذه الأمور» .

ـ «باستطاعتهم الحصول عليها . . . أعطني حصاناً جيداً للركوب ، وخمراً جيداً للشرب ، وفتاة رائعة للمعاشرة ، وأخرى غبية للتفكهة ، وعندئذ بإمكان كل إنسان أن يتمتع بما في أوروبا . . . ماذا يهمنا من خسارة الرحلة؟ ولنفرض أننا في أوروبا الآن ، والحرب مقبلة ، فلن نستطيع العودة سريعاً . . . إنني أفضل كثيراً أن أذهب إلى الحرب على أن أذهب إلى أوروبا» .

ـ «أنا أيضاً . . . في أي وقت كان ذلك . . . اسمع يا برنت ، عرفت أين يمكننا الذهاب للعشاء ، دعنا نركب عبر المستنقع إلى مقر إيبل ويندر ، ونخبره أننا نحن الأربعة قد عدنا إلى البيت ثانية ، وأننا على استعداد للتدرب» .

ـ «تلك فكرة صائبة» صاح برنت بحماسة ، «وهنالك يمكننا أن نسمع جميع أخبار الفرقة ، ونكتشف أي لون قد قرروه نهائياً للبذلات الرسمية» .

ـ «إن كان كلون بذلات المتطوعين فليلعنني الله إذا التحقت بالفرقة ، إذ أشعر كأني مخنث بتلك السراويل الحمراء الفضفاضة ، وهي بنظري أشبه ما تكون بسراويل النساء الصوفية الحمراء» .

ـ «هل تقصدان الذهاب إلى بيت السيد ويندر؟ إذا كنتما تنويان ذلك فلن تحصلا على عشاء كاف» قال ذلك جيمس ، ثم تابع : «لقد توفي طباخهم ، ولم يبتاعوا آخر جديداً ، بل أحضروا عاملة مطبخ فاشلة ، وقد أخبرني الزنوج أنها أسوأ طباخة في كل الولاية» .

ـ «يا إلـــهي العظيم . . . ولماذا لم يبتاعوا طباخاً آخر؟» .

ـ «وكيف يستطيع رجل أبيض حقير فقير أن يبتاع حتى زنجيّاً واحداً . . .؟ إن أمثاله لم يملكوا نقوداً لشراء الرقيق في أحسن أحوالهم» .

أجاب جيمس ، وفي صوته ما ينم عن ازدراء صريح ، فقد كانت منزلته الاجتماعية مضمونة ، نظراً لأن آل تارلتون يملكون مائة زنجي ، وككل عبيد المزارعين الكبار ، كان يزدري المزارعين الصغار الذين لا يملكون إلا القليل من الرقيق .

ـ «سأضربك حتى أسلخ جلدك ، لما تلفظت به» ، صاح ستيوارت بعنف ، «إياك أن تدعو إيبل ويندر بالأبيض الحقير ، فرغم أنه فقير إلا أنه ليس حقيراً ، وليلعنني الله ، إن أنا سمحت لأي إنسان ، أسود أو أبيض ، بالحط من شأنه . . . فليس في كل الولاية رجل أفضل منه ، وإلا ، فلماذا انتخبته الفرقة قائدها إذاً؟» .

ـ «أنا شخصياً لم أستطع فهم ذلك ، غير أنه يبدو لي أن عليهم أن ينتخبوا جميع الضباط من السادة الأغنياء بدلاً من الفقراء المعدمين» .

ـ إنه ليس حقيراً ، هل تقصد مقارنته بالبيض الحقيرين حقاً أمثال آل سلاتري؟ إيبل ليس غنياً كما يجب ، فهو مزارع صغير ، وليس مزارعاً كبيراً ، وإذا ما فكر الشباب ملياً بشخصه وانتخبوه قائداً فليس من حق أي عبد أن يتحدث عنه بحماقة ، إن الفرقة تعرف ما تقدم عليه» .

كانت فرقة الفرسان هذه قد شكلت منذ ثلاثة أشهر ، في اليوم نفسه الذي انفصلت فيه ولاية جورجيا عن الاتحاد . ومنذ ذلك الوقت ، والمجندون الجدد

يستنفرون للحرب ، أما منظمتهم فلم تكن قد أطلق عليها اسم بعد ، ليس ذلك لنقص في المقترحات ، فكل شخص كان يحمل فكرته الخاصة حول هذا الموضوع ، ويكره التنازل عنها ، كما كان كل منهم ينفرد برأيه في لون البذلات وطريقة تفصيلها . وكان لكل من الأسماء المقترحة الآتية مؤيدون : «سنانير كلايتون البرية» ، «ملتهمو النيران» «فرسان جورجيا الشمالية» ، «متطوعو الزؤاف»(*) ، «حملة البنادق» (ورغم أن الفرقة كانت ستسلح بالمسدسات ، بالسيوف ، وبخناجر بوي وليس بالبنادق) ، «أشاهب كليتون» ، «الدماء والرواعد» ، «القساة المتأهبون» . واستمر الناس يطلقون على المنظمة اسم «الفرقة» إلى أن استقرت الأمور . وبالرغم من الاسم الرنان الذي اختير أخيراً ، إلاّ أن الجنود اشتهروا حتى آخر أيام خدمتهم بالاسم البسيط «الفرقة» .

كان الجنود ينتخبون الضباط انتخاباً ، إذ لم يكن في الولاية من يمتاز بأية خبرة عسكرية ، اللهم إلاّ نفر قليل من الذين تمرسوا بحربي المكسيك والسيمينول . هذا إلى أن جنود الفرقة سيهزأون بقائد متدرب إن لم يكونوا هم أنفسهم يحبونه ويثقون به . وبالرغم من أن جميع الجنود كانوا يحبون أبناء آل تارلتون الأربعة ، وأبناء آل فونتين الثلاثة ، إلاّ أنهم رفضوا انتخابهم معتذرين ، نظراً إلى أن الأربعة الأول سريعي السكر ، كثيري العربدة ، بينما يتصف الثلاثة الآخرون بطبع نزق فتاك . وقد انتُخب آشلي ويلكس عقيداً لأنه أحسن راكب خيل في الولاية ، ولأنه أُمل من عقله الرصين أن يحافظ على بعض مظاهر النظام في الفرقة ، كما عُيِّن ريفورد كالفرت ملازماً أولاً لحب الجميع له ، أما إيبل ويندر ، المزارع الصغير ، وابن أحد صيادي المستنقعات ، فقد اختير ملازماً ثانياً .

في بداية الأمر ، جندت الفرقة من أبناء المزارعين دون استثناء ، كل يؤمن لوازمه : حصانه ، سلاحه ، عدته ، بذلته ، وتابعه . ولـمّا كانت فئة المزارعين الكبار قليلة في ولاية كلايتون الفتية ، وفي سبيل حشد فرقة قوية كاملة ، رؤي من الضروري استنفار مجندين آخرين من بين أبناء المزارعين الصغار ، وصيادي الغابات والمستنقعات وفقراء الجنوب الشرقي ، وفي حالات قليلة جداً بعض

(*) أي فرقة الموت السريع .

البيض الفقراء ، شريطة أن يكونوا فوق مستوى طبقتهم . وقد كان هؤلاء متلهفين لقتال أهل الشمال كجيرانهم الأغنياء ، إذا ما اندلعت الحرب . ولكن مشكلة المال الحساسة برزت للميدان ، فالقليل من المزارعين الصغار من يملك خيلاً ، إذ كانوا يقومون بأعمالهم الزراعية بمساعدة البغال التي لم يكن لديهم ما يفيض عن حاجتهم منها أكثر من أربعة ، ولم يكن بإمكانهم الاستغناء عن بغالهم في سبيل الحرب ، حتى في حالة قبولها في الفرقة . أما الفقراء البيض فكانوا يعتبرون أنفسهم في بحبوحة ، إن ملك أحدهم بغلاً واحداً ، كذلك جماعة الغابات ، وسكان المستنقعات ، الذين لم يكونوا يملكون خيلاً ولا بغالاً ، إذ كان اعتمادهم المعاشي يتوقف توقفاً تامّاً على نتاج أراضيهم ، وعلى ما قد تجلبه لهم مغامرات الصيد . وكانوا يتخذون من المقايضة أساساً لأعمالهم ، ولذلك ، قلّما يرى أحدهم ، طيلة السنة ، مبلغ خمسة دولارات نقداً . فطبيعي إذاً أن يكون ثمن البذلات والخيول بعيداً عن متناول أيديهم ، ومع هذا فقد كانوا عزيزي النفوس في فقرهم ، كعزة المزارعين في غناهم ، يرفضون أي شيء ينم عن روح الصدقة من جيرانهم الأغنياء . وهكذا ، مراعاة لشعور الجميع ، وحبّاً في جعل الفرقة تبلغ منتهى قوتها ، تبرع كل من والد سكارلت أوهارا ، جون ويلكس ، بك مونرو ، جيم تارلتون ، هيو كالفرت ، وفي الواقع ، كل المزارعين الكبار في الولاية ، عدا أنغوس ماك أنتوش ، تبرعوا بكلفة تجهيز الفرقة تجهيزاً تامّاً ، رجالها وخيلها ، وتم ذلك بأن تعهد كل من المزارعين الكبار تجهيز أبنائه وعدداً معيناً من الجنود الآخرين . وقد روعي في تنفيذ هذه التعهدات أن يتسلم الأعضاء الفقراء العدة ، خيولاً وبذلات ، دون أي مساس بكراماتهم .

كانت الفرقة تجتمع مرتين كل أسبوع في جونسبورو للتدريب أولاً وللصلاة من أجل ابتداء الحرب ثانياً . ولم تكن الترتيبات قد تمت بعد ، لتأمين العدد المطلوب من الخيل ، فراح الذين يملكون عدداً منها يقومون بما ظنوه مناورات فروسية في الساحة ، خلف بناء المحكمة ، يثيرون العجاج الكثيف ويزعقون بأصوات خشنة راعدة ، ويلوحون بسيوف الحرب الثورية ، التي كانت قد انتزعت من جدران غرف الضيافة ، بينما لجأ أولئك الذين لم يتسلموا خيولهم بعد ، إما إلى الجلوس فوق الحاجز الحجري أمام مخزن بولارد ، يراقبون زملاءهم ، ويمضغون أوراق التبغ ويثرثرون بحكايات الهوى ، أو إلى قضاء

الوقت بمباريات الرماية ، إذ إن أحداً منهم لم يكن بحاجة إلى تعلّم هذا الفن ، فمعظم الجنوبيين ولدوا والبنادق في أيديهم ، كما أن حياتهم التي يقضونها في رحلات الصيد جعلت منهم جميعاً رماة مَهَرة .

كانت نهاية التدريب تتم في صالونات جونسبورو ، فبسقوط الليل كان ينشب كثير من المنازعات ، التي كان الضباط يكافحون بحزم لمنع الإصابات الناجمة عنها حتى جاء جنود الشمال الاتحاديون ليوقعوها بهم فيما بعد . وفي أثناء إحدى هذه المشاجرات الدامية ، أصاب ستيوارت تارلتون كيد كالفرت في ساقه ، كما أصاب طوني فونتين ساق برنت . وكان التوأم في ذلك الوقت قد فصلا من جامعة فرجينيا حديثاً ، والفرقة لا تزال في طور التنظيم ، فالتحقا بها متحمسين ، ولكن بعد إصابة برنت المذكورة ، التي كان قد مضى عليها شهران ، اضطرتهما والدتهما إلى الالتحاق بجامعة الدولة مشددة أوامرها عليهما بالبقاء . وهناك أحس التوأم بمرارة خسارتهما لذة التدريب العسكري ، واعتبرا مشاركة زملائهما في الركوب والصراخ وإطلاق النار تعويضاً كافياً لضياع تعلمهما .

ـ «حسناً ، هيا بنا نعبر إلى بيت إيبل» . قال برنت . . . «نستطيع أن نصل في وقت قصير إذا ما عبرنا أسفل نهر آل أوهارا ، ومن ثم مراعي آل فونتين» .

ـ «ولكننا لن نحصل على شيء نأكله غير لحم السناجب ، وبعض الخضار !» ، قال جيمس معترضاً .

ـ «أنت لن تحصل على شيء البتة ، لأنك ستذهب إلى البيت ، وتخبر أمنا أننا لن نتناول العشاء برفقتها» .

ـ «لا ، لن أذهب» صاح جيمس فزعاً «لا لن أذهب ، فأنا لا يروقني تعنيف السيدة بياتريس أكثر مما راقكما ، فهي ستسألني أولاً كيف سمحت لكما بأن تطردا مرة أخرى ، وثانياً ، لماذا لم أعد بكما إلى البيت هذه الليلة ، كيما تتمكن من تأنيبكما ، وبعد ذلك ستربض فوقي ، كما تربض البطة فوق بقة حزيران ، وسألام على كل الأمور السيئة التي لي علم بها . . . إذا لم تأخذاني معكما إلى بيت آل ويندر فسأنام في الغابة وربما قبض الحراس عليّ ، إنني أفضل كثيراً أن يأخذني الحراس على أن أكون في قبضة السيدة بياتريس وهي ثائرة» .

نظر التوأم في وجه الفتى الأسود المصمم بارتباك وسخط .

ـ «سيكون في منتهى الحمق إذا سمح للحراس بأخذه ، الأمر الذي سيدفع أمنا إلى تأنيبنا طيلة أسابيع أخرى . . . إنني أقسم . . . أن هؤلاء العبيد أكثر إزعاجاً من الآخرين ، حتى إني أعتقد بعض الأحيان أن دعاة تحريرهم على صواب» .

ـ «ليس من الحكمة والعدل أن ندع جيمس يواجه ما نأبى نحن مواجهته ، فعلينا أن نصطحبه معنا إذاً ، ولكن اسمع (وأدار وجهه نحو جيمس) . . . أيها الأسود الأحمق الوقح ، إذا ما تبجحت أمام عبيد ويندر ملمحاً بأننا نأكل الفراخ المشوية ولحم الخنزير المقدد ، بينما هم لا يملكون إلا الأرانب ولحوم السناجب ، فسوف أخبر أمي . . . ولن ندعك تذهب إلى الحرب معنا» .

ـ «أتبجح؟ أأنا أتبجح أمام العبيد السذّج؟ لا يا سيدي ، إن أخلاقي أرفع من ذلك ، ألم تهذبني السيدة بياتريس كما هذبتكما؟» .

ـ «ولكنها لم تنجح في مهمتها مع أي منا نحن الثلاثة» أجاب ستيورات .

ـ «هلم بنا . . . دعنا نبدأ المسير» .

وامتطى صهوة جواده الأحمر الضخم ، وهمزه في كلا جانبيه ، فقفز بسهولة من على السياج المتصدع إلى حقول مزرعة جيرالد أوهارا الطرية التربة ، وتبعه برنت وخلفه جيمس الذي أمسك بحنو سرج الحصان وعرفه لأنه لم يكن يرغب في قفز الحواجز ، رغم أن حواجز كثيرة أعلى من هذا الحاجز كان قد تخطاها في سبيل اللحاق بسيديه .

وبينما كانوا يشقون طريقهم عبر الأثلام الحمراء ، منحدرين على جانب التلة نحو أسفل النهر ، وقد تجهّم الظلام من حولهم ، خاطب برنت شقيقه صائحاً :

ـ اسمع يا ستيوارت ، ألم يظهر لك كما لو أن سكارلت كانت ستدعونا للعشاء؟

ـ ما زلت أعتقد أنها كانت تريد ذلك . أجاب ستيوارت ، لماذا تظن . . .

2

بعد وداع التوأم ظلت سكارلت مسمّرة في مكانها من الرواق في تارا ، حتى غاب عن أذنيها الصدى الأخير لوقع حوافر حصانيهما المنطلقين بسرعة الريح ، ومن ثم عادت أدراجها إلى كرسيها ، وكأنها تسير نائمة ، بل كان وجهها قد تيبس حزناً . كانت تحس بألم حقيقي في فمها جراء الابتسامات العريضة ، التي اصطنعتها ، كي تمنع الأخوين من اكتشاف سرها .

جلست متهالكة ، حاشرة إحدى ساقيها تحتها ، بينما راح قلبها ينتفخ بهول المأساة ، حتى أحست بصدرها يضيق به . كان يخفق خفقات ضئيلة غريبة لم تألفها ، وكانت يداها باردتين . وقد هدها الشعور بوقوع الكارثة ، وارتسمت في وجهها أمارات الحيرة والألم ، حيرة الطفلة المدللة ، التي لم تعتد غير حيازة ما تريد ، والتي هي الآن ، وللمرة الأولى ، تواجه منغصات الحياة .

آشلي يتزوج ميلاني هاملتون !

آه لا يمكن أن يكون هذا النبأ صحيحاً ! إن التوأم مخطئان ، إنهما يقومان بإحدى دعاباتهما . . . لا يمكن لآشلي . . . لا يمكن له أن يكون على حب معها . . . بل لا يمكن لأي إنسان أن يحب فتاة ضئيلة كالفأرة مثل ميلاني .

واسترجعت سكارلت في ذاكرتها بكل احتقار صورة قوام ميلاني النحيف كقوام الطفل ، وشكل وجهها الوقور المشابه لشكل القلب ، والساذج سذاجة مطبقة ، ثم ذكرت كيف أن آشلي لم يستطع رؤيتها منذ شهور ، فهو لم يذهب إلى أتلانتا أكثر من مرتين بعد الحفلة التي أقامها في بيته في تولف أوكس ، السنة الماضية . . . لا ، لا يمكن أن يكون آشلي يحب ميلاني . . . لأنه . . . ـ وهي لا يمكن أن تكون مخطئة ـ لأنه كان يحبها هي . . . هي سكارلت ، كانت الفتاة التي يحبها آشلي . . . إنها تعرف ذلك حقاً !

وسمعت وقع خطوات مربيتها الثقيلة تقرع أرض القاعة ، فأسرعت تمد ساقها المنثنية تحتها ، محاولة أن تعيد السكينة إلى قسمات وجهها المنفعل . . .

لم يكن ليتطرق الشك إلى المربية بأن شيئاً قد حدث ، وهي تعتقد أنها تسيطر على آل أوهارا جميعهم ، جسماً وروحاً ، وأن أسرارهم هي أسرارها ،

بحيث أن أي بادرة غموض كانت كافية لتثير ثائرتها فتقتفي الأثر دونما رحمة ، كالكلب السلوقي . وكانت سكارلت تعرف ، من خلال التجارب ، أن مامي إذا لم تشبع فضولها في الحال ، فسترفع القضية لإيلين ، وعندئذ ستضطر سكارلت إلى البوح بكل شيء لوالدتها ، أو إلى ابتداع كذبة مرضية .

وما هي إلاّ ثوان حتى برزت مامي خارجة من القاعة : امرأة عجوز ضخمة الجثة ، بعيني فيل صغيرتين ، ولكنهما ذكيتين ، إفريقية نقية ، ذات لون أسود لماع ، قد كرست دمها حتى آخر نقطة منه لخدمة آل أوهارا ، فهي ركيزة إيلين ، وباعثة اليأس في نفوس بناتها الثلاث ، ومصدر الرعب لبقية الخدم . ورغم كونها سوداء ، فإن طابع تصرفاتها وشعورها بالكبرياء كانا على مستوى تصرفات أسيادها وكبريائهم ، إن لم يكونا على مستوى أعلى منه .

وكانت تنشئة مامي قد تمت في غرفة نوم سولانج روبلارد ، والدة إيلين أوهارا ، امرأة فرنسية باردة الطبع ، أنيقة متعجرفة ، لم تكن لتجنب أياً كان من أولادها أو خدمها ، عقابها العادل ، إذا تجاوز حدود اللياقة الخلقية . واعتنت مامي بتربية إيلين ، ثم رافقتها ، عندما تزوجت من سافانا إلى البلاد الشمالية .

كان أسلوبها في التربية يقوم على أن من تحبه لا بد من تأنيبه وقصاصه ، ولـمّا كان حبها لسكارلت واعتزازها بها عظيمين ، كان من الطبيعي أن تكون عملية إيقاع العقوبات مستمرة .

- «هل ذهب السيدان؟ كيف لم تسأليهما البقاء للعشاء ، يا آنسة سكارلت؟ لقد أخبرت بورك أن يجهّز طبقين إضافيين لهما . . أين أخلاقك التي بها تتخلقين؟» .

- «آه ، لقد تعبت جداً من سماع حديثهما عن الحرب ، حتى شعرت أني لن أستطيع احتمال ذلك خلال العشاء ، ولا سيما إذا ما شاركهما أبي بصوته المدوي وهو يتحدث عن السيد لنكولن» .

- «ليست أخلاقك بأحسن من أخلاق خادمة فاشلة ، رغم ما بذلته والسيدة إيلين في سبيل تقويمك . وها أنت الآن تجلسين دون شالك ، وهواء الليل يلسعك ، كم من مرة أخبرتك عن احتمال إصابتك بالحمى جراء الجلوس في برد الليل دون وضع شيء على كتفيك ! هيا إلى البيت يا آنسة سكارلت» .

ـ ولكن سكارلت قبل أن تجيب أعرضت بوجهها عن المربية بإهمال مقصود ، حامدة الله على أن انشغالها بموضوع الشال لم يمكنها من ملاحظة حقيقة وجهها الممتقع .

ـ «لا ، أريد أن أجلس هنا ، وأراقب غروب الشمس ، فهو منظر ممتع جداً . أسرعي وأحضري الشال . . . أرجوك يا مامي . سأظل جالسة هنا حتى يجيء والدي» .

ـ «إن صوتك يشعر كما لو أنك مصابة بزكام» قالت مامي بقلق .

ـ «لا ، لست مصابة» ، أجابت سكارلت متذمرة . . . «اذهبي وأحضري الشال» .

وخطت مامي نحو البيت ، وسمعتها سكارلت تنادي بصوت ناعم ، الخادمة ، في الطابق العلوي : «روزا . . . اقذفي لي بشال الآنسة سكارلت» ثم بصوت أعلى «تلك الزنجية الحقيرة . . . حيثما تكون لا تفيد أحداً . . علي أن أصعد وأحضره بنفسي» .

وسمعت سكارلت أزيز درجات السلم ، فنهضت من كرسيها بخفة ، إذ كانت تعرف أن مامي ، حال رجوعها ، ستعود للمحاضرة حول انتقاص سكارلت لكرم الضيافة ، وليس بمقدورها تحمل أي هذيان حول مسألة تافهة كهذه في الوقت الذي يتفطر فيه قلبها أسى . وقفت ، حائرة ، مترددة ، أين يمكنها الاختباء ريثما تخف حدة الألم في صدرها؟ وخطرت لها فكرة بعثت في قلبها شعاعاً من الأمل : لقد ذهب أبوها بعد ظهر ذلك اليوم إلى تولف أوكس ، مزرعة آل ويلكس ، ليحاول شراء دلسي ، زوجة الخادم بورك السمينة ، التي كانت رئيسة الخدم ، والقابلة في تولف أوكس . وكان بورك ، من يوم زواجه بها منذ ستة أشهر ، يلح على سيده جيرالد ـ ليل نهار ـ كيما يبتاعها ، حتى يتمكن الاثنان من العيش معاً في مزرعة واحدة ، فلما انهارت مقاومة جيرالد ، ركب إلى تولف أوكس بعد ظهر ذلك اليوم ليحاول شراءها .

ـ من المؤكد «فكرت سكارلت» أن بابا سيعرف إذا كانت هذه القصة المرعبة صحيحة أم لا . حتى ولو لم يسمع شيئاً بنفسه هذا المساء ، فربما يكون قد لاحظ أمراً ، أو تحسس حركة غير عادية عند آل ويلكس ، فإن استطعت رؤيته

على انفراد قبيل العشاء فقد أكتشف الحقيقة التي لن تكون إلا مجرد دعابة عادية سخيفة من دعابات التوأم» .

وحانت عودة والدها ، وأدركت أن عليها أن تقابله حيث يلتقي الممشى الخارجي بالطريق العام . وبالفعل ، نزلت الدرجات الأمامية بتؤدة ، وهي تتطلع من فوق كتفيها ، لترى ما إذا كانت مامي تراقبها من نوافذ الطابق العلوي . وعندما لم تلمح الوجه العريض الأسود ، المعمم بعمامة بيضاء كالثلج ، يرمقها مستنكراً ، من خلال الستائر المتهدلة ، جمعت أطراف تنورتها المزهرة الخضراء ، وانطلقت فوق الممر تجاه الممشى الخارجي ، مسرعة بقدر ما يسمح لها خفاها الصغيران الموثقان بالأشرطة .

وحالما وصلت سكارلت إلى تحت أغصان الأرز الكثيرة التشعب ، أدركت أنها أصبحت بمأمن من مراقبة النوافذ ، فخففت من خطوها السريع وهي تلهث لأن مشدها كان ضاغطاً عليها إلى درجة لا تسمح بركض طويل المدى ، ومع ذلك استمرت في المشي بالسرعة الممكنة ، حتى تجاوزت الممشى على عجل ، وخرجت إلى الطريق الرئيسي ولم تقف إلاّ بعد أن دارت حول منعطف تفصل لة من الأشجار فوقه بينها وبين البيت .

جلست فوق جذع شجرة تنتظر والدها ، محمرة الوجه ، سريعة التنفس . ومضى موعد قدومه ، ولكنها سرت لتأخره ، كيما تجد متسعاً من الوقت يهدأ خلاله تنفسها اللاهث ، وتسكن انفعالات وجهها المضطرب لئلا تلمّ به الظنون .

وفي كل لحظة ، كانت تتوقع سماع وقع حوافر حصانه ، ومن ثم رؤيته ينهب سفح الرابية نهباً ، بسرعته الخطرة المعتادة . . . ومرت الدقائق ، ولم يظهر أثر لوالدها ، فسرحت نظرها في عمق الطريق تبحث عنه ، والألم يتفاقم في قلبها .

- «آه ، لا يمكن أن يكون ذلك الخبر صادقاً . لماذا لم يعد؟» .

جالت بعينيها فوق الطريق المتعرجة التي بدت حمراء كالدم بعد إمطارة الصباح ، واستمرت في تفكيرها ، تقتفي وجهة الطريق ، منحدرة معها على جانب التلة . . . إلى نهر فلنت البطيء الجريان . . . إلى المنخفضات الراكدة المياه . . . ثم صعوداً على التلة الثانية . . . وأخيراً إلى مزرعة تولف أوكس . . .

هنالك حيث يعيش آشلي . . . هذا كل ما كانت تعنيه الطريق بالنسبة إليها في هذه الدقائق . . . إنها طريق إلى آشلي . . . إلى البيت الأبيض الأعمدة الجميلة الذي يتوج قمة الرابية ، كهيكل يوناني قديم .

ـ «آه . . . آشلي ! آشلي !» . . .

فكرت وقلبها يخفق أسرع من قبل . ثم أحست أن شيئاً من الحيرة والمأساة اللتين هدتاها هدآً ؛ بعد سماع ثرثرة التوأم ، قد انزاح مستقراً في أعماق رأسها ، وحلت مكانه تلك الحمى التي تمكنت منها خلال سنتين . وقد يبدو غريباً الآن أن آشلي لم يكن ليبدو لها خلال نشأتها الأولى بمثل هذا التأثير والجاذبية . ففي أيام طفولتها كانت تراه يغدو ويروح دون أن تعيره اهتماماً . ولكن منذ سنتين ، منذ ذلك اليوم الذي عاد فيه من رحلته الرائعة إلى أوروبا ، التي استغرقت ثلاثة سنين ، وجاء لزيارتها وتقديم احترامه لها ، منذ ذلك اليوم أحبته وشغفت به ، هكذا تماماً ، على هذه الصورة البسيطة .

كانت يومئذ تقف على الشرفة الأمامية ، عندما أطل في أول الممشى الطويل ، راكباً حصانه ، لابساً ثوباً واسعاً رمادي اللون ، تتوسطه ربطة عنق سوداء تلائم قميصه ذا الكشكش كل الملاءمة . . . وحتى هذه اللحظة . . . تستطيع أن تتذكر كل قطعة من ثيابه ، حذاءه اللامع ، قبعته المصنوعة من قش بناما ، والتي كانت في يده حالما شاهدها . . . ثم ترجل ودفع زمام فرسه إلى زنجي صغير ، ووقف مصعداً نظره نحوها ، فاتحاً عينيه الرماديتين الناعستين ، فتحة واسعة مبتسمة ، بينما انعكست أشعة الشمس متلألئة على شعره الأشقر ، فبدا كقبعة من الفضة البراقة . . .

وقبل أن يصعد الدرجات القليلة بخفة ، بادرها بقوله : «وهكذا غدوت شابة يا سكارلت» ! ثم انحنى مقبلاً يدها . . . وصوته (سوف لن تنسى أبداً كيف قفز قلبها من موضعه ، عندما صافح صوته أذنيها) وئيداً . . . رناناً . . . موسيقياً . . . كما لو أنها المرة الأولى التي تسمعه يتكلم فيها . . . وفي تلك اللحظة ، أحست أنها تريده ، تريده هكذا ، دون تكلف ودون تفسير ، تريده كما تريد الطعام من أجل الأكل ، والخيل من أجل الركوب ، والسرير الناعم لتضطجع بجسدها عليه . . .

وها قد مضت سنتان، وهو يرافقها في جولاتها خلال الولاية . . . إلى حفلات الرقص، إلى صيد السمك وشوائه، إلى النزهات القصيرة، إلى جلسات المحاكم القضائية . . . كل ذلك دون أن يكون مكثراً، كالتوأم تارلتون أو كيد كالفرت، أو ملحاحاً كشبان آل فونتين الذين هم أصغر منه سناً . ورغم ذلك كان لا يمر أسبوع دون أن يأتي لزيارتها في بيتها .

غير أنه لم يحدث أن فاتحها بحبه، ورغم أن عينيه الرماديتين الصافيتين لم تلمعا بذلك البريق الحاد الذي عرفته سكارلت جيداً في عيون غيره من الرجال، فقد عرفت، مع ذلك، أنه يحبها . وهي لا يمكن أن تكون مخطئة في هذا الأمر، فالغريزة التي هي أقوى من المنطق، والمعرفة المكتسبة من التجارب، دلتاها على أنه يحبها . وكثيراً ما لاحظته عندما لم تكن عيناه ناعستين، أو شاردتين، ينظر إليها بحنان واكتئاب، الأمر الذي كان يحيرها . . . إنها تعرف أنه يحبها . . . ولكن لماذا لم يصارحها بحبه؟ ذلك ما لم تستطع فهمه . . على أن هناك أموراً أخرى، حوله، لم تفهمها أيضاً .

كان آشلي ينفرد بخاصة الكتمان المغيظ، كان كغيره من الشبان، بارعاً في كل فنون اللهو المعروفة في الولاية كالصيد، والرهان، والرقص، والسياسة، ولكنه كان يمتاز عنهم جميعاً بأنه أمهرهم في ركوب الخيل، وبأن هذه النشاطات المتعة لم تكن كل هدفه في الحياة، إذ انفرد بين الجميع بعشقه للكتب والموسيقى، وبتعشقه نظم الشعر .

آه . . . لماذا هو كذلك؟ جميل رائع في شقرته، ممتع لطيف في معشره، مثير مزعج في حديثه عن أوروبا وعن الكتب والموسيقى والشعر والأمور الأخرى التي لا تلذها أبداً . . ولكنها مع ذلك، شديدة الرغبة فيه؟ وليلة بعد ليلة بعد أن تكون قد جلست معه على الشرفة الأمامية، نصف المظلمة، كانت سكارلت تشرد في سريرها تائهة وهي تتخبط الساعات الطوال، لتعلل نفسها، أخيراً، بأنه لا بد مفصح في المرة القادمة عن حبه لها . وتأتي المرة القادمة، وتروح، وتكون النتيجة لا شيء . . لا شيء سوى الإحساس بعاطفتها العارمة الدفاقة نحوه، تتضخم في قلبها وجيباً وتتسعر لهيباً .

إنها تحبه وتريده، ولكنها لا تفهمه . . . لقد كانت ساذجة صريحة كهذه

الرياح التي تهب على تارا ، وكالنهر الأصفر الذي يدور حولها ، ولم يكن بمقدورها حتى آخر أيام حياتها أن تفهم حقيقة أمر معقد . وها هي الآن وللمرة الأولى في حياتها تواجه نفسية «معقدة» .

ذلك أن آشلي كان سليل فئة من الرجال ، الذين كانوا يشغلون أوقات فراغهم في التفكير ، لا في العمل ، في نسج الأحلام البراقة التي لا تمت إلى واقعهم بصلة ، فكان لذلك يجوس داخل عالم روحاني ، أجمل من جورجيا بكثير ، ولا يعود إلى دنيا الواقع ، إلاّ على مضض ، كان ينظر إلى الناس نظرة مجردة ، لا يشعر نحوهم بحب أو كراهية ، ينظر إلى الحياة دون أن يشغف بها ، أو ينفر منها ، لقد رضي بالدنيا وبمكانه فيها دون تبرم ، فكان كلما تأملها كلما هز كتفيه وانكفأ إلى كتبه وموسيقاه . . . وعالمه المفضل .

على أن الذي لم تدركه سكارلت بعد ، هو كيف قدر له أن يأسر قلبها ، في الوقت الذي لا يتفق عقله وعقلها؟ إن نفسيته الغامضة المغلقة ذاتها ، لتثير فضولها ، فتغدو كالباب الموصد وقد فقد مفتاحه . وكأن هذه الأمور الشاذة المتعلقة بشخصه ، والتي لم تفهم كنهها أيضاً ، تدفعها إلى حبه أكثر فأكثر ، وكذلك غزله الممتع الفريد ، المتحفظ الحذر ، لا يعمل إلاّ على تقوية إصرارها على أن تحتفظ به لنفسها ، ولم تشك أبداً في أنه سيصارحها بحبه يوماً ما ، وهي الفتاة الصغيرة جداً ، المدللة كثيراً ، بحيث لم تذق طعم الهزيمة أبداً . . والآن ها هو النبأ المفزع ينزل عليها كالصاعقة . . . آشلي سيتزوج ميلاني ! . . لا يمكن أن يكون هذا النبأ صادقاً؟ . . وكيف يكون صادقاً وهو الذي قال لها في الأسبوع الماضي ، في أثناء عودتهما من فيرهل معاً ، وقت السحر : «سكارلت ، عندي خبر لك على درجة كبيرة من الأهمية ، بحيث لا أدري كيف أنقله إلى مسامعك» . فأطرقت بعينيها إلى الأرض ، متصنّعة الحياء ، بينما خفق قلبها بسرور طافح ، إذ ظنت أن اللحظة السعيدة قد أزفت ، ولكنه أردف : «لنرجئ ذلك إلى وقت آخر ، فلقد اقتربنا من البيت ، ولم يبق متسع من الوقت . . . آه . . . ما أجبنني يا سكارلت» . وهمز حصانه وانطلق وإياها في سباق صعوداً على التلة ، حتى بلغا تارا .

*

وبينما سكارلت جالسة تفكر في كلماته الأخيرة هذه ، وقد انتشت روحها غبطة وحبوراً ، إذ خطر لها فجأة تفسير آخر . . . معنى جديد خفي . . . لعله نبأ خطوبته ذلك الذي قصد أن يخبرها به . . . آه . . . لو يصل والدها الآن ! فهي لم تعد تحتمل سياط الشك لحظة أخرى ، وتطلعت ، وقد عيل صبرها ، نحو الطريق ، مرة ثانية ، ولكن بصرها ، للمرة الثانية ، ارتد خائباً . .

غابت الشمس وراء الأفق ، وهناك في المراعي عبر الطريق كانت قطعان البقر والخيل والبغال تقف ساكنة ، برؤوسها المشرئبة فوق الحاجز المتصدع ، تنتظر من يسوقها إلى الإصطبلات حيث تتناول عشاءها . كانت هذه البهائم تمقت ظلال الأدغال القائمة التي تكتنف جدول المرعى ، لذلك نصبت آذانها لسكارلت ، كأنها تعلن عن تقديرها لرفقة الإنسان .

ومضت الدقائق ، ولم يظهر فوق الطريق الساكنة المتعرجة ما ينبئ بقدوم والدها ، فإذا كان عليها أن تنتظر وقتاً آخر ، فإن مامي ستبحث عنها حتماً ثم تسوقها زجراً إلى البيت ، ولكنها ، وهي تحدق عينيها جاهدة فوق الطريق المظلمة ، سمعت وقع حوافر عند أسفل تلة المرعى ، وشاهدت الخيل والأبقار تتفرق فزعة . . . لقد كان جيرالد أوهارا قادماً عبر الريف بأقصى سرعته .

وصعد التلة فظهر لها من بعيد كصبي يمتطي حصاناً ضخماً يتناثر شعره الأبيض الطويل جلياً خلفه ، وهو يحث فرسه الخطى بسوطه وصيحاته المرتفعة .

ورغم شعورها المفعم بالقلق ، راحت تتأمله بفخر ينم عن محبة ، فقد كان فارساً بارعاً حقاً . ثم أخذت تحدث نفسها .

- إني لأستغرب استمراره على القفز فوق الحواجز وهو محتس خمراً . . ولا سيما بعد تلك السقطة في هذا المكان بالذات ، السقطة التي كسرت من جرائها ركبته في السنة الماضية . إن المرء ليعتقد أنه قد اتعظ ، خصوصاً بعد وعده لأمي ، مقسماً أن لا يعود للقفز ثانية .

لم تكن سكارلت تشعر بالرهبة من والدها ، بل كانت تحس أنه أقرب إلى نفسها وروحها من شقيقاتها ، فعملية قفز الحواجز وإخفاء الأمر عن زوجه ، كانت تشعره بكبرياء صبياني ، وبمرح آثم ، يجاري سرورها بخداعها لمربيتها . ونهضت من مقعدها تود مراقبته .

كان الحصان الضخم قد بلغ السياج ، فجمع نفسه وحلق قافزاً دون أي عناء ، كأنه عصفور ، بينما كان راكبه يصيح متحمساً ، ضارباً الهواء بسوطه ، وخصلات شعره الأبيض تتطاير خلفه . وعندما وجه عنان فرسه نحو الطريق ، مربتاً على عنقه تربيت الرضا والاستحسان لم يلحظ أن ابنته كانت واقفة في ظلال الأشجار . . . بل راح يخاطب حصانه باعتزاز وبعبارة وضحت فيها آثار لهجة ولاية ميث الإيرلندية ، رغم انقضاء تسع وثلاثين سنة على مجيئه إلى أميركا ، «وليس في الولاية من يضاهيك ، ولا في الدولة» قال ذلك ، وأسرع يسوي شعره ويرتب قميصه المضطرب ، ويعدل رباط عنقه الذي كان قد شط منحرفاً خلف إحدى أذنيه .

وأدركت سكارلت أن هذه الترتيبات السريعة يجريها والدها ليقابل زوجته ، بهيئة سيد محترم عاد رصيناً ، على فرسه ، إثر زيارة لأحد جيرانه ، كما أدركت أيضاً أنه منحها الفرصة التي تريد للبدء بالحديث دونما كشف لغايتها الحقيقية . وعلى حين غرة أرسلت ضحكة عالية في الفضاء ، فجفل جيرالد ، كما أرادت ، وعرف شخصها ، فعلا وجهه المورد نظرة هادئة متحدية ، ثم ترجل عن حصانه بصعوبة لتصلب ركبته ، ومشى نحوها بتثاقل بعد أن أرخى العنان ، ثم ابتدرها بقوله وهو يقرص وجنتها :

ـ «حسناً يا آنستي ، كنت تتجسسين عليّ إذاً ، وكما فعلت شقيقتك سولين في الأسبوع الماضي ، ستخبرين أمك عما ارتكبت .

ـ «لا ، يا أبي ، لست ثرثارة نمّامة كسولين» أكدت له ذلك ، ثم وقفت مقابله موقف الناقد ، تتأمل ملابسه بعد أن أعاد ترتيبها .

كان جيرالد قد بلغ الستين من العمر ، وكان شعره الجعدي الخشن أبيض كالفضة ، ولكن وجهه الذكي خلا من التجاعيد ، وعينيه الصغيرتين الزرقاوين الحادتين كانتا تفيضان شباباً وحيوية ، وتنمان عن طبيعة إنسان مطمئن ، لم يقدح زناد تفكيره يوماً بمشاكل أكثر تعقيداً مما تقتضيه عملية سحب الورق في لعبة البوكر . أما وجهه فقد احتفظ بسماته الإيرلندية الأصيلة رغم طول المدة التي انقطعت على نزوحه : مستدير ، شديد الحمرة ، أنف قصير ، فم عريض ، وملامح تنم عن روح حربية .

على أن جيرالد كان يخفي وراء ما كان يبدو عليه من نزوع للقتال ، أرق

القلوب جمعاء ، فلم يكن ليحتمل رؤية عبد يتألم جراء توبيخ ، بغض النظر عن مدى استحقاقه له ، أو سماع هريرة تموء ، أو طفل يبكي ، ولكنه كان يخشى للغاية انفضاح أمر ضعفه هذا ، غير عالم أن كل من يقابله ، يكتشف طبيعة قلبه الحنون ، خلال الخمس دقائق الأولى من مقابلته فقط ، ولو قدر له معرفة ذلك ، لقاسى زهوه الأمرين ، إذ كان يرغب كثيراً في الاعتقاد بأن الجميع يطيعونه هلعين ، وهو يصدر أوامره بأعلى صوته ، ولم يدر بخلده أبداً ، أن صوتاً واحداً كان يطاع في المزرعة ، ذلك هو صوت زوجته إيلين الرقيق ، ولم يكن ليقدر له معرفة ذلك ، إذ كان كل من في المزرعة من إيلين إلى أغبى عامل زراعي ، قد اشترك في مؤامرة خفية كريمة تهدف إلى جعله يعتقد أن كلمته عندهم هي بمثابة كلمة القانون .

وكانت سكارلت أقل الجميع تأثراً بهياجه وزمجرته ، فهي ابنته الكبرى ، ولـمّا كان يدرك أنه لن ينجب أبناء آخرين ، بعد الثلاثة المدفونين في مقبرة العائلة ، عمد إلى معاملتها معاملة الند للند ، الأمر الذي سرها كثيراً ، وقدكانت أكثر شبهاً به منها بشقيقاتها الصغيرات ، فكارين التي سميت يوم ولادتها كارولين إيرين كانت ناعمة حالمة ، بينما كانت سولين ، المعمدة باسم سوزان إيلينور ، تزهو بكياستها وسلوكها الشبيه بسلوك السيدات ، وفوق ذلك فقد كانت تربط سكارلت بوالدها اتفاقية كتمان مشتركة ، تقوم على أن يكتفي هو بتأديب سكارلت بنفسه وبشدة ، وأن يخفي الأمر عن زوجته وعن المربية ، وذلك في حالة اكتشافها تقفز فوق السياج ، بدلاً من السير نصف ميل لبلوغ البوابة ، أو في حال رؤيتها تجلس في وقت متأخر ، مع أحد المتيّمين ، على الدرجات الأمامية ، وبالمقابل تمتنع سكارلت عند رؤية والدها يقفز حاجزاً ، بعد الوعد المقدس الذي قطعه لزوجته ، أو عند اطلاعها على مقدار خسارته في لعبة البوكر ، الأمر الذي كانت تكتشفه دائماً من أحاديث الناس في الولاية ، تمتنع عن ذكر ذلك في أثناء العشاء ، كما كانت تفعل سولين بطريقتها الماكرة ، والساذجة في الوقت نفسه .

وكانت سكارلت ووالدها يقنع كل منهما الآخر بأن الإفضاء بأسرار كهذه لإيلين سيؤذيها ، وليس هناك ما يدعوهما لخدش إحساسها الرقيق .

*

نظرت سكارلت إلى والدها في الضوء الباهت، فأحست، دون أن تعرف السبب، بالعزاء في حضرته، فقد كان في شخصه مزيج من الحيوية والواقعية والخشونة، وهي صفات تروقها، ولـمّا كانت أقل الناس تحليلاً للأمور لم تدرك أن ذلك عائد لامتلاكها شيئاً، ولو ضئيلاً، من هذه الصفات، رغم جهود والدتها ومربيتها طيلة ست عشرة سنة لاجتثاثها منها.

ـ «إنك تبدو الآن رائعاً جداً يا أبي . . . ولست أعتقد أن أحداً ستحدثه نفسه بأنك عدت لألاعيبك، إن لم تعلن أنت عن ذلك متفاخراً . . . ولكن، يظهر لي أنه بعد أن كسرت ركبتك في السنة الماضية وأنت تقفز ذلك الحاجز بالذات . . .».

ـ «ليلعنني الله إن أنا سمحت لابنتي بأن تخبرني عما يجب أن أقفز أو لا أقفز» قاطعها صائحاً، قارصاً وجنتها للمرة الثانية، ثم أضاف: «إن القضية تتعلق برقبتي أنا، نعم برقبتي أنا، وفوق ذلك يا آنسة، ماذا تفعلين هنا دون أن تتشحي بشالك؟».

أدركت سكارلت أنه يناور لينقذ نفسه من حديث غير ممتع، فتأبطت ذراعه وقالت:

ـ «كنت بانتظارك، غير عالمة أنك ستتأخر حتى هذه الساعة . . . لا أدري إذا كنت قد ابتعت دلسي؟».

ـ «ابتعتها . . . وقد أبهظني الثمن . . . ابتعتها وابنتها الصغيرة برسي. كان جون ويلكس راغباً جداً في بيعهما، ولكنني لم أشأ، أبداً، أن يقال إنني استغللت الصداقة في صفقة تجارية، ولذلك جعلته يتقاضى ثلاثة آلاف دولار مقابل الاثنتين».

ـ «يا إلـهي . . . أبي! ثلاثة آلاف؟ . . مع أنك لست بحاجة إلى شراء برسي!».

ـ «أجاء الوقت الذي تقاضيني ابنتي فيه؟» صاح الأب بلهجة خطابية . . . «إن برسي فتاة صغيرة وسيمة، ولذلك . . .».

ـ «أعرفها . . . إنها غبية خبيثة» ثم أردفت بهدوء دون أن تنفعل جراء صراخه: «والسبب الوحيد الذي دفعك لشرائها هو أن دلسي طلبت منك ذلك».

أحنى جيرالد رأسه وقد أسقط في يده كعادته دائماً في المواقف التي ينكشف فيها عمله الإنساني الرحيم، بينما انفجرت سكارلت ضاحكة لشفافية نفسه.

ـ «حسناً، وماذا لو اشتريتها؟ هل كنا نستفيد من شراء دلسي إذا ما ظلت حزينة بسبب ابنتها؟ .. على كل حال لن أسمح بعد اليوم لزنجي في مزرعتي أن يتزوج بأخرى في مزرعة ثانية ... والآن هلمي يا بنيتي، دعينا ندخل من أجل العشاء».

كانت الظلال تزداد كثافة، وقد غاب آخر أثر لاخضرار السماء، وحلت برودة خفيفة محل نسيم الربيع العليل، وتباطأت سكارلت وهي تتساءل كيف تصل إلى موضوع آشلي دون أن تدع والدها يرتاب في عاطفتها.

ـ «كيف حال الجميع في تولف أوكس؟».

ـ على حالهم تقريباً، كان هناك كيد كالفرت، وبعيد اتفاقنا على موضوع دلسي، جلسنا جميعاً في القاعة، واحتسينا عدة كؤوس وكان كيد قد وصل لتوه من أتلانتا، فاختلط الحابل بالنابل، وراحوا يتحدثون عن الحرب و...».

وما إن لفظ كلمة «حرب» حتى تنهدت سكارلت، إذ كانت تعرف أنه حالما يصل في حديثه إلى موضوع الحرب والانفصال، فلا بد من انقضاء ساعات قبل أن يفرغ منه، ولذلك قاطعته بموضوع آخر:

ـ «ألم يقولوا شيئاً عن حفل الشواء غداً؟».

ـ «الآن تذكرت ذلك ... نعم قالوا يا آنسة ـ ما اسمها ـ الفتاة الحلوة الصغيرة التي زارتنا في السنة الماضية .. أنت تعرفينها .. ابنة عم آشلي .. ها .. نعم ميلاني هاملتون .. ذلك هو اسمها .. هي وشقيقها تشارلز قد حضرا حديثاً من أتلانتا و...».

ـ «ها، حضرت إذاً؟».

ـ «نعم ... وإنها لفتاة حلوة هادئة ... لا تنبس بكلمة واحدة عن نفسها، كما ينبغي أن تكون السيدة .. هلمي الآن يا ابنتي .. لا تتباطئي، فلا بد أن أمك تبحث عنا».

لكن قلب سكارلت كان قد غار عند سماع النبإ ، فهي قد أملت ، خلاف منطق الأمل ، أن شيئاً ما سيبقي ميلاني هاملتون في أتلانتا حيث تسكن ، ولكن الأمر لم يقتصر الآن على خيبة أملها فحسب ، بل حتى والدها أخذ يطري ميلاني العذبة الهادئة ، والتي تختلف كثيراً عن طبيعتها ، ما دفعها إلى التصريح بمكنونات صدرها .

ـ «وهل كان آشلي هناك أيضاً؟» .

ـ «نعم كان» .

أجاب جيرالد وقد أرخى يدها ملتفتاً نحوها ، محملقاً في وجهها بحدة :

ـ «إذا كان هذا هو ما دفعك إلى الخروج وانتظاري هنا ، فلماذا لم تقوليه مباشرة دون لف ودوران؟» .

لم تحر سكارلت جواباً ، وأحست بوجهها يزداد حمرة من حراجة الموقف .

ـ «أفصحي» .

ولكنها استمرت في صمتها ، متمنية أن لو كان من حق المرء أن ينهر والده ويأمره بالصمت .

ـ «لقد كان موجوداً وسأل عنك بأدب جم ، كما فعلت شقيقاته ، مبديات أملهن في أن لا يؤخرك شيء عن الحفلة غداً . . . وأنا كفيل أن شيئاً لن يؤخرك» . . . قال ذلك بمكر ، ثم أضاف : «والآن ، يا ابنتي ، ما هي قضيتك وآشلي؟» .

ـ «لا شيء» أجابت باقتضاب ، متكئة على ذراعه ، ثم مردفة : «هلم بنا ندخل يا أبي» .

ـ «آه . . هكذا ، جاء دورك الآن ، تريدين الدخول» أجاب معلقاً «ولكنني سأظل واقفاً هنا حتى أفهم قضيتك . . الآن فطنت للمسألة . . . في المدة الأخيرة كنت تظهرين بمظهر غريب ، أكان يعبث معك؟ أطلب منك الزواج؟» .

ـ «لا» أجابت باقتضاب .

ـ «ولن يطلب !» .

فاشتعلت غضباً ، ولكن أباها هدأها بيده قائلاً :

ـ احتفظي برباطة جأشك يا آنسة ! لقد علمت هذا المساء ، من جون

ويلكس ، بناء على ثقته المتناهية بي ، أن آشلي سيتزوج بميلاني هاملتون ، وسيعلن النبأ غداً» .

وعندئذ سقطت يدها عن ذراعه . . . لقد كان صدقاً إذاً ! وأحست بألم شديد يمزق قلبها ، كمخالب حيوان وحشي ، ومن خلال الألم لمحت عيني والدها تتأملانها بشيء من الشفقة ، وقليل من الحيرة ، لأنه ووجه بمشكلة لا يعرف لها حلاً ، إنه يحب سكارلت ، ولكنها ضايقته بدفعها مشاكلها الصبيانية أمامه ليحلها ، وكان ينبغي لها أن تحملها إلى أمها إيلين ، فهي التي تعرف جميع الحلول .

ـ «أتشهرين بنفسك ، بل بنا جميعاً؟ !» .

صاح وقد ارتفع صوته كعادته دائماً في لحظات الانفعال . . . «أتهوين رجلاً لا يشعر بحب نحوك ، في الوقت الذي بإمكانك الزواج بأي من فتيان الولاية؟» .

فأجابته ، يدفعها الغضب والكبرياء الجريح ، لتنفس بعض الألم :

ـ «أنا لم أهوه . . وإنما ، وإنما أدهشني النبأ فقط !» .

ـ «أنت تكذبين» .

ولكنه بعد أن تأمل وجهها المنفعل ، أضاف بصوت يغمره الحنان :

ـ «إن آسف يا ابنتي ، ومع ذلك ، فأنت ما زلت صغيرة وهناك الكثير من المعجبين» .

ـ «لقد كانت أمي في الخامسة عشرة فقط عندما تزوجت بك ، وها أنا الآن قد بلغت السادسة عشرة» .

ـ «ولكنها كانت تختلف عنك كثيراً ، لم تكن طائشة كما أنت اليوم . . . والآن تعالي خففي عن نفسك ، وسوف آخذك إلى شارلستون في الأسبوع القادم لزيارة خالتك يولاي ، وهناك نظراً للضجة القائمة حول قلعة سمتر ، ستنسين كل شيء عن آشلي ، بعد أسبوع» .

ـ «إنه يعتقد أنني طفلة» ، أسرّت سكارلت إلى نفسها ، وكأنما خنق الحزن والغضب صوتها . . . «وما عليه إلاّ أن يمنحني دمية جديدة حتى أنسى كل آلامي» .

- «والآن ، لا تهزي ذقنك أمامي» قال أبوها محذراً ، ثم أردف : «لو كنت تملكين قليلاً من الإدراك لتزوجت ستيوارت أو برنت تارلتون منذ زمن ، فكري في الأمر ملياً يا ابنتي ، تزوجي أحد التوأم ، وعندها تتصل مزرعتانا ، فنبني لكما أنا وجيم تارلتون بيتاً جميلاً حيث تلتقي المزرعتان ، في غابة الصنوبر الكبيرة تلك . . . و . . .» .

- «أرجو أن تكف عن معاملتي كطفلة !» صاحت سكارلت «فأنا لا أريد الذهاب إلى شارلستون ، أو اقتناء بيت ، أو الزواج بأحد التوأم . . . وإنما أريد . . .» .

وأمسكت عنان نفسها ، ولكن بعد فوات الأوان .

وتكلم جيرالد ، كان صوته هادئاً بشكل غريب ، كما لو أنه ينتزع كلماته من مخزن أفكار قلّما طرق بابه :

- «إنه آشلي الذي تريدينه فقط ، ولكن لن تناليه ، حتى لو أراد هو أن يتزوجك فلن ألبي طلبه إلاّ على مضض ، ولن يكون ذلك إلاّ للصداقة المتينة التي بيني وبين جون ويلكس» . وإذ رأى الفزع يتطرق إليها أردف : «فأنا أريد السعادة لابنتي ، ولن تكوني سعيدة معه» .

- «سأكون سعيدة ، سأكون سعيدة حتماً» .

- «لن تكوني يا ابنتي ، فليس من سعادة إلاّ في زواج الأكفاء» .

وأحست سكارلت برغبة فجائية تدفعها إلى أن تصرخ :

- «كيف كنتما ، أنت وأمي ، سعيدين ، وأنتما غير متكافئين» .

ولكنها لجمت عاطفتها ، خشية أن تمزّق أذنيها سلاطة لسانه .

- «عائلتنا تختلف عن آل ويلكس» ، تابع جيرالد ببطء ، كأنه يبحث عن كلماته «الويلكسيون يختلفون عن كل الجيران ، بل يختلفون عن كل العائلات التي أعرفها ، إنهم أناس شاذون ، ولعل أفضل ما يعملون أنهم يتزوجون بنات أعمامهم فيقصرون بذلك شذوذهم على أنفسهم» .

- «لماذا يا أبي . . آشلي ليس . . .» .

- «اصمتي يا ابنتي ، فأنا لم أقل شيئاً بحق الفتى لأني أحبه ، وعندما قلت «شاذون» لم أكن أعني «مجانين» ، وآشلي لم يكن شاذّاً كأبناء آل كالفرت

الذين لا يتورعون عن المقامرة بكل ما يملكون من أجل حصان ، أو كأبناء آل تارلتون الذين ينقلبون سكارى مرة أو مرتين في كل حفل ، أو أبناء آل فونتين ، الوحوش الصغار الحادو المزاج الذين لا يتورعون عن ارتكاب جريمة قتل لأمر تافه ، إن ذلك النوع من الشذوذ يسهل فهمه حتماً ، ولولا فضل الله لأمكن أن يقترف جيرالد أوهارا جميع هذه الأخطاء . . . ومع ذلك فأنا لا أعني أن آشلي يمكن أن يخونك مع امرأة أخرى إذا ما تزوجته ، أو أن يضربك ، ليت الأمر يقتصر على هذا ، عندئذ تكونين أسعد حالاً . . . لأنك على الأقل تظلين واعية لما يدور حولك . . ولكنه شاذ في أمور أخرى حيث لا يستطيع أحد فهمه أبداً ، إني أحبه ، على أني لا أستطيع أن أفهم الذنب من الرأس من معظم أحاديثه ، أخبريني الصدق يا بنيتي . . . هل تفهمين هذيانه حول الكتب والشعر والموسيقى والتصوير الزيتي والحماقات الأخرى؟» .

ـ «أبي» صاحت سكارلت وقد نفد صبرها . . «إذا ما تزوجته فسأصرفه عن كل هذه الأشياء» .

ـ «ها ، ستصرفينه؟ هل تستطيعين الآن؟ !» سأل حانقاً حادجاً ابنته بنظر شزر ، «إذاً ، كل ما تعرفينه عن الرجال قليل جداً ، دعي آشلي جانباً ، وافهمي ما سأقوله لك . لم تستطع امرأة يوماً أن تغير من زوجها قيد أنملة . . إياك أن تنسي هذا . . .وأما بالنسبة إلى تغيير ويلكسي ، فالعياذ بالله يا ابنتي ! العائلة بأسرها على هذا النمط ، لقد كانوا دائماً كذلك ، ومن المحتمل أن يظلوا كما هم . . لقد قلت لك إنهم ولدوا شاذين . تأملي كيف يسرعون إلى نيويورك وبوسطن لسماع الأوبرات ، ومشاهدة الرسوم الزيتية ، ثم تأملي كيف يشترون الكتب الإفرنسية والألمانية بالأكداس من أهل الشمال ، ثم يجلسون للقراءة ويحلمون أحلاماً لا يعلمها إلا الله ، بدلاً من أن يقضوا أوقاتهم بصورة أفضل ، في الصيد أو في لعب البوكر ، كما ينبغي لعقلاء الرجال أن يفعلوا .

ـ «ولكن ليس في الولاية كلها من يمتطي حصاناً أفضل من آشلي» قالت سكارلت حانقة جراء وصمة التخنث المسندة إليه «لا أحد البتة . . ربما باستثناء والده فقط . . . وأما بالنسبة إلى لعب البوكر ، ألم ينتزع آشلي منك مائتي دولار في الأسبوع الماضي في جونسبورو؟» .

ـ «يظهر أن أبناء كالفرت عادوا للفتنة ثانية» أجاب الأب معترفاً بخسارته ، «وإلاّ لما عرفت حقيقة المبلغ ، إن آشلي يستطيع أن يجاري أحسن راكب خيل ، وأن يباري أحسن لاعب بوكر ، وهو أنا يا بنيتي ، كما أنني لا أنكر أنه ، إذا ما جلس للشرب يستطيع أن يبز حتى أبناء تارلتون ، يستطيع فعل هذا كله ، ولكن دون أن يشارك فيه بقلبه . . وذلك ما يجعلني أدعوه شاذاً» .

وجمت سكارلت صامتة ، وقد هبط قلبها من موضعه ، فهي لا تستطيع التفكير بما يتحدى تلك الحقيقة التي نطق بها والدها أخيراً ، كانت تعلم أنه على صواب ، وأن آشلي لا يسهم بقلبه في أي من الأمور السارة التي يحسن القيام بها ، وأنه لا يهتم بأي شيء يهتم به الآخرون جدياً ، إلاّ بقدر ما كانت تدعوه اللياقة إلي الاهتمام .

وأدرك الوالد سر صمتها ، فربت على ذراعها مزهواً بالنصر :

ـ «الآن يا سكارلت . . أقررت بأنها الحقيقة إذاً . . ماذا ستفعلين مع زوج كآشلي؟ إنهم جميعاً بهم لوثة ، جميع آل ويلكس» ثم أردف مداهناً : «وعندما ذكرت لك أبناء تارلتون ، منذ قليل ، لم أكن أرفع من شأنهم ، فهم شبان رائعون ، أما إذا كنت تفضلين كيد كالفرت ، فالأمران عندي سيان ، وآل كالفرت جماعة طيبون ، رغم تزوج والدهم بفتاة شمالية» .

«وعندما أموت - أصمتي ، يا عزيزتي ، أصغي إلي ! سأخلف تارا لك ولكيد» .

ـ «لن أرضى بكيد ولو قدم لي على صينية من الذهب» ، صاحت سكارلت غضبى ، وأرجو أن تقلع عن ترغيبي به ، فأنا لا أريد تارا ولا أية مزرعة قديمة أخرى ، إن المزارع لا تساوي شيئاً عندما . . .» .

وكانت تهم بأن تقول : «لا يظفر المرء بمن يحب» لولا أن أباها ، وقد اغتاظ من الطريقة التي قابلت بها منحته المقترحة التي يعزها ، بعد زوجته ، أكثر من أي شيء في الدنيا ، قاطعها حانقاً :

ـ «أتقفين هنا ، يا سكارلت أوهارا ، وتخبرينني بأن تارا تلك الأرض الثمينة لا تساوي شيئاً؟» .

فأومأت برأسها بإصرار ، إذ كان قد أدمت مرارة الألم قلبها بحيث لم تعد

تبالي أأغضبت والدها أم لم تغضبه .

ـ «الأرض هي الشيء الوحيد القيم في هذه الدنيا» صاح وذراعاه القصيران الغليظان يعبران بحركاتهما الواسعة عن مدى سخطه . . . «لأنها الشيء الوحيد الذي يدوم . . . ولا تنسي هذه الحقيقة ، إنها الشيء الوحيد الذي يستحق الجهد في سبيله ، يستحق النضال من أجله ، يستحق الموت حفاظاً عليه» .

ـ «آه يا أبي» . . . أجابت باشمئزاز . . «إنك تتكلم كإيرلندي» .

ـ «ومتى كنت أخجل من ذلك؟ . . أبداً . . بل أنا فخور بذلك . . ولا تنسي أنك نصف إيرلندية يا آنسة ، وكل إنسان يملك قطرة دم إيرلندي في عروقه يعتبر الأرض التي يعيش عليها ، كأمه ، إنني الآن خجل بك ! منحتك أجمل أراضي الدنيا ، باستثناء أرض ولاية ميث في وطني الأول ، فماذا كان جوابك ، تكبّرت !» .

وكان قد بدأ يندفع في ثورة غضب صارخ مثير ، لولا أن شيئاً في وجه سكارلت الكئيب منعه من الاستمرار .

ـ «على أنك مخطئة . . وسيأتي يوم تحبين فيه الأرض . . ليس هناك مفر من ذلك طالما أنت إيرلندية ، إنك ما زلت طفلة اليوم ، تقلقين على محبوبك ، وعندما تكبرين سترين كيف يكون الأمر . . والآن حكّمي رأيك على كيد أو أحد التوأم أو أحد فتيان إيفان مونرو وسترين أي عروس رائعة سأجعل منك» .

ـ «كفى يا أبي» .

عند هذه العبارة كان مفعول الجدل قد بلغ من الأب أشده ، وغمر نفسه ضيق شديد ، لأن المشكلة وقعت على عاتقه ، وآلمه أن تظل سكارلت حزينة منكمشة بعد أن ذكر لها أحسن شبان الولاية ، وتارا أيضاً ، وهو الذي كان يود أن تتقبّل عطاياه بتصفيق الأيدي ، وقبلات الأفواه .

ـ «لا تبتئسي أبداً يا آنسة ، فلا يهم من ستتزوجين شريطة أن يكون منسجم التفكير معك ، وأن يكون سيداً محترماً عزيز النفس ، من أهل الجنوب ، فبالنسة إلى المرأة ينشأ الحب بعد الزواج» .

ـ «تلك نظرية من وطنك الأول ، يا أبي» .

ـ «ولكنها نظرية صائبة ، إن كل هذه الأساليب الأميركية ، في البحث عن

زواج الحب ، جديرة بالخدم ، وبأهل الشمال ، وأحسن الزيجات ما يتم من طريق اختيار الوالدين لزوج ابنتهما ، إذ كيف يستطيع إنسان غرّ مثلك ، أن يميز بين الرجل الخبيث والطيب؟ انظري إلى آل ويلكس ، ما الذي جعلهم يحتفظون بكبريائهم ومكانتهم مدى هذه الأجيال؟ طبعاً ، لأنهم يتزوجون بنظرائهم في العائلة ، يتزوجون بأبناء أعمامهم الذين ترشحهم العائلة للزواج» .

ـ «آه» صاحت سكارلت ، وقد وخزها الألم مجدداً ، بعد أن أعاد إليها أبوها بكلامه حقيقة النبإ المفزعة ، ونظر هو إلى رأسها المنكس ، مبدلاً موضع قدميه بارتباك : «أتبكين؟» سألها وهو يتلمس ذقنها ببراءة ، محاولاً أن يرفع وجهها بينما جعدت معالم الشفقة وجهه .

ـ «لا» أجابت بعنف ، مندفعة إلى الخلف .

ـ «أنت تكذبين ، وأنا فخور بذلك ، إني سعيد بشعورك بالكبرياء يا آنستي . . وأرجو أن أشعر بكبريائك غداً في الحفلة لأني لا أريد أن تهذي الولاية وتهزأ بك لتوله قلبك برجل لم يهتم بك اهتماماً يتعدى حدود الصداقة» .

ـ «لقد اهتم بي» قالت سكارلت في نفسها ، وقد غمر الأسى قلبها .

ـ «آه . . لقد اهتم بي كثيراً ، إني واثقة من ذلك ، وباستطاعتي التصريح به ، ولو قدر لي فرصة أطول لاستطعت أن أجعله يقول - آه فقط لو أن آل ويلكس لا يشعرون بواجب الزواج ببنات أعمامهم» .

ـ «سندخل البيت للعشاء الآن» قال ذلك وتأبط ذراعها ، ثم أضاف : «وليبق هذا الموضوع سرآ بيننا ، فسوف لا أزعج به أمك ، ولن تفعلي أنت ذلك أيضاً ، هل أنا مخطئ يا ابنتي؟» .

اتجها إلى الممشى المظلم يتأبط كل منهما ذراع الآخر ويتبعهما الحصان ببطء ، وقبيل أن يبلغا البيت ، همت سكارلت باستئناف الحديث ، لولا أن لمحت والدتها في ظلال الشرفة المعتمة ، مرتدية قبعتها ، متلفعة بشالها ، لابسة قفازيها ، وقد وقفت مامي خلفها بوجه متجهم ، تحمل بيدها الحقيبة الجلدية السوداء ، حيث تضع إيلي دائماً الأدوية والضمادات التي تستعملها في معالجة العبيد .

ـ سيد أوهارا .

نادت إيلين عندما رأت القادمين يسيران في الممشى .
لقد كانت تنتمي إلى جيل من الناس يتمسك بالرسميات حتى بعد سبع عشرة سنة من الزواج ، وبعد إنجاب ستة أطفال .

ـ «سيد أوهارا ، هناك مريض في بيت آل سلاتري ، لقد وضعت إيمي طفلاً ، وهو الآن ينازع سكرات الموت ، فينبغي تعميده . . إني ذاهبة هناك برفقة مامي لأرى ما يمكن عمله» .

كان صوتها يرتفع بلهجة استفهام ، كما لو أنها تنتظر موافقة جيرالد على خطتها ، مجرد عمل شكلي ، ولكنه عزيز على قلب جيرالد ، الذي أجاب مزهواً :

ـ «باسم الإلـه ، لماذا يضطرك هؤلاء السقاط من البيض للذهاب إليهم في وقت عشائك ، وفي الوقت الذي أحتاج إليك لأحدثك حديث الحرب كما يروونه في أتلانتا . اذهبي . . يا سيدة أوهارا ، فلن ترتاحي على وسادتك هذه الليلة طالما يوجد مشكلة في الخارج ، ولم تهرعي للمساعدة فيها» .

ـ «بلى سترتاح على وسادتها لأنها تسرع في الليل ، تمرض الزنوج والفقراء الساقطين من البيض ، الذين يستطيعون الاعتناء بأنفسهم» .

وعلقت مامي متذمّرة ، بلهجة رتيبة ، وهي تنزل السلم ، قاصدة العربة التي كانت تنتظر في الطريق الجانبي :

ـ «خذي مكاني على طاولة العشاء يا عزيزتي» خاطبت إيلين سكارلت مربتة على وجنتها برفق ، بيدها المقفزة . أما سكارلت ، فبالرغم من دموعها المكبوتة ، انتعشت جراء لفتة أمها الرقيقة ، ذات السحر الفعال أبداً ، كما انتعشت جراء الرائحة العطرية الخفيفة المنبعثة من فستانها الحريري ذي الحفيف . والحقيقة أن سكارلت كانت تشعر أن شيئاً في أمها يأخذ بالأنفاس ، شيئاً عجيباً يعيش معها في البيت ، يرهبها ويسحرها ويسكن من روعها .

وساعد جيرالد زوجته في الصعود إلى العربة ، آمراً الحوذي بالانتباه في أثناء سيره ، إلا أن توبي ، الذي ساق خيل جيرالد طيلة عشرين سنة ، مط شفتيه في سخط صامت لأنه أمر كيف ينبغي أن يتصرف بمهنته الخاصة ، وأخيراً انطلق بعربته ، ومامي إلى جانبه ، وكل منهما صورة حقة للإفريقي الساخط المتجهم الوجه .

- «إن أنا لم أساعد كثيراً آل سلاتري الساقطين هؤلاء، بحيث يضطرون إلى دفع نقودهم في نواح أخرى»، قال جيرالد، وقد استشاط غيظاً، «عندئذ سيوافقون على بيعي فدادينهم القليلة التي يرثى لحالها من الأغوار التي تكسوها المستنقعات، وبذلك تتخلص الولاية منهم بطريقة سهلة». ثم أشرق وجهه بوحي من إحدى فكاهاته المعتادة: «هلمي يا ابنتي، دعينا نذهب ونخبر بورك أننا بدلاً من شراء دلسي بعناه إلى جون ويلكس».

وصعد السلم، وقد نسي مأساة قلب سكارلت واتجه بكل تفكيره نحو إثارة عبده بورك، بينما تبعته سكارلت ببطء، وقد يبست قدماها. وفي هذه الأثناء، خطر لها أن زواجها بآشلي لن يكون بالنتيجة أكثر شذوذاً من زواج والدها بإيلين روبلارد أوهارا. وتعجبت، كعادتها دائماً، كيف استطاع والدها الجهوري الصوت، الضعيف الإحساس، أن يتزوج بامرأة كأمها، إذ لم يكن هناك زوجان أكثر تفاوتاً منهما، في النسب والتربية وطرق التفكير والتدبير.



تارا

3

كانت إيلين أوهارا في الثانية والثلاثين من عمرها ، وحسب مفاهيم زمانها ، اعتبرت متوسطة السن . امرأة ولدت ستة أطفال ، ودفنت ثلاثة منهم ، طويلة القامة ، يعلو رأسها نحو شبر عن قامة زوجها القصير العصبي ، إلاّ أن مشيتها الرشيقة المتزنة بأطواق تنورتها المتهادية ، تخفف من غلواء ارتفاعها . وكان عنقها البارز من طوق قميصها المخملي الأسود نحيلاً مستديراً ، بلون القشدة ، يميل قليلاً إلى الخلف بصورة دائمة ، جراء ثقل شعرها الكث ، الملتف داخل شبكة في مؤخر رأسها . أما عيناها السوداوان المائلتان ، والمظللتان بأهداب قاتمة كالحبر ، وكذلك شعرها الأسود ، فقد ورثتهما عن أمها الفرنسية التي كان والداها قد التجأا إلى جزيرة هايتي إبان الثورة عام ١٧٩١ ، وعن أبيها ، الجندي في جيش نابليون ، ورثت أنفها المستقيم الطويل ولحيها المربع ، الذي حسّن شكله وجنتيها اللطيفتي الانحناء . ومن الحياة فقط ، اكتسب وجهها مسحة الكبرياء ، الخالية من العجرفة ، كما اكتسبت هي نزعتها الخيرة ، وطبيعتها المتشائمة ، وجفاف روحها .

وكان يمكن لإيلين أن تكون امرأة جميلة جذابة ، لو أن في عينيها أي بريق ، أو أن في ابتسامتها شيء من الدفء الفعال ، أو أن في صوتها ، الذي كان يطرق مسامع أفراد عائلتها وخدمها بنغمة رقيقة ، بعض الابتداء والطبع ، إذ كانت تتكلم بصوت ناعم متداخل غامض كأبناء جورجيا الساحلية ، سلسة النطق بالحروف الصوتية ، رخيمة بالحروف الصحيحة ، تشوب كلامها بقية فاضحة من لهجتها الفرنسية . وخلاصة القول إنه كان صوتاً لم يرتفع يوماً ما بأمر موجه لخادم ، أو بتأنيب لطفل ، ولكنه كان يطاع على الفور ، في تارا ، حيث كان صوت زوجها المزمجر الراعد يهمل برفق .

وتتذكر سكارلت ، بقدر ما تسعفها الذاكرة ، أن والدتها كانت أبداً على الوتيرة عينها ، ذات صوت رقيق عذب ، سواء في المدح أو اللوم ، وذات أسلوب حازم جازم ، بالرغم من المساوئ اليومية التي ترتكبها حاشية جيرالد الصاخبة . ثم ذات نفس مطمئنة دائماً ، وقامة منتصبة لم تحنها حتى عند وفاة أولادها الثلاثة .

وهي لا تذكر يوماً ، شاهدت فيه أمها وظهرها يلمس ظهر الكرسي الذي تجلس عليه ، أو شاهدتها مرة تجلس وليس في يدها عمل صغير من أعمال الإبرة ، اللهم إلا في أوقات الطعام أو في أثناء زيارتها للمرضى ، أو إجرائها لحسابات المزرعة ، فهي تتسلى بالتطريز البديع ، بحضور الرفقة ، وإن كانت وحيدة انهمكت يداها بقمصان جيرالد ذات الكشاكش ، أو بفساتين بناتها ، أو بأثواب العبيد . ولم يسع سكارلت أن تتصور يدي أمها دون الكشتبان الذهبي ، أو أن ترى شخصها ذا الحفيف دون مرافقة الزنجية الصغيرة ، التي كانت وظيفتها الوحيدة في الحياة جمع بقايا الخيطان ، وحمل حقيبة الخياطة المصنوعة من خشب الورد ، من غرفة إلى أخرى ، إثر إيلين ، المتجولة في أنحاء البيت ، تشرف على الطبخ ، والتنظيف ، وصناعة الثياب الكثيرة لأفراد المزرعة .

وكذلك لم تشاهد سكارلت أمها يوماً تخرج عن رباطة جأشها ، أو تخل بمواعيدها الشخصية ، قيد شعرة ، أياً كانت الساعة ، في الليل أو في النهار .

وكانت إيلين إذا أرادت اللبس لحضور حفلة رقص أو لاستقبال ضيوف ، أو حتى للذهاب إلى جونسبورو لمشاهدة المحاكمات ، تحتاج غالباً إلى ساعتين من الزمن ، وخادمتين ، ومامي ، لإبرازها بالصورة التي ترضيها ، رغم أن زينتها السريعة في الحالات الطارئة كانت مثار الدهشة .

ولـمّا كانت غرفة سكارلت تقع في الجانب الآخر من القاعة التي تقع فيها غرفة أمها ، فقد اعتادت منذ طفولتها سماع وقع الأقدام السوداء العارية ، المهرولة فوق الأرض الخشبية الصلبة ، في ساعات السحر ، كما اعتادت تمييز الطرقات المستعجلة على باب غرفة أمها ، وأصوات العبيد المرتجفة المكتومة تهمس بحوادث المرض والولادة والموت في مساكن العبيد المؤلفة من صف طويل من الغرف المبيضة . وكما يفعل الأطفال ، كانت سكارلت تزحف نحو الباب مراراً ، تسترق النظر من أضيق شقوقه ، لترى والدتها تبرز من الغرفة المظلمة ، حيث شخير والدها ما زال منتظماً لا يعكره طارئ ، إلى الضوء المرتعش الصادر من قنديل مسند إلى الحائط ، وقد تأبطت حقيبة الأدوية ، وسرحت شعرها أنيقاً كما يجب ، ولم تنس أن تعقد جميع أزرار قميصها .

وكم أحست بالراحة النفسية وهي تسمع همسات أمها الحازمة ، الرحيمة ، وهي تخطو على رؤوس أصابعها ، خارجة من القاعة : «اصمتوا . . . لا ترفعوا

أصواتكم هكذا . . . ستوقظون السيد أوهارا . . . ليسوا مريضين جداً بحيث يخشى عليهم من الموت» .

أجل ، كان من بواعث الطمأنينة في نفس سكارلت أن تعود زاحفة إلى سريرها ، وقد علمت بخروج أمها في الليل ، وبأن كل شيء يجري على ما يرام .

وفي الصباح ، وبعد جلسات تستغرق الليل بطوله ، بسبب ولادة أو موت ، عندما لا تجد أياً من الطبيبين فونتين ، الشيخ ، أو الشاب ، ليحضر ويساعدها ، حيث يكونان قد خرجا تلبية لنداء عاجل ، في مثل هذا الصباح ، تتصدر إيلين مائدة الفطور كعادتها ، وليس ما يشير إلى كونها مرهقة منهكة ، غير استدارة عينيها السوداوين ، بينما صوتها وتصرفاتها لا تفضحان من الإجهاد شيئاً .

وكانت تكمن في ثنايا تلك الرقة الجليلة طاقة فولاذية ، ترهب جميع أفراد البيت ، من جيرالد إلى البنات ، رغم أن الأول كان يفضل الموت على الإقرار بذلك .

أحياناً ، عندما كانت سكارلت تخطو على رؤوس أصابعها في أثناء الليل ، لتقبل وجنة أمها المديد ، كانت تتأمل الفم بشفته العليا الغضة كثيراً ، القصيرة جداً ، الفم الذي تؤذيه أدنى إساءة ، تتأمله متسائلة عما إذا كان قد استدار مرة في قهقهة من قهقهات الفتيات الماجنة ، أو همس بالإسرار ، خلال الليالي الطويلة ، في آذان الصديقات الحميمات . . . ولكن لا . . . إن ذلك لا يمكن أن يحدث . . فأمي كانت أبداً كما هي الآن : بنيان من القوة ، وينبوع من الحكمة . . . والإنسان الوحيد الذي يعرف الجواب لكل شيء .

إلا أن سكارلت لم تصب ، فلسنين خلت ، كانت إيلين روبلارد ، ابنة سافانا ، تقهقه دونما سبب واضح ، كما تفعل جميع الفتيات في سن الخامسة عشرة في تلك المدينة الساحلية الساحرة ، كما كانت تتهامس وصديقاتها خلال الليالي الطويلة ، يتبادلن الثقة ، وتخبرهن كل أسرارها إلاّ واحداً . . . حدث ذلك في السنة التي دخل فيها جيرالد حياتها ، وهو الذي يكبرها بثماني وعشرين سنة ، والسنة التي خرج فيها الصبا من قلبها بخروج ابن عمها ، الفتى الأسود العينين ، فيليب روبلارد . إذ لم يكد فيليب ذو النظرات النفاذة ، والأساليب الأبدة ، يغادر سافانا للأبد ، حتى انتزع معه إشراقة الشباب من قلب

إيلين ، مخلفاً للإيرلندي المقوس الساقين الذي تزوجها ، مجرد قشرة لطيفة .

ولكن ذلك كان كافياً بالنسبة إلى جيرالد المأخوذ بروعة هذا الحظ الذي لا يمكن تصديقه ، حظ الزواج بها . وإذا كانت هي قد فقدت شيئاً ، فإنه لم يفتقده أبداً .

لقد كان رجلاً أريباً ، ثاقب الفكر ، أدرك أن زواجه بها لا يقل غرابة عن أعجوبة حقيقية ، إذ كيف يتسنى لرجل إيرلندي بلا مال ولا نسب يدعمانه (إذ كان جيرالد عصامياً نسيج نفسه) أن ينجح في الزواج بابنة إحدى أعرق وأغنى عائلات أهل الساحل !

*

وكان جيرالد قد رحل من إيرلندا إلى أميركا وهو في الواحدة والعشرين من عمره ، رحل على عجل ، كالكثير من الإيرلنديين ، قبله وبعده ، من الذين هم أرفع أو أدنى مرتبة منه ، رحل وليس يملك إلا الثياب التي يلبسها وشلنين اثنين زيادة عن أجرة الرحلة ، وثمناً لرأسه كان يشعر أنه أعظم مما يستحقه الإثم الذي ارتكبه . لقد اضطر إلى مغادرة وطنه ، ومغادرته فجأة ، عندما اهتمت الحكومة البريطانية اهتماماً شديداً بمقتل وكيل إيجار أورنجي لملاّك إنكليزي غائب ، رغم أنه لم يكن في هذا الجزء من الجحيم أحد من الأورانجيين يساوي في نظر الحكومة الإنكليزية ، أو في نظر الشيطان نفسه ، مبلغ مائة جنيه . . . ورغم أن جيرالد كان قد دعا حقاً وكيل الإيجار المذكور بلقب نغل أورانجي ، إلاّ أن ذلك بنظره لم يكن ليعطي الرجل حق إهانته بترنيم السطور الأولى من نشيد «مياه بوين» .

كان قد مضى على معركة بوين أكثر من قرن ، ولكنها بالنسبة إلى آل أوهارا وجيرانهم كانت كأنها حدثت بالأمس القريب ، يوم ضاعت آمالهم وأحلامهم ، كما ضاعت أموالهم وأراضيهم في المعركة ذاتها التي أطاحت بأمير من آل ستيوارت ، خائف فار ، ترك وليم أورانج وجنوده ، البغيضين ذوي الشارات البرتقالية اللون ، ليقضوا على حلفاء آل ستيوارت من الإيرلنديين .

لهذا السبب ، ولأسباب أخرى ، لم تمل عائلة جيرالد إلى اعتبار حصيلة خصامه القاتلة أمراً جدّ خطير ، إلاّ من حيث اقترانها بعواقب خطيرة ، فقد كان آل أوهارا ، منذ سنين ، على علاقة سيئة بالشرطة الإنكليزية ، جراء نشاطهم

المريب ضد الحكومة ، ولم يكن جيرالد أول أفراد العائلة ، الذي حمل قدمه بيده ، وغادر إيرلندا بين السحر والشروق ، بل سبقه أخواه الكبيران ، جيمس وأندرو ، اللذان يكاد لا يذكر عنهما شيئاً سوى أنهما كانا شابين مطبقي الشفاه أبداً ، يروحان ويجيئان في الليل بمهمات غامضة وفي أوقات غير اعتيادية ، أو يختفيان طيلة أسابيع ، دفعة واحدة ، الأمر الذي كان يزيد في قلق أمهما المضني .

وقبل سنوات ، رحلا إلى أميركا ، إثر اكتشاف ترسانة بنادق مطمورة تحت حظيرة خنازيرهم . وهما الآن تاجران ناجحان في سافانا ، المدينة التي «لا يعلم إلا الله وحده أين تقع» على حد قول والدتهما ، كلما ذكرت أكبر أولادها من الذكور ، وبالطبع أرسلت العائلة جيرالد إلى مقر أخويه الكبيرين .

غادر البيت وقبلة أمه السريعة على وجنتيه ، ودعاؤها الكاثوليكي الحار يرن في أذنيه ، إلى جانب نصيحة والده الوداعية : «تذكر من أنت ، وحاول أن تستفيد من كل إنسان» ، بينما وقف أخوته الخمسة الطوال يودعونه بابتسامات الإعجاب والإشفاق ، فقد كان بمثابة الطفل منهم ، والمخلوق الصغير بين أفراد عائلة صلبة العود ، ضخمة البنية ، فأخوته الخمسة وأبوه كانت تتراوح أطوالهم بين ١٨٥ و١٩٠ سم بعروض مناسبة ، بينما قنع هو ، وقد بلغ الواحدة والعشرين ، بمائة وستين سنتيمتراً ، مدركاً أن ذلك هو ما سمحت به حكمة الله ، فقد كان مثال الرجل الذي لا ينقص نفسه بأسف لا جدوى منه جراء نقص في قامته ، ولا يعتبر أبداً أن مثل هذا النقص سيعوقه عن تحصيل ما يريد . والحقيقة أن بلوغه ما هو عليه ، يعود نوعاً ما إلى صغر حجمه ، لأنه كان قد تعلم ، منذ الطفولة ، أن على الناس صغار الجثة ، أن يكونوا أشداء شجعان ، ليتمكنوا من العيش بين الكبار . ولقد كان جيرالد شديداً شجاعاً .

أما أخوته الطوال القامة ، فكانوا قبيحي المنظر ، وافري الصمت ، تلتهب في نفوسهم ، بحقد مكبوت ، ذكريات أمجاد عائلتهم الضائعة إلى الأبد ، والتي كثيراً ما ينفسون عن ضياعها بمزاح مرير . ولو كان جيرالد صلب العود ، لحذا حذو غيره من آل أوهارا فالتحق بتكتم وهدوء بالثائرين على الحكومة ، ولكنه كان جهوري الصوت عنيداً ، كما يحلو لأمه أن تصفه ، ذا شعر أكثر نعومة من مزاجه ، سريعاً في استعمال قبضاته ، في طبعه ميل فاضح إلى الشجار يلحظه

الإنسان العادي ، وإذا ما خطر بين شباب آل أوهارا الطوال ، بدا كالفرخ المزهو بين ديوك ضخام ، ولذلك كانوا يحبونه ، ويتكلفون التحرش به لسماع زئيره ، ثم ينهالون عليه بقبضاتهم الكبيرة بقدر كاف لردع أخ صغير وإبقائه ضمن حدود الآداب .

وإذا كانت الذخيرة الثقافية التي حملها جيرالد معه إلى أميركا ضئيلة ، فهو في الواقع لم يدر بوجودها ، ولم يكن ليبالي لو أنبئ عنها ، لقد علمته أمه القراءة والكتابة بخط واضح ، ومهر بالحساب ، وهنا انقطعت معرفته النابعة من الكتب ، فكانت خبرته باللاتينية تنحصر في ما يردده المصلون ، وبالتاريخ في ما يتعلق بأخطاء إيرلندا المتعددة ، ولم يكن يعرف من الشعر إلاّ نتاج مور ، ومن الموسيقى سوى أناشيد إيرلندا المتوارثة منذ القدم . وبالرغم من أنه كان يحترم أولئك الذين فاقوه في تحصيل العلم ، احتراماً حقيقيّاً ، إلا أنه لم يكن يحس بنقصه في هذا المضمار ، وأي حاجة له بمثل هذه الأمور ، في بلاد جديدة جمع فيها أعظم فلاحي إيرلندا جهلاً ثروات طائلة ، بلاد تتطلب أن يكون الرجل قوياً ، لا يهاب العمل ، وحسب .

وكذلك أخواه جيمس وأندرو ، اللذان استخدماه في مخزنهما في سافانا . لم يندما هما على ضآلة ثقافته ، إذ إن خطه الواضح ، وأرقامه الدقيقة ، ومقدرته الفائقة في المساومة ، كل هذه أكسبته احترامهما ، في حين أنه لو كان ذا معرفة بالأدب ، أو خبرة رفيعة بالموسيقى ، لما ظفر بغير ازدرائهما .

لقد كانت أميركا ، في السنين الأولى من ذلك القرن ، رحيمة بالإيرلنديين ، فجيمس وأندرو مثلاً ، اللذان بدأا عملهما بجر عربات البضائع المغطاة ، من سافانا إلى مدن جورجيا الداخلية ، قد أفلحا في محلهما التجاري ، وأفلح جيرالد معهما .

وأحب جيرالد الجنوب ، وسرعان ما اعتبر نفسه من الجنوبيين . لقد كانت تحيط بالجنوب والجنوبيين بالنسبة إليه هالة غامضة لم يستطع إدراك كنهها في بادئ الأمر ، ولكنه يوم فهم الجنوب تبنى جميع أفكار أهله وعاداتهم ، بكل طيبة قلبه الفطرية ، من لعب البوكر ، إلى سباق الخيل ، إلى المناقشات السياسية الحامية ، إلى قانون المبارزة ، إلى حقوق الولايات ، إلى العداء الجهنمي لكل شمالي ، إلى العبودية وملوك القطن ، إلى احتقار البيض المعدمين ، وإلى الغلو

في ملاطفة النساء ، حتى إنه تعلم كيف يمضغ التبغ ، وبالطبع لم تكن به حاجة إلى تعويد رأسه على شراب الوسكي ، إذ كان قد ولد برأس معد للسكر .

ولكن جيرالد ظل جيرالد ، لقد تغيرت عادات عيشه وأفكاره ، ولكنه لم يكن ليغير أخلاقه ، ولو كان بمقدوره ذلك ، أعجب بالأناقة المتكلفة لمزارعي الأرز والقطن الكبار ، الذين كانوا يغدون على سافانا من ممالكهم (مزارعهم) المليئة بالأشجار التي تكثر عليها الطحالب ، ممتطين خيولهم الأصيلة ، متبوعين بعربات زوجاتهم اللواتي لا يقللن ظرفاً وأناقة عنهم ، ثم بعربات عبيدهم . ولم يكن لجيرالد أن يبلغ ظرفهم ، إذ رغم طربه بسماع أصواتهم المتكلفة المتباطئة ، كان لسانه قد تعود اللهجة الإنكليزية المحرفة السريعة . وكذلك أحب جيرالد تسامحهم العرضي في الأمور الهامة ، كالمغامرة بثروة ، من عبد أو مزرعة ، مثلاً ، بمجرد قلب ورقة لعب ، وتسجيل خسائرهم بمزاج طيب ، وبضجيج لا يعلو ما ينجم عند توزيع البنسات على صغار العبيد .

إلا أن جيرالد ، وقد ذاق مرارة الفقر ، لم يفلح أبداً في تعويد نفسه على تقبل الخسارة بروح طيبة ، أو بتسامح محمود .

إنهم شعب بهيج هؤلاء الجورجيون الساحليون ، بأصواتهم الناعمة وتهيجهم السريع ، وتناقضاتهم المثيرة ، ولذلك أحبهم ، رغم امتيازه عليهم بنشاط وحيوية دائمة ، وهو القادم حديثاً من بلاد تهب فيها الرياح ثلجية رطبة ، ولا تزرع مستنقعاتها الكثيرة الضباب بذور حمى ، فلا غرابة أن تميزه هذه الصفات عن هؤلاء الناس الخاملين ، الذين يعيشون في مناخ شبه استوائي ، وفي مستنقعات تنضح بجراثيم الملاريا .

وقرر أن يأخذ عنهم ما يجده نافعاً ، متجنّباً سيئاتهم ، وسرعان ما وجد أن البوكر هي أنفع عادات الجنوبيين ، البوكر وثبات الرأس في شرب الويسكي . والواقع أن نيله لاثنتين من أحسن ممتلكاته الثلاثة ، وهما عبده بورك ومزرعته تارا ، يعود الفضل فيه لاستعداده الفطري للعب الورق ، وللشراب الأصهب ، أما قنيته الثالثة الثمينة ، زوجته ، فكان يعزو حظ نيلها إلى رحمة الله .

وقد كسب جيرالد عبده بورك ، الأسود البراق ، المكرم ، والمدرب على كل فنون التأنق في تصفيف الشعر وتزيينه ، نتيجة لعبة بوكر ، استمرت طيلة الليل ، مع مزارع من جزيرة سانت سيمونس عادلت جرأته في «البلف» جرأة

جيرالد ، وتخلف رأسه عن رأسه في الصمود لويسكي مدينة نيو أورليانس . ورغم أن سيد بورك السابق تقدم لاسترجاعه بضعفي ثمنه ، إلاّ أن جيرالد رفض ذلك بإصرار ، لأن اقتناء أول عبد ، ولا سيما أن بورك كان أمهر عبد في الساحل ، كان بمثابة الخطوة الأولى نحو تحقيق أمنية قلبه في أن يصبح صاحب عبيد وسيد أرض .

كان رأيه قد قر على ألاّ يقضي جميع أيامه في المساومة ، كما فعل أخواه جيمس وأندرو ، أو أن يقضي جميع لياليه في مراجعة أعمدة الأرقام الحسابية ، على ضوء الشموع . لقد أدرك ، بثاقب فكره ، أن مكانة التجار الاجتماعية وضيعة ، الأمر الذي لم يدركه شقيقاه ، فخامرته الرغبة في أن يصبح مزارعاً ، ودغدغ قلبه الأمل في أن يرى فدادين الأرض الشاسعة تمتد خضراء أمام باصرتيه .

هكذا ، بتصميم صلب لا يلين ، تحفزه نهمة إيرلندي ، كان يعمل أجيراً في أرض ، هي في الأصل لأهله ، يجنون خيراتها ، ويصطادون حيواناتها ، بهذا التصميم ، وبدافع هذا النهم ، عزم على أن يرى بيته الخاص ، ومزرعته الخاصة ، وخيوله الخاصة ، وعبيده الخاصين ، أن يراها حقائق ملموسة ، هنا في هذه البلاد الجديدة ، آمناً من الخطرين المتلازمين الجاثمين على صدر البلاد التي غادرها وهما الضرائب التي تلتهم المحاصيل والدواجن ، وخطر مصادرة الأرض المفاجئ الدائم .

ولكن جيرالد ، اكتشف ، مع مر الأيام ، أن امتلاك الرغبة شيء وتحقيقها شيء آخر ، وأن جورجيا الساحلية يتمركز فيها جماعة من الارستقراطيين المتمولين ، تمركزاً مكيناً ، بحيث لن يقدر له حتى مجرد الأمل في بلوغ المكانة التي يتوخاها .

على أن يد القدر اشتركت مع يد البوكر ، لتقدما له المزرعة ، التي سماها فيما بعد «تارا» ، كما اشتركتا في الوقت نفسه بنقله من الساحل إلى مرتفعات جورجيا الشمالية .

حدث ذلك في إحدى ليالي الربيع الحارة ، في إحدى صالات سافانا ، حيث أرهف جيرالد أذنيه في أثناء حديث عرضي مع أحد الغرباء الجالسين بقربه ، وكان هذا في الأصل من سكان سافانا ، عاد إليها حديثاً ، بعد غياب

اثنتي عشرة سنة قضاها في المناطق الداخلية ، وربح في أثنائها في يانصيب الأراضي الذي أجرته الدولة لتقسيم المساحات الشاسعة في جورجيا الوسطى ، تلك المساحات التي تنازل عنها الهنود الحمر في السنة التي سبقت مجيء جيرالد إلى أميركا . وبالطبع قصد الغريب أرضه الجديدة ، وأنشأ فيها مزرعة ، ولكن حدث قبيل مجيئه أن التهمت النيران بيته ، فأحس بالملل من ذلك المكان البغيض وشعر أنه سيغدو أسعد الناس إذا ما تخلص منه .

وفي الحال بدأ جيرالد ، الذي لم تبارح رأسه فكرة امتلاك مزرعة ، يمهد للموضوع ، وزاد اهتمامه بالأمر عندما علم من الغريب أن الأقسام الشمالية من الولاية قد احتشدت بالقادمين الجدد من كارولينا وفرجينيا .

وكان جيرالد قد عاش في سافانا مدة كافية لتفهم وجهة نظر سكان الساحل ، القائلة بأن جميع مناطق الولاية الأخرى أحراج كثيفة نائية عن العمران ، يتربص في كل دغل من أدغالها هندي أحمر ، كما كان قد زار في أثناء قيامه بإنجاز بعض الأعمال لأخويه ، مدينة أوغستا ، التي تقع على نهر سافانا بعيدة مائة ميل عن مصبه ، وكذلك توغل بعيداً جداً في الداخل ، بحيث زار المدن القديمة الواقعة غربي أوغستا . فهو يعرف أن تلك المناطق مستقرة الأحوال ، تماماً كما هو الأمر في الساحل ، ولكنه استنتج من حديث الرجل الغريب أن مزرعته تقع على بعد أكثر من مائتين وخمسين ميلاً إلى الداخل من سافانا ، باتجاه الشمالي الغربي ، أي على مسافة أميال قليلة جنوبي نهر تشاتا هوتشي ، ذلك النهر الذي يعلم جيرالد أن الأراضي الواقعة شماليه بحوزة الهنود الشيروكيين ، ولذلك دهش كثيراً عندما سمع الغريب يسخر من الآراء المتعلقة بمضايقات الهنود ، ويروي كيف أن مدناً زاهرة هي في سبيل النمو ، وأن مزارع تزدهر في تلك الأراضي الجديدة .

وانسلخت ساعة ، وبدا الحديث يفقد حرارته ، وعندئذ وبقصد ماكر ، يتنافى ومسحة البراءة الطاغية في عينيه الزرقاوين البراقتين ، اقترح جيرالد البدء باللعب ، فنفذ الاقتراح ، ومضت ساعات من الليل ، ودارت كؤوس الشراب على أفواه اللاعبين ، إلى أن استسلم جميع المتبارين ، ولم يبق في الحلبة سوى جيرالد والغريب ، الذي قامر بكل أوراقه على المزرعة ، وتبعه جيرالد مقامراً بكل أوراقه أيضاً على حقيبة نقوده ، التي لو اتفق أن كانت تخص شركة

الأخوين أوهارا ، لما تورع جيرالد عن الاعتراف بذلك أمام الكاهن في الصباح التالي ، ولكنه كان يعرف ما يريد ، وهو إذا أراد شيئاً بلغه من أقرب طريق ، بالإضافة إلى أنه كان يؤمن بحسن حظه كثيراً ، حتى إنه ، وبعد أربعة أشواط تعادل من اللعب ، لم يحر أبداً في كيف يمكن تدبير النقود لو أن يداً أمهر من يده نزلت إلى ساح الصراع .

ـ إن ما نلته ليس بالصفقة الرابحة ، وإنني لمسرور لعدم اضطراري إلى دفع ضرائب أكثر على تلك الأرض» قال صاحب (الفل اس) متنهداً ، وهو يطلب حبراً وقلماً ، ثم أردف «وقد احترق البيت الكبير منذ سنة ، واكتست الحقول بالشجيرات وفواسق بذور الصنوبر . . . ولكن ماذا يهمني؟ إنها خاصتك !» .

أما جيرالد ، ففي ذلك المساء ذاته ، وبينما كان بورك يساعده في الصعود إلى سريره ، التفت إليه قائلاً برصانة :

ـ «إياك أن تخلط بين ورق اللعب وشرب الويسكي ما لم تكن مفطوماً على الويسكي الإيرلندية المقطرة» .

فما كان من العبد ، الذي راح يحاول أن يعبر عن إعجابه بسيده الجديد ، بعبارة ركيكة ، إلاّ أن أجاب الجواب المطلوب ، بمزيج من لغة الجيشي ولغة ولاية ميث ، جواباً قد يستعصي على كل إنسان ، عدا هذين الاثنين فقط .

كان نهر فلنت ، ذو المياه الموحلة ، المنساب صامتاً بين جدارين من أشجار الصنوبر والسنديان المائي مكسوين بأوراق الدوالي المتشابكة ، ينثني بمجراه حول أرض جيرالد الجديدة انثناءة الذراع ، فيعانقها من جانبيها . وهنالك ، فوق الربوة الصغيرة حيث كان يقوم البيت ، وقف جيرالد ، يتأمل الحاجز الأخضر المرتفع ، ويرى فيه شاهداً مرئيّاً بهيجاً على ملكيته ، كأنه قد ابتناه هو نفسه ، لتحديد أراضيه . وقف فوق أسس البناء الحجري ، المسودة من جراء الحريق ، ينظر إلى الممر الواسع ذي الأشجار على كلا جانبيه ، المؤدي إلى الطريق العامة ، ثم راح يشكر ربه خاشعاً . ولكن فرحته العميقة كانت أقوى من أن تجعله يتم صلاة الشكر : فإن هذين الصفين من الأشجار القاتمة المنظر ، ملكاه ، وملكه أيضاً ذلك المرج الأخضر المهجور ذو الأعشاب النامية إلى حد الخصور تحت أشجار المانيوليا الفتية ذات الأزهار النجمية البيضاء ، وتلك الحقول غير المحروثة ، المرصعة بشجيرات الصنوبر وبغيرها من النباتات ، والممتدة بأراضيها

الحمراء التربة ، بعيداً في كل الجهات الأربع ، كانت ملكه أيضاً ـ لقد أضحت جميعها في قبضته ، بفضل رأسه الإيرلندي الذي لا تقوى عليه الخمرة ، وبفضل شجاعته في المجازفة بكل شيء معتمداً على يد ماهرة بلعب الورق .

واستطاع جيرالد بنقوده القليلة التي قامر بها ، وبما تمكن من اقتراضه من شقيقيه غير المتحمسين لمشروعه ، وبمبلغ يعتد به ناله من طريق رهن الأرض ، استطاع شراء أول دفعة من عمال الحقول ، وجاء بهم إلى تارا ، ليحيا حياة الوحدة كعازب ، في بيت ناظر العمال ، ذي الغرف الأربع ، حتى يأتي ذلك الوقت ، الذي ينبغي أن ترتفع فيه جدران تارا البيضاء .

ثم اندفع ينظف الأرض ، ويزرع القطن ، ويقترض من أخويه جيمس وأندرو نقوداً أكثر ليبتاع عبيداً جدداً . وكان آل أوهارا ، كأفراد عشيرة قبلية ، يتعاونون في السراء والضراء ، لا حبّاً ببعضهم بل لأن السنين المرة علمتهم أن استمرار بقاء عائلة ما يفرض أن تظهر جبهة موحدة الصفوف أمام الناس . ولذلك ، أمده أخواه بالنقود ، ولكنهما استوفياها في السنين التي تلت ، مضافة إليها فائدتها . وأخذت المزرعة تتسع شيئاً فشيئاً ، كلما أضاف إليها جيرالد فدادين جديدة كان يشتريها من الأراضي المجاورة ، ولم يمض وقت حتى ارتفع البيت الأبيض ، وانقلب الحلم إلى حقيقة ملموسة .

هكذا تم بناء البيت بسواعد العمال الزنوج ، بناء ضخم منسدح كالثلج فوق أرض مرتفعة مشرفة على منعطف المراعي الخضراء الممتدة انحداراً حتى ضفة النهر . وكم سر منظره جيرالد ، فهو رغم جدته ، كان يبدو كبناء تليد ، فأشجار السنديان القديمة ، التي شاهدَت مسير الهنود من تحت أغصانها ، أخذت تحضن البيت بجذوعها الضخمة ، بينما تشابكت فروعها فوق سطحه كبرج ذي ظلال كثيفة ، والمرجة الخضراء ، التي كانت أصلاً منبتاً للأعشاب الضارة ، ازدهت الآن بنبات البرسيم المتكاتف وبحشائش برمودا بفضل حرس جيرالد على المحافظة عليها .

وابتداء من ممر أشجار الأرز إلى صف الغرف البيضاء الخاصة بالعبيد ، كان المرء يشعر بمظاهر الصلابة والثبات والمواظبة المتجلية في تارا ، وكان جيرالد كلما دار فوق فرسه خبباً حول منعطف الطريق ، ولمح قمة بنائه تبرز من خلال الأغصان الخضراء ، كلما ينتفخ قلبه خيلاء كما لو أنه يلمحها للمرة الأولى .

أما فيما يتعلق بجيرانه في الولاية ، فقد كان على علائق ممتازة معهم جميعاً ، عدا آل ماك أنتوش الذين تتصل أراضيهم بأراضيه في الجهة الغربية ، وكذلك آل سلاتري الذين تمتد أفدنتهم الثلاثة البائسة شرقي أراضيه ، بمحاذاة المستنقعات المنخفضة ، بين النهر ومزرعة جون ويلكس .

كان آل ماك أنتوش من أصل اسكتلندي ـ إيرلندي وأورانجي ، وكان أصلهم هذا كافياً للعنهم في نظر جيرالد إلى الأبد ، حتى ولو كانوا حائزين على جميع صفات القديسين بين الكاثوليك . ومع أنهم ، في الحقيقة ، أقاموا في جورجيا زهاء سبعين سنة ، بعد أن عاش جيل منهم في كارولينا ، إلا أن أول من رست قدماه على الشاطئ الأميركي من عائلتهم كان من ألستر السبة الكافية بالنسبة إلى جيرالد .

وكذلك كان آل ماك أنتوش قليلي الكلام ، عنيدين ، لا يتزوجون إلاّ بأقربائهم في كارولينا ، ولهذا لم يكن جيرالد ينفرد في بغضهم ، إذ إن جميع سكان الولاية كانوا يتصفون بحسن الجوار وطيب المعشر ، دونما تسامح مع من تعوزه هاتان الصفتان بالذات ، ولم تزد شائعات عطفهم على تحرير العبيد شيئاً من حب الناس لهم ، فانغوس الشيخ لم يعتق في حياته عبداً واحداً ، بل إنه اقترف مخالفة اجتماعية لا يمكن غفرانها ، وهي بيع بعض زنوجه لتجار العبيد ، المارين في طريقهم إلى حقول القصب في لويزيانا ، ومع ذلك فقد استمر انتشار تلك الشائعات .

أما آل سلاتري ، فكانوا ذوي شأن آخر ، إذ لكونهم من البيض الفقراء لم يمنحوا حتى الاحترام المشوب بالحقد ، الذي انتزعته شخصية أنغوس ماك أنتوش ، المستقلة المتصلبة من العائلات المجاورة ، كما أن شخصية سلاتري الشيخ ، الذي أصر على التمسك بفدادينه القليلة ، رغم إغراءات البيع المتكررة من قبل جيرالد وجون ويلكس ، لم تكن على شيء من الدهاء والجلد . وكانت زوجته جعدة الشعر ، عليلة ، كريهة المنظر ، ذات نسل من أطفال مكتئبين شبيهين بالأرانب ، يتزايدون كل سنة ، وكذلك لم يكن توم سلاتري يملك رقيقاً ، الأمر الذي اضطره وولديه الكبيرين إلى الكدح جاهدين في فدادين قطنهم القليلة ، بينما كانت الأم وبقية أولادها يعتنون بما يفترض أن يكون حديقة خضار .

وهكذا كان جيرالد على مودة وشيء من الإخلاص مع جميع الآخرين في الولاية ، وكان كل من أفراد آل ويلكس ، وآل كالفرت ، وآل تارلتون ، وآل فونتين ، يبتسم إذا ما شاهد شخصه الصغير ، فوق الحصان الضخم الأبيض ، يسير خبباً فوق مدخل بيته ، يبتسم ويأمر بإحضار كؤوس طويلة صب فيها ويسكي بوربون على ملعقة سكر صغيرة وغصن نعناع مسحوق .

والواقع أن جيرالد كان أهلاً لأن يُحب ، وقد علم الجيران في الوقت المناسب ما اكتشفه الأطفال والزنوج والكلاب بمجرد النظرة الأولى ، من أن وراء صوته الحاد الأجش ، وسلوكه الشرس ، يكمن قلب رحيم ، وأذن عطوف سريعة الاستجابة ، وفم يروي كل ما في جعبته .

أما سيدات المزارعين ، فكنّ آخر من يجاريه . والحقيقة أن جيرالد لم يبلغ تماماً مرتبة «الرجل الفاضل» إلا في ذلك المساء ، عندما أخبرت السيدة ويلكس زوجها ، وهي سيدة عظيمة بموهبة صمت نادرة ، كما عرفها جيرالد ، أخبرته وقد لمحت حصان جيرالد يدب فوق الممشى ، «أن لسانه فظ ولكنه رجل فاضل» .

ولم يكن هو يعلم أنه سلخ عشر سنين كي يبلغ هذه المرتبة ، إذ لم يدر بخلده يوماً أن جيرانه كانوا ، في أول عهدهم به ، يحدجونه بنظر شزر ، وهو الذي لم يخامر تفكيره أدنى شك ، بأنه انتسب إلى مرتبتهم منذ وطئت قدماه تارا لأول مرة .

وعندما بلغ الثالثة والأربعين من العمر ، وكان على ما هو عليه من ضخامة الجثة ، ونضارة الوجه ، بحيث بدا كسيد صياد انتزع من صورة للطرد ، عنّ له أن تارا ، مع كونها عزيزة لديه ، وأن أهل الولاية بقلوبهم المفتوحة له ، وبيوتهم المرحبة به ، لم يتموا سعادته ، فهو بحاجة إلى زوجة .

وكان عبيد تارا قد اكتشفوا ، بغريزتهم الإفريقية التي لا تخطئ ، أن جيرالد ينبح عالياً دون أن يعض أبداً ، فاستغلوا نقيصته تلك بصفاقة . كان التهديد ببيعهم لتجار الجنوب ويجلدهم جلداً مريعاً يملأ الجو من حولهم . ولكن لم يحدث أن بيع زنجي واحد من تارا ، ولم يجلد إلا سائس الخيل فقط ، بسبب إهماله سياسة فرس جيرالد المدللة بعد عودتها من رحلة صيد استغرقت النهار بطوله .

ولاحظ جيرالد بعينيه الزرقاوين الحادتين كيف أن بيوت جيرانه تدار كما ينبغي ، وكيف أن الزوجات ذوات الشعر الناعم والتنانير الفضفاضة يسسن الخدم بكل سهولة ويسر ، غير عالم بعمل هؤلاء النسوة المستمر من الفجر إلى منتصف الليل لارتباطهن بالإشراف على الطبخ والتمريض والعناية بالأطفال والخياطة والغسيل والكي ، إذ لم يكن يرى غير ما كان يتأثر به من نتائج ظاهرة .

وفي صباح أحد الأيام ، وبينما كان يرتدي ملابسه ليركب إلى المدينة لحضور المحكمة ، وضحت أمامه الحاجة الملحة إلى الزوجة ، إذ إن بورك أحضر له قميصه المفضل ذا الكشاكش ، فإذا به يجد أن الخادمة المسؤولة عن البيت قد أعدته ببلاهة فاضحة ، بحيث لا يصلح لأن يلبسه أحد سوى خادمه الخاص .

ـ «سيد جيرالد» خاطبه بورك وهو يطوي القميص بشكل مرض ، بينما هو يتقد غيظاً ، «إن ما تحتاج إليه هو الزوجة ، الزوجة التي تملك عدداً وفيراً من زنوج البيت» .

ولكن جيرالد أنبه على هذه الوقاحة ، رغم أنه كان يدرك أنه على صواب ، فالحقيقة أنه يحتاج إلى زوجة ، وإلى أولاد ، وإذا لم يسارع إلى نيلهم فاته القطار . على أنه لم يكن يريد الزواج بأي امرأة ، كما فعل السيد كالفرت ، الذي تزوج مربية أطفاله الشمالية ، بعد وفاة أمهم ، بل كان يريد زوجة سيدة ، وسيدة أصيلة تنعم بمحاسن كثيرة ، وتتمتع بمظاهر عديدة ، كالسيدة ويلكس ، وتملك المقدرة على إدارة تارا ، تماماً كما تدير السيدة ويلكس ممتلكاتها .

على أن صعوبتين اعترضتا طريق زواجه من عائلات الولاية ، الأولى : ندرة الفتيات اللواتي في سن الزواج ، والثانية ، وهي أكثر خطورة : كونه يعتبر مستوطناً جديداً ، رغم انقضاء قرابة العشر سنين على إقامته هنا ، كما يعتبر أجنبياً ، لا يعرف أحد شيئاً عن عائلته ، ولن ترضى أية أسرة بتزويج ابنتها من رجل مجهول النسب ، مع أن مجتمع جورجيا الشمالية لم يكن شديد التحفظ كمجتمع أرستقراطيي الساحل .

وعرف جيرالد أنه بالرغم من المودة الخالصة التي تربطه برجال الولاية الذين يصطاد معهم ، ويتعاطى الشراب ، ويتحدث بالسياسة ، إلاّ أن من الصعوبة بمكان عظيم أن يجد بينهم من يزوجه ابنته ، وكان يربأ بنفسه أن يثرثر حول

موائد العشاء بأن هذا الأب ، أو ذاك ، رفض بأسف أن يسمح لجيرالد أوهارا بالتودد إلى ابنته .

بيد أن معرفته لهذه الحقيقة لم تشعره بأنه أحط مرتبة من جيرانه ، فلم يكن في الوجود ما يكن أن يشعره بأنه أقل شأناً من أي إنسان في أية ناحية من النواحي ، وإنما كانت القضية مجرد عادة غريبة متبعة في الولاية هي أن تزوج البنات بأبناء العائلات التي عاشت في الجنوب مدة تزيد عن اثنتين وعشرين سنة والتي تملك أرضاً وعبيداً .

ـ «احزم . . . إننا ذاهبان إلى سافانا» ، أعلم جيرالد بورك ، «وإذا ما تلكأت ولو مرة فسأبيعك ، فإن التلكؤ ليس من عادتي» .

كان من الممكن أن يقدم كل من جيمس وأندرو بعض النصائح في موضوع الزواج هذا ، كما كان من الممكن وجود فتيات لدى أصدقائهما القدامى ، يجد فيهن ضالته ويجدن فيه زوجاً صالحاً ، ولكن جيمس وأندرو ، بعد أن استمعا لقصته بأناة ، لم يشجعاه إلاّ قليلاً ، إذ لم يكن لهما في سافانا أقارب ليسعيا في طلب عونهم ، لأنهما قد تزوجا قبيل مجيئهما إلى أميركا . أما بنات أصدقائهما القدامى فكن قد تزوجن منذ زمن ، وهن الآن يربين أطفالهن الصغار .

ـ «لست غنياً ولا تنتمي إلى عائلة رفيعة الشأن» خاطبه جيمس .

ـ «لقد جمعت مالاً وباستطاعتي تكوين عائلة عظيمة ، ولن أتزوج أية امرأة» .

ـ «إنك تحلق عالياً» علق أندرو بلهجة جافة .

ومع ذلك فقد بذل الشقيقان جهدهما في سبيله ، إذ كانا رجلين مسنين ، ذوي مكانة بارزة في سافانا ، لهما كثير من الأصدقاء ، فاستمرا طيلة شهر كامل ينتقلان بجيرالد من منزل إلى آخر ، يحضرون موائد العشاء ويشاركون في حفلات الرقص وفي النزهات .

ـ «توجد واحدة فقط استرعت انتباهي» قال جيرالد أخيراً . . . وأظنها لم تكن ولدت يوم رسوت على هذا الشاطئ» .

ـ «ومن تكون هذه التي استرعت انتباهك؟» .

ـ «الآنسة إيلين روبلارد» ، أجاب محاولاً التكلم بلهجته المعتادة : إذ إن عيني إيلين روبلارد السوداوين ، المائلتين قليلاً ، لم تخلبا انتباهه فحسب ، بل أكثر من

ذلك ، فبالرغم من أسلوبها الفاتر ، الداعي إلى الحيرة ، والغريب جداً بالنسبة إلى فتاة في الخامسة عشرة ، فقد سلبت لبه ، وفوق ذلك كانت تلازمها نظرة يائسة اخترقت فؤاده وجعلته أكثر رقة معها منه مع أي إنسان قابله في العالم .

ـ «ولكنك كبير جداً بحيث تعتبر بمثابة والدها !» .

ـ «إنني في مقتبل العمر !» صاح جيرالد ملتاعاً ، ما جعل جيمس يخاطبه بهدوء :

ـ «يا أخي . . ليس في سافانا فتاة زواجك بها أقل احتمالاً من زواجك بهذه ، فأبوها من آل روبلارد ، وهؤلاء الفرنسيون متعجرفون ، وأمها ـ تغمد الله روحها بواسع رحمته ـ كانت سيدة عظيمة» .

ـ «لا يهمني ذلك» قال جيرالد محتداً ، «فضلاً عن أن أمها ميتة ، وروبلارد الشيخ يحبني» .

ـ «كرجل نعم ، ولكن كصهر ، لا» .

ـ «الفتاة لن تقبل بك بوجه من الوجوه» اعترض أندرو «فمنذ سنة وهي تحب ذلك الظبي البري ، ابن عمها فيليب روبلارد ، رغم إلحاح عائلتها عليها ليل نهار لتتخلى عنه» .

ـ «ولكنه ذهب إلى لويزيانا منذ شهر» . قال جيرالد .

ـ «وكيف تعرف ذلك؟» .

ـ أعرف» أجاب جيرالد ، غير مكترث بأن يصرح أن بورك هو الذي زوده بهذا الخبر القيم ، وأن فيليب قد رحل غرباً بناء على رغبة عائلته الملحة ، «وأنا لا أعتقد أنها على حب جارف معه ، بحيث لن تنساه ، إن فتاة في سن الخامسة عشرة أصغر من أن تعرف الكثير عن الحب» .

ـ «إنهم يفضلون تزويجها بابن عمها المغامر ذاك ، على أن يزوجوكها» .

رغم ذلك كان ذهول كل من جيمس وأندرو يعادل ذهول أي إنسان آخر ، غداة انتشار النبإ القائل إن ابنة بيير روبلارد ستتزوج الإيرلندي الصغير الجثة القادم من شمالي المقاطعة ، وضج الناس داخل بيوت سافانا يتساءلون عن فيليب روبلارد الذي رحل إلى الغرب ، ولكن تساؤلهم لم يسفر عن شيء ، وبقي السؤال الحائر : لماذا ينبغي لأجمل صبايا روبلارد أن تتزوج رجلاً صغير الجثة ، جهوري الصوت ، أحمر الوجه ، لا يكاد علوه يبلغ أذنيها ، بقي سراً

بالنسبة إلى الجميع ، حتى جيرالد نفسه لم يعرف بالضبط كيف تم الأمر بكليته ، وكل ما يعرفه أن أعجوبة حدثت ، وأنه للمرة الوحيدة في حياته ، أحس بتواضع جم ، عندما وضعت إيلين ، الشديدة البياض والكثيرة الهدوء ، يداً خفيفة على ذراعه ، قائلة : «أريد الزواج بك يا سيد أوهارا» .

أما آل روبلارد ، المصعوقون ، فقد عرفوا سر ذلك جزئياً ، عدا إيلين ومربيتها ، الوحيدتين اللتين عرفتا كل شيء ، عرفتا قصة الليلة التي بقيت فيها الفتاة حتى الفجر تبكي وتتنهد كطفلة محطمة الفؤاد ، ثم نهضت في الصباح وقد حزمت أمرها واستقرت على رأي .

ففي عشية تلك الليلة ، سلمت مامي سيدتها الشابة ، ونذير الشؤم يخالجها ، رزمة صغيرة من نيو أورليانز ، معنونة بخط غريب ، رزمة حوت صورة صغيرة لإيلين ، ألقت بها على الأرض صارخة ، ورسائل أربع بخط يدها ، كانت قد بعثت بها إلى فيليب روبلارد ، ثم خطاباً مختصراً كتبه كاهن نيو أورليانزي يعلن فيه موت ابن عمها فيليب إثر مشاجرة في أحد البارات .

ـ «لقد أبعدوه ، والدي وبولين وبولاي ، لقد أبعدوه ، إني أكرههم . . إني أمقتهم جميعاً ، لا أريد رؤيتهم أبداً ، أريد أن أرحل بعيداً . . أريد أن أرحل بعيداً حيث لا أراهم ثانية ، أو أرى هذه المدينة ، أو أي إنسان يذكرني بـ . . . به» .

وعندما أوشكت الليلة على نهايتها ، احتجت مامي ، التي كانت نفسها تبكي فوق رأس سيدتها : «ولكن يا حلوتي ، لن تستطيعي فعل ذلك !» .

ـ «سأفعله ، إنه رجل شفوق ، سأفعله أو أذهب إلى دير شارلستون» .

لقد كان التهديد بدخول الدير هو الذي انتزع أخيراً موافقة بيير روبلارد الحائر الكسير القلب ، لأن تفكير ابنته بالاعتزال في الدير ، كان أسوأ لديه من زواجها بجيرالد أوهارا ، فضلاً عن أن الرجل ليس ما يعيبه سوى فقدان النسب الرفيع .

وهكذا غادرت إيلي ـ التي لم تعد إيلين روبلارد بعد ذلك اليوم ـ سافانا للمرة الأخيرة برفقة زوج في متوسط العمر ، ومامي ، وعشرين من زنوج الخدمة البيتية ، متجهين إلى تارا .

في السنة التالية ، رزق الزوجان طفلة سمياها كيتي سكارلت ، تيمناً باسم

والدة جيرالد ، الذي خاب أمله في أن يرزق صبياً ، ولكنه مع هذا طفح قلبه سروراً بطفلته الصغيرة السوداء الشعر ، حتى إنه قدم كؤوس الجعة لكل عبد في تارا ، وحتى انقلب هو مخموراً يعربد والسعادة تغمره .

ولم يتح لأحد أن يعرف ما إذا كانت إيلين ندمت على قرارها الفجائي بالزواج به ، حتى ولا لجيرالد نفسه الذي كان يشعر بفخر عظيم كلما نظر إليها ، إذ كانت قد ألقت بسافانا وبذكرياتها من خلف ظهرها يوم غادرت تلك المدينة الوادعة الساحلية ، معتبرة جورجيا الشمالية موطنها الطبيعي ، منذ اللحظة التي وطئتها قدماها .

ولقد خلفت إيلين وراءها ، يوم فارقت بيت والدها إلى غير عودة ، منزلاً ذا كيان جميل متناسق كجسد المرأة أو كسفينة بارزة مشرعة ، منزلاً زهري اللون شاحباً كلون الجص ، مبنياً على طراز منازل المستعمرات الفرنسية ، مرتفعاً عن الأرض بطريقة رائعة ، يصعد إليه بسلالم لولبية ، تحدها درابزين من الحديد المطاوع اللين . كشريط معدني ، منزلاً معتماً غنياً ، مؤنساً رغم عزلته .

ليس هذا فحسب ، بل إن إيلين فارقت ، إضافة إلى هذا السكن الأنيق ، الحضارة الكاملة التي كانت تحيط به ، لتجد نفسها في عالم غريب مختلف ، كما لو أنها عبرت قارة إليه . فجورجيا الشمالية كانت عبارة عن إقليم وعر ، يهيمن عليه أناس أشداء ، وكان المناخ شديد البرد في الشتاء كشدة حره في الصيف ، أما السكان فقد لمست فيهم نشاطاً وحيوية لم تألفهما . لقد كانوا لطافاً كراماً ، طيبي المعشر ، تفيض نفوسهم بفطرتهم الطيبة ، ولكنهم في الوقت ذاته أشداء ، مكتملو الرجولة ، سريعو الغضب ، وبينما يفتخر أهل الساحل الذين فارقتهم بأنهم يقومون بجميع أعمالهم ، حتى المبارزة وأخذ الثأر ، دونما أي اكتراث ، كان أهل جورجيا الشمالية يخالفونهم بروح الجد والصرامة التي تميز أعمالهم . وجملة القول أن الحياة في الساحل قد نضجت بينما كانت لا تزال هنا فتية جديدة دافقة .

في سافانا كان جميع الناس الذين عرفتهم كأنهم جبلوا من طينة واحدة ، متشابهين كثيراً في آرائهم وتقاليدهم ، بينما الناس هنا على مشارب متعددة ، ذلك لأنهم قدموا من مناطق مختلفة ، من أجزاء أخرى من جورجيا ، من كارولينا ، وفرجينيا ، من أوروبا والشمال ، البعض منهم أناس ناشئون يبحثون

عن الثروة كجيرالد ، والبعض أفراد عائلات قديمة ، وجدوا الحياة غير محتملة في مواطنهم الأولى ، فسعوا وراء مأمن في أرض بعيدة ، كما فعلت إيلين روبلارد .

هؤلاء الناس المنجذبون من أماكن كثيرة مختلفة ، ذوو النفسيات المتعددة المتباينة ، أضفوا على مجموع حياة الولاية مظهراً فوضوياً ، عديم الأصول ، جديداً بالنسبة إلى إيلين ، مظهراً لم تكيّف نفسها على مثله من قبل ، فبينما كانت تعرف بحدس غريزي كيف يمكن أن يتصرف أهل الساحل في أية مناسبة ، لم يكن بمقدور أحد التكهن بما يحتمل أن يفعله الجورجيون الشماليون .

والواقع أن الذي كان ينعش كل مناحي الحياة في الولاية هو ازدهار الثروة المطرد الذي امتد فيما بعد إلى الجنوب . كان العالم جميعه في ظمإ إلى القطن ، فراحت أرض الإقليم البكر المخصبة تنتجه بغزارة ، حتى غدا القطن بمثابة خفقة القلب في الولاية ، تمثل عمليتا بذاره وقطافه حركتي تمدد الأرض الحمراء وانقباضها ، كانت الثروة تنبع من الأثلام المنحنية ، فتنبع الكبرياء أيضاً ، الكبرياء القائمة على أساس من الشجيرات الخضراء ، ومن فدادين الأرض ذات كنافج القطن البيضاء ، وإذا كان القطن قد أغناهم خلال جيل واحد ، فإلى أي درجة من الغنى سيصيرون خلال الجيل الثاني !

هذه الثقة بالمستقبل ، أضفت على الحياة طعمها اللذيذ ، وأشعلت روح الحماسة في أبنائها الذين راحوا يستمتعون بدنياهم بحرارة مخلصة لم تستطع إيلين إدراك كنهها . كانوا يملكون الكثير من المال والعبيد ، ما أفسح أمامهم في مجال اللهو ، وهم الذين يحبون أن يلهوا ، فلم يكن ليعوقهم شاغل عن شواء السمك أو عن رحلة الصيد أو سباق الخيل أبداً ، وما أندر ما انقضى أسبوع دون حفلات رقص وشواء .

ولم تشأ إيلين ، أو لم تستطع ، الاندماج بهم تماماً ـ وقد خلفت في سافانا جزءاً كبيراً جداً من نفسها ـ ولكنها احترمتهم جميعاً ، وتعلمت ، مع مر الأيام ، كيف تقدّر فيهم الصراحة والاستقامة ، وهم الذين لا يحبسون ألسنتهم إلاّ قليلاً ، ولا يقدرون الرجل إلاّ حق قدره .

ثم أصبحت إيلين أحب الجيران في الولاية ، إذ كانت سيدة مدبرة لطيفة ،

وأمّاً صالحة ، وزوجة مخلصة ، بعد أن كرست قلبها الكسير ، وتضحيتها الذاتية ، اللذين كانت ستهبهما إلى الكنيسة ، لخدمة ابنتها وأفراد بيتها ، وللرجل الذي أخرجها من سافانا وذكرياتها دون أن يسألها سؤالاً واحداً .

وعندما بلغت سكارلت السنة الأولى من عمرها ، وكانت ، حسب رأي مربيتها مامي ، أحسن صحة وأوفر نشاطاً مما يجدر بأية طفلة أن تكون ، ولدت إيلين ابنتها الثانية ، سوزان إيلينون ، التي كانت تدعى اختصاراً سولين دائماً ، ثم ولدت كارين في الوقت المناسب ، وقد سجلت في سجل العائلة باسم كارولين إيرين ، وتبعها ثلاثة صبيان تخطفهم الموت قبل أن يتمكن واحدهم من تعلم المشي على قدميه ، أطفال صغار ثلاثة ، يرقدون الآن في المقبرة ، تحت أشجار الأرز الملتفة على مسافة تسعين متراً من المنزل ، وقد وضع فوق كل منهم حجر يحمل الاسم «جيرالد أوهارا الصغير» .

منذ اليوم الأول لوصول إيلين إلى تارا ، تغير شكل المكان ، فمع أنها كانت في السابعة عشرة من العمر وحسب ، إلا أنها كانت مهيّأة لتحمل مسؤوليات سيدة مزرعة ، فقد كان يفرض في الآنسات قبل الزواج أن يكنّ ، قبل كل شيء ، جميلات لطيفات أنيقات عذبات ، أما بعد الزواج ، فكان ينتظر منهن إدارة أفراد بيت يعدون مائة شخص أو أكثر ، من السود والبيض ، ولذلك كن يدربن على هذا الأساس .

وكانت إيلين قد تلقت هذا الإعداد للزواج الذي تتلقاه كل آنسة راقية النشأة ، كما قدمت لها مامي أيضاً ، التي كان بوسعها دفع أكثر الزنوج خمولاً إلى النشاط والعمل ، وسرعان ما فرضت النظام والهيبة والنظافة بين رعية جيرالد ، كما أضفت على تارا جمالاً لم تكن تنعم به من قبل .

ولم تكن حياة إيلين سهلة ، ولا سعيدة ، على أنها لم تتوقع سهولتها . وإذا لم تكن سعيدة ، فذلك هو نصيب المرأة منها ، فالحياة كانت دنيا الرجل ، ولقد رضيت بها إيلين على هذا الأساس . الرجل يملك العقارات والمرأة تديرها ، الرجل يكسب سمعة حسن الإدارة ، والمرأة تطوي مهارته ، الرجل يخور كالثور إذا ما وخزته شظية خشبية ، والمرأة تكتم أنات المخاض لئلا تزعجه ، الرجال خشان الحديث ، سكارى في الغالب ، والنساء يتجاهلن لذعات اللسان ويضعن السكارى في الأسرة دون عبارات قاسية ، الرجال دائماً وقحون صريحون ،

والنساء أبداً رحيمات، فاضلات.

لقد ترعرعت على تقاليد عظيمات السيدات، فعلمت كيف تنهض بالعبء، وتحتفظ في الوقت ذاته بأنوثتها وسحرها، وقد صممت على أن تصنع من بناتها الثلاث سيدات عظيمات أيضاً، فنجحت مع فتاتيها الصغيرتين، لأن سولين المتلهفة أبداً لتكون جذابة، أعارت تعاليم أمها أذناً مصغية مطيعة، ولأن كارين كانت خجولة سهلة القياد. أما سكارلت، مدللة جيرالد، فقد وجدت الطريق شاقة لبلوغ مرتبة السيدة المحترمة، وما كان يثير حفيظة مامي عليها أن كان زملاؤها المفضلون في اللعب أطفال زنوج المزرعة وصبيان الجيران، عوضاً عن شقيقتيها الرزينتين وبنات ويلكس المؤدبات، وإن كان بمقدورها أن تضاهي هؤلاء في تسلق الأشجار وفي قذف الحجارة. لقد أقلق مامي جداً أن تظهر ابنة إيلين مثل هذه الخلال، وكثيراً ما ناشدتها أن تتصرف كسيدة طيبة السمعة، ولكن إيلين نظرت إلى الموضوع بتسامح أكثر وتفكير أبعد، إذ كانت تعرف أن من زملاء لعب الطفولة ينشأ عشاق المستقبل، وأن أولى واجبات الفتاة الحصول على الزوج، وقد أسرّت في نفسها أن سكارلت مجرد فتاة تفيض بالحيوية وما زال أمامها متسع من الوقت لتعليمها الفنون والميزات التي تجعلها جذابة بعيون الرجال، الهدف الذي أوقفت له جهودها بالاشتراك مع مامي، حتى إذا ما شبت سكارلت غدت تلميذة مبرزة في هذا الموضوع مع أنها لم تتعلم إلا القليل من المواضيع الأخرى، فبالرغم من توالي المربيات عليها ومن قضائها سنتين في أكاديمية الإناث في فايتفيل المجاورة فإن ثقافتها ظلت بدائية، ولكنها كانت تبز جميع فتيات الولاية برقصها الرشيق، كما كانت تعرف كيف تبتسم بحيث ترقص غمازتيها وكيف تمشي كالحمام على رؤوس أصابعها كيما تتهادى تنورتها، المطوقة الفضفاضة، بشكل خلاب، وكيف ترفع بصرها في وجه الرجل ثم تغضه محركة حاجبيها حركة سريعة، لتبدو وكأن قد هزتها عاطفة رقيقة والذي أتقنته أكثر، كيف تخفي عن الرجال نظراتها الذكية الحادة خلف وجه عذب أنيس كوجه الطفل.

وقد جهدت إيلين، بإرشاداتها الناعمة الصوت، ومامي، بانتقاداتها المستمرة، في أن تشرباها الصفات التي تؤهلها لأن تكون زوجة مرغوبة عن صدق وجدارة.

ـ «ينبغي أن تكوني أكثر لطفاً وأكثر رزانة يا عزيزتي» قالت إيلين لابنتها يوماً، ثم أردفت، «عليك أن لا تقاطعي الرجال وهم يتحدثون، حتى لو اعتقدت أن معرفتك أوسع بالموضوع من معرفتهم، فالرجال الفاضلون لا يحبون الفتاة الجريئة».

بينما خاطبتها مامي باكتئاب:

ـ «الآنسات الصغيرات اللواتي يعبسن ويلوين ذقونهن ويقلن: «أريد ولا أريد» لا يظفرن غالباً بأزواج، ينبغي على الآنسات الصغيرات أن يغضضن من أبصارهن ويقلن: «حسناً يا سيدي علي أن أفعل ذلك»، و«الأمر كما تقول تماماً يا سيدي».

وهكذا اعتقدت الاثنتان أنهما علمتاها كل ما ينبغي للسيدة الفاضلة أن تتعلّمه، ولكن الواقع أنها تعلمت مظاهر الكياسة الخارجية فقط، دون أن تتعلم أو ترى داعياً لاكتساب جمال النفس الداخلي، الذي ينبغي لتلك المظاهر الخارجية أن تنبع منه. فالمظاهر بنظرها كافية، لأنها هي التي تكسبها محبة الناس، وهذا كل ما تريده، ولقد أصاب جيرالد بعض الحقيقة عندما كان يفخر بأنها حسناء ولايات خمس، إذ إنها تلقت عروضاً للزواج من جميع شبان الجوار تقريباً، ومن شبان كثيرين من مناطق بعيدة كأتلانتا وسافانا.

وما إن بلغت سكارلت السادسة عشرة، حتى بدت بفضل مامي وإيلين فتاة رائعة، فاتنة، منطلقة رغم كونها في الحقيقة عنيدة مغرورة حرون، تمتاز بأحاسيس والدها السريعة الانفعال، وبمظهر رقيق جداً من طبيعة أمها الصبور غير الأنانية. مظهر لم تتحقق إيلين من رقته تماماً، لأن سكارلت كانت تظهر دائماً بأحسن ما عندها أمام والدتها متحفظة من زلات لسانها، كابحة جماح طبعها، بادية بأعذب طبيعة ممكنة، خشية أن تعيرها أمها وتضطرها للبكاء جراء نظرات التأنيب الحادة.

أما مامي، فلم تغتر بهذا المظهر الرقيق، وكانت دائماً متيقظة لكل نزوة تخرج سكارلت من نطاق هذا الطلاء المموه، فعيناها كانتا أشد فراسة من عيني إيلين حتى أ ن سكارلت لا تذكر أنها استطاعت طيلة حياتها أن تخدع مامي لفترة طويلة.

والحقيقة أن هاتين المرشدتين المحبتين، إيلين ومامي، لم تخشيا على سكارلت

من جرأتها وحيويتها وفتنتها ، إذ كانت هذه من المميزات التي يفخر بها نساء الجنوب ، وإنما الذي كان مصدر قلقهن ما ورثته عن والدها من صلابة الرأي وتهور الطبع حتى إنهما كانتا تخشيان بعض الأحيان عجزهما عن ستر معايبها ريثما تحظى بزواج موفق ، ولكن سكارلت عزمت على الزواج ـ وعلى الزواج بآشلي ـ ولذلك صممت على الظهور بمظهر الحياء والمرونة والشدة ، طالما أن هذه هي الصفات التي تجذب الرجال ، أما لماذا يكون الرجال على هذا المنوال فأمر لا تعرفه ، وإنما تعرف فقط أن أساليب كهذه تؤتي أكلها ، دون أن تهتم لمعرفة سبب ذلك ، لأنها تجهل كل شيء عن وجدانيات الإنسان ، حتى وجدانها ، وكل ما كانت تعلمه أنها إذا فعلت ، أو قالت ، كذا وكذا ، على سبيل المجاملة ، يتجاوب الرجال بصواب ، مع هذه الفعلة أو المقالة . . فالقضية مجرد معادلة رياضية ، وليست أكثر صعوبة ، لأن الرياضيات كانت الموضوع الوحيد الذي وجدته سهلاً أيام دراستها .

وإذا كانت تعرف القليل عن عقليات الرجال ، فإن معرفتها بعقول النساء كانت أقل ، لأن اكتراثها لهن كان أقل ، فهي لم تصادق فتاة يوماً ، ولم تحس بنقص جراء ذلك ، لقد كانت النساء بالنسبة إليها ، وشقيقتاها من ضمنهن ، عدوات طبيعيات ، يتنافسن على الفريسة نفسها ـ الرجل . . .

كل النساء باستثناء المرأة الوحيدة . . أمها .

وكانت تود من كل قلبها أن تكون كأمها . ولكن العقبة الوحيدة في سبيل ذلك هي أن صيرورتها عادلة ، صادقة ، حساسة ، منكرة لذاتها ، سيفقدها كثيراً من متع الحياة ، وبالتأكيد ، كثيراً من المتيمين ، والحياة أقصر من أن يفقد المرء فيها مثل هذه المباهج . على أنها مصممة على أن تصبح ذات يوم . . عندما تكون قد تزوجت آشلي ، وتقدمت بها السن ، أن تصبح كأمها . . ولكن حتى ذلك الوقت . . .

4

تلك الليلة التي غابت فيها أمها ، ترأست سكارلت مائدة العشاء ، وكان فكرها في دوامة رهيبة إثر النبإ الصاعق الذي سمعته عن آشلي وميلاني ، وتلهفت يائسة لعودة أمها من بيت آل سلاتري ، فقد أحست بالوحدة والضياع وهي بعيدة عنها ، وتساءلت : أي حق يخول آل سلاتري ومرضهم المزمن انتزاع إيلين من البيت ، في هذا الوقت بالذات الذي تشعر فيه هي ، سكارلت ، بحاجة ماسة إليها؟

وفي أثناء وجبة الطعام الموحشة ، أخذ صوت أبيها الداوي يلعلع في أذنيها إلى أن شعرت أنه لم يعد بوسعها احتماله مدة أطول . كان قد نسي تماماً حديثه معها بعد ظهر ذلك اليوم واستمر في خطاب مع نفسه حول آخر أخبار قلعة سمتر ، متخذاً من ضرب المنضدة بقبضته ، ومن التلويح بذراعه في الهواء ، إشارات لمواضع الوقف في خطابه . لقد اعتاد السيطرة على الحديث أوقات الطعام ، غير أن سكارلت ، المشغولة عادة بأفكارها الخاصة ، نادراً ما استمعت إليه ، أما الليلة فلم تستطع أن تحول دون وصول صوته إليها رغم أنها جهدت لتصغي إلى صوت عجلات العربة ، المنبئ بعودة إيلين . وبالطبع ، لم تقصد إخبار أمها بحقيقة العبء الثقيل الرازح على قلبها ، لأن إيلين ستذهل وتحزن حين تعلم أن إحدى بناتها ترغب في رجل عقد خطوبته على غيرها ، وإنما أحست ، وهي في هول أول مأساة عرفتها ، إنها بحاجة إلى العزاء المنبعث من وجود أمها ، فهي دوماً تشعر بالأمان وهي إلى جانبها ، إذ لم يكن هناك أمر سيئ لا تستطيع إيلين تحسينه بمجرد وجودها .

وفجأة ، نهضت من كرسيها عند سماع قعقعة العجلات في الممشى ، لتجلس ثانية ، بعد أن دارت العربة متجهة إلى الساحة التي خلف البيت ، الأمر الذي يعني عدم عودة إيلين ، لأن من عادتها أن تترجل عند الدرجات الأمامية ، وسمع بعدئذ أصوات زنجية تثرثر منفعلة في ظلام الساحة ثم تبعتها قهقهة زنجي مدوية . وعندما أطلت سكارلت من النافذة رأت بورك ، الذي كان قد غادر الغرفة قبيل لحظة ، يرفع عالياً غصن صنوبر مشتعل ، في حين راح ينزل من العربة أشخاص يصعب تمييزهم . وهكذا في هواء تلك الليلة المظلمة ارتفع

وخبا ذلك الهرج وتلك القهقهة ، وأصوات سارة ، ساذجة ، خلية البال ، موسيقية النغم ، صادرة من حناجر عذبة ، تلاها وقع أقدام متلاحقة تصعد سلالم الشرفة الخلفية ثم تتجه إلى الممر المؤدي إلى المنزل الرئيسي ، لتقف في القاعة ، أمام غرفة الطعام تماماً . وانقضت فترة همس قصيرة ، دخل على أثرها بورك وقد تخلى عن وقاره المعتاد ، وراحت عيناه تحومان في الغرفة بينما بدت أسنانه البيضاء كشعاع من نور .

ـ «سيد جيرالد» قال وهو يتنفس بصعوبة ، وقد أضاء وجهه الزهو بعروسه «لقد جاءت خادمتك الجديدة» .

ـ «خادمتي الجديدة؟ أنا لم أشتر أية خادمة جديدة» أعلن جيرالد ، وهو يتصنع التحديق ببصره .

ـ «بلى ، اشتريت يا سيد جيرالد ، بلى ، وها هي الآن هنا خارجاً تريد أن تتحدث إليك» أجاب بورك ، متلعثماً ثانياً ذراعيه باضطراب .

ـ «حسناً ، أدخل العروس» قال جيرالد ، بينما التفت بورك مشيراً إلى زوجته في القاعة ، زوجته التي وصلت حديثاً من مزرعة آل ويلكس لتصبح عضواً في حاشية تارا .

دخلت دلسي وخلفها في مؤخرة تنورتها الخامية الواسعة انزوت ابنتها البالغة اثنتي عشرة سنة ، ترتطم بساقيها .

ـ «مساء الخير أيتها الآنسات الصغيرات ، وأيها السيد جيرالد ، إني آسفة لإزعاجكم ، ولكني أردت المجيء هنا لأشكركم ثانية لشرائكم إياي وابنتي ، فكثير من الناس الطيبين كان يمكن أن يشتروني ، ولكنهم لن يشتروا ابنتي أيضاً ، ولذلك أشكركم لرفعكم الحزن عني ، سوف أخدمكم جهدي وأريكم أني لا أنسى الجميل» .

«أجل ـ أجل» أجاب جيرالد ، متنحنحاً بارتباك ، لكونه ووجه علانية بصنيعه الجميل .

ثم التفتت دلسي إلى سكارلت وقد غضّن زاويتي عينيها ما يشبه الابتسامة ، وقالت :

ـ «آنسة سكارلت ، لقد أخبرني بورك كيف أنك طلبت من السيد جيرالد شرائي ، ولذلك سوف أمنحك ابنتي برسي خادمة خاصة لك» .

ومدت يدها خلف ظهرها ، ودفعت الفتاة الصغيرة إلى الأمام . كانت مخلوقة صغيرة دكناء اللون ، ذات ساقين عجفاوين كساقي الطير ، وعدد كبير من ضفائر الشعر ، مشدودة بعناية بخيط من القنب ، ونافرة من رأسها بصلابة ، أما عيناها فكانتا حادتين نافذتين ، وأما وجهها فقد عكس نظرة غباء متعمدة .

ـ «أشكرك يا دلسي» أجابت سكارلت «ولكني أخشى أن يكون لمامي رأي آخر في هذا الموضوع ، فهي خادمتي منذ ولدت» .

ـ «لقد غدت مامي عجوزاً» قالت دلسي باطمئنان كان يمكن أن يثير حنق مامي «إنها مربية جيدة ، ولكنك الآن سيدة فتية ، وتحتاجين إلى خادمة ماهرة ، وقد مضى على ابنتي برسي الآن مدة سنة وهي في خدمة الآنسة إنديا ، فهي تستطيع الخياطة وتنسيق الشعر جيداً كصبية كبيرة» .

ووخزت ابنتها ، التي قامت بانحناءة مفاجئة ، مبتسمة لسكارلت ، فلم يسع هذه إلاّ رد الابتسامة بمثلها مسرة في نفسها : ـ «صبية صغيرة ذكية» ، ثم قالت بصوت مرتفع «أشكرك يا دلسي ، سننظر في الأمر عند رجوع أمي إلى البيت» .

ـ «أشكرك يا سيدتي ، وأرجو لكم ليلة سعيدة» أجابت دلسي وأدارت ظهرها مغادرة الغرفة مع ابنتها وزوجها بورك الذي كان يثب طرباً .

بعد العشاء ، عاود جيرالد ، خطابه ، ولكن بترحاب قليل من نفسه دون الآخرين ، ولم تحرز تكهناته الهدارة بحدوث حروب فورية ، وأسئلته البليغة المؤثرة عما إذا كان الجنوب سيصبر على إهانات أخرى يوجهها له أهل الشمال ، إلاّ أجوبة تنم عن بعض التذمّر «نعم بابا . . . لا بابا» ، إذ كانت كارين الجالسة على وسادة تحت المصباح الكبير مستغرقة في أحلام فتاة اتشحت بالسواد بعد وفاة حبيبها وهي ترسم برغبة صورتها في قبعة بيضاء ودموع البهجة الصامتة تترقرق في عينيها ، بينما كانت سولين تتساءل وهي تطرز على ما تدعوه بضحك مكبوت «الصدر المشتهى» تتساءل عما إذا كان من المحتمل أن تستطيع في حفلة الشواء غداً ، فصل ستيوارت تارلتون عن شقيقتها سكارلت وافتتانه بصفات الأنوثة العذبة التي تملكها دون أختها . أما سكارلت فكانت في صخب الدوامة حول آشلي .

كيف أمكن لوالدها الاستمرار في الحديث عن قلعة سمتر والشماليين وهو

يعرف أن قلبها محطم؟ وكما هي العادة في عهد الصبا، عجبت كيف يستطيع الناس أن يكونوا على هذه الدرجة من الأنانية فيتجاهلون آلامها، وكيف تستمر الدنيا في دورانها بالرغم من مأساة قلبها.

وأحست كأن إعصاراً يعصف بتفكيرها، واستغربت أن تظل غرفة الطعام حيث يجلسون هادئة هكذا، تماماً كعادتها، دون أن يطرأ عليها تغير ما. إن عهدها بغرفة الطعام هذه مكان ودود مريح، أحبت سكارلت بحكم العادة الساعات الهادئة التي تقضيها العائلة فيه بعد العشاء، ولكنها الليلة كرهت مجرد رؤيته، ولولا خوفها من أسئلة والدها الصارخة المدوية، لانسلت عبر القاعة المظلمة إلى مكتب أمها الصغير، حيث تبكي همومها فوق الكنبة العتيقة..

كان هذا المكتب أحب غرف البيت إلى سكارلت، فهناك كانت تجلس إيلين كل صباح، أمام منضدتها المرتفعة، تقوم بحسابات المزرعة، وتستمع إلى تقارير جوناس ويلكرسون، الناظر، وهناك أيضاً، بينما ريشة إيلين تجري فوق دفاتر حساباتها، كانت العائلة تقضي فترات الراحة، فيجلس جيرالد في كرسيه الهزاز القديم، والبنات فوق مساند الكنبة، التي أصبحت بالية مهترئة لا تصلح لغرفة الصدارة في البيت. هناك تاقت سكارلت إلى أن تكون الآن برفقة إيلين، كيما تستطيع إلقاء رأسها في حضن أمها، والبكاء بسلام... «ألن تعود أمي إلى البيت؟».

وقطع حبل تفكيرها صرير العجلات فوق حصباء الممشى، وعلى أثره، حمل هواء الغرفة دمدمة صوت إيلين الناعم، تأمر سائق العربة بالانصراف. وتطلع الجميع إليها بشوق وهي تدخل مسرعة، وأطواق تنورتها تتهادى من حولها، وقد بدا الحزن والإرهاق على وجهها. ودخل الغرفة معها رائحة أوراق الليمون الخفيفة الصادرة من محفظتها، تلك الرائحة العطرية التي يخيل للمرء أنها تفوح أبداً من ثنايا أثوابها، والتي استقرت في ذهن سكارلت كصفة ملازمة لأمها. وتبعت إيلين، على بعد خطوات منها، مامي وفي يدها الحقيبة الجلدية، وقد برزت شفتها السفلي، وتقطب جبينها، وأخذت تدمدم وهي تلج الغرفة بعبارات غامضة بينها وبين نفسها، حريصة على أن تجعل نبرة عباراتها

منخفضة جداً بحيث لا تفهم ، ولكنها على ارتفاع كاف لتسجيل استنكارها المبهم .

ـ «إني آسفة لتأخري كثيراً» . قالت إيلين ، رافعة شالها المخطط عن كتفيها المسترخيين ومناولة إياه لسكارلت ، بعد أن ربتت على وجنتها وهي تمر بجانبها .

وكان وجه جيرالد قد أشرق منذ دخول زوجته الغرفة ، كما لو كان ذلك بفعل السحر ، ـ «هل عمد الطفل؟» سأل .

ـ «نعم . . ومات ، ذلك المسكين» أجابت إيلين ، وأخشى على إيمي أن تموت هي أيضاً . ولكني أعتقد أنها ستعيش» .

فالتفتت الفتيات الثلاث نحوها ، دهشات مستفسرات ، بينما هز جيرالد رأسه بحركة فلسفية وقال :

ـ «على كل حال . . من الأفضل موت الطفل . . لا شك أن المسكين دون الأب» .

ـ «الوقت متأخر ، ومن الأفضل أن نصلي الآن» ، قاطعته إيلين بصوت منخفض جداً ، بحيث أن سكارلت ، لو لم تكن تعرف أمها معرفة جيدة ، لمرت مقاطعة الحديث دون انتباهها .

كان من الممتع أن يعرف المرء من يكون والد طفل إيمي سلاتري ، ولكن سكارلت أدركت أنها لن تصل إلى حقيقة المسألة إذا انتظرت سماعها من أمها . لقد كانت تشك بجوناس ويلكرسون ، إذ كثيراً ما شاهدته برفقة إيمي ، يسيران على الطريق ، عند هبوط الليل ، وكان جوناس عزباً من أهل الشمال ، منعته حقيقة كونه ناظراً مدى العمر من الاتصال بحياة الولاية الاجتماعية ، ولم تكن هناك عائلة بأية مكانة اجتماعية يستطيع الزواج منها ، كما لم يكن هناك من يستطيع معاشرتهم سوى آل سلاتري والرعاع الذين على شاكلتهم ، وبما أنه كان أرقى ثقافة من أفراد آل سلاتري ، فقد كان من الطبيعي ألاّ يرغب في الزواج بإيمي ، مهما تنزه برفقتها في ضوء الغسق .

وتنهدت سكارلت إذ كانت رغبتها في الاستطلاع جامحة ، على نقيض والدتها التي كانت الأحداث تجري دوماً أمام عينيها فلا تعلق عليها بشيء ، كما لو أنها لم تحدث البتة ، فقد كانت تتجاهل كل ما لا يتفق وما تؤمن به من

مقتضيات اللياقة والأدب ، ولقد جربت أن تغرس في سكارلت هذه الصفة ، ولكن حظها من النجاح كان ضئيلاً .

خطت إيلين نحو رف الموقد لتأخذ سبحتها من علبة حليها الصغيرة المرصعة ، حيث تقبع دائماً كلما أصرت مامي على ذلك بحزم .

ـ «سيدة إيلين ، ينبغي أن تتعشي قبل أن تصلي» .

ـ « أشكرك مامي ، ولكني لست جائعة» .

ـ «سأضع لك العشاء بنفسي ، وعليك أن تتناوليه» ، قالت مامي وقد تجهم جبينها سخطاً وهي تترك القاعة قاصدة المطبخ : «بورك !» صاحت ، «أخبر كوكي أن تشعل النار ، فقد عادت السيدة إيلين» .

وبينما راحت ألواح الأرضية الخشبية تهتز تحت ثقل جسمها ، أخذت المناجاة ، التي كانت قد بدأتها مع نفسها في القاعة الأمامية ، ترتفع تدريجاً ، حتى وصلت جلية إلى مسامع العائلة في غرفة الطعام :

ـ «لقد قلت مرة ، وأخرى ، إن من الأفضل إهمال هؤلاء البيض التافهين ، إنهم خاملون ، جحودون جداً ، لا قيمة لهم بين الأحياء ، ولذا يتحتم على السيدة إيلين ألاّ تنهك نفسها في سبيل العناية بأناس لو كانت لهم قيمة رصاصة توجه لقتلهم لاستحقوا عبيداً يخدمونهم ولقد قلت . . .» .

وتلاشى صوتها عندما مرّت في الممر الطويل المكشوف إلاّ من أعلاه والموصل إلى المطبخ .

كان لمامي أسلوبها الخاص في جعل أسيادها يعرفون تماماً موقفها من كل موضوع ، فهي تعرف أن أقل إصغاء من قبل الناس البيض لما تقوله عبدة مثلها في أثناء تذمرها لنفسها فيه حط من كرامتهم ، وإنه لتدعيم هذه الكرامة عليهم تجاهل ما تقوله ، حتى ولو وقفت في الغرفة المجاورة وقارب حديثها الصراخ . وهكذا بأسلوبها المميّز كانت تحمي نفسها من التأنيب ، ولا يبقى مجال للشك عند أحد في حقيقة رأيها في أي موضوع .

ودخل بورك الغرفة ، يحمل طبقاً ، وملعقة وفوطة ، وفي إثره تماماً دخل جاك ، الصبي الأسود البالغ عشر سنوات من العمر ، وهو يزرر بسرعة بإحدى يديه معطفه الكتاني الأبيض ، وبالأخرى يحمل مذبة مصنوعة من قصاصات الجرائد المشدودة إلى قضيب ، أطول من قامته ، أما مذبة إيلين الجميلة المصنوعة

من ريش الطاووس ، فكانت لا تستعمل إلا في المناسبات الخاصة ، بعد عراك داخلي سببه اعتقاد كل من بورك وكوكي ومامي الراسخ بأن ريش الطاووس نذير شؤم .

وما إن جلست إيلين على الكرسي ، الذي سحبه جيرالد لها ، حتى انقضت عليها أصوات أربعة :

ـ «أمي ، انحل شريط فستان الرقص الجديد ، وأريد أن ألبسه ليلة الغد في تولف أوكس ، أفلا تخيطينه لي من فضلك؟» .

ـ «أمي ، فستان سكارلت الجديد أجمل من فستاني ، إنني أبدو به كمهرجة ، فلماذا لا ترتدي فستاني الأحمر وتدعني أرتدي فستانها الأخضر؟ إنها تظهر رائعة في الثوب الأحمر» .

ـ «أمي ، هل أستطيع السهر من أجل الرقص ليلة الغد؟ إني في الثالثة عشرة الآن . . .»

ـ «سيدة أوهارا ، هل تصدقين ، اصمتن أيتها البنات ، قبل أن أتناول سوطي وأجيئكن ! كيد كالفرت كان في أتلانتا هذا الصباح ، وهو يقول ـ ألا تصمتن وتدعنني أسمع صوتي؟ ـ وهو يقول إن الجميع مضطربون هناك ولا حديث لهم إلا حديث الحرب ، وأن جنود المليشيا يتدربون ، والفرق العسكرية تشكل ، ويقول أيضاً إن أنباء شارلستون تفيد أن «الجماعة» هناك لن يصبروا على أية إهانة شمالية أخرى» .

وسط هذا الضوضاء ، افتر ثغر إيلين المتعب ، مبتسماً ، وهي توجه حديثه إلى زوجها أولاً ، كما ينبغي للزوجة أن تفعل :

ـ «إذا كان شعب شارلستون الطيب يشعر بمثل هذا الشعور ، فأنا واثقة بأننا لا بد سنحذو حذوهم سريعاً» ، قالت ذلك لأنها كانت تعتقد اعتقاداً راسخاً أن أعرق فئة من الناس في جميع القارة ، باستثناء سافانا ، يمكن أن توجد في ذلك الميناء الصغير ، وكان أهل شارلستون يشاركونها في هذا الاعتقاد إلى حد بعيد .

«لا يا كارين ، في السنة التالية يا عزيزتي ، يمكنك السهر من أجل الرقص ، وارتداء فساتين الصبايا الكبيرات ، ويومها ، ما أجمل الوقت الذي ستنعم به وجنتاك الصغيرتان الموردتان ، لا تعبسي يا عزيزتي ، تذكري أن بإمكانك الذهاب إلى حفلة الشواء ، والبقاء خلال فترة العشاء ، ولكن لا حفلات رقص

حتى تبلغي الرابعة عشرة ، أعطني فستانك يا سكارلت فسأخيط شريطه بعد الصلاة .

أما أنت يا سولين ، فأنا لا أرتاح للهجتك يا عزيزتي ، ثوبك الأحمر جذاب ويتفق ولون بشرتك ، كما يتفق ثوب سكارلت وبشرتها ، ولكن بإمكانك ارتداء عقدي العقيقي ليلة الغد» .

وما كان من سولين ، الجالسة خلف أمها ، إلا أن جعدت أنفها في وجه سكارلت ، فرِحة بفوزها ، وكانت هذه تفكر في كيفية طلب العقد لنفسها ، ولكنها أجابتَ على تحدي سولين بمد لسانها . كانت سولين شقيقة مزعجة بشكاواها وأنانيتها ، ولولا يد أمها الرادعة لمزقت سكارلت أذنيها مراراً» .

ـ «والآن يا سيد أوهارا ، زدني أخباراً عما قال السيد كالفرت حول شارلستون» قالت إيلين ، وكانت سكارلت تعرف أن أمها لا تبالي البتة بكل ما يتعلق بالحرب أو السياسة ، وتعتبر هذه الأمور من اختصاص الرجال ، حيث لا يمكن لسيدة أن تبرّز إذا ما شغلت نفسها بها . ولكن كان جيرالد يسر بعرض آرائه ، وكانت إيلين حريصة دوماً على إسعاده .

وفيما أفاض جيرالد بأخباره ، وضعت مامي أطباق الطعام أمام سيدتها ، ثم قرصت جاك ، الصبي الصغير ، فأسرع خلف إيلين ، ليمارس عمله البطيء ، في الذب بقصاصاته الورقية ، أماماً ووراء ، بينما وقفت هي بجانب الطاولة ، تراقب كل ملعقة ، في مسيرها من الطبق إلى الفم ، كما لو أنها تقصد إدخال الطعام بالقوة في فم إيلين إذا ما رأت دلائل على فتورها عن الأكل . ورغم أن إيلين ثابرت على تناول الطعَام ، إلا أن سكارلت استطاعت أن تلحظ أن أمها تعبة جداً بحيث لا تعلم ما تأكله ، ولم يدفعها للاستمرار سوى وجه مامي الصارم فحسب .

وعندما فرغت الأطباق ، كان جيرالد قد بلغ منتصف حديثه فقط ، حول لصوصية أهل الشمال الذين يريدون تحرير العبيد دون أن يدفعوا بنساً واحداً مقابل ذلك . ونهضت إيلين .

ـ «هل ستتلو الصلاة؟». سأل جيرالد دون رغبة .

ـ «نعم ، والوقت متأخر جداً ـ إنها الساعة العاشرة تماماً» قالت إيلين عندما سمعت الساعة الدقاقة ، ذات العقارب القصيرة ، تعلن الوقت ، ثم أردفت :

«كان ينبغي لكارين أن تنام منذ زمن ، . . . المصباح ، أرجوك يا بورك ، وأنت يا مامي كتاب الصلوات» .

وبهمسة خاطفة من مامي اندفع جاك واضعاً مذبته في زاوية الغرفة ، وأخذ ينقل الأطباق ، بينما راحت هي تعبث في درج الخزانة ، باحثة عن كتاب الصلوات العتيق . أما بورك فقد اشرأب إلى أعلى ، واقفاً على رؤوس أصابعه ، حتى بلغ حلقة المصباح المعلقة بالسلسلة فأنزل المصباح ببطء إلى أن غمر الضوء سطح الطاولة ، بينما انكمش السقف خلف الظلال .

وركعت إيلين على الأرض ، بعد أن رتبت تنورتها ، ثم وضعت كتاب الصلوات المفتوح على المنضدة أمامها ، ضامة يديها فوقه ، وإلى جانبها ركع جيرالد ، بينما اتخذت سكارلت وسولين مكانيهما المعتادين في الناحية المقابلة من المنضدة ، صانعتين من معطفيهما الواسعين وسادتين تحت ركبهما لتخفيف ألم الاحتكاك بالأرض الصلبة . أما كارين ، التي كانت لصغر سنها لا تستطيع الركوع مرتاحة أمام الطاولة ، فقد ركعت مقابل كرسي ، ومرفقاها على مقعده ، كانت تحب هذه الجلسة لأنها كثيراً ما كانت تذهب إلى النوم في أثناء الصلاة ، ويمثل هذه الجلسة تتحاشى رقابة أمها .

أغمضت إيلين عينيها وشرعت بالصلاة وصوتها يرتفع وينخفض ، يصخب ويسكن ، ثم شكرت الله لإنعامه بالصحة والسعادة على بيتها وعائلتها وعبيدها ، فانحنت جميع الرؤوس في ظلال الضوء الأصفر .

وعندما انتهت صلاتها من أجل جميع القاطنين تحت سقوف تارا ، ومن أجل أمها ووالدها وشقيقاتها وأطفالها الثلاثة الأموات وكل الأرواح البائسة ، أمسكت سبحتها البيضاء بأصابعها الطويلة وبدأت التسبيح ، فانسابت الترديدات كهبة ريح خفيفة من حناجر بيضاء وسوداء ، «يا مريم العذراء ، صلي من أجلنا نحن المذنبين ، الآن ، وفي ساعة موتنا» .

أما سكارلت ، فبالرغم من آلام قلبها ، وآلام دموعها الحبيسة ، فإن شعوراً عميقاً بالطمأنينة والسكينة غمرها ، كما يحدث دائماً في هذا الموقف ، وخف عنها بعض خيبة النهار ورهبة الغد ، ليحل محلهما بصيص من الأمل . ولم يكن توجه قلبها إلى الله هو الذي أمدها بهذا الترياق ، إذ كان الدين لا يتعدى حداً أعمق من شفتيها ، وإنما هو منظر وجه أمها الخاشع يتضرع إلى عرش

الإلــه ورسله وملائكته ، ويبتهل من أجل البركة لهؤلاء الذين تحبهم . وفيما كانت إيلين مستغرقة بتضرعاتها إلى الله ، شعرت سكارلت بثقة بأن الله يسمعها .

وفرغت إيلين من التسبيح ، وجاء دور جيرالد ، الذي لم يستطع مرة أن يجد حبات سبحته وقت الصلاة ، فراح يعد العشرات على أصابعه خلسة ، وبينما كان صوته ينطلق برتابة شردت أفكار سكارلت بالرغم منها ، إنها تعرف أن عليها أن تمتحن ضميرها ، إذ علمتها أمها أن واجبها عند نهاية كل يوم أن تختبر ضميرها تماماً ، وأن تعترف بأخطائها الكثيرة وترجو الله العفو والقدرة على عدم تكرار تلك الأخطاء أبداً ، غير أنها كانت تريد أن تمتحن قلبها الآن . لقد أطرقت برأسها فوق يديها المثنيتين كي ترى إيلين وجهها ، وعادت أفكارها حزينة إلى موضوع آشلي . كيف يمكن أن يفكر في التزوج بميلاني في الوقت الذي يحبها ، هي ـ سكارلت ـ حبّاً حقيقياً ، وفي الوقت الذي يعرف إلى أية درجة تحبه؟ كيف يمكنه أن يحطم قلبها عامداً متعمِّداً .

وفجأة ، لمعت في عقلها فكرة ساطعة جديدة :

ـ «من يدري ، إن آشلي لا يعرف أني أحبه» .

وكادت تشهق بصوت مرتفع ، جراء انذهالها بهذه الفكرة غير المتوقعة . وجمد عقلها كما لو كان مشلولاً منذ زمن ، وأمسكت أنفاسها لحظة ، ثم انطلقت في الطريق نفسه :

ـ «كيف كان بوسعه أن يعرف؟ وأنا التي أتصرف دوماً بحياء زائد تصرف السيدات المحترمات؟ ومن المحتمل أن يفكر أني لا أحفل به إلاّ كصديق . . . بلى ، هذا هو السبب في عدم مفاتحته إياي بالموضوع أبداً ، إنه يعتقد أن حبه عديم الجدوى ، وهذا ما جعله يظهر . .» .

وعادت بها الذكرى سريعاً إلى تلك الأوقات ، عندما اكتشفته ينظر إليها بتلك الطريقة الغريبة ، وعيناه الرماديتان اللتان تحجبان كلية ما يدور بخلده كالعادة ، قد اتسعتا ووشتا به ، وتجلت فيهما نظرة من العذاب واليأس .

ـ «لقد تفطّر قلبه لأنه يظن بأني أحب برنت أو ستيوارت أو كيد . ومن المحتمل أنه يفكر أنه طالما لن يستطيع الزواج بي ، فبإمكانه إبهاج نفسه وعائلته بالتزوج بميلاني ، ولكن إذا ما عرف أني أحبه . . .» .

وانتعشت معنوياتها المنهارة مرتفعة من أعمق درجات الكآبة إلى السعادة المثيرة ، فقد عرفت الجواب لتكتّم آشلي وتصرفاته الغريبة ، «إنه لم يعرف» ! واشتد غرورها مؤيداً رغبتها في التصديق ، جاعلاً من التصديق يقيناً : إذا عرف أنها تحبه ، سيسرع إليها ، وما عليها إلاّ . . . «آه» فكرت بذهول ، ضاغطة أصابعها على جبينها المتغضّن «كم أنا حمقاء لأنني لم أفكر في هذا حتى الآن ! ينبغي أن أفكر بطريقة تجعله يعرف ، فلن يتزوجها إذا عرف أني أحبه؟ كيف يقدر؟» .

ورفعت رأسها بسرعة لتجد أباها قد فرغ ، وعيني أمها مصوبتين عليها ، فبدأت التسبيح بسرعة ، ناطقة العبارات بصورة آلية ، ولكن بانفعال شديد في صوتها دفع مامي لأن تفتح عينيها وترسل نظرة فاحصة عليها ، وعندما انتهت من صلواتها ، وتبعتها سولين ثم كارين ، بادئتين في تسبيحهما ، كان عقلها لا يزال مندفعاً إلى الأمام بفكرتها الجديدة المذهلة .

حتى الآن ، لم يفت الأوان بعد ، فكثيراً ما افتضحت الولاية بحوادث الفرار مع الأحبة ، عندما يتفق أن يكلل أحد الطرفين على شخص ثالث ، إضافة إلى أن خطوبة آشلي لم تعلن بعد ! نعم ، ما زال هناك متسع من الوقت !

وإذا لم يكن يوجد حب بين آشلي وميلاني ، بل مجرد وعد مقطوع منذ زمن طويل ، فلماذا كان من غير الممكن بالنسبة إليه أن يحنث بذلك الوعد ويتزوجها هي إذاً؟

من المؤكد أنه سيفعل ذلك ، لو عرف أنها ـ سكارلت ـ تحبه . عليها أن تجد طريقة لتجعله يعرف إذاً . سوف تجد طريقة ! وعندئذ . . .

وتنبّهت من حلمها البهيج فجأة ، لقد أهملت القيام بترداد اللازمة ، وها هي أمها تنظر إليها نظرة تأنيب . وعندما استأنفت الصلاة ، فتحت عينيها قليلاً ، وألقت نظرة سريعة على أنحاء الغرفة ، فأحست أن الأشخاص الراكعين ، وأن وهج المصباح الناعم ، والظلال الباهتة التي يتمايل خلالها الزنوج ، وحتى الأشياء المألوفة لديها ، والتي ظهرت بغيضة جداً لناظريها قبيل ساعة فقط ، قد تلونت في مدى لحظة واحدة بلون أحاسيسها ، وظهرت الغرفة مكاناً جميلاً جذاباً للمرة الثانية . ولن تنسى هذه اللحظة ولا هذا المشهد !

في هذه الليلة وجدت سكارلت ، بسبب تسامي روحها ، وجدت في هذا

الاحتفال الديني كله ، في كلماته المردَّدة الرقيقة ، في طنين ترداده ، روعة فائقة تمتاز عن كل ما خبرته قبلاً ، فتوجه قلبها إلى الله في شكر خالص ، لأن طريقاً قد فتح أمام قدميها من صميم تعاستها إلى ذراعي آشلي رأساً .

وعندما لفظت ، آمين ، للمرة الأخيرة ، نهض الجميع ، متيبسي الظهور قليلاً ، وأوقفت مامي على قدميها بجهود تينا وروزا المشتركة ، بينما تناول بورك قصاصة ورق طويلة من رف الموقد وأشعلها من لهب المصباح وسار إلى القاعة . وكان مقابل السلم المتعرج خزانة من خشب الجوز لم يمكن استعمالها في غرفة الطعام لكبر حجمها وقد وضع على سقفها الواسع عدة مصابيح ، وصف طويل من شموع الإضاءة مثبتة في شمعدانات ، فعندما بلغها بورك ، أشعل مصباحاً ، وثلاث شموع من التي على سقفها ، ثم قاد الموكب صعوداً على الدرج ، بالوقار المتباهي لرئيس حجاب غرفة النوم الملكية ، وهو يضيء الطريق للملك وللملكة ، نحو غرفتيهما ، هكذا قاد بورك الموكب ، رافعاً الضوء عالياً فوق رأسه تتبعه إيلين متكئة على ذراع جيرالد ، ثم البنات وقد حملت كل منهن شمعتها المضيئة .

دخلت سكارلت غرفتها ، وبعد أن وضعت شمعتها فوق صوان الثياب ، راحت تعبث في مقصورتها المظلمة باحثة عن فستان الرقص ، الذي كان بحاجة إلى بعض الخياطة ، وعندما وجدته ألقت به على ذراعها وخرجت عبر القاعة بهدوء ، قاصدة غرفة نوم والديها ، التي كان بابها موارباً ، وقبل أن تتمكن من قرعه ، بلغ مسامعها صوت إيلين ، منخفضاً ولكنه حازم :

- «سيد أوهارا ، يجب أن تطرد جوناس ويلكرسون» .

- «ومن أين أجيء بناظر آخر لا يسرقني» أجاب جيرالد منفجراً بصوت مرتفع .

- «يجب أن يطرد حالاً ، غداً صباحاً ، سام الكبير مراقب جيد ، وباستطاعته القيام بهذا الواجب ريثما يمكنك استئجار ناظر آخر» .

- «آه ، ها !» علا صوت جيرالد «لقد فهمت إذاً ، الفاضل جوناس والد الـ . .» .

- «يجب أن يطرد» .

- إذاً ، هو والد طفل إيمي سلاتري» فكرت سكارلت «لا بأس ، وماذا يتوقع

غير هذا من رجل شمالي وفتاة بيضاء حقيرة» .

وبعد فترة صمت ، تلاشى خلالها لغط جيرالد ، قرعت الباب وناولت الثوب لأمها .

وما إن خلعت سكارلت ملابسها وأطفأت القنديل حتى كانت خطتها للغد قد اكتملت بجميع تفاصيلها ، إنها خطة بسيطة ، فقد ركزت عينيها على الهدف بحزم ، اقتبسته من جيرالد ، مفكرة فقط بالخطوات المباشرة الموصلة إليه .

إنها في البداية ، ستتظاهر بالكبرياء كما أوصاها أبوها ، فمنذ وصولها إلى تولف أوكس ستظهر بأسعد حالة ، وبأرفع معنويات ، ولن يظن أحد بأنها فجعت بخطوبة آشلي وميلاني وستغازل كل رجل تراه ، الأمر الذي سيصعق آشلي ، ولكن يشوقه إليها أكثر وأكثر . ولن تتجاهل أي رجل في سن الزواج ابتداء من المسن فرانك كندي المخمور بالويسكي دائماً ، والذي كان معشوق سولين ، حتى تصل إلى تشارلز هاملتون الهادئ الخجول الحيي ، شقيق ميلاني . سوف يحومون حولها كالنحل حول خليته ، وبالتأكيد سينجذب آشلي من جانب ميلاني ليلتحق بحلقة المعجبين بها ، وعندئذ ستناور بطريقة ما ، كي تنفرد وإياه بضع دقائق ، بعيداً عن الحاضرين .

أملت سكارلت أن يتم كل شيء حسب تلك الخطة ، وإلاّ ، لغدا الأمر أكثر صعوبة ، ولكن إذا لم يبدأ آشلي بالخطوة الأولى فينبغي عليها أن تخطوها هي بكل بساطة .

وعندما ستختلي به ، يكون مشهد الرجال المتحلّقين حولها ما زال طريئاً في خلده ، ويكون تأثره بحقيقة كون كل من هؤلاء يريدها لنفسه ، ما زال جديداً ، وعندئذ تغشى عينيه تلك النظرة الحزينة القانطة . وفي الحال ، تعيد هي إليه السعادة بجعله يكتشف أنها تفضله على كل رجل في الدنيا رغم كونها محبوبة رغيبة ، وبالطبع ، عند إعلانها ذلك ، بتواضع وعذوبة ، ستبدو لعينيه بألف ميزة جديدة ، ومن البدهي أنها ستنفذ ذلك كله بأسلوب السيدة المحترمة ، فهي لن تتجرأ وتخبره بحبها ، حتى لو كان الأمر مجرد حلم ، لا يمكن أن تفعل ذلك . على أن كيفية إخباره أمر ثانوي لم يضايقها البتة ، فقد تدبرت أمثال هذه الحالات من قبل ، وبوسعها القيام بها ثانية .

وهكذا تصورت سكارلت ، وهي مستلقية في سريرها ، وضوء القمر ينساب خفيفاً من فوقها ، تصورت المشهد بأكمله في ذهنها ، رأت نظرة المفاجأة والسعادة التي ستعلو وجهه عندما يتأكد أنها تحبه حقيقة ، وسمعت الكلمات التي سيقولها طالباً أن تكون زوجة له .

ومن الطبيعي أنه يجب أن تجيبه عندئذ ، أنها ، بصراحة ، لن تستطيع التفكير بالزواج برجل قد عقد خطوبته على فتاة أخرى ، ولكنه سوف يلح ، فتدع نفسها تقتنع أخيراً . وساعتئذ سيقرران الفرار إلى جونسبورو ، في المساء نفسه و . . .

كيف لا ، وفي مثل هذا الوقت من ليلة الغد ، قد تصبح السيدة آشلي ويلكس !

ونهضت جالسة في سريرها ، حاضنة ركبتيها ، ولبرهة سعيدة طويلة كانت السيدة آشلي ويلكس ـ عروس آشلي ـ ثم خفق قلبها بقشعريرة خفيفة ، لنفرض أن الأمر لم يتم على هذه الصورة؟ لنفرض أن آشلي لم يرجها الهرب معه؟ ولكنها طردت الفكرة من رأسها بعزم وحزم :

ـ «لن أفكر بمثل هذا الآن» قالت بتصميم «إذا ما فكرت به الآن فسيقلبني رأساً على عقب ، وليس ما يحول دون سير الأمور حسب رغبتي ـ إذا كان يحبني ، وأنا أعرف أنه كذلك» .



مامي، كارين، سولين

5

انسابت أشعة الشمس الذهبية متلألئة إلى غرفة سكارلت، عبر ستائر النوافذ الواسعة الزرقاء، وكانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحاً، ومن خلال النافذة، استطاعت سكارلت رؤية أزهار النرجس المائي الصفراء المتماوجة، ترصع جانبي الممشى المحصوصب، وعناقيد الياسمين الذهبية الصفراء تنشر حيية أزهارها النضرة على الأرض فتبدو كالأجراس، وكذلك رأت الطيور المنهمكة دائماً بنزاعها لامتلاك شجرة المانيوليا المنتصبة تحت نافذتها.

صباح مشرق كهذا كان يستحث سكارلت عادة إلى النافذة لتتكئ على طنفها العريض وتحتسي شرابها منتعشة بروائح تارا، طربة بأغاريدها. ولكنها اليوم لم تنظر إلى الشمس ولا إلى السماء الزرقاء إلا بالقدر الذي جعلها تفكر مسرعة «شكراً لله فإن الجو صحو». كان فستان الرقص، الحريري المتماوج، الأخضر بلون التفاح، موضوعاً فوق سريرها داخل علبة كرتونية رزمت بأناقة، جاهزاً كي يحمل إلى تولف أوكس لتتسربل به قبل بدء الرقص. على أن سكارلت هزت كتفيها ممتعضة لرؤيته... لو نجحت خططها لما ارتدت هذا الفستان في هذه الليلة ولكانت هي وآشلي قبل أن يبدأ الرقص بوقت طويل في طريقهما إلى جونسبورو، حيث يتزوجان. ولكن المشكلة المزعجة هي: أي فستان ينبغي ارتداؤه من أجل الحفل؟ أي فستان يمكن أن يبرز سحرها بالصورة الأفضل، ويمنحها جاذبية لا تقاوم أمام آشلي؟... منذ الساعة الثامنة وهي لا تزال تجرب وتلقي بالفساتين، وها هي الآن تقف كئيبة مغتمة متوترة الأعصاب في سراويل مزركشة بالدنتلة، ومشد علوي كتاني وتنورة داخلية كتانية، ذات أطواق ثلاثة من الدنتيلة المتماوجة، وحولها، على أرض الغرفة، وعلى السرير، وفوق الكراسي، تراكمت الأثواب المرفوضة المنبوذة، في أكوام زاهية الألوان، وشرائط مبعثرة. فالرداء الأحمر الأوركندي، ذو الزنار الوردي الطويل، لائق، لولا أنها لبسته في الصيف الماضي، في أثناء زيارة ميلاني لتولف أوكس، وهي واثقة من أن هذه ستتذكره، ويمكن أن تكون حقودة إلى درجة كافية لأن تشيع الأمر. والثوب الأسود الصوفي الحريري، ذو الردنين المنتفخين، والقبة المخرمة من طراز «برنسس»، يبرز بياض بشرتها بروعة تدعو

إلى الفخر ، ولكنه في الوقت ذاته يجعلها تبدو أكبر سناً . وحملقت سكارلت قلقة في المرآة ، كأنها تتوقع رؤية وجهها ذي الستة عشر ربيعاً ، متغضّناً ، وعضلات ذقنها متهدلة . . . لا : لن ترتدي أبداً ما يمكن أن يظهرها رزينة ، وقورة مسنّة ، أمام صبا ميلاني العذب .

أما فستان الموسلين ، الأزرق الفاتح المخطط ، فكان جميلاً بكشاكشه العريضة حول حاشيته ، من القماش المخرم والمجدول ، إلا أنه لا يناسب طرازها ، وإنما يناسب تماماً وجه كارين الناعم ، وملامحها الساطعة ، بينما تشعر سكارلت أنه يظهرها كتلميذة المدرسة ، ولن ينفعها أن تظهر كفتاة المدرسة أمام ميلاني المتزنة . وكذلك فستان التفتة الأخضر ، الصوفي المخطط ، الفضفاض بأهدابه ، التي ينتهي كل منها بشريط مخملي أخضر ، كان موفقاً جداً ، وهو في الحقيقة فستانها المفضل ، لأنه يبرز عينيها بلون الزمرد ، إلاّ أن بقعة دهنية لطخت صدر قميصه بشكل واضح ، وبالطبع ، يمكن لحليتها الماسية أن تغرز فوقها ، ولكن . . . ولكن . . . قد تكون عينا ميلاني حادتين . . . ولم يبق الآن إلاّ الفساتين القطنية المتعددة الألوان ، والتي أحست سكارلت أنها لن تبدو بهيجة بمناسبة كهذه : فساتين الرقص ، وفستان الموسلين المزين بأغصانه ، وأشجاره ، والذي ارتدته بالأمس . ولكنه فستان مسائي لا يصلح لحفل شواء ، فردناه قصيران منتفخان ، وعنقه منخفضة جداً بالنسبة إلى أثواب الرقص ، ولكن لم يكن بالإمكان إلاّ لبسه ، فضلاً عن أنها لن تخجل بعنقها وذراعيها وصدرها ، حتى لو كان من غير اللائق تعريتها صباحاً .

حين وقفت أمام المرآة ، تنثني كي تلتقط منظراً جانبيّاً لنفسها ، اعتقدت أن ليس في شخصها ، مطلقاً ، ما يحملها على الخجل ، فعنقها قصير ولكنه مستدير ، وذراعاها ممتلئان مغريتان ، وثدياها المندفعان إلى الأعلى ، بوساطة المشد ، ناهدان ، فليس عليها أن تخيط طبقات من خرق الحريري المثنية في بطائن قمصانها ، كما يفعل معظم الفتيات اللواتي في سنها كي يمنحن قدودهن الامتلاء والتقوس المرغوب فيهما . وسرها أن ورثت عن أمها يديها النحيلتين البيضاوين ، وقدميها الصغيرتين ، وتمنت أن لو تكون بعلو قامة أمها ، مع أن قامتها تعجبها كثيراً ، وفكرت كم من المؤسف ألا تستطيع عرض ساقيها ، ورفعت تنورتها ، وتأملتهما بحسرة : ساقان ممتلئتان رشيقتان ، تحت سراويلها ،

إنها حقاً تملك ساقين بديعتين ، حتى إن صبايا الأكاديمية في فايتفيل أقررن بذلك ، أما خصرها فلم يكن يوجد في فايتفيل وجونسبورو ، وفي ولايات ثلاث أخرى ، من يملك خصراً نحيلاً مثله .

ودفعها التفكير بخصرها ثانية إلى قضايا الساعة : إن خصر فستان الموسلين الأخضر يبلغ أربعين سنتيمتراً ، بينما ضغطت مامي خصرها ، يوم لبست الفستان الصوفي الحريري الأسود إلى اثنين وأربعين سنتيمتراً فقط ، إذاً ينبغي لمامي أن تضغطه أكثر . وفي الحال دفعت الباب مصغية ، فسمعت وقع خطوات مامي الثقيلة صادرة عن القاعة السفلى ، فنادتها ملحة صارخة ، عالمة أن بوسعها الآن رفع صوتها دون عقاب لأن أمها في المطبخ .

ـ «بعض الناس يظنون أن باستطاعتي الطيران» دمدمت مامي ، وهي تترنح صاعدة الدرج ، ثم دخلت الغرفة لاهثة ، وقد غمرت وجهها ملامح من يتوقع القتال ، ويرحب به . كانت تحمل بين يديها صينية عليها طعام يتصاعد بخاره ، وما إن لمحت سكارلت الصينية حتى تبدلت ملامح وجهها ، من تعبير منفعل قليلاً ، إلى تعبير قتالي عنيد ، إذ كانت ، وهي منهمكة بانفعال في تجربة أثوابها ، قد نسيت قانون مامي الصارم ، القاضي بأنه قبل الذهاب إلى أي حفلة ، ينبغي على فتيات آوهارا ملء بطونهن حتى التخمة ، كي يعجزن عن تناول أي مرطبات في أثناء الحفلة .

ـ «لا جدوى من هذا الطعام ، فلن آكله ، ليس بوسعك إلا إعادته» .

وضعت مامي الصينية على الطاولة ، وعدلت وقفتها ، جاعلة يديها فوق خصرها .

ـ «نعم يا آنسة ، ستأكلينه ، إذ إنني لا أريد أن يحدث لك ما حدث لي في آخر حفل ، حيث عدت مريضة جداً جراء مقانقهم التي أكلتها ، إن لم أقدم لك طعامك قبل الذهاب . سوف تأكلين كل قطعة من هذا الطعام» .

ـ «لن آكل ، تعالي الآن وشدي خصري أكثر ، فقد أدركنا الوقت وسمعت هدير عجلات العربة آتية نحو البيت» .

ـ «الآن يا آنسة سكارلت» أجابت مامي وقد بدأت لهجتها تنم عن المداهنة ، «تفضلي وكلي قليلاً فقط ، فالآنسة كارين والآنسة سولين أكلتا جميع وجبتيهما» .

ـ «قد تأكلان» ، قالت سكارلت بازدراء ، «فهما أضعف من أرنب في تلبية طلبتك ، ولكني لن آكل ، إني متخمة بالطعام ، ولم أنس بعد المرة التي أكلت فيها كل الوجبة وذهبت إلى آل كالفرت ، حيث قدموا مثلجات صنعوها بوساطة الثلج الذي حملوه معهم طول الطريق من سافانا ، فلم أستطع أن آكل إلا ملء ملعقة . واليوم سأنعم بوقت طيب وأتناول من الطعام بقدر ما يطيب لي» .

ـ «إذا كنت لا تكترثين بما يقوله الناس عن هذه العادة المشينة ، فأنا أبالي» قالت مامي هادرة «ولن أقف مكتوفة اليدين وأدع كل من في الحفلة يقول إنك لم تربي تربية صحيحة ، لقد أخبرتك وأفهمتك ، أن بوسعك دوماً معرفة السيدة الفاضلة إذا كانت مقلة في أكلها كالعصفور ، ولن أدعك تذهبين إلى آل ويلكس وتأكلين كعاملة الحقل ، وتزدردين الطعام كالباز» .

ـ «أمي سيدة فاضلة وتأكل» ردت سكارلت .

ـ «عندما تتزوجين يصبح بإمكانك أن تفعلي مثلها . يوم كانت السيدة إيلين في مثل عمرك لم تكن تأكل مطلقاً خارج البيت ، وكذلك الأمر مع خالتك بولين وخالتك يولاي ، وقد تزوجن جميعاً . أما الآنسات الصغيرات اللواتي يأكلن كثيراً فيندر أن يتزوجن» .

ـ «لا أعتقد ذلك ، ففي حفلة الشواء تلك كنت مريضة ، ولم أكن قد أكلت من قبل ، أخبرني آشلي ويلكسَ أنه يحب أن تكون الفتاة ذات شهية مفرطة» .

هزت مامي رأسها منذرة بشر مستطير .

ـ «إن ما يقوله السادة الرجال يختلف كثيراً عما يفكرون به . وأنا لم ألحظ السيد آشلي مهتماً بالزواج بك» .

امتقع وجه سكارلت ، وهمّت أن ترد بعنف ، ولكنها أمسكت نفسها ، إذ غلبتها مامي في تلك النقطة ، ولا مجال للنقاش بعد . أما مامي فعندما رأت النظرة العنيدة المتصلبة في وجه سكارلت ، حملت صينيتها ، وغيرت خطتها ، وفقاً لغريزة المكر المراود الذي يتصف به الزنوج ، وفيما اتجهت نحو الباب ، تنهدت قائلة :

ـ «حسناً . . حسناً يا آنسة ، كنت أخبرت كوكي وهي تضع طعام الصينية ، بوسعك معرفة السيدة الفاضلة تماماً ، بمعرفة الكمية التي تأكلها ، وقلت لها

أيضاً لم أر سيدة بيضاء تأكل أقل مما أكلت الآنسة ميلي هاملتون ، في آخر زيارة لها للسيد آشلي . . . ـ أعني للآنسة إنديا» .

فرمقتها سكارلت بنظرة شك ، ولكن وجه مامي العريض لم ينم إلاّ عن البراءة ، وعن الأسف ، لأن سكارلت ليست سيدة فاضلة كميلاني هاملتون .

ـ «ضعي هذه الصينية وهيّا اضغطي خصري أكثر» ، قالت سكارلت بتذمّر ، «وسأحاول أن آكل قليلاً بعد ذلك ، لأني إذا أكلت الآن لن يضيق خصري كما ينبغي» .

وضعت مامي الصينية بعد أن أخفت أمارات انتصارها .

ـ «ماذا ستلبسين يا حملي؟» .

ـ «ذاك» وأشارت إلى فستان الموسلين الموبر ، المزدان بأزهاره الخضراء ، الأمر الذي أثار مامي على التو :

ـ «لا ، لن تلبسيه ، إنه لا يناسب حفلة صباحية ، وليس من حقك عرض صدرك قبيل الساعة الثالثة ، فضلاً عن أنه بلا قبة وبلا ردنين ، وسيكلف جلدك حتماً ، فتمسين كما ولدت ، وأنا لا أستطيع تصورك كلفاء بعد كل اللبن المخيض الذي دلكتك به طيلة هذا الشتاء مزيلة الكلف الذي أصابك جراء الجلوس على الشاطئ في سافانا . قطعاً سأخبر والدتك بما تفعلين» .

ـ «إذا أخبرتها بكلمة واحدة ، قبل إتمام لبسي ، فلن آكل لقمة واحدة» . أجابت سكارلت ببرود ، «ولن يكون لديها الوقت لإرجاعي كي أبدل الثوب إذا انتهيت من لبسه الآن» .

تنهدت مامي مذعنة ، وقد أدركت أنها أخطأت التقدير ، فمن بين آفتين ، كانت تفضل ارتداء سكارلت ثوبها المسائي في حفلة الصباح على أن تزدرد الطعام أمام الناس كالخنزير .

ـ «تمسكي جيداً بشيء ، وتنفسي شهيقاً» ، أمرت مامي ، وأطاعت سكارلت ، رابطة جسدها ، وقابضة بقوة على أحد أعمدة السرير ، بينما راحت مامي تدفع وتهز بشدة ونشاط حتى أضحى الخصر المنطق بحزام من جلد الحوت أصغر قطراً ، وعندئذ برقت عينا مامي بنظرة حب وكبرياء :

ـ «ليس لأحد خصر كخصر حملي» قالت باستحسان : «في كل مرة أضغط خصر الآنسة سولين إلى أقل من تسعة وأربعين سنتيمتراً ، يغمى عليها» .

ـ «أف» قالت سكارلت متنهدة بصعوبة ، «لم يغم علي في حياتي أبداً» .

ـ «لن يضيرك شيء إذا ما أغمي عليك من وقت إلى آخر» ، قالت مامي ناصحة ، «أحياناً ، تكونين جريئة جداً يا آنسة ، وقد كنت عازمة على إخبارك أن عدم إغمائك خوفاً من الحيات والفئران ، وأمثالها ، أمر غير مرغوب فيه ، لا أعني في محيط البيت ، بل عندما تكونين خارجاً بصحبة الرفاق ، وأنا قد أخبرتك و . .» .

ـ «هيا أسرعي ، لا تتكلمي كثيراً ، سوف أحصل على زوج ، سترين إن لم أفعل ذلك حتى وإن لم أزعق أو يغمى علي . رائع ، ولكن المشد ضيق جداً ، ألبسيني الفستان» .

أسقطت مامي بعناية فستان الموسلين فوق التنورة الفضفاضة المتفخة ، وشبكت ظهر القميص الضيق الطويل :

ـ «احتفظي بشالك على كتفيك عندما تكونين في الشمس ، ولا تنزعي قبعتك إذا شعرت بالحرارة» ، أمرت مامي مردفة : «وإلا ستعودين إلى البيت بنية اللون كالسيدة العجوز سلاتري . والآن هيا لتأكلي يا حلوتي ، ولكن لا تلتهمي الطعام بسرعة ، إذ لا جدوى منه عندئذ» .

امتثلت سكارلت للأمر ، وجلست أمام الصينية متسائلة عما إذا كان بمقدورها وضع طعام في معدتها ، والاحتفاظ بفسحة من الفراغ تمكنها من التنفس ، بينما تناولت مامي منشفة كبيرة من على المغسلة ، وربطتها حول عنق سكارلت بعناية ناشرة طياتها البيضاء فوق حجرها .

ـ «كم أتمنى من الله أن لو تزوجت» قالت حانقة ، وهي تقطع حبة البطاطا باشمئزاز ، «تعبت من بقائي هكذا بوضع غير طبيعي ، ومن عدم استطاعتي عمل أي شيء أرغب فيه . تعبت من اضطراري أن لا آكل أكثر من العصفور ، وأن أمشي عندما أرغب في الركض ، وأن أدعي الإغماء بعد رقص الفالس ، في الوقت الذي أستطيع فيه الرقص يومين كاملين دون أن أشعر بالتعب . تعبت من قول كم أنت رائع ، للرجال الأغبياء ، الذين لا يملكون نصف ما أملك من الفهم . تعبت من التظاهر بجهل كل شيء ، كيما يخبرني الرجال عن كل شيء ، فيحسون بقيمة ذواتهم وهم يفعلون ذلك . . . لا أستطيع أن آكل لقمة أخرى» .

ـ «جربي كعكة سخنة» ، قالت مامي دون إبطاء .

ـ «لماذا يفرض على الفتاة أن تكون هكذا بلهاء كيما تحصل على زوج؟» .

ـ «أتصور أن سبب ذلك هو أن السادة الرجال لا يعرفون ماذا يريدون ، إنهم يعرفون فقط ما يظنون أنهم يريدونه ، ويمنحهم إياه ينجلي كثير من البؤس عن بعض الآنسات كما تزال إمكانية بقائهن كبيرات السن . إنهم يظنون أنهم يريدون فتيات صغيرات ، بيضاوات ، بأحاسيس الطيور ، وغريرات ، فالواحد منهم لا يشعر أنه تزوج سيدة فاضلة إذا ما ظن أنها أكثر إدراكاً منه» .

ـ «ألا تظنين أن الرجال يدهشون بعد زواجهم إذا ما اكتشفوا أن زوجاتهم واعيات؟» .

ـ «عندئذ يكون قد فات الأوان ، وتم زواجهم ، إضافة إلى أنهم يتوقعون أن تكون زوجاتهم واعيات» .

ـ «ذات يوم سوف أفعل وأقول كل ما أريد فعله وقوله ، وإذا لم يستحسن الناس ذلك فإني لن أبالي» .

ـ «لا ، لن تفعلي» ، قالت مامي متجهمة «طالما بي رمق من حياة» «كلي قطعة الكعك واغمسيها بالمرق يا حلوتي» .

ـ «لا أعتقد أن الصبايا الشماليات يجبرن على التصرف كهؤلاء الغبيات ، فعندما كنا في ساراتوغا في السنة الماضية ، لاحظت الكثيرات منهن يتصرفن كمن يملك إدراكاً حسناً ، وأمام الرجال أيضاً» .

فهمهمت مامي وقالت :

ـ «الشماليات ، أجل . أظن أنهن يتحدثن وعقولهن سليمة ، ولكنني لم ألحظ الكثيرات منهن يطلبن للزواج في ساراتوغا !

ـ «ولكن لا بد من أن يتزوجن» أجابت سكارلت «إنهن لا يكبرن فحسب . لا بد من أن يتزوجن وينجبن أطفالاً ، فعددهن كبير جداً» .

ـ «الرجال يتزوجونهن من أجل أموالهنً» أجابت مامي بحزم .

ربما كان هنالك شيء من الحقيقة في ما قالته مامي ، لا بد من وجود شيء حقيقي فيه ، لأن إيلين تقول الأشياء ذاتها ، ولكن بكلمات مغايرة وأكثر أناقة ، والحق أن جميع أمهات صديقاتها يفرضن على بناتهن ضرورة كونهن عاجزات ، اتكاليات ، حذرات ، قلقات ، والواقع أن صفات كهذه تتطلب

الكثير من الوعي لتنشئتها وضبطها . . . أما هي فربما كانت شديدة الوقاحة ، إذ كانت تتناقش وآشلي من وقت إلى آخر وتبدي آراءها بصراحة ، فلعل هذا ، ومتعتها البدنية في المشي وركوب الخيل ، قد حولاه عنها إلى ميلاني الضعيفة ، ومن المحتمل إن هي بدلت خططها . . . ولكنها تحس أن آشلي إذا ما خدع بأحابيل النساء المتعمدة ، فلن تستطيع احترامه كما تحترمه اليوم ، فكل رجل شديد الغباء ، بحيث يخدع من جراء ابتسامة متكلفة أو إيماءة ، أو «آه كم أنت مدهش» لا يجدر الزواج به ، ولكن يظهر أن الجميع يستحسنون هذه الأساليب .

هل استخدمت الأساليب الخاطئة في ماضيها مع آشلي؟ . . . ولكن لقد مضى عهد ذلك وانقضى ، وستتبع اليوم أساليب جديدة ، الأساليب الصحيحة ، فهي تريده زوجاً ولا تملك إلا ساعات قليلة لهذا الغرض ، وإذا كان الإغماء ، أو التظاهر به ، يوصل إلى الغاية ، فستلجأ إليه ، وإذا كان تكلف الابتسام أو العبث أو الطيش ، سيجذبه ، فإنها ستصطنع العبث بكل سرور ، وتتصرف أكثر طيشاً حتى من كاثلين كالفرت ، وإذا ما اقتضت الضرورة خطوات أكثر جرأة ، فستخطوها ، فاليوم هو اليوم الموعود .

*

في الوقت الذي كانت العربة تحمل سكارلت باتجاه مزرعة آل ويلكس ، انتابها شعور بالفرح الآثم لأن أمها ومربيتها لن تحضرا الحفلة ، وبذلك لن يوجد من يستطيع التعرض لخطة تصرفاتها ، سواء من طريق رفع الحاجبين برفق ، أو مد الشفة السفلى . ومن المؤكد بالطبع أن سولين ستروي الأقاصيص عنها غداً لأهلها ، ولكن إذا سار كل شيء حسب ما ترجو ، فإن اضطراب العائلة من جراء خطوبتها لآشلي ، أو فرارها معه ، سيكون أكثر من راجح ، إذا ما قيس بامتعاض أفرادها . أجل ، إنها مسرورة جداً لاضطرار إيلين إلى البقاء في البيت .

كان جيرالد قد أبلغ الناظر جوناس ويلكرسون قرار فصله ، فبقيت إيلين في تارا لمراجعة حسابات المزرعة قبل مغادرته لها ، وهناك في غرفة مكتبها الصغيرة ، حيث جلست أمام منضدتها المرتفعة ، ذات الأدراج المكدسة الأوراق ، قبّلتها سكارلت قبلة الوداع ، بينما وقف جوناس ويلكرسون ، وقبعته بيده إلى جانبها ووجهه الشاحب الأصفر المعروق عاجز عن إخفاء سورة الكراهية التي

تملكته لفصله اعتباطاً عن أحسن وظيفة ناظر في الولاية من جراء مغازلة تافهة . لقد أخبر جيرالد مرة بعد مرة أن طفل إيمي سلاتري يمكن لأي واحد من اثني عشر رجلاً أن يتبناه مثله بطيبة خاطر ـ الفكرة التي قبلها جيرالد ـ ولكن هذا القول لم يغيّر من قضيته بالنسبة إلى إيلين .

كان جوناس يكره جميع الجنوبيين ، يكره مجاملتهم الفاترة له ، وازدراءهم لمنزلته الاجتماعية ، هذا الازدراء المغلف بمجاملتهم ، بشكل فاضح ، كما كان يكره إيلين أوهارا قبل كل إنسان آخر ، إذ كانت بنظره صورة مصغرة لكل ما يكره في الجنوبيين .

كانت مامي قد بقيت لتساعد إيلين ، كونها رئيسة نساء المزرعة ، ولذلك ركبت دلسي إلى جانب السائق توبي ، واضعة فساتين رقص البنات داخل علبة طويلة على حضنها . وخلف العربة ، ركب جيرالد على حصان الصيد الكبير ، مستشعراً بدفء الكونياك ، مسروراً لإنهائه قضية ويلكرسون المكدرة ، بسرعة فائقة . وقبل مغادرته المكان ألقى بالمسؤولية على عاتق إيلين ، دون أن يخطر بباله حقيقة شعورها بالخيبة لتغيّبها عن الحفلة ولقاء صديقاتها ، فالنهار ربيعي رائع ، وحقوله تبدو لناظريه جميلة والطيور مغردة ، وهو يحس إحساساً قوياً بالشباب والمرح ، بحيث لن يفكر بأي شخص آخر .

كان منتشياً منطلق السرور بأمل قضاء النهار في حديث عن الشماليين والحرب ، فخوراً ببناته الثلاث الجميلات ، في تنانيرهن الزاهية الفضفاضة يتفيأن بمظلات صغيرة . ولم يفكر البتة في حديثه مع سكارلت في اليوم السابق ، إذ كان قد زال من تفكيره تماماً ، فلم يخطر له سوى أنها رائعة ومدعاة كبيرة لفخره ، وأن عينيها في هذا اليوم خضراوان كروابي إيرلندا ، وقادته هذه الخاطرة الأخيرة إلى التفكير بنفسه بشكل أفضل ، لتضمنها رنيناً شعرياً خاصّاً ، جعله يكرم بناته بصوت مرتفع ، مرنماً الترجمة الغامضة نوعاً ما لنشيد «ارتداء الثوب الأخضر» .

تطلعت إليه سكارلت بازدراء حنون ، كما تتطلع الأمهات إلى أولادهن الصغار المغرورين ، مدركة أنه لن يأتي المساء إلاّ وهو ثمل للغاية ، وأنه سيحاول في أثناء عودته ليلاً القفز عن كل الحواجز المنتصبة بين تولف أوكس وتارا ، وأملت أن تتعاون الرحمة الربانية وتنبه حصانه على تجنبه كسر رقبته . . . سوف

يخوض مياه النهر بحصانه مستنكفاً من المرور فوق الجسر ، وسوف يأتي البيت مدوياً بصوته ، ليحمله بورك إلى النوم فوق كنبة الإدارة بعد أن يكون قد انتظره في القاعة الأمامية ومعه المصباح ، كعادته في مثل هذه المناسبات .

سوف يتلف بذلته الصوفية الرمادية الجديدة ، ما يضطره إلى القسم الرهيب في الصباح ، وإخبار إيلين بإسهاب مطرد ، كيف وقع حصانه عن الجسر ، في الظلمة ، الكذبة الجلية التي لن تخدع أحداً ، ولكنها تقبل من الجميع ، لتجعله يشعر بذكائه الخارق .

بابا إنسان طيب ، أناني غير مسؤول ، فكرت سكارلت وقد جاش صدرها بالعاطفة نحوه ، مستشعرة أنها في هذا الصباح عظيمة السرور ، شديدة الانطلاق بحيث يغمر حنانها كل الدنيا ، كما غمر جيرالد ، إنها جميلة ، وهي تعلم ذلك ، وستكسب آشلي لنفسها قبل نهاية النهار .

ـ «سوف أذكر كم كان جميلاً هذا اليوم ما حييت» فكرت سكارلت ، «وربما يكون يوم زواجي» .

وتأملت ، والخفقة في قلبها ، كيف يحتمل أن تنطلق مساء اليوم هي وآشلي ، راكبين خلال هذا البهاء من الأزهار والأشجار ، أو في أثناء الليل في ضوء القمر ، قاصدين جونسبورو ، والكاهن . وبالطبع سوف تجدد عقد زواجها أمام كاهن من أتلانتا ، الأمر الذي سيقلق والديها كليهما . ووهنت برهة وهي تتأمل كيف سيشحب وجه أمها عاراً وهي تسمع أن ابنتها فرت مع خطيب فتاة أخرى ، ولكنها ستسامحها عندما ترى سعادتها ، وأبوها سوف يزعق ويشتم ولكن رغم كل ملاحظاته أمس حول عدم رغبته في زواجها بآشلي سيكون سروره عظيماً لا يوصف لاتحاد عائلته بعائلة آل ويلكس .

ـ «على أن هذه الأمور لن تقلقني إلاّ بعد الزواج» تمتمت طاردة قلقها عنها .

ـ «سأعيش هناك طوال عمري ، وسأشاهد خمسين ربيعاً كهذا الربيع ، وربما أكثر ، وسأخبر أبنائي وأحفادي كم كان جميلاً هذا الربيع ، أجمل من أي ربيع يمكن أن يشاهدوه» . وغمرها السرور إثر هذه الخاطرة ، حتى إنها شاركت في الردة الأخيرة لأغنية «ارتداء الثوب الأخضر» فنالت بذلك استحسان أبيها المدوي .

ـ «لا أعرف سبب سعادتك الغامرة هذا الصباح؟ قالت سولين بغضب ، إذ

ما زال يتقد في دماغها أنها تبدو بثوب رقص سكارلت الحريري أجمل بكثير مما تبدو به صاحبته الشرعية . ولماذا كانت سكارلت دائماً شديدة الأنانية فيما يتعلق بإعارة أثوابها وقبعاتها؟ ولماذا كانت أمها تدعمها ، معلنة أن اللون الأخضر لا يناسب سولين؟ «أنت تعرفين كما أعرف أن خطوبة آشلي ستعلن هذه الليلة ، هكذا قال بابا صباحاً ، وأنا أعرف أنك كنت تتوددين إليه منذ شهور» .

ـ «وهذا كل ما تعرفينه» ، أجابت سكارلت ، مادة لسانها ، رافضة التخلي عن مزاجها الطيب ، كم ستكون الآنسة سولين دهشة في مثل هذا الوقت من صباح الغد :

ـ «سولين أنت تعرفين أن الأمر ليس كذلك» احتجت كارين منذهلة «فهي لا تحفل إلاّ ببرنت» .

تطلعت سكارلت نحو شقيقتها الصغرى بعينين خضراوين باسمتين ، مستغربة أن كان بوسع أي فتاة أن تكون بمثل هذه الرقة الخلابة ، كل العائلة تعرف أن قلب كارين ، التي ما زالت في سن الثالثة عشرة ، معلق ببرنت تارلتون ، الذي لم يحفل بها إلاّ بصفتها شقيقة سكارلت الصغرى . وفي غياب إيلين ، كان أفراد آل أوهارا يغيظونها حتى تبكي ، في الحديث عنه .

ـ «أنا لا أحفل مطلقاً ببرنت ، يا عزيزتي» قالت سكارلت سعيدة جداً بموقفها ، «كما أنه لا يحفل بي أبداً ، وكيف لا ، وهو ينتظرك حتى تكبري» .

احمر وجه كارين الصغير المستدير ، والحنق يغالب الشك في نفسها :

ـ «أحقاً ما تقولين يا سكارلت؟» .

ـ «سكارلت ، أنت تعلمين أن أمي قالت إن كارين ما زالت صغيرة جداً لتفكر بالعشاق الآن ، وها أنت تحشرين رأسها بالأفكار . . .» .

ـ «حسناً ، اذهبي وشي بي ، لتري إذا كنت أبالي» ، أجابت سكارلت . . . «تريدين أن تردعي كارين لأنك تعرفين أنها ستفوقك جمالاً ، خلال سنة أو أكثر» .

ـ «لتحافظن على ألسنتكن مهذبة في أفواهكن هذا اليوم ، وإلاّ حملت سوطي وجئتكن «حذّرهنّ جيرالد» والآن اسكتن : أهدير عجلات عربة هذا الذي أسمعه؟ لا بد أن يكونوا آل تارلتون أو آل فونتين» وعندما قارب القادمون مفترق الطريق ، التي تنحدر من ميموسا وفيرهل عبر التلة الكثيفة الغابات ،

سمع صوت عجلات العربة وحوافر الخيل ، أكثر من قبل ، وعلا صخب أصوات نسائية ، في نقاش مرح ، صادر عن خلف حاجز الأشجار ، فما كان من جيرالد ، المتقدم أمام الجميع ، إلا أن شد عنان فرسه ، وأشار إلى توبي أن يوقف العربة ، حيث يلتقي الطريقان .

ـ «إنهن سيدات آل تارلتون» ، خاطب بناته ، ووجهه المورد يشع سروراً ، إذ لم يكن في الولاية ، باستثناء إيلين ، امرأة يعزها أكثر من السيدة تارلتون ، ذات الشعر الأحمر ، «وهي نفسها تقود العربة ، ها : امرأة بيدين ناعمتين لقيادة حصان ، يدين خفيفتين بوزن الريشة ، قويتين كالسياط ، وجميلتين جداً ، بحيث تستحقان القبلة من أجل ذلك كله . والمؤسف أن لا واحدة منكن ، تملك مثل هاتين اليدين» . قال رامقاً فتياته بنظرات ودية ولكنها معبِّرة زاجرة . «فكارين تخاف الخيول ، وسولين تشبه يداها مكواة الثياب الثقيلة ، وهما تقبضان على الزمام ، وأنت يا آنسة» .

ـ «على كل حال ، لم أقع عن ظهر جوادي يوماً» ، صاحت سكارلت ، ساخطة ، «بينما السيدة تارلتون تقع في كل رحلة صيد» .

ـ «وتكسر عظمة رقبتها كالرجال دون إغماء أو ضوضاء» ، قال جيرالد «والآن ، لنكف عن هذا الحديث فقد وصلت» .

وانتصب على ركابي سرجه ، وخلع قبعته بسرعة فائقة عندما بدت للعيون عربة آل تارلتون ، وقد طفحت بفتيات في أثوابهن الزاهية ، ومظلاتهن ، وبراقعهن المتماوجة ، وكما قال جيرالد ، جلست السيدة تارلتون على كرسي القيادة ، بينما كان في الداخل بناتها الأربع ، ومربيتهن ، وفساتين الرقص ، ضمن علب كرتونية طويلة ، ما زحم العربة ، بحيث لم يبق فراغ لجلوس السائق فيها ، هذا إضافة إلى أن بياتريس تارلتون ، لا تسمح عن طيبة خاطر ، لأي إنسان ، أبيض أو أسود ، أن يمسك بالزمام ، عندما تكون ذراعاها دون ضمادات . إنها امرأة حساسة ذات هيكل عظمي بديع ، وبشرة ناصعة البياض ، كان شعرها الأحمر الملتهب قد امتص جميع لون وجهها إلى خصلاته الحية اللامعة ، ومع ذلك ، كانت تتمتع بصحة وافرة ، وطاقة لا تنضب ، وقد ولدت ثمانية أطفال بشعور حمراء كشعرها ، وحيوية كحيويتها ، وربتهم أحسن تربية ، كما يقول أهل الولاية ، نظراً لما تعاملهم به من الإهمال المرغوب فيه والنظام

الصارم ، اللذين تعامل بهما مهار الخيل التي تربيها ، «اكبح جماحهم ، ولكن لا تقتل معنوياتهم» هكذا كان شعار السيدة تارلتون .

كانت تعشق الخيل ، وتتحدث إليها دائماً ، وتفهمها وتدبر أمورها أفضل من أي رجل في الولاية . وقد طفحت المرجة الأمامية بالأمهار ، تماماً كما طفح بيتها الفسيح على التلة بأولادها الثمانية . وكانت عندما تتجول في المزرعة يسير الأبناء والبنات وكلاب الصيد والمهار كالذيل خلفها . وقد أكسبت خيولها ، خاصة فرسها الحمراء ، نيلي ، ذكاء بشرياً ، وإذا ما أخرتها شواغل البيت إلى ما بعد الوقت الذي تنتظر فيه القيام بركوبها اليومي ، وضعت وعاء السكر بيد أحد الصبية الزنوج قائلة : «اعط حفنة لنيلي ، وأخبرها أني قادمة على الفور» .

وباستثناء بعض المناسبات النادرة ، كانت ترتدي دائماً ثوب الركوب ، لأنها سواء أركبت أم لا ، كانت تأمل الركوب في أي وقت ، وبدافع ذلك الأمل ، كانت ترتديه بعد يقظتها من النوم ، وفي كل صباح ماطر ، أو مشرق ، كانت نيلي تسرح وتروح وتجيء أمام البيت ، تنتظر الوقت الذي تستطيع فيه السيدة تارلتون توفير ساعة للركوب بعيداً عن مسؤولياتها ، ولكن فيرهل كانت مزرعة عسيرة التدبير ، وفراغ الوقت فيها يصعب الحصول عليه ، وكثيراً ما ظلت نيلي تروح وتجيء ، ساعة بعد ساعة ، دون ركوب ، بينما بياتريس تارلتون ماضية بأعمال البيت ، وتنورة ثوبها معقودة إلى ذراعها ، دون أن تفطن لها ، كاشفة عن جزمتيها اللامعتين .

أما اليوم ، فقد ارتدت ثوباً حريرياً أسود ، دون لمعان ، فوق أطواق ضيقة قديمة الطراز ، فبدت كأنها في رداء الركوب ، إذ كان الثوب مخيطاً بشكل ضيق كذاك الرداء ، بينما قبعتها الصغيرة السوداء ذات الريشة الطويلة ، التي تنحني فوق إحدى عينيها العسليتين البراقتين الحنونتين ، كانت صورة طبق الأصل لقبعتها العتيقة البالية التي تستعملها في أثناء الصيد .

عندما شاهدت جيرالد لوحت بسوطها ، وقادت حصانيها الأحمرين المتراقصين إلى مكان تقف فيه ، بينما انحنت الفتيات الأربع ، في مؤخرة العربة ، متطلعات خارجاً ، مرسلات صرخات تحيات سارة جعلت الحصانين يقفزان مذعورين ، بحيث يخيل للرائي عرضاً أن سنين قد انقضت منذ شاهدت عائلة تارلتون عائلة أوهارا ، بدلاً من يومين فقط ، فقد كانت هذه العائلة حسنة

المعشر ، تحب جيرانها ، خصوصاً فتيات آل أوهارا ، أي سولين وكارين ، إذ لم تكن في الولاية فتاة واحدة ، مع إمكان استثناء الطائشة كاثلين كالفرت ، تحب سكارلت حباً حقيقياً .

في فصول الصيف ، كان أهل الولاية يقيمون حفلات الشواء والرقص بمعدل واحدة من كل نوع في الأسبوع تقريباً ، ولكن ، رغم ذلك وبالنسبة إلى فتيات تارلتون ، ذوات الشعر الأحمر ، والمقدرة الفائقة على إمتاع أنفسهن ، كانت كل حفلة رقص ، أو شواء ، مثيرة مطربة كما لو أنها أول حفلة يحضرنها .

كن صبايا أربع ظريفات ، ممتلئات صحة ، حشرن حشراً في العربة ، حتى تداخلت أطواقهن وأهداب أثوابهن بعضاً في بعض ، وحتى راحت مظلاتهن ترتطم ببعضها وتبرز مجتمعة فوق قبعاتهن الواسعة المصنوعة من القش للوقاية من الشمس ، والتي تتوّجها الورود ، ويتدلى منها إلى تحت ذقونهن شرائط مخملية سوداء ، والتي تحتوي داخلها شعوراً تمثل في ألوانها جميع درجات الاحمرار المتفاوتة : شعر هيتي الأحمر الفاتح ، وشعر كاميلا الأشقر بلون الفريز ، وشعر رندا النحاسي القاني الحمرة ، وشعر بتسي الصغيرة الأحمر بلون رؤوس الجزر .

ـ «إنه سرب بديع يا سيدة» قال جيرالد بلهجة لطيفة ، هامزاً حصانه بمحاذاة العربة ، «ولكن ما زال أمامهن شوط كبير ليلحقن بأمهن» .

أدارت السيدة تارلتون عينيها العسليتين الحمراوين ، قالبة شفتها السفلى في تعبير استهزائي ساخر ، فصرخت الفتيات : «ماما ، كفي عن سخريتك وإلا فسنخبر والدنا» ، «نقسم يا سيد أوهارا أنها لا تمنحنا يوماً أية فرصة عند وجود رجل مثلك وسيم الطلعة» .

ضحكت سكارلت والباقين ، جراء هذه التحرشات ، ولكنها شأنها دائماً ذهلت للحرية التي تتمتع بها فتيات تارلتون في معاملتهن لأمهن ، إذ كن يتصرفن كأنها واحدة منهن لا يتجاوز عمرها السادسة عشرة بيوم واحد ، بينما مجرد التفكير بقول مثل هذه الأقوال لإيلين كان بالنسبة إلى سكارلت كتدنيس للمقدسات الدينية . ومع ذلك ـ ورغم ذلك ـ فإن هناك شيئاً ممتعاً جداً في علاقة بنات تارلتون بأمهن ، فهن يحببنها جداً ، رغم كل انتقاداتها لهن ولومهن ، وإغاظتهن ، ولكن سكارلت أسرعت في القول لنفسها مخلصة : إنها

لا تفضل أماً كالسيدة تارلتون على إيلين ، رغم أنها ترى أن التهريج مع الأم أمر مفرح ، ولكنها مع ذلك تعرف أن مجرد التفكير بهذا مهين لإيلين ، ولذلك شعرت بالعار من جرائه ، كما أنها تعرف أن أفكاراً مقلقة كهذه لم يحدث أن أزعجت العقول الأربعة ، تحت قبعات القش الحمراء ، في العربة . . . وانتابتها حيرة مثيرة ، كعادتها كلما أحست نفسها تختلف عن جارتها .

وبالرغم من أن عقلها كان سريع الإجابة ، إلاّ أنه لم يخلق للتحليل والتعليل ، ولكنها رغم ذلك تحققت بنصف وعي أن بنات تارلتون ، رغم كونهن متمردات كالأمهار وبريات كأرانب آذار ، فإن بهن سذاجة لا تضايقهن ، هي في الواقع جزء من ميراثهن .

كن جورجيات من ناحية أبيهن وأمهن ، من شمالي جورجيا ، يفصلهن جيل واحد فقط عن الرواد الأوائل ، واثقات بأنفسهن ، وبحقيقة وسطهن الاجتماعي ، يعرفن بالغريزة ماذا يردن ، كفتيات آل ويلكس ، وإن تباينت الأساليب تبايناً واضحاً ، وقد خلت نفوسهن من ذلك التناقض الذي يثور تكراراً في صدر سكارلت ، حيث امتزج دم امرأة من أرستقراطية الساحل ، ذات تنشئة راقية ، وصوت ناعم ، مع الدم الفظ الماكر ، لفلاح إيرلندي . إن سكارلت تريد أن تحترم أمها وتحبها ، كما تريد أن تجعد شعرها وتغيظها أيضاً ، ولكنها تعرف أن عليها أن تسلك إحدى هاتين الطريقتين فقط ، إنها هذه العاطفة المتناقضة ذاتها هي التي جعلتها ترغب في الظهور بمظهر السيدة اللطيفة الراقية التهذيب مع الشبان ، وتكون في الوقت نفسه فتاة فظة سيئة التربية لا ترتفع عن مستوى التقبيل .

ـ «أين إيلين في هذا الصباح؟» سألت السيدة تارلتون .

ـ «تخلفت إثر طرد ناظرنا ، ومكثت في البيت لمراجعة الحسابات معه ، أين السيد تارلتون والشبان؟» .

ـ «لقد ركبوا إلى تولف أوكس منذ ساعات ليعاينوا الشراب ويروا إذا كان من النوع المسكر كما يجب ، كأنهم لن يستطيعوا فعل ذلك منذ الآن وحتى صباح الغد . سأطلب من جون ويلكس أن يبقيهم طيلة الليل ، حتى لو اضطر إلى إنامتهم في الإصطبل ، فخمسة رجال سكارى أكثر مما أستطيع احتماله . بوسعي الاهتمام بثلاثة فقط ، ولكن . .» .

لم يدعها جيرالد تكمل عبارتها ، بل قاطعها ليغير موضوع الحديث ، وقد شعر ببناته الجالسات خلفه يحاولن كتمان ضحكهن ، وهن يتذكّرن بأية حالة عاد والدهن إلى البيت ، من حفلة آل ويلكس الأخيرة ، في الخريف الماضي .

ـ «ولماذا لم تمتطي حصانك هذا اليوم يا سيدة تارلتون؟ من المؤكد أنك لا تظهرين على حقيقتك أبداً بدون نيلي» .

ـ «أما بالنسبة إلى عدم امتطائي الفرس اليوم ، فإن نيلي وضعت مهراً هذا الصباح الباكر» .

ـ «هذا الصباح؟» صاح جيرالد باهتمام حقيقي ، وقد برقت عيناه بعاطفته الإيرلندية تجاه الخيل ، وثانية ، ذهلت سكارلت من جراء مقارنة والدتها بالسيدة تارلتون ، فبالنسة إلى إيلين ، لم تكن الأفراس تضع مهاراً أبداً ، ولا الأبقار عجولاً ، وفي الحقيقة حتى الدجاج لم يبض غالباً ، إذ كانت تتجاهل ذكر هذه الأمور كلية ، بينما السيدة تارلتون لا تحبس لسانها عن ذكرها .

ـ «مهرة صغيرة ، أليس كذلك؟» .

ـ «لا ، مهر صغير رائع بقوائم تبلغ ١٨٠ سم طولاً . ينبغي أن تحضر وتراه يا سيد أوهارا . إنه حصان تارلتوني حقيقي ، أحمر اللون كخصلات شعر هيتي» .

ـ «وكذلك يشبهها إلى حد كبير» ، قالت ذلك كاميلا ، ثم صرخت مختفية وسط حشد التنانير والسراويل المتلاطمة ، والقبعات المتمايلة ، حين شرعت هيتي الغاضبة تقرصها .

ـ «مهراتي في غمرة هياجهن هذا الصباح ، إنها ترفس أقدامها عالياً منذ سمعنا في ساعة مبكرة نبأ آشلي وابنة عمه الصغيرة التي من أتلانتا . ما اسمها؟ ميلاني؟ ليباركها الله من طفلة ، إنها مخلوقة صغيرة حلوة ، ولكني لا أستطيع تذكر اسمها أو وجهها البتة ، على أن طاهيتنا حظية نادل آل ويلكس ، وقد جاءنا حظيها الليلة الماضية بنبإ إعلان الخطوبة هذا المساء ، وأخبرتنا به كوكي صباحاً . وقد دهشت جميع بناتي ، مع أني لم أستطع معرفة السبب ، فكل إنسان يعرف منذ سنين أنه سيتزوجها ، وذلك إن لم يتزوج إحدى بنات خالته ، آل بور ، في ميكون ، تماماً كما ستتزوج هوني ويلكس شقيق ميلاني ، تشارلز . والآن أخبرني يا سيد أوهارا هل محرم على آل ويلكس الزواج من غير عائلتهم؟ لأنه إذا . .» .

لم تسمع سكارلت بقية العبارة التي قيلت بشكل مرح ، ولبرهة قصيرة ، أحست كأن الشمس قد غابت خلف سحابة باردة ، تاركة الدنيا تغرق في الظلال ، نازعة ألوان المخلوقات . وغرزت أصابعها في مقعد العربة الوثير وترنحت مظلتها لحظة . كان من المؤلم أن تعلم بخطوبة آشلي ، ولكن من المؤلم كذلك أن تسمع الناس يتحدثون عن الأمر بصورة عرضية عادية . ثم عاودتها رباطة جأشها قوية عنيفة ، وأشرقت الشمس ثانية ، وتلألأت مناظر البرية من جديد . إنها تعرف أن آشلي يحبها ، وأن ذلك أمر مؤكد ، وابتسمت وهي تفكر : أي دهشة ستتملك السيدة تارلتون عندما لا تعلن خطوبة الليلة : ـ وكم ستفاجأ إذا ما تم الفرار؟ وكيف ستخبر جيرانها أي نذلة خبيثة كانت سكارلت ساعة جلست في العربة تصغي إلى حديثها عن ميلاني ، في الوقت الذي هي وآشلي طيلة المدة ـ . وبرزت غمازتاها ، وهي تبتسم لهذه الخطرات ، بينما هيتي التي كانت تراقب متيقظة تأثير كلمات أمها ، استرخت في مقعدها ، بوجه منقبض حائر .

ـ «أنا لا أحفل بما تقول يا سيد أوهارا» كانت السيدة تارلتون تعلن ذلك بشدة «كله خطأ ، زواج أبناء الأعمام ، إنه ليس في صالح آشلي مطلقاً ، الزواج بالطفلة هاملتون . ولكن بالنسبة إلى زواج هوني بذاك الهزيل الشاحب تشارلز هاملتون . .» .

ـ «هوني لن تحصل على الزواج مطلقاً ، إذا لم تتزوج تشارلز» ، قالت رندا بقسوة واطمئنان نظراً لكونها محبوبة مرغوبة ، «فهي لم تنعم يوماً بعاشق سواه ، وهو لم يحسن التودد إليها أبداً ، سكارلت ، تذكرين كيف تبعك في عيد الميلاد المنصرم؟» .

ـ «لا تكوني حقودة يا آنسة» قالت أمها ، «ينبغي ألا يتزاوج أبناء الأعمام ، حتى ولا أبناؤهم ، فهذا يضعف السلالة ، والأمر ليس كما هو في الخيل ، حيث تستطيع تلقيح فرس من شقيقها أو أبيها ، وتحصل على ذرية جيدة ، إذا كنت تميزين بين دم السلالات» . ولكن هذه النظرية لا تنجح في البشر ، فقد تحصل على وجوه جميلة ، ولكن دون مناعة .

ـ «والآن ، يا سيدة ، أنا أعارضك في هذه الناحية ، هل بوسعك إخباري عن عائلة أفضل من آل ويلكس؟ وها هم يتزاوجون من بعضهم ، منذ كان برين

بورو صبياً» .

ـ «وقد حان الوقت ليكفوا عن ذلك ، إذ بدأت الأعراض تظهر ، ها ، ليس آشلي بالمثل الكافي ، فهو شيطان جميل المنظر ، رغم أنه ـ ولكن أنظر إلى تينك الفتاتين الممتقعتي اللون من آل ويلكس ، إنهما مسكينتان ، ظريفتان طبعاً ، ولكنهما شاحبتان . ثم انظر إلى ميلاني الصغيرة الجثة تراها نحيفة كقضيب الحديد ، رقيقة جداً بحيث يمكن للريح أن تعصف بها بعيداً ، ضعيفة النفس تجلس إليها فلا تسمع منها رأياً واحداً ، بل (نعم يا سيدة) ، (لا يا سيدة) ، هذا كل ما تحسن قوله ، هل أدركت ما أعنيه؟ تلك العائلة بحاجة إلى دم جديد ، دم نشيط حيوي ، كبناتي الحمراوات الشعور ، أو بنتك سكارلت . . . والآن أرجو أن لا تسيء فهمي . إن آل ويلكس أناس طيبون بطريقتهم الخاصة ، وأنت تعرف أني أحبهم جميعاً ، ولكن لنكن صريحين : إنهم ذوو تربية راقية ، وساذجة أيضاً ، أليسوا كذلك؟ قد ينجحون في الطريق الممهدة ، الطريق السريعة ، ولكن انتبه لما سأقوله : أنا لا أعتقد أن بإمكان الويلكسيين السير في الدرب الموحلة ، أعتقد أن المناعة الإنسانية قد نفدت منهم ، وإذا ما نشأت ظروف طارئة فلن يكون بوسعهم مجاراة الأفذاذ . سلالة ربيت في جو جاف . . نريد رجالاً أقوياء يستطيعون الصمود أمام تقلبات الزمن . وقد جعلهم تزوجهم من بعضهم يختلفون عن العائلات الأخرى في المنطقة ، فهم دوماً إما عازفون على البيانو ، أو مكبون رؤوسهم على الكتب ، إني أعتقد أن آشلي يفضل القراءة على الصيد ، أجل ، أعتقد ذلك بصدق يا سيد أوهارا . ثم انظر فقط إلى عظامهم ، إنها نحيلة جداً ، إنهم بحاجة إلى آباء وأمهات أقوياء البنية» .

ـ «آه . . نعم . . نعم» قال جيرالد متثائباً متمطياً ، إذ تنبه فجأة وهو يشعر بالإثم ، إلى أن النقاش اللاذع جداً ، والمناسب كلية في نظره ، قد يكون على النقيض من ذلك تماماً في نظر إيلين ، وتحقق أنها لن تستعيد رشدها إن هي عرفت أن بناتها قد سمح لهن بالاستماع إلى حديث صريح كهذا .

ولكن السيدة تارلتون كانت كعادتها تصم أذنيها دون كل الأفكار الأخرى ، عندما تتابع موضوعها المفضل ، التناسل ، سواء بين الخيل أو بين البشر .

ـ «أنا أعرف عم أتكلم ، لأن لي ابن عم وابنة عم تزوجا وأؤكد لك أن

جميع أطفالهما جاحظو الأعين كالضفادع . إنهم مساكين . وعندما أرادت العائلة تزويجي بحفيد عمي ، أخذت أرفس كالمهر ، وقلت : لا يا أمي ، ليس من أجلي ، بل من أجل أطفالي الذين سيصابون كلهم بداءي التورم واللهثة ، فأغمي عليها ساعة سمعت بداء التورم ، ولكني وقفت صامدة ، ودعمتني جدتي التي كانت تعرف الكثير عن تناسل الخيل أيضاً ، قائلة إني على صواب ، أرأيت؟ ثم ساعدتني على الفرار مع السيد تارلتون . فتأمل الآن أولادي ، إنهم كبار الجثة وأصحاء ، ليس بينهم مريض أو قزم ، مع أن طول بويد ١٧٥ سم فقط ، بينما الويلكسيون . . .» .

ـ «لا أقصد تغيير الموضوع يا سيدة . . .» قاطعها جيرالد وقد لاحظ نظرات كارين الحائرة ، والفضول الشره في وجه سولين ، وخشي أن تسألا إيلين أسئلة محرجة ، تفضح كيف كان رقيباً فاشلاً ، وسره أن يلاحظ أن زوجته كانت على ما يبدو تفكر في أشياء أخرى ، شأن السيدات . وأنقذته هيتي من ورطته :

ـ «بالله؟ يا أماه ، دعينا نتابع السير» صاحت بجزع «فهذه الشمس تشوي جلدي وبوسعي الآن سماع الكف يفرقع على رقبتي» .

ـ «دقيقة واحدة يا سيدة ، قبل أن تذهبي . . .» قال جيرالد «ماذا قررت أن تعملي حول بيعنا الخيول من أجل الفرقة العسكرية ، فالحرب يمكن أن تنشب في أي يوم بعد هذه اللحظة الحاضرة ، والشبان يريدون إنجاز هذه القضية . إنها فرقة كلايتون ، ونحن نريد لها خيول كلايتون ، ولكن لكونك عنيدة ، ما زلت ترفضين بيعنا خيولك الأصيلة» .

ـ «ربما لن تقع أية حرب» راوغت السيدة تارلتون ، وقد تحول عقلها تماماً عن عادات زواج الويلكسيين الشاذة .

ـ «كيف ، ليس بوسعك يا سيدة . . .» .

ـ «ماما» ، اعترض هيتي ثانية ، «ألا تستطيعين والسيد أوهارا التحدث عن الخيول في تولف أوكس ، كما تتحدثان هنا؟» .

ـ «بلى : تماماً ، يا آنسة هيتي» قال جيرالد ، «ولن أؤخرك سوى دقيقة واحدة ، فسوف نبلغ تولف أوكس في برهة قصيرة ، حيث كل الرجال ، شيوخ وشبان ، يرغبون في معرفة ما تم حول الخيول ، آه ، ولكن الذي يحز في قلبي هو أن أرى سيدة جميلة كأمك بخيلة جداً بخيولها . أين وطنيتك يا سيدة

تارلتون؟ هل الحلف لا يعني شيئاً مطلقاً بالنسبة إليكم؟» .

ـ «ماما» صاحت بتسي الصغيرة «رندا جالسة على فستاني ، وقد تجعد كله» .

ـ «أبعديها عنك يا بتسي ، ثم الزمي الصمت ، والآن ، أصغ إلي يا جيرالد أوهارا» ، أجابت رادة على إهانته ، وقد بدأت عيناها ترمقانه شزراً : «لا تكلمني مستغلاً موضوع الحلف ، فأنا أعتبر الحلف يعنيني بقدر ما يعنيك ، وها إن أولادي الأربعة في الفرقة بينما ليس لك أي ولد فيها ، ولكن أبنائي يستطيعون الاهتمام بأنفسهم ، بينما خيولي لا . وأنا بكل سرور ، أقدم الخيل دون مقابل ، إذا علمت أن الذين سيركبونها شبان أعرفهم ، رجال فاضلون ، معتادون ركوب الخيول الأصيلة ، لا ، لن أتردد دقيقة واحدة ، لكن أن أدع خيولي الجميلة تحت رحمة رجال الغابات والقفار ، وحقراء البيض ، المعتادين امتطاء البغال ، لا يا سيدي ، سيجثم على صدري كابوس الألم ، وأنا أفكر أن السروج تخدش ظهورها في أثناء الركوب ، وأنها لا تساس كما يجب . هل تعتقد أني أسمح لأغبياء مجهولين أن يمتطوا خيولي العزيزة البضة الأفواه ، وأن يثخنوا أفواهها بالجراح ، ويضربوها حتى يضعفوا معنوياتها؟ كيف؟ إن بدني يقشعر الآن وأنا أفكر بهذا ، لا يا سيد أوهارا ، أنت لطيف جداً إذ ترغب في ابتياع خيولي ، لكن الأفضل لك الذهاب إلى أتلانتا وشراء بعض الخيول المسنة المهترئة لأجلافك ، فهم لن يميزوا الفرق أبداً» .

ـ «أمي أرجوك ، ألا نستطيع متابعة السير؟» سألت كاميلا ، منضمة إلى المجموعة التي نفد صبرها . «أنت تعرفين تمام المعرفة أنك سترفضين إعطاءهم خيولك العزيزة ، مهما كلف الأمر ، وعندما سيندفع أبي والشبان بالحديث عن الحلف ، وحاجتهم إلى الخيل ، وما شابه ، ستصيحين ثم تسمحين بها» .

كشرت السيدة تارلتون هازة حبال العربة .

ـ «أنا لا أقدم على عمل كهذا» قالت ، وهي تمس الحصانين بالسوط مساً خفيفاً جعل العربة تنطلق بسرعة .

ـ «إنها امرأة رائعة» قال جيرالد ، معتمراً قبعته ، سائراً بمحاذاة عربة بناته ، «هلم بنا يا توبي ، سوف نبهكها ونأخذ الخيل ، رغم كل هذا . ولكن المؤسف عدم وجود عدد كاف من أبناء المزارعين في هذه الولاية لتشكيل فرقة كاملة ، ماذا تقولين يا ابنتي؟» .

6

بعد أن عبرت النهر صعدت عربة أوهارا التلة ، وحتى قبل أن يبدو تولف أوكس للعيان ، رأت سكارلت ضبابة دخان تعلق بقمم الأشجار السامقة ، وعبق أنفها بمزيج روائح شهية تفوح من كتل أخشاب الجوز المشتعلة ، ولحوم الضأن والخنازير المشوية .

كان لا بدّ أن تكون حفر الشواء ، التي تشتعل ببطء منذ الليلة الماضية ، قد أصبحت الآن أحواضاً مستطيلة من الجمر المتقد الأحمر ، واللحم فوقها يحرك وهو بالسفافيد ، فينقط منه الدهن سائلاً متساقطاً فوق جذوات الفحم بهسهسة خافتة . وعرفت سكارلت أن هذه الرائحة الشهية ، التي يحملها النسيم العليل ، صادرة عن غابة أشجار السنديان الضخمة خلف البيت الكبير ، حيث يقيم جون ويلكس حفلات الشواء دائماً . هناك على المنحدر الجميل ، الموصل إلى حديقة الورود ، مكان بهيج مظلل ، أبهج بكثير ، مثلا ، من ذلك الذي يستعمله آل كالفرت .

كانت السيدة كالفرت تنفر من طعام الشواء ، وتعلن أن روائحه تظل في البيت أياماً ، ولذلك كان ضيوفها يقاسون دائماً حرارة الشمس في بقعة مستوية مكشوفة ، تبعد ربع ميل عن البيت . بينما جون ويلكس ، المعروف بالكرم في كل الولاية ، يعرف حقاً كيف يكرم ضيوفه بحفلة الشواء . فهناك تحت الظلال الكثيفة كانت تنصب دائماً موائد الحفلات الطويلة فوق قوائم خشبية ، وعليها أجمل شراشف آل ويلكس الكتانية ، وقد صفت إلى جانبها مقاعد بلا ظهور بينما تبعثرت هنا وهناك مساند وكراسي ، جلبت من داخل البيت ، لهؤلاء الذين لا يهوون الجلوس على المقاعد .

وعلى مسافة بعيدة ، كافية لمنع الروائح عن الضيوف ، جعلت حفر الشواء ، حيث ينضج اللحم ، وحيث توجد قدور الغسيل الحديدية الضخمة التي تفوح منها روائح صلصة الشواء الريانة ، وروائح يخنة برونشفيغ(*) .

(*) مدينة في شمالي غربي ألمانيا .

وكان جون ويلكس يستخدم دائماً اثني عشر عبداً على الأقل ، يحملون الصواني مهرولين جيئة وذهاباً ، لخدمة الضيوف . وبعيداً خلف مخازن الحبوب ، كانت تقام في كل مرة ، حفلة شواء أخرى ، حيث ينعم خدم البيت ، والسائقون ، ووصيفات الضيوف ، بوليمتهم الخاصة المؤلفة من فطائر الذرة ، والبطاطا ، والمقانق ، علاوة على البطيخ ، في موسمه ، بكمية تكفي لإتخام الجميع .

وعندما بلغت أنف سكارلت رائحة لحم الخنزير الطازج المبهر ، جعدته تقديراً واستحساناً ، آملة أن تتفتح شهيتها قليلاً ، حين يكون اللحم قد نضج ، إذ كانت تخشى في كل لحظة ، وهي على ما هي عليه ، من معدة متخمة بالطعام ، وخصر مشدود للغاية ، أن تتقيأ ، الأمر الذي سيكون مشيناً قاضياً ، حيث لا يستطيع إلاّ الرجال المسنون ، والسيدات المسنات جداً ، أن يتقيأوا دون استنكار المجتمع لفعلتهم .

وبلغوا قمة التلة ، وانتصب أمامها البيت الأبيض ، بتناسقه التام ، وأعمدته الشاهقة ، وشرفاته الواسعة ، وسطحه المستوي ، جميلاً كالمرأة الجميلة ، الواثقة بسحرها كل الثقة ، بحيث تستطيع أن تكون كريمة لطيفة مع الجميع .

كانت سكارلت تحب تولف أوكس حباً جماً يفوق حبها لتارا ، فقد كان ذا جمال فخم سني ، وجلال عذب كامل ، يفتقد إليه بيت جيرالد في تارا .

كان الممشى الواسع المتعرج مليئاً بالخيول المسرجة ، والعربات ، والضيوف يترجلون ويحيون أصدقاءهم ، بينما كان الزنوج المفترون عن أسنانهم بفتور ، والمنفعلون شأنهم في كل حفلة ، يقودون الحيوانات إلى الحظيرة ، حيث ينزلون عدتها وسروجها ، لتبقى طليقة طيلة اليوم . وكانت جموع من الأطفال ، سود وبيض ، تركض صائحة حول المرجة المخضرة حديثاً ، يلعبون ويتباهون بالطعام الكثير الذي سيأكلونه .

وكذلك القاعة الواسعة ، الممتدة من مقدمة البيت إلى نهايته ، كانت تعج بالناس ، فقد رأت سكارلت ، عندما وقفت العربة ، مقابل الدرجات الأمامية ، فتيات بتنانير فضفاضة ، على شكل الأجراس ، يتلألأن كالفراشات ، يصعدن ويهبطن سلالم الطابق العلوي ، متماسكات حول الخصور ، يقفن متكئات على قمة الدرابزين البديعة ، يضحكن وينادين الشبان في القاعة السفلى تحتهن .

ومن خلال النوافذ الواسعة، المبنية على طراز فرنسي، لمحت سكارلت نساء أكبر سناً، جالسات في غرفة الاستقبال، وقورات في أثوابهن الحريرية السوداء، يروّحن بالمراوح، ويتحدثن عن الأطفال والأمراض، وعن اللواتي تزوجن، ومن؟ ولماذا؟ وكان توم، نادل آل ويلكس، يسرع متنقلاً بين الغرف، والصينية الفضية بيده، يقدم، منحنياً باسماً، الكؤوس الطويلة إلى شبان في سراويل رمادية، وحنطية اللون، وقمصان كتانية ذات كشاكش.

وكانت الشرفة الأمامية المشمسة مزدحمة بالضيوف، «أجل.. فالولاية بأسرها قد انتقلت إلى هذا المكان». فكرت سكارلت، فهناك أبناء تارلتون الأربعة الطوال ووالدهم، مستندين على الأعمدة الشاهقة، والتوأم ستيوارت وبرنت، جنباً إلى جنب متلازمين كالعادة، بينما بويد وتوم مع والدهما جيمس تارلتون، والسيد كالفرت يقف قريباً بجانب زوجته الشمالية، التي، حتى بعد خمس عشرة سنة قضتها في جورجيا، لم تظهر مطلقاً كمواطنة أصيلة، كما لم تحتفظ بجميع سماتها الأصيلة. كل الناس كانوا لطافاً معها، عطوفين عليها، نتيجة شعورهم بالأسف من أجلها، إلاّ أن أحداً لم ينس أنها ضاعفت خطيئة نسبها الأولى، بكونها مربية أطفال السيد كالفرت. وكان الشابان ريفورد وكيد كالفرت موجودين في الحفلة أيضاً مع شقيقتهما الشقراء الجريئة، كاثلين، المنهمكة بإثارة جو فونتين الأسمر، وسالي مونرو، التي ستكون عروسه الجميلة. بينما ألكس وطوني فونتين كانا يهمسان في أذن ديمتي مونرو، مغرقانها في عواصف من الضحك الساخر المستهتر.. وبالإضافة إلى كل هؤلاء، جاءت عائلات من أماكن بعيدة: من لفجوي على مسافة عشرة أميال، من فايتفيل وجونسبورو، وقليل جداً من أتلانتا وميكون أيضاً، فبدا البيت وكأنه يكاد ينفجر بمن فيه، وراح دوي غير منقطع من أصوات الأحاديث والضحك والقهقهة وزعيق النساء الحاد وصيحاتهن يرتفع حيناً ويخبو آخر.

وعلى درجات الرواق، وقف جون ويلكس، بشعره الفضي، منتصب القامة، تشع عيناه بالجمال المطمئن وكرم الضيافة، كرم حار لا تنطفئ شعلته كشمس صيف جورجيا. وإلى جانبه، وقفت هوني ويلكس، التي لقبت بهذا الاسم، نظراً لأنها تخاطب كل إنسان، من والدها إلى عامل الحقل، بلهجة التودد ذاتها. وقفت برِمة باسمة بفتور، ترحب بالضيوف القادمين.

كانت رغبة هوني المنفعلة الجليلة في أن تظهر جذابة بعين كل رجل قادم، تخالف تماماً موقف والدها المتزن، ما جعل سكارلت تفكر باحتمال وجود بعض الصواب فيما قالته السيدة تارلتون. فمن المؤكد أن رجال آل ويلكس كانت لهم ملامح العائلة، إلاّ أن الأهداب الذهبية القاتمة التي تحلي عيون جون ويلكس وآشلي، كانت تبدو متفرقة، عديمة اللون في وجهي هوني وشقيقتها إنديا، فعينا هوني كانتا كعيني الأرنب، المستهجنة المنظر، العديمة الأهداف، أما إنديا فكان أفضل ما تنعمت به سذاجة الوجه.

لم تلمح سكارلت إنديا في أي مكان، ولكنها أدركت احتمال وجودها في المطبخ، تصدر التعليمات النهائية للخدم... مسكينة إنديا، فكرت سكارلت، فمنذ وفاة والدتها وهي تحمل مسؤولية البيت المرهقة، بحيث لم تتح لها الفرصة لنيل أي محب، عدا ستيوارت تارلتون، وبالطبع «ليس الذنب ذنبي، إن فكر ستيوارت أني أجمل منها».

هبط جون ويلكس عن الدرج، ليمد ذراعه لسكارلت، وبينما هي تنزل من العربة، لمحت سولين تصطنع الكياسة، فأدركت أنها لا بد أن التقطت فرانك كندي من بين الجموع.

كيف لو أنني لن أوفق إلى حيازة محب أفضل من ذلك العجوز، المرتدي بنطلون سهرة، فكرت بازدراء، وهي تقفز أرضاً، شاكرة مبتسمة لجون ويلكس.

أسرع فرانك كندي نحو العربة ليساعد سولين على النزول، بينما شمخت هذه بصورة جعلت سكارلت ترغب في صفعها، فمن المحتمل أن يكون فرانك أكبر ملاكي الأرض في الولاية، كما يحتمل أن يكن ذا قلب رحيم جداً، ولكن هذا لا قيمة له إذا قيس بحقيقة كونه في الأربعين من العمر، ضئيلاً، عصبي المزاج، ذا لحية خفيفة بلون الزنجبيل، ومظهر عجوزي يتجلى في كثرة لطفه. وعلى كل حال... تذكرت سكارلت خطتها، فخنقت ازدراءها، ليفتر ثغرها ببسمة مشرقة تحية له، بسمة جعلته يقف هنيهة، يحملق في وجهها بدهشة تنم عن سرور، بينما يده ممدودة إلى سولين.

ودارت عينا سكارلت بين الحضور تبحثان عن آشلي فيما هي تحدث جون ويلكس حديثاً قصيراً ساراً، ولكنها لم تعثر عليه في الرواق، ثم علت

التحيات لها من عدة حناجر ، واتجه ستيوارت وبرنت تارلتون نحوها ، بينما اندفعت فتيات مونرو ليعلن إعجابهن بثوبها . وفي الحال أضحت محور دائرة من الأصوات ، أخذت ترتفع أعلى فأعلى بقوة وتدفق ، حتى سُمعت رغم الدوي المستمر . . . ولكن أين آشلي؟ وميلاني وتشارلز؟ لقد حاولت ألاّ ينكشف مرادها وهي تنقل نظرها ، وتتطلع ، وترنو إلى القاعة السفلى ، بين الحضور الضاحك .

وبينما هي تثرثر وتضحك وتلقي بالنظرات الخاطفة السريعة ، داخل البيت ، وعلى الساحة ، وقعت عيناها على رجل غريب ، يقف وحيداً في القاعة ، يتأملها بنظرة سليطة باردة جعلتها تحس بعنف مزيجاً من شعور الأنثى السار بجذب رجل ، والشعور المربك لكون فستانها مكشوفاً جداً عند الصدر .

كان يظهر كبير السن ، في الخامسة والثلاثين على الأقل ، طويل القامة ، قوي البنية ، بكتفين ، اعتقدت سكارلت أنها لم تر مثيلين لهما ، وعضلات قوية جداً ، قوية بحيث تتجاوز به حدود الرقة . وعندما تلاقت عيونهما ، ابتسم لها ، كاشفاً عن أسنان بيضاء كأسنان الحيوانات ، يعلوها شارب أسود ، مائل قليلاً . كان أسمر الوجه أدكن البشرة كقرصان البحر ، ذا عينين سوداوين نفاذتين كعيني قرصان يقوّم سفينة إسبانية ليستولي عليها ، أو صبية ليخطفها . وعندما ابتسم لها ، لمحت في أساريره علائم التهور المستهتر ، وفي فمه ابتسامة تهكم ساخر ، فأمسكت أنفاسها ، شاعرة أن عليها أن تحس الإهانة جراء مظهر كهذا المظهر ، متكدرة من نفسها لعدم تحسسها .

لم تعرف من يمكن أن يكون ، ولكن كان وجهه الأسمر يعكس نظرة دم عريق لا يمكن إنكاره ، تظهر جلية في أنفه الأعوج الدقيق القائم فوق شفتين حمراوين تماماً ، وفي جبهته المرتفعة وعينيه الواسعتين .

ودون أن ترد الابتسامة ، حوّلت نظرها بعيداً عنه ، وأدار هو وجهه عندما ناداه أحدهم : «ريت . . ريت بتلر تعال هنا . أريدك أن تقابل صاحبة أقسى قلب في جورجيا» .

ريت بتلر ، إن هذا الاسم مألوف لديها ، مرتبط بأمر فاضح سار . . . ولكن كان عقلها يفكر بآشلي ، فأبعدت تفكيرها به .

ـ «ينبغي أن أسرع إلى الطابق العلوي وأسرح شعري» ، أخبرت ستيوارت

ويرنت ، اللذين كانا يجربان الانزواء بها ، «انتظراني ولا تنسلا مع فتاة أخرى لئلا أحنق عليكما» .

استطاعت سكارلت أن تلاحظ أن ستيوارت سيكون صعب القياد هذا اليوم إذا غازلت أي شخص آخر ، كان ثملاً ، تنم ملامح وجهه عن عجرفة تتقصد القتال ، الأمر الذي تعرف سكارلت من خلال التجارب أنه يعني المتاعب .

وقفت في القاعة هنيهة ، لتحدث بعض الأصدقاء ، ولتحيي إنديا التي برزت قادمة من خلف البيت ، شعرها مشعث ، وعلى جبينها حبات من العرق صغيرة . مسكينة إنديا . . إن من الأمور السيئة جداً أن يكون للفتاة شعر وأهداب صفراء شاحبة ، وذقن ناتئة تنم عن عناد في وقت لم تبلغ فيه العشرين من عمرها ، ولكنها تعتبر مسنة في معرض الزواج . وتساءلت فيما إذا كانت إنديا تستنكر كثيراً انتزاعها ستيوارت منها ، فكثير من الناس يقولون إنها ما زالت تحبه ، على أنك لا تستطيع مطلقاً أن تعرف بماذا يفكر الويلكسي . وإذا كانت قد تنكرت لحبها لها ، فهي لم تظهر أبداً ما يشير إلى ذلك ، بل عاملت سكارلت بالمجاملة اللطيفة نفسها المقترنة بقليل من الترفع ، والتي كانت تعاملها بها من قبل .

وحدثتها سكارلت بمودة ، ثم راحت تصعد الدرجات ، وفيما هي كذلك سمعت صوتاً خجولاً فزعاً ينادي باسمها من الخلف ، فالتفتت لترى تشارلز هاملتون .

كان فتى وسيم الطلعة ، تنسدل على جبينه الأبيض خصلات شعر ناعم بني ، ذا عينين عسليتين صافيتين حنونتين كعيني كلب حراسة اسكتلندي ، وقد بدا رائعاً بسراويله الصفراء الفاقعة ، ومعطفه الأسود ، وقميصه المثنى الذي عقدت إلى قبته أعرض وأحدث ربطة عنق سوداء . وعندما التفتت نحوه ، تورد وجهه بحمرة خفيفة ، إذ كان حيّياً في معاملة الفتيات ، وكمعظم الرجال الخجولين ، كان يعجب كثيراً بالبنات المرحات ، خفيفات الروح والحركة ، كسكارلت ، التي لم تجامله قبلاً بأكثر من مجاملة عرضية . ولذلك فإن ابتسامة السرور المشرقة ، التي حيّته بها ، واليدين اللتين بسطتهما نحو يديه ، كادت تقطع أنفاسه .

ـ «من؟ تشارلز هاملتون ، أيها الشاب المسن الجميل ، أنت . إني أراهن أنك

ما جئت هنا ، قاطعاً الطريق كله من أتلانتا ، إلاّ لتحطم قلبي فحسب» .

فلم يحر جواباً ، وتلجلج لسانه دهشاً ، وأمسك بيديها الصغيرتين الدافئتين ، محملقاً في عينيها الخضراوين المتراقصتين . . . إن هذا هو الأسلوب الذي كانت تتحدث به الفتيات إلى غيره من الشبان ، وليس إليه أبداً ، ولم يكن يعرف السبب في كونهن يعاملنه دائماً كشقيق أصغر سناً منهن ، فكن لطيفات معه ، ولكن دون أن يكلفن أنفسهن مؤونة إثارته ، بينما هو يرغب دوماً في أن يغازلنه ويداعبنه ، كما يفعلن مع شبان أقل وسامة منه بكثير ، وأقل تنعماً بخيرات هذه الدنيا ، على أنه في المرات القليلة التي أتيح له فيها ذلك ، لم يستطع التفكير بأي شيء يقوله ، وقاسى آلاماً مبرحة جراء ضيقه بهذا البكم الذي يتملكه ، ثم كان لا ينام الليل مفكراً بالخطوات اللائقة التي يمكن أن يقوم بها ، ولكنه نادراً ما نعم بفرصة أخرى ، إذ هجرته الفتيات وحيداً إثر تجربة أو تجربتين فقط .

حتى إنه مع هوني ، التي يربطه بها تفاهم ضمني ، غير معلن عنه ، على الزواج عند حصوله على أملاكه في الخريف القادم ، كان حيياً صامتاً . وبعض الأحيان كان يحس إحساساً تنقصه الشهامة أن مظاهر الغنج والدلال الأصيلة في هوني ليست ربحاً ، إذ إنها كانت كثيرة الولع بجنس الرجال بحيث تصور أنها قد تستخدم هذه المظاهر مع أي رجل يقدم لها الفرصة لذلك . ولم يكن متحمساً حول موضوع زواجه بها ، فهي لم تثر فيه شيئاً من العواطف الخيالية الجامحة التي تؤكد كتبه المحببة أنها جديرة بكل عاشق . وطالما تشوق لأن تحبه فتاة جميلة مندفعة تتقد ناراً واستعاراً .

وها هي سكارلت أوهارا تثيره الآن قائلة إنه سيحطم قلبها . وجرب أن يفكر بشيء يقوله ، فلم يقدر ، بل شكرها في نفسه ، لاستمرارها في ثرثرة أنقذته من ضرورة الاشتراك في الحديث . إنها نعمة لا تكاد تصدق !

ـ «والآن ، انتظرني في هذا المكان ذاته إلى أن أعـود ، لأني أريد أن نتناول الطعام معاً ، وإياك أن تنطلق في مغازلة الفتيات الأخريات ، فأنا غيورة جداً» .

هكذا توالت الكلمات التي لا تصدق من بين شفتين حمراوين على جانبيها غمازتان ، بينما كانت أهداب سوداء حركة ترتعش مدعية الحياء والرزانة فوق عينين خضراوين .

ـ «لن أغازل أي فتاة» ، استطاع أخيراً أن يتنفس ، دون أن يدور بخلده البتة

أنها تنظر إليه كعجل يرمق جزاره .

وربتت خفيفاً على ذراعه بمروحتها المطوية ، وأدارت وجهها لتصعد الدرج عندما وقعت عيناها ثانية على الرجل المدعو ريت بتلر ، يقف وحيداً على بعد خطوات قليلة من تشارلز . من الواضح أنه استرق السمع لكل ما دار بينهما ، إذ ابتسم في وجهها بنظرة خبيثة كالهر ، وتفحصتها عيناه للمرة الثانية ، بتحديق خال تماماً من طابع الاحترام الذي اعتادته .

ـ «أعوذ بالله» ، أسرت سكارلت في نفسها غضبى ، مستعملة عبارة أبيها المفضلة «يظهر كما لو أنه يعرف كيف أبدو بدون زينتي» ثم اندفعت صاعدة السلم .

وفي غرفة النوم ، حيث وضعت الرزم ، وجدت كاثلين كالفرت تصلح من هيئتها أمام المرآة ، وتعض شفتيها كيما تظهران أكثر احمراراً ، وقد وضعت على حزامها وروداً ندية بلون وجنتيها ، بينما كانت عيناها الزرقاوان الصغيرتان جداً تتراقصان طرباً .

ـ «كاثلين» قالت سكارلت وهي تحاول رفع صدر فستانها إلى أعلى «من ذلك الرجل الوغد ، المدعو بتلر ، في الطابق السفلي؟» .

ـ «ألا تعرفينه يا عزيزتي؟» همست كاثلين منفعلة ، وعينها ترمق الغرفة التالية ، حيث جلست دلسي ومربية بنات آل ويلكس تثرثران «أنا لا أستطيع تصور شعور السيدة ويلكس لوجوده هنا ، ولكنه كان بزيارة السيد كندي في جونسبورو ـ في قضية تتعلق بشراء القطن ـ وبالطبع اضطر السيد كندي إلى أن يحضره معه إذ لا يستطيع السفر وإبقاءه هنالك» .

ـ «وما هي قصته؟» .

ـ «لم يقبل كزوج يا عزيزتي» .

ـ «ليس صحيحاً» .

ـ «بلى» .

فتقبّلت سكارلت المفاجأة بصمت ، إذ لم يحدث لها البتة أن اجتمعت بإنسان مرفوض تحت سقفٍ واحد . كان النبأ مثيراً .

ـ «وماذا اقترف؟» .

ـ «آه يا سكارلت ، سمعته مخيفة جداً . اسمه بتلر من شارلستون ، وعائلته

من أكرم العائلات هناك ، ولكنهم لا يتعاملون معه ، حتى بالكلام ، أخبرتني عنه كارو ريت في الصيف الماضي ، إنه ليس من أقربائها ، ولكنها تعرف كل شيء عنه . كل الناس يعرفون ، لقد طرد من وست بوينت تصوري . ولأسباب مشينة جداً لا يحسن بكارو أن تعرفها ، ثم حدثت تلك القضية المتعلقة بالفتاة التي لم يتزوجها» .

ـ «أخبريني» .

ـ «عزيزتي ، ألا تعرفين شيئاً؟ أخبرتني كارو كل شيء في الصيف الماضي ، ولو أن أمها اعتقدت أن ابنتها تعرف بالأمر ، مجرد معرفة ، لماتت . . . على كل حال ، السيد بتلر هذا اصطحب فتاة من شارلستون في عربة خيل ، لم أعرف من هي تحديداً ولكني أحدس حدساً أنها لا يمكن أن تكون رائعة جداً ، وإلاّ لما خرجت معه في أواخر المساء ، دون رقيب ، ويا عزيزتي ، مكثا خارجاً طوال الليل ، ورجعا إلى البيت مشياً على الأقدام قائلين إن الحصان قد جمح فحطم العربة ، وإنهما ضلا طريقهما في الغابات ، وخمني ما . . .» .

ـ «لا أقدر أن أخمن . . أخبريني» ، قالت سكارلت بلهفة حماسية ، منتظرة سماع الخبر الأسوإ .

ـ «رفض أن يتزوجها في اليوم التالي» .

ـ «آه» قالت سكارلت وقد تحطمت آمالها .

ـ «قال إنه لم . . . يفعل أي شيء معها ، فهو لذلك لا يرى لماذا يجب أن يتزوجها . وبالطبع دعاه شقيقها للمبارزة ، فأجاب السيد بتلر بأنه يفضل الموت على الزواج بغبية حمقاء ، وهكذا اشتبكا في مبارزة ، وأصاب السيد بتلر شقيقها الذي توفي على الأثر ، فاضطر السيد بتلر إلى مغادرة شارلستون ، والآن لا تقبل به أي فتاة» .

أنهت كاثلين القصة مزهوة ، وفي الوقت المناسب تماماً ، إذ عادت المربية دلسي إلى الغرفة لتشرف على زينة من وضعت تحت مسؤوليتها .

ـ «هل ولدت طفلاً؟» همست سكارلت في أذن كاثلين . فهزت هذه رأسها بعنف نافية ذلك وقالت هامسة : «ولكنها تحطمت . . النتيجة ذاتها تماماً» .

ـ «ليتني جعلت آشلي يهتك عفافي» فكرت سكارلت فجأة ، «لو فعلت لكان حقيراً جداً إن لم يتزوجني» . ومهما كان الأمر ، فقد شعرت من تلقاء

نفسها بالاحترام نحو ريت بتلر لرفضه الزواج بحمقاء .

*

جلست سكارلت على كرسي مرتفع في ظلال السنديانة الضخمة ، خلف البيت ، وكشاكش ثوبها وأهدابه تتماوج من حولها ، ولم تكد تلمس طبق الطعام بيديها ، حتى التف حولها سبعة فرسان ، إذ كان الحفل قد بلغ أوجه وزخر الجو الدافئ بالضحك والحديث ، وقرقعة الأدوات الفضية ، فوق الصحون الصينية ، وبالرائحة القوية للحوم المشوية ، والمرق العابق . وبين الفينة والأخرى ، كان اتجاه النسيم يتبدل ، فيحمل في ثناياه نفحات من دخان حفر الشواء الطويلة ، فوق الحضور ، فتستقبلها السيدات بصيحات الفزع الساخرة ويهز مراوحهن المصنوعة من أوراق النخيل .

جلست معظم الآنسات ، كل منهن مع فتاها ، على المقاعد الطويلة المقابلة للموائد . ولكن سكارلت ، وقد عرفت أن للفتاة جانبين فقط ، وأن رجلاً واحداً فحسب يستطيع الجلوس إلى جانب ، اختارت أن تجلس على حدة ، لتجمع حولها أكثر ما يمكن من الرجال .

وتحت العريشة ، جلست النسوة المتزوجات ، وقد بدت أثوابهن السوداء وافرة الذوق محتشمة ، وسط الألوان الزاهية والجو المرح .

كنّ ربات بيوت ، غير مباليات بفوارق السن ، يجلسن دائماً معاً ، بعيداً عن الصبايا ذوات العيون البراقة المشعة ، بعيداً عن الغزل والهرج ، إذ لم يكن في الجنوب غانيات بين المتزوجات ، ولذلك جلسن معاً ، جميعهن ، ابتداء من الجدة فونتين ، التي كانت تتقيأ علناً كما يخولها عمرها الكبير ، إلى إليس مونرو التي لم تتجاوز السبعة عشر ربيعاً ، والتي كانت تكافح ضد غثيان الحبل الأول ، يشتركن في أبحاث لا تنتهي حول الولادة والأطفال .

وفكرت سكارلت ، وهي تلقي بنظرات الازدراء عليهن ، أنهن يشبهن قطيعاً من الأبقار السمينة ، فالمتزوجات برأيها عديمات المرح ، ولم يعن لها أنها إذا تزوجت ستنحصر آلياً تحت العرائش ، وفي غرف الجلوس ، مع ربات البيوت الرصينات ، في أثوابهن الحريرية القاتمة ، ستنعزل وإياهن رزينة هادئة مثلهن تماماً ، دون أي مرح أو لهو . كان خيالها ، كمعظم الفتيات ، يحملها حتى مذبح الكنيسة فحسب ، حيث تتم مراسيم الزواج إضافة إلى أنها الآن ، متكدرة

جداً بحيث لن يسعها متابعة موضوع فكري اجتماعي .

وأطرقت رأسها فوق طبق الطعام ، وقضمت قطعة رقيقة من البسكويت برفق وكياسة ، ولكن دون شهية ، الأمر الذي ينال استحسان مامي . ورغم الفيض من المتيمين حولها لم تكن يوماً أكثر تعاسة في الحياة منها اليوم . لقد فشلت خطط الليلة الماضية فيما يتعلق بآشلي كلية وبطريقة لم تستطع فهمها . لقد جذبت العشاق بالعشرات ولكن دون آشلي ، وغمرتها ثانية كل مخاوف الأمس ، جاعلة قلبها يخفق بسرعة ثم ببطء ، ولون وجنتيها يتخضب ثم يشحب .

لم يحاول آشلي أبداً الانضمام إلى حلقتها ، والحقيقة أنها لم تنفرد وإياه بكلمة واحدة منذ وصولها ، بل إنها لم تكلمه البتة ، بعد تحيتهما الأولى ، وكان قد تقدم للترحيب بها عندما دخلت إلى الحديقة الخلفية ، ولكن ميلاني كانت تتأبط ذراعه آنذاك ، ميلاني التي لا تكاد تصل قامتها إلى حدّ كتفه .

كانت فتاة نحيلة ، ضعيفة البنية ، تظهر كالطفلة المتنكرة بتنورة أمها الواسعة ذات الأطواق ، ذلك المظهر الذي تؤكده النظرات الحيية الفزعة تقريباً في عينيها العسليتين الواسعتين جداً . وكان شعرها جعداً أسود ضغطته بشدة تحت شبكتها ، بحيث لم تنفلت منه أي شعرة وهذه الجمة السوداء أبرزت ، بذروتها الوحيدة الطويلة ، شكل وجهها الشبيه بشكل القلب ، وجه عريض جداً عند عظام الوجنتين ، دقيق جداً عند الذقن ، خفر ، هيّاب ، عذب ، ولكنه خال من الجمال ، ولا سيما أنها لا تحسن حيل الإغراء النسائية لتجعل الرائين ينسون عدم جمالها . كانت تبدو ـ وهذه حقيقتها ـ ساذجة كالأرض ، طيبة كالخبز ، شفافة كمياه الينبوع ، ولكن رغم كل بساطة ملامحها ، وصغر قوامها ، كان في حركاتها اعتزاز وقور ذو أثر غريب ، اعتزاز نفس أكبر بكثير من عمرها البالغ سبع عشرة سنة .

عندما صافحت سكارلت ، ابتسمت بشعور حيي ، وأخبرتها كم ظريف فستانها ، وبالكاد ، استطاعت سكارلت أن تجيب جواباً مهذباً ، إذ كانت ترغب رغبة عنيفة في أن تنفرد بالكلام مع آشلي ، ومنذ ذلك الوقت ، جلس آشلي على كرسي صغير عند قدمي ميلاني ، منعزلاً عن الضيوف والآخرين ، يحدثها باطمئنان ، ويبتسم ابتسامته الصغيرة الناعسة التي تحبها سكارلت . على أن

الذي جعل الأمور تزداد سوءاً هو أن عيني ميلاني شعتا قليلاً بالفرح جراء ابتسامة آشلي ، الأمر الذي اضطر ، حتى سكارلت ، إلى الإقرار بأن ميلاني تبدو جميلة تقريباً . ففيما هي تنظر إلى آشلي كان وجهها الساذج يضيء كما لو أن في جوفها ناراً ، ولو قدر لقلب محب أن ينعكس يوماً على وجه صاحبه لكان ذلك القلب قلب ميلاني هاملتون منعكساً على وجهها .

حاولت سكارلت أن تبعد عينيها عن هذين الاثنين ولكنها لم تقدر ، فراحت تضاعف مزاحها مع فرسانها إثر كل نظرة تضحك ، تتلفظ بكلمات جريئة ، تتدله وتحني رأسها جواباً لإطرائهم ، حتى يرقص قرطاها . ثم كررت قولها «لا أصدق ذلك» ، معلنة أن أياً منهم لم يكن صادقاً ، مقسمة أنها لن تصدق مطلقاً أي شيء يقوله أي رجل ، ومع ذلك لم يبد أن آشلي كان يلحظها البتة ، فقد كان ينظر فقط في وجه ميلاني ، مستمراً في حديثه ، بينما تتطلع هذه إليه ، بتعبير يشع بحقيقة كونها له .

وهكذا كانت سكارلت فتاة حزينة .

ويبدو في الظاهر أنه لم تكن توجد فتاة أقل سبباً للتعاسة من سكارلت ، فقد كانت ، بلا ريب ، حسناء حفل الشواء ومحور الاهتمام فيه ، وكان يمكن للهياج الذي أثارته بين الرجال ، مضافاً إليه حرقة قلوب الفتيات الأخريات ، أن يبهجها كثيراً ، ولكن في أي وقت آخر غير هذا الوقت .

احتل جانبها الأيمن تشارلز هاملتون الذي تشجع إثر حديثها معه ، رافضاً الابتعاد رغم جهود التوأم المشتركة لإبعاده ، وحاملاً مروحتها بإحدى يديه ، وفي اليد الأخرى طبق الشواء الذي لم يمسه ، وقد تفادى بإصرار التقاء عينيه بعيني هوني التي ظهرت دموعها على وشك الانفجار .

وجلس كيد كالفرت عن يسارها ، رشيقاً ينقر بأصابعه على تنورتها ، كيما يجذب انتباهها ، ويرنو إلى ستيوارت بعينين مستعرتين كمداً ، إذ كان الجو قد تلبّد بينه وبين التوأم ، وتبادلوا ألفاظاً بذيئة جارحة . أما فرانك كندي ، فقد راح يحوم حولها كالدجاجة ذات الفرخ الواحد ، مهرولاً جيئة وذهاباً ، ما بين ظلال السنديانة وموضع الموائد ، يجلب عينات شهية من الطعام لإغرائها بالأكل ، كأنه لا يوجد اثنا عشر خادماً مكرسين للغرض نفسه . ونتيجة لعمله هذا ، تجاوز استهجان سولين العابس حدود الكتمان الذي تتصف به السيدة الفاضلة ،

فأخذت ترمق سكارلت . وكذلك كارين الصغيرة كادت تبكي ، إذ رغم جميع كلمات سكارلت المشجعة في الصباح ، لم يلاطفها برنت بأكثر من «هالو» جاذباً شريط شعرها ، قبل أن يحول كل انتباهه نحو سكارلت ، بينما هو في العادة رقيق جداً معها ، يعاملها بتذلل لا يأبه له ، جعلها تحس بصباها ، وتحلم سراً باليوم الذي ستعقص فيه شعرها عالياً ، وتدلي تنورتها إلى أسفل ، وتستقبله كمحب عاشق ، أما الآن فيبدو أن سكارلت ملكت كل أحاسيسه .

وكانت فتاتا آل مونرو تخفيان كدرهما جراء تحول الشابين فونتين ، المندفعين الطائشين ، ولكنهما كانتا منزعجتين للطريقة التي وقف بها طوني وألكس كلاهما ، حول الحلقة ، يحتالان لتحصيل مركز أقرب إلى سكارلت ، فيما لو نهض أي من الآخرين المحتلين الأماكن المحيطة بها . وقد أخبرتا هيتي تارلتون ، بوساطة رفع الحواجب رفعاً رفيقاً ، استنكارهما لسلوك سكارلت . . . «داعرة» كانت الصفة الوحيدة التي تستحقها سكارلت .

وفي وقت واحد ، رفعت الفتيات الثلاث مظلاتهن ذات الكشاكش ، معلنات عن شبعهن ، شاكرات ، ملقيات بأصابعهن الخفيفة على أذرع أقرب الشبان إليهن ، مندفعات بصخب طروب لمشاهدة حديقة الورود والنافورة والمنزل الصيفي . ولم يكن كنه هذا الانسحاب المخطط له المنظم ليخفى على امرأة حاضرة أو أي امرأة هي موضع اهتمام رجل .

ضحكت سكارلت ساخرة ، وهي ترى شباناً ثلاثة ينجذبون خارج نطاق مفاتنها الساحرة ، ليتفحصوا معالم الأرض المألوفة للبنات منذ عهد الطفولة . ثم حولت نظرها بحدة لترى إذا كان آشلي قد لاحظ الحركة ، غير أنه كان يلهو بطرفي حزام ميلاني ويبتسم لها ، فمزق الألم قلبها وأحست أن بإمكانها أن تغرز أظفارها في جلد ميلاني العاجي ، حتى تسيل منه الدم ، وتسرّي عن نفسها .

وفيما كانت عيناها تحيدان عن ميلاني ، التقتا بنظر ريت بتلر ، الذي لم يكن مختلطاً بالحاضرين ، بل منفرداً بجون ويلكس يتحدث إليه . كان يراقبها ، فلما نظرت إليه ضحك على الفور ، ما جعلها تحس بالضيق ، لأنها شعرت أن هذا الرجل المرفوض من جميع الفتيات ، هو الوحيد بين الحضور الذي عرف ما يكمن وراء مرحها المنطلق ، الأمر الذي أتاح له عزاء يدعو للاستهزاء . هو

أيضاً، تستطيع أن تمزق جلده بسرور .

- «إذا ما قدّر لي فقط أن أعيش خلال هذه الحفلة حتى بعد ظهر هذا اليوم» ، فكرت سكارلت ، «فإن كل البنات سيصعدن إلى الطابق العلوي للقيلولة ، استعداداً لسهرة الليل ، وسأمكث هنا ، وأتوصل للتحدث مع آشلي . من المؤكد أنه لاحظ كم أنا مرغوبة» . ثم سكنت روعها بأمل آخر : «بالطبع هو مضطر للإصغاء إلى ميلاني ، لأنها بالإضافة إلى كونها ابنة عمه ، ليست محبوبة قط . فإذا لم يراعها ويحفل بها ، ستغدو مجرد فتاة كاسدة» .

واطردت شجاعتها إثر هذه الفكرة ، وضاعفت جهودها مجدداً نحو تشارلز الذي اضطرمت عيناه تلهفاً إليها ، لقد كان النهار مذهلاً له ، نهار أحلام وقع فيه في حب سكارلت دونما جهد البتة ، بينما هوني تتردى في سحابة من الكآبة الطاغية .

كانت هوني كالعصفور الدوري الزعاق ، أما سكارلت فطائر غريد براق الريش ، تثيره وتكرمه ، وتسأله أسئلة وتجيب عنها بنفسها ، بحيث ظهر هو ذكياً جداً أمامها ، دون أن يضطر إلى تحريك شفتيه بكلمة . وقد حار الشبان الآخرون ، وتضايقوا لاهتمامها الواضح به ، وهم الذين يعرفونه خجولاً جداً ، يعجز عن تركيب كلمتين معاً ، فتذرعوا بآخر حدود الصبر والأدب لإخفاء ثورانهم المتفاقم ، واحتقن الجميع كمداً ، وبدا أن الأمر سيكون فوزاً مبيناً لسكارلت ، إلا بالنسبة إلى آشلي .

وعندما فرغ الجميع من التهام اللحوم ، أملت سكارلت أن يكون الوقت قد حان لتقف إنديا وتقترح انسحاب السيدات داخل البيت ، إذ كانت الساعة قد بلغت الثانية ، وغدت الشمس حارة فوق الرؤوس . ولكن إنديا ، التي أنهكتها استعدادات الأيام الثلاثة الماضية ، كانت سعيدة جداً بالبقاء جالسة في ظلال العريشة ، تتحدث بصوت عال مع رجل عجوز أصم من فايتفيل .

وسرى في الحضور دبيب الكرى ، وتحرك الزنوج متكاسلين ، ينظفون الموائد الطويلة ، حيث وضع الطعام ،وخفت حدة الضحك والحديث ، وضرب السكون جرانه ، وترقّب الجميع إشارة مضيفهم ، معلناً انتهاء ولائم الصباح ، وترنحت المراوح النخيلية متوانية في الأيدي ، ونكس بعض السادة رؤوسهم ، غافين جراء حرارة الشمس وتخمة البطون ، فقد انتهى حفل الشواء ، واقتنع

الجميع بضرورة الاستراحة ، بينما كانت الشمس في كبد السماء .

خلال هذه الفترة ، ما بين حفل شواء الصباح وحفلة الرقص المسائية ، ظهر الجميع هادئين مطمئنين ، باستثناء الشبان ، الذين احتفظوا بالنشاط الذي كان يغمر جميع الحاضرين منذ قليل ، ظلوا يتنقلون من حلقة إلى حلقة ، يتشدقون بأصواتهم الناعمة ، رائعين كالخيول الأصيلة ، خطرين مثلها أيضاً .

وطغى كرى الظهيرة على الجميع ، ولكن داخل النفوس كانت تكمن طباع يمكن أن ترتفع إلى مستوى الجريمة ، في ثانية واحدة ، وتموج متأججة بالسرعة ذاتها . كلا الرجال والنساء كانوا وسام الطلعة ، شرسي الطباع ، جميعهم على جانب من الخشونة والعنف في سلوكهم الممتع ، وجميعهم كثيرو الجموح والعناد .

ومضى بعض الوقت ، واشتد لهيب الشمس ، وتطلعت سكارلت والآخرون إلى إنديا ، وأخذت حرارة الحديث تخبو ثانية عندما سمع كل من في الغابة صوت جيرالد يشق سكون الجو الهاجع بعبارات حانقة غضبى ، وقد وقف على مسافة قليلة من الموائد ، وحمى نقاشه مع جون ويلكس بالغة ذروتها في نفسه .

ـ «أعوذ بالله منك أيها الرجل ، أترجو تسوية سلمية مع أهل الشمال؟ . . بعد أن سحقنا الأنذال في قلعة سمتر؟ سلمية؟ . . على الجنوب أن يثبت بقوة السلاح ، لا يمكن أن يهان ، وهو لم يترك الاتحاد اعتماداً على رحمة الاتحاد ، وإنما اعتماداً على قوته الذاتية .

ـ «آه يا إلـــهي» فكرت سكارلت ، «لقـد فعلهـا ، سنظل الآن هنا حتى منتصف الليل» .

ـ وما هي إلا لحظات ، حتى غادر الكرى عيون الجمع المسترخي في مقاعده ، وسرى في الجو هدير قاصف كالرعد ، وهب الرجال عن المقاعد والكراسي ، أيديهم تلوح مشيرة ، وأصواتهم تلعلع باحثة عن الحقيقة ، فتعلو كل الأصوات الأخرى .

لم يكن حديث السياسة والحرب قد دار في الصباح ، تلبية لرغبة جون ويلكس المحذرة في عدم تكدير صفو السيدات ، ولكن الآن ، وقد زمجر جيرالد بعبارة قلعة سمتر ، نسي الجميع تنبيه مضيفهم فتتابعت الأصوات من كل

صوب «طبعاً سنحارب» ـ «أيها اللصوص الشماليون» ـ «بإمكاننا سحقهم في شهر واحد» ـ «كيف لا! بوسع جنوبي واحد سحق عشرين شمالياً» ـ «سنلقنهم درساً لن ينسوه أبداً» ـ «سلمياً؟» ـ «لن يدعونا ننفصل سلمياً؟» ـ «لا ، تأمل كيف أهان السيد لنكولن مفوضينا» ـ «أجل ، ظل يداورهم عدة أسابيع ، مقسماً أن يدخل سمتر خالية من الرجال» ـ «إنهم يريدون الحرب ، سنجعلهم ينفرون منها» . وأعلى من أصوات الجميع ، دوى صوت جيرالد ، وكل ما استطاعت سكارلت سماعه من أقواله عبارة «حقوق الولايات . أقسم بالله» يرددها مرة بعد مرة . . لقد كان ينعم بوقته كثيراً آنذاك ، على عكس ابنته .

لم ينهض تشارلز هاملتون مع الآخرين ، بل مال أقرب من ذي قبل إلى سكارلت ، بعد أن اكتشف أنهما وحيدان نسبياً ، ثم ، مدفوعاً بجرأة هي وليدة حب جديد ، همس في أذنها بتصريح :

ـ «آنسة أوهارا ، لقد . . لقد قررت ، إذا دخلنا الحرب ، السفر إلى كارولينا الجنوبية ، والالتحاق بالفرقة هناك ، إذ قيل إن السيد ويد هامبتون ، يشكل فرقة فرسان ، وبالطبع أفضل الانخراط بفرقته ، فهو رجل فذ ، وكان أعز أصدقاء والدي» .

ـ «وماذ يفترض أن أفعل . . . أقول ثلاث مرحات» فكرت سكارلت ، إذ كانت أسارير وجه تشارلز تشير إلى أنه يكشف أسرار قلبه إليه . ولم تستطع التفكير بشيء تقوله ، ولذلك اكتفت بالنظر إليه ، مستغربة لماذا يكون الرجال أغبياء هكذا ، بحيث يفكرون أن النساء يحفلن بمثل هذه الأمور ، ولكن تشارلز فسر نظرتها بذهول الاستحسان ، فانطلق يتابع بجرأة :

ـ «إذا ارتحلت . . . هل ـ هل . . . ستحزنين يا آنسة أوهارا؟» .

ـ «سأبكي فوق وسادتي كل ليلة» قالت سكارلت قاصدة إضفاء طابع السخرية على عبارتها ، ولكنه اتخذها جدية صحيحة ، واحمر وجهه سروراً ، ثم سلل يده نحو يدها ، وكانت محجوبة بين طيات ثوبها ، وضغطها دهشاً بجرأته ، وباستسلامها لحركته :

ـ «هل ستصلين من أجلي؟» .

ـ «ما أغبى هذا المخلوق» ، فكرت سكارلت ، متحسرة عليه ، بينما اختلس

هو النظر إليها ، آملاً إنقاذه من المحادثة .

ـ «ستصلين؟» .

ـ «طبعاً يا سيد هاملتون ، ثلاث صلوات كل ليلة ، على أقل تقدير» .

فأرسل تشارلز نظرة سريعة حوله ، والتقط أنفاسه ، وسكن عضلات معدته . . . إنهما وحيدان في الواقع ، ومن المحتمل أن لا تسنح له فرصة كهذه ، وحتى لو سنحت فرصة يتيمة كهذه ، فقد تخونه شجاعته :

ـ «آنسة أوهارا . . . ينبغي أن أخبرك شيئاً . . . أنا . . . أنا أحبك» .

ـ «حقاً؟» قالت سكارلت متغافلة ، محاولة التحديق عبر جمهور الرجال المتناقشين ، إلى حيث آشلي يتحدث عند قدمي ميلاني .

ـ «نعم ، أحبك» ، همس تشارلز وقد ذهل لأنها لم تضحك أو تشهق أو يغمى عليها ، كما كان يتخيل الصبايا يفعلن دائماً في مثل هذه الظروف «أنت أروع . . . أروع» وأسعفه لسانه للمرة الأولى في حياته :

«أروع الجميلات اللواتي عرفتهن ، وأعذبهن وألطفهن ، أنت تملكين أظرف أساليب المعاملة ، وأنا أحبك من كل قلبي ، ولا يمكنني أن أتصور أنك تستطيعين حب أي إنسان مثلي ، ولكن يا عزيزتي الآنسة أوهارا ، إذا ما منحتني أي تشجيع سأفعل أي شيء في الدنيا لأجعلك تحبينني ، سأفعل . . .» .

وتوقف ، إذ لم يستطع التفكير بأي من المهمات العظيمة الشاقة ليثبت لسكارلت حقيقة مدى عمق حبه . ولذلك أضاف ببساطة : «أريد الزواج بك» .

وكأن شيئاً عصف بسكارلت وأعادها إلى دنيا الواقع وهي تسمع كلمة «الزواج» . لقد كانت تفكر بالزواج ، وبآشلي ، ولذلك نظرت إلى تشارلز مشفقة ، وبانفعال حبيس . ما لهذا الغبي ، الشبيه بالعجل ، يتطفل مظهراً أحاسيسه في هذا اليوم ، حيث هي قلقة جداً ، تكاد تفقد عقلها؟ وتطلعت إلى عينيه العسليتين المتوسلتين ، فلم تر شيئاً من جمال الحب الأول الذي يعتري الشاب الحيي ، جمال الهيام بمثل أعلى يتحقق ، جمال السعادة الجامحة ، والأحاسيس المنفعلة ، التي كانت تتأجج في نفسه كالنار المستعرة . لقد اعتادت سكارلت سماع رجال يطلبون منها الزواج ، رجال أكثر إغراء منه ، رجال يملكون دهاء وتبصراً أعمق ، بحيث لا يعرضون الزواج في حفلة شواء ، وهي منشغلة البال بأمور أكثر أهمية . ورأت سكارلت أمامها مجرد شاب في

العشرين من العمر، محمر الوجه، مظهره في غاية السذاجة، وتمنت أن لو تستطيع مصارحته، كم يبدو ساذجاً غبياً، ولكن الكلمات التي علمتها إيلين قولها في مثل هذه المواقف الطارئة، طلعت على شفتيها بصورة آلية، فأجابته متمتمة:

- «سيد هاملتون، لست أجهل الشرف الذي تنعم به علي في رغبتك الزواج بي، ولكن المسألة مفاجأة تامة لي، بحيث لا أعرف ما أقوله الآن».

تلك كانت طريقة رقيقة في مسايرة غرور الرجل، مع الاحتفاظ به مشدوداً إلى الحبل. ووقع تشارلز في الشرك، كما لو أن هذا الطعم الجديد، وهو أول من يبتلعه.

- «سأنتظر إلى الأبد، فأنا لا أريدك إلا بعد أن تقتنعي تماماً، أرجوك يا آنسة أوهارا.. أخبريني إن كان يمكن أن آمل خيراً».

- «أنا»، أجابت سكارلت، وعيناها النفاذتان تلاحظان أن آشلي، الذي لم يغادر مكانه للاشتراك في حديث الحرب، كان يبتسم لميلاني، فإذا صمت هذا السخيف المتعلق بيدها، ولو دقيقة واحدة، ربما استطاعت أن تسمع ما يقولانه. ينبغي أن تسمع ما يقولانه. ماذا أخبرته ميلاني حتى بدا عليه هذا الاهتمام؟!

إن صوت تشارلز يشوش الأصوات التي تجهد لسماعها.

- «آه، اصمت»، همست قارصة يده، حتى دون أن تنظر إليه، الأمر الذي أجفله أولاً، ثم أوقعه في حيرة مخزية. واحمر وجهه خجلاً إثر الخيبة المذهلة، ولكنه ما لبث أن ابتسم حين رأى عينيها مسمرتين على شقيقته، إذ ظن أن سكارلت تخشى أن يسمع أحد كلماته، فمن البدهي إذاً أن تضطرب وتخجل وينتابها الخوف الشديد من أن يسمعها إنسان، وأحس بدفق من الرجولة، لم يعهده قبلاً، إذ كانت هذه هي المرة الأولى في حياته، التي يربك بها فتاة. لقد كانت هزة الفرح عنده مسكرة. غير أنه ناسق تعابير وجهه بحيث جعله ينم عن عدم اكتراث، وبحذر، أجاب قرصتها بقرصة مماثلة، ليظهر أنه رجل عرك الدنيا، يفهم تأنيبها ويقبله.

ولكنها لم تشعر حتى بقرصته، إذ استطاعت سماع صوت ميلاني العذب بجلاء، ذلك الصوت الذي كان ميزتها الفاتنة الرئيسية:

- «أخشى أن لا أوافقك في الرأي حول نتاج السيد ثاكيري، فهو ناقد

تهكمي لاذع ، كما أخشى أن لا يكون ذلك الأديب كالسيد ديكنز» .

أي حديث تافه يحدث به رجل؟ فكرت سكارلت ، وضحكة الفرح تكاد تنطلق من فيها كان من الممكن أن تشعر بداعي الذعر لو أن ميلاني كانت تقول مثلاً : «ما أروعك» أو «كيف تفكر دائماً بمثل هذه الأمور؟ فعقلي المسن الصغير ينفجر إذا جربت يوماً التفكير بها» . ولكن لا ، فها هي أمامها ، والرجل يجلس عند قدميها ، تتحدث بجد ووقور كما لو أنها في كنيسة . وتراءى أملها أكثر إشراقاً حقيقياً حول عينيها المشعتين نحو تشارلز ، مبتسمة بفرح خالص ، فانخلب عقله ، أمام هذه الشهادة البينة على ودادها ، وأمسك بمروحتها يحركها باندفاع ، فراح شعرها يتطاير .

ـ «آشلي ، أنت لم تتفضل علينا برأيك» ، قال جيم تارلتون ، ملتفتاً إليه عن جماعة الرجال المتصايحين .

ونهض آشلي معتذراً . . . ليس بين الجميع أبهى منه طلعة ، فكرت سكارلت وهي تتأمل كم بدا مظهره المهمل رائعاً ، وكيف انعكست الشمس على شعره وشاربه الذهبيين ، حتى الرجال الكبار صمتوا إصغاء لما سيقوله :

ـ «على كل الأحوال ، أيها السادة ، إذا حاربت جورجيا فسأشترك في الحرب ، وإلاّ ، فأي داع لانضمامي إلى الفرقة؟» قال ذلك وقد اتسعت فتحتا عينيه الرماديتين ، وغابت نظرتهما الناعسة في تحديق قوي ، لم تشهد سكارلت مثيله من قبل ، «ولكنني كوالدي ، آمل أن يدعنا الشماليون ننفصل بسلام ، وعندها لن تقع حرب» ، ورفع يده مبتسماً إثر بلبلة من الأصوات ، بدأت ترتفع من شباب تارلتون وفونتين :

«نعم . . . نعم ، أعرف أننا تعرضنا للإهانة ، وافتُري علينا ، ـ ولكن لو كنا في موقف الشماليين ، وأرادوا هم ترك الاتحاد ، فكيف كنا نتصرف؟ تماماً الشيء عينه ، ما كنا لنوافق على انفصالهم» .

ـ «ها هو يفعلها ثانية ، دائماً يضع نفسه في الجهة المقابلة» ، فبالنسبة إليها ، كل مناظرة لها جانب عادل واحد ، ولذا فلم تكن لتستطيع فهم دوافع آشلي أحياناً .

وتنفست سكارلت الصعداء ، سعيدة لأن آشلي يتمتع بسمعة طيبة في الشجاعة لا يمكن نكرانها ، وإلاّ لحدث ما لا يحمد عقباه . وفيما هي تفكر

بذلك ، علا صخب الأصوات المخالفة لرأي آشلي ، ساخطة شرسة نارية ، ما جعل الرجل المسن الأصم ، الذي من فايتفيل ، والجالس تحت العريشة ، يسأل إنديا مستفسراً :

ـ «حول ماذا يدور كل هذا اللغط؟ ماذا يقولون؟» .

ـ «الحرب» ، صاحت إنديا مكورة يدها أمام أذنه . «يريدون محاربة الشماليين» .

ـ «الحرب؟ حقاً؟؟» صاح متحسساً ما حوله بحثاً عن العصا ، حاملاً نفسه من على كرسيه بجهد أكبر مما أظهر خلال سنين .

ـ «سأخبرهم عن الحرب ، فلقد خبرت غمرتها» .

ـ «أيها الشبان المتأنقون النزقون ، أصغوا إلي . أنتم لا تريدون القتال ، لقد حاربت وأعرف ما هي الحرب ، خرجت إلى حرب السيمنول وكنت في منتهى الغباء عندما خرجت إلى حرب المكسيك أيضاً . أنتم جميعاً لا تعرفون ما هي الحرب . إنكم تظنون أنها مجرد ركوب حصان جميل والاستمتاع بزهور تلقيها الفتيات على رؤوسكم ، ثم العودة أبطالاً إلى البيوت . لا ، لا يا سادة ، إنها ليست كذلك ، إنها الجوع ، والإصابة بالحصباء والتهاب الرئة من جراء النوم على الأرض الرطبة ، وإذا لم يصب المرء فيها بالحصباء أو الرئة فبأمعائه . نعم يا سادة ، ماذا تفعل الحرب لأمعاء الإنسان؟؟ ـ الزحار ، وأمثال الزحار» .

احمرت وجوه السيدات خجلاً ، إذ كانت شخصية السيد ماكري تذكر بعصر مضى ، عصر ساذج خام ، مثل شخصية الجدة فونتين ، وتقيئها المزعج ذي الصوت الأجش ، عصر يرغب كل إنسان في نسيانه .

ـ «هلمي أحضري جدك» همست إحدى بنات الرجل العجوز لفتاة صغيرة ، تقف بجانبها ، «أنا أقول» التفتت نحو السيدات المتزوجات اللواتي جلسن حولها ، متأثرات بموقف الرجل ، «إن حالته تسوء يوماً بعد يوم . هل تصدقن أنه في هذا الصباح ذاته ، خاطب ماري ـ وهي فقط في السادسة عشرة من عمرها ـ قائلاً والآن يا بنيتي . . .» .

وغاب صوتها هامساً ، بينما هرولت الحفيدة لتقنع السيد ماكري بالرجوع إلى مقعده تحت الظلال .

وبين جميع الحشد الذي كان يهوج ويموج تحت الأشجار ، من صبايا

يبتسمن طرباً ، ورجال يتحدثون هياجاً ، كان رجل واحد فقط يبدو ساكناً هادئاً . إنه ريت بتلر ، الذي التفتت عينا سكارلت نحوه وهو يقف مستنداً إلى شجرة ، ويداه غارقتان في آخر جيبي سرواله .

كان قد بقي وحيداً منذ غادره السيد ويلكس ، ولم ينبس بكلمة والنقاش يحتدم من حوله . وقد تدلت شفتاه الحمراوان تحت شاربه الأسود المائل ، ولمع بريق ازدراء فكه في عينيه السوداوين ـ ازدراء كما لو أنه يستمع إلى تفاخر أطفال . ورأت سكارلت في ازدرائه هذا بسمة بغيضة .

ظل يصغي هادئاً ساكناً ، إلى أن كرر ستيورات تارلتون ، وشعره مشعث ، وعيناه الحمراوان تبرقان غضباً ، عبارته : «كيف لا ، سوف نسحقهم في شهر واحد . فالسادة دائماً يحاربون أفضل من الرعاع ، شهر واحد ، ومعركة واحدة فقط» .

ـ «أيها السادة» قال ريت بتلر ، بلهجة بطيئة رتيبة نمت عن موطنه شارلستون ، قال دون أن يغادر مكانه أو يرفع يديه من جيبيه : «هل تسمحون لي بكلمة؟» .

كان هناك ازدراء في أسلوب حديثه ، كالازدراء الذي تشف عنه عيناه ، ازدراء مغلف بمظهر التأدب ، يهزأ بأساليبهم ، بطريقة ما .

التفت الحشد نحوه ، وأكرموه بصمتهم المهذب الواجب دائماً تجاه الغريب .

ـ «هل فكر أحد منكم يوماً ، أيها السادة ، بأنه لا يوجد مصنع مدفعية واحد ، جنوبي خط ماسون ـ دكسون؟ أو كم هي قليلة جداً مسابك الحديد في الجنوب؟ أو معامل الصوف؟ أو مصانع القطن؟ وأن أسطول الشماليين يستطيع محاصرة مرافئ الجنوب خلال أسبوع واحد ، بحيث لا نستطيع بيع أقطاننا للخارج؟ إنكم بالطبع ، أيها السادة ، قد فكرتم بهذه الأمور» .

ـ «كيف ، إنه يعني أن الشبان مجرد زمرة من الأغبياء» فكرت سكارلت حانقة والدم الحار يعلو وجنتيها .

من الجلي أنها لم تكن الوحيدة التي أدركت هذا المعنى ، إذ بدأ عدد من الشبان يمدون أعناقهم ، بينما رجع جون ويلكس إلى مكانه بجانب الغريب ، بشكل طبيعي ، ولكن بسرعة ، كأنه يريد أن يؤكد لجميع الحضور أن الرجل ضيفه ، وأنه بالإضافة إلى ذلك ، يوجد سيدات بين الحضور .

ـ «إن مشكلة معظمنا نحن الجنوبيين» أضاف ريت بتلر «هي أننا إما ألاّ نسافر ما فيه الكفاية ، أو أننا لا نستفيد الفائدة المرجوة من أسفارنا . والآن . . . بالطبع جميعكم ، أيها السادة ، قد سافر كثيراً ، ولكن ماذا شاهدتم؟ أوروبا ونيويورك وفيلادلفيا ، وطبعاً السيدات اللواتي كن في ساراتوغا» ، (وانحنى قليلاً للجالسات تحت العريشة) «لقد شاهدتم الفنادق والمتاحف وحفلات الرقص وبيوت القمار ، وعدتم لبيوتكم مؤمنين أن لا مكان في الدنيا كالجنوب . أما أنا فقد ولدت في شارلستون ، ولكني قضيت السنين القليلة الماضية في الشمال» ، وافتر ثغره عن ابتسامة كشفت أسنانه البيضاء ، كأنه أدرك أن جميع الحاضرين يعرفون سبب عدم بقائه في شارلستون دون أن يبالي بمعرفتهم هذه أبداً ، «لقد شاهدت أشياء كثيرة لم يرها أحد منكم ، شاهدت المصانع والمنشآت وأحواض السفن ومناجم الحديد والفحم وجميع الأشياء التي لا وجود لها عندنا . وماذا يوجد عندنا غير القطن والعبيد والعجرفة؟ . . سيسحقوننا في شهر» .

وساد هنيهة صمت متوتر رهيب . وأخرج ريت بتلر منديلاً كتانياً ظريفاً من جيب معطفه ونفض به الغبار عن ردنه بتماهل . وعلى الأثر ارتفعت بين الحشد دمدمة تنذر بالشر ، بينما سمع من تحت العريشة طنين كطنين خلية النحل في بدء فورته . ورغم كون الدم الغاضب ما زال حاراً في وجنتي سكارلت ، فإن تفكيرها العملي أوحى إليها بأن ما يقوله هذا الرجل صحيح ، وأنه يبدو وليد إدراك سليم ، كيف لا ، وهي لم تشاهد يوماً مصنعاً ، أو إنساناً شاهد مصنعاً . ولكن ، حتى لو كان صحيحاً ، فليس صاحبه بالرجل الفاضل ليلقي مثل هذا التقرير ، وفي حفلة أيضاً ، حيث ينعم الجميع بوقت ممتع طيب .

تقدم ستيوارت تارلتون ، مقطباً ما بين عينيه ، وبرنت في إثره تماماً . طبعاً كان التوأم مهذبين ولن يقدما على افتعال شغب ، رغم نقمتهما المتناهية ، في الوقت الذي اضطربت فيه جميع السيدات ، مسرورات ، إذ نادراً ما شاهدن فصل قتال أو خصام ، ومن المعتاد أن يسمعن به بعد أن تلوكه الألسن للمرة الثالثة .

ـ «سيدي» قال ستيوارت «ماذا تعني؟» .

فنظر إليه ريت بعينين مهذبتين ، ولكن ساخرتين :

ـ «أعني» ، أجابه ، «الذي قاله نابليون ـ لعلك سمعت به ـ يوماً : «إن الله دائماً بجانب الفريق الأقوى» ، قال ذلك والتفت نحن جون ويلكس ، مردفاً بأدب خالص : «وعدت أن تريني مكتبتك يا سيدي ، فهل يمكن أن تغمرني الآن بكرمك وتريني إياها؟ إذ أخشى أن أكون مضطراً للعودة إلى جونسبورو في الساعات الأولى من بعد ظهر هذا اليوم ، حيث يستدعيني عمل هناك» .

ثم أدار وجهه للحاضرين ، صافقاً قدميه معاً ، منحنياً كمعلم رقص ، انحناءة رشيقة بالنسبة إلى رجل قوي مثله . وقد بدت وقاحته الطاغية ، كالصفعة على الوجه .

خطا عبر المرجة إلى جانب السيد ويلكس ، شامخاً برأسه ، وصدى ضحكته المكدرة تصل الجماعة الجالسة حول المناضد .

وخيم سكون وذهول ، والذي ما لبث حتى شقه اللغط ثانية ، فنهضت إنديا ، متحاملة على نفسها ، من تحت العريشة ، متجهة بتثاقل إلى حيث وقف ستيوارت الناقم . ولم تستطع سكارلت سماع ما قالته له ، ولكن نظرة عينيها وهي ترنو إلى جبينه المقطب ، أوحت لسكارلت بوخز الضمير . إنها نظرة الهيام ذاتها التي غمرت ميلاني وهي ترنو إلى آشلي ، وليس من فرق بينهما سوى أن ستيوارت لم يلحظها . . إن إنديا تحبه إذاً . وخطر لسكارلت ، لهنيهة قصيرة فقط ، أنها لو لم تغازل ستيوارت غزلاً عنيفاً في أثناء تلك المحاضرة السياسية منذ سنة ، لأمكن زواجه بإنديا قبل هذا الوقت ، ولكن سرعان ما انتهى وخز الضمير عندما فكرت أن ليس الذنب ذنبها هي إن لم تستطع الفتيات الأخريات الاحتفاظ برجالهن .

وابتسم ستيوارت أخيراً في وجه إنديا ابتسامة فاترة ، مطرقاً رأسه . من المحتمل أن تكون إنديا قد استعطفته ألا يلحق بالسيد بتلر ويثير المتاعب . وعلت الضجة تحت الأشجار حين نهض الضيوف ينفضون فتات الطعام من حجورهم ، بينما نادت المتزوجات وصيفاتهن وأولادهن الصغار ، ثم جمعن بقية أطفالهن ، استعداداً للانصراف . وانطلقت أسراب الفتيات تضحك وتهذي نحو المنزل ليتبادلن الثرثرة داخل غرف النوم في الطابق العلوي ، وليستمتعن بالقيلولة .

وخرجت جميع النساء من الساحة الخلفية ، تاركات ظلال السنديان

والعريشة للرجال ، ولم يتخلف منهن سوى السيدة تارلتون التي أعاقها جيرالد والسيد كالفرت والآخرون الذين أرادوا منها جواباً يتعلق ببيع خيلها للفرقة .

ومشى آشلي متثاقلاً ، إلى حيث جلست سكارلت وتشارلز ، وقد علت وجهه بسمة لطيفة مفكرة :

ـ «إنه شيطان متعجرف؟ أليس كذلك؟» علق متطلّعاً خلف ريت «يبدو كواحد من آل بورجيا(*) .

فكرت سكارلت بسرعة ، ولكنها لم تستطع تذكر أي عائلة في الولاية ، أو أتلانتا ، أو سافانا ، تحمل هذا الاسم :

ـ «أنا لا أعرفهم . هل هو قريبهم؟ من هم؟» .

وكسا وجه تشارلز تعبير غريب شاذ ، إن الريبة والعار تتصارعان والحب ، وانتصر الحب عندما تحقق من أن كون الفتاة جميلة رقيقة عذبة يكفيها دون أن تملك ثقافة قد تشوه فتنتها ، ولذلك أجاب مسرعاً :

ـ «آل بورجيا من الإيطاليين» .

ـ «ها» ، قالت وقد تلاشى اهتمامها ، «إنهم أجانب» والتفتت نحو آشلي بأعذب ابتساماتها ، ولكن لسبب ما ، لم يكن ينظر إليها ، كان ينظر إلى تشارلز ، وفي وجهه أمارات الفهم وبعض الشفقة .

*

راحت سكارلت تختلس النظر بحذر ، من فوق درابزين السلم ، إلى القاعة السفلى . لقد كانت فارغة ، بينما علت من غرف النوم فوقها دندنة أصوات منخفضة مستمرة ، ترتفع وتنخفض ، تتخللها صيحات وعبارات : «لم تفعلي ذلك حقاً» و«ماذا قال بعدئذ؟» .

فعلى سرر ومضاجع غرف النوم الست الواسعة استلقت الفتيات ، نازعات أثوابهن ، حالاّت مشداتهن ، مسرحات شعورهن خلف ظهورهن . لقد كانت القيلولة عادة متبعة في الريف لا يشعر بضرورتها الماسة في وقت كما يشعر بها في أثناء الحفلات التي تستغرق النهار كله ، مبتدئة في الصباح الباكر ، لتبلغ

(*) أسرة إيطالية إسبانية الأصل لعبت دوراً خطيراً في تاريخ البابوية (١٤٥٥ ـ ١٥٠٤) منها البابا إسكندر السادس وولداه قيصر ولوكريشيا .

منتهاها في حفلة رقص .

أما سكارلت فقد تأكدت من أن ميلاني راقدة في سريرها ، مع هوني وهيتي تارلتون ، قبل أن تتسلل إلى القاعة وتنزل الدرج ، حيث استطاعت أن ترى عبر نافذة على بسطة ، جماعة الرجال الجالسين تحت العريشة يحتسون الشراب من كؤوس طويلة ، وكانت تدرك أنهم سيمكثون هنالك إلى وقت متأخر بعد الظهر . ثم تخللتهم عيناها تبحثان عن آشلي ، فلم تجده ، وعندما أرهفت أذنيها سمعت صوته ، كان لا يزال في الممشى الأمامي ، كما أملت ، يودع بعض السيدات المنصرفات مع أطفالهن .

نزلت الدرج مسرعة ، فزعة ، قلبها في حلقها ، فماذا لو التقت بالسيد ويلكس؟ أي عذر ينبغي أن تقوله معلّلة دورانها حول البيت ، في الوقت الذي تنعم فيه جميع الفتيات بقيلولتهن المنعشة؟ على كل حال ، لا بد من المخاطرة .

وعندما بلغت الدرجات السفلية سمعت جلبة الخدم في غرفة الطعام يرفعون بأمر النادل الطاولة والكراسي استعداداً للرقص . وعلى جانب القاعة الواسعة كان باب المكتبة مفتوحاً ، فهرعت داخله دون ضجيج . إن بوسعها الانتظار هناك ، حتى ينتهي آشلي من الوداع ، فتناديه في أثناء دخوله البيت .

أغلقت الباب تاركة منه شقاً مفتوحاً ، محاولة تهدئة خفقان قلبها المتسارع ، مجربة أن تتذكر بدقة ما اختطته في الليلة الماضية لتخاطب به آشلي ، ولكنها لم تستطع تذكر شيء . هل قررت أمراً ونسيته أم أنها ارتأت فقط أن واجب آشلي إعلامها بشيء؟ إنها لا تتذكر . وانتابتها قشعريرة خوف باردة ، لو أن قلبها يكف فقط من القرع في أذنيها ، فقد تستطيع عندئذ أن تفكر بما ستقول ، ولكن الضربات السريعة ازدادت وهي تسمعه يلقي بالتحية الأخيرة ويدخل القاعة الأمامية .

كل ما استطاعت التفكير فيه هو أنها تحبه ـ كل شيء فيه ، من شموخ الكبرياء في رأسه الذهبي ، إلى حذائه البني الرشيق ، تحب ضحكته عندما توقعها في الحيرة ،تحب صمته المربك ، آه ، فقط لو يدخل إليها الآن ويضمها بين ذراعيه ، فيوفر عليها ضرورة مصارحته بأي شيء : ـ ينبغي أن يحبها ـ «ربما إن أنا صليت» ـ وأغمضت عينيها بإحكام ، وراحت تتمتم في نفسها : «السلام عليك يا مريم . . . يا ممتلئة نعمة» .

ـ «ماذا يا سكارلت؟» خاطبها صوت آشلي ، مخترقاً دوي أذنيها ، ملقياً بها في حيرة واضطراب ، وقف في القاعة يتأملها من شق الباب ، وقد علت وجهه بسمة غامضة :

ـ «ممن تختبئين؟ ـ من تشارلز أو من التوأم تارلتون؟» .

غصّت بريقها ، لقد لاحظ كيف ازدحم الرجال حولها إذاً ، كم كان منفعلاً متلهفاً إلى درجة تفوق الوصف ، وهو يقف هناك ، يراقبها بطرفي عينيه ، غافلاً تماماً عن انفعالها هي .

لم تستطع الكلام ، ولكنها مدت يدها وجذبته داخل الغرفة ، فدخل وهو في حيرة ورغبة . كانت تبدو متوترة النفس ، تبرق عيناها بصورة لم يشهدها من قبل ، وحتى في الضوء الباهت استطاع أن يرى حمرة الخجل الوردية على وجنتيها ، وبصورة آلية ، أغلق الباب وأمسك بيدها :

ـ «ما القضية؟» سألها بصوت يقارب الهمس .

وارتجفت ساعة لمست يده يدها ، سيتم الأمر الآن ، تماماً كما تخيلته ، وتواردت على ذهنها آلاف الفكر المتضاربة ، دون أن تنجح في اعتماد واحدة لتصوغها ألفاظاً ، وإنما استطاعت فقط أن ترتجف وتنظر في وجهه . . . لماذا لم يتكلم؟

ـ «مالقضية؟» ، كرّر «أسر تريدين البوح به؟» .

وفجأة عثرت على لسانها ، وفجأة أيضاً ، غابت جميع تعاليم السنين الطويلة التي تلقتها من إيلين ، لتنطق شفتاها بفعل الدم الإيرلندي الجريء ، دم أبيها جيرالد :

ـ «نعم . . . سر ، إني أحبك» .

ومضت دقائق ، وخيم صمت مطبق تماماً ، بحيث بدا لو أن الاثنين لا يتنفسان ، وزاولتها الرجفة ، لتحل محلها دافقة السعادة والكبرياء . لماذا لم تقدم على فعل هذا من قبل؟ إنه أكثر سذاجة من كل مناورات السيدات التي تلقتها من قبل . ثم نشدت عيناها عينيه . كانتا تشعان بالذعر ، بالدهشة ، لعدم التصديق ، وبشيء أكبر من ذلك . ما هو ذلك الشيء؟ بلى : هكذا كانت عينا جيرالد تشعان يوم كسر حصان الصيد المدلل ساقه ، فاضطر إلى أن يطلق النار عليه . لماذا تنساق إلى التفكير بمثل هذا الآن؟ مجرد فكرة تافهة . ولماذا يبدو

آشلي مستهجناً هكذا ، ولا ينطق بشيء مطلقاً؟

ثم كأن قناعاً يحسن التستر انسدل فوق وجهه ، وابتسم بمروءة :

ـ «ألا يكفي أنك جمعت قلوب كل الرجال الآخرين هنا ، في هذا اليوم؟» .

قال وبصوته تلك اللهجة المؤنسة المثيرة القديمة : «هل ترغبين أن يكون ذلك بالإجماع التام؟ . . على كل حال . . . كنت دائماً تملكين قلبي ، كما تعلمين ، منذ كنت في لثغة الطفولة ونعومة أظفارها» .

لا بد أن يكون شيء قد حدث خطأ ، خطأ بكليته ، فهذه ليست الطريقة التي رسمتها ، ومن بين تناحر الفكر الجنوني في عقلها ، راحت فكرة تشق طريقها وتثبت وجودها . لسبب ما ، كان آشلي يتصرف تقريباً كما لو أنها تغازله ، رغم معرفته أن الأمر ليس كذلك ، إنها تثق أنه يعرف .

ـ «آشلي . . . آشلي . . . أخبرني . . . يجب عليك . . . آه . . . لاتثرني الآن : هل أملك قلبك؟ آه يا عزيزي . . . أنا أحـ» .

وأطبقت يده على شفتيها بسرعة ، لقد نزع القناع عن وجهه .

ـ «ينبغي ألاّ تتفوهي بهذه الأمور يا سكارلت : ينبغي ألاّ تتفوهي . أنت لا تقصدينها ، ستمقتين نفسك لتفوهك بها ، وستمقتينني لأنني سمعتها» .

فدفعت رأسه بعيداً ، وتيار حار دافق من الدم يسري في عروقها .

ـ «أنا لا أستطيع أن أمقتك طيلة حياتي . أقول لك إني أحبك ، وأنا أعرف أن واجبك أن تحفل بي» وتوقفت ، فهي لم يتفق لها أن رأت وجهاً بمثل هذا البؤس «آشلي . . . هل تحفل بي . . . أنت تحفل بي . . . أليس كذلك؟» .

ـ «أجل» قال دون حماسة . . . «أحفل» .

لو أنه قال إنه ينفر منها ويشمئز لما كانت أكثر هلعاً مما هي الآن ، وتعلقت بردنه عاجزة عن الكلام .

ـ «سكارلت . . . ألا نستطيع الخروج ونسيان أننا تلفظنا يوماً بهذه الكلمات؟» .

ـ «لا» همست ، «لا أستطيع . ماذا تعني؟ . . ألا تريد أن . . . أن تتزوجني؟» .

فأجابها :

ـ «سأتزوج ميلاني» .

ودون أن تدري، وجدت نفسها على الكرسي المخملي الصغير، وآشلي عند قدميها، ممسكاً يديها بيديه بقبضة قاسية، يلفظ كلمات... كلمات لا تعني شيئاً.. كان عقلها هادئاً خلياً، فارغاً تماماً من كل الأفكار التي كانت تموج فيه منذ برهة قصيرة. ولم تفعل كلماته أكثر من فعل سقوط المطر على الزجاج، فقد وقعت على أذنين لا تسمعان، إنها كلمات سريعة رقيقة، زاخرة بالشفقة، ككلمات والد يخاطب ابنه الذي أصيب.

ولفت انتباهها اسم ميلاني، فنظرت في عينيه الرماديتين، ورأت فيهما الشرود القديم الذي طالما حيرها، كما رأت فيهما تعبيراً عن كراهية النفس لذاتها.

ـ «سيعلن والدي الخطوبة هذه الليلة، وسنتزوج سريعاً. كان ينبغي أن أخبرك، ولكني اعتقدت أنك تعلمين بالأمر، اعتقدت أن كل إنسان يعلم، ويعلم منذ سنين.. ولم أتصور أبداً أن.. أن لك عشاقاً كثيرين جداً، كنت أعتقد أن ستيوارت...».

كانت الحياة والشعور والإدراك قد بدأت تنساب ثانية في عروقها.

ـ «ولكنك الآن قلت إنك تحفل بي؟».

فضغطت يداه الدافئتان يديها، وقال:

ـ «عزيزتي، هل ينبغي لك أن تجعليني أتفوه بكلمات قد تجرح إحساسك؟».

وقاده صمتها إلى المتابعة:

ـ «كيف أستطيع أن أجعلك تتحسسين هذه الأمور يا عزيزتي؟ أنت التي ما زلت صغيرة لا تحسنين التفكير بحيث لا تعرفين بعد معنى الزواج».

ـ «أعرف أني أحبك».

ـ «الحب لا يكفي لخلق زواج ناجح، عندما يكون الشخصان غير متكافئين، شأننا نحن، فأنت سوف تطلبين كل شيء في الرجل... يا سكارلت، جسده وقلبه وروحه وأفكاره، وإن لم تملكيها جميعها تكونين تعسة شقية، وأنا لا أستطيع منحها جميعاً، لا أستطيع منح جميع كياني لأي إنسان، كما أني لا أريد كل عقلك وروحك... وسيثلم شعورك، وعندها ستبغضينني... ما أمرّها من حقيقة: ستبغضين الكتب التي أقرأها، والموسيقى التي أحبها، لأنها

تنتزعني منك . . . حتى ولو دقيقة واحدة . . . وأنا ـ ربما أنا . . .» .

ـ «هل تحب ميلاني؟» .

ـ «هي مثلي . . . جزء من دمي ، ونحن نفهم واحدنا الآخر يا سكارلت . سكارلت ، ألا أستطيع أن أنجح في جعلك تدركين أن الزواج لن يستمر بأي وضع من الأوضاع المطمئنة ما لم يكن الشخصان متكافئين؟» .

ـ «ولكنك قلت إنك تحفل بي؟» .

ـ «كان يجب أن لا أقولها» .

وبدأت نار بطيئة تتقد في مكان ما من دماغها ، فبدأ الغضب يطمس كل ما سواه ، وقالت :

ـ «لقد كنت وغداً جداً ، إذ قلتها» .

فغاض الدم من وجهه ، وأجاب :

ـ «حقاً لقد كنت وغداً إذ قلتها طالما أني سأتزوج ميلاني . لقد أسأت إليك ، وإلى ميلاني أكثر . كان يجب ألاّ أقولها ، لأني أعرف أنك لن تعي مقصدها . كيف أستطيع أن أحفل بك ، أنت التي تملكين كل شهوات الحياة التي لا أملكها؟ أنت التي بإمكانك أن تحبي وتبغضي بعنف يستحيل علي . وحسبك أنك لا تزالين عنصراً خاماً كالنار والريح والأشياء البرية بينما أنا . . .» .

ـ «لماذا لا تقولها صريحة أيها الجبان : إنك تخاف التزوج بي ، وإنك تفضل العيش مع تلك الغبية الصغيرة الحمقاء . . . التي لا تستطيع فتح فمها إلاّ بـ«نعم» أو «لا» ، والتي تنجب من الأطفال من كان لئيماً ماكراً مثلها» .

ـ «يجب أن لا تقولي هذه الأشياء عن ميلاني» .

ـ «يجب أن لا أدعك تهينني . . من أنت حتى تقول لي يجب . .؟ أيها الجبان ، أيها الوغد ، أيها الـ ـ لقد جعلتني أعتقد أنك ستتزوجني» .

ـ «كوني منصفة» قال بلهجة المتوسّل ، «هل قلت لك يوماً ـ » .

إنها لا تريد أن تكون منصفة ، مع أنها تعرف أن ما قاله صدق . . . فهو لم يتخط يوماً حدود الصداقة معها ، وعندما بدت لها هذه الحقيقة ، ثار في نفسها غضب جديد ، صاغه الكبرياء الجريح وغرور الأنوثة . لقد جرت وراءه ، ولم يرض بشيء فيها ، إنه فضل غبية صغيرة ، شاحبة اللون كميلاني عليها . آه ،

كان أفضل بكثير لو اتبعت وصايا إيلين ومامي ، ولم ، ولم تكشف أبداً عن حبها له ، كل شيء أفضل من أن تواجه بالعار اللافح اللاهب .

ووقفت على قدميها ، ويداها متشابكتان . ووقف هو يعلوها بقامته ، تكسو وجهه تعاسة صامتة ، تعاسة إنسان سيق لمواجهة الحقائق ، عندما تكون الحقائق كسكرات الموت .

ـ «سأظل أمقتك حتى الموت ، أيها الوغد ـ أيها المنحط ـ أيها الحقير» أي كلمة كانت تريد؟ إنها لم تستطع التفكير بكلمة سيئة كما ينبغي .

ـ «سكارلت . . . أرجوك» ، ومد يده نحوها ، وفيما هو كذلك صفعته على وجهه بكل ما ملكت من قوة .

ودوت الصفعة كلسعة السوط ، في جوف الغرفة الساكنة ، وفجأة زال غضبها ، وأحست بالكآبة تملأ قلبها .

وعلى وجهه الأبيض المنهك بدا أثر الصفعة جلياً ، ولكنه لم يفه بكلمة ، بل رفع يدها الغضة إلى شفتيه وقبّلها ، ثم خرج قبل أن تتمكن من الكلام ثانية ، مغلقاً الباب خلفه بهدوء .

وعادت للجلوس فجأة ، وأثّر فيها رد فعل الغضب ، فأحست بركبتيها لا تقويان على حملها ، لقد ذهب . . . ولكن ذكرى وجهه المصفوع ستلازمها حتى مماتها .

وتناهى إلى سمعها وقع خطواته الخفيفة الخفية تتلاشى عبر القاعة الطويلة ، وتجلت لناظريها فظاعة فعلتها كاملة . لقد فقدته إلى الأبد . . . سيبغضها الآن . . . وسيذكر كلما رآها كيف ألقت بنفسها عليه ، في الوقت الذي لم تبدر منه أي بادرة مشجعة .

ـ «إنني وقحة كهوني ويلكس» فكرت فجأة ، ذاكرة كيف أن كل الناس ، ولا سيما هي ، تضحك محتقرة سلوك هوني الوقح . ورأت خفة تصرفات هوني الخرقاء ، وسمعت ضحكاتها الغثة البلهاء ، وهي تتمسك بأذرع الشبان . وأثارت الفكرة في نفسها غضباً جديداً ، غضباً على نفسها ، وعلى آشلي ، وعلى الدنيا . ولأنها كرهت نفسها ، كرهتهم جميعاً بدافع نقمة الحب الخائب المحطم ، حب فتاة في السادسة عشرة من العمر . ولم يكن يشوب حبها إلاّ قليل من الرقة ، إذ كان مزيجاً من الغرور ، والثقة المطلقة بمفاتنها . وها هي الآن

قد أضاعت كل شيء ، وكان أعظم من شعورها بالضياع خوفها من أن تكون قد جعلت من نفسها فرجة للناس . هل انكشف أمرها كهوني؟ هل ضحك الجميع عليها؟

وارتعشت إثر هذه الفكرة . وامتدت يدها إلى طاولة صغيرة بجانبها ، وأمسكت بأصابعها أصيصاً خزفياً صغيراً ورفعته ، وبدافع آثم ، قذفت به عبر الغرفة باتجاه المدفئة ، فكاد يرتطم بظهر الكنبة الطويل ثم تهشم على رف المدفئة الرخامي شظايا متناثرة .

ـ «هذا كثير جداً» قال صوت من أعماق الكنبة .

وجفلت ، لم تخَف يوماً بقدر ما خافت الآن ، وجف لسانها تماماً بحيث لم تستطع النطق بكلمة ، وتمسكت بظهر الكرسي ، وارتجفت ركبتاها وهي تشاهد ريت بتلر ينهض من على الكنبة ، حيث كان مضطجعاً ، وينحني لها بأدب مبالغ فيه :

ـ «من غير اللائق أن تعكر قيلولة المرء جراء حوار كهذا الذي أرغمت على سماعه ، ولكن لماذا ينبغي لحياتي أن تتعرض للخطر؟» .

كان شخصاً حقيقياً ، لم يكن شبحاً ، ولكن ، لقد سمع كل شيء . واستجمعت قواها في شبه مظهر أنوف :

ـ «سيدي ، كان يجب أن تعلن عن وجودك هنا» .

ـ «حقاً؟» ولمعت أسنانه البيضاء ، بينما ضحكت منها عيناه السوداوان الوقحتان ، «ولكن أنت الدخيل المتطفل ، أما أنا فقد كنت مضطراً إلى انتظار السيد كندي ، ولما شعرت بأن من المحتمل أن أكون شخصاً غير مرغوب بوجوده في الساحة الخلفية ، ارتأيت ، بعد تفكير طويل ، أن أبعد وجودي المستنكر إلى هذا المكان حيث اعتقدت أن أحداً لن يضايقني . . . ولكن . . . ويا للأسف . . .» وهز كتفيه باستهجان ضاحكاً ضحكة رقيقة .

كانت أعصابها قد بدأت في التوتر ثانية ، وهي تفكر في أن هذا الوقح السليط قد سمع كل شيء ـ كل شيء تتمنى الآن أن لو ماتت قبل التفوه به .

ـ «مسترقو السمع ـ » بادرته غضبى .

ـ مسترقو السمع غالباً ما يسمعون أموراً تنوّر العقل ، وعلى درجة رفيعة من الإمتاع» . قال مبتسماً ، «وبفضل خبرة طويلة باستراق السمع ، أصبحت . . .» .

ـ «سيدي ، أنت لست محترماً» .

ـ إنها ملاحظة لائقة» ، أجاب بتهكم ««وأنت يا آنسة لست محترمة» .

وبدا كأنه وجد سكارلت مسلية ، إذ ضحك ثانية برقة ، «فلا يمكن لامرأة أن تبقى محترمة ، بعد أن تقول وتعمل الذي سمعته الآن . وعلى كل حال ، نادراً ما فتنت بالسيدات ، لأني أعرف بماذا يفكرن . ولكنهن أبداً لا يملكن الشجاعة أو سوء التربية ليصرحن بما يفكرن به . ومع الوقت ، يضحي ذلك عبئاً ثقيلاً ، ولكن أنت ، يا آنستي العزيزة ، فتاة بروح قل مثيلها ، روح باهرة جداً ، وها أني أنزع قبعتي إجلالاً لك . إنني عاجز عن فهم أي رقي يستطيع السيد اللطيف ويلكس ، أن يتذرع بها ، في وجه فتاة بطبيعتك الثائرة . يجدر به أن يشكر الله ، راكعاً فوق ركبتيه ، لنعمته عليه بفتاة مثلك تملك ـ ماذا دعاها؟

ـ كل شهوات الحياة ، ولكن لكونه إنساناً مسكيناً بروح بائسة . . .» .

ـ «أنت لا تصلح لمسح حذائه» صاحت حانقة .

ـ «وأنت كنت ستبغضينه مدى حياتك» واسترخى فوق الكنبة ، وسمعته يضحك .

لو كان بإمكانها أن تقتله لما تأخرت أبداً . وعوضاً عن ذلك ، خرجت من الغرفة بكبرياء وأنفة ، بحيث استطاعت أن تجمع قواها ، وتصفق الباب الثقيل خلفها .

ارتقت السلم بسرعة فائقة جعلتها تظن ، عندما بلغت بسطة الدرج ، أنه سيغمى عليها ، فتوقفت ، ممسكة بالدرابزين ، وقلبها يقرع قرعاً عنيفاً من الغضب والإهانة والإجهاد ، حتى بدا كأنه سينفجر ممزقاً قميصها . حاولت أن تتنفس بعمق ولكن الأشرطة التي شدتها مامي كانت محكمة . كيف إن هي أغمي عليها ووجدوها هنا على بسطة السلم؟ ماذا سيظنون؟ آه «سيظنون كل شيء ، آشلي ، وبتلر ، ذلك الرجل القميء ، وهؤلاء الفتيات السيئات الحقودات . وللمرة الأولى في حياتها تمنت أن لو كانت تحمل روائح منعشة ضد الغثيان ، كسائر الفتيات ، ولكنها لم تملك يوماً قارورة عطر منعش ، إذ كانت تفخر دائماً بأنها لا تصاب بالدوار ، ولذلك ، فهي بصراحة ، لن تدع نفسها تدوخ ، الآن .

وطفق الشعور المرضي بالزوال تدريجياً ، وأحست أنها بعد لحظات ستستعيد

اتزانها النفسي ، وستتسلل بهدوء إلى غرفة الزينة المجاورة لغرفة إنديا ، وستحل مشداتها ، ثم تسترق الخطى زاحفة لترقد على أحد الأسرة ، بجانب الفتيات النائمات . وحاولت أن تهدئ خفقان قلبها ، وتنسق أسارير وجهها في وضع منسجم موافق ، لأنها تعرف أنها الآن لا بد تشابه امرأة مجنونة ، وإذا اتفق أن كانت إحدى الفتيات مستيقظة فسيعرف الجميع أن حادثاً قد وقع ، بينما يجب أن لا يعرف أحد قط أن شيئاً ما قد حدث .

ومن خلال نافذة بسطة السلم الواسعة ، الناتئة للخارج ، استطاعت أن تلمح الرجال ما زالوا مسترخين في كراسيهم ، تحت الأشجار ، وفي ظلال العريشة . إنها تحسدهم . ما أروع أن يكون المرء رجلاً ، فلا يضطر إلى معاناة مآسي كهذه التي عانتها الآن . وفيما هي واقفة تراقبهم ، محمرة العينين ، دائخة ، سمعت وقع حوافر حصان منطلق ، في الممشى الأمامي ، تلاه تناثر الحصباء ، وصوت متهدج ، يصيح مستفسراً من أحد الزنوج ، ثم تطايرت الحصباء ثانية ، ولاح في مدى بصرها رجل على ظهر حصان يسير خبباً فوق المرجة الخضراء باتجاه الجماعة الخاملة تحت الأشجار .

ضيف متأخر . . . ولكن لماذا قاد حصانه فوق العشب الأخضر ، موضع فخر إنديا؟ لم تستطع تمييز شخصه ، على أنه عندما طوح بنفسه عن السرج وقبض على ذراع جون ويلكس ، تمكنت من رؤية الانفعال يغمر كل ملامح وجهه . والتف الحشد حوله ، مخلفين كؤوسهم الطويلة ومراوحهم النخيلية فوق المناضد وعلى الأرض . ورغم بعد المسافة استطاعت سماع هرج الأصوات ، تستفسر وتنادي ، واستشعرت حمى القلق في الرجال قد بلغت أوجها . ثم علا صوت ستيوارت تارلتون بلبلة الأصوات ، في صرخة جزلة مهللة «يي ـ آ ـ اي» كما لو أنه في حقل الصيد . وللمرة الأولى ، سمعت هتاف الثورة ، دون أن تعلم حقيقته .

وفيما هي تراقب ، رأت أبناء تارلتون الأربعة ، يتبعهم شبان فونتين ، يخترقون نطاق الجمع ، ويهرولون نحو الإسطبل صائحين :

ـ «جيمس ، يا جيمس : أسرج الخيول» .

ـ «لا بد أن أحد البيوت قد اشتعل بالنيران» فكرت سكارلت ، ولكن سواء أكان ذلك صحيحاً أم غير صحيح فلا شأن لها به .

إن مهمتها الآن هي أن تعيد نفسها إلى غرفة النوم قبل أن يكتشف أمرها . وهدأ خفقان قلبها ، وصعدت الدرج على رؤوس أصابعها إلى القاعة الساكنة ، وأحست أن نوماً ثقيلاً دافئاً يغمر البيت ، كما لو أن البيت نفسه استغرق كالبنات في القيلولة المنعشة ، إلى أن يحين الليل ، حيث سيتجلى بزينته التامة ، مع الموسيقى ومشاعل الأضواء .

وفتحت باب غرفة الزينة بهدوء تام ، وانسلت داخلها ، وكانت يدها لا تزال خلفها تمسك بمقبض الباب وعندما بلغ مسامعها ، من خلال شق الباب المقابل المؤدي إلى غرفة النوم ، صوت هوني ويلكس ، في انخفاض يكاد يقارب الهمس :

ـ «أعتقد أن سكارلت تصرفت اليوم كما يمكن لأي فتاة داعرة أن تفعل» . شعرت سكارلت أن قلبها عاود خفقانه المتسارع ، فشدت بقبضة يدها عليه ، دون وعي ، كما لو أنها تريد ضغطه كيما يرضخ . «مسترقو السمع غالباً ما يسمعون أموراً تنوّر العقل ، على مستوى رفيع» هكذا لازمتها الذكرى .

هل تتسلل خارجاً مرة ثانية ، أو تعلن عن وجودها ، وتغيظ هوني كما تستحق؟ ولكن الصوت الذي تلا ، جعلها تتريث ، إن أحد عشر بغلاً لا يمكن أن تجرها بعيداً ، وهي تسمع صوت ميلاني :

ـ «لا يا هوني ، لا تكوني قاسية . إنها لطيفة الروح مليئة بالحيوية ، وأعتقد أنها في أوج فتنتها» .

ـ «آه» فكرت سكارلت ، غارزة أظفارها بقميصها ، «إن من سخرية القدر أن تدافع عني تلك المنحطة الماكرة المعسولة اللسان» . كان من الصعب أن يسمع غير لذعات هوني القارصة كالسوط ، من كل نوع .

لم تثق سكارلت يوماً بأي امرأة ، ولم تأتمن أي امرأة ، باستثناء أمها ، على بواعثها الأخرى غير الأنانية . لقد كانت ميلاني تعلم أنها ضمنت آشلي لنفسها ، لذا أصبح بوسعها الآن إظهار هذه الروح الإنسانية . وأحست سكارلت أن هذا هو أسلوب ميلاني في عرض فوزها ، وكسب السمعة الطيبة بأنها دمثة في الوقت نفسه ، لقد اعتمدت سكارلت الخدعة ذاتها مراراً وهي تتحادث ورجال الفتيات الأخريات ، ولم تفشل أبداً في إقناع الذكور ، الأغبياء ،بكرم

أخلاقها ، وانعدام أنانيتها .

ـ «حسناً يا آنسة» قالت هوني بحدة . وصوتها يرتفع : «لا بد أن تكوني عمياء» .

ـ «اصمتي يا هوني» همس صوت سالي مونرو «سيسمعك كل من في البيت» .

فخفضت هوني صوتها ولكنها تابعت :

ـ «لقد رأيتن كيف مضت تغازل كل شاب استطاعت صيده ، حتى السيد كندي ، وهو عشيق أختها . لم أر مثيلاً لها قط ، وبالتأكيد كانت تلاحق تشارلز» . وضحكت هوني خفرة «وأنتن تعرفن أني وتشارلز . . .» .

ـ «هل أنتما حقاً؟» همست أصوات منفعلة .

ـ «حسناً ، لا تخبرن أحداً أيتها الفتيات . . . حتى الآن لا . . .» .

وسمعت ضحكات أخرى ، واهتزّت السرر عندما حاولت إحداهن قرص هوني ، ودمدمت ميلاني بعض العبارات حول عظم سعادتها لأن هوني ستكون زوجة لأخيها .

ـ «على كل حال ، لن أكون سعيدة لو ، أصبحت سكارلت زوجة لأخي ، لأنها فتاة داعرة ، إن كنت أعرف ماهي الداعرة» أعلن صوت هيتي تارلتون الحزين . . . ولكنها تكاد تكون مخطوبة لستيوارت ، فبرنت يقول إنها لا تعيره أدنى اهتمام ، ولكن بالطبع ، إنه متيَّم بها أيضاً» .

ـ «إذا ما سألتني» قالت هوني باهتمام خفي : يوجد فقط شخص واحد تعيره اهتمامها وهو آشلي» .

وفيما اختلطت الهمسات اختلاطاً صاخباً ، مستفسرة يقاطع بعضها بعضاً ، شعرت سكارلت بقشعريرة برد من الخوف والوضاعة . كانت هوني خرقاء بلهاء غبية ، فيما يتعلق بالرجال ، ولكنها تملك غريزة أنثوية تمكنها من فهم دوافع النساء ، غريزة كانت سكارلت قد ساءت تقدير قيمتها .

إن ما قاسته من جرح للكبرياء ، وإدانة للنفس ، داخل المكتبة ، بدا ضئيلاً كوخز الإبر بالنسبة إلى ما تسمعه الآن ، فالرجال يمكن أن يؤتمنوا على الاحتفاظ بأفواههم مغلقة ، حتى الرجال أمثال السيد بتلر ، ولكن بلسان هوني ويلكس ، النباح كالكلب وسط الحقل ، ستعلم الولاية جمعاء بأمرها قبل الساعة السادسة

مساء ، وكان جيرالد قد قال ، في الليلة الماضية فقط ، إنه لن يدع الولاية تضحك على ابنته ، فكيف سيضحك الجميع الآن؟ وراح العرق الدبق ، الذي بدأ يتصبب تحت إبطيها ، يسيل فوق خاصرتيها .

وعلا صوت ميلاني متزناً مطمئناً ، معتدلاً في لهجته التأنيبية ، علا فوق جميع الأصوات :

ـ «هوني ، أنت تعلمين أن الأمر ليس على ما تقولين ، وأنها لقسوة منك شديدة» .

ـ «إنها لكذلك يا ميلي ، ولو لم تكوني دائماً مأخوذة في البحث عن نوازع الخير في الناس ، الذين لا خير فيهم ، لأدركت أنها الحقيقة ، وأنا سعيدة لكونها كذلك ، فالأمر سيخدمها مباشرة . إن كل ما فعلته سكارلت أوهارا حتى اليوم ينحصر في إثارة المشاكل ، ومحاولة كسب عشاق غيرها من الفتيات . أنت تعرفين تمام المعرفة أنها انتزعت ستيوارت من إنديا ، بينما هي لا تريده لها ، وها هي اليوم تحاول انتزاع السيد كندي وآشلي وتشارلز» .

ـ «ينبغي أن أعود إلى البيت» ، فكرت سكارلت ، «ينبغي أن أعود إلى البيت» .

وضمت تنورتها بيدين صارمتين ، كيما تمنع حفحفة القماش ، وخرجت خلسة كالحيوان . . . «إلى البيت» فكرت وهي تسرع في القاعة ، مارة بالأبواب المغلقة والغرف الساكنة ، ينبغي أن أذهب إلى البيت . وكانت قد وصلت إلى الرواق الأمامي حين دعتها فكرة طارئة إلى الرجوع حالاً ـ إنها لا تستطيع الذهاب إلى البيت ، هي لا تستطيع الهروب . عليها أن تبقى لترى النتيجة ، عليها أن تتحمل حقد الفتيات كاملاً ، وأن تتحمل كذلك نتيجة ذلها وانكسار قلبها . إن هروبها لم يكن إلاّ ليزيد الذخيرة في أيدي مهاجميها . ودقت قبضتيها المشدودتين بالعمود الأبيض الشاهق إلى جانبها ، وتمنت أن لو تكون شمشون الجبار ، إذاً لكان بمقدورها أن تهدم تولف أوكس بأسره ، تدمر كل إنسان فيه . ستجعلهم يندمون ، ستريهم ، ولم تعرف بالضبط كيف ستريهم ، ولكنها ستفعلها على كل حال ، ستؤذيهم بشكل أفظع ممّا آذوها .

وفي هذه اللحظة بالذات ، نسيت آشلي كما هو على حقيقته ، فلم يعد ذلك الشاب الطويل الناعس الذي أحبته ، وإنما هو جزء بل قطعة من

الويلكسيين ، من تولف أوكس ، من الولاية ، وهي تبغضهم جميعاً ، لأنهم يضحكون ، لقد كان الغرور أقوى من حب السادسة عشرة ، فلم يبق مكان الآن في قلبها المتقد لأي شيء سوى البغض والحقد ،

ـ «لن أذهب إلى البيت» ، فكرت سكارلت ، «سأبقى ، وسأجعلهم يندمون ، ولن أخبر أمي بشيء ، لا : لن أخبر أي إنسان» . وشددت على نفسها لتدخل من جديد ، لتصعد الدرج ثانية ، وتدخل إلى غرفة نوم أخرى .

وفيما هي تلتفت رأت تشارلز يدخل البيت من جانب القاعة الطويلة الآخر ، فما إن لمحها حتى أسرع نحوها ، شعره أشعث ، ووجهه منفعل .

ـ «هل علمت الذي حدث؟» صاح حتى قبل أن يصل إليها «هل سمعت؟ لقد وصل بول جونسون الآن بالنبإ من جونسبورو» . وعندما بلغها وقف صامتاً ، مقطوع النفس ، فلم تقل شيئاً ، بل راحت تحدق به .

ـ «السيد لنكولن طلب رجالاً ، جنوداً ـ أعني متطوعين ـ طلب خمسة وسبعين ألفاً منهم» .

السيد لنكولن مرة ثانية ! ألم يفكر الرجال مرة بأي شيء هام حقاً؟ وها هو هذا الأحمق ينتظر أن تهتم بعبث السيد لنكولن ، في الوقت الذي انسحق قلبها وكادت سمعتها تهوي .

وحملق تشارلز بها ، كان وجهها أبيض كالورق ، وعيناها تتوهجان كزمردتين . إنه لم ير ناراً كهذه في وجه أي فتاة ولا بريقاً كهذا في عيني أي إنسان .

ـ «إنني فظ أخرق» قال ، «كان ينبغي أن أخبرك بأسلوب ألطف ، لقد نسيت أن السيدات رقيقات جداً . إني آسف لمضايقتك ، أنت لا تحسين بالدوار ، أليس كذلك؟ هل يمكن أن أحضر لك كوب ماء؟» .

ـ «لا» قالت مصطنعة ابتسامة زائفة .

ـ «هل نذهب ونجلس على المقعد؟» سألها متناولاً ذراعها . فأطرقت ، وسار إلى جانبها ممسكاً بيدها بعناية فائقة ، وهما ينزلان الدرجات الأمامية . ثم قادها فوق العشب إلى المقعد الحديدي ، تحت أكبر سنديانة في الساحة الأمامية . ما أرق شعور السيدات ، وما أسرع انفعالهن ، فكر تشارلز ، إن مجرد ذكر الحرب والعنف يصيبهن بالدوار . وقوت الفكرة شعوره بالرجولة ، فضاعف ملاطفتها

وهي جالسة إلى جانبه .

كانت تبدو بهيئة غريبة ، وقد غمر وجهها الأبيض جمال آخاذ جعل قلبه يقفز من مكانه . أيمكن أن تكون مكدرة جراء التفكير باحتمال سفره إلى الحرب؟ لا ، فهذه خطرة غرور لا تصدقها نفسه . ولكن لماذا تنظر إليه هكذا ، بشكل مستغرب؟ ولماذا ارتجفت يداها وهي تمسك بمنديلها المخرم؟ وأهدابها الكثة الفاحمة كانت ترتعش تماماً كعيون الفتيات في القصص التي قرأها ، ترتعش بالحياء والحب!

وتنحنح ثلاث مرات ، استعداداً للكلام ، ولكنه فشل في كل مرة . وأطرق بعينيه إلى الأرض ، لأن عينيها الخضراوين رمقتاه بنظرة نفاذة ، كما لو أنها لا تراه .

ـ «إنه يملك كماً كبيراً من الثروة» ، أخذت تفكر بسرعة ، بعد أن خطر لها رأي وخطة ، «وليس لديه والدان يضايقانني ، وهو يعيش في أتلانتا ، وإذا تزوجته فوراً ، سيرى آشلي أني لم أهتم به أبداً ـ وأني كنت أغازله فقط . وستموت هوني ، فهي لن ولن تحصل على محب آخر ، وسيضحك الجميع عليها حتى الموت ، وسيجرح شعور ميلاني ، لأنها تحب تشارلز كثيراً ، وسيجرح شعور ستيوارت وبرنت» ، ولم تعرف بالضبط سبب رغبتها في إيذائهما ، اللهم إلا لأن لهما شقيقات حاقدات . «وسيندم الجميع عندما أعود هنا لزيارتهم في عربة فخمة ولدي الكثير من الملابس الأنيقة ، ولي منزل خاص بي . لن ، لن يضحكوا علي أبداً» .

ـ «طبعاً ذلك يعني الحرب» ، قال تشارلز بعد عدة محاولات أخرى ، «ولكن لا تضطربي يا آنسة سكارلت ، فسوف تنتهي في شهر واحد ، وسندحرهم وهم يولولون ، نعم يولولون . لن أرضى عن الذهاب إلى الحرب بديلاً . أخشى ألا يكون رقص الليلة ، لأن الفرقة ستجتمع في جونسبورو ، وقد ذهب أبناء تارلتون لنشر النبإ ، وأنا أعلم أن السيدات سينزعجن» .

ـ «آه» ، قالت لفقدانها أي جواب أفضل ، ولكن ذلك كان كافياً .

وبدأ اتزانها يعود إليها ، وعقلها يجمع شتاته ، واكتنفت مشاعرها طبقة من جليد ، واعتقدت أنها لن تحس بحرارة الأحداث أبداً . . . لماذا لا تتزوج هذا الشاب الحيي الظريف؟ فهو إنسان كالآخرين ، وهي لم تعد تحفل بشيء ، لا ،

لن يمكنها الاهتمام بشيء بعد اليوم حتى ولو بلغت التسعين من العمر .

ـ «لا أستطيع أن أقرر الآن ، أألتحق بفرقة كارولينا الجنوبية ، بقيادة السيد ويد هامبتون ، أم بفرقة حرس بوابة المدينة ، في أتلانتا؟» .

فقالت ثانية ، آه ، وثانية التقت عيونهما وهزّته الأهداب المرتعشة .

ـ «هل تنتظرينني يا آنسة سكارلت؟ ليس غير الله يعلم إن كنت ستنتظرينني إلى ما بعد سحقهم» ، وأمسك مقطوع النفس ينتظر كلماتها ، ويراقب الطريقة التي تحرك بها شفتيها مفكراً ماذا سيحدث أن لو قبّلها ، وزلقت يدها ، بكفها العرق الدبق ، إلى يده :

ـ «أنا لا أريد أن أنتظر» .

جلس ممسكاً بيدها ، فاغراً فاه . وفكرت سكارلت ، وهي تراقبه من تحت أهدابها ، أنه يشبه «مع الفارق» ضفدع مضحكة .

وتلجلج لسانه عدة مرات ، وأغلق فمه وفغره ثانية ، وتورد وجهه :

ـ «هل من المحتمل أن تحبيني؟» فلم تقل شيئاً ، بل نظرت في حجرها . بينما راح تشارلز في حالة من الغيبوبة والذهول والضيق .

ربما لا ينبغي للرجل أن يسأل الفتاة مثل هذا السؤال ، ربما يكون من غير اللائق بصبية أن تجيبه ، إذ لم يملك يوماً الشجاعة ليورط نفسه في مثل هذا المأزق . واكتنفه الضياع ، كيف يجب أن يتصرف؟ أراد أن يصيح وأن يغني وأن يقبّلها ، أن يقفز متهلّلاً ، ومن ثم يركض ويخبر كل الناس ، السود والبيض ، أنها تحبه . ولكنه لم يفعل سوى أن ضغط على يدها ، حتى كاد يدخل خواتمها في جلدها .

ـ «أستتزوجينني سريعاً يا آنسة سكارلت؟» .

ـ «أوم» أجابت عابثة بطية ثوبها بأصابعها .

ـ «هل سنقيمه عرساً مزدوجاً مع عرس ميلي؟» .

ـ «لا» قالت على الفور ، وعيناها ترمقه ببريق ينذر بالويل . وأدرك تشارلز ثانية أنه ارتكب خطأ ، فالفتاة بالطبع تريد عرساً خاصّاً بها ـ لا مجداً مشتركاً . . . ما أرحمها وقد عفت عن جرائمه : . . . ليت الدنيا ظلام وليته يملك شجاعة الأشباح فيستطيع تقبيل يدها ، ويبوح بالأشياء التي طالما تحرق لقولها .

ـ «متى يمكنني أن أفاتح والدك بالموضوع؟» .

ـ «كلما أسرعت كلما كان ذلك أفضل» قالت ذلك وهي تأمل أن لو ينقذها من ضغط خواتمها، قبل أن تضطر إلى طلب ذلك منه .

ـ «سأذهب الآن وأقابل والدك» قال والبسمة ملء وجهه . «فأنا لا أستطيع الانتظار . هل تسمحين يا عزيزتي» . ولفظ عبارة عزيزتي بصعوبة، ولكن، لكونه قالها مرة، كررها ثانية بسرور .

ـ «نعم» قالت «سأنتظر هنا، فالمكان معتدل الحرارة لطيف» .

وانطلق ليغيب شخصه خلف البيت، وبقيت وحدها تحت السنديانة .

ومن داخل الإصطبلات، كان الرجال يندفعون على ظهور الخيل، والزنوج الخدم يجهدون راكبين للحاق بأسيادهم . ومر شبان آل مونرو ينهبون الأرض نهباً، ملوحين بقبعاتهم، ثم شبان آل فونتين وكالفرت، اندفعوا فوق الطريق صائحين، بينما انطلق أبناء تارلتون عبر المرجة، وصاح برنت : «ستعطينا أمي الخيول، وتطاير العشب، وذهب الرجال، وبقيت سكارلت وحيدة للمرة الثانية . وانتصب البيت الأبيض بأعمدته الشاهقة أمام ناظريها، يتراءى كأنه يتباعد عنها بترفع جليل . لن يكون بيتها الآن، لن يحملها آشلي فوق عتبته كعروس . آه آشلي، آشلي، ماذا فعلت؟



آشلي، ميلاني، في عرس سكارلت

7

خلال أسبوعين انتقلت سكارلت إلى الحياة الزوجية ، وبعد شهرين فقط ترملت ، وسرعان ما تحررت من القيود التي غلّت نفسها بها بتسرع بالغ وبتفكير قليل . ولكن لم يقدر لها قط أن تنعم بالحرية المطلقة ، غير المسؤولة ، لأيام العزوبة . لقد خيم الترمل سريعاً في أعقاب الزواج ، ولكن الذي زاد في يأسها أن الأمومة سرعان ما تبعته .

وفي السنين التي تلت ، عندما كانت تفكر في تلك الأيام ، أيام نيسان/ أبريل عام ١٨٦١ ، لم تكن تستطيع أن تذكر تفاصيل الأحداث تماماً ، فالزمن والواقع ابتعدا ، مختلطين معاً ككابوس لا يلمس ولا يدرك . وحتى يوم مماتها ستظل هناك بقع فارغة بيضاء في ذكرياتها عن تلك الأيام ، خصوصاً تلك الفترة الغامضة ما بين قبولها بتشارلز وزواجها به . إن فترة خطوبة قصيرة كتلك كانت مستحيلة أيام السلم ، وكان لا بد أن تتبعها مرحلة مشرقة معتبرة ، تدوم سنة أو ستة شهور على الأقل ، ولكن الجنوب اشتعل بالحرب ، والأحداث تتابعت رهيبة سريعة ، كما لو أن ريحاً عاتية تذروها ، وانقضى جريان الأيام القديمة البطيء .

كانت أمها قد عقدت يديها ، وتأخرت الاستشارات ، كيما يتسنى لسكارلت تقليب الأمر على جميع وجوهه ، والتفكير ملياً ، في مدة أطول ، ولكن سكارلت ، غدت وجهاً عابساً وأذناً صماء نتيجة لتوسلات أمها . فالزواج هو الذي تريده ، وبسرعة أيضاً ، وخلال أسبوعين لا أكثر .

وعندما سمعت أن عرس آشلي وميلاني قد قدم موعده إلى أول أيار/ مايو بدلاً من الخريف ، كيما يستطيع السفر مع الفرقة حالما تدعى للخدمة ، عيّنت موعد عرسها ، قبل ذلك الموعد بيوم واحد ، واحتجت أمها ، ولكن تشارلز توسل بفصاحة حديثة العهد ، إذ كان فارغ الصبر ، يريد السفر إلى كارولينا الجنوبية ، والالتحاق بفرقة ويد هامبتون ، وأيد والدها الشابين ، إذ كان قلقاً بحمى الحرب ، مسروراً لأن سكارلت وفقت بزواج طيب ، ثم من كان هو ليقف في وجه حب فتيّ والحرب مشتعلة؟ وأخيراً رضخت إيلين دهشة حائرة ،

شأن سائر الأمهات في الجنوب ، اللواتي كان عالمهن الفارغ قد انقلب رأساً على عقب ، فلم تعد تجدي توسلاتهن وصلواتهن ونصائحهن أمام القوى الهائلة التي جرفتهن في تيارها .

كان الجنوب ثملاً بنشوة الحماسة والهياج . كل إنسان اعتقد أن الحرب لن تتطلّب أكثر من معركة واحدة ، وكل شاب هرع إلى التطوع قبل أن يسبقه السلم ، هرع ليتزوج حبيبة قلبه قبل أن ينطلق إلى فرجينيا ليساهم بضربة ضد أهل الشمال . . . عشرات من زيجات الحرب تمت في طول الولاية وعرضها ، ولم يتح إلاّ القليل من الوقت لآلام الوداع ، إذ كان كل شخص منهمكاً جداً ، ذاهلاً ، بحيث لم يكن يفكر بمراسيم الوداع . ومضت السيدات يخطن الثياب العسكرية ، ويغزلن الجوارب ، ويلففن الضمادات ، بينما الرجال يتدربون ويطلقون النار ، والقطارات تمر يومياً بجونسبورو تحمل المجندين في طريقهم شمالاً إلى أتلانتا وفرجينيا .

وفي غمرة هذا الضوضاء المقلق ، استمرت الترتيبات لعرس سكارلت . وقبل أن تدرك حقائق الأمر تقريباً ، ألبست ثوب عرس إيلين ونقابها ، ونزلت الدرجات العريضة في تارا متكئة على ذراع جيرالد ، لتواجه قاعة حاشدة بالضيوف . وفيما بعد تذكرت ،كما تتذكر حلماً ، مئات المصابيح المتلألئة على الجدران ، ووجه أمها الذي بدا مشوباً بقليل من الحيرة ، وشفتيها وهما تتحركان بصلاة صامتة من أجل سعادة ابنتها ، وأباها وهو محمر الوجه بفعل الويسكي والكبرياء ، لأن ابنته تزوجت المال والجاه والنسب ، وآشلي وهو واقف على أسفل الدرج ، يتأبط ذراع ميلي .

وعندما رأت تعابير وجهه فكرت : «إن هذا الأمر لا يمكن أن يكون حقيقياً ، لا يمكن أن يكون ! إنه كابوس ، سأستيقظ وأجد أن كل شيء كان كابوساً . يجب أن لا أفكر به الآن ، وإلاّ سأشرع في الصراخ أمام جميع الحاضرين . لا أستطيع التفكير به الآن ، سأفكر به فيما بعد ، عندما يمكنني تحمله عندما لا أستطيع أن أرى عينيه» .

كل شيء بدا حلماً ، مرورها في ممشى الكنيسة المكتظ بالناس الباسمين ، وجه تشارلز القرمزي ، وصوته المتعتع ، وأجوبتها المذهلة الصريحة ، الفاترة جداً ، وما تلا ذلك من التهاني والتقبيل وأنخاب الشراب والرقص - كلها . . .

كلها كحلم . حتى إحساسها بقبلة آشلي على خدها ، وحتى همس ميلاني الناعم «نحن الآن شقيقتان حقاً» كانا غير حقيقيين .

ولكن عندما انتهى الرقص وأنخاب الشراب وأوشك فجر اليوم يبزغ ، عندما ذهب كل ضيوف أتلانتا ، الذين أمكن حشدهم في تارا ، وفي بيت الناظر ، للنوم على الأسرة ، على الكنبات ، على فرش القش ، على الأرض ، عندما انصرف كل الجيران إلى بيوتهم ليرتاحوا استعداداً لعرس آشلي في تولف أوكس ، في اليوم التالي ، عندئذ تحطمت غيبوبة الحلم كالبلور أمام الحقيقة الواقعة ، الحقيقة التي انكشفت عن تشارلز الخجول ، يبرز من غرفة نومها في قميص النوم ، متغاضياً عن نظرة الذهول التي فاجأته بها من فوق الغطاء البالغ حد رأسها .

لا بد وأنها كانت تعلم أن المتزوجين يشغلان السرير الواحد ذاته ، ولكنها لم تكن قد فكرت بالمسألة جدياً من قبل ، فالوضع كان يبدو طبيعياً لها بالنسبة إلى والديها ، ولم تقسه على نفسها أبداً ، ، وها هي الآن ، وللمرة الأولى ، منذ حفلة الشواء ، تتحقق إلى أي هوة قادت نفسها . إن مجرد التفكير بأن هذا الفتى الشاذ ، الذي لم تكن في الحقيقة ترغب في الزواج به ، يرقد على السرير بجانبها ، في الوقت الذي يتفطر قلبها بندم مؤلم كاحتضار الروح جراء فعلتها المتسرعة ، وبعذاب مبرح لخسارة آشلي الأبدية ، إن مجرد التفكير بهذا ، وفي هذا الوقت بالذات ، كان أكثر مما يحتمل . وفيما راح تشارلز يقترب من السرير بخطوات مترددة ، خاطبته بهمس أجش :

ـ «سأصرخ عالياً إن أنت اقتربت مني ، سأصرخ ، سأصرخ بأعلى صوتي ، ابتعد عني ، لن تجرؤ على لمسي» .

وهكذا أمضى تشارلز هاملتون ليلة عرسه على كنبة في زاوية الغرفة ، ليس شديد التعاسة ، لأنه أدرك ، أو اعتقد أنه أدرك ، مدى حياء وحساسية عروسه ، وصمم على الانتظار حتى تزول مخاوفها .

كان يتنهد وهو يتلوى بجسمه ، يحاول أن يستقر بجلسة مريحة ، إذ سيرحل إلى الحرب في القريب العاجل .

وكما كان عرسها كالحلم ، كذلك كان عرس آشلي ، بل أسوأ . وقفت سكارلت في ردهة الاستقبال ، في تولف أوكس ، بفستان اليوم الثاني ، الأخضر

بلون التفاح ، وسط لألاء مئات المصابيح ، والحشد الزاخر يتدافع بالمناكب حولها ، كما حدث في الليلة الماضية . ورأت وجه ميلاني هاملتون ، الصغير الساذج ، يتوهج جمالاً بعد أن أصبحت ميلاني ويلكس . الآن فقدت آشلي إلى الأبد ، أشليها ، لا ، ليس أشليها الآن . وهل كان أشليها يوماً؟

لقد كان كل شيء معقداً في عقلها ، وكان عقلها مرتبكاً جداً ، شديد الذهول ، لقد قال إنه يحبها ، ولكن ما الذي فرقهما ، ليتها تستطيع أن تتذكر . لقد منعت ثرثرة الناس بزواجها من تشارلز ، ولكن ما قيمة هذا الزواج الآن؟ لقد كان ذا أهمية كبيرة يوماً ، ولكنه يبدو اليوم ولا أهمية له البتة . إن الذي يهمها هو آشلي ، وها هو قد ذهب الآن ، وتزوجت هي رجلاً لا تحبه ، بل إنها تحتقره احتقاراً كبيراً .

آه ، ما أشد ندمها على كل شيء ، لقد سمعت مراراً بأناس يقطعون أنوفهم ليغيظوا وجوههم ، ولكن هذا كان في ما مضى من بلاغة القول ، والآن ، أدركت فحواه الحقيقي . لقد اقترنت رغبتها الجنونية لتتحرر من تشارلز ، وتعود سالمة إلى تارا فتاة عزباء غير متزوجة ، اقترنت بعلمها أن عليها ألاّ تلوم إلاّ نفسها ، إن عليها أن تلوم نفسها فقط ، فقد حاولت أمها أن تنصحها ولكنها لم تصغ .

وهكذا راحت ترقص ليلة عرس آشلي رقصة خلابة باهرة ، وتتكلم بصورة آلية ، وتبتسم ، وتعجب من غير تفكير ، لغباوة الناس الذين يعتقدون أنها عروس سعيدة ، دون أن يكون بوسعهم رؤية قلبها المحطم . حسناً ، شكراً لله : أن ليس بوسعهم أن يروا قلبها .

في تلك الليلة ، وبعد أن ساعدتها مامي على خلع ثيابها وانصرفت ، وبعد أن برز تشارلز من غرفة الزينة خجلاً ، متسائلاً إن كان عليه أن يقضي ليلة ثانية على الكنبة ، انفجرت سكارلت بالبكاء ، ظلت تبكي إلى أن اعتلى تشارلز السرير بجانبها ، محاولاً أن يخفف عنها ، بكت دون أن تنبس بكلمة ، حتى جفت الدموع في عينيها ، وأخيراً راحت تنشج نشيجاً بطيئاً ، متكئة على كتفه .

لو لم تكن الحرب ، لكان هناك أسبوع زيارات في أنحاء الولاية ، بحفلات ورقص وشواء على شرف العروسين الجديدين ، قبل أن يغادرا في شهر العسل

إلى ساراتوغا أو وايت سلفور . لو لم تكن الحرب لارتدت سكارلت ثوب اليوم الثاني ، وثوب اليوم الثالث ، واليوم الرابع واليوم الخامس ، عند تلبيتها حفلات آل فونتين وكالفرت وتارلتون ، المقامة على شرفها ، ولكن لا توجد حفلات الآن ، ولا شهر عسل .

وبعد الزواج بأسبوع رحل تشارلز ليلتحق بالكولونيل ويد هامبتون وبعد أسبوعين ، رحل آشلي والفرقة ، تاركين الولاية بأسرها خاوية حزينة .

خلال هذين الأسبوعين ، لم تر سكارلت آشلي وحيداً ، ولم تنفرد وإياه بكلمة واحدة ، حتى ولا في ساعة الفراق الرهيبة ، عندما توقف في تارا ، وهو بطريقه إلى القطار ، تمكنت من الانفراد به بحديث خاص . كانت ميلاني ممسكة بذراعه ، مرتدية قبعتها ، متشحة بشالها ، وقورة في مهابة الزوجية الحديثة . وخرج سكان تارا جميعاً ، سوداً وبيضاً ، ليشاهدوه وهو يغادرهم إلى الحرب .

قالت ميلاني : «ينبغي أن تقبّل سكارلت يا آشلي ، فهي بمثابة الشقيقة الآن» . وانحنى آشلي ولمس وجنتيها ، بشفتين باردتين ووجهه متناسق منسجم ، وبالكاد استطاعت سكارلت أن تنعم بأي متعة من هذه القبلة . وقد تكدر قلبها كثيراً وهي تسمع ميلاني توعز إليه بها ، بينما عانقتها هذه عناقاً حاراً عند الوداع :

- «سوف تأتين لأتلانتا ، وتزورينني وعمتي بيتي بات ، ألن تأتي يا عزيزتي؟ إننا نتوق لرؤيتك كثيراً ، نريد أن نزيد معرفتنا بزوجة تشارلز» .

انقضت أسابيع خمسة ، وصلت في أثنائها من تشارلز في كارولينا الشمالية رسائل غرام وهيام حيية ، كان يحدث فيها عن حبه ، عن أهدافه للمستقبل بعد أن تنتهي الحرب ، عن أمنيته في أن يصبح بطلاً إكراماً لها ، وعن احترامه البالغ لقائده ويد هامبتون . وفي الأسبوع السابع وصلت برقية من الكولونيل هامبتون نفسه ، وتبعتها رسالة ، رسالة تعزية لطيفة مهيبة . لقد مات تشارلز .

كان الكولونيل ويد يريد أن يبرق قبل ذلك ، ولكن تشارلز ، معتقداً أن مرضه طفيف ، لم يرغب في إزعاج عائلته . وهكذا لم يخدع الفتى السيئ الحظ فقط في حبه الذي اعتقد أنه فاز به ، بل أيضاً في أمانيه العزيزة في المجد والشرف في ميدان القتال . لقد مات حتف أنفه ميتة سريعة بداء الرئة ، بعد داء الحصباء ، حتى قبل أن يقترب من الشماليين أكثر من معسكر كارولينا الجنوبية .

وفي الوقت المحدّد ، ولد ابن تشارلز ، وسمي ، نظراً للتقليد المعاصر ، باسم قائد فرقة والده : ويد هامبتون هاملتون . كانت سكارلت قد بكت بكاء مرّاً عندما علمت بحبلها وتمنت أن لو تموت ، ولكنها حملت الطفل طيلة مدة الحمل بالحد الأدنى من المضايقة ، وولدته بعذاب قليل ، وتعافت من أعراض الولادة بسرعة فائقة ، جعلت مامي تخبرها سرّاً أن ولادتها كانت شعبية تماماً ، فالسيدات الفاضلات لا بد أن يقاسين آلاماً مبرحة .

كانت تشعر بقليل من العاطفة نحو الصبي ، مع أنها لم تكن تصرح بذلك ما استطاعت ، فهي لم تكن ترغب بقدومه ، بل امتعضت من هذا القدوم ، والآن وقد أصبح حقيقة واقعة ، لم يعد من الممكن أن يكون هو ابنها ، جزءاً منها .

وعلى الرغم من أنها أبلت عضوياً من ولادة ويد ، بسرعة غير مرغوب فيها ، فإنها كانت في مرض وذهول عقلي . لقد خارت معنوياتها رغم جهود كل من في المزرعة لرفعها ، وتغضّن جبين إيلين كمداً ، وهي تروح وتجيء ، وتوالت شتائم جيرالد ، وراح يجلب لها الهدايا غير الناجعة من جونسبورو ، حتى الطبيب العجوز فونتين اعترف بحيرته بعد أن فشلت عقاقيره المقوية من الكبريت والعسل الأسود والحشائش ، فأخبر إيلين ، على انفراد ، أن ما جعل سكارلت صعبة الانقياد سريعة التهيج ، فاترة الهمة من وقت إلى آخر ، هي قضية حب فاشل حطم قلبها . والواقع أن سكارلت لو رغبت في الإفصاح لأخبرتهم أن المشكلة مغايرة تماماً ، وأكثر تعقيداً . إنها لم تخبرهم أنه ضيق مطبق وارتباك لصيرورتها أماً حقاً ، وثالثة الأثافي ، غياب آشلي الذي جعلها تبدو كئيبة تعسة .

أمسى قلَقها شديداً ملازماً ، فالولاية قد خلت من أي تسلية أو نشاط اجتماعي منذ سافرت الفرقة إلى الحرب وارتحل كل الشبان المتعين : أبناء تارلتون الأربعة ، شبان فونتين ، شبان كالفرت ، أبناء مونرو ، وكل شخص في مقتبل العمر من جونسبورو وفايتفيل ولفجوي ، ولم يبق إلا الرجال المسنّين ، وذوو العاهات ، والنسوة ، يقضون أوقاتهم في الخياطة وشغل الإبرة وإنتاج محاصيل أكثر من القطن والقمح ، وأعداد أوفر من البقر والغنم والخنازير ، كل ذلك من أجل الجيش . لذا لم تكن العين لتنعم بمنظر رجل حقيقي ، عدا أيام

مرور فرقة التموين ، مرة في كل شهر ، لجمع المؤن ، بقيادة عشيق سولين المتوسط السن ، فرانك كندي .

كان رجال الفرقة لا يثيرون النفس كثيراً ، وكانت رؤية فرانك يغازل شقيقتها ، وهو خجل ، تضايقها إلى أن وجدت من الصعوبة معاملته بأدب . حبذا لو أقدم وسولين على الزواج وانتهى الأمر .

وحتى لو كان رجال فرقة التموين أكثر جاذبية لما أفادها ذلك مطلقاً ، فقد أضحت أرملة وأمسى قلبها في القبر ، هكذا على الأقل اعتقد جميع الناس أنه أمسى في القبر ، وتوقعوا أن تتصرف على هذا الأساس ، الأمر الذي أسخطها ، لأنها حاولت جهدها أن تتذكر تشارلز فلم تتذكر منه إلا هيئة عجل ميت منطبعة على وجهه وهي تخبره أنها ستتزوجه . وحتى تلك الصورة كانت قد بهتت .

لقد أضحت أرملة ، ولا بد لها من ملاحظة سلوكها ، فليست لها متع الصبايا العزباوات ، بل عليها أن تبقى وقورة ممتنعة . ولقد أكدت أمها على هذه النقطة ، تأكيداً قوياً ، بعد أن اكتشفت ملازم فرانك يؤرجحها بأرجوحة الحديقة ، فيجعلها تقهقه ضاحكة ، وعندئذ أخبرتها ، وهي في أشد درجات الاستياء ، أن من اليسير جداً أن تزج الأرملة بنفسها في ألسنة الناس ، وأن واجب الأرملة أن تحتسب في تصرفاتها مرتين أكثر من المتزوجة .

«والله وحده يعرف» فكرت سكارلت ، وهي تصغي مطيعة لصوت أمها الناعم ، «أن المتزوجات لا ينعمن باللهو أبداً ، فكيف بالأرامل؟ إنهن في عداد الأموات إذاً» .

«آه ، بلى ، فكرت سكارلت باكتئاب ، بعض الأرامل يتزوجن أخيراً ، عندما يمسين عجائز مترهلات ، مع أن الله وحده يعرف كيف ينجحن في ذلك ، رغم مراقبة جيرانهن . وإنهن يتزوجن عندئذ ، عادة ، بأيم عجوز بائس ، ذي مزرعة كبيرة ، واثني عشر طفلاً .

كان الزواج سيئاً جداً ، ـ ولكن أن تترمل ـ آه ، فالحياة عندئذ ستنقضي إلى الأبد . ما أغبى الناس وهم يقولون إن ويد هامبتون الصغير لا بد أن يكون عزاء ثميناً لها بعد وفاة زوجها ! ما أغباهم حين يقولون إن عندها الآن ما تعيش من أجله . كل إنسان كان يقول ما أحسن ما رزقت بهذا الطفل رمزاً لحبها ، ومن

الطبيعي أنها لم تصحح خطأ ما كانوا يعتقدون ، فهي لم تكن تحفل بطفلها ، وكان من الصعب أحياناً أن تتذكر أنه كان ابنها حقاً .

كانت تستيقظ كل صباح ، فتعود خلال هنيهة حالمة ، سكارلت أوهارا ثانية ، وتكون الشمس مشرقة على شجرة المانيوليا خارج نافذتها ، وطيور أبي زريق مغردة ، ورائحة شواء لحم الخنزير تتسلل إلى منخريها . ها هي شابة مستهترة مرة ثانية ، ولكنها لا تلبث حتى تسمع عويل الجائع النكد ، فتجفل دائماً . . . دائماً ، وتفجأها الفكرة ـ كيف ! يوجد طفل في الغرفة ، ثم تتذكر أنه طفلها . وهكذا ينتهي كل شيء إلى الدهشة والحيرة .

كان رفض تناول الطعام هو الذي أقلق إيلين ومامي أكثر من أي شيء آخر . مامي تجلب صواني الطعام الشهية ملمحة بأنها اليوم أرملة ، وبإمكانها الإكثار من الأكل ، بقدر ما يلذها ، ولكن سكارلت لا تملك الشهية .

وعندما أخبر الطبيب فونتين إيلين بلهجة جدية أن الحب الفاشل غالباً ما يؤدي بالمرأة إلى النحول ، وأن النساء يذوين حتى القبر ، شحب وجهها ، فالخوف من هذا المصير كان يحز في قلبها .

ـ «ألا يوجد ما يمكن عمله أيها الطبيب؟» .

ـ «تغيير المناظر هو أفضل شيء في الدنيا بالنسبة إليها» ، أجاب الطبيب ، متلهفاً جداً للخلاص من مريض لا يبشر وضعه بتحسّن .

وهكذا سافرت سكارلت دون رغبة منها ، وبرفقتها ابنها الصغير ، لتزور أولاً أقرباءها من آل أوهارا وآل روبلارد في سافانا ، ثم شقيقتي إيلين بولين ويولاي في شارلستون ، ولكنها سرعان ما عادت إلى تارا ، قبل شهر مما توقعت أمها ، ودون إيضاح سبب عودتها المبكرة .

كانوا لطيفين معها في سافانا ، ولكن جيمس وأندرو وزوجتيهما أمسوا مسنين ، يقنعون بجلسة هادئة والحديث عن الماضي الذي لا يلذ لها . والأمر ذاته تكرر مع آل روبلارد ، أما شارلستون فقد اعتبرتها سكارلت مدينة محزنة ، وكان أهلها ، كذلك ، يتباهون كثيراً بموضوع قلعة سمتر ، يا لله ! ألم يدركوا بعد أنهم لو لم يكونوا بتلك الدرجة من الحمق فيطلقون الرصاصة الأولى التي أشعلت الحرب ، لأطلقها حمقى آخرون غيرهم؟

وكذلك تراءى لسكارلت أن لهجة أهل المناطق الجنوبية المتباطئة الممدودة ،

لهجة مصطنعة ، وهي التي اعتادت لهجة أهل جورجيا الشمالية المتسارعة ، وقد اغتاظت كثيراً لاستياء خالتها في أثناء إحدى الزيارات الرسمية ، لأن سكارلت قلدت لهجة جيرالد الإيرلندية . ولذلك رجعت إلى تارا تفضل العذاب بذكريات آشلي ، على سماع لهجة شارلستون .

أما إيلين المنهمكة ليلاً ونهاراً لمضاعفة الإنتاج في تارا ، تدعيماً لقضية الاتحاد ، فقد هالها أن ترى ابنتها الكبرى تعود من شارلستون نحيلة ، شاحبة ، نزقة . كانت تعرف آلام القلوب الكسيرة بنفسها ، ولذلك ففي كل ليلة ، عندما تضطجع بجانب جيرالد ذي الشخير المزعج ، كانت تعمل فكرها لإيجاد طريقة تخفف بها مأساة ابنتها . وكانت الآنسة بيتي بات ، عمة تشارلز ، قد كتبت لها مراراً تحثها على السماح لسكارلت بالقدوم إلى إتلانتا في زيارة طويلة ، والآن ، وللمرة الأولى ، فكرت إيلين ببحث هذا الأمر جدياً .

«ستكون هي وميلاني وحدهما في بيت كبير ، وبدون حماية رجل بعد وفاة عزيزنا تشارلز» . كتبت الآنسة بيتي بات ، «طبعاً يوجد شقيق هنري ، ولكنه لا يسكن معنا . من المحتمل أن تكون سكارلت قد أخبرتك عنه ، فأصول اللياقة تمنعني من تطويل الكتابة بخصوصه ، وسنشعر ميلي وأنا براحة وأمان أكثر بوجود سكارلت بيننا ، فثلاث نساء وحيدات أفضل من اثنتين . ومن المحتمل أن تجد العزيزة سكارلت بعض العزاء لأحزانها بتمريض رجالنا الشجعان في المستشفى ، كما تفعل ميلي الآن . وبالطبع ميلي ، وأنا متلهفتان لرؤية الطفل العزيز» .

وهكذا حزمت حقيبة سكارلت مرة ثانية بملابس حدادها ، وسافرت إلى أتلانتا ، مع ويد هامبتون وممرضته برسي ، محشوة الرأس بنصائح أمها ومامي حول سلوكها ، ومزودة بمائة دولار من جيرالد ، على شكل سندات الدولة الاتحادية .

لم تكن سكارلت راغبة في السفر إلى أتلانتا ، فهي تعتبر الآنسة بيتي بات أتفه العجائز ، كما أن مجرد فكرة وجودها تحت سقف واحد مع زوجة آشلي أمر مقيت ، ولكن البقاء في الولاية بذكرياتها أضحى مستحيلاً ، وأي تغيير للمكان يلقى ترحيباً الآن .

القسم الثاني

8

صباح ذلك اليوم من شهر أيار/ مايو، عام ١٨٦٢، وبينما كان القطار يحمل سكارلت شمالاً، كانت هي تفكر باحتمال كون أتلانتا بلدة تدعو إلى الملل كشارلستون وسافانا، وبالرغم من نفورها من الآنسة بيتي بات وميلاني، فإنها أملت ببعض الفضول رؤية تطور المدينة، منذ زيارتها الأخيرة لها في الشتاء قبل اندلاع الحرب.

كانت سكارلت تحفل بأتلانتا أكثر من أي مدينة أخرى، لأن أباها أخبرها أيام طفولتها أنها وأتلانتا في سن واحدة تماماً. وعندما كبرت اكتشفت أن والدها كان قد حور الحقيقة نوعاً ما، كعادته كلما أدرك أن قليلاً من التحوير يحسن القصة. على أن أتلانتا كانت تكبرها بتسع سنين فقط، الأمر الذي يجعل منها مدينة صغيرة السن بشكل يدعو إلى الدهشة، إذا ما قوبلت بأي من المدن المعروفة الأخرى. فسافانا وشارلستون تمتازان بوقار السنين المديدة، الأولى ماضية نحو نهاية قرنها الثاني، والثانية في مطلع قرنها الثالث، بينما أتلانتا، وليدة جيلها، ما زالت طائشة بجهالات الشباب، عنيدة متهورة مثلها.

كانت نواة القصة التي حورها جيرالد تكمن في أن سكارلت وأتلانتا سميتا في السنة ذاتها، فخلال الأعوام التسعة التي سبقت مولد سكارلت دعيت المدينة أولاً «ترمينوس»، ثم «مارثيفيل»، ولم تعرف بأتلانتا إلاّ في السنة التي ولدت فيها سكارلت.

وعندما قدم جيرالد إلى جورجيا الشمالية أول مرة، لم تكن أتلانتا قط موجودة، حتى ولا في شبه قرية، بل كان مكانها عراء مقفر. ولكن حدث في السنة التالية؛ ١٨٣٦، أن أذنت الحكومة ببناء سكة حديد، تتجه شمالاً بغرب عبر المقاطعة التي أخلاها الشيروكيون مؤخراً، وكانت النقطة التي ستنتهي إليها السكة المقترحة، وهي تنيسي والغرب، واضحة مقررة، ولكن نقطة ابتدائها في جورجيا ظلت غير معيّنة نهائياً إلى أن غرز أحد المهندسين، في السنة التالية، وتداً في التربة الحمراء، معيناً حد السكة الجنوبي، وهكذا بدأت أتلانتا، المولودة باسم ترمينوس.

وكـمـا ولـدت أتلانتـا بميـلاد خط حـديدي ، كـذلك نمت بنمـو خطوطهـا الحديدية ، فبإنجاز السكك الحديد الأربع ، أصبحت المدينة الآن متصلة بالغرب والجنوب والساحل ، وكذلك بالشمال والشرق عبر أوغستا . وهكذا أضحت ملتقى الطرق إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب ، فانطلقت القرية الصغيرة في مضمار الحياة .

وفي فترة لا تزيد غير قليل عن عمر سكارلت البالغ سبع عشرة سنة آنذاك ، تحولت أتلانتا من وتد موحش ، مغروز في الأرض ، إلى مدينة صغيرة يسكنها عشرة آلاف نفس ، تكافح في سبيل النماء ، وتعتبر محور النشاط في كل الولاية ، بحيث صارت المدن ، الأقدم نشأة والأهدأ حركة ، تتطلع إلى المدينة الجديدة الداوية ، وتتساءل : «لماذا تختلف المدينة كثيراً عن مدن جورجيا الأخرى؟ لماذا نمت بهذه السرعة الفائقة؟ فهي لا تمتاز بشيء كما ظن أهل تلك المدن ، سوى سككها الحديدية وحفنة من الناس الأقوياء الطموحين» .

كان الناس الذين أقاموا في تلك المدينة ، التي دعيت بالتعاقب ، ترمينوس ، مارثيفيل ، ثم أتلانتا ، طموحين لا يهدأون ، أناساً نشيطين جاؤوا من الأقاليم القديمة في جورجيا ، ومن ولايات أبعد ، منجذبين إلى هذه المدينة التي بسطت نفسها حول ملتقى الخطوط الحديدية القائم في وسطها . جاؤوا تزخر نفوسهم بالحماسة ، فبنوا المخازن على جانبي الطرق الخمس ، الحمراء الموحلة التي تمتد قرب المحطة ، وابتنوا بيوتهم الأنيقة في شارعي وايت هول وواشنطن ، وعلى طول الحاجز الأرضي المرتفع ، حيث مهدت أخفاف أقدام عدد لا يحصى من أجيال الهنود ممراً دعي «بيتشتري تريل»(*) .

كانوا فخورين بمدينتهم ، فخورين بازدهارها ، فخورين بنفوسهم مبدعة هذا الازدهار . ولتدع المدن القديمة أتلانتا بما يروق لها ، فأتلانتا لم تبال بذلك .

كانت سكارلت دائماً تحب أتلانتا للأسباب ذاتها ، التي جعلت سافانا ، أوغستا وميكون تبغضها ، فقد كانت المدينة كشخصها ، مزيجاً من كل جديد وقديم في جورجيا التي يحتل القديم فيها المرتبة الثانية غالباً في نزاعه مع الجديد العنيد النشيط ، هذا فضلاً عن وجود عنصر شخصي مثير ، إذ إن المدينة

(*) ممر شجر الدراق .

ولدت ـ أو على الأقل سميت ـ في السنة نفسها التي عمدت فيها سكارلت .

*

كانت الليلة التي سبقت وصول سكارلت إلى أتلانتا عاصفة ممطرة ، ولكن ما إن بلغت سكارلت المدينة حتى كانت الشمس الدافئة تسطع في كبد السماء ، محاولة بشجاعة تجفيف الشوارع التي أضحت أنهاراً متعرجة من الوحل الأحمر . والذي زاد في الطين بلة ، ذلك السيل غير المنقطع من عربات الجيش والإسعاف تغدو وتروح فارغة ومحملة بالمؤن والجرحى من القطارات ، فتفاقمت الفوضى ، وازداد سطح الأرض سوءاً ، وراحت العربات تكدح في قدومها ، وتكافح في أثناء خروجها ، وأخذ الحوذيون يشتمون ، والبغال تغوص إلى ركبها ، والوحل يتناثر هنا وهناك .

وقفت سكارلت على درجات القطار السفلى ، فتاة جميلة شاحبة اللون ترتدي ثوب الحداد الأسود ، يتماوج نقابها الحريري بالغاً كعبيها تقريباً . وقفت مترددة ، لا تريد تلويث خفيها وأهداب ثوبها ، ثم تطلعت بين عربات النقل المتعارضة الهادرة وعربات الخيل والركوب ، بحثاً عن الآنسة بيتي بات ، ولكنها لم تقع على أي أثر لتلك السيدة البدينة المترهلة ، ذات الوجنتين المحمرتين . وفيما هي تجيل الطرف قلقة إذ بزنجي عجوز نحيل ، ذي شعر جعد قصير شائب ، ومظهر ينم عن سلطة مهيبة ، يتجه نحوها ، عبر الوحل ، وقبعته في يده .

«إنها الآنسة سكارلت ، أليس كذلك؟ ههنا بطرس ، حوذي الآنسة بيتي بات . لا تدوسي في الوحل» أمر بشدة حين جمعت سكارلت أطراف تنورتها استعداداً للهبوط .

ـ «أنت كالآنسة بيتي ، فهي كالطفل فيما يتعلق بتبليل قدميها ، سأحملك» .

وحمل سكارلت بسهولة رغم هزاله الجلي ، وسنه الكبيرة ، ولكنه توقف هنيهة عندما لاحظ برسي تقف على رصيف القطار ، والطفل بين ذراعيها :

ـ «هل هذه الطفلة الصغيرة ممرضة ولدك؟ آنسة سكارلت ، إنها أصغر من أن تعتني بابن السيد تشارلز الوحيد ، ولكننا سننظر في المسألة فيما بعد ، وأنت أيتها البنت ، اتبعيني وإياك أن تسقطي الطفل» .

صدعت سكارلت بوداعة لعملية حملها إلى العربة ، وللأسلوب الجازم

الذي انتـقدهـا وبرسي به العم بطرس . وفيـمـا كـان يحملهـا خـلال الوحل ، وبرسي تغوص بقدميها من خلفها ، وبتجهم وجهها ، تذكرت ما قاله تشارلز عن العم بطرس .

«خاض جميع الحملات المكسيكية مع والدي ، مرضه في أثناء جرحه ـ في الحقيقة هو الذي أنقذ حياته ، كما أنه عملياً رباني وميلاني ، إذ كنا صغيرين جداً عندما توفي والدنا ، وكانت العمة بيتي في نزاع مع أخيها العم هنري ، في ذلك الوقت تقريباً ، ولذلك جاءت لتعيش معنا وتعتني بنا . إنها أعجز إنسان ـ تماماً كـالطفل الكبيـر المدلل ، وقـد عاملهـا العـم بطرس على هذا الأسـاس . وحرصاً منه على حياتها لم تكن تقرر أمراً في أي موضوع ، ولذا كـان بطرس يقـرر لهـا مـا تـريد ، وهو الرجل الذي قـرر ضـرورة زيادة راتبي عندمـا بـلغت الخامسة عشـرة ، وأصر على ضرورة ذهابي إلى جامعة هارفـرد لإتمام سنتي الرابعة عندما رغب عمي هنري في أن أحصل على الشهادة الجامعية ، وهو الذي قرر أن تقص ميلاني شعرها وتحضر الحفلات عندما بلغت السن المعينة ، وهو الذي يخبـر الآنسة بيتي متى يكون الطقس بارداً جـداً أو حاراً جـداً لا يصلح للزيارات ، ومتى يجب أن تتلفع بالشال . . . إنه آنق عبد مسن رأيته في حياتي ، وأخلص عبد تقريباً ، ومشكلتنا الوحيدة معه أنه يسيطر على ثلاثتنا ، جسداً وروحاً ، وهو يعرف ذلك» .

وقد تأكد كلام تشارلز عندما صعد العم بطرس إلى العربة وأمسك بالسوط قائلاً :

ـ «الآنسة بيتي متكدرة لأنها لن تستطيع المجيء لاستقبالك ، وهي تخشى أن لا تقدري حراجة مـوقفهـا ، ولكني أخبرتهـا والآنسة ميلي أنهـمـا سـتتلوثان بالوحل ، وستتلفان ثوبيهـما الجديدين ، وطمأنتهـما بأني سأوضح الأمر لك ، آنسة سكارلت ، من الأفضل أن تأخذي ذلك الطفل ، فتلك الزنجية الصغيرة ستدعه يقع» .

نظرت سكارلت إلى برسي وتنهدت . لـم تكن هذه أفضل المرضات ، وكان من المستحيل على إيلين الاستغناء عن مامي أو دلسي ، أو حتى روزا أو تينا . ولم تكن برسي قد سافرت قبلاً أبعد من ميل واحد عن تارا أو تولف أوكس ، ولذلك كـانت رحلتها بالقطار ، بالإضافة إلى ترقيتها إلى وظيفة ممرضة ، أكثر

تقريباً ما يستطيع العقل الذي تحويه جمجمتها الصغيرة السوداء احتماله . ولقد أذهلتها رحلة العشرين ميلاً من جونسبورو إلى تارا كثيراً بحيث اضطرت سكارلت إلى أن تحمل الطفل طوال الطريق . وجاءت الآن مناظر البنايات العديدة ، وجماهير الناس الغفيرة ، لتكمل ذهولها ، ومن ثم تقاعسها عن الاهتمام بواجبها ، فراحت تلتفت يمنة ويسرة ، ثم أماماً ، ثم تثب من هنا إلى هناك ، حتى انخض الطفل وشرع يبكي بكاء مرّاً .

وتشوقت سكارلت لذراعي مامي السمينتين المدربتين ، إذ لم تكن تضع يدها على الطفل حتى يكف عن عويله . ولكن مامي الآن في تارا ، ولا تستطيع سكارلت أن تفعل شيئاً ، وحملها للطفل من يدي برسي عديم الجدوى ، فسيظل يصرخ عالياً ، كما يصرخ وهو في يدي برسي تماماً ، علاوة على أنه سيشد بشرائط قبعتها ، ويجعد ثوبها دون ريب . ولهذا كله تظاهرت بعدم سماع اقتراح العم بطرس .

ـ «من الممكن أن أتدرب على تربية الأطفال يوماً ما» فكرت منفعلة ، بينما العربة تتأرجح وتهتز خارجة من المستنقع الذي يكتنف المحطة ، «ولكنني لن أميل مطلقاً إلى مداعبتهم» . وعندما احمرّ وجه «ويد» جراء صراخه ، زمجرت بعبوس : «أعطيه قطعة السكر الصغيرة التي في جيبك يا برسي ، أي شيء ، أي شيء يسكته ، أعرف أنه جائع ، ولكنني لا أستطيع عمل شيء الآن» .

أخرجت برسي قطعة السكر التي أعطتها إياها مامي في ذلك الصباح فخفف عويل الطفل ، واستعادت سكارلت هدوءها ، ومن جراء المناظر التي صافحت عينيها ، بدأت معنوياتها تنتعش قليلاً ، وعندما داور العم بطرس العربة وأخرجها من بين حفر الوحل ، إلى شارع بيتشتري ، أحست بأول دفق من حب الحياة عرفته منذ شهور . كم نمت المدينة ! ولم يكن مضى أكثر من سنة على زيارتها الأخيرة إليها .

خلال السنة الماضية ، كانت غارقة في ويلاتها ، متضايقة من مجرد ذكر الحرب ، فلم تعلم أنه منذ بداية القتال تبدلت معالم أتلانتا . فالخطوط الحديدية ، التي جعلت من المدينة ملتقى لطرق التجارة أيام السلم ، هي نفسها التي جعلتها ذات أهمية استراتيجية حيوية أيام الحرب ، فأصبحت المدينة ، لبعدها عن ساحات النار ، بمثابة حلقة الاتصال بين جيشي الحلف ، الجيش

العامل في فرجينيا، والآخر في تنيسي والغرب. كذلك كانت أتلانتا تصل كلا الجيشين بمناطق الجنوب البعيدة، حيث يستقدم الجيشان مؤنهما. وها هي الآن، تلبية لمتطلبات الحرب، تتحول إلى مركز صناعي، وقاعدة طبية، وأحد مستودعات الجنوب الرئيسية، لجمع الطعام والمؤن للجيوش العاملة في الميدان.

تلفتت سكارلت حولها تريد معاينة المدينة الصغيرة، التي تتذكرها جيداً، ولكنها لم تجدها، فالمدينة التي تراها الآن كانت كالطفل الذي نما خلال الليلة السابقة بطولها ليصبح عملاقاً، باسطاً أطرافه، منهمكاً في عمله.

كانت أتلانتا تدوي كخلية النحل، شاعرة وفخورة بأهميتها بالنسبة إلى التحالف، وكان العمل فيها قائماً على قدم وساق، لتحويلها من منطقة زراعية إلى مركز صناعي. قبل الحرب لم يكن جنوبي ماريلاند غير عدد قليل من مصانع القطن، ومناسج الصوف ومصانع الأسلحة وورش صناعة الآلات، الأمر الذي كان جميع الجنوبيين يفتخرون به، إذ كان الجنوب ينتج السياسيين والجنود، المزارعين والأطباء، المحامين والشعراء، لا المهندسين ولا الميكانيكيين، على وجه التحقيق، فليختر الشماليون هذه المهن الوضيعة، كان لسان حالهم يقول. ولكن ها هي الآن موانئ التحالف تحاصرها زوارق الشماليين الحربية، ولم ينج من الحصار، إلاّ منفذ صغير فقط، للبضائع المتسللة من أوروبا، ولذلك كان الجنوب يحاول مستميتاً صنع مواده الحربية. كان بمقدور الشمال أن يستنجد بجميع الدنيا، طالباً المؤن والجنود، وفعلاً انضم ألوف من الإيرلنديين والألمان إلى جيش الاتحاد، تغريهم النقود السخية التي قدمها الشمال، بينما كان الجنوب يستطيع فقط أن يتثاءب معتمداً على نفسه.

في أتلانتا، كان يوجد مصانع آلات، تنتج بمشقة الأدوات الأولية، لصناعة مواد الحرب ـ تنتجها بمشقة، لأنه لم يكن في الجنوب إلاّ عدد قليل من الآلات التي يمكنهم النسج على منوالها، ولذا كان عليهم أن يعتمدوا لصنع كل عربة أو زورق حربي، على الرسوم الهندسية الآتية من أوروبا رغم الحصار، وقد غصت شوارع أتلانتا بالوجوه الغريبة، بحيث أن المواطنين الذين كانوا منذ سنة يصمّون آذانهم عند سماع مجرد لهجة غريبة، أضحوا الآن لا يعيرون أدنى التفات للغات الأجنبية التي يتكلمها الأوروبيون الذين اخترقوا الحصار لبناء الآلات، وإنتاج ذخائر التحالف. رجال مهرة، كان الحلف بدونهم، في مأزق

حرج من حيث إنتاج المسدسات والبنادق والمدافع والذخيرة .

ويكاد المرء يحس بخفقان قلب المدينة ، فيما العمل مستمر ليل نهار ، دافعاً بالمواد الحربية في شرايين السكك الحديد إلى جبهتي القتال ، بينما القطارات تهدر قادمة ، ذاهبة ، في كل ساعات اليوم ، والدخان المتصاعد من المصانع المقامة حديثاً يسقط في زخات رطبة على البيوت البيضاء . وفي الليل ، تستمر الأفران الكبيرة متوهجة بالنيران ، والمطارق قاصفة ملعلعة ، ، إلى ما بعد أن يأوي سكان المدينة إلى أسرّتهم بمدة طويلة . وحيث كانت البقاع الشاسعة عراء منذ سنة ، انتصبت اليوم مصانع لإنتاج عُدد الخيل والسروج والأحذية ، وآلات تركيب البنادق ، والمدافع ، ومصاهر ومسابك ناشطة لإنتاج القضبان الحديدية وعربات الشحن ، لتحل محل تلك التي يدمرها الشماليون ، ثم عدد متنوع من الصناعات المنتجة لمهاميز الخيل ، لقم الأعنة ، وحلقات ، أبازيم ، أزرار ، خيام ، مسدسات وسيوف . وقد ابتدأت المصاهر منذ الآن تعاني نقصاً في الحديد ، إذ لم يكن يصل منه عبر الحصار إلاّ القليل جداً أو بالأحرى لا شيء . كانت المناجم في ألاباما معطلة عن العمل تقريباً ، إذ هرع عمالها إلى الجبهة ، ولم يبق في أتلانتا اليوم أسيجة بأوقاد حديدية أو أكشاك حديدية ، أو بوابات ، أو حتى تماثيل حديدية ، في الجادات ، إذ وجدت كلها طريقها منذ زمن إلى المصاهر .

وهنا ، على جانبي شارع بيتشتري ، وجوانب الشوارع المجاورة ، قامت مراكز قيادات مختلف دوائر الجيش ، كل مركز منها يموج بالرجال في بذلاتهم العسكرية ، دائرة التموين ، مركز سلاح الإشارات ، دائرة الخدمة البريدية ، مركز النقل بالسكة الحديد ، مركز المشير الأول .

وفي ضواحي المدينة ، قامت مستودعات أسلحة الفرسان ، حيث تحوم الخيل والبغال ضمن زرائب فسيحة موقتة ، بينما أقيمت المستشفيات على جوانب الشوارع الفرعية ، وفيما كان العم بطرس يشير إلى هذه المستشفيات ، شعرت سكارلت أن أتلانتا لا بد أن تكون مدينة الجرحى ، إذ كان هنالك عدد لا يحصى من المستشفيات العامة ، ومستشفيات الأمراض المعدية ، ومستشفيات النقاهة . وفي كل يوم ، تقذف القطارات بالمزيد من الجرحى والمرضى إلى ما وراء فايف بوينتس .

كانت المدينة الصغيرة قد امحت، بينما كان يضفي النشاط الدائم والضوضاء المستمر على وجه المدينة النامية بتسارع مظهراً حياتياً قوياً، وقد أنعش منظر هذه الدوامة الهائلة سكارلت وأيقظها من سبات الفراغ الريفي الهادئ، العديم النفس تقريباً، والذي كانت مع ذلك تميل إليه، فقد كان يوجد جو مثير حول المكان الذي نشأت فيه. وأحست، كما لو أن خفقان قلب المدينة المنتظم المتسارع يتجاوب حقاً مع خفقان قلبها.

وفيما كانوا يشقون طريقهم ببطء، خلال حفر الوحل، في شارع المدينة الرئيسي، كانت تراقب بشغف كل المباني الحديثة، والوجوه الجديدة. وكان رصيفا الشارع يعجان بذوي البذلات العسكرية يحملون شارات مختلف الرتب ومختلف فروع الخدمة العسكرية، بينما كان الشارع الضيق يكاد يختنق بالعربات، عربات الركوب والخيل والإسعاف، وشاحنات الجيش المغطاة، بسائقيها السفهاء الذين كانت تتعالى شتائمهم فيما البغال تجهد للخروج من أخاديد الوحل، ثم سعاة بأرديتهم الرمادية، يندفعون عبر الشوارع، ناثرين الأوحال، من مركز قيادة إلى أخرى، حاملين الأوامر والرسائل البرقية، وكذلك المرضى في طور النقاهة يعرجون متكئين على العكاكيز، مصحوبين عادة بسيدات متضرعات، من كل جانب. بينما يسمع من ميادين التدريب دوي الأبواق والطبول، والأوامر الصارمة، حيث يدرب المتطوعون الجدد ليصبحوا جنوداً، ورأت سكارلت للمرة الأولى، وقلبها في حلقها، بذلات الشماليين عندما أشار العم بطرس بسوطه نحو فصيل من الجنود، الخائري النفوس، بمعاطفهم الزرقاء، مسوقين نحو المحطة بحراسة فيلق من جنود الحلف المشرعي الحراب، ليجري نقلهم إلى معسكر الاعتقال.

ـ «ها» تمتمت سكارلت، وقد خامرها أول شعور سار حقيقي منذ يوم حفلة الشواء، «سأحب هذا المكان فهو حي ومثير جداً».

على أن المدينة كانت أكثر حيوية مما ظنت، إذ كانت تحوي عشرات من غرف الشراب العمومية الجديدة، وبنات الهوى يتبعن الفرسان، ويملأن المدينة، وتعج بهن بيوت الدعارة، ما أسخط رجال الكنيسة، كل الفنادق والنُزُل وغرف الإيجار الخاصة كانت مزدحمة بالزوار الذين قدموا ليكونوا على مقربة من جرحاهم في مستشفيات أتلانتا الكبيرة. وفي كل أسبوع كانت تقام

حفلات ورقص وأسواق خيرية ، وتتم زيجات الحرب بعدد لا يحصى ، حيث يمنح المجندون العرسان إجازات يرتدون خلالها البذات الرمادية الزاهية ، ويتقلدون الشرائط المذهبة ، بينما تتزين العرائس بالحلى الواردة رغم الحصار ، ويعقد القران داخل رواق الكنيسة ، وقد علاه السيفان المتقاطعان ، ثم تحتسى أنخاب الشامبانيا المهربة أيضاً وسط دموع الوداع . وفي كل ليلة ، يتصادى وقع الأقدام الراقصة في الشوارع المظلمة ذات الأشجار على الجانبين ، ومن الردهات ، تعلو أنغام البيانو ، حيث تمتزج ألحان الموسيقى الصارخة بأصوات الجنود الضيوف مرنمة بشجى رضي نشيد : «الأبواق قرعت من أجل الهدنة» و«لقد وصلت رسالتك ، ولكنها وصلت متأخرة جداً» ، أهازيج مطربة ، تهيج الدموع في العيون الحالمة التي لم تكن تعرف أبداً دموع المآسي الحقيقية .

وبينما هم يتقدمون نحو نهاية الشارع خلال الوحل البليل ، راحت سكارلت تمطر العم بطرس بالأسئلة ، فيجيبها مومئاً بسوطه هنا وهناك ، فخوراً بعرض معرفته الواسعة :

ـ «تلك هي دار السلاح ، نعم ، حيث يحفظون المدافع وما شاكلها . لا ، تلك ليست مخازن ، إنها مكاتب الحصار ، يا إلـّهي ألا تعرفين يا آنسة سكارلت ما هي مكاتب الحصار؟ إنها المكاتب التي يقيم فيها الأجانب الذين يبتاعون أقطان الحلف ، ويشحنونها من شارلستون أو ولمنفتون ثم يستوردون لنا بدلاً منها ملح البارود ، لا ، أنا لست متأكداً من جنسيتهم ، ولكن الآنسة بيتي تقول إنهم إنكليز ، على أن أحداً لا يستطيع فهم كلمة مما يقولون . أجل ! إنه دخان كثيف ، وقد أتلف سخامه سجف الآنسة بيتي الحريرية ، إنه صادر من مصاهر ومسابك الحديد ، أما الضجة التي تحدثها هذه في الليل فحدّثي عنها ولا حرج . . . لا يستطيع أحد النوم بسببها . لا . . . لا يمكنني التوقف من أجل أن تتفرجي ، لقد وعدت الآنسة بيتي أن أوصلك فوراً ، يا آنسة سكارلت . . . كيما تحتفي بك . . . ها هي الآنسة ميريويذر والآنسة ألسنغ تنحنيان تحية لك» .

تذكرت سكارلت ، بغموض ، سيدتين بهذين الاسمين كانتا قد قدمتا من أتلانتا إلى تارا لحضور عرسها ، وتذكرت أنهما صديقتا الآنسة بيتي الأثيرتان ، ولذلك التفتت بسرعة إلى حيث أشار العم بطرس وانحنت تحييهما . كانت الآنستان تجلسان في عربة أمام مخزن للقماش ، بينما وقف صاحب المخزن

وكاتبان على الرصيف ، مكدسين على أذرعهم رزماً من القماش القطني للعرض .

هاتان السيدتان ، بالإضافة إلى ثالثتهما السيدة ويتنغ ، كن ركائز أتلانتا ، يدرن الكنائس الثلاث التي يتبعنها ، والكهنوت وجوقات المرتلين ، ورجال الأبرشيات ، وكن أيضاً ينظمن الأسواق الخيرية ، ويشرفن على حلقات الخياطة ، ويترأسن حفلات الرقص والنزهات ، يعرفن أي نجح في زواجه وأي فشل ، من يشرب الخمر سراً ، ومن ستحبل ومتى . وكن مراجع مستندة فيما يتعلق بنسب كل شخص في جورجيا وكارولينا الجنوبية وفرجينيا ، دون أن يزعجن أنفسهن بأنباء الولايات الأخرى ، إذ كن يعتقدن أن لا اعتبار لأي إنسان قادم من غير هذه الولايات الثلاث ، يعرفن ماهية السلوك المحتشم ، والسلوك المبتذل ، ولم يفشلن يوماً في نشر آرائهن ـ السيدة ميريويذر بأعلى صوتها ، والسيدة ألسنغ بصوت ظريف متباطىء ، يخفت شيئاً فشيئاً ، والسيدة ويتنغ بهمس مغموم ، يظهر شدة كراهيتها للتكلم في مثل هذه الأمور .

هؤلاء السيدات الثلاث كن متباغضات قلبياً ، كتباغض أعضاء الحكومة الثلاثية الأولى في روما ، ومن المحتمل أن يكون هذا هو السبب في تحالفهن الوثيق .

ـ «أخبرت بيتي أني مضطرة لضمك إلى مستشفاي» قالت السيدة ميريويذر صارخة مبتسمة «فلا تعدي السيدة ميد أو السيدة ويتنغ» .

ـ «لن أعدهما» ، أجابت سكارلت ، دون أن يكون لديها أدنى فكرة عما تتحدث عنه السيدة ميريويذر ، ولكنها أحست بومضة دفء لهذا الترحيب بها ، وهذه الحاجة إليها ، «وأرجو أن أراك سريعاً مرة ثانية» .

وشقت العربة طريقها قدماً ، ثم وقفت هنيهة لتفسح في المجال لسيدتين تحملان رزماً من الضمادات على سواعدهما ، كي تجدا طريقهما عبر الشارع الموحل ، بينما أخذت عينا سكارلت بمنظر امرأة على الرصيف ، في ثوب زاهي الألوان ـ زاه جداً . . . بحيث لا يجوز ارتداؤه للشارع ، وقد اتشحت بشال ذي شراريب تصل حتى قدميها . وعندما التفتت سكارلت إليها ، رأت فيها امرأة طويلة القامة ، جميلة الطلعة ، ذات وجه ينم عن جرأة ، وجمة من الشعر الأحمر القاني بحيث لا يمكن أن يكون طبيعياً ، كانت هذه هي المرة الأولى التي

تشاهد فيها امرأة وتتأكد من أنها قد أتت شيئاً بشعرها ، فأخذت تتأملها مخلوبة اللب .

ـ «عم بطرس ، من هي تلك المرأة؟» قالت هامسة .

ـ «لا أعرف» .

ـ «أنت تعرف ، إني واثقة . من هي؟» .

ـ «اسمها بيل وتلنغ» أجاب العم بطرس ، وقد بدأت شفته السفلى تبرز غضباً .

وفي الحال ، فطنت سكارلت إلى أنه لم يسبق الاسم بلقب «آنسة» أو «سيدة» .

ـ «من هي؟» .

ـ «يا آنسة سكارلت» ، قال بطرس متجهّماً ، هاوياً بالسوط على الحصان المجفل ، «لن ترتاح الآنسة بيتي لأسئلتك عما لا يعنيك . إنهن حفنة من نسوة غير محترمات ، موجودات الآن في هذه المدينة ، بحيث لا يفيد الحديث عنهن» .

ـ «يا لله العظيم» ، فكرت سكارلت صامتة ، بتبكيت الضمير «لا بد أن تكون امرأة ساقطة» .

ولم تكن قد رأت امرأة ساقطة من قبل ، فعطفت رأسها ، ونظرت خلف المرأة ، إلى أن غابت بين الجمهور .

كانت المخازن ، وبنايات الحرب الجديدة ، متفرقة في هذه الناحية ، يفصل بينها مساحات شاغرة ، وأخيراً أضحت منطقة الأعمال خلفهم ، وظهرت للعيان ناحية السكن ، وميزت سكارلت بيوت الأصدقاء القدامى : بيت آل ليدون ، بيت آل بونل ، ثم المنزل الجورجياني الهادئ ، المبني بالآجر الأحمر الخاص بعائلة ماك لور .

واضطرت العربة إلى أن تخفف من سرعتها ، إذ راحت السيدات يحيينها من الشرفات والحدائق ، ومن رصيفي الشارع ، كانت تعرف بعضهن معرفة سطحية ، والبعض تذكرته دون استجلاء ، ومعظمهن لا تعرفه البتة . من المؤكد أن بيتي بات أذاعت نبأ قدومها ، فكان لا بد من أن يحمل ويد الصغير ، من وقت إلى آخر ، كيما تستطيع السيدات اللواتي خاطرن عبر الوحل ، بقدر ما تسمح لهن عرباتهن الخشبية ، أن يرينه ويطلقن عبارات الاستحسان ، وكانت كل منهن تدعوها صائحة بوجوب الانضمام إلى حلقتها في الخياطة ، أو شغل

الإبرة ، أو للجنة المستشفى ، فقط إلى حلقتها هي دون سواها ، ولذا مضت تنثر الوعود يمنة ويسرة دون مبالاة .

وفيما هم يمرون بحذاء بيت خشبي أخضر ، معد للنزهة ، صاحت فتاة سوداء صغيرة ، تقف على درجاته الأمامية : «ها هي وصلت» وعلى التو برز الطبيب ميد وزوجته ، وفيل الصغير البالغ الثالثة عشرة من العمر ، فحيوها ، وتذكرت سكارلت أنهم كذلك حضروا عرسها . ثم صعدت السيدة ميد على عتبة عربتها ، ومدت عنقها لترى الطفل ، بينما شق الطبيب طريقه إلى جانب العربة ، غير مبال بالوحل .

كانت أتلانتا تعتبره مصدر القوة والحكمة ، وليس غريباً أن يكون قد حوى شيئاً مما يعتقدون ، ولكن رغم عادته في الإدلاء بحقائق هي أقرب إلى الوحي ، ورغم أسلوبه المتفاخر نوعاً ما ، كان رجلاً رحيماً كأرحم إنسان في المدينة .

وبعد أن قرص ويد في معدته ، وأطراه ، أعلن أن العم بيتي قد أقسمت واعدة أن لا تلتحق سكارلت بأي لجنة تمريض ولف ضمادات ، سوى لجنة السيدة ميد .

ـ «ولكني ، يا عزيزي ، وعدت ألف سيدة حتى الآن» قالت سكارلت .

ـ «أراهن أنها السيدة ميريويذر» صاحت السيدة ميد بسخط «بئست من سيدة ، إني أعتقد أنها تستقبل كل قطار» .

ـ «وعدت لأني لم أكن أعرف شيئاً عن الموضوع» اعترفت سكارلت ، «وعلى كل حال ، ما هي لجان التمريض؟» .

فبدا الطبيب وزوجته ذاهلين قليلاً ، لجهلها هذا الأمر الحيوي .

ـ «حقاً ، لقد كنت بالطبع مطمورة في الريف ، وليس بوسعك معرفة شيء» قالت السيدة ميد تسوّغ جهلها ، «عندنا لجان تمريض لمختلف المستشفيات ، ولمختلف أيام الأسبوع ، نمرض الرجال ، ونساعد الأطباء ، ونخيط الضمادات والملابس ، ونكرم الجرحى في بيوتنا عندما يصبحون في حالة جيدة تمكنهم من مغادرة المستشفى ، إلى أن يضحوا قادرين على العودة إلى القتال ، ثم نعتني بزوجات وعائلات بعض الجرحى المعوزين ـ بل أكثر من معوزين . والطبيب ميد يعمل في مستشفى المنظمة ، حيث تعمل لجنتي ، وكل شخص يقول إنه مدهش و . . . .» .

ـ «كفى ، كفى يا سيدة ميد» قال الطبيب متودداً ، «لا تتفاخري بي أمام الناس ، فإن ما أستطيع عمله قليل جداً إذ منعتني من الالتحاق بالجيش» .

ـ «منعتك !» صاحت ساخطة ، «أنا؟ المدينة منعتك ، وأنت تعرف ذلك . اسمعي يا سكارلت ، عندما سمع الناس أنه عازم على الذهاب إلى فرجينيا كضابط جراح ، وقعت جميع السيدات عريضة تلتمس منه البقاء هنا . بالطبع لا يستطيع الناس العمل بدونك . . .» .

ـ «كفى ، كفى يا سيدة ميد» ، قال الطبيب منتعشاً ، محمّر الوجه بفعل الثناء ، «من المحتمل أن يكون وجود ابن لي في الجبهة كافياً في الوقت الحاضر» .

ـ «وأنا ذاهب في السنة القادمة كقارع طبل» ، صاح فيل الصغير ، قافزاً بسرور ، «إني أتعلم كيفية القرع الآن ، هل تريدون سماعي؟ سأركض لإحضار طبلي» .

ـ «لا ، ليس الآن» ، قالت السيدة ميد ، جاذبة ابنها نحوها وقد بدا على وجهها انفعال وضيق مفاجئ ، «ليس السنة القادمة يا حبيبي ، ربما السنة التي تليها» .

ـ «ولكن الحرب ستكون قد انتهت عندئذ !» صاح برماً ، مبتعداً عنها ، «وأنت وعدتني !» .

والتفتت عيون والديه فوق رأسه ، وطالعت سكارلت نظراتهما ، لقد كان ابنهما دارسي ميد في فرجينيا ، وتعلق الوالدان بابنهما الصغير الذي بقي معهما بحنان متزايد .

وتنحنح العم بطرس ثم قال : «كانت الآنسة بيتي قلقة عندما غادرتها ، وإن لم أعد سريعاً ، سيغمى عليها» .

ـ «وداعاً ، سأزوركم هذا المساء» ، قالت السيدة ميد ، «وأنت ، أخبري بيتي بالنيابة عني إذا لم تكوني في لجنتي لن تكون هي مسرورة» .

وتحركت العربة منزلقة فوق الطريق الموحلة ، بينما اتكأت سكارلت بظهرها على المسند مبتسمة . إنها الآن في حالة أفضل مما كانت عليه خلال الشهور الماضية ، فأتلانتا ، بسكانها المكتظين ، بحركتها الناشطة ، وبما تثيره في النفس من مؤثرات خفية حافزة ، سارة جداً ، بهيجة جداً ، أمتع بكثير من المزرعة

المنعزلة خارج شارلستون ، حيث خوار التماسيح يشق سكون الليل ، أفضل من سافانا بشوارعها العريضة المغروسة بأشجار النخيل على الجانبين ، ونهرها الموحل المجاور . أجل ، وأفضل حتى من تارا مؤقتاً ، رغم ما تشعر به نحو تارا من حب وإيثار .

إن هناك شيئاً ما مثيراً يتعلق بهذه المدينة ، بشوارعها الضيقة الموحلة ، الممتدة بين التلال المنحدرة الحمراء ، شيئاً فجاً نيئاً ، يتجاوب والفجاجة والنيوءة الكامنة تحت المظهر المموه الذي أضفته عليها إيلين ومامي . لقد أحست فجأة أن هذا هو المكان الذي يصلح موطناً لها ، وليس المدن القريبة الهادئة الوقورة ، المنبسطة بجانب المياه الصفراء .

راحت البيوت الآن تتباعد عن بعضها بمسافات أكبر ، ورأت سكارلت ، وهي تمد عنقها خارجاً ، سقف بيت الآنسة بيتي ، المبني من القرميد الأحمر والأردواز . كان تقريباً آخر بيت في ناحية المدينة الشمالية ، وفيما وراءه تستمر طريق بيتشتري ضيقة متعرجة ، في ظلال أشجار ضخمة ، لتغيب وسط الغابات الكثيفة الساكنة .

كان السياج الأنيق المصنوع من الأوتاد الخشبية قد طلي حديثاً باللون الأبيض ، وازدهت الساحة الأمامية التي يكتنفها بآخر أزهار النسرين لهذا الفصل ، وعلى الدرجات الأمامية ، وقفت سيدتان في ثياب سوداء ، وخلفهما امرأة سمينة سمراء ، يداها تحت ميدعها ، ينفرج فمها عن أسنانها البيض بابتسامة عريضة ، بينما الآنسة بيتي ، الممتلئة الجسم ، تتأرجح مسرورة على قدميها الصغيرتين ، ويدها تضغط فوق صدرها العامر تهدئ خفقان قلبها . ورأت سكارلت ميلاني واقفة بجانبها ، وبموجة من الكراهية ، تحققت أن الذبابة في طلاء أتلانتا ستكون هذه الفتاة الصغيرة النحيلة ، في ثوب حدادها الأسود ، وقد غمر وجهها ، الشبيه بالقلب ، ابتسامة عذبة ، تنم عن الترحيب بالقادمة .

*

وصلت سكارلت إلى أتلانتا ، دون سابق تفكير بالمدة التي ستقضيها ، وإذا أثبتت زيارتها هذه أنها مملة ، كزيارتها لشارلستون وسافانا ، فستعود إلى تارا بعد شهر ، أما إذا كانت ممتعة فستمكث مدة غير محدودة . على أنها لم تكد تصل حتى بدأت العمة بيتي وميلاني حملة لإقناعها باتخاذ أتلانتا مقراً دائماً لها ،

فتكون برفقتهما ، وتذرعتا بكل حجة مفحمة ، قائلتين إنهما تريدانها قريبة منهما في سبيل سعادتها ، لأنهما تحبانها ، وأنهما وحيدتان ، تخافان غالباً في الليل ، داخل البيت الكبير ، ولكونها جميلة فتانة جداً ، ستبهجهما في أحزانهما . ولـمّا كان تشارلز قد توفي الآن ، فإن مكانها ومكان ابنها ينبغي أن يكونا مع أقربائه ، فضلاً عن أن نصف البيت أصبح ملكها الآن ، عملاً بوصية زوجها ، وأخيراً إن الحلف يحتاج إلى كل زوج من الأيدي ليسهم في الخياطة والحياكة ، ولف الضمادات وتمريض الجرحى .

وقد تكلم معها في هذا الموضوع أيضاً عم تشارلز ، هنري هاملتون الذي يعيش عازباً ، في فندق أتلانتا ، قرب المحطة . كان العم هنري رجلاً قصير القامة ، بطيناً ، نزقاً ، ذا وجه مورد ، وشعر طويل فضي ، تعوزه فضيلة الصبر تماماً ، وكان أيضاً جباناً ثرثاراً كالسيدات ، وبسبب هذه الخلة الأخيرة ، كانت علاقته بشقيقته الآنسة بيتي تكاد تنحصر في حدود الكلام وحسب ، فمنذ الطفولة وهما متضادان تماماً بمزاجيهما ، وقد تفاقم النفور بينهما جراء معارضته لأسلوب تنشئتها تشارلز ، إذ كانت «تصنع إنساناً مخنثاً تعساً من ابن جندي» . وهكذا أهانها منذ سنين مرة ، بحيث إنها الآن لا تتحدث عنه مطلقاً إلا في همس حذر ، وبتكتم هائل ، حتى يظن الغريب أن ذلك المحامي العجوز المحترم مجرم على الأقل .

أحب العم هنري سكارلت منذ الدقيقة الأولى ، لأنه كما قال ، يستطيع أن يرى فيها ، رغم كل تصنعها التافه ، قليلاً من بذور الوعي ، ولم يكن هنري وكيل أملاك بيتي وميلاني فقط ، بل أيضاً أملاك سكارلت ، التي ورثتها عن تشارلز ، وعندما علمت سكارلت أنها أضحت الآن امرأة غنية ، تلقت النبأ كمفاجأة سارة إذ إن تشارلز لم يترك لها نصف منزل بيتي وحسب ، بل أيضاً أراضي زراعية وعقارات في المدينة ، فالمخازن ومستودعات البضائع على جانب طريق سكة الحديد ، قرب المحطة ، والتي هي جزء من الميراث ، تضاعفت قيمتها ثلاث مرات منذ ابتداء الحرب ، ولذلك ، فيما كان العم هنري يقدم لها تقريراً عن ممتلكاتها ، فاتحها بموضوع اتخاذ أتلانتا مقرها الدائم : «عندما سيكبر ويد هاملتون ، سيكون رجلاً غنياً» ، قال : «ونظراً للطريقة التي تزدهر بها أتلانتا ، ستتضاعف قيمة أملاكه عشر مرات ، خلال العشرين سنة القادمة . ومن

الصواب المطلق أن ينشأ الصبي حيث تكون أملاكه ، كي يتدرب على الاهتمام بها . . . ـ نعم وبيتي وميلاني أيضاً ، إذ سيكون الرجل الوحيد الذي سيبقى من عائلة هاملتون في القريب العاجل ، لأنني لن أعيش إلى الأبد» .

أما العم بطرس فقد اعتبر من الأمور المسلم بها أن سكارلت جاءت لتبقى ، إذ كان مما لا يقبله عقله أن يربى ابن تشارلز الوحيد ، حيث لا يمكنه هو الإشراف على تربيته ، وأمام كل هذه الحجج ، كانت سكارلت تبتسم دون أن تعد بشيء ، إذ لم تكن ترغب في أن تدين نفسها قبل أن تخبر مدى استحسانها لأتلانتا ، وللسكن الدائم مع أقرباء زوجها . كانت تعرف كذلك وجوب نيل موافقة أبويها ، وزيادة على ذلك إنها ، وقد بعدت الآن عن تارا ، أخذت تشعر بالحنان نحوها ، وتفتقدها كثيراً ، تفتقد الحقول الحمراء ، والقطن الأخضر النامي ، وسكون الفجر المطمئن البديع . وللمرة الأولى ، أدركت بغموض ، قصد جيرالد عندما أنبأها أن حب الأرض متأصل في دمها .

وهكذا تجنبت بلباقة إعطاء جواب آني محدد فيما يتعلق بمدة زيارتها ، ودخلت بيسر في حياة بيت القرميد الأحمر ، في نهاية شارع بيتشتري الهادئة .

استطاعت سكارلت الآن ، وهي تعيش مع شخصين تربطهما بتشارلز قرابة الدم ، وتتأمل البيت الذي خرج منه ، أن تفهم الشاب الذي نقلها إلى الحياة الزوجية ، ثم الترمل ، ثم الأمومة بهذا التعاقب السريع ، أن تفهمه بصورة أفضل قليلاً . كان من السهل الآن أن تتبين سبب حيائه الجم ، سبب سذاجته المطلقة ، ومثاليته العالية ، فإذا كان تشارلز قد ورث صفات والده ، فإن ذلك الشيء قد اندرس في عهد الطفولة ، بفعل الجو الأنثوي الذي عاش فيه ، لقد كان موكولاً به إلى بيتي الشبيهة بالأطفال ، ملازماً لميلاني أكثر ممّا يكون الشقيقان عادة ، هاتان المرأتان اللتان لا يمكن وجود أرق منهما وأكثر تعبُّداً .

عُمِّدت العمة بيتي بات باسم «سارة جين هاملتون» قبل ستين سنة ، ولكن منذ ذلك اليوم البعيد ، عندما ثبت والدها الخَرِف لقب بيتي بات عليها ، بسبب قدميها الصغيرتين الخفيفتين النشيطتين المقرقَعتين ، لا يدعوها أحد بغير هذا اللقب . وخلال السنين التي تلت هذه التسمية الثانية ، طرأت تغيرات كثيرة عليها ، جعلت اسم التدليل هذا مغايراً للواقع ، إذ كل ما بقي من الطفلة السريعة الفرار ، مجرد قدمين صغيرتين ، غير متكافئتين مع وزنها ، ثم ميل إلى

الثرثرة بسرور ، وبدون هدف . كانت امرأة بدينة موردة الخدين ، فضية الشعر ، تلهث دائماً جراء مشدها الضاغط كثيراً ، عاجزة عن السير طويلاً بقدميها الصغيرتين اللتين تحشرهما ضمن خفين صغيرين للغاية ، ذات قلب ينهلع فرقاً لأدنى مفاجأة ، فتسري عنه دون خجل بأن تستسلم للإغماء بفعل أدنى استفزاز ، على أن الجميع يعرفون أن إغماءها مجرد تكلف لطبيعة السيدات ، ولكنهم كانوا يحبونها كثيراً ، يكيدون لها كطفلة ، ويأبون معاملتها جدياً ما عدا شقيقها هنري .

كانت تحب الثرثرة أكثر من أي شيء في الدنيا ، حتى أكثر من حبها للذائذ المائدة ، ولم يخبرها أحد يوماً بأي حادث مذهل أو فاضح حقاً ، لأن عزويتها تجدر المحافظة عليها ، حتى ولو بلغت من العمر الستين عاماً . لقد كان أصدقاؤها متحدين في مكيدة رحيمة للحفاظ عليها كطفلة كبيرة مدللة قاصرة .

وكانت ميلاني كعمتها في نواح كثيرة ، في حيائها ، في خجلها المفاجئ ، في تواضعها ، ولكنها كانت تتمتع بإدراك سليم ومعرفة مستفيضة ، ـ «إلى حد ما ، إني أقر بذلك» فكرت سكارلت رغماً عنها ، وكان وجه ميلاني ، كعمتها ، وجه طفلة قاصرة لم تكن قد عرفت غير السذاجة واللطف ، والصدق المحبب ، طفلة لم تتمرس مطلقاً بالخشونة ، أو تتعرف على الشر ، ولن تستطيع تمييز هذه الأمور إذا ما اعترضتها لأنها كانت دائماً سعيدة ، وتريد لكل من حولها أن يكونوا سعداء ، أو على الأقل ، خليي البال . وكنتيجة لهذا ، كانت ترى دائماً أحسن ما في الإنسان ، وتشير إليه بلطف ، فلم يكن يوجد أي خادم غبي تماماً تعجز عن إيجاد خلة إخلاص أو طيبة قلب في شخصه ، أي فتاة قبيحة مقيتة جداً تقصر عن اكتشاف جمال في الشكل أو نبل في الأخلاق بها ، وأي رجل تافه أو مضايق جداً تفشل في رؤيته على ضوء خصاله لا أفعاله .

وبسبب هذه الشمائل المزدانة بالإخلاص ، والمنبعثة عفوياً من قلب كريم ، كان الجميع يلتفون حولها ، إذ من كان بوسعه مقاومة فتنة إنسان يكتشف الخلال الخيرة المدهشة في الآخرين ، الخلال التي لا يحلمون هم أنفسهم بوجودها . ولذلك كانت تحظى بأكثر الصديقات في المدينة ، وبأكثر الأصدقاء أيضاً ، مع أنها لم تكن تنعم إلا بقليل من المحبين ، لفقدانها عنصري الأنانية

والعزيمة ، اللذين يصلحان كثيراً لصيد قلوب الرجال .

كانت سكارلت تمارس أساليب ميلاني المغرية ذاتها ، ولكن بفن مدروس ، ومهارة فائقة ، وكان الفرق بين الاثنتين هو أن ميلاني تتحدث بكلمات لطيفة متملقة ، تحدوها الرغبة في إسعاد الناس جميعاً ، حتى ولو كان ذلك مؤقتاً ، بينما لا تقدم سكارلت على ذلك إلا مسايرة لغاياتها الخاصة .

بين أفراد بيت كهذا ، وجدت سكارلت نفسها ، فارتفعت معنوياتها إلى المستوى الطبيعي حتى قبل أن تتحقق من ذلك . كانت في السابعة عشرة من عمرها فقط ، بصحة ونشاط باهرين ، وقد بذل آل تشارلز جهدهم المستطاع لإسعادها ، فإذا لم يبلغوا الغاية تماماً ، لم يكن ذلك ذنبهم ، إذ لم يستطع أحد أن ينتزع من قلبها الحسرة التي تخالجه كلما ذكر اسم آشلي ، وما أكثر ما كانت ميلاني تذكر هذا الاسم ! على أن هذه وبيتي لم يتعبا في ابتداع الوسائل لتخفيف الألم الذي تعاني وطأته ، فوضعتا أحزانهما جانباً لتواسياها ، وحرصتا على أن تأكل ، وعلى أن تنام ساعات القيلولة ، وأن تتنزه بالعربة . ولم تفصحا عن إعجابهما الزائد بها ، بروحها العالية ، بقوامها ، بيديها وقدميها الصغيرتين ، ببشرتها البيضاء فحسب ، بل أيضاً كانتا ترددان ذلك مراراً وهما تدللانها ، وتضمانها لصدريهما ، وتقبلانها لتؤكدا لها صدق عباراتهما الودية .

ولم تحفل سكارلت بالدلال ، ولكنها انتعشت بعبارات الإعجاب ، فلم يطرها أحد يوماً في تارا بمثل هذه الألفاظ الكثيرة الخلابة . والحقيقة أن مامي كانت تقضي وقتها في إخضاع غرورها .

ثم إن ويد لم يعد عبئاً مزعجاً قط ، إذ إن جميع أفراد العائلة ، سوداً وبيضاً ، والجيران ، كلفوا به ، فكانت المنافسة مستمرة حول أي حضن سيضمه . وقد شغفت به ميلاني على الأخص ، فكانت حتى في أشد نوبات عويله تجد فيه محبوبها ، وتصرح بذلك مضيفة : «ها يا عزيزي الغالي ، إني أتمنى فقط أن لو تكون ابني» .

في بعض الأحيان ، كانت سكارلت تستصعب التنكر لأحاسيسها ، فهي ما زالت تعتبر العمة بيتي بات أتفه العجائز ، وكان غموضها وهذيانها يضايقانها إلى درجة لا تطاق ، وكانت تبغض ميلاني بغضاً حاقداً ينمو مع الأيام ، بحيث كانت أحياناً تترك الغرفة فجأة ، عندما تشرع ميلاني في التحدث عن آشلي

وفي قراءة رسائله بصوت مرتفع ، وبكبرياء محببة ، ولكن على العموم ، سارت الحياة هانئة بالقدر الممكن ، في مثل تلك الظروف . كانت أتلانتا أكثر بهجة لها من سافانا وشارلستون وتارا ، كما أنها شغلتها بأعمال غريبة عديدة ، من ملازمات الحرب ، بحيث لم تدع لها وقتاً للتفكير والاكتئاب . على أنها في بعض الأوقات ، عندما كانت تطفئ القنديل وتدفن رأسها في الوسادة ، كانت تفكر متنهدة : «لو أن آشلي لم يتزوج قط ! لو لم يكن علي أن أمرض في ذلك المستشفى الموبوء ! آه ، لو كان بوسعي فقط أن أنعم بحبيب !» .

وسرعان ما كرهت التمريض ، ولكن لم يكن بمقدورها أن تتهرب من هذا الواجب ، إذ كانت عضواً في كلا لجنتي السيدة ميد والسيدة ميريويذر ، الأمر الذي يعني قضاء أربعة أيام أسبوعياً داخل المستشفى الكريه الرائحة ، المرمض بشدة حرارته ، وشعرها معقوص ضمن منشفة ، وعليها مئزر يزيد حرارتها ويدثرها من العنق حتى القدمين .

والواقع أن كل سيدة متزوجة في أتلانتا ، شابة كانت أو مسنة ، كانت تعمل في التمريض ، بحماسة تراءت لسكارلت قريبة من العصبية الدينية ، وكن يعتبرن أن من المسلم به كونها مفعمة مثلهن بالحمية الوطنية ، ولذا سيشدهن لو عرفن كم هو ضئيل جداً اهتمامها بأمر الحرب . فعدا عن عذابها الملازم ، الناجم عن احتمال قتل آشلي ، لم تكن الحرب لتهمها البتة . وبصراحة ، كانت تقوم بالتمريض لأنها لا تدري وسيلة للخلاص منه .

وكان التمريض ليكون أمراً محمولاً ، لو سمح لها باستعمال مفاتنها مع المرضى في دور النقاهة ، لأن كثيراً منهم كان جذاباً ، كريم المحتد . ولكن هذا لن تستطيع إتيانه وهي في حالة الترمل ، وصبايا المدينة اللواتي لم يسمح لهن بالتمريض خشية رؤيتهن مناظر لا تليق بعيون العذارى ، عهد إليهن رعاية الجنود الناقهين ، فكن يقمن بغزوات واسعة بين هؤلاء الجنود دون أن يعرقل نشاطهن زواج أو ترمل ، حتى إن أقل الفتيات حسناً وجاذبية لم تجد صعوبة في إتمام خطوبتها ، كما لاحظت سكارلت والآهة تفعم صدرها .

وإذا استثنينا المرضى الميئوس من حالتهم ، والجرحى جراحاً بليغة ، وجدنا سكارلت غارقة في دنيا النساء تماماً ، الأمر الذي كان يؤرقها ، إذ لم تكن تميل إلى أفراد جنسها أو تثق بهن ، وأسوأ من ذلك أنها كانت دائماً تتضايق منهن ،

ولكنها بعد ظهر كل من ثلاثة أيام في الأسبوع ، كان عليها حضور حلقات الخياطة ، واجتماع لجان الضمادات ، من صديقات ميلاني ، فكانت الفتيات اللواتي يعرفن تشارلز لطيفات معها ، مراعيات كثيراً لها في أثناء هذه الاجتماعات ، ولا سيما فاني ألسنغ ومايبيل ميريويذر ابنتا أرملتي المدينة الجليلتين ، غير أنهن كن يعاملنها بإكرام واحترام كما لو كانت امرأة مسنة انتهى دورها . ولقد أثارت ثرثرتهن الدائمة عن الرقص والعشاق حفيظتها ، فحسدتهن على هذه المتع ، واكتظها الغيظ لأن ترملها كان يحول بينها وبين هذه النشاطات ، كيف لا ، وهي أكثر رواء من فاني مايبيل بثلاث مرات ، آه ، ما أظلم هذه الدنيا !

ولكن رغم جميع هذه المنغّصات فقد أعجبتها أتلانتا كثيراً ، ولذلك طالت مدة زيارتها لها على مر الأسابيع .



سكارلت وزوجها الأول

9

في صباح يوم من منتصف الصيف ، جلست سكارلت إلى نافذة غرفة نومها ، تراقب ، وهي كسيرة الخاطر ، الشاحنات والعربات ، تعج بالفتيات والجنود والرقباء ، يركبون جذلين ، مجتازين شارع بيتشتري بحثاً عن بقعة أرض تزدان بأشجارها ، لتقام عليها السوق الخيرية التي سيرصد ريعها للمستشفيات . وقد تقدمت الجميع شاحنة تحمل أربعة زنوج أشداء ، بفؤوس لقطع النباتات الدائمة الخضرة وتشذيب عروق الدوالي ، وكدس في مؤخرتها زنابيل مغطاة بفوط ، وسلال من أغصان السنديان تحوي طعام الغداء ، واثنتا عشرة بطيخة ، كما جهز اثنان من ظرفاء السود ببانجو وهارمنيكا ، فراحا يرددان ترجمة مشوهة للنشيد «إن كنت تبغي وقتاً طيباً فالتحق بالفرسان» .

وخلف الشاحنة ، انطلق الموكب الجذلان : الصبايا بأثواب زاهية خفيفة من القماش القطني المزهر ، وبشالات رقيقة ، وقبعات وقفافيز لوقاية بشراتهن ، ومظلات صغيرة ، رفعنها فوق رؤوسهن . والسيدات الأكبر سناً ، مستكنات باسمات وسط الأصوات الضاحكة ، والتحيات والفكاهات المتبادلة بين العربات ، والمرضى الناقهون قد زج كل منهم بين رقيب بدين وفتاة نحيلة ، تصخب هي وزميلاتها ويهرجن ويمجن مع الجنود ، والضباط على ظهور الخيل ، والزنوج يغنون . هكذا كل الناس . . اجتازوا طريق بيتشتري ليجمعوا الأزهار والنبات الأخضر وليسعدوا بالنزهة ، وليلتهموا البطيخ ، «كل الناس» ، فكرت سكارلت ، مغمومة ساخطة . . . «إلاّ أنا» .

وحيّاها الجميع ملوحين لها بأيديهم ، وهم يمرون بمحاذاة النافذة ، وحاولت هي أن ترد التحية عن طيب خاطر ، ولكن ذلك كان عسيراً . لقد طفق يبرح قلبها ألم حاد ، راح يزحف بطيئاً نحو حنجرتها ، حيث لا يفتأ أن يضحي غصة سرعان ما تتفجر دموعاً ، كل إنسان مضى إلى النزهة إلاّ هي ، وكل إنسان سيذهب إلى السوق الخيرية وإلى الرقص هذه الليلة ، إلا هي ، أي جميع الناس ، عدا شخصها وبيتي بات وميلي البائسات في المدينة ، اللواتي يرفلن بأثواب الحداد .

بيد أن ميلي وبيتي بات لم تكترثا لذلك ، كما يبدو ، حتى إن الرغبة في

الذهاب لم تدر بخلديهما ، وإنما خطرت لسكارلت فقط ، وإنها لتريد الذهاب ، وبلهفة جموح .

في هذا الصباح ، وبعد أن كدحت كعاملة حقل ، عليها أن تنزوي محتشمة ، بينما ينطلق المرح من عقاله . آه ، ليس من العدل أن يكون لها زوج ميت ، وطفل يبكي في الغرفة المجاورة ، وأن تحرم من كل المتع السارة . فقبيل سنة ونيف كانت ترقص وترتدي الأثواب الزاهية ، بدلاً من رداء الحداد الأسود هذا ، وكانت عملياً مخطوبة إلى ثلاثة شبان . إنها الآن في السابعة عشرة وحسب ، وما زالت تكمن في قدميها طاقة هائلة للرقص . آه ليس ذلك عدلاً ، إن الحياة تمر أمامها ، على طريق صيفي حار مظلل ، الحياة ببزاتها الرمادية ومهاميزها المجلجلة ، وفساتينها الأركندية المزهرة ، وبالبانجوات تعزف ، وجربت ألاّ تبتسم ولا تلوح بحرارة دفاقة للرجال الذين تعرفهم أكثر من الآخرين ، الرجال الذين مرضتهم في المستشفى ، ولكن كان من العسير إخضاع غمازتيها ، من الصعب أن تبدو كأن قلبها تحت التراب - في الوقت الذي لم يكن هو كذلك . وفجأة تلاشت انحناءاتها وتلويحاتها ، عندما دخلت بيتي بات الغرفة ، تلهث كعادتها ، جراء صعود الدرج ، وجذبت سكارلت بعيداً عن النافذة ، دون كلفة .

- «هل فقدت عقلك يا حلوتي؟ أتلوحين للرجال من نافذة غرفة نومك؟ لقد ذهلت يا سكارلت ! ماذا ستقول أمك؟» .

- «حسناً ، ولكنهم لا يعرفون أنها غرفة نومي» .

- «ولكنهم سيظنون أنها غرفة نومك ، ولهذا النتيجة المؤسفة ذاتها . يا حلوتي . . ينبغي ألاّ تأتي بأعمال كهذه ، كل إنسان سوف يتحدث عنك ، ويقول إنك داعرة - وعلى كل حال ، السيدة ميريويذر تعرف أنها غرفة نومك» .

- «وأظن أنها ستخبر كل الشباب . . . تلك العجوز الثرثارة» .

- «سكارلت ، اصمتي ! إن دولي ميريويذر أحب صديقاتي» .

- «ومع ذلك فهي ثرثارة لا فرق - ها ، إني آسفة ، عمتي ! لا تبكي ! نسيت أنها نافذة مخدعي ، لن أفعلها ثانية ، كنت أود مشاهدتهم فقط وهم ذاهبون ، ليتني أذهب معهم» .

- «حلوتي !» . . .
- «نعم ليتني ، فقد سئمت كثيراً من المكوث في البيت» .
- «سكارلت ، عديني أن لا تتفوهي بأمور كهذه ، فالناس سيتكلمون عليك ، سيقولون إنك لا تكنين الاحترام الواجب لذكرى تشارلز التعس» .
- «آه يا عمتي ، لا تبكي يا عمتي !» .
- «آه ، ها أنا قد سببت بكاءك أيضاً» شهقت بيتي بات بصورة مضحكة ، متحسسة المنديل في جيب تنورتها .

كان الألم الخفيف الموجع قد بلغ أخيراً حنجرة سكارلت فانفجرت بالعويل ، ليس من أجل المسكين تشارلز كما اعتقدت بيتي بات ، ولكن لأن أصوات العربات والضحكات كانت تغيب بعيداً عنها . . .

وهرعت ميلاني من غرفتها ، وقد قطبت ما بين عينيها بعبوس الهم ، وحملت فرشاة بين يديها ، وتهدل على وجهها شعرها الأسود المرتب عادة ، حيث تجمعه بجمة متماوجة من الجعدات الصغيرة بعد أن تخلص من شبكته .

- «عزيزتي ، ما القضية؟» .
- «شارلي !» شهقت بيتي بات ، وقد استسلمت كلية لمتعة نحيبها ، ملقية رأسها على كتف ميلي .
- «آه» قالت ميلي ، مرتجفة الشفتين عند ذكر اسم شقيقها .
- «تشجعي يا عزيزتي ، لا تبكي . آه ، سكارلت !» .

كانت سكارلت قد ارتمت فوق السرير ، وراحت تبكي بأعلى صوتها ، تبكي شبابها الضائع ومتع الشباب التي حرمت منها . تبكي ساخطة قانطة ، سخط الطفلة التي كانت يوماً تحصل على ما تريد من طريق البكاء ، ولكنها الآن ، تعرف أن البكاء لن يقوى على إنقاذها أبداً . ودفنت رأسها في الوسادة ، وهي تندب وترفس الغطاء المثني بقدميها .

- «إني أفضل الموت» . . . شهقت منفعلة . وكانت بيتي ، قبيل هذا العرض من الأحزان ، قد حبست دموعها ، ولذلك وثبت ميلي إلى جانب السرير لتواسي زوجة أخيها .

- «عزيزتي ، لا تبكي ، حاولي أن تفكري كم كان تشارلز يحبك ، واجعلي تلك الذكرى عزاء لك ، حاولي أن تفكري بطفلك العزيز» .

وامتزج سخطها، الناجم عن عدم فهم مقصدها، بشعور اليأس لحرمانها كل متع الدنيا، وخنق الغيظ كل محاولة للنطق، كان ذلك من حسن حظها، إذ لو نطقت لصرخت عالياً بالحقائق، مصوغة بألفاظ جيرالد السليطة.

ربتت ميلاني على كتفها، بينما استدارت بيتي بات متثاقلة، على رؤوس أصابعها، وأسدلت الستائر.

- «لا تسدليها!» صاحت سكارلت، رافعة عن الوسادة وجهاً أحمر منتفخاً، «فأنا لست ميتة بنظرك لتسدلي الستائر، مع أني قد أكون ذلك، اخرجا واتركاني وحدي».

ودفنت وجهها في الوسادة ثانية، بينما تسللت المرأتان الواقفتان أمامها، خارجاً على رؤوس أصابعهن، إثر مداولة هامسة قصيرة. وفيما هما تهبطان الدرج، سمعت سكارلت ميلاني تخاطب عمتها في صوت خفيض:

- «عمتي، أرجو أن لا تحدثيها عن تشارلز، فأنت تعلمين كيف يؤلمها الحديث عنه دائماً. مخلوقة تعسة، لقد انتابتها تلك النظرة الغريبة، وأنا أعرف أنها تحاول عدم البكاء، ينبغي أن لا نهول الأمر عليها».

رفست سكارلت الغطاء الصغير بغضب، محاولة التفكير بشيء سفيه جداً لتنطق به.

- «يا الله!» صحت أخيراً، مستشعرة انكشاف الغمة نوعاً ما، كيف يسع ميلاني أن تقنع بالبقاء في البيت، وأن تحرم نفسها من أي هناء، وأن تتلفع بالنقاب حزناً على أخيها، بينما هي في الثامنة عشرة فقط؟ يظهر أن ميلاني لا تدري بأن الحياة قد عبرت راكبة بالقرب منها بمهاميز مجلجلة، أو أنها لا تحفل بذلك.

- «ولكنها مجرد لوح خشبي»، همهمت سكارلت، هاوية بيدها على الوسادة، «ولا تفتقد الأشياء التي أفتقدها - وعلاوة على ذلك، فقد نالت آشلي وأنا - أنا لم أنل أحداً»، وأمام هذه البلية الجديدة، انفجرت بالبكاء ثانية.

ظلت مكتئبة في غرفتها حتى المساء، حيث لم يسر عنها منظر العائدين من النزهة، بشاحناتهم الموسوقة بأغصان الصنوبر والدوالي والخنشار. وقد بدوا تعبين سعداء، وهم يلوحون لها ثانية، فترد تحياتهم مغمومة.

وأخيراً جاءها الفرج بالصورة التي كانت آخر ما تتوقع، عندما قدم إلى

البيت ، في أثناء القيلولة ، السيدتان ميريويذر وألسنغ ، فهبت هي وميلاني وبيتي بات دهشات لهذه الزيارة في مثل هذه الساعة ، وأسرعن يزررن قمصانهن ، ويسرحن شعورهن ثم هبطن السلم إلى الردهة .

ـ «ألمّت الحصباء بأطفال السيدة يونل» قالت السيدة ميريويذر ، مظهرة بجلاء أنها تحمّل السيدة يونل شخصياً مغبة الإفساح في المجال لوقوع حادث كهذا .

«واستدعيت فتيات آل ماك لور إلى فرجينيا» قالت السيدة إلسنغ ، بصوتها المتلاشي ، وهي تحرك مروحتها بهمة فاترة ، كما لو أن هذا الأمر ، أو أي أمر آخر ، غير ذي بال ، «لقد جرح دلاس ماك لور» .

ـ «يا له من نبإ مروع !» نطقت المضيفات معاً . «هل دلاس المسكين . . .» .

ـ «لا ، فقط كتفه» قاطعتهن السيدة ميريويذر على الفور . «على أن ذلك لم يكن ليحدث في وقت أسوأ من هذا ، وستسافر الفتاتان إلى الشمال كي تحضرانه إلى البيت ، ولكن يشهد الله أن ليس لدينا الوقت لنجلس هنا ونتحدث ، علينا أن نعود على عجل إلى مستودع السلاح وننجز الزخرفة . بيتي ، إننا بحاجة إليك وإلى ميلي الليلة ، كي تقوما مقام السيدة يونل وبنات ماك لور» .

ـ «لكن يا دولي ، لا يمكننا الذهاب . . .» .

ـ «لا تقولي لي لا يمكن ، يا بيتي بات هاملتون» قالت السيدة ميريويذر بعنف «نحتاج إليكما لمراقبة الزنوج وهم يقدمون المرطبات ، ذلك ما كانت ستقوم به السيدة يونل . أما أنت يا ميلي فستستلمين كشك بنات ماك لور» .

ـ «لن نستطيع الآن ، وقد مضى على وفاة تشارلز المسكين . . . فقط» .

ـ «أعرف شعوركما ، ولكن ليس من تضحية كبيرة إزاء القضية الوطنية» ، انفجرت السيدة ألسنغ بصوت ناعم ، قرر الأمر .

ـ «كان بودنا أن نساعد ، ولكن ، لماذا لا يسعكما إيجاد فتيات ظريفات فاتنات ليتسلمن الأكشاك؟» .

فصاحت السيدة ميريويذر صيحة مدوية :

ـ «لا أدري ما الذي طرأ على الآنسات هذه الأيام ، فهن لا يدركن قيمة المسؤولية ، كل الفتيات اللواتي لم يتسلمن أكشاكاً ، حتى الآن ، لديهن أعذار كثيرة ، أكثر من أن يمكن هز العصا في وجوههن ، ها ، إنهن لا يخدعنني ،

إنهن فقط لا يرغبن في أن يحال بينهن وبين مسامرة الضباط ، هذا كل ما في الأمر ، كما يخشين ألاّ تتجلى فساتينهن الجديدة من خلف بسطة الكشك ، أتمنى من أجل المصلحة أن يجلب ذلك المهرب ـ ما اسمه؟» .

ـ «الضابط بتلر» أجابت السيدة ألسنغ .

ـ «أتمنى أن لو يكثر من تهريب مواد التمريض ، ويقلل من التنانير والدنتلة ، فإذا انسقت اليوم للتفرج على فستان واحد ، سأضطر عندئذ إلى التفرج على عشرين فستاناً من التي هربها الضابط بتلر ، إني أعاف اسمه . والآن يا بيتي ، لا أملك وقتاً للنقاش ، ينبغي قدومك ، الجميع سيفهمون وضعك ، وعلى كل حال ، لن يراك أحد في الغرفة الخلفية ، وكذلك ميلي ، لن تتعرض للعيان ، فكشك بنات ماك لور البائسات بعيد جداً في الطرف ، وليس مشوقاً جداً ، بحيث لن يلحظك أحد .

ـ «أظن أن من الواجب أن نذهب» ، قالت سكارلت ، محاولة كبح لهفتها والاحتفاظ بطابع الجد والبساطة في وجهها «هذا أقل ما يمكن عمله من أجل المستشفى» .

لم تكن أي من الزائرتين قد ذكرت مجرد اسمها ، ولذلك التفتتا شاخصتين إليها ، فحتى في أثناء حاجتهما القصوى ، لم تفكرا بالطلب من أرملة ، لما يمض على رزئها سنة ، أن تظهر في حفل اجتماعي ، بيد أن سكارلت قابلت شخوصهما بسحنة الطفل المشدوه .

ـ «أظن أن واجبنا الذهاب للمساعدة ، كيما نجعلها جميعاً حفلة ناجحة ، وأعتقد أن من واجبي أن أكون في الكشك مع ميلي ، لأن ـ على كل حال ـ أظن أنه أفضل لنا ، كلتينا ، أن نوجد هنالك ، من أن توجد واحدة فقط ، ألا ترتأين ذلك يا ميلي؟» .

ـ «الواقع» ، بدت ميلي مرتبكة ، إذ إن فكرة الظهور أمام المجتمع في ثوب الحداد كانت مستهجنة جداً ، بحيث أوقعتها في حيرة .

ـ «سكارلت على حق» قالت السيدة ميريويذر ، وقد لمحت أمارات التراجع ، ثم نهضت رافعة أطواق تنورتها إلى موضعها ،«كلتاكما ، جميعكن ينبغي أن تأتين ، والآن ، بيتي لا تبدئي بتقديم الأعذار ثانية ، فقط فكري كم يحتاج المستشفى إلى مال من أجل الأسرة الجديدة والعقاقير ، وأنا أعرف أن شارلي يود

أن تؤازرا القضية التي مات في سبيلها .

ـ «حسناً» قالت بيتي بات عاجزة عديمة الحيلة كعادتها تلقاء شخصية أقوى من شخصيتها «إذا كنت تعتقدين أن الناس سيتفهمون الوضع» .

*

«رائع ! رائع . . لا يصدق ! رائع ! رائع . . لا يصدق !» هتف قلب سكارلت المبتهج ، وهي تتسلل دون عائق داخل الكشك المزين بالقماش الأحمر والأصفر ، والذي كان من المفروض أن يعهد بإدارته لبنات ماك لور . لقد كانت حقاً في حفلة ! بعد عزلة سنة ، بعد النقاب والأصوات المكبوتة والإشراف على الجنون ، من جراء الضجر . إنها حقاً في حفلة ، أكبر حفلة شهدتها أتلانتا ، وها هي تستطيع رؤية الناس والمصابيح العديدة ، وسماع الموسيقى وتملية الطرف من أثواب الدنتلة والكشاكش والمعاطف الجميلة التي اخترق بها الحصار ، الضابط الشهير بتلر ، في سفرته الأخيرة .

جلست على إحدى الكراسي الصغيرة ، خلف بسطة الكش ، تجيل نظرها في القاعة الطويلة التي كانت حتى ظهر اليوم غرفة تدريب فارغة عارية ، قبيحة المنظر . كم كان على السيدات أن يعملن حتى استطعن أن يصلن بها إلى هذا الشكل الجميل ، إنها تبدو رائعة فخمة ، لا بد أن تكون جميع شموع وشمعدانات أتلانتا هنا في هذه القاعة هذه الليلة ، فكرت سكارلت ، إذ كان فيها شمعدانات فضية ذات شعب كثيرة ، وأخرى خزفية تزين قواعدها تماثيل صغيرة ، وأخرى نحاسية قديمة ، منتصبة جليلة ، تعلوها شموع من جميع الأحجام والألوان ، تتضوع برائحة الغار ، وتتسامى فوق مشاجب البنادق الممتدة على طول القاعة ، وفوق المناضد الطويلة المزدانة بالزهور ، وعلى رفوف الأكشاك ، وحتى على عتبات النوافذ المفتوحة ، حيث نسيم الصيف الحار يماوج أضواءها .

وفي طرف القاعة الآخر ، مقابل الدكة ، عزلت السيدات أنفسهن ، وخلفهن على الحائط علقت صورتان كبيرتان لرئيس الحلف ديفس ، ولنائبه ستيفنس ، ابن جورجيا البار ، حيث يدعى «أليك الصغير» . فوق الصورتين ثبت علم ضخم ، وتحتهما على مناضد طويلة وضعت باقات حدائق المدينة ، ويتخلل هذه الباقات ، شموع تتوهج مهيبة جليلة كنيران المذبح . كان الوجهان في

الصورتين ينظران إلى أسفل ، وجهان مختلفا الملامح ، بالقدر الممكن في رجلين يقودان عملاً جباراً كهذا ، ديفس بوجنتيه الأسيلتين وعينيه الساهمتين الشبيهتين بعين الناسك ، وقد انطبقت شفتاه الرقيقتان الفخورتان بحزم ، وستيفنس بعينيه السوداوين المتقدتين ، الغائرتين في وجه لم يخبر شيئاً إلا المرض والألم اللذين انتصر عليهما بالروح المرحة ، والعزيمة النارية ، وجهان محبوبان للغاية .

كانت سيدات اللجنة الكبيرات في السن ، الملقاة على عواتقهن مسؤولية السوق الخيرية كلها ، يرفلن بأثوابهن كالسفن المجهزة تجهيزاً تاماً ، يحثثن السيدات الشابات المتأخرات ، والصبايا المقهقهات ، للإسراع إلى أكشاكهن ، ثم ينطلقن خلال الأبواب إلى الغرف الخلفية ، حيث وضعت المرطبات . وكانت تجري خلفهن لاهثة ، السيدة بيتي بات .

اعتلى الموسيقيون دكتهم ، وكانوا سوداً مبتسمين ، يمرون أصابعهم جيئة وذهاباً على كمنجاتهم ، ويهزون الأوتار بأقواسهم باهتمام متوقع . وقرع العجوز ليفي ، حوذي السيدة ميريويذر ، والذي قاد كل الفرق الموسيقية في كل سوق خيرية ، وكل حفلة رقص وعرس منذ سميت أتلانتا بمارشفيل ، قرع آلته ، يروم الصمت والانتباه . ولم يكن قد حضر بعد إلا القليل من المدعوين ، عدا السيدات اللواتي سيشرفن على السوق ، ومع ذلك فقد اتجهت كل العيون نحوه ، وشق السكون أصوات الكمنجات والربابات ، والأكورديونات والبانجوات ، وسلاميات الأيدي ، في لحن بطيء لنشيد : «لورينا» . لحن بطيء جداً ، لا يصلح للرقص ، إذ سيأتي الرقص فيما بعد عندما تفرغ الأكشاك من بضائعها . وأحست سكارلت وجيب قلبها يزداد ، فيما يكظها الشجى العذب لنغم الفالس :

«السنين تزحف بطيئة . . . يا لورينا
ها هو الثلج على العشب ثانية . .
لقد قاربت الشمس المغيب ، يا لورينا . . .» .

وأخذت تتجاوب في نفسها حركات الفالس :

واحد ـ اثنان ـ ثلاثة ، واحد ـ اثنان ـ ثلاثة ، ترنح بميل ـ ثلاثة ، دوران ـ اثنان ـ ثلاثة . أي فالس رائع ! ، ومدت يديها قليلاً ، وأغمضت عينيها متهادية مع النغم الحزين الذي انتابها . كان هناك شيء حول هذا اللحن المفجع وحول

حب لورينا الضائع الذي امتزج بتهيجها حاملاً الغصة إلى حلقها .

وفجأة ضجت القاعة بالحياة ، غصت بالصبايا اللواتي انسبن بأثوابهن الزاهية كالفراش ، أثوابهن المنتفخة كثيراً ، والتي تطل من تحتها سراويلهن من الدنتلة ، وقد تعرت الأكتاف المستديرة الصغيرة البيضاء ، وبان جزء لا يكاد يذكر من الصدور الناهدة ، فوق حاشية الثوب من الدنتلة ، وتدلت شالات الدنتلة عن السواعد .

لا ! لم تقدم كل أزهار المدينة باقة تكريم لقائدي الحلف ، فإن أصغر الزهور وأشذاها عطراً كانت تزين الصبايا ، فالورود كانت مدسوسة خلف الآذان المحمرة ، والياسمين وبراعم الورود موضوعة في عقود صغيرة مستديرة فوق خصل الشعر الجانبية المتهدلة ، والزهور المنورة مغروزة في الأحزمة الحريرية . أزهار لن ينتهي الليل إلا وتجد طريقها إلى جيوب صدور البزات الرمادية ، كتذكارات ثمينة غالية .

وتخللت الحشد بذلات رمادية كثيرة جداً ، يرتدي الكثير منها رجال تعرفهم سكارلت ، رجال قابلتهم وهم على أسرّة المستشفى ، وفي الشوارع ، وساحات التدريب . كانت بذلات بهية زاهية بأزرارها البراقة ، مشعة بالشارات الذهبية المجدَّلة الأردان والقبات ، والشرائط الحمراء والصفراء والزرقاء على جوانب السراويل للدلالة على مختلف فروع الخدمة . كل ذلك كان يضيف إلى اللون الرمادي رونقاً فاتناً ، وزيادة على ذلك فقد كانت الأوشحة القرمزية والذهبية تتهادى يمنة ويسرة ، وكانت السيوف تتلألأ مصلصلة إزاء الجزمات اللماعة ، كما كانت المهاميز تقعقع وتجلجل .

ما أروع هؤلاء الرجال ! همست سكارلت ، وقلبها ينتفخ زهواً ، وهم يحيون بعضهم ، ويلوحون لأصدقائهم ، ويبالغون في الانحناء نحو أيدي السيدات المسنات . جميعهم بدوا فتياناً ، حتى بشواربهم الصفراء الكثة ، ولحاهم الكثيفة ، السوداء والبنية . إنهم وسام جداً ، مستهترون جداً ، سواعدهم في حمالات ، رؤوسهم تلفها الضمادات الناصعة البياض عبر الوجوه التي لوحتها الشمس ، بعضهم يتكئ على العكاكيز ، ورغم ذلك فما كان أعظم كبرياء تلك الفتيات اللواتي كن يخففن من سرعتهن ، متوسلات ، كي يماشين خطى رفاقهن الجنود .

وكان بين البذلات واحدة فقط زاهية مزركشة ، كسفت حتى أثواب الفتيات

الزاهية ، وتجلت بين الحشد كطائر استوائي ـ بذلة لويزيانية على طراز ملابس أهل مراكش ، بسراويل منتفخة مخططة بالأزرق والأبيض ، وطماق بيضاء مصغرة ، ومعطف أحمر صغير ضيق ، يرتديها رجل صغير أسمر ضاحك يبدو كالقرد ، ذراعه داخل حمالة سوداء حريرية . إنه عشيق مايبيل ميريويذر الخاص : رينيه بيكارد .

تعالى قرع الطبول في الشارع ، يتخلله وقع الأقدام ، وصيحات تهليل الحوذيين ، ودوى النفير ، وتلاه صوت عميق يأمر الجنود بالتفرق ، وما هي إلا هنيهة حتى اهتزت السلالم ، وازدحمت القاعة بأصوات الحرس الوطني وجنود الميليشيا ببذلاتهم الزاهية ، فأخذوا يتصافحون وينحنون ويحيون ، وكان في صفوف الحرس الوطني شبان فخورون بالدور الذي يقومون به في الحرب ، يمنون النفس بأن يكونوا في فرجينيا في مثل هذا الوقت من السنة القادمة ، إذا ما قدر للحرب أن تستمر هذه المدة الطويلة ، وكان إلى جانب هؤلاء رجال مسنون بلحى بيضاء ، يتمنون أن لو كانوا أصغر سناً ، يطأون الأرض فخورين ببزاتهم العسكرية ، وقد انعكست على وجوههم أمجاد أبنائهم الذين في الجبهة . أما في عداد الميليشيا فكان رجال متوسطو العمر ، وآخرون متقدمون في السن ، ولكن بينهم زمرة رائعة من الرجال الذين هم في سن الجندية ، والذين لم يهزهم المرح ، ويحدوهم النشاط كأولئك الذين يكبرونهم أو يصغرونهم ، ولذلك راح الناس يهمسون متسائلين عن عدم التحاقهم بالقائد لي .

ولكن . . كيف ستنتظم جميع هذه الحشود داخل القاعة؟ لدقائق مضت بدا المكان فسيحاً واسعاً ، ولكنه الآن مكتظ ، عابق بروائح ليالي الصيف ، من أوعية الطيب والعطور وزيوت الشعر وشموع الغار المضمخة بأريج الأزهار ، المغبرة قليلاً من جراء وقع الأقدام الكثيرة فوق أرض قاعة التدريب القديمة ، وقد علا الضوضاء ، وعم الهرج ، بحيث تعذر سماع شيء ، وكأن ليفي العجوز ، وقد أحس بجمال الأمسية ، وروعتها ، قطع أغنية «لورينا» قارعاً قوسه بعنف ، مرنماً أنشودة الحياة العزيزة ، لتتبعه الأوركسترا في نشيد «العلم الأزرق الخفاق» .

وانطلقوا يهزجون مقطوعة النشيد الثانية ، وسمعت سكارلت ، وهي تنشد

مع الباقين ، اللحن العذب الشجي ، ترنمه ميلاني خلفها ، لحناً نقياً صادقاً ، يتجاوب مع أنغام البوق ، وعندما التفتت رأتها تقف ويداها متشابكتان فوق صدرها ، وقد أغمضت عينيها اللتين راحت الدموع الرقيقة تسبح من مؤقيهما ، وما إن توقف العزف حتى ابتسمت في وجه سكارلت ابتسامة خيالية حالمة ، مزوية ما بين ناظريها في تعبير اعتذاري ، وهي تكفكف دمعها بمنديلها .

ـ «إني سعيدة جداً» همست «وفخورة جداً بهؤلاء الجنود ، بحيث أنني لم أستطع أن أحبس دموعي» .

وومضت عيناها بوهج عميق حاد أضاء وجهها الصغير فأشرق جميلاً خلال هنيهة قصيرة . وبدت هذه الإشراقة ذاتها على وجوه جميع السيدات ، عندما انتهى العزف ، فغدت دموع الكبرياء تسيل على الوجنات الموردة والمغضنة ، والابتسامات تحلي الثغور ، ولازم وميض دافئ عميق عيون النسوة وهن يتلفتن إلى رجالهن . الصبايا الفاتنات إلى محبيهن ، والأمهات إلى أبنائهن ، والزوجات إلى أزواجهن ، وعلى وجوه الجميع تألقت مسحة الجمال الأخاذ ، الذي يرفع من معنويات أقل النساء رواء حينما تحب فترد على ذلك الحب بحب يفوقه ألف مرة .

كانت القلوب تزخر بدفق من الولاء والفخر جياش ، دفق جياش منبعث من قضية الحلف ، فالنصر النهائي أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وانتصارات ستونول جاكسون في الوادي في بنسلفانيا وهزيمة الشماليين في معركة الأيام السبعة ، تؤكد بجلاء وكيف يمكن أن لا يكون الأمر كذلك والقيادة بأيدي رجال مثل لي وجاكسون؟ انتصار آخر ويركع الشماليون ، يدعون للسلم ، ويعود الرجال إلى بيوتهم ، وتنتشر القبل ، ويشيع الضحك ، انتصار آخر وتنتهي الحرب .

في القريب العاجل ، سيفرغ رفائيل سيميس وأسطول الحلف لزوارق الشماليين الحربية تلك ، وعندئذ تفتح الموانئ مرافئها للعمل . كما أن إنكلترا قادمة لنجدة الجنوب كيما يربح الحرب ، لأن مصانع النسيج الإنكليزية قد شلت عن العمل بسبب حاجتها إلى أقطان الحلف ، ومن الطبيعي أن تساند الأرستقراطية البريطانية الجنوب كما يساند الأرستقراطي زميله ضد عنصر من عبدة الدولار كأهل الشمال .

وهكذا رفلت النساء بأثوابهن الحريرية ، ضاحكات ، متطلعات إلى رجالهن بقلوب تفعمها الكبرياء ، مدركات أن الحب المنتزع من بين براثن الخطر والموت ذو لذة مضاعفة نظراً لما يصاحبه من لهفة مثيرة .

عندما تأملت سكارلت الجمهور ، للمرة الأولى ، خفق قلبها بالفرحة غير المعتادة ، لكونها في حفلة ، ولكن ما إن رأت ، وهي نصف مدركة ، أمارات المعنويات المرتفعة تشع من الوجوه حولها ، حتى بدأت فرحتها تخبو ، وأخذ مرحها يتبدد . كل امرأة في القاعة تتقد بعاطفة لم تتحسسها هي ، واستبدت بها الحيرة ، وتكدرت ، إن القاعة ، لسبب ما ، لا تبدو بهيجة ، ولا البنات جذلات ، وحرارة التضحية الخالصة من أجل القضية ، التي لا تزال تتوهج في كل الوجوه ، تراءت - تراءت حقاً مجرد غباوة تافهة ، مجرد حمق أبله .

وفجأة ، إثر ومضة من الاستنتاج الذاتي ، فغرت فاها مشدوهة . لقد أدركت أنها لم تشارك هؤلاء النسوة فخرهن الدافق ورغبتهن في التضحية بأنفسهن ، وبكل ما يملكن ، في سبيل القضية . وقبل أن يسوقها الرعب إلى التفكير بأنها لا ينبغي أن تفكر بمثل هذه الأمور الخاطئة الأثيمة ، تحققت أن القضية لا تعني شيئاً بالنسبة إليها ، وأنها مستاءة جراء سماع الناس الآخرين يتحدثون عنها وعيونهم تتوهج بالتعصب ، فالقضية لا تبدو مقدسة في نظرها ، والحرب لا يظهر أمرها قدسياً ، وإنما هي بدعة تؤول إلى قتل الرجال دون وعي ، وبذر المال ، وتعسير الحصول على أدوات الرفاه . وأحست أنها سئمت من الخياطة اللانهائية ومن لف الضمادات الأبدي ، وتنقية نسالة الكتان التي تخشن بشرة أناملها ، وشعرت أنها تعبة جداً من المستشفى ! تعبة متكدرة ، لاعية النفس من روائح الغرغرينا السقيمة ، ومن الأنين الدائم ، فزعة من سحنة الموت تكسو الوجوه .

وفيما كانت الأفكار الخائنة الكافرة تتدافع في رأسها ، اختلست النظر حولها خشية أن يكون قد قيض لأحد أن يقرأها واضحة في وجهها ، آه ، لماذا لا تستطيع هي الإحساس بمثل ما تتحسسه أولئك السيدات الأخريات؟ إنهن مندفعات بقلوبهن ، مخلصات في تضحيتهن من أجل القضية ، إنهن في الحقيقة يعنين كل شيء يقلنه أو يفعلنه . وإذا ما اتفق أن ارتاب أحد بأنها . . . لا ، ينبغي أن لا يعرف أحد . . . ينبغي أن تستمر متظاهرة بالحماسة والفخر

بالقضية . . . التي عجزت عن الشعور بوجودها ، تمثل دورها كأرملة ضابط في جيش الحلف ، تحمل آلامها بشجاعة ، وقلبها في القبر ، مستشعرة بأن وفاة زوجها ليست بذات بال ، طالما أنها وقعت لتأييد قضية النصر .

لقد كانت عنيدة جداً بحيث لم تتجاوب والحالة العامة ، ولن يستطيع أحد معرفة شعورها . إن الدهشة ستجفل جميع من في السوق لو قدر لهم اكتشاف حقيقة ما يدور بخلدها . كم سيصعقون لو أنها اعتلت فجأة منصة الموسيقى ، وأعلنت أن الحرب يجب أن تنتهي ، كيما يتمكن كل إنسان من العودة إلى بيته ، والاهتمام بقطنه ، وعندئذ يمكن إحياء الحفلات ، وإيجاد الأحباب ثانية ، وارتداء الفساتين الخضراء الفاتحة .

للحظات ، ارتاحت لهذا التسويغ النفسي ، ولكنها ظلت تنظر إلى من حولها بنفور . كان كشك بنات ماك لور بعيداً عن العيان ، كما وصفته السيدة ميريويذر ، وكانت تنقضي فترات طويلة ، دون أن يأتي أحد لزاويتها ، ولذلك لم يكن لدى سكارلت ما تفعله إلاّ النظر بعين الحسد إلى الجموع الفرحة . وقد أحست ميلاني بكآبتها ، ولكنها عزت ذلك إلى شوقها لزوجها ، ولذا لم تجرب إلهاءها بالحديث ، بل انهمكت في تنسيق محتويات الكشك ، في عرض أكثر لفتاً للأنظار ، بينما جلست سكارلت تسرح طرفها في القاعة ، نكدة عابسة ، حتى الأزهار المكدسة تحت صورتي السيد ديفس والسيد ستيفنس ، كانت تثير سخطها .

- «يبدو وكأنه مذبح» ، ندت العبارة من صدرها متنفسة الصعداء .

لا ، إنها ليست سعيدة الآن ، وقد طفح وجهها سروراً حين دخلت ، لوجودها في الحفلة ، ولكن أن توجد فقط أمر لا يشبع نهمها ، إنها في الحفلة ، ولكن ليست جزءاً منها ، ليس من يعيرها التفاتة ، وهي المرأة الشابة الوحيدة غير المتزوجة التي لم تحظ بعشيق ، في الوقت الذي نعمت طيلة أيامها الماضية بمركز الشرف في كل حفل . . . ليس ذلك عدلاً . . . إنها في السابعة عشرة من عمرها وقدماها تضربان الأرض تريدان أن ترقصا وأن تقفزا ، إنها في السابعة عشرة من عمرها وزوجها مسجى تحت الثرى في مقبرة أوكلاند ، وطفلها في المهد في منزل العمة بيتي بات ، والجميع يعتقدون أنها لا بد قانعة بنصيبها . إنها تملك صدراً أنصع بياضاً ، وخصراً أشد ضموراً ، وقدماً أصغر مما

تملك أي فتاة أخرى في الحفل . ولكن ، رغم كل ما لهذا من قيمة وأثر ، كانت تحس كما لو أنها مسجاة إلى جانب تشارلز ، وقد حفر على شاخص قبرها : «زوجة تشارلز الحبيبة» .

لم تكن الفتاة فتستطيع الرقص والغزل ، ولم تكن الزوجة التي يسعها الجلوس مع باقي الزوجات وانتقاد الصبايا الراقصات الغزلات ، ولم تكن طاعنة في السن حتى تغدو أرملة ، فالأرامل ينبغي أن يكنّ مسنّات ـ مسنّات للغاية ، بحيث ينفرن من الرقص ، وما يتبع ذلك من عبارات الإعجاب . آه ، ليس من العدل أن تضطر هي إلى الجلوس هنا ، وقورة متصنعة الجد ، تمثل قمة الوقار والحشمة الثكلى ولما تتخط السابعة عشرة من العمر! ليس من العدل أن تحمل على خفض صوتها وغض بصرها بانكسار عندما يأتي الرجال ـ الرجال الجذابون أيضاً ـ إلى كشكها .

كل فتاة في أتلانتا كانت غارقة حتى أذنيها في علاقاتها مع الرجال ، وحتى أفقرهن إلى الجمال كانت ماضية في الغزل كالحسناء ـ وأسوأ ما في البلية ، أنها تتعاطى الغزل بفستان بديع ، بديع جداً . أما هي ، فإنها تجلس هنا كالغراب ، بثوب التفتا الأسود الحار ، يتدلى إلى معصميها ، مزرراً إلى تحت ذقنها ، خالياً من كل زخرف بالدنتلة أو التطريز ، ولا مصاغ عدا دبوس حداد أمها العقيقي . إنها هنا تتأمل الفتيات الدميمات ، يتعلقن بأذرع الرجال البهيي الطلعة ، كل ذلك لأن تشارلز هاملتون قد دهمته الحصباء ، وهو أيضاً ، لم يقض في عمل بطولة خارقة ، في غمرة المعركة ، كيما تستطيع التفاخر بالحديث عنه .

ـ «أي حسن ورواء قد يزينانني في ذلك الثوب» ، هجست سكارلت ، وقلبها يضطرم بحسد ضار ، «خصرها غليظ كخصر البقرة ، ذلك اللون الأخضر هو لوني الخاص ذاته ، وسيظهر عيني بمظهر . . . لماذا ترتدي الشقراوات ذلك اللون؟ إن بشرتها تبدو خضراء كالجبن العفن . ولكن ، لأحسب أني لن أرتدي ذلك اللون ثانية ، حتى ولا عندما أنفض عني ثوب الحداد ، لا ، حتى ولو فزت بالزواج ثانية ، فعندئذ ، لا بد لي من التدثر بالأردية القديمة : الرمادية الرثة ، والحمراء القانية ، والبنفسجية الفاتحة .

وتأملت خلال هنيهة قصيرة فداحة الظلم النازل بها ، ما كان أقصر وقت اللهو عندك ! وقت الثياب الزاهية ، والرقص والدلال والغزل ، فقط سنين قليلة ،

قليلة جداً ، ثم تزوجت واتشحت بالثوب الباهت ، وولدت طفلاً أفسد رواء خصرك وقبعت في الزوايا ، برفقة المتزوجات الوقورات ، بينما الجميع يرقصون أمامك ، ولا تتقدمين إلا لتراقصي بعلك فقط ، أو السادة المسنين الذين يضغطون على قدمك ، وإذا لم تتبعي هذه الخطوات ، تتحدث سائر المتزوجات عنك ، وعندئذ تهوي سمعتك إلى الحضيض ، وعائلتك إلى درك الفضيحة . إن الأمر يبدو ضياعاً مخيفاً ، أن تتصرم جميع فترة صباك القصيرة في تعلم أساليب الفتنة وترسم فنون صيد الرجال ثم لا تستغلين خبرتك هذه إلاّ خلال سنة أو سنتين فقط .

وعندما تذكّرت فنون تدربها على أيدي والدتها ومامي ، أدركت أنها تمارين متقنة محكمة ، فدائماً ما جنت الثمار بفعلها .

إن هناك قواعد ثابتة يجب اتباعها ، وإذا ما سرت على هديها ستكلل جهودك بالنجاح .

مع السيدات المسنات ، ينبغي لك أن تكوني مرنة عذبة صادة ، تتكلفين مظهر السذاجة بالقدر الممكن ، لأن هؤلاء اربيات ، يراقبن الصبايا بعيون الحسد كالقطط ، وهن على أتم استعداد ليشرعن ألسنتهن عند أي بادرة طيش تبدو من اللسان أو العين .

مع السادة المسنين ، ينبغي للفتاة أن تكون وقحة ، سليطة ، مغناجة إلى حد كبير ، وليس إلى الحد الأقصى ، ذلك كي تدغدغ غرور أولئك البلهاء ، إذ سيستشعرون مهارتهم وشبابهم ، فيقرصون وجنتها معلنين أنها صبية خليعة ، وبالطبع ، ينبغي أن يتخضب وجهها خجلاً في كل المناسبات ، وإلاّ فسيقرصونها بلذة تتعدى الأصول الواجبة ، وعندها يخبرون أبناءهم أنها داعرة ماجنة .

مع الصبايا العزباوات والمتزوجات ، ينبغي أن تفيضي عذوبة ، وتقبليهن في كل مرة تقابلينهن ، حتى لو التقيت بهن عشر مرات يومياً ، ثم أن تحيطيهن بذراعيك ، وتضغطي كثيراً إلى أن يبادلنك التحية بمثلها ، مهما كنت تمقتين هذا الأسلوب .

كما يجب عليك أن تتحاشي بحزم أزواج النساء الأخريات ، حتى لو كانوا من المدلهين المولعين بك ، المنبوذين من قبلك ، لا فرق إن كانوا على جانب

عظيم من الملاحة والوسامة أم لم يكونوا ، لأنك إن بالغت في الرقة مع الأزواج الشبان ستتهمك نساؤهم بالمجون ، وستشين سمعتك ، ولن يقيض لك بعد ذلك نيل محب واحد .

ولكن مع العزاب الشباب ـ ها ! إن الأمر يختلف هنا ، بوسعك الضحك برقة عليهم ، وعندما يهرعون نحوك ، مستوضحين سبب الضحك ، بمقدورك الامتناع عن إخبارهم ، والاستغراق في قهقهة أقوى ، وإبقاؤهم حولك ، تتقاذفهم الظنون بحثاً عن الحقيقة .

[آه ، كل البدع والخدع التي لم تفشل يوماً في إيتاء أكلها ـ إلا مع آشلي] .

لا ، ليس من العدل أن تتعلم الفتاة كل هذه الأساليب الكيسة لتستعملها خلال فترة قصيرة جداً ، ومن ثم تنبذها إلى الأبد . ما أروع أن لا تتزوج الفتاة أبداً ، بل تظل جذابة محبوبة رافلة بالأثواب الخضراء الزاهية ، يغازلها الرجال الوسام حتى النهاية ، ولكن ، إذا ما استمررت كذلك ردحاً مديداً ، ستدركك العنوسة ، وتضحين كإنديا ويلكس ، يقول عنك كل من رآك مشفقاً ، وبتلك اللهجة الممضة المغرورة : «أي مخلوقة تعسة !» . لا ، فالزواج على كل حال ، والحفاظ على الكرامة الشخصية ، حتى مع الحرمان من لهو الحياة أفضل من العنوسة .

وتنبّهت من هواجس النقمة والقنوط ، عندما راح الجمهور يتدافع للخلف نحو الجدران ، وانتشلت السيدات أطواق تنانيرهن ، حريصات على ألا يفسحن في المجال لأي تماس عرضي يمكن أن يكشف عن سراويلهن مقداراً يتجاوز الحد اللائق . ووقفت سكارلت على رؤوس أصابعها ، فرأت قائد الميليشيا ، يعتلي دكة الموسيقيين ثم يصدر أوامره ، فيصطف نصف جنود الفرقة ، ويقومون لدقائق معدودة ، بحركات تدريبية رشيقة ، فصدت بالعرق جباههم ، وانتزعت التصفيق والهتاف من الحضور . وامتثلت سكارلت لداعي التصفيق ، فشاركت الآخرين ، وعندما تفرق الجنود ، واتجهوا إلى أكشاك الخمرة والعصير ، استدارت إلى ميلاني ، مدركة أن من الأفضل لها أن تبدأ بالسرعة الممكنة في حديثها الزائف حول القضية الوطنية ، قالت :

ـ «إنهم يبدون رائعين ، أليس كذلك؟» .

وكانت ميلاني مكبة على تنسيق الأدوات المحيكة فوق بسطة الكشك .

ـ «معظمهم سيبدون أروع بكثير، في البزات الرمادية، وفي فرجينيا».
أجابت دون أن تكلف نفسها مؤونة خفض صوتها.

وكان يقف بالقرب منهما عدد من أمهات جنود الميليشيا، فسمعن ملاحظتها، وتخضب وجه السيدة جونان ثم غاض شاحباً، إذ إن ولدها ويلي، البالغ الخمسة والعشرين ربيعاً، كان في عداد جنود الفرقة.

ذهلت سكارلت بهذه الكلمات تخرج من فم ميلي عن جميع الناس.

ـ «ميلي!».

ـ «أنت تعرفين أن ذلك أمر حقيقي يا سكارلت، فأنا لا أعني الشبان الصغار، والسادة الكبار، ولكن العديد من أعضاء الميليشيا قادرون كل القدرة على تنكب البنادق، وهذا ما كان ينبغي أن يفعلوه في هذه الدقيقة».

ـ «ولكن... ولكن»، طفقت سكارلت التي لم يتفق لها التفكير في المسألة قبلاً، «بعض الناس مضطرون للبقاء في منازلهم لـ...» ما ذلك الذي كان ويلي جونان قد قاله لها معلّلاً بقاءه في أتلانتا؟ «بعض الناس مضطرون للبقاء في منازلهم لحماية الولاية من الغزو».

ـ «لا يوجد غزو الآن، ولن يقدم أحد على ذلك»، قالت ميلي ببرود، متطلعة نحو جماعة من جنود الميليشيا، «وأفضل الطرق لدفع الغزاة هي الذهاب إلى فرجينيا ودحر الشماليين هناك، وأما بصدد كل ما يقال من أن الميليشيا باقية هنا لمنع العبيد ـ فهذا أسخف ما سمعت في حياتي. لماذا يتوجب على شعبنا أن يثور؟ إنه مجرد عذر رضي للجبناء. إني أراهن أن بمقدورنا سحق جنود الشمال في مدة شهر لو أن جميع فرق الميليشيا في جميع الولايات ذهبت إلى فرجينيا ـ نعم إلى هنالك!».

ـ «ما هذا الذي تقولينه يا ميلي!» صاحت سكارلت ثانية جاحظة العينين.

وبرقت عينا ميلي السوداوان الدافئتان، بوميض الغضب:

ـ «زوجي لم يخش الذهاب، وكذلك زوجك! وإني أفضل أن يموت الاثنان على أن يبقيا هنا... ـ آه يا عزيزتي، إني آسفة، أي طيش هذا الذي بدر مني».

وربتت على ذراع سكارلت باستعطاف، فيما كانت هذه شاخصة إليها. غير أنها لم تكن تفكر بتشارلز المتوفى، ولكن بآشلي، لعله قضى أيضاً؟ واستدارت

على عجل ، وافتر ثغرها بابتسامة آلية ، عندما وصل إلى كشكها الدكتور ميد .

ـ «مرحباً يا بنيتيّ» ، حياهما ، «جميل منكما أن تأتيا ، إني أقدر عظم التضحية التي أقدمتما عليها بمجيئكما هذه الليلة ، ولكن كل ذلك في سبيل القضية . سأفشي لكما بسر ، لدي طريقة مفاجئة مدهشة ، لجمع نقود أكثر هذه الليلة ، من أجل المستشفى ، ولكني أخشى أن تصدم بعض السيدات بفعلها» .

وانفرج فمه بضحكة فاترة ، وهو يشد لحيته الصغيرة الشائبة .

ـ «ها ، ماذا؟ أخبرنا !» .

ـ «بإعادة التفكير ، ارتأيت أن أدعكما تتكهنان عن ماهيتها ، أيضاً . ولكن عليكما أيتها الفتاتان أن تسانداني ، إذا ما قرر أعضاء الكنيسة إخراجي من المدينة ، لتنفيذي إياها . وعلى كل حال ، إنها من أجل المستشفى . ستريان ، لم يجر مثيل لها من قبل» .

ومشى بوقار ، قاصداً ثلة من الرقيبات المتزوجات ، يجلسن في إحدى الزوايا ، وعندما استدارت الفتاتان تتدارسان ما يحتمل أن يكونه السر . كان إقبال الزبائن على كشكهما قليلاً إذا ما قيس بالأكشاك الأخرى ، حيث تتصادى قهقهات مايبيل ميريويذر وفاني ألسنغ ، وحيث تضفي أجوبة بنات ويتنغ ، السريعة الخاطر ، جواً مرحاً .

كانت ميلي تبيع أدوات عديمة الجدوى بالنسبة إلى الرجال ، الذين لا يسعهم الاستفادة منها ، تبيعهم بالأسلوب الهادئ الرصين الذي يعتمده صاحب الدكان ، وكانت سكارلت تقلد أسلوبها .

تحلّق الناس أمام جميع بسطات الأكشاك الأخرى ، إلا بسطتهما : البنات يهذين ، والرجال يشترون ، وأما القلة التي ابتاعت منهما ، فكانت تتحدث عن ذهابها إلى الجامعة مع آشلي ، وعن كونه جندياً عظيماً ، أو تتفوه بعبارات رقيقة خاشعة حول تشارلز ، وكيف أن وفاته كانت خسارة فادحة لأتلانتا .

ثم صدح عزف الموسيقى ، مرنماً الألحان المثيرة لنشيد «جوني بوكر ساعد هذا الزنجي !» وأحست سكارلت رغبتها في الزعيق ، إنها تريد أن ترقص ، إنها تريد أن ترقص . ورنت إلى أرض القاعة ، وراحت تدق بقدميها متجاوبة مع أنغام النشيد ، وبرقت عيناها الخضراوان بشعاع اللهفة الحارقة ، بحيث كادتا تنفجران شوقاً . وعبر القاعة ، في المدخل ، كان يقف رجل ، حديث المقدم ، ما

إن لمح عينيها حتى أجفل مذهولاً ، كأنه يعرفهما ، ثم راح يراقب عن كثب العينين الماثلتين في الوجه العابس المتمرد ،وبدت نواجذه وهو يبتسم ، عندما استشف الدعوة التي بوسع كل ذكر قراءتها في الوجه المتجهم .

كان يرتدي ثوباً من الصوف الأسود ، رجل طويل القامة ، يعلو بقامته قامات الضباط الواقفين على مقربة منه ، ضخم عند الكتفين ، ولكنه يستدق تدريجياً حتى يضمر خصره ، وتنتهي ساقاه بقدمين ممعنتين في الصغر ، ومحتذيتين جزمتين لماعتين . كانت بذلته السوداء الحالكة ، وقميصه الظريف ذي الكشاكش ، وسراويله المعقودة الأربطة بتأنق تحت أخمص قدميه ، تتنافر تماماً مع بنيته ووجهه ، إذ كان مهندماً كالعريس ، يلبس ملابس مدلّل على جسد قوي ، وتنحجب شراسته بتأنقه المخمول . كان شعره فاحم السواد ، وشاربه الأسود صغيراً قصير الجزة ، يبدو غريباً إذا ما قورن بالشوارب الكثة المتوثبة ، في وجوه الفرسان القريبين منه ، كان يبدو ، وهذه حقيقته ، رجل ذا شهوة فوارة جامحة زرية ، وكانت سحنته تنم عن ثقة مطلقة بالنفس ، وتنطق بقحة غير رضية ، وفيما هو يحدق في سكارلت ، ومضت عيناه ببريق الدهاء والخبث ، فلما استشعرت حدة نظراته ، بادلته التحديق .

وفي زاوية من زوايا عقلها ، قرع جرس الذكرى ، ولكنها لم تستطع تمييز شخصه فوراً ، إلاّ أنه كان أول رجل أطرى محاسنها خلال عدة شهور ، ولذلك رمته ببسمة رضية ، وعندما انحنى لها ، بشت في وجهه قليلاً ، ولكن ما إن انتصب ثانية ، وأقبل نحوها بخطى رشيقة كخطى الهنود ، حتى عضت على يدها مذعورة مرتاعة . . . لقد عرفت من هو .

وقفت مصعوقة كما لو أن قوة خارقة شلت كيانها ، بينما اخترق هو جموع الحاضرين متجهاً نحوها ، ثم أدارت وجهها دون تبصر ، وانثنت تروم الفرار إلى غرف المرطبات ، ولكن تنورتها علقت بمسمار في الكشك فجذبتها جذبة عنيفة ، تمزقت على إثرها ، وكان الرجل قد بلغها ما بين فتحة عين وغمضتها .

ـ «اسمحي لي» ، قال منحنياً فوق البسطة ، مخلصاً حاشية التنورة من الشرك ، «أكاد أفقد الأمل في أن تذكريني ، يا آنسة أوهارا» .

كان صوته ساراً حلو ، الجرس ، ولكنه كان مستهجناً ، صوت سيد رخيم أنيق ذو رنة تشوبها لهجة أهل شارلستون المطاطة .

ونظرت إليه مبتهلة متضرعة ، وقد تخضب وجهها بحمرة عار لقائهما الأخير ، والتقت عيناها بأحلك عيون سواداً رأتها في حياتها ، تتراقص أمامها في حبور لا يعرف الرحمة .

من بين جميع الناس ، في كل الدنيا ، يبرز الآن ، هنا ، هذا الرجل المخيف الذي شاهد فصلها المؤلم مع آشلي ، الفصل الذي ما زال يلاحقها بكوابيسه ، هذا الشقي المقيت الذي هتك أعراض الصبايا ، ولم يرحب به أحد من كرام الناس ، هذا الرجل الخسيس الذي قال ، ولسبب وجيه ، إنها ليست سيدة محترمة . . !

وعندما طرق صوته مسامع ميلاني ، التفتت نحوه ، وللمرة الأولى في حياة سكارلت ، شكرت ربها لوجود شقيقة زوجها إلى جانبها .

ـ «ماذا . . . إنه . . . إنه السيد ريت بتلر ، أليس كذلك؟» .

استوضحت ميلاني ، مادة يدها لتصافحه ، مبدية ابتسامة خفيفة ، لقد تقابلنا في . . .

ـ «في المناسبة السعيدة لإعلان خطوبتك» ، أكمل عبارتها منحنياً فوق يدها ، «لطيف منك أن تذكريني» .

ـ «وما الذي تفعله هنا ، بعيداً عن شارلستون؟» .

ـ «إحدى المهمات المتعبة ، يا سيدة ويلكس . منذ اليوم ، سيتكرر قدومي إلى مدينتكم ومغادرتي لها ، فلقد وجدت أن واجبي لا ينحصر في جلب البضائع وحسب ، بل يتعداه إلى تصريفها كذلك» .

ـ «جلب البضائع» بدأت ميلي مزوية ما بين عينيها ، ثم مشرقة بابتسامة ودية ، «إذاً أنت . . . أنت لا بد أن تكون الكابتن الشهير ، بتلر ، الذي سمعنا عنه كثيراً ـ مخترق الحصار ، إن كل فتاة في هذا الحقل ترفل بما جلبته من أثواب . سكارلت ، ألم تذهلك المفاجأة؟ . . ماذا في الأمر يا عزيزتي؟ . . هل غشي عليك؟ اجلسي . . .» .

وتهالكت سكارلت فوق الكرسي الصغير ، وقد اطرد تنفسها سريعاً بحيث خشيت على شرائط مشدها أن تتقطع . آه ، أي مصادفة مريعة ، لم يدر بخلدها يوماً أنها ستلتقي به ثانية ، أما هو فالتقط مروحتها السوداء ، من على البسطة ، وطفق يهوي لها جزعاً ، مبلبل الخاطر ، وقد غمر وجهه بمسحة الجد ، ولكن

عينيه ظلتا قلقتين :

ـ «إن الجو حار خانق هنا» قال ، «فلا عجب أن يغمى على الآنسة أوهارا . هل تأذنين لي بأخذك إلى إحدى النوافذ؟» .

ـ «لا» ، أجابت سكارلت بلهجة فيها الكثير من الجفاء جعلت ميلي تحملق فيها .

ـ «لم تعد الآنسة أوهارا» ، قالت ميلي ، «إنها السيدة هاملتون ، وهي الآن زوجة أخي» ، وغمرتها بنظرة ودية قصيرة ، بيد أن هذه أحست أنها سوف تختنق من وطأة التعبير الذي ينطق به وجه بتلر الأسمر كوجه القرصان .

ـ «إني واثق أن في ذلك كسباً عظيماً لسيدتين فاتنتين» ، قال منحنياً انحناءة خفيفة . تلك كانت ذات العبارة التي اعتاد أن يعقب بها جميع الرجال ، ولكن ساعة نطق بها هو ، تراءى لسكارلت كأنه يعني عكس ما يقول .

ـ «لا شك أن زوجيكما موجودان هنا الليلة ، في هذه المناسبة السعيدة؟ سيكون من دواعي سروري أن نجدد تعارفنا» .

ـ «زوجي في فرجينيا» ، قالت ميلي ، مشرئبة الرأس بدافع الفخر ، «ولكن تشارلز . . .» واحتبس صوتها .

ـ «مات في المعسكر» قالت سكارلت بفتور ، منتزعة الكلمات من صدرها انتزاعاً . ألن يبتعد هذا المخلوق عنا؟ وحملقت ميلي فيها واجمة مجفلة ، بينما أشار الكابتن بما ينم عن تبكيت الضمير .

ـ «سيدتيّ العزيزتين . . كيف يمكنني معرفة ذلك ، ينبغي أن تصفحا عني ، ولكن اسمحا لغريب أن يقول مؤاسياً : «الموت في سبيل الوطن هو الخلود الأبدي» .

فابتسمت له ميلاني من خلال دموعها المتلألئة ، بينما أحست سكارلت بالغضب الماكر ، والكراهية العاجزة ، ينهشان في كل أعضائها الحية . لقد نطق بعبارة طيبة مرة ثانية ، الثناء ذاته الذي يتفوه به أي إنسان فاضل في مثل هذه الظروف ، ولكنه في الحقيقة لا يعني كلمة واحدة مما نطق ، وإنما هو يسخر منها ، يعرف أنها لم تحب تشارلز ، وأن ميلي مجرد بلهاء كبيرة ، إذ لم تكتشف ذلك من تعابير وجهه . آه أرجوك يا إلـــهي ، لا تدع أحداً آخر يلاحظ شيئاً من طريقه ، فكرت والفزع قد بدأ ينتابها . هل يفصح عما يعرف؟ طبعاً ، إنه ليس

بالرجل الفاضل ، ولا يستطيع أحد معرفة تصرف اللئام ، فليس هناك قانون يستضاء به للحكم عليهم . ونظرت إليه ، فرأته قد أرخى شدقيه في تعبير عاطفي ساخر ، رغم أنه ما زال يهوي بالمروحة ، وأحست أن شيئاً في نظراته يستفز كبرياءها ، فعاودتها رباطة جأشها ، في دفق من البغضاء ، وفجأة انتزعت المروحة من يده ، وخاطبته بحدة :

ـ «إني في حالة جيدة تماماً ولا حاجة بك إلى بعثرة شعري» .

ـ «سكارلت ، عزيزتي . كابتن بتلر ينبغي أن تعذرها فهي . . . فهي تفقد رشدها ، وتنقلب إلى شخص آخر ، كلما سمعت اسم تشارلز على أفواه الناس ـ وفوق ذلك ، ربما كان من الواجب ألاّ نكون هنا الليلة ، فنحن ما زلنا في ثياب الحداد كما ترى ، إن مجيئنا إرهاق مضن لأعصابها ـ كل هذا المرح والموسيقى . . . يا للطفلة التعسة» .

ـ «فهمت السبب تماماً» ، قال متكلّفاً الاهتمام ، ولكن عندما التفت وألقى على ميلاني نظرة فاحصة نفذت إلى أعماق عينيها الحائرتين ، تغيرت سحنته ، وغمر وجهه الداكن احترام أبيّ ورقة ظاهرة «أعتقد أنك امرأة صغيرة شجاعة يا سيدة ويلكس» .

ـ «لا تقل كلمة عني !» هتفت سكارلت حانقة ، وهي تلمح ميلي تبتسم مرتبكة ثم تجيب :

ـ «لا كابتن بتلر ! لقد اضطرت لجنة المستشفى في الدقيقة الأخيرة إلى أن تعهد إلينا بهذا الكشك» .

واستدارت نحو ثلاثة فرسان وقفوا أمام البسطة ، وهجست لهنيهة ، كم أن الكابتن رجل دمث ، ثم تمنت أن لو كان يفصل بين تنورتها وبين المبصقة الموضوعة خارج الكشك ، حاجز اسمك من القماش الخام ، لأن تسديد الفرسان لسيل بصاقهم ، الممجوج بعصارة التبغ ، لم يكن محكماً ، كتسديد مسدساتهم الطويلة . على أنها ما عتمت أن نسيت الكابتن وسكارلت والمبصقة ، عندما تجمع أمام كشكها عدد لا بدأ به من الزبائن .

أما سكارلت فقد جلست ساكنة على الكرسي الصغير ، تحرك مروحتها وترجو أن لو يعود الكابتن بتلر إلى متن سفينته ، التي هي موطنه الحقيقي .

ـ «هل توفي زوجك منذ زمن؟» .

ـ «نعم ، منذ زمن طويل ، سنة تقريباً»

ـ «وهل طالت مدة زواجك؟ اصفحي عن أسئلتي ، لأني ظللت بعيداً عن المنطقة ردحاً مديداً» .

ـ «شهرين» أجابت سكارلت ممتعضة .

ـ «مأساة ، لا أقل أبداً» ، أردف بصوته المرن .

«آه ، ليلعنه الله» ، هجست سكارلت ساخطة ، لو أنه رجل آخر غير بتلر ، لانتصبت وأمرته بالانصراف ، ولكنه يعرف قصتي مع آشلي ، ويعرف أني لم أحب تشارلز . إن يدي مغلولتان . ولم تقل شيئاً ، بل ظلت مطأطئة الرأس ، تحدق في مروحتها .

ـ «وهذه أول مرة تظهرين فيها أمام المجتمع؟» .

ـ «أعرف أن هذا يبدو مستهجناً تماماً» أسرعت توضح موقفها ، «ولكن بنات ماك لور ، اللواتي عهد إليهن بإدارة هذا الكشك ، أستدعين للسفر ، ولم يوجد من يحل محلهن ، ولذلك فإنني وميلاني ـ » .

ـ «ليس من تضحية كبيرة تجاه قضية الوطن» .

إن هذا ما قالته السيدة ألسنغ ، ولكنها عندما نطقت به لم يقع في سمعها كشأنه الآن . وبلغت الكلمات الساخطة شفتيها ، ولكنها خنقتها قبل أن ترى النور ، هذا فضلاً عن أن وجودها هنا لم يكن في سبيل القضية الوطنية ، وإنما لأنها ملت الجلوس في البيت .

ـ «إني أفكر دائماً . . .» ، قال ، وكأن لسانه يعكس ما يدور بخلدها ، «إن نظام الحداد نظام حصر النساء ضمن أثواب الحرير الخام بقية حياتهن ، ومنعهن من المتع المشروعة ، بربري ، تماماً كنظام حرق زوجات الهنود المدعو ستي» .

ـ «ستي»؟

فقهقه بينما تورد وجهها خجلاً بسبب جهلها ، إنها تمقت كل الناس الذين يستعملون ألفاظاً غريبة عنها .

ـ «في الهند ، عندما يموت الرجل يحرقه أهله ، بدلاً من أن يدفنوه ، وفي العادة ، تعتلي زوجته حطب الموقد ، وتحرق نفسها بجانبه» .

ـ «ما أشنعها من عادة ! لماذا يلجأون إليها؟ ألا يقوم رجال الشرطة بشيء لمنع ذلك؟» .

ـ «طبعاً لا ، فالزوجة التي لا تحرق نفسها تنبذ في المجتمع ، وتتحدث جميع المتزوجات المحترمات حول تقاعسها عن الواجب المتحتم على السيدة الكريمة المحتد ، الراقية النشأة ، ـ تماماً ، كما يمكن أن يتحدث عنك أولئك النسوة المحترمات ، القابعات في الزاوية ، فيما لو ظهرت الليلة بثوب أحمر ، وافتتحت إحدى دورات الرقص . من وجهة نظري الشخصية ، أعتقد أن نظام الحرق الهندي أكثر رحمة بالمرأة من نظام الجنوب المثير في دفن الزوجة والحياة ما تفتأ تضج في أعطافها» .

ـ «كيف تجرؤ على القول إني دفينة في الحياة؟» .

ـ «ما أحرص النساء على التشبث بالأغلال ذاتها التي تقيدهن . أنت تعتبرين العادة الهندية همجية ، ـ ولكن هل كنت تملكين الشجاعة للظهور هنا في هذه الليلة لو أن الحلف لم يكن بحاجة ماسة إليك؟» .

حوار من هذا النوع ، كان يختلط عليها دائماً ، بيد أن الحوار مع ريت بتلر ضاعف حيرتها ، إذ كانت تحمل فكرة غامضة عن وجود حقائق في أحاديثه ، ولكن ، هذا هو الوقت السانح لتحطيمه .

ـ «طبعاً ما كنت لأجيء ، لأن ذلك يعتبر ـ حسناً ، امتهان لي . . . ـ سيبدو وكأني لم أحـ . . .» .

وعلقت عيناه تترقبان كلماتها ، وتشفان عن تهكم ساخر ، ولم تستطع هي تكملة حديثها . كان يعرف أنها لم تحب تشارلز ، ولن يدعها الآن تنتحل العواطف الرقيقة المهذبة التي ينبغي أن تنضح بها . أي مأزق مرعب ! مرعب أن تقسر على التعامل مع رجل ليس فاضلاً ، فالرجل الفاضل يبدو دائماً مصدقاً لما تقوله السيدة ، حتى لو عرف أن ما تقوله مجرد هراء . تلك كانت شيم فروسية الجنوب ، الرجل الفاضل ، يمتثل أبداً للأصول المتبعة ، وينطق بالأمور الصحيحة ، ويمهد سبل الحياة من أجل المرأة ، ولكن هذا الرجل ، لا يحفل بالأصول ، ومن الواضح أنه يطرب في التحدث عن المواضيع التي ما تحدث بها إنسان .

ـ «إني أنتظر على أحر من الجمر» .

ـ «أعتقد أنك رجل مخيف» ، قالت بوهن وقد نفدت حيلتها ، وأطرقت بعينيها إلى الأرض ، ولكنه حنا قامته فوق البسطة ، حتى قارب فمه أذنها ،

وعندئذ همس في تقليد ناجح لأوغاد المسرح الذين نادراً ما يظهرون في القاعة الإغريقية :

ـ «لا تخافي أيتها السيدة الجميلة ، فسرك الآثم في مأمن عندي» .

ـ «ها» ، همست بعصبية ، «كيف تجرؤ على التفوه ، بمثل هذه الكلمات؟» .

ـ «قصدت فقط تهدئة روعك ، ماذا تريدينني أن أقول؟ كوني لي أيتها الأنثى الجميلة ، وإلاّ فسأفضح كل شيء؟» .

والتقت عيناها بعينيه رغماً عنها ، ورأت أنهما كيادتان كعيني صبي صغير ، وفجأة ، ضحكت ، فالموقف على كل حال تافه سخيف ، وجاراها هو ، فضحك كذلك ، ولكن ، بصوت مرتفع جداً أثار انتباه عدد من الرقيبات المتزوجات في الزاوية ، فالتفتن نحوهما ليتأملن أي وقت طيب تنعم به أرملة تشارلز هاملتون مع رجل غريب ، ثم أدرن أعطافهن مستنكرات .

*

هدر قرع الطبول ، ونادى بعض الناس «أنصتوا!» بينما اعتلى المنبر الطبيب ميد ، ماداً ذراعيه يطلب الصمت :

ـ «يتوجب علينا جميعاً إسداء الشكر والامتنان للسيدات الفاتنات اللواتي لم تؤد جهودهن الوطنية التي لا تكل إلى نجاح هذا السوق الخيري نجاحاً مادياً وحسب» ، هكذا استهل الطبيب خطابه ، ثم تابع :

«وإنما حوّلن هذه القاعة الموحشة إلى حديقة غنّاء مظللة بالحسن والجمال ، حديقة لائقة بالورود الشذية التي أراها حولي» .

فصفق الجميع استحساناً وتأييداً .

«لقد بذلت السيدات جهدهن ، ليس فقط من ناحية التضحية بأوقاتهن ، بل ومن كد أيديهن ، وهذه الأمتعة الظريفة في الأكشاك ، بديعة ولا ريب ، أبدعتها على هذه الصورة الباهرة ، الأيدي الناعمة لنساء الجنوب الفاتنات» .

ودوت القاعة بهتافات تحمل أكثر من الاستحسان ، وهمس ريت بتلر ، الذي كان متكئاً باستهتار على البسطة بجانب سكارلت ، قائلاً : «تيس وقور ، أليس هو كذلك؟» .

فأجفلت ، وقد أفزعها هذا الجحود المنكر ، بحق أخلص مواطني أتلانتا ، وأحبهم إلى قلوب سكانها ، ورمقته بنظرة مؤنبة .

بيد أن الطبيب ، في الواقع ، كان يشبه التيس ، بسبال لحيته الشائبة وهي تتراقص متنافرة ، وبسرعة فائقة ، بحيث استطاعت سكارلت بالكاد أن تحبس ضحكتها .

وستطرد الطبيب :

ـ «ولكن كل هذه الأشياء لا تفي بالغرض ، فسيدات لجنة المستشفى الخيرات ، اللواتي خففت أيديهن الملائكية آلام كثير من الجباه ، وأنقذت من بين براثن الموت جرحانا الأبطال ، الذين نزفوا الدماء في سبيل أنبل القضايا الوطنية ، هؤلاء السيدات يعرفن حاجاتنا ، ولذلك لن أسردها على مسامعكم . ينبغي أن نجمع نقوداً أكثر لشراء المواد الطبية من إنكلترا ، وبهذه المناسبة أعلن أن الكابتن الجريء المقدام ، الذي يخترق الحصار بمهارة فائقة منذ سنة ، والذي سيخترقه ثانية لجلب العقاقير المحوجة ، الكابتن ريت بتلر ، موجود معنا ، هنا في هذه القاعة» .

ورغم أن مخترق الحصار فوجئ بذلك ، فقد أجاب بانحناءة شيقة ـ شيقة جداً ، فكرت سكارلت وهي تحاول تحليلها ، كأنه تقريباً تصنّع الإفراط في اللطف لأنه يزدري جميع الحاضرين ازدراء بالغاً ، مع أن هؤلاء انطلقوا في عاصفة من التصفيق إثر انحناءته ، واشرأبت أعناق السيدات في الزاوية نحوه . إذاً هو ذاك الرجل الذي استغرقت أرملة تشارلز المسكين في الحديث معه ، ولـمّا يمض سنة على وفاة زوجها !

ـ «إننا بحاجة إلى كمية أكبر من الذهب ، وإني أطلب إليكم تأمينها» ، أضاف الطبيب ، «إني سأسألكم تضحية ، ولكنها تضحية زهيدة جداً ، بحيث أنها إذا قورنت بتلك التي يقدمها رجالنا الأفذاذ في بذلاتهم الرمادية ، لبدت مضحكة ـ سيداتي ، إني أريد مصاغكن ، إني أريد مصاغكن؟ لا ، الحلف يريد مصاغكن ، الحلف يستصرخكن من أجله ، وأنا واثق بآن واحدة منكن لن تتقاعس عن تلبية النداء . ما أروع الجوهرة تتألق على المعصم الجميل ! وما أبدع الدبابيس الذهبية تتلألأ على صدور نسائنا الوطنيات ! ولكن كم هي التضحية أروع وأبدع بكثير من كل ذهب الهند ولآلئها ، فالذهب سيصهر ، والأحجار الكريمة ستباع وستنفق أثمانها لشراء العقاقير والأدوات الطبية الأخرى ، سيداتي ! سيطوف بكن اثنان من جرحانا المغاوير يحملان سلالاً و ـ» وغابت بقية عبارته

في عاصفة التصفيق وهدير الهتافات .

كان أول ما راود تفكير سكارلت ، الشكر العميق ، لكون حالة الحداد قد منعتها من التزين بقرطيها الثمينين ، وعقدها الذهبي الثقيل الذي كان يخص جدتها روبلارد ، والأساور الذهبية السوداء المطلية بالميناء ، والدبوس العقيقي ، ثم رأت الرجل الصغير ، وعلى ذراعه غير المصاب سلة من السنديان مفتوحة الفوهة ، وقد راح يمر بين الجمهور ، في ناحيتها ، وشاهدت النساء ، شابات وشائبات ، يضحكن متلهفات ، يهززن أساورهن ، ويزعقن مدعيات الألم ، والأقراط تنزع من جلودهن المثقوبة ،ويساعدن بعضهن في فك حلقات العقود الوثيقة ، ويسحبن الدبابيس من صدورهن ، واستمر صليل المعدن الخافت يتراكم فوق بعضه ، والصيحات : «انتظر ـ انتظر ـ لقد حللته الآن ، خذه» . كانت مايبيل ميريويذر تنزع سواريها المزدوجين البديعين من فوق مرفقيها ومن تحتهما ، وصاحت فاني ألسنغ : «ماما ، هل أقدمه؟» وهي تكاد تكسر مشبك الشعر المزخرف ، المزدان بفصوص اللؤلؤ ، والمرصع بالذهب ، والذي توارثته العائلة أجيالاً بعد أجيال ، وكلما انضم جديد إلى قافلة التبرعات كلما حمي التصفيق وعلا الهتاف .

واتجه الرجل الصغير الباسم نحو كشكهما الآن ، وقد رزح ساعده تحت عبء سلته الملأى ، وعندما مر بريت بتلر ، ألقى داخل السلة بعلبة سيجار ذهبية بديعة ، ثم بلغ سكارلت ، ووضع سلته على بسطة الكشك ، فهزت رأسها ، باسطة يديها كل البسط ، لتري أنها لا تملك شيئاً تتبرع به . كان من الممض أن تنفرد من بين الحاضرين بعدم العطاء ، ولكن ، سرعان ما قيد بصرها الألق القوي ، ينبعث من خاتم زواجها الذهبي العريض .

انقضت هنيهة حائرة ، حاولت خلالها أن تتذكر وجه تشارلز ـ كيف بدا وهو يدخله في إصبعها ، بيد أن الذكرى جاءت شوهاء ، شوهاء من جراء الشعور المفاجئ بالضيق ، ذلك الشعور الذي يعتورها كلما تذكرت تشارلز ـ لقد كان السبب في انتهاء حياتها ، السبب في صيرورتها امرأة مسنة .

وقبضت على الخاتم بحركة لولبية مفاجئة ، ولكنه لم يتزحزح ، ومضى الرجل نحو ميلاني .

ـ «انتظر» صاحت سكارلت ، «عندي ما أقدمه» . وغادر الخاتم موضعه ،

وعندما همت بإلقائه في السلة ، المليئة بالسلاسل والساعات والخواتم والدبابيس والأساور ، لمحت عيني ريت بتلر . كان يعض شفته بابتسامة خفيفة ، ولذلك ألقت بالخاتم فوق كومة المصاغ ، متحدية مزدرية .

ـ «ها ، يا عزيزتي» ، همست ميلي ، قابضة على ذراعها ، وعيناها تشعان بالحب والكبرياء ، «إنك شجاعة ، فتاة شجاعة ، انتظر ـ أرجوك ، انتظر ، لفتنانت بيكارد ، عندي شيء لأقدمه كذلك» .

كانت تنزع خاتم زواجها ، الخاتم الذي تعرف سكارلت أنه لم يبارح أصبعها منذ وضعه آشلي ، وكانت سكارلت تعرف أيضاً ، دون سواها ، كم يعني ذلك الخاتم بالنسبة إلى ميلاني . وخرج الخاتم بصعوبة ، وتمسكت به اليد الصغيرة ، وضغطت عليه ، ولكن لبضع ثوان فقط ، ثم وضعته بعدها ، برقة ، فوق كومة المجوهرات .

وقفت الفتاتان شاخصتين في إثر الرجل ، الذي اتجه نحو عصبة السيدات المسنات في الزاوية ، وقد نطق وجه سكارلت بأمائر التحدي والازدراء ، بينما رنت عينا ميلاني بنظرة تستدعي الشفقة أكثر من الدموع ، ولم يغب ما انطوى عليه كلا التعبيرين عن الرجل الواقف تجاههما .

ـ «لو لم تكوني بمثل هذه الشجاعة التي حفزتك للإقدام على هذا العمل ، لما تشجعت أبداً» ، قالت ميلي ضامة سكارلت بذراعها ، ضاغطة حول خصرها قليلاً ، وللوهلة الأولى ، خطر لسكارلت أن تدفعها بعيداً ، وأن تصيح باسم الله ، بأعلى صوتها ، كما كان يفعل جيرالد كلما تستفز ثائرته ، ولكنها لمحت عيني بتلر ، فاصطنعت بسمة صغيرة .

كان من المزعج أن تسيء ميلي ، نفسها ، فهم بواعث أعمالها ، ولكن ربما كان ارتيابها حول الحقيقة أفضل بكثير من معرفتها .

ـ «ما أروعه من رمز !» قال ريت بتلر ملاطفاً ، «إن تضحيات كهذه التي أقدمتما عليها تغذي منابع البطولة في قلوب رجالنا الشجعان الفخورين بذلاتهم الرمادية» .

استقرت الكلمات الحاقدة القاسية على شفتيها ، ولم تستطع ردعها إلاّ بصعوبة . إن هناك سخرية في كل ما ينطق به ، إنها تبغضه من كل قلبها ، وهو متكئ متهالك على الكشك . ولكن ، كان يوجد شيء مثير يتعلق به ، شيء

دافئ حيوي وكهربائي ، وتحفز كل ما تملك من خصائص إيرلندية لمقابلة تحدي عينيه السوداوين ، وقررت أنها لا بد أن تخضع هذا الرجل بخدشة أو خدشتين . إن معرفته سرها تقوي جانبه بشكل مغيظ ، فعليها أن تقلب الوضع وتفضي به إلى زعزعة مركزة بأية حيلة . وخنقت رغبتها القوية في مصارحتها بحقيقة رأيها فيه . إن السكر يجذب دائماً من الذباب ، أكثر مما يجذب الخل ، كما قالت مامي تكراراً ، ولذلك فسوف تصطاد وتخضع هذه الذبابة ، حتى لا يستطيع أبداً وضعها تحت رحمته مرة ثانية .

ـ «أشكرك» ، استهلت بعذوبة ، متعمدة تجاهل سخريته اللاذعة . «إن إطراء كهذا يصدر عن إنسان ذائع الصيت ، طبقت شهرته الآفاق ، كالكابتن بتلر ، يلقى كل تقدير» .

فألقى برأسه إلى الوراء وضحك ضحكة عالية ـ عوى ، كما فكرت سكارلت مغتاظة ، وقد تخضب وجهها ثانية .

ـ «لماذا لا تجاهرين بما يدور بخلدك حقيقة؟» ، استوضحها راجياً ، خافضاً صوته بحيث لم يصل إلا إلى أذنيها فقط ، نظراً للغط الجمهور وصخبه ، «لماذا لا تقولين إني وغد لعين ، ولست إنساناً فاضلاً ، وإنه يتوجب علي أن أنصرف بعيداً ، وإلا ستطلبين إلى أحد هؤلاء الجنود الشهام أن يدعوني إلى المبارزة؟» .

وصعد الجواب المر إلى رأس لسانها ، ولكنها نجحت برادع وطني في أن تقول :

ـ «ما هذا التصرف يا سيد بتلر؟ !! كأن الناس لا يعرفون جميعاً مدى شهرتك ، وعظم شجاعتك و . . . و . . .» .

ـ «لقد خابت آمالي فيك» ، قال .

ـ «خابت؟ !*» .

ـ «نعم ، فخلال لقائنا الأول ، الحافل بأحداثه ، اعتقدت شخصياً أني وجدت أخيراً الفتاة التي تتحلى ليس فقط بجمالها ، بل وبشجاعتها أيضاً ، وها أني الآن أرى أنك جميلة وحسب» .

ـ «هل تقصد أن تتهمني بالجبن؟» ، سألت وهي تنتفض حنقاً .

ـ «تماماً» ، تنقصك الجرأة للتصريح بما يراود خاطرك حقاً ، وعندما التقيت بك للمرة الأولى ، حدثتني نفسي قائلة : «توجد فتاة واحدة بين مليون ، إنها

ليست كأولئك الصغيرات الحمقاوات ، اللواتي يصدقن كل ما تخبرهن أمهاتهن ، ويتصرفن بموجبه ، دون اهتمام لأحاسيسهن وميولهن الخاصة ، فيحجبن شعورهن ورغباتهن ومشاكل قلوبهن الموجعة وراء سجف من الكلمات العذبة» ، وقلت في نفسي أيضاً : «الآنسة أوهارا فتاة ذات روح نادرة ، إنها تعرف ما تريد ، ولا تخشى التصريح برأيها . . ولا قذف أصص الأزهار» .

ـ «ها» ، قالت وقد اشتعلت غيظاً ، «سأصارحك برأيي هذه المرة إذاً ، دون لف أو دوران : لو كنت على قسط من التهذيب لما سولت لك نفسك القدوم أبداً ، والتحدث معي ، ولكنت أدركت أني لا أرغب مطلقاً في أن تقع عيناي عليك مرة ثانية . إنك مجرد مخلوق قميء عديم التربية ، وأنت تعتقد أنه نظراً لاختراق زوارقك الصغيرة البالية طوق الحصار ، صار من حقك المجيء هنا والاستهزاء برجال شجعان ، وبنساء يضحين بكل ما يملكن في سبيل القضية الوطنية .

ـ «كفى ، كفى» ، رجاها مبدياً نواجذه بابتسامة فاترة ، «لقد أجدت في البداية ، وجاهرت بما تفكرين به ، ولكن لا تبدئي في محادثتي عن القضية ، فلقد سئمت السماع عنها ، وإني أراهن أنك أيضاً ـ» .

ـ «كيف ، كيف عرفت ـ» وهمت بالاسترسال وقد فقدت اتزانها ، ولكنها ما لبثت أن كبحت جماحها بسرعة ، والنقمة على نفسها تغلي غلياناً لوقوعها في شركه .

«وقفت هناك في المدخل قبل أن تريني ، ورحت أراقبك» ، ثم أضاف : «وراقبت بقية الفتيات . لقد بدت وجوه الجميع وكأنها جبلت من طينة واحدة ، إلاّ وجهك ، هذا الوجه الذي تسهل قراءة مكنوناته ، كنت مبددة الفكر ، لا تأبهين بما عهد إليك ، وإني أراهن أنك لم تكوني تفكرين بقضيتنا أو بالمستشفى ، كل ما شف عنه وجهك ، رغبتك في الرقص ، وفي التمتع بوقت طيب ، وإنك عاجزة عن بلوغ أربك . وهكذا بدوت تماماً كالمجنونة . أخبريني الحقيقة . ألست مصيباً؟» .

ـ «ليس عندي ما أقوله بعد الذي صارحتك به ، يا كابتن بتلر» . قالت بلهجة جازمة قدر الإمكان ، محاولة إسدال مزق كرامتها حول نفسها ، «إن مجرد انتفاخ رأسك بالغرور ، لكونك . . . مخترق الحصار الشهير ، لا يمنحك

حق إهانة النساء» .

ـ «مخترق الحصار الشهير! تلك فكاهة وأيم الحق ، أتوسل إليك أن تتكرمي علي بدقيقة أخرى من وقتك الثمين ، قبل أن تقذفي بي في الظلمات ، فأنا لا أريد لوطنية صغيرة ، فاتنة جداً ، أن تترك أسيرة عدم تفهم حقيقة مساهمتي في قضية الحلف» .

ـ «لا يهمني سماع تبجحك» .

ـ «خرق الحصار مهنة بالنسبة إلي ، أكسب منها مالاً ، وعندما تكف عن در المال علي سأعتزلها ، ما رأيك في ذلك؟» .

ـ «رأيي أنك وغد مأجور . . . تماماً كجنود الشماليين» .

ـ «تماماً» ، أجاب مبتسماً ، «والشماليون يساعدونني في كسب المال ، كيف لا ، وفي الشهر الماضي قدت زورقي إلى مرفأ نيويورك مباشرة ، وشحنت حمولة» .

ـ «ماذا؟ !» ، صاحت سكارلت مشدوهة وقد تولاها الاهتمام رغماً عنها ، «ألم يطلقوا عليك النار؟» .

ـ «يا مسكينتي الساذجة! طبعاً لا ، فهناك الكثير من وطنيي الاتحاد الذين لا يتورعون عن جني المال من طريق بيع البضائع للحلف . إني أتسلل بزورقي إلى نيويورك ، وأبتاع من شركات شمالية ، في الخفاء طبعاً ، ثم أختلس طريقي عائداً ، وعندما يتهددني بعض الخطر ، أبحر إلى ناسو عاصمة ولاية تينسي حيث يجلب لي وطنيو الاتحاد ، هؤلاء أنفسهم ، الرصاص والقنابل وتنانير الأطواق . إن ذلك يوافقني أكثر من الذهاب إلى إنكلترا . في بعض الأحيان ، تعترضني صعوبات قليلة في التسلل إلى شارلستون أو ولمنفتون ـ ولكنك ستدهشين إذا علمت إلى أي مدى يفعل قليل من الذهب!» .

ـ «ها ، كنت أعرف أن الشماليين لئام ، ولكني ما كنت لأعرف ـ» .

ـ «لماذا تخطئين بحق أهل الشمال ، الذين يبيعون قضية الاتحاد لكسب سنت شريف؟ فذلك لن يؤثر ولو استمر مائة سنة ، والنتيجة ستكون هي هي . إنهم يعرفون أن الحلف سيندحر في النهاية ، وإذاً ، لماذا لا ينتهزون الفرصة ، ويجنون الأموال الطائلة؟» .

ـ «نندحر؟ ! نحن؟ !» .

ـ «طبعاً» .

ـ «هل تتكرم بتركي وشأني ـ أو هل ينبغي أن أطلب عربتي وأذهب إلى البيت لأتخلص منك؟» .

ـ «يا لك من ثائرة صغيرة متأججة» . قال ذلك بابتسامة فاترة أخرى ، ثم انحنى وغادرها متلكئاً في مشيته ، مخلفاً وراءه قلب فتاة يخفق بوجيب الغضب القاصر ، والسخط المكبوت .

كانت مرارة الخيبة تستعر في جوفها بحيث لم تستطع تحليل الذي وقع تحليلاً شاملاً ، إنها خيبة الطفلة التي تشاهد بأم عينها ذوبان الوهم وتفتت الغرور . كيف جرؤ على القول بأن الحلف سيندحر؟ ينبغي قتله عقاباً له ، رميه بالرصاص كالخونة . وطوحت نظرها في الغرفة تتصفح الوجوه الأليفة ، المؤمنة جداً بالنصر ، المخلصة كثيراً ، بيد أنها ، بصورة ما ، عرت سويداء قلبها قشعريرة مثلوجة . . . ندحر؟ كل هؤلاء الناس . . . ـ كيف ، بالطبع لا ! مجرد الفكرة أمر مستحيل . . . خيانة .

ـ «ماذا كنتما تتهامسان؟» سألت ميلاني ملتفتة نحو سكارلت وقد انصرف زبائنها ، «لم أستطع احتمال رؤية السيدة ميريويذر ترمقكما شزراً طيلة الوقت ، وأنت تعرفين ، يا عزيزتي ، كيف تتحدث» .

ـ «أف لهذا الرجل ، إنه لا يحتمل ، إنه جلف ، سيئ الخلق» ، قالت سكارلت ، «أما السيدة ميريويذر العجوز ، فدعيها تتحدث بما تشاء . لقد سئمت العمل كبلهاء حمقاء من أجل مصلحتها فقط» .

ـ «كيف؟ ! سكارلت» ، صاحت ميلاني بصوت عال .

ـ «اصمتي !» قالت سكارلت ، «الدكتور ميد سيلقي خطاباً آخر» .

وتلاشى صخب الجمهور ، فيما الطبيب يدوي صوته شاكراً السيدات اللواتي تبرعن بحليهن عن طيبة خاطر ، ثم أضاف :

ـ «والآن أيها السيدات والسادة ، سوف أزجي إليكم اقتراحاً مثيراً . . . بدعة قد تذهل بعضكم ، ولكني أدعوكم إلى أن تتذكروا أن كل ما نقوم به هو في سبيل المستشفى ومن أجل خير شبابنا الراقدين على أسرتهم» .

فاشرأبت أعناق الجميع ، يترقبون ما سيدلي به ، ويحاولون التكهن بما قد يقترحه الطبيب الوقور ، ويكون مذهلاً . أما هو فقد أردف :

ـ «لقد أوشك الرقص أن يبدأو والدورة الأولى ستكون بالطبع رقصة الريل ، يتبعها الفالس ، ثم الرقصات التالية التي سيسبق كلاً منها رقصة ريل قصيرة : البولكا ، سكوتش ، المزركا . إني واثق بأن المنافسة الشريفة ستوجه حلقات الريل توجيهاً طيباً جداً . . . وهكذا ـ »وقطب الطبيب جبينه ، ورمى بنظرة حائرة نحو الزاوية ، حيث جلست زوجته بين المسنات ، «أيها السادة ، إذا رغب أحدكم في افتتاح دورة ريل مع السيدة التي يختارها ، عليه أن يساوم من أجلها ، وسأكون دلأل المزاد ، وسيعود ريع الرقص إلى المستشفى» .

وما إن أتم كلامه حتى جمدت المراوح ، وسرت في القاعة همهمة من دوي ذاهل ، وضجت زاوية المتزوجات ، وأسقط في يد السيدة ميد ، المتلهفة لدعم زوجها في مشروع تستنكره من كل قلبها ، وتخضبت وجوه السيدات ألسنغ ، ميريويذر ، ويتنغ غضباً ، على أن جنود الحرس الوطني هتفوا فجأة ، مرحبين بالفكرة ، وتبعهم المجندون الضيوف ، أما الشابات فقد صفقن طرباً ، ووثبن فرحات .

ـ «ألا تعتقدين أنها ـ أنها كسوق نخاسة صغيرة تماماً؟» همست ميلاني ، مرتابة رانية نحو الطبيب المتأهب للدفاع عن رأيه ، والذي كان فيما مضى مكتمل الشخصية بنظرها .

لم تجب سكارلت ، ولكن عينيها توهجتا ، وعرا قلبها مس من ألم ، لو أنها ليست أرملة ، لو أنها فقط تعود سكارلت أوهارا مرة ثانية ، هناك فوق الحلبة ، في فستان أخضر ، وشرائط مخملية خضراء قاتمة ، تتدلى من صدرها ، وزهرة المسك الرومي مثبتة في مؤخرة شعرها ، لافتتحت رقصة ريل . بلى ، إنها الحقيقة ، سيتدافع من أجل يدها عشرات الرجال ، يدفعون نقوداً جمة للطبيب ، آه كيف تجبر على الجلوس هنا ، كصبية كاسدة ، رغماً عنها ، وترى فاني أو مايبيل تفتتح رقصة الريل الأولى كحسناء أتلانتا !

ودوى صوت الرجل الصغير ، أعلى من الضوضاء ، وقد بانت لهجته الغريبة :

ـ «إذا سمحتم . . . عشرون دولاراً على شرف الآنسة مايبيل ميريويذر» .

ذابت مايبيل خجلاً ، مجتمية بكتف فاني ، ثم أخفت الفتاتان رأسيهما ، كل خلف عنق الأخرى ، واستغرقتا في الضحك ، بينما شرعت أصوات جديدة ، تعلن عن أسماء فتيات أخرى ، ومبالغ أخرى ، وعاودت البسمة ثغر

الطبيب ، متجاهلاً كل التجاهل همسات السخط الصادرة من لجنة سيدات المستشفى في الزاوية .

في البدء ، كانت السيدة ميريويذر قد أعلنت جازمة ، وبصوت مرتفع ، أن ابنتها مايبيل لن تشترك في إجراء كهذا ، ولكن عندما تردد اسم مايبيل أكثر من أي اسم آخر ، وارتفع المبلغ إلى خمسة وسبعين دولاراً ، تلاشت اعتراضاتها تدريجاً .

اتكأت سكارلت بمرفقيها على بسطة الكشك ، متفرسة بالحشد ، المرح الضاحك ، يتدفق حول الدكة ، وفي أيديه أوراق الحلف النقدية .

سيرقص الجميع الآن . . . إلا هي ، والعجائز ، كل الحاضرين سيسعدون بفرصة طيبة الآن . . . إلا هي ، ورأت ريت يقف ، ورأسه تلقاء قدمي الطبيب تماماً ، وقبل أن تتمكن من تحوير سحنة وجهها لمحها وانخفض أحد شدقيه ، وارتفع حاجب من حاجبيه ، فدفعت ذقنها عالياً ، وأشاحت بوجهها عنه ، وفجأة سمعت باسمها ينادى عليه . . . ـ ينادى عليه بصوت شارلستوني جلي ، مدوياً أعلى من رنين الأسماء الأخرى :

ـ «السيدة تشارلز هاملتون ، مائة وخمسون دولاراً ـ ذهباً» .

وران صمت مفاجئ على الحضور ، جراء ذكر كلا المبلغ والاسم المنادى عليه . وجمدت سكارلت منبهرة ، بحيث لم تستطع حراكاً ، فاستمرت جالسة ورأسها بين يديها ، وعيناها جاحظتان عجباً ، واستدار الجميع يرومون رؤيتها ، ولمحت الطبيب ينحني بقامته من على الدكة ويهمس في أذن بتلر ، ربما أخبره أنها في حالة حداد ، ومن المحال عليها أن تظهر في الحلبة ، ولكن ريت هز كتفيه بفتور .

ـ «أتريد حسناء أخرى من حساننا؟» استوضح الطبيب .

ـ «لا» أفصح ريت بوضوح ، وعيناه تجتاحان الجموع باستهتار ، «السيدة هاملتون» .

ـ «أخبرتك أن ذلك مستحيل» ، قال الطبيب محتداً ، «فالسيدة هاملتون لن . . .» .

وسمعت سكارلت صوتاً ، لم تتبين في البدء أنه صوتها : ـ «أنا أريد ، نعم أريد» .

وانتصبت واقفة ، وقلبها يقرع بشدة ، بحيث خافت أن تعجز عن الوقوف ، يقرع بفرحة صيرورتها محور الجاذبية مرة أخرى ، بفرحة كونها أكثر الفتيات الحاضرات ارتقاباً ، وفوق ذلك كله ، بفرحة عودتها إلى حلبة الرقص ثانية .

ـ «آه ، أنا لا آبه ، لا آبه بما يقولون» ، همست عندما اعتراها مس من الجنون ، وقذفت رأسها أماماً ، وانطلقت خارج الكشك ، تدق الأرض بقدميها كصناجتين ، وجذبت مروحتها الحريرية السوداء ناشرة إياها على مداها ، ورأت خلال هنيهة عابرة وجه ميلاني غير مصدق ما يجري أمامه ، كما رأت نظرات السيدات الرقيبات ، والصبايا الحانقات ، واستحسان الجنود الصارخ . ثم ألفت نفسها في مكان الرقص ، وريت بتلر يتقدم نحوها في الممر الضيق بين مقاعد الجمهور ، وتلك البسمة الخبيثة الهازئة تعلو وجهه ، ولكنها لم تحفل ـ لم تحفل حتى ولو كان أيب لنكولن ذاته . . . المهم أنها ستعود إلى الرقص ثانية . . . ستفتتح رقصة الريل . وحيته بانحناءة مهذبة ، وابتسامة خلابة ، وانحنى هو ، ويده على صدره الخافق بكشاكشه ـ وإذ راع ليفي للأمر أسرع إلى ستر الوضع بأن صاح : «انتخبوا شريكاتكم لريل فرجينيا» . وعزفت الموسيقى أشجى أنغام الريل «دكسي» .

ـ «كيف جرؤت على إشهاري هكذا يا كابتن بتلر؟» .

ـ «ولكن ، يا عزيزتي السيدة هاملتون ، إن رغبتك في الشهرة كانت جلية واضحة» .

ـ «كيف وسعك المناداة باسمي علناً أمام الجميع؟ !» .

ـ «كان بمقدورك الرفض» .

ـ «ولكن ـ ولكنها القضية ، فأنا ـ أنا لم أستطع التفكير بشخصي حين تبرعت بهذا المبلغ الضخم من الدولارات الذهبية . كف عن الضحك ، الجميع شاخصون بأبصارهم نحونا» .

ـ «سيشخصون نحونا على كل حال . لا تجربي أن تسوقي هذا الهراء حول القضية إلي ، كنت تتحرقين شوقاً إلى الرقص ، وقد منحتك الفرصة . هذه الخطوات آخر حلقة في الريل ، أليس كذلك؟» .

ـ «بلى . . . حقاً . . . ينبغي أن أتوقف وأن أجلس الآن» .

ـ «لماذا؟ هل وطئت قدميك؟» .

ـ «لا ، ولكنهم سيشهرون بي» .

ـ «هل تحفلين حقاً . . . في أعماق قلبك؟» .

ـ «على كل حال . . .» .

ـ «إنك لا ترتكبين إثماً . . . أليس كذلك؟ لماذا لا ترقصين الفالس برفقتي؟» .

ـ «ولكن لو حدث وعلمت أمي بـ . . .» .

ـ «ما زلت تتعلقين بأهداب أمك؟» .

ـ «آه . . . إنك تملك أدهى طريقة لجعل الفضائل تبدو حماقات نكراء» .

ـ «ولكن الفضائل حمقاء ، هل تأبهين إذا ما هذى الناس وثرثروا؟» .

ـ « . . . ولكن . . . على كل حال . . . دعنا نقلع عن هذا الحديث ! الحمد لله لقد بدا الفالس ، فالريل يقطع أنفاسي دائماً» .

ـ «لا تتملصي من سؤالي ، هل حدث وأهمّك ما يقوله الناس؟» .

ـ «ها ، إذا كنت تريد اختباري . . . ـ لا ! ولكن يفرض في الفتاة أن تتأثر مع أني هذه الليلة لا أحفل أبداً» .

ـ «حسناً ! . . لقد بدأت الآن تفكرين لنفسك ، بدلاً من جعل الآخرين يفكرون لك ، تلك بداية الحكمة» .

ـ «لكن . . .» .

ـ «عندما يشهر بك ، بالقدر الذي شهر بي ، عندئذ تتحققين من تفاهة الأثر الذي تخلفه ثرثرة الناس . تأملي فقط ، كيف أني لا أجد في شارلستون بيتاً واحداً يرحب بي ، حتى أن خدماتي لقضيتنا المقدسة لم تشفع برفع الحرمان عني» .

ـ «ما أفظع ذلك !» .

ـ «لا . . . لا أبداً ، بإمكانك يوم تخسرين سمعتك الطيبة أن تتبيّني أي عبء مرهق هي ، أو بالأحرى ، ما هي الحرية الحقة !» .

ـ «هذا هراء معيب» .

ـ «معيب وصادق . بوسعك دائماً العمل دون اعتبار للسمعة ، شريطة أن تملكي الشجاعة أو المال» .

ـ «المال لا يقوى على شراء كل شيء» .

- «لا بد أن أحداً لقنك هذا، فأنت لا تفكرين وحدك بحديث مبتذل كهذا. ما الذي لا يقوى المال على شرائه؟».

- «ها .. لا أعرف - لا السعادة ولا الحب ... على كل حال».

- «يستطيع بصفة عامة، وعندما يعجز، يمكنه شراء بعض ما يعوض عن ذلك من أرفع الأمور قيمة وشهرة».

- «وهل تملك مثل هذا المال الوفير يا كابتن بتلر؟».

- «أي سؤال صفيق يا سيدة هاملتون! إني مندهش، ولكن، نعم بالنسبة إلى رجل تُخلّي عنه في شبابه وليس بحوزته شلن واحد. لقد جمعت ثروة طائلة، وإني واثق من جمع مليون دولار من اختراق الحصار».

- «لا؟!!».

- «نعم، يظهر أن معظم الناس لم يستبينوا بعد إمكانية جني الأموال الطائلة من انهيار حضارة ما، بالقدر ذاته الذي تجنى فيه الثروة في أثناء تشييد هذه الحضارة».

- «وماذا يعني هذا كله؟».

- «يعني أن عائلتك وعائلتي، وعائلة كل من الحاضرين هنا الليلة، جمعت ثرواتها نتيجة لعملية استبدال المدنية بالهمجية، أي بناء أمبراطورية، حيث توفر الأموال الطائلة، ولكن توجد أموال أوفر في انهيار هذه الأمبراطورية».

- «عن أية أمبراطورية تتحدث؟».

- «عن هذه الأمبراطورية التي نعيش فيها - عن الجنوب - الحلف - مملكة القطن - إنها تنهار تحت أقدامنا، غير أن معظم الأغبياء لا يشعرون بذلك فيستغلوا الوضع الناجم عن هذا الانهيار».

- «أنت تعتقد أننا سنندحر حقيقة إذاً؟!».

- «نعم، ولماذا أكون كالنعامة».

- «يغيظني حديثك بمثل هذه الآراء، يا عزيزي. ألا يمكن أن تفصح عن أمور طيبة يا كابتن بتلر؟!».

- «هل يسعدك أن أقول: «عيناك وعاء سمك ذهبي مليئان حتى القمة بأصفى المياه الخضراء، وعندما يطفو السمك على القمة، كما هو الآن، تبدين فتاة خلابة ساحرة؟!».

ـ «أنا لا أميل إلى مثل هذا . . . ـ أليست الموسيقى شجية؟ بوسعي رقص الفالس إلى الأبد ، ما كنت أعلم أني نسيته هكذا . . .» .

ـ «أنت أمهر راقصة ضمتها ذراعاي» .

ـ «كابتن بتلر ، ينبغي ألاّ تضمني بعنف زائد ، الجميع ينظرون إلينا» .

ـ «لو أن أحداً لم يكن ينظر ، هل كنت تحفلين؟ !» .

ـ «كابتن بتلر ، نسيت نفسك» .

ـ «ولا دقيقة ، كيف أستطيع ذلك وأنت بين ذراعي؟ ! . . ما هذا اللحن ، أليس جديداً؟» .

ـ «بلى . . . أليس رائعاً؟ إنه شيء اقتبسناه من أهل الشمال» .

ـ «ما اسمه؟» .

ـ «اسمه : حين تنتهي هذه الحرب الضروس» .

ـ «ما هي كلماته؟ غنه لي» .

ـ «يا أعز الناس عليّ ، هل تذكر
يوم تقابلنا آخر مرة؟
عندما أخبرتني بعظيم حبك ،
وأنت راكع عند قدمي؟
آه ، ما أشد ما بدوت فخوراً أمامي
ببذلتك الرمادية ،
عندما أقسمت أن تبقى
مخلصاً لي ولوطنك .
أبكي حزينة وحيدة ،
ولكن ما جدوى الأهات والعبرات؟ !
عندما تنتهي هذه الحرب الضروس ،
أرجو أن نلتقي مرة ثانية !»

ـ «طبعاً ، كانت في الأصل ، ببذلتك الزرقاء ، فحولناها إلى الرمادية ـ أنت ترقص الفالس بمهارة فائقة يا كابتن بتلر . معظم ضخام الأجسام لا يقوون على ذلك ، كما تعلم . يؤلمني أن أفكر أنه ستنقضي سنين وسنين ، قبل أن يتاح لي الرقص ثانية» .

ـ «بل دقائق معدودة فقط ، إذ سأطلبك للريل القادم ـ والذي يليه ، والذي يليه» .

ـ «لا ، لا أقدر ، ينبغي أن لا تقدم على ذلك ، فستدمّر سمعتي» .

ـ «إنها الآن حطام ، فما تأثير رقصة أخرى؟ وربما أفسحت في المجال للشبان الآخرين ، بعد أن أراقصك خمساً أو ستاً ، بيد أني يجب أن أنعم بالأخيرة» .

ـ «ها ، لا بأس . . . أعرف أني أتصرف كالمجنونة ، ولكني لا أحفل ، لا أحفل مطلقاً بما يقوله أي إنسان ، لقد سئمت جداً الجلوس في البيت . . سوف أرقص وأرقص ـ » .

ـ «ولن ترتدي السواد؟ إني أنفر من ثياب الموتى» .

ـ «لا أستطيع نزع رداء الحداد ـ كابتن بتلر ، ينبغي ألآ تضمني بعنف زائد ، سيجن جنوني عليك إذا فعلت» .

ـ «وأنت تبدين رائعة في نوبة الجنون ، سأعصرك مرة ثانية ـ هيا ـ فقط لأرى إن كنت ستجنين . إنك تجهلين سحر الرواء الذي زانك ذلك اليوم في تولف أوكس ، عندما جننت وطوحت بالأصيص . . .» .

ـ «ها ، أرجوك ـ ألن تنسى ذلك الحادث؟» .

ـ «لا ، فهو إحدى ذكرياتي التي لا تقدّر بثمن : حسناء جنوبية مرفهة النشأة ، بطبع إيرلندي يغلي . أنت إيرلندية دماً ولحماً كما تعلمين» .

ـ «هذه نهاية العزف يا عزيزي ، وتلك هي العمة بيتي بات خارجة من الغرفة الخلفية . إني أعرف أن السيدة ميريويذر لا بد أن أخبرتها . . . بالله عليك ، دعنا نذهب هنالك ، ونطل من النافذة . . . فأنا لا أريدها أن تراني الآن . . .» .

*

10

عند تناول الشاي في صباح اليوم التالي، انهمرت الدموع من عيني بيتي بات البكاءة، بينما ران الصمت على ميلاني وهي تستمع إلى سكارلت متحدية:

- «أنا لا أحفل إذا ما تحدثن عني، أراهن أني جمعت مالاً للمستشفى أكثر من أية فتاة أخرى - أكثر أيضاً من كل الأشياء العتيقة الشوهاء التي بعناها.

- «آه يا عزيزتي، ماذا يفيد المال؟»، ولولت بيتي مستوضحة بلَيّ راحتيها «لم يسعني تصديق عيني وتشارلز المسكين لم يمض عام على وفاته... وذلك الكابتن اللئيم، بتلر... شهر بك للعيان... وهو الرجل المرعب، المرعب جداً... يا سكارلت، لقد حدثتني عنه ابنة عم السيدة ويتنغ، السيدة كولمان، التي حضر زوجها من شارلستون. إنه الخروف الأسود بين أفراد عائلة طيبة - آه، كيف يمكن أن ينقلب أحد أبناء آل بتلر إلى زنيم كهذا؟ لقد لفظته شارلستون، وتردى في عار سمعته، وهناك قضية تتعلق بفتاة - قضية فاضحة جداً لم تعلم بها السيدة كولمان».

- «ها، لا يسعني الاعتقاد بأنه ذلك الرجل الشرير» قالت ميلي بلطف، «فهو يبدو إنساناً كاملاً. وعندما تتأملين مقدار جرأته وهو يخترق الحصار...».

- «إنه ليس جريئاً» اعترضت سكارلت بحزم، ساكبة نصف قارورة شراب فوق قطع الكعك التي تخصها، «إنه يقوم بذلك من أجل المال فقط، وهو الذي أخبرني بهذه الحقيقة. إن قضية الحلف لا تهمه مطلقاً، بل يدعي أننا سنندحر. إلا أنه يرقص رقصاً ممتازاً».

فألجم الفزع جليستيها.

- «لقد مللت الجلوس في البيت، ولن أظل كذلك بعد اليوم، وإذا كانوا قد شهروا بي حول ما حدث الليلة الماضية، فهذا يعني أن سمعتي انحطت، ولن يؤثر ما سيقولونه أكثر بعد ذلك».

ولم يدر بخلدها أن هذه فكرة ريت بتلر، لقد جاءت صائبة، ولاءمت كل

الملاءمة ما كان يدور بتفكيرها .

ـ «آه ، ماذا ستقول أمك عند سماعها بالأمر؟ ماذا ستظن بي» .

واجتاح سكارلت وخز الإثم الفاتر ، وهي تتمثل أمها مذعورة مبهورة ، لو قدّر لها معرفة سلوك ابنتها المشين ، ولكنها تشجعت لكون المسافة بين أتلانتا وتارا تبلغ الخمسة والعشرين ميلاً ، ومن المؤكد أن الآنسة بيتي لن تطلعها على الحادث ، لأن ذلك سيكشف عن كونها رقيبة فاشلة ، وإذا ما حبست بيتي لسانها عن الثرثرة ، سلمت سكارلت .

ـ «أعتقد» ، قالت بيتي ، «أجل أعتقد أن من الأفضل أن أكتب لهنري رسالة حول الموضوع ـ على كره مني ـ لأنه الرجل الوحيد بين أقربائنا ، وأدعوه ليذهب ويؤنب الكابتن بتلر ـ آه يا عزيزتي ، لو أن تشارلز حي فقط ـ ينبغي أن لا تتحدثي إلى ذلك الرجل مرة ثانية ، أبداً ، أبداً . . .» .

كانت ميلاني تجلس صامتة ساكنة ، يداها في حجرها ، وقطع كعكها مكومة في الطبق ، ثم نهضت ومشت إلى خلف سكارلت ، وطوقت عنقها بذراعيها :

ـ «عزيزتي ، لا تقلقي ، لقد تفهمت حقيقة موقفك ، وإنها لشجاعة تلك التي قمت بها الليلة الفائتة ، وسوف تكون عوناً كبيراً للمستشفى ، وإذا ما تجرأ أي إنسان على التفوّه بكلمة واحدة صغيرة ، سأعمل أنا على إيضاح الحقيقة له . . . عمتي بيتي ، لا تبكي ، كان من العسير على سكارلت أن تنزوي في البيت ، أن لا تخرج إلى أي حفل ، إنها لا تزال فتية» ، وعبثت أصابعها بشعر سكارلت ، «وربما كان من الأفضل كثيراً أن نخرج جميعنا من حين إلى آخر ، وربما كنا أنانيين جداً ، ونحن نقبع هنا ، نرزح بأحزاننا . إن أوقات الحرب تختلف عن غيرها . عندما أفكر بأمر جميع الجنود الذين في المدينة ، البعيدين عن مواطنهم ، والذين يفتقرون إلى أصدقاء يذهبون لزيارتهم في الليل ـ وأمر أولئك الذين في المستشفى ممن تحسنت حالتهم إلى درجة تمكنهم من مغادرته دون العودة إلى الجيش ـ عندما أفكر بأمر هؤلاء وأولئك جميعاً أشعر بأننا حقاً أنانيون . ينبغي أن يكون معنا ، هنا في البيت ، ثلاثة من الجنود الناقهين ، الآن في هذه الدقيقة ، ككل الناس الآخرين ، وأن ندعو بعض الجنود إلى العشاء مساء كل أحد . كفى يا سكارلت ، لا تخافي ، فالناس لن يتفوهوا بكلمة إذا

وعوا الحقيقة ، نحن نعرف أنك تحبين تشارلز» .

كانت سكارلت بعيدة عن أن تخاف ، وكانت يدا ميلاني الناعمتان تضايقانها وهما تعبثان بشعرها ، وهمت أن تدفعها بعيداً وتصيح بها قائلة : «هذا هراء» ، إذ ما زالت الذكرى المنعشة حية في مخيلتها ، ذكرى عراك جنود الحرس الوطني والميليشيا وجرحى المستشفيات ليحظوا بمراقصتها في الليلة الماضية . إنها لا تريد دفاع ميلي عنها من بين جميع الخلق في الدنيا . إن بوسعها الدفاع عن نفسها . شكراً لك يا ميلي . . . وإذا أرادت العجائز الحقودات أن يتخرصن بشيء . . . فلا بأس ، إن بوسعها المضي في طريقها دون الالتفات إلى أولئك الشمطاوات ، فهنالك العديد من الضباط الوسام في الدنيا يتنافسون لنيل رضاها .

وفيما كانت بيتي بات تكفكف دموعها بفعل كلمات ميلي الملطفة ، دخلت برسي تحمل رسالة :

ـ «هذه لك يا آنسة ميلي ، أحضرها زنجي صغير» .

ـ «لي؟ !» ، قالت ميلي بدهشة وهي تشق الغلاف .

كانت سكارلت ماضية في التهام الكعك بشهية ، فلم تلاحظ شيئاً حتى طرق مسامعها صوت انهمار الدمع من عيني ميلاني ، وعندما رفعت بصرها ، رأت يد العمة بيتي بات تتجه إلى قلبها .

ـ «مات آشلي !» صرخت بيتي بات ، ملقية رأسها إلى الخلف ، مرخية ذراعيها .

ـ «آه ، يا إلـــهي» ، صاحت سكارلت ، وقد تحول دمعها إلى ماء مثلوج .

ـ «لا ! لا» صاحت ميلي ، «أسرعي ، أملاح الإغماء ، يا سكارلت» .

ـ «اسمعي ، اسمعي يا حلوتي ، هل تشعرين بتحسن؟ تنفسي بعمق ، لا ، ليس آشلي ، إني أسفة جداً لإرعابك ، لقد بكيت من شدة الفرح» . وفجأة فتحت قبضتها وضغطت بشيء كان داخلها على شفتيها :

ـ «إني سعيدة جداً» ، وهمى الدمع ثانية .

وبنظرة عابرة ، لمحت سكارلت أن الشيء كان خاتماً ذهبياً عريضاً .

ـ «اقرأيها» قالت ميلي مشيرة إلى الرسالة على الأرض «ها ، ما أعذبه ! . . ما ألطفه !» .

التقطت سكارلت الرسالة دهشة ، لتقرأ فيها ما يلي بخط أسود خطته يد جريئة :

«قد يحتاج الحلف إلى دماء رجاله ، ولكن ، حتى الآن لم يطلب دماء قلوب نسائه . تقبلي أيتها السيدة العزيزة هذا الخاتم ، رمزاً لتقديري واحترامي لشجاعتك ، ولا تظني أن تضحيتك ذهبت سدى ، لأن الخاتم قد استرد بعشرة أضعاف ثمنه . كابتن بتلر» .

أدخلت ميلاني الخاتم في أصبعها ونظرت إليه هائمة .

ـ «أخبرتك أنه إنسان فاضل ، أليس كذلك؟» قالت ملتفتة نحو بيتي بات ، وقد أضاءت ابتسامتها وسط حبات الدمع المنثورة على وجهها . . . . «فلن يخطر على باب أحد ، غير رجل مثقف مفكر ، كيف تفطر قلبي ألماً عندما ـ سأبعث بسلسلتي الذهبية عوضاً عنه . عمي بيتي بات ، ينبغي أن تبعثي له بطاقة دعوة للعشاء يوم الأحد ، كيما أستطيع شكره» .

وتحت تأثير نشوة الفرح ، لم تفطن كلٌ من ميلاني وعمتها إلى أن الكابتن بتلر لم يرجع خاتم سكارلت أيضاً ، ولكن هذه الأخيرة فكرت بالأمر مستاءة . كانت تعرف أن ثقافة بتلر لم توح بهذه البادرة السامية ، وإنما القضية أنه عزم على أن يتدبر أمر دعوته إلى بيت بيتي بات ، وعرف بالضبط كيف يتصرف ، ويحظى بطلبته .

*

«لقد تألمت كثيراً عند سماع نبإ سلوكك مؤخراً ، مضت رسالة إيلين تقول ، بينما امتقع وجه سكارلت ، التي كانت تقرؤها ، وهي تجلس إلى المنضدة . حقاً إن الأخبار السيئة تنتشر بسرعة . لقد سمعت مراراً وهي في شارلستون ، وسافانا ، أن أهل أتلانتا يثرثرون ، ويتدخّلون بشؤون الآخرين ، أكثر من أي جماعة في الجنوب . وها هي تتحقق من ذلك الآن ، فالسوق الخيرية أقيمت مساء الاثنين ، واليوم هو الخميس وحسب ، فأي من تلك العجائز الحقودات أخذت على عاتقها الكتابة لإيلين؟ وللوهلة الأولى ارتابت ببيتي بات ، ولن سرعان ما تخلت عن تلك المظنة ، فهذه التعيسة كانت شديدة الخشية من أن تلام على سلوك سكارلت المشين ، وهي آخر من يطلع إيلين عن رقابتها القاصرة ، من المرجح أن تكون السيدة ميريويذر إذاً .

واستطردت الرسالة : «من الصعب علي تصديق نسيانك لنفسك وتربيتك .

سأتغاضى عن عدم لياقة ظهورك في المجتمع وأنت بثوب الحداد ، لرغبتك الخارقة في مؤازرة المستشفى ، ولكن أن ترقصي ، ومع رجل كالكابتن بتلر ! لقد سمعت الكثير عنه (ومن لم تسمع بعد؟ !) ، وفي الأسبوع المنصرم فقط ، كتبت لي بولين أنه رجل ذو سمعة شائنة ، حتى إن عائلته نفسها في شارلستون ، لا تستقبله ، باستثناء أمه المفؤودة طبعاً . إنه رجل قميء للغاية . سيستغل شبابك وطهرك وسذاجتك ليشهر بك ، ويصم عائلتك بالخزي والعار . كيف أمكن للآنسة بيتي أن تتقاعس عن واجبها حيالك؟ !» .

ونظرت سكارلت عبر المنضدة إلى عمتها العجوز التي ما إن تبيّنت خط إيلين حتى تهدل فمها الصغير السمين فاضحاً خوفها الشديد ، كالطفل الذي يخشى التوبيخ ، ويأمل دفعه بالدموع .

وتابعت الرسالة قائلة : «إن قلبي يتفطر ألماً وأنا أفكر أنك نسيت تربيتك بهذه السرعة ، وخطر لي أن أدعوك إلى البيت فوراً ، ولكني سأدع ذلك لحكمة والدك . سيكون في أتلانتا يوم الجمعة ، ليواجه الكابتن بتلر ، وليعيدك معه إلى البيت . أخشى أن يقسو عليك ، رغم توسلاتي إليه . آمل وأرجو الله أن يكون الشباب والطيش هما اللذان استدرجاك إلى هذا التصرف الأهوج . ليس هناك من يرغب في خدمة القضية الوطنية أكثر مني ، وأنا بدوري أرغب في أن تشاركني بناتي الرغبة ذاتها ، ولكن أن تشوهي . .» .

وتستمر الرسالة على النسق ذاته ، ولكن سكارلت ارتأت أن تكف عن القراءة ، لأن الهلع تولاها دفعة واحدة ، ولم تعد تشعر بالتحدي واللامبالاة الآن ، بل شعرت أنها صغيرة وآثمة ، شأنها يوم كانت في العاشرة من العمر ، يوم قذفت سولين بقطعة البسكويت المطلية بالزبدة عبر المائدة . ما آلم أن تفكر بوالدتها الحنونة تعنفها بهذه القسوة الطاغية ، وبقدوم والدها إلى المدينة لمحادثة الكابتن بتلر . إن خطورة الأمر الحقيقية تتضخم في ذهنها . سيكون جيرالد قاسياً ، وستكون هذه إحدى المرات التي لن تستطيع فيها التملص من العقاب ، وذلك بالجلوس على ركبتيه ، تناغيه حيناً وتشتط طوراً .

ـ «لا ، لا أخبار سيئة؟» استوضحت بيتي بات بخوف .

ـ «والدي آت في الغد ، وسوف يجثم فوقي كبطة فوق بقة حزيران» .

أجابت سكارلت لاهثة النفس .

ـ «برسي ، أحضري الأملاح» أمرت بيتي بات متلعثمة ، دافعة كرسيها بعيداً عن وجبة طعامها نصف المأكولة ، «إني ـ إني أشعر بالإغماء» .

ـ «إنها في جيب تنورتك» ، قالت برسي التي كانت تحوم خلف سكارلت ، تمتع نفسها بهذه التمثيلية العاطفية . لقد كان السيد جيرالد إنساناً مثيراً أبداً وهو ثائر ، شريطة ألاّ يكون ثورانه هذا منصباً على وجهها المتغضن المشوه .

عبثت بيتي بتنورتها ثم رفعت قارورة الأملاح إلى منخريها .

ـ «يجب عليكما أن تقفا إلى جانبي ، وأن لا تتركاني وحيدة معه ، ولو لدقيقة واحدة ، نشجت سكارلت ، «إنه مغرم بكما كليكما ، فإذا وجدكما معي فلن يستطيع الهياج علي» .

ـ «لا أستطيع» ، قالت بيتي بات بصوت خافت ، وهي تتحامل على قدميها . «إني ـ إني أشعر بالمرض ، ينبغي أن أسرع إلى سريري ، سأنام طوال الغد ، عليك أن توضحي له أعذاري» .

«جبانة !» فكرت سكارلت ، محدقة بها .

أما ميلي فاستجمعت قواها للدفاع عن سكارلت ، رغم شحوب وجهها وجزع قلبها من تصور مواجهة السيد أوهارا الناري ، «سوف . . . سوف أساعدك في إيضاح كيفية إقدامك على ذلك العمل من أجل المستشفى ، ومن المؤكد أنه سيتفهّم الحقيقة» .

ـ «لا ، لن يفهم» قالت سكارلت ، «آه ، سوف أموت إذا أرغمت على العودة إلى تارا ، في موكب الخزي ، كما تتوعد أمي» .

ـ «لن يسعك العودة إلى البيت» ، صاحت بيتي بات ، وقد انهمرت دموعها ، «وإذا عدت ، سأضطر ـ نعم سأضطر إلى الطلب من هنري أن يأتي للإقامة معنا ، وأنت تعرفين أني لا أستطيع أبداً العيش بصحبته . إني قلقة جداً برفقة ميلي وحدها في البيت في أثناء الليل ، والمدينة تعج بالعديد من الغرباء . أنت شجاعة جداً ، ولذلك لا أخشى بوجودك البقاء هنا دون حماية رجل» .

ـ «لن يستطيع أخذك إلى تارا» قالت ميلي ، وقد بدت كأنها على وشك البكاء أيضاً ، «هذا هو بيتك الآن ، ماذا يمكن أن نفعل بغيابك؟ !» .

ـ «ستكونان سعيدتين بالاستغناء عني ، لو عرفتما حقيقة نظرتي إليكما» فكرت سكارلت بمرارة ، متمنية وجود شخص آخر غير ميلاني يدافع عنها أمام

سخط والدها . إن من المؤلم أن يدافع عنك من تبغضه أشد البغض .

ـ «قد يكون من الواجب إلغاء دعوة الكابتن بتلر» ابتدرت بيتي بات .

ـ «ها ، لا يمكننا ذلك ، وإلا اعتبر عملنا منتهى الفظاظة» صاحت ميلي مستاءة .

ـ «ساعداني على بلوغ السرير . . . سوف ينتابني المرض» بكت بيتي بات ، «آه يا سكارلت ، كيف ترضين بجلب كل هذه المصائب لرأسي؟» .

وكما كان يُتوقع ، كانت بيتي طريحة الفراش ، عندما وصل جيرالد مساء اليوم التالي ، فبعثت إليه بكثير من عبارات الأسف ، من خلف باب مخدعها الموصد ، موكلة إلى الفتاتين ، المذعورتين ، الإشراف على مائدة العشاء . ورغم أنه قبّل سكارلت وقرص وجنة ميلاني مطرياً وداعياً إياها «ابنة العم ميلي» إلاّ أنه ظل مخلداً لصمت ينذر بشر مستطير . وفضلت سكارلت ، دون تصميم سابق ، أن تجأر بالشكوى وتغلظ الأيمان ، أما ميلاني ، فوفاء بوعدها ، تعلقت بأهداب سكارلت ، وأثبت جيرالد أنه إنسان مهذب إلى حد كبير ، فلم يوبخ ابنته أمام ميلي . وكان على سكارلت أن تقر بأن ميلي قامت بواجبها خير قيام ، متصرفة كما لو أنها تجهل أن خطيئة ما قد ارتكبت ، والحق أنها نجحت في إلهاء جيرالد بالحديث ، بعد تناولهم العشاء .

ـ «أريد أن أعرف كل شيء عن الولاية» ، قالت باشة في وجهه ، «فإنديا وهوني لا تراسلانني كثيراً ، وأنا أعلم أنك تحيط بكل ما يجري هناك . أخبرنا إذاً عن عرس جون فونتين» .

وفعلت الممالأة فعلها ، وتحمس جيرالد قائلاً إن العرس جرى دون ضجة ، «ليس كعرسيكما ، لأن إجازة جو لم تتعد أياماً قليلة ، أما سالي ، ابنة مونرو الصغيرة ، فقد بدت وافرة الحسن» .

وطبعاً ، لم يستطع تذكر الثوب الذي ظهرت به ، ولكنه سمع أنها لم ترتد فستان اليوم الثاني .

ـ «لم تلبسه !» صاحت الفتاتان بصوت فاضح .

ـ «حتماً ، لأنها لم تنعم بيوم ثان» ، أوضح جيرالد مستغرقاً في الضحك ، قبل أن يفطن ، إلى أن عبارات كهذه لا تليق بآذان الإناث . وارتفعت معنويات سكارلت حتى الذروة ، نتيجة لضحك والدها ، فباركت خطة ميلاني .

ـ «عاد جو إلى فرجينيا في اليوم التالي» ، أضاف جيرالد مسرعاً ، «ولم يقوما بزيارات في الجوار ، ولم تنظم حفلات رقص ، هذا وقد رجع التوأم تارلتون إلى البيت» .

ـ «بلغنا ذلك ، هل التأمت جراحهما؟» .

ـ «لم تكن جراحاً بليغة ، ستيوارت أُصيب في ركبته ، واخترقت رصاصة كتف برنت ـ هل بلغك أيضاً أنهما تلقيا رسالتي تقدير لشجاعتهما؟» .

ـ «لا ، أخبرنا» .

ـ «كلاهما بعقل أرنب ، أعتقد أن شيئاً من الدم الإيرلندي يجري في عروقهما» قال جيرالد ضاحكاً ، «نسيت العمل الذي قاما به ، ولكن برنت برتبة لفتنانت الآن» .

فرحت سكارلت لدى سماعها عن بطولتهما ، سرت كأن الأمر يخصها ، إذ إن اقتناعها لا يتبدد أبداً في أن الرجل يظل من المعجبين المدلهين بها ، إذا اتفق وكان عشيقها يوماً . وعندئذ تؤول كل منجزاته الخارقة لوحي طبيعتها وسحرها .

ـ «وفي جعبتي نبأ سيثير دهشتكما . . . يقال إن ستيوارت عاد إلى غزله في تولف أوكس» .

ـ «هوني أو إنديا؟» استوضحت ميلي مشدوهة ، بينما جحظت عينا سكارلت بالأسى .

ـ «ها ، الآنسة إنديا طبعاً ، ألم تكن على علاقة وثيقة به ، إلى أن شرعت ابنتي الوقحة هذه ، تغازله بعينيها» .

ـ «ها» قالت ميلي ، مستاءة إلى حد ما ، بفعل صراحة جيرالد .

ـ «ومن ثمَّ أيضاً ، بدأ برنت الشاب يتسكع حول تارا هذه الأيام» .

لم تستطع سكارلت التفوه بكلمة واحدة ، فهجر عشاقها لها أمر مهين ، ولا سيما أنها تذكرت كيف احتج التوأم بحدة بالغة ، عندما أنبأتهما بعزمها على الزواج بتشارلز ، حتى إن ستيوارت هدد بقتله ، أو قتل سكارلت ، أو نفسه ، أو الثلاثة معاً ، لقد كان ذلك مثيراً للغاية .

ـ «سولين؟ !» استفسرت ميلي ، مفترة عن ابتسامة عذبة «ولكني ظننت أن السيد كندي . . .» .

ـ «ها هو» ، قال جيرالد «فرانك كندي ما انفك يحوم حولها ، وهو يخاف عليها من ظله ، وسأطلب منه الإسراع في إعلان قصده إذا لم يصرح بذلك . لا ، إنها صغيرتي» .

ـ «كارين؟ !» .

ـ «ليست أكثر من طفلة» قالت سكارلت متكدرة ، بعد أن كان قد عقد لسانها .

ـ «إنها أصغر بسنة واحدة تقريباً مما كنت يوم زواجك يا آنسة» أجاب جيرالد محتداً «هل ذاك حقد على عشيقك القديم لميله نحو شقيقتك؟ !» .

فاحمر وجه ميلي خجلاً ، إنها لم تألف مثل هذه الصراحة ، ولذلك أشارت إلى بطرس أن يجلب فطائر البطاطا الحلوة ، ثم اندفعت مهووسة تبحث عن موضوع آخر في تلافيف عقلها ، موضوع لا يكون خاصاً كهذا ، وإنما يصرف السيد أوهارا عن غاية رحلته . ولم يسعها التفكير بشيء ، بيد أن جيرالد ، وقد شرع في الكلام ، لم يعد بحاجة إلى من يحفزه على التحدث سوى وجود المستمعين ، فاستطرد في الحديث عن لصوصية دائرة التموين ، التي تزيد طلباتها كل شهر ، وعن حماقة جفرسون ديفس الماكرة ، وعن دناءة الإيرلنديين الذين تطوعوا في جيش الشماليين بإغراء المال الوفير .

وعندما وضعت كؤوس الشراب على المائدة ، ونهضت الفتاتان لتتركاه وحيداً ، رمق جيرالد ابنته بنظرة قاسية ، من تحت جبينه المقطب ، وأمر بانفرادها وإياه لدقائق معدودة ، وعندها نظرت سكارلت بعين اليأس إلى ميلي ، التي راحت تطوي منديلها ، عاجزة عن عمل شيء ، ثم خرجت موصدة الباب .

ـ «ما هذه القصة يا آنستي؟ !» صاح جيرالد وهو يملأ كأسه من شراب النبيذ . «هل هي بدعة طريفة في السلوك؟ هل هو زواج آخر ذاك الذي تبغين ، وما زلت حديثة عهد بالترمل؟ !» .

ـ «لا ترفع صوتك كثيراً يا أبي فالخدم . .» .

ـ «لقد عرفوا بالأمر ، تأكدي أنهم عرفوا ، وكل الناس علموا بعارنا ، هذا العار الذي أقعد أمك في فراشها ، وحال دون رفع رأسي بين الناس . يا للعار ، لا يا آنسة ، ليس بك حاجة إلى أن تناوري بالدموع هذه المرة» قال مسرعاً والغضب يغلف صوته ، وهو يلمح جفني سكارلت ينتفضان وفمها يتكور «إني

أعرفك ، إنك لا تتورعين عن الغزل في حياة زوجك ، لا تبكي انتبهي ، لن أقول هذه الليلة أكثر مما قلت ، لأني سوف أقابل هذا الكابتن بتلر الظريف ، الذي استخف بسمعة ابنتي غاية الاستخفاف . ولكن في الصباح ـ انتبهي الآن ، لا تبكي ، لن أتساهل معك أبداً ، أبداً ، سأكون حازماً ، وستعودين إلى تارا غداً ، قبل أن تشينينا جميعاً مرة ثانية . لا تبكي يا مدللة ، انظري ما جلبته لك ! أليست هذه هدية ظريفة؟ ! انظري ، تطلعي ، كيف رضيت أن تزجي بي في مثل هذه المتاعب النكراء ، وترغميني على قطع كل هذه المسافة الطويلة ، في الوقت الذي أنا رجل متخم بالعمل ، لا تبكي !» .

*

كانت ميلاني وبيتي قد أوتا إلى سريريهما منذ ساعات ، ولكن سكارلت ظلت مستيقظة في العتمة ، تسمع وجيب قلبها المنهلع جزعاً . أن تغادر أتلانتا في الوقت الذي استأنفت الحياة لذاذاتها ، وتعود إلى البيت وتواجه إيلين ، فذلك ما لا تتحمّله . إنها تفضل الموت على مواجهة أمها ! وتمنت لو كانت مغيبة تحت التراب في هذه الدقيقة عينها ، وعندئذ ، سينهش الأسف قلوب الجميع ، لأنهم نفروها من الحياة . واستدارت ملقية رأسها فوق الوسادة الساخنة ، إلى أن طرق مسامعها ضجة في أعلى الشارع الساكن ، واستهجنت كون هذه الجلبة أليفة على أذنيها ، مع أنها مبهمة يصعب تمييزها ، وزلقت من على السرير متجهة إلى النافذة . كان الشارع ، بصفي أشجاره المتعانقة ، ساكناً صامتاً ، يلفه الظلام ، وتظلله سماء قاتمة ترصعها النجوم ، واقتربت الضجة : هدير عجلات ، وقع حوافر متئدة ، أصوات بشرية . وفجأة كشرت عن أسنانها ، لقد بلغ مسامعها صوت أجش تشوبه اللهجة الإيرلندية ، وتفوح منه رائحة الويسكي ، وهو يتعالى مرنماً : «بج في عربة منخفضة المؤخرة» ، لقد عرفته . ومع أن اليوم ليس يوم قضاء في جونسبورو ، إلا أن جيرالد كان عائداً إلى البيت في الحالة الزرية ذاتها .

ولمحت الهيكل الأسود لعربة خيل تقف أمام البيت ، ويترجل منها أشخاص لم تستطع تمييز هوياتهم ، كان أحد الناس يرافقه ، وتريّث شخصان عند البوابة ، وسمعت صوت المزلاج وصوت أبيها يتبعه واضحاً .

ـ «والآن سأغني لك أغنية «النواح» التي مطلعها : «اندبي روبرت إيميت»

إنها أغنية ينبغي لك معرفتها يا بني ، سأعلمك إياها» .

ـ «إني أحب تعلمها» ، أجاب رفيقه ، وفي صوته الممدود المتباطئ إيماءة ضحك مكتوم «ولكن ليس الآن يا سيد أوهارا» .

ـ «آه ، يا إلـهي ، إنه ذلك البغيض ، بتلر!» هجست سكارلت منزعجة لأول وهلة ، ثم استجمعت شتات جأشها ، إذ على الأقل ، لم يقتل أحدهما الآخر ، ولا بد أنهما توصلا إلى شروط ودية حتى أتيا البيت معاً في هذه الساعة ، وفي مثل هذه الحالة .

ـ «سوف أغنيها ، وسوف تنصت لي ، وإلا فسأقتلك لأنك أورانجي» .

ـ «لست أورانجياً ـ أنا شارلستوني» .

ـ «هذا ليس أفضل ، بل أسوأ ، شقيقتا زوجتي تسكنان شارلستون فأنا عليم بها» .

ـ «هل سيُسمع جميع الجيران؟» فكرت سكارلت مذعورة ، وهي تتناول دثارها . ولكن ما الذي تستطيع عمله؟ إنها لا تستطيع النزول إلى الطابق السفلي في مثل هذه الساعة من الليل وتجر والدها من الشارع . وبدون سابق إنذار ، دفع جيرالد رأسه إلى الوراء وهو مستند إلى البوابة ، وشرع يغني نشيد «النواح» بصوت مدو عميق ، بينما اتكأت سكارلت بمرفقيها على حافة النافذة تستمع إلى النشيد وتبتسم رغماً عنها .

واستمر الغناء ، وبلغ أذنيها حركة صادرة من غرفتي ميلاني وبيتي بات . تانك التعستان ستكونان فريسة الفزع الآن ، فهما لم تألفا تصرفات رجال أشداء كجيرالد . وعندما انتهت الأغنية ، تقدمت هامتا شخصين مندمجين في قالب واحد ، وصعدا الممشى الخارجي ثم الدرجات ، وبعدها سمع قرع حذر على الباب .

ـ «أظن أن من واجبي النزول» ، فكرت سكارلت «فهو أولاً وآخراً والدي ، قد تموت بيتي المسكينة قبل أن تتمكن من النزول» . هذا بالإضافة إلى أنها لم تكن تريد أن يرى الخدم والدها وهو بحالته الزرية الحاضرة . كما أن من المحتمل تمنُّعه فيما لو جرب بطرس حمله إلى السرير . لقد كان بورك الإنسان الوحيد الذي يعرف كيف يسيطر عليه .

لفت سكارلت جسدها بالدثار ، الذي شبكته بدبوس حول عنقها ، ثم

أضاءت شمعة جانب السرير، وهرعت تهبط السلم المعتم إلى القاعة الأمامية، وهناك وضعت الشمعة على الحاملة، وفتحت الباب، فلمحت في ظلال الضوء المرتعش ريت بتلر، مهندماً في غاية الأناقة يسند والدها البدين، الصغير الجثة. من الواضح أن نشيد «النواح» كان أغنية جيرالد الأثيرة، فها هو متعلق بذراع رفيقه علناً، وقد طارت قبعته عن رأسه، وتشعث شعره الجعد الطويل، فغدا كعرف فرس أبيض، وانحرف رباط عنقه إلى تحت أذنه، وتلطخ صدر قميصه ببقع الشراب.

- «والدك كما أعتقد؟» قال الكابتن بتلر، وعيناه طروبتان في وجهه الأسمر، تلك العينان اللتان أحاطتا بثياب نومها بنظرة واحدة كادت تخترق دثارها.

- «أدخله»، قالت باقتضاب وهي مرتبكة بلباسها، ساخطة على أبيها لزجه بها في وضع يتيح لهذا الرجل الهزء بها.

دفع ريت جيرالد أماماً، وقال:

- «هل أساعدك على الصعود به إلى الطابق الثاني، فلن تستطيعي تدبر الأمر وحدك، إنه ثقيل».

وانفغر فوها رعباً لوقاحة هذا العرض. تأمل فقط ما يمكن أن تظنه بيتي وميلاني، وهما راقدتان في سريريهما، لو صعد ريت إلى الطابق العلوي.

- «يا إلـــهي، لا! هنا وحسب، على تلك الكنبة».

- «هل أنزع نعليه؟».

- «لا، فقد نام بهما من قبل».

كان يمكن أن تقطع لسانها عقاباً على زلتها هذه، فقد ضحك ريت برقة، وهو يرسم شارة الصليب على ساقي جيرالد.

- «أرجوك أن تذهب الآن».

مشى بتلر في القاعة المعتمة، والتقط قبعته التي ألقى بها على عتبة الباب.

- «سأراك يوم الأحد على العشاء». قال وهو يوصد الباب خلفه بهدوء.

نهضت سكارلت في الخامسة والنصف صباحاً، قبل أن يكون الخدم قد ولجوا من الساحة الخلفية لإعداد الفطور. هبطت الدرج بخفة إلى الطابق السفلي الساكن، وهناك رأت جيرالد قد استيقظ وجلس على الكنبة، ضاغطاً

رأسه الصلب بين راحيته ، كما لو أنه يريد سحقه . وعندما دخلت نظر إليها خلسة ، لقد كان الألم الناجم عن تحريك عينيه مبرحاً جداً ، أكثر من أن يحتمله ، ولذلك كان يئن .

ـ «لقد سلكت سلوكاً رائعاً ! بابا» ، ابتدرته في همس غاضب «بمجيئك إلى البيت في مثل تلك الساعة ، وإيقاظك الجيران كلهم بغنائك» .

ـ «أنا غنيت؟ !» .

ـ «غنيت؟ لقد أيقظت نجوم السماء وأنت تغني «النواح» .

ـ «لا أذكر شيئاً من ذلك» .

ـ «الجيران سيذكرون كل شيء حتى يوم مماتهم ، وكذلك الآنستان بيتي بات وميلاني» .

ـ «يا لله !» تأوه جيرالد ، محركاً لساناً يتكاثف فوقه البياض ، حول شفتين جافتين ، «إن ما أذكره قليل ، بعد أن باشرنا اللعب» .

ـ «اللعب؟ !» .

ـ «ذلك الوغد الحقير بتلر ، تبجح أنه أحسن لاعب بوكر في . .» .

ـ «وكم بلغت خسارتك؟» .

ـ «لقد ربحت ، هذا أمر بدهي ، كأس أو اثنان تساعدان على كسب اللعب» .

ـ «انظر في محفظة نقودك !» .

وكأن كل حركة من حركاته كانت سكرة من سكرات الموت ، أخرج جيرالد حافظته من معطفه ، وفتحها ، كانت فارغة خاوية ، فنظر إليها باندهال وانخذال .

ـ «خمسمائة دولار !» قال «جلبتها لشراء بعض الأشياء من المهربين للسيدة أوهارا ، والآن لا أملك حتى أجرة الطريق إلى تارا !» .

وفيما هي ترنو حانقة إلى الحافظة الفارغة تبادرت إلى ذهنها فكرة سرعان ما أينعت :

ـ «لن أستطيع رفع رأسي في هذه المدينة» ابتدرته «لقد جللتنا بالعار جميعاً» .

ـ «احفظي لسانك يا آنسة ، ألا ترين رأسي يكاد يتصدع ألماً» .

- «تأتي البيت ثملاً مع رجل كالكابتن بتلر، وتغني بأعلى صوتك كي يسمعك الجميع، ثم تضيع كل تلك النقود . . .» .

- «إنه ماهر جداً في لعب الورق، بحيث لا يمكن اعتباره فاضلاً لأنه ـ» .

- «ماذا ستقول أمي عند سماعها بالأمر؟» .

وتطلع إليها فجأة مدركاً قصدها، والعذاب ينهش قلبه .

- «أنت لن تخبري أمك بكلمة واحدة وتكدريها، أليس كذلك؟» .

فلم تقل شيئاً، بل زمت شفتيها .

- «فكري الآن كم سيؤذيها ذلك، وهي الرقيقة جداً» .

- «ولأفكر يا أبي أنك قلت، ليلة الأمس فقط، ، إني شننت العائلة، أنا، من جراء رقصتي الصغيرة التعسة في سبيل أن أجمع المال للجنود . آه، أريد أن أبكي» .

- «لا، لا تبكي» توسل جيرالد، سيكون ذلك أكثر مما يستطيع رأسي المسكين احتماله، ومن المؤكد أنه يتصدع الآن» .

- «وكذلك قلت إني ـ» .

- «انتبهي يا بنيتي، انتبهي يا بنيتي، لا تتكدري مما قاله والدك العجوز المسكين، وهو لا يقصد شيئاً، ولا يعرف شيئاً! إني واثق أنك فتاة رائعة حسنة النية، أجل إني واثق» .

- «ومع ذلك تريد أن تعيدني إلى البيت يحف بي العار» .

- «آه يا عزيزتي، ما كنت لأفعل ذلك، وإنما أردت إغاظتك فقط . لن تكاشفي أمك بموضوع النقود، وهي حيرى الآن حول المصروف؟» .

- «لا» قالت سكارلت دون مواربة «لن أكاشفها، شريطة أن تدعني أقيم هنا، وأن تخبر أمي أن ليس من شيء هام في القضية، اللهم إلا ثرثرة رهيبة من العجائز الحقودات» .

نظر جيرالد إلى ابنته وهو بهيئة تستدعي الرثاء، ثم قال :

- «إن هذا استغلال . . . لا أقل أبداً . . .» .

- «والليلة الماضية كانت فاضحة، ولا أقل أبداً» .

- «حسناً» راح يتملق «سوف نتناسى كل ذلك . وهل تعتقدين أن سيدة ظريفة كالآنسة بيتي يمكن أن تقتني شيئاً من البراندي في البيت؟

أدارت سكارلت أعطافها وتسللت ، على رؤوس أصابعها ، عبر القاعة الساكنة ، إلى غرفة الطعام ، لتجلب قارورة البراندي التي تدعوها ، هي وميلي سراً : «قارورة الإغماء» لأن بيتي بات تترشف جرعة منها كلما يودي بها قلبها المضطرب إلى الغشيان ـ أو ما يشبه الغشيان .

كان وجهها يشع بنشوة الظفر ، دون أن يعكر صفوه أثر من عار لموقفها البنوي العاق من أبيها . سيهدئ الكذب من روع إيلين إذا ما كتب لها طفيلي آخر شيئاً بعد اليوم . والآن بوسعها أن تقيم في أتلانتا ، والآن بوسعها أن تفعل ما تشاء ، ما يلذ لها ويطيب ، طالما بيتي بات هي على ما هي عليه من ضعف وهزال ، وفتحت مخمر الشراب ، ووقفت هنيهة والقارورة والكوب مضغوطين إلى صدرها .

ورأت سكارلت ، وهي في اليقظة ، سلسلة الرحلات بجانب مياه بيتشتري وحفلات الشواء في ستون مونتين ، وحفلات الاستقبال ، وأمسيات الرقص ، وركوب عربات الخيل ، ومقاصف العشاء في ليالي الآحاد ، ستكون هنالك ، تماماً في قلب الأحداث ، تماماً في وسط جمهور الرجال ، والرجال يقعون في شباك الحب بسهولة بالغة ، بعد أن تزجي لهم بعض الخدمات في المستشفى ، بيد أنها لن تكترث بالمستشفى كثيراً بعد اليوم . فما أسهل إثارة الرجال وهم بين براثن المرض ، يتهالكون بين يدي الفتاة البارعة ، تماماً كتساقط حبات الدراق الناضج في تارا عندما تهز الأشجار هزاً خفيفاً .

وعادت نحو والدها بالشراب ، شاكرة الله أن عقل أبيها لم يستطع الصمود في مباراة الشراب في الليلة الفائتة ، وتولتها الحيرة فجأة ، فيما إذا كان لريت علاقة بالموضوع .

*

11

عادت سكارلت من المستشفى بعد ظهر يوم من أيام الأسبوع التالي منهوكة حانقة ، كانت تعبة من الوقوف على قدميها طيلة فترة الصباح ، متكدرة لأن السيدة ميريويذر وبختها بعنف لجلوسها على جانب سرير جندي ، في أثناء تضميدها ذراعه الجريح ، وكانت بيتي بات وميلاني تقفان على الشرفة ، مهندمتين في أجمل حللهما ، ومعهما ويد الصغير وبرسي ، على أهبة القيام بجولة الزيارات الأسبوعية ، فالتمست سكارلت إعفاءها من مرافقتهما ، وصعدت إلى غرفتها في الطابق العلوي .

وما إن تلاشى آخر صدى لهدير العجلات ، وتأكدت أنها أضحت في مأمن ، بعيدة عن نظر أفراد العائلة ، انسلت بهدوء إلى غرفة ميلاني ، وأدارت المفتاح في قفلها . كانت غرفة صغيرة أنيقة طاهرة ، غرفة ساكنة دافئة بفعل أشعة شمس الأصيل المائلة ، أرضها لماعة عارية إلاّ من بعض قطع السجاد الزاهية الخشنة ، وجدرانها البيضاء عديمة الزخرفة ، إلاّ في إحدى زواياها ، حيث صنعت سكارلت ما يشبه المزار المقدس .

في هذه الزاوية وفي ظلال علم الحلف المزركش ، علق السيف ذو المقبض الذهبي الذي انتضاه والد ميلاني في الحرب المكسيكية ، السيف ذاته الذي امتشقه تشارلز عندما انطلق إلى الحرب ، وإلى جانبه علق حزام تشارلز وقراب فرده أيضاً ، ثم مسدسه في الجراب . وبين السيف والمسدس ، علقت لوحة معدنية نقشت عليها صورة لتشارلز ، بدا فيها عبوساً ، فخوراً في حلته الرمادية ، تشع عيناه الكبيرتان العسليتان ، وترتسم على شفتيه بسمة حيية .

لم تنظر سكارلت إلى الصورة ، حتى مجرد نظرة عابرة ، بل اتجهت رأساً عبر الغرفة إلى صندوق الرسائل المربع ، المصنوع من خشب الورد ، والموضوع فوق المنضدة ، إلى جانب السرير الضيق ، ومن داخله ، تناولت رزمة من الرسائل ، ضُمّت إلى بعضها بشريط أزرق ، وعنونت بخط آشلي ، إلى ميلاني . وعلى رأس تلك الرزمة كانت الرسالة التي وصلت ذلك الصباح ، وهي الرسالة التي فتحتها .

في البدء، عندما كانت سكارلت تقرأ هذه الرسائل سراً، كانت شديدة الذعر أمام ضميرها، بالغة الخوف من الفضيحة، بحيث لم تكن تقوى على فتح الرسائل إلاّ بصعوبة، نظراً لاضطراب كيانها. أما الآن فإن شعورها بالشرف وحسن السمعة، الذي لم يكن يوماً ما مرهف الحساسية، كان قد تبلّد بفعل تكرار الخطإ، وحتى خوفها من اكتشاف فعلتها هذه تضاءل كذلك، غير أنها كانت تفكر من وقت إلى آخر:

«ماذا تقول أمي لو عرفت بالأمر».

إنها تعلم أن إيلين تفضل رؤية ابنتها ميتة على أن تكون آثمة خائنة كما هي في هذا الموقف. وقد أقلقها تصور حنق إيلين في البداية، لأنها كانت لا تزال ترغب في التشبه بأمها في كل مناحي الحياة ـ ولكن صوت الإغراء لقراءة الرسائل كان نافذاً مسموعاً، ولذا فقد أبعدت موضوع أمها عن رأسها، إذ أضحت بارعة في طرد الأفكار المقلقة من مخيلتها هذه الأيام. لقد تعلمت أن تقول: «لن أفكر بهذه الفكرة المكدرة أو تلك الآن، سأفكر بها غداً» والذي يحدث عموماً أن لا تخطر لها الفكرة أبداً عندما يأتي الغد، أو أن تخف وطأتها جراء التأخير بحيث لا تظل قوية المفعول، وهكذا لم تترك قضية رسائل آشلي أثراً عميقاً في وجدانها.

كانت ميلاني سمحة دائماً فيما يتعلق برسائل آشلي، تقرأ أجزاء منها علانية، أمام العمة بيتي وسكارلت، بيد أن الذي كان يمض سكارلت ويقض مضاجعها، ذلك الجزء غير المقروء، وهو الذي ساقها إلى اختلاس قراءة بريد شقيقة زوجها، إذ لا بد لها من أن تعرف إن كان آشلي يحب زوجته منذ أن اقترن بها، أم أنه إنما يتظاهر بحبها تزلفاً، هل يخاطبها بعبارات ودية رقيقة؟ أي عواطف يزجيها، وبأية حرارة؟

وأخرجت الرسالة من داخل الغلاف بعناية فائقة. وصافح عينيها خط آشلي المنمنم المتناسق، وهي تقرأ عبارة «زوجتي العزيزة»، فتنفست الصعداء، إذ لم يدع ميلاني «حبيبتي» أو «عشيقتي» إلى الآن.

«زوجتي العزيزة، كتبت إليّ تقولين إنك قلقة من أن أكون أكتم عنك حقيقة أفكاري، وتسألينني عما يشغل بالي هذه الأيام».

ـ «يا لله»، فكرت سكارلت برعشة الإثم «يكتم حقيقة أفكاره» أتستطيع

ميلي قراءة ما يدور بخلده؟ أو بخلدي؟ هل ترتاب بأني وإياه» .

وارتعدت يداها ذعراً ، وهي تقرب الرسالة منها ، ولكن ما إن قرأت الفقرة التالية حتى انفرجت أساريرها ، وهدأ روعها .

«زوجتي العزيزة : إن كنت قد أخفيت أي شيء عنك ، فذلك لأني لا أريد وضع عبء ثقيل على كتفيك ، بأن أضيف إلى همومك حول سلامة شخصي ، هموماً جديدة حول متاعبي الفكرية ، على أني لا أستطيع كتمان شيء عنك ، لأنك تعرفينني تمام المعرفة . لا تقلقي : فلم أصب بجراح ، ولم يعترني مرض ، وعندي كفايتي من الطعام ، كما أني أنعم بسرير للنوم بين وقت وآخر ، وليس للجندي أن يحلم بأكثر من هذا . ولكن يا ميلاني ، إن أفكاراً ممضّة تضطرم في قلبي ، وسأفتح قلبي لك .

«في ليالي الصيف هذه ، أظل مستيقظاً على فراشي ، بعد أن يكون المعسكر قد استغرق في النوم مدة طويلة ، فأتطلع إلى النجوم وأتساءل المرة تلو المرة : لماذا أنت هنا يا آشلي ويلكس؟ ! وفي سبيل ماذا أنت تحارب؟ !

«ليس في سبيل المجد والشرف حتماً ، فالحرب عمل قذر ، وأنا لا أحب القذارة ، إني لست جندياً ، وليس لي رغبة في حيازة الشهرة الفارغة ، حتى في فوهة المدفع . ومع ذلك ، فها أنا موجود هنا في أتون الحرب ، أنا الذي ما قضى الله أن أكون سوى سيد قروي نشيط . فنفير الأبواق يا ميلاني ، لا يؤج دمي ، ودوي الطبول لا يحث خطاي . وأنا أدرك بوضوح ، أننا خدعنا ، خدعنا بعنجهية نفوسنا الجنوبية ، معتقدين أن بوسع واحدنا دحر عشرة من أهل الشمال ، ظانين أن بوسع صاحب الجلالة القطن أن يحكم العالم . خدعنا ، أيضاً ، بالعبارات والخطب الرنانة ، بكلمات التهجم والكراهية تخرج من أفواه هؤلاء الذين يتسنمون المراكز العالية ، هؤلاء الرجال الذين نحترمهم ونجلهم ـ «صاحب الجلالة القطن ، حقوق الولايات ، الشماليون الملعونون» .

«وهكذا ، حين أضطجع على فراشي ، أتطلع إلى النجوم متسائلاً : «في سبيل ماذا أنت تحارب؟» وأروح أفكر بحقوق الولايات وبالقطن والعبيد وأهل الشمال الذين نشأنا على بغضهم ، وأنا أعلم أن أياً من هذه الأشياء ليس السبب في وجودي هنا ، ثم أرى في مقابل ذلك تولف أوكس ، وأتذكر كيف يميل شعاع القمر عبر الأعمدة البيضاء ، ثم أذكر منظر أشجار المانيوليا السماوي وهي

تتألق في أشعته الفضية ، وكيف تظلل الورود المتسلقة جانب الرواق في أشد أوقات الظهيرة حرارة . وأرى أمي تخيط هناك ، كما كانت تفعل يوم كنا فتياناً نلهو ، وأسمع العبيد عائدين إلى البيت ، عائدين عند الغسق منهكين ، يغنون منتظرين العشاء ، ثم صوت الدولاب ، والدلو يهبط البئر العميقة ، ومنظر الطريق الطويلة المؤدية إلى النهر عبر حقول القطن ، والضباب يرتفع من المنخفضات عند الفجر . وهذا هو سبب وجودي هنا ، أنا الذي أمقت الحرب والبؤس والمجد ، ولا أضمر البغضاء لأي إنسان . ربما كان هذا ما يسمونه «وطنية» أو حب الأهل والوطن . ولكن يا ميلاني ، إن الأمر أعمق من ذلك ، لأن هذه الأشياء التي ذكرتها يا ميلاني ليست إلا رمزاً للشيء الذي أخاطر من أجله بحياتي ، رمزاً لنوع الحياة التي أهواها ، لأني أحارب من أجل الأيام الماضية ، من أجل أساليب الحياة المنطوية ، التي أحبها كثيراً ، والتي أخشى أن تكون قد انقضت إلى الأبد الآن ، مهما كان نوع الميتة التي سنموتها ، لأنه سواء أربحنا أم خسرنا ، ستكون النتيجة ذاتها بالنسبة إلينا ، الخسارة . إذا ربحنا هذه الحرب ، ونعمنا بمملكة القطن التي تراود أحلامنا ، سنظل خاسرين ، لأننا سنصبح أمة تختلف عن ذي قبل ، وستتخلى عنا أساليب الحياة الماضية الهادئة ، سيقف العالم على أبوابنا صارخاً بطلب القطن ، ونستطيع عندئذ أن نفرض السعر الذي نريد ، ويومها أخشى أن نصبح كأهل الشمال الذين نسخر الآن من نشاطهم في جمع الثروة وإحراز المال ، ومن روحهم التجارية ، وإذا خسرنا يا ميلاني ! إذا خسرنا ، فيا لسوء العاقبة .

لست خائفاً من الخطر أو الأسر أو الجراح أو حتى الموت ، إذا كان لا بد للموت أن تحين ساعته ، ولكني أخاف إذا ما انتهت هذه الحرب أن لا تعود بنا الأيام سيرتها الأولى . وإني أنتمي إلى تلك الأيام الماضية ، إني لا أنتمي إلى هذا الحاضر المسعور على سفك الدماء ، كما أني أخاف أن لا أستطيع الانسجام والمستقبل ، مع أني سأحاول ذلك ، وأنت كذلك يا عزيزتي ، لأننا من دم واحد . أنا لا أعرف ما الذي سيتمخض عنه المستقبل ، ولكنه لن يكون عذباً رضياً كالماضي . إني أرقد في فراشي وأتطلع إلى الشبان النائمين قريباً مني ، وأنا أتساءل ما إذا كان التوأم أو ألكس أو كيد ، تراودهم مثل هذه الأفكار ، أتساءل ما إذا كانوا يعرفون أنهم يحاربون في سبيل قضية خاسرة ، منذ الساعة التي

أطلقت فيها الرصاصة الأولى ، لأن قضيتنا في الحقيقة هي أسلوبنا في العيش ، وقد انقضى هذا الآن ، ولكني لا أعتقد بأنهم يفكرون بمثل هذه الأمور ، ولذلك فهم سعداء .

«لم أكن قد توقعت هذا لنا يوم طلبت منك الزواج بي ، كنت أفكر بالحياة تمضي على سننها في تولف أوكس ، شأنها دائماً ، مطمئنة ، رتيبة ، يسيرة . نحن متماثلان يا ميلاني ، نحب الأشياء الهادئة ذاتها ، وقد تصورت أن فترة مديدة من سني السلم تنتظرنا ، فترة نقرأ خلالها ونصيخ السمع للموسيقى ، ونحلق في الأحلام . ولكن لم أكن أتوقع هذا ، لا . . . لم أكن أتوقعه أبداً . لم أحسب أن هذا يمكن أن يقع لنا جميعاً ، هذا التدمير لأساليب حياتنا الماضية ، هذه المجازر الدامية والبغضاء! ميلاني ، لا شيء يستحق كل هذه التضحية ، لا حقوق الولايات ، ولا العبيد ، ولا القطن ، لا شيء يستحق الذي يحل بنا الآن ، والذي يمكن أن يحل ، فإذا ما هزمنا الشماليون ، فسيكون المستقبل رهيباً إلى حدّ لا يُصدق ، ويا عزيزتي ، لا يزال من الممكن أن يهزمونا .

كان يجب أن لا أدون هذه الكلمات ، بل كان يجب أن لا أفكر بها ، ولكنك سألتني عما يشغل قلبي ، والخوف من الهزيمة هو ما يشغله . هل تتذكرين ذلك الرجل في حفلة الشواء يوم أعلنت خطوبتنا ، الرجل المدعو بتلر ، الذي هو من شارلستون كما تدل لهجته ، والذي كاد يسبب قتالاً بسبب عباراته عن جهل الجنوبيين؟ هل تذكرين كيف أراد التوأم أن يقتلاه لأنه قال إن ما نملكه من المنشآت والمصاهر والسفن ومخازن الأسلحة ومصانع الآلات ، عدد قليل؟ هل تذكرين كيف قال إن بإمكان أسطول أهل الشمال إحكام حصارنا ، بحيث لن نستطيع شحن أقطاننا؟ لقد كان بتلر على حق . إننا نحارب بنادق أهل الشمال الجديدة ببنادق حرب الثورة ، وسرعان ما ستشتد قبضة الحصار ، بحيث سينقطع تهريب الأشياء لنا ، حتى المواد الطبية . كان يجب أن نعير اهتماماً للنقاد الساخرين الذين كانوا يعرفون الحقائق أمثال بتلر ، عوضاً عن السياسيين الذين كانوا فقط يشعرون ـ ويتحدثون . لقد قال ، وهذا هو الواقع ، إن الجنوب لا يملك شيئاً يستطيع معه شن الحرب ، عدا القطن والعنجهية ، وها هي أقطاننا تتكدس ، عديمة الجدوى ، وكل ما بقي لنا ، هو ذاك الذي دعاه «عنجهية» ولكني أسمي تلك العنجهية «الشجاعة العديمة النظير . . وإذا ـ» .

غير أن سكارلت طوت الرسالة بعناية ، دون أن تأتي على البقية ، ثم دفعتها داخل الغلاف ، نزقة برمة ، بحيث لم يسعها الاستمرار في القراءة ، إضافة إلى أن الرسالة ، بحديثها السخيف عن الهزيمة ، كدرتها لسبب غامض ، لم تكنه سره ، وفوق ذلك ، فإنها لم تكن تقرأ رسائل ميلاني إلى آشلي ، لتعرف حقيقة أفكاره المربكة المملة هذه ، لقد كان عليها أن تصغي إلى الكثير من أفكاره ، عندما كان يجلس في الرواق في تارا ، تلك الأيام التي انقضت .

كل ما تريد معرفته ينحصر فيما إذا كان يكتب رسائل عاطفية إلى زوجته ، وها هو لا يفعل ذلك أبداً . لقد قرأت كل رسائل الصندوق فلم تعثر في أي منها على ما لا يمكن لشقيق أن يكتبه لشقيقته . كانت الرسائل ودية ، مسلية ذات نسق متبدل ، ولكنها لم تكن رسائل محب . لقد تلقت هي بنفسها عدداً كبيراً جداً من رسائل الحب الحارة ، بحيث يستحيل أن لا تميز عبارة العاطفة الأصيلة فور قراءتها . على أن عبارة كتلك ليس لها وجود في رسائله هذه .

وكما كان يحدث لها دائماً بعد اختلاس القراءة ، غمرها إحساس بالقناعة الغرارة ، إذ شعرت واثقة أن آشلي ما زال يحبها ، ولذلك فهي أبداً تتساءل ساخرة كيف أن ميلاني لم تتحقق بعد أن آشلي يحبها كصديقة وحسب ، والواضح أن ميلاني لا تتحسس نقصاً في رسائل زوجها ، لأنها لا تملك رسائل محب آخر لتقارنها برسائل آشلي .

«إنه يكتب رسائل حمقاء كهذه» فكرت سكارلت ، إذا اتفق أن كتب لي أي زوج يقترن بي ، ثرثرة مطردة كهذه ، فمن المؤكد أنه سيسمع ما لا يسره مني ! حتى شارلي نفسه كتب رسائل أفضل من هذه» .

أما بقية الرسائل ، فقد رفعت أطراف غلافاتها ، ومرّت بنظرتها على تواريخها ، متذكرة محتوياتها . لم تكن تحمل مقالات وصفية رائعة عن فترات استراحة الجنود ، وعن كرات الهجوم ، كما كان يكتب دارسي ميد لوالديه ، أو دلاس ماك لور التعس لشقيقتيه المسنتين الآنستين فيث وهوب . وكان الوالدان ميد ، والشقيقتان ماك لور يتلون هذه الرسائل فخورين على كل الجيران ، وقد أحست سكارلت مراراً ضمن ذاتها بالصغار لأن ميلاني لا تتلقى رسائل كهذه من آشلي لتقرأها علناً في حلقات الخياطة .

في رسائله إلى ميلاني ، كان آشلي يحاول تجاهل ذكر الحرب كلية ، ويجهد

في أن يضفي على شخصيهما غلالة سحرية تحجب عنهما كل الأحداث التي وقعت منذ كانت قلعة سمتر قضية الساعة . كان كأنه يحاول الاعتقاد بعدم وجود حرب . كان يتحدث عن الكتب التي قرأها وميلاني ، والأغاني التي أنشداها ، والأصدقاء القدامى الذين يعرفانهم ، والأماكن التي كان قد زارها خلال رحلته العظيمة . وكان ينبعث من ثنايا السطور حنين تواق للعودة إلى تولف أوكس ، كما أنه كان يخط الصفحات الكاملة عن الصيد ورحلات الركوب الطويلة في مسالك الغابات الساكنة ، تحت نجوم الخريف الباردة ، عن الحفلات وشواء السمك ، عن سكون الليالي المقمرة ، والجمال الوقور للبيت العتيق .

وتأملت كلماته في الرسالة التي قرأتها الآن : «لم أكن أتوقع هذا . لا . . . لم أكن أتوقعه أبداً» وتمثلتها صرخة روح معذبة تواجه نازلة لا تقوى على مقاومتها ، ولكنها مع ذلك مرغمة على مواجهتها . وتملكتها الحيرة ، فإن لم يكن يخشى الجراح والموت ، فما الذي يخشاه إذاً؟ واجتهدت تريد تفهم الفكرة العسيرة المعقدة ، لكن دون تعليل أو تحليل ـ الحرب ترمضه ، وهو ـ وهو لا يحب الأمور التي ترمضه . . . أنا . . . مثلاً . . . إنه يحبني ، ولكنه كان يخشى الزواج بي ، بسبب ـ بسبب خوفه من أن أعكر صفو أسلوبه في التفكير والعيش . لا ، لم يكن خوفه السبب الحقيقي ، فآشلي ليس جباناً ، ولا يمكن أن يكون ذلك ، في الوقت الذي يذكر اسمه في رسائل الشرف ، وفي الوقت الذي يكتب فيه الكولونيل سلون تلك الرسالة إلى ميلاني وكل عباراتها تتحدث عن سلوكه الرفيع في قيادة الهجوم ، إذا ما قر رأيه على أمر ، فلن يستطيع أحد أن يكون أكثر شجاعة أو أقوى إرادة و ـ آه ، إني لا أعرف ماهية ذلك الشيء ، لو أني فقط أدركت ذلك الشيء المتعلق به ، منذ سنوات ، فأنا واثقة من أنه كان ليتزوجني .

وسكنت لحظات ، ترفع الرسائل إلى صدرها ، وتفكر بآشلي بشوق ، فعواطفها نحوه لم تتبدل منذ اليوم الذي وقعت فيه بحبه ، إنها العواطف ذاتها التي عقدت لسانها ذلك اليوم ، عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها ، وكانت على الشرفة في تارا ، فرأت آشلي باسماً على صهوة جواده ، وشعره يتلألأ كالفضة في شمس الصباح . إن حبها لا يزال بمثابة عشق صبية صغيرة

لرجل لم تفهم كنهه ، رجل يملك كل الصفات التي تنقصها ، والتي تعجبها في الوقت ذاته ، إنه لا يزال حلم صبية صغيرة بالفارس الجميل على صهوة جواده ، وحلمها لا يتعدى الرغبة في إقراره بحبه لها ، لا يتعدى الأمل بقبلة . . .

لقد أحست واثقة بعد قراءة الرسائل أنه يحبها ، يحب سكارلت ، حتى رغم زواجه بميلاني ، ومن المؤكد أن ذلك كان كل ما تمني به النفس تقريباً ، فهي ما زالت تلك الفتاة الفتية العذراء الطاهرة . لو أن تشارلز بصفاقته العميّة ، وتودده المنفر ، طرق أياً من مواطن الحساسية العميقة السريعة التأثر في كيانها ، لما كانت أمانيها بآشلي تنتهي بقبلة ، ولكن تلك الليالي القليلة المقمرة التي انفردت خلالها بتشارلز ، لم يلمس فيها مشاعرها ، أو يبلغ فيها حد النضوج .

لقد انتهت من الزواج ، لا من الحب ، فحبها لآشلي أمر مختلف ، لا علاقة له بالشهوة أو الزواج ، أمر مقدس ، تأخذ قدسيته بالأنفاس ، عاطفة خلست نموها خلساً خلال الأيام الطويلة من صمتها الواجب المفروض ، وتغذت بالذكريات المتكررة والآمال .

وتنهدت وهي تلف الشريط الأزرق بعناية حول رزمة الرسائل ، متسائلة للمرة الألف عن ذلك السر في آشلي الذي يجاوز إدراكها ، وحاولت أن تصل بتفكيرها فيه إلى بعض الاستنتاجات الرضية ، ولكن كما هو الحال دائماً ، تجاوز الاستنتاج عقلها الساذج ، فأعادت الرسائل إلى جوف الصندوق ، ثم زوت ما بين عينيها ، لقد رجع عقلها إلى الجزء الأخير من الرسالة التي قرأتها الآن ، إلى حيث ذكر الكابتن بتلر . ما أغرب أن يؤخذ آشلي بكلام تفوه به رجل مراوغ منذ سنة ! أجل ! إن الكابتن بتلر رجل مراوغ ، لا يمكن إنكار ذلك ، رغم أنه يرقص بإتقان ، فلا أحد إلا المراوغ يمكن أن ينطق بتلك العبارات التي تفوه بها ليلة السوق الخيرية عن الحلف .

12

مع استمرار الحرب ، كانت الانتصارات في معظمها للجنوبيين ، ولكن الناس كفوا عن القول : «انتصار آخر وتنتهي الحرب» تماماً كما كفوا عن القول بأن أهل الشمال جبناء ، فقد اتضح للجميع الآن ، أن الشماليين بعيدون عن الجبن ، وأن دحرهم يتطلب أكثر من انتصار واحد . وعلى كل فقد سجل الجنوبيون غلبتهم في تينسي ، وظفرهم في معركة بول ران الثانية ، تلك المعركة الخالدة كشهادة ساطعة على جماجم الشماليين المسلوخة الجلد . ولكن ثمن هذه الجماجم كان باهظاً جداً ، بحيث تجاوز عدد الجرحى والمرضى ما يمكن لمستشفيات أتلانتا وبيوتها استيعابه ، وبحيث أخذت صفوف قبور الجنود في مقبرة أوكلاند تطول امتداداً في كل يوم .

وكان من نتائج استمرار الحرب أن انخفضت قيمة عملة الحلف بصورة تنذر بالخطر ، وتبع ذلك ارتفاع أسعار الغذاء والكساء ، وكانت دائرة التموين تفرض جبايات ثقيلة جداً من المواد الغذائية على الأهلين ، ولذا بدأت موائد أتلانتا تعاني القلة ، بينما ندر وجود الدقيق وارتفع ثمنه جداً ، وشاع استعمال خبز القمح عوضاً عن البسكويت وأقراص الحلوى والكعك ، وخلت دكاكين الجزارين تماماً من لحوم البقر ، وقنعت بالقليل القليل من لحم الغنم الذي كان ثمنه خيالياً ولا يقوى على شرائه إلا الأغنياء . ومع ذلك فما زال هناك وفرة من لحوم الخنازير والطيور ، وكذلك في الخضار .

أحكم الشماليون حصارهم حول موانئ الحلف ، فغدت المواد الكمالية كالشاي والقهوة وأقمشة الحرير ومشدات عظام الحيتان والكولونيا ومجلات الأزياء والكتب ، نادرة الوجود صعبة المنال ، حتى إن أرخص البضائع القطنية حلقت أسعارها في الارتفاع ، واضطرت السيدات آسفات إلى أن يرتدين فساتينهن القديمة فصلاً آخر من فصول السنة ، وأنزلت الأنوال التي تكاثف عليها غبار السنين من العليات ، فكنت تجد في معظم غرف الجلوس في أتلانتا نسيجاً من الغزل البيتي . وشرع الجميع : الجنود والمدنيون ، النساء والأطفال ، والعبيد ، يلبسون النسيج المحلي الخشن ، وبالطبع اختفى القماش الرمادي الذي

يشبه بلونه حلل الجنود ، ليحل محله القماش البلدي المخطط البني اللون .

وبدأت المستشفيات تشكو من ندرة الكينا والكلوميل والأفيون والمورفين والكلوروفورم واليود ، وارتفعت قيمة الضمادات القطنية والكتانية كثيراً بحيث لم تعد تلقى بسلال المهملات بعد استعمالها ، بل أخذت كل سيدة عاملة في المستشفى ترجع إلى البيت محملة بسلال من الخرق الملطخة بالدم لتغسل وتكوى وتعاد لتستعمل في تضميد جرحى آخرين .

ولكن بالنسبة إلى سكارلت . الخارجة حديثاً من قفص الترمل ، كانت الحرب بكل شرورها ، لا تعني إلاّ وقتاً بهيجاً بالمرح والهناءة ، حتى مخصصات الغذاء والكساء القليلة التي خصت بها لم تكدرها ، فقد كانت سعيدة جداً بالعودة إلى الحياة ثانية .

وعندما استعرضت أيام السنة الفائتة المقيتة ، بساعاتها الرتيبة تمر تباعاً ، يماثل واحدها الآخر إلى درجة كبيرة ، بدا لها أن تسارع الزمن قد بلغ درجة لا تصدق ، فهي الآن لا يبزغ فجر يوم جديد إلاّ وهي في مغامرة مثيرة حيث تلتقي برجال جدد يطلبون زيارتها ، ويطرون جمالها ، ويخبرونها أن من دواعي الفخر والشرف لهم أن يحاربوا ، بل ربما أن يضحوا بأرواحهم في سبيلها . لقد أحبت آشلي ، وتستطيع أن تحبه حتى آخر رمق في حياتها ، ولكن ذلك لا يمنعها من إغراء الآخرين لطلب الزواج بها .

ومن ناحية ثانية ، أضفت الحرب الدائرة على العلاقات الاجتماعية بين الأهلين ، خلف خطوط القتال ، طابع استهتار ممتع بالقواعد المسلكية المتبعة : «عدم كلفة» نظر إليها الكبار بعين الحذر المستريب ، فالنساء يرين كل يوم رجالاً غرباء يزورون بناتهن ، رجالاً يأتون دون أن تسبقهم رسائل تعريف ، تمهد لقدومهم ، ودون أن يكون ماضيهم معلوماً . والذي أفزع الأمهات ، رؤية بناتهن يتأبطن أذرع هؤلاء الرجال ، فالسيدة ميريويذر مثلاً ، التي لم تقبّل زوجها بتاتاً إلا بعد حفلة العرس ، لم تصدق عينيها بسهولة عندما قبضت على مايبيل وهي تقبل الرجل الصغير رينيه بيكارد ، وتفاقم الغضب ساعة رفضت مايبيل أن تقر بخطئها وتعتذر عنه . ورغم أن رينيه قد طلب يدها فوراً ، فإن الأمور لم تعد إلى مجاريها . وأحست السيدة ميريويذر أن الجنوب يسير نحو كارثة خلقية شاملة ، ولقد رددت ذلك مراراً ، وأيدتها بقية الأمهات بحرارة قلبية ، ناحيات

باللائمة على الحرب .

غير أن الرجال الذين كانوا يتوقعون قرب آجالهم خلال أسبوع أو شهر ، لم يكن بوسعهم الانتظار مدة سنة قبل أن يلتمسوا نداء الفتاة باسمها الأول ، مسبوقاً بالطبع ، بلفظة آنسة ، ولم يكن بمقدورهم أيضاً ، التقيد بالأصول ، وإطالة فترة المعاشرة ، كما كانت تفرض الخلال الحميدة قبل الحرب ، إذ أصبح من المحتمل أن يقترحوا الزواج بعد ثلاثة أشهر أو أربعة ، وأصبحت الفتيات ، مع معرفتهن الأكيدة بأن تقاليد السيدة الفاضلة تقضي برفض عروض الزواج الثلاثة الأولى التي يتقدم بها طالب يدها ، يندفعن برعونة لقبول الزواج ، بمجرد العرض الأول .

«عدم الكلفة» هذه ، جعل من الحرب مرتع لهو حافل بالنسبة إلى سكارلت ، فهي باستثناء عمل التمريض المقيت ، وعبء لف الضمادات ، لم تكن تحفل لو استمرت الحرب إلى الأبد . والحقيقة أنه أصبح بمقدورها الآن العمل داخل المستشفى برباطة جأش ، بعد أن أضحى مجالاً خصباً لتصيد الرجال ، فالجرحى البائسون يستسلمون لمفاتنها دون مقاومة ، هي تجدد ضماداتهم وتغسل وجوههم وتنفض وسائدهم ، وتعرضها للهواء ، وهم ينزلقون في مهاوي الحب . آه ، لقد أنقذها الله بعد تلك السنة الكئيبة المقيتة .

عادت سكارلت ثانية كما كانت قبل زواجها بتشارلز ، وبدا الأمر وكأنها لم تتزوجه مطلقاً ، كأنها لم تنكب بفاجعة موته ، كأنها لم تلد ولده ، فالحرب والولادة ، قد مرّتا بها دون أن تهزا أي وتر حساس في كيانها ، وها هي لم يتبدل فيها شيء . كانت أماً لطفل ، ولكن بقية سكان البيت القرميدي الأحمر هم الذين يعتنون بطفلها أفضل اعتناء ، بحيث كادت تنساه تقريباً . إن عقلها وقلبها ينبئانها بأنها رجعت إلى ما كانت عليه : سكارلت أوهارا ثانية ، حسناء الولاية . وهكذا تقمصت هواجس وأعمال الأيام الماضية ، بيد أن حقل الأعمال قد اتسع اتساعاً هائلاً . ودون أن تبالي باستنكار صديقات العمة بيتي ، اندفعت في طريقها ذاته ، طريقها الذي سلكته قبل الزواج : تحضر الحفلات ، تراقص المعجبين ، تراكب الجنود ، تغازل الشبان ، تعمل كل شيء عملته وهي صبية عذراء ، اللهم إلاّ الانقطاع عن ارتداء حلل الحداد ، فذلك إن لجأت إليه كان كفيلاً ، كما تعلم ، بأن يقصم ظهري بيتي بات وميلاني . إنها فاتنة وهي أيم ،

فتنتها وهي عذراء ، وهي طروب ، عندما تطلق لنفسها العنان ، وهي مسايرة طالما ليس هناك ما يصدعها ، ولكنها مغترة بمظهرها وذيوع صيتها .

ها هي سعيدة الآن ، بينما كانت لأسابيع خلت إنسانة تعيسة بئيسة ، سعيدة بعشاقها ، وتأكيدهم لسحرها ، كسعادتها لو حظيت بمعاشرة آشلي المتزوج بميلاني ، هذه المعاشرة المحفوفة بالأخطار ـ . بيد أنه كان أسهل عليها ، نوعاً ما ، أن تتحمل فكرة كون آشلي يخص غيرها ، وهو بعيد عنها ، مما وهو في الجوار . فقد كان يبدو أحياناً ، ومئات الأميال تمتد بين أتلانتا وفرجينيا ، زوجها كما هو زوج ميلاني .

وهكذا مضت أشهر الخريف من عام ١٨٦٢ بسرعة ، لما رافقها من التمريض والرقص وقيادة العربات ولف الضمادات ، تلك الأعمال التي كانت تستغرق كل وقتها ، عدا زياراتها القصيرة لتارا . وكانت هذه الزيارات مخيبة لآمالها لأنه لم يكن يتاح لها فيها إلا فسحة وجيزة من الزمن ، لتنتهزها في الأحاديث الطويلة الهادئة مع أمها ، الأحاديث التي كانت تتشوق لحلول موعدها وهي في أتلانتا ، فلم يكن هنالك متسع من الوقت لتجالس أمها خلال انهماكها في الخياطة ، حيث تتنشق رائحة العطر الخفيف المتضوع من حقيبة أغصان الليمون ، وتسمع حفيف تنورتها ، وتتحسس يديها الناعمتين تداعبان وجنتيها برقة وحنان .

في هذه الأيام كانت إيلين نحيلة البنية ، مشغولة البال ، تقف على قدميها منذ الصباح إلى ما بعد أن ينام أفراد المزرعة بوقت طويل ، فمتطلبات دائرة تموين الحلف تتزايد باطراد شهراً بعد شهر ، ومهمتها أن تنشئ من تارا أداة إنتاج . حتى جيرالد كان منهمكاً في العمل ، للمرة الأولى خلال سنين عديدة ، لأنه لم يستطع إيجاد ناظر يحل محل جوناس ويلكرسون ، ولذلك راح يشرف على فدادين أرضه بنفسه ، وهو يركب حصانه . وكذا ، فبانهماك إيلين بالعمل بحيث لم يسعها منح ابنتها أكثر من قبلة قبيل النوم ، وبانشغال جيرالد وسط الحقول طيلة النهار ، وجدت سكارلت تارا مكاناً منفراً . حتى شقيقتاها كانتا مستغرقتين في شؤونهما الخاصة ، إذ توصلت سولين الآن إلى تفاهم مع فرانك كندي فراحت تغني «حين تنتهي هذه الحرب الضروس» بمعنى مبيّت طبعاً ، اعتبرته سكارلت قريباً من أن لا يحتمل ، أما كارين فكانت معتكفة مع أحلامها

حول برنت تارلتون بحيث لا تُستحب رفقتها .

ومع أن سكارلت كانت تقصد تارا والسعادة تغمر قلبها ، إلاّ أنها لم تكن تشعر بالأسف أبداً عندما كانت تصلها رسائل بيتي بات وميلاني ، التي لا بد من ورودها ، ترجوانها فيها العودة . وفي مثل هذه الأوقات ، كانت إيلين تتنهد محزونة متكدّرة ، لفراق كبرى بناتها ، وحفيدها الوحيد :

- «ولكن ينبغي أن لا أكون أنانية وأبقيك هنا ، في الوقت الذي يحتاجونك لمهام التمريض في أتلانتا» ، قالت «إنما - إنما يا عزيزتي ، يظهر أني لا أجد الوقت أبداً لأتحدث إليك ، ولأشعر ثانية بأنك ابنتي الصغيرة ، قبل أن تفارقيني» .

- «إني دائماً ابنتك الصغيرة» قالت سكارلت موارية رأسها في صدر أمها ، شاعرة بآثامها تتحفز لإدانتها . إنها لم تخبر أمها أن ما يشدها إلى أتلانتا هو الرقص والعشاق ، وليست خدمة الحلف . كما أن هناك العديد من الأمور التي كتمتها عن أمها هذه الأيام ، ولكنها كانت أحرص ما تكون على كتمان حقيقة زيارات ريت بتلر المتكررة لبيت العمة بيتي بات .

*

كان ريت بتلر خلال الشهور التي تلت السوق الخيرية ، يزور بيت العمة بيتي كلما حضر إلى المدينة ، فيصطحب سكارلت بعربته إلى حفلات الرقص والأسواق الخيرية ، وينتظرها خارج المستشفى ليوصلها إلى البيت ، ولم تعد هي تخشى فضحه لسرها ، ولكن ، كان يكمن دائماً في مؤخرة عقلها ، الذكرى المقلقة لرؤيته لها وهي في أسوإ حالاتها ، ومعرفته حقيقة علاقتها بآشلي ، تلك المعرفة التي كانت الرادع للسانها كلما ضايقها ، وما أكثر ما كان يضايقها !

كان في منتصف العقد الرابع ، أكبر سناً من أي عاشق جذبته بسحرها ، وكانت إذا ما أرادت كبحه والسيطرة عليه ، كما سيطرت على العشاق المقاربين لها في السن ، تبدو عاجزة كالطفل .

كان يبدو دائماً وكأن شيئاً لم يدهشه أو يطربه كثيراً ، وكانت تشعر أنها تطربه أكثر من أي شيء في الدنيا عندما يثيرها ولا تستطيع عليه رداً . وغالباً ما انفجرت في حنق علني ، بفعل استفزازاته المحنكة ، وهي التي تملك طبع جيرالد الإيرلندي ، جنباً إلى جنب مع عذوبة الوجه الخدّاعة التي ورثتها عن إيلين .

فيما مضى ، لم يحدث أبداً أن تحاملت على نفسها لتكبح جماح ثائرتها ، إلاّ في حضور أمها ، أما الآن فإن من المؤلم لها أن تضطر إلى خنق الكلمات ، والصمت ، خشية ضحكته الساخرة اللاذعة . ولو كان هو يفقد طبعه فيثور أيضاً ، لما شعرت أنها مضطرة إلى اتخاذ مثل هذا الموقف .

وبعد مشاحنات كلامية معه ، قلّ أن خرجت منها ظافرة ، أقسمت أنه لا يطاق ، وأنه سيء التربية ، تعوزه أخلاق الرجل الفاضل ، وأن لن يكون لها أية علاقة معه بعد . ولكنه عاجلاً أو آجلاً ، كان يجيء أثلاثنا ، ويتظاهر بزيارة العمة بيتي ، مقدماً لسكارلت ، بكياسة مفرطة ، هدية من علب السكاكر أحضرها لها من ناسو ، أو يحجز مقعدين متجاورين في حفلة موسيقية ، أو يطلبها للرقص . وكانت دائماً تطرب كثيراً لوقاحته المحببة ، بحيث أنها تضحك وتتغاضى عن سيئاته الماضية ، إلى أن تقع سيئة أخرى جديدة .

ولكن رغم كل صفاته المغيظة ، اشتد تلهفها لزيارته ، كان هناك شيء مثير يتعلق بشخصه ، شيء لم تستطع تحليله ، شيء يختلف عما في كل الرجال الذين تعرفهم ، كان هناك شيء يأخذ بالأنفاس ، ينبعث من رشاقة جسده الكبير ، ذلك الجسد الذي يجعل من مجرد ولوجه أية غرفة صدمة مادية فجائية ، وكان هناك شيء في السخرية المقذعة المؤنسة التي تشع من عينيه السوداوين ، والتي تتحدى روحها فتتوثب لإخضاعه .

كانت تهجس حائرة مضطربة : «إن الأمر يبدو وكأني تقريباً في علاقة حب معه ! ولكني لست كذلك ، مع أني لا أستطيع تفهم حقيقة ما يساورني من شعور نحوه» .

غير أن الشعور المثير تابع طريقه ، وعندما كان يأتي في زياراته ، كانت فحولته الكاملة تجعل منزل العمة بيتي ، المهذب المخنث ، يبدو صغيراً حقيراً ، كقن زري . ولم تكن سكارلت الوحيدة التي تستبد بها الدهشة ، وترضى كارهة ، عن وجوده في البيت ، بل كانت الآنسة بيتي بات كذلك في حيرة واضطراب دائمين .

وفي الوقت الذي كانت بيتي تعلم أن إيلين تستنكر زياراته لابنتها ، وأن قرار شارلستون بحرمانه من المجتمع المهذب ليس أمراً يستخف به ، إلا أنها لم يعد في طوقها مقاومة إغراءاته المنمقة ، ومنعه من تقبيل يدها ، أكثر مما تقاوم ذبابة

إغراء قدر من العسل . وفوق هذا كله ، كان يجلب لها عادة بعض الهدايا الصغيرة من ناسو ، مؤكداً أنه ابتاعها خصيصاً لها ، ثم اخترق الحصار مجازفاً بحياته في سبيلها : إبر ودبابيس وأزرار وملفات خيوط حريرية ودبابيس شعر ، إذ كان الحصول على هذه الأدوات الكمالية الصغيرة مستحيلاً تقريباً في هذه الأيام ـ وكانت السيدات يستعملن دبابيس شعر خشبية مسننة باليد ، وثمار البلوط المغلفة بالقماش عوضاً عن الأزرار ـ . كما كان ينقص بيتي المناعة الخلقية لرفض هذه الهدايا ، علاوة على كونها مغرمة كالأطفال بمحتويات الرزم المفاجئة .

وهكذا بعد أن فتحت أولاها ، لم تجد أن بمقدورها رفض ما تتابع بعدها . وعندئذ لم تستطع ، وقد قبلت هداياه ، استجماع قواها كما ينبغي لتصارحه بأن سمعته تجعل من غير اللائق أن يزور ثلاث سيدات وحيدات لا ينعمن بحماية رجل . وكانت العمة بيتي تحس دائماً أنها بحاجة إلى حماية رجل عندما يكون ريت بتلر في البيت :

ـ «لا أعرف سر هذا الرجل» ، تنهدت عاجزة ، «ولكن ـ على كل حال ، أعتقد أنه يمكن أن يكون رجلاً جذاباً لطيفاً ، لو أني أستطيع مجرد إحساس أنه ـ أنه يحترم النساء من أعماق قلبه» .

أما ميلاني ، فمنذ رجوع خاتم العرس ، وهي تشعر بأن ريت بتلر رجل فاضل ذو أخلاق حسنة ورقة نادرة ، وقد أُخذت بفعلته هذه . وكان دائم اللطف معها ، ولكنها كانت تتهيب جانبه بعض التهيب ، الأمر الذي يعود في معظمه إلى خجلها من أي رجل لم تعرفه منذ الصغر . كانت تشعر في سريرتها بالأسف نحوه ، وهو شعور قد يلذه لو عرف به ، كما كانت واثقة من أن نوعاً من المآسي الأسطورية قد نغص حياته ، وجعل منه إنساناً خشناً مرفوضاً ، وأحست أن ما يعوزه هو حب امرأة صالحة . ولم تكن هي طيلة حياتها المستكينة المرعية قد خبرت الشر بل نادراً ما اعتقدت بوجوده . وعندما كانت ألسن القيل والقال تهمس بالأقاصيص عن بتلر ، وعن فتاة شارلستون ، ذهلت ميلاني ولم تصدق ، وبدلاً من أن يحيلها ذلك ضده ، إذ به يجعلها أكثر عطفاً حيّاً عليه ، بسبب سخطها على ما تصورته ظلماً جسيماً نازلاً به .

أيّدت سكارلت ضمناً رأي العمة بيتي ، وشعرت هي أيضاً أنه لا يكن أدنى

احترام لأي امرأة ، مع إمكان استثناء ميلاني فقط ، فسكارلت لا تزال تحس ، وكأنها عارية كلما التهمها بعينيه صعوداً ونزولاً ، وليس ذلك لأنه أفصح يوماً عن شيء من هذا القبيل ، وهو لو فعل لأنّبته بكلماتها اللاذعة ، وإنما كان شعورها ذاك ناشئاً عن النظرة النفاذة التي تنبعث من عينيه المشعتين في وجهه الأسمر ، بتفرس وقح منفّر ، كما لو أن كل النساء ملك يديه ، يتمتع بهن في أوقاته المواتية ، ولا تفارقه هذه النظرة إلا مع ميلاني وحسب ، إذ عندما يتطلع إليها ، تغيض من عينيه تلك النظرة الباردة المخمنة ، كما تغيب كل سخرية ، وعوضاً عن ذلك يشوب صوته نغم خاص وهو يحدثها ، نغم مهذب ، متلهف لخدمتها .

ـ «لا أرى سبباً لكونك أرق معها منك معي» ، بادرته سكارلت غضبى مستاءة بعد ظهر أحد الأيام ، حين أوت ميلاني وبيتي لتنعما بقيلولتهما وانفردت هي به .

وكانت سكارلت قد لاحظت قبلاً كيف أمسك ريت بخيط القطن المبروم الذي كانت ميلاني تلفه من أجل الحياكة ، طيلة ساعة ، كما راقبت التعبير الغامض الغفل الذي كسا وجهه وهو يستمع إليها تتحدث بفخر واستطراد عن آشلي وترقيته . وكانت سكارلت تعرف أن ريت لا يحمل أية فكرة سامية عن آشلي ، ولا يحفل مطلقاً بحقيقة ترقيته إلى رتبة مايجور ، ومع ذلك فها هو يرد بأجوبة مهذبة ، وينطق بالإجلال الخليق بمروءة آشلي وشهامته .

وإذا ما ذكرت اسم آشلي كثيراً ، فكرت سكارلت مغتاظة ، رفع حاجبيه وابتسم تلك الابتسامة الخبيثة العارفة .

ـ «إني أجمل منها بكثير» ، أردفت «ولا أرى سبباً لكونك أرق معها» .

ـ «هل لي أن آمل أن تكون الغيرة قد بدأت تدب فيك؟» .

ـ «ها ، لا تذهب بك الظنون هذا المذهب» .

ـ «لقد تحطم أمل آخر . . . إذا كنت أرق مع السيدة ويلكس ، فذلك لأنها جديرة بالرقة . . . إنها واحدة من أولئك الأشخاص القليلين جداً ، الذين عرفتهم في حياتي ، الأشخاص الطيبين المخلصين ، المنكرين لذواتهم . بيد أنك قد تكونين فشلت في ملاحظة هذه الصفات فيها . وزيادة على ذلك ، إنها رغم شبابها تعتبر إحدى قلة من السيدات العظيمات اللواتي نلت شرف معرفتهن» .

ـ «هل تقصد القول إنك لا تعتقد أني سيدة عظيمة ، أيضاً؟» .

ـ «أعتقد أننا اتفقنا في أثناء اجتماعنا الأول على أنك لست سيدة قط» .

ـ «ها ! إذا كنت تود أن تكون مقيتاً فظاً إلى هذه الدرجة ، فتذكر تلك الحادثة ثانية ! . . . كيف تستطيع تذكر تلك الزلة الصبيانية؟ لقد حدث ذلك منذ مدة طويلة ، كبرت خلالها ، وكان يمكن أن أنسى كل ما يتعلق بها لو أنك لا تضرب دائماً على الوتر ذاته ، مشيراً إليها !» .

ـ «أنا لا أعتقد أنها كانت زلة صبيانية ، كما لا أعتقد أنك تغيرت ، ففي مقدورك الآن ، كما في السابق ، قذف الأصص إذا لم تستطيعي نيل مرادك . ولكنك تنالين عادة ما تبغين هذه الأيام ، ولذلك لم يعد بك حاجة إلى تحطيم أي شيء» .

ـ «آه ، إنك ـ أتمنى أن لو كنت رجلاً ! لدعوتك إلى المبارزة وـ» .

ـ «وقُتلت بغيظك . . فأنا أستطيع إصابة الشلن على بعض خمسين ياردة ، الأفضل أن تلجئي إلى أسلحتك الخاصة ـ إلى الغمازتين ، والأصص ، وأمثال ذلك» .

ـ لست إلاّ وغداً زنيماً» .

ـ «هل تتوقعين أن يستبد بي الغضب فأفقد طبعي بفعل عبارتك؟ إني آسف أن أخيّب ظنك ، ليس بوسعك إفقادي اتزاني بنعتي بأوصاف هي في الواقع حقيقية ، من المؤكد أني وغد ، ولم لا؟ ! فبلادنا تنعم بفضيلة الحرية ، وبوسع الإنسان أن يكون وغداً إذا ما اختار ذلك ، المنافقون أمثالك ، يا سيدتي العزيزة ، الذين لهم قلوب فاحمة كقلبك ، ويحاولون إخفاءها ، هم فقط الذين يسخطون إذا ما دعوا بأسمائهم الحقيقية» .

وانتابتها الحيرة ، قبل أن تشع ابتسامته الهادئة ، وقبل أن ينقطع توارد كلماته البطيئة ، إذ لم يتفق لها يوماً أن قابلت إنساناً بمثل هذه المناعة التي لا تغلب ، وكل السلاح في يدها : الازدراء ، برودة الأعصاب ، الشتائم ، فلم يكن يعيبه أي شيء تستطيع قوله ، وهي التي تعرف من تجاربها أن الكاذب هو أشد الناس تفانياً في إثبات صدقه ، والجبان في إثبات شجاعته ، والوغد نبالته ، والدنيء شرفه ، ولكن هذا لا ينطبق على ريت ، فهو يعترف بكل شيء . . . ويضحك . . . ويشجعها على المزيد .

خلال هذه الشهور ، كان يجيء ويروح ، يصل دون سابق دعوة ، ويغادر دون وداع ، ولم تكتشف سكارلت أي عمل بالذات يجره إلى أتلانتا ، لأن المهربين القلة الآخرين ، كانوا يرون من الضروري الابتعاد ما أمكنهم عن الساحل ، وكانوا ينزلون حمولتهم في ولمنفتون ، أو شارلستون حيث يجدون جماهير التجار والمضاربين من كل أنحاء الجنوب ، يحتشدون لشراء البضائع المهربة بالمزاد . وكان يبهج قلبها الاعتقاد بأنه يقوم بهذه الرحلات ليراها ، ولكن ، حتى غرورها الكبير لم يصدق هذا الحدس ، لو أنه صارحها بحبه يوماً ، أو غيرته من الآخرين الذين يتجمعون حولها ، أو حتى جرّب أن يقبض على يدها ، أو يرجوها منحه صورة أو منديلاً للذكرى ، لأمكنها أن تفكر ، ونشوة الظفر تطفر من قلبها ، بأنه وقع أسير مفاتنها ، ولكنه ظل بعيداً عن ثلّة المحبين بصورة مزعجة . وأدهى من ذلك كله ، ما يبدو من نفاذ بصيرته إلى كل ما تبتدعه من مناورات في سبيل إخضاعه ، وإجثائه على ركبتيه .

لم يصل المدينة يوماً إلاّ واضطربت الأوساط النسوية ، فلم يكن شخصه يزهو بالصفة الروائية للمهرب الجسور وحسب ، بل كان هناك أيضاً العنصر المثيرحول شخصية الوغد المرفوض . لقد كانت سمعته سيئة جداً ، بل كانت تزداد سوءاً كلما اجتمعت سيدات أتلانتا المتزوجات يثرثرن عنه ، الأمر الذي لم ينتج عنه إلاّ تعاظم سحره في عيون الصبايا ، فلكون معظمهن في منتهى البراءة ، لم يسمعن عنه إلاّ شيئاً يسيراً ، بالإضافة إلى كونه «منحلاً تماماً مع النساء» ـ ولم يدركن بالضبط كيف يتصرف الرجل المنحل . وقد سمعن أيضاً بعض الهمس القائل إنه لا يؤتمن على أي فتاة ، وكان من المستغرب ، وهو يتردّى في هذه السمعة ، أن لا يقدم ، منذ ظهوره في أتلانتا ، على أكثر من تقبيل يد فتاة عذراء ، ما أسهم في جعله أكثرغموضاً ، وأشد إثارة .

كان شخصه يستحوذ على القسط الأوفر من أحاديث الناس في أتلانتا ، إذا استثنينا أبطال الجيش ، فالجميع يعرفون بإسهاب كيف أنه طُرد من وست بوينت ، لإدمانه على الشرب ، ولبعض القضايا النسوية ، والجميع يعلمون تلك الفضيحة المرعبة المتعلقة بفتاة شارلستون التي هتك عرضها ، وبأخيها الذي قتله . وقد كشفت المراسلات مع الأصدقاء الشارلستونيين عن حقيقة أخرى أكثر غرابة ، هي أن والده ، الذي كان سيداً مسناً حلو المعشر ذا إرادة قوية وعزيمة

تقصم الظهر، قد طرده وهو في العشرين من العمر، وليس في جيبه بنس واحد. ولم يكتف بذلك، بل أسقط اسمه من سجل العائلة، فراح يضرب في الآفاق، متجولاً في كاليفورنيا إثر انطلاق الناس للبحث عن الذهب عام ١٨٤٩، ومن هناك ارتحل إلى أميركا الجنوبية ثم إلى كوبا، وجاءت التقارير عن نشاطه في تلك الأنحاء وهي لا تخلو من الشين: تورط مع النساء، حوادث قتل عديدة، تهريب سلاح للثوار في أميركا الوسطى، وأسوأ من هذا كله أنه توج أعماله باحتراف القمار، كما علمت أتلانتا.

لم يكن في جورجيا عائلة، تقريباً، لا تضم بين أفرادها، كارهة، عضواً واحداً أو قريباً على الأقل، يقامر فيخسر المال والعبيد والبيوت، ومع ذلك، فإن هذه الحال تختلف عما نحن بصدده، إذ كان بوسع الرجل أن يقامر حتى ينحدر إلى هوة الفقر ويظل مع ذلك محافظاً على مكانته الاجتماعية، ولكن المقامر المحترف لا يمكن اعتباره أكثر من منبوذ.

ولولا ظروف الحرب وخدمات ريت بتلر لحكومة الحلف، لما رحب به أحد في أتلانتا، بيد أن أشد المتزمتين، المحدودين في تفكيرهم، شعروا الآن، أن الوطنية تدعوهم لأن يكونوا أوسع صدراً وأسلم إدراكاً، بينما مالت الفئة الأكثر مسايرة وعطفاً، إلى الاعتقاد بأن بتلر قد ندم على أساليبه الشريرة، وأنه يحاول التكفير عن آثامه. وهكذا شعرت السيدات أن الواجب يفرض عليهن التساهل قليلاً، ولا سيما في حالة مهرب مقدام كهذا، إذ أصبح الجميع يدركون الآن أن مصير الحلف يتوقف على مهارة زوارق التهريب في تجنب أسطول الشماليين، بقدر ما يتوقف على بسالة الجنود في جبهة القتال.

وانتشرت الشائعات تقول إن الكابتن بتلر هو من أبرع ربابنة الجنوب، وإنه جريء لا يعرف الخوف مطلقاً. ولـمّا كانت نشأته في مدينة شارلستون فقد كان خبيراً بكل المداخل والصخور ومصبات الأنهار ومناطق المياه الضحلة على ساحل كارولينا، قرب ميناء شارلستون، كما كان يتمتع بالخبرة ذاتها في مياه ولمنفتون. ولم يخسر يوماً زورقاً، أو يُجبر على إغراق حمولة.

لقد برز من خلال غمرة النسيان في بدء الحرب، ومعه نقود تكفي لشراء زورق صغير سريع، والآن، وعندما أصبحت البضائع المهربة تحقق ربحاً يبلغ مائتين بالمائة عن كل حمولة، صار بحوزته أربعة زوارق. كانت يستخدم ربابنة

مهرة ، ينقدهم رواتب مغرية ، فيتسللون خارج شارلستون وولمنفتون تحت جنح الظلام ، يحملون القطن إلى ناسو وإنكلترا وكندا .

كانت مناسج القطن في إنكلترا مشلولة الحركة ، والعمال يكافحون الموت جوعاً ، وكل مهرب يستطيع التملص من طوق حصار الشماليين ، كان بمقدوره فرض السعر الذي يريده لأقطانه في ميناء ليفربول . وكانت زوارق ريت بتلر فريدة الحظ في كونها تحمل أقطان الحلف خارجاً ثم تعود مشحونة بعتاد الحرب الذي كان الجنوبيون يتفانون في سبيل الحصول عليه . أجل ! أحست السيدات أن بمقدورهن الصفح ، ونسيان العديد من الأمور ، بالنسبة إلى رجل شجاع مثل ريت .

ومن بين نساء أتلانتا جميعهن ، لم تستطع غير قلة من السيدات مقاومة مغرياته عندما كان يبتغي الكشف عنها ، وحتى السيدة ميريويذر ، عدلت رأيها أخيراً ، ودعته إلى غداء الأحد .

كان زواج مايبيل ميريويذر ، سيتم على الرجل الصغير ، في أثناء إجازته التالية . وكانت مايبيل كلما تفكر بعرسها تسفح الدموع لخيبتها في ما منت به النفس من الظهور يوم العرس بثوب حريري أبيض ، ذلك القماش الذي لم يكن له وجود في أراضي الحلف . ولم تفلح كذلك في استعارة ثوب من هذا القبيل ، لأن فساتين ساتان أعراس السنين الماضية قد استهلكت في صنع رايات الحرب . ولم يجد تأنيب السيدة الوطنية ميريويذر لابنتها أو التلميح لها بأن القماش البلدي هو كسوة العرس اللائقة بعروس بلاد الحلف ، فالفتاة تصر على الساتان . ورغم أنها كانت عازمة ، بل فخورة على الظهور بلا دبابيس شعر ولا أزرار ولا أحذية أنيقة ، ولا حلوى وشاي ، كل ذلك في سبيل القضية الوطنية ، إلا أنها كانت ترغب في ثوب عرس من الساتان .

وسمع ريت بالأمر من ميلاني ، فأحضر معه من إنكلترا ياردات كثيرة من الساتان الأبيض الزاهي ، وقناعاً مزركشاً بالدنتلة ، وقدمها لمايبيل كهدية ليوم عرسها . فعل ذلك بطريقة لا يجوز معها التفكير حتى بذكر نقده ثمنها ، وطفر قلب مايبيل فرحاً ، بحيث همت أن تقبّله . أما والدته فقد أدركت أن هدية ثمينة كهذه ـ هدية ثياب خاصة ـ لم تكن في محلها أبداً ، ولكنها لم تستطع التفكير بطريقة لردها ، عندما أخبرها بتلر ، في أبلغ عبارة ، أن لا شيء ثمين

بالنسبة إلى تزيين عروس بطل في من أبطالنا الشجعان ، وعلى ذلك دعته السيدة ميريويذر للغداء ، وهي شاعرة أن هذا الشرف أغلى من ثمن الهدية .

*

ظل ريت بتلر ، خلال شهور عدة ، أعظم الشخصيات شهرة ، وأكثرها إلهاماً للخيال بين جميع الذين عرفتهم أتلانتا ، وذلك رغم شينه الماضي ، ورغم الشائعات الغامضة عن انهماكه ، ليس بالتهريب فحسب ، بل وبالمضاربة على المواد الغذائية أيضاً . وراح الناس الذين لا يكنون له الحب والتقدير يتقولون إنه بعيد كل سفرة يقوم بها لأتلانتا ، تقفز الأسعار خمسة دولارات . ولكن ، حتى مع تسرب هذه الثرثرة المستترة إلى الأنحاء ، كان بوسعه الاحتفاظ بشهرته ، لو أنه اعتبرها تستحق الحفاظ عليها . غير أنه بدلاً من ذلك ، بدا وكأنه ، بعد محاولته مصاحبة وطنيي المدينة ورجالها الأفذاذ ، وبعد نجاحه في كسب احترامهم ومحبتهم المغتصبة ، دفع بحافز شرير متمرد في نفسه إلى الخروج عن ذاك الطريق السوي ، وإلى إهانة أهل المدينة ، والكشف لهم عن أن سلوكه كان مجرد قناع تنكري ساخر لن يروق له بعد اليوم .

كان كأنه يحمل في ذاته ازدراء غير شخصي لكل إنسان ولكل شيء في الجنوب ، خصوصاً للحلف ، ولا يكلف نفسه مؤونة كتمان ذلك . والذي جعل أتلانتا ترمقه بعين الشدة أول الأمر ، هو ما تفوّه به عن الحلف ، ثم تحول الشدة إلى عدم اكتراث ، ثم انفجر في ثورة غضب لاهب . حتى قبل أن ينتهي عام ١٨٦٢ صار الرجال يحيونه بجفاء مقصود ، وبدأت النساء يجذبن بناتهن إلى جوارهن إثر ظهوره في اجتماع ما .

وبدا كأنه لا يطرب بتوجيه الإهانة لولاء أتلانتا الصادق المتقد حماسة فحسب ، بل وبتسليط أسوإ الأضواء الممكنة على شخصه أيضاً . فعندما كان الناس ، ذوو النيات الحسنة ، يطرون شجاعته في اختراق الحصار ، كان يترفق مجيباً أن قلبه ينهلع كلما أحاطت بقاربه الأخطار ، كما تنهلع قلوب الجنود الشجعان في الجبهة . ولـمّا كان الجميع يعرفون أن لا وجود لجندي رعديد واحد في صفوف الحلف ، كانوا يحسون بهذه العبارة ترمضهم بصورة غريبة . وكان دائماً يشير إلى الجنود بـ«شبابنا الشجعان» أو «أبطالنا في البزات الرمادية» ، يفعل ذلك بطريقة معينة ، بحيث تحمل في طياتها أقذع الإهانات .

وعندما كانت تشكره بعض الصبايا الجريئات، أملاً بمداعبته، لكونه أحد الأبطال الذين حاربوا من أجلهن، كان ينحني معلناً أن الأمر ليس كذلك، لأنه سوف يقوم بالعمل ذاته من أجل النساء الشماليات إذا ما عرض عليه مبلغ المال ذاته.

منذ لقاء سكارلت الأول به في أتلانتا، ليلة السوق الخيرية كان يتحدث إليها على هذه الوتيرة، أما الآن فقد أضاف نغماً ساخراً مقنّعاً بقناع رقيق، إلى أحاديثه مع الجميع، فإذا ما أُثني عليه لخدماته للحلف كان دائماً يقول بأن التهريب مهنة بالنسبة إليه، وقد يقول، مشيراً بعينيه إلى أولئك الذين يملكون عقود الالتزام الحكومية، إنه إذا استطاع جمع المبلغ ذاته من المال، من طريق العقود الحكومية، فإنه قطعاً يهجر مخاطر التهريب، ويمضي في بيع الأقمشة الرخيصة، والسكر المرمّل، والدقيق الفاسد، والجلود العفنة، إلى الحلف.

وكانت معظم ملاحظاته ممّا يصعب الرد عليه، الأمر الذي يجعلها أسوأ في نظر الناس. وقبل هذا الوقت كانت قد وجدت فضائح أقل شأناً بين متعهدي الحكومة، إذ كانت الرسائل ترد من جنود في الجبهة، تتذمر أبداً من الأحذية التي تبلى بعيد أسبوع، والبارود الذي لا يشتعل، وعُدد الخيل التي تتصدع بفعل أي ضغط، واللحم الفاسد، والدقيق الحافل بالسوس. وظن سكان أتلانتا أن الرجال الذين كانوا يبيعون مواد كهذه للحكومة لا بد أن يكونوا متعهدين من ألاباما أو فرجينيا أو تنيسي وليسوا جورجيانيين، أفليس متعهدو جورجيا رجال من خيرة العائلات؟ ألم يكونوا أول من تبرع للمستشفيات ولمساعدة يتامى الجنود؟ أليسوا أول من هتف لنشيد الجنوب، وأشجع من طالب بالخطابة على الأقل بدماء الشماليين؟ . . ولـمّا لم تعظم بعد موجة الغضب الطاغي ضد هؤلاء الانتهازيين لعقود الحكومة، فقد اعتبرت كلمات بتلر مجرد شهادة على تربيته الفاسدة.

لم يقتصر بتلر على إهانة المدينة بتلميحه الدائم إلى ارتشاء رجالها ذوي المناصب العالية، وحطه من شأن شجاعة جنودها في الميدان فحسب، بل كان يطرب لنصب الحبائل لمواطنيها المحترمين وسوقهم إلى مواقف محرجة. ولم يعد في وسعه ردع نفسه عن فضح العجرفة الفارغة، وأعمال النفاق، والوطنية المزخرفة البراقة، التي يتشدق بها هؤلاء المحيطون به، أكثر مما يستطيع صبي

صغير كبح جماح هواه في وخز بالون بدبوس . وهكذا راح ببراعة ، يدحض عنجهية المتعجرف ، ويهتك ستر الجاهل والمتزمت ، وكان يفعل ذلك بمكر ودهاء ، مجرجراً ضحاياه ، بجديته الأنيسة اللطيفة في الظاهر ، بحيث لا يتحققون تماماً مما حدث لهم حتى يقفوا مفتضحين كمهرجين منتفخي البطون بلغو القول ، محلقين في الهواء .

وفي الشهور التي رحبت المدينة به ، لم تخدع الأوهام سكارلت عن حقيقته . كانت تعرف أن كياسته الخلابة ، وأحاديثه البليغة ، لم تصدر إلاّ عن لسانه ، كانت تعرف أنه يتلبس دور مخترق الحصار الوطني المقدام ، لأن ذلك يلذه وحسب ، وكان يبدو لها ، أحياناً ، كشبان الولاية الذين ترعرعت وإياهم ، كالتوأم الشرسين تارلتون ، بتعلقهما بالدعابات العملية ، وكالشابين الشيطانين فونتين بولعهما بالإغاظة والضر ، وكأبناء كالفرت الذين يسهرون الليل بطوله ، يبتدعون الألاعيب ، ولكن ، ما زال هناك فرق ، فتحت خفة روح بتلر تكمن نزعة حقودة ، نزعة شر تقريباً ، في بهيمية مهذبة .

وعلى رغم إدراكها تماماً عدم إخلاصه ، إلا أنها تقدره كثيراً في شخصية مخترق الحصار الروائية ، ولهذا السبب فقط ، صارت علاقتها معه أيسر مما كانت عليه قبلاً . وعلى ذلك أنزعجت بشدة عندما أسقط عن نفسه القناع ، وشرع على العيان ، في حملة مركزة لدحض مقاصد أتلانتا الخيرة . لقد أزعجها ذلك لأنه بدا إجراء سخيفاً أحمق ، ولأن جزءاً من النقد اللاذع الموجه إليه كان يقع عليها .

وفي حفلة الموسيقى الفضية التي أقامتها السيدة ألسنغ ، والتي كان ريعها لمنفعة الجنود الناقهين ، وقّع بتلر وثيقة نبذه النهائية . فبعد ظهر ذلك اليوم غصّ منزل آل ألسنغ بالجنود المجازين ، وبرجال المستشفيات ، وبأعضاء الحرس الوطني والميليشيا ، وربات البيوت والأرامل والشابات ، بحيث لم يبق كرسي شاغر واحد ، حتى السلم الطويل المتعرج عجّ بالضيوف وفرغت الطاسة الكبيرة التي كان يحملها نادل آل ألسنغ على الباب مرتين من ملئها من النقود الفضية ، الأمر الذي كان وحده كافياً لإعلان نجاح الحفلة ، إذ إن الدولار الفضي بهذه الأيام كان يساوي ستة دولارات من أوراق النقد الحلفية .

كل فتاة كانت تشعر بأنها موهوبة فنيّاً ، غنت أو عزفت على البيانو ، وحيث

الجماهير شخصيات المشاهد المختلفة بتصفيق التقدير والاستحسان ، وسرت سكارلت من نفسها كثيراً ، فقد اشتركت وميلاني في ترديد النشيد الحواري المؤثر «عندما يكون الندى على الزهر» وأتبعته بدلاً من إعادته تلبية لرغبة المستمعين بالنشيد الأكثر إمتاعاً «أيها الإلـــه ، ويا أيتها السيدات ، لا تؤاخذوا ستيفن» ليس هذا فحسب بل إنها اختيرت أيضاً ، لتمثل روح الحلف في المشهد الأخير .

بدت سكارلت أخاذة للغاية ، وهي في ثوب إغريقي من الخام الأبيض مردود بعضه على بعض ، ممنطقة بحزام أحمر وأزرق ، وحاملة في إحدى يديها النجوم والشرائط ، بينما مدت السيف باليد الأخرى نحو الكابتن الألابامي الراكع ، كاري أشبورن ، السيف ذا المقبض الذهبي ، الذي يخص تشارلز ووالده .

وعندما انتهى المشهد ، لم تستطع كبح رغبتها في البحث عن عيني ريت ، لترى إذا كان قد قدّر الصورة الجميلة التي ابتدعتها ، ولكنها ، وبشعور من المرارة ، رأته في غمرة جدل حام ، من المحتمل ألاّ يكون قد راقبها بسببه . واستطاعت سكارلت أن تدرك من وجوه الرجال المحيطين به أنهم حانقون لما كان يقوله .

شقت طريقها نحوهم ، وفي فترة صمت ، من تلك الفترات الطارئة التي تهبط أحياناً على رؤوس أي حفل ، سمعت ويلي جوينان ، أحد أفراد الميليشيا ، يقول بوضوح :

ـ «هل أفهم يا سيدي أنك تعني أن القضية التي مات أبطالنا في سبيلها ليست مقدسة؟» .

ـ «لو أن قطاراً سحق جسدك ، فموتك لن يقدس شركة سكة الحديد . أليس كذلك؟» سأل بتلر وصوته يبدو كأنه ينشد معرفة الجواب بتواضع .

ـ «سيدي» ، قال ويلي بصوت يختلج ، «لو لم تكن تحت هذا السقف» .

ـ «إني أرتعد حين أفكر في ما سيحدث» ، قال ريت «فشجاعتك بالطبع ذائعة الصيت مشهورة» .

فتخضب وجه ويلي ، وانقطعت الأحاديث ، وارتبك القوم . وكان ويلي هذا شاباً قوياً سليم البنية ، في سن الجندية ، ومع ذلك ، لم يكن في الجبهة . ورغم أنه كان وحيداً لأمه فقد كان من الضروري أن يكون في الميليشيا رجال لحماية الدولة . بيد أن حمحمات سخرية سمعت صادرة من بعض الضباط الناقهين ،

حين كان ريت يتحدث عن الشجاعة .

ـ «آه ، لم لا يخرس» همست سكارلت ساخطة ، «إنه ، إنما يفسد الحفلة بأسرها» .

وتجهم جبين الدكتور ميد بشكل ينذر بالعاصفة :

ـ «لا شيء يمكن أن يكون مقدساً في نظرك أيها الشاب» ، قال بلهجته الخطابية المعتادة «ولكن ، يوجد الكثير من الأشياء المقدسة بنظر رجال الجنوب ونسائه الوطنيين وحرية بلادنا من الغاصبين أحدها ، وكذلك حقوق الولايات و . . .» .

بدا الوجوم على بتلر ، وخالط صوته نغم ملس ، كدر تقريباً :

ـ «كل الحروب مقدسة» قال ، «بنظر هؤلاء الذين يخوضونها ، وإذا لم تجعل الأمة التي تبدأ القتال من الحرب أمراً مقدساً ، فمن هو الذي سيكون في منتهى الحمق ليخوض غمراتها؟ ولكن ، مهما كانت نداءات التشجيع التي يوجهها الخطباء إلى المعتوهين الذين ينتضون السلاح ، ومهما كانت المقاصد النبيلة التي يحددونها كهدف للحرب ، فليس هناك إلا سبب واحد للحروب ، وهذا السبب هو المال . كل الحروب في حقيقتها معارك مالية ، غير أن الذين أدركوا ذلك قلة قليلة من الناس ، إن آذانهم تضج بنفير الأبواق وقرع الطبول ، وبالألفاظ البديعة ، يزجيها خطباء قابعون في بيوتهم . مرة يكون شعار المعركة «أنقذوا قبر المسيح من الكفرة !» وأخرى : «لتسقط البابوية !» وثالثة : «الحرية !» وطوراً «القطن ، الرق وحقوق الولايات !»

وفكرت سكارلت «لأي سبب في الدنيا يزج بالبابا في هذا الموضوع؟ وقبر المسيح أيضاً؟» .

ولكن ، فيما هي تهرع نحو الجماعة الهائجة ، لمحت ريت ينحني جذلاً ، ويتجه خلال الجمهور إلى الباب ، فانطلقت خلفه ، إلاّ أن السيدة ألسنغ جذبت تنورتها ، ومنعتها :

ـ «دعيه ينصرف» ، قالت بصوت واضح ، سُمع في أنحاء القاعة المكتظة الصامتة «دعيه ينصرف فهو خائن مضارب ! أفعى رقطاء رعيناها فوق صدورنا» .

فما كان من ريت ، الواقف على الباب وقبعته بيده ،وقد اخترقت الكلمات أذنيه كما لو أنه تعمد سماعها ، إلاّ أن التفت ورمق الحضور هنيهة قصيرة ثم

سدد ناظريه نحو صدر السيدة ألسنغ ، العديم الرونق ، وابتسم فجأة ، متخذاً طريقه خارجاً بعد انحناءة .

*

بعد الحفلة رجعت السيدة ميريويذر إلى بيتها في عربة العمة بيتي ، وما كادت السيدات الأربع يجلسن ، حتى انفجرت بالكلام :

ـ والآن ، آمل أن تكوني قد اقتنعت يا بيتي بات هاملتون» .

ـ «بماذا؟» صاحت بيتي بات ، متوقعة الشر .

ـ «بسلوك ذلك الرجل الحقير بتلر ، الذي كنت تأوينه» .

وأربكتها المفاجأة كثيراً وأسقط في يدها ، بحيث لم تتذكر أن السيدة ميريويذر كانت قد استضافت ريت هي أيضاً ، وفطنت سكارلت وميلاني لهذا الأمر ، ولكنهما ، وقد ربيتا على احترام من هم أكبر منهما سناً ، أحجمتا عن التلميح به ، وبدلاً من ذلك ، طأطأتا رأسيهما وأخذتا تنعمان النظر في أيديهما .

ـ «لقد أهاننا جميعاً ، والحلف أيضاً» ، قالت السيدة ميريويذر ، وصدرها البدين يخفق بقوة تحت قميصها المزركش الزاهي ، «يقول إننا نحارب في سبيل المال ، يقول إن رؤساءنا كذبوا علينا ، ينبغي سجنه ، أجل! ينبغي! سأتكلم مع الدكتور ميد حول هذا الموضوع ، لو أن السيد ميريويذر حي فقط ، لانتفض في وجهه ، والآن اسمعي يا بيتي هاملتون ، عليك أن لا تتركي ذلك الوغد يطأ منزلك مرة ثانية» .

ـ «ها» تمتمت بيتي مرتبكة ، وقد بدت كأنها تتمنى لو كانت ميتة ، ثم نظرت بعينين متوسلتين إلى الفتاتين اللتين ظلتا مطأطئتين ، ثم عاودها الرجاء ، فتطلعت نحو ظهر العم بطرس المنتصب ، لقد أدركت أنه كان يصغي بانتباه لكل كلمة ، فأملت أن يستدير ويشارك في الحديث ، كما فعل مراراً ، وتمنت أن يقول «أنت يا آنسة دولي ، أنت التي أفسحت في المجال للآنسة بيتي كي تفعل ذلك» . ولكن العم بطرس لم يحرك ساكناً ، كان يمقت بتلر من كل قلبه ، وكانت بيتي التعسة على بينة من هذا ، ولذلك تنهدت قائلة : «حسناً ، دولي ، إذا كنت تحسبين . . .» .

ـ «إني أحسب» أجابت السيدة ميريويذر بحزم «إنني لا أستطيع فهم الذي يتابك فتنقادين لاستقباله كأرفع شخصية ، بعد هذه الأمسية ، لن يوجد بيت

محتشم في المدينة يمكن أن يرحب به ، تذرعي ببعض اللباقة وامنعيه عن دخول بيتك» . وصوبت نظرة حادة نحو الفتاتين ، «آمل أن تكونا ، كليكما ، منتبهتين لكلامي» ، وقالت «لأنها غلطتكما إلى حد ما ، بسلوككما الممتع له . فقط أخبراه بأدب ، ولكن بحزم ، أن وجوده وحديثه الذي ينم عن الخيانة أمر غير مرغوب فيهما أبداً في بيتكما» .

في هذه الأثناء ، كان الدم قد غلى في عروق سكارلت ، وأضحت على استعداد للوثوب كالحصان ، إذا ما هزت عنانه يد غريبة خشنة . ولكنها كانت تخشى الحديث ، فهي لا تستطيع المجازفة ، ودفع السيدة ميريويذر إلى كتابة رسالة أخرى إلى أمها .

«أيتها البقرة العجوز» فكرت وقد تورد وجهها بفعل الغضب الحبيس «حبذا لو أستطيع مصارحتك بحقيقة رأيي فيك وفي أساليبك البراقة» .

ـ «ما كنت أظن أبداً أنني سأعيش إلى مثل هذا اليوم لأسمع كلمات خائنة كهذه ، تطلق جزافاً على قضيتنا» استطردت السيدة ميريويذر ، ولكن بموجة من السخط المشروع في هذه المرة : «أي رجل لا يؤمن بعدالة قضيتنا وبقداستها ينبغي إعدامه . لا أريد أن أسمع عنكما أيتها الفتاتين حتى مجرد التحدث إليه مرة ثانية ـ بالله يا ميلاني ، أخبريني ما الذي يحزنك؟» .

كان الدم قد غاض من وجه ميلاني واتسعت حدقتا عينيها كثيراً :

ـ «سأتحدث إليه ثانية» قالت في صوت خفيض «لن أكون فظة معه ، لن أمنعه من دخول البيت» .

فزفرت السيدة ميريويذر زفيراً مدوياً كما لو أن أحداً قد لكمها لكمة قوية ، وفغرت العمة بيتي فاها الغليظ ، بينما استدار العم بطرس متفرّساً .

ـ «ولم لم أملك الحذاقة وأصرح بذلك؟ !» هجست سكارلت والحسد يغالب الإعجاب في نفسها «كيف استطاعت تلك الأرنبة الصغيرة أن تمتلك الجرأة الكافية لمواجهة السيدة العجوز ميريويذر؟» .

كانت يدا ميلاني ترتجفان ، ولكنها استطردت بسرعة ، كأنها كانت تخشى أن تخونها شجاعتها إن هي تلكأت :

ـ «لن أعامله بفظاظة بسبب ما قال ، لأن . . كانت وقاحة منه أن يجاهر بذلك علناً ـ بعد عن الحكمة ـ ولكن ـ هذا ما يعتقده آشلي وليس بوسعي

إغلاق باب البيت في وجه رجل يعتقد بما يعتقده زوجي ، سيكون ذلك موقفاً تنقصه العدالة» .

وفاءت السيدة ميريويذر إلى نفسها ، وانقضّت على الفتاة الصلبة :

ـ «ميلي هاملتون ، لم أسمع في حياتي كذبة كهذه ، فلم يوجد يوماً ويلكسي جبان» .

أنا لم أقل أبداً إن آشلي جبان» ، قالت ، وقد بدأت عيناها تومضان «قلت إنه يعتقد بما يعتقده الكابتن بتلر ، وإنما يعبر عن ذلك بألفاظ تختلف ، وهو لا يشيع ذلك ويصرح به في حفلة موسيقية ، كما أرجو ، ولكن كتب بذلك إلي» .

وتنبّه ضمير سكارلت الآثم ، وهي تحاول استعادة ما يمكن أن يكون قد كتبه آشلي ، بحيث قاد ميلاني إلى التفوه بهذه العبارة ، ولكن معظم الرسائل التي كانت قد قرأتها تبددت من ذاكرتها حالما انتهت من القراءة ، فاعتقدت أن ميلاني ، بكل تأكيد ، قد تخلت عن إدراكها .

ـ «كتب لي آشلي أنه ينبغي ألاّ نحارب الشماليين ، وأننا خدعنا إلى هذه الحرب بتعليقات الساسة والخطباء المفوهين وحملاتهم المغرضة» .

ثم أردفت : «وقال إنه لا شيء في الدنيا يعادل ما ستفعله هذه الحرب بنا ، وقال إنه لا يوجد فيها شيء مشرف أبداً ـ وإنما فقط بؤس وقذارة» .

ـ «ها ! تلك الرسالة» ، فكرت سكارلت «أكان ذلك ما قصد إليه؟» .

ـ «لا أصدق هذا القول» قال السيدة ميريويذر جازمة ، «لقد أسأت فهم مراده» .

ـ «أنا لا أسيء فهم آشلي أبداً» أجابت ميلاني بهدوء وشفتاها تنتفضان ، «إنني أفهمه تماماً ، وقد قصد ما عناه الكابتن بتلر بالضبط ، غير أنه لم يقل ذلك بطريقة نابية» .

ـ «يجب أن تخجلي من نفسك وأنت تقارنين رجلاً طيباً كآشلي بوغد كالكابتن بتلر . أظن أنك ، أنت أيضاً ، تعتقدين أن القضية شيء فارغ !» .

ـ «أنا ! . . أنا لا أعرف ماذا أعتقد» ، استهلت ميلاني جوابها حائرة ، وقد تلاشى ثورانها ، وتملكها الفزع لإيغالها في الصراحة ، «أنا ـ أنا أموت في سبيل القضية ، كما يموت آشلي في سبيلها ، ولكن ـ أعني ـ أعني ، سأدع التفكير

بهذا للرجال ، فهم أوفر مني ذكاء» .

- «لم أسمع بمثل هذا أبداً» زعقت السيدة ميريويذر ، قف يا عم بطرس لقد تجاوزت منزلي .

كان العم بطرس قد شغله الحوار خلفه فتخطى مدخل بيتها ، ولذلك كبح مقود الحصان ، فترجلت السيدة ميريويذر وشرائط قبعتها تخفق كأشرعة سفينة وسط العاصفة .

- «ستندمين» قالت .

وساط العم بطرس حصانه ، ثم قال مؤنباً :

- «ينبغي عليكما ، أيتها الآنستين الصغيرتين ، أن تخجلا لزجكما بالآنسة بيتي بات في مأزق حرج .

- «لست في مأزق» أجابت بيتي بات بصورة تدعو إلى الدهشة ، إذ إن انفعالاً أقل من هذا كان غالباً ما يؤدي بها إلى نوبات الإغماء :

- «ميلي ، حلوتي ، لقد أدركت أنك قمت بذلك لتدافعي عني ، والحق أني سررت من رؤية إنسان يحط من شأن دولي ، فهي امرأة متشوفة كثيراً . كيف واتتك الشجاعة؟ ولكن هل تعتقدين أنه كان يجب أن تقولي ذلك عن آشلي؟» .

- «ولكن ما قلته صدق» أجابت ميلاني ، مجهشة في البكاء الصامت «ولست خجلة لكونه يعتقد ذلك ، فهو يؤمن أن الحرب أمر خاطئ ، ولكنه على كل حال راغب في القتال والموت ، الأمر الذي يتطلب شجاعة أكثر بكثير من القتال في سبيل هدف يعتقد المرء أنه عادل» .

- «بالله يا آنسة ميلي ، لا تبكي هنا في شارع بيتشتري» ، توسل العم بطرس حاثاً حصانه «فالناس سيتحدثون أحاديث فاضحة ، تريثي إلى أن نبلغ البيت» .

لم تنبس سكارلت بكلمة ، بل إنها لم تقبض على اليد التي أدخلتها ميلاني في كفها لمواساتها . لقد قرأت رسائل آشلي بدافع واحد ، لتطمئن نفسها أنه ما زال يحبها . والآن ، ها هي ميلاني تعطي معنى جديداً لفقرات من الرسائل ندر أن وقعت عليها عينا سكارلت . وأمضها أن ترى إنساناً كاملاً تماما كآشلي يشترك في فكرة مع رجل وغد كهذا الريت بتلر . وفكرت : «كلاهما يرى حقيقة هذه الحرب ، ولكن آشلي يريد أن يموت في سبيلها ، بينما يأبى ريت ذلك . أعتقد أن هذا يثبت حسن إدراك ريت» .

13

بناء على تحريض السيدة ميريويذر ، عمد الدكتور ميد إلى تدبيج رسالة إلى جريدة المدينة شهر فيها بأعمال ريت بتلر ، ورغم أنه لم يتعرض لذكر اسمه فإن هدفه كان واضحاً جلياً ، وإذ أدرك رئيس التحرير خطورة هذه الرسالة من الناحية الاجتماعية ، نشرها على الصفحة الثانية ، الأمر الذي يعتبر في ذاته ، بدعة مذهلة ، لأن صفحتي الجريدة الأوليين ، كانتا تخصصان دائماً للإعلان عن العبيد ، والبغال ، والمحاريث ، وتوابيت الموتى ، والبيوت المعروضة للبيع أو للإيجار ، وعلاجات الأمراض السارية ، وعمليات الإجهاض ، والعقاقير المعيدة للرجولة الضائعة .

جاءت رسالة الطبيب الصرخة الأولى من صرخات كثيرة ناقمة بدأت تسمع في كل أنحاء الجنوب ضد المضاربين والانتهازيين وحملة العقود الحكومية . وفي ولمنفتون ، ميناء التهريب الأول ، بعد أن أطبقت زوارق الشماليين الحربية قبضة الحصار على ميناء شارلستون ، شارفت الأوضاع حدود فضيحة علنية . فقد كانت المدينة تزخر بالمضاربين الذين كانوا ، نظراً لحوزتهم المال ، يبتاعون جميع حمولات السفن ، ويحتفظون بها من أجل رفع الأسعار . وكانت الأسعار بدورها مستمرة في الارتفاع ، لأنه إزاء تفاقم ندرة الضروريات ، أخذت الأسعار تقفز شهراً بعد شهر ، وكان على المدنيين إما الاستغناء عن هذه البضائع أو شراؤها بأسعار المضاربين ، بينما كان الفقراء وأبناء الطبقة الوسطى يعانون مصاعب متزايدة .

ورافق ارتفاع الأسعار هبوط قيمة عملة الحلف ثانية ، ومع هبوطها السريع استشرت في الناس نزعة جامحة للكماليات . وكان قد عهد إلى المهربين جلب الضروريات ، مع السماح لهم بالمتاجرة بالكماليات ، كعمل ثانوي فقط ، ولكن زوارقهم تكدست الآن بأغلى أنواع الكماليات ، الأمر الذي حرم الحلف من حاجاته الضرورية . واندفع الناس بجنون يبتاعون هذه الكماليات ، بما يملكون من دراهم يومهم ، خشية أن ترتفع أسعار الغد ، وتهبط قيمة النقود الشرائية .

زاد الحالة سوءاً أن لم يكن هنالك إلا خط حديدي واحد من ولمنفتون إلى ريتشموند ، وبينما كانت آلاف من براميل الدقيق وصناديق لحوم الخنزير تفسد ويأكلها العفن في المحطات على جانبي السكة الحديد لقلة وسائل النقل ، كان يبدو أن المضاربين قادرون على نقل الخمور والقماش والقهوة إلى ريتشموند لبيعها بعد يومين من تنزيل البضائع في ولمنفتون .

وانتقلت الإشاعة التي كانت تتسرب في الخفاء إلى حيز النقاش العلني ، تلك الإشاعة القائلة أن ريت بتلر لا يكتفي بتهريب حمولة زوارقه الأربعة ويبيعها بأسعار خيالية ، بل يتعدى ذلك إلى شراء حمولة الزوارق الأخرى والاحتفاظ بها من أجل رفع الأسعار . وقيل إنه كان على رأس جماعة من المهربين ، يزيد رأس مالها على المليون دولار ، تتخذ ولمنفتون قاعدة لها بقصد شراء البضائع المهربة وهي لا تزال على رصيف الميناء ، وتملك عشرات من مستودعات البضائع في تلك المدينة وفي ريتشموند أيضاً ، كما تقول الرواية ، وأن هذه المستودعات مكتظة بالطعام والثياب التي يحتفظ بها بانتظار أسعار أعلى . وهكذا أحس الآن الجنود والمدنيون بالضيق ، وكانت النقمة عليه ، وعلى زملائه المضاربين شديدة مريرة .

«يوجد العديد من الرجال الشجعان الوطنيين في قوة الحصار التابعة لبحرية الحلف» ، ذكر الطبيب في نهاية رسالته «رجال عديمي الأثرة ، يجازفون بأرواحهم وبكل ما يملكون في سبيل بقاء الحلف ، إنهم معززون في قلوب كل المخلصين من أهل الجنوب ، ولا يتطلع أحد للعائدات المالية الزهيدة التي يجنونها لقاء مغامراتهم ، إنهم سادة منكرون لذواتهم ، ونحن نحترمهم ونجلهم ، عن هذه الفئة من الأبطال ، لن أقول شيئاً . ولكن ، يوجد أناس آخرون ، أناس أوغاد ، يتسترون بمعاطف مخترقي الحصار في سبيل أرباحهم الأنانية ، إني أستمطر غضب السماء العادل ، وانتقام أمة تحت السلاح ، تحارب من أجل أعدل القضايا ، على هؤلاء الضواري البشرية ، الذين يجلبون الساتان والدنتلة في الوقت الذي يموت فيه رجالنا لحاجتهم إلى الكينا ، الذين يشحنون زوارقهم بالشاي والخمور بينما يتضور أبطالنا ألماً لنقص المورفين . إني ألعن مصاصي الدماء هؤلاء الذين يمتصون دماء حياة الرجال الذين يلتحقون بروبرت لي - هؤلاء الرجال الذين جعلوا اسم مخترق الحصار ذاته بمثابة رائحة كريهة

في أنوف جميع الوطنيين . كيف نستطيع الصبر على مثل هذه الحثالة من البشر ، تعيث فساداً بيننا بأحذيتها اللامعة ، في الوقت الذي يطأ فيه جنودنا أرض المعركة حفاة الأقدام؟ كيف نستطيع احتمالهم وهم ينعمون بزجاجات الشمبانيا وبلحوم باتيه ستراسبورغ ، في الوقت الذي يرتعش فيه جنودنا حول نيران معسكراتهم ويلتهمون لحم الخنزير العفن؟ إني أدعو كل حلفي إلى نبذهم» .

وقرأ الأتلانتيون رسالته ، وأدركوا أن صوت الرب قد لفظ حكمه ، وكحلفيين مخلصين ، أسرعوا إلى نبذ ريت بتلر .

وقد ظل بيت بيتي بات الوحيد تقريباً ، من بين جميع البيوت التي استقبلته في خريف ١٨٦٢ ، الذي تمكن ريت دخوله في عام ١٨٦٣ ، ولولا ميلاني ، لكان من المرجح أن لا يرحب به أحد هنالك ، فالآنسة بيتي بات كان يتملكها الاضطراب كلما جاء المدينة ، وهي تعرف تماماً ما تقوله صديقاتها عندما تدعه يزور بيتها ، ولكنها ما زالت تفتقر إلى الشجاعة كيما تصارحه بأن زيارته غير مرغوب فيها . وهكذا كان كلما حط رحاله في المدينة ، تزم شفتيها الغليظتين ، وتخبر الفتاتين أنها ستقابله على الباب ، وتمنعه من الدخول ، ولكنه يأتي في كل مرة ، وبيده رزمة صغيرة ، وعلى شفتيه عبارة إطراء لجمالها وفتنتها ، فتخور قواها ، وتجبن عن تنفيذ ما أملت .

ـ «إني لا أعرف أبداً ما ينبغي أن أعمل» ، كانت تقول متأوهة ، «فهو يحدق في وجهي وأنا ، وأنا أخاف حتى الموت مما سيفعله إن أخبرته ، فهو رجل سيئ السمعة . هل تظنان أنه يضربني ـ أو ـ أو . . بالله ، لو أن شارلي حي فقط! سكارلت ، يجب أن تخبريه أنت أن لا يزورنا مرة ثانية ، أخبريه ذلك بطريقة لطيفة . ويل لي . . إنني أعتقد أنك تشجعينه ، وكل المدينة تتحدث عنا ، وإذا ما اكتشفت أمك الحقيقة ، فماذا ستقول لي؟ ميلي ، يجب أن لا تؤانسيه كثيراً ، كوني فاترة ، منعزلة ، وسيفهم هو . آه يا ميلي ، هل تعتقدين أن من الأفضل أن أكتب رسالة لهنري وأطلب منه التحدث إلى الكابتن بتلر؟» .

ـ «لا ، لا أوافقك على رأيك» قالت ميلاني «ولن أكون فظة معه . أعتقد أن الناس يتخبطون في موقفهم حوله كدجاج طاحت رؤوسه . إني واثقة من أنه لا يمكن أن يتردّى إلى هذه الصفات الزرية التي ينسبها إليه الطبيب ميد والسيدة

ميريويذر ، ولا يمكن أن يمنع الطعام عن الجائعين وهو الذي أعطاني مائة دولار تبرعاً للأيتام . إني واثقة من أنه مخلص ووطني كأي منا ، وأن كبرياءه المرهفة تربأ به عن الدفاع عن نفسه . أنت تعرفين مدى تصلب الرجال عندما تشمخ أعطافهم» .

ولم تكن العمة بيتي تعرف شيئاً عن الرجال ، سواء بأعطافهم المتشامخة ، أو بظهورهم المحنيّة ، ولذلك لم يسعها إلا أن تلوح بيديها الصغيرتين السمينتين وهي عاجزة عديمة الحيلة . أما سكارلت ، فكانت قد استسلمت ، منذ مدة طويلة ، لعادة ميلاني في رؤية النواحي الخيرة عند كل إنسان . لقد كانت ميلاني حمقاء ، ولكن لم يكن بوسع أحد عمل شيء تجاه ذلك .

كانت سكارلت تعرف أن ريت ليس وطنياً ، ومع أنها كانت تفضل الموت على التصريح بذلك ، فإنها لم تأبه للموضوع بكليته . وأكثر ما كان يهمها من أمره تلك الهدايا الصغيرة التي كان يجلبها لها من ناسو ، والتي كانت عبارة عن أدوات صغيرة تتقبلها السيدة بطيبة خاطر . وإذا ما أغلقت الباب دونه ، فأنى تستطيع الحصول على الإبر والحلوى ودبابيس الشعر ، وهي على ما هي عليه من ندرة وارتفاع السعر . لا ، من الأيسر إلقاء المسؤوليات على العمة بيتي التي هي على كل حال ، ربة المنزل ، ومراقبة السلوك ، والحكم في قضاياه . كانت سكارلت تعلم أن المدينة تتحدث عن زيارات ريت ، وعن شخصها أيضاً ، بيد أنها كانت تعلم كذلك أن ميلاني ويلكس في نظر أتلانتا ، لا يمكن أن ترتكب خطأ ، فإذا ما دافعت ميلاني عن ريت بتلر ، فإن زياراته تظل تحمل طابع الاحترام واللياقة .

وعلى كل حال ، كان يمكن أن تكون الحياة أكثر بهجة لو أن ريت يردع هرطقته ، فهي لا تريد معاناة الألم النفسي برؤيته يجرح علانية ، في أثناء سيرها معه في شارع بيتشتري .

- «حتى لو كنت تؤمن بهذه الآراء ، فلماذا تصرح بها؟» قالت توبخه «وإذا وسعك الاعتقاد فقط بما تشاء دون أن تطلق للسانك العنان ، فإن كل شيء سيصبح أكثر إمتاعاً» .

- «هذا هو أسلوبك أنت ، أليس كذلك يا عزيزتي المنافقة ، الخضراء العينين . . سكارلت ! سكارلت ! كنت أتوسم فيك سلوكاً أكثر شجاعة . كنت

أعتقد أن الإيرلنديين يجاهرون بما يؤمنون ، وأن الشيطان يقبض روح الرجل الأخيرة ، أخبريني الحقيقة ، ألا تضيقين ذرعاً بنفسك بعض الأحيان من حبس لسانك؟» .

ـ «بلى» ، أقرت سكارلت كارهة ، «إني أحس بمنتهى الضيق وهم يتحدثون عن القضية ، صباحاً وظهراً ومساء . ولكن المصلحة يا ريت بتلر ، فلو أفصحت عن ذلك لامتنع الجميع عن مكالمتي ، ولرفض كل الشبان مراقصتي» .

ـ «ها ، نعم ، ولا بد للمرء من أن يراقص ، مهما كان الثمن . حسناً ، إني أكبر فيك قوة إرادتك ، ولكني لا أجد نفسي أهلاً لها . وليس بوسعي أيضاً التنكر بزي الوطنية والبطولة الخارقة سواء أكان ذلك مناسباً أم لا ، فهناك عدد كاف من الوطنيين الأغبياء ، الذين يجازفون بكل سنت يملكونه في خرق الحصار ، والذين سيخرجون من هذه الحرب فقراء متسولين ، وهم ليسوا بحاجة إلي لأنضم إلى صفوفهم ، أكان ذلك لإضاءة سجل البطولة ، أو لزيادة قائمة المتسولين . دعيهم يتوجون رؤوسهم بهالات من نور ، فهم يستحقونها ـ إني أصرح بذلك مخلصاً للمرة الأولى ـ هذا فضلاً عن أن هذه الهالات ستكون تقريباً كل ما سيكسبونه خلال سنة أو أكثر» .

ـ «أعتقد أنك قذر مقيت لمجرد تلميحك بأمور كهذه ، في وقت تعلم فيه جيداً أن بريطانيا وفرنسا قادمتان لمساعدتنا و . . .» .

ـ «ماذا ، سكارلت ! لا بد أن تكوني قد قرأت صحيفة ! إني استغرب ذلك منك ، لا تفعليها ثانية ، فهي تفسد عقول النساء ! أود أن أعلمك بصورة خاصة أنني كنت في إنكلترا منذ أقل من شهر وسأنبئك بما يلي : لن تؤازر إنكلترا الحلف أبداً ، فهي لا تراهن على الفريق الخاسر ، وهذا هو سبب كونها إنكلترا . وعلاوة على ذلك فإن المرأة الهولندية البدينة المتربعة على العرش تخاف الله ولا توافق على الرق . إنها تفضل أن يتضور عمال مناسج القطن الإنكليز جوعاً ، لعدم استطاعتهم الحصول على أقطاننا ، على أن تطلق طلقة واحدة في سبيل العبودية . أما فرنسا ، فإن أمبرطورها المقلد الهزيل لنابليون ، منهمك حتى أذنيه في توطيد دعائم فرنسا في المكسيك ، بحيث لن يزعج نفسه بقضيتنا . والحقيقة أنه يرحب بهذه الحرب ، لأنها تبقينا في شغل تام يعوقنا عن طرد جنوده من المكسيك . . . لا يا سكارلت ، فكرة المساعدة الخارجية مجرد بدعة صحفية

للمحافظة على قوة الجنوب المعنوية . إن الحلف يلفظ أنفاسه ، إنه يعيش على سنامه الآن ، كالجمل ، وحتى أضخم الأسنمة لا بد من نفادها . وسأظل أنهل من معين التهريب ستة شهور أخرى ثم أكف عنه ، إذ سيضحي العمل بعد ذلك مجازفة خطرة جداً . وبعد ذلك سأبيع زوارقي إلى إنكليزي أحمق ، يعتقد أن بوسعه التسلل بها خارجاً . ولكن سواء أحدث هذا أم لم يحدث ، فالأمر لا يهمني ، لقد جمعت من الثروة مبلغاً كافياً وضعته في المصارف الإنكليزية ، وجمعته بالعملة الذهبية ، وليس ضمنه شيء من هذا النقد الورقي العديم القيمة» .

وكما هو الحال كلما تكلم ، بدأ حديثه معقولاً مقبولاً . بوسع الآخرين اعتبار ما ينطق به خيانة ، ولكنه بالنسبة إلى سكارلت ينم دائماً عن صدق وإدراك . وهي تعرف أن موقفها هذا خطأ كلي ، وتعرف أن عليها أن تنفعل وتحمق ، بيد أنها في الحقيقة لا تشعر بشيء من هذا ، وإنما تستطيع التظاهر به ، الأمر الذي يجعلها أكثر احتراماً ، وأوفر تشبّهاً بالسيدة الفاضلة .

- «أعتقد أن ما كتبه عنك الطبيب ميد كان صحيحاً يا كابتن بتلر ، فالطريقة الوحيدة لافتداء نفسك هي في الالتحاق بالجيش ، بعد بيع زوارقك ، إنك خريج وست بوينت و . . .» .

- «إنك تتكلمين كواعظ معمداني يحث الناس على الجندية . ولنفرض أني لا أريد افتداء نفسي؟ لماذا يتوجب علي القتال لدعم النظام الذي نبذني؟ . . سأنعم برؤيته يتحطم» .

- «لم أسمع مطلقاً بأي نظام . . .» قالت متجهمة .

- «أبداً؟ ! ومع ذلك فأنت جزء منه ، كما كنت أنا . وإني أراهن أنك لا تميلين إليه أكثر مما ملت أنا . حسناً ، ولماذا اعتبرت الخروف الأسود في عائلة بتلر؟ لهذا السبب وحده ، لا لشيء آخر ، فأنا لم أمتثل لتقاليد شارلستون ، ولا أستطيع ذلك . وما شارلستون إلا الجنوب ، مصغراً فقط . إني لأتساءل إذا كنت قد تحققت إلى الآن عبء هذه التقاليد؟ أشياء كثيرة يتحتم على المرء الانقياد لها ، لأن العادة قضت بذلك ! وأشياء كثيرة أخرى ليس منها ضر أبداً ، يتحتم على المرء تجنبها ، للسبب نفسه ، وهكذا قضايا عديدة ترمضني بسخفها ، من أتفهها أن لا يتزوج المرء بالآنسة الفتية التي قد تكونين سمعت بها . لماذا يتوجب

عليّ الزواج بحمقاء سقيمة، ألأن حادثاً منعني من إيصالها إلى البيت قبل هبوط الظلام؟ ولماذا أسمح لأخيها المفترس العينين أن يطلق النار ويقتلني في الوقت الذي بإمكاني إصابة الهدف أفضل منه؟ لو كنت سيداً فاضلاً، لكنت تركته يقتلني طبعاً، وكان ذلك كافياً لمحو اللطخة من رقعة آل بتلر. ولكني أحب الحياة. وهكذا حييت ونعمت بوقت طيب... عندما أفكر بأخي يعيش بين بقر شارلستون المقدس ويحترمها للغاية، وأتذكر زوجته الثقيلة الظل وحفلات الرقص التي يقيمها تكريماً للقديسة سيسيليا، وحقول أرزه الخالدة، عندئذ أتحقق قيمة المكافأة التي يجنيها من يتمرد على النظام. سكارلت، إن نظام حياتنا الجنوبي بال كالنظام الإقطاعي، ومن الغريب أن استمر إلى هذا الوقت، إذ كان يجب انقضاؤه، وها هو يتداعى الآن. فهل تنتظرين مني بعد أن أصغي إلى الخطباء أمثال الطبيب ميد الذي يخبرني أن قضيتنا عادلة مقدسة؟ هل تتوقعين أن تستفزني الحمية بفعل دوي الطبول، فانتزع بندقية، وأنطلق إلى فرجينيا لأسفح دمي في سبيل مارس روبرت؟ من أي طراز من البله الأغبياء تظنينني؟ ليس من عادتي تقبيل العصا التي تقاصّني. أنا والجنوب متعادلان الآن.. طردني الجنوب يوماً كيما أموت جوعاً، ولكني لم أمت، بل إني أجمع مالاً وفيراً من نزاع الموت الذي يعاني الجنوب نفسه سكراته، أجمعها بديل حقوقي الشرعية الضائعة».

- «أعتقد أنك حقير مرتزق»، قالت سكارلت، ولكن بلهجة آلية. والحقيقة أن معظم الذي تفوه به قد تخطى عقلها، ككل حديث غير شخصي، على أن جزءاً منه بدا معقولاً. لقد كان هناك مجموعة من التقاليد السخيفة في حياة كرام الناس، فها هي تقسر على التظاهر بأن قلبها في القبر بينما هو ليس كذلك، وها هم الناس يذهلون عندما رقصت في السوق الخيرية، ويرفعون حواجبهم بطريقة مثيرة كلما قالت أو أتت أمراً، يختلف أقل اختلاف، عما تقوله أو تفعله أية صبية أخرى. ولكنها، مع ذلك، ما زالت تمتعض من سماعه يهاجم التقاليد نفسها التي أمضتها أكثر من أي شيء آخر، لقد عاشت ردحاً من الزمن بين أناس يصطنعون، بأدب، عدم الانزعاج من آرائها وهم يستمعون إليها تنطق بأفكارها.

- «مرتزق! لا، وإنما أنا بعيد النظر، مع أن هذه قد تكون مجرد لفظة مرادفة

مرتزق ، أو على الأقل ، هكذا يدعو بعد النظر أولئك الذين ليسوا بعيدي النظر مثلي ، لقد كان بمقدور كل حلفي مخلص ، يملك ألف دولار نقداً ، عام ١٨٦٢ ، أن يفعل الذي فعلت ، ولكن ما أقل الذين كانوا مرتزقة كما ينبغي ليستغلوا الفرص السانحة لهم! وكمثل على ذلك ، بعيد سقوط قلعة سمتر مباشرة ، وقبل بدء الحصار ، اشتريت عدة آلاف من بالات القطن بأسعار بخسة جداً ، وشحنتها إلى إنكلترا ، ولا تزال تقبع في المستودعات في ليفربول . لم أبعها أبداً ، إني أحتفظ بها حتى تضطر المناسج البريطانية إلى شراء القطن ، وتنقدني السعر الذي أريد . ولن أستغرب إذا ما حصلت على دولار للرطل الواحد» .

ـ «ستحصل على دولار للرطل الواحد عندما تعشش الفيلة في الأشجار!» .

ـ «أعتقد أني سأحصل على ذلك . فسعر رطل القطن الآن ٧٢ سنتاً . سوف أصبح رجلاً ثرياً عندما تنتهي الحرب ، لأني كنت ثاقب الفكر بعيد النظر ـ عفواً ، مرتزقاً . أخبرتك يوماً ، فيما مضى ، أن هناك فرصتين لجمع الثروات الكبيرة ، الأولى في أثناء تشييد حضارة ، والثانية خلال انهيارها . جمع بطيء في التشييد ، سريع في الانهيار ، تذكري كلماتي ، ربما أفادتك يوماً» .

ـ «إني أقدر النصيحة النصوح ، كثيراً جداً» ، أجابت سكارلت بكل ما في وسعها من سخرية ، «ولكني لا أحتاج إلى نصيحتك . هل تعتقد أن والدي فقير معوز؟ إن بحوزته كل ما أحتاج إليه من مال ، ثم إني أنعم بأملاك تشارلز أيضاً» .

ـ «أظن أن الأرستقراطيين الفرنسيين كانوا يفكرون عملياً على النسق نفسه ، حتى اللحظة الحاسمة التي سيقوا فيها على عربات النقل إلى المقصلة» .

*

كان ريت قد ألمح مراراً لسكارلت عن التناقض الناجم عن ارتدائها ثياب الحداد السوداء في الوقت الذي تشارك فيه بكل النشاطات الاجتماعية . وكان هو يحب الألوان الزاهية ، ولذلك كانت ملابس سكارلت السوداء ونقابها الحريري الذي يتدلى من قبعتها حتى قدميها تمضّه وتروقه في الوقت . . ذاته بيد أن سكارلت لزمت هذه الثياب ، مدركة أنها إذا بدلتها ابتغاء الألوان الزاهية ، دون أن تنتظر عدة سنين أخرى ، فستضج المدينة في الحديث عنها ،

أكثر مما هي ضاجة الآن ، ثم كيف يمكنها تعليل الأمر لأمها؟

لقد قال ريت لها علانية إن نقاب الحرير يجعلها تبدو كغراب ، وأن الملابس السوداء تضيف عشر سنوات إلى عمرها ، ودفعتها هذه العبارة النابية وثباً إلى المرآة لترى إن كانت حقاً تبدو في الثامنة والعشرين بدلاً من الثامنة عشرة .

ـ «لا بدّ لي من الاعتقاد أن بك أنفة ترباً بك عن أن تحاولي الظهور بمظهر السيدة ميريويذر» ، عيّرها بذلك يوماً «وأن بك ذوقاً أرفع من أن يجعلك تلبسين هذا النقاب ، كي تعلني عن حزن أنا واثق أنك لم تشعري به . سأراهنك ، سوف أنزع تلك القبعة وذاك النقاب عن رأسك ، وأضع بدلاً منها قبعة باريسية ، خلال شهرين» .

ـ «حقاً! لا ، ولا تدعنا نبحث في هذا الموضوع بعد اليوم» قالت سكارلت ، مستاءة من تعريضه لتشارلز . على أن ريت الذي كان يستعد للسفر إلى ولمنفتون ، ومنها إلى الخارج ، فارقها والبسمة الفاترة تعلو شفتيه .

وتصرّمت أسابيع . وفي صباح صيفي مشرق ، ظهر في الباب ، وبيده علبة مزركشة زاهية من علب القبعات . وعندما وجد سكارلت وحيدة في البيت ، فتح العلبة فإذا ضمن طيات من القماش الناعم كانت تستقر قبعة ، طرفة رائعة جعلتها تشهق : «ها! الشيء الذي أحبه!» وتراءت لها كأبدع قبعة شاهدتها ، وهي المتعطشة إلى رؤية الثياب الجديدة ، وللمسها أيضاً .

كانت من التفتة الخضراء القاتمة ، مخططة بحرير ناعم ذي لون أخضر فاتح ، وكان الشريطان اللذان يعقدان تحت الذقن عريضين عرض راحة يدها ، باللون الأخضر الفاتح ذاته ، وقد انحنت فوق قمة هذه التحفة آنق ريشة نعام .

ـ «ضعيها على رأسك» . قال ريت مبتسماً .

طارت عبر الغرفة إلى المرآة ، ووضعتها بسرعة على رأسها ، مشيحة بشعرها إلى الوراء لتبرز قرطيها ، عاقدة الشريطين تحت ذقنها .

ـ «كيف أبدو؟ !» صاحت مستديرة نحوه كي يتأملها جيداً ، هازة رأسها لترقص الريشة . لقد كانت تعلم أنها تبدو جميلة ، حتى قبل أن ترى توكيد عينيه .

ـ «ها ، ريت ، لمن هذه القبعة؟ سأشتريها منك ، سأنقدك كل سنت أملكه» .

ـ «إنها لك» قال «وأي إنسان آخر يستطيع التزيي بتلك الظلال الخضراء؟ ألا تعتقدين أني حفظت لون عينيك جيّداً في ذاكرتي؟ !» .

ـ «هل حقاً فصلتها خصيصاً لي؟» .

ـ «نعم ، وعلى العلبة تجدين عبارة «شارع السلام» إن كان ذاك يعني شيئاً بالنسبة إليك» .

والواقع أن ذاك لم يعن شيئاً لها ، بل راحت تبتسم وهي تتأمل صورتها في المرآة ، ففي هذه اللحظة بالذات ، لم يكن يهمها شيء عدا أنها تبدو خارقة الرواء ، في أول قبعة أنيقة تضعها على رأسها منذ سنتين . أي شيء لا تستطيع تحقيقه بهذه القبعة؟ وفجأة غاضت بسمتها .

ـ «ألم ترق لك؟» .

ـ «ها ، إنها حلم ولكن ـ آه ، إني أمقت أن أُجبر على تغطية هذه القبعة الخضراء البديعة بالنقاب ، وأصبغ الريشة بالسواد» .

وهرع إلى جانبها بسرعة البرق ، وبخفة ، فكت أصابعه الماهرة العقدة العريضة تحت ذقنها ، وفي غمضة عين ، استقرت القبعة ثانية داخل العلبة .

ـ «ماذا تفعل؟ قلت إنها لي» .

ـ «على ألاّ تنقلب قبعة حداد . سوف أجد سيدة فاتنة أخرى ذات عينين خضراوين تقدر ذوقي» .

ـ «ها ، لن تقدم على ذلك ، سأموت إن لم تمتلكها يداي ، أرجوك يا ريت ، لا تكن حقيراً ، دعني آخذها» .

ـ «وتحولينها إلى شبح مرعب كقبعاتك الأخريات؟ لا» .

وقبضت على العلبة ، أتسمح لتلك الطرفة البديعة ، التي جعلتها تبدو فتية ساحرة ، أن تكون لفتاة أخرى؟ لا ، أبداً ، فكرت هنيهة بالذعر الذي سيستولي على ميلاني وبيتي ، كما فكرت بأمها وماذا يمكن أن تقول ، وارتعشت . ولكن غرور الصبا كان أقوى من كل شيء .

ـ «لن أحولها ، إني أعدك ، والآن دعني آخذها» .

فناولها العلبة بابتسامة ساخرة نوعاً ما ، وراقبها وهي ترتديها ثانية وتصلح من حالها .

ـ «كم ثمنها؟» قالت فجأة ووجهها يطرق إلى الأرض ، «في حوزتي الآن خمسون دولاراً فقط ، ولكن في الشهر القادم . . .» .

ـ «ستكلفك نحو ألفي دولار من عملة الحلف» قال مبتسماً وهو يلمح

اكتئاب ملامحها .

ـ «يا الله ! حسناً ، لنفرض أني نقدتك الآن خمسين دولاراً ، وفيما بعد ، عندما أحصل . . .» .

ـ «لا أريد نقوداً ، إنها هدية» .

ففغرت فاها ، إذ إن طريق هدايا الرجال طريق مرهف حرج محفوف بالمحاذير . «الحلوى والأزهار يا عزيزتي» ، كانت أمها تردد على مسامعها ، «وربما كتاب شعر ، أو حافظة صور ، أو قارورة صغيرة من مياه فلوريدا ، هي الأشياء الوحيدة التي يصح للسيدة أن تقبلها من الرجال ، وحذار حذار أية هدية ثمينة حتى من خطيبك . وإياك قبول أية هدية مجوهرات أو ملابس ، حتى ولا قفازات أو مناديل . وإذا ما تقبلت هدايا كهذه ، سيدرك الرجال أنك لست سيدة ، وسيحاولون الاجتراء عليك» .

ـ «يا إلـهي !» فكرت سكارلت وهي تنظر أولاً إلى شخصها في المرآة ، ثم إلى وجه ريت المبهم «طبعاً ، لا أستطيع إبلاغه رفض هديته ، فهي رائعة جداً ، إني . . . إني تقريباً أفضل أن يتمتع بمحرمة ممّا لا يحلّ انتهاكه ، إن كانت صغيرة جداً ، ثم انتابها الفزع لتفكيرها بمثل هذا فالتفتت نحوه مخضبة الوجه :

ـ «سوف . . . سوف أعطيك الخمسين دولاراً . . .» .

ـ «إذا فعلت ذلك فسأقذف بنقودك في القناة أو ، أفضل من ذلك ، سأشتري بها مغفرة لروحك ، إذ إني واثق من أن روحك في حاجة إلى مغفرة» .

ضحكت على مضض ، ولكن صورة وجهها الضاحك في المرآة ، تعلوه القبعة الخضراء ، دفع بها إلى أن تبت في الأمر فوراً .

ـ «أي شيء ستحاول فعله معي؟ . .» .

ـ «سأظل أغريك بالهدايا الجميلة إلى أن تبلى مُثُلُك الضحلة تماماً ، وتصيري تحت رحمتي» ، ثم أردف مقلّداً لهجة الأمهات : «تقبلي الحلوى والزهور فقط من الرجال ، يا عزيزتي» ، وانفجرت هي مقهقهة .

ـ «إنك شقي أريب أسود القلب يا ريت بتلر ، وأنت تعرف تماماً أن هذه القبعة ظريفة جداً بحيث لن تُرفض» .

فسخرت عيناه منها ، حتى وهما تطريان جمالها :

ـ «طبعاً ، بوسعك إخبار الآنسة بيتي أنك أعطيتني عينة صغيرة من التفتة

والحرير الأخضر ، ورسمت صورة للقبعة ، وأني ابتززت خمسين دولاراً منك ثمناً لها» .

ـ «لا ، سأقول مائة دولار ، وستنبئ هي جميع الناس في المدينة ، ستشتعل قلوب الجميع حسداً ، وسيتحدثون عن تبذيري . ولكن ، ريت ، ينبغي أن لا تجلب لي أي شيء آخر ، بمثل هذا الثمن الباهظ . إن عملك هو غاية اللطف ، بيد أني في الحقيقة ، لن أستطيع تقبّل أي شيء آخر» .

ـ «حقاً؟ لا بأس . سأجلب لك هدايا طالما أنها تسرك ، وطالما يقع ناظري على أشياء تزيدك رواء وسحراً . سأجلب لك حريراً أخضر قاتماً ، تخيطين منه ثوباً يتسق مع القبعة ، وإني أحذرك من أني لست لطيفاً ، إني أغريك بالقبعات والأساور وأقودك إلى الهاوية . تذكري دائماً أني لا أقدم على شيء دون تفكير ، وأني لن أمنح شيئاً دون توقع بديله ، فأنا أقبض الثمن دائماً» .

وانقضّت عيناه السوداوان على وجهها ، وبلغتا شفتيها ، فأطرقت بنظرها إلى الأرض ، وقد تملكها الشوق . سوف يحاول الآن انتهاك الحرمات ، تماماً كما تكهنت أمها ، سوف يقبّلها ، أو يحاول تقبيلها ، وليس بوسع عقلها المشدوه أن يقرر نهائياً أي الخطوات ستتم الآن . وإن هي رفضت؟! أيمكن أن يطوح بالقبعة من على رأسها فوراً ويقدمها لفتاة أخرى؟ ومن جهة ثانية ، إذا سمحت بقبلة طاهرة واحدة ، يمكن أن يجلب لها هدايا جميلة أخرى طمعاً في الظفر بقبلة أخرى . إن الرجال يعلقون أهمية كبرى على القبل ، ولا يعلم أحد غير الله سبب ذلك . كما أنهم كثيراً ما يقعون كلية في حب فتاة ، بعد قبلة واحدة ، فيجعلون من ذواتهم فرجة يتلهى بها الناس ، اللهم إلاّ إذا كانت الفتاة بارعة فتمنعت بقبلاتها بعد القبلة الأولى . سيكون من المثير جداً أن يقع ريت بحبها ، ويعترف بذلك ، ثم يتعطف من أجل قبلة أو ابتسامة . أجل ، ستسمح له بتقبيلها .

ولكن ريت لم يحرك ساكناً ، ولم ينهض لتقبيلها ، فراودته بنظرة جانبية من تحت رموشها ، وغمغمت تحثه على الإسراع :

ـ «وهكذا تقبض الثمن دائماً ، أليس كذلك؟ وماذا تنتظر أن تقبض مني؟» .

ـ «سننظر في الأمر فيما بعد» .

ـ «لا بأس إذا كنت تفكري بأني سأتزوجك ثمناً للقبعة ، فأنت مخطئ»

قالت بجرأة، مدلة برأسها في حركة مغناج وقحة، جعلت الريشة تتأرجح في ذبذبة واسعة.

ولمعت أسنانه البيضاء من تحت شاربه الصغير.

- «أنت تماثلين نفسك يا سيدة، فأنا لا أريد الزواج بك أو بأية آنسة أخرى، لست رجل زواج».

- «حقاً!»، صاحت متراجعة إلى الخلف، وقد حزمت أمرها على منحه محرمة «وأنا أيضاً لا أقصد حتى تقبيلك».

- «لماذا تجمّع فمك بذلك الشكل المضحك إذاً؟!».

- «آه» صاحت، وهي تلمح نفسها في المرآة، وترى أن شفتيها الحمراوين، كانتا حقاً في الوضع المشتهي للقبلة. «آه» صاحت ثانية، فاقدة رشدها، ضاربة الأرض بقدميها «إنك أفظع مخلوق رأته عيناي، ولن آبه إن غبت عن ناظري بعد اليوم».

- «لو كنت حقاً تشعرين بهذا الشعور لدست القبعة. عزيزتي، أي انفعال هذا الذي أنت فيه؟ إنه لائق بك تماماً، كما قد تعلمين! هيا، سكارلت دوسي «القبعة» لتريني حقيقة نظرتك إلي، وإلى هداياي».

- «لن تجرؤ على مس هذه القبعة» قالت متمسكة بعقدة شريطها، متقهقرة إلى الوراء. وتبعها هو، وهو يضحك برقة، آخذاً يديها بين يديه.

- «سكارلت، أنت حسناء فتية أدميت قلبي ألماً» قال، «وسوف أقبّلك لأنك انتظرت ذلك كما بدا»، وانحنى دون مبالاة، ودغدغ شاربه وجنتها وحسب. «والآن هل تشعرين أن عليك أن تصفعيني كي أحافظ على أدبي؟».

وارتعشت شفتاها غضباً، وتطلعت إلى عينيه فرأتهما تتألقان طرباً في أعماقهما السوداء، وانفجرت ضاحكة. ما أشد إحناقه وإغاظته. وإذا لم يبيت الزواج بها ولم ينو حتى تقبيلها، فماذا يريد إذاً؟ وإذا كان لا يحبها، فلماذا هذه الزيارات المتكررة، وهذه الهدايا المتواترة؟

- «ذلك أفضل»، قال «سكارلت، إنني ذو تأثير سيء فيك، وإذا كنت تملكين شيئاً من العقل فستخرجينني من البيت مثخن الجراح - إذا استطعت. إني رجل يصعب الخلاص منه، بيد أني شر عليك».

- «هل أنت كذلك؟!».

ـ «ألا تستطيعين سبر غوري؟ منذ قابلتك في السوق الخيرية وسيرتك مشينة للغاية ، وأنا الذي يلام على معظمها . من الذي شجعك على الرقص؟ من ساقك إلى الإقرار بأن قضيتنا المجيدة ليست مجيدة ولا مقدسة؟ من حرضك على الاعتراف بأنك تعتقدين أن الرجال أغبياء لكونهم يضحون بأرواحهم في سبيل المبادئ الرنانة؟ من ساعدك على تزويد العجائز بمادة دسمة يثرثرن حولها؟ من الذي سينتشلك من ثياب الحداد قبل الأوان بعدة سنين؟ ومن ، لنختتم هذه القائمة ، ومن أغراك بقبول هدية ، لا يمكن لسيدة قبولها مع الاحتفاظ بمقامها كسيدة؟» .

ـ «أنت تتملق نفسك يا كابتن بتلر ، فأنا لم أقترف عملاً شائناً ، كما أني أقدمت على كل الذي ذكرت دون أي مساعدة منك» .

ـ «أشك في ذلك» قال وقد انقلبت سحنته فجأة ، هادئة وقورة ، «سوف تظلين أرملة تشارلز هاملتون المفجوعة ، الذائعة الصيت لمآثرها بين الجرحى . وأخيراً على كل حال ـ» .

ولكنها لم تعره أذناً صاغية ، لأنها كانت تتأمل نفسها طربة في المرآة ، للمرة الثانية ، وهي تفكر بارتداء القبعة إلى المستشفى بعد ظهر هذا اليوم ذاته ، وبحمل زهور للضباط الناقهين . ولم يدر بخلدها أن هناك حقائق في عباراته الأخيرة ، ولم تدرك أن ريت هو الذي دمّر قفص ترملها وحررها لينصبها ملكة على الصبايا العزباوات ، في الوقت الذي كان ينبغي لعهد ملكيتها أن يكون قد مضى ، ولم تدرك كذلك أنها انحرفت كثيراً عن تعاليم أمها بفعل تأثيره .

*

وقفت سكارلت في اليوم التالي أمام المرآة ، والمشط بيدها ، وملء فمها دبابيس شعر ، تبتكر تسريحة جديدة ، تسريحة سمعت من مايبيل ، العائدة حديثاً من زيارة زوجها في ريتشموند ، أنها كانت مثار سخط العاصمة . هذه التسريحة تدعى «القطط والجرذان والفئران» وتثير صعوبات جمة . كان الشعر يفرق في المنتصف ، وينسق في ثلاث لفائف متدرجة الحجم ، واحدة في كل جزء من أجزاء الرأس ، بحيث تأتي الكبرى ، وهي القط ، عند مفرق الشعر . وكان من السهل تثبيت القط والجرذ ، ولكن الفئران ظلت تتفلت من دبابيس الشعر بصورة مكدرة ممضة . ومهما يكن من أمر فإنها عزمت على إتمامها ، لأن

ريت قادم إلى العشاء ، وهو دائم الملاحظة والتعليق حول أي بدعة في الثياب أو تسريح الشعر .

وبينما هي تجاهد ضد خصلات شعرها الكثيفة العنيدة ، وحبات العرق تتفصد من جبينها ، سمعت وقع أقدام خفيفة في قاعة الطابق السفلي ، وأدركت أن ميلاني قد عادت من المستشفى . ولكن عندما سمعتها تصعد الدرجات اثنتين اثنتين توقفت عن التمشيط ولما تنجز نصفه ، مدركة أن لا بد أن محذوراً قد وقع ، لأن ميلاني تسير دائماً متئدة ، كسيدة مسنة ، ثم اتجهت إلى الباب ودفعت مصراعيه ، وركضت إلى الداخل ووجهها متخضب يرتعد كطفلة آثمة .

كانت الدموع ترصع وجنتيها ، وقد علقت قبعتها برقبتها بوساطة الشرائط ، بينما كانت أطواقها تتمايل بشدة ، ويدها تقبض على شيء غامض . وعبقت الغرفة إثر دخولها برائحة عطر رخيص حاد .

ـ «آه سكارلت !» صاحت ، وأوصدت الباب متهالكة على السرير ـ «هل عمتي في البيت؟ ليست في البيت؟ آه شكراً لله . سكارلت ، إني خائفة جداً ، أكاد أموت ، أوشك أن يغمى علي . سكارلت ، العم بطرس يتوعدني بإخبار العمة بيتي !» .

ـ «أفصحي . . . ماذا؟» .

ـ «بأني كنت أتحدث إلى تلك ـ إلى الآنسة ـ السيدة ـ» وحركت منديلها لتروّح على وجهها الحار «تلك المرأة ذات الشعر الأحمر ، المدعوة بيل وتلنغ» .

ـ «حقاً ، ميلي !» صاحت سكارلت مذهولة جداً بحيث لم يسعها إلاّ التحديق بوجهها .

أمّا بيل وتلنغ هذه فهي ذات الشعر الأحمر التي رأتها في الشارع أول يوم لقدومها إلى أتلانتا ،وقد غدت في هذا الوقت أسوأ النساء سمعة في المدينة . فمع أن أتلانتا غصت بأفواج العاهرات اللواتي كن يتبعن الجنود ، إلاّ أن بيل فاقت الجميع بفضل شعرها القاني الوهاج ، وفساتينها المزركشة المهندمة على آخر طراز عصري . ونادراً ما شاهدها السابلة في شارع بيتشتري ، أو في أي من المناطق المجاورة الراقية ، ولكن ، إذا اتفق وظهرت هنالك ، فإن النسوة الفاضلات يسرعن إلى قطع الشارع ليخلصن من المرور إزاءها ، وها إن ميلاني

تحدثت إليها ، فلا عجب أن يحتد غضب العم بطرس .

ـ «سأموت إذا اكتشفت العمة بيتي الأمر . إنك تعرفين أنها ستبكي وتخبر كل من في المدينة وسيعيرني الناس» انتحبت ميلاني باكية «وليست الغلطة غلطتي ، فأنا . . . فأنا لم أستطع الهرب منها ، ولو فعلت لكان ذلك في منتهى الفظاظة يا سكارلت ، شعرت ـ شعرت بالأسف من أجلها . هل تعتقدين أني رديئة بسبب شعوري هذا؟» .

غير أن سكارلت لم تلق بالاً لفلسفة القضية الخلقية ، وكمعظم الصبايا الساذجات المهذبات ، كان يتأكلها الفضول حول العاهرات .

ـ «ماذا كانت تبغي؟ ماذا أخبرتك؟» .

ـ «آه ، لقد تفوّهت بكلام رديء ، ولكني استطعت أن أدرك أنها كانت تحاول بكل جهدها أن تكون كيسة ، مسكينة ! خرجت من المستشفى ولم أجد العم بطرس والعربة في انتظاري ، ففكرت بالعودة سيراً على الأقدام ، وعندما حاذيت ساحة إمرسون ، لمحتها مختبئة وراء السور . ها ، شكراً لله ، فآل إمرسون موجودون في ميكون . ثم ابتدرتني : «أرجوك يا سيدة ويلكس ، كلميني دقيقة واحدة» ، لا أدري كيف عرفت اسمي ، وأدركت أن علي أن أجري بالسرعة المستطاعة ، ولكن ـ يا سكارلت ، كانت تبدو حزينة جداً ، ومتوسلة كذلك . وكانت ترتدي ثوباً أسود ، وقبعة سوداء ، ولا تضع مساحيق أبداً ، وفي الحقيقة كانت تبدو محتشمة ، إلا بالنسبة إلى ذلك الشعر الأحمر . وقبل أن أتمكن من الجواب ، أردفت : «أعرف أني يجب أن لا أتحدث إليك ، ولكني حاولت مكالمة تلك العجوز الثرثارة ، السيدة ألسنغ ، فطردتني من المستشفى . .» .

ـ «أحقاً دعتها ثرثارة؟» قالت سكارلت فرِحة ، معقبة بالضحك .

ـ «ها ، لا تضحكي ، فليس الأمر هزلاً ، وظهر أن الآنسة ـ هذه المرأة ، تريد القيام بعمل ما من أجل المستشفى ـ هل تتصورين ذلك؟ لقد عرضت القيام بالتمريض كل صباح ، ولكن بالطبع ، لا بد أن السيدة ألسنغ كادت تموت من هذه الفكرة ، فطردتها من المستشفى . ثم قالت : «أريد أن أفعل شيئاً أيضاً ، ألست حلفية ، صالحة مثلك؟» ، ويا سكارلت ، لقد تأثرت تماماً من رغبتها في المساعدة . أنت تعرفين أن ليس من الممكن أن تكون خسيسة كلياً ، طالما أنها تريد مساعدة القضية . هل تعتقدين أني خاطئة بسبب شعوري هذا؟» .

ـ «بالله عليك يا ميلي ، من يحفل إذا كنت خاطئة؟ ماذا قالت أيضاً؟ !» .

ـ «قالت إنها كانت تراقب السيدات يمضين على مقربة منها إلى المستشفى ، واعتقدت أن ـ و . . . وجهي شفوق ، ولذلك أوقفتني وفي حوزتها بعض المال ، ورغبت إلي أخذه والاستفادة منه لخير المستشفى ، وعدم إطلاع مخلوق على مصدره ، وقالت إن السيدة ألسنغ لن تسمح بصرفه إن هي عرفت بمصدره . وما مصدره؟ ! عندما أفكر بذلك يكاد يغمى علي . لقد أسقط في يدي وتملكتني الحيرة واللهفة للانصراف ، ولم أنبس إلاّ بـ : «ها ، نعم ، حقاً ، كم هو جميل منك !» ، وبعض الكلمات البلهاء ، ولكنها ابتسمت قائلة : «إن هذه إنسانية حقة» ودست هذا المنديل القذر بيدي ، آه ! هل تشمين العطر؟ !» .

ورفعت منديل رجل ، ملوثاً ومشرباً بالعطر ، صُرّ داخله بعض النقود .

ـ «وبينما كانت تشكرني ، وتتفوه ببعض الكلمات حول إعطائي مبلغاً من المال كل أسبوع ، إذ بالعم بطرس يمر بعربته ويراني» وأجهشت في البكاء ، مسندة رأسها على الوسادة ، «وعندما رآني معها ، زجرني ، يا سكارلت ، زجرني . لم يزجرني أحد في حياتي قبلاً ، ثم قال «اصعدي إلى هذه العربة فوراً» ، وطبعاً صعدت ، وراح طول الطريق يباركني من الرجس ، ويمنعني من إيضاح الحقيقة ، قائلاً إنه سيخبر العمة بيتي . سكارلت ، انزلي والتمسي منه أن لا يقدم على ذلك ، فربما أصغى لرجائك ، سيقتل النبأ عمتي إن هي درت مجرد أني تطلعت في وجه تلك المرأة . ستنزلين؟» .

ـ «نعم ، ولكن دعينا نرى مقدار المال في الصرة . إنها تبدو ثقيلة» . وفكت العقدة فتدحرج منها على السرير حفنة نقود ذهبية .

ـ «سكارلت ، هنا خمسون دولاراً ، ومن الذهب» صاحت ميلي مرتاعة وهي تعد القطع البراقة .

ـ «أخبريني ، هل تعتقدين أن من الصواب الاستفادة من نقود ـ مكتسبة ـ بهذه الطريقة ، للجنوب؟ ألا تعتقدين أن من الجائز أن يدرك الله أنها تريد تقديم المساعدة فلا يكترث إن كانت ملوثة بالعار؟ عندما أفكر بالمتطلبات العديدة التي يحتاجها المستشفى ـ» .

ولكن سكارلت لم تكن مصغية ، كانت تحدق في المنديل القذر وكيانها يموج بالغضب والضعة ، ففي زاوية هذه الرقعة الرثة ، كانت ترتسم الحروف الثلاثة :

ر .ك .ب . وفي أعلى أدراجها هي ، كان يوجد منديل مماثل تماماً ، منديل أعاره لها ريت بتلر بالأمس فقط ، لتلف به جذوع باقة من الزهور البرية التي قطعاها معاً . وكانت قد ارتأت إعادته لريت عند قدومه للعشاء هذه الليلة .

هكذا إذاً ، يصاحب ريت تلك المرأة الرذيلة ، ويمنحها المال ، فمن ذاك المصدر ، ترد الإعانات إلى المستشفى ، من ذهب الحصار . أوّاه ، كيف تعتقد أن ريت يجرؤ على النظر في وجه امرأة فاضلة ، بعد أن يكون مع تلك المخلوقة ! وكيف تفكر أن بوسعها الاعتقاد أنه يحبها !! إن هذا يثبت استحالة ظنونها .

إن النساء الساقطات ، وكل ما يكتنفهن ، أمور غامضة مثيرة بالنسبة إليها . كانت تعرف أن الرجال يرعون هؤلاء النسوة ، من أجل غايات ، لا يليق بالسيدة التلفظ بها ، وإن هي فعلت ذلك ، فليكن همساً ، وبطريقة غير مباشرة ، وبعبارة مبهمة . وكانت تعتقد دائماً أن الرعاع ، فقط ، هم الذين يزورون نساء كهؤلاء ، ولم يخطر لها قبل هذه اللحظة أن رجالاً محترمين - يعني رجالاً قابلتهم في بيوت رفيعة النسب ، ورقصت معهم - يمكن أن يأتوا أعمالاً كهذه . وانفتح أمامها مجال فكري ، جديد بكليته ، مجال مريع . . . ربما يقترف كل الرجال ذلك ، إن من القحة البالغة أن يضطروا نساءهم إلى الخوف في حمأة تلك الإجراءات البذيئة ، ثم يجرون فعلاً ، وراء نساء ساقطات ، ينقدوهن المال مقابل ملذات كهذه . آه ، كل الرجال أسياد الرذيلة ، وريت بتلر على رأس الجميع .

ستأخذ هذا المنديل ، وتطوح به في وجهه ، وتريه الباب ، ولن ، ولن تتكلم معه ثانية . ولكن لا ، طبعاً لا يسعها تنفيذ ذلك ، لا يسعها أبداً ، أبداً ، إطلاعه على أنها علمت بوجود نساء ساقطات ، وعلى أنه زارهن ، فالسيدة لا يمكنها مطلقاً الإقدام على مثل هذا .

- «ها» ، فكرت مغتاظة ، «لو أني فقط لم أكن سيدة ، فماذا كنت أقول لهذه الحشرة !» .

وجمعت المنديل في يدها ، هابطة السلم إلى المطبخ لتبحث عن العم بطرس ، وعندما حاذت الموقد ، دست الرقعة النجسة في ثنايا اللهيب وراحت تراقبها بغضب .

*

14

في بداية صيف ١٨٦٣ ، أشرقت بشائر الأمل وهاجة في قلوب الجنوبيين ، فرغم الحرمان والشدائد ، ورغم محتكري الطعام وظلم ذوي القربى ، ورغم الموت والمرض والجوع ، تلك الأشياء التي خلفت آثارها في كل بيت تقريباً ، رغم هذا كله ، عاود أهل الجنوب قولهم : «انتصار واحد وتنتهي الحرب» . أصبحوا يرددون هذه العبارة حتى بتأكيد أكثر غبطة مما كانوا عليه في الصيف الفائت . لقد أثبت الشماليون أنهم صخرة صلدة ، عاصية على التفتيت ، ولكن ها هم يتفتتون الآن .

ومضى ميلاد سنة ١٨٦٢ عيداً هنيئاً لأتلانتا وللجنوب قاطبة ، فقد أحرز الحلف انتصاراً ساحقاً في فردريكسبورغ ، وأحصي قتلى وجرحى الشماليين بالآلاف ، ولذلك عمت الاحتفالات السارة إجازة ذلك الموسم ، احتفالات وشكر لتحوّل دفة الحرب ، وأضحى رجال الجيش بملابسهم الوطنية البنية اللون محاربين أكفاء ، ذوي تدريب ودراية ، وبرهن قادتهم على شدة مراسهم وحميتهم ، وأدرك الجميع أنه عند استئناف الحملة في الربيع سيسحق الشماليون نهائياً .

وأقبل الربيع وتجدد القتال ، وأحرز الحلف فوزاً كبيراً آخر في شانسلورزفيل فدوّى الجنوب كله بفرحة النصر .

وفي ميدان آخر ، أقرب إلى الوطن ، تحولت هجمة فرسان اتحادية إلى نصر حلفي ، وما برح الناس يضحكون ويصفعون ظهور بعضهم قائلين : «نعم يا سيدي ، عندما يلحقهم ناتان بدفورد فورست ، فأحرى بهم الهروب» . وفي أواخر نيسان/ أبريل قام الكولونيل ستريت ، على رأس ألف وثمانمائة فارس شمالي ، بهجوم مفاجئ على جورجيا ، وهدفهم روما ، التي تبعد عن أتلانتا شمالاً نيفاً وستين ميلاً فقط ، تحدوهم خطة مغرية ، تهدف إلى أن يقطعوا سكة الحديد ، ذات الأهمية الحيوية ، الممتدة بين أتلانتا وتنيسي ، ثم أن ينعطفوا جنوباً إلى أتلانتا ليدمروا المصانع وذخائر الحرب المحشودة هناك ، في تلك المدينة التي هي مفتاح الحلف .

كانت ضربة جريئة ، وكان يمكن أن تكلف الجنوب ثمناً باهظاً لولا فورست الذي انطلق بثلث عددهم من الرجال والفرسان الأشاوس ، ثم اشتبك معهم حتى قبل أن يبلغوا روما ، وطفق يغير عليهم ليل نهار ، وأخيراً أسر القوة بمجموعها .

بلغ النبأ أتلانتا في آن واحد تقريباً مع نبإ النصر الكبير في شانسلورزفيل ، واهتزت أرجاء المدينة بحق ، مهللة ضاحكة . قد يكون الظفر في شانسلورزفيل أكثر أهمية ، ولكن أسر رجال ستريت الغزاة ، وضع الشماليين حتماً في وضع يدعو للسخرية .

ـ «لا يا سيدي ، كان الأفضل ألاّ يعبثوا مع فورست الكبير» كان أهل أتلانتا يرددون جذلين ، كلما أعيدت تلاوة القصة .

كان تيار سعد الحلف يجري الآن سريعاً زاخراً ، يجرف بطوفانه الناس فرحين مهللين . لقد كان جنود الشمال بقيادة غرانت يحاصرون فكسبورغ منذ منتصف أيار/ مايو حقاً ، وحقاً تكبد الجنوب خسارة فادحة عندما جرح ستونوول جاكسون جراحاً قاتلة في تشانسلورزفيل ، وحقاً فقدت جورجيا ابناً من أشجع وألمع أبنائها عندما قتل الجنرال ت . ر . كوب في فردريكسبورغ ، ولكن الشماليين لن يستطيعوا تحمل هزائم أكثر ، كهزيمتي فردريكسبورغ وشانسلورزفيل . سيرغمون على الاستسلام ، وعندئذ تضع هذه الحرب الضروس أوزارها .

وأقبلت أيام تموز/ يوليو الأولى ، تحمل معها الشائعة ، التي ما عتمت أن غدت حقيقة فيما بعد . الشائعة التي تقول إن «لي» يزحف إلى داخل بنسلفانيا . . لي في ولاية العدو ! لن يجبر العدو على الالتحام في معركة ! هذه آخر ملاحم الحرب !

وعم الهرج أتلانتا ، الفرحة والتعطش المسعور للانتقام . سيعرف الشماليون الآن ماذا يعني نقل الحرب إلى بلادهم ، سيعرفون الآن ماذا يعني تجريد الحقول المخصبة ونهب الأبقار والخيول وحرق البيوت ، وجر الأولاد والشيوخ إلى السجون ، وحمل النساء والأطفال ليموتوا جوعاً .

كل إنسان يعرف ماذا فعل الشماليون في ميسوري وكنتكي وتينسي وفرجينيا ، حتى الأطفال الصغار ، بوسعهم سرد الأهوال التي أنزلها الشماليون

بالمقاطعات المحتلة ، سردها بروح من الحقد والخوف ، وعن ظهر قلب أيضاً . وكانت أتلانتا قد غصت الآن باللاجئين من شرقي تينسي ، وسمعت المدينة منهم قصص الأهوال التي كابدوها ، تروى للمرة الأولى . ففي تلك المنطقة كان أنصار الحلف هم الأقلية ، فطحنتهم رحى الحرب دون رحمة ، كما فعلت في كل ولايات الحدود : الجار يشي بجاره ، والأخ يقتل أخاه . ولذلك هب هؤلاء اللاجئون مطالبين برؤية بنسلفانيا كتلة واحدة من النيران المستعرة ، وحتى أرق السيدات المسنات ، بدت على وجوههن علائم لذة التشفي .

ولكن عندما تسربت الأخبار من الجبهة أن «لي» أصدر أوامره بعدم التعرض لأي ملكية خاصة ، في بنسلفانيا ، وأن النهب سيعاقب عليه بالموت ، وأن الجيش سيدفع ثمن أي شيء يستولي عليه ـ عندئذ بدا أن الجنرال أصبح بحاجة إلى كل ما كان قد كسبه من حب واحترام كي يحافظ على شعبيته . وبدأ الناس يتساءلون : لماذا لم يطلق أيدي الجنود في المستودعات الغنية في تلك الولاية الموسرة؟ بماذا كان يفكر الجنرال لي وأبناؤنا يعانون أشد ألوان الجوع ، ويحتاجون إلى الأحذية والثياب والخيل؟ !

وحمل البريد إلى أتلانتا خلال تلك الأيام الأولى من حزيران/ يونيو ، أول أخبار صادرة عن الجبهة مباشرة . رسالة قصيرة سريعة من «دارسي ميد» إلى والده الطبيب ، فتداولتها جميع الأيدي والسخط يؤج في النفوس .

«بابا ، هل بوسعك تدبر إرسال زوج من الأحذية إلي؟ مضى علي أسبوعان وأنا عاري القدمين ، ولست أرى أي أمل في الحصول على زوج آخر .

وفي الثالث من تموز/ يوليو ، صمتت فجأة أسلاك البرق التي تحمل أنباء الشمال ، صمتت صمتاً استمر حتى منتصف اليوم الرابع ، حيث بدأت تتسرب إلى القيادة في أتلانتا نتف من تقارير مجزوءة . كان هناك قتال ضار في بنسلفانيا قرب مدينة صغيرة تدعى جيتسبرغ ، معركة حامية ، قذف فيها لي بجميع فرق جيشه . كان النبأ غير مؤكد ، متأخر الوصول ، لأن المعركة كانت تدور في أرض العدو ، والتقارير تصل أولاً إلى ماريلاند ، حيث يبرق بها إلى ريتشموند ، ومن ثم إلى أتلانتا .

وعظُم الشك ، وزحفت بوادر الرعب بطيئة فوق أنحاء المدينة . لم يكن هناك شيء أسوأ من عدم معرفة ما يدور في الجبهة ، وعكفت العائلات ، التي

لها أبناء في الجبهة ، تصلي بحماسة ، بغية أن لا تكون أبناؤها في بنسلفانيا . ولكن أولئك الذين يعلمون بوجود أقربائهم في فصيلة دارسي ميد ذاتها ، صروا أسنانهم قائلين إن مما يشرفهم أن يشاركوا في المعركة الكبيرة التي ستدحر الشماليين نهائياً .

وتبادلت النساء الثلاث ، في بيت العمة بيتي ، النظرات جزعات ، دون أن يستطعن إخفاء الرعب في عيونهن . لقد كان آشلي في فصيلة دارسي ميد .

ووردت في اليوم الخامس أنباء مريعة ، لا من الشمال بل من الغرب ، لقد سقطت فكسبرغ ، سقطت بعد حصار طويل مرير ، الأمر الذي يعني عملياً وقوع وادي الميسيسبي جميعه ، من سانت لويس إلى نيو أورليانز ، في أيدي الشماليين . لقد انشطر الحلف شطرين . كان يمكن لهذه الكارثة أن تنشر الهلع وتعم الأسى في أتلانتا في أي وقت آخر ، غير أن الناس اليوم لم يسعهم الإصغاء إلا بقليل من الاهتمام لفاجعة فكسبرغ ، إنهم يفكرون بالقائد لي يقود المعركة في بنسلفانيا ، ولذا فإن جائحة فكسبرغ لن تكون وبالاً إذا ما نجح لي في الجبهة الشرقية ، فهناك تقع فيلادلفيا ونيويورك وواشنطن ، المدن التي يشل سقوطها الشمال كله ، ويعادل أكثر من إلغاء هزيمة الميسيسبي .

وتصرّمت الساعات تجر أذيال بعضها ، والكارثة تمد ظلالها السوداء فوق المدينة ، وانعقدت حلقات النساء في كل مكان ، فاحتشدن في الشرفات الأمامية ، وعلى الأرصفة ، وحتى في عرض الشوارع ، ينبئن بعضهن أنه حين لا ترد أخبار فالأخبار سارة ، ويحاولن مواساة أنفسهن ، ويحاولن ، كذلك ، الظهور بمظهر شجاع . ولكن الأراجيف المهولة والقائلة إن لي قتل ، وإن المعركة خسرت ، وإن قوائم طويلة بأسماء القتلى في طريقها إلى المدينة ، كانت تجوب الشوارع الواجمة ، كالخفافيش المنطلقة . ومع أن الناس جاهدوا طاقتهم ضد تصديق هذه الشائعات ، فإن أحياء بأسرها سادها الرعب ، فاندفعت إلى قلب المدينة ، إلى مكاتب الصحف ، وإلى مركز القيادة ، تلتمس الأخبار ، أية أخبار ، حتى الأخبار السيئة .

وتحلّقت الجماهير في ساحة المحطة ، تأمل أخباراً من القطارات القادمة وكذلك في دائرة البرق ، وأمام القيادة ، وأبواب الصحف الموصدة . جماهير واجمة ، خلاف مألوفها ، جماهير أخذت كتلها تتضخم ، والجميع صامتون .

وبين الفينة والأخرى ، كان يرتفع صوت عجوز أبح ، يلتمس الأخبار ، صوت ، بدلاً من أن يحرض الجمهور على الهياج والتبرم ، كان يزيد في صمتهم وحسب ، بينما كانوا يسمعون العبارة المرددة مراراً : «لا تحمل الأسلاك شيئاً من الشمال سوى أن القتال دائر» .

لم يكن في المدينة بيت واحد لم يرسل إلى المعركة ابناً أو أخاً ، والداً أو عشيقاً ، أو زوجاً ، فكان الجميع ينتظرون ليتلقوا النبأ بأن ملاك الموت حل في ديارهم . كانوا يتوقعون الموت ولم يتوقعوا الهزيمة ، فذلك الخاطر طردوه من أفكارهم ويمكن أن يكون رجالهم يتجرعون كؤوس الموت الآن في هذه الدقيقة ، مضرجين بدمائهم فوق أعشاب تلال بنسلفانيا ، التي لفحتها حرارة الشمس . يمكن أن تكون صفوف جنود الجنوب ، الآن في هذه الدقيقة ، تتداعى متقهقرة كما تتداعى حبات الرمل أمام عاصفة ثلجية . ولكن القضية التي يحاربون من أجلها لا يمكن أن تندحر أبداً . قد يكون الفناء يحصدهم بالألوف ، ولكن كحصيلة أسنان التنين سينبثق مكانهم ألوف من المحاربين الجدد ، وعلى شفاههم صيحة الثورة ، وليس من يعرف من أين ينبع هؤلاء الرجال ، كل ما يعرفونه بثقة ، كعرفانهم بوجود إلـه عادل رحيم في السماء ، أن لي قائد أريب ، وأن جيش فرجينيا صلب لا يقهر .

*

جلست سكارلت وميلاني وبيتي بات داخل عربتهن أمام جريدة «ديلي إكزامينر» يتفيأن بمظلاتهن ،وقد راحت يدا سكارلت ترتعشان حتى إن مظلتها كانت تترنح فوق رأسها ، بينما استولى الفزع على بيتي ، بحيث كان أنفها ينتفض كأنف الأرنب في وجهها المستدير . ولكن ميلاني جلست وكأنها قدت من صخر ، تتسع حدقتا عينيها السوداوين كلما مضى الوقت ، ولم تنطق إلا بعبارة واحدة فقط خلال ساعتين ، وذلك عندما تناولت قارورة الأملاح المنعشة من حافظتها الصغيرة وقدمتها لعمتها ، وهي المرة الوحيدة التي تكلمها بها ، طيلة حياتها ، بتودد بالغ : «إليك هذه يا عمتي ، واستعمليها إذا ما شعرت بالغشيان . وإني أحذرك ، إذا ما أغمي عليك أن لا تقاومي ، بل ذري العم بطرس يوصلك إلى البيت ، لأني لن أبارح هذا المكان حتى أسمع عن ـ حتى أسمع خبراً . كما أني لن أدع سكارلت تتركني» .

لم يكن في نية سكارلت مغادرة المكان ، لم يكن في نيتها الذهاب إلى أي مكان لا تستطيع فيه تلقي أول نبإ عن آشلي . لا ، لا ولو طلعت روح الآنسة بيتي ، لن تغادر هذه البقعة وآشلي يحارب في مكان ما ، وربما كان يلقى حتفه آنذاك ،ومكتب الجريدة هو المكان الوحيد الذي تستطيع معرفة الحقيقة منه .

وسرحت طرفها بين الحشد ، تفتش عن الأصدقاء والجيران : ها هي السيدة ميد بقبعتها المائلة ، وذراعها يتأبط ذراع ابنها فيل ، الذي كان في الخامسة عشرة من عمره . وها هما الآنستان ماك لور ، تحاولان إخفاء أسنانهما ، الشبيهة بأسنان الظباء ، وراء شفاههما العليا المختلجة ، وها هي السيدة ألسنغ ، منتصبة كأم إسبارطية ، تفضح قلقها الداخلي الخصل الشاردة الشائبة ، المتفلتة من تسريحة شعرها ، فحسب ، وإلى جانبها فاني ألسنغ ، شاحبة كالموتى (من المؤكد أن فاني لا يمكن أن تكون جزعة إلى هذا الحد ، خوفاً على شقيقها هيو ، فهل لها عشيق حقيقي في الجبهة ، لم يرتب بأمره أحد؟) ثم تلك هي السيدة ميريويذر جالسة في عربتها ، تربت على يد مايبيل التي بدت أعراض الحمل جلية عليها بحيث كان من العار ظهورها في المجتمع ، حتى رغم تلفعها بالشال بعناية . ولماذا هي مضطربة كل هذا الاضطراب؟ لم يسمع أحد بوجود فرقة لويزيانا في بنسلفانيا . وقد يكون زوجها الصغير الحجم الغزير الشعر ، آمناً في ريتشموند ، هذه الدقيقة ذاتها .

ودبت حركة في طرف الحشد ، وأفسح الواقفون في الطريق لريت بتلر وهو يقود حصانه نحو عربة العمة بيتي . وهجست سكارلت : «يا له من شجاع ، يأتي هنا في هذا الوقت ، حيث لن يتورع الجمهور أبداً عن تمزيقه إرباً إرباً ، لتجرده من البزة العسكرية . وعندما اقترب منهن ، تخيلت أن من المحتمل أن تكون أول من سيمزقه . كيف يجرؤ على الجلوس هناك ، فوق ذلك الحصان الجميل ، في حذائه اللامع ، وبذلته الكتانية البديعة البيضاء ،مهندماً على آخر طراز ، حسن التغذية كما يدل مظهره ، يدخن سيكاراً ثميناً ، بينما آشلي ، وكل الشبان الآخرين ، يحاربون الشماليين ، عراة الأقدام ، يلهثون من شدة الغيظ وبطونهم خاوية؟

ورمقته العيون شزراً وهو يشق طريقه بطيئاً وسط الزحام ، ودمدم الشيوخ ، ونهضت السيدة ميريويذر بخفة في عربتها ، وقالت بصوت واضح ، وهي التي

لا تخشى شيئاً : «مضارب» . قالتها بلهجة جعلت من الكلمة أخس الصفات وأفعلها حقداً . بيد أنه لم يلق بالاً لأحد ، بل رفع قبعته لميلي والعمة بيتي ، ثم سار إلى جانب سكارلت ، وانحنى هامساً :

ـ «ألا تعتقدين أن هذا هو الوقت المناسب ليلقي علينا الدكتور ميد خطابه المألوف حول النصر الجاثم كالنسر الهادر فوق راياتنا؟» .

فتوترت أعصابها ، والتفتت نحوه بسرعة ، والكلمات الحانقة تكاد تبلغ شفتيها ، ولكنه ألجمها بإيماء منه :

ـ «جئت أخبركن أيتها السيدات» ، قال بصوت مرتفع «أني كنت في القيادة وأن قوائم الإصابات الأولى ستصل الآن» .

وما إن نطق بهذه الكلمات ، حتى علت همهمة بين هؤلاء الواقفين على مقربة تمكنهم من سماعها ، وماج الحشد متأهباً لينثني منطلقاً في شارع وايت هول نحو مركز القيادة .

ـ «لا تذهبوا» صاح معتدلاً فوق سرجه ، رافعاً يده «لقد أرسلت القوائم لكلتا الجريدتين ، وهي الآن قيد الطبع ، امكثوا حيث أنتم» .

ـ «ها ، كابتن بتلر» ، صاحت ميلي ، واستدارت نحوه مخضلة العينين بالدموع : «ما ألطف أن تأتي وتخبرنا ! ومتى ستنشر؟» .

ـ «بين لحظة وأخرى يا سيدة . لقد مضى عليها نصف ساعة في مكاتب الصحف ، فالضابط المسؤول لا يريد تسرب الأسماء قبل أن يتم الطبع ، خوفاً من أن يحطم الحشد المكاتب ، محاولاً الحصول على الأنباء . . ها انظري» .

وانفتحت النافذة الجانبية في مكتب الصحيفة ، وامتدت يد منها تحمل رزمة من مطبوعات مسودة طويلة ضيقة ، ملطخة بحبر لم يجف بعد ، مكتظة بالأسماء المتراصة ، فتنازعتها أيدي الجماهير ، ومزقت رقعها أنصافاً أنصافاً ، وفيما كان الذين حصلوا على هذه الأنصاف يحاولون التملص خارجاً ، كان الفريق الآخر يتدافع إلى الأمام صائحاً : «دعني أمر» .

ـ «أمسك الزمام» قال ريت باقتضاب ، مطوحاً بجسده من على صهوة جواده ودافعاً اللجام إلى العم بطرس . ثم رأين كتفيه العريضتين يبزان قامات الجمهور ، وهو يشق طريقه بعنف ، دافعاً شخصه خلالهم ، وفي لحظات ، عاد وبيده نصف دزينة من الأوراق دفع بإحداها إلى ميلاني ، ووزع الباقية على

السيدات اللواتي كن في أقرب العربات إليه، الآنستين ماك لور، السيدة ميد، السيدة ميريويذر، والسيدة ألسنغ.

- «أسرعي ميلي» صاحت سكارلت، وقلبها في حلقها، والفورة تجتاحها، وهي ترى يدي ميلي ترتعشان بحيث استحالت القراءة عليها.

- «إليك بها» همست ميلي، وخطفتها سكارلت منها: «الأسماء التي تبدأ بواو. أين هي؟ هي في الأسفل، كل الأسماء ملطخة - «وايت»، قرأت وصوتها يختلج، «ولكنز .... ون... زيبولن.. ها، ميلي! ليس بينهم! ليس بينهم! ها، بالله عليك، عمتي بيتي! ميلي، التقطي القارورة. ارفعيها يا ميلي».

فأسندت ميلي، وعيناها تطفر بدموع الفرح، رأس بيتي المترنح ورفعت الأملاح تحت أنفها، بينما حضنت سكارلت السيدة المسنة البدينة من الجانب الآخر، وقلبها يهتف طرباً، إن آشلي حي، ولم يصب حتى بجراح، ما أرحمك يا الله لأنك أنقذته، ما...

وأنَّ صوت وان ضعيف، فالتفتت، وإذا بها ترى فاني ألسنغ قد ألقت برأسها على صدرٍ أمها، وقائمة الإصابات تهبط إلى أرض العربة، وشفتي السيدة ألسنغ الرقيقتين ترتجفان وهي تضم ابنتها بين ذراعيها مخاطبة الحوذي بهدوء: «إلى البيت بسرعة».

ألقت سكارلت نظرة عاجلة على القوائم، فلم تعثر على اسم هيو ألسنغ. لا بد إذاً أن يكون لفاني عشيق قضى الآن. وبصمت خاشع، أفسح الحشد في الطريق لعربة آل ألسنغ، وتبعتها عربة بنات ماك لور الصغيرة. وكانت تقود الأخيرة الآنسة فيث، ووجهها صلد أصم كالصخرة، وشفتاها تخفيان أسنانها تماماً، وإلى جانبها جلست الآنسة هوب، وأمائر الموت تكسو وجهها، جلست منتصبة وهي تقبض بقوة على تنورة شقيقتها. لقد بانت عليهما مظاهر السن المتقدمة، فشقيقهما الفتي دلاس كان عزيزاً عليهما، وهو الرجل الوحيد الذي يمت إليهما بصلة القربى، وها هو الآن قد قضى.

- «ميلي! ميلي!» صاحت مايبيل بصوتها المنشرح «رينيه حي آمن، وآشلي أيضاً. آه، شكراً لله» كان الشال قد انزاح عن كتفيها، وبانت حقيقة الحبل للعيان، ولكن، لا هي، ولا السيدة ميريويذر اكترثت لذلك... - «ها! يا

سيدة ميد ، رينيه» وتغير صوتها فجأة «ميلي ! انظري ! يا سيدة ميد ، أليس دارسي؟» .

كانت السيدة ميد مطأطئة الرأس ، تنظر في حجرها ، ولم ترفع رأسها عندما نودي باسمها ، ولكن وجه فيل الصغير كان صفحة جلية ، يمكن للجميع قراءتها .

ـ «هوني عليك يا أماه !» قال مرتبكاً ،ورفعت السيدة ميد رأسها فالتقت عيناها بعيني السيدة ميريويذر :

ـ «لن يحتاج إلى ذلك الحذاء الآن» قالت .

ـ «آه يا عزيزتي !» صاحت ميلي وطفقت تنتحب ، وهي تسند العمة بيتي إلى كتف سكارلت وتتحامل للنزول من العربة ، ثم تتجه نحو عربة زوجة الطبيب .

ـ «أمي ، أنا ما زلت بحوزتك» ، قال فيل ، باذلاً جهداً يائساً لمواساة المرأة ذات الوجه الشاحب التي بجانبه «وإذا ما تركتني وشأني فقط ، سأذهب وأقتل جميع الشماليين» .

فقبضت السيدة ميد على ذراعه ، كأنها لن تتخلى عنها أبداً ، وقالت «لا» في صوت مفجوع .

ـ «فيل ميد ، الزم الصمت» قالت ميلاني بصوت مهموس ، متسلقة إلى جانب السيدة ميد ، ضامة إياها بين ذراعيها . . . «هل تعتقد أن مما يخفف عن أمك أن تدعك تمضي لتلقى حتفك أيضاً؟ لم أسمع بحياتي كلاماً أحمق كهذا . سر بنا إلى البيت ، أسرع !» .

والتفتت إلى سكارلت وهو يرفع العنان ثم قالت : «تعالي مباشرة إلى منزل الدكتور ميد . كابتن بتلر هل بوسعك إبلاغ النبإ للدكتور ، إنه في المستشفى» .

وانطلقت العربة وسط الحشد المنصرف . كان بعض السيدات يبكين فرحاً ، ولكن معظمهن أفقدته النازلة صوابه ، فلم يتحقق بعد فداحة الجائحة . واكبت سكارلت برأسها فوق القوائم الملوثة بالحبر تلتهم الأسماء بناظريها لتنقب عن أصدقائها ، فالآن ، وقد اطمأنت لسلامة آشلي ، بوسعها التفكير بالآخرين . ها ، ما أطول القائمة ! . . ما أفدح الثمن من أتلانتا ! من كل جورجيا !

« يا لله ! كالفرت ـ ريفورد ، لفتنانت» ، ريفورد ! وفجأة تذكرت ذلك اليوم ،

البعيد البعيد ، عندما هربا معاً ، ثم أزمعا العودة إلى البيت ، والليل يرخي سدوله ، إذ كانا جائعين وفي خشية من العتمة .

ـ «فونتين ـ جوزيف . ك . نفر» جو الصغير الحاد الطباع ! ولم يمض على ولادة سالي إلاّ زمن يسير !» .

ـ «مونرو لافاييت . كابتن» وكان لاف قد خطب كاثلين كالفرت . يا لكاثلين التعسة ! إن خسارتها مزدوجة : أخ وحبيب ، ولكن خسارة سالي أعظم : أخ وزوج» .

ـ آه ، إن هذا مريع حقاً ! وانهلع قلبها فرقاً ، وكادت تعجز عن الاسترسال في القراءة . وكانت العمة بيتي تشهق وتتنهد على كتفها ، فأزاحتها سكارلت نحو إحدى زاويتي العربة وتابعت القراءة :

حتماً ـ حتماً ـ لا يمكن أن يكون ثلاثة أسماء «تارلتون» في تلك القائمة ، فربما ، ربما كرر عامل المطبعة المتسرع ، الاسم خطأ . ولكن لا ، ها هم ثلاثتهم : «تارلتون ـ برنتون ، لفتنانت» ، «تارلتون ـ ستيوارت ، أونباشي» ، «تارلتون ـ توماس ، نفر» . وبويد ، تخطفه الردى في السنة الأولى من الحرب ، ولا يعرف إلا الله في أي مكان دفن في فرجينيا . لقد قضى جميع شباب تارلتون . توم والتوأم الخاملان ، الطويلا السيقان والمولعان بالثرثرة والدعابات السخيفة ، وبويد الذي ينعم برشاقة راقص ماهر ، ويلسان دبور لاسع .

ولم يسعها الاستمرار في القراءة أكثر ، ولم تستطع أن تعرف إذا كان آخرون من أولئك الشبان الذين ترعرعت معهم ، وراقصتهم ، وغازلتهم ، وقبّلتهم ، في القائمة أيضاً . وتمنت أن لو تقدر على البكاء ، أن لو تستطيع إتيان عمل يخفف من قبضة الأصابع الحديدية التي كانت تمزق حلقها .

ـ «إني آسف يا سكارلت» قال ريت ، فتطلعت في وجهه ، وقد سهت أنه ما زال إزاءها «كثير من أصدقائك؟» فأطرقت رأسها وجاهدت لتتكلم : «كل عائلات الولاية تقريباً ـ وجميع ـ جميع أبناء تارلتون الثلاثة» .

كان وجهه هادئاً ، رزيناً تقريباً ، وخلت عيناه من السخرية : «ولما تظهر النهاية بعد» ، قال ، «فهذه هي اللوائح الأولى فقط ، وليست تامة . ستنشر لائحة أطول غداً» . وخفض صوته لئلا يسمع أولئك الذين في العربات القريبة . «سكارلت ، لا بد أن يكون الجنرال قد خسر المعركة . سمعت في

القيادة أنه رجع القهقرى إلى ماريلاند» .

فرفعت إليه عينين مذعورتين ، ولكن ذعرها لم ينجم عن هزيمة لي . قوائم إصابات أطول غداً! غداً! . . لم تكن فكرت بالغد . لقد كانت سعيدة جداً أول الأمر ، لأن اسم آشلي لم يكن في تلك القائمة . غداً ، وكيف لا ، وفي هذه الدقيقة بالذات ، يمكن أن يكون ميتاً ، ولن تدري بذلك ، إلاّ غداً ، أو ربما بعد غد بأسبوع .

ـ «آه يا ريت ، لماذا لا بدّ من وقوع الحروب؟ كان من الأفضل كثيراً لأهل الشمال أن يدفعوا ثمن العبيد ـ أو حتى يدفعوا لنا البدل ، لنقدم لهم العبيد أحراراً ، من أن يقع هذا . .» .

ـ «ليست القضية قضية العبيد يا سكارلت ، وإنما هم الذريعة فقط . سوف تقع حروب دائماً ، لأن الرجال يحبون الحروب . النساء لا يحببنها ، ولكن الرجال يحبونها ـ نعم ، يحبونها حباً عنيفاً يتجاوز حب النساء» .

وزم شفتيه في بسمته المعتادة ، وغاض الوقار من وجهه ، ورفع قبعته :

ـ «وداعاً ، إني ذاهب لأبحث عن الطبيب ميد . أظن أن العبرة الساخرة في كوني أنا الذي سأخبره بوفاة ابنه ستفوته الآن ، ولكن فيما بعد ، من المحتمل أن يمقت مجرد التفكير بأن مضارباً أتاه بنبإ وفاة بطل» .

*

أضجعت سكارلت الآنسة بيتي في فراشها ، ثم سقتها كأساً من الشراب المنعش ، وتركت برسي وكوكي تحت تصرفها ، وانطلقت في الشارع إلى بيت الدكتور ميد .

كانت السيدة ميد في الطابق العلوي مع فيل ، تنتظر عودة زوجها ، بينما جلست ميلاني في ردهة الاستقبال ، تتحدث بصوت خفيض إلى جماعة من الجارات الحزينات ، وتعكف في الوقت ذاته ، بإبرة ومقص ، على تعديل خياطة ثوب حداد ، أعارته السيدة ألسنغ للسيدة ميد .

ـ «كيف حالها؟» استفسرت سكارلت بلهجة رقيقة .

ـ «لم تذرف دمعة» ، أجابت ميلاني «إنه لأمر مؤلم عندما لا تستطيع النسوة البكاء . أنا لا أعرف كيف يجابه الرجال النوائب دون سفح الدموع ، أظن أن ذلك يعود إلى كونهم أقوى وأشجع من النساء . تقول إنها ستذهب بنفسها إلى

بنسلفانيا لتحمله إلى البيت ، فالطبيب لا يستطيع مبارحة المستشفى» .
- «سيكون ذلك عملاً مريعاً بالنسبة إليها ، لماذا لا يستطيع فيل الذهاب؟» .
- «تخاف أن يلتحق بالجيش إذا ما غاب عن ناظريها ، تعرفين أنه ضخم الجثة كثيراً بالنسبة إلى سنه ، وهم الآن يجندونهم وهم في سن السادسة عشرة» .

وتسللت الجارات إلى بيوتهن ، واحدة إثر الأخرى ، محجمات عن البقاء في أثناء حضور الطبيب ، مخلفات سكارلت وميلاني وحدهما ، تخيطان في الردهة . كانت ميلاني تبدو حزينة ، ولكن رابطة الجأش ، مع أن الدموع تساقطت على القماش الذي بين يديها . ومن الواضح أنها لم تفكر باحتمال استمرار المعركة للآن ، وبأن آشلي قد يكون صريعاً في هذه اللحظة بالذات . واحتارت سكارلت ، والرعب يقبض قلبها ، أتكاشف ميلاني بما قال ريت ، فتواسي بلواءها بالعزاء المستراب به ، أم تحتفظ بالسر . وأخيراً قررت أن تلوذ بالصمت ، لئلا يطرأ ببال ميلاني أنها قلقة جداً على آشلي . وحمدت الله ، لأن الجميع ، بما فيهم ميلي وبيتي ، قد استغرقوا في أحزانهم ، ذلك الصباح ، بحيث لم يلحظوا سلوكها .

وانقضت فترة من الخياطة الصامتة ، سمعتا على إثرها أصواتاً في الخارج . ومن خلال الستائر ، لاح لهما شخص الدكتور ميد ، يترجل عن حصانه ، كتفاه متقوستان ، ورأسه منحن إلى أسفل ، بحيث انتشرت لحيته كالمروحة فوق صدره . ودخل البيت متمهلاً ، ثم وضع قبعته ومحفظته ، وقبّل كلتا الفتاتين ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم صعد السلم متعباً . وبعد لحظات ، نزل فيل بساقيه الطويلتين ، وذراعيه المديدتين ، وطيشه المعهود ، ورنت إليه الفتاتان تدعوانه للجلوس معهما ، ولكنه خرج إلى الشرفة الأمامية ، وجلس على أعلى درجة ، ورأسه فوق راحة يده المتكورة .

وتنهدت ميلي :
- «إنه حانق لأنهم لن يدعوه يذهب لقتال الشماليين . إنه في الخامسة عشرة من عمره ! آه سكارلتِ ، سيكون من رضى الله وفضله ، أن أرزق بصبي مثله !» .
- «ثم تتركينه يقتل؟ !» قالت سكارلت متأملة مصير دارسي .

ـ «لأن أرزق صبياً ، حتى لو قُتل ، خير من أن لا أرزق أبداً» قالت ميلي . . . «ليس بوسعك إدراك هذه الحقيقة يا سكارلت ، لأنك نعمت بويد الصغير ، ولكن أنا ـ آه ، سكارلت ، إني أحن إلى طفل بولع جنوني . أعلم أنك تفكرين إني فظة حين أصرح بهذا علانية ، بيد أنها الحقيقة ، والشيء الوحيد الذي ترجوه كل امرأة ، وأنت تعرفين ذلك» .

وما إن نطقت بهذا حتى حبست سكارلت أنفاسها .

ـ «إذا ما قضت مشيئة الله ـ باصطفاء آشلي إلى جواره ، أظن أن بوسعي احتمال الفاجعة ، مع أني أفضل الموت في تلك الحالة . ولكن الله سيمنحني القوة لاحتمال المصيبة . بيد أنه ليس بوسعي احتمال كونه ميتاً ، دون أن ـ دون أن يكون لي طفل منه ، عزاء لقلبي . آه ، سكارلت ، ما أسعد حظك ! فمع أنك فقدت تشارلز ، إلا أنك تهنئين بابنه ، وإذا ما قضى آشلي ، فليس لي منه أحد . سكارلت ، سامحيني ، لأني أحسدك كثيراً أحياناً ـ » .

ـ «تحسدينني ـ أنا؟» صاحت سكارلت وقد انتابها الشعور بالإثم .

ـ «نعم ، لأن عندك ابناً ، وليس عندي ولد ، حتى إني تخيّلت أحياناً أن ويد لي ، فمن المؤلم جداً أن لا تقر عين الأم بطفل لها» .

ـ «هذا هراء» قالت سكارلت وهي تتنفس الصعداء ، ثم رمت المخلوقة النحيلة ذات الوجه المورد ، المكبة على الخياطة ، بنظرة سريعة . قد ترغب ميلاني في إنجاب الأطفال ، ولكنها من المؤكد ، لاتملك الكيان لتحمل به . فقامتها تكاد لا تتجاوز قامة طفلة في الثانية عشرة ، وشفتاها رقيقتان كشفتي طفلة ، وثدياها ضامران كثيراً . إن مجرد فكرة إنجاب ميلاني طفلاً تقزز سكارلت ، إنها تثير العديد من الخواطر التي لا يسعها التفكير بها . إذا ما حملت ميلاني طفلاً من آشلي فسيكون الأمر كما لو أن شيئاً انتزع من سكارلت ، شيئاً من أملاكها الخاصة .

ـ «أرجوك ، سامحيني لما قلته عن ويد . تعلمين أني أحبه كثيراً . إنك لن تحنقي علي ، أليس كذلك؟» .

ـ «لا تكوني حمقاء» قالت سكارلت «واخرجي إلى الشرفة وافعلي شيئاً من أجل فيل ، فهو يبكي» .

15

قفل الجيش ، وقد هُزم إلى فرجينيا ، إلى ثكناته الشتوية على نهر رايدين - جيش منهك خائر القوى ، منذ هزيمته في جتسبرغ وعندما اقترب موسم عيد الميلاد ، رجع آشلي إلى أهله في إجازة ، وارتعدت سكارلت ، وهي التي تراه لأول مرة منذ سنتين ، من جراء عنف أحاسيسها . ويوم وقفت في ردهة الاستقبال في تولف أوكس ، ورأته يتم مراسيم الزواج على ميلاني ، اعتقدت أنها لن تستطيع أن تحبه بطاقة تقض القلب ، أكثر من حبها له في تلك اللحظة . ولكنها أدركت الآن أن أحاسيسها في تلك الليلة المنصرمة ، قديماً ، كانت أحاسيس طفلة طائشة ، . استفزت ثائرتها دمية ، بينما عواطفها الآن قد شحذتها أحلامها الطويلة به ، وأججها الكبت الذي أرغمت لسانها عليه .

كان آشلي ويلكس هذا ، وهو في بزته الباهتة المرقعة ، وشعره الأشقر قد انقصر لونه فغدا كنسالة الكتان من جراء شمس الصيف ، رجلاً يختلف عن ذلك الشاب ، السهل القياد ، الناعس العينين ، الذي أحبته إلى درجة الهيام ، قبل الحرب . لقد كان أروع منه اليوم بألف مرة . إنه الآن برونزي اللون هزيل أعجف ، بينما كان في الماضي أشقر أهيف ، وها هو شاربه الطويل الذهبي ، المرتسم حول فمه على نسق فروسي ، بمثابة آخر ضربة ريشة ضرورية لترسم منه صورة حقيقية للجندي .

وقف وقفة عسكرية ، منتصب القامة ، في حلته العتيقة ، مسدسه في قرابه المهترئ ، وغمده البالي يمس جزمته مساً خفيفاً ، ومهمازاه يشعان شعاً كليلاً - «ميجر آشلي ويلكس . سي . إس . إي(*) . وقد علقت به الآن عادة إصدار الأوامر ، وزانه مظهر رزين من الاعتماد على النفس ، والشخصية المتسلطة ، وطفقت خطوط عابسة تظهرحول فمه . وكان مقطع كتفيه المربع ، وبريق عينيه البهي الهادئ ، يوحيان بشيء جديد غريب . فبينما كان ذات يوم ميالاً إلى الراحة والدعة ، إذا به الآن نشيط خفيف الحركة ، يتسم باليقظة الواعية لرجل

(*) تشير الحروف إلى أنه تابع لولايات الحلف الأميركية C.S.A: Corporate States of America .

ذي أعصاب دائمة التوتر كأوتار الكمان . وكانت عيناه ترنوان بنظرة منهوكة مكدودة ، وبشرته التي لوحتها الشمس مشدودة على عظام وجهه المتناسقة البديعة . . . إنه آشليها نفسه البهي الطلعة ، مع أنه متغير إلى أقصى حدود التغير . كانت سكارلت قد تعوّدت قضاء عيد الميلاد في تارا ، ولكن بعد ورود برقية آشلي لن تستطيع قوة في الأرض ، حتى ولا أمر مباشر من أمها الخائبة ، سحبها من أتلانتا . لو أن آشلي اعتزم الذهاب إلى تولف أوكس ، لأسرعت إلى تارا لتكون على مقربة منه ، غير أنه كتب إلى عائلته لتلاقيه في أتلانتا ، وفعلاً ، وصل السيد ويلكس وهوني وإنديا إلى المدينة . أفتذهب إلى تارا وتخسر رؤيته بعد غياب سنتين طويلتين؟ أتخسر سماع نبرة صوته التي تزيد قلبها وجيباً؟ أتخسر قراءة أنه لم ينسها في عينيه؟ أبداً ولا من أجل جميع الأمهات في العالم .

وصل آشلي البيت قبل عيد الميلاد بأربعة أيام ، برفقة جماعة من شبان الولاية كانوا في إجازات لهم كذلك ، جماعة تضاءل عددها بصورة محزنة منذ جيتسبرغ . كان بينهم كيد كالفرت ، كيد الحزين الشاحب اللون ، الدائم السعال ، واثنان من شبان آل مونرو طروبان بفرحة إجازتهما الأولى منذ عام ١٨٦١ ، وألكس وطوني فونتين وهما ثملان بصورة باهرة ، صخابان ، نزاعان إلى الشر . وكان لدى الرفقة ساعتان من الزمن وهي المدة الفاصلة بين قطارين . ولـمّا كان من خطة أعضاء العصبة ، المتزنين ، منع الأخوين فونتين من المشاجرة معاً ، أو معاركة الغرباء في المحطة ، فقد اصطحبهم آشلي جميعاً إلى منزل العمة بيتي بات .

ـ «ربما تظنين أنهما خاضا غمار القتال في فرجينيا» ، قال كيد بلهجة لاذعة ، وهو يراقب الشقيقين ينتفضان كديكين شرسين وهما يتنافسان في أي منهما سيكون الأول في تقبيل العمة بيتي المضطربة المتملقة . . . «ولكن لا ، فقد كانا عاكفين على الشراب ، يتصيدان الشر منذ وصلنا ريتشموند . وقد ألقى رئيس الحرس القبض عليهما ، ولولا لسان آشلي الذرب ، لقضيا عيد الميلاد في السجن» .

على أن سكارلت لم تسمع كلمة مما قاله تقريباً ، إذ كانت مشدوهة بفرط السرور لأنها وجدت مرة ثانية في ذات الغرفة مع آشلي . كيف وسعها

التفكير ، خلال هاتين السنتين ، أن سواه من الرجال الآخرين رائعون ،وسيمون ميثرون؟ كيف أمكنها حتى مجرد احتمال سماعهم يغازلونها في الوقت الذي ما زال فيه آشلي على قيد الحياة؟ إنه في البيت ثانية ، لا يفصله عنها إلاّ عرض سجادة الصالة ، وقد استنفدت كل قواها كي لا تذوب في دموع الفرح ، كل مرة كانت تنظر فيها إليه ، وهو يجلس هناك على الكنبة ، وميلي إزاءه ، وإنديا على الجانب الآخر ، وهوني مرابطة خلفه . آه لو أن لها الحق فقط في أن تجلس هناك بجانبه ، ذراعها تتأبط ذراعه ! أو أنها تمسك بيده وتمسح بمنديله دموع الفرح التي تترقرق في عينيه ، فميلاني كانت تقوم بكل هذه الأعمال دون حياء ، تقيها سعادتها الغامرة من الخجل والتحفظ ، لقد تعلقت بذراع زوجها وراحت تلاحظه بعينيها ، بابتساماتها ، وبدموعها . وأذهلت السعادة الطاغية سكارلت ، فعطلت فيها شعور الامتعاض من ميلاني . لقد كانت في غاية الهناء ، بحيث انكمشت روح الحسد فيها . . . لقد عاد آشلي إلى البيت أخيراً .

ومن حين إلى آخر ، كانت تضع يدها على وجنتها ، حيث كان قد قبّلها ، فتستشعر همسة شفتيه ثانية ، وتبتسم في وجهه . وهو لم يقبّلها أول الجميع طبعاً ، إذ كانت ميلي قد ألقت نفسها بين ذراعيه في بكاء متقطع متعلقة به ، كأنها لن تدعه يذهب أبداً ، ثم ضمته إنديا وهوني إلى صدريهما ، بعد أن انتزعتاه ، بحق ، من ذراعي ميلي ، ثم قبل هو والده ، بضمة وقورة مؤثرة ، كشفت عن العاطفة القوية الرصينة ، التي تشج بينهما . ثم جاء دور العمة بيتي ، التي كانت تثب حوله صعوداً وهبوطاً ، منتشية ، على قدميها المفرطتين في الصغر . وأخيراً التفت نحو سكارلت قائلاً ، وقد أحاط به كل الشبان الذين أصروا على حقهم في القبل : «ها ، سكارلت ! أيتها الجميلة ، الجميلة» . وطبع قبلته على وجنتها .

مع تلك القبلة ، طارت جميع العبارات التي اعتمدت قولها ترحيباً به ، ولم تفطن إلى أنه لم يقبّلها من شفتيها ، إلاّ بعد مضي ساعات ، عندئذ وقعت فريسة حيرة ممضة ، إذ أخذت تتساءل : أكان يفعل ذلك لو أنها قابلته على انفراد ، أكان ينحني بجسده أطول فوق جسدها ، ويرفعها نحوه ، حتى تقف على رؤوس أصابعها ، ويضمها لفترة طويلة طويلة؟ وغمرتها الفرحة وهي تسرح مع هذه الخطرات ، ولذلك اعتقدت أنه كان ليقدم على هذا العمل ،

ولكن ، سيسنح الوقت لكل شيء . . . أسبوع كامل ! . بوسعها حتماً المناورة لتنفرد به وتقول له : «أتذكر نزهات الركوب التي اعتدنا ممارستها في ممرات الخيل السرية؟ . . أتذكر كيف بدأ القمر تلك الأمسية ، عندما جلسنا على الدرجات في تارا ، واستشهدت بتلك القصيدة؟ (يا الله ، ماذا كان اسم تلك القصيدة ، على أي حال) أتذكر ذلك المساء ، عندما التوى كاحلي ، وحملتني أنت على ذراعيك إلى البيت تحت ضوء القمر؟» .

ها ، هناك أشياء كثيرة جداً يمكن أن تسبقها بـ«أتذكر» ذكريات عزيزة عديدة ، وستعيد إليه تلك الأيام الجميلة ، عندما كانا يجوبان الولاية كطفلين خاليين من المسؤولية . أمور كثيرة جداً ، ستعود بالذاكرة القهقرى إلى تلك الأيام ، قبل أن تدخل ميلاني هاملتون إلى مسرح الحياة . وبينما يكونان في الحديث ، قد يكون بوسعها قراءة بعض ما في عينيه من اختلاج العاطفة نحوها ، بعض ما يومئ إلى أن وراء حجاب حبه الزوجي لميلاني تكمن حقيقة أنه ما زال يحفل بها هي ، يحفل بها بالقدر ذاته من العاطفة التي تجلت فيه يوم الحفل ذاك ، عندما انفجر معلناً الحقيقة . ولم يدر بخلدها التفكير بماذا سيعملان ، إذا ما أعلن آشلي حبه لها في كلمات جلية واضحة . ، ستكتفي بمعرفة أنه يحفل بها . .

أجل ! بوسعها أن تنتظر ، بوسعها أن تدع ميلاني تنعم بالساعة الهنيئة ، ساعة ضغطها ذراعه وذرفها دموع الفرح ، ففرحتها هي آتية . وفوق ذلك ، ماذا تعرف عن الحب فتاة كميلاني؟

ـ «حبيبي ، إنك تبدو كصعلوك !» قالت ميلاني بعد زوال سكرة اللقاء «من رقع بزتك؟ ولماذا استعملوا خرقاً زرقاء؟» .

ـ «ظننت أني أبدو بهي الطلعة» قال آشلي متأملاً مظهره «قارنيني فقط بأولئك الزملاء الممزقي الثياب ، وعندها تقدرينني أكثر . وأما بصدد كوني أشبه صعلوكاً ، فعليك أن تحمدي حسن طالعك لأن زوجك لم يعد إلى البيت عاري القدمين . لقد بلي حذائي تماماً في الأسبوع الماضي ، وكنت سآتيكم بجوارب معقودة على قدمي لو لم يسعدنا الحظ بإصابة كشافين شماليين . وافقت جزمة أحدهما قدمي كل الموافقة» . ومد ساقيه الطويلتين بجزمتيهما المرتفعتين المخدشتين ليروهما ، ويعجبوا بهما .

ـ وأما جزمتا الكشاف الآخر، فلم يوافقا قدمي» قال كيد «إنهما متفاوتتا القياس وصغيرتان جداً، تكادان تميتانني الآن. ولكن على كل حال سأذهب إلى البيت في زي واحد متناسق».

ـ «ولم يشأ الخنزير الأناني التنازل عنهما لأي منا»، قال طوني «وهما توافقان تماماً أقدامنا الفونتينية الأرستقراطية الصغيرة. يا للجحيم المستعر! إني أخجل أن أقابل أمي بهذا المداس، الذي لم تكن تسمح لأحد من زنوجنا بلبسه قبل الحرب».

ـ «كنت قد احتفظت بلحية طويلة لأريكن إياها» قال آشلي، دالكاً وجهه بأسف، حيث ما زالت تظهر آثار لجروح موسى، نصف مندملة. «كانت لحية ظريفة، رغم أني أنا الذي أقول ذلك، لا يملك جب ستيوارت ولا ناتان بدفورد فورست أظرف منها. ولكن، عندما بلغنا ريتشموند، قرر هذان الوغدان» وأشار إلى ابني فونتين «أنه لما كانا حليقين، ينبغي أن تطير لحيتي أيضاً. وهكذا أجلساني وحلقاها، ومن العجيب أن رأسي لم يجز مع اللحية، ولولا توسط إيفان وكيد، لما سلم شاربي».

وعندما خرج آشلي إلى الباب في البرد القارص لتشييع الشبان الذاهبين إلى المحطة، في عربة العمة بيتي، أمسكت ميلاني بذراع سكارلت:

ـ «أليست بزته فظيعة؟ ألا يكون تقديم معطفي له مفاجأة مدهشة؟ آه لو أني فقط أملك قماشاً يكفي لسروال أيضاً!».

إن تقديم ذلك المعطف لآشلي كان موضوعاً مرّاً لسكارلت، إذ كانت ترغب رغبة جامحة في أن تقدم هي، لا ميلاني، معطفاً له كهدية عيد الميلاد. وكانت سكارلت تحتفظ بهدية عيد الميلاد لآشلي، غير أن هديتها لم تكن ذات قيمة بالنسبة إلى معطف ميلاني الرمادي الفاخر. كانت عبارة عن دمية مجوفة من الفانيلا، تحتوي جميع الإبر الثمينة التي جلبها لها ريت من ناسو، بالإضافة إلى ثلاثة من مناديلها الكتانية، من المصدر ذاته، ولفافتي خيطان ومقص صغير. غير أنها كانت تود تقديم هدية ذات طابع شخصي أعمق، هدية يمكن أن تقدمها زوجة لبعلها: قميص قفازين حربيين، أو قبعة. نعم، قبعة بكل تأكيد، فتلك القلنسوة المغتصبة، المسطحة القمة، التي يضعها آشلي على رأسه، تدعو للسخرية. إنها تكره هذا النوع من القلانس، وإن ارتداء ستونوول

جاكسون إحداها كبديل مفضل عن اللبادة المتهدلة لن يرفع من شأنها أدنى قيمة . ولكن النوع الوحيد الذي يمكن الحصول عليه في أتلانتا ، كان مصنوعاً من الصوف بطريقة بدائية ، أقل أناقة من القلانس المقتضبة الصنع ، الشبيهة بقلانس القردة .

وعندما فكرت بالقبعات ، فكرت بريت بتلر . إن بحوزته العديد منها : نوع البانامـا الواسع ، للصيف ، وتلك المصنوعة من جلد القندس للمناسبات الرسمية ، ثم قبعات الصيد ، والقبعات الناعمة ، العريضة واللينة الأطر ، الحمراء القاتمة منها ، والسوداء والزرقاء . أي حاجة به إلى هذا العدد الضخم ، في الوقت الذي يسير فيه حبيبها آشلي تحت المطر الذي يسح من تحت قبة قميصه ، متسرباً من ظهر قبعته؟

ـ «سأدع ريت يعطيني لبادته السوداء الجديدة» ، قررت في نفسها ، «وسأضع حول حافتها شريطاً رمادياً ، وأخيط شارة آشلي العسكرية عليه وستبدو رائعة» .

وأطرقت هنيهة ، وتراءى لها أن من العسير الحصول على القبعة ، دون سبب جلي ، فهل لن يسعها إخبار ريت بصراحة أنها تريد القبعة لآشلي ، إذ سيرفع حاجبيه حينذاك بتلك الطريقة الخبيثة التي يتبعها دائماً ، عندما تذكر حتى مجرد اسم آشلي ، وسواء أأعجب بالفكرة أو استنكرها ، فسوف يرفض منحها القبعة على كل حال . عليها إذاً أن تلفق قصة تستدر الشفقة عن جندي في المستشفى بحاجة إليها ، ولن يكون من الضروري أن يعلم ريت الحقيقة أبداً .

وأمضت ذلك المساء بطوله تناور لتنفرد بآشلي ، ولو دقائق معدودات ، ولكن ميلاني علقت إلى جانبه بينما لازمته إنديا وهوني أينما ذهب في البيت ، وعيونهما الشاحبة العديمة الأهداب تغيض بريقاً . حتى جون ويلكس ، الذي بدا عليه الفخر بابنه ، لم ينعم بجلسة هادئة هانئة يتحدث فيها إليه .

ولم يتغير الوضع عند العشاء حيث راح الجميع يمطرونه بالأسئلة عن الحرب . الحرب !! ومن يحفل بأمر الحرب؟ إن سكارلت لا تعتقد أن آشلي ذاته يأبه كثيراً لهذا الموضوع . وتحدث طويلاً ، وضحك مراراً ، وسيطر على النقاش بصورة أتم مما عهدت به من قبل ، ولكن ظهر وكأنه يرغب في الإقلال من كلامه . تلا على مسامعهم فكاهات وقصصاً مضحكة عن الأصدقاء ، وقص

عليهم مسروراً أساليب الخلوص ، مستخفاً بما قاسوه من جوع ، وما تجشموه من مسيرات طوال تحت الأمطار ، وأسهب في وصف مظهر الجنرال لي وهو يركب بمحاذاتهم في أثناء تقهقرهم من جيتسبرغ ، ويقول لهم :

«أيها السادة ، هل أنتم جنود جورجيا؟ حسناً ، لن نستطيع الخلاص بدونكم يا أبناء جورجيا!» .

وبدا لسكارلت أنه كان يتكلم باندفاع ، ليمنعهم من توجيه أسئلة لا يرغب في الإجابة عليها . وعندما رأت عينيه تختلجان ثم تطرقان ، أمام نظرة والده الطويلة المتعبة ، انتابها بعض القلق والحيرة حول ما يكمن في قلب آشلي ، ولكن سرعان ما زاولها ذلك ، إذ لم يكن في تفكيرها متسع لأي خاطر ، عدا السعادة المشرقة ، والرغبة الجامحة في الانفراد به .

واستمر ذلك الإشراق ، إلى أن طفق كل من المتحلقين حول الموقد يفغر فمه متثائباً ، وانصرف السيد ويلكس وابنتاه إلى الفندق . وعندئذ ، وفيما هي وآشلي وميلاني وبيتي بات ، يصعدون السلم ، الذي أضاءه العم بطرس ، ألمت بروحها قشعريرة باردة ، فحتى تلك اللحظة وهم واقفون في القاعة العليا ، كان آشلي لها ، لها وحدها ، حتى لو لم تكن قد انفردت به بكلمة واحدة طيلة تلك الأمسية ، بيد أنها الآن ، وهي تودعه ، رأت أن وجنتي ميلاني قد تخضبتا فجأة ، وأخذ جسدها يرتعش ، وأغضت بطرفها نحو السجادة . ومع أنها بدت منذهلة بإحساس مقبض ، إلاّ أنها ظهرت سعيدة حيية ، حتى أنها لم ترفع رأسها عندما فتح آشلي باب غرفة النوم ، وإنما دخلت على عجل . وودعها آشلي بإيجاز حتى دون أن تلتقي عيناه بعيني سكارلت .

وأغلقا الباب خلفهما ، تاركين سكارلت فاغرة الفم مهجورة فجأة . وهكذا لم يبق آشلي لها بعد! إنه لميلاني ، وطالما أن ميلاني حية فسيكون بوسعها دخول الغرف مع آشلي ، وإغلاق الباب ـ إغلاقه دون بقية الخلق .

*

انقضى الأسبوع بجماله المتألق كالحلم وساعاته الحافلة بالسعادة .

واليوم ها هو آشلي عائد إلى الجبهة ، إلى فرجينيا ، إلى المسيرات الطويلة تحت المطر الذي يصحبه البرد أحياناً ، إلى الاستراحة في العراء فوق الثلج ، إلى الجوع والألم والخوف ، وإلى المجازفة بكل ذلك الجمال الوضاء الذي يتألق به

رأسه الذهبي الشعر ، وجسده النحيل ، ليشوه في لحظة عابرة كما تشوه نملة تحت قدم إنسان عابث .

لقد انقضى الأسبوع بسرعة كحلم ، حلم معطر ، عابق برائحة أغصان الصنوبر ، وأشجار عيد الميلاد المتلألئة بمصابيحها ، وببهارجها المحلية الصنع ، حلم تمضي دقائقه سريعة كدقات القلوب . إنه أسبوع منبهر النفس ، حيث نداء من أعماق سكارلت دفعها بألم ، تمازجه المسرة ، إلى استجماع وحشر كل دقائقه المليئة بالأحداث ، لتتذكرها بعد رحيله ، الأحداث التي تستطيع تمحيصها في أوقات الفراغ ، خلال الشهور الطويلة القادمة ، لتستخلص منها كل مبعث عزاء ـ ارقصي ، غني اضحكي ، اجلبي واحملي ما يريد آشلي من أجل آشلي ، تنبئ بحاجاته ، ابتسمي عندما يبتسم ، اصمتي عندما يتكلم ، تتبعي شخصه بعينيك ، حتى أن كل عضو في جسده المنتصب ، كل إعلاء لحاجبه ، كل مداورة ذكية في حديثه ، تنطبع بحروف خالدة لن تمحي ، في ذاكرتك ـ لأن الأسبوع يمر سريعاً جداً ، والحرب تستعر نيرانها إلى الأبد .

جلست على الكنبة في ردهة الاستقبال تحمل في حجرها هديتها التي سترحل معه ، وتنتظره وهو يودع ميلاني ، متضرعة إلى ربها أن يهبط السلم وحيداً ، وأن يمن عليها بدقائق قليلة لتحادثه على انفراد . وأرهفت السمع للأصوات الصادرة من الطابق العلوي ، ولكن البيت كان ساكناً ، بشكل غريب ، ساكناً جداً ، بحيث بدا صوت تنفسها مرتفعاً . كانت العمة بيتي بات تبكي صامتة فوق الوسادة في مخدعها ، لأن آشلي ودعها منذ نصف ساعة . ولم يسمع خلف باب مخدع ميلاني دندنة أصوات مغتمة ، أو نشيج دموع ، وتراءى لسكارلت ، كأن ساعات طوالاً انقضت عليه وهو في تلك الغرفة ، واستنكرت بمرارة كل دقيقة قضاها في الداخل ، يودع زوجته ، إذ كانت الدقائق تمضي تباعاً بسرعة فائقة ، ووقته قصير جداً .

وفكرت بكل الأشياء التي كانت قد اعتمدت قولها له خلال هذا الأسبوع ولم تسنح الفرصة للإفضاء بها ، وأدركت الآن أن من المحتمل أن لا تواتيها الفرصة أبداً للإفصاح عنها .

إنها مجرد عبارات موجزة تافهة ، هذا بعضها : «آشلي ، ستكون حريصاً على نفسك ، أليس كذلك؟» ، «أرجوك أن لا تبلل قدميك ، فأنت يصيبك

الزكام بسهولة بالغة» ، «لا تنس أن تضع جريدة بين صدرك وقميصك ، فهي تمنع الرشح بصورة فعالة» . بيد أن هناك أشياء أخرى ترغب في قولها ، وأشياء أعظم أهمية بكثير ترغب في سماعها منه . أشياء ترغب في أن تقرأها في عينيه ، حتى لو لم يفصح عنها .

أشياء كثيرة جداً تعتمد قولها ، ولا وقت الآن! حتى الدقائق القليلة المتبقية ، يمكن أن تنتزع منها ، إذا ما تبعته ميلاني إلى الباب ثم إلى العربة . لماذا لم تغتنم الفرصة خلال هذا الأسبوع المنصرم؟ ولكن ، دائماً كانت ميلاني إلى جانبه ، عيناها تعانقه كعيني عابد ، ولم يخل البيت أبداً من الأقرباء والأصدقاء والجيران ، ومنذ الصباح حتى المساء كان الناس يحيطون بآشلي . وعندما يأتي الليل ، ينغلق باب غرفة نومه ، ويختلي بميلاني .

خلال تلك الأيام الأخيرة ، لم يفش آشلي لسكارلت ، ولو مرة واحدة ، سواء من طريق نظرة أو كلمة ، بأي شيء ، عدا العاطفة التي يمكن أن يبديها أخ نحو أخته ، أو نحو صديقه ، صديقه الدائم .

ليس بوسعها أن تتركه يرحل ، وربما إلى الأبد ، دون أن تعرف إذا كان لا يزال يحبها ، وعندئذ ، وحتى لو قضى نحبه ، تستطيع أن تتعلل بالعزاء الدافئ ، عزاء حبه المكتوم إلى نهاية عمرها .

وبعد انقضاء ما بدا لها كأنه الانتظار الأبدي ، سمعت صوت حذائه في غرفة النوم في الطابق العلوي ، ثم صوت الباب يفتح ويغلق ، وسمعته ينزل الدرج وحيداً . شكراً لله على ذلك ، لا بد أن تكون ميلاني مترعة بأحزان الفراق ، بحيث لم تستطع مغادرة غرفتها الآن . ستحوزه لنفسها دقائق قليلة ثمينة .

هبط الدرج ببطء ، واستطاعت سكارلت سماع الصدى الخافت لصوت ارتطام سيفه بجزمته الطويلة . وعندما أطل في الردهة ، رأت عينيه مخضلتين ، كان يحاول الابتسام ولكن وجهه كان أبيض غائض الدم ، كوجه رجل ينزف من جرح أبدي . ونهضت فور دخوله ، مفكرة ، تزهوها كبرياء المالك . إنه أجمل جندي رأته في حياتها . كان حزامه وقراب سيفه الطويل يلمعان ، وكان مهمازاه الفضيان وغمده يتلألآن ، من جراء المسح الذي قام به العم بطرس . ولم يكن معطفه الجديد دقيق الصنع كما ينبغي ، لسرعة الخياط ، ولأن بعض

دروزه منحرفة موروبة ، غير أن البهاء الجديد الزاهي ، المنبعث من المعطف الرمادي ، كان على خلاف ممض مع السراويل المهترئة ، المرقعة ، المصنوعة محلياً ، والجزمتين المخدشتين . ولكن لو أنه ألبس بذلة حربية فضية ، لما كان بوسعه أن يبدو لناظريها فارساً أكثر رواء منه الآن .

ـ «آشلي» ، قالت متوسلة بإيجاز «هل يمكنني مرافقتك إلى القطار؟» .

ـ «أرجوك ، لا ، فسيكون والدي وشقيقتاي بانتظاري هناك . وعلى كل حال ، أفضل أن أذكرك وأنت تودعينني هنا ، من أن أذكرك ترتجفين في المحطة ، ثم إنه يوجد الكثير للذكرى» .

وفي الحال ، تخلت عن خطتها ، فإذا كانت إنديا وهوني ، اللتان تبغضهما كثيراً ستحضران عند وداعه ، فلن يتاح لها الفرصة لكلمة خاصة .

ـ «إذاً لن أذهب» ، قالت «انظر آشلي ، عندي هدية أخرى لك» .

وحلت الرزمة ، وقليل من الخجل يورد وجنتيها ، فقد آن وقت تقديمها له .

كان حزاماً أصفر طويلاً ، مصنوعاً من حرير صيني سميك ، مطرّزاً بتخاريج ثقيلة ، ذلك أن ريت بتلر كان قد جلب لها شالاً أصفر من هافانا قبل عدة شهور ، شالاً مطرزاً بالطيور والأزهار بلون أزرق ، وأحمر أرجواني ، فعكفت سكارلت بإصرار ، خلال الأسبوع الأخير ، على تنقيب خيوط التطريز ، ثم قصت قطعة الحرير المربعة ، وخاطتها بطول الزنار .

ـ «إنه جميل يا سكارلت ، هل صنعته بنفسك؟ . سأقدره أكثر وأكثر إذاً . منطقيني به يا عزيزتي ، سيتوغر الحقد في صدور الجنود ، عندما يرونني بأبهة وزنار جديدين» .

لفت الزنار الزاهي حول خصره النحيل ، فوق حزامه ، وعقدت طرفيه بعقدة محب .

قد تكون ميلاني منحته معطفه الجديد ، ولكن هذا الزنار كان هديتها هي ، مكافأتها السرية له ، ليتمنطق به في المعركة . إنه هدية ستجعله يتذكرها ، كلما نظر إليه . وتراجعت قليلاً ، وتأملته فخورة مفكرة أنه حتى جب ستيوارت ، بزناره الفائق الروعة ، وريشته ، لا يمكن أن يبدو جذاباً هكذاً ، كفارسها .

ـ «إنه جميل» ، أعاد عابثاً بالتخاريج بأصابعه ، بيد أني واثق من أنك قصصت فستاناً أو شالاً في سبيل صنعه . كان ينبغي أن لا تفعلي ذلك يا

سكارلت ، فالأشياء الجميلة صعبة المنال كثيراً هذه الأيام» .

ـ «آه ، آشلي ، إني . . .» .

كانت قد شرعت في القول «إني أقص قلبي في سبيلك لترتديه ، إذا ما رغبت فيه» ولكنها عدلت ذلك القول . . . : «إني أفعل كل شيء في سبيلك» .

ـ «هل تفعلين؟» استوضح وقد زاول وجهه بعض الكآبة : «إذاً يوجد شيء لتعتني به من أجلي يا سكارلت ، شيء سيخفف عبء تفكيري وأنا بعيد في الجبهة» .

ـ «ما هو؟» سألت مبتهجة مستعدة لأن تعد بصنع المعجزات .

ـ «سكارلت ، هل تعتنين بميلاني من أجلي؟» .

ـ «أعتني بميلاني؟» .

وانقبض قلبها بخيبة الأمل المرير . هذا إذاً ، آخر رجاء له منها بينما هي في أوج اللهفة لتعد بشيء جميل ، شيء يبدو جذاباً للعيان . واستعر فؤادها غضباً . إذاً هذه الدقيقة هي فرصتها مع آشلي ، فرصتها وحدها ، ومع ذلك ، ومع أن ميلاني غائبة ، فإن ظلها الشاحب يحول بينهما . كيف يسعه ذكر اسمها في لحظة وداعهما؟ ! كيف يسعه طلب شيء كهذا منها؟

ولم يلحظ الخيبة في وجهها ، فكما هو حاله معها قديماً ، كانت عيناه تنظران خلالها ، إلى ما ورائها ، إلى شيء آخر ، ولا تريانها هي أبداً .

ـ «نعم ، حافظي عليها ، اعتني بها ، إنها سقيمة جداً ، وهي لا تتبيّن ذلك ، ستفني نفسها في التمريض والخياطة ، وهي رقيقة جداً ، وحييّة ، وباستثناء العمة بيتي بات ، والعم هنري ، وأنت ، ليس لها قريب حميم في الدنيا عدا آل بور في ميكون ، وهم أبناء عمومتها من الدرجة الثالثة . والعمة بيتي بات يا سكارلت ـ تعرفين أنها ، طفلة ، والعم هنري رجل مسن . إن ميلاني تحبك حباً جارفاً ، ليس لأنك زوجة تشارلز ، وحسب ، بل لأنك ـ حسناء ، لأنك أنت أنت ، لشخصك ، وهي تحبك كشقيقة لها . سكارلت ، إن كوابيس تضغط على صدري عندما أفكر بالذي يمكن أن يحدث لها إذا ما قُتلت ، فليس من أحد تلجأ إليه» .

ولكنها لم تسمع حتى رجاءه الأخير . لقد استحوذ عليها الذعر ، بفعل هذه الكلمات المشؤومة «إذا ما قُتلت» .

إن كل يوم كانت تقرأ فيه قوائم المصابين كانت تقرأها وقلبها في حلقها، مدركة أن العالم سينتهي إذا ما أصابه مكروه، بيد أنها، دائماً وأبداً، كان ينتابها شعور داخلي، يطمئنها بأنه حتى لو فني جيش الحلف بأسره، سينجو آشلي، غير أنه الآن يتفوه بالكلمات المرعبة!

وأحست بالمطارق خفيفة تهوي على كل بقعة في جسدها، واجتاحها الرعب، رعب هائل لم تستطع مقاومته بالمنطق. كانت إيرلندية إلى حد تؤمن معه بالكهانة ونفاذ البصيرة، خصوصاً حيث يوجد شعور سابق بالموت. ورأت في عينيه الرماديتين الواسعتين حزناً عميقاً، حزناً لم يسعها تفسيره، إلاّ بأنه كحزن ذلك الرجل الذي أحس بيد الموت على كتفه، وسمع عويل النائحات.

ـ «يجب أن لا تتفوه بها. يجب أن لا تفكر بها أبداً. إن التكلم عن الموت نذير سوء. اتل صلاة، أسرع».

ـ «أنت اتليها من أجلي، وأضيئي بعض الشموع، أيضاً» قال مبتسماً بسبب لهجة الاستعجال المذعورة في صوتها.

ولكنها لم تستطع الجواب. كانت فرائصها ترتعد هلعاً بفعل ما يرسمه عقلها من صور مريعة: آشلي فاقد الروح، ممدد على ثلوج فرجينيا... هناك، بعيداً عنها. وتابع هو حديثه، وكان في صوته رنة تميزه، رنة أسى، رنة فاقمت خوفها، حتى تبدد من وجهها كل أثر من آثار الغضب وخيبة الأمل.

ـ «لهذا السبب رجوتك يا سكارلت، فأنا لا أستطيع التكهن بما سيقع لي، أو بما سيقع لأي منا، ولكن عندما تأتي النهاية، سأكون بعيداً جداً عن هنا. حتى لو كنت حياً، سأكون بعيداً جداً بحيث لن أستطيع العناية بميلاني».

ـ «النـ.... النهاية؟».

ـ «نهاية الحرب... ونهاية العالم».

ـ «ولكن! أحقاً يا آشلي أنك لا تستطيع التصور بأن الشماليين سيغلبوننا؟ إذ طيلة هذا الأسبوع، وأنت تتحدث عن مدى قوة الجنرال لي».

ـ «طيلة هذا الأسبوع كنت أتفوّه بالأكاذيب، كما يفعل جميع الرجال عندما يكونون في إجازاتهم، لماذا ألجأ إلى تخويف ميلاني والعمة بيتي؟ أجل يا سكارلت، أعتقد أن الشماليين سيغلبوننا، ولقد كانت جيتسبرغ بداية النهاية. إن الناس الذين كانوا قد عادوا إلى بيوتهم لا يعرفون ذلك حتى الآن، إذ إنهم

لا يستطيعون تبيّن حقيقة أوضاعنا ، ولكن ـ يا سكارلت ، إن بعض رجالي عراة الأقدام الآن ، والثلج متراكم في فرجينيا ، وعندما أشاهد أقدامهم المتجلدة التعسة ، تلفها الخرق والجوارب العتيقة ، وأشاهد بقع الدم التي يخلفونها فوق الثلج ، وأعلم أني حصلت على زوج كامل من الجزم ـ أشعر ، أجل أشعر كأن من واجبي أن أقذف بجزمتي بعيداً ، وأسير عاري القدمين مثلهم» .

ـ «آه آشلي ، عدني أن لا تقذف بهما» .

ـ عندما أشاهد أموراً كهذه ، ثم أنظر إلى جنود الشمال . . . ـ عندئذ أرى نهاية كل شيء . . . إن الشماليين يا سكارلت ، يشترون الجنود من أوروبا بالألوف . وإن معظم الأسرى ، الذين أخذناهم مؤخراً ، لا يستطيعون مجرد التكلم بالإنكليزية . إنهم ألمان ، وبولنديون ، وإيرلنديون متوحشون . من الذين يتكلمون الغالية . أما نحن فعندما نخسر رجلاً لا يمكننا تعويضه ، وعندما تبلى أحذيتنا ، لا نجد بدلاً منها . لقد ضيقوا الخناق علينا ، يا سكارلت . وليس بوسعنا محاربة الدنيا جمعاء» .

ففكرت وقالت :

ـ «ليتحطم الحلف بأسره ويستحيل هباء منثوراً ، لتندثر الدنيا ، ولكن أنت ينبغي أن لا تموت ! لن أستطيع الحياة إن أنت غادرتها . . .» .

ـ «آمل أن لا ترددي الذي قلته يا سكارلت ، فأنا لا أريد إشاعة الخوف بين الناس . ويا عزيزتي ، لم أكن لأرهبك بالتصريح بهذه الأمور ، لو لم يكن من الضروري أن أوضح السبب الذي من أجله طلبت إليك الاعتناء بميلاني ، فهي سقيمة جداً وواهنة ، وأنت قوية جداً يا سكارلت . وسيكون مما يجلب لقلبي العزاء والطمأنينة معرفة أنكما تعيشان معاً ، إذا ما حل بي مكروه . ستعدينني ، أليس كذلك؟» .

ـ «أجل . . . نعم !» صاحت ، لأنها في تلك الدقيقة ، وقد رأت الموت بين عينيه ، كان يمكن أن تعد بأي شيء . . . «آشلي ! آشلي ! . . . ليس بوسعي أن أدعك ترحل بعيداً . . . أنا . . . حتماً ، لا أملك من الشجاعة ما أواجه به هذا المصير» .

ـ «ينبغي أن تكوني شجاعة» ، أجاب ، وقد تغيرت نبرات صوته بدهاء ، فأصبح صوته مجلجلاً عميقاً . . . وتتابعت كلماته سريعة ، كأن إلحاحاً داخلياً

يحثها على التوارد . . . «ينبغي أن تكوني شجاعة . . . وإلا فكيف يمكنني أنا مواجهة الأمر؟» .

مسحت عيناها وجهه بسرعة وسرور ، متسائلة إن كان يعني أن فراقها سيحطم قلبه ، تماماً كتحطيمه قلبها . . . وتجلى الوجه أمامها ، ممتقع اللون ، غائض الدم ، كحاله عندما نزل من وداع ميلاني . . . غير أنها لم تستطع استقراء عينيه أبداً ، وانحنى بقامته وأخذ وجهها بين يديه ، وقبلها قبلة خفيفة على جبينها . . .» .

ـ «سكارلت ! سكارلت ! أنت رائعة جداً وقوية وطيبة . . . جميلة جداً . . . ليس فقط وجهك العذب . . . يا عزيزتي ، بل كل شيء فيك جميل ، جسدك وعقلك وروحك» .

ـ «آه ، آشلي» همست سعيدة مبهورة ، بفعل كلماته ، وملامسته وجهها . ، . .» لا إنسان آخر سواك ـ» .

ـ «إني أرغب في التفكير بأن من المحتمل أن تكون معرفتي بك أفضل من معرفة معظم الناس ، وأني أستطيع رؤية الأشياء الجميلة الكامنة عميقاً في شخصك ، والتي لا يكترث لها الآخرون ، ويمرون بها مرآ سريعاً ، بحيث لا يلحظونها » .

وسكت عن الكلام ، وأهوت يداه عن وجهها ، ولكن عينيه استمرتا مسمرتين على عينيها ، وانتظرت هنيهة وهي محتبسة النفس ليتم حديثه ، ووقفت على رؤوس أصابعها ، مشرئبة العنق ، استعداداً لسماعه ينطق بالكلمتين السحريتين ، غير أن الكلمتين لم تخرجا . ويحثت في وجهه مهووسة ، وشفتاها تنتفضان ، إذ تبينت أنه ختم حديثه .

هذه الخيبة الثانية لآمالها ، كانت أكثر مما يستطيع قلب احتماله ، فصرخت «آه» في همس صبياني ، ثم تهالكت على المقعد ، والدموع تحرق عينيها . ثم سمعت صوتاً مشؤوماً في الممشى ، خارج النافذة ، صوتاً رسم أمام عقلها المضطرب ، بصورة أكثر إيلاماً من قبل ، دنو رحيل آشلي ، واغتمت نفسها . كان العم بطرس متسربلاً بعباءة سميكة فضفاضة وهو يخرج العربة لتحمل آشلي إلى المحطة . وبأدب جم قال آشلي : «وداعاً» ، متناولاً من على الطاولة القلنسوة اللباد الواسعة ، التي كانت سكارلت قد استحوذت عليها من ريت ،

ثم مشى في القاعة الأمامية المعتمة . وفيما كان يضع يده على مقبض الباب استدار ونظر إليها نظرة طويلة يائسة ، كأنه يريد أن يحمل معه كل تقاسيم وجهها وجسدها . ومن خلال غشاوة من الدموع المعمية ، لمحت سكارلت وجهه ، وأدركت ، والألم الخانق يحز في حلقها ، أنه راحل بعيداً . . . بعيداً عن عنايتها ، بعيداً عن الملجإ الأمين في هذا البيت . . . بعيداً عن حياتها . . . وربما إلى الأبد ، دون أن يكون قد نطق بالكلمتين اللتين تاقت كثيراً لسماعهما . . . كان الوقت يمضي سريعاً ، لقد فاتت الفرصة الآن . وركضت متعثرة عبر الردهة إلى القاعة ، وقبضت على أطراف زناره :

ـ «قبّلني» . . . همست «قبّلني قبلة الوداع» .

وامتدت ذراعاه حولها بلطف ، وأحنى رأسه فوق وجهها ، وما إن لامست شفتاه شفتيها ، حتى طوقت ذراعاها عنقه في قبضة رهيبة ، وللحظة خاطفة ، لا يمكن قياسها ، ضغط جسدها قريباً من جسده ، ثم أحست بتوتر فجائي لجميع عضلاته . وبسرعة ، أسقط القبعة إلى الأرض ، واستقام منتصباً ، مبعداً ذراعيها عن عنقه :

ـ «لا ! يا سكارلت ، لا !» قال بصوت خفيض ، ممسكاً ذراعيها المتشابكتين ، بقبضة مؤلمة .

ـ «أحبك» قالت غاصة بصوتها . . . «لقد أحببتك دائماً ولم أحب إنساناً غيرك أبداً . . . لقد تزوجت تشارلز ، فقط لـ . . . لأحاول إغاظتك . . . آه ، آشلي . . إني أحبك كثيراً . . . أريد أن أمشي كل خطوة من الطريق إلى فرجينيا ، فقط لأكون قريبة منك . . . وأريد أن أطبخ طعامك وألمع حذاءك ، وأسوس حصانك ـ آشلي ! قل إنك تحبني . . . سأعيش على هذه العبارة بقية عمري» .

وانحنى فجأة ، ليسترد قبعته ، ولم تنعم إلا بنظرة واحدة من وجهه . كان أيأس وجه يمكن أن تراه ، وجه تلاشى منه كل ترفع ، وعلى جبينه مسطور حبه لها ، والبهجة بحبها له ، ولكن ، ولكن كان يصارع المعنيين كليهما ، اليأس والعار . . .

ـ «وداعاً» قال بصوت أجش .

16

هطلت الأمطار بغزارة ، وعصفت الرياح بشدة في شهر كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير من عام ١٨٦٤ ، وبالإضافة إلى الهزيمتين في جيتسبرغ وفكسبرغ ، شل مركز الخط الجنوبي ، واستطاعت فرق الاتحاد ، بعد قتال ضار ، احتلال جميع تنيسي تقريباً ، ولكن ، حتى مع هذه الخسارة ، التي فاقت الخسائر الأخرى ، لم تنسحق روح الجنوب . صحيح أن التصميم الكئيب العنيد حل محل الآمال المشرقة البسامة ، بيد أن الناس ما زال بوسعهم رؤية وميض فضي وسط غيوم البؤس ، لسبب واحد ، هو أن جنود الشماليين ، كانوا قد ردوا على أعقابهم ، رداً عنيفاً ، في أيلول/ سبتمبر ، عندما حاولوا متابعة انتصاراتهم في تنيسي ، وذلك بالتوغل في جورجيا .

وهناك ، في أقصى زاوية شمالية غربية من الولاية ، في شيكاموجا ، حدث قتال شرس فوق أرض جورجيا لأول مرة منذ بداية الحرب . وكان الشماليون قد استولوا على شاتانوجا ، ثم زحفوا خلال الممرات الجبلية إلى جورجيا ، ولكنهم دحروا بخسائر فادحة .

ولعبت أتلانتا وسككها الحديد دوراً كبيراً في جعل معركة شيكاموجا نصراً باهراً للجنوب ، ففوق تلك الخطوط الممتدة من فرجينيا ، إلى أتلانتا ، ثم شمالاً إلى تنيسي ، اندفعت كتائب الجنرال لونغستريت إلى ساحة المعركة ، وعلى طول الطريق البالغة عدة مئات من الأميال ، أمنت الخطوط الحديدية ، بإزالة العوائق ، وعبّئت كل القاطرات والعربات الصالحة للاستعمال الموجودة في الجنوب الشرقي ، استعداداً للعمل .

وشاهد أهل أتلانتا ، عن كثب ، والقطار يخترق المدينة تلو القطار ، ساعة فساعة ، كيف كانت مقاعد المسافرين ، وعربات الشحن المغلقة ، وعربات الشحن المكشوفة ، مكتظة بالرجال الذين كانوا يصيحون حماسة ووطنية . جاؤوا دون طعام ودون نوم ، ودون خيول ودون عربات الإسعاف وقطارات المؤونة ، ودون أن يأخذوا قسطهم من الراحة ، ووثبوا من القطر إلى أتون المعركة ، وطردوا الشماليين من جورجيا ، وأرغموهم على التقهقر إلى تنيسي .

كانت تلك أعظم حوادث الحرب التي تنم عن مهارة، وازدهت أتلانتا بالكبرياء وبالرضى الذاتي، لأن خطوطها جعلت من النصر أمراً ممكناً.

لكن الجنوب كان بحاجة ماسة إلى أنباء شيكاموجا المفرحة ليقوي معنوياته، خلال فصل الشتاء، ولم يعد يوجد اليوم من ينكر أن الشماليين محاربون أكفاء، وأن لديهم أخيراً جنرالات مهرة. فالجنرال غرانت كان سفاحاً، لا يبالي بما يضحي به من الأرواح لنيل النصر، فالنصر هو مبتغاه فحسب، وشريدان كان الاسم الذي يجلب الرعب لقلوب الجنوبيين، ثم كان هناك رجل يدعى شرمان أخذ اسمه يردد أكثر فأكثر، وكان قد حلّق في سماء الشهرة إثر الحملات على تنيسي والغرب، وكان صيته كمحارب عنيد عديم الرحمة يذيع باطراد. وبالطبع لم يكن لأحدهم ليقارن بالجنرال لي، فالإيمان به وبالجيش كان لا يزال متيناً، والثقة بالنصر النهائي لم تتزعزع، غير أن الحرب طالت ونجم عنها عدد ضخم من القتلى، وعدد ضخم من الجرحى والمشوهين والمعوقين، وعدد ضخم من الأرامل، وعدد ضخم من الأيتام . . . وما زال يوجد أمام الناس نضال قاس طويل، ما يعني زيادة في عدد القتلى، والجرحى، والأرامل، والأيتام.

وبهدف أن تتفاقم الأمور سوءاً، بدأت تنتشر بين صفوف أهل المدينة ريبة غامضة في هؤلاء المتسنمين مراكز عالية في الدولة. وكان الكثير من الصحف صريحاً في نقد الرئيس ديفس ذاته، والأسلوب الذي يتابع به قضية الحرب. وشجر النزاع داخل مجلس وزراء الحلف، ونشأت خلافات بين الرئيس ديفس وجنرالاته. وتوالى هبوط العملة بسرعة، وغدا وجود الأحذية والملابس للجيش نادراً. أما الذخائر والعقاقير، فغدت أكثر ندرة. وأضحت الخطوط الحديدية بحاجة إلى عربات جديدة عوضاً عن القديمة، وقضبان جديدة عوضاً عن تلك التي دمرها الشماليون. واستصرخ جنرالات الميدان ذوي الأمر يطلبون فرقاً جديدة، ولكن عدد الفرق التي أمكن الحصول عليها كان في تدهور مستمر. وأسوأ من هذا كله أن بعض حكام الولايات، ومن بينهم براون حاكم جورجيا، كانوا يرفضون إرسال فرق الميليشيا التابعة لولاياتهم، وكذلك السلاح، إلى خارج حدودهم، ولذا كان يوجد الآلاف من الرجال ذوي

الأجسام القادرة على الحرب ضمن فرق الميليشيا ، ممن كان الجيش في حاجة ملحة إلى سواعدهم ، ولكن توسلات الحكومة في طلبهم كانت تذهب أدراج الرياح .

ومع سقوط العملة الجديد ، حلقت الأسعار ثانية . والحقيقة أن الشمال كان مطبقاً على الجنوب في حصار فعّال ، مع أن الكثيرين لم يدركوا ذلك ، فزوارق الشماليين الحربية أحكمت الطوق على الموانئ الخلفية ، ولم يعد بوسع الزوارق ، إلاّ عدد قليل جداً منها ، التسلل عبر هذا الحصار .

كانت معيشة الجنوب تعتمد أبداً على بيع القطن ، وشراء المواد التي لا ينتجها . ولكنه الآن ، لم يعد بمقدوره البيع أو الشراء ، فكان جيرالد أوهارا مثلاً ، يخزن نتاج القطن الذي جناه في السنوات الثلاث الأخيرة ، تحت الحظيرة ، قرب المحجلة في تارا ، هذا النتاج الذي يساوي في ليفربول مبلغ مائة وخمسين ألف دولار ، ولكن ، لقد تبخر الآن كل أمل في نقله إلى ليفربول . لقد انتقل جيرالد من رجل ثري إلى رجل يحار كيف يؤمن طعام عائلته وزنوجه خلال الشتاء .

وفي سائر مناطق الجنوب ، تردى معظم مزارعي القطن في الضائقة ذاتها ، فمع اشتداد قبضة الحصار ، لم يعد هناك طريق لإيصال محصول الجنوب ، الذي يدر الأموال الطائلة ، إلى أسواقه في إنكلترا ، ولم يعد هناك طريق لإدخال الضروريات ، التي كانت تشترى بأموال القطن في السنين المنصرمة . وهكذا غدا الجنوب الزراعي ، الخائض الحرب ضد الشمال الصناعي ، بحاجة إلى أشياء عديدة جداً ، أشياء لم يعن له شراؤها زمن السلم .

كان وضعاً معدآ للمضاربين والانتهازيين ، وضعاً لم يعوزه الرجال لاستغلاله . وفيما كان الغذاء والكساء يزدادان ندورة ، والأسعار ترتفع أكثر فأكثر ، كانت الصيحة العامة ضد المضاربين تشتد ارتفاعاً وتتأجج حقداً ، ففي هذه الأيام الأولى من عام ١٨٦٤ ، لم تبق جريدة مقروءة إلاّ وصدرت تحمل افتتاحيات جارحة ، تشهر بالمضاربين كبزاة وعلق مصاص للدماء ، وتحث الحكومة على إخضاعهم بيد من حديد . وبذلت الحكومة جهدها ، ولكن هذا الجهد لم يثمر شيئاً ، لأن الحكومة كانت تقلقها أمور كثيرة أخرى .

ولم يكن الشعور ضد أي إنسان أكثر نقمة مما هو ضد ريت بتلر . كان قد

باع زوارقه عندما بلغت مخاطر التهريب أوجها وتفرغ الآن علانية للمضاربة بالطعام، وجعلت القصص التي كانت ترد عنه إلى أتلانتا من ريتشموند وولمنفتون، أولئك الذين كانوا يرحبون به فيما مضى من الأيام، يتلوون ألماً من براثن العار.

وبالرغم من كل هذه المحن والشدائد، ارتفع عدد سكان أتلانتا البالغ عشرة آلاف نفس، إلى ضعفه خلال الحرب. وغدت أتلانتا الآن محور كل شيء، كان سكانها يعانون الأهوال من الحرمان والمرض والموت، بالقسوة ذاتها التي تعانيها مناطق الحلف الأخرى. بيد أن أتلانتا، المدينة، قد ربحت أكثر مما خسرت، نتيجة للحرب، فأتلانتا، قلب الحلف، ما زالت تخفق خفقاناً تاماً قوياً، وخطوطها الحديدية، التي هي بمثابة شرايينها، ما فتئت تنبض بجلبة الرجال والمؤن والذخيرة، وهي تتدفق دون انقطاع.

*

كان من الممكن، في أيام غير هذه الأيام، أن تشعر سكارلت بالمرارة وهي تتأمل أثوابها الرثة، وأحذيتها المرقعة، بينما هي الآن لا تأبه لذلك، لأن الشخص الوحيد الذي يهمها لم يكن موجوداً ليراها. لقد كانت سعيدة في هذين الشهرين، أسعد مما كانت منذ سنين. ألم تهنأ بانفتاح قلب آشلي عندما طوقت عنقه بذراعيها؟ ألم تر تلك النظرة اليائسة في وجهه، النظرة التي هي إقرار صريح، أصرح مما يمكن أن تفصح عنه كلمات، بأنه يحبها؟ إنها واثقة من ذلك الآن، وهذا الوثوق ممتع جداً لها بحيث تستطيع معه زيادة عطفها على ميلاني، إن بوسعها أن تأسف لميلاني الآن، تأسف بقليل من الازدراء لأنها عميّة القلب غبية.

ـ «عندما تنتهي الحرب!» هجست، «عندما تنتهي... عندئذ...» إنها أحياناً تهجس برعشة من الخوف خفيفة. «وماذا عندئذ؟ !» ولكنها تطرد الفكرة من عقلها. عندما تنتهي الحرب، سيستقر كل شيء، بطريقة ما. فإذا كان آشلي يحبها، فمن الجلي أنه لن يستطيع متابعة حياته مع ميلاني.

ولكن حينذاك لا يمكن التفكير بالطلاق، إذ إن إيلين وجيرالد، وهما الكاثوليكيان المخلصان، لن يأذنا لها بالزواج برجل مطلق، فهذا يعني التخلي عن الكنيسة.

وقلبت سكارلت المسألة على جميع وجوهها ، وقررت أنه إذا ما خيرت بين الكنيسة وآشلي ، فستختار آشلي . ولكنها تذكرت أن الأمر سيكون فضيحة شائنة ، فالناس المطلقون ليسوا منبوذين من الكنيسة وحسب ، بل من المجتمع أيضاً ، إذ لم يرحب المجتمع بمطلق يوماً . ومهما كان الأمر فستقدم حتى على تلك الخطوة ، في سبيل آشلي ، ستضحي بكل شيء من أجله . وعلى كل حال ، سينتهي كل شيء إلى ما يرام عندما تضع الحرب أوزارها . فإذا كان آشلي متيماً بها ، فسيدبر الأمر . ستجعله يدبر الأمر . وكل يوم يمر يترسخ اعتقادها بإخلاصه ، وتتوطد ثقتها بأنه سيرتّب الأمور بشكل مرضٍ ، وذلك عندما يندحر الشماليون نهائياً . طبعاً لقد قال إن الشماليين غلبوهم ، بيد أن سكارلت تعتقد أن ذلك مجرد سخف عارض ، إذ كان تعباً ومضطرباً عندما نطق بذلك . على أنها لا تكاد تحفل أربح الشماليون أم خسروا ، إن ما يهمها بالنسبة إلى الحرب هو أن تنقضي عاجلاً ، وبالنسبة إلى آشلي ، هو أن يعود إلى البيت .

فيما بعد ، أيام حجزت أمطار نيسان المثلوجة الناس ضمن بيوتهم ، وقعت الضربة القاضية ، وذلك عندما أخبرتها ميلاني ـ وعيناها تبرقان فرحاً ، ووجهها مطأطئ بالكبرياء المشوبة بالخجل ـ أنها سترزق طفلاً .

ـ «يقول الطبيب ميد إنه سيولد في أواخر آب/ أغسطس أو مطلع أيلول/ سبتمبر» قالت «لقد فكرت ـ غير أني لم أكن واثقة ، حتى هذا اليوم . أليس ذلك مدهشاً يا سكارلت؟ لقد حسدتك على ويد كثيراً ، ولقد تاقت نفسي إلى طفل توقاً عظيماً ، وتملكني الخوف من أنني قد لا أظفر بطفل أبداً في وقت أريد فيه «دزينة» يا حبيبتي» .

كانت سكارلت تسرح شعرها ، استعداداً للنوم ، عندما فجأتها ميلاني بالنبإ الخطير ، فتوقفت والمشط في الهواء .

ـ «يا لله» ، قالت ، وللوهلة الأولى لم تتحقق خطورة الأمر . ثم فجأة قفز إلى مخيلتها باب مخدع ميلاني المغلق ، وسرى في جسدها ألم حاد كطعن السكين ، ألم ضار كما لو أن آشلي كان زوجها ثم خانها . طفل . . . طفل آشلي ، آه ، كيف يمكن ذلك . . . في الوقت الذي يحبها هي لا ميلاني؟

ـ «أعرف أنك دهشت» ، تابعت ميلاني هذيانها محتبسة النفس : «أوليس

ذلك مدهشاً جداً؟ لا أدري كيف سأكتب لآشلي يا سكارلت . لا أظن أن الأمر يقلقه إن أخبرته . أو ـ أو ـ حسناً ، لن أقول له شيئاً ، وإنما فقط أدعه يلاحظ ذلك تدريجياً ، فأنت تعرفين ـ» .

ـ «يا لله» قالت سكارلت وهي تكاد تجهش بالبكاء ، والمشط يهوي من يدها .

ـ «حبيبتي . . . أنت تعلمين أن إنجاب مولود ليس أمراً سيئاً ، لقد قلت ذلك بنفسك ، وينبغي أن لا تجزعي من أجلي ، مع أنني أقدر لك مثل هذا الجزع . بالطبع ، قال الدكتور ميد إني ـ إني ـ »وتخضبت وجنتاها خجلاً . . . «ضيقة تماماً ، ولكن من المحتمل أن لا ينتج عن ذلك ضرر ما وـ سكارلت ، هل كتبت إلى شارلي وأبلغته يوم علمت بأنك حبلى بويد ، أو هل قامت أمك بذلك؟ أو ربما السيد أوهارا؟ آه يا عزيزتي ، لو أن لي أماً تقوم بالأمر عني ، فأنا لا أعرف تماماً كيف ـ» .

ـ «اصمتي !» قالت سكارلت بعنف ، «اصمتي !» .

ـ «عفواً يا سكارلت ، إني في منتهى الغباوة ، إني آسفة جداً . إن كل السعداء أنانيون ، على ما أظن . لقد غفلت عن أمر شارلي ، فقط في هذه اللحظة ـ» .

ـ «اسكتي !» قالت سكارلت ثانية ، جاهدة في أن تسيطر على تعابير وجهها ، وتهدئ من عواطفها . . . إذ لا ينبغي لميلاني أبداً أن تدرك أو ترتاب بحقيقة شعورها .

وتخضلت عينا ميلاني ، أشد الناس حساسية ، بالدموع ، لما اقترفته من قسوة بحق سكارلت . إذ قد تكون أعادت لسكارلت الذكريات المؤلمة عن ويد ، وهو الذي ولد بعد شهور من وفاة شارلي التعس؟ كيف وسعها أن تتصرف بهذا التسرع والطيش؟

ـ «دعيني أساعدك في خلع ثيابك يا أعز الناس إليّ» ، قالت بنفس طيبة ، «وأنا سأسرح لك شعرك» .

ـ «اتركيني وحدي» ، قالت ووجهها جامد كالحجر ، بينما هرعت ميلاني إلى خارج الغرفة وهي تجهش بالبكاء بفعل تأنيب الضمير ، مخلفة سكارلت يتأكلها التحرق .

وفكرت سكارلت أن ليس بمقدورها بعد اليوم العيش تحت سقف واحد مع المرأة التي تحمل طفل آشلي . وفكرت أن تعود إلى البيت ، إلى تارا ، إلى موطنها الأصلي ، فهي لا تدري كيف يمكنها ، بعد الآن ، رؤية ميلاني ثانية ، دون أن يُفضح سرها في وجهها .

واستيقظت في الصباح التالي يحدوها التصميم الأكيد على حزم حقيبتها فوراً ، بعيد الفطور . ولكن ، بينما كن جالسات للمائدة : سكارلت صامتة كئيبة بيتي مضطربة ، ميلاني بائسة ، وصلت برقية .

كانت لميلاني من موسى ، وصيف آشلي :

- «بحثت في كل مكان فلم أجده ، هل تجب عودتي إلى البيت؟» .

فلم يفهم أحد معناها ، ولكن عيون الثلاث تبادلت النظرات ، متسعة من الرعب ، ونسيت سكارلت كل فكرة عن الذهاب إلى البيت . ودون أن يفرغن من فطورهن ، ركبن إلى المدينة ليبرقن إلى كولونيل فرقة آشلي ، ولكن ما إن دخلن المكتب ، حتى وجدن برقية منه :

- «آسف أن أخبركم أن المايجور ويلكس مفقود منذ قيامه بحملة استكشافية ، منذ ثلاثة أيام . سنتابع إعلامكم» .

وعدن إلى البيت ، شاحبات اللون ، صفراوات ، والعمة بيتي تبكي في منديلها ، بينما جلست ميلاني معتدلة ، غائضة اللون ، وسكارلت منهارة ، فاقدة الوعي ، في زاوية العربة .

وما إن بلغن البيت ، حتى صعدت سكارلت الدرج مترنحة إلى مخدعها ، وتناولت كتاب الصلوات عن المنضدة ، وجثت على ركبتيها تحاول تلاوة الصلاة . ولكن الآيات لم تلبها ، وإنما ساورها خوف رهيب ، وتحققت من أن الله قد حول وجهه عنها جزاء إثمها ، لقد أحبت رجلاً متزوجاً ، وحاولت انتزاعه من زوجته ، ولقد عاقبها الله بقتله . ورغبت في الصلاة ، بيد أنها لم تستطع رفع وجهها إلى السماء ، ورغبت في البكاء ولكن الدموع لم تسعفها . لقد بدت دموعها وكأنها تفيض في صدرها ، دموع حارة تستعر في جوفها دون أن تطفر من عينيها .

وانفتح باب الغرفة ، ودخلت ميلاني ، وكان وجهها كقلب قُصّ من ورق أبيض موضوع إزاء شعر أسود ، كما كانت عيناها متسعتين كعيني طفل

مذعور ، تائه في الظلام .

ـ «سكارلت !» قالت مادة يديها ، «ينبغي أن تسامحيني لما بدر مني أمس ، لأنك كل ما أملكه الآن . آه سكارلت ! أنا أعلم أن حبيبي قد مات» .

ومهما كان الأمر ، فقد أضحت بين ذراعي سكارلت ، وثدياها الصغيران يخفقان بالنشيج ، وألفت الاثنتان نفسيهما مستلقيتين معاً على السرير ، متعانقتين برفق ، وسكارلت تنشج هي الأخرى ، تنشج ووجهها يضغط على وجه ميلاني ، ودموع إحداهما تبلل وجنتي الأخرى . إن من المؤلم جداً أن يبكي المرء ، ولكن ليس بالقدر الكبير ذاته من الألم المنبعث عن عدم قدرته على البكاء . . . آشلي ميت ـ ميت ، هجست ، ولقد قتلته لأني أحببته . وطفر الدمع مجدداً من عينيها ، وشددت ميلاني ، وقد استشعرت العزاء بدموعها ، قبضة ذراعيها حول عنق سكارلت .

ـ «على الأقل . . .» ، همست ، «على الأقل . . . رزقت بطفل منه» .

ـ «أما أنا» ، فكرت سكارلت ، وقد بلغت منها المصيبة أوجها ؛ بحيث لم تعد تلتفت لأمور صغيرة جداً كالحسد . . . «فلم أنل منه شيئاً ـ لم أنل شيئاً . . لا شيء إلا النظرة في وجهه ، وهو يحييني تحية الوداع» .

*

وردت التقارير الأولى تخبر : «مفقود ـ يعتقد أنه قُتل» وهذا النص نفسه ظهر على قائمة الإصابات . وأبرقت ميلاني إلى الكولونيل سلون ، عشر مرات ، وأخيراً وصلت رسالة منه تفيض بالعطف وتوضح أن آشلي خرج برفقة فصيل صغير في حملة استكشافية ، ولم يرجع منهم أحد ، وأن تقارير ذكرت عن وقوع مناوشات عبر خطوط الشماليين ، وأن موسى ، وقد أمضه الحزن ، خاطر بحياته للبحث عن جثة آشلي ، ولكنه لم يعثر على شيء . ولذلك أبرقت ميلاني التي تولاها الآن صمت غريب ، إلى موسى ، بالنقود والتعليمات القاضية بعودته إلى البيت .

وعندما صدرت قوائم الإصابات تحمل عبارة «مفقود ، يعتقد أنه أسر» أحيا الأمل والفرح أفراد البيت المحزون ، وغدا من العسير إمكان جر ميلاني بعيداً عن دائرة البرق ، وعكفت تنتظر كل قطار ، آملة الحصول على رسالة . وانتابها المرض ، وألمت بها أعراض الحمل بصورة متعددة منغصة ، ولكنها رفضت

إطاعة أوامر الطبيب ميد بالتزام سريرها ، فقد تملكتها طاقة محمومة لم تدعها تهدأ أو تستقر ، وفي الليل ، بعدما كانت سكارلت تأوي إلى سريرها ، بوقت طويل ، كان بوسعها سماع خطوات ميلاني تذرع الأرض في الغرفة الملاصقة .

وبعد ظهر أحد الأيام ، عادت إلى البيت من المدينة ، يقود عربتها العم بطرس المنذعر ، ويسندها ريت بتلر . كان قد أغمي عليها في مكتب البرق ، وصادف أن كان ريت ماراً ، فلاحظ الهرج ، وما كان منه إلا أن رافقها إلى البيت ، وحملها صاعداً السلم إلى غرفتها . وبينما كان أفراد البيت المضطربون يهرولون هنا وهناك ، لجلب قرميد حار وحرامات وويسكي ، سندها ريت بين وسائد سريرها ، ثم قال لها بصورة فجائية نابية :

ـ «يا سيدة ويلكس ، ستلدين طفلاً ، أليس كذلك؟» .

لو لم تكن ميلاني دائخة جداً ، عليلة جداً ، ومهمومة جداً ، لانهارت على إثر سؤاله ، فحتى مع صديقاتها النساء كان يربكها أي ذكر لحالة حملها ، بينما زياراتها لعيادة الطبيب ميد كانت بمثابة معاناة سكرات الموت ، وأما بالنسبة إلى رجل ، خصوصاً ريت بتلر ، فلم يكن ليخطر ببالها أن يسأل مثل هذا السؤال . ولكنها ، وهي الآن ممددة في السرير ، مستخذية ، لم يسعها ، إلا أن ترد بالإيجاب . وبعد أن أطرقت ، لم يبد الأمر لها مريعاً ، لأنها رأت فيه الكثير من اللطف والاهتمام

ـ «إذاً ، عليك أن تهتمي بنفسك أكثر . كل هذا التطواف والإنهاك لن يفيدك ، وقد يضرّ بالوليد . وإذا ما أذنت لي ، السيدة ويلكس ، ، فسأستعمل ما أملك من نفوذ في واشنطن لأعرف الحقيقة حول مصير السيد ويلكس ، فإذا كان سجيناً فسيكون اسمه على القوائم الاتحادية ، وإذا لم يكن سجيناً ـ فليس هناك ما هو أسوأ من عدم التحقق . ولكن ، لا بد من أن تعاهديني على أن تحرصي على نفسك وإلا ، يشهد الله ، لن أحرك ساكناً» ،

ـ «آه ، إنك لطيف جداً» صاحت ميلاني ، «كيف يسع الناس التخرص بتلك الأقاويل المرعبة عنك؟ !» وطفقت تبكي باستخذاء ، مرتاعة من اكتشافها وقاحة تصرفها ، ومن كونها تحدثت بموضوع حملها مع رجل .

وعندما دخلت سكارلت ، بعد أن نهبت السلم نهباً ، وفي يدها قطعة قرميد حارة ، ملفوفة بخرقة من الفانيلا ، وجدت ريت يربت أمام ميلاني .

أثبت بتلر أنه طيب ككلمته . لم يعرفن كيف ظفر بالجواب ، وخشين سؤاله ، إذ كن يدركن أن ذلك يتضمن اعترافاً منه بعلاقته الوثيقة جداً بالشماليين ، فلم يمض شهر حتى حظي بالنبإ ، النبإ الذي طفحهن بالسرور ، عندما سمعنه للمرة الأولى ، ولكن ما عتم بعد ذلك أن أحدث قلقاً نهاشاً في قلوبهن .

لم يكن آشلي ميتاً ، لقد جرح ثم اقتيد أسيراً ، وأظهرت السجلات أنه موجود الآن في جزيرة «رك» التي هي معسكر للأسرى في مقاطعة إلينويز . وبادئ الأمر ، فيما هن ثملات بنشوة الفرح ، لم يسعهن التفكير بشيء ، إلاّ بأنه حي ، ولكن ، ما إن بدأت السكرة تزاولهن ، حتى تطلعن إلى بعضهن قائلات : «جزيرة رك !» وفي اللهجة ذاتها هجسن : «في الجحيم» لأنه كما كان اسم أندرسونفيل تتقزز منه الأبدان في الشمال ، كذلك كان اسم جزيرة رك يثير الرعب في قلب أي جنوبي له أقرباء معتقلون هناك .

وعندما رفض لنكولن تبادل الأسرى ، معتقداً أن ذلك سيعجل نهاية الحرب ، لأنه سيزيد أعباء الحلف من جراء إطعام وحراسة أسرى الاتحاد ، غصت أندرسونفيل ، في جورجيا ، بآلاف المعاطف الزرقاء . وكان الحلفيون على تغذية رديئة ، ولا يملكون في الواقع العقاقير أو الضمادات لجرحاهم ، وهذا القليل القليل أشركوا فيه أسراهم . أطعموهم مما يأكل الجنود في الميدان : لحم الخنزير المدهن ، والحمص الجاف ، وبفضل هذه الجراية ، راح الأسرى الشماليون يتساقطون كالذباب . وقد بلغ موتاهم أحياناً مائة أسير في اليوم ، الأمر الذي أجج حقد الشمال ، فعمد إلى تدابير أشد ضراوة بحق أسرى الحلف . ولم يكن الوضع في أي مكان أسوأ منه في جزيرة رك ، حيث كان الطعام شحيحاً ، وحيث كان يعطى حرام واحد لثلاثة رجال ، أضف إلى ذلك أن غزوات الجدري وداء الرئة والتيفوئيد جعلت المكان جديراً باسم «مستشفى الأمراض الوبائية» ، إذ كان ثلاثة أرباع الذين يرسلون إليه لا يخرجون منه أحياء .

وآشلي كان في هذا المكان المرعب ! آشلي كان حيّاً ، ولكنه جريح ، وفي جزيرة رك ، ولا بد أن الثلج كان كثيفاً في إلينويز عندما اقتيد هنالك . هل قضى بتأثير جراحه منذ عرف ريت بالنبإ؟ هل وقع ضحية الجدري؟ هل أصيب

بداء الرئة ، وما يلازمه من هذيان ، دون أن يكون هنالك حرام يغطي به جسده؟

ـ «آه ، يا كابتن بتلر ! ألا توجد وسيلة ما ـ ألا تستطيع استعمال نفوذك فتبادله بأسير شمالي؟» صاحت ميلاني .

ـ «السيد لنكولن ، الرجل العادل ، الذي ذرف الدموع الغزيرة على أولاد السيدة بكسبي الخمسة لا يملك قطرة من دمع ليسفحها على ألوف الشماليين الذين يموتون في أندرسونفيل» ، قال ريت لاوياً شفتيه «ولا يضيره لو فنوا جميعهم ، فقد أصدر أمره بأن لا تبادل أسرى . وأنا ـ وأنا لم أخبرك قبلاً يا سيدة ويلكس ، بأن فرصة سنحت لزوجك بالخروج من الأسر ، فأبى» .

ـ «ها ، لا!» صاحت ميلاني بارتياب .

ـ «بلى ، حقاً ، فالشماليون يجندون رجالاً لحراسة الحدود في وجه الهنود ، يجندونهم من بين أسرى الحلف ، وأي سجين يقسم يمين الولاء ويتطوع لقتال الهنود مدة سنتين يطلق سراحه ويرسل إلى الغرب . بيد أن السيد ويلكس رفض ذلك» .

ـ «آه ـ كيف استطاع الرفض؟» صاحت سكارلت «لماذا لم يقسم اليمين ثم يفر ويأتي إلى البيت حالما يخرج من السجن» . فاستدارت ميلاني نحوها محتدة :

ـ «كيف يسعك مجرد الاقتراح بأن يرتكب مثل هذا العار؟ يخون حلفه بأخذ ذلك العهد ، ثم يخون عهده للشماليين ! إني أفضل أن أعلم أنه قضى في جزيرة رك على أن أسمع أنه أخذ على نفسه ذلك العهد . سأكون فخورة به إذا ما توفي في السجن ، بينما لن أتطلع في وجهه أبداً إذا هو أقدم على ذلك . . . أبداً . طبعاً لقد رفض ذلك» .

وعندما شيعت سكارلت ريت إلى الباب سألته وهي ساخطة :

ـ «لو كان الأمر معك ، أما كنت تتطوع مع الشماليين لتجنيب نفسك الهلاك في جزيرة رك ، ثم تفر؟» .

ـ «طبعاً» قال ريت ، وقد بدت أسنانه تحت شاربيه .

ـ «إذاً ، لماذا لم يفعل آشلي ذلك؟» .

ـ «لأنه رجل نبيل» .

*

القسم الثالث

17

كان شهر أيار/ مايو سنة ١٨٦٤ شهراً حاراً جافاً، أذوى الأزهار في أكمامها. أقبل وجنود الشمال يطأون، بقيادة الجنرال شيرمان، أرض جورجيا ثانية، شمالي دالتون، وعلى مسافة مائة ميل إلى الشمال الغربي من أتلانتا. وسرت الشائعات بأن قتالاً ضارياً سينشب هنالك قرب الحدود بين جورجيا وتنسي، إذ كان الشماليون يحشدون جنودهم تأهباً لهجوم على الخط الحديدي «الغربي والأطلنطي»، وهو الخط الذي يصل أتلانتا بتنسي والغرب، والذي اندفعت فوقه الفرق الجنوبية، في الخريف الماضي، لتحقق ظفرها في شيكاموجا.

غير أن معظم أهل أتلانتا لم يضطربوا من جراء القتال قرب دالتون، فالبقعة التي يتمركز فيها جنود الشماليين لا تبعد إلاّ أميالاً قليلة إلى الجنوب الشرقي من ميدان معركة شيكاموجا. لقد طردوا مرة عندما حاولوا التسرب من طريق الممرات الجبلية وسيطردون مرة ثانية.

وأدرك أهل أتلانتا ـ وأهل جورجيا قاطبة ـ أن ولايتهم في غاية الأهمية بالنسبة إلى الحلف، بحيث لن يدع الجنرال جو جونستن جنود الشماليين يبقون داخل حدودها مدة طويلة، لن يدع جو الكبير ولا جيشه شمالياً، واحداً ينفذ جنوبي دالتون، لأن أموراً كثيرة جداً كانت تعتمد على بقاء الحالة هادئة مطمئنة في جورجيا. فهذه الولاية التي سلمت من الدمار، حتى الآن، كانت مستودعاً ضخماً للحبوب، ومركزاً صناعياً، ومخزناً للحلف. ففيها كان يصنع قسم كبير من ذخيرة الجيش وأسلحته، وكذلك معظم البضائع القطنية والصوفية. وبين أتلانتا ودالتون تقع مدينة روما بمصنعها للمدافع، وبصناعاتها الأخرى، ثم إيتواه وألاتونا بأضخم المصنوعات الحديدية، جنوبي ريتشموند، وأخيراً أتلانتا التي لا تمتاز بمصانع المسدسات والسروج والخيام والذخائر فحسب، بل أيضاً بأكبر مصانع للقاطرات والعربات الحديدية في الجنوب، وبورشات سكك الحديد الرئيسية، وبالمستشفيات العديدة، وفيها كذلك تقع

نقطة التقاء الخطوط الحديدية الأربعة التي تتوقف عليها حياة الحلف .

على هذا الأساس لم يضطرب أحد بصورة خاصة ، فقد كانت دالتون بعيدة بعداً شاسعاً إلى الشمال ، قرب حدود تنسي ، كما كانت الحرب مشتعلة الأوار في تنسي لمدة ثلاث سنين بحيث ألف الناس اعتبار تلك الولاية ميداناً للحرب بعيداً عنهم بعد فرجينيا أو نهر الميسيسبي تقريباً . هذا فضلاً عن أن جو الكبير ورجاله مرابطون بين جنود الشماليين وأتلانتا ، ويعلم الجميع أنه بعد وفاة ستونوول جاكسون لم يبق هناك جنرال أعظم من جوستن (جو) باستثناء الجنرال لي نفسه .

وقد أوجز الدكتور ميد وجهة نظر الأهلين في هذا الأمر ، عندما قال في إحدى أمسيات أيار الدافئة ، في شرفة بيت العمة بيتي ، إن أتلانتا لا تجد ما تخشاه لأن الجنرال جونستن يرابط في الجبال كمتراس حديدي . واستقبل سامعوه هذه العبارة بأحاسيس متفاوتة ، لأن جميع الجالسين هناك ، الذين كانوا يتمايلون بهدوء وهم يتأملون يراعات الفصل الأولى تتحرك في ثنايا الغسق بشكل ساحر ، كانت تشغل عقولهم قضايا خطيرة ، وأملت السيدة ميد ويدها على ذراع ابنها فيل ، أن يكون الطبيب مصيباً ، إذ كانت تعرف أن فيل لا بد أن ينخرط في الحرب إذا ما أضحت على الأبواب ، فلقد كان في السادسة عشرة من عمره الآن ، كما كان عضواً في الحرس الوطني .

وأما فاني ألسنغ ، التي شحب لونها وغارت عيناها منذ وقعة جيتسبرغ ، فكانت تحاول إبعاد تفكيرها عن الصورة الممضة التي حفرت أخدوداً ، في عقلها المعنى خلال بضعة الشهور المنصرمة ـ إذ توفي اللفتنانت ، دلاس ماك لور في عربة ثور رجراجة تحت المطر ، في أثناء التراجع الطويل المرعب إلى ماريلند .

وكان الألم قد عاود ذراع الكابتن كيري أشبورن العطيل ، كما كان ، بالإضافة إلى ذلك ، متكدراً لأن مغازلته لسكارلت كانت قد انقطعت ، ورغم أن هذا الانقطاع بدأ منذ ورود نبأ اعتقال آشلي ، فإنه لم يخطر بباله الربط بين الحادثين . كانت ميلاني وسكارلت كلتاهما تفكران بآشلي ، شأنهما دائماً ، عندما لا تصرفهما عن ذلك مهمات مستعجلة أو ضرورة متابعة حديث . وكانت سكارلت تفكر بمرارة وأسف بأنه لا بد أن يكون ميتاً ، وإلاّ لسمعن عنه

شيئاً . أما ميلاني فكانت تحدث نفسها ، وهي تطرد هواجس الخوف مرة بعد مرة : «لا يمكن أن يكون ميتاً ، وإلاّ لعرفت بالأمر ، ولأحسست بأنه قضى» .

وأما ريت بتلر فكان يسترخي في الظلال ، وساقاه الطويلتان ، بجزمتيهما البديعتين ، متشابكتان ، ووجهه الأسمر صفحة خالية لا تقرأ ، وعلى ذراعيه يغفو ويد رضي البال . وكانت سكارلت تسمح لويد دائماً أن لا ينام مبكراً عند زيارة ريت ، لأن هذا الطفل الحيي كان مولعاً بذلك الغريب ، كما كان ريت بدوره ، وبشكل مستغرب ، مولعاً بويد . بيد أن سكارلت كان يزعجها وجود ويد بصفة عامة ، ولكنه كان يسلك دائماً سلوكاً حسناً بين يدي ريت . وأما العمة بيتي ، فكانت تحاول جاهدة منع نفسها التجشؤ ، لأن الديك الذي تناولوه على العشاء كان طائراً مسناً قاسي اللحم .

ففي صباح ذلك اليوم ، توصلت العمة بيتي إلى القرار المؤلم القاضي بأن من الأفضل لها ذبح الديك ، قبل أن تنفق روحه من جراء طعنه في السن ، وحزنه على زوجته التي التهمت منذ زمن طويل ، فقد مضى عليه أيام وهو يتسكع مترنحاً في قن الدجاج الفارغ ، كئيباً مستخذياً ، بحيث لا يقوى على الصياح . وبعد أن لوى العمّ بطرس رقبته ، وخز العمة بيتي ضميرها حين فكرت بأن التلذذ بأكله سيكون مقصوراً عليها وعلى عائلتها ، في الوقت الذي لم يذق فيه عدد كبير جداً من أصدقائها طعم الدجاج منذ أسابيع . ولذا اقترحت دعوة جماعة على العشاء . وكانت ميلاني ، التي هي الآن في شهرها الخامس ، قد انزوت عن المجتمعات ، وامتنعت عن استقبال الضيوف منذ أسابيع ، ولذلك هالتها الفكرة ، ولكن العمة بيتي أصرت للمرة الأولى ، على رأيها ، إذ رأت أن من الأنانية أن تنعم بالديك دون أصدقائها ، وأن ميلاني إذا ما رفعت طوق فستانها الأعلى قليلاً ، فلن يلحظ أحد أنها حبلى ، ولا سيما أنها مستوية تماماً عند الصدر .

- «ها ، ولكن يا عمتي ، أنا لا أريد مقابلة الناس في الوقت الذي آشلي» .

- «ليس الأمر كما لو أن آشلي قد . . . قد قضى» قالت العمة بيتي ، وصوتها يرتعد ، إذ كانت تؤمن في قرارة نفسها أن آشلي لفظ أنفاسه الأخيرة . «إنه حي تماماً مثلك ، وسينعش روحك وجود الأصدقاء ، وسوف أدعو فاني ألسنغ أيضاً ، فقد التمست مني السيدة ألسنغ أن أقوم بعمل ما لرفع معنويات

ابنتها ، وحثها على الظهور أمام الناس» .

- «ولكن يا عمتي ، من الظلم إرغامها على ذلك ، في الوقت الذي لم يمض على وفاة دلاس» .

- «والآن يا ميلي ، سأصرخ بغضب إذا ناقشتني . أظن أني عمتك وأني أعرف مواضع الأمور ، وأريد إقامة مأدبة» .

وهكذا أقامت العمة بيتي مأدبتها ، وفي الدقيقة الأخيرة ، جاء البيت ضيف لم تكن تتوقعه ، أو ترغب في حضوره ، فبينما كانت رائحة الديك المحمر تملأ البيت ، قرع الباب ريت بتلر ، عائداً من إحدى سفراته الغامضة ، وتحت إبطه علبة كبيرة من السكاكر ملفوفة بورق مزخرف ، وملء فيه تحيات لها ذات حدين . وعلى ذلك لم يكن بوسعها إلاّ دعوته للبقاء ، مع أنها تعرف كيف ينظر إليه الطبيب ميد والسيدة قرينته ، وأي شعور عدائي تكنه فاني للذين لا يرتدون البزة العسكرية . ولم يكن آل ميد وآل ألسنغ ليتحدثوا إليه في الطريق العام ، ولكن في منزل صديقة لهم كان عليهم طبعاً أن يتصرفوا بأدب نحوه . وعلاوة على ذلك فإنه أضحى اليوم أقوى مركزاً من أي وقت مضى تحت حماية ميلاني ، السريعة التأثر . فبعد أن توسط للحصول على أنباء زوجها ، أعلنت أمام الملإ أن بيتها مفتوح له طالما هو حي يرزق ، دون أي اعتبار لما يقوله الناس عنه . على أن مخاوف العمة بيتي سكنت عندما رأت ريت يتصرف بأحسن ما عنده من أخلاق . ولقد كرس نفسه لرعاية فاني رعاية حدب وعطف ، ما جعلها تبش في وجهه . وهكذا تمت الوليمة بنجاح .

كانت وليمة فاخرة تليق بأمراء ، فقد جلب كيري أشبورن قليلاً من الشاي ، كان قد وجده في كيس تبغ لأسير شمالي وهو في طريقه إلى أندرسونفيل ، فحظي كل من المدعوين بفنجان شاي مطعم بقليل من التبغ . وكذلك خُص كل منهم بمقدار لقمة من الطائر المسن القاسي اللحم ، ومقدار مناسب من الفطائر المصنوعة من دقيق القمح ، والمنكهة بالبصل ، وصحن من الحمص ، وكمية من الأرز والمرق ، الذي كان عنصر الماء غالباً فيه نظراً لعدم وجود دقيق يكثفه . وكحلوى بعد الطعام قدمت فطائر من البطاطا الحلوة ، تلتها سكاكر ريت . وعندما قدم ريت سجائر هافانية حقيقية للسادة ، كي يضيف إلى متعتهم بكؤوس خمر العليق ، وافق الجميع على أن المأدبة مأدبة فاخرة .

وعندما قام الرجال ليجلسوا مع السيدات في الشرفة الأمامية ، اتجه الحديث إلى الحرب ، وكان الحديث يتجه دائماً نحو موضوع الحرب في هذه الأيام ، فكل الأحاديث ، مهما اختلفت موضوعاتها ، كانت تعود إليها أو تصدر عنها ـ مغمة بعض الأحيان ، مفرحة في الغالب ـ إلا أنها دائماً تتضمن الحديث عن الحرب ، خوارق الحرب ، أعراس الحرب ، الوفيات في المستشفيات والجبهات ، الوقائع في المعسكرات والمعارك وخلال الزحف ، أخبار البطولة والجبن ، روح المرح والحزن ، واليأس والأمل ، الأمل الذي كان دائماً رائد القوم ، الأمل الوطيد الذي لم يتزعزع رغم هزائم الصيف الماضي .

وعندما أعلن الكابتن أشبورن أنه التمس أن ينتقل من أتلانتا إلى الجيش في دالتون ، وأنه أجيب إلى التماسه ، رمقت السيدات ذراعه المتيبسة بحنو زائد ، وحقن كبريائهن بقولهن ، إنه لا يستطيع الذهاب ، فمن سيلاطفهن بعده؟

وبدا الارتباك والسرور على كيري الفتي إثر سماعه عبارات كهذه من زوجات متزنات ، كالسيدة ميد وميلاني والعمة بيتي وفاني . وعلل نفسه بالأمل في أن تكون سكارلت تعني ما قالته .

ـ «على كل حال ، سيعود عاجلاً» قال الطبيب ، واضعاً يده فوق كتف كيري «فلن يتطلب الأمر أكثر من مناوشة قصيرة ليتداعى الشماليون ، متقهقرين إلى تنسي ، وعندما يبلغونها سيكرمهم الجنرال فورست . وليس من داع لفزعكن بسبب قرب الشماليين أيتها السيدات ، لأن الجنرال جونستن وجنوده يرابطون هنالك في الجبال ، كمتراس حديدي ، أجل متراس حديدي» ، وكرر جملته الأخيرة ليبهر عباراته ثم أردف . «لن يمر شيرمان ، لن يزحزح جو الكبير أبداً» .

فابتسمت السيدات مغتبطات ، لأن أقل تصريح من الطبيب كان يؤخذ كحقيقة مقررة . هذا فضلاً عن أن الرجال يفهمون هذه الأمور أفضل بكثير من النساء ، فإذا قال إن الجنرال جونستن كان متراساً حديدياً ، فلا بد أن يكون الواقع كذلك . ولم يتكلم أحد سوى ريت الذي كان قد أخلد إلى الصمت منذ العشاء وجلس في ظلال العتمة الخفيفة يصغي لحديث الحرب بشفتين متدليتين إلى أسفل ، وهو يسند الطفل النائم إلى كتفه : «أظن أن الشائعات ذكرت أن شيرمان يقود أكثر من مائة ألف رجل ، بعد أن وصلته النجدات؟» .

فأجابه الطبيب باقتضاب ، وكان يعاني انفعالاً نفسياً منذ دخل البيت ، ورأى أن أحد المدعوين إلى العشاء هو هذا الرجل الذي يمقته من كل قلبه ، ولم يمنعه من إظهار شعوره نحوه بصورة أوضح إلا احترامه للسيدة بيتي بات ، ووجوده ضيفاً تحت سقف منزلها .

ـ «نعم يا سيدي؟» أجاب الطبيب ، وفي جوابه مسحة من تأنيب .

ـ «أظن أن الكابتن أشبورن قال ، منذ هنيهة فقط ، إن الجنرال جونستن يقود حوالى أربعين ألفاً فقط ، حاسباً من ضمنهم الفارين الذين شجعوا على العودة إلى ألويتهم ، بتأثير النصر الأخير» .

ـ «سيدي» ، قالت السيدة ميد ساخطة ، «لا يوجد فارون في جيش الحلف» .

ـ «أرجو عفوك» قال ريت بتواضع ساخر ، «قصدت أولئك الألوف الذين هم في إجازاتهم ، والذين نسوا العودة إلى فصائلهم ، وأولئك الذين التأمت جراحهم منذ ستة أشهر ، ولكنهم ظلوا في بيوتهم يقومون بأعمالهم المعتادة ، أو يكدحون بحراثة الربيع» .

وبرقت عيناه ، بينما عضت السيدة ميد شفتها مغتاظة ، وتمنت سكارلت أن لو تقهقه فرحاً لاندحارها ، إذ إن ريت انتصر عليها بجدارة ، فقد كان يوجد حقاً مئات من الرجال متوارين في الأهوار والجبال ، يتحدون رئيس الحرس أن يعيدهم إلى الجيش . إنهم من أولئك الرجال الذين صرحوا بأنها «حرب ينال جناها الغني ويصطلي بنيرانها الفقير» وقد تجرعوا كأسهم المترعة منها . بيد أن ممن يفوق هؤلاء عدداً بدرجة كبيرة ، أولئك الرجال الذين رغم ظهور أسمائهم على قوائم الفارين ، لم يكن في نيتهم التهرب الدائم . لقد كانوا من أولئك الذين انتظروا إجازاتهم عبثاً خلال ثلاث سنين ، وفيما هم ينتظرون ، تلقوا رسائل مكدرة من عوائلهم تقول : «نحن جائعون ، لن ننعم بمحاصيل هذه السنة ، فليس هنالك أحد يفلح الأرض . إننا جائعون» ، وأخرى تقول : «إن فرقة التموين قد جردتنا من الخنانيص ولم نستلم نقوداً منكم منذ شهور ، إننا نعيش على الحمص الجاف» .

وراح التضرّع المثير يتعالى : «نحن جائعون ، زوجتك ، أطفالك ووالداك . متى ستنتهي الحرب؟ متى ستعود إلى البيت؟ إننا جائعون ، جائعون حقاً» .

لذلك ، عندما رفض منح الإجازات من الجيش ، الذي كان يتضاءل عدده باطراد ، عاد هؤلاء الجنود إلى بيوتهم دون إجازات ، عادوا ليحرثوا أراضيهم ويزرعوا حبوبهم ويرمموا بيوتهم ، ويقيموا أسيجتهم . وعندما كان ضباط الفصائل ، العارفون ببواطن الأمور ، يدركون قرب نشوب قتال ضار ، كانوا يكتبون لهؤلاء الرجال يدعونهم للعودة والالتحاق بفصائلهم على أن لا يسألوا أيما سؤال يتعلق بتغيبهم . وكان الرجال في العادة يلبون دعوة ضباطهم عندما يرون أن شبح الجوع قد ابتعد عن ذويهم لعدة شهور أخرى . ولم يكن ينظر إلى «إجازات الفلاحة» هذه ، بالمنظار ذاته الذي يحاسب على ضوئه الفارون من وجه العدو ، إلا أنها كانت تضعف الجيش في كل حال .

أسرع الدكتور ميد ، وقطع فترة الصمت المقلقة بصوته الهادئ :

ـ «كابتن بتلر ، إن الفرق العددي بين جنودنا وجنود الشماليين لم يؤثر في يوم ما ، فحلفي واحد يوازي اثني عشر شمالياً» .

وأطرقت النساء موافقات ، إذ إن كل فرد كان يعلم ذلك .

ـ «كان ذلك حقيقة في بدء الحرب» ، قال ريت ، «وربما لم يزل حقيقة ، شريطة أن يكون بحوزة الجندي الحليف رصاص لبندقيته ، وحذاء لقدميه ، وطعام لمعدته . أليس كذلك يا كابتن أشبورن؟» .

كان صوته لا يزال ناعماً مفعماً بتواضع خادع . وبدا الاستياء على وجه كيري أشبورن ، إذ كان من الجلي أيضاً أنه يمقت ريت بقوة ، وكان يرغب ، عن طيبة خاطر ، دعم موقف الطبيب ، ولكنه لم يستطع الكذب ، فالسبب الذي من أجله التمس النقل إلى الجبهة ، رغم ذراعه المشلولة ، كان تحققه من خطورة الوضع ، الأمر الذي لم يتحققه الأهلون بعد . وكان هناك رجال آخرون ، يتوكأون على عكاكيز خشبية وبعين واحدة ، وأصابع مبتورة ، وذراع واحدة ، ينتقلون دون ضجيج من فرقة التموين وخدمة المستشفى ومصلحة البريد والسكك الحديد ، ينتقلون ثانية إلى وحداتهم القتالية الأولى ، إذ كانوا يدركون أن جو الكبير كان بحاجة إلى كل رجل .

ولم يتكلم كيري ، وثارت ثائرة الطبيب ميد مرعداً :

ـ «لقد حارب رجالنا دون أحذية من قبل ، ودون طعام ، وانتصروا ، وسوف يحاربون ثانية وينتصرون . قلت لك إن الجنرال جونستن لا يمكن أن يزعزع .

لقد كانت قلاع الجبال دائماً الملجأ الأمين ، والحصن المنيع ، للشعوب المغزوة ، المدافعة عن كيانها منذ القدم . فكر في ـ فكر في ترموبلي !» .

وأعملت سكارلت فكرها بنشاط ، ولكن ترموبلي لم تعن شيئاً لها .

ـ «لقد فنوا عن آخرهم في ترموبلي ، أليس كذلك يا دكتور؟» قال ريت وشفتاه تختلجان بضحكة مكتومة .

ـ «هل أنت تسخر مني أيها الشاب؟» .

ـ «دكتور ! أرجوك ! لقد أسأت فهمي ، إني أسأل للاستيضاح فقط ، فذاكرتي ضعيفة فيما يتعلق بالتاريخ القديم» .

ـ «إذا ما احتاج الأمر فسيموت جنودنا حتى الرجل الأخير ، قبل أن يدعوا الشماليين يتوغلون في جورجيا» ، قال الدكتور محتداً ، «غير أن ذلك لن يقع . سيطردونهم خارج جورجيا بعد مناوشة واحدة» .

نهضت العمة بيتي بات بسرعة ، طالبة من سكارلت تكريم الضيوف بعزف مقطوعة مختارة على البيانو ، ترافقها أغنية . لقد أدركت أن الحديث يتجه سريعاً نحو زويعة عاصفة عاتية ، وهي التي كانت واثقة من حدوث المتاعب إذا ما دعت ريت للعشاء ، فالمتاعب دائماً تلازم وجوده ، أما كيف يخلقها ، فلم تكن تعلم ذلك بالضبط . يالله ، ماذا تجد سكارلت في هذا الرجل؟ وكيف يسع ميلاني العزيزة الدفاع عنه؟

وبينما دخلت سكارلت الردهة ، ملبية الطلب ، خيم السكون على الشرفة ، سكون ينبض بالامتعاض من ريت . كيف يمكن لإنسان أن لا يؤمن قلباً وروحاً بأن الجنرال جونستون ورجاله لا يقهرون؟ فالإيمان بذلك كان واجباً مقدساً . أما أولئك الذين بلغت خيانتهم حداً انتفى معه الإيمان ، فينبغي على الأقل أن يتذرعوا بالوقار ، ويخلدوا إلى الصمت .

وضربت سكارلت على الأصابع ، وانساب صوتها نحوهم عبر الردهة . عذباً ، حزيناً . . . في كلمات أغنية شائعة محببة :

«في ردهة ذات جدران بيضاء
حيث يضطجع الموتى والمحتضرون
وجرحى الحراب والقنابل والبندق
ولد يوماً حبيب إنسان .

حبيب إنسان! في شرخ الشباب، وذروة الشجاعة!
ما زال يزهو في وجهه العذاب الشاحب
الذي سيوارى سريعاً تراب القبر
الضوء المشع لنضرة صباه»

وما إن أتت نغمة سكارلت الموجعة على «وخصلات شعره الذهبية، باهتة رطبة» حتى قامت فاني بنصف انتصابة، وقالت في صوت خافق مخنوق:

ـ «أنشدينا أغنية أخرى».

وفجأة توقف العزف، عندما بهتت سكارلت بفعل المفاجأة والحيرة، ثم أسرعت متلعثمة في مطلع: «المعطف الرمادي» ووقفت فجأة عندما تذكرت أن تلك القطعة تخلع القلب أيضاً. وثانية توقف العزف، لأن الضياع اكتنفها تماماً. فكل الأغاني تمت إلى الموت والفراق والعذاب.

ونهض ريت بخفة، ناقلاً ويد إلى حضن فاني، وسار نحو الردهة:

«اعزفي يا موطني القديم في كنتكي»، اقترح بلطف.

فشرعت سكارلت شاكرة، ورافق صوتها صوت ريت الخفيض الممتاز. وعندما انتقلا إلى المقطع الثاني، تنفس الذين في الشرفة الصعداء، مع أن الله يعلم أنها لم تكن أغنية مفرحة:

«أيام قليلة فقط، تحمل فيها العبء المرهق!
ومع ذلك فلن يخف عبؤك أبداً!
أيام قليلة فقط... حتى نسقط في الطريق!
وعندئذ أقول مودعاً: عم مساء يا موطني القديم في كنتكي!».

*

صدق حدس الطبيب ميد ـ حتى المدى الذي ذهب إليه، فقد صمد جونستون كمتراس حديدي في الجبال المشرفة على دالتون، على بعد مائة ميل. صمد بمنتهى الثبات، وقاتل قتالاً مريراً ضد شيرمان الذي كان يهدف إلى عبور الوادي نحو أتلانتا، بحيث أرغم الشماليون أخيراً على التراجع والتشاور فيما بينهم. ولـمّا أدركوا أنهم يستطيعون اختراق الصفوف الرمادية بهجوم مباشر، زحفوا تحت جنح الليل، خلال الممرات الجبلية، في خط نصف دائري، آملين الانقضاض على مؤخرة جونستون وقطع سكة الحديد

خلفه ، عند رساكا ، التي تبعد خمسة عشر ميلاً جنوبي دالتون .

وما إن أحدق الخطر بتلك السكة الحديد القيمة حتى أخلى الحلفيون خنادقهم التي استماتوا في الدفاع عنها ، واندفعوا على ضوء النجوم في مسيرة قسرية إلى رساكا ، فوق الطريق الرأسية القصيرة . وعندما انقضت عليهم جموع الشماليين من بين التلال ، كانوا بانتظارهم ، مخندقين خلف متاريسهم ، مدفعيتهم مثبتة ، وحرابهم متوهجة ، تماماً كما كانوا في دالتون .

وعندما حمل الجرحى القادمون من دالتون أخباراً مشوهة عن تقهقر جو الكبير إلى رساكا ، أجفل سكان أتلانتا وأصابهم بعض القلق ، وبدا كأن سحابة سوداء صغيرة ظهرت في الشمال الغربي ، أول سحابة من عاصفة صيفية . بماذا كان يفكر الجنرال وهو يذر الشماليين يتوغلون إلى عمق ثمانية عشر ميلاً في جورجيا؟ إن الجبال حصون طبيعية ، تماماً كما قال الدكتور ميد ، فلماذا لم يصد الجنرال جو الشماليين هناك إذاً؟

استبسل جونستون في القتال عند رساكا ، وطرد جنود الشمال ثانية . عل أن شيرمان ، معتمداً حركة الالتفاف ذاتها ، طوح بجيشه الكبير في نصف دائرة أخرى ، عابراً نهر الأوستانوك ، مهاجماً مرة ثانية سكة الحديد في مؤخرة الحلفيين . وثانية استنفر الجنود الرماديون من خنادقهم الحمراء ، ليحموا الخط الحديدي . وهكذا ، منهوكين من قلة النوم ، منزوفي القوى ، من جراء السير والقتال ، جائعين ، جائعين كعادتهم دائماً ، قاموا بمسيرة سريعة أخرى بمحاذاة الوادي ، وبلغوا مدينة كالهون الصغيرة ، على بعد ستة أميال جنوبي رساكا . وهناك أمام الشماليين خندقوا وتأهبوا لهجوم العدو فور ظهوره . وحان الموعد ، ودارت مناوشة عنيفة ، رد الشماليون على أثرها إلى الوراء . وانطرح الجنود أرضاً بأسلحتهم مرهقين داعين الله من أجل مهلة من وقت ، يرتاحون فيها ، ولكن أنى لهم ذلك ، فقد تقدم شيرمان بعزم لا يلين ، خطوة خطوة ، قاذفاً جيشه حولهم في التفافة كبيرة وأرغمهم على تقهقر آخر . ليدافعوا عن سكة الحديد في مؤخرتهم .

سار الحلفيون وقد أنهكهم عدم النوم وأخذ منهم التعب كل مأخذ ، بحيث لم يسع معظمهم التفكير ، ولكن حين كانوا يعملون فكرهم ، كانوا يطمئنون لقائدهم الهرم جو . كانوا يعرفون أنهم يتقهقرون ، بيد أنهم يعرفون أيضاً أنهم

لم يغلبـوا ، وإنما فـقط ، لا يملكون من الرجـال مـا يكفي للمـحـافظة على خطوطهم وإحباط حركات شيرمان الالتفافية . إن بمقدورهم ، وهذا ما جرى فعلاً ، دحر الشماليين في كل مرة يشتبكون معهم في قتال ، إلاّ أنهم لا يعرفون ماذا ستكون نهاية هذا التراجع . أما جو الكبير فيعرف ماذا يفعل ، وهذا كاف بالنسبة إليـهم . لقد قاد التراجع وفق خطة باهرة ، فلم يخسروا إلاّ قليلاً من الرجال ، بينما بلغ عدد القتلى والأسرى من جنود الشمال حداً كبيراً . كذلك لم يخسروا عربة واحدة ، ولم يخسروا الخط الحديدي خلفهم ، وكل ما خسروه أربعة بنادق فقط . وهكذا ، فـرغم جميع هجمات شيـرمان على الجبـهة ، وانقضاضات فرسانه ، وحركاته الالتفافية ، لم يستطع احتلال موطئ قدم من الخط الحديدي .

سكة الحـديد ! إنها لا تزال سكتهم ، ذلك الخط الحديدي الضـيق المتـعرج خلال الوادي المشمس ، نحو أتلانتا . وتهاوى الرجال نياماً ، حيث استطاعوا رؤية القضبان تلمع لمعاناً خفيفاً في ضوء النجوم . وتهاوى غيرهم أمواتاً ، وكان آخر ما صافح عيونهم البهيرة منظر القضبان تتلألأ في الشمس والحرارة تتوهج منها .

وفيـما هم ينحدرون عـبر الوادي ، انحـدر أمامهـم جيش من اللاجئين : مزارعين وأجلاف ، أغنياء وفقراء ، سود وبيض ، نساء وأطفال ، شيوخ وعجزة ، محتضرين وجرحى ، نساء في فترة الحمل الأخيرة . جميع هؤلاء غصّت بهم الطريق إلى أتلانتـا ، في القطارات ، على الأقـدام ، فـوق ظهـور الخـيل ، في العربات ، وفي الشاحنات المكدسة إلى أعاليها بالحقائب ومتاع الأفراد . وعلى بعد أميال أمام الجيش المتقهقر ، سار اللاجئون متوقفين في رساكا ، وفي كالهون ، ثم في كانفستون ، آملين عند كل وقفة أن يسمعوا أن الشـماليين دحروا ، كي يستطيعوا العودة إلى منازلهم . ولكن لـم تجر مطاردة فوق تلك الطريق المشـمسة ، ومـر الجنود الرماديون بالدور الشاغرة والمزارع المهـجورة ، والغرف المعزولة ، وقد فتحت أبوابها قليلاً . وكانت قد تخلفت ، هنا وهناك ، امرأة وحيدة بصحبة بضعة زنوج مذعورين ، هرعوا إلى الطريق ليحيوا الجنود ، وليجلبوا دلاء من مياه الآبار للرجال العطاش ، وليربطوا الجراح ويدفنوا الموتى في مدافن عائلاتهم . بيد أن معظم الوادي المشمس كان مهجوراً موحشاً ، وقد

انتشرت الغلال ، التي ليس هناك من يرعى أمورها ، في الحقول اللافحة الحر .

وحدثت حركة التفاف أخرى عند كالهون ، تراجع جونستون إثرها إلى أديرسفيل ، حيث وقعت مناوشات حامية ، ثم إلى كاسفيل ، ثم جنوبي كارترسفيل . فيكون العدو قد تقدم بذلك خمسة وخمسين ميلاً جنوبي دالتون . وعند كنيسة «الأمل الجديد» ، حفر الجنود الرماديون خنادقهم بقصد وقفة عنيدة ، وتبعهم الجنود الزرق ، بعزم لا يلين ، كثعبان هائل ، يتلوى ويضرب نافثاً سمومه ، ساحباً أطواله الجريحة خلفه ، ولكنه دائماً يضرب ثانية ، ونشب قتال يائس عند الكنيسة ، قتال استمر أحد عشر يوماً ، وكل هجمة شمالية فيه كانت ترتد دامية ، إلا أن جونستون تعرض لتطويق جديد ، فسحب صفوف جيشه المتضائل أميالاً قليلة إلى الوراء .

بلغ عدد القتلى والجرحى الحلفيين في معركة الكنيسة عدداً كبيراً ، وتدفق المصابون إلى أتلانتا في قطارات عارمة ، وارتاع الناس ، إذ لم تر مدينتهم قبلاً ، حتى إثر معركة شيكاموجا ، هذا العدد المخيف من الجرحى . فضاقت المستشفيات بقادميها ، ومدد الرجال على أرض المخازن الشاغرة ، وفوق بالات القطن في المستودعات . كل الفنادق وبيوت الإيجار ، والمساكن الخاصة ، ازدحمت بهم ، ونالت العمة بيتي نصيبها رغم أنها احتجت بقولها من غير اللائق مطلقاً ، نزول رجال غرباء في البيت ، وميلاني في وضع حساس ، والمناظر البشعة قد تؤدي إلى ولادة في غير أوانها . ولكن ميلاني رفعت طوقها العلوي قليلاً ، لتحجب تضخم هيكلها ، ثم غزا الجرحى البيت ، وقام العمل على قدم وساق ، طبخ دائم ، رفع ولفت وتهوية بصورة مستمرة ، ساعات لا تنتهي في الغسل ، وفي لف الأربطة ثانية ، وفي تنقية نسالة الكتان ، وليال حارة ليس لها آخر ، انقضت بلا نوم ، من جراء الحمى الهاذية التي تنتاب الرجال في الغرفة المجاورة . وأخيراً لم تستطع المدينة الغاصة الاعتناء بأكثر مما حشر فيها ، فأرسل فيض الجرحى إلى المستشفيات في ميكون وأوغستا .

مع هذا العبء الذي خلفته المعركة ، من الجرحى الحاملين أخباراً متضاربة ، ومن ارتفاع عدد اللاجئين المذعورين ، المزدحمين في المدينة المزدحمة قبلاً ، عم أتلانتا قلق صاخب . لقد امتدت السحابة الصغيرة في الأفق سريعاً ، فأضحت سحابة كبيرة مربدة عاصفية ، وكأن ريحاً خفيفة باردة تهب منها .

لم يفقد أحد ثقته بمناعة الجنود ، ولكن الجميع ، والمدنيين على الأقل ، فقدوا ثقتهم بالجنرال . إن كنيسة «الأمل الجديد» تبعد خمسة وثلاثين ميلاً فقط عن أتلانتا ، لقد ترك جنود الشمال يدحرونه خمسة وستين ميلاً في ثلاثة أسابيع . لماذا لم يوقفهم بدلاً من التراجع المستمر؟ لقد كان غبياً ، وأسوأ من غبي ، وها هم شيوخ بلحى شائبة من رجال الحرس الوطني ، وأعضاء في ميليشيا الولاية ، يؤكدون أن بوسعهم إدارة العمليات بشكل أفضل ، راسمين الخرائط الحربية على شراشف الطاولات ، ليبرهنوا مزاعمهم .

وعندما تضاءل عدد جنوده ، وأُجبر على مزيد من التراجع ، استنجد الجنرال مستميتاً بالحاكم براون ، يطلب هؤلاء الرجال ذاتهم . ولكن جنود الولاية كانوا يشعرون بالأمان إلى حد معقول ، بالإضافة إلى أن الحاكم كان قد رفض بإصرار طلب رجاله من قبل جف ديفس . فلماذا يتوجب عليه الموافقة على طلب الجنرال جونستون؟

قتال وتقهقر ! قتال وتراجع ! وخلال مسافة سبعين ميلاً ، ولمدة خمسة وعشرين يوماً ، والحلفيون يخوضون قتالاً كل يوم تقريباً . وهكذا أضحت كنيسة «الأمل الجديد» ، خلف الجنود الرماديين ، الآن ، مجرد ذكرى يصحبها انذهال جنوبي ، كمثيلاتها من الذكريات ، ذكرى حرارة وغبار ، جوع وإنهاك ، خطو وئيد فوق الطريق المحفوفرة الحمراء ، خوض بطيء خلال الوحل الأحمر ، تقهقر ثم حرب خنادق - تقهقر ثم حفر خنادق فحرب . لقد كانت كنيسة «الأمل الجديد» تمثل حلماً رهيباً عن حياة أخرى . وهكذا كانت وقعة بك شانتي ، حيث ارتدوا وقاتلوا الشماليين كالشياطين . ولكن ، رغم نزالهم المستمر للشماليين ، ذلك النزال الذي لون الحقول بالزرقة لكثرة قتلاهم ، فإنه كان ينبع دائماً شماليون جدد ، شماليون آخرون . كان يرتسم دائماً ذلك الخط المنحني المشؤوم من الجنود الزرق ، المتجه نحو مؤخرة الحلفيين ، نحو سكة الحديد - ونحو أتلانتا .

من بك شانتي تقهقر الجنود المنهوكون الذين لم يذوقوا طعم النوم ، على الطريق جنوباً إلى جبل كنيسو ، قرب بلدة مارينا الصغيرة ، حيث انتشروا في خط منحن يبلغ عشرة أميال طولاً ، حافرين خنادقهم على سفوح الجبل الشديد الانحدار ، مثبتين مدافعهم على قممه الشاهقة ، تلك المدافع الثقيلة التي جرها

الرجال على المنزلقات الخطيرة الانحدار، بنفوس برمة، نزقة، ناقمة، وبوجوه تتصبب عرقاً، إذ لم يكن بوسع البغال تسلق السفوح. وكان الجرحى والرسل الوافدون إلى أتلانتا ينقلون أخباراً مطمئنة إلى أهل المدينة، المذعرين، إن مرتفعات كنيسو منيعة لا تقهر، وهكذا الحال مع جبل باين، وجبل لوست، القريبين، واللذين حصنا أيضاً. لن يستطيع جنود الشمال زحزحة رجال جو الكبير عن أماكنهم، وقد لا يقوون على تطويقهم الآن، لأن المدافع المثبتة على قمم الجبال تسيطر على كل الطرق لمسافة أميال. وهكذا تنفست أتلانتا الصعداء، ولكن ـ ولكن جبل كنيسو كان على بعد اثنين وعشرين ميلاً فقط منهم!

وفي اليوم الذي وصل فيه المدينة أول فوج من جرحى جبل كنيسو، وقفت عربة السيدة ميريويذر على باب العمة بيتي، في الغداة، الساعة السابعة، وبعث العم ليفي الأسود بكلمة تقضي بأن ترتدي سكارلت ثيابها فوراً استعداداً للذهاب إلى المستشفى.

وعلى المقعد الخلفي داخل العربة، كانت فاني ألسنغ، وبنات بونل، وقد نهضن من نومهن باكراً، يتثاءبن نعسات، بينما جلست مربية آل ألسنغ على الصندوق، وكأنها غير موجودة، وعلى حجرها سلة من الضمادات المغسولة حديثاً.

وغادرت سكارلت البيت كارهة، لأنها كانت قد رقصت حتى فجر الليلة الماضية في حفلة الحرس الوطني، فكانت قدماها تعبتين. ودون أن تحرك شفتيها، لعنت السيدة ميريويذر، القديرة التي لا تتعب، والجرحى وكل الحلف الجنوبي، بينما كانت برسي تزرّر لها أعتق وأبلى فساتينها الخامية، الفستان الذي تستعمله لمهام المستشفى، وبعد أن ارتشفت جرعات البيرة المرة، المصنوعة من قمح مشيط، مع البطاطا الحلوة المشوية التي تقدم مع القهوة عادة، خرجت لتلحق بالبنات.

كانت قد سئمت من كل هذا التمريض، وفي هذا اليوم بالذات كانت ستخبر السيدة ميريويذر أن أمها كتبت لها تدعوها إلى البيت، في زيارة. وقد أفادتها الخطة كثيراً، إذ إن تلك السيدة الجليلة، المشمرة عن ساعديها، والتي غاب جسدها القوي ضمن ثوب فضفاض، رمقتها بنظرة حادة، قائلة: «لا

تدعيني أسمع سخافات كهذه بعد اليوم يا سكارلت هاملتون . سأكتب لأمك اليوم ، وأخبرها شدة حاجتنا إليك ، وأنا واثقة من أنها ستقدر الوضع وتسمح لك بالبقاء . والآن البسي دثارك ، وهرولي إلى الدكتور ميد ، فهو يحتاج إلى من يساعده في التضميد .

ـ «آه ! يا إلـــهي !» فكرت سكارلت مغمومة ، «تلك هي المشكلة بعينها ، أمي ستسمح أن أمكث هنا ، وأنا سوف أموت إذا أرغمت على شم هذه الروائح العفنة بعد اليوم . آه لو كنت امرأة مسنة ، لكان بوسعي أن أتحكم بالصبايا بدلاً من أن يستبد بي ، وأن آمر العجائز الحقودات كالسيدة ميريويذر ليذهبن إلى هاليفكس !» .

أجل ، كانت قد سئمت من المستشفى ، من الروائح العفنة ، من القمل ، من الأنين والأجسام القذرة . وإذا كان هناك أي أمر مثير ، أو لذة حول التمريض ، فقد تلاشت منذ سنة ، علاوة على أن هؤلاء الرجال الجرحى ليسوا جذابين كأسلافهم . إنهم لا يظهرون أدنى اهتمام بها ، ولا يضيفون ، إلاّ بضع كلمات بعد : «كيف يدور القتال» ، «ماذا يفعل جو الكبير الآن؟» «يا له من رجل ذكي قوي !» . إنها لا تعتقد أن جو الكبير رجل ذكي قوي ، فكل ما فعله هو أن ترك جنود الشماليين يتوغلون مسافة ثمانية وثمانين ميلاً في جورجيا . لا ، إنهم ليسوا زمرة جذابة ، وفوق ذلك ، إنهم كانوا يموتون ، يموتون بسرعة ، وبصمت ، إذ لم يبق لديهم إلا قليل من قوة ، يقاومون بها تسمم دمائهم ، والغرغرينا والتيفوئيد وداء الرئة ، التي ألمت بهم ، قبل أن يتمكنوا من بلوغ أتلانتا والوصول إلى طبيب .

كان النهار حاراً ، وتدفق الذباب من النوافذ المفتوحة ، أسراباً أسراباً ، ذباب خمول كبير ، هد معنويات الرجال في الوقت الذي عجز فيه الألم عن ذلك . وارتفعت موجة الروائح والأوجاع من حولها ، وبلل العرق ثوبها المنشى حديثاً وهي تنتقل خلف الدكتور ميد والطست في يدها .

أوآه من لعيان النفس ومحاولة منع التقيؤ حين تقف بجانب الطبيب وهو يقطع بسكينه اللامعة اللحم الميت ، وآه من الرعب القابض الناجم عن سماع الصراخ من قسم العمليات حيث تجري أعمال البتر ، والمرضى ! إنك تعدم وسيلة للشفقة ، وأنت ترى الوجوه الشاحبة المتصلبة ، لرجال مشوهين ينتظرون

وصول الطبيب إليهم ، رجال امتلأت آذانهم بالصراخ ، رجال ينتظرون الكلمات المريعة : «آسف يا بني ، ولكن لا بد من بتر يدك . نعم ، نعم ، إني أعرف ذلك ، ولكن انظر ، ألا ترى هذه العروق الحمراء؟ لا بد من بترها .

كان الكلوروفورم قد أضحى نادر الوجود جداً الآن ، بحيث لم يعد يستعمل إلاّ في أسوإ حالات البتر ، شأن الأفيون الذي غدا يستعمل فقط لتخفيف آلام الذين ينازعون سكرات الموت ، لا الأحياء المبرحين بأوجاعهم ، وانقطع وجود الكينا واليود انقطاعاً تاماً .

أجل لقد سئمت سكارلت من كل هذه المشاهد ، وتمنت ذلك الصباح أن لو تحظى ، كميلاني ، بعذر الحمل ، العذر الوحيد تقريباً ، الذي يقبل به المجتمع للتخلف عن التمريض هذه الأيام .

وما إن بلغت الشمس وسط السماء ، حتى نزعت دثارها ، وتسللت من المستشفى ، فيما كانت السيدة ميريويذر منهمكة في كتابة رسالة لجبلي جاهل أخرق . لقد أحست سكارلت أن ليس بمقدورها تحمل ذلك أكثر . إن هذا أمر مفروض عليها ، وهي تعرف أنه عندما كان يأتي الجرحى في قطار الظهيرة ، يتراكم العمل بحيث تظل منهمكة إلى الليل ـ ومن المحتمل أن تبقى دون طعام طوال هذه الفترة .

تسللت بسرعة فوق العبارتين القصيرتين إلى شارع بيتشتري ، تتنشق الهواء النقي ، بجرعات كبيرة ، على قدر ما يسمح لها مشدها الضاغط بقوة .

وقفت في الزاوية ، مترددة في الخطوة التالية ، خجلة من الذهاب إلى بيت العمة بيتي ، ولكن ، مصممة على عدم العودة إلى المستشفى . وفيما هي كذلك إذ بعربة ريت بتلر تمر إزاءها يسوقها هو بنفسه .

ـ «إنك تشبهين ابنة متسول» قال وعيناه تتفحصان الثوب الخامي الأزرق ، المرقع ، المبلل بخطوط من العرق ، والملطخ هنا وهناك ببقع من الماء الفائض عن الطست . وثارت سكارلت مرتبكة ساخطة . لماذا يراقب دائماً ملابس السيدات ، ولماذا أسف بهذه الوقاحة فعلّق على عدم أناقتها؟

ـ «لا أريد سماع كلمة منك . انزل وساعدني على الصعود ، وقدني إلى مكان لا يراني فيه أحد . لن أعود إلى المستشفى ولو شنقوني ! يا لله ، إني لم أشعل هذه الحرب ، وأنا لا أرى أي سبب لإرغامي على العمل حتى الموت وـ

ـ «إنك خائنة لقضيتنا المجيدة!» .

ـ «القدر يعير الغَلاّية بالسواد! ساعدني على الدخول، لا يهمني أين كنت تقصد، فَستحملني الآن، راكبة» .

نزل من العربة، وخطر لها فجأة، وهي تتأمله، أن كم من المبهج أن ترى رجلاً سليم البنية، غير فاقد عينيه أو قدميه، وليس شاحباً بفعل الألم، أو أصفر اللون من جراء الملاريا، تبدو عليه النعمة، ويطفح بالصحة . وكان ربت بالإضافة إلى ذلك جيد اللباس، معطفه وسرواله من المادة نفسها فعلاً، يناسبانه تماماً، بدلاً من أن يكونا مجمعين في طيات، أو ضيقين كثيراً، يعيقان الحركة، وكانا جديدين ليسا رثين ولا يبين خلالهما جلد عار وسخ وساقان كثيفتا الشعر . وبدا كأنه لا يعير الدنيا أدنى اهتمام، الأمر الذي كان في حد ذاته يدعو للدهشة في هذه الأيام التي كانت تنطق فيها وجوه الرجال الآخرين بنظرات القلق والكآبة .

كان وجهه الأسمر أنيساً، وفمه ذو الشفتين الحمراوين، المبدعتين تماماً كشفتي أنثى، الصريحتين بالشهوة، يبتسم دون اكتراث، وهو يرفعها إلى العربة .

وعندما صعد جالساً إلى جانبها، تبدت عضلات جسده الضخم من خلال تموج ثوبه الحسن الصنع، وكما يحدث دائماً، طرق تفكيرها كاللطمة موضوع قواه الجسدية الهائلة، فراحت تتأمل انتفاخ الثوب عند كتفيه القويتين، بافتتان مزعج، مرعب قليلاً . إن جسده يبدو صلباً وقاسياً جداً، صلباً قاسياً كعقله الحاذق، في الوقت الذي يظهر فيه قوة مرنة رشيقة، وهو خامل كنمر متمدد في الشمس، يقظ كنمر يتأهب للوثب والبطش .

ـ «أيتها الخائنة الصغيرة!» قال حاثاً حصانه «ترتعين طول الليل مع الجنود، وتقدمين لهم الورود والشرائط، وتخبرينهم أنك تتمنين الموت في سبيل القضية، وعندما يصل الأمر إلى تضميد بعض الجراح، وتنقيه قليل من النسالة، تفرين بسرعة» .

ـ «ألا تستطيع التحدث عن شيء آخر، وتسرع في القيادة؟ سيكون من سوء طالعي تماماً أن يخرج غراندبا ميريويذر من مخزنه ويراني ويخبر العجوز ـ أعني السيدة ميريويذر» .

فساط الفرس لمساً ، وهرولت هذه خبباً عبر فايف بوينتس ، ثم عبر قضيبي السكة الحديد التي تشطر المدينة شطرين . وكان قطار الجرحى قد وصل الآن ، وهرع حاملو المحفات يعملون في الشمس الحارة ، ناقلين الجرحى إلى سيارات الإسعاف ، والعربات العسكرية المغطاة .

لم تشعر سكارلت بتأنيب الضمير ، وعينها تقع على المشهد أمامها ، وإنما ساورها فقط شعور الفرح بالخلاص المؤكد ، لأنها فرت من هذه الورطة .

- «إني سئمة مرهقة ، من ذلك المستشفى القديم» قالت مثبتة تنورتها المتموجة ، رابطة شريط قبعتها ، ربطاً أشد حزماً تحت ذقنها ، «وكل يوم يتدفق المزيد من الجرحى . إن ذلك كله خطأ الجنرال جونستون ، لو أنه فقط صمد للشماليين في دالتون ، لكانوا - » .

- «ولكنه صمد للشماليين أيتها الطفلة البائسة . ولو ظل واقفاً هناك لطوقه شيرمان وسحقه بين جناحي جيشه ، ولكان خسر الخط الحديدي ، والخط الحديدي هو ما يحارب جونستون من أجله» .

- «لا بأس» ، قالت سكارلت ، التي لا تفقه شيئاً من الستراتيجية العسكرية» إنها غلطته على كل حال . كان عليه أن يفعل شيئاً بصدد ذلك ، وأعتقد أنه ينبغي تنحيته . لماذا لم يصمد ويقاتل بدلاً من أن يتراجع؟

- «أنت كالآخرين ، تصرخين ، «اقطعوا رأسه» لأنه لا يستطيع فعل المستحيل . لقد اعتبر يسوع المخلص في دالتون ، والآن يعتبر يهوذا الخائن في جبل كنيسو ، وكل ذلك خلال ستة أسابيع فقط . أجل ، دعيه يطرد الشماليين عشرين ميلاً إلى الوراء ، وسيصبح يسوع ثانية . إن شيرمان ، يا طفلتي ، يملك ضعف رجال جونستون ، وبوسعه التضحية برجلين مقابل كل رجل من غلماننا الأفذاذ ، بينما لا يسع جونستون التضحية برجل واحد . إنه في حاجة ملحة إلى النجدات فما الذي يحصل عليه منها؟ إنه يحصل على «مدللي جو براون» فأي عون سيكونون له !» .

- «هل ستُستدعى الميليشيا حقاً؟ ! والحرس الوطني أيضاً؟ لم أسمع بذلك ، كيف عرفت؟» .

- «هناك إشاعة بهذا الخصوص وصلت مع القطار القادم من ملدجفيل هذا الصباح . فالميليشيا والحرس الوطني سيرسلون لنجدة الجنرال جونستون ، أجل !

مدللو الحاكم براون ، من المحتمل أن يشموا رائحة البارود أخيراً ، وأظن أن معظمهم ستذهله المفاجأة . من المؤكد أنهم لم يتوقعوا أبداً مجرد رؤية القتال ، فقد بلغت طيبة الحاكم حداً وعدهم معه بذلك . واعتقدوا أنهم في حرز من القنابل ، لأن الحاكم صمد حتى لجف ديفس ، رافضاً إرسالهم إلى فرجينيا ، وقائلاً إن الدفاع عن الولاية في حاجة إليهم . ومن كان يفكر يوماً أن الحرب ستصل إلى ساحة بيوتهم الخلفية ، وأن عليهم الدفاع عن ولايتهم حقاً؟» .

ـ «آه ، كيف يسعك الضحك أيها المخلوق القاسي؟ ! فكر بالسادة المسنين ، والفتيان الصغار الذين في الحرس الوطني . كيف ! فيل ميد الصغير ! سيضطر إلى الذهاب ! وكذلك غراندبا ميريويذر ، والعم هنري هاملتون !» .

ـ «أنا لا أتكلم عن الفتيان الصغار ، وعن الذين تضرسوا بالحرب المكسيكية . إني أتكلم عن الشبان الشجعان ، أمثال ويلي جوينان ، الذي يحب ارتداء البزات العسكرية الجميلة ، وتلويح السيوف . .» .

ـ «وحضرتك !» .

ـ «عزيزتي ، هذا لا يضيرني مطلقاً ، فأنا لا أرتدي بزة عسكرية ولا ألوح بالسيف ، ومستقبل الحلف لا يعنيني أبداً . إضافة إلى أني لا أريد أن أقتل في صفوف الحرس الوطني أو في أي جيش آخر من أجل الحلف . لقد تعلمت الكثير من الأمور العسكرية في وست بوينت لتخدمني بقية عمري . . . ومهما كان الأمر ، فإني أدعو لجو الكبير بالتوفيق ، فالجنرال لي لا يستطيع إنجاده بأي عون لأن الشماليين يشاغلونه أبداً في فرجينيا . . . وهكذا فإن النجدات الوحيدة التي يقدر جونستون على الحصول عليها هي جنود ولاية جورجيا . إنه يستحق مصيراً أفضل ، لأنه عسكري عظيم ، ماهر في وضع الخطط الحربية ـ إنه يستطيع دائماً احتلال المواقع قبل الشماليين ، ولكن عليه أن يستمر في التراجع إذا ما أراد حماية الخط الحديدي . وانتبهي لكلماتي ، عندما سيجلونه من الجبال نحو الأرض المغرية (الأكثر استواء) ، حولنا ، سيقع في مجزرة رهيبة» .

ـ «حولنا !» صاحت سكارلت . «أنت تعرف تمام المعرفة أن الشماليين لن يبلغوا هذا الحد» .

ـ «إن كنيسو على بعد اثنين وعشرين ميلاً فقط ، وأنا أراهنك» .

- «ريت ، انظر إلى أسفل الشارع ! ذلك الجمهور من الرجال ليسوا جنوداً . . أي شيء هم؟ . . . كيف ! إنهم زنوج !» .

كانت ترتفع في الشارع سحابة عظيمة من الغبار الأحمر ، ينبعث منها وقع خطوات أقدام عديدة ، وأصوات مائة زنجي أو أكثر ، أصوات عميقة مستهترة تنشد نشيداً دينياً .

قاد ريت عربته نحو الرصيف ، وتطلعت سكارلت بفضول إلى الرجال السود ، المتصببين عرقاً ، وعلى أكتافهم معاول ومجارف ، وكان يسوقهم ضابط وفصيل من الرجال ، يحملون شارات سرية المهندسين .

- «أي شيء هؤلاء؟ . . .» بادرت ثانية .

ثم وقعت عيناها على زنجي متأنق ، يسير في المقدمة مرتلاً ، ذي قامة تبلغ ستة أقدام ونصف تقريباً ، رجل مارد أدكن بلون الأبنوس ، يتقدم خاطباً بخفة حيوان قوي ، وأسنانه البيض تلمع ، وهو يقود زمرة المرتلين في «انزل يا موسى» . حتماً لا يوجد زنجي في الدنيا يماثله طولاً وعلو صوت ، عدا سام الكبير ، رئيس عمال تارا . ولكن ، ماذا يفعل سام الكبير هنا ، بعيداً جداً عن البيت ، خصوصاً في هذه الأيام ، حيث لا يوجد ناظر في المزرعة ، وهو ساعد جيرالد الأيمن !؟

وعندما نهضت من مقعدها نصف نهضة ، لترى عن كثب ، وقع بصر المارد عليها ، وانفرج وجهه الأسود عن ابتسامة تنم عن المعرفة السارة ، ثم توقف مسقطاً مجرفته ، متجهاً نحوهما ، منادياً الزنوج القريبين منه :

- «يا لله القدير ! إنها الآنسة سكارلت ، انتبه إيليا ! أيوسل ! بروفت ! ها هي الآنسة سكارلت !» .

واضطربت الصفوف ، وتوقف الحشد حائراً مبتسماً ، بينما هرع سام الكبير يتبعه ثلاثة من الزنوج الضخام عبر الطريق إلى العربة ، ووراءهم عن كثب ضابطهم المستاء ، يصرخ بهم :

- «ارجعوا إلى الصف ، أنتم أيها الرجال ، آمركم بالرجوع وإلاّ . . . ها ، هذه السيدة هاملتون ، صباح الخير يا سيدة ، وأنت أيضاً يا سيد ، ما بالكما على وشك الحث على التمرد والعصيان؟ الله وحده يعلم ، كم عانيت من جهد مع هؤلاد الشباب هذا الصباح» .

ـ «ها ، كابتن راندل ، لا تعنفهم إنهم جماعتنا . هذا سام الكبير رئيس عمالنا ، وإيليا وأيوسل وبروفت من تارا . من البدهي أن من واجبهم مكالمتي . كيف حالكم أيها الشباب؟» .

وصافحتهم جميعاً وغابت يدها البيضاء الصغيرة في أيديهم الضخمة . وقفز الأربعة فرحاً بهذا اللقاء ، مزدهين فخراً وهم يعرضون أمام زملائهم الآنسة الرائعة التي ينتمون إليها .

ـ «ماذا تفعلون أيها الشباب في هذا المكان النائي ، بعيداً عن تارا؟ لقد هربتم ، إني أراهن ، ألا تعرفون أن الحراس سيلقون القبض عليكم حتماً؟» .

فصاحوا مسرورين من هذه الدعابة .

ـ «هربنا !؟» أجاب سام الكبير «لا ، نحن لسنا هاربين ، لقد استدعونا وأخذونا لأننا كنا أكبر وأقوى أربعة عمال في تارا» . ولمعت أسنانهم البيض متباهية «لقد بحثوا عني بصورة خاصة لأنني أستطيع الغناء جيداً . نعم يا آنسة ، السيد فرانك كندي جاء وأخذنا» .

ـ «ولكن ما السبب يا سام الكبير؟» .

ـ «الله ، يا آنسة سكارلت ، ألم تدري؟ نحن سنحفر الخنادق للسادة البيض ليختبئوا داخلها عندما يأتي الشماليون» .

خنق الكابتن راندل وراكب العربة ابتساماتهم على هذا التفسير السليم الطوية لحفر الخنادق .

ـ «ولأن السيد جيرالد كان سيصاب بنوبة عصبية حين أخذوني ، وقال إنه لا يستطيع تصريف الأمور بدوني ، ولكن السيدة إيلين قالت «خذه يا سيد كندي ، فالحلف يحتاج إلى سام الكبير أكثر من حاجتنا إليه» وأعطتني دولاراً وأخبرتني أن أقوم بما يأمرني به السادة البيض . وهكذا جئنا هنا» .

ـ «ماذا يعني كل هذا يا كابتن راندل؟» .

ـ «ها ، الأمر في غاية البساطة ، علينا أن نقوي تحصينات أتلانتا بحفر أميال أخرى من الخنادق ، وليس بوسع الجنرال الاستغناء عن أي رجل من الجبهة للقيام بهذا العمل ، ولذلك جمعنا أقوى الزنوج في الريف لينفذوا المهمة» .

ـ «ولكن . . .» .

وبدأت موجة صغيرة من خوف بارد تختلج في صدر سكارلت ، أميال

أخرى من الخنادق؟ لماذا يحتاجون إلى أميال أخرى؟ خلال السنة الماضية ابتُني حول أتلانتا بأسرها سلسلة استحكامات أرضية ضخمة ، مع مراكز للمدفعية ، لا تبعد أكثر من ميل عن وسط المدينة . هذه الاستحكامات الأرضية اتصلت بخنادق وامتدت ميلاً بعد ميل لتحيط بالمدينة إحاطة تامة ، فلماذا حفر خنادق أخرى؟ !

ـ «ولكن . . لماذا ينبغي أن نتحصن أكثر مما نحن عليه الآن؟ إننا لن نحتاج إلى ما عندنا من تحصين ، حتماً ، فلن يدع الجنرال . . .» .

ـ «تحصيناتنا الحالية تبعد ميلاً واحداً فقط عن المدينة» قال الكابتن راندل بانزعاج . «وهذا قريب جداً بحيث يمنع الراحة أو الأمان . هذه الحفر الجديدة ستكون أبعد بكثير . إن تقهقراً آخر كما يبدو يمكن أن يوصل رجالنا إلى أتلانتا» . وفوراً ، ندم على عبارته الأخيرة حين رأى عينيها تتسعان من الرعب .

ـ «ولكن بالطبع ، لن يقع تقهقر آخر» ، أضاف على عجل ، «فخطوط الدفاع أما كنيسو منيعة لا تقهر ، والمدفعية مزروعة فوق كل القمم ، مسيطرة على جميع الطرق ، ومن المحتمل أن لا يستطيع الشماليون العبور» .

ولكن سكارلت رأته يغضي بعينيه أمام نظرات ريت الباردة النفاذة ، وخامرها الذعر ، وتذكرت عبارة ريت «عندما سيجلونه عن الجبال إلى هذه الأرض الأكثر استواء حولنا ، ستقع مجزرة رهيبة» .

ـ «ها ، كابتن ، هل تعتقد . . .» .

ـ « . . . طبعاً لا ! لا تشغلي بالك دقيقة واحدة ، فالقضية هي أن جو الكبير يؤمن باتخاذ إجراءات احتياطية ، وذلك هو السبب الوحيد لحفر خنادق أخرى . . . ولكن لا بد من أن أذهب الآن ، لقد كان من دواعي سروري أن أتحدث إليك . . . ودعوا سيدتكن أيها الشبان ، ودعونا نتابع المسير» .

ـ «وداعاً أيها الشباب ، انتبهوا ، إذا ما ألم بكم مرض أو مكروه أو وقعتم في مشكلة فدعوني أعلم بالأمر . إني أسكن تماماً في نهاية شارع بيتشتري ، هناك في النهاية ، آخر بيت في طرف المدينة تقريباً . انتظروا هنيهة . . .» .

وتحسست داخل كيسها الشبكي الصغير : «يا لله ! لا أحمل سنتاً واحداً ، ريت ! أعطني قليلاً من النقود الورقية . خذ ، سام الكبير ، اشتر بعض التبغ لنفسك ولزملائك وكن صالحاً وافعل ما يأمرك به الكابتن راندل» .

وانتظم الصف الشارد ثانية ، وثانية ارتفع الغبار في سحابة حمراء وهم ينطلقون ، وسام الكبير يشرع في الغناء مجدداً :

«انزل يا موسى واهبط في أرض مصر .
وأخبر فرعون العجوز
أن يحل من أسار شعبي» .

ـ «ريت ، كان الكابتن راندل يكذب علي ، تماماً كما يفعل جميع الرجال . . إنهم يحاولون حجب الحقيقة عنا نحن النساء ، خوفاً من أن يغمى علينا ، أما كان يكذب؟ آه يا ريت ، لو لم يكن يوجد خطر فلماذا يحفرون هذه التحصينات الجديدة؟ هل الجيش يعاني هذا النقص الهائل في الرجال ، بحيث اضطروا إلى استخدام العبيد؟» .

ـ حث ريت الفرس :

ـ «إن الجيش بحاجة ملحة إلى الرجال ، وإلا فلماذا يستدعى الحرس الوطني؟ وأما بشأن الخنادق ، فلا بأس ، إذ يفرض بالتحصينات أن تكون ذات قيمة ما في حالة الحصار . إن الجنرال يتأهب لجعل وقفته الأخيرة هنا» .

ـ «حصار ! رد حصانك ، فأنا عائدة إلى بيتي ، إلى بيتي في تارا ، حالاً» .

ـ «وماذا يضيرك؟» .

ـ «حصار . . يا لله ، حصار ! لقد سمعت عن الحصارات ، لقد حوصر أبي في أحدها ، أو ربما كان ذلك والده ، وأبي أخبرني . . .» .

ـ «أي حصار؟» .

ـ «حصار دروغيدا ، عندما انتصر كرومويل على الإيرلنديين ، ولم يبق لديهم ما يقتاتون به ، وقال أبي إنهم تضوروا جوعاً ، وماتوا في الشوارع ، وأخيراً أكلوا جميع القطط والجرذان وحتى الصراصير وأشباهها . وقال إنهم أكلوا بعضهم بعضاً كذلك ، قبل أن يستسلموا ، مع أني لا أدري أأصدق ذلك أم لا . وعندما احتل كروموبل المدينة ، كانت جميع النساء . . . حصار ! . . . يا إلـهي !» .

ـ «أنت أعظم الشابات اللواتي عرفتهن جهلاً مزرياً . إن حصار دروغيدا حدث بعد عام ١٦٠٠ بقليل ، وليس من الممكن أن يكون السيد أوهارا حيّاً آنذاك ، هذا بالإضافة إلى أن شيرمان ليس كروموبل» .

ـ «لا ، ولكنه أسوأ . يقولون . . » .

ـ «وأما بصدد المأكولات الغربية التي أكلها الإيرلنديون في أثناء الحصار ـ فأنا شخصياً أتمنى لو أنْ آكل في الحال جرذاً طرياً لذيذاً من ضمن المأكولات التي يقدمونها لي مؤخراً في الفندق . أعتقد أنه ينبغي لي العودة إلى ريتشموند ، فهم يقدمون هنالك طعاماً جيداً ، إذا كان لديك الثمن الكافي لذلك» . وهزئت عيناه بالخوف البادي على وجهها .

وصاحت سكارلت ، وقد أزعجها افتضاح نفسيتها الفزعة :

ـ «أنا لا أرى السبب الذي جعلك تقيم هنا هذه المدة الطويلة . كل ما تفكر به هو راحتك وطعامك و . . . وأمور كهذه» .

ـ «لا أعرف سبيلاً أكثر إمتاعاً في تزجية الوقت من الأكل . . . وأمور كهذه» ، وقال مستطرداً «أما لماذا أقيم هنا . . . . حسناً . لقد قرأت كثيراً عن الحصارات ، وعن مدن مطوقة وأمثال ذلك ، ولكن ، لم أخبر حصاراً بنفسي . ولذلك فإني أفكر بالبقاء هنا لأراقب الحالة عن كثب . ولن يضيرني شيء ، لأني لست محارباً ، عدا عن أني أرغب في التجربة . إياك أن تفوتي التجارب الجديدة يا سكارلت ، فهي تغني العقل» .

ـ «عقلي غني بما فيه الكفاية» .

ـ ربما تعرفين أكثر مني عن ذلك ـ ولكن ينبغي القول ـ على أن ذلك سيكون من غير اللائق . من المحتمل أنني أمكث هنا لإنقاذك عندما يقع الحصار ، فلم يحدث أن أنقذت صبية في محنة ، إن في ذلك تجربة جديدة لي أيضاً» .

وأدركت أنه يستفزها ، بيد أنها أحست بلهجة جدية صادقة طي كلماته ، ثم دفعت رأسها إلى الوراء :

ـ «لن أحتاج إليك كي تنقذني ، فبوسعي الاهتمام بنفسي . . . شكراً» .

ـ «لا تقولي ذلك يا سكارلت ، فكري بالأمر إذا شئت ، ولكن إياك ـ إياك أن تقوليها لرجل . تلك هي المشكلة مع الفتيات الشماليات ، يمكن أن يكن في منتهى السحر والجمال ، لولا أنهن يدأبن أبداً على القول إن بوسعهن الاهتمام بأنفسهن . . . وعموماً ، يكن صادقات ، كان الله بعونهن . وعلى ذلك يدعهن الرجال يهتممن بأنفسهن» .

ـ «كيف تمضي بهذا الحديث؟» قالت ببرود، إذ لم تكن توجد إهانة مثل الإهانة الناجمة عن المقارنة بالشماليات... «أعتقد أنك لا تقول الواقع فيما يتعلق بالحصار، فأنت تعرف أن الشماليين لن يبلغوا أتلانتا مطلقاً».

ـ «أراهنك أنهم سيكونون هنا في مدى شهر واحد، أراهنك على علبة سكاكر مقابل...» وحامت عيناه السوداوان حول شفتيها، «مقابل قبلة».

وللحظة قصيرة أخيرة، غمر قلبها الخوف من غزو الشماليين، ولكن، عند كلمة «قبلة» نسيت كل شيء يتعلق بالغزو، فهذه أرض أنيسة، وأكثر إمتاعاً، إلى درجة كبيرة، من العمليات العسكرية. وبصعوبة منعت ابتسامة الفرح من الظهور.

منذ ذلك اليوم الذي منحها ريت القبعة الخضراء لم يتقدم بأي خطوات أخرى، يمكن أن تفسر على أنها خطوات محب. إنه لا يمكن أن يورط في أحاديث شخصية، رغم محاولاتها في اجتذابه إلى ذلك. ولكن ها هو الآن، ودون مداورات من جانبها، يتحدث عن القبل.

ـ «أنا لا أهتم بأحاديث شخصية كهذه»، قالت ببرود، متظاهرة بالعبوس، «أضف إلى ذلك أنني يمكن أن أقبّل خنزيراً في أي وقت».

ـ «لا يوجد مقياس للأذواق، ولقد سمعت مراراً أن الإيرلنديين يميلون كثيراً إلى الخنازير، ويحتفظون بها تحت أسرّتهم في الواقع. ولكن يا سكارلت، أنت بحاجة ماسة إلى التقبيل. تلك هي مشكلتك. لقد بالغ جميع أحبائك باحترامك، مع أن الله وحده يدرك سر ذلك، أو أنهم كانوا جد خائفين منك، بحيث لم يمارسوا حقيقة عواطفهم نحوك، وكانت النتيجة اعتداد منك بالنفس لا يحتمل. ينبغي أن يقبلك من يعرف كيف يكون التقبيل».

لم يدر الحديث على الوتر الذي تريده، شأنه دائماً في أثناء اجتماعهما، فهو أبداً مبارزة، تخرج منها خائبة، مهيضة الجناح.

ـ «وأظن أنك تعتقد أنك الشخص المناسب؟» استوضحت متهكمة، وقد عانت كثيراً في كبح جماح نفسها.

ـ «ها، نعم، إذا كلفت نفسي مشقة ذلك الجهد» قال باستهتار ـ «يقولون إني أحسن التقبيل».

ـ «ها» طفقت ترد وهي ساخطة لأن مفاتنها أهينت، «كيف، إنك...».

غير أن حيرة مفاجئة تملكت عينيها . كان يبتسم ، ولكن ، في أعماق عينيه السوداوين تلألأ ضوء ناعس لهنيهة قصيرة ، ضوء كلهب بارد ضئيل .

ـ «طبعاً ، من الراجح أن تكوني قد تساءلت لماذا لم أحاول متابعة تلك القبلة العفيفة العارضة التي منحتك إياها يوم جلبت لك تلك القبعة» .

ـ «أنا . . . أبداً . . . لا ـ» .

ـ «لست فتاة جميلة يا سكارلت إذاً ، ويؤسفني قول ذلك ، فكل الفتيات اللطيفات حقاً يدهشن عندما لا يحاول الرجال تقبيلهن . إنهن يعرفن أنه لا يجب عليهن إظهار رغبتهن في أن يقبلوهن ، ويعرفن أن عليهن تلبس ثوب المعتدى على كرامته إذا ما قبلوهن ، ولكن النتيجة هي ذاتها تماماً : فإنهن يرغبن في أن يحاول الرجال ذلك . . . حسناً ، يا عزيزتي ، تشجعي ، فيوماً ما سأقبلك وستطربين لعملي ، ولكن ليس الآن ، ولذلك أرجوك أن لا تستعجلي الأمر كثيراً» .

وعرفت أنه يستفزها ، ولكن ، كما هو الحال دائماً ، أذهلها استفزازه ، فهناك أبداً الكثير الكثير من الحقائق في ما يقول . على كل حال ، إن حديثه هذا كشفه تماماً ، وإذا ما أسف يوماً ، وحاول انتهاك أي من حرماتها فستريه .

ـ «هل تتكرم بالتحوّل بالعربة يا كابتن بتلر ! فأنا أرغب في العودة إلى المستشفى» .

ـ «أترغبين حقاً يا ملاكي الرحيم؟ إذاً ، نسالة الكتان والأمواه القذرة أفضل من محادثتي . . . حسناً ، إن من غير المعقول أن أمنع يدين راغبتين في العمل عن العمل في سبيل قضيتنا المجيدة» .

وأدار رأس الحصان ، وانطلقا عائدين نحو فايف بوينتس .

ـ «أما لماذا لم أتقدم بخطوات أخرى» ، تابع بلهجة رقيقة ، كما لو أنها لم تأت بما يشير إلى نهاية الحديث «فأنا أنتظرك حتى تكبرين قليلاً . وأنت تعرفين أنه ليس مما يلذني أن أقبلك الآن ، وأنا حريص كل الحرص على ملذاتي . لم أتخيل نفسي يوماً أقبل الأطفال» ، وخنق ابتسامته ، بعد أن رأى صدرها من زاوية عينه يختلج بثورة صامتة .

ـ «ثم إني أيضاً» استطرد برفق «كنت أنتظر خمود ذكرى آشلي ويلكس ، الجدير بالتكريم» .

وعند ذكر اسم آشلي انتابها ألم مفاجئ، ولذعت أجفانها دموع مفاجئة حارة. خمود! ذكرى آشلي لا تخمد أبداً! حتى بعد انقضاء ألف سنة على وفاته! وخطر لها آشلي جريحاً، يغالب الموت في سجن شمالي بعيد ناء، ولا دثار عليه، ولا محب يمسك بيديه، واستعرت في قلبها كراهية لهذا الرجل، المتخم المعدة، الجالس إلى جانبها، والسخرية تحت سطح لسانه المتشدق . . .

كان الغضب قد استبد بها، فلم تقو على الكلام، وسارت العربة فترة من الوقت، والصمت ضارب جرانه.

- «إني أفهم عملياً الآن كل شيء عن علاقتك بآشلي» استأنف ريت، «لقد بدأت بالمشهد المنفِّر الذي مثلته في تولف أوكس. ومنذ ذلك الوقت، استنتجت أشياء كثيرة، من طريق إبقاء عيني مفتحتين. أي أشياء؟ ها، إنك ما زلت تحفظين عاطفة خيالية نحوه، عاطفة تلميذة مدرسة، عاطفة يبادلك هو منها بقدر ما يسمح له أصله الشريف، وإن السيدة ويلكس لا تدري شيئاً، وإنك فيما بينكما، قد خدعتها جيداً. إني أفهم عملياً كل شيء، عدا شيء واحد يثير فضولي. هل حدث أن جازف آشلي الشريف بروحه الخالدة يوماً وقبّلك؟».

صمت رهيب، ورأس مشدوه، كان الجواب على سؤاله.

- «ها، حسناً، قبّلك إذاً. أظن أن ذلك حدث عندما كان هنا في إجازته. والآن، وقد يكون ميتاً على الأرجح، فإنك تحتفظين بذكرى هذه القبلة عزيزة في قلبك. ولكني واثق أنك ستتخطين هذه المرحلة، وعندما تنسين قبلته، سوف -».

والتفتت نحوه غاضبة:

- «اذهب إلى - هاليفكس» قالت متوترة النفس، وعيناها الخضراوان ينشقان عن وميض السخط «ودعني أنزل من هذه العربة قبل أن أقفز فوق العجلات. لا أريد أن أتحدث إليك ثانية».

فشدّ عنان حصانه وأوقف العربة، ولكن قبل أن يتمكن من النزول ومساعدتها، قفزت وعلقت تنورتها بالدولاب، وشاهد الجمهور في فايف بوينتس، لهنيهة، منظراً خاطفاً للصداري والسراويل. ثم انحنى ريت وخلص الثوب بخفة، وغادرته وهي تدل بمشيتها دون أن تنبس بكلمة، دون حتى التفاتة إلى الوراء، وضحك هو ضحكة رقيقة، وانطلق.

*

18

استطاعت أتلانتا سماع دوي المعركة للمرة الأولى منذ ابتداء الحرب بين الشمال والجنوب . ففي ساعات الصباح الأولى ، قبل أن يرتفع ضجيج المدينة ، كان يمكن سماع المدافع من على جبل كنيسو خافتة الأصداء ، بعيدة جداً ، تهدر هديراً خفيفاً واهناً ، قد يمضي وكأنه رعد الصيف . بيد أنه من وقت إلى آخر ، كان يدوي عالياً بحيث يسمع أعلى من ضوضاء حركة المرور عند الظهيرة . وحاول الناس أن لا يصغوا إليه . حاولوا أن يتحدثوا ، وأن يضحكوا ، وأن يستمروا في أعمالهم ، تماماً كما لو أن الشماليين ليسوا هناك ، على بعد اثنين وعشرين ميلاً منهم . غير أن الآذان كانت ترهف لسماع الدوي دائماً ، وعلت وجوه الناس نظرة قلق ، إذ لم يعد يهمهم ما بين أيديهم من عمل . كانوا جميعاً ، ينصتون ، وكانت قلوبهم تقفز فجأة من مواضعها مائة مرة في اليوم . هل اشتد الدوي ، أم إنهم يتوهمون أنه اشتد؟ هل سيصدهم الجنرال جونستون هذه الكرّة؟ هل سيوقف تقدمهم؟

كان الذعر على قاب قوسين أو أدنى من النفوس ، وكانت الأعصاب ، التي كانت تزداد توتراً في كل يوم من أيام التقهقر ، قد قاربت الآن بلوغ نقطة الانفجار . ولم يكن أحد ليتحدث عن مخاوفه بسبب تحريم ذلك ، ولكن الأعصاب المتوترة وجدت متنفساً لها في نقد الجنرال علانية ، فقد كان الشعور العام يغلي بحمى النقمة ، وأمسى شيرمان على أبواب أتلانتا ، وغدا تقهقر آخر يمكن أن يقذف بالحلفيين إلى داخل المدينة ، فأضحى لسان حال الناس يقول :

«نريد جنرالاً لن يتقهقر ، نريد رجلاً يصمد ويقاتل» .

وزحف رجال ميليشيا الولاية (مدللو جو براون) والحرس الوطني إلى خارج أتلانتا ، وهدير المدافع البعيد في آذانهم ، خرجوا ليدافعوا عن جسور ومعابر نهر تشاتلوهوشي في مؤخرة جونستن . وكان اليوم يوماً معتماً ملبداً بالغيوم . وبينما كانوا يسيرون عبر فايف بوينتس إلى طريق ماريتا ، شرع مطر خفيف بالسقوط . وكانت المدينة بأسرها قد خرجت لتشييعهم ، ووقف الناس بعضهم فوق بعض تحت رفاريف المخازن الخشبية في شارع بيتشتري ، يحاولون تحيتهم .

وكانت سكارلت ومايبيل ميريويذر بيكارد قد سمح لهما بمغادرة المستشفى

ومشاهدة الرجال الذاهبين ، لأن غراندبا ميريويذر (ميريويذر الجد) والعم هنري كانا من بين أعضاء الحرس الوطني ، فوقفتا مع السيدة ميد وسط الجمهور ، مشرئبات على رؤوس أصابعهن ليتمكنّ من رؤية أفضل . ومع أن سكارلت كانت مفعمة بالرغبة الجنونية الإجماعية في تصديق أكثر الأنباء إبهاجاً وأشدها تطميناً عن تقدم القتال وحسب ، إلا أنها أحست ببرودة وهي تتأمل الصفوف العديمة التجانس ، المختلفة الأشكال والألوان ، تمر أمامها تباعاً . لا بد أن تكون الأمور قد بلغت مأزقاً حرجاً إذاً ، إذا كان هذا الرعاع من الشيوخ والفتيان قد استدعي للخدمة وصد التقدم !

لقد كان بين الصفوف العابرة شباب ورجال قادرون على القتال حقّاً ، يزدهون ببذلاتهم الحربية الزاهية ، رجال من الصفوة الاجتماعية انخرطوا في وحدات الميليشيا وأخذ الريش يتمايل على قبعاتهم ، وتتراقص أطراف زنانيرهم . ولكن ، كان بينهم أيضاً الكثير الكثير من الشيوخ والفتيان الذين جعل منظرهم قلب سكارلت ينقبض شفقة وخوفاً . كانوا شيوخاً بلحى شائبة ، أكبر سناً من والدها ، يحاولون الخطو بمرح وخفة ، تحت الرذاذ ، مجارين أنغام سرية الأبواق والطبول .

كان غراندبا ميريويذر يسير في الصف الأول ، وعلى كتفيه أجمل شال صوفي مخطط تملكه السيدة ميريويذر ، يتقي به الأمطار ، وقد حيا الفتاتين بابتسامة خفيفة ، فردتا ملوحتين بمنديليهما ، هاتفتين بتحية الوداع المشجع . بيد أن مايبيل الممسكة بذراع سكارلت همست قائلة : «يا للحبيب المسن التعس . إن عاصفة ماطرة خفيفة قد تودي بحياته ! وإن مرضه اللمباغو . . .» .

كان العم هنري هاملتون يسير في الصف الثاني خلف غراندبا ميريويذر ، وياقة معطفه الطويل الأسود مرفوعة لتحمي أذنيه ، وفي حزامه مسدسان من حرب المكسيك ، وفي يده كيس سفر ، وإلى جانبه مشى عبده الأسود الذي كان يقاربه سناً ، يرفع مظلة مفتوحة فوق رأسيهما .

وجنباً إلى جنب مع الشيوخ ، مشى الفتيان الذين لم يبد على أي منهم أنه تجاوز الثالثة عشرة . وكان الكثير من هؤلاء قد هرب من المدرسة ليلتحق بالجيش ، بينما انتظمت هنا وهناك جماعات منهم ترتدي بذلات تلاميذ المدارس الحربية ، وعلى قبعاتهم الرمادية المحكمة الوضع ، المبللة بالمطر ، ريش

الديوك السوداء ، وعبر صدورهم شرائط خشنة نظيفة مبتلة . كان فيل ميد بينهم ، يحمل سيف أخيه القتيل ومسدساته باعتزاز وفخر ، وقد ثبت قبعته على جانب رأسه بظرف ظاهر . وأخذت السيدة ميد تبتسم وتلوح له حتى تجاوزها ، ثم أسندت رأسها هنيهة على خلف كتف سكارلت ، كما لو أن قواها قد خانتها فجأة .

كان العديد من الرجال عزلاً من السلاح ، لأن الحلف لم يكن يملك بنادق وذخائر لتجهيزهم ، وكان هؤلاء الرجال يأملون بتسليح أنفسهم من قتلى الشماليين وأسراهم ، بينما علق الكثيرون خناجر في جزماتهم ، وحملوا في أيديهم قضباناً غليظة طويلة ذات رؤوس حديدية مسننة تعرف بـ«رماح جو براون» . أما المحظوظون ، فقد ظفروا ببنادق كانت متدلية من أكتافهم ، وبأوطاب للبارود متصلة بأحزمتهم .

وكان جونستون قد فقد في أثناء تراجعه حوالى عشرة آلاف رجل ، في الوقت الذي كان هو فيه بحاجة إلى عشرة آلاف جندي آخر جديد ، وهذا ما هو حاصل عليه الآن ، فكرت سكارلت مذعورة .

وفيما راحت المدفعية تقعقع قريباً ناشرة الوحول بين الجمهور المتفرج ، قيّد بصرها منظر زنجي على بغل يركب إزاء مدفع . كان زنجياً يافعاً ، ذا لون كلون السروج ، ووجه مهيب وقور . وعندما رأته صاحت : «إنه موسى ! موسى آشلي ! ماذا يفعل هنا؟» وشقت طريقها وسط الجمهور إلى الرصيف ونادت : «موسى ! قف !» .

شدّ موسى زمام بغله عندما رآها ، وابتسم مبتهجاً ومحاولاً الترجل ، ولكن جاويشاً مبلل الثياب ، يركب خلفه ، صاح به .

- «لا تنزل عن ذلك البغل أيها الشاب ، وإلا سأشعل النار من تحتك ، علينا أن نبلغ الجبل في أقرب وقت» .

وراح موسى ينقل نظره حائراً بين الجاويش وسكارلت التي خاضت في الوحل مقتربة من العجلات المارة ، وأمسكت بحلقة ركاب موسى :

- «ها ، دقيقة واحدة فقط ، أيها الجاويش . لا تنزل يا موسى ، ماذا تعمل هنا؟» .

- «إني ذاهب إلى الحرب ثانية يا آنسة سكارلت . هذه المرة مع السيد جون

العجوز بدلاً من السيد آشلي» .
ـ «السيد ويلكس؟ !» صعقت سكارلت . فقد كان هذا يناهز السبعين عاماً «أين هو؟» .
ـ «في المؤخرة ، مع المدفع الأخير يا آنسة سكارلت . . . في المؤخرة هناك» .
ـ «آسف أيها السيدة ، سر أيها الشاب» .
وقفت سكارلت هنيهة وقدماها غائصان في الوحل حتى الكاحلين ، بينما كانت المدافع تترنح أمامها .
ها ، لا ، تمتمت ، لا يمكن أن يحدث ذلك ، إنه طاعن في السن ، وهو لا يحب الحرب أكثر مما يحبها آشلي . وخطت إلى الوراء قليلاً ، تجاه الرصيف ، تنعم النظر بكل وجه يمر ، ثم عندما وصل المدفع الأخير ، وكان والعربة التي تجره يزمجران ناثرين الوحول ، رأته نحيلاً ، منتصب القامة ، وشعره الفضي الطويل مبلل فوق رقبته ، يركب آمناً ظهر فرس ضامرة توتية اللون ، تأخذ طريقها مدلة بين أخاديد الوحل ، كسيدة في ثوب حريري : تلك الفرس هي نيلي ، نيلي السيدة تارلتون ، حبيبة بياتريس تارلتون ، حبيبتها المصونة !
وعندما رآها تقف في الوحل ، جذب السيد ويلكس عنان فرسه مبتسماً مسروراً ، ثم ترجل متوجهاً نحوها ، وقال :
ـ «لقد رجوت أن أراك يا سكارلت ، فقد كلفت بحمل رسائل كثيرة لك من أهلك ، ولكنني لم أجد متسعاً من الوقت لإبلاغك إياها ، فقد وصلنا هذا الصباح ، وها هم ينطلقون بنا خارجاً على التو ، كما ترين» .
ـ «آه ، سيد ويلكس» ، صاحت يائسة ، ممسكة بيده ، «لا تذهب ! لماذا يتحتم عليك الذهاب؟» .
ـ «ها ، وهكذا أنت تفكرين أني طاعن في السن !» ابتسم ، كانت ابتسامة آشلي في وجه أسنّ . «ربما كنت كبيراً على المشي ، ولكني لست كذلك على ركوب الخيل وإطلاق النار . وقد تلطفت السيدة تارلتون وأعارتني نيلي ، ولذا حظيت بركوب جيد . وأرجو أن لا يصيب نيلي أذى ، لأنه إذا ما أصابها مكروه ، فلن يكون بوسعي العودة إلى البيت ومواجهة السيدة تارلتون ، فنيلي آخر فرس بقي لها» .
واستغرق ضاحكاً ، مبدداً مخاوفها :

- «أمك وأبوك والبنات بصحة جيدة ، وهم يبلغونك تحياتهم . كان والدك على وشك أن يرافقنا هذا اليوم!» .

- «ها ، ليس أبي!» صاحت سكارلت هلعة ، «ليس أبي ، فهو لن يذهب إلى الحرب ، أليس كذلك؟» .

- «نعم ، ولكنه كان سيذهب . طبعاً إنه لا يستطيع المشي طويلاً بركبته المتيبسة ، ولكنه تأهب للرحيل ركوباً معنا ، ووافقت أمك ، شريطة أن يكون قادراً على القفز من فوق حاجز المرعى ، لأنه ، كما قالت ، ستجابهنا في الحرب ضرورات من الركوب العسير» .

واعتقد والدك أن ذلك أمر سهل ، ولكن - هل تصدقين؟ عندما بلغ حصانه الحاجز وقف كالموتى ودفع أباك من فوق رأسه ، ومن العجيب أنه لم يكسر رقبته! إنك تعرفين مدى عناده ، فلقد قام حالاً وحاول امتطاءه ثانية ، وبعدئذ يا سكارلت ، هوى عنه ثلاث مرات قبل أن تساعده السيدة أوهارا وبورك على الوصول إلى سريره . وقد أخذته الدهشة من ذلك ، وأقسم أن والدتك قد همست بكلمة صغيرة في أذن الحصان . إنه لا يصلح للخدمة العسكرية وحسب يا سكارلت ، فلا حاجة بك إذاً إلى الشعور بالعار من جراء ذلك ، فضلاً عن أنه لا بد من بقاء البعض في البيت كي ينتجوا الغلال للجيش» .

لم تشعر سكارلت بالعار مطلقاً ، وإنما شعرت بشعور دافق من الفرح .

- «لقد أرسلت إنديا وهوني إلى ميكون لتقيما مع آل بور ، وسيعتني السيد أوهارا بتولف أوكس إلى جانب تارا . ينبغي أن أفارقك يا عزيزتي ، دعيني أقبل وجهك الجميل» .

فرفعت سكارلت شفتيها وقد أحست بألم خانق في حلقها ، إذ كانت مولعة جداً بالسيدة ويلكس ، ومرة فيما مضى أملت أن تكون كنة له .

- «وعليك أن توصلي هذه القبلة إلى بيتي بات ، وهذه لميلاني» قال ذلك مقبّلاً إياها قبلتين خفيفتين ، «وكيف حال ميلاني؟» .

- «إنها بحالة جيدة» .

- «آه!» ورنت عيناه إليها ، ولكن خلالها - إلى ما ورائها ، كما كانت تفعل عينا آشلي ، عينان رماديتان ساهمتان تنظران إلى عالم آخر ، «كنت أحب أن أرى أول أحفادي ، وداعاً يا عزيزتي» .

وعادت سكارلت فوقفت إلى جانب مايبيل والسيدة ميد ، قبل أن يصعقها مرمى كلماته الأخيرة . وعندئذ رسمت علامة الصليب على صدرها برعب هائل ، وحاولت تلاوة صلاة . لقد تكلم عن الموت ، تماماً كما فعل آشلي ، والآن آشلي - لا ينبغي أن يتحدث أحد عن الموت ! إنها العناية الإلــهية التي تدفع الإنسان إلى ذكر الموت .

وعندما قفلت النسوة الثلاث راجعات إلى المستشفى بوجوه صامتة ، تحت المطر ، كانت سكارلت تصلي : «ليس هو ، أيضاً ، يا الله . ليس هو وآشلي ! أيضاً !» .

استغرق التقهقر من دالتون إلى جبل كنيسو طيلة المدة من أول أيار/ مايو إلى منتصف حزيران/ يونيو . وعندما انقضت أيام حزيران الحارة الماطرة ، وفشل شيرمان في إجلاء الحلفيين عن السفوح الشديدة الانحدار ، رفع الأمل رأسه ثانية ، وازداد الجميع بهجة ، وقويت لهجة العطف على الجنرال جونستون في أحاديث الناس . وعندما انقضت أيام حزيران الرطبة ، لتعقبها أيام تموز الأكثر رطوبة ، وما زال الحلفيون مستميتين في القتال حول المرتفعات المحصنة ، صادّين شيرمان عند حده ، استولت على أتلانتا فرحة عارمة ، وسرى الأمل إلى رؤوسهم .

مرحى ! مرحى ! إننا نصدهم ! وعمت المدينة موجة من الولائم وحفلات الرقص . وكلما حضرت جماعة من المحاربين في الجبال لقضاء الليل في المدينة كلما نصبت موائد العشاء ، وتلا ذلك رقص وتكريم وترفيه من البنات اللواتي كن يفقنهم بالعدد عشرة أضعاف ، كل تنافس زميلتها لتراقصهم .

وازدحمت أتلانتا بالزوار واللاجئين ، بعائلات الجرحى في المستشفيات . بزوجات الجنود المحاربين في الجبال وأمهاتهم ، ممن رغبن في أن يكن قرب ذويهم في حالة إصابتهم ، هذا بالإضافة إلى أسراب من الحسناوات المتسللات من الريف ، حيث لم يبق من الرجال إلاّ من هو دون السادسة عشرة ، أو فوق الستين . وقد اشمأزت العمة بيتي كثيراً من هذه الفئة الأخيرة ، لأنها أحست أنهن لم يأتين إلى أتلانتا إلا لسبب واحد : هو صيد الأزواج . وصفاقة هذا المطلب جعلها تتساءل إلى أين كانت الدنيا تسير !

واشمأزت سكارلت أيضاً دون أن تأبه للمنافسة الغيور ، التي أوجدتها صبايا

السادسة عشرة ، ذوات الخدود الموردة ، والابتسامات المشرقة التي تنسي المرء منظر أثوابهن المقلوبة مرتين ، وأحذيتهن المرقعة .

لقد كانت ملابسها أجمل وأجد من ملابس معظمهن ، ويعود الفضل في ذلك إلى القماش الذي جلبه لها ريت بتلر في الزورق الأخير الذي هربه . ولكن مع ذلك ، كانت في التاسعة عشرة ، وكل يوم كان يزيد في سنها ، والرجال لهم مزاج في مطاردة الفتيات الصغيرات الموردات .

إن أرملة بطفل ليست في مركز متكافئ مع هؤلاء الصبايا الجميلات الخليعات ، فكرت سكارلت ، بيد أن ترملها وأمومتها كانا في هذه الأيام المضطربة أخف عبئاً على كاهلها من قبل ، إذ بين مهمات المستشفى في النهار ، والحفلات في الليل ، كادت لا ترى ويد ، والحقيقة أنها كانت أحياناً ، تنسى لفترات طويلة ، أن لها ولداً .

والحقيقة أن جميع الفتيات لم يكن لينتظرن إذا ما نجحن في الاصطياد ، فمع موجة المسرة الهستيرية ، والمرح الذي غمر المدينة ، اندفعن نحو الزواج ، وتمت أعراس عديدة جداً في ذلك الشهر ، بينما كان جونستون يصد الأعداء عند جبل كنيسو ، أعراس كانت العروس فيها تزدهي بالسعادة الحيّية ، وبالثياب والحلى المستعارة على عجل من دزينة من الصديقات ، وكان العريس يحمل سيفاً يرتطم على سروال مرقع . حفلات عديدة جداً ، ومفاجآت عديدة جداً ، مرحى ! إن جونستون يصد الشماليين على بعد اثنين وعشرين ميلاً . . !

*

في الواقع ، لقد كانت خطوط الدفاع حول جبل كنيسو منيعة لا تقهر ، فبعد خمسة وعشرين يوماً من القتال ، اقتنع بهذا حتى الجنرال شيرمان ، لأن خسائره كانت فادحة . وبدلاً من متابعة الهجوم المباشر ، قذف بجيشه في دائرة واسعة مرة ثانية ، محاولاً عزل الحلفيين عن أتلانتا ، وثانية ، فعلت الستراتيجية فعلها ، وأرغم جونستون على إخلاء المرتفعات التي دافع عنها دفاعاً مجيداً ، ليحمي مؤخرته . كان قد فقد ثلث رجاله في ذلك القتال ، واتخذ الباقون طريقهم تحت الأمطار ، مترنحين منهوكين ، وعبروا الريف نحو نهر تشاتاهوشي ، ولم يكن بوسعهم توقع نجدات أخرى . بينما كان الخط الحديدي الذي أضحى بحوزة الشماليين الآن من تينسي جنوباً حتى خط المعركة ، ينقل

لشيرمان في كل يوم ، جنوداً جدداً ومؤناً . وهكذا تقهقرت الصفوف الرمادية عبر الحقول الموحلة ، تقهقرت نحو أتلانتا .

ومع خسارة الموقع الذي كان قد افترض عدم إمكانية احتلاله ، اجتاح المدينة موجة رعب جديدة . لقد كان الجميع ، طيلة خمسة وعشرين يوماً قضوها في ابتهاج خارق ، يؤكدون لبعضهم أن هذا لا يمكن أن يقع ، وها هو قد وقع الآن ، ولكن حتماً ، سيوقف الجنرال الشماليين على ضفة النهر المقابلة ، مع أن الله يعلم أن النهر كان قريباً جداً ، على بعد سبعة أميال فقط .

غير أن شيرمان التف حولهم مرة أخرى ، عابراً النهر خلفهم ، واضطرت الطوابير الرمادية المنهوكة للإسراع عبر المياه الصفراء ، ولقذف أنفسهم مرة ثانية بين أتلانتا والغزاة ، وعلى عجل ، اندسوا في خنادق ضحلة ، شمالي المدينة ، في وادي جدول بيتشتري . وأطل شبح الموت فوق أتلانتا وساد الرعب .

كرّ وفرّ ! قتال وتقهقر ! وكل تقهقر كان يدني الشماليين من المدينة . إن جدول بيتشتري على بعد خمسة أميال وحسب . بأي خطة يفكر الجنرال؟

وتعالت صيحات «نريد رجلاً يصمد ويقاتل» إلى ريتشموند التي كانت تدرك أنه إذا ما خسرت أتلانتا خسرت الحرب . ولذلك ، وبعد أن عبر الجيش نهر تشاتاهوشي ، أبعد الجنرال جونستون عن القيادة واستلم إمرة الجيش الجنرال هود ، أحد أركان قيادته . وتنفست المدينة الصعداء ، فهود لن يتراجع ، إذ ليس هو ذلك الكنتكي الطويل ، ذا اللحية المتهدلة ، والعين البراقة ! لقد اشتهر بأنه شجاع عنيد . إنه سيطرد الشماليين من الوادي . . . أجل . . . سيطردهم عبر النهر . . . وسيظل يطاردهم فوق كل خطوة من الطريق حتى دالتون . ولكن الجنود كانوا يصيحون : «أعيدوا لنا جو الكبير» لأنهم كانوا قد رافقوا جو الكبير على طول الأميال المنهكة من دالتون ، وكانوا يعرفون أي عقبات كأداء جابهته ، بينما لم يكن بوسع الأهلين معرفة ذلك .

لم ينتظر شيرمان حتى يعدّ هود نفسه للهجوم ، ففي اليوم الذي تلا تغيير القيادة ، انقض الجنرال الشمالي بخفة عل بليدة ديكاتور التي تبعد ستة أميال خلف أتلانتا ، فاحتلها قاطعاً السكة الحديد هناك ، وهي السكة التي تصل أتلانتا بأوغستا ، وبشارلستون ، وبولمنفتون ، ثم بفرجينيا . لقد ضرب شيرمان الحلف ضربة قاصمة ، وآن وقت العمل . إن أتلانتا تصرخ مطالبة ببدء العمل .

وبعد ظهر يوم من تموز/ يوليو، قائظ الحر، نالت أتلانتا أمنيتها، فلم يكتف الجنرال هود بالصمود والقتال، بل هاجم الشماليين بضراوة في وادي بيتشتري، قاذفاً برجاله من خنادقهم في وجه الصفوف الزرقاء، حيث عدد رجال شيرمان يفوق رجاله أكثر من الضعف.

كان الجميع ينصتون، والخوف في قلوبهم، والدعاء على ألسنتهم بأن يبعد هجوم هود الشماليين عن ديارهم، ينصتون إلى دوي المدافع وآلاف البنادق، التي كانت رغم كونها تبعد خمسة أميال عن وسط المدينة، تئز ملعلعة، كأنها تكاد تكون في البناء المجاور. واستطاع الناس سماع دوي المدافع، ورؤية الدخان الذي يحلق كغيوم منخفضة، عالقة فوق الأشجار، ولكن لمدة ساعات، لم يدر أحد شيئاً عن سير المعركة.

وفي ساعة متأخرة بعد الظهر، وصلت الأنباء الأولى، إلا أنها كانت مريبة متضاربة، مرعبة، حملها على علاتها جرحى الساعات الأولى من المعركة. طفق هؤلاء الرجال يهيمون على وجوههم نحو المدينة، فرادى وجماعات، يعين ذوو الجراحات الخفيفة منهم الذين يعرجون ويتعثرون. ثم تبعهم في الحال سيل مستمر ثابت من الجرحى، يشقون طريقهم المترعة بالآلام، نحو المستشفيات في قلب المدينة. وجوههم سوداء كوجوه الزنوج من لطخ البارود، والعرق والغبار، جراحهم بلا تضميد، وقد جفت الدماء عليها، وتجمعت أسراب الذباب حولها.

كان بيت العمة بيتي، أحد البيوت الأولى، التي بلغها الجرحى وهم يفدون قادمين من شمال المدينة، فراحوا يطوحون بأجسادهم على البوابة، رجل في إثر رجل، متهاوين فوق المرجة الخضراء، مدمدمين:

ـ «ماء!».

وطوال بعد ظهر ذلك اليوم الحار، وقفت العمة بيتي وجميع أفراد عائلتها، سود وبيض، يحملون دلاء الماء والضمادات، يفرغون جرع الماء، ويربطون الجراح حتى لم يبق ضمادات، وحتى نفدت كذلك الملاءات والمناشف الممزقة. ونسيت العمة بيتي تماماً أن منظر الدم يصيبها بالإغماء، واستمرت تعمل إلى أن تورمت قدماها الصغيرتان داخل حذائها المفرط في الصغر، ولم يعد يمكنها الوقوف. حتى ميلاني، التي أضحت الآن منتفخة بحملها، نسيت حشمتها،

وعملت كالمحمومة جنباً إلى جنب مع برسي وكوكي وسكارلت ، وكان وجهها مجهداً كوجه أي جريح . وعندما أغمي عليها أخيراً ، لم يجدوا مكاناً يمددونها فوقه سوى منضدة المطبخ ، لأن جميع سرر البيت والكراسي والكنبات كان يشغلها الجرحى .

قبع ويد الصغير ، وقد نسي وسط هذه الجلبة ، خلف الدرابزين في الشرفة الأمامية ، يرنو بناظريه إلى المرجة كأرنب حبيس مذعور ، حدقتاه متسعتان من الرعب ، يمص إبهامه ويفوق ، واتفق أن رأته سكارلت فصاحت بحدة :

ـ «اذهب والعب في الساحة الخلفية يا ويد !» .

ولكنه كان هلعاً جداً ، مبهوراً جداً بهذا المشهد المجنون أمامه ، بحيث لم يسعه تلبية الأمر .

وكانت المرجة مغطاة بالرجال المنطرحين فوقها ، وقد بلغ منهم الإعياء حداً لم يقووا معه على متابعة السير ، واستنزفت قواهم فلم يستطيعوا حراكاً . هؤلاء حملهم العم بطرس في عربته إلى المستشفى ، شحنة بعد شحنة ، إلى أن علت الرغوة مشفري حصانه المسن ، فأرسلت السيدتان ميد وميريويذر عربتيهما ، فساهمتا في عملية النقل أيضاً ، حتى تقوست الزبارك تحت ثقل الجرحى .

فيما بعد ، وخلال الغسق الصيفي المديد الحار ، وصلت سيارات الإسعاف تهدر فوق الطريق من أرض المعركة ، وتبعتها شاحنات التموين مغطاة بالخيش الملطخ بالوحل ، ثم عربات المزارع وعربات الثيران ، وحتى العربات الخصوصية التي صادرتها الكتيبة الطبية . واجتازت القافلة بيت العمة بيتي ، متهادية فوق الطريق الكثيرة الحفر والنتوءات ، غاصة بالجرحى ، وبالذين يعانون سكرات الموت ، تنقط دماً على التربة الحمراء . وعند رؤية النساء يحملن الدلاء والكؤوس توقف الركب ، وانبعث النغم همساً وصراخاً :

ـ «ماء !» .

ومضت سكارلت تسند الرؤوس المترنحة كي تتمكن الشفاه المتحركة ظمأ من نقع غليلها ، وتسكب دلاء الماء فوق الأجساد المحمومة المغبرة ، وفي الجراح المفتوحة ، كي يقوى الرجال على تنفس الصعداء ، ولو لدقيقة واحدة . ثم مشت على رؤوس أصابعها ، لتناول سواقي سيارات الإسعاف كؤوس الماء ، سائلة كلاً منهم ، وقلبها في حلقها : «ما الأخبار؟» ، «ما الأخبار؟» .

ورجع الجواب من جميع الأفواه .

«لا نعرف بالضبط يا سيدة ، فما زال الوقت باكراً جداً على الأخبار» .

وهبط الليل ، ليل حار محتبس الهواء ، أجّج سعيره تلك المشاعل الصنوبرية المتقدة التي حملها الزنوج ، وسد الغبار منخري سكارلت وجفف الهواء الساخن شفتيها ، ولطخ الدم والعرق والوسخ ثوبها الخامي اللاوندي ، المنظف والمنشى حديثاً ، ذلك الصباح بالذات . هذا إذاً ما عناه آشلي عندما كتب أن الحرب ليست المجد ، وإنما هي القذارة والبؤس .

ولمحت سكارلت كيري أشبورن في عداد الطبقة السفلية من طبقات الجرحى في عربة ثيران . كان على شفير الموت بفعل جرح رصاصة في رأسه ، ولكن لم يكن بوسعها انتشاله من بينهم دون مضايقة ستة منهم ، ولذلك تركته يتم رحلته إلى المستشفى . وفيما بعد ، سمعت أنه مات قبل أن يراه الطبيب ، ودفن في مكان ما ، لم يعرفه أحد على وجه التحديد . وهكذا دفن العديد من الرجال ذلك الشهر في قبور ضحلة ، حفرت على عجل ، في مقبرة أوكلاند . وتأثرت ميلاني كثيراً لأنهم لم يستطيعوا الحصول على خصلة من شعر كيري ليرسلوها إلى أمه في ألاباما .

وفيما الليلة الحارة تجر أذيالها ، وظهور النساء تؤلمهن ، وركبهن يابسة من الضنى ، كانت سكارلت وبيتي تستوضحان من رجل بعد رجل :

ـ «ما الأخبار؟ ما الأخبار؟» .

وجاءهما الجواب بينما كانت الساعات الطويلة تمر بطيئة رتيبة ، جواب جعلهما تتبادلان النظرات بوجهين شاحبين غاضت منهما الدماء .

ـ «إننا نتراجع» ، «لقد أرغمنا على التراجع» ، إنهم يفوقوننا عدداً بالألوف» ، «عزل الشماليون فرسان ويلر قرب ديكاتور ، فاضطررنا لنجدتهم» ، «سيصل جنودنا إلى المدينة في الحال» .

تمسكت سكارلت وبيتي كل بالأخرى .

ـ «هل . . . هل الشماليون قادمون؟» .

ـ «نعم . . . إنهم قادمون فوراً . . . ولكنهم لن يستطيعوا التوغل بعيداً يا سيدة» ، «لا تجزعي يا آنسة ، لن يستطيعوا الاستيلاء على أتلانتا» ، «لا يا سيدة ، فلدينا مليون من أميال الاستحكامات المحصنة حول هذه المدينة» ، «سمعت جو

الكبير بنفسي يقول : بوسعي الاحتفاظ بأتلانتا إلى الأبد» ، «ولكن لسنا نملك جو الكبير ، إننا نملك . . .» ، «اخسأ أيها الأحمق ، هل تريد إفزاع السيدات؟ ! ، «لن يحتل الشماليون هذا المكان أبداً يا سيدة» ، «لماذا لم تذهبن أيتها السيدات إلى ميكون ، أو إلى أي مكان آخر آمن من هنا ، أليس لكن أقرباء هناك؟» ، «لن يحتل الشماليون أتلانتا ، ولكن الوضع يبقى عديم الأمان بالنسبة إلى النساء ، في أثناء محاولتهم احتلالها» ، «سيكون هناك ضرب قوي بالقنابل» .

في اليوم التالي ، وتحت مطر دافئ متبخر ، تدفق الجيش المنهزم بالآلاف إلى داخل أتلانتا ، وكان رجاله خائري القوى من الجوع والإرهاق ، ناضبي النشاط بفعل خمسة وستين يوماً من المعارك والتقهقر ، خيولهم تتضور جوعاً وكأنها الأشباح ، مدافعهم وعربات ذخائرهم مشدودة بأطراف الحبال ونتف من السياط وأدوات غريبة أخرى . بيد أنهم لم يدخلوا المدينة كغوغاء منهزمين دبت فيهم الفوضى ، وإنما مشوا في نظام تام ، رافعي الرؤوس ، رغم ثيابهم الرثة ، تخفق راياتهم الحربية الحمراء الممزقة في ثنايا المطر . لقد تدربوا على التراجع تحت إمرة جو الكبير ، الذي جعل من التراجع مأثرة باهرة في الحقل الستراتيجي ، تماماً كالتقدم .

زحفت الطوابير الملتحية ، الزرية المنظر ، إلى نهاية شارع بيتشتري على أنغام نشيد «ماريلاند ، ماريلاندانا» ، وخرج أهل المدينة بأسرهم يحيونهم ، فهم أبناؤهم في النصر أو الهزيمة سواء .

حيَّت الجماهير الجيش كما يمكن أن تحييه في موكب النصر . . . كان الرعب يكمن في كل القلوب ، ولكن ، الآن وقد عرفوا الحقيقة ، الآن وقد وقع المحظور ، الآن وقد أضحت الحرب في ساحتهم الأمامية ، طرأ تغير على الموقف العام ؛ وانتفى الرعب ، وتلاشت الهستيريا ، ولم يعد يظهر على الوجوه شيء مما يكمن في القلوب ، وبدا الجميع مرحين حتى رغم انقضاء المرح ، وحاول كل فرد أن يظهر أمام الجنود بوجه شجاع واثق ، وردد الجميع ما قاله جو الكبير ، قبيل تنحيته عن القيادة «إن بوسعي الصمود في أتلانتا إلى الأبد» والآن كذلك ، وبعد أن اضطر هود إلى التقهقر ، تمنى عدد كبير من المدنيين ، بالإضافة إلى الجنود ، أن لو يعود جو الكبير ، ولكنهم امتنعوا عن التصريح بذلك ، مستلهمين الشجاعة من عبارته : «إن بوسعي الصمود في أتلانتا إلى الأبد» .

لم تكن خطط جونستون الحذرة من رأي هود ، فلقد هاجم الشماليين في الشرق ، وهاجمهم في الغرب ، وكان شيرمان يحاصر المدينة كمصارع يبحث عن مقتل سانح في جسد خصمه ، ولم يقبع هود خلف المتاريس ينتظر الشماليين أن يهاجموه ، بل خرج بجرأة ليقابلهم ، وانقض عليهم بلا رحمة . وخلال أيام قليلة خاض الطرفان معركتي أتلانتا وكنيسة عزرا ، المعركتين الرئيسيتين اللتين جعلتا معركة وادي بيتشتري تبدو أمامهما وكأنها مناوشة صغيرة .

غير أن الشماليين استمروا في جلب النجدات . لقد تكبدوا خسائر فادحة ، إلا أنه كان بوسعهم تعويض الخسائر . وظلت مدفعيتهم طوال المدة تصب حممها على أتلانتا ، تقتل الآمنين في بيوتهم ، وتمزق سقوف المباني ، وتحفر في عرض الشوارع حفراً كفوهات البراكين . وحمى أهل المدينة أنفسهم على خير ما يستطيعون ، فلجأوا إلى الأقبية ، وإلى الكهوف الأرضية ، وأنفاق السكك الحديد القليلة العمق . لقد أضحت أتلانتا بين فكي الحصار .

وخلال الأحد عشر يوماً التي انقضت منذ تسلم الجنرال هود القيادة ، فقد عدداً من الرجال يساوي ما فقده جونستون خلال الأربعة والسبعين يوماً من القتال والتقهقر . هذا علاوة على إحداق الخطر بأتلانتا من ثلاث جهات .

أضحى الخط الحديدي من أتلانتا إلى تنيسي بأسره في يدي شيرمان الذي كان جيشه يقطع الخط الشرقي الآن ، كما قطع الخط الممتد جنوباً بغرب إلى ألاباما ، فلم يبق بأيدي الحلفيين سوى الخط المتجه جنوباً إلى ميكون وسافانا . ولـمّا كانت المدينة تزدحم بالجنود ، وتغص بالجرحى ، وتعج باللاجئين ، أمسى هذا الخط الوحيد عاجزاً عن تلبية الحاجات الصارخة للمدينة المذعورة . ولكن ، رغم ذلك ، كان بوسع أتلانتا الاستمرار في المقاومة ، طالما أن هذا الخط في منأى عن السقوط .

وارتعدت سكارلت فرقاً عندما تحققت مدى الأهمية التي صار إليها هذا الخط ، وعندما تصورت عنف القتال الذي سيخوضه شيرمان من أجل الاستيلاء عليه ، وكيف سيستميت هود في الدفاع عنه ، لأنه الخط الذي يمر خلال الإقليم ، خلال جونسبورو التي لا تبعد عن تارا سوى خمسة أميال ، تارا التي تتراءى لها الآن ملجأ أميناً ، إذا ما قيست بجحيم أتلانتا .

*

جلست سكارلت ، والكثيرات من النساء ، فوق سطوح المخازن ، تظللهن مظلاتهن الصغيرة ، يراقبن القتال في اليوم الأول من معركة أتلانتا . ولكن عندما بدأت القنابل تتساقط في الشوارع للمرة الأولى ، هرعن إلى الأقبية ، وفي الليلة ذاتها بدا رحيل النساء والأطفال والشيوخ من المدينة قاصدين ميكون ، وكان العديد من الذين أخذوا قطار تلك الليلة ، قد لجأوا حتى الآن ، خمس أو ست مرات قبل هذه المرة ، أي منذ راح جونستون يتراجع من دالتون . ولكنهم حملوا معهم الآن أثقالاً أخف من تلك التي كانوا قد حملوها معهم إلى أتلانتا ، لقد حمل معظمهم كيساً صغيراً وغذاء مصروراً في منديل ملون كبير ، وكنت ترى الخدم المرتاعين يهرولون هنا وهناك ، يحملون كؤوساً وشوكات وسكاكين فضية ، ورسماً أو رسمين عائليين ، ممّا أمكن إنقاذه في أثناء الفرار الأول .

رفضت السيدتان ميريويذر وألسنغ مغادرة المدينة ، فلقد كان المستشفى بحاجة إليهما ، بالإضافة إلى أنهما ، كما صرحتا باعتزاز وفخر ، ليستا خائفتين ، ولا يستطيع شمالي تشريدهما من بيتهما . ولكن مايبيل وطفلها ، وفاني ألسنغ نزحن إلى ميكون ، أما السيدة ميد فقد عصت زوجها للمرة الأولى في حياتها الزوجية ورفضت الإذعان لأمره بأخذ القطار إلى موطن السلامة ، قائلة إن الطبيب بحاجة إليها ، إضافة إلى أن فيل قابع في مكان ما في الخنادق ، وهي تريد أن تكون قربه إذا ما . . .

غير أن السيدة ويتنغ سافرت هي وكثيرات من النساء اللواتي يعملن في حلقة سكارلت . أما العمة بيتي ، التي كانت أول من انتقد جو الكبير لسياسة التقهقر التي اتبعها ، فقد كانت في مقدمة الذين حزموا أمتعتهم ، فإن أعصابها ، كما قالت ، حساسة جداً ، وليس بوسعها تحمل الهزات ، وهي تخاف أن يغمى عليها إثر انفجار ، فلا تقوى على بلوغ القبو . لا ، إنها ليست خائفة . . . وحاول فمها الطفلي انتحال الملامح العسكرية ولكنه فشل . . . سوف تذهب إلى ميكون وتقيم مع ابنة عمها ، السيدة العجوز بور ، وعلى الفتاتين أن ترافقاها .

لم تكن سكارلت تودِ الذهاب إلى ميكون ، فعلى الرغم من ذعرها من القنابل فضلت البقاء في أتلانتا على النزوح ، إذ كانت تكره السيدة العجوز بور من صميم قلبها ، لأن هذه قالت منذ سنين إن سكارلت داعرة ، وذلك بعد أن

اكتشفتها تقبّل ابنها ويلي في إحدى حفلات آل ويلكس . . . لا ! أخبرت العمة بيتي ، سأذهب إلى تارا ، وبوسع ميلي مرافقتك إلى ميكون .

وما إن سمعت ميلاني جواب سكارلت حتى طفقت تبكي بكاء المرعوبة الكسيرة القلب ، وبينما هرعت العمة بيتي لإحضار الطبيب ، قبضت ميلاني على ذراع سكارلت متوسلة قائلة :

ـ «عزيزتي ، لا تذهبي إلى تارا وتتركيني ! فسأمسي بوحشة تامة بعيدة عنك . . . آه سكارلت ، سأموت إن بدأ المخاض ولست بجانبي ، أجل ، أجل ، أعرف أن معي العمة بيتي ، وأنها حنونة ، ولكن مع ذلك ، إنها لم تخبر شؤون الولادة مطلقاً ، كما أنها أحياناً تثير أعصابي بشدة ، بحيث أكاد أزعق . لا تهجريني يا عزيزتي ، لقد كنت بمثابة الشقيقة لي تماماً ، وفضلاً عن ذلك . . .» وابتسمت ابتسامة شاحبة صفراء «لقد وعدت آشلي أنك ستعتنين بي . لقد أخبرني أنه سيطلب إليك ذلك» .

حدّقت سكارلت بها مشدوهة . كيف يسع ميلاني أن تحبها كل هذا الحب ، مع بغضها الشديد لها ، بغضها الذي تكاد لا تستطيع إخفاءه؟ كيف يسعها أن تكون بمثل هذه الحماقة المطلقة ، بحيث لا تفطن إلى سر حبها لآشلي؟ لقد فقدت رشدها مائة مرة خلال شهور العذاب هذه ، وهي تنتظر إخباره ، ولكن ميلاني لم تلحظ شيئاً ، ميلاني التي لا تحسن رؤية شيء في أي إنسان تحبه ، سوى نزعات الخير فقط . . . نعم . لقد وعدت آشلي أن تحرص على ميلاني ، آه آشلي ! آشلي ! . . لا بد أنك ميت ، ميت كل هذه الشهور الطويلة ، وها هو وعدك الآن يبلغ سويداء قلبي ، ويقبض علي !

ـ «حسناً» قالت بإيجاز «لقد وعدته ذلك ، وأنا لا أحنث بوعودي ، ولكني لن أذهب إلى ميكون ، وأقيم مع تلك العجوز الحقود ، وإن أنا ذهبت فسأقتلع عينيها بعيد خمس دقائق . . . إني ذاهبة إلى تارا وبوسعك الذهاب معي ، وستسر أمي كثيراً بقدومك» .

ـ «آه ، إني أود ذلك ! إن أمك فائقة الطيبة ، ولكنك تعلمين أن عمتي ستموت فعلاً إن لم تكن إلى جانبي في أثناء المخاض . وأنا أعرف أنها لن تذهب إلى تارا لأنها قريبة جداً من خط النار ، وعمتي تنشد الأمان .

ثارت ثائرة الدكتور ميد وزمجر كثيراً عندما وصل مقطوع الأنفاس وهو

يتوقع رؤية ميلاني تعاني ولادة مبكرة على الأقل ، كما استنتج من استدعاء بيتي المذعورة له . ولكنه عندما اطلع على سبب الإغماء ، فصل في الأمر بكلام قاطع لم يترك مجالاً للنقاش .

ـ «آنسة ميلي ، إن ذهابك إلى ميكون ليس موضوع بحث ، ولن ألبي دعوتك إذا سافرت واستدعيتني ، فالقطارات مزدحمة ولا يعتمد عليها ، إذ من المحتمل إنزال الركاب إلى الغابات في أي وقت إذا ما احتيجت العربات لنقل الجرحى أو الجنود أو المؤن . وفي مثل وضعك . .» .

ـ «ولكن إذا ذهبت مع سكارلت إلى تارا» .

ـ «قلت لك إني أريدك أن لا تسافري ، فقطار تارا هو نفسه قطار ميكون ، والظروف ذاتها هي السائدة ، وفوق ذلك ، لا يعرف أحد أين هم الشماليون الآن؟ غير أنهم منتشرون في كل مكان ، ويمكن لقطارك أن يؤسر . وحتى إذا ما بلغت جونسبورو بأمان فسيكون أمامك خمسة أميال من الركوب الصعب كي تصلي إلى تارا . إنها رحلة لا توافق سيدة في وضع حساس ، بالإضافة إلى أنه لا وجود لطبيب في الولاية منذ أن التحق الدكتور فونتين العجوز بالجيش» .

ـ «ولكن ، يوجد قابلات» .

ـ «قلت طبيب» أجاب بخشونة ، بينما مرت عيناه فوق هيكلها الصغير دون وعي منه ، «لا أريدك أن تسافري ، يمكن أن تكون ولادتك خطرة ، وأنت لا ترغبين في وضع الوليد بالقطار أو بعربة خيل ، أليس كذلك؟» .

هذه الصراحة الطبية ، أفضت بالسيدتين إلى صمت وخجل مربك .

ـ «عليك أن تقيمي هنا حيث أستطيع مراقبتك ، وأن تلزمي الفراش . لا تصعدي أو تهبطي السلم ركضاً إلى القبو ، لا ، حتى ولو دخلت القنابل من النافذة مباشرة ، وعلى كل حال لا وجود لخطر كبير هنا ، فسوف نرد الشماليين مهزومين في أسرع وقت . . . والآن ، يا آنسة بيتي ، سافري رأساً إلى ميكون واتركي السيدتين الشابتين هنا» .

ـ «بلا رقيب؟» صاحت مذهولة .

ـ «إنهما متزوجتان» قال الطبيب برماً «والسيدة ميد على بعد منزلين منهما فقط . وعلى كل حال ، فهما لن ترحبا بمقدم أي رجل ، والآنسة ميلي حبلى . بالله يا آنسة بيتي ! هذا زمن حرب ، ولا نستطيع التفكير بأصول اللياقة الآن ،

علينا أن نفكر بالآنسة ميلي !» .

واندفع خارج الغرفة ، وتوقف في الشرفة الأمامية ، إلى أن لحقت به سكارلت :

ـ «سأتكلم معك بصراحة يا آنسة سكارلت» ابتدرها وهو يحرك بيده لحيته الشائبة ، «يبدو أنك صبية تنعمين بإدراك سليم ، ولذلك جنبيني خجلك . فأنا لا أريد سماع كلام أكثر عن إمكانية نقل السيدة ميلي . إني أشك في استطاعتها احتمال عناء السفر . ستواجه وقتاً عصيباً ، حتى في أحسن الحالات . . . إنها ضيقة جداً عند الوركين كما تعلمين ، وقد نحتاج إلى استعمال الآلة لتوليدها ، ولذلك لا أريد أن تتدخل في شأنها أي قابلة زنجية جاهلة . إن النساء مثيلاتها لا ينبغي لهن إنجاب الأطفال ، ولكن على كل حال احزمي حقيبة الآنسة بيتي وابعثيها إلى ميكون . إنها جبانة جداً بحيث ستربك الآنسة ميلي ، الأمر الذي لن يعود علينا بشيء من الخير . والآن يا آنسة» ، وسدد نظرة نفاذة إليها «لا أريد كذلك أن أسمع أنك سافرت إلى مسقط رأسك ، أقيمي مع الآنسة ميلي ، إلى أن تضع وليدها . لست خائفة ، أليس كذلك؟» .

ـ «آه ، لا» كذبت سكارلت رابطة الجأش .

ـ «إنك فتاة شجاعة ، ستقدم لك السيدة ميد كل ما تحتاجين إليه من رعاية ، وسأرسل بتسي العجوز لتطهو الطعام لكما إذا أرادت الآنسة بيتي اصطحاب الخدم معها . لن يطول الأمر كثيراً ، فلا بد من ولادتها بعد خمسة أسابيع ، ولكنك لا تستطيعين أبداً التكهن بميعاد الطفل الأول ، وكل هذا القذف الداوي مستمر ، فقد تلد في أي يوم» .

وهكذا سافرت العمة بيتي إلى ميكون ، والدموع تطفر من عينيها ، وفي صحبتها العم بطرس وكوكي . وقبل الرحيل ، وهبت الحصان والعربة إلى المستشفى في دفقة من الوطنية ، سرعان ما ندمت عليها ، الأمر الذي زاد في انهمار دموعها . أما ميلاني وسكارلت فبقيتا وحيدتين مع ويد وبرسي في بيت أمسى أكثر هدوءاً على الرغم من استمرار هدير المدافع .

19

عندما كان الشماليون يسحقون هنا وهناك أمام المدافعين عن المدينة في الأيام الأولى من الحصار، استولى الرعب على سكارلت من القنابل المتفجرة، بحيث لم تستطع إلا الانحناء خوفاً وهي عديمة الحيلة، ويداها على أذنيها، تتوقع في كل دقيقة أن يعصف بها الفناء إلى عالم الأبدية. كانت كلما سمعت الصفير الذي ينذر باقتراب القنبلة كلما تندفع إلى غرفة ميلاني وتقذف بنفسها على السرير إلى جانبها فتمسك كل بصاحبتها وتأخذان بالصراخ: آه! آه! دافنتين رأسيهما بين الوسائد. أما برسي وويد فكانا يفران إلى القبو ويجلسان القرفصاء في ظلمته التي يتخللها نسيج العنكبوت: برسي تولول بأعلى صوتها، وويد يشهق ويفوق.

كانت سكارلت، وهي تكاد تختنق تحت وسائد الريش، والموت يزأر فوق رأسها، تلعن ميلاني في سرها، لأنها كانت تمنعها من الالتجاء إلى الزوايا الأكثر أماناً تحت السلالم، ذلك لأن الطبيب منع ميلاني من المشي، فاضطرت سكارلت إلى البقاء معها. وبالإضافة إلى فزعها من أن تتطاير إرباً إرباً، كان هناك فزع رهيب يعادله، فزع ناجم من احتمال مقدم طفل ميلاني في كل لحظة، ولذا كان العرق يسح منها رطباً دبقاً كلما طرق هذا الموضوع تفكيرها... فماذا تفعل إذا دب المخاض؟ كانت تعرف أنها تفضل ترك ميلاني تموت على أن تخرج إلى الشارع وتبحث عن الطبيب تحت وابل القنابل المتساقطة، وكانت تعرف أيضاً أن برسي قد تضرب حتى الموت، قبل أن توافق على المخاطرة والخروج. فماذا تفعل إذا دب المخاض؟

وفي مساء يوم، بحثت هذه الأمور مع برسي في نقاش مهموس، وكانتا تعدان صينية العشاء لميلاني، وأدهشها كثيراً أن تسكن برسي روعها قائلة:

ـ «يا آنسة سكارلت، حتى ولو لم نستطع إيجاد الطبيب في أثناء ولادة ميلاني، فلا تجزعي إن بوسعي تدبر الأمر، لأني أعرف كل ما يتعلق بالتوليد. ألم تكن والدتي قابلة؟ ألم تدربني لأكون قابلة كذلك؟ أتركي الأمر لي وحسب!».

تنفست سكارلت الصعداء ، وقد علمت بوجود الأيدي الخبيرة على مقربة منها ، ولكنها مع ذلك تلهفت للانتهاء من المحنة وتخطيها ، فراحت تصلي كل ليلة ، تحثها الرغبة الجنونية في الابتعاد عن القنابل المتفجرة ، ويحرقها الشوق القاتل للعودة إلى تارا ، موطنها الآمن . وكان لسانها يلهج داعياً أن يقع الحدث المرجو في الصباح التالي ، وبذلك تتحرر من وعدها ، وتستطيع مغادرة أتلانتا . ولقد كانت تارا تبدو آمنة جداً لها ، بعيدة جداً عن كل هذه المآسي .

اشتاقت سكارلت إلى بيتها ، وإلى أمها ، كما لم تشتق إلى أي شيء آخر في عمرها كله . لو أنها فقط قرب إيلين لما أحست بالخوف ، ولما همها الذي حدث ، كانت في كل ليلة ، وبعد نهار حافل بالزعيق والقنابل التي تصم الآذان ، تأوي إلى فراشها ، عازمة على إخبار ميلاني في الصباح التالي أن ليس بوسعها بعد احتمال أتلانتا يوماً آخر ، وأن لا بد لها من السفر إلى البيت ، وأن على ميلاني الانتقال إلى بيت السيدة ميد ، ولكن ما كانت تضع رأسها على الوسادة ، حتى كان ينتصب أمام ذاكرتها وجه آشلي ، كما ظهر في آخر مرة رأته ، مجهوداً كأنه يعاني من ألم داخلي ، إلاّ أن ابتسامة خفيفة كانت تزين شفتيه :

ـ «ستعنين بميلاني . . . أليس كذلك؟ أنت قوية جداً . . . عديني» ولقد وعدته . وها هو الآن يرقد في مكان ما تحت الثرى . وحيثما كان ، فهو يرقبها ، يربطها إلى ذلك الوعد ، وهي لا تستطيع تبديد أمله حيّاً كان أو ميتاً ، ومهما كان الثمن الذي تدفعه . وعلى ذلك ظلت في أتلانتا يوماً بعد يوم .

وفي ردها على رسائل أمها التي كانت تلتمس قدومها إلى البيت ، كانت سكارلت تقلل من شأن أخطار الحصار ، شارحة مأزق ميلاني ، واعدة بالقدوم فور ولادة الطفل . وأجابتها إيلين ، التي كانت تراعي أواصر القرابة ، دموية أم زواجية ، موافقة على مضض ، على وجوب بقائها ، شريطة أن يرحل ويد وبرسي إلى البيت فوراً ، وقد رحبت برسي بهذه الفكرة كثيراً ، بعد أن أضحت الآن في خبل من صرير الأسنان إثر كل صوت مفاجئ ، وبعد أن كانت تقضي معظم الوقت قابعة في القبو ، بحيث كان يمكن أن يسوء غداء الفتاتين ، لولا بيتسي العجوز البليدة ، خادمة السيدة ميد .

كانت سكارلت متلهفة كأمها إلى إبعاد ويد عن أتلانتا ، ليس من أجل

سلامة الطفل وحسب بل لأن خوفه الدائم كان يمضّها .

ولكن قبل أن تتمكن سكارلت من إرسال الاثنين في رحلتهما إلى تارا ، وصلت أنباء تقول بأن الشماليين زحفوا جنوباً ، وأنهم يناوشون الجنوبيين على طول السكة الحديد بين أتلانتا وجونسبورو . . . هب أن الشماليين استولوا على القطار الذي يحمل ويد وبرسي . . . وغاض الدم من وجهي سكارلت وميلاني من جراء هذا الخاطر ، لأن الجميع يعرفون أن فظائع الشماليين في الأطفال القاصرين كانت أبشع حتى من تنكيلهم بالنساء . وهكذا خافت ترحيله إلى البيت ، فبقي في أتلانتا شبحاً صغيراً صامتاً مذعوراً ، يجرجر قدميه خلف أمه ، ويخشى إفلات تنورتها من يده ، ولو لدقيقة واحدة .

دام الحصار خلال أيام تموز/ يوليو الحارة ، أيام راعدة تنصرم بعد ليال من الوحشة والسكون . وبدأت المدينة تنظم نفسها . كان الأمر المحظور قد وقع ، فلم يكن ما يخافونه بعد ، لقد خافوا الحصار وها هم الآن قد وقعوا فيه ، ولم يكن هو على الرغم من كل هذا ، بالشر الأكبر ، فبإمكان الحياة معه أن تستمر على وتيرتها كما حصل معهم . لقد عرفوا أنهم كانوا يعيشون فوق بركان ، ولكن إلى أن يثور هذا البركان ، لم يكن بمقدورهم عمل شيء ، وإذاً فلماذا يقلقون الآن ، وقد لا يثور البركان أبداً . .؟ ثم تأمل فقط كيف يصد الجنرال هود الشماليين خارج المدينة ! وانظر كيف يحمي الفرسان سكة الحديد المؤدية إلى ميكون . . . لا ، لن يقوى شيرمان على احتلال أتلانتا .

ولكن على الرغم من كل اللامبالاة التي كانت متجلية في وجوههم ، اللامبالاة بالقنابل المتساقطة والغذاء المتضائل ، وعلى الرغم من كل تجاهلهم للشماليين الذين كانوا لا يكادون يبعدون ميلاً واحداً عنهم ، وعلى الرغم من كل ثقتهم المطلقة بالجنود الرماديين المرهقين في الخنادق ، كانت تنبض تحت جلودهم ، تماماً ، ريبة نهاشة ، ريبة بما سيحمله لهم يومهم التالي ، ريبة ، قلق ، أسف ، جوع ، وعذاب يسعره الأمل المشرق تارة والخابي طوراً . . . كل هذا كان يبري تلك الجلود . . جلودهم .

واستمدت سكارلت تدريجياً الشجاعة من وجوه أصدقائها الشجعان ، ومن التكيّف الرحيم الذي تفرضه الطبيعة ، عندما يتوجب احتمال ما لا بد منه . غير أنها بالطبع ظلت تقفز عند سماع الانفجارات ، ولكنها لم تكن تجري زاعقة

لتخبئ وجهها تحت وسادة ميلاني ، لقد صار بوسعها الآن أن تبلع ريقها وتقول :

ـ «لقد انفجرت في مكان قريب ، أليس كذلك؟» .

لقد تصرّم عـهد قيلولة بعد الظهـر الناعسة الهادئة ، فعلى الرغم من أن ضجيج المعركة كان يسكن من وقت إلى آخر ، فإن شارع بيتشتري كان لا ينقطع عن الحياة والضجيج طيلة جميع الساعات : فسيارات الإسعاف وعربات المدافع كانت تهدر فوق أرضه والجرحى يتعثرون فيه قادمين من الخنادق ، وفصائل الجنود تندفع في مضاعف سرعتها ، وقد أمرت بالانتقال من خنادق أحد جوانب المدينة إلى نقطة من التحصينات في جانب آخر ، نقطة تعاني ضغطاً شديداً ، ثم كان هنالك المراسلون ، ينطلقون كالبرق في الشارع باتجاه القيادة ، كأن مصير الحلف كان متوقفاً عليهم .

ولطالما ظلت سكارلت في ساعات الليل الأخيرة مستيقظة فوق سريرها ، والأضواء مطفأة ، وميلاني نائمة ، وهي تسمع صرير مزلاج البوابة الأمامية ، وقرعات خفيفة مستعجلة تطرق الباب الأمامي . فقد كان يقف دائماً في الشرفة المظلمة جنود مجهولون ، تخاطبها أصواتهم من الشرفة الحالكة ، أصوات كثيرة متباينة اللهجات ، صوت مهذب طوراً ، منبعث من الظلال يقول :

ـ «اعتذاراتي المتواضعة يا سيدة ، لأني أزعجتك ، ولكن هل بوسعي الحصول على شربة ماء لي ولحصاني؟» .

وصوت أجش تارة أخرى ، يرتفع من جندي جبلي ، وصوت أخن حيناً ، يصدر عن رجل ريفي من سهول وايرغراس الواقعة في أقصى الجنوب ، ثم صوت بطيء هادئ من أحد أبناء الساحل ، صوت كان يعلق بقلبها ، لأنه كان يذكرها بصوت إيلين :

ـ «إن معي زميلاً هنا يا آنسة ، كنت أريد إيصاله إلى المستشفى ، ولكن يبدو أنه لن يبقى على قيد الحياة حتى نبلغه ، فهل بوسعك إدخاله؟» .

ـ «من المؤكد يا سيدة أن بإمكاني الاكتفاء ببعض البلغة ، ومن المؤكد أني سأستسيغ قطعة من خبز الذرة ، على أن لا تبقيك بلا خبز» .

« اصفحي عن دخولي بلا إذن يا سيدة . هل بوسعي قضاء الليلة على شرفتك؟ لقد رأيت الورود ، وتنسمت رائحتها ، وشعرت كأنه بيتي إلى حد كبير ، ولذلك تجرأت على الدخول» .

لا! لم تكن هذه الليالي حقيقية، بل كانت حلماً رهيباً فيه رجال بلا أجساد ولا وجوه، وإنما هم أصوات مرهقة تخاطبها من الظلمة الدافئة. أضف إلى ذلك أن أعمالها كانت مستمرة، من تقديم الماء وجلب الطعام ووضع الوسائل على الشرفة الأمامية إلى تضميد الجراح ولمس رؤوس المائتين القذرة... لا لا يمكن أن يكون قد حدث لها كل هذا!

ومرة في أواخر تموز/ يوليو، كان طارق الليل هو العم هنري هاملتون، العم هنري، ولكنه الآن بدون مظلته ومزادته، وبدون معدته البدينة أيضاً. كانت بشرة وجهه السمين المورد تتدلى في طيات مرتخية كلغد كلب كبير، وكان شعره الأبيض الطويل قذراً بصورة لا توصف، وقدماه حافيتين تقريباً، والقمل يسري في جسده، والجوع يعضه بنابه، غير أن روحه النزقة كانت ما تزال هي هي.

وعلى الرغم من عبارته «لا شك أنها حرب حمقاء، تلك التي يخرج فيها الشيوخ الأغبياء أمثالي لجر المدافع» كان لدى الفتاتين انطباع بأن العم هنري كان يمتع نفسه. فقد كان الجيش بحاجة إلى أمثاله، حاجته إلى الشبان، وكان العم هنري يقوم بعمل شاب، بل إنه استطاع أن يجاري الشباب، الأمر الذي خرج عن طوق غراندبا ميريويذر، كما أخبرهما جذلاً. فقد كان لمباغو غراندبا يؤلمه كثيراً، وقد أراد الكابتن فصله، ولكن غراندبا، رفض العودة إلى البيت قائلاً بصراحة إنه يفضل مذمة الكابتن وتأنيبه على دلال كنته وطلباتها الدائمة في أن يبطل مضغ الطباق، ويغسل لحيته كل يوم.

كانت زيارة العم هنري قصيرة، إذ لم يكن بحوزته إلا إجازة أربع ساعات كان يحتاج إلى نصفها للمسيرة الطويلة من الخندق وإليه.

- «يا فتاتيّ، سوف أنقطع عنكما مدة»، قال ذلك وهو يجلس في مخدع ميلاني، محركاً بسرور قدميه المقرحتين، في دلو الماء البارد الذي وضعته سكارلت أمامه. «ستخرج فرقتنا في الصباح».

- «إلى أين؟» سألت ميلاني مذعورة، قابضة على ذراعه.

- «لا تضعي يدك على...» قال العم هنري منفعلاً «فالقمل يسرح في جسدي، الآفة التي لولاها، ولولا الزحار، لكانت الحرب مجرد نزهة ممتعة، أما إلى أين أنا ذاهب، فلم أبلغ عن ذلك، غير أني كونت فكرة صحيحة عن خطة

سيرنا . سنتجه جنوباً نحو جونسبورو في الصباح ، إن لم أكن على خطإ كبير» .

ـ «ها ! لماذا نحو جونسبورو؟» .

ـ «لأنه سينشب قتال ضار هناك يا آنستي ، سيستولي الشماليون على ذلك الخط الحديدي إن استطاعوا . وإذا ما حدث ذلك فوداعاً يا أتلانتا !» .

ـ «آه عم هنري ، هل تعتقد أنهم قادرون على ذلك؟» .

ـ «ماذا تقولان أيتها الفتاتان ! كيف يقدرون وأنا موجود هناك؟» أجاب العم هنري ساخراً من الرعب في وجهيهما ، ثم أردف جاداً «لا بد أنه سيكون قتالاً ضارياً يا فتاتيّ ، ولا بد لنا من النصر . أنتما تعلمان ، لا شك ، أن الشماليين استولوا على جميع الخطوط الحديدية سوى ذاك الخط الممتد إلى ميكون ، غير أن الخطوط الحديدية ليست كل ما استولى عليه الشماليون ، فقد لا تكونان تعلمان أنهم استولوا على كل طريق ، وكل زقاق عربة ، وكل ممر خيل عدا طريق ماك دونو . لقد أضحت أتلانتا في جوف كيس ، وخيوط هذا الكيس متجمعة في جونسبورو ، فإذا ما احتل العدو السكة الموجودة فيها ، فسيكون بوسعه عندئذ ، شد الخيط ، واصطيادنا ، تماماً كاصطياد سنجاب داخل كيس ، ولذلك لم نضع بحسابنا السماح لهم بالاستيلاء على ذلك الخط . . . يمكن أن أنقطع عنكما فترة يا فتاتيّ . لقد أتيت لوداعكما فقط ، ولأطمئن إلى أن سكارلت ما زالت بجانبك يا ميلي» .

ـ «طبعاً ، إنها بجانبي ، فلا تقلق علينا يا عم هنري ، واحرص على نفسك كل الحرص» .

مسح العم هنري قدميه المبتلتين بقطعة السجاد المهترئة ، وأنّ وهو يرتدي حذاءه المهترئ ، قائلاً :

ـ «يجب أن أذهب ، فعلي أن أقطع خمسة أميال مشياً على قدميّ . هيا يا سكارلت جهزي بعض الطعام لآخذه معي ، أي طعام بحوزتك» .

ونزل إلى المطبخ بعد أن ودع ميلاني بقبلة ، فوجد سكارلت تلف رغيفاً من خبز الذرة مع بعض التفاح في فوطة .

ـ «عم هنري . . هل . . هل الأمر في الحقيقة خطير إلى هذا الحد؟» .

ـ «خطير؟ يا لله ، نعم ! لا تكوني جبانة ، فنحن في الخندق الأخير» .

ـ «هل تظن أنهم سيبلغون تارا؟» .

ـ «كيف . .» راح العم هنري يجيب مغتاظاً من العقلية النسوية التي لا تفكر إلاّ بمصالحها الخاصة ، من خلال القضايا العامة ، غير أنه عندما لمح الهلع والكآبة في وجهها ، هدأ ثورته وقال : «طبعاً لن يبلغوا تارا ، فهي على بعد خمسة أميال من الخط الحديدي ، الخط الذي يبغيه الشماليون . على أن وعيك يا آنستي ليس أكثر من وعي بقة حزيران» . قالها وقد انفجرت ثورته فجأة «إني لم أقطع هذه المسيرة الطويلة الليلة لأودعكما فقط ، وإنما أتيت لإطلاع ميلي على نبإ مؤسف . ولكني عندما هممت بالكلام ، لم أستطع البوح ، ولذلك سأدع الأمر لك لتنفذيه عني» .

ـ «ليس آشلي ـ ألم تسمع أنه . . . ميت؟» .

ـ «أصغي إلي ، كيف يمكنني سماع شيء عن آشلي في الوقت الذي أنا فيه بالخندق ، غائص في الوحل حتى مقعد سراويلي؟» سأل الرجل العجوز محتداً ، «لا ، إن النبأ يتعلق بوالده . لقد قضى جون ويلكس» .

اقتعدت سكارلت كرسياً فجأة والطعام في يدها لم يتم رزمه بعد . وأردف هنري قوله : «وقد جئت لأنبئ ميلي . . . ولكني لم أستطع ، فعليك أن تنبئيها وتقدمي لها هذه» . .

وأخرج من جيبه ساعة ذهبية ثقيلة تتدلى منها بعض الأختام ، ورسماً يدوياً صغيراً للسيدة ويلكس الجدة المتوفاة منذ ردح من الزمان ، وزوجاً من أزرار الردن الكبيرة . وعندما وقع بصر سكارلت على الساعة التي كانت قد رأتها مئات المرات في يد جون ويلكس ، تجلت أمامها الحقيقة الأكيدة تعلن وفاة والد آشلي . وأذهلتها الصدمة فلم تستطع بكاء ولا كلاماً ، بينما تململ العم هنري وسعل دون أن يتطلع إليها ، لئلا يقع نظره على قطرات الدمع فيضطرب ويرتبك .

ـ «كان رجلاً شجاعاً يا سكارلت ، أنبئي ميلي ذلك ، أنبئيها أن تكتب ذلك لابنتيه . وكان جندياً ماهراً على الرغم من سنه الكبير . لقد أصابته قنبلة ، نزلت رأساً عليه وعلى فرسه التي تمزق جسدها ـ لقد أجهزت عليها بنفسي ، تلك المخلوقة التعسة . لقد كانت فرساً صغيرة جميلة ، ومن الأفضل أن تكتبي عنها للسيدة تارلتون أيضاً ، فهي تعلق الكثير عليها . صري الزاد يا بنيتي ، فعلي أن أنطلق . كفى يا عزيزتي . خففي عنك . أي طريقة أفضل من أن يموت العجوز وهو يقوم بعمل الشباب؟» .

ـ «آه ، كان ينبغي أن لا يموت ، كان ينبغي أن لا يذهب مطلقاً إلى الحرب ، كان ينبغي أن يعيش ويرى حفيده ينمو ، وعندها يموت هانئاً مطمئناً في سريره . آه! لماذا ذهب؟ إنه لم يكن يؤمن بالانفصال(*) ، وكان يمقت الحرب و . . .» .

ـ «الكثيرون منا يحملون العقيدة نفسها ، ولكن ما الفائدة؟» وأردف «هل تعتقدين أني أسر في أن أدع رماة الشماليين يتخذونني هدفاً لبنادقهم ، وأنا في هذه السن؟ لكن لا مجال للاختيار أمام الإنسان في هذه الأيام . قبليني قبلة الوداع يا بنيتي ، ولا تجزعي من أجلي ، سأخرج من هذه الحرب سالماً» .

فقبّلته سكارلت وسمعته يهبط السلم في الظلام ، ثم سمعت صرير مزلاج البوابة الأمامية . ووقفت هنيهة تتأمل ذكرياتها ، ثم صعدت السلم إلى غرفة ميلاني .

*

وصلت الأنباء المؤسفة التي تنبأ بها العم هنري في أواخر تموز/ يوليو ، والقائلة إن الشماليين قاموا بحركة التفاف في اتجاه جونسبورو . كان الشماليون قد قطعوا الخط الحديدي في نقطة تبعد أربعة أميال جنوبي البلدة ، ولكن فرسان الحلف أجلوهم عنها ، وعملت سرية المهندسين على إصلاح الخط تحت أشعة الشمس المحرقة والعرق يتصبب من رجالها .

واستبد قلق جنوني بسكارلت ، ومضت ثلاثة أيام والرعب يتضخم في قلبها ، إلى أن وصلت رسالة مطمئنة من جيرالد تؤكد أن العدو لم يبلغ تارا ، وأن سكانها سمعوا ضجيج المعركة دون أن يروا شمالياً واحداً .

كان كتاب جيرالد زاخراً بالجعجعة والمباهاة عن معركة الخط الحديدي ، كأنه هو الذي أنجز هذا العمل الباهر دون معين . ثلاث صفحات كاملة حبرها عن بطولة الجنود ، وأخيراً ، وفي نهاية الرسالة ، تحدث بإيجاز عن أن شقيقتها كارين كانت مريضة بالتيفوئيد كما تقول السيدة أوهارا ، وأن لا داعي للقلق عليها . ولكن ينبغي عدم قدوم سكارلت إلى البيت الآن ، حتى ولو أصبح السفر بالقطار آمناً ، فالسيدة أوهارا مسرورة جداً لأن سكارلت وويد لم يجيئا البيت عند بدء الحصار ، وهي تطلب من سكارلت الذهاب إلى الكنيسة

(*) يعني انفصال الجنوب عن الشمال ، وهي الحركة التي حاولت القيام بها إحدى عشرة ولاية جنوبية سنة ١٨٦٠ ـ ١٨٦١ ما أدى إلى نشوب الحرب الأهلية .

والصلاة من أجل شفاء كارين .

أحست سكارلت بتأنيب الضمير وهي تقرأ هذه الفقرة الأخيرة ، إذ كان قد مضى عليها شهور لم تدخل كنيسة ، ولقد خطر لها يوماً أن هذا التقاعس إثم كبير ، ولكن ، ولسبب ما ، شعرت أن التخلف عن الكنيسة هذه الأيام أخف وزراً منه فيما مضى . بيد أنها أطاعت أمها ودخلت الغرفة وجمجمت صلاة عاجلة ، وعندما نهضت من الركوع ، لم تحس براحة النفس كما كانت تحس قبلاً بعد كل صلاة . وكانت قد شعرت منذ مدة أن الله لم يعد يرعاها ، ولم يعد يرعى الحلفيين والجنوب ، على الرغم من ملايين الصلوات التي كانت تتصعد إليه كل يوم .

جلست في الشرفة الأمامية تلك الليلة ، وكتاب أبيها في صدرها ، حيث تستطيع لمسه بين الفينة والأخرى ، فتقترب من تارا ومن أمها . أما ميلاني فكانت نائمة ، ولم يكن ثمة أمل بقدوم زائر طارئ ، فقد تضاءل عدد الزوار إلى الصفر في الأسبوع الأخير ، لأن كل رجل قادر على المشي أمسى في الخنادق ، أو في مطاردة الشماليين بالريف ، بالقرب من جونسبورو .

والحقيقة أنها قلما بقيت وحيدة كما هي الآن ، وهي التي تمقت الوحدة ، الوحدة التي تدفعها إلى التفكير ، وأفكار هذه الأيام لم تكن سارة . وها هي تغرق كالآخرين في عادة التفكير بالماضي الميت .

وكان يمكنها هذه الليلة ، وأتلانتا ساكنة هادئة ، أن تغمض عينيها ، وتترك العنان لخيالها ، كي يحملها ثانية إلى سكون تارا الريفي ، ويصور لها أن الحياة لم تتغير ولا تتغير . بيد أنها كانت تدرك أن الحياة في الولاية لن تعود إلى ماضيها أبداً . وفكرت بأبناء تارلتون الأربعة ـ التوأم وتوم ، وبويد ـ وأمسك الحزن الصامت بعنقها . أجل ، كان يمكن لستيوارت أو برنت أن يكون زوجها ، ولكن الآن . . وبعد أن انتهت الحرب ، ورجعت لتعيش في تارا ، لن تسمع صيحاتهما المدوية ، وهما يندفعان في ممشى أشجار الأرز العريض . وفكرت بريفورد كالفرت الذي كان يرقص رقصاً ساحراً . . إنه لن يختارها ثانية لتكون شريكته في الرقص . . وفكرت بابني مونرو ، وبجو فونتين الصغير و . . .

ـ «آه ، آشلي !» شهقت مطرقة رأسها بين يديها «لن أقوى على فراقك» .

وسمعت صوت البوابة الأمامية تفتح ، فرفعت رأسها بسرعة ، وأمرّت يدها

تمسح عينيها المخضلتين . وعندما نهضت رأت ريت بتلر يتقدم في الممشى ، حاملاً بيده قبعة باناما عريضة ، ولم تكن قد رأته منذ اليوم الذي قفزت فيه من عربته العالية في فايف بوينتس ، حيث عبرت عن رغبتها آنئذ في أن لا تقع عيناها عليه في المستقبل . ولكنها الآن أحست بالسرور يغمرها ، لظفرها بإنسان تتحدث معه ، إنسان يروّح عن أفكارها عن آشلي . ولذلك سرعان ما أبعدت ذكراه عن مخيلتها . وكان من الواضح أن ريت نسي الحادث العارض أو قد يكون تظاهر بنسيانه ، فقد جلس على أعلى درجة عند قدميها ، دون أن يتطرق لموضوع الخلاف بينهما .

ـ «هكذا لم تلجأي إلى ميكون ! سمعت أن الآنسة بيتي قد نزحت ، وعندئذ ظننت بالطبع أنك نزحت أيضاً ، ولذلك دهشت عندما رأيت المنزل مضاء فأتيت لأستوضح عن سبب تخلفك؟» .

ـ «بقيت لأكون بجانب ميلاني . أنت تعرف أنها . . . حسناً ، ليس بوسعها النزوح في هذا الوقت بالذات» .

ـ «يا للهول» ، قال ، وعلى ضوء المصباح استطاعت رؤية وجهه يتجهم ، «أنت لا تقصدين القول لي إن السيدة ويلكس ما زالت هنا؟ ! لم أسمع بحياتي بلهاً كهذا ، إن خطراً بالغاً يتهدد مَن في مثل حالتها» .

وصمتت مرتبكة ، فحالة ميلاني ليست مما يبحث مع رجل ، وكذلك أربكها أن يشعر ريت بالخطر على ميلاني ، فذاك الشعور كان يمض أي عزباء .

ـ «ليس من الشهامة مطلقاً أن لا تفكر بأن من المحتمل أن يلم بي سوء كذلك» ، قالت بحدة .

فرقصت عيناه طرباً :

ـ «سأحميك من الشماليين في أي وقت» .

ـ «لست واثقة من أن هذا إطراء لي» قالت بارتياب .

ـ «لا ، ليس إطراء» أجاب ، «متى ستكفين عن تقصي الإطراء في أبسط أقوال الرجال؟» .

ـ «عندما أكون على فراش الموت» . أجابت مبتسمة ، وهي تفكر أنه لا بد أن يوجد ، دوماً ، رجال يطرونها . حتى ولو أن ريت لم يفعل ذلك أبداً .

ـ «غرور . . . غرور» قال ، «لقد جاهرت به على الأقل» .

وفتح علبة السيجار وتناول واحداً، وقربه من أنفه لحظة، ثم أشعل عود ثقاب وأحنى قامته، مسنداً ظهره إلى عمود الشرفة، ومحتبياً بيديه، ثم راح يدخن بصمت لهنيهة قصيرة، بينما عاودت سكارلت ترنحها، والظلمة تلفهما بسكونها الشامل، ودفئها الليلي. وارتفع من زاوية الورود والعندليب، نغم لين حيي من طيور الحداء المعششة فيها، والتي أفاقت من نومها، ولكنها ما عتمت أن أغرقت في الصمت ثانية وكأنها قد فكرت بالأمر بشكل أفضل.

وفجأة ارتفعت ضحكة ريت من بين ظلال الشرفة، ضحكة خفيفة ناعمة.

- «وهكذا مكثت مع السيدة ويلكس! إن هذه أغرب حالة قابلتها في حياتي».

- «لا أرى وجه غرابة فيها» أجابت حانقة، متنبهة إلى قصده على الفور.

- «لا، ولكن في هذه الحال، تعوزك وجهة النظر المحايدة. كانت انطباعاتي منذ وقت مضى توحي بأن من العسير عليك احتمال السيدة ويلكس، فأنت تعتقدين أنها سخيفة حمقاء، كما أن آراءها الوطنية تكدّرك، وقلّ أن تمر فرصة دون أن يزل لسانك بعبارة تحقير لها، ولذلك فمن الطبيعي أن يبدو غريباً بالنسبة إلي اختيارك الإقدام على هذه التضحية، والبقاء إلى جانبها وسط هذا القذف من المدفعية. ما هو السبب الحقيقي الذي دفعك لهذا العمل؟».

- «لأنها شقيقة شارلي - وكشقيقة لي» أجابت بما استطاعت من وقار ورزانة، مع أن الحرارة توهّجت في وجنتيها.

- «تقصدين لأنها أرملة آشلي ويلكس».

فنهضت وهي تغالب سخطها.

- «كنت على وشك أن أصفح عن زلّتك السالفة الفظة، ولكني الآن لن أفعل ذلك. والحقيقة أني ما كنت لأدعك تطأ هذه الشرفة أبداً لولا أني كنت منقبضة الصدر كئيبة و...».

- «اجلسي ورتبي شعرك المشعث» قال وقد تغيرت لهجته، ثم نهض وأمسك بيديها، وأعادها إلى كرسيها، «لماذا أنت منقبضة الصدر؟».

- «آه! تلقيت اليوم رسالة من تارا تقول إن الشماليين على مقربة من بيتنا، وإن شقيقتي الصغرى مريضة بالتيفوئيد و... و... ولذلك، حتى ولو كان بوسعي الآن الذهاب إلى البيت، كما هي رغبتي، فلن تدعني أمي لئلا يصيبني الداء أيضاً. آه، يا الله، إني شديدة الرغبة في العودة إلى البيت!».

ـ «على كل حال ، لا تبكي من أجل ذلك» قال وقد ازدادت لهجته عطفاً ، «فأنت آمن هنا منك في تارا . حتى لو غزا الشماليون المدينة ، فإنهم لن يؤذوك ، بينما سيؤذيك التيفوئيد» .

ـ «الشماليون لن يؤذوني؟ ! كيف تستطيع التفوه بكذبة كهذه؟» .

ـ «يا فتاتي العزيزة ، الشماليون ليسوا شياطين ، وليس لهم قرون أو حوافر كما يبدو أنك تعتقدين ، إنهم شديدو الشبه بالجنوبيين . . عدا أنهم بالطبع أسوأ أخلاقاً ، ويتكلمون لهجات غريبة جداً» .

ـ «كيف ، الشماليون سوف . . .» .

ـ «يغتصبون عفافك؟ لا أعتقد . مع أنهم طبعاً سوف يودون ذلك» .

ـ «إذا كنت ستسف بالحديث فسأدخل البيت» صاحت مبتهجة شاكرة لأن الظلمة تكتنف وجهها القرمزي .

ـ «كوني صريحة ، ألم يكن ذلك ما فكرت به؟» .

ـ «حتماً لا !» .

ـ «ها ، ولكن كان ذلك ما فكرت به بعينه ! ولا فائدة من ثورتك علي ، لأني أقرأ أفكارك ، وذلك ما تفكر به كل سيداتنا الجنوبيات ، ذوات التربية الرقيقة والعقول الساذجة . إنهن يضعن ذلك نصب أعينهن بشكل دائم . أراهنك أنه حتى المسنات كالسيدة ميريويذر . . .» .

بلعت سكارلت ريقها بصمت ، وتذكرت أنه حيثما اجتمعت سيدتان أو أكثر في هذه الأيام العصيبة ، فإنهن كن يتهامسن بوقائع كهذه كانت تحدث دائماً في فرجينيا وتنيسي ولويزيانا ، لا في الأنحاء القريبة مطلقاً ، كان الشماليون يغتصبون عفاف السيدات ، يبقرون بطون الأطفال بحرابهم ، يحرقون البيوت على رؤوس العجائز والشيوخ ، وكان الجميع يعلمون أن هذه الأنباء حقائق واقعة ، على الرغم من أنهم لم يكونوا يتفوهون بها جهراً في زوايا الشوارع . ولو كان ريت يملك قليلاً من الحشمة لأمن بواقعية هذه الأحداث ، ولما تكلم عنها ، إضافة إلى أن المسألة لم تكن مبعث مزاح .

وأمكنها سماعه يضحك سراً ، ضحكة ناعمة . إنه مقيت أحياناً ، بل الحقيقة إنه مقيت معظم الأحيان . إن من الزري بالرجل أن يعرف ما يدور بخاطر المرأة ويتحدث به ، إذ إن ذلك يجعلها تحس وكأنها عارية تماماً ، كما أن أحداً من

الرجال لم يطلع على أنباء كهذه من السيدات الشريفات ، ولذلك ، غضبت سكارلت لأنه قرأ ما يدور بخاطرها ، وهي التي ترغب في الاعتقاد بأنها شيء غامض بالنسبة إلى الرجال ، مع أنها كانت تعرف أن ريت يعتبرها شفافة كالزجاج .

ـ «بمناسبة الحديث في هذا الموضوع» ، تابع قوله «هل عندك في البيت من يحميك أو يراقبك؟ السيدة المحترمة ميريويذر أو السيدة ميد؟ كلتاهما تنظران إلي دائماً وكأنهما تعتقدان بأن وجودي هنا لا يحمل قصداً شريفاً» .

ـ السيدة ميد تأتي عادة في الليل» ، أجابت سكارلت مغتبطة بتغيير موضوع الحديث ، «بيد أنها لا تستطيع المجيء هذه الليلة لأن ابنها فيل عاد إلى البيت» .

ـ «إن من حسن حظي أن ألقاك وحيدة» قال برقة ، ولكن شيئاً في صوته جعل قلبها يقرع في تسارع سار ، وأحست بوجهها يحمر خجلاً . لقد سمعت تلك النغمة كثيراً في أصوات الرجال ، بحيث تدرك أنها تمهد لإعلان الحب . آه ، ما ألذها مناسبة . إن هو فقط صرح الآن بأنه يحبها ، فكيف ستعذبه وتسوي حسابها معه ، مقابل كل تلك العبارات الساخرة التي لذعها بها خلال السنين الثلاث الماضية؟ ستقوده إلى مأزق حرج يعادل في وطأته ذلك الإذلال الرهيب الذي انتابها يوم شاهدها تصفع آشلي ، ثم تخبره بكياسة أن بوسعها اعتباره كشقيق لها وحسب ، وبعدئذ تنسحب بكل أمجاد الحرب الظافرة . وقهقهت بعنف ، متوقعة ما يسرها .

ـ «لا تقهقهي» قال آخذاً يدها ، ثم قبّلها ضاغطاً شفتيه على راحتها . وما إن لمس فمه الدافئ بشرتها ، حتى شعرت بشيء كهربائي دافق ينتقل منه إليها ، شيء هز جسدها بعنف . وزحفت شفتاه إلى معصمها ، وأدركت أنه لا بد سيحس بخفقان نبضها ، لأن قلبها كان يتسارع وجيبه ، ولذلك حاولت جذب يدها . ولم تكن قد ساومت من قبل على مثل هذا . . . هذا الدفق الدافئ الخائن من الأحاسيس ، الذي جعلها ترغب في إمرار يديها بين شعره ، وفي أن تحس شفتيه تلثمان فمها .

إنها ليست أسيرة حبه ، حدثت نفسها مرتبكة ، إنها أسيرة حب آشلي . ولكن ، كيف يكمن تفسير هذا الشعور الآني الذي جعل يديها ترتعشان وقرارة معدتها تحس؟ وضحك برقة :

ـ «لا تجذبيها، فلن أؤذيك».

ـ «تؤذيني؟ أنا لست خائفة منك يا ريت بتلر، أو من أي رجل ينتعل حذاء جلدياً!» صاحت وهي تتميز غيظاً بحيث ارتعش صوتها ويداها.

ـ «عاطفة تدعو للإعجاب، ولكن خفضي صوتك، فقد تسمعك السيدة ويلكس. أرجوك أن تهدئي ثائرتك».

وجاءت كلماته كما لو أنه كان مغتبطاً لثورتها: «سكارلت أنت تميلين إلي، أليس كذلك؟» لقد كان ذلك أكثر مما كانت تتوقع.

ـ «... بعض الأحيان» أجابت بحذر «عندما لا تتصرف كوغد».

فضحك ثانية رافعاً راحة يدها إلى وجنته:

ـ «أعتقد أنك تميلين إلي لأني وغد. لقد عرفت قليلاً جداً من الأوغاد المختبئين وراء ثيابهم، خلال حياتك المحصنة، بحيث أن مجرد اختلافي عنهم يحمل سحراً غريباً بالنسبة إليك».

لم يكن هذا هو الدور الذي توقعت أن يلعبه، ولذلك حاولت ثانية نزع يدها من قبضته، دون أن تفلح.

ـ «ليس صحيحاً ما تقول، فأنا أميل إلى الرجال الشرفاء، الرجال الذين يمكن الاعتماد على مروءتهم دائماً».

ـ «تقصدين الرجال الذين يمكنك العربدة عليهم دائماً. القضية تنحصر في اختلاف التعريف وحسب وليس هناك أي فرق».

وقبّل راحتها ثانية، وثانية اقشعرّ جلد ظهر رقبتها بشكل مثير.

ـ «ها»، فكرت منتشية بالفوز، لقد وقع في يدي الآن! ثم أجابت ببرود مقصود: «في الحقيقة لا، يعني... لن يكون ذلك قبل أن تحسن أخلاقك تحسيناً كبيراً».

ـ «ليست لدي نية على تحسينها، ولن يمكنك حبي إذاً؟ وهذا ما كنت أرجوه، لأني لا أحبك، رغم ميلي العظيم إليك. وعلى ذلك سيكون من المؤلم حقاً بالنسبة إليك أن تعاني الأمرّين من حب غير متبادل. أليس كذلك يا عزيزتي؟ هل تسمحين بأن أدعوك «عزيزتي» يا سيدة هاملتون؟ سأدعوك عزيزتي، شئت أم أبيت، لا فرق عندي فاللياقة لا بد أن تراعى».

ـ «ألا تحبني؟».

- «نعم ، لا أحبك ، في الحقيقة ، هل كنت تأملين في أن أحبك؟» .
- «لا تكن وقحاً إلى هذا الحد!» .
- كنت تأملين! وأأسفاه على تحطيم آمالك . كان ينبغي أن أحبك لأنك حسناء وموهوبة في مآثر كثيرة تافهة . بيد أن كثيراً من السيدات ينعمن بالحسن والمواهب وهن عديمات الجدوى مثلك . لا ، أنا لا أحبك ، ولكنني أميل إليك ميلاً هائلاً لمرونة ضميرك ، لأنانيتك التي نادراً ما كلفت نفسك مؤونة إخفائها ، ولواقعيتك الماكرة التي أخشى أن تكوني ورثتها من جد إيرلندي ريفي لا يبعد عنك كثيراً» .
ريفي! ما هذا! إنه يهينها! راحت تجمجم بإبهام .
- «لا تقاطعيني» رجاها ضاغطاً يدها «إني أميل إليك لأني أملك هذه الصفات ذاتها ، والنظير يخلق في النفس الهوى . لقد ثبت أنك ما زلت تكرمين ذكرى السيد ويلكس ، والذي من المرجح أن يكون في قبره خلال هذه الشهور الستة ، ولكن ينبغي أن يوجد لي في قلبك متسع أيضاً . سكارلت كفي عن الحركة ، إني أصارحك . لقد رغبت فيك منذ المرة الأولى التي وقع بصري فيها عليك في قاعة تولف أوكس ، عندما كنت تخلبين عقل شارلي هاملتون المسكين ، رغبت فيك أكثر مما رغبت في أي امرأة أخرى» .
وتولتها الدهشة ، وشخصت نحوه محتبسة النفس ، بفعل كلماته الأخيرة ، فعلى الرغم من جميع إهاناته ، كانت تحس أنه يحبها ، ولكنه كان مشاكساً بحيث لم يشأ التصريح بذلك قولاً ، خوفاً من أن تقابل تصريحه بالضحك . . . حسناً ، سوف تريه ، والآن فوراً .
- «هل تسألني التزوج بك؟» .
فأفلت يدها فجأة ، وقهقه بصوت مرتفع مدو جعلها تتراجع منكمشة في كرسيها .
- «يا لله! لا! ألم أخبرك أني لست رجل زواج؟!» .
- «ولكن . . . ولكن . . . ماذا . . .» .
ونهض على قدميه في الحال ، ووضع يده على قلبه ، وانحنى أمامها انحناءة سخرية :
- «عزيزتي» ، قال بهدوء «إني أطري مواهبك عندما أسألك أن تكوني محظيتي دون أن أكون أنا الذي أغويتك أول مرة» .

ـ «محظية! وماذا ينالني من ذلك غير مجموعة من أولاد السفاح؟» .

ثم فغرت فاها مذعورة ، عندما تحققت بشاعة ما نطقت به ، وأغرق هو في الضحك حتى كاد يغص ، ورنا إليها من بين الظلال ، وهي تجلس هلعة صامتة ، تضغط منديلها على فمها .

ـ «ذلك هو سبب ميلي إليك . إنك المرأة الصريحة الوحيدة التي أعرفها ، المرأة الوحيدة التي تنظر إلى النواحي العملية من الأمور دون أن تشوه النتائج بالهذيان حول الخطيئة والفضيلة . كما أن أي امرأة أخرى كان يمكن أن يغمى عليها أولاً ، ثم تريني الباب» .

فوثبت على قدميها ووجهها مخضب بالعار . كيف وسعها أن تتفوه بكلام كهذا !؟ كيف وسعها وهي ابنة إيلين ، بتربيتها الراقية ، أن تجلس هناك وتصغي إلى كلمات فاسقة كتلك ثم ترد بجواب سليط كهذا؟ كان ينبغي أن تصرخ ، كان ينبغي أن يغمى عليها ، كان ينبغي أن تدير ظهرها وتنسحب ببرود وبسكينة ، وتغيب عن الشرفة ، لقد تأخرت الآن كثيراً .

ـ «سأريك الباب» ، صرخت دون أن تبالي بما إذا كانت ميلاني أو آل ميد يسمعونها من الشارع «اخرج ، كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الأمور؟ ما الذي بدر مني لتشجيعك . . لعلك تظن . . . اخرج وإياك العودة إلى هنا ، إني أعني ما أقوله هذه المرة . إياك أن تعود إلى هنا بأي من رزمك التافهة من الإبر والشرائط . تعتقد أني سوف أصفح عنك ، سوف . . . سوف أخبر والدي وسيقتلك» .

فالتقط قبعته وانحنى ، ورأت فمه في ضوء القنديل يفتر عن ابتسامة تحت شاربيه ، وتراءى لها أنه يشعر بالعار وإنما طرب فرحاً بما قاله ، وأنه كان يراقبها باهتمام متيقظ .

آه ، لقد كان مقيتاً لا يطاق! واستدارت على قدميها ، ومشت إلى داخل البيت ، ثم أمسكت بمصراع الباب لتغلقه في قذفه مدوية ، ولكن الكلابة التي كانت تحتفظ به مفتوحاً كانت أثقل مما تستطيع رفعه ، فبذلت كل ما في وسعها وهي تلهث .

ـ «هل تسمحين بمساعدتك؟» سألها .

ولكنها انطلقت تصعد السلم ، وقد أحست أنها ستتفجر دماً إن هي انتظرت دقيقة أخرى . وعندما بلغت الطابق العلوي ، سمعته يغلق الباب عنها بعنف .

*

20

مع أواخر أيام آب/ أغسطس الحارة انقطع قذف القنابل فجأة، واستولت الدهشة على أهل المدينة من هذا الهدوء الشامل الذي اكتنفهم، وراح الجيران يلتقون ببعضهم في الشوارع يتبادلون النظرات مشدوهين مرتابين، قلقين مما قد يتهددهم. لم يكن هذا السكون الذي تلا تلك الأيام الهادئة يحمل في شموله نهاية لتوتر الأعصاب المرهقة، بل إنه، إذا أمكن القول، زاد في توترها وإرهاقها، ولم يدر أحد لماذا صمتت مدفعية الشماليين، ولم يسمع من الأنباء إلا أن الجنود ينسحبون من استحكاماتهم حول المدينة، ينسحبون بأعداد كبيرة متجهين إلى الجنوب، للدفاع عن السكة الحديد. ولم يكن أحد يعرف أين يدور القتال، إذا كان يوجد قتال حقاً، أو كيف تدور المعركة إذا كان هناك من معركة.

ففي هذه الأيام، كان النبأ الوحيد هو ذلك الذي ينتقل من فم إلى آخر، وذلك بسبب النقص في الورق والحبر والرجال، الأمر الذي اضطر الجرائد إلى التوقف عن الصدور، فراحت أغرب الإشاعات تنبع من مصادر مجهولة وتجتاح المدينة. والآن في هذا السكون المغلق، حاصرت الجماهير مركز قيادة الجنرال هود تنشد الأنباء، وكذلك تجمعت جماهير أخرى حول دائرة البرق والمحطة، تأمل في سماع البشائر، البشائر الطيبة. فقد كان الجميع يأملون أن يكون صمت مدافع شيرمان يعني تقهقر الشماليين تقهقراً تاماً ومطاردة الحلفيين لهم شمالاً على الطريق إلى دالتون. ولكن لم يصل أي نبإ، وظلت أسلاك البرق ساكنة، والقطارات منقطعة عن القدوم فوق الخط الحديدي الوحيد الذي ظل يصل المدينة بالجنوب، كما أن الخدمة البريدية كانت متوقفة.

جاء الخريف بحرارته التي تقطع الأنفاس والمصحوبة بالغبار، يتسلل ليخنق المدينة التي هدأت فجأة، ليضيف عبثه الجاف إلى القلوب القلقة المعناة. وبدا لسكارلت، المتلهفة حتى الجنون إلى سماع شيء عن تارا، والتي حاولت على الرغم من ذلك الاحتفاظ بمظهر الشجاعة، بدا وكأن زمناً سرمدياً انقضى منذ بدء الحصار، وكأنها قضت حياتها ودوي المدافع دائماً في أذنيها، إلى أن خيم

هذا السكون المشؤوم . ومع ذلك ، فلم يكن قد مضى على بدء الحصار أكثر من ثلاثين يوماً ، ثلاثين يوماً من الحصار والمدينة محاطة بالخنادق الحمراء الترية ، ودوي المدافع المجلجل لا ينقطع ، وسيل عربات الإسعاف وعجلات الثيران التي كانت تنقط الدم على الشوارع المغبرة ، تتجه نحو المستشفيات ، وفرق الدفن المنهوكة تجرجر الرجال الذين لم تكن جثثهم قد بردت ، وتودعهم التراب ككتل خشبية ، في صفوف لا تنقطع من الحفر الضحلة ! . . . ثلاثون يوماً فقط ! .

وكان مضى أربعة أشهر منذ زحف الشماليون جنوبي دالتون ! فقط أربعة أشهر ! هجست سكارلت عائدة بالذكرى إلى ذلك اليوم البعيد ، الذي كان كأنه وقع في حياة أخرى . آه لا ! حتماً ليست شهوراً أربعة فقط . . . بل عمراً مديداً .

منذ أربعة أشهر ! فقط منذ أربعة أشهر لم تكن دالتون ورسكا وجبل كنيسو بالنسبة إليها سوى أسماء نقاط على الخط الجنوبي وحسب ، بينما هي الآن أسماء معارك ، معارك حاسمة سفح الدم في أرضها سدى ، بعد أن تراجع جونستون نحو أتلانتا . وكذلك وادي بيتشتري وديكاتور وكنيسة عزرا ووادي يوتوي ، لم تعد بعد اليوم أسماء بهيجة لأماكن بهيجة ، ولم يعد بوسعها أبداً التفكير بهذه الأسماء كقرى وادعة تزخر بالأصدقاء الكرماء ، أو كبقاع خضراء تذهب إليها للنزهة مع الضباط الوسام على ضفاف النهيرات البطيئة الجريان . لقد كانت هذه الأسماء تعني المعارك أيضاً ، ولقد تقطعت الحشائش الطرية الخضراء ، حيث كانت تجلس ، إرباً إرباً بفعل عجلات المدافع الثقيلة . كانت تدوسها الأقدام اليائسة كلما تصافحت الحراب ، كانت تلتصق بالأرض عندما تتدحرج عليها الأجسام هاذية بسكرات الموت . . .

وأخيراً وصلت الأنباء من الجنوب إلى المدينة المتوترة الأعصاب . كانت أنباء مذهلة ، خصوصاً لسكارلت ، أنباء تقول إن الجنرال شيرمان يحاول اقتحام الجهة الرابعة من المدينة مرة ثانية ، ضارباً مرة ثانية الخط الحديدي عند جونسبورور ، وإن أعداداً هائلة من الشماليين تتأهب في جانب المدينة الرابع ، وإنها ليست وحدات استكشافية أو فصائل فرسان ، بل قوى الجيش الرئيسية . ولذلك سحب ألوف الحلفيين من الخطوط القريبة من المدينة ليطوحوا بأنفسهم

في وجه العدو ، وهذا ما يفسر السكون المفاجئ .

ـ «لماذا جونسبورو؟» هجست سكارلت والرعب يقرع قلبها ، وهي تفكر بقرب تارا من المكان ، «لماذا يتوجب عليهم دائماً مهاجمة جونسبورو؟ لماذا لا يجدون مكاناً آخر يهاجمون منه السكة الحديد؟» .

ولم تكن قد تلقت شيئاً من تارا منذ أسبوع ، والرسالة الأخيرة الموجزة من أبيها زادت من مخاوفها ، لقد أصيبت كارين بنكسة ، وهي الآن مريضة جداً جداً . وهكذا ستمضي أيام قبل أن يصل البريد ، أيام قبل أن تسمع ما إذا كانت كارين حية أو ميتة . آه ، لو أنها فقط ذهبت إلى البيت في بدء الحصار دون أن تلتفت إلى ميلاني أو غيرها !

لقد كان هناك قتال في جونسبورو ، هذا كل ما علمت به أتلانتا ، ولكن ، لم يكن بوسع أحد معرفة سير القتال . وراحت الإشاعات المفزعة ترهق أعصاب المدينة . وأخيراً وصل ساع من جونسبورو بالنبإ المطمئن القائل بأن الشماليين قد دحروا ، إلا أنهم كانوا قد قاموا بهجوم على جونسبورو وأحرقوا المحطة وقطعوا أسلاك التلغراف ، ونسفوا ثلاثة أميال من الطريق قبل انسحابهم . واندفعت سرية المهندسين تعمل كالمجانين في إصلاح الخط ، ولكن ذلك سيستغرق وقتاً ، لأن الشماليين دمروا العوارض الخشبية وأحرقوها في نيران هائلة ، واضعين فيها القضبان الحديدية الملوية ، حتى أضحت حمراء كالجمر ، ثم ثنوها حول أعمدة التلغراف حتى بدت كلوالب ضخمة . وكان تأمين قضبان حديدية أمراً صعباً في هذه الأيام شأن كل المواد الحديدية .

لا ، لم يدخل الشماليون تارا ، لقد أكد ذلك الساعي نفسه الذي حمل الرسائل إلى الجنرال هود ، أكد ذلك لسكارلت ، وكان قد قابل جيرالد في جونسبورو بعد المعركة ، في اللحظة ذاتها التي كان يهم فيها بالانطلاق إلى أتلانتا ، وقد رجاه جيرالد أن يحمل رسالة إلى ابنته .

«ولكن ماذا كان يعمل والدي في جونسبورو؟ فبدا القلق على وجه الساعي ، وهو يجيب على سؤالها . كان جيرالد يبحث عن أحد أطباء الجيش ليصحبه إلى تارا .

وبينما هي واقفة على الشرفة الأمامية ، تشكر الشاب على جهوده ، أحست بركبتيها لا تقويان على حملها . لا بد أن تكون كارين بين أنياب الموت إذا

كانت حالتها قد تجاوزت مهارة إيلين الطبية إلى درجة اضطرت جيرالد إلى البحث عن طبيب . وعندما غادرها الساعي في زويعة صغيرة من الغبار الأحمر ، شقت الغلاف بأصابعها المرتعشة ، فإذا بجيرالد قد كتب رسالته بين سطور رسالتها الأخيرة ، نظراً لكون الورق نادراً جداً في بلاد الحلف في هذا الوقت . ولذلك وجدت صعوبة في قراءة الرسالة .

«ابنتي العزيزة : لقد أصاب التيفوئيد أمك وشقيقتك . إنهما في حالة شديدة من المرض ، ولكن ينبغي أن نأمل تحسن حالتهما . عندما لزمت أمك الفراش ، رجتني أن أكتب إليك ، كي لا تجيئي هنا بأي وجه من الوجوه ، لئلا تعرضي نفسك ووبد للوباء . إنها تبعث لك بتحياتها وتطلب منك الصلاة من أجلهما» .

«الصلاة من أجلهما !» ونهبت سكارلت السلم نهباً إلى غرفتها ، وركعت على ركبتيها إزاء السرير ، وصلت كما لم تصل من قبل ، دون تقيد بعبارات التسابيح الشكلية ، وإنما بتكرار الكلمات نفسها مرات متعددة : «يا إلــهي ، لا تتركهما تموتان ! سأكون صالحة جداً إذا لم تدعهما تموتان ! أرجوك ، لا تدعهما تموتان» .

وخلال الأسبوع التالي ، كانت سكارلت تجول في البيت كحيوان مذعور تنتظر الأخبار ، ترهف السمع عند سماع أدنى وقع حوافر الخيل ، وتندفع هابطة السلم المظلم في الليل عندما يقرع الجنود الباب ، ولكنها لم تسمع شيئاً عن تارا . وتراءى لها كأن عرض القارة الأميركية كان يفصلها عن البيت ، بدلاً من خمسة وعشرين ميلاً من الطريق الأغبر .

كان البريد ما زال يتعرض للإتلاف ، ولم يكن أحد يعرف مكان الحلفيين ، أو إلى أين وصل الشماليون ، ولم يكن أحد يعلم شيئاً سوى أن الآلاف من الجنود الرماديين والزرق يتمركزون في مكان ما ، بين أتلانتا وجونسبورو . ومضى أسبوع ، ولم تصل كلمة واحدة من تارا .

لقد عاينت سكارلت إصابات كثيرة من التيفوئيد في مستشفى أتلانتا ، بحيث كانت تعرف ما يعنيه أسبوع من ذلك المرض الرهيب .

إن أمها مريضة ، وربما كانت تعاني سكرات الموت . وها هي سكارلت هنا في أتلانتا عاجزة عن إتيان أي عمل ، وامرأة حامل بين يديها ، وجيشان يقفان بينهما وبين البيت . إن إيلين مريضة . . وربما كانت تعاني سكرات الموت .

ولكن إيلين لا يمكن أن تمرض! إنها لم تمرض مطلقاً في الماضي! إن مجرد فكرة مرض إيلين أمر لا يمكن تصديقه، أمر يقرع الأسس ذاتها التي تقوم عليها طمأنينة حياة سكارلت. كل إنسان آخر انتابه المرض، ولكن إيلين لم ينتبها أبداً. إن إيلين كانت تعتني بالمرضى من الناس وتنقذهم من أمراضهم، فلا يمكن أن تمرض هي.. إن سكارلت تريد الذهاب إلى تارا، إنها تريد بلوغ تارا بالرغبة الجامحة لطفلة مرتاعة مهووسة تنشد الملجأ الوحيد الذي عرفته في حياتها.

البيت! البيت الأبيض المسطح، ذو السجف الموآجة البيضاء على نوافذه، والبرسيم الكثيف في مرجته التي يزدحم النحل حولها، والصبي الأسود الصغير على الدرجات الأمامية يهش على البط والديوك الرومية، يبعدها عن أحواض الزهور، والحقول الحمراء الوقورة الساكنة، والأميال العديدة من القطن، المكتسبة لونها الأبيض في أشعة الشمس! البيت!

ـ «آه، لعنة الله على ميلاني»، هجست ألف مرة «لماذا لم تتمكن من الذهاب إلى ميكون مع العمة بيتي؟ فذاك مكانها، تبقى فيه مع أقربائها وليس معي، فأنا لست قريبتها. لماذا تتعلق بي بهذه القوة؟ لو أنها ذهبت إلى ميكون، لكان بوسعي العودة إلى البيت، إلى أمي. حتى الآن.. وحتى الآن، لولا هذا الوليد لاغتنمت أي فرصة وعدت إلى البيت، على الرغم من الشماليين، ربما منحني الجنرال هود حرساً لمرافقتي، فهو رجل طيب، وأنا واثقة أن بوسعي جعله يمنحني حرساً وعلم هدنة أبيض يحميني عبر الخطوط الحربية... ولكن علي أن أنتظر قدوم هذا الوليد.

«آه، أماه! أماه! لا تموتي... لماذا لم يأت هذا الوليد بعد؟ سأقابل الدكتور ميد اليوم وأسأله عما إذا كان هناك أي وسيلة للإسراع بالولادة كيما أستطيع العودة إلى البيت ـ إذا ما تمكنت من الحصول على حرس. لقد قال الدكتور ميد إنها ستعاني في أثناء الولادة. يا لله! هب أنها ماتت، ميلاني ميتة. ميلاني ميتة. وآشلي ـ لا، لا ينبغي أن أفكر بهذا، فليس هذا حسناً. ولكن آشلي ـ لا، ينبغي أن لا أفكر بذلك لأنه من المحتمل أن يكون ميتاً على كل حال. ولكنه ساقني إلى الوعد بأن أعتني بها، فإذا لم أعتن بها، وماتت، وظهر أن آشلي لا يزال حياً ـ لا، ينبغي أن لا أفكر بذلك. إنه تفكير آثم، ولقد وعدت

الله أن أكون صالحة إذا هو فقط لم يأذن بموت أمي وأختي . آه لو أن الوليد يولد الآن ، لو أن بوسعي الرحيل من هذا المكان ، الرحيل إلى البيت ، الرحيل إلى أي مكان غير هذا المكان» .

وأطلّ اليوم الأخير من آب يحمل معه الإشاعات المؤكدة بأن أعظم قتال ، منذ ابتداء معركة أتلانتا ، كان يدور الآن ، في مكان ما إلى الجنوب . وانتظرت أتلانتا تحول مجرى المعركة ، منقطعة حتى عن محاولة الضحك أو المزاح ، فالجميع يعرفون الآن ما عرفه الجنود منذ أسبوعين ـ أن أتلانتا في الخندق الأخير ، وأنه إذا ما سقط خط حديد ميكون سقطت أتلانتا أيضاً .

*

في صباح اليوم الأول من أيلول/ سبتمبر ، استيقظت سكارلت يتملكها شعور ضاغط من الرعب يجثم على صدرها ، رعب اصطحبته معها إلى وسادتها في الليلة السابقة . وفكرت ، والنوم في عينيها ، ما الذي كان يؤرقني عندما أويت إلى فراشي ليلة الأمس «ها . إنه القتال ، كانت هناك معركة في مكان ما أمس ! آه ، من كسبها؟» وجلست في سريرها على عجل ورزح عبء الأمس على قلبها المؤرق ثانية .

كان كل شيء في المدينة ساكناً ، وهذا السكون الذي حياها هذا الصباح تراءى لها أكثر شؤماً حتى من سكون أي من أصبحة الأسبوع الصامت القريب الذي سبقه . نهضت مسرعة دون أن تمارس تثنيها وتمطيها المعتاد ، تمهيداً لمباشرة أعمال اليوم ، واتجهت إلى النافذة ، آملة رؤية وجه أحد الجيران ، أحد المناظر المشجعة ، ولكن الطريق كانت خالية . وشاهدت سكارلت كيف أن أوراق الشجر كانت لا تزال خضراء اللون قاتمة ، لكنها جافة مكسوة بطبقة كثيفة من الغبار ، وكيف أن الأزهار المهملة كانت تبدو ذابلة حزينة في الساحة الأمامية .

وفيما هي واقفة تسرح النظر من النافذة ، تناهى إلى سمعها صوت بعيد جداً ، صوت خافت كئيب كالرعد الشرارة الأولى لعاصفة تقترب .

«مطر» فكرت للوهلة الأولى ، ثم أضاف عقلها الريفي المنبث «نحن بحاجة إليه حتماً» ، بيد أنها ما عتمت أن أردفت على الفور «مطر؟ لا! ليس مطراً! إنه مدفع !» .

وانحنت فوق النافذة وقلبها يتسارع وجيبه ، وأذنها مرهفة إلى الدوي البعيد

البعيد ، تحاول اكتشاف الجهة الصادر عنها . ولكن الهدير الخافت كان بعيداً جداً ، بحيث لم تستطع لهنيهة ، معرفة المصدر .

ـ «اجعله من ماريبتا يا إلــهي» صلت ، «أو من ديكاتور أو وادي بيتشتري ، لا من الجنوب ! لا من الجنوب !» وأمسكت بالنافذة بقوة أشد ، وأرهفت أذنيها ، وبدا الدوي البعيد وكأنه أشد ارتفاعاً . . . وكان آتياً من الجنوب .

مدافع إلى الجنوب وإلى الجنوب تقع جونسبورو وتارا ـ وإيلين .

ربما كان الشماليون في تارا الآن ، هذه الدقيقة ! وأصغت ثانية ، ولكن ضجيج الدم ملأ أذنيها مختلطاً بدوي المدافع البعيدة . لا ، لا يمكن أن يكونوا في جونسبورو الآن ، فلو كانوا على ذلك البعد لكان الصوت أخفت ، وأقل جلاء . لا بد أن يكونوا على بعد عشرة أميال على الأقل ، فوق الطريق المؤدية إلى جونسبورو . قد يكونون قرب مستعمرة رف إند ريدي ، ولكن جونسبورو لا تكاد تبعد عن رف إند ريدي عشرة أميال !

مدافع إلى الجنوب ، وقد يكون القوم يقرعون ناقوس سقوط أتلانتا . ولكن بالنسبة إلى سكارلت ، المريضة هلعاً على سلامة أمها ، كان القتال في الجنوب يعني القتال قرب تارا . ومشت في الغرفة وهي تهصر يديها ، وحضرتها الفكرة بكل مضامينها ، إن الجيش الرمادي يمكن أن ينهزم . ولقد أضاء ذلك أمام مخيلتها التفكير بآلاف شيرمان القريبين جداً من تارا ، التفكير الذي جلب لها الرعب التام من الحرب ، كما لم تستطع مدافع الحصار ، وهي تهشم زجاج النوافذ ، ولا حرمان الغذاء والكساء ، ولا الصفوف اللانهائية من الموتى . إن جيش شيرمان على بعد أميال قليلة من تارا ! وحتى لو هزم الشماليون فسيتراجعون عبر الطريق المؤدي إلى تارا ، ولن يسع جيرالد النزوح من طريقهم بثلاث نساء مريضات .

آه ، ليتها هناك الآن وحسب ، سواء أكان يوجد شماليون أم لا . وخطت فوق الأرض بقدميها العاريتين وثوب نومها ملتصق بساقيها ، وكلما تتابعت خطواتها ، تفاقم تشاؤمها . إنها ترغب في أن تكون في البيت ، إنها ترغب في أن تكون على مقربة من أمها .

ومن المطبخ ، في الطابق السفلي ، سمعت قرقعة الصحون الصينية بينما كانت برسي تعد الفطور ، ولكنها لم تسمع ما يشير إلى وجود بتسي آل ميد .

ثم علا صوت برسي الكثيب الحاد بأغنية «أيام قليلة فقط بقيت ، لتحمل العبء المنهك . . .» ومزقت الأغنية شغاف قلب سكارلت ، وهالتها معانيها الحزينة ، فتسربلت بدثار ، وخرجت إلى القاعة ثم إلى السلم الخلفي صائحة :

ـ «كفي عن ذلك الغناء يا برسي !» .

وحمل الهواء لأذنيها ، نعم يا سيدتي ، كئيبة النغم ، وشهقت شهيقاً عميقاً ، وفجأة ، شعرت بالخجل من نفسها .

ـ «أين بتسي؟» .

ـ «لا أدري ، لم تأت» .

ومشت سكارلت إلى باب غرفة ميلاني ، وفتحته قليلاً ، متفرسة في الغرفة المشمسة . كانت ميلاني تضطجع فوق سريرها في ثياب النوم ، عيناها مغمضتان يحوطهما السواد ، ووجهها الشبيه بالقلب منتفخ ، وجسدها النحيل مشوه مخيف ، فتمنت سكارلت ، تحثها نزعة الشر ، أن لو يرى آشلي زوجته الآن ، فهي تبدو أبشع منظراً من أي حامل رأتها . وفيما هي تتأملها ، فتحت ميلاني عينيها ، وأضاءت بسمة ناعمة دافئة أسارير وجهها :

ـ «ادخلي» دعتها ، مستديرة على جنبها بعناء «لقد استيقظت منذ الشروق ، وما زلت أفكر ، ويوجد شيء أريد أن أسألك عنه يا سكارلت» .

دخلت سكارلت الغرفة وجلست على حافة السرير الذي كان يتلألأ بأشعة الشمس الحارقة .

واشرأب عنق ميلاني ، وأخذت يد سكارلت في قبضة خفيفة تنم عن الثقة وقالت :

ـ «عزيزتي ، إني آسفة بسبب هذه المدافع ، إنها باتجاه جونسبورو ، أليس كذلك؟» .

ـ «نعم . . .» وطفق قلبها يتسارع خفقانه ، عندما عادت الفكرة إلى خاطرها .

ـ «إني أعرف مدى جزعك ، وأعرف أنك كنت ستعودين إلى البيت في الأسبوع الماضي عندما علمت بمرض أمك ، لولا قضية ولادتي ، أليس كذلك؟» .

ـ «بلى» قالت سكارلت بخشونة .

ـ «سكارلت ، عزيزتي ، لقد كنت ودودة جداً إلي ، وليس بوسع الشقيقة

أن تكون أشجع أو أكثر طيبة منك ، ولذلك فإني أحبك . إني آسفة أني أحس بالمخاض» .

فجحظت عينا سكارلت . تحبها ! هل تحبها حقاً؟ ! إنها لحمقاء !

ـ «سكارلت ، إني مضطجعة هنا وأنا أفكر . إني أريد أن أسألك إحساناً كبيراً» وشدت قبضتها ، «إذا ما مت ، فهل تأخذين طفلي؟» .

كانت عينا ميلاني متسعتين ، تشعان بإلحاح حنون «هل تأخذينه؟» .

فأفلتت سكارلت يدها ، وقد اجتاحها الخوف ، الخوف الذي هدج صوتها ، فأصبح أجش :

ـ «لا تكوني جبانة يا ميلاني . لن تموتي . كل امرأة تعتقد أنها ستموت في أثناء الولادة الأولى ، وأنا أذكر أني اعتقدت ذلك» .

ـ «لا ، إنك لم تعتقدي ذلك ، إنك لم تخافي يوماً من أي شيء ، إنما تقولين هذا لتشجعيني وحسب . أنا لست خائفة من الموت ، ولكني خائفة من أن أترك الوليد وحيداً . إذا كان آشلي . . سكارلت ، عديني أنك ستأخذين وليدي إذا ما لفظت روحي ، وعندها لن أخاف شيئاً . إن العمة بيتي بات مسنة جداً بحيث لن يسعها تربية طفل ، وهوني وإنديا طيبتان ، ولكن ـ أريدك أنت أن تأخذي طفلي . . نشئيه نشأة آشلي ، وإذا ما كانت طفلة ـ يا عزيزتي فأريدها أن تكون مثلك» .

ـ «يا إلــهي !» ، صاحت سكارلت قافزة عن السرير ، «أليست الأمور على ما يكفي من السوء ، حتى تتحدثي عن الموت؟» .

ـ «آسفة يا عزيزتي . ولكن عديني ، أظنها ستكون اليوم ، إني واثقة أنها اليوم ، أرجوك عديني» .

ـ «حسناً ، أعدك» «قالت سكارلت ، رانية إليها بعينين حائرتين» .

هل كانت ميلاني حمقاء ، إلى هذه الدرجة ، بحيث أنها لا تدري بتعلقها بآشلي حقاً ، أو أنها تعرف كل شيء وتعتقد ، أنه بسبب ذلك الحب ، ستعتني سكارلت اعتناء تامّاً بطفل آشلي . وشعرت سكارلت برغبة خارقة لتصبح مستوضحة ، ولكن الأسئلة ماتت على شفتيها عندما أخذت ميلاني يدها ، وضغطتها لهنيهة على وجنتيها ، ثم عادت الطمأنينة إلى عينيها .

ـ «لماذا تعتقدين أنها ستكون اليوم يا ميلاني؟» .

ـ «منذ الفجر وأنا أحس بآلام ـ ولكنها ليست مبرحة على كل حال» .

ـ «أهكذا؟ حسناً ، لماذا لم تستدعيني؟ سأبعث برسي في طلب الدكتور ميد» .

ـ «لا ، لا تفعلي ذلك الآن . أنت تعرفين مدى انشغاله الآن ،مدى انشغال الجميع . ابعثي فقط له بكلمة تنبئه أنّا سنحتاج إليه في وقت ما هذا اليوم . ابعثي فوراً إلى السيدة ميد وأخبريها أن تأتي في الحال ، وتجلس إلى جانبي ، فهي تعرف متى ينبغي استدعاء الطبيب تماماً .

ـ «كفي عن هذه التضحية . أنت تعرفين أنك بحاجة إلى طبيب ، كأي إنسان آخر في المستشفى . سأستدعيه الآن فوراً» .

ـ «لا ، أرجوك أن لا تفعلي ، فأحياناً يستغرق المخاض النهار بطوله ، وأنا لا أستطيع حجز الطبيب ليجلس هنا ساعات ، في الوقت الذي يحتاج فيه جميع أولئك الشبان التعساء إليه . استدعي فقط السيدة ميد ، فهي تعرف» .

ـ «حسناً سأفعل» .

*

21

أرسلت سكارلت برسي في طلب السيدة ميد بعد أن بعثت صينية فطور ميلاني إلى الطابق العلوي، وجلست وويد لتناول فطورهما، ولكنها افتقدت الشهية تماماً، فبسبب مخاوفها القلقة لقرب ولادة ميلاني، وتوتر أعصابها اللاواعية لسماع دوي المدافع، لم تستطع ازدراد الطعام إلاّ بصعوبة. كان قلبها يقرع بشكل غريب جداً، يدق بانتظام لدقائق معدودة، ثم تسمع وجيبه عالياً متسارعاً بحيث يكاد يسقم معدتها.

كان ويد أهدأ مما هو في العادة، ولم يتذمر كعادته كل صباح من عصيدة الذرة التي كان يمقتها كثيراً، بل التهم الملاعق التي كانت أمه تدفعها في فمه صامتاً، وغسل ذلك بجرعات من الماء بادية الصوت. وكانت عيناه العسليتان الناعمتان تتبعانها طيلة الوقت، عينان كبيرتان مستديرتان كدولارين، تنطقان بحيرة الطفل، كما لو أن مخاوفها المحجوبة بصعوبة قد انتقلت إليه. وعندما فرغ من الطعام أرسلته إلى الساحة الخلفية كي يلهو ويلعب، وتأملته براحة نفسية كبيرة وهو يعبر عبر العشب المشعث إلى مكان لعبه.

ونهضت ثم وقفت على أسفل السلم مترددة، غير مستقرة على رأي. ينبغي أن تصعد وتجلس إلى ميلاني وتبعد تفكيرها عن محنتها القادمة، بيد أنها لم تحس بكفاءتها للقيام بذلك العمل. وعلى ميلاني أن تختار هذا اليوم ذاته لولادتها، وعليها أن تختاره دون غيره للتحدث عن الموت!

وجلست على درجة السلم السفلى، تحاول جمع شتات جأشها، متسائلة مرة أخرى كيف دارت معركة الأمس، وكيف يسير القتال اليوم. ما أغرب أن تكون المعركة الكبيرة دائرة على بعد أميال قليلة منك وأنت تجهل كل شيء عنها! ما أغرب هدوء هذا الطريق المهجور من المدينة إذا ما قيس بما كان عليه يوم القتال في وادي بيتشتري! كان بيت العمة بيتي أحد البيوت المتطرفة في ناحية أتلانتا الشمالية، ولـمّا كان القتال يدور في مكان ما إلى الجنوب البعيد، لذلك لم تمر بجانب البيت نجدات بالسرعة المضاعفة، ولا سيارات إسعاف، ولا صفوف مترنحة من الجرحى العائدين على أقدامهم، وتساءلت سكارلت إذا

كانت مناظر كهذه قد فرضت على الناحية الجنوبية من المدينة ، وشكرت الله على أنها ليست هنالك .

آه ، ليت الجميع الذين نزحوا ، باستثناء آل ميد وآل ميريويذر ، لم يغادروا ناحية بيتشتري الشمالية هذه . إنها تشعر بالعزلة والوحدة ، وتمنت بلهفة حارة أن لو كان العم بطرس معها لاستطاع الذهاب إلى القيادة والاطلاع على الأنباء ، لو لم تكن قضية الولادة هذه ، لانطلقت هي إلى المدينة في هذه الدقيقة ذاتها ، وعرفت الأخبار بنفسها ، ولكنها لا تستطيع مغادرة البيت إلى أن تصل السيدة ميد . لماذا لم تصل بعد؟ وأين برسي؟

ونهضت خارجة إلى الشرفة الأمامية ، وبحثت عنهما بفروغ صبر ، غير أن منزل آل ميد كان يقع خلف منعطف ظليل من الشارع فلم تستطع رؤية أحد . وبعد فترة طويلة ظهرت برسي للعيان وحيدة ، تمشي متسكعة متوانية كما لو أن النهار بطوله أمامها ، تطوح بتنورتها من جانب إلى جانب ، ثم تنظر من على كتفها لتراقب النتيجة .

ـ «إنك بطيئة ثقيلة الخطو» صاحت سكارلت فيما كانت برسي تفتح البوابة ، «ماذا قالت السيدة ميد ، بعد كم من الوقت ستكون هنا؟» .

ـ «ليست في البيت» قالت برسي .

ـ «وأين هي؟ متى ستعود إلى البيت؟» .

ـ «لقد» أجابت برسي متشدقة بكلماتها بسرور لتضفي أهمية أكثر على أنبائها «قالت طاهيتهم إن السيدة ميد خرجت مبكرة هذا الصباح لأن السيد فيل الصغير أصيب برصاصة ، فامتطت السيدة العربة مع تالبوت الشيخ وبتسي وذهبوا لإحضاره إلى البيت . وتقول الطاهية إن إصابته بليغة ، وإن السيدة لن تفكر بالقدوم إلى هنا» .

اتسعت عينا سكارلت وهي تحدق فيها ، وساورتها الرغبة في هزها ، فالزنوج دائماً يشعرون بالكبرياء وهم ينقلون الأخبار السيئة .

ـ «حسناً ، لا تقفي هناك كالحمقاء . اذهبي إلى بيت السيدة ميريويذر ، واسأليها الحضور ، أو إرسال مربيتها . هيا ، أسرعي» .

ـ «ليسوا في البيت يا آنسة سكارلت ، لقد عرجت عليهم وأنا في طريقي إلى البيت لأمضي النهار مع مربيتهم فلم أجد أحداً ، وألفيت الباب موصداً .

أظن أنهم في المستشفى» .

ـ «هكذا أضعت وقتك إذاً! حين أرسلك إلى مكان عليك أن تذهبي حيث أخبرك ، ولا تقفي لتزجي شيئاً من الوقت مع أي إنسان ، هيا اذهبي» .

وصمتت لتصفي ذهنها ولتفكر بالذين بقوا في المدينة مع أصدقائهم ، ممن يمكن أن يساعدوها . كان هناك السيدة ألسنغ . طبعاً إن السيدة ألسنغ لم تكن تميل إليها أبداً هذه الأيام ، ولكنها كانت دائماً مغرمة بميلاني .

ـ «اذهبي إلى بيت السيدة ألسنغ ، واشرحي لها كل شيء بعناية ، والتمسي قدومها . أصغي إلي يا برسي ، لقد حانت ولادة السيدة ميلاني ومن المحتمل أن تحتاج إليك في أي دقيقة الآن ، فأسرعي وعودي رأساً إلينا» .

ـ «أجل» قالت برسي ، والتفتت وهي تسير فوق الممشى بسرعة السلحفاة .

ـ «أسرعي ، أسرعي أيتها الكسولة» .

ـ «سمعاً وطاعة يا سيدتي» .

وحثت برسي خطاها بسرعة ضئيلة لا تذكر ، وعادت سكارلت إلى داخل البيت ، وترددت ثانية قبل الصعود إلى غرفة ميلاني . . ستضطر إلى أن تشرح لها سبب عدم تمكن السيدة ميد من القدوم ، وقد يكدرها معرفة أن فيل ميد أصيب بجراح بليغة . . حسناً ، ستختلق كذبة في هذا الموضوع .

ودخلت غرفة ميلاني ، ورأت صينية الفطور كما هي لم تمس ، بينما اضطجعت ميلاني على جنبها ، ووجهها غائض الدم .

ـ «السيدة ميد في المستشفى» قالت سكارلت ، لكن السيدة ألسنغ قادمة . هل تحسين بألم شديد؟» .

ـ «ليس شديداً . . .» كذبت ميلاني «سكارلت ، كم استغرقت من وقت حتى ولدت ويد؟» .

ـ «أقل من أن يذكر» أجابت سكارلت بمرح لم تستشعره أبداً «كنت آنذاك في الساحة خارج البيت ، وبالكاد استطعت بلوغ غرفتي في الداخل . لقد قالت مامي إنها ولادة فاضحة ـ تماماً كولادة إحدى الزنجيات» .

ـ «أرجو أن أكون كإحدى الزنجيات أيضاً» قالت ميلاني مستجمعة قواها في ابتسامة اختنقت فجأة عندما غضن الألم وجهها .

ونظرت سكارلت إلى وركي ميلاني الصغيرتين بأمل غير قوي ، بيد أنها

قالت مطمئنة «ها ، ليسا في الحقيقة ضيقتين كثيراً» .

ـ «آه ، أعرف ذلك ، وأخشى أن أكون جبانة نوعاً ما . هل السيدة ألسنغ قادمة على الفور؟» .

ـ «نعم على الفور» ، قالت سكارلت «سأنزل وأجلب بعض الماء النظيف لأمسح العرق عن جسدك ، فالنهار حار جداً» .

وتأخّرت في إحضار الماء بحيث بددت ما استطاعت من وقت ، وكانت تجري نحو الباب الأمامي ، بين الدقيقة والأخرى ، لترى إذا كانت برسي قادمة .

لم يكن هناك أثر لبرسي ، ولذلك صعدت إلى الطابق العلوي ومسحت جسم ميلاني الناضح عرقاً ، ومشطت شعرها الأسود الطويل .

بعد مضي ساعة ، سمعت وقع خطوات ضعيفة لزنجية قادمة من أعلى الشارع ، وعندما نظرت من النافذة رأت برسي عائدة على مهل تطوح بتنورتها كما في المرة الأولى ، وتدفع برأسها إلى الوراء ، بكثير من الحركات المتكلفة الرشيقة ، كما لو كان جمهور كبير يتأملها باهتمام .

ـ «سأحمل السوط ذات يوم على تلك اللئيمة الصغيرة» تمتمت سكارلت حانقة ، مسرعة على الدرج لتقابلها .

ـ «إن السيدة ألسنغ في المستشفى . لقد رأت طاهيتهم مجموعة كبيرة من الجنود الجرحى قادمين باكراً في القطار . وها هي الآن تحضر حساء لتأخذه معها إلى المستشفى وقد قالت ـ» .

ـ «لا بأس مما قالت» ، قاطعتها سكارلت وقلبها يغلي .

ـ «ارتدي ثوباً نظيفاً لأني أريدك أن تذهبي إلى المستشفى ، سأحملك رسالة للدكتور ميد ، وإذا لم تجديه أعطيها للدكتور جونز أو أي من الأطباء الآخرين ، وإذا لم تعودي سريعاً هذه المرة فسأسلخ جلدك» .

ـ «سمعاً وطاعة» .

ـ «واسألي أياً من السادة عن أنباء القتال ، فإذا لم يعرفوا ، اذهبي قرب المحطة واسألي المهندسين الذين أحضروا الجرحى . اسألي إذا ما كان القتال في جونسبورو أو على مقربة منها» .

ـ «يا الله ، يا آنسة سكارلت» وامتقعت سحنتها السوداء بجزع مفاجئ :

ـ «الشماليون ليسوا في تارا ، هل هم في تارا؟» .

ـ «لا أدري . قلت لك اسألي كي نطلع على الأخبار» .

ـ «يا الله يا آنسة سكارلت ، ماذا سيفعلون بماما؟» .

وفجأة طفقت تنتحب بصوت مرتفع ، الأمر الذي زاد في انفعال سكارلت .

ـ «كفي عن النحيب ، ستسمعك الآنسة ميلاني ، وهلمي الآن بدلي ثوبك ، هيا» .

هرولت برسي خلف البيت ، بعد أن حثتها سكارلت على السرعة ، وبعد أن خطت لها رسالة سريعة على هامش رسالة جيرالد الأخيرة ـ وهي قصاصة الورق الوحيدة في البيت ـ لتحملها إلى الطبيب . وفيما سكارلت تطوي الرسالة بحيث تأتي رسالتها في أعلى الورقة ، لمحت كلمات جيرالد «إن أمك ـ تيفوئيد ـ مهما كانت الظروف ـ تأتي إلى البيت» . وكادت تجهش بالبكاء . . . لولا قضية ميلاني لرحلت إلى البيت فوراً ، في هذه الدقيقة ، ولو كتب عليها أن تمشي كل خطوة من الطريق .

انطلقت برسي مسرعة ، تقبض على الرسالة بيدها ، وعادت سكارلت إلى الطابق العلوي تحاول التفكير بكذبة معقولة لتعليل عدم تمكن السيدة ألسنغ من القدوم . بيد أن ميلاني لم تطرح أي سؤال ، بل استمرت مستلقية على ظهرها ، ووجهها مطمئن عذب ، الأمر الذي هدأ من روع سكارلت لفترة وجيزة .

وجلست تتحدث عن أمور غير ذات بال ، ولكن خواطر تارا واحتمال هزيمة الحلفيين وخزتها بعنف ، وفكرت بأمها تعاني سكرات الموت وبالشماليين يدخلون أتلانتا ، يحرقون كل شيء ، يقتلون كل إنسان . وتخلل خواطرها هذه الدوي الخافت البعيد المستمر الذي كان يخترق أذنيها في موجات من الرعب . وأخيراً عجزت عن النطق ، ولم يسعها إلا التحديق خارج النافذة ، في الشارع الساكن الحار ، وعلى الأوراق المغبرة المتدلية من الأشجار عديمة الحركة . وكانت ميلاني صامتة أيضاً ، غير أن وجهها كان يتلوى من الألم بين الفينة والأخرى .

وكانت تقول بعد كل نوبة ألم «لم تكن في الحقيقة مؤلمة جداً» وتدرك سكارلت أن ميلاني لا تقول الحقيقة . وكانت سكارلت تفضل الصراخ المرتفع على هذه المعاناة الصامتة ، وكانت تدرك أن عليها أن تشعر بالأسف من أجل ميلاني ، ولكنها لسبب ما ، لم تستطع جمع أحاسيسها في بادرة عطف

خاطفة ، فعقلها كان مشتت الذهن بهمومها الخاصة . وحدث مرة أن ألقت نظرة متفحصة على الوجه المتغضن وتساءلت لماذا كتب عليها هي ، من بين جميع الناس في الدنيا ، أن تكون هنا برفقة ميلاني ، في هذا الظرف المعين ـ هي التي لا تشارك ميلاني في أي ناحية بل تبغضها وقد تسر برؤيتها ميتة ـ حسناً ، ربما تحققت رغبتها هذه وقبل أن ينقضي النهار أيضاً .

واجتاحها خوف وهمي بارد على أثر هذه الخاطرة ، إن من الشؤم أن يرجو الإنسان موت إنسان آخر .إن ذلك من الشؤم تماماً ، كما لو أنك لعنت مخلوقاً ، إذ إن اللعنات تعود إلى مطلقها لتستقر عليه ، هكذا قالت مامي ، ولذلك أسرعت سكارلت في الصلاة ، راجية الله ألا تموت ميلاني ، وشرعت في حديث قصير محموم لم تع مرماه إلاّ لماماً . وأخيراً مدت ميلاني يداً حارة إلى معصم سكارلت :

ـ «لا تزعجي نفسك من أجل محادثتي يا عزيزتي . إني أعرف مدى قلقك وإني آسفة جداً لكوني عبء ثقيل» .

أخلدت سكارلت إلى الصمت ، غير أنها لم تستطع الجلوس مطمئنة البال . ماذا ستعمل إن لم يأت الطبيب ، أو لم تصل برسي في الوقت المناسب؟ ومشت نحو النافذة ، ونظرت إلى الشارع ، ثم عادت أدراجها وجلست ثانية ، ثم نهضت ونظرت من النافذة التي في الجانب الآخر من الغرفة .

ومرت ساعة ، وتلتها أخرى ، وانتصف النهار ، وتوسطت الشمس كبد السماء ، واشتد أوارها ، وليس من نسمة ريح تحرك أوراق الشجر المغبر . وتفاقمت آلام ميلاني ، وتبلل شعرها الطويل عرقاً ، ولصق ثوبها بجسدها في عدد من البقع الرطبة ، ومسحت سكارلت وجه ميلاني بصمت ، ولكن الخوف كان ينهش لحمها . . . يا الله . هب أن الوليد ولد قبل وصول الطبيب ، فماذا ستفعل؟ إنها لا تعرف شيئاً في موضوع التوليد ! إن هذه هي الجائحة الطارئة التي كانت تخشى وقوعها منذ أسابيع . كانت قد اعتمدت على برسي لتتدبر الأمر ، إذ تعذر إحضار طبيب ، فبرسي تعرف كل شيء عن التوليد ، وقد أكدت ذلك مراراً ، ولكن أين هي برسي؟ ولماذا لم يأت الطبيب؟

نهضت إلى النافذة ونظرت ثانية ، وأرهفت السمع ، وفجأة تساءلت إذا كان هو الوهم ، أو أن دوي المدافع البعيد قد تلاشى حقاً . وإذا ما كان الدوي قد

ابتعد ، فإن هذا يعني أن القتال اقترب من جونسبورو كما أنه يعني أيضاً . . .

وأخيراً رأت برسي قادمة في الشارع في خبب سريع ، فاتكأت على حافة النافذة . وعندما رفعت برسي بصرها ورأتها فغرت فمها لتصيح ، بيد أن سكارلت ، وقد قرأت الرعب مسطوراً على الوجه الأسود الصغير ، وخشيت أن تنذعر ميلاني من جراء صوت برسي المرتفع بالأخبار السيئة ، أسرعت في وضع أصبعها على شفتيها وغادرت النافذة .

ـ «سأجلب ماء أبرد» قالت ، رانية إلى عيني ميلاني السوداوين الغائرتين المستديرتين ، محاولة الابتسام ، ثم غادرت الغرفة على عجل مغلقة الباب خلفها برفق .

كانت برسي جالسة تلهث على الدرجة السفلى في القاعة :

ـ «يوجد قتال في جونسبورو يا آنسة سكارلت . يقولون إن جنودنا هزموا . يا الله يا آنسة سكارلت ، ماذا سيحل بماما وبورك؟ يا الله يا آنسة سكارلت ! ماذا سيحل بنا إذا ما بلغ الشماليون هذا المكان ، يا الله . . .» .

لطمت سكارلت الفم المنتحب بيدها :

ـ «من أجل الله ، اصمتي !» .

أجل ! ماذا سيحل بهم إذا ما أتى الشماليون ـ ماذا سيحل بتارا؟ وأبعدت الفكرة عن عقلها ، واهتمت بالجائحة الأكثر إلحاحاً . إنها إذا فكرت بهذه الأمور ستشرع في النحيب والولولة قبل برسي .

ـ «أين الدكتور ميد؟ متى سيأتي؟» .

ـ «إني لم أره أيضاً ، يا آنسة سكارلت» .

ـ «ماذا؟» .

ـ «لا ياسيدتي ، هو ليس في المستشفى ، وكذلك السيدتان ميريويذر وألسنغ ، ليستا هناك أيضاً . أخبرني رجل أن الطبيب موجود قرب حظيرة السيارات في المحطة مع الجرحى القادمين من جونسبورو ، ولكني يا آنسة سكارلت خشيت الذهاب هناك ، إلى المحطة ـ يوجد أناس يموتون هناك ، وأنا أخاف من رؤية الناس الموتى ـ» .

ـ «وماذا عن الأطباء الآخرين؟» .

ـ «آنسة سكارلت ، والله ، بالكاد استطعت إيجاد من يقرأ رسالتك منهم .

إنهم يشتغلون في المستشفى وكأنهم جميعاً قد أصابهم مس من جنون ، وخاطبني أحدهم قائلاً «لعن الله رأسك ، هل أتيت إلى هنا لتضايقيني بالأطفال ، في الوقت الذي يعاني فيه آلاف الرجال الموت بين أيدينا ، خذي إحدى النسوة لتساعدك . وعندئذ تجولت في الأنحاء لأستوضح الأخبار كما طلبت مني ، فأنبأني الجميع أن القتال يدور في جونسورو وأنا ـ» .

ـ «تقولين إن الدكتور ميد في المحطة؟» .

ـ «نعم يا سيدتي ، إنه ـ » .

«أصغي إلي الآن بانتباه تام . سأذهب لإحضار الدكتور ميد ، وأريدك أن تجلسي بجانب الآنسة ميلاني ، وتفعلي ما تطلبه منك ، وإذا ما تنفست أمامها مجرد التنفس عن مكان القتال ، فسأبيعك حتماً للجنوب . هل تسمعين؟» .

ـ «نعم يا سيدتي» .

ـ «امسحي عينيك ، وأحضري إبريق ماء نظيف ، واصعدي إليها . امسحي بشرتها . أخبريها أني ذهبت لإحضار الدكتور ميد» .

ـ «هل اقترب وقت وضعها يا آنسة سكارلت؟» .

ـ «لا أدري ، أخشى ذلك ، ولكني لا أدري ، ينبغي أن تعرفي أنت . هيا اصعدي» . وتناولت سكارلت من المشجب قبعتها العريضة ، المصنوعة من القش وحشرتها في رأسها ، ثم نظرت في المرآة ، وبحركة آلية ، رفعت بعض خصل شعرها المتفلت ، دون أن تتأمل وجهها ، وانطلقت من داخل البيت إلى حرارة الشمس المتوهجة التي كانت تبهر الأبصار ، وفيما هي تنحدر مسرعة في شارع بيتشتري بدا صدغاها ينتفضان بفعل الحرارة . ومن أسفل الشارع البعيد استطاعت سماع لغط أصوات كثيرة تعلو وتنخفض ، وعندما وقع بصرها على منزل آل ليدن ، كانت قد شرعت في اللهاث ، لأن مشدها كان مضغوطاً إلى درجة كبيرة ، ومع ذلك لم تخفف من سرعتها . وارتفع لغط الأصوات .

ومن بيت ال ليدن ، إلى فايف بوينتس كان الشارع يغلي بالنشاط ، بنشاط خلية نحل قد انهارت الآن . كان الزنوج يروحون ويجيئون ركضاً والرعب يلوح في وجوههم ، وعلى الشرفات جلس أطفال بيض يبكون دون من يلتفت إليهم ، وعربات الجيش والإسعاف المكتظة بجثث الجرحى كانت تزدحم في عرض الطريق ، كما كانت عربات الركوب مكدسة إلى أعلاها بالحقائب وقطع

الأثاث ، بينما كان يندفع من الشوارع الفرعية رجال على صهوات الخيل ، يندسون بين الناس في طريق بيتشتري ، متجهين إلى مركز قيادة الجنرال هود ، ورأت سكارلت عاموس العجوز ، يقف أمام منزل آل بونل ، ممسكاً برأس حصان عربته ، وعندما شاهد سكارلت حياها بعينين مضطربتين .

ـ «ألم ترحلي حتى الآن؟» .

ـ «أرحل؟ إلى أين؟» .

ـ «الله يعلم إلى أين يا آنسة ، إلى أي مكان ، فالشماليون قادمون» .

حثت خطاها دون أن تلقي عليه تحية الوداع ـ الشماليون قادمون ، وعند كنيسة وسلي وقفت لتلتقط أنفاسها ، وتنتظر كي يخف وجيب قلبها ، إذ أدركت أنها إذا لم تهدئ نفسها ، فسيغمى عليها حتماً . وبينما هي تقف قابضة على عمود الكهرباء لتسند جسدها ، رأت ضابطاً على صهوة جواده ينهب الشارع نهباً ، قادماً من فايف بوينتس ، فركضت نحو الشارع ولوحت له بيدها ، يحفزها دافع داخلي :

ـ «قف ! أرجوك قف» .

جذب الفارس عنان فرسه ، حتى إن الحصان ارتد على عجزه ، رافساً الهواء ، ورأت سكارلت في وجه الرجل أمائر واضحة من العناء والعجلة ، بينما طارت قبعته الرثة عن رأسه :

ـ «سيدتي؟» .

ـ «أخبرني ! هل الشماليون قادمون حقاً؟» .

ـ «أخشى أن يكون الأمر كذلك» .

ـ «هل علمت به؟» .

ـ «نعم يا سيدة ، علمت به ، لقد وصلت رسالة إلى القيادة منذ نصف ساعة من المعركة في جونسبورو» .

ـ «في جونسبورو؟ هل أنت متأكد؟» .

ـ «نعم متأكد . لا فائدة من إخبار السيدات بالأكاذيب الخادعة يا سيدة . كانت الرسالة من الجنرال هاردي يقول فيها : لقد خسرت المعركة ، وقواتي تنسحب انسحاباً تاماً» .

ـ «آه يا إلــهي !» .

فحدق بها الفارس المنهوك ، دون أن تشوبه أي عاطفة ، ثم أمسك بزمام فرسه ثانية ، وارتدى قبعته .

ـ «آه يا سيدي ، أرجوك دقيقة واحدة فقط ، ماذا سنفعل؟» .

ـ «سيدتي ، لا أستطيع أن أقول شيئاً ، فالجيش سيخلي أتلانتا فوراً» .

ـ «سينسحب ويتركنا للشماليين؟» .

ـ «أخشى ذلك» .

وانطلق سريعاً ، وبقيت سكارلت واقفة في وسط الشارع ، والغبار الأحمر يتكاثف على كاحليها .

الشماليون قادمون . . . الجيش ينسحب . . . ماذا ينبغي أن تفعل؟ إلى أين ينبغي أن تلجأ؟ لا! لن يسعها النزوح ، فهناك ميلاني ترقد في السرير ، تنتظر وليدها . آه ، لماذا تحمل النساء أطفالاً؟ لولا ميلاني لأمكنها اصطحاب ويد وبرسي والاختفاء في الغابات حيث لن يقوى الشماليون على اكتشافهم أبداً ، بيد أنها لا تستطيع اصطحاب ميلاني إلى الغابات ، لا ، ليس الآن ، آه لو أنها فقط وضعت الطفل في وقت أبكر ، ولو بالأمس ، لكان من المحتمل أن تستطيع إحضار عربة إسعاف وحملها بعيداً وتخبئتها في مكان ما . ولكن الآن ، ينبغي أن تجد الدكتور ميد وتحضره إلى البيت معها ، إذ ربما تمكن من تعجيل الولادة .

رفعت أطراف تنورتها وانطلقت في الشارع ، وكان نغم خطواتها «الشماليون قادمون! الشماليون قادمون!» .

كانت فايف بوينتس غاصّة بالناس ، يندفعون هنا وهناك ، بعيون زائغة لا ترى ، والمكان مزدحم بشاحنات وعربات الإسعاف وعربات الثيران وعربات الركوب المحملة بالجرحى ، وكان يرتفع من هذا الحشد الهائل صوت هادر كصوت ارتطام الأمواج بصخور الشطآن .

ثم شده بصرها منظر غريب غير متوقع ، جموع من النساء قادمات من ناحية السكة الحديد يحملن لحوم الخنزير المقددة على أكتافهن ، وإلى جوانبهن كان يسرع أطفال صغار يترنحون تحت عبء دلاء من الدبس المائع ، بينما كان غلمان آخرون يجرون أكياساً من الحنطة والبطاطا ، ورجل عجوز يحاول رفع برميل من الدقيق على عربة يد بعجلة واحدة . . . رجال ونساء وأطفال ، سود وبيض ، يسرعون ، يسرعون ووجوههم متوترة ، يحملون الرزم والأكياس من

أعناقها ، وصناديق الطعام ـ طعام وفير أوفر مما رأته خلال سنة . وفجأة أتاح الجمهور ممراً لعربة صغيرة كانت تسير متهادية ، وقد وقفت على مقدمتها السيدة ألسنغ الهزيلة تمسك زمام الفرس بيدها ، والسوط باليد الأخرى . كانت حاسرة الرأس ، وجهها شاحب اللون ، وشعرها الطويل الرمادي متهدل على ظهرها وهي تسوط الحصان ، وعلى مقعد العربة الخلفي ، كانت مليسي مربيتها السوداء تهتز وهي تمسك بإحدى يديها الجانب الدهني من قطعة لحم خنزير ، بينما تحاول باليد الأخرى وبالقدمين ، تثبيت الصناديق والأكياس المكدسة حولها ، وقد انشق أحد هذه الأكياس ، وكان مملوءاً بالحمص الناشف ، فانتشر الحب في الشارع ، وصاحت سكارلت تناديها ، ولكن ضوضاء الجمهور غيب صوتها ، وتابعت العربة طريقها متهادية .

لم تدرك سكارلت للوهلة الأولى ما يعنيه كل هذا الذي كان يجري حولها ، ولكنها تذكرت أن مخازن التموين كانت هناك قرب المحطة ، وأدركت أن الجيش قد فتح الأبواب للناس كي ينقذوا ما يستطيعون إنقاذه قبل وصول الشماليين .

شقت سكارلت طريقها بسرعة بين الجمهور ، وتجاوزت الرعاع المتألب الصاخب بنوبة هستيرية ، الرعاع الذي كان يتدفق في ساحة فايف بوينتس المكشوفة ، ثم حثت خطاها وسارت بأقصى سرعة ممكنة فوق العبارة الصغيرة باتجاه المحطة . ومن خلال حاجز سيارات الإسعاف ، وسحب الغبار المتكاثف ، استطاعت رؤية الأطباء وحاملي المحفات ينحنون وينهضون مسرعين . وشكرت ربها لأنها ستجد الدكتور ميد فوراً . وعندما دارت حول المنعطف الذي يقع عليه فندق أتلانتا ، وأشرفت تماماً على المحطة والسكة الحديد ، وقفت مرتاعة .

رأت هناك مئات الجرحى ممددين في الشمس الحارقة ، الكتف بجانب الكتف ، والرأس يلامس القدم ، مصففين فوق قضبان السكة وعلى الرصيف وفي حظيرة السيارات ، مصففين في خطوط لا نهاية لها ، البعض يضطجع متصلباً ساكناً ، ولكن الكثيرين يتلوون ويئنون ، وحولهم في كل مكان ، تجمع الذباب يتسكع فوق الجثث ، ويطن ويدب على الوجوه . وانتشرت بقع الدم والضمادات القذرة في كل مكان ، وعلت الأنات وشتائم الرجال المتألمين ، فيما كان حاملو المحفات يرفعون الأجساد الممددة . وهبت على سكارلت موجات

من رائحة العرق والدم والجثث القذرة والبراز ، هبت في حرارة غروية لزجة ، حتى إن الرائحة الزنخة كادت تقلب معدتها .

كان المسعفون يسرعون هنا وهناك بين الأجساد المنبطحة ، وكثيراً ما داسوا على الجرحى لقرب أجسادهم من بعضها . أما أولئك الذين كانت تطؤهم الأقدام ، فكانوا يجحظون بأعينهم ويئنون ، ينتظرون دورهم .

وانقبضت سكارلت متراجعة إلى الوراء ، صافقة يدها على فمها ، شاعرة أنها توشك أن تتقيأ ، وأنها لن تستطيع التقدم . كانت قد رأت رجالاً جرحى في المستشفيات وفي مرجة منزل العمة بيتي إثر معركة الوادي ولكن أبداً ليس كهذا الذي تراه أمامها الآن ، أبداً ليس كهذه الرائحة النتنة ، كهذه الأجساد النازفة دماً تتقلى تحت أشعة الشمس اللاهبة . . . إن هذا جحيم من الألم والرائحة والضجيج والسرعة والسرعة ـ والسرعة ! الشماليون قادمون ! الشماليون قادمون ، وضمت كتفيها ومشت بينهم ، تحدق بعينيها في الأشخاص الواقفين لتميز الدكتور ميد من بينهم ، ولكنها اكتشفت أنها لن تستطيع البحث عنه لأنها إذا لم تخط بحرص فائق ، فستدوس على أحد الجنود السيّئي الطالع ، ولذلك رفعت أهداب تنورتها وحاولت التنقيب عن طريقها خلالهم باتجاه زمرة من الرجال كانوا يوجهون حاملي المحفات .

وفيما كانت تنقل خطاها ، كانت أيد محمومة تتعلق بأهدابها وتئن أصوات محزونة قائلة :

ـ «أرجوك أيتها السيدة ماء ، ماء من أجل المسيح !» .

وتصبب العرق غزيراً من وجهها ، وهي تجذب تنورتها من الأيدي المتعلقة بها . . لو داست أحد هؤلاء الرجال ستزعق ويغمى عليها . . . بيد أنها خطت فوق رجال موتى ، فوق رجال بردت عيونهم ، وتشابكت أيديهم على بطونهم ، حيث غرى الدم الجاف البزز الممزقة بالجراح ، فوق رجال تيبست لحاهم بالدم ، وانبعثت من فكوكهم المتكسرة أصوات لا بد أنها كانت تعني : «ماء ! . . ماء !» .

سوف تشرع بالصراخ بدافع هستيري إذا هي لم تجد الدكتور ميد حالاً ، وتطلعت نحو زمرة الرجال الواقفين تحت حظيرة السيارات ، وصاحت بأعلى ما في طوقها :

ـ «دكتور ميد! هل الدكتور ميد موجود هناك؟» .

وانفصل رجل عن الزمرة وتطلع نحوها . كان ذلك الشخص هو الدكتور ميد . كان قد نزع معطفه ، ورفع ردنيه حتى كتفيه ، وبدا قميصه وسرواله أحمرين كثياب الجزار ، وحتى طرف لحيته الرمادية اللون كان ملطخاً بالدم . أما وجهه فكان وجه رجل ثمل بالعناء والغضب الواهن والشفقة المتلظية ، وكان وجهاً مربداً مغبراً ، قد شق العرق عبر وجنتيه ، مجاري طويلة ، بيد أن صوته كان حازماً هادئاً عندما صاح بها .

ـ «شكراً لله على أنك هنا . إن بوسعي الاستفادة من كل زوج من الأيدي» .

وحملقت به للوهلة الأولى مرتبكة ، مفلتة أهداب تنورتها في فزع ، فتدلت هذه على رأس رجل جريح ، حاول إدارة رأسه بتوان ليتفادى طياتها الخانقة . . . ماذا يقصد الدكتور؟ ولفح الغبار الجاف الخانق وجهها ، الغبار المنبعث من سيارات الإسعاف ، وفغمت منخريها الروائح النتنة التي كانت كسائل آسن .

ـ «أسرعي يا بنيتي ، تعالي هنا» .

فرفعت أهداب ثوبها واتجهت إليه بما وسعها من سرعة ، عبر صفوف الجرحى . وعندما بلغته وضعت يدها على ذراعه ، وشعرت بأنها ترتعش من الإعياء . ولكن وجهه خلا من أي أثر للإنهاك .

ـ «آه . آه يا دكتور» صاحت ، «ينبغي أن تأتي ، فميلاني تعاني المخاض» .

فحدق بها كما لو أن كلماتها لم تنطبع في عقله ، بينما علق رجل كان يضطجع على الأرض عند قدميها ، متوسداً كيس طعامه ، علق بابتسامة ودية وبروح مرحة :

ـ «سوف يفعلونها» .

غير أنها هزت ذراع الدكتور دون أن تلتفت إلى الجريح :

ـ «إنها ميلاني . . . الوليد . . . دكتور! ينبغي قدومك ، فهي . . . .» .

لم يكن الوقت وقت المجاملات ، ولكن كان من الصعب النطق بشيء ، وآذان مئات الرجال الغرباء مصغية لما يقال .

ـ «إن آلامها تتفاقم ، أرجوك يا دكتور!» .

ـ «وليد؟ يا لله العظيم!» هدر الطبيب وتجهم وجهه فجأة بالكراهية

والغضب ، الغضب الذي لم يكن موجهاً ضدها أو ضد أي إنسان ، إنما ضد عالم يكن أن تقع فيه أمثال هذه المفارقات . . . «هل أنت مجنونة؟ ليس بوسعي ترك هؤلاء الرجال . إنهم يموتون بالمئات ، ليس بوسعي تركهم من أجل وليد عاثر الحظ . دبري امرأة لمساعدتك . خذي امرأتي» .

وفتحت فمها لتخبره سبب عدم استطاعة السيدة ميد القدوم إلى بيت العمة بيتي ، ثم أغلقته بغتة ، فهو لا يعرف أن ابنه جريح . وتساءلت فيما إذا كان سيظل هنا إن هو علم بمصاب ابنه ، وأنبأها هاجس أنه سيظل واقفاً في هذا المكان يساعد المجموع بدلاً من الفرد . .

ـ «لا! ينبغي أن تأتي يا دكتور ، أنت تعرف أنك قلت إنها ستعاني ولادة عسيرة» أكانت هي حقاً سكارلت تلك التي تقف هنا ، وتتفوه بهذه الألفاظ الفظة المرعبة بأعلى صوتها ، في هذا الجحيم من الحرارة والأنين؟

ـ «ستموت إن لم تأت!» .

فدفع يدها بخشونة وأجاب ، وكأنه لا يكاد يسمعها ، لا يكاد يعرف عمّ تتكلم .

ـ «تموت؟ نعم ، جميعهم سيموتون ـ جميع هؤلاء الرجال ، لا ضمادات ، لا مراهم ، لا كلوروفورم . آه يا الله ، أمددنا ببعض المورفين ، فقط قليل من المورفين لأتعس المصابين ، فقط قليل من الكلوروفورم . . لعن الله الشماليين! لعن الله الشماليين!» .

ـ «ليأخذهم الله إلى الجحيم يا دكتور!» قال الرجل الممدد على الأرض ، وقد بدت أسنانه من خلال لحيته الكثة .

راحت سكارلت ترتجف وعيناها تتحرقان بدموع الخوف . لن يأتي الدكتور معها . ستموت ميلاني ، وقد تمنت يوماً أن لو تموت ميلاني . . لن يأتي الدكتور معها .

ـ «بالله يا دكتور! أرجوك!» .

عض الطبيب شفته ، وتصلب فكُّه عندما شحب وجهه ثانية .

ـ «إيه بنيتي ، سأجرب . لا أستطيع أن أعدك ، ولكني سأجرب عندما نفرغ من الاهتمام بهؤلاء الرجاب . . . الشماليون قادمون! الشماليون قادمون والجنود ينسحبون من المدينة ، ولا أدري ماذا سيفعلون بالجرحى ، إذ لا توجد قطر بعد

أن احتل العدو خط ميكون ، ولكني سأجرب . اذهبي الآن بسرعة ولا تضايقيني ، فليس هناك صعوبة في ولادة طفل ، فقط اعقدي السرة» .

وعندما لمس أحد مساعديه ذراعه ، استدار وشرع يزمجر بتوجيهاته الصارمة ، مشيراً إلى هذا وذاك من الجرحى . ورفع الرجل المنبطح عند قدميها بصره نحوها ونظر إليها بعطف ، ولكنها انثنت بعيداً لأن الطبيب سها عنها ، وشقت طريقها بسرعة بين الجرحى ، قافلة إلى شارع بيتشتري . . . لن يأتي الدكتور ، وعليها أن تتدبر الأمر بنفسها ، شكراً لله ، إن برسي تعرف كل ما يتعلق بالتوليد . وانصدع رأسها من الحرارة ، واستطاعت تحسس قميصها مشرباً بالرطوبة من جراء العرق ، تحسسته يلتصق بجسدها ، وتخدر عقلها ، وكذلك ساقاها ، تخدراً وكأنها في حلم رهيب ، وعندما حاولت الجري لم تستطع تحريكهما . وفكرت بالمسير الطويل الذي ينتظرها كي تبلغ البيت ، وتراءى لها مسيراً لا نهاية له . ثم شرعت عبارة «الشماليون قادمون» تقرع لازمتها في عقلها مرة ثانية وطفق قلبها يخفق ، وزحفت حياة جديدة في عروقها واخترقت صفوف الجماهير في فايف بوينتس بسرعة ، حيث ازدحم الناس بصورة غريبة ، فلم تعد توجد فسحة شاغرة فوق الأرصفة الضيقة ، ما أرغمها على السير في الشارع . وكان يمر في الشارع آنذاك صفوف طويلة من الجنود ، يكسوهم الغبار ويضنيهم الإعياء ، آلاف منهم ، قذرون ، طوال اللحى ، بنادقهم تتدلى من أكتافهم ، يمشون بسرعة في خطوات المنهزم ، وتبعتهم المدافع التي كان سائقوها يسلخون البغال الهزيلة بسياطيهم الطويلة ، وخلفهم سارت شاحنات التموين بأغطيتها الخيشية المهترئة متهادية فوق الحفر والأخاديد ، وتلاها الفرسان يثيرون عجاج الغبار الخانق ، في صفوف لا تنتهي . ولم تكن سكارلت قد رأت قبلاً جنوداً بهذا العدد الضخم . . . تقهقر ! تقهقر ! إن الجيش ينسحب .

وألجأتها الصفوف المسرعة إلى الرصيف المزدحم ثانية ، وعبقت في أنفها رائحة الويسكي المصنوع من الذرة الرخيصة ، وشاهدت بين الغوغاء قرب شارع ديكاتور نساء يرتدين ثياباً مبهرجة تبهر الأنظار ، تنم حلاهن المتلألئة ووجوههن المطلية بالمساحيق عن طابع أعياد ، مخالف لمقتضى الحال ، وكان معظمهن ثملاً ولكنه أقل ثملاً من الجنود الذين تعلقن بأذرعهم . ولمحت بينهن بنظرة خاطفة رأساً بجعدات شعر حمر ، فرأت تلك المخلوقة بيل وتلنغ ، وسمعت قهقهتها

الحادة السكرى وهي تتعلق بجندي ذي ذراع واحد ، كيما تسند جسدها ، بينما كان صاحبها يترنح متعثراً في مشيته .

وبعد أن اندست سكارلت بين الحشود ، شاقة طريقها دفعاً ، قاطعة إلى ما وراء فايف بوينتس ، خف ازدحام الغوغاء قليلاً ، فجمعت أطراف ثوبها وبدأت في الجري ثانية . وما إن بلغت كنيسة وسلي حتى ضاق نفسها وزاغ بصرها وأحست بالألم في معدتها ، وكان مشدها يكاد يبتر أضلاعها شطرين ، فتهالكت على درجات الكنيسة ، ووضعت رأسها بين يديها ، كيما تستطيع التنفس بسهولة أكثر . وتمنت لو أنها فقط تستطيع أخذ نفس عميق واحد ، عميق إلى جوفها ، لو أن قلبها يكف فقط عن القرع والخفق والفوران ، لو أن هناك فقط إنساناً في هذا المكان تستطيع الاستعانة به .

لم تقصِّر يوماً على قضاء حاجة لنفسها طيلة حياتها ، فلقد كان يوجد دائماً من يقوم بالأعمال من أجلها ، من يعتني بها ، من يؤويها ويحميها ويفسدها . إن مما لا يصدق العقل أنها يمكن أن تقع في مثل هذه الورطة ، دون أن يكون هناك صديق أو جار يساعدها . لقد كان يوجد دائماً حولها الأصدقاء والجيران والأيدي الحاذقة للزنوج الرضيين ، أما الآن ، وفي هذه الساعة ذات الحاجة القصوى ، لا يوجد أحد البتة . إن مما لا يصدقه العقل أنها يمكن أن تكون وحيدة تماماً ، ومذعورة وبعيدة عن البيت .

البيت ! لو أنها فقط في البيت ، سواء أكان شماليون أو لم يكونوا . . البيت ، حتى لو كانت إيلين مريضة . . . إنها لتتلهف لرؤية وجه إيلين العذب . تتلهف لساعدي مامي القويين كي يحوطاها .

ونهضت على قدميها وهي دائخة ، وبدأت المسير ثانية . وعندما أصبح المنزل في مدى البصر رأت ويد يتأرجح على البوابة الأمامية ، فلما شاهدها تغضن وجهه وطفق يبكي رافعاً إصبعاً جريحاً مرضوضاً .

ـ «جريح !» نشج «جريح !» .

ـ «صه ! صه ! صه ! وإلا سأصفعك . أسرع إلى الساحة الخلفية واصنع دوائر من الوحل ولا تغادر ذلك المكان» .

ـ «ويد جائع» نشج واضعاً أصبعه الجريح في فمه .

ـ «لا يهمني ، اذهب إلى الساحة الخلفية و . . .» .

ورفعت بصرها ورأت برسي متكئة على حافة النافذة العليا والذعر والقلق مسطوران على وجهها، ولكنها، ما إن لمحت سيدتها حتى زال ما شاب وجهها من هلع فوراً. وأومأت سكارلت إليها أن تنزل، ودخلت هي البيت، حيث شعرت برطوبة الغرفة المتناهية، ثم حلت عقدة قبعتها وقذفت بها إلى المنضدة، وأمرّت مقدم ذراعها على جبينها المبلل. وبعدئذ سمعت صوت انفتاح باب الطابق العلوي، وبلغ أذنيها أنين خفيض منصهر من أعماق روح معذبة تحتضر. وهبطت برسي السلم، كل ثلاث درجات بخطوة واحدة..

- «هل الطبيب قادم؟».

- لا! لا يستطيع القدوم».

- «الله يا آنسة سكارلت، إن الآنسة ميلي في حالة سيئة».

- «ليس بوسع الطبيب المجيء، وليس بوسع أحد القدوم. عليك أن تسحبي الطفل وأنا أساعدك».

فانفغر فم برسي وولول لسانها دون أن تنبس بكلمة، وتطلعت في وجه سكارلت بنظرة جانبية وجرجرت قدميها وثنت جسدها النحيل.

- «لا تظهري بهذه السذاجة!» صاحت سكارلت مغتاظة من هذه الحركات. «ما المسألة؟».

فتراجعت برسي صاعدة السلم على رؤوس أصابعها.

- «من أجل الله يا آنسة سكارلت...» قالت والذعر والألم يبدوان في عينيها القلقتين، «ينبغي أن نحضر طبيباً، فأنا... فأنا يا آنسة سكارلت، أنا لا أعرف شيئاً عن التوليد. إن أمي لم تكن تسمح لي أبداً بالاقتراب من اللواتي كانت تولدهن».

زفرت سكارلت زفرة خوف، زفرة حملت كل ما في رئتيها من هواء، قبل أن يجتاحها الغضب.

واندفعت برسي إزاءها وانحنت لتهرب، ولكن سكارلت قبضت عليها.

- «أيتها السوداء الكاذبة... ماذا تقصدين؟ لقد قلت إنك تعرفين كل شيء عن التوليد، فأي قوليك هو الحقيقة؟ أخبريني» وهزتها حتى ترنح الرأس المشوه ترنح الثمل.

- «لقد كذبت يا آنسة سكارلت، ولا أدري كيف حدث وافتريت هذا

البهتان . لقد رأيت ولادة واحدة فقط طيلة حياتي ، كما أن أمي كانت تعاقبني إن أنا حاولت مراقبتها في أثناء عملها» .

فحدّقت سكارلت بها ، وتراجعت برسي محاولة الإفلات . ومرت هنيهة ، وعقل سكارلت يأبى تصديق الحقيقة ، ولكنها عندما تحققت أخيراً من أن برسي لا تعرف عن التوليد أكثر من معرفتها هي ، اجتاحها الغضب كاللهيب ، ولم تكن قد ضربت زنجياً طيلة حياتها ، ولكنها الآن صفعت الوجه الأسود بكل ما يملك ساعدها المرهق من قوة ، وزعقت برسي بأعلى صوتها ، مصعوقة من الرعب أكثر من الألم ، وبدأت ترقص صعوداً وهبوطاً ، تتلوى لتفلت من قبضة سكارلت .

وفيما الزنجية تزعق ، انقطع الأنين المنبعث من الطابق العلوي ، ومرت دقيقة سمع على أثرها صوت ميلاني خفيضاً مرتعشاً :

ـ «سكارلت؟ أهذا أنت؟ أرجوك تعالي ، أرجوك ! . .» .

أفلتت سكارلت ذراع برسي وارتمت الفتاة تنشج فوق الدرجات . ووقفت سكارلت هنيهة ، تنظر إلى أعلى ، مصغية إلى الأنين الخافت ، الذي ارتفع ثانية . وفيما هي تقف هناك ، أحست كأن عبئاً ثقيلاً رزح على عنقها ، وأن نيراً ثقيلاً قد شد إليه ، نيراً ستحس به حالما تخطو أول خطوة .

وحاولت التفكير بكل الإجراءات التي اتخذتها مامي وإيلين يوم ولادة ويد ، بيد أن الزوغان الرحيم ، المرافق لآلام المخاض ، يغيب كل شيء تقريباً في ضباب مظلم ، ولذلك لم تتذكر إلا أشياء قليلة ، ثم خاطبت برسي على عجل ، وصوتها يحمل لهجة الأمر :

ـ «هيا أشعلي ناراً في الموقد ، واغلي ماء في القدر ، واجلبي كل المناشف التي تجدينها ، ولفافة الخيطان تلك ، وأحضري المقص ، ولا تأتي لتخبريني أنك لم تجديها ، أحضريها ، وأحضريها بسرعة . هيا أسرعي» . . . وأمسكت سكارلت برسي وأوقفتها على قدميها ، ودفعتها تجاه المطبخ ، ثم صعدت الدرج . . . سيكون من الصعب إخبار ميلاني أنها وبرسي سيعملان على توليدها .

*

22

لن يمر بعد ظهر يوم ، طويلاً كذاك ، أو حاراً مثله ، أو غنيّاً بالذباب الملحاح غناه . لقد طفق هذا يتهافت على ميلاني رغم المروحة التي ظلت سكارلت تحركها باستمرار ، ورغم ما أصاب ذراعيها من ألم لهذا الترويح بورقة النخيل العريضة ، فإن كل جهودها ذهبت أدراج الرياح ، إذ فيما كانت تطرد الذباب عن وجه ميلاني الرطب ، كان يتجمع فوق قدميها وساقيها الدبغتين فتضطر لهزهما بضعف صائحة :

ـ «أرجوك إنه على قدمي !» .

كانت الغرفة نصف مظلمة لأن سكارلت كانت قد أسدلت الستائر لتمنع الحرارة ووهج الشمس . وتسربت خلال الثقوب الصغيرة في السجف نقاط دقيقة من ضوء الشمس كرؤوس الدبابيس ، فاحترّت الغرفة وغدت كالأتون ، ولم يقدر لثياب سكارلت المبللة بالعرق أن تجف ، بل زادت رطوبة والتصاقاً بجسدها مع مرور الوقت . وكانت برسي قد قبعت في إحدى الزوايا ، يتفصد منها العرق أيضاً ، وتنبعث رائحة كريهة جداً ، بحيث أن سكارلت رغبت في إخراجها من الغرفة لولا أنها خشيت أن تهرب إذا هي غابت عن بصرها .

أما ميلاني فقد استلقت على السرير ، ينضح جسدها بالعرق ، ويستشعر الرطوبة في المواطن التي أراقت سكارلت الماء فوقها . كانت تتلوى بلا انقطاع ، تستدير من جانب إلى آخر ، إلى اليسار ثم إلى اليمين ، ومن اليمين إلى اليسار . .

وكانت تحاول الجلوس في سريرها بين الفينة والأخرى ، ولكنها كانت تهوي وانية وتشرع في التلوي ثانية . ولقد حاولت في بادئ الأمر أن تمتنع عن البكاء فراحت تعض شفتيها حتى دميتا ، ما دفع سكارلت ، التي كانت متوترة الأعصاب توتر شفتي ميلاني ، إلى أن تخاطبها بصوت أجش :

ـ «بالله يا ميلاني ، لا تحاولي أن تكوني شجاعة ، أصرخي ما شئت فلن يسمعك أحد سوانا» .

ومع انقضاء بعد الظهر كانت ميلاني تئن ، سواء أشاءت أن تكون شجاعة

أم لم تشأ . وكان صراخها أحياناً يرتفع فتلقي سكارلت برأسها بين يديها ، وتغطي أذنيها ، وتلوي جسدها ، وتتمنى أن لو كانت هي نفسها ميتة ، فأي حالة كانت أفضل من كونها تشهد هذه الآلام وهي عاجزة عن تخفيفها ، وأي وضع كان أفضل من كونها تجلس هنا مقيدة ، تنتظر وليداً استغرق قدومه وقتاً طويلاً كهذا ، وتنتظره في الوقت الذي كانت تعلم فيه أن الشماليين أصبحوا في فايف بوينتس حقاً .

وتمنت من كل قلبها أن لو كانت قد أرهفت السمع إلى المحادثات المهموسة التي كانت تدور بين المتزوجات عن موضوع الولادة ، أن لو انتبهت فقط ! إنها لو اهتمت أكثر بهذه الأمور لعرفت الآن إذا كانت ميلاني قد استغرقت وقتاً طويلاً أم لا ، وخطرت لها ذكرى غامضة لإحدى قصص العمة بيتي عن صديقة استمرت مطلوقة طيلة يومين ثم توفيت دون أن تلد . هب أن ميلاني استمرت على هذه الوتيرة طيلة يومين ! غير أن ميلاني هزيلة جداً بحيث لن تستطيع المقاومة مدة يومين وهي بمثل هذا الألم ، ستموت عاجلاً إذا لم يحث الوليد خطاه . وكيف يسعها مواجهة آشلي إن ان لا يزال حيّاً ، وإعلامه أن ميلاني لفظت روحها بعد أن وعدته بالاعتناء بها؟» .

عندما اشتد الألم بادئ الأمر ، أرادت ميلاني أن تمسك بيدي سكارلت ، غير أنها ضغطتهما بشدة بالغة بحيث كادت تهشم عظامها ، ولم تمض ساعة على هذا الحال حتى تورمت يدا سكارلت وازرق لونهما ، ولم يعد بوسعها قبض راحتيها إلاّ بصعوبة ، ولذلك عمدت إلى ربط منشفتين طويلتين معاً ثم ربطت طرفهما إلى أسفل السرير ووضعت الطرف الآخر بيد ميلاني ، فتعلقت هذه به ، كما لو كان حبل الحياة ، إذ راحت تشده وتجذبه بعصبية ، ثم ترخيه وتقطعه . واستمر أنينها خلال بعد الظهر كحيوان يموت في الفخ . وكانت تفلت المنشفة بين الفينة والأخرى وتفرك يديها بفتور ، وتتطلع إلى سكارلت بعينين يطفر منهما الألم :

- «تحدثي إلي أرجوك . . تحدثي إلي» هكذا كانت تهمس ، فتجيبها سكارلت بأن تهذي ببعض الحديث إلى أن تقبض ميلاني على المنشفة ثانية وتبدأ في ليها .

غرقت الغرفة المعتمة في بحر من الألم والحر والذباب المتهافت ، وتصرم

الوقت بطيئاً يجرجر دقائقه على قدمين متلكّئتين ، بحيث لم يسع سكارلت تذكر الصباح إلاّ بصعوبة ، وشعرت كما لو قضت في هذا المكان المعتم الحار الخانق طيلة حياتها ، وتمنت متحرقة أن تزعق كلما زعقت ميلاني ، ولولا عضها شفتيها بعنف مؤلم لما استطاعت كبح جماح نفسها وطرد الهستيريا .

وحدث أن أقبل ويد مرة ، صاعداً الدرج على رؤوس أصابعه ، ثم وقف خارج الباب يبكي .

- «ويد جائع» فنهضت سكارلت لتتجه إليه ، ولكن ميلاني همست «لا تدعيني وحدي أرجوك ، فبوسعي احتمال الألم وأنت إلى جانبي» .

وهكذا أرسلت سكارلت برسي إلى الطابق السفلي لتطعم ويد ، أما هي فقد أحست أن ليس بوسعها ازدراد الطعام أبداً بعد هذه الأمسية .

كانت الساعة التي على رف الموقد قد توقفت ، ولم تجد سكارلت وسيلة لمعرفة الوقت ، ولكن عندما خفت حرارة الغرفة وقلت نقاط الضوء تلألؤاً ، سحبت الستائر جانباً ، فأدهشها ما رأت ، إذ كان الوقت قد شارف الطَفَل والشمس قد قاربت الغروب ، بينما كان قد خيل لسكارلت أن الزمن سيستمر إلى الأبد ظهيرة حارة لاهبة .

وتساءلت بانفعال عم كان يجري في المدينة . هل انسحب جميع الجنود؟ هل دخل الشماليون؟ هل سيتراجع الحلفيون حتى دون أي قتال؟ ثم تذكرت والرجفة المريضة تنتاب معدتها مدى قلة عدد الحلفيين ، وضخامة جيش شيرمان وجودة تغذيته . . . شيرمان ! إن اسم الشيطان ذاته لم يفزعها نصف هذا الفزع . ولكن لا مجال للتفكير الآن وميلاني تتطلب ماء وتتطلب منشفة مبللة على رأسها وتتطلب من يهوي لها ويذب الذباب بعيداً عن جسدها .

وعندما زحفت عتمة الغسق ، ومرقت برسي كطيف أسود لتضيء المصباح ، زادت ميلاني وهناً على وهن ، وشرعت في نداء آشلي ، ورددت الاسم مرة بعد مرة كما لو كانت غارقة في بحر من الهذيان ، حتى إن سكارلت شعرت برغبة جامحة لتخنق الصوت بوسادة ، وتسكت هذا النغم المثير . . . ولكن ربما حضر الطبيب أخيراً . . . آه لو أنه يأتي بسرعة ! ورفع الأمل رأسه ، فالتفتت نحو برسي وأمرتها أن تهرع إلى بيت آل ميد وترى إذا كان الطبيب موجوداً هناك أو السيدة ميد .

- «وإن لم تجديه ، اسألي السيدة ميد أو كوكي عما ينبغي أن نعمله . التمسي منهما الحضور» .

وانطلقت برسي ، فيما راحت سكارلت تراقبها وهي تنحدر مسرعة في الشارع ، تجري بسرعة أكثر مما تصورت سكارلت أن تستطيعه هذه البنية الصغيرة ، ولكنها عادت بخفي حنين بعد فترة بدت طويلة :

- «لم يأت الطبيب إلى البيت طوال النهار ، وعلى ذلك قد يكون رافق الجنود . لقد مات السيد فيل يا آنسة سكارلت» .

- «مات؟» .

- «أجل!» قالت برسي منتفخة ومصطنعة أهمية لذاتها ، «أخبرني ذلك حوذيهم تالبوت . قال إنه أصيب» .

- «لا بأس» .

- «ولم أر الآنسة ميد ، ولكن كوكي أخبرتني أنها كانت تغسل جسد فيل وأنها معنية بتدبير دفنه لأن الشماليين قادمون هنا ، كما أخبرتني أيضاً أنه إذا ما اشتدت آلام الآنسة ميلي فعليك بوضع سكين تحت سريرها ، فينشطر الألم شطرين» .

همت سكارلت أن تصفعها ثانية جزاء هذا العلاج العجيب ، ولكن ميلاني جحظت عينيها المتسعتين هامسة :

- «عزيزتي ، هل الشماليون قادمون؟» .

- «لا» أجابت سكارلت بجرأة «إن برسي تكذب» .

- «نعم ، إني واثقة من ذلك» أيدت برسي قولها بحماسة .

- «إنهم قادمون» همست ميلاني غير مصدقة كلام سكارلت ، دافنة رأسها في الوسادة ، ثم أنَّ صوتها خفيضاً :

- «يا لطفلي المسكين! يا لطفلي المسكين!» وصمتت هنيهة طويلة ثم عاد الصوت الواني «آه سكارلت ، ينبغي أن لا تظلي هنا ، ينبغي أن ترحلي وتأخذي ويد معك» .

لم يكن هذا الذي تفوهت به ميلاني يعدو ما تفكر به سكارلت ، ولكن سماعه ألفاظاً تنطق أحنق سكارلت وجعلها تشعر بالعار ، لقد بدأ الأمر وكأن جبنها الخفي مسطور على وجهها بوضوح .

ـ «لا تكوني جبانة ، فأنا لست خائفة ، تعرفين أني لن أتركك» .

ـ «بوسعك ذلك إن شئت ، فأنا سوف أموت» وشرعت في البكاء ثانية .

*

نزلت سكارلت السلم ببطء ، وكأنها امرأة عجوز تتحسس طريقها ، وتتمسك بالدرابزين خشية السقوط . كان ساقاها مثقلتين واهنتين ترتجفان من الإنهاك والجهد ، وكان جسدها يرتعش من البرد الناجم عن العرق الدبق الذي بلل جسمها . واتخذت طريقها إلى الشرفة الأمامية بتخاذل ، وتهالكت على الدرجة العليا ، متكئة على أحد الأعمدة ، وفكت أزرار قميصها حتى منتصفه بيد مرتعشة . وكانت الليلة غارقة في ظلام دافئ منعش لذيذ ، فاستلقت تحدق في ستائر الظلمة .

لقد انتهى كل شيء ! نجت ميلاني من الموت ، وحمل الوليد الذكر ، الذي كان يموء كقطيطة صغيرة ، ليأخذ حمامه الأول على يدي برسي ، بينما أخلدت أمه إلى النوم . . . عجباً ! كيف يسعها النوم بعد ذلك الذي يشبه الحلم الرهيب من الألم الصارخ ، وبعد عملية التوليد تلك التي أجرتها الأيدي الجاهلة ، العملية التي آلمتها أكثر مما ساعدتها . . . عجباً ! لماذا لم تمت؟ إن سكارلت تعرف أنها هي نفسها كان يمكن أن تموت بفعل إجراءات كهذه ولكن ، عندما انتهت الولادة ، همست ميلاني بصوت خافت جداً ، أرغم سكارلت على الانحناء كيما تسمعه :

ـ «أشكرك» ثم غرقت في النوم . . . كيف استطاعت النوم؟ ونسيت سكارلت أنها هي أيضاً كانت قد استغرقت في النوم إثر ولادة ويد ، نسيت كل شيء . . . لقد كان عقلها خواءً . . . لقد كانت الدنيا فراغاً . . . ولم تكن هناك حياة قبل هذا النهار السرمدي . . . ولن تكون هناك حياة بعده . . وإنما فقط ليلة مشبعة بالحرارة . . وإنما فقط صوت تنفسها الأجش المعنى . . . والعرق يسيل بارداً من تحت الإبط إلى الخصر . . . من الورك إلى الركبة . . . عرق دبق لزج .

وسمعت صوت أقدام تقرقع في الطابق العلوي ، وهجست قبل أن تغمض عينيها «ليلعن الله برسي» وغمرها شيء كالنوم ، ورأت بعد هنيهة مظلمة تائهة برسي تقف إلى جانبها تثرثر بأسلوب فرِح :

ـ «لقد قمنا بعمل حسن يا آنسة سكارلت . أعتقد أن ماما لا تستطيع

عـملاً أفضل منه» .

ومن ثنايا الظلام ، رنت سكارلت إليـهـا وهي خـائرة القـوى ، بحـيث لا تستطيع تشهيراً ، ولا توبيخاً ، ولا إحصاء مساوئ برسي ـ ادعاؤها المتعجرف بخبرة لا تملك منها شيئاً ـ هلعها ، ارتباكها الأثيم ، قصورها التام عندما اشتدت الحاجة ، وضعها المقص في المكان الخاطئ ، إراقة طشت الماء على السرير ، إسقاط الوليد ، وها هي الآن جاءت تهذي بصنيعها العظيم .

والشـمـاليـون يريدون تحـرير الزنوج ! أجل ، إن الزنوج يرحـبـون بقـدوم الشماليين .

وعادت سكارلت فأسندت ظهرها إلى العمود صامتة ، بينما تسللت برسي على رؤوس أصابعها ، وقد تنبهت إلى ما يراود سيدتها . . . فمضت بعيداً وسط الشرفة . وسمعت سكارلت بعد برهة طويلة ، وقد هدأ تنفسها واستقر تفكيرها ، سمعت صدى أصوات خافتة صادرة من أعلى الطريق ، وقع خطوات عديدة قادمة من الشمال ، جنود ! فاعتدلت في جلستها ببطء ، مسدلة تنورتها ، مع أنها كانت تعلم أن ليس باستطاعة أحد رؤيتها في الظلمة . وعندما حاذى الرجال ، المجهولو العدد السائرون كالأشباح ، بيت العمة بيتي استوقفتهم سكارلت صائحة :

ـ «ها ! أرجوكم !» .

فانفصل شبح عن الجماعة وتقدم نحو البوابة .

ـ «هل أنتم راحلون؟ هل ستتركوننا؟» .

وبدا كأن الشبح ينزع قبعته ، ثم انبعث صوت هادئ من خلال الظلام .

ـ «أجل يا سـيـدة ، هذا مـا نفـعله الآن ، نحن آخـر رجـال يغـادرون الاستحكامات التي تقع على مسافة ميل شمالاً» .

ـ «هل أنتم ـ هل الجيش يتراجع حقاً؟» .

ـ «نعم يا سيدة ، كما ترين ، فالشماليون قادمون» .

الشماليون قادمون ! كانت قد نسيت ذلك . وغصّ حلقها فجأة ، ولم تستطع قول شيء آخر ، وابتعد الشبح ، واندمج في زملائه ، وتابعت الأقدام خطواتها بعيداً في الليل الحالك . . . الشماليون قادمون ! الشماليون قادمون ! ذلك ما كان يقوله وقع أقدامهم ، ذاك ما كان يجيب به قلبها الخافق في كل

ضربة من ضرباته . . . الشماليون قادمون !

ـ «الشماليون قادمون !» نشجت برسي مقتربة منها «آه يا آنسة سكارلت سيقتلوننا جميعاً ، سيبقرون بطوننا بحرابهم ، سـ . . .» .

ـ «آه ، اصمتي !» كان مجرد التفكير بهذه الأمور ، دون سماعها ينطق بعبارات مرتعشة ، مدعاة لرعب هائل ، ولذلك اجتاحها الخوف مجدداً . . . وتساءلت : ماذا يمكنها أن تفعل؟ كيف يسعها الهرب؟ أين تستطيع الهرب طلباً للمساعدة؟ لقد خيب جميع الأصدقاء آمالها . .

وفجأة خطر ببالها ريت بتلر ، فأزالت الطمأنينة مخاوفها ، وتساءلت : لماذا لم تفكر به هذا الصباح حين كانت تثب جيئة وذهاباً كفرخ ذبيح؟ إنها تبغضه ، ولكنه رجل قوي وأنيق ، ولا يخشى الشماليين ، كما أنه ما زال في المدينة . . . طبعاً لقد ثارت عليه . . ولقد تفوه بعبارات لا يمكن الصفح عنها ، وذلك في آخر مرة رأته فيها ، غير أن بوسعها التغاضي عن مثل هذه الأمور في وقت كهذا . . . كما أنه كان يملك حصاناً وعربة . . . آه ! لماذا لم تفكر به قبلاً . . إنه يستطيع أخذهم جميعاً إلى مكان بعيد عن هذا المكان الجهنمي ، بعيد عن الشماليين ، إلى مكان ما ، إلى أي مكان .

والتفتت إلى برسي وقالت بإلحاح محموم :

ـ «أنت تعرفين أين يقيم الكابتن بتلر ـ في فندق أتلانتا؟» .

ـ «نعم يا سيدتي ، ولكن ـ» .

ـ «حسناً ، اذهبي هناك ، الآن ، بأسرع ما تستطيعين من جري ، وأخبريه أني أريده ، وأريده أن يأتي على عجل ويحضر حصانه وعربته أو سيارة إسعاف إذا ما استطاع الحصول على واحدة . أخبريه عن الوليد ، أخبريه أني أريده ليحملنا بعيداً من هنا ، اذهبي الآن ، أسرعي» .

واعتدلت مستقيمة في جلستها ، ودفعت ببرسي تحثها على السرعة .

ـ «يا الله يا آنسة سكارلت ، إني أخاف الذهاب وحدي في الظلام ، هبي أن الشماليين قبضوا علي !» .

ـ «إذا ركضت بسرعة فستلتقين بهؤلاء الجنود ، ولن يدعوا الشماليين يقبضون عليك ، أسرعي» .

ـ «إني خائفة ، هبي أن الكابتن بتلر ليس في الفندق !» .

- «عندئذ سلي أين هو ، ألا تملكين شيئاً من الذكاء؟ إذا لم يكن في الفندق ، اذهبي إلى الحانات في شارع ديكاتور واستفسري عنه . اذهبي إلى منزل بيل وتلنغ وابحثي عنه أيتها الحمقاء . ألا ترين أنك إن لم تسرعي وتجديه فسيقبض الشماليون حتماً علينا ، جميعاً؟» .

- «آنسة سكارلت ، ستجلدني أمي بقضيب من سيقان القطن إذا أنا دخلت حانة أو منزل داعرة» .

فنهضت سكارلت على قدميها وقالت :

- «وسأسلخ جلدك إذا لم تذهبي ، إن بوسعك الوقوف في الشارع ، خارج الحانة ونداءه . ألا تستطيعين؟ أرسلي أحد الناس يستدعيه إن كان موجوداً في الداخل . هيا اذهبي» .

ولـمّا استمرت برسي في المماطلة ، وهي تراوغ بقدميها وبفمها ، دفعتها سكارلت ثانية بحيث كادت تطيح بها رأساً إلى ما وراء الدرجات الأمامية .

- «ستذهبين وإلا بعتك جنوبي النهر ، ولن تري أمك أبداً أو أياً من الناس الذين تعرفينهم . سأبيعك كعاملة حقل أيضاً . أسرعي» .

- «بالله يا آنسة سكارلت!» .

ولكن برسي نزلت الدرجات تحت ضغط يد سيدتها المصممة ، ثم سمع صوت البوابة الأمامية تفتح وتلا ذلك صوت سكارلت صائحة :

- «اركضي أيتها الجبانة» .

وعلى الأثر سمعت صوت قدميها وهي تشرع في جري سريع ، ثم تلاشى الصوت فوق الأرض المبتلة .

*

23

دخلت سكارلت وهي متعبة إلى القاعة السفلى وأضاءت مصباحاً ، وكان البيت شديد الحرارة ، كما لو أنه كان يختزن في جدرانه كل حرارة الظهيرة . كان قد زال بعض خمولها الآن وطفقت معدتها تجأر صارخة من أجل الطعام . وتذكرت أنها لم تذق شيئاً منذ الليلة الماضية سوى ملعقة من عصيدة الذرة ، فحملت المصباح وقصدت المطبخ . كانت نار الموقد قد خمدت ، ولكن الغرفة ما زالت حارة خانقة . ووجدت سكارلت في المقلى نصف رغيف من خبز الذرة الجاف ، فالتهمته بنهم ، بينما كانت عيناها تبحثان عن طعام آخر . وكان في القدر بقية من عصيدة الذرة فتناولتها بملعقة طهو كبيرة دون أن تنتظر حتى تسكبها في الصحن . وعلى الرغم من نقص الملح الفاضح فيها ، لم يدعها جوعها الفاجر تبحث عن الملح . وبعد أن ازدردت ملء أربع ملاعق ، لم يعد بوسعها احتمال حرارة الغرفة المتصاعدة ، فحملت المصباح بإحدى يديها وقطعة من الخبز باليد الأخرى ، وخرجت إلى القاعة .

كانت تعرف أن واجبها الصعود إلى الطابق العلوي والجلوس بجانب ميلاني ، لأنه إذا ما طرأ ما مكروه فلن تقوى ميلاني على الصياح من جراء وهنها الشديد ، بيد أن فكرة الرجوع إلى تلك الغرفة ، التي أمضت فيها عدة ساعات رهيبة ، كانت مفزعة تنفر منها النفس . وحتى لو كانت ميلاني تعاني سكرات الموت ، فإنها لا تستطيع الصعود ثانية إلى تلك الغرفة ، إنها لا تريد رؤيتها ثانية . ووضعت المصباح على قاعدة الشموع إزاء النافذة ، وعادت إلى الشرفة ، حيث كان الجو أكثر رطوبة ، مع أن الليلة كانت غارقة في دفء طلي .

جلست سكارلت على الدرجات تظللها دائرة من الضوء الباهت ، منبعثة من المصباح ، واستمرت تقضم الخبز ، وعندما فرغت منه أحست بشيء من القوة يعاودها ومع هذه القوة ، رجعت إليها وخزات الخوف . واستطاعت سماع صدى جلبة بعيدة في أسفل الشارع ، غير أنها لم تعرف ما كانت تنذر به تلك الجلبة ، وكل ما أمكنها التحقق منه هو هذا الهدير من الصوت يرتفع وينخفض ، ومدت عنقها وأرهفت السمع تحاول الإصغاء ، ولكنها سرعان ما

أحست بعضلاتها تؤلمها من جراء توتر أعصابها . وتلهفت لسماع وقع الخطوات ، ولرؤية عيني ريت الباردتين الواثقتين تسخران من مخاوفها ، تلهفت لذلك أكثر من تلهفها لأي شيء في الدنيا ، فريت سيحملهم بعيداً ، إلى مكان ما . . . إنها لا تعرف أين . . . ولا تهتم أن تعرف .

وفيما هي تجلس مصيخة السمع باتجاه المدينة ، شع وهج خافت فوق الأشجار ، الأمر الذي أذهلها ، فراحت تراقبه ، وإذا به يزداد تألقاً ، وإذا بالسماء الفاتحة تتحول إلى لون وردي ثم إلى لون أحمر باهت . وفجأة رأت فوق الأشجار لساناً ضخماً من اللهيب يتطاول عالياً نحو كبد السماء ، فوثبت واقفة على قدميها ، وقد شرع قلبها في الخفقان ثانية ، وفي الوجيب المسقم . لقد أتى الشماليون ! إنها تعرف أنهم دخلوا وأنهم يحرقون المدينة . وبدت ألسنة اللهيب بعيدة ، شرقي وسط المدينة . كانت تتطاول أعلى فأعلى ، تتسع بسرعة في دائرة عريضة ، دائرة حمراء أمام عينيها الذاهلتين . . . وهجست ، لا بد أن بناية تحترق بأكملها . . . وهب نسيم خفيف حار حاملاً رائحة الدخان إلى منخريها .

استدارت صاعدة السلم إلى غرفتها ، وأشرعت النافذة لتتمكن من رؤية أفضل . كانت السماء مكفهرة اللون ، كالحة المنظر ، تتثنى في صفحتها حلقات من الدخان الأسود لتعلق في السحب المتموجة فوق ألسنة اللهيب . واشتدت رائحة الدخان ، واندفع عقلها في كل الاتجاهات دون هدف ، يسوقه التفكير بأن اللهيب سرعان ما سينتشر متقدماً في شارع بيتشتري ليحرق هذا البيت ، وأن الشماليين سرعان ما سيدخلون المنزل ويغتصبونها ، فأين المفر؟ وماذا ستفعل؟ إن جميع شياطين الجحيم تبدو وكأنها تزعق في أذنيها ، وكان عقلها يدور في دوامة من الضياع والرعب القاتل بحيث أنها تعلقت إلى حافة النافذة لتسند نفسها .

ـ «ينبغي أن أفكر» هجست في نفسها مرة بعد مرة ، «ينبغي أن أفكر» .

ولكن الأفكار خذلتها ، إذ كانت تخطر وتنفلت من عقلها كطيور طنانة فزعة . وبينما هي تقف متكئة على حافة النافذة مزق أذنيها دوي انفجار يصم الآذان ، أشد عنفاً من أي دوي سمعته في حياتها ، واندفع لهيب هائل في السماء ، وتلا ذلك انفجارات أخرى ، واهتزت الأرض ، وارتج زجاج النوافذ فوقها وسقط متناثراً حولها .

وأضحت الدنيا جحيماً من الضجيج واللهيب ، وكانت الأرض تزلزل زلزالها كلما تلا انفجار انفجاراً آخر في تتابع يمزق الأسماع ، واخترقت كتل من الشرر أجواء السماء ثم هبطت متباطئة متوانية خلال غيوم من الدخان ، مصطبغة بلوم الدم . وخيل لسكارلت أنها سمعت نداء وانياً من الغرفة المجاورة ، ولكنها لم تعره اهتمامها ، فليس لديها الآن وقت لميلاني ، بل ليس لديها وقت لأي شيء ، إلا الخوف يلعق من عروقها بسرعة كسرعة ألسنة اللهيب التي تراها . لقد أضحت مجرد طفلة أفقدها الفزع صوابها فودت أن لو تدفن رأسها في حجر أمها ، وتغمض عينيها عن هذا المنظر المخيف . آه لو أنها في البيت فقط ، في البيت مع أمها .

وسمعت سكارلت خلال تلك الأصوات صوتاً آخر ، صوت أقدام يحثها الخوف وهي تصعد الدرجات ثلاث ثلاث ، صوتاً نابحاً كصوت كلب ضائع . واخترقت برسي الغرفة ، وهرعت نحو سكارلت ، وأمسكت بذراعها في قبضة كادت تمزق لحمها .

ـ «الشماليون !» صاحت سكارلت .

ـ «لا ! إنهم جنودنا» صاحت برسي لاهثة ، غارزة أظفارها أعمق في ذراع سكارلت «إنهم يحرقون المصانع ومخازن تموين الجيش وعنابر الذخيرة . بالله يا آنسة سكارلت ، لقد فجروا بها ملء سبعين عربة من البارود وقنابل المدافع . يا للمسيح ! سنحترق جميعاً» .

وبدأت تصرخ بزعيق حاد ، وتقرص سكارلت بقوة بالغة ، حتى إن هذه صاحت من الألم وانتزعت يدها .

لم يدخل الشماليون بعد ! وما زال هناك متسع للهرب ! واستجمعت أشتات جأشها المذعور :

ـ «إذا لم أحتفظ برباطة جأشي» ـ فكرت «فسأموء كقطة يشتعل بها اللهيب !» .

وساعد منظر هلع برسي الخسيس على تهدئة روعها ، فأمسكت بكتفيها وهزتها قائلة :

ـ «كفي عن هذه الخساسة وتكلمي في ما هو معقول ، فالشماليون لم يدخلوا بعد أيتها الحمقاء . هل رأيت الكابتن بتلر؟ ماذا قال؟ هل هو آت؟» .

كفت برسي عن الزعيق ، غير أن أسنانها استمرت تصطك من الرعب .

ـ «نعم يا سيدتي ، وجدته أخيراً في إحدى الحانات كما أخبرتني . إنه . . .» .

ـ «لا يهمني أين وجدته ، أخبريني هل هو قادم؟ هل أخبرته أن يجلب فرسه؟

ـ «نعم يا آنسة سكارلت . لقد قال إن جنودنا أخذوا حصانه وعربته ليستعملوها كعربة إسعاف» .

ـ «يا لله العظيم في السماء !» .

ـ «ولكنه آت . . .» .

ـ «وماذا قال؟» .

استعادت برسي نفسها وبعض السيطرة على اضطرابها ، بيد أن عينيها ظلتا قلقتين .

ـ «حسناً يا سيدتي ، كما أخبرتني وجدته في حانة . وقفت في الخارج وناديت عليه ، فخرج ورآني مباشرة . وعندما باشرت في إبلاغه حديثك ، نسف الجنود أحد المنازل الحجرية في أسفل شارع ديكاتور ، فاشتعلت النيران ، ولذلك طلب إلي أن أرافقه ، وأمسك بيدي ، وركضنا نحو فايف بوينتس ، وهناك قال لي «والآن ماذا؟ هيا تكلمي !» فأجبته أنك أخبرتني أن يأتي الكابتن بتلر على عجل ويحضر حصانه وعربته ، وأن الآنسة ميلي ولدت طفلاً ، وأنك تتلهفين للخروج من المدينة ، فأجابني «وأين تفكر في الذهاب» فقلت : لا أدري يا سيدي ، ولكن لا بد من ذهابك ، لأن الشماليين يدخلون البلد وهي تريد الخروج معك . فضحك قائلاً إنهم أخذوا حصانه» .

غار قلب سكارلت عندما غادرها الأمل الأخير . لقد كانت غبية إذ لم تفكر بأن من الطبيعي أن يصادر الجيش المتقهقر كل عربة وحصان في المدينة ، ووقفت هنيهة وهي في حالة من الصرع الذاهل ، بحيث لم تسمع ما قالته برسي ، بيد أنها سرعان ما استعادت رشدها لتصغي إلى بقية القصة :

ـ «ثم قال أخبري الآنسة سكارلت أن تحتفظ بهدوئها ، فسأسرق حصاناً من أجلها من خارج ممتلكات الجيش ، حتى لو لم يعد في المدينة أي حصان . لقد سرقت خيولاً قبل هذه الليلة . أخبريها أني سأجلب حصاناً حتى لو دفعت

روحي ثمن ذلك . ثم ضحك ثانية وأردف قائلاً «اجري الآن إلى البيت» وقبيل أن أبدأ بالجري سمعت صوت دوي هائل ، وكدت أقع في الطريق ، ولكنه طمأنني قائلاً إن جنودنا يدمرون ذخائرهم لئلا تقع بأيدي الشماليين و . . .» .

ـ «هل هو آت؟ هل سيجلب حصاناً؟» .

ـ «هكذا قال» .

فتنفست سكارلت الصعداء . إنها تعرف أنه إذا كان يوجد أي مجال للحصول على حصان ، فريت بتلر لا بد فائز بواحد . إن ريت رجل حاذق ذكي . سوف تعفو عن كل شيء فعله إن هو أخرجهم من هذا الجحيم . الهرب ! ومع ريت لن تخشى شيئاً ، ريت سيحميهم . . . شكراً لله على ريت . . . لقد أضحت سكارلت إنساناً عملياً وهي تفكر بسلامتها .

ـ «أيقظي ويد وألبسيه ، وأخرجي بعض الثياب لنا . جميعاً . ضعيها في الحقيبة الصغيرة ، ولا تخبري الآنسة ميلاني أننا ذاهبون ، فلم يحن الوقت بعد ، ولكن دثري الطفل بمنشفتين سميكتين وتأكدي من راحته واحزمي ثيابه» .

كانت برسي لا تزال متعلقة بأهداب تنورة سكارلت ، لا تكاد عيناها تظهران سوى البياض ، بيد أن سكارلت دفعتها مفلتة إياها من قبضتها ، وصاحت بها :

ـ «أسرعي» وهرولت برسي كالأرنب .

كانت سكارلت تعرف أن عليها دخول غرفة ميلاني لتهدئة مخاوفها ، وتعرف أيضاً أن ميلاني لا بد أن تكون هلعة فاقدة الرشد من جراء هذه الانفجارات الراعدة التي استمرت دون أن يخف دويها ، ومن جراء هذا الوهج الذي خضب السماء . إن كل شيء يبدو وينذر كما لو أنها نهاية الدنيا .

غير أنها لم تكن تستطيع ، حتى الآن ، حمل نفسها على الدخول إلى تلك الغرفة ، ولذا هبطت السلم جرياً ، يحثها التفكير برزم بعض أدوات الآنسة بيتي الخزفية والفضية القليلة التي خلفتها في البيت يوم نزحت إلى ميكون . ولكنها ، عندما بلغت غرفة الطعام أحست بيديها ترتعشان بعنف ، بحيث سقط منهما ثلاث صحاف ، تهشمت على الأرض . ثم أسرعت ركضاً إلى الشرفة لتصيخ السمع ، ومن ثم قفلت راجعة إلى غرفة الطعام حيث أسقطت مرة أخرى إحدى الأواني الفضية التي علا صليلها عندما اصطدمت بالأرض . وهكذا هوى إلى الأرض كل شيء لمسته يداها .

وبينما هي في غمرة سرعتها زلت قدمها فوق السجاد ، فوقعت مرتطمة بالأرضية ، غير أنها سرعان ما نهضت دون أن تشعر بالألم . واستطاعت سماع خطوات برسي من الطابق العلوي ، وهي تخب خبباً كحيوان بري ، الأمر الذي أفزعها ، لأنها هي أيضاً ، كانت تحوم بلا هدف .

وللمرة الثانية عشرة خرجت ركضاً إلى الشرفة ، ولكنها لم تعد هذه المرة إلى عملية الرزم العقيمة ، بل جلست واثقة من أن من المستحيل عمل أي شيء سوى الجلوس بقلب واجف وانتظار ريت . وبدا لها أن ساعات طويلة ستنقضي قبل أن يصل ، وأخيراً ، ومن أعلى الطريق البعيدة ، تناهى إلى سمعها صرير عجلات تصلصل ، عجلات بدون تزييت ، كما سمعت أيضاً صوتاً غامضاً لحوافر حصان بطيء يجهد في مشيته . . لماذا لم يسرع؟ ! لماذا لم يحث الحصان كي ينطلق سريعاً؟ !

واقترب الصوت ، ووثبت واقفة على قدميها ونادت ريت ، ثم لاح لها شخصه بغموض ، وهو يترجل من على مقعد عربة صغيرة ، وسمعت صرير البوابة وهو يتجه نحوها . وعندما أضحى تحت بصرها كشف ضوء المصباح وجهه بوضوح . كان ثوبه ظريفاً كما لو أنه ذاهب إلى حفلة رقص ، وقد دس في حزام سرواله مسدسي مبارزة طويلي الماسورة ، عاجيي المقبض ، وانتفخت جيبا معطفه بالذخيرة .

وصعد الممشى بالخطو المرن لرجل همجي ، وبدا رأسه محمولاً على كتفيه كرأس أمير وثني . . . إن أهوال الليلة التي أودت بسكارلت في مهاوي الرعب قد أثرت فيه تأثير مادة مسكرة . كان وجهه ينطق بشراسة مكبوحة حذرة ، بقسوة كان يمكن أن تفزعها لو ملكت الفطنة لاستجلائها .

وكانت عيناه السوداوان تتراقصان كأنهما مسرورتان بهذا الوضع الجديد ، وكانت أصوات الانفجارات المزلزلة واللهيب المخيف مجرد أمور تريع الأطفال . وفيما كان يصعد الدرجات ترنحت سكارلت نحوه ، وجهها شاحب وعيناها الخضراوان محمومتان .

- «عمي مساء» قال بلهجته المتشدقة وهو يرفع قبعته بإيماءة سريعة ، «إننا نتعم بطقس بديع . سمعت أنك ستقومين برحلة» .

- «إذا ما سخرت ، فلن أكلمك أبداً» قالت بصوت مرتعش .

ـ «لا تخبريني أنك فزعة !» وتظاهر بالدهشة وابتسم بطريقة جعلتها تتحرق لدفعه إلى الوراء كي يتدحرج فوق الدرج الشديد الانحدار .

ـ «أجل ! إني فزعة حتى الموت ، ولو كنت تملك العقل الذي وهبه الله للماعز لفزعت أيضاً . ولكن ليس لدينا الوقت للحديث ، فعلينا أن نغادر المكان» .

ـ «أنا في خدمتك يا سيدة . فقط أين عولت على الذهاب؟ لقد دفعني الفضول إلى الخروج والقدوم ، إلى هنا ، لأرى فقط أين عزمت على الرحيل ، إذ ليس بوسعك الذهاب شمالاً أو شرقاً ، جنوباً أو غرباً . إن الشماليين يحيطون بجميع النواحي ، ولا يوجد إلا طريق واحدة فقط للخروج من المدينة ، طريق لم يحتلها الشماليون بعد ، ولكن جنودنا يتراجعون فوقها ، ولن تستمر بأيديهم مدة طويلة ، ففرسان الجنرال ستيف لي يقومون بقتال في المؤخرة عند رف إند ريدي ، كحركة تغطية للاحتفاظ بالطريق المذكورة أطول مدة ممكنة ، وذلك كي يتسنى للجيش الانسحاب ، فإذا ما تبعت الجيش على طريق ماك دونو ، سيجردك رجاله من الحصان ، الذي على الرغم من أنه شبه حصان ، فإني تجشمت الكثير من المشقة في سرقته . . . أريد أن أعرف فقط أين تريدين الذهاب؟» .

وقفت سكارلت تنتفض فرقاً ، تصغي لكلماته ، ولا تكاد تسمعها . ولكنها عرفت فجأة ، على إثر سؤاله ، أين تريد الذهاب ، عرفت أنها كانت تدرك طيلة هذا اليوم المشؤوم إلى أين تريد الذهاب ، إلى المكان الوحيد :

ـ«إني ذاهبة إلى البيت» قالت .

ـ «البيت؟ تقصدين تارا؟» .

ـ «أجل ! أجل ! إلى تارا ، آه ريت ينبغي أن نسرع» .

فنظر إليها كما لو كانت قد فقدت عقلها :

ـ «تارا؟ يا لله ! سكارلت ، ألا تعرفين أن القتال دار في جونسبورو طيلة هذا اليوم؟ قتال امتد عشرة أميال شمالي الطريق من رف إند ريدي وجنوبيها حتى وفي قلب شوارع جونسبورو؟ من المحتمل أن يكون الشماليون قد استولوا على تارا جميعها الآن ، بل على الولاية بأسرها . لا يعرف إنسان أين هم الآن بالتحديد ، ولكنهم في تلك الناحية على كل حال . لا يمكنك الذهاب إلى

البيت ، لا يمكنك اختراق الجيش الشمالي» .

ـ «سأذهب إلى البيت !» صاحت «سأذهب ! سأذهب !» .

«أيتها الحمقاء الصغيرة» قال بصوت سريع أجش «لا يمكنك الذهاب بتلك الطريق ، إذ حتى إذا تجنبت خطوط الشماليين ، فستعترض سبيلك الغابات المليئة بالضالين طريقهم والفارين من كلا الجيشين . ثم إن جموعاً كبيرة من جنودنا ما زالت تتراجع من جونسبورو ، وسينتزع أفرادها الحصان منك فور أن يشاهدوه ، الأمر الذي يمكن أن يفعله الشماليون كذلك . ففرصتك الوحيدة إذاً هي في اتباع جنودنا فوق طريق ماك دونو ، واسألي الله أن لا يروك في الظلام . . . لا ! لا تستطيعين الذهاب إلى تارا . حتى لو قدر لك بلوغها ، من المحتمل أن تجديها خاوية محترقة . . .لا ! لن أدعك تذهبين إلى البيت ، إن هذا عمل جنوني» .

ـ «سأذهب إلى البيت» ، صاحت وعلا صوتها في زعيق حاد «سأذهب إلى البيت ولن تستطيع منعي . سأذهب إلى البيت . إني أريد الوصول إلى أمي ، وسأقتلك إن أنت حاولت منعي . سأذهب إلى البيت» .

وانهمرت دموع الخوف والقلق على وجهها . وقد انهارت مقاومتها أخيراً بعد ذلك التوتر النفسي الطويل ، وراحت تقرع على صدره بقبضتيها وتصيح ثانية :

ـ «سأذهب ! سأذهب ! حتى لو كتب علي أن أمشي كل خطوة من الطريق» .

وفجأة تكوّمت بين ذراعيه ، خدها المخضل على كشكش قميصه المنشى ، ويداها القراعتان ما زالتا على صدره ، وداعبت أصابعه شعرها المشعث بلطف محاولة تهدئة روعها ، وكان صوته رقيقاً كذلك ، رقيقاً جداً ، هادئاً جداً ، خالياً من أي سخرية ، كأنه لم يعد صوت ريت بتلر أبداً ، بل صوت رجل غريب قوي رحيم ، تنبعث منه رائحة البراندي والدخان والخيل ، تلك الرائحة التي واستها لأنها ذكرتها بأبيها .

ـ «يكفي يكفي يا عزيزتي» قال بلطف «لا تبكي ، ستذهبين إلى البيت يا فتاتي الشجاعة . ستذهبين إلى البيت . لا تبكي» .

وأحست بشيء يمس شعرها ، وتساءلت ، وهي على هذه الحال من

الاضطراب ، إذا كان ذلك الشيء هو شفتيه . لقد كان عطوفاً جداً ، مواسياً إلى آخر حدود المواساة ، وتاقت أن لو تظل بين ذراعيه إلى الأبد ، فلن يقدر أي مكروه على إيذائها أبداً طالما هي بين ذراعين قويين كذراعيه .

وعبث ريت في جيبه ، ثم أخرج منديلاً مسح به دموعها .

ـ «والآن امخطي كالفتاة الطيبة» قال وفي عينيه بصيص من ابتسامة ، «وأخبريني ماذا أفعل ، فينبغي العمل بسرعة» .

فمخطت ملبية طلبه ، دون أن تكف عن الرجفان ، ودون أن تستطيع التفكير بما ينبغي عليه فعله ، غير أنه ، وقد رأى كيف كانت شفتاها ترتعشان ، وعيناها تشخصان إليه حائرتين ، استلم المبادرة :

ـ «لقد ولدت السيدة ويلكس؟ سيكون من الخطر نقلها ، من الخطر حملها مسافة خمسة وعشرين ميلاً في هذه العربة المضعضعة ، فمن الأفضل إذاً بقاؤها مع السيدة ميد» .

ـ «آل ميد ليسوا في البيت . لا يمكنني إبقاؤها» .

ـ «حسناً جداً ، ستذهب في العربة . أين تلك الفتاة الغبية الصغيرة؟» .

ـ «في الطابق العلوي تحزم الحقيبة» .

ـ «حقيبة؟ ! لن تستطيعي أخذ أي حقيبة في هذه العربة ، فهي تكاد تكون أصغر من أن تسعكم جميعاً ، كما أن عجلاتها على استعداد للإفلات دونما حافز . ناديها وأخبريها أن تحضر أصغر فرشة ريش في البيت ، وتضعها في العربة» .

كانت سكارلت لا تزال عاجزة عن الحركة ، ولذلك أخذ ريت بذراعها في قبضة قوية ، وبدا كأن بعض حيويته التي كانت تنعشه انتقلت إلى جسدها . آه ، لو أنها تستطيع فقط أن تكون باردة الأعصاب ، عديمة المبالاة مثله . وقادها إلى القاعة ، غير أنها لم تلبث أن وقفت تنظر إليه بعينين حائرتين ، وتدلت شفته في حركة ساخرة :

ـ «هل يمكن أن تكون هذه هي المرأة الشابة البطلة التي أكدت لي يوماً أنها لا تخاف الله ولا الإنسان؟» وانفجر في الضحك فجأة ، مفلتاً ذراعها من قبضته . ورمقته ذاهلة بنظرات الكراهية .

ـ «لست خائفة» .

ـ «بلى إنك خائفة ، وسيغمى عليك بعيد لحظات ، ولست أحمل أقراصاً منعشة» .

ضربت سكارلت الأرض بقدم واهنة ، إذ لم تستطع التفكير بأي شيء آخر تفعله ـ ودون أن تنبس بكلمة ، حملت المصباح وصعدت الدرج ، وسار هو خلفها ، على مقربة منها ، بحيث استطاعت سماع ضحكته ، الخفيضة ، الأمر الذي يبس عمودها الفقري ، فدخلت غرفة ويد ، حيث ألفته قابعاً متعلقاً بذراعي برسي ، نصف عار ، يفوق بهدوء ، بينما كانت برسي تنشج ، فأمرتها سكارلت أن تحمل فرشة ويد الريشية الصغيرة وتضعها في العربة . وأطاعت الزنجية الأمر ، ملقية الصبي من يديها ، ولكن هذا تبعها على السلم ، وقد صمت فواقه لاهتمامه بالإجراءات الجديدة .

ـ «تعال» قالت سكارلت واتجهت إلى باب ميلاني ، يتبعها ريت وقبعته في يده .

كانت ميلاني تضطجع ساكنة ، يغطيها الشرشف حتى ذقنها ، وكان وجهها شاحباً كوجوه الموتى ، ولكن عينيها السوداوين كانتا وقورتين . وعندما رأت بتلر في غرفتها لم تبد أية دهشة بل ظهر أنها تعتبر ذلك أمراً طبيعياً . وحاولت واهنة أن تبتسم ، ولكن الابتسامة تلاشت قبل أن تبلغ شدقيها .

ـ «نحن ذاهبون إلى البيت ، إلى تارا» أوضحت سكارلت على عجل ، «فالشماليون قادمون ، وسينقلنا ريت . إنه المفر الوحيد يا ميلاني» .

حاولت ميلاني ، بضعف ، أن تطرق برأسها موافقة ، ثم أشارت ناحية الطفل ، وعندئذ حملت سكارلت الوليد ، ولفته بسرعة بمنشفة سميكة ، بينما خطا ريت نحو السرير .

ـ «سأحاول أن لا أؤلمك» قال بهدوء ، ولف الشرشف حولها . «جربي ، إن استطعت ، وضع ذراعيك حول عنقي» .

فلبت رجاءه ، إلا أن ذراعيها تهاوتا ، فانحنى إذ ذاك ، داساً إحدى ذراعيه تحت كتفيها ، والأخرى عبر ركبتيها ، ورفعها برفق . لم تزعق ، ولكن سكارلت لمحتها تعض شفتيها ويفيض الدم من وجهها تماماً . وحملت سكارلت المصباح عالياً كي يرى ريت طريقه ، واتجهت نحو الباب ، وعندئذ أومأت ميلاني بحركة ضعيفة إلى الحائط .

ـ «ماذا؟» سأل ريت برفق .
ـ «أرجوك» همست ميلاني محاولة الإيماء «تشارلز» .
فنظر إليها ريت وكأنه ظنها تهذي ، ولكن سكارلت أدركت قصدها وأمضّتها البادرة ، لقد عرفت أن ميلاني تريد صورة تشارلز النحاسية المعلقة على الجدار تحت سيفه ومسدسه .
ـ «أرجوك» همست ميلاني ثانية «السيف» .
ـ «ها ، حسناً» قالت سكارلت ، وبعد أن أضاءت لريت طريق السلم عادت فنزعت السيف والمسدس بحزاميهما . . . لقد كان من العسير حملهما والوليد والقنديل ، ولكن هذا كان منطق ميلاني الحقيقي . لا يهمها أبداً أنها على شفير الموت ، وأن الشماليين في أعقابها ، وإنما يهمها الحفاظ على أمتعة تشارلز .
وفيما هي تنزل الصورة النحاسية ، لمحت وجه تشارلز ، وقابلتها عيناه العسليتان الكبيرتان ، فوقفت هنيهة تتطلع إلى الصورة يدفعها الفضول . . . لقد كان هذا الرجل زوجها ، لقد اضطجع إلى جانبها ليالي قليلة ، لقد منحها طفلاً بعينين عسليتين وادعتين كعينيه ، ومع ذلك فهي لا تكاد تتذكره .
ولوح الوليد الذي بين يديها بقبضتيه الصغيرتين ، وثغا ثغاء رقيقاً ، فتطلعت في وجهه ، وللمرة الأولى ، تحققت أن هذا الوليد كان ابن آشلي ، وفجأة ، تمنت بكل ما بقي فيها من قوة أن لو كان هذا الوليد ابنها هي وآشلي .
صعدت برسي الدرج بخطوات صاخبة ، فناولتها سكارلت الطفل ، ثم هبطتا السلم مسرعتين ، والقنديل يلقي ظلالاً حائرة على الجدار ، ورأت سكارلت وهي تعبر القاعة إحدى القبعات ، فارتدتها على عجل ، وعقدت الشريط تحت ذقنها . كانت قبعة الحداد السوداء ، التي تخص ميلاني ، فلم تناسب رأس سكارلت ، ولكنها لم تستطع أن تتذكر أين وضعت قبعتها .
خرجت من المنزل ونزلت الدرجات الأمامية ، حاملة القنديل ومحاولة منع السيف من الارتطام بساقها . وعندما بلغت العربة ، رأت ميلاني تضجع على عرض مؤخرتها ، وقد جلس ويد بجانبها وإزاءه الوليد الملفوف بالمنشفة . ثم صعدت برسي إلى داخل العربة وتناولت الوليد بين ذراعيها .
كانت العربة صغيرة جداً ، وكانت ألواحها الخشبية الجانبية منخفضة كثيراً ، كما أن العجلات مالت إلى الداخل منذ الدورة الأولى ، كأنها ستنفصل عن العربة .

وما إن ألقت سكارلت نظرة على الحصان حتى غار قلبها . كان حيواناً صغيراً أعجف ، يقف كسير النفس ، خافضاً رأسه بين ساقيه الأماميتين تقريباً ، وكان ظهره مسلوخاً من القروح ومن حزات العدة ، وكان يتنفس بصورة لا تنم مطلقاً على أنه سليم البنية .

ـ «إنه ليس حيواناً طبيعياً ، أليس كذلك؟» قال ريت مبتسماً «يبدو كأنه سينفق بين العارضتين ، على أنه أفضل ما استطعت الحصول عليه ، سأنبئك يوماً ، في حديث منمق ، كيف ومن أين سرقته ، وكيف تفاديت القتل بأعجوبة . والحقيقة أن لا شيء سوى إخلاصي لك يمكن أن يجعلني أنقلب وأنا في هذه المرحلة من حياتي إلى سارق خيل ـ سارق لمثل هذا النوع من الخيل . والآن دعيني أساعدك على الصعود» .

وتناول المصباح من يدها ، ووضعه على الأرض . كان المقعد الأمامي عبارة عن لوح خشبي صغير ضيق ، ممتد بين جانبي العربة ، فحمل ريت سكارلت وأجلسها عليه . وهجست سكارلت : ما أدهش أن يكون المرء رجلاً وقوياً كريت ، ولفت تنورتها الواسعة حول ساقيها . والآن ، وريت إلى جانبها ، لم تعد تخشى شيئاً لا النار ولا الضجيج ولا الشماليين .

وصعد بتلر إلى المقعد وجلس إلى جانبها ، وتناول عنان الفرس .

ـ «ها ! انتظر» صاحت «نسيت إيصاد الباب الأمامي» .

فانفجر في قهقهة مدوية ، وساط ظهر الحصان بحبل الزمام .

ـ «علام تضحك؟» .

ـ «عليك . . . تريدين منع الشماليين من الدخول !» قال وقد تحرك الحصان بطيئاً مكرهاً .

*

وجّه ريت خطوات الحصان البطيئة شرقي شارع بيتشتري ، وراحت العربة المتهادية تترنح بشدة فوق الزقاق المحفوفر ، تترنح ترنحاً شديداً اعتصر أنة فجائية جافة من ميلاني . وتشابكت أشجار قاتمة فوق رؤوسهم ، ولاحت أمامهم ، على كلا الجانبين ، بيوت قاتمة صامتة ، وبانت أعمدة الأسيجة البيضاء ، بانت باهتة كصف من شواهد القبور . كان الشارع الضيق عبارة عن نفق معتم ، ولكن ومن خلال سقف الأوراق الكثيفة الذي ظللهم ، اخترق الظلام بضآلة

وهج السماء الأحمر المخيف ، وتتابعت الظلال على طول الطريق المعتمة ، طيفاً في إثر طيف كالأشباح المجنونة . وأخذت رائحة الدخان تقوى شيئاً فشيئاً ، وحملت أجنحة النسيم الحار خليطاً من الأصوات تنذر بالشر ، صادرة من وسط المدينة : صيحات ، وهدير بعيد لشاحنات الجيش الثقيلة ، وخطو ثابت لأقدام تسير سيراً عسكرياً . وعندما جذب ريت عنان الحصان وأداره إلى شارع آخر ، مزق الهواء انفجار مصم آخر ، وارتفع في الغرب عمود ضخم من اللهيب .

ـ «لا بد أن يكون ذلك آخر قطارات الذخيرة» قال ريت رابط الجأش «لماذا لم ينقذوها هذا الصباح ، أولئك الحمقى ، كان بحوزتهم المديد من الوقت . . على كل حال ، إن ذلك أمر سيئ جداً بالنسبة إلينا ، فقد كنت أظن أننا ، بدوراننا حول وسط المدينة ، سنتجنب النيران وأولئك الطغام السكارى في شارع ديكاتور ، كما سنتوغل باتجاه الجزء الجنوبي الغربي من المدينة دون أن نتعرض لأي خطر ، غير أنه لا بد لنا من أن نعبر شارع ماريتا في أحد أجزائه ، وهذا الانفجار على مقربة من شارع ماريتا ، أو أن أكون قد أخطأت التخمين» .

ـ «هل يتوجب . . . يتوجب علينا المرور خلال النار؟» سألت سكارلت وهي ترتعد» .

ـ «لا ، إن نحن أسرعنا» قال ريت ، وقفز من العربة مختفياً في عتمة إحدى الساحات ، وعندما رجع كان يحمل بيده غصن شجرة صغيرة ضرب به ظهر الحصان ، فانطلق الحيوان عندئذ في خبب متثاقل ، يتنفس لاهثاً منهوكاً ، بينما اندفعت العربة مترنحة بوثبة أفقدت الجميع توازنهم وقذفت بهم كما تقذف حبات الذرة في المقلى ، وأعول الطفل وصاحت برسي وويد وقد ارتطما بجانبي العربة ، ولكن صوتاً ما لم يصدر عن ميلاني .

وعندما اقتربوا من شارع ماريتا ، تضاءلت الأشجار كثافة ، وأضفت ألسنة اللهيب الطويلة المندلعة فوق المباني على الشارع والبيوت وهجاً من الضوء آلق من نور النهار ، صانعة ظلالاً هائلة تتلوّى بمدى واسع كأشرعة ممزقة تخفق خلال العاصفة فوق مركب غريق .

واصطكت أسنان سكارلت ، غير أن فزعها كان هائلاً جداً بحيث أنها لم تلتفت إلى كل ما حولها . وكانت ترتجف من البرد مع أن حرارة اللهيب

أضحت الآن تلفح وجوههم . . . إن هذا هو الجحيم وها هي في جوفه ، ولو أنها فقط تستطيع السيطرة على ركبتيها الراجفتين لوثبت من العربة وعادت أدراجها تصرخ فوق الطريق المظلمة ، عادت إلى الملجأ في بيت الآنسة بيتي بات . وتكوّمت على نفسها مقتربة من ريت ، وأخذت ذراعه بأصابع مرتعشة ، وتطلعت إليه تلتمس كلماته ، تلتمس مواساة ، تلتمس أي شيء مطمئن . وفي الوهج القرمزي الدنس الذي غمرهم ، بدا منظر جانب وجه ريت واضحاً وضوح رأس منقوش على عملة نقدية قديمة ، وجه جميل صارم ، وغد . وعندما لمسته ، استدار نحوها وعيناه تشعان ببريق مخيف كالنار ، وتراءى لها أنه مبتهج ساخر ، كأنه يستمد سروراً عظيماً من هذا الوضع ، وكأنه يرحب بهذا الجحيم الذي يقتربون منه .

- «دونك هذا» ، قال واضعاً يده على أحد المسدسين ذوي الماسورتين الطويلتين في حزامه «إذا ما امتطى إنسان ، أسود أو أبيض ، العربة من ناحيتك ، وحاول أن يمد يداً إلى الحصان ، أطلقي النار عليه وسنوجه الأسئلة فيما بعد ، ولكن بالله ، لا تقتلي الحصان الصغير في أثناء اضطرابك» .

- «معي - معي مسدس !» . همست قابضة على السلاح الذي في حجرها ، واثقة تماماً من أنه إذا ما رأت الموت يتهددها فستكون أجبن من أن تتمكن من ضغط الزناد .

- «معك؟ - من أين حصلت عليه؟» .

- «إنه مسدس تشارلز» .

- «تشارلز؟» .

- «أجل تشارلز - زوجي» .

- «هل كان لك زوج في الحقيقة يا عزيزتي؟» همس ضاحكاً ضحكة ناعمة . لو أنه فقط يتحلى بالجد ! لو أنه فقط يسرع في السير !

- «وكيف تفكر أني رزقت بولدي؟ صاحت ساخطة .

- «ها ، هناك طريق أخرى غير الزواج -» .

- «هل لك أن تصمت وتسرع؟» .

ولكنه جذب العنان فجأة ، وكانوا قد بلغوا شارع ماريتا تقريباً ، فتوقفت العربة في ظلال مخزن حربي لم تصله ألسنة اللهيب بعد .

ـ «أسرع !» تلك كانت الكلمة الوحيدة في عقلها . . . أسرع ! أسرع ! .

ـ «جنود» أجابها .

كانت فصيلة من الجنود قادمة في شارع ماريتا ، تسير بين المباني المحترقة ، بخطوات خاصة بالانسحاب ، تسير منهوكة ، يحمل أفرادها بنادقهم كيفما اتفق ، مطأطئي الرؤوس ، هدهم الإعياء بحيث لا يقوون على السرعة ، ولا يأبهون لتحطم الألواح الخشبية على يمينهم وعلى يسارهم ، وانبعاث الدخان من حولهم . وكان الجميع متسربلين ببزز رثة جداً ، حتى إن المرء لم يكن يستطيع أن يلحظ أي شارات فارقة بين الضباط والجنود ، سوى بعض حواشي القبعات الممزقة ، التي كانت تحمل شريطاً مجدلاً بالحروف : «سي . إس . إي»(*) كان الكثيرون منهم حفاة ، يتخللهم عدد من ذوي الرؤوس والسواعد المضمدة بخرق نتنة .

وتجاوز الجنود العربة ، دون أن ينظروا يمنة أو يسرة . لقد أخلدوا إلى الصمت ، بحيث كان يمكن أن يعتبروا مجرد أشباح ، لولا وقع خطواتهم الثابتة .

ـ «تأمليهم جيداً» طرق أذنيها صوت ريت الساخر . . حتى تستطيعي إخبار حفدتك أنك رأيت حرس المؤخرة للقضية المجيدة في أثناء تقهقرهم» .

وفجأة كرهته ، كرهته بشدة ، وتغلبت في تلك اللحظة على خوفها ، وجعلته يبدو صغيراً تافهاً أمام قوة كراهيتها لريت . كانت تدرك أن سلامتها وسلامة الآخرين ، الذين في مؤخرة العربة تعتمد عليه ، وعليه وحده ، ولكنها كرهته بسبب تهكمه على أولئك الجنود الرثّي الثياب . وفكرت بتشارلز الميت ، وبآشلي الذي قد يكون ميتاً ، وبكل الشبان الشهام المرحين الذين كانت أجسادهن تتعفن في قبور قليلة العمق ، ونسيت أنها ، هي أيضاً ، كانت يوماً ما تعتبرهم حمقى . ولم تستطع الكلام ، بيد أن الكراهية والاشمئزاز اتقدا في عينيها وهي تحدق فيه بقوة .

وعندما عبرت مؤخرة الفصيل ، توقف رجل صغير من الصف الخلفي ، كان جسده يترنح وكعب بندقيته يجرجر في التراب ، توقف عن المسير وراح يرنو خلف زملائه الباقين بوجه قذر أنهكه الإعياء ، بحيث ظهر كمن يمشي في

(*) ولايات الحلف الأميركية .

نومه . كان صغير الجثة كسكارلت ، صغيراً جداً حتى إن بندقيته كانت تضاهيه طولاً ، وكان وجهه القذر أجرد عديم اللحية ، فلم يكن يتجاوز السادسة عشرة على أكثر تقدير ، كما خطر لسكارلت عرضاً ، ولا بد أن يكون أحد أعضاء الحرس الوطني أو تلميذاً هارباً من المدرسة . وفيما كانت تراقبه ، انثنت ركبتاه تدريجياً ، وهوى إلى الأرض ، بينما انقلب نحوه رجلان من الصف الأخير دون أن ينبسا بكلمة . كان أحدهما هزيلاً طويل القامة ذا لحية سوداء تتدلى إلى حزامه ناول بندقيته وبندقية الفتى إلى زميله بصمت ، ثم انحنى وطوح بالصبي على كتفيه بسهولة فائقة جعلت العملية تبدو وكأنها خدعة يدوية ، وانكفأ بعدئذ راجعاً وراء القافلة المنسحبة وقد تقوس كتفاه من الحمل ، بينما راح الصبي الضعيف ، الذي اغتاظ كما يغتاظ طفل استفزه من هم أكبر منه سناً ، راح يصيح :

ـ «أنزلني ! ليلعنك الله . أنزلني فباستطاعتي المشي» .

ولم يقل الرجل ذو اللحية شيئاً ، وإنما استمر متئداً في مشيته ، وغاب عن الأنظار عند منعطف الطريق .

كان ريت يجلس على مقعد العربة صامتاً يترنح الزمام في يده ، وهو يتابع المشهد بعينيه ، وقد غمرت وجهه نظرة كئيبة غريبة ، ثم علا على مقربة منهم صوت أغصان ساقطة تتحطم ، ورأت سكارلت لساناً رفيعاً من اللهب يندلع فوق سطح مستودع الذخيرة الذي قبعوا في ظلاله الساترة . ثم ارتفعت نحو السماء فوقهم رايات وأعلام حربية من ألسنة اللهيب تتموج كأعلام النصر . وأحست سكارلت بالدخان يحرق منخريها ، وشرع ويد وبرسي يسعلان ، بينما أخذ الوليد يعطس عطساً خفيفاً .

ـ «آه باسم الإلــه يا ريت . هل أنت مجنون؟ أسرع ! أسرع !» .

ولم يتكلم ريت ، بل هوى بغصن الشجرة على ظهر الحصان بقوة عنيفة لا ترحم ، جعلت الحيوان يثب للأمام بكل ما استطاع من قوة . وراحت العربة تتهادى وتترنح بهم عبر شارع ماريتا ، ورأوا أمامهم نفقاً من النيران ، إذ كانت المباني تشتعل على كلا جانبي الشارع الصغير الضيق ، الذي يؤدي إلى خطوط السكة الحديد . وعندما بلغوا النفق اخترقوه ، فبهرت أبصارهم بفعل ضوء أكثر تلألؤاً من أنوار دزينة من الشموع ، وجففت الحرارة اللافحة جلودهم ، وقرعت

أصوات الدوي والتحطيم والتكسير آذانهم بتموجات أليمة ، وبدا للحظة سرمدية كأنهم في غمرة عذاب مستعر ، ثم ألفوا أنفسهم فجأة ، وللمرة الثانية ، في نصف عتمة .

وفيما هم ينطلقون نحو أسفل الشارع ، يعلون ويهبطون فوق قضبان السكة الحديد ، كان ريت يستعمل السوط بصورة آلية ، وجهه ساكن شارد كأنه نسي أين هو ، وكتفاه العريضتان منحنيتان إلى الأمام ، وذقنه بارزة عن مستوى فمه ، كأن الأفكار التي كانت تراوده لم تكن سارة ، وقد فصدت حرارة النار العرق من جبينه ووجنتيه فسح أنهاراً ، ولكنه لم يمسحه .

ثم انحرفوا في شارع جانبي ، ثم في آخر ، ثم عطفوا وانثنوا من شارع فرعي إلى آخر حتى فقدت سكارلت صبرها تماماً ، وحتى تلاشى دوي اللهيب خلفهم . وما زال ريت صامتاً لا يتكلم ، بل استمر يضرب بالسوط فقط ، بصورة آلية منتظمة ، وكان الوهج الأحمر في السماء قد اضمحل الآن ، وأمست الطريق مظلمة جداً ، مخيفة جداً ، بحيث غدت سكارلت ترحب بالكلام ، بأي كلام منه ، حتى الكلام الساخر المهين ، الكلام الجارح ، ومع ذلك فإنه لم يتكلم .

وسواء أكان صامتاً أم متكلماً ، فإنها تشكر الله على ما تحسه من طمأنينة بوجوده . إن من الخير أن يكون رجل إلى جانبها ، تتكئ عليه وتستشعر جبروت ساعده المتين ، وتدرك أنه يقف حائلاً بينها وبين أهوال مجهولة ، حتى ولو جلس ساكناً يتطلع وحسب .

ـ «آه يا ريت !» همست ممسكة بذراعه ، «ماذا كنا سنفعل بدونك؟ إني مسرورة جداً لكونك خارج عداد الجيش !» .

فأدار وجهه نحوها ، وألقى عليها نظرة واحدة ، نظرة جعلتها تفلت ذراعه وتنكمش إلى الوراء . لم يكن في عينيه الآن شيء من السخرية ، كانتا صريحتين تنطقان بالغضب ، وبشيء من الحيرة . ودلى شفته وأشاح برأسه عنها . وانقضت فترة طويلة وهم يتهادون في طريقهم ، يخيم عليهم صمت مطبق ، لا يشقه سوى عويل الوليد الخافت ونشقات مخاط برسي . ولمّا لم يعد بوسع سكارلت احتمال صوت نشق برسي ، التفتت نحوها وقرصتها ، فعلا زعيقها بصورة جادة قبل أن تخلد إلى صمت الفزع .

وأخيراً انثنى ريت بالحصان في منعطفات قائمة الزوايا ، وبعد فترة وجيزة كانوا يدرجون فوق طريق أوسع وأكثر تمهيداً . وأخذت ظلال البيوت القاتمة تتباعد أكثر فأكثر ، وطفقت الغابات الكثيفة المتصلة على جانبي الطريق تمتد كجدار سامق .

ـ «نحن الآن خارج المدينة» ، قال ريت ، جاذباً العنان على الطريق الرئيسية الموصلة إلى رف إند ريدي» .

ـ «أسرع ! لا تقف» .

ـ «دعي الحيوان يتنفس قليلاً» ثم استدار نحوها وسألها ببطء «سكارلت أما زلت مصممة على تنفيذ هذا العمل الأحمق؟» .

ـ «تنفيذ ماذا؟» .

ـ «أما زلت تريدين أن تحاولي الوصول إلى تارا؟ إنها عملية انتحار ، فبينك وبين تارا يعسكر فرسان ستيف لي والشماليون» .

آه ، يا لله ، هل سيرفض إيصالها إلى تارا بعد كل الذي قاسته طيلة هذا اليوم الرهيب؟

ـ «نعم ! نعم ! أرجوك يا ريت ، دعنا نسرع فالحصان ليس تعباً» .

ـ «دقيقة واحدة . لن تستطيعي الاستمرار في هذه الطريق إلى جونسبورو ، ولن يمكنك اتباع طريق السكة الحديد ، فقد ظلوا يحاربون هناك كراً وفراً طيلة النهار ابتداء من رف إند ريدي جنوباً ! هل تعرفين أي طريق آخر ، طريق عربات صغيرة أو زقاق لا يمر عبر رف إند ريدي أو جونسبورو؟» .

ـ «ها ، نعم» صاحت متنفسة الصعداء «عندما نقترب تماماً من رف إند ريدي ، سأدلك على ممر عربات يتفرّع من طريق جونسبورو الرئيسية ، ويمتد متعرجاً مسافة أميال . لقد اعتدت ووالدي سلوكه ، وهو ينفذ تماماً قرب منزل ماك أنتوش الذي يبعد عن تارا ميلاً واحداً فقط» .

ـ «حسناً ، من المحتمل أن يكون بوسعك اجتياز رف إند ريدي بسلام ، فقد كان الجنرال ستيف لي هناك خلال بعد الظهر يغطي عملية الانسحاب ، ومن المحتمل أن لا يكون الشماليون قد احتلوا المكان بعد . ربما تستطيعين اجتياز المنطقة إذا لم يصادر رجال ستيف لي حصانك» .

ـ «أنا ـ أنا أستطيع اجتياز المنطقة؟» .

ـ «نعم أنت» قالها بصوت خشن قاس .

ـ «ولكن ريت ـ أنت ـ ألن تقودنا أنت؟» .

ـ «لا ، سأغادركم هنا» .

فتطلعت حولها بعينين زائغتين ، تطلعت إلى السماء الزرقاء المربدة خلفهم ، إلى الأشجار القائمة في كلا الجانبين ، تغيبهم في جوفها كأنها أسوار السجن ، إلى الأشخاص الهلعين في مؤخرة العربة ـ وأخيراً إليه «هل جنت؟ هل خانتها أذناها؟» .

ورأته يبتسم ، وفي الضوء الباهت ، استطاعت رؤية أسنانه البيضاء ، وقد عادت السخرية إلى عينيه .

ـ «سأذهب مع الجيش أيتها الفتاة العزيزة» .

فتنهدت تنهد الفرج والغيظ . لماذا اختار هذا الوقت من بين جميع الأوقات كي يمازحها؟ ريت في الجيش ! بعد كل الذي قاله عن الحمقى الأغبياء الذين غرر بهم وفقدوا أرواحهم بفعل دوي الطبول وكلمات الخطباء المنمقة ـ الحمقى الذين قتلوا أنفسهم كيما يجمع الرجال العقلاء الثروة !

ـ «آه ، كنت أود أن أخنقك لأنك أفزعتني هكذا ، دعنا نتابع المسير» .

ـ «أنا لا أمزح يا عزيزتي . وإني متألم يا سكارلت لأنك لم تنظري إلى تضحيتي بروح أفضل . أين وطنيتك؟ أين حبك لقضيتنا المجيدة؟ الآن حانت لك الفرصة لتخبريني أن أعود بدرعي أو فوق درعي . ولكن أجيبي بسرعة لأني أحتاج إلى وقت كيما ألقي خطاباً منمقاً قبل أن أفارقك إلى الحرب» .

واخترق صوته المتهكم المتشدق أذنيها . لقد كان يسخر منها ، ولكنها أحست بطريقة ما بأنه كان يسخر من نفسه أيضاً . عم كان يتكلم؟ الوطنية ، الدروع ، الخطب المنمقة . من المحال أن يكون يعني الذي قاله . إن مما لا يمكن تصديقه أبداً أن يستطيع ريت التحدث ببشاشة كهذه ، عن تركها هنا ، في هذه الطريق المظلمة ، وبصحبتها امرأة يمكن أن تكون على حافة القبر ، وطفل حديث المولد ، وزنجية حمقاء ، وولد يرتعد فرقاً ، يتركها تقودهم مسافة أميال من أرض المعركة ، خلال الضالين طريقهم ، خلال الشماليين والنيران ، والله يعلم خلال ماذا أيضاً . . .

ذات يوم ، فيما مضى ، عندما كانت في السادسة من عمرها ، سقطت عن شجرة ووقعت بطحاً على معدتها ، وما زالت تذكر تلك الدقائق المرضية الأليمة

التي عانتها قبل أن يعود التنفس إلى رئتيها . والآن ، وفيما هي تنظر إلى ريت ، شعرت بالإحساس ذاته الذي عانته يومئذ ، شعرت بأنها منقطعة النفس ، مشدوهة ، دائخة .

ـ «ريت ! إنك تمزح» .

وتناولت ذراعه وأحست بدموع الرعب تتناثر على معصمها ، بينما رفع هو يدها وقبّلها بخفة .

ـ «أنانية للغاية . ألست كذلك يا عزيزتي؟ إنك تفكرين بنفسك فقط وليس بالحلف المقدام . فكري كيف سترتفع معنويات جنودنا بظهوري بينهم . قال ذلك وفي صوته رقة ماكرة .

ـ «آه ريت ! «ولولت» كيف يمكنك فعل هذا بي؟ لماذا ستتركني؟» .

ـ «لماذا؟» ضحك طرباً ، «ربما بسبب الاندفاع العاطفي الخاذل الذي يكمن فينا نحن الجنوبيين ، ربما ـ ربما لأني خجل من نفسي . من يعلم؟» .

ـ «خجل؟ ينبغي أن تموت خجلاً إذا ما تركتنا هنا وحيدين عاجزين» .

ـ «عزيزتي سكارلت ! أنت لست عاجزة . كل إنسان أناني حازم مثلك لا يمكن أن يكون عاجزاً . كان الله في عون الشماليين إن هم أسروك» .

وفجأة قفز من العربة . وبينما هي تراقبه وقد أسقط في يدها ، دار حول العربة وأتى إلى جانبها الآخر ، وقال بلهجة الأمر :

ـ «انزلي» .

فحدقت به ، وتطاول هو نحوها بفظاظة ، وأمسك بها من تحت إبطيها وطوح بجسدها إلى الأرض إزاءه ، ثم أحكم قبضته عليها وجرها بضع خطوات بعيدة عن العربة ، وأحست بالتراب والحصى داخل خفيها يؤلمان قدميها ، ولفها الظلام الحار الساكن كأنه حلم صامت .

ـ «أنا لا أطلب منك فهم تصرفاتي أو الصفح عن شخصي ، ولن أحفل أبداً إن أنت فعلت ذلك أو لم تفعليه ، لأنني أنا شخصياً لن أفهم عملي أو أعفو عن نفسي مطلقاً لارتكابها هذه الحماقة . إني متكدر من نفسي لاكتشافي أن كثيراً من الخبل ما زال معشش بها . إن بلادنا الجنوبية الجميلة بحاجة إلى كل رجل الآن ، ألم يقل براون حاكم ولايتنا الشجاع هذا الكلام بالذات؟ ومهما

يكن الأمر فإني ذاهب إلى الحرب» . وقهقه فجأة قهقهة مدوية أجفلت أصداء الغابات المظلمة .

- «لم أكن لأحبك يا عزيزتي بهذا القدر العظيم لو لم أكن أحب الشرف أكثر ، هذا حديث في وقته ، أليس كذلك؟ ولكنه حتماً أفضل من أي كلام يمكن أن أبدعه بنفسي في الدقيقة الحاضرة ، لأني أحبك يا سكارلت رغم ما قلته تلك الليلة من الشهر الماضي ، ونحن جالسان على الشرفة» .

كان كلامه المتباطئ ملاطفة وتدليلاً ، وانسابت راحتاه فوق ذراعيها العاريتين ، راحتان قويتان دافئتان «أحبك يا سكارلت لأننا متشابهان إلى حد كبير ، كلانا مارقان يا عزيزتي ، ووغدان أنانيان ، لا يحفل أي منا مثقال ذرة إذا ما احترقت الدنيا بأسرها طالما هو آمن هانئ» .

واستمر صوته ينبعث في الظلام ، وسمعت هي الكلمات ، بيد أنها لم تفهم شيئاً . كان عقلها يحاول جاهداً استيعاب الحقيقة المرة المتعلقة بمغادرته لها هنا ، لتواجه الشماليين وحيدة ، كان يهذي : «إنه سيغادرني ، إنه سيغادرني» دون أن يحرك ساكناً .

ثم التفت ذراعاه حول خصرها وكتفيها ، وأحست بعضلات فخذيه القوية تضغط على جسدها ، وبأزرار معطفه تغرز في صدرها ، واجتاحتها موجة من الشعور الحار ، شعور مربك مفزع ، أزال من عقلها كل ما يتعلق بالزمان والمكان والوضع الحرج ، وأحست أنها مسترخية بلهاء كدمية ، دافئة ضعيفة عديمة الحيلة ، وأحست بذراعيه اللتين تسنداها ممتعتين للغاية .

- «ألا تريدين تغيير رأيك حول ما قلته لك في الشهر الماضي؟ ليس كالخطر والموت حافزاً على إعادة النظر . كوني وطنية يا سكارلت . فكري كيف أنك ستبعثين بجندي إلى قبره وهو يحمل ذكريات حلوة» .

كان يقبّلها الآن ، وشاربه يدغدغ فمها ، يقبلها بشفتين حارتين وئيدتي الحركة ، تتصرفان على مهل كأن صاحبهما يملك الليل بطوله لينعم به كيف يشاء . لم يقبلها تشارلز كهذا التقبيل ، ولم تذق يوماً قبلاً من أبناء تارلتون وكالفرت كهذه القبل التي جعلتها تحس بالتهيج والبرد والارتعاش . ثم ثنى جسدها إلى الخلف ، وزحفت شفتاه نزولاً على عنقها ، إلى حيث يشبك الدبوس المزخرف قميصها .

ـ «جميلة» همس «حلوة» .

ورأت العربة باهتة في الظلام ، وسمعت عويل ويد ، وقد تضاعف علوه ثلاث مرات :

ـ «أيتها الأم ! إن ويد خائف !» .

وعاد الإدراك السليم الفاتر مندفعاً إلى تفكيرها الحائر ، وتذكرت ما كانت قد نسيته في هذه الدقيقة ـ تذكرت أنها هي أيضاً خائفة ، وأن ريت سيغادرها ، سيغادرها ، ذلك السافل اللعين . وفوق كل ذلك ، فقد اختار هذا المكان المبالغ الوحشة ليقف هنا في الطريق ، ويهينها بهذه العروض الشائنة ، واجتاحها السخط والكراهية ، فتحجّر عمودها الفقري ، وبجذبة واحدة ، خلصت جسدها من بين يديه ، بعد أن كاد يتمزق .

ـ «أيها الحقير» صاحت ، وانطلق عقلها يحاول التفكير بألقاب أسوأ لتصمه بها ، ألفاظ كانت قد سمعت أباها ينعت بها السيد لنكولن ، وآل ماك أنطوش والبغال الحرونة ، ولكن الكلمات لم تسعفها . «أيها المنحط ، أيها المخلوق الجبان العفن النذل» ، ولـمّا لم تستطع التفكير بألفاظ زرية كما ينبغي ، أرجعت ذراعها إلى الوراء ، وصفعته على فمه بكل ما بقي لها من قوة ، فتقهقر خطوة إلى الخلف ، وصعدت يده إلى وجهه .

«آه» قال بهدوء ، وظلا هنيهة يقفان متواجهين في الظلام . واستطاعت سكارلت سماع تنفسه العميق ، بينما كانت هي تلهث لهاثاً متقطعاً كأنها قامت بعملية جري شاقة .

ـ «كانوا صادقين ، كلهم كانوا على حق ، فأنت لست نبيلاً» .

ـ «فتاتي العزيزي» قال «ما أقل وفائي بالغرض» .

وأدركت أنه يسخر منها ، يستفزها .

ـ «هيا ، هيا الآن ، أريدك أن تذهب بسرعة ، ولست أرغب في رؤيتك ثانية . أرجو أن تسقط عليك قنبلة مدفع . أرجو أن تحيلك هباء منثوراً فتتطاير مليون ذرة . إني ـ » .

ـ «لا تهتمي بتتمة حديثك ، فقد علمت مجمل رأيك ، وعندما أستشهد على مذبح وطني ، آمل أن يؤنبك ضميرك» .

وسمعته يضحك وهو يستدير قافلاً نحو العربة ، ثم رأته يقف بجانبها ،

وسمعته يتكلم وقد تغير صوته فغدا محترماً ، شأنه دائماً عندما يتحدث إلى ميلاني :

ـ «سيدة ويلكس» .

فأجابه صوت برسي المذعور ، منبعثاً من داخل العربة :

ـ «بالله يا كابتن بتلر ، لقد أغمي على الآنسة ميلاني قبل مسافة طويلة من هنا» .

ـ «ليست ميتة؟ ألا تتنفس؟» .

ـ «بلى يا سيدي تتنفس» .

ـ «إذاً فمن المحتمل أن تكون أكثر راحة وهي في حالة الإغماء هذه ، لأني أشك في إمكان بقائها على قيد الحياة مع هذه الآلام إذا ما كانت صاحية . اعتني بها جيداً يا برسي . خذي هذا الدولار لك ، وحاولي ألاّ تكوني أكثر غباء مما أنت عليه» .

ـ «سمعاً وطاعة يا سيدي ، أشكرك يا سيدي» .

ـ «وداعاً ، سكارلت» .

وأدركت أنه استدار قبالتها ، ولكنها لم تتكلم ، فقد خنق البغض كل محاولة لديها للنطق . وداست قدماه حصباء الطريق ، ورأت كتفيه العريضتين تختفيان في الظلام ، ثم غاب عن الأنظار ، واستطاعت سماع خطواته فترة وجيزة ، ثم تلاشى الصوت ، ورجعت هي إلى العربة ببطء وقدماها ترتجفان .

لماذا ذهب؟ لماذا مضى بعيداً في الظلام ، إلى الحرب ، إلى القضية الخاسرة ، إلى العالم المجنون؟ لماذا ذهب ريت الذي يحب متع النساء والشراب ولذائذ الطعام والسرر الوثيرة وملمس الكتان الناعم والجلد المصقول ، ريت الذي يبغض الجنوب ويهزأ بالأغبياء الذين حاربوا في سبيله؟

ها هو الآن يضع حذاءه اللامع فوق طريق الشقاء ، حيث الجوع يدوس بخطى لا تتعب ، وحيث الجراح والإعياء وفواجع القلوب تربض كذئاب عواءة ، وحيث نهاية الطريق هي الموت . إن ريت لم يكن بحاجة إلى الذهاب . كان آمناً هانئاً غنيّاً ، ومع ذلك فقد ذهب وتركها وحيدة في ليلة حالكة السواد ، والجيش الشمالي يقف بينها وبين تارا .

24

أيقظ سكارلت وهج الصباح المتألق ، المنبعث من أشعة الشمس المنسابة بين قمم الأشجار ، ولكنها ظلت هنيهة متيبسة الأعضاء بفعل الموضع الضيق المحشور الذي نامت به . ولم تستطع أن تتذكر أين هي ، وبهر ضوء الشمس بصرها ، وتململ جسدها ألماً بسبب ألواح العربة الخشبية الصلبة التي نامت عليها ، وأحست بعبء ثقيل ينوء به ساقاها ، وحاولت أن تجلس ، فاكتشفت أن العبء كان ابنها ويد ، الذي كان قد استلقى نائماً ورأسه يتوسد ساقيها ، بينما كانت قدما ميلاني العاريتين تقابلان وجهها ، في حين تكومت برسي على نفسها كالقطة تحت مقعد العربة ، حاشرة الطفل بينها وبين ويد . ثم تذكرت سكارلت كل شيء ، واعتدلت في جلسة مشرفة ، وألقت نظرة خاطفة على ما حولها . شكراً لله ، إن بصرها لم يقع على شمالي واحد ، وإن مخبأها لم يكتشف خلال الليل . وعادت إليها الآن كل أحداث الأمس ، الرحلة الرهيبة بعد أن تلاشى وقع أقدام ريت ، والليل الطويل اللانهائي ، والطريق المظلم المحفوفر ذو الصخور الناتئة التي تهادوا فوقها ، والأخاديد العميقة التي انزلقت إليها العربة ، على كلا الجانبين ، والجهد المخبول الخائف الذي بذلته وبرسي لدفع عجلات العربة خارج الأخاديد . وتذكرت وهي ترتعش كيف أنها قادت الحصان الحرون مراراً بين الحقول والغابات ، كلما سمعت الجنود يقتربون منها ، غير عالمة إن كانوا أصدقاء أم أعداء ـ وتذكرت أيضاً عذابها المبرح الناجم عن خوفها أن تفضح سعلة ، أو عطسة ، أو فواق ويد ، مكانهم للجنود العابرين .

وأخيراً ، وعندما اقتربوا من رف إند ريدي رأوا بعض نيران المعسكرات مشتعلة . هناك كان ينتظر آخر فوج من حرس مؤخرة ستيف لي أوامر الانسحاب ، هناك انحرفت في طريقها عبر حقل محروث ، إلى أن تلاشى ضوء النيران خلفها ، ثم أضاعت طريقها في ثنايا الظلام ، وشرعت في النحيب عندما لم تجد ممر العربات القصير الذي كانت تعرفه جيداً . بعد ذلك عندما وجدته هوى الحصان على الأرض ورفض متابعة المسير ، ورفض حتى النهوض ساعة أخذت وبرسي تشدان زمامه .

خففت عنه عدته ، وزحفت ، وعرق الإعياء يتصبب منها ، نحو مؤخرة العربة ، حيث مدت ساقيها المتألمتين . وإنها لتذكر بغموض صوت ميلاني قبل أن يغمض النوم أجفانها ، صوتاً ضعيفاً يعتذر حتى وهو يلتمس :

ـ «سكارلت ! هل يمكنني الحصول على جرعة ماء ، أرجوك» .

ـ «لا توجد قطرة من ماء» وأغرقت في النوم قبل أن تخرج الكلمات من فمها .

والآن ها قد أشرق الصباح وبدت الدنيا ساكنة وقورة ، خضراء ذهبية بأشعة الشمس التي رقطت الأرض ، وليس من جندي يقع عليه بصرها . كانت جائعة ظامئة ، تترمض ألماً وتشد على معدتها ، وتتولاها الدهشة كيف أنها هي سكارلت أوهارا ، التي لا يمكن أن يهنأ لها مضجع إلا بين شراشف الكتان ، وعلى ألين الفرش الريشية ، قد أمضت ليلتها كعاملة حقل ، فوق الألواح الخشبية الصلبة !

وفتحت عينيها في ضوء الشمس ، فوقع بصرها على ميلاني ، وشهقت من الجزع . كانت ميلاني ممددة بلا حراك البتة وهي شاحبة اللون . واعتقدت سكارلت أنها لا بد ميتة ، فهي تبدو تماماً كعجوز لفظت أنفاسها ، بوجهها المعذب المعروق ، وشعرها الأسود المتشابك المتناثر عليه . بيد أنها لم تلبث أن رأت ، وفرحة الفرج تنهرها ، حركة تنفس ميلاني الضعيف ، حركة وانية تصعد وتهبط ، فاطمأنت إلى أنها لم تفقد روحها خلال الليل .

ظللت سكارلت عيني ميلاني بيديها ، ثم تطلعت حولها ، فاتضح لها أنهم أمضوا الليل تحت أشجار ساحة أمامية تخص أحد الناس ، فقد كان يمتد أمامها ممشى رملي محصوصب ، يتعرج في ظلال طريق من أشجار الأرز .

ـ «ماذا ! إنها مزرعة آل مالوري !» تمتمت ، وطار قلبها فرحاً وهي تفكر بالعون والأصدقاء .

غير أن صمتاً يشبه صمت القبور كان يخيم على المكان ، وكانت شجيرات المرجة وأعشابها مقطعة إرباً إرباً بصورة رهيبة ، إذ دهستها حوافر الخيل ودواليب العربات وأقدام الجنود التي كانت تروح وتجيء فوقها ، حتى إن التربة قلبت رأساً على عقب . وأرسلت سكارلت بصرها نحو البناء وإذ بها لا ترى في مكان المنزل الخشبي الأبيض ، الذي كانت تعرفه تمام المعرفة ، غير مستطيل

مديد من حجارة الأساس الرخامية المسودة، ومدختين طويلتين ترتفعان بآجرهما الملطخ بالسخام بين أوراق سوداء فاحمة لأشجار ساكنة.

وتنفست سكارلت نفساً عميقاً مرتعشاً، وتساءلت هل ستجد تارا على مثل هذا الحال، مستوية مع سطح الأرض، صامتة كالموتى؟

- «ينبغي أن لا أفكر بهذا الآن» طمأنت نفسها بسرعة «ينبغي أن لا أدع نفسي تفكر بهذا الأمر، وإلا انخلع قلبي هلعاً»، «إلى البيت! أسرعي! إلى البيت! أسرعي!».

يجب أن يشرعوا في المسير نحو البيت ثانية، غير أنه يتوجب عليهم قبل ذلك إيجاد بعض الطعام والماء وخصوصاً الماء. ووخزت برسي لتوقظها، فأدارت هذه عينيها وهي تنظر حولها:

- «يا لله يا آنسة سكارلت، ما كنت أتوقع أن أستيقظ ثانية إلا في الأرض الموعودة».

- «ما زلت على مسافة بعيدة منها» قالت سكارلت وهي تحاول إعادة تسوية شعرها المشعث.

وتطلعت إلى ميلاني، ورأت أن عينيها السوداوين مفتوحتان، كانتا منتفختين تشعان بوهج الحمى، تحوطهما من الأسفل دوائر متورمة قاتمة. ثم فتحت شفتين متشققتين، وهمست متوسلة:

- «ماء».

- «انهضي يا برسي» أمرت سكارلت «سنذهب إلى البئر لجلب بعض الماء».

- «ولكن يا آنسة سكارلت، لا بد أن تكون أرواح شريرة متربصة هناك، هبي أن أحداً مات هناك!؟».

- «سأجعل منك روحاً شريرة إن لم تخرجي من هذه العربة» قالت سكارلت التي لم تكن في وضع نفسي تستطيع معه النقاش. قالت ذلك وهي تعرج في أثناء نزولها من العربة.

ثم فكرت بالحصان. يا الله! هب أن الحصان قضى في الليل، لقد كان يبدو قاب قوسين أو أدنى من الموت وهي تنزل عنه العدة. وركضت حول العربة ورأته مضطجعاً على جانبه، لو أنه قضى للعنت حظها وماتت في أثره، غير أن الحصان كان حياً ـ يتنفس تنفساً ثقيلاً، وعيناه متعبتان نصف مغمضتين، ولكنه

حي . حسناً ، إن بعض الماء سينعشه هو أيضاً . ونزلت برسي مترددة من العربة ، تئن تباعاً ، ثم تبعت سكارلت فوق الطريق المشجر .

كانت مساكن الزنوج تربض تحت الأشجار المتشابكة خلف بقايا الدار ، ساكنة خاوية ، وبين هذه المساكن وحجارة الأسس المسودة وجدتا البئر . كان سقفها لا يزال سليماً والدلو متدلياً إلى عمق سحيق ، فطفقتا تلفان الحبل متعاونتين ، حتى إذا ما ارتفع الدلو يطفح بالماء البارد خارجاً من الأعماق ، أمالته سكارلت نحو شفتيها ، وارتشفت جرعات بصوت مسموع ، ساكبة الماء على جسدها . وهكذا ظلت ترتشف الماء إلى أن جعلتها عبارة برسي المتلهفة : «وأنا أيضاً أتحرق ظمأ للماء يا آنسة سكارلت» تتذكر حاجة الآخرين .

ـ «حلي عقدة الحبل وخذي الدلو إلى العربة ، واسقيهم بعض الماء ، ثم ضعي البقية أمام الحصان . ألا تعتقدين أنه ينبغي لميلاني إرضاع وليدها؟» .

ـ «آه يا آنسة سكارلت ، إن الآنسة ميلاني لا تدر حليباً ، ولن تملك شيئاً منه» .

ـ «كيف عرفت؟» .

ـ «لقد رأيت كثيرات في مثل حالها» .

ـ «لا تتبجحي كذباً أمامي . إن ما عرفته عن التوليد كان شيئاً تافهاً جداً بالأمس . أسرعي الآن ، وسأجرب أنا إيجاد شيء نقتات به» .

ذهب بحث سكارلت عن الطعام سدى ، إلى أن وجدت في البستان أخيراً قليلاً من التفاح . كان الجنود قد سبقوها إلى المكان ، ولم يدعوا ثمرة على الشجرة ، أما الحبات القليلة التي ظفرت بها فكانت عفنة في معظمها ، إلا أنها ملأت تنورتها بأفضل الموجود ، وعادت أدراجها فوق التربة الطرية ، والحصى يتجمع في خفيها . لماذا لم تفكر بارتداء حذاء أمتن ليلة الأمس؟ لماذا لم تفكر بوضع قبعة تقيها حر الشمس؟ لقد تصرفت كفتاة بلهاء ، بيد أنها بالطبع اعتقدت أن ريت سيعتني بهم .

ريت ! وبصقت على الأرض ، لأن مجرد اسمه كان كافياً لتقزيز النفس . ما أشد ما تبغضه ! ما أكثر ما كان زرياً ! ومع ذلك فقد وقفت هنالك في الطريق وتركته يقبّلها ، استطابت قبلته . لقد كانت مجنونة ليلة الأمس ، آه ما كان أحقره !

وعندما عادت إليهم ، وزعت التفاح عليهم ، وقذفت بالبقية في مؤخرة العربة . كان الحصان واقفاً على قوائمه الآن ، ولكن ، لم يبد أن الماء أنعشه كثيراً ، بل ظهر في ضوء النهار أسوأ بكثير مما كان عليه في الليل السابق . لقد برزت عظام وركيه كعظام بقرة مسنة ، وبدت أضلاعه كألواح خشبية ، وكان ظهره كتلة من القروح ، فحرصت على أن لا تلمسه وهي تضع العدة فوقه . وعندما أدخلت الشكيمة في فمه ، رأت أنه كان بلا أسنان فعلاً ، فلقد كان هرماً ! لماذا سرق ريت حصاناً كهذا؟ لماذا لم يستطع سرقة حصان قوي؟

واعتلت المقعد ، وهوت بقضيب الجوز على ظهره فصهل ثم تحرك ، بيد أنه سار بطيئاً جداً ، وهي تنعطف به فوق الطريق الذي تعرف ، بحيث وثقت أن بوسعها المشي أسرع منه دون أن تبذل أي جهد . حبذا لو لم يكن معها ميلاني وويد والرضيع وبرسي يعيقونها وتعاني في سبيلهم ، إذاً لكان بوسعها الإسراع في المشي ! بل كان بوسعها أن تجري جرياً إلى البيت ، تجري كل خطوة من الطريق تدنيها من تارا ومن أمها .

ليس من الممكن أن يكونوا الآن على بعد أكثر من خمسة عشر ميلاً من البيت ، ولكن ، بهذه السرعة التي يخطوها هذا الحيوان الهرم ، ستستغرق المسافة النهار بطوله ، فقد كان عليها أن تتوقف مراراً كيما تريحه . النهار بطوله ! ونظرت إلى الطريق الحمراء المتوهجة ، فرأت الحفر العميقة التي كانت تتخللها ، حيث درجت عجلات المدافع وعربات الإسعاف ! ستمضي ساعات قبل أن تعرف إذا كانت تارا لا تزال موجودة ، وإذا كانت أمها موجودة أيضاً ، ستمضي ساعات قبل أن تتم رحلتها هذه تحت شمس أيلول اللاهبة .

ونظرت إلى الخلف ، إلى ميلاني الممددة بعينين مريضتين مغمضتين ، ثم حلت عقدة قبعتها ، ودفعتها إلى برسي :

ـ «ضعيها فوق وجهها فستمنع وهج الشمس عن عينيها» ولكن عندما أخذت الشمس تلهب رأسها المكشوف هجست :

ـ «سأمسي نمشاء كبيضة دجاجة الوادي قبل أن تغيب شمس هذا النهار » .

ما أقلها وما أقصرها من أسابيع حيث كانت آمنة سالمة ، بل ما أوجزها فترة زمنية منذ كانت هي وجميع الناس يفكرون بأن أتلانتا لا يمكن أن تسقط ، وبأن جورجيا لا يمكن أن تُغزى . ولكن السحابة الصغيرة التي ظهرت في أفق أتلانتا

الشمالي الغربي ، منذ أربعة أشهر ، قد تحولت إلى زوبعة عاتية ثم إلى إعصار مدو دمر عالمها ، واجتاحها بعيداً عن حياتها الآمنة ، قاذفاً بها في وسط هذه الأرض المهجورة الصامتة التي تسكنها الأرواح .

أما زالت تارا منتصبة فوق الأرض؟ أو أنها ذهبت مع الريح كذلك ، الريح التي اجتاحت جورجيا؟

وساطت ظهر الحصان المتعب برفق ، وحاولت أن تحث خطاه ، بينما كانت العجلات المتهادية تترنح بهم من جانب إلى آخر .

*

كان الهواء يفوح برائحة الموت ، ولم يكونوا قد رأوا منذ ليلة الأمس إنساناً واحداً أو حيواناً ، وكل ما رأوه كان رجالاً أمواتاً وخيولاً نافقة ، نعم ، وبغالاً ميتة أيضاً مبعثرة على جانبي الطريق ، منتفخة الجثث ، يغطيها الذباب ، ولكن لا مخلوق حي البتة ، لا خوار بقر بعيد ، ولا أغاريد طير ، ولا صوت ريح تهز الأشجار ، وإنما وقع قوائم الحصان المتعب ، وعويل طفل ميلاني الضعيف ، يشقان هذا السكون المطبق .

آه ، لو أنها فقط تستطيع بلوغ ذراعي تارا وإيلين الرحيمتين ، ثم تلقي بأعبائها الثقيلة جداً على كتفيها الفتيتين ـ أعبائها الكائنة في المرأة المائتة والرضيع الذاوي ، وولدها الصغير الجائع ، والزنجية الهلعة فزعاً . كلهم كانوا يتطلعون إليها من أجل الحماية والرعاية ، كلهم كانوا يقرأون في ظهرها المستقيم الشجاعة التي لا تملك منها شيئاً ، والقوة التي خذلتها منذ زمن بعيد .

ولم يلب الحصان الخائر ضربة السوط ولا صفعة الزمام ، بل تابع خطاه المتثاقلة ، يجرجر قوائمه ، ويتعثر بالحجارة الصغيرة ، مترنحاً كأنه على وشك السقوط على ركبتيه . ولكن ما إن حان الغسق حتى دخلوا أخيراً المرحلة النهائية من رحلتهم الطويلة ، فداروا حول منعطف ممر العربات ، وانثنوا نحن الطريق الرئيسي . . . لقد أضحت تارا على بعد ميل واحد منهم فقط !

جذبت سكارلت زمام الحصان أمام ممشى أشجار السنديان الممتد بين الطريق ومنزل أنغوس ماك أنطوش العجوز ، وحدقت خلال الغسق المتجمع بين الأشجار القديمة . كان الظلام يغمر كل شيء ، وليس من ضوء واحد يشع من البيت أو من مساكن العبيد . وعندما حملقت بعينيها أكثر ، استطاعت أن تميز

بغموض مشهداً أضحى مألوفاً لديها خلال ذلك اليوم الرهيب ـ مدخنتين طويلتين كشاهدي قبرين ضخمين ، تشمخان فوق الطابق العلوي المدمر ، بينما كانت النوافذ المكسرة المعتمة تبدو على الجدران كعيون جامدة عمياء .

ـ «مرحباً» صاحت مستجمعة كل قواها ، «مرحباً» وانقضت برسي عليها بأناملها في نوبة من جنون الرعب ، وعندما استدارت سكارلت نحوها رأت عينيها قد زاغتا في رأسها .

ـ «لا تصيحي يا آنسة سكارلت ، أرجوك لا تصيحي ثانية !» همست بصوت مرتجف «فليس هناك من يجيب ! من عساه يجيبك؟» .

ـ «يا لله !» فكرت سكارلت والرعشة تجتاجها ، «يا لله إنها على حق ، فقد يخرج كل شيء من هناك !» .

وحركت الزمام وحثت الحصان على التقدم . لقد ثقب منزل ماك أنطوش فقاعة الأمل الأخيرة التي بقيت لها ، كان محروقاً مدمراً مهجوراً ككل المزارع التي مرت بها ذلك اليوم . إن تارا تقع على مسافة نصف ميل منه فقط ، على الطريق ذاتها تماماً ، أي في طريق الجيش ، وإذاً فقد سويت بالأرض هي أيضاً ، وستلمس سكارلت قطع الآجر المسودة فقط ، وستشاهد أضواء النجوم تشع بين الجدران العديمة السقف ، وستجد أن إيلين وجيرالد وشقيقتيها ومامي والزنوج ذهبوا ، ولا يعلم أين ذهبوا إلا الله وحده . وستجد هذا السكون الرهيب يخيم على كل شيء .

لماذا تجشمت عناء هذه الرحلة الحمقاء ، معارضة كل إدراك سليم ، مجرجرة ميلاني وطفلها؟ كان من الأفضل أن يموتا في أتلانتا من أن يعذبا بشمس هذا النهار المحرقة ، وبعربته المترنحة ، ليلقيا حتفهما أخيراً بين خرائب أتلانتا الموحشة .

ولكن آشلي ترك ميلاني في عهدتها ، «اعتني بها» قال . آه ، حبذا ذلك اليوم الجميل المضني للقلوب ، عندما قبّلها قبلة الوداع قبل أن يمضي بعيداً ، إلى الأبد ! «ستعتني بها أليس كذلك؟ عديني» ووعدته . لماذا ربطت نفسها بوعد كهذا ، تضاعف إلزامه لها الآن بعد أن قضى آشلي؟ إنها تبغض ميلاني حتى وهي في حالة الإعياء هذه ، تبغض مواء طفلها الصغير الضعيف الذي كان يشق السكون بنغم يخفت باطراد ، غير أنها وعدت ، وهما الآن ضمن

مسؤوليتها ، تماماً كويد وبرسي ، وعليها أن تناضل وتجاهد في سبيلهما طالما أن بها قوة أو رمقاً من حياة . لقد كان بوسعها تركهما في أتلانتا ، كان بوسعها أن تلقي ميلاني في المستشفى وتغادرها هناك . ولكنها لو أقدمت على هذا العمل لما وسعها مطلقاً مواجهة آشلي سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة ، ولما وسعها إخباره أنها تركت زوجته وابنه يموتان .

ـ «آه ـ آشلي ! أين يقبع هذه الليلة ، وهي تكدح فوق هذه الطريق التي تسكنها الأرواح ، مع زوجته وطفله؟ هل هو حي؟ وهل يفكر بها وهو قابع خلف القضبان في جزيرة رك؟ أو أنه مات بالجدري منذ شهور وتعفن جسده في أحد الخنادق الطويلة مع مئات من الحلفيين الآخرين؟

أوشكت أعصاب سكارلت المتوترة أن تنفجر عندما قرع مسامعها صوت مفاجئ صادر من بين الشجيرات القريبة ، وزعقت برسي زعيقاً حاداً وقذفت نفسها إلى أرض العربة فوق الطفل ، وتحركت ميلاني وانية وبحثت يداها عن ابنها ، بينما غطى ويد عينيه وخر على ركبتيه هلعاً لا يقوى على الصراخ ، ثم انشقت طريق بين الشجيرات إزاءهم بفعل وقع حوافر ثقيلة وقرع آذانهم خوار منخفض يئن .

ـ «إنها مجرد بقرة» قالت سكارلت وصوتها أجش من الخوف ، «لا تكوني حمقاء يا برسي . لقد سحقت الطفل وأفزعت الآنسة ميلاني وويد» .

ـ «إنه شبح» أنّت برسي حانية وجهها إلى أسفل على أرض العربة الخشبية .

فاستدارت سكارلت نحوها باتزان ، ورفعت قضيب الجوز الذي كانت تستعمله كسوط ، وهوت به على ظهرها . لقد كانت في غاية الإنهاك والضعف من جراء الخوف ، بحيث لم تقو على احتمال ضعف أي إنسان آخر .

ـ «اجلسي منتصبة أيتها الحمقاء قبل أن أكسر هذا القضيب على جسدك» .

فرفعت برسي رأسها وهي تنتحب ، شاخصة ببصرها من فوق جانب العربة ، حيث رأت أن الشبح كان في الحقيقة بقرة ، بقرة حمراء وبيضاء ، تقف متطلعة إليهم تتوسل بعينين كبيرتين خائفتين ، ثم فتحت فمها وخارت ثانية كأن ألماً كان يبرح بها .

ـ «هل تتألم؟ إن صوتها لا يبدو كخوار طبيعي» .

ـ «يبدو لي كما لو أن درتها مليئة وتحتاج إلى الحلب حاجة ملحّة» ، قالت

برسي ، وقد استرجعت بعض السيطرة على نفسها ، «أظن أنها إحدى أبقار السيد ماك أنتوش ، التي ساقها الزنوج إلى الغاب وضل الشماليون عنها» .

- «سنأخذها معنا» قررت سكارلت بسرعة ، «وعندئذ نستطيع تأمين حليب للرضيع» .

- «كيف يسعنا أخذ بقرة معنا يا آنسة سكارلت؟ لن نستطيع أخذ بقرة معنا فهي لن تفيدنا شيئاً الآن ، إذ إنها لم تحلب منذ مدة ، ودرتها منتفخة مؤلمة ، وذلك هو سبب أنينها» .

- «بما أنك تعرفين الكثير عن البقر ، انزعي صدرتك ومزقيها قطعاً طويلة واربطي بها البقرة إلى مؤخرة العربة» .

- «آنسة سكارلت ، أنت تعلمين أني لم أظفر بصدرة منذ شهر ، والآن وبعد أن نعمت بواحدة لا يمكن أن أضحي بها عبثاً ، كما أني لم أخبر حياة البقر أبداً . إني أخشى البقر كثيراً .

وضعت سكارلت الزمام ورفعت تنورتها . كانت الصدرة المزركشة بالدنتلة هي آخر قطعة ثياب طريفة تملكها - آخر قطعة لم يصبها التلف ، ومع ذلك فقد حلت شريط الخصر ، وزلقت الصدرة نزولاً ، ثم مزقت الطيات الكتانية بيديها ، وكان ريت قد جلب لها ذلك الكتان وتلك الدنتلة من ناسو في آخر زورق هربه عبر الحصار ، وقضت أسبوعاً في صنع الثوب ، وها هي الآن تشده بإرادة ثابتة ، تشده من حاشيته وتجذبه ، ثم تمسك به بفمها وتقرضه إلى أن تمزق القماش أخيراً وانشق طولاً . وتابعت قرضه بعنف ، وتمزيقه بكلتا يديه ، حتى أضحت الصدرة خرقاً في كفيها ،خرقاً عقدت أطرافها بأصابع تنزف دماً من القروح ، وترتجف من الإعياء .

- «طوقي قرنيها بهذا الشريط» أمرت سكارلت ، غير أن برسي تمرّدت ولم تتحرك .

- «إني أخاف من البقر يا آنسة سكارلت - لم يتفق لي أن عملت في شؤون البقر ، لم أكن يوماً عاملة حقل ، إني زنجية منزل» .

- «إنك زنجية حمقاء ، وإن أحمق عمل ارتكبه والدي هو شراؤك» قالت سكارلت ببطء ويجهد بالغين بحيث لم تستطع الغضب «وإذا ما قدر لي استعمال ذراعي ثانية فسأكسر هذا القضيب على جسدك» .

وفكرت فجأة «لقد قلت زنجية، وأمي لا ترتاح لهذا الكلام أبداً».

أما برسي فقد أدارت عينيها الزائغتين، وشخصت أولاً إلى وجه سيدتها الحازم، ثم إلى البقرة التي كانت تخور بصوت شجن، وتراءى لها أن سكارلت أقل الاثنتين خطراً، ولذلك تمسكت بجانب العربة وظلت حيث هي.

نزلت سكارلت من المقعد متشنجة الأعضاء، وكانت كل حركة أتتها كأنها سكرة موت لعضلاتها المتألمة. لم تكن برسي الإنسانة الوحيدة التي تخشى البقرة، فقد كانت سكارلت نفسها تخاف هذا الحيوان، حتى أن أودع الأبقار كانت تبدو شؤماً في ناظريها، ولكن لم يكن هذا هو وقت الاستسلام للمخاوف الصغيرة، في حين تتراكم المخاوف الكبيرة فوق رأسها. ولحسن حظها كانت البقرة لينة العريكة، قد دفعها ألمها إلى أن تطلب رفقة الإنسان وعونه. وفيما سكارلت تلف الصدرة الممزقة حول قرنيها لم يبدر منها أي نذير بشر، ولذا ربطت طرف الصدرة الآخر إلى مؤخرة العربة ربطاً وثيقاً بقدر ما مكنتها أصابعها المرتبكة. وبينما هي عائدة لتصعد إلى مقعد القيادة، اجتاحها إعياء شامل، فطفقت تترنح زائغة البصر، وتمسكت بجانب العربة لئلا تسقط على الأرض.

فتحت ميلاني عينيها، وعندما وقع بصرها على سكارلت تقف إزاءها همست: «عزيزتي - هل بلغنا البيت؟».

«البيت! واغرورقت عينا سكارلت بالدموع الحارة لدى سماع كلمة البيت! إن ميلاني لا تعلم أن البيت لم يعد موجوداً، وأنهم أضحوا الآن وحيدين في عالم مهجور.

- «لم نبلغه بعد» قالت بقدر ما سمح لها تقبض حنجرتها في رقة»، «بيد أننا سنصل فوراً. لقد وجدت الآن بقرة. وسنحصل على حليب لك وللطفل في الحال».

- « يا له من طفل مسكين! همست ميلاني بينما زحفت يدها تجاه ابنها بضعف، ولكن اليد ما عتمت أن هوت سريعاً.

كان الصعود إلى العربة ثانية يتطلب كل ما تستطيع سكارلت جمعه من قوة، ولكنها صعدت أخيراً وأمسكت بالزمام. كان الحصان يقف ورأسه مطرق بصورة تثبط الهمم، وعندما نهرته رفض التحرك، فهوت بالسوط عليه دونما

رحمة ، آملة أن يغفر الله لها إيذاء حيوان متعب ، وإن هو لم يغفر بأنها تأسف لذلك ، هذا إضافة إلى أن تارا كانت تقع أمامهم تماماً ، وبعد ربع ميل آخر سيكون بوسع الحصان أن يتخلص من نير العربة .

وأخيراً أخذ الحيوان المرهق يتحرك ببطء ، بينما راحت العربة تصر والبقرة تخور خواراً محزناً عند كل خطوة ، خواراً كان ينهش أعصاب سكارلت ، حتى إنها همت بالتوقف عن المسير وإطلاق سراح البقرة . . . أي فائدة يمكن أن يسديها لهم هذا الحيوان إذا هم لم يجدوا أحداً في تارا؟ إنها لن تستطيع حلبها ، وحتى لو استطاعت ، فمن المحتمل أن ترفس البقرة أي إنسان يلمس ضرعيها المتألمين . بيد أن البقرة في حوزتها وبوسعها أن تحتفظ بها ، فإن ما تحوزه الآن في هذه الدنيا قليل ضئيل .

وعندما بلغوا أخيراً أسفل منحدر خفيف ، اغرورقت عينا سكارلت بالدموع ، ففوق هذا المرتفع تماماً كانت تنتصب تارا . ثم غار قلبها . . . لن يصعد الحصان الهرم التلة ، لقد كان السفح يبدو دائماً قليل الانحدار ، في غاية التدرج ، أيام كانت تخب عليه على ظهر فرسها السريع ، ومن غير الممكن أن يكون السفح قد ازداد انحداراً منذ رأته آخر مرة ، ومع ذلك فإن الحصان لن يقوى على صعوده بهذا الحمل الثقيل .

وترجلت خائرة القوى ، وأمسكت بلجام الحيوان : «انزلي يا برسي» أمرت ، وأنزلي ويد معك ، إما أن تحمليه أو تجعليه يمشي . ضعي الطفل بجانب الآنسة ميلاني .

وانفجر ويد بالشهيق والنشيج الذي لم تستطع سكارلت أن تميز من كلماته سوى «ظلام ـ ظلام ـ ويد خائف» .

ـ «آنسة سكارلت ، أنا لا أستطيع السير . إن قدمي مقرحتان ، وحذائي مهترئ ، وويد وأنا لا نزن كثيراً» .

ـ «انزلي ، انزلي قبل أن ألقي بك خارجاً ، وإن أنا فعلت ذلك فسأتركك هنا في هذا المكان ، تبقين فيه وحدك في الظلام . هيا انزلي الآن !» .

وبكت برسي ، وألقت نظرة على الأشجار المعتمة المحيطة بهم من جانبي الطريق ، الأشجار التي يمكن لأغصانها أن تتطاول وتختطفها إذا هي غادرت

ملجأ العربة الأمين . ولكنها وضعت الطفل بجانب ميلاني ، وزحفت إلى الأرض ، ثم مدت يديها وأنزلت ويد ، الذي أخذ يبكي منكمشاً إلى جوار مربيته .

ـ «أسكتيه ، فأنا لا أستطيع سماع بكائه» قالت سكارلت ذلك وجرّت الحصان من لجامه ودفعت به أماماً فتحرك متمنّعاً .

ـ «كن رجلاً صغيراً يا ويد وكف عن البكاء وإلاّ فسآتي وأصفعك» . لماذا خلق الله الأولاد ، هجست سكارلت باستنكار ، حين التوى كاحلها بقوة فوق الطريق المعتمة ـ إنهم عديمو الفائدة ، مزعجون ببكائهم ، يتطلبون العناية أبداً ، ويقفون في طريق كل شيء ! كان التعب والإعياء قد بدّدا من قلبها كل ذرة من عطف على الصبي الهلع الذي كان يهرول بجانب برسي وهو يمسك بيدها وينشق مخاطه ـ وإنما كانت تحس بالألم لأنها ولدته ، وبالعجب الممض من أنها تزوجت تشارلز هاملتون .

ـ «آنسة سكارلت !» همست برسي ممسكة بذراع سيدتها «لا تدعينا نذهب إلى تارا ، فهم ليسوا هناك . لقد ذهب الجميع . ربما ماتوا ـ أمي والآخرون» .

وثارت سكارلت عندما سمعت صدى أفكارها ألفاظاً ، فدفعت أصابع برسي الممسكة بها بعيداً عنها .

ـ «إذاً أعطني يد ويد ، وبوسعك الجلوس والبقاء هنا» .

ـ «لا يا سيدتي ! لا يا سيدتي !» .

ـ «اخرسي إذاً» .

ما أبطأ الحصان ! كان الزبد ينقط من فمه على يدها ، وتذكرت فجأة بضع كلمات من الأغنية التي أنشدتها يوماً مع ريت ـ ولم تستطع تذكر البقية :

«أيام قليلة فقط بقيت لحملنا العبء المرهق ـ» .

«خطوات أخرى قليلة فقط ـ» ردد عقلها مرة بعد مرة ، «خطوات أخرى قليلة فقط ويخف العبء المرهق» .

ثم أشرفوا على القمة ، وانتصبت أمامهم أشجار سنديان تارا ، كتلة متشاهقة سوداء تطاول السماء المظلمة . وأسرعت سكارلت تنظر إن كان يوجد ضوء في الأنحاء ، ولكن بصرها لم يقع على بصيص من ضوء .

ـ «لقد ذهبوا !» هجس قلبها ، قلبها الذي غدا كالرصاص البارد في صدرها

«ذهبوا!» وأدارت رأس الحصان باتجاه الممشى، واحتوتهم أشجار الأرز المتعانقة فوق رؤوسهم في عتمة كظلام منتصف الليل. وفيما أرسلت نظرها يحدق في النفق المظلم رأت أمامها - هل رأت حقاً؟ أم كانت عيناها المتعبتان تخدعانها -؟ رأت آجر تارا الأبيض أغبش غير جلي. البيت! البيت! الجدران العزيزة البيضاء! النوافذ ذات السجف المواجة، الشرف الواسعة - هل كانت جميعها قائمة أمامها في الظلام، أم أن الظلام يخفي في ثناياه، رحمة بها، حقيقة مرعبة كالحقيقة التي صدمتها عند منزل آل أنتوش؟

وبدا الممشى طويلاً طويلاً يبلغ الأميال، وأخذ الحصان، وهو يجرجر قوائمه متمنّعاً يبطئ خطاه، على الرغم من أنها كانت تجره بيدها. وراحت عيناها تبحثان بلهفة خلال الظلام، فتراءى لها أن السقف ما زال سليماً على حاله. أيمكن أن يكون ذلك، أيمكن أن يكون؟ لا، ليس من الممكن، فالحرب لم توفر شيئاً، حتى ولا تارا التي بنيت لتبقى خمسمائة عام. لا يمكن أن تكون الحرب قد تجاوزت تارا.

ثم أخذ الهيكل المعمّى تتضح معالمه، فاندفعت تسحب الحصان بقوة، وبدت الجدران البيضاء خلال الظلام غير مسودة بالدخان. لقد نجت تارا! البيت! وأفلتت الزمام وركضت الخطوات القليلة الباقية، ووثبت بقوة للأمام تريد أن تلمس الجدران بيديها. ثم لمحت شبحاً غامضاً في العتمة يبرز من سواد الشرفة الأمامية، ويقف على أعلى الدرجات... وإذاً لم تهجر تارا! إن هناك من يسكنها!

وارتفعت صيحة فرح إلى حنجرتها، ولكنها تلاشت هناك. لقد كان البيت مظلماً جداً، ساكناً جداً، ولم يتحرك الشبح ولم ينادها، فماذا في الأمر؟ إن تارا تقف سالمة على حالها، مع أن السكون المخيف ذاته يخيم عليها، السكون الضارب جرانه في كل الريف المذعور. ثم تحرك الشبح مبتسماً بطيئاً، وهبط الدرجات.

- «أبي» همست بصوت أجش وهي تكاد تشك أنه والدها... «هذا أنا - كيتي سكارلت.. لقد عدت إلى البيت».

فاتجه أبوها نحوها، صامتاً كسائر في أثناء نومه، يجر ساقيه المتيبستين، واقترب منها وحدق في وجهها مبهوراً كأنه يعتقد أنها جزء من حلم، ثم مد

يده ووضعها على كتفها ، وأحست هي أن ذراعه ترتجف ، ترتجف كما لو أنه استيقظ من حلم رهيب إلى يقظة نصف واعية .

ـ «ابنتي» قال بجهد «ابنتي» وأخلد إلى الصمت .

ما باله؟ إنه رجل مسن ، فكرت سكارلت .

وأحنى جيرالد كتفيه ، ولم تر سكارلت في الوجه الذي استطاعت تمييزه بغموض فقط ، لم تر أمائر الرجولة ، رجولة جيرالد الجياشة التي لا تكل ، كما أن العينين اللتين رنتا إلى عينيها كانت تشوبهما نظرة الذعر المذهول ، وهي النظرة ذاتها التي تنبعث من عيني ويد الصغير . . . لقد كان مجرد رجل هرم صغير الجثة ، هدته السنون .

والآن ، كان الخوف من المجهول يملك عليها تفكيرها ، لقد انقض عليها من الظلام فجأة ، فلم يسعها إلاّ الوقوف والتحديق بأبيها ، وقد تجمع فوق شفتيها كل فيض الأسئلة .

وارتفع البكاء الخافت من العربة ثانية ، وبدا على جيرالد أنه يحاول إيقاظ نفسه بجهد بالغ .

ـ «إنها ميلاني ووليدها» همست سكارلت على عجل «إنها مريضة جداً ـ أحضرتهما معي إلى البيت» .

فأنزل يده من على كتفها واستقام بكتفيه ، وعندما اتجه ببطء نحو جانب العربة بدا كأنه نظير طيفي لمضيف تارا القديم وهو يرحب بضيوفه . . . كان كأنه يلفظ كلماته من ذاكرة طيفية غامضة .

ـ «ابنة العم ميلاني !» .

وتمتم صوت ميلاني بتلعثم .

ـ «يا ابنة العم ميلاني إن هذا بيتك . لقد أحرق تولف أوكس ، وعليك أن تقيمي معنا» .

أما سكارلت ، فإن تفكيرها بما قاسته ميلاني من آلام مستمرة دفعها إلى التدخل فوراً ، وقد أدركت أن المبادرة بيدها مرة ثانية ، فمن الضروري إذاً إضجاع ميلاني ووليدها على سرير لين ، وتأمين تلك الأشياء الصغيرة التي تتطلبها حالة ميلاني ، الأشياء التي يمكن تنفيذها .

ـ «ينبغي حملها ، فهي لا تستطيع المشي» .

وسمع وقع أقدام ، وبرز على الأثر شخص أسود من ظلام القاعة الأمامية . . . ونزل بورك الدرجات جرياً .

ـ «آنسة سكارلت ! آنسة سكارلت !» صاح .

فأمسكت سكارلت بذراعيه ، بورك جزء وقطعة من تارا ، إنه عزيز كقطع الآجر وممرات البيت المنعشة الهواء . وأحست بدموعه تنهمر على يديها وهو يربت على ظهرها صائحاً : «إني مسرور جداً بعودتك ! جداً » .

وانفجرت برسي بالبكاء ، وهي تغمغم كلاماً متقطعاً «بورك ! بورك عزيزي» .

وتشجع ويد وهو يرى استخذاء من هم أكبر منه سناً . فراح ينشق مخاطه ويقول : «ويد عطشان !» .

وأمسكت سكارلت زمام الأمر بيدها :

ـ «الآنسة ميلاني وابنها في العربة ، فعليك يا بورك أن تحملها إلى الطابق العلوي برفق ، وتضجعها في غرفة الجلوس الخلفية . أما أنت يا برسي ، فخذي الطفل وويد إلى الداخل واسقي ويد جرعة ماء . هل مامي هنا يا بورك؟ أخبرها أني أريدها» .

تقدم بورك نحو العربة منقاداً بلهجة السيطرة التي في صوت سكارلت ، وهناك جاست يداه في مؤخرة العربة . وفيما هو يرفع ميلاني ويسحبها من فرشة الريش التي استلقت عليها ساعات طويلة ، اعتصر الألم أنة من صدرها ، ثم أضحت بين ذراعي بورك القويتين ورأسها يتدلى خلف كتفه كرأس طفل . وتبعت برسي والدها وهي تحمل الطفل وتسحب ويد من يده ، ثم صعدت الدرجات العريضة وغابت في ظلام القاعة .

وأمسكت أصابع سكارلت المتنفطة(*) يد والدها على عجل ، ثم قالت :

ـ «أبي ، هل شفين جميعاً؟» .

ـ «الفتاتان في طريق الشفاء» .

وران الصمت ، وتبلورت خلاله في رأسه سكارلت فكرة رهيبة جداً يصعب التعبير عنها بالكلام . لا ، لن يسعها النطق بها . وبلعت ريقها ، وبلعت ، وفجأة

(*) النَّفط : بُثر يخرج باليد من العمل ملآن ماءً .

أحست كأن جفافاً ألصق جدران حلقها معاً، وتساءلت: أهذا هو الجواب على السر الرهيب، سر سكون تارا؟

وتكلم جيرالد كأنه يجيب تساؤل عقلها.

ـ «أمك ـ» نطقها وصمت.

ـ «ـ و ـ أمي؟».

ـ «أمك توفيت أمس».

*

مشت سكارلت متأبطة ذراع والدها بقوة، متحسسة طريقها في القاعة الواسعة المظلمة، القاعة التي كانت حتى في ظلمتها أليفة لنفسها ألفة تفكيرها. وتحاشت النظر إلى الكراسي ذات الظهور العالية، وإلى مشجب البنادق الشاغر، والخزانة العتيقة. وأحست كأنها تنجذب بالغريزة نحو المكتب الصغير في مؤخرة البيت، حيث كانت أمها تجلس دائماً، تجري حساباتها اللانهائية.. حتماً... عندما تدخل تلك الغرفة ستجد أمها ثانية تجلس إلى المنضدة، وسترفع إيلين بصرها واليراع متزن في يدها، ثم تنهض بروائحها الطيبة وبثوبها الحاف لتستقبل ابنتها المنهكة... لا! لا يمكن أن تكون إيلين ميتة، حتى ولو قال ذلك والدي... وكان قد قالها مرة بعد مرة كببغاء يحفظ جملة واحدة فقط «ماتت أمس ـ ماتت أمس..».

من المستغرب أنها لا تشعر بشيء الآن، اللهم إلاّ بوهن يقيد أعضاءها بأغلال حديدية ثقيلة، وبجوع جعل ركبتيها ترتجفان... ستفكر بأمها فيما بعد... ينبغي أن تبعد أمها عن تفكيرها الآن... وإلاّ ستهذي مخبولة كأبيها أو تنشج كابنها ويد.

ونزل بورك الدرجات العريضة المعتمة واتجه نحوهما ليدس نفسه قريباً من سكارلت، كحيوان مبرد يسعى إلى النار.

ـ «أين الأنوار؟ ولماذا يغرق البيت في هذا الظلام يا بورك؟ أحضر الشموع». قالت سكارلت.

ـ «لقد أخذوا كل الشموع يا آنسة سكارلت، جميعها عدا واحدة ما زلنا نستعملها للبحث عن الأمتعة في السرداب المظلم، وقد كادت تذوب. إن مامي تستعمل خرقة تضعها في صحن مليء بشحم الخنزير للإنارة، وذلك في

أثناء قيامها بتمريض الآنسة كارين والآنسة سولين» .

- «أحضر ما تبقى من الشمعة» ، قالت «أحضره إلى غرفة أمي . . إلى المكتب» .

واندفع بورك إلى غرفة الطعام بخطوات مسموعة ، بينما تلمست سكارلت طريقها إلى الغرفة الصغيرة الحالكة السواد ، وهناك تهالكت على الأريكة ، وذراع والدها ما زالت فوق مرفقها ، ذراع عاجزة مستنجدة مستسلمة ، كما يمكن أن تكون أيدي العجزة والأطفال .

- «إنه رجل مسنّ ، رجل هرم متعب» هجست ثانية ، وتساءلت بغموض : «لماذا لم تهتم بهذا الأمر؟

وتماوج الضوء في الغرفة عندما دخل بورك يحمل عالياً شمعة نصف مستهلكة ملتصقة بصحن فنجان قهوة . وعاد الكهف المظلم إلى الحياة فبدت فيه الأريكة العتيقة المتقعرة التي جلسا فوقها ، والمنضدة المرتفعة التي تكاد تبلغ السقف ، وأمامها كرسي أمها المنحوت ، ثم رفوف الملفات داخل خزائنها المكدسة بالأوراق المكتوبة بخطها الدقيق ، وكذلك السجادة البالية - كل شيء ، كل شيء كان كما عهدته ، سوى أن إيلين لم تكن هناك ، إيلين برائحة أغصان الليمون الخفية المنبعثة من محفظتها ، إيلين بالنظرة الحنون في عينيها المنحرفتي الطرفين . ودهم ألم خفيف قلب سكارلت ، كأنه انبعث من أعصاب تخدرت بفعل جرح عميق وعادت الآن لتثبت وجودها . وهجست سكارلت : ينبغي أن لا أدعها تعود إلى الحياة ثانية ، في هذه الآونة ، فما زال أمام أعصابي كل المرحلة الباقية من عمري ، حيث يسعها إيلامي ، ولكن ليس الآن ، أرجوك يا إلـهي ليس الآن !» .

ونظرت في وجه أبيها ذي الألوان المتداخلة ، وللمرة الأولى في حياتها رأت والدها غير حليق ، وقد كسا وجهه المورد فيما مضى شعر قاس فضي اللون .

وضع بورك الشمعة فوق الحاملة وأتى إلى جوارها ، وأحست سكارلت أنه لو كان كلباً لوضع خطمه في حجرها ونبح ملتمساً يداً رحيمة تربت على رأسه .

- «بورك ، كم زنجياً هنا؟» .

- «آنسة سكارلت ، لقد فر الزنوج الأنذال ، وارتحل بعضهم مع الشماليين و . .» .

ـ «كم زنجياً بقي؟» .

ـ «الباقون هم أنا يا آنسة سكارلت ، ومامي التي كانت تمرض الآنستين طيلة اليوم ، ودلسي ، وهي تجلس الآن برفقة الآنستين . نحن الثلاثة فقط يا آنسة سكارلت» .

«نحن الثلاثة» وكان يوجد مائة ! وبجهد مضن رفعت سكارلت رأسها على عنقها المتألم . كانت تدرك أن عليها أن تحتفظ بصوتها ثابت اللهجة ، غير أن الذي أدهشها أن الكلام خرج من فمها مطمئناً طبيعياً كما لو لم يكن هناك حرب مطلقاً ، وكما لو كان بوسعها ، وبمجرد التلويح بيدها ، أن تستدعي عشرة خدم .

ـ «بورك ، إني أتضور جوعاً ، هل يوجد شيء للأكل؟» .

ـ «لا يا سيدة ، لقد أخذوا كل شيء» .

ـ «والحديقة؟» .

ـ «لقد أفلتوا خيولهم بها» .

ـ «حتى التلال المزروعة بالبطاطا الحلوة؟» .

فعلا شفتيه الغليظتين ما يشبه الابتسامة الرضية :

ـ «آنسة سكارلت أنا لم أنس البطاطا ، وأعتقد أنها سالمة هناك . لم ير الشماليون شيئاً منها فاعتقدوا أنها مجرد جذور . . .» .

ـ «سيبزغ القمر سريعاً ، وعندئذ أخرج وأقتلع لنا بعضها . ألا يوجد خبز ذرة؟ ولا فاصوليا جافة ولا دجاج؟» .

ـ «لا يا سيدتي ، لا يا سيدتي ، الدجاج الذي لم يأكلوه هنا حملوه معهم فوق سروج الخيل» .

لقد فعلوا ـ وفعلوا ـ وفعلوا ـ أليس من نهاية لما فعلوه؟ ألم يكفهم الحرق والقتل؟ أكان لا بد لهم أيضاً من ترك النساء والأطفال والزنوج العديمي الحيلة يتضورون جوعاً في بلاد خربوها هم أنفسهم؟

ـ «آنسة سكارلت ، عندي بعض التفاح الذي طمرته مامي تحت البيت ، وقد تغذينا اليوم منه» .

ـ أحضره قبل اقتلاع البطاطا . واسمع يا بورك ـ إني ـ إني أشعر بدوار شديد . هل يوجد خمر في السرداب؟ حتى ولو كان خمر ثمر عليق؟» .

ـ «آه يا آنسة سكارلت ، كان السرداب أول مكان يمموا شطره» .

وفجأة اجتاحها غثيان دافق بسبب الجوع والأرق والإعياء والضربات الصاعقة ، وتمسكت بالورود المنحوتة التي كانت تحت يدها .

ـ «لا يوجد خمرة» ، قالت مكتئبة . . . متذكرة الصفوف اللانهائية من قوارير الخمر التي كانت مصفوفة في السرداب . . . لقد اشتغلت ذاكرتها .

ـ «بورك ، وماذا حصل لويسكي الذرة الذي دفنه أبي في برميل السنديان تحت العريشة المخرمة؟» .

وأضاء الوجه الأسمر شبح ابتسامة أخرى ، ابتسامة سرور وتقدير .

ـ «إنك حتماً فتاة مغيظة يا آنسة سكارلت ، أنا لم أنس ذلك البرميل أيضاً . ولكن يا آنسة سكارلت ، ذلك الويسكي ليس في حالة جيدة إذ مضى عليه وهو في ذلك المكان نحواً من سنة . علاوة على أن الويسكي لا يصلح للسيدات في أي حال» .

ما أغبى الزنوج ! إنهم لا يفكرون بشيء ما لم ينبهوا إليه ، ومع ذلك يريد الشماليون تحريرهم .

ـ «سيكون مفيداً جداً لميلاني وأبي . أسرع يا بورك وأخرجه من الأرض ، وهات لنا كأسين وبعض النعناع وسكراً ، وسأصنع من ذلك المزيج شراب الجلاب» .

وتجهم وجهه مؤنباً .

ـ «آنسة سكارلت ، تعلمين أنه لا وجود للسكر في تارا منذ زمن ، وقد التهمت خيولهم كل النعناع ، كما أنهم هشموا جميع الكؤوس» .

إذا ما أشار إليهم مرة أخرى فسأصرخ ، إذ لم يعد بوسعي احتمال ذلك ، قالت في نفسها ، ثم أردفت بصوت مرتفع : «حسناً ، أسرع واجلب الويسكي ، سنحتسيه غير ممزوج بشيء» . وعندما استدار ليمضي أضافت :

ـ «انتظر يا بورك ، يوجد أمور كثيرة ينبغي القيام بها ، والظاهر أني لا أستطيع التفكير بها الآن . . . ها ، أجل ! لقد أحضرت معي إلى البيت حصاناً وبقرة تحتاج إلى الحلب حالاً . أنزل عن الحصان عدته واسقه ، ثم اذهب وأبلغ مامي أن تعتني بالبقرة ، أبلغها أن عليها أن تربط البقرة في مكان ما . إن طفل ميلاني سيموت إن لم يحصل على شيء يقتات به و . .» .

- «الآنسة ميلي لا - تستطيع -؟» وصمت بورك بأدب .

- «الآنسة ميلاني لا تدرّ حليباً» يا لله ! إن أمي كان من المحتمل أن يغمى عليها بسبب مثل هذا التصريح !

- «حسناً يا آنسة سكارلت ، دلسي زوجتي تستطيع إرضاع طفل ميلاني . لقد أنجبت مولوداً جديداً ، وعندها من الحليب ما يكفي الرضيعين» .

- «هل رزقت بطفل جديد يا بورك؟» .

أطفال ، أطفال ، أطفال . لماذا يخلق الله هذا العدد الكبير من الأطفال؟

- «نعم يا سيدة ، إنه صبي أسود كبير بدين . . إنه . .» .

- «اذهب وأبلغ دلسي أن تترك الفتاتين ، سأعتني أنا بهما . أبلغها أن تعنى بطفل الآنسة ميلي ، وتفعل الذي تستطيعه من أجل والدته . أبلغ مامي أن تعتني بالحصان وأن تضع البقرة المسكينة في الإصطبل» .

- «لم يعد يوجد إصطبل يا آنسة سكارلت ، فقد استعملوه لخزن الحطب» .

- «لا تنبئني بأي شيء آخر عما فعلوه . أبلغ دلسي أن تعتني بهما واذهب أنت يا بورك وأخرج ذلك الويسكي من الأرض ثم اقتلع بعض البطاطا» .

- «ولكن يا آنسة سكارلت ، ليس بحوزتي أي ضوء لأحفر على ضوئه» .

- «بوسعك استعمال قضيب من حطب الموقد ، أليس كذلك؟» .

- «لا يوجد حطب موقد . . فهم . .» .

- «افعل أي شيء . . . لا يهمني ماذا . . . ولكن أخرج هذه الأشياء . . وأخرجها بسرعة . . هيا الآن» .

وعندما صخب صوتها أسرع بورك خارجاً من الغرفة ، تاركاً سكارلت وحيدة مع أبيها . وعندئذ ربتت على ساق والدها برفق ، ولاحظت مدى هزال فخذيه اللتين كانتا فيما مضى منتفختين بعضلات نجمت عن ركوب الخيل . وفكرت . . . أنه ينبغي أن تقوم بعمل ما كي تنقذه من هذا الضياع - ولكنها لا تستطيع سؤاله عن إيلين . . . سيحين موعد ذلك فيما بعد . . عندما تقوى على احتماله .

- «لماذا لم يحرقوا تارا؟» .

فحملق في وجهها لحظة ، كأنه لم يسمع كلامها ، وكررت هي السؤال .

- «إنهم . .» أجاب متلعثماً «إنهم اتخذوا البيت مقراً للقيادة» .

ـ «شماليون ـ في هذا البيت؟» .

وانتفض فيها الشعور بالنقمة ، لأن الجدران العزيزة عليها قد دنست . . هذا البيت المقدس ، لأن إيلين عاشت فيه ، يدنسه أولئك ـ أولئك . . .

ـ «أجل يا بنيتي . . لقد رأينا الدخان يتصاعد من تولف أوكس خلف النهر ، قبل أن يصلوا إلينا . على أن الآنسة هوني والآنسة إنديا وبعض العبيد كانوا قد لجأوا إلى ميكون ، ولذلك لم نقلق عليهم ، بيد أنه لم يكن بوسعنا نحن الذهاب إلى ميكون ، فشقيقتاك كانتا مريضتين جداً ـ وأمك ـ لم يكن بوسعنا الذهاب . . . وفر زنوجنا ـ لست أدري إلى أين . . . وسرقوا العربات والبغال . أما مامي ودلسي وبورك ـ فلم يفروا ـ شقيقتاك ـ وأمك ـ لم يكن بوسعنا نقلهن» .

ـ «نعم ، نعم» . ينبغي ألاّ يتحدث عن أمي ، ليتحدث عن أي شيء آخر . ليقلع حتى عن ذلك الحديث المتعلق باستخدام الجنرال نفسه لهذه الغرفة ، لمكتب أمي ، كمقر لقيادته . . وليتحدث بأي حديث آخر .

ـ «كان الشماليون يزحفون إلى جونسبورو كي يقطعوا السكة الحديد ، وقد صعدوا الطريق القادم من النهر ـ كانوا ألوفاً مؤلفة ـ ومعهم مدافع وخيول ـ بالآلاف وقابلتهم على الشرفة الأمامية» .

ـ «آه يا لجيرالد الصغير الشهم !» فكرت سكارلت وقلبها ينتفخ زهواً . . جيرالد يقابل العدو واقفاً على درجات تارا ، كما لو كان جيش يقف وراءه ، بدلاً من هذا الجيش الذي تجمع أمامه .

ـ «وأنذروني بأن أغادر البيت لأنهم سيحرقونه ، فأجبتهم أن أحرقوه فوق رأسي . إذ لم يكن بوسعنا مغادرته ـ فشقيقتاك ـ وأمك كن ـ» .

ـ «وبعدئذ؟» ألا بد له من الرجوع لذكر إيلين دائماً .

ـ «أبلغتهم عن وجود مرضى في البيت . . بالتيفوئيد . وأن نقلهن يعني الموت ، وأن بإمكانهم حرق البيت على رؤوسنا ، فأنا لا أريد مغادرته على أية حال ـ لا أريد مغادرة تارا ـ» .

وتهدج صوته متلاشياً ، فيما راح ينقل بصره الشارد بين الجدران ، وأدركت سكارلت معنى نظراته . لقد كان هناك عدد كبير جداً من السلف الإيرلنديين يحتشدون خلف كتفي جيرالد ، رجال ماتوا في أراضيهم الصغيرة بعد أن قاتلوا

حتى الرمق الأخير ، رافضين مغادرة الأرض التي عاشوا فيها وحرثوا وأحبوا ورزقوا أولاداً .

ـ «وقلت لهم إنهم سيحرقون البيت فوق رؤوس نساء ثلاث ، يعانين سكرات الموت ، ومع ذلك فلن نغادره . . . لقد كان الضابط الشاب ـ كان رجلاً فاضلاً» .

ـ «شمالي فاضل؟ ماذا تقول يا أبي؟ !!» .

ـ «نعم فاضل . لقد انطلق على حصانه ، وسرعان ما رجع وبرفقته كابتن وجرّاح ، وألقى نظرة على شقيقتيك ـ وأمك» .

ـ «أسمحت لشمالي لعين بالدخول إلى غرفتهن؟» .

ـ «كان لديه أفيون ولم يكن بحوزتنا شيء منه . لقد أنقذ شقيقتيك . كانت سولين تنزف دماً ، وكان هو لطيفاً بقدر معرفته . وعندما قدم تقريراً بأن الثلاث ـ مرضى ـ لم يحرقوا البيت ، بل دخلوه . دخله جنرال مع هيئة معاونيه ، فازدحم بهم المكان ، وعجت بهم جميع الغرف إلاّ غرفة المرضى الثلاث . أما الجنود ـ» .

وصمت ثانية ، كما لو كان متعباً جداً ، لا يقوى على متابعة الحديث ، وهوت ذقنه القصيرة على صدره بتجاعيد بشرتها المتهدلة ، ثم استأنف حديثه بجهد .

ـ «عسكروا حول البيت ، عسكروا في كل مكان ، في حقول القطن والذرة ، واصطبغ المرعى بلون بززهم الزرقاء . واشتعلت آلاف من نيران المعسكرات في تلك الليلة ، وقد اقتلعوا الحواجز الخشبية وأحرقوها ليطهوا طعامهم ، وكذلك فعلوا بالمخازن والإصطبلات والفرن . كما أنهم ذبحوا البقر والخنازير والدجاج ـ حتى ديوكي الرومية» . . . ديوك جيرالد الرومية النفيسة ، هكذا ضاعت إذاً . . «وأخذوا كل المتاع ، حتى الصور وبعض الأثاث والأواني الصينية» .

ـ «والفضية؟» .

ـ «قام بورك ومامي بعمل ما من أجل الاحتفاظ بالأواني الفضية ـ وضعاها في البئر ـ ولكني لا أذكر كل شيء الآن» كان يتكلم بصوت غاضب ، ثم أردف قائلاً : «ثم شنوا المعركة من هنا ـ من تارا ـ فعلا الضجيج وراح الجنود يصعدون ويضربون الأرض بأرجلهم ، ثم سمعنا هدير المدافع تقذف جونسبورو ـ كانت تقصف كالرعد ـ حتى شقيقتاك استطاعتا سماع الدوي ، رغم ما هما

عليه من مرض ، وظلتا ترددان : «أبانا أسكت المدافع» .

ـ «ـ و ـ وأمي؟» هل عرفت أن الشماليين كانوا في البيت؟» .

ـ «إنها ـ لم تعرف شيئاً البتة» .

ـ «شكراً لله» قالت سكارلت ، لقد سلمت أمها من ذلك العار . لم تدر أبداً ولم تسمع مطلقاً بوجود الشماليين في غرف الطابق السفلي ، لم تسمع دوي المدافع في جونسبورو ، ولم تعلم أن الأرض التي كانت جزءاً من قلبها أصبحت تحت أقدام الشماليين

ـ «ولقد رأيت القليل منهم ، لأني أقمت في الطابق العلوي مع شقيقتيك وأمك . رأيت الجراح الشاب أكثر من غيره ، كان لطيفاً جداً يا سكارلت ، فبعد أن كان يعمل طوال النهار مع الجرحى ، كان يأتي ويجلس معهن ، حتى لقد ترك بعض الأدوية . وعندما غدرونا أخبرني أن شقيقتيك ستشفيان ، ولكن أمك ـ كانت هزيلة جداً ، هكذا قال ، هزيلة جداً بحيث لن تستطيع مقاومة المرض . لقد قال إنها أنهكت قواها . . .» .

ورأت سكارلت أمها في الظلام المخيم ، رأتها كما لا بد أن تكون في تلك الأيام الأخيرة ، برجاً نحيلاً من القوة ، منتصباً في تارا ، يمرض ويشتغل ويعمل بلا نوم ولا غذاء ، كيما يرتاح الآخرون ويأكلون .

ـ «ومن ثم تابعوا زحفهم ، ثم تابعوا زحفهم . . .» .

وصمت فترة طويلة ، وراح يعبث بيدها .

ـ «إني مسرور لأنك في البيت» قال ببراءة .

وعلا صوت مسح نعال من الشرفة الأمامية . . . مسكين . . إنه بورك . . لقد اعتاد طيلة أربعين سنة على أن ينظف حذاءيه قبل دخول البيت ، وها هو لم ينس واجبه حتى في مثل هذا الوقت . ثم دخل يحمل قرعتين باحتراس ، وقد سبقته إلى داخل الغرفة الرائحة القوية المنبعثة من الخمر المتقطر .

ـ «لقد أهرقت خمراً كثيراً يا آنسة سكارلت ، فمن العسير جداً أن يسكب الخمر في قرعة من ثقب سداد .

ـ «لا بأس يا بورك . شكراً لك» .

تناولت منه كيلة القرعة المبللة ، فتجعد منخراها باشمئزاز عندما عبق بخار الشراب .

ـ «اشرب هذا يا أبي» قالت ودفعت بقدح الويسكي القريب من يده . ثم تناولت من يد بورك القرعة الثانية المملوءة ماء .

ورفع جيرالد القدح ، مطيعاً أمر ابنته كصبي صغير ، وارتشف الويسكي بصوت مسموع ، وعندما ناولته سكارلت قرعة الماء اكتفى بأن هز رأسه ممتنعاً .

ولكنها ، وهي تأخذ الويسكي من يده وترفعه إلى فمها ، رأت عينيه تتبعانها باستنكار .

ـ «لا أعرف سيدة تشرب الكحول» قال باقتضاب .

ـ «ولكنني لست سيدة اليوم ، يا أبي ، ولدي عمل يجب علي إنجازه الليلة» .

ورفعت القدح ، وسحبت نفساً عميقاً ، وارتشفت الويسكي بسرعة . وانحدر السائل الحار حارقاً حنجرتها ، انحدر إلى معدتها وجعلها تغص ، وجعل عينيها تغرورقان بالدموع ، ثم سحبت نفساً آخر ، ورفعت القدح ثانية .

ـ «كيتي سكارلت» ، «قال جيرالد وصوته يحمل أول نبرة متسلطة سمعتها منذ عودتها «حسبك ما شربت . إنك لا تعرفين تأثير الكحول ، إنها ستسكرك» .

ـ «تسكرني !» وضحكت ضحكة نكراء . «تسكرني؟ إني أرجو أن تسكرني ، إني أود أن أسكر وأنسى كل هذا الذي يكتنفني» .

واحتست جرعة ثانية ، وسرى في عروقها تيار من الدفء ، تسلل إلى أنحاء جسدها ، حتى أحست بأصابعها تتخدر . . . أي إحساس مبارك . . . هذه النار الرحيمة كأنها ستخترق حتى قلبها المتجلد المغلق ، وعادت القوة تجري في جسدها . وعندما رأت وجه أبيها المستاء الحائر ، ربتت على ركبته مرة ثانية ، وتصنعت الابتسامة الوقحة التي اعتاد محبتها .

ـ «كيف تقوى الخمرة على إسكاري يا أبي؟ إني ابنتك ، ألم أرث أقوى الرؤوس مقاومة لها في ولاية كلايتون؟» .

فابتسم في وجهها المتعب ، وكان الويسكي قد أنعشه هو أيضاً ، فناولته القدح ثانية .

ـ «سترتشف الآن جرعة أخرى ، ومن ثم سأصعد معك إلى الطابق العلوي وأضعك في السرير» .

وفطنت لنفسها . . . ماذا ! إن هذه هي الطريقة التي تتحدث بها إلى ويد ـ ينبغي أن لا تخاطب والدها بمثل هذا الأسلوب ، إنه أسلوب مهين ، بيد أن جيرالد أصغى لكلامها .

ـ «أجل ، سأضعك في سريرك» أضافت برفق «وأعطيك جرعة أخرى ـ ربما ملء القدح ، ثم أدعك تذهب للنوم . أنت بحاجة إلى النوم ، وطالما أن كيتي سكارلت موجودة هنا فلا حاجة بك إلى التفكير بأي شيء . اشرب» .

وشرب ثانية ملبياً ، ثم أنهضته على قدميه ، داسة ذراعها تحت ذراعه :

ـ «بورك . . .» .

حمل بورك القرعة بإحدى يديه ، وأمسك ذراع جيرالد بالأخرى ، بينما التقطت سكارلت الشمعة المضيئة ، ومشى الثلاثة ببطء في القاعة المظلمة ، ثم صعدوا السلم المتعرج .

*

كانت الغرفة التي تتمدد فيها شقيقتاها سولين وكارين ، وهما تجمجمان وتتقلبان على سرير واحد ، تعبق بالرائحة الكريهة المنبعثة من الخرقة الملفوفة المشتعلة في صفيحة مملوءة بدهن الخنزير ، والتي هي مصدر الضوء الوحيد . وعندما فتحت سكارلت الباب كاد جو الغرفة الكثيف يصيبها بالدوار ، نظراً لأن جميع النوافذ كانت مغلقة والهواء مشبع بروائح غرفة المرضى والدواء والشحم النتن . قد يقول الأطباء إن تيار الهواء الطلق ضار إذا ما دخل غرفة المريض ، ولكن إذا كان عليها أن تجلس هنا فلا بد لها من الهواء الطلق أو تموت ، ولذلك فتحت النوافذ الثلاث ، سامحة لرائحة أوراق السنديان والتراب بالدخول ، غير أن الهواء النقي لم ينجح إلا قليلاً في طرد الروائح المرضية التي كانت قد تراكمت خلال أسابيع داخل الغرفة .

كانت كارين وسولين ، النحيلتان الشاحبتان ، تنامان نوماً متقطعاً ، وتستيقظان لتغمغما بعيون واسعة تحملق في السرير ذي الأعمدة الأربع الطويلة حيث كانتا تتهامسان في أيام خالية ، أيام أفضل وأكثر سعادة من هذه . وكان في إحدى زوايا الغرفة سرير شاغر ضيق من طراز (الأمبراطورية الفرنسية) له رأس وقدم لولبيتين ، كانت إيلين قد جلبته من سافانا ، وكانت تنام عليه قبل وفاتها .

جلست سكارلت إلى جانب شقيقتيها تحدق بهما كالبلهاء . وكان الويسكي الذي انصب في معدة فارغة ، منذ وقت ، قد بدأ يفعل فعله في عينيها ، فكانت شقيقتاها تبدوان لعينيها تارة بعيدتين ، وصوتاهما المتقطعان يبلغان مسامعها كطنين الحشرات ، وطوراً تبدوان كبيرتي الجثة ، مندفعتين نحوها بسرعة البرق . لقد كانت تعبة جداً ، تعبة حتى العظم ، وكان بوسعها التمدد والاستغراق في النوم أياماً .

آه ، لو أنها فقط تستطيع التمدد والنوم ، ثم الاستيقاظ وهي تحس يد إيلين تهز ذراعها قائلة : «سكارلت ، لقد تأخرت في النوم ، ينبغي أن لا تكوني خمولة إلى هذا الحد» غير أنها لن تستطيع فعل ذلك ثانية ، آه لو أن إيلين فقط موجودة ، لو أن أي إنسان أكبر وأعقل منها ، غير منهوك مثلها ، إنسان تستطيع أن تستند إليه ، وتضع رأسها في حجره ، إنسان تستطيع أن تلقي بأعبائها على كتفيه !

وفتح الباب بسرعة ، ودخلت دلسي تحمل طفل ميلاني على صدرها وقرعة الويسكي في يدها ، فبدت في الضوء الحائر المدخن أنحف مما كانت عليه في آخر مرة رأتها سكارلت ، وبدا الدم الهندي أوضح في وجهها ، وعظام الوجنتين المرتفعة أكثر بروزاً ، والأنف المعقوف أكثر دقة ، وبشرتها النحاسية تشع بلون أكثر لمعاناً . وكان ثوبها الخامي الباهت مفتوحاً من الأعلى حتى خصرها ، وصدرها البرونزي الكبير بادياً للعيان ، وقد حملت عليه طفل ميلاني الذي كان يضغط بفمه المورد الشاحب على حلمة ثديها السوداء ، يرتضع الحليب ويشد بقبضتيه الصغيرتين على الثدي الطري كهريرة هانئة في شعر بطن أمها الدافئ .

نهضت سكارلت مترنحة ووضعت يدها على ذراع دلسي .

ـ «كان جميلاً منك أن تبقي هنا يا دلسي» .

ـ «كيف يسعني الرحيل مع أولئك الزنوج الأنذال يا آنسة سكارلت ، وقد أحسن إليّ والدك إحساناً عظيماً بشرائي وابنتي الصغيرة برسي ، وقد كانت أمك رحيمة بي؟» .

ـ «اجلسي يا دلسي كي يستطيع الطفل الرضاع كما يجب . وكيف هي الآنسة ميلاني؟» .

ـ «ليس من علة في هذا الطفل سوى أنه جائع ، غير أني أملك من الحليب ما يكفي لتغذية طفل جائع . . إن الآنسة ميلاني بخير . . لن تموت يا آنسة سكارلت . لا تشغلي بالك . لقد رأيت الكثيرات في مثل حالتها من كلا البيض والسود . . إنها مرهقة جداً ، خائفة على هذا الطفل . . ولكني طمأنتها ، وقدمت لها بعض ما تبقى في تلك القرعة ، فأغرقت في النوم .

وهكذا استفادت العائلة كلها من ويسكي الذرة ! وفكرت سكارلت تفكيراً مجنوناً بأنه قد يكون من الأفضل إعطاء ويد الصغير جرعة ويسكي لترى إذا كان ذلك سيضع حداً لفواقه ـ وميلاني لن تموت . وعندما سيعود آشلي إلى البيت ـ إذا ما قدر له أن يعود . . . لا ! ستفكر بذلك فيما بعد أيضاً . . . يوجد الكثير من الأمور للتفكير بها ـ فيما بعد ! أمور كثيرة جداً تنتظر الحل ـ تنتظر البت بها . لو أنها فقط تستطيع تأجيل ساعة الحساب إلى الأبد ! وأجفلت فجأة ، عندما شق سكون الهواء الخارجي صوت رتيب على إيقاع واحد : كربانغ . . كربانغ . . كربانغ .

ـ «إنها مامي تنتشل الماء من البئر لتمسح به جسدي الآنستين . إنهما بحاجة إلى مسح دائم» أوضحت دلسي ، واضعة القرعة على المنضدة بين قوارير الأدوية .

وضحكت سكارلت فجأة . . . لا بد من أن تتحطم أعصابها طالما أن صوت دولاب البئر استطاع إفزاعها . . الصوت الكامن في ذكرياتها الأولى . . . وعندما ضحكت نظرت دلسي إليها نظرة ثابتة ووجهها جامد في وقاره ، إلاّ أن سكارلت شعرت أن الزنجية أدركت ما يدور بخلدها ، فتراخت في كرسيها . لو أنها فقط تستطيع الخلاص من مشدها الضاغط ، من طوقها الذي يخنقها ، من خفيها اللذين ما فتئا مليئين بالرمل والحصى الذي يدمي قدميها !

وراح دولاب البئر يصر بطيئاً فيما كان الحبل يلتف عليه ، وكانت كل صرة تدني الدلو من القمة ، وسرعان ما ستكون مامي بجانبها ـ مامي ، مربية إيلين ، مربيتها هي ، وجلست صامتة ورأيها لم يستقر على شيء ، بينما شرع الطفل ، الذي أضحى الآن متخماً بالحليب ، يبكي لفقدانه الحلمة الودودة ، الأمر الذي دفع دلسي الصامتة ، هي أيضاً ، إلى أن توجه فم الرضيع نحو الحلمة ثانية لتسكته على ذراعيها ، بينما كانت سكارلت ترهف السمع لوقع أقدام مامي

البطيئة ، عبر الساحة الخلفية .

وبدا كأن القاعة العليا تهتز فيما كان جسد مامي الثقيل يتجه نحو الباب . ثم دخلت الغرفة بكتفيها المنحنيتين من حمل دلوين خشبيين ثقيلين ، وبوجهها الأسود الحنون ، يغمره حزن كالحزن الغامض الذي يغمر وجه قرد .

وأضاءت عيناها عند رؤية سكارلت ، ولمعت أسنانها البيضاء وهي تنزل الدلوين ، وهرعت سكارلت نحوها ، وأسندت رأسها إلى الصدر العريض المترهل ، الصدر الذي أسند رؤوساً كثيرة ، سوداء وبيضاء . هنا يوجد شيء من الطمأنينة ، من الاستقرار ، هجست سكارلت ، شيء من الحياة القديمة التي لم تكن تتبدل ، بيد أن كلمات مامي الأولى أطارت هذا الوهم من نفسها :

ـ «لقد عادت ابنة مامي إلى البيت ! آه يا آنسة سكارلت ، الآن وقد وسدت إيلين التراب ، ماذا سنفعل؟ آه يا آنسة سكارلت ، ليتني وسدت التراب إلى جانبها ! فأنا لا أستطيع العمل بدونها . . . لم يبق شيء الآن سوى البؤس والشقاء فقط . . . أعباء ثقيلة يا حلوتي ، فقط أعباء ثقيلة» .

وفيما سكارلت متكئة ، يحتضن صدر مامي رأسها ، قيد انتباهها كلمتا «أعباء ثقيلة» . . إنهما الكلمتان اللتان كانتا تدويان في دماغها طيلة بعد ظهر ذلك اليوم ، بنغم مطرد أسقم نفسها . وتذكرت الآن بقية الأغنية ، تذكرتها بقلب غائر :

ـ «أيام قليلة فقط بقيت ، نحمل خلالها العبء الثقيل !
لا بأس ، فلن يخف هذا العبء أبداً !
أيام قليلة فقط حتى نسقط في الطريق»

*

«لا بأس ، فلن يخف هذا العبء أبداً» ـ واستوعبت سكارلت الكلمات في عقلها المنهك . ألن يخف عبئها أبداً؟ ألا يعني القدوم إلى تارا نهاية العبء ، أم أنه يعني فقط حمل أعباء أخرى؟ وأفلتت من ذراعي مامي ، واستقامت مربتة على الوجه الأسود المغضّن .

ـ «يا حلوتي ، يداك !» وأخذت مامي يديها الصغيرتين المتنفطتين المقرحتين الداميتين وتأملتهما باستهجان مريع : «آنسة سكارلت ، لقد أخبرتك وأخبرتك

أن بوسعك دائماً معرفة السيدة من يديها ـ ووجهك قد لوحته الشمس أيضاً !» .

يا لمامي المسكينة ، إنها ما زلت ملتزمة بمثل هذه الأمور التافهة ، مع أن الحرب والموت قد مرّا الآن فوق رأسها ! وستقول بعد لحظة إن الآنسات ذوات الأيدي المقرحة والوجوه الكلفة لا يحرزن أزواجاً في معظم الأحيان . . . ولكن سكارلت استبقت هذه الملاحظة .

ـ «مامي ، أريدك أن تخبريني عن أمي ، فليس بوسعي سماع أبي يتحدث عنها» .

اغرورقت عينا مامي بالدموع وهي تنحني لتلتقط الدلوين ، ثم حملتهما في صمت إلى جانب السرير ، وطوت الشرشف وجردت سولين وكارين من ثيابهما الليلية . وفيما كانت سكارلت ترنو إلى شقيقتيها في الضوء المرتعش الباهت ، رأت أن كارين كانت ترتدي ثوب نوم نظيف ولكنه خرق بالية ، بينما اضطجعت سولين متسربلة بثوب بني عتيق فضفاض ، حلة من الكتان البني مثقلة بأهداب موصولة من الدنتلة الإيرلندية . وطفقت مامي تبكي بكاء صامتاً وهي تمسح الجسدين النحيلين .

ـ «آنسة سكارلت ، إن آل سلاتري الحقيرين المشردين ، آل سلاتري البيض الفقراء المنحطين ، هم الذين قتلوا السيدة إيلين . لقد أخبرتها وأخبرتها أنه لا فائدة من الإحسان إلى الناس الأنذال ، ولكن السيدة إيلين كانت حازمة جداً في أعمالها ، رحيمة القلب كثيراً ، بحيث أنها لم تكن ترفض نداء محتاج إليها» .

ـ «آل سلاتري !» سألت سكارلت ملتاعة «كيف دخلوا إلى هنا؟» .

ـ «كانوا مرضى بهذا المرض ذاته» وأومأت مامي بخرقتها إلى الفتاتين العاريتين منقطة الماء على شرشفهما الرطب . إن إيمي ، ابنة السيدة سلاتري العجوز ، أصيبت به ، ثم أقبلت السيدة سلاتري على الفور تستدعي السيدة إيلين ، شأنها دائماً كلما حدث مكروه . لماذا لا تمرض هي ابنتها ! إن السيدة إيلين كانت تحمل من الأعباء أكثر مما تستطيع بأي حال من الأحوال ، ولكنها مع ذلك ذهبت إليهم ومرضت إيمي . ولم تكن السيدة إيلين نفسها في صحة جيدة أبداً يا آنسة سكارلت . إن أمك لم تكن تنعم بصحة جيدة منذ مدة

طويلة ، ولم يكن يوجد مؤونة وافرة من المواد الغذائية في المنطقة حولنا ، نظراً لأن دائرة التموين تنهب كل ما ننتجه . وعلى كل حال ، فالسيدة إيلين تأكل كعصفور . ولقد أخبرتها وأخبرتها أن تدع البيض الأنذال وشأنهم ، ولكنها لم تعرني انتباهاً . ومهما كان الأمر ، فقد أصيبت الآنسة كارين بالداء في الوقت الذي بدأت فيه إيمي بالتحسن . نعم يا سيدتي ، لقد اجتازت ذبابة التيفوئيد الطريق وحطت على الآنسة كارين ، ثم أصيبت الآنسة سولين . وهكذا أخذت السيدة إيلين على عاتقها تمريضهما أيضاً» .

«وبسبب القتال الدائر في أعلى الطريق ووجود الجنود الشماليين عبر النهر ، ولأنا لم نكن نعرف الذي سيحدث لنا ، ولفرار العمال الزراعيين في كل ليلة ، لهذا كله كدت أجن ، ولكن السيدة إيلين احتفظت بهدوئها ورباطة جأشها ، سوى أنها غدت كالشبح من جراء قلقها على الآنستين ، وذلك نظراً لعجزنا عن الحصول على الأدوية أو على أي شيء آخر . وفي إحدى الليالي قالت لي ، بعد أن كنا قد مسحنا جسدي الفتاتين عشر مرات تقريباً :

ـ «مامي ! آه لو باستطاعتي بيع روحي ! إذاً لبعتها مقابل بعض الثلج أضعه على رأسي ابنتيّ» . ولم تكن تسمح للسيد جيرالد بالدخول إلى هنا ، ولا لروزا ولا لتينا ، ولا لأحد سواي ، لأني كنت قد أصبت بالتيفوئيد سابقاً . وبعد ذلك أصيبت هي به يا آنسة سكارلت ، ولقد أدركت منذ البداية أن لا فائدة ترجى منها» .

واستقامت مامي في وقفتها ، ثم جففت دموع عينيها المنهمرة :

ـ «وغاب وعيها يا آنسة سكارلت ، وحتى ذلك الطبيب الشمالي اللطيف لم يستطع عمل شيء من أجلها . لم تعد تميز شيئاً البتة . قدمت إليها وتحدثت معها ولكنها لم تعرف حتى مربيتها» .

ـ «هل حدث وذكرت اسمي ـ أو نادتني؟» .

ـ «لا يا حلوتي . ظنت نفسها مجرد فتاة صغيرة لا تزال كما كانت في سافانا ، فلم تدع أحداً باسمه» .

وهنا تحركت دلسي وأضجعت الطفل النائم على ركبتيها :

ـ «أجل يا سيدتي ، نادت شخصاً» .

ـ «أغلقي فمك أيتها الزنجية الهندية» والتفتت مامي نحو دلسي بقسوة متوعدة .

ـ «اصمتي يا مامي . من نادت يا دلسي؟ أبي !؟» .
ـ «لا ، ليس والدك . كان ذلك في الليلة التي احترق القطن عندما . .» .
ـ «هل احترق القطن !؟ أنبئيني بسرعة؟» .
ـ «نعم يا سيدة ، احترق كله . دحرجه الجنود خارج الحظيرة إلى الساحة الخلفية وأخذوا يصيحون «هنا سنشعل أكبر حريق في جورجيا» والتهمته النيران» .

نتاج ثلاث سنين من القطن المخزون ! مائة وخمسون ألف دولار ضاعت كلها في شعلة واحدة !

ـ «وأضاءت النار المكان كما لو كان الوقت نهاراً ـ وخشينا على البيت أن يحترق أيضاً ، وتلألأت الأنوار هنا في هذه الغرفة بحيث كان بوسعك تقريباً التقاط الإبرة عن الأرض . وعندما شع النور من النافذة ، ظهر كأن السيدة إيلين استيقظت ، ثم جلست معتدلة في سريرها ، وصاحت بصوت مرتفع مرة بعد مرة «فيليب ! فيليب !» ولم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل ، إلا أنه كان اسم إنسان وكانت هي تناديه» .

وقفت مامي كما لو أنها انقلبت إلى تمثال حجري ، وقفت ترمق دلسي ، ولكن سكارلت أسقطت رأسها بين يديها : فيليب؟ من هو هذا الإنسان؟ وماذا كانت علاقته بأمي ، حتى إنها ماتت وهي تنادي باسمه؟ !

*

ها قد انتهت الطريق الطويلة من أتلانتا إلى تارا ، انتهت إلى سور منيع عظيم ، الطريق التي كانت ستنتهي بذراعي إيلين ، ولن يسع سكارلت بعد اليوم أن تنام كطفلة آمنة تحت سقف والدها ، بحماية حب أمها ، يكتنفها كما يكتنفها اللحاف . ليس هناك أمان أو ملجأ تستطيع أن تأوي إليه الآن . لن يستطيع الثناء أو العطف أن يجنبها هذه النهاية الميتة التي انتهت إليها ، فليس من أحد تستطيع أن تضع أعباءها على كتفيه . كان أبوها عجوزاً مصروعاً ، وكانت شقيقتاها مريضتين ، وميلاني هزيلة ضعيفة ، والأطفال عاجزين ، والزنوج يتطلعون إليها بثقة كثقة الأطفال ، يتعلقون بأهدابها مدركين أن ابنة إيلين ستكون الملجأ الذي كانته إيلين دوماً .

وعبر النافذة ، وفي الضوء الباهت يبعثه القمر الصاعد إلى كبد السماء ،

امتدت تارا أمام عينيها وقد هجرها الزنوج وأقحلت مزارعها ودمرت مخازن غلالها ، امتدت كجسد ينزف دماً ، كجسدها ينزف الدم بطيئاً . . . تلك كانت نهاية الطريق : رجل مسن يرتجف وهناً ، مرضى ، أفواه جائعة ، أيد عاجزة تتمسك بأهدابها . . . لم يكن يوجد شيء في نهاية تلك الطريق ـ أي شيء ، سوى سكارلت أوهارا هاملتون ـ أرملة وطفل في التاسعة عشرة من عمرها .

ماذا ستفعل ! إن بوسع العمة بيتي بات وآل بور في ميكون احتضان ميلاني وطفلها ، وإذا ما شفيت الفتاتان ، فستأخذهما عائلة إيلين في سافانا ، سواء أرغبت في ذلك أم لم ترغب ، أمّا هي وجيرالد ، فبإمكانهما الالتجاء إلى العمين جيمس وأندرو .

ونظرت إلى الهيكلين النحيلين ، يتقلبان أمامها ، وقد بدت الشراشف حولهما قاتمة رطبة بفعل الماء المنقط عليها . إنها لم تحب سولين ، وإنها لترى ذلك واضحاً أمامها الآن بشكل مفاجئ ، إنها لم تحبها أبداً في حياتها ، وهي لم تحب كارين بصورة خاصة ـ فليس بوسعها محبة أي إنسان ضعيف . ولكنهما من دمها ، جزء من تارا ، لا ، ليس بوسعها تركهما تقضيان بقية حياتهما في بيتي خالتيهما كالأقرباء الفقراء . أيكون أوهاري قريباً فقيراً يعيش على خبز الإحسان والذل ! لا ! أبداً ، إن هذا لن يكون .

أليس من مهرب من هذه النهاية الميتة؟ ! وتحرك دماغها المتعب ببطء شديد ، ورفعت يديها لرأسها بتوان بالغ ، كما لو كان الهواء ماء تغالبه يداها . وتناولت القرعة من بين الكأس والقارورة ، ونظرت داخلها . كان يوجد بعض الويسكي في القعر ، ولكن لم يكن بوسعها تبين مقداره بسبب الضوء المرتعش . واستغربت كيف أن الرائحة القوية لم تؤذ منخريها الآن . وشربت ببطء ، ولكن السائل لم يشتعل هذه المرة ، وإنما تبع ذلك دفء خفيف وحسب .

وضعت سكارلت القرعة الفارغة ، ثم تطلعت حولها ، وبدا كأن كل ما حولها كان حلماً ، فهذه الغرفة المعتمة المليئة بالدخان ، وهاتان الفتاتان النحيلتان ، ومامي الكالحة الهيئة ، الجالسة القرفصاء بجانب السرير ، ودلسي الهيكل البرونزي الساكن وعلى صدرها الأسود الطفل الصغير المورد النائم ـ كل هذا كان حلماً ستستيقظ منه لتشم رائحة لحم الخنزير المشوي تنبعث من المطبخ ، ولتسمع ضحك الزنوج الحاد ، وصرير العربات وهي تخطر نحو

الحقل ، ولتحس يد أمها الملحة الرقيقة توقظها .

ثم اكتشفت أنها كانت في غرفتها ، وعلى سريرها ، وضوء القمر الباهت تشق خيوطه الظلام ، بينما راحت مامي ودلسي تنزعان ثيابها ، ولم يعد المشد المضني يؤلم خصرها ، واستطاعت التنفس بعمق وهدوء حتى عمق رئتيها ، وحتى أسفل بطنها . وأحست بجوربيها ينزعان برفق عن ساقيها ، وسمعت مامي تدمدم أصواتاً مبهمة مواسية ، وهي تغسل قدميها المتنفطتين . ما أبرد الماء ! وما ألذ أن يستلقي المرء هنا متنعماً كالطفل ! وتنهدت واسترخت ، وبعد فترة قد تكون سنة ، وقد تكون دقيقة ، تركت وحدها ، بينما زاد تألق الغرفة عندما انسابت أشعة القمر عبر السرير .

ولم تعرف أنها مخمورة ،مخمورة بالإعياء والويسكي ، وإنما عرفت فقط أنها تركت جسدها المضني ، وطافت فوقه في مكان ما حيث لا ألم ولا ضنى ، وحيث غدا دماغها يرى الأشياء بوضوح لا عهد للبشر به .

لقد غدت ترى الأشياء بعينين جديدتين ، لأنها في مكان ما على الطريق الطويلة المؤدية إلى تارا ، قد تركت فتوتها خلفها ، ولم تعد بعد طيناً لدناً ، يستسلم طواعية أمام كل تجربة جديدة . لقد تصلب الطين في ساعة من ساعات هذا اليوم اللانهائي الذي دام ألف سنة . وإن هذه الليلة هي الليلة الأخيرة التي ستدلل بها كطفلة . لقد أضحت امرأة الآن ، أما الشباب فقد ذهب .



سكارلت ومامي

25

شعرت سكارلت في صباح اليوم التالي بجسدها متصلباً متألماً من جراء المشي والترنح في العربة مسافة الأميال الطويلة، حتى إن كل لحظة كانت وكأنها سكرة من سكرات الموت بالنسبة إليها. كان وجهها قرمزي اللون قد لوحته الشمس، وكانت راحتاها المنفطتان مقرحتين، وكان لسانها أبيض، وحلقها جافاً محترآً كأن اللهيب لفحه ولن تستطيع أي كمية من الماء نقع غلّه. وأحست برأسها متورماً، وتألمت حتى وهي تدير عينيها، ولم تستطع احتمال حتى رائحة البطاطا المشوية الموضوعة على مائدة الفطور نظراً لتقززها الناجم عن فساد معدتها، الأمر الذي ذكرها بأيام الحمل. وكان بوسع جيرالد أن يخبرها أنها كانت تعاني الأثر الطبيعي لأولى تجاربها في تعاطي الشراب المسكر، ولكنه لم يلحظ شيئاً. لقد كان يجلس على رأس المائدة، مجرد رجل مسن شائب الشعر، بعينين ذاويتين شاردتين مسمرتين على الباب، وبرأس شامخ قليلاً، ينتظر سماع حفيف تنورة إيلين وشم رائحة ليمون حقيبتها.

وعندما جلست سكارلت إلى المائدة سمعته يغمغم: «سننتظر السيدة أوهارا، لقد تأخرت». وعندئذ رفعت رأساً مصدوعاً، ونظرت إليه مجفلة غير مصدقة، والتقت عيناها بعيني مامي المتوسلتين، وكانت هذه تقف خلف كرسيه. ثم نهضت سكارلت بتثاقل، ويدها على بلعومها، ونظرت إلى والدها في ضياء شمس الصباح، وتطلع هو إليها، فرأت أن يديه ترتجفان وأن رأسه يرتعش قليلاً.

لم تكن قد تبيّنت، حتى هذه الدقيقة، إلى أي مدى كانت قد عولت على أبيها في إدارة الأمور، وفي إبلاغه إياها ما ينبغي عمله، وها هو الآن ـ عجباً، لقد بدا في الليلة الماضية طبيعياً تقريباً. نعم، لم يكن به شيء من العنجهية والحيوية ولكنه، على الأقل، أنبأها قصة محبوكة... أما الآن ـ الآن، فإنه لا يتذكر حتى أن إيلين ميتة... لقد أذهلته الصدمة المضاعفة الناجمة عن قدوم الشماليين وموت زوجته. وبدأت سكارلت بالكلام، ولكن مامي هزت رأسها بعنف رافعة مريلتها إلى أعلى، وماسحة عينيها الحمراوين بها.

ـ «آه ، أيمكن أن يكون أبي قد فقد عقله؟» هجست سكارلت وهي تشعر أن رأسها الدائخ يكاد يتصدع بوطأة هذ العبء الجديد . . . «لا ، لا ، إنه فقط زائغ شارد اللب بفعل كل الذي حدث . إن الأمر يبدو كما لو أنه مريض . . سيجتاز الأزمة . . . بل ينبغي أن يجتازها . . . وماذا سأعمل إن هو لم يجتزها؟ ـ لن أفكر بذلك الآن . لن أفكر به الآن أو بأمي أو بأي من هذه الأمور المريعة ! لا ، لا . . إلى أن أستطيع احتمالها . . . إن هناك أموراً كثيرة جداً لأفكر بها الآن ـ أموراً يمكن معالجتها دون أن أفكر بتلك التي لا أستطيع احتمالها» .

انسحبت من غرفة الطعام دون أن تأكل شيئاً ، وخرجت إلى الشرفة الخلفية ، وهناك وجدت بورك حافي القدمين ، يرتدي البقايا الرثة لأحسن بذلة عنده . كان يجلس على الدرجات وهو يقشر الفول السوداني . أمّا هي فكان رأسها يطرق وينبض ، واسعة الشمس المتلألئة تلتمع بعينيها . لقد كان مجرد الاحتفاظ بجسدها منتصباً يتطلب مجهوداً ثابتاً ، ولذلك خاطبت بورك بأوجز عبارة ممكنة ، مستغنية عن أساليب المجاملة التي كانت إيلين تعلمها إياها دائماً ، لتستعملها مع الزنوج .

طفقت تسأل أسئلة فظة جداً ، وتصدر أوامر نهائية مبرمة ، حتى إن بورك رفع حاجبيه حائراً . . . فالسيدة إيلين لم تكن تتكلم يوماً مع أي إنسان بمثل هذا الإيجاز المقتضب ، حتى ولا عندما كانت تقبض عليهم يسرقون الفراخ والبطيخ . وها هي سكارلت تسأل مرة ثانية عن الحقول والجنائن والمواشي ، وعيناها تتألقاه ببريق حاد ، لم يره بورك فيهما من قبل .

ـ «أجل يا سيدتي ، لقد مات الحصان ، هو ذا ممدد هناك حيث ربطته ، وقد تدلى خطمه في دلو الماء الذي قلبه بنفسه . لا يا سيدتي ، لم تمت البقرة . ألم تعرفي بذلك؟ لقد ولدت عجلاً في الليلة الماضية ، وكان ذلك سبب خوارها المستمر» .

ـ «ستصبح ابنتك برسي قابلة ماهرة» علقت سكارلت بتهكم لاذع «لقد قالت إن خوار البقرة كان بسبب حاجتها إلى الحلب» .

ـ «حسناً ، إن برسي لا تريد أن تصبح قابلة أبقار يا آنسة سكارلت» أجاب بورك بلباقة «وليس من فائدة ترجى من التملق في قبول النعم ، فذلك العجل سيعني بقرة تامة وكمية وافرة من القشدة للآنستين ، المادة التي قال الطبيب

الشمالي إنهما بحاجة إليها» .

ـ «حسناً . . استمر في حديثك ، أي حيوانات بقيت لنا؟» .

ـ «لا ، لا شيء سوى خنزيرة هرمة وخنانيصها ، كنت قد سقتها جميعاً إلى العراء يوم وصول الشماليين ، ولكن الله وحده يعرف كيف نستطيع الحصول عليها الآن ، فتلك الخنزيرة شرسة» .

ـ «سنحصل عليها فوراً ، بوسعك أن تنطلق وبرسي حالاً وتصيداها» .

فانذهل بورك ساخطاً .

ـ «آنسة سكارلت ، تلك مهمة عامل الحقل ، ولقد كنت دائماً زنجياً بيتياً» .

فبدا كأن شيطاناً صغيراً يحمل ملقطاً حاراً انتصب خلف بؤبؤي عيني سكارلت :

ـ «كلاكما ستقبضان على الخنزيرة ـ أو اخرجا من هنا كما خرج عمال الحقل» .

فاغرورقت عينا بورك المكلومتين بالدموع . . . آه ، حبذا لو كانت السيدة إيلين هنا ! إنها تدرك مثل هذه الأمور الدقيقة ، وتدرك الهوة الواسعة بين واجبات عامل الحقل وواجبات زنجي البيت .

ـ «أخرج ، يا آنسة سكارلت؟ إلى أين أخرج يا آنسة سكارلت؟» .

ـ «لا أعرف ، ولا أبالي ، غير أن كل إنسان في تارا لا يريد أن يعمل بوسعه الذهاب ليلحق بالشماليين . . . وبإمكانك إبلاغ هذا الكلام للآخرين أيضاً» .

ـ «سمعاً وطاعة» .

ـ «والآن ، ماذا عن الذرة والقطن يا بورك؟» .

ـ «الذرة؟ يا لله يا آنسة سكارلت ، لقد رعوا خيولهم في حقول الذرة ، ثم حملوا معهم ما لم تستطع خيولهم أكله أو إتلافه ، كما أنهم ساقوا مدافعهم وعرباتهم فوق شجيرات القطن حتى تلف جميعه ، سوى فدادين قليلة هناك في أسفل الوادي لم يلحظوها . غير أن ذلك القطن لا يستحق التعب في سبيله ، لأنه لا يزيد عن ثلاث بالات» .

«ثلاث بالات» . وفكرت سكارلت بعشرات البالات التي كانت تنتجها تارا عادة ، وازداد رأسها تصدعاً . . . ثلاث بالات ، أي أكثر بقليل مما ينتجه آل سلاتري العديمو الحيلة . وفي سبيل أن تتفاقم الأمور سوءاً ، كانت هناك مشكلة

الضرائب . فحكومة الحلف كانت تتقاضى الضرائب قطناً عوضاً عن المال . ولكن البالات الثلاث لن تكفي حتى لتسديد الضرائب ، مع أن القضية لم تعد ذات بال بالنسبة إليها أو إلى الحلف ، نظراً لأن جميع عمال الحقل قد فروا ، وليس من يقطف القطن الآن .

ـ «على كل حال ، لن أفكر بذلك الأمر أيضاً» حدثت نفسها ، فالضرائب ليست من شؤون المرأة بحال من الأحوال ، ومن واجب أبي الاهتمام بأمور كهذه . . . ولكن أبي ـ لن أفكر بأبي الآن . . . وليصنع الحلف ما يشاء من أجل ضرائبه . إن ما تحتاج إليه الآن هو الطعام .

ـ «بورك ! هل ذهب أحدكم إلى تولف أوكس أو إلى مزرعة آل ماك أنتوش ليرى إذا كان بقي شيء فيها» .

ـ «لا يا سيدة ، نحن لم نغادر تارا ، وإلاّ قبض الشماليون علينا» .

ـ «سأرسل دلسي إلى مزرعة آل ماك أنتوش ، لعلها تجد شيئاً هناك ، وسأذهب أنا إلى تولف أوكس» .

ـ «برفقة مَن؟» .

ـ «وحدي . ينبغي بقاء مامي إلى جانب الفتاتين المريضتين ، ولن يستطيع السيد جيرالد ـ» .

أطلق بورك صيحة عالية أثارت سخط سكارلت . . . قد يكون هناك شماليون أو زنوج أوغاد في تولف أوكس . . فينبغي أن لا تذهب وحدها .

ـ «يكفي يا بورك ، أخبر دلسي أن تنطلق فوراً ، واذهب أنت وبرسي واجلبا الخنزيرة وخنانيصها» قالت باقتضاب واستدارت على عقبيها .

كانت قبعة مامي الصيفية ، الباهتة النظيفة ، معلقة على المشجب في الشرفة الخلفية ، فوضعتها سكارلت على رأسها ، وتذكرت ، كما لو كانت الذكرى من عالم آخر ، القبعة ذات الريشة الخضراء المتدلية ، التي جلبها لها ريت من باريس ، ثم التقطت سلة سنديان كبيرة ونزلت الدرجات الخلفية ورأسها يرج فوق كل درجة ، حتى أحست بأن سلسلتها الفقرية تحاول أن تنفذ من أعالي جمجمتها .

كانت الطريق المنحدرة إلى النهر تمتد حمراء لافحة بين حقول القطن التي عيث بها فساداً ، ولم يكن هناك أشجار مظللة ، فراحت الشمس تخترق قبعة

مامي التي غدت وكأنها مصنوعة من الموسلين المخرّم ، بدلاً من الخام المضرب الثقيل ، بينما كان الغبار المتطاير إلى أعلى يتسرب داخل منخريها وحنجرتها ، حتى شعرت أن الأغشية المخاطية ستتشقق من الجفاف إن هي تكلمت . كانت الطريق مليئة بالأثلام والحفر العميقة حيث جرّت الخيول المدافع الثقيلة فوقها ، وكانت الأخاديد الحمراء على كلا الجانبين قد عمقتها الدواليب ، وكان القطن مدوساً ممزقاً ، حيث زحف المشاة والفرسان خلال شجيرات القطن الخضراء ، في الطريق الضيقة التي شقتها لهم المدفعية ، فانسحقت النباتات والتصقت بالأرض . وقد تناثرت هنا وهناك ، فوق الطريق وفي الحقول ، أبازيم ومزق من جلد عدد الخيل ومطرات داستها الحوافر وعربات الذخيرة ، كما تناثرت أيضاً أزرار وقبعات زرقاء وجوارب بالية وقطع من خرق دامية ، كل المخلفات المتبقية وراء جيش زاحف .

وتجاوزت سكارلت أجمة أشجار الأرز وجدار الآجر المنخفض الذي يحدد مقبرة العائلة ، وحاولت أن لا تفكر بالقبر الجديد القائم قرب القبور القصيرة الثلاثة لإخوانها الصغار . . . آه ، إيلين ـ وعبرت فوق التلة الغبراء ، مارة بكومة الرماد ، وبالمدخنة القصيرة الضخمة ، حيث كان يقوم منزل آل سلاتري . واجتاحتها رغبة عنيفة لو كانت كل قبيلة آل سلاتري جزءاً من هذا الرماد . . . آه لولا آل سلاتري ـ لولا إيمي النتنة تلك ، التي ولدت ابناً غير شرعي من ناظر تارا ـ لما ماتت إيلين .

وأنّت سكارلت عندما خدشت حصاة مدببة الرأس قدمها . . . ماذا كانت تعمل هنا؟ لماذا كانت سكارلت أوهارا ، حسناء الولاية وفخر تارا الأمنة ، تتعثر فوق هذه الطريق الوعرة ، حافية القدمين تقريباً؟ إن قدميها الصغيرتين خلقتا للرقص لا للعرج ، وكذلك خفاها الأنيقان قد صنعا ليبدوا بكبرياء من تحت الحرير الزاهي ، لا ليجمعا التراب والحصى المدبب الرؤوس . لقد ولدت لتدلّل وتخدم . . . ولكن ها هي هنا الآن مريضة رثة الثياب يسوقها الجوع للبحث عن الطعام في حدائق جيرانها .

كان النهر جارياً عند أسفل التلة الطويلة الجانب ، وما كان أسكن وأنعش هواء الأشجار المتشابكة فوق مياهه . وتهالكت سكارلت على الضفة المنخفضة ، ونزعت بقايا خفيها وجوربيها ، ثم دست قدميها الملتهبتين في الماء البارد . . .

سيكون من الممتع جداً أن تجلس هنا طوال النهار بعيدة عن الأعين العاجزة في تارا . . . هنا حيث لا يشق السكون سوى حفيف الأوراق وخرير المياه البطيئة . . . غير أنها عاودت ارتداء جوربيها وحذاءها كارهة ، ومشت بوهن على الضفة ذات الطحلب الإسفنجي ، تحت الأشجار الظليلة . وكان الشماليون قد حرقوا الجسر ، ولكنها كانت تعرف جسراً خشبياً يستعمله المشاة ، عبر نقطة ضيقة من مجرى النهر على بعد مائة ياردة جنوباً . عبرت هذا الجسر حذرة ، ثم راحت تدب بقدميها صعوداً على سفح التلة ، لتقطع في أشعة الشمس الحارة نصف الميل الذي يفصلها عن تولف أوكس .

هناك كانت تنتصب السنديانات الاثنتا عشر شامخة كالأبراج كما انتصبت منذ أيام الهنود ، ولكنها الآن تنتصب بأوراقها التي قتمتها النيران وأغصانها الملفوحة المحترقة ، وضمن دائرتها يتراكم حطام منزل جون ويلكس . . . البقايا المتفحمة لذلك البيت الفخم فيما مضى ، الذي كان يتوج التلة بوقار يقوم على أعمدة بيضاء . وكانت الحفرة العميقة التي كانت سرداباً في السابق والأسس الحجرية المسودة والمدختنتان الضخمتان ، كانت جميعها تحدد موقع البيت . وكان أحد الأعمدة الطويلة ، المحترق نوعاً ما ، قد هوى عبر المرجة ، ساحقاً شجيرات الياسمين العالية .

جلست سكارلت على العمود ، وقد أمضها المنظر ، فلم تستطع متابعة السير . واخترقت وحشة المكان قلبها بشكل لم تعرف مثله . . . هنا ترقد كبرياء آل ويلكس في التراب عند قدميها ، هنا كانت نهاية المنزل الكريم الطيب الذي كان يرحب بها دائماً . . المنزل الذي تلهفت في أحلامها العميقة إلى أن تكون سيدته . . . هنا كانت قد رقصت وأكلت وغازلت ، وهنا كانت قد راقبت ، بعينين حسودتين وبقلب حقود ، ابتسام ميلاني لآشلي . . . وهنا أيضاً في ظلال الأشجار المعتدلة الهواء ، ضغط تشارلز هاملتون على يدها طروباً عندما قالت إنها ستتزوجه .

ـ «آه ، آشلي» تمتمت «أرجو أن تكون ميتاً ! فلن يسعني أبداً احتمال قدومك ومشاهدتك لهذا الدمار . . .» .

لقد تزوج آشلي عروسه هنا . . .ولكن ابنه وحفيده لن يحضرا عروسيهما إلى هذا المنزل . . ولن يحدث أو يتم زواج أولاده تحت هذا السقف الذي أحبته

كثيراً وتاقت لتكون ربته . كان المنزل ميتاً ، وتراءى لها كأن جميع الويلكسيين موتى تحت التراب .

ـ «لن أفكر بهذا الآن ، فأنا لن أستطيع احتمال التفكير به . . . سأفكر به فيما بعد» قالت بصوت مسموع ، مشيحة بوجهها بعيداً . .

وقصدت الحديقة ومشت تعرج حول الركام إزاء أحواض الورود التي كانت بنات آل ويلكس يحافظن عليها ، ثم عبرت الساحة الخلفية ، ومنها عبر بقايا بناء الطهو ، فالأهراء وأقنان الدجاج . وكان حاجز القضبان الحديدية الذي يكتنف حديقة المطبخ قد هدم ، كما أن صفوف النباتات الخضراء المنسقة فيما مضى قد عانت المعاملة ذاتها التي عانتها مثيلاتها في تارا . وكانت التربة الطرية محفوفرة بمواطئ الحوافر والعجلات الثقيلة ، بينما كانت الخضار مسحوقة في التراب . . ولم يكن يوجد شيء تستفيد منه هنا . ورجعت أدراجها عبر الساحة ، واتخذت طريقها في الممر المؤدي إلى صف الغرف المبيضة الساكنة في الأطراف . وفيما كانت تسير صاحت «أمن أحد هنا !» غير أنها لم تسمع جواباً . . حتى ولا نباح كلب . . كان من الجلي أن زنوج آل ويلكس قد فروا أو تبعوا الشماليين ، وكانت سكارلت تعرف أن كل زنجي كان يملك رقعة صغيرة من الحديقة ، فعندما بلغت الغرف أملت أن تكون هذه الرقع الصغيرة المزروعة قد سلمت من الدمار .

وأثمر بحثها . . . غير أنها كانت تعبة جداً بحيث لم تشعر بالسرور عند رؤية اللفت والملفوف الذابلين من جراء العطش الشديد ، المنتصبين بعض الشيء رغم ذلك . وكذلك رأت نبات الفاصوليا المنتشر والفول ، مصفرين لكنهما صالحان للأكل . وجلست بين الأتلام وراحت تحفر التراب بيدين مرتجفتين ، وملأت سلتها ببطء . . . ستنعم تارا بوجبة طعام جيدة هذه الليلة ، على الرغم من نقص اللحم الذي يسلق مع الخضار . . . ربما أمكن استعمال بعض دهن الخنزير ، الذي تستعمله دلسي للإنارة ، كي يدسم الطعام . ينبغي إخبار دلسي أن تستعمل براعم الصنوبر للإنارة في سبيل توفير الدهن للطهو .

وعلى مقربة من العتبة الخلفية لإحدى الغرف وجدت صفاً صغيراً من الفجل ، وفجأة أحست بالجوع ينهش معدتها . . . إن فجلة حادة لاذعة الطعم هي ما تشتهيه معدتها تماماً ، وبالكاد تصبرت حى مسحت التراب بتنورتها عن

الفجلة ثم قضمت نصفها وابتلعتها بسرعة . كانت فجلة قديمة يابسة حادة الطعم بحيث اغرورقت عيناها بالدموع ، ولم تكد القطعة المقضومة تبلغ معدتها الفارغة المهتاجة حتى ثارت كوامن هذه واستلقت سكارلت على التراب تتقيأ بعناء .

وزادت الرائحة الخفيفة المنبعثة من غرف الزنوج في لعيان نفسها ، واستمرت تتقيأ بصورة مزرية ، وهي لا تملك القوة على إيقاف هذا القيء ، بينما كانت الغرف والأشجار تدور من حولها .

وبعد فترة طويلة ، استلقت متخاذلة على وجهها ، التراب تحتها لين مريح كوسادة من ريش ، وعقلها يتجه مجهداً هنا وهناك . . . ها هي ، سكارلت أوهارا ، تضطجع خلف غرفة زنجي في وسط الدمار ، وهي مريضة جداً ، ضعيفة جداً ، بحيث لا تقوى على الحركة ، ولا يعرف بحالها أحد في الدنيا ، بل إن أحداً لن يأبه لها إذا ما علم بأمرها ، لأن لكل إنسان متاعبه الكثيرة بحيث لن يجزع من أجلها . . . كل هذا كان يحدث لها ، فهي ، سكارلت أوهارا ، التي لم ترفع يوماً يدها حتى لتتناول جوربيها المرميين على الأرض ، أو لعقد شريطي خفيها ـ سكارلت التي ما كانت لتصاب بصداع خفيف أو يضطرب مزاجها حتى يغالي الجميع في تدليلها والترفيه عنها .

وفيما هي تضطجع منطرحة على الأرض ، ضعيفة جداً بحيث لا تستطيع أن تطرد الذكريات والمنغصات ، اندفعت هذه نحوها بقوة ، وأحاطت بها إحاطة الصقور بفريسة تنتظر الموت ، فلم يعد بمقدورها أن تقول «سأفكر بأمي وأبي وآشلي وكل هذا الدمار فيما بعد . أجل فيما بعد ، حين أقوى على احتمال ذلك» . لم يكن بوسعها الآن احتمال التفكير بهذه الأمور ، ولكنها انساقت إلى التفكير بها ، شاءت ذلك أم أبته . وتحلقت الأفكار في رأسها ، وانقضت عليها وأنشبت براثن قاطعة ومناقير حادة في عقلها . . . وهكذا ظلت مستلقية بلا حراك مدة مديدة ، وجهها في التراب ، والشمس تلفحها بحرارتها الملتهبة ، وهي تتذكر الأحداث والناس الذين قضوا ، وتتذكر نمطاً من الحياة انقضى إلى الأبد ـ وتتأكل المرحلة القاسية التي سيحملها المستقبل المظلم .

وعندما نهضت أخيراً ، ورأت حطام تولف أوكس الأسود ثانية ، شمخ رأسها إلى العلاء ، وغاض من وجهها إلى الأبد عنصر الشباب والجمال والرقة

الكامنة . إن الذي فات مات ، وإن الذين قضوا مضوا ، وإن الرفاهية الرتيبة التي زانت الأيام الخالية قد ذهبت ولن تعود . وفيما هي تركز السلة الثقيلة على ذراعها ، كانت قد حزمت أمرها وقررت مصير حياتها . لم يكن هناك عودة إلى الماضي : كانت تسير قدماً .

ورنت إلى الحجارة السوداء ، وللمرة الأخيرة رأت تولف أوكس ينتصب أمام ناظريها كما كان في يوم مضى ، غنياً فخوراً ، رمزاً لجنس وأسلوب حياة . ثم انطلقت فوق الطريق إلى تارا ، والسلة الثقيلة تحز في جلد ذراعها .

وعض الجوع معدتها الفارغة ثانية ، وقالت بصوت مرتفع «ليكن الله شهيدي ، ليكن الله شهيدي ، لن يسحقني الشماليون ، سأعيش رغم هذه المحنة ، وبعد انكشافها ، لن أجوع ثانية ، لا ولا أي من رعاياي ، حتى لو اضطررت إلى السرقة أو إلى القتل - ليكن الله شهيدي ، لن أجوع ثانية» .

*

رغم أن الدنيا كانت تقع على بعد أميال قليلة وحسب ، إلا أن ألف ميل من العثرات والحواجز يمكن أن يكون قد امتد بين تارا وجونسبورو وفايتفيل ولفجوي ، وحتى بين تارا والمزرعة المجاورة ، ففي الأيام التي تلت ،كان يمكن اعتبار تارا جزيرة روبنسون كروزو الموحشة ، إذ غدت ساكنة جداً ، وفي عزلة تامة عن بقية الدنيا . وبموت الحصان الهرم فقدت العائلة الوسيلة الأخيرة للتنقل ، ولم يكن ليوجد الوقت أو القدرة على قطع الأميال الحمراء المنهكة مشياً على الأقدام .

كانت سكارلت ، خلال أيام العمل القاصم للظهر ، والنضال اليائس من أجل القوت ، وفي أثناء العناية الدائمة المستمرة بالفتيات الثلاث المريضات ، تجد نفسها مرهفة أذنيها لسماع أصوات أليفة - ضحك الزنوج في مساكنهم ، مدير العربات العائد من الحقول ، صهيل حصان جيرالد الفحل وهو يعبر المرعى ، قرقعة دواليب العربات في الممشى ، أصوات الجيران القادمين لقضاء أمسية ، غير أنها كانت تصغي عبثاً . كانت الطريق تمتد ساكنة مهجورة ، وليس من سحابة غبار أحمر تعلن عن اقتراب زوار . كانت تارا بمثابة جزيرة في بحر من التلال الخضراء المتموجة والحقول الحمراء .

وفي مكان ما ، كانت توجد الدنيا والعائلات التي تأكل وتنام آمنة تحت

سقوف بيوتها ، في مكان ما كانت الصبايا يرتدين أثوابهن المقلوبة للمرة الثالثة ، يغازلن هنيئات ويغنين «حين تنتهي هذه الحرب الضروس» كما غنت هي منذ أسابيع قليلة فقط . في مكان ما ، كانت توجد حرب ومدفعية تدوي وتحرق المدن والرجال الذين تتأكل أجسادهم في المستشفيات وسط الروائح النتنة المرضة . في مكان ما ، كان يوجد جيش حافي الأقدام في ثياب قذرة محلية الصنع ، يزحف ويحارب وينام جائعاً خائر القوى ، يتردى بالخذلان الذي ينتاب المرء عندما يفقد الأمل ، وفي مكان ما ، كانت تلال جورجيا مزرقة بالشماليين ، الشماليين الحسني التغذية ، الذين يمتطون خيولاً متخمة بطونها بالذرة .

وراء تارا ، كانت الحرب وكانت الدنيا ، ولكن الحرب والدنيا لم تكونا موجودتين في تارا إلاّ كذكريات ينبغي طردها ساعة تهرع إلى العقل في لحظات التعب الشديد . كانت الحياة قد قررت ذاتها في فكرتين متصلتين : القوت وكيفية الحصول عليه . القوت ! القوت ! لماذا تحتفظ المعدة بذكرى أطول بقاء من ذكريات العقل؟ لقد كان بوسع سكارلت طرد آلام قلبها الكسير ، ولكن لم يكن بوسعها طرد آلام الجوع . وفي كل صباح ، وفيما هي تضطجع نصف نائمة ، وقبل أن تعيد الذاكرة لتفكيرها موضوع الحرب والجوع ، كانت تتثنى ناعسة متوقعة شم الروائح الشهية تنبعث من لحم الخنزير المشوي والكعك المخبوز . وكانت كل صباح تتنشق عميقاً جداً لتشم الطعام حقيقة ، بحيث كانت توقظ نفسها .

على المائدة في تارا كان يوجد تفاح وبطاطا وفول سوداني وحليب ، ولكن لم يكن هناك كمية كافية أبداً حتى من هذا القوت الأساسي ، وكانت سكارلت كلما رأت هذه الأصناف كلما عادت بالذاكرة سريعاً إلى الأيام الخالية ، إلى وجبات الأيام السعيدة ، إلى المائدة المضاءة بالشموع ، وإلى الطعام الذي كانت رائحته تفغم الأنوف .

ما كان أقل اهتمامهم بالقوت في ذلك الوقت ! وما كان أشدهم تبذيراً ! كانت ذكرى الأطعمة الشهية تستطيع جلب الدموع لعينيها ، بينما فشل الموت والحرب في إتيان ذلك . كان بوسع هذه الذكرى قلب معدتها الدائمة التعذيب ، من حالة الفراغ المصحوب بالقرقعة إلى حالة الغثيان ، لأن الشهية التي كانت مامي تندب من أجلها دائماً ، الشهية القوية لفتاة في التاسعة عشرة

من عمرها ، تضاعفت الآن أربع مرات من جراء العمل الخشن الذي لم تكن تعرفه سابقاً .

ولم تكن شهية سكارلت الشهية الوحيدة المتعبة في تارا ، فحيثما كانت تلتفت كانت عيناها تقع على وجوه جائعة ، سوداء وبيضاء ، وسرعان ما سينتاب الجوع الشره ، الذي يلازم فترة النقاهة من التيفوئيد عادة ، كلاً من كارين وسولين ، بينما كان ويد يبكي من قبل «ويد لا يحب البطاطا ، ويد جائع» .

وكان الآخرون يتذمرون أيضاً :

ـ «آنسة سكارلت ، ما لم أحصل على طعام أكثر ، فلن يكون بوسعي إرضاع أي من الطفلين» .

ـ «آنسة سكارلت ـ آنسة سكارلت . . إن لم آكل أكثر فلن أستطيع تكسير الحطب» .

ـ «يا حملي ، إنني أذوي نظراً لحاجتي إلى غذاء أساسي» .

«يا ابنتي ، هل لا بد لنا من تناول البطاطا أبداً؟» .

إلاّ أن ميلاني وحدها لم تتذمر ، ميلاني التي كان وجهها يزداد هزالاً وشحوباً ، وينتفض ألماً حتى في نومها .

ـ «أنا لست جائعة يا سكارلت ، أعطي حصتي من الحليب إلى دلسي . إنها بحاجة إليه كي ترضع الطفلين . . . إن المرضى لا يحسون بالجوع مطلقاً» .

هذه الشجاعة الرقيقة هي التي كانت تثير سكارلت أكثر مما كانت تثيرها أصوات الآخرين المتذمرة النكدة . كان باستطاعتها ـ وهذا ما فعلته ـ إسكاتهم بتهكمها اللاذع ، ولكنها كانت تقف عاجزة مستاءة أمام إيثار ميلاني . وكان جيرالد والزنوج وويد قد تعلقوا الآن بميلاني ، لأنها ، حتى وهي في ضعفها ، كانت ودودة رحيمة ، بينما لم تكن سكارلت تتحلى بشيء من هذا في هذه الأيام .

وكان ويد ، بصورة خاصة ، يلازم غرفة ميلاني . لقد انتاب الصبي شيء غير عادي ، ولكن لم يكن في حوزة سكارلت الوقت الكافي لاكتشاف حقيقة هذا الشيء ، وركنت إلى قول مامي بأن الطفل يعاني من الدود ، فجرعته مزيجاً من العشب ولحاء الشجر ، مزيجاً كانت إيلين تستعمله دوماً في علاج

الزنوج . غير أن دواء الديدان هذا جعل الطفل يبدو أكثر شحوباً . وكانت سكارلت هذه الأيام لا تكاد تفكر بويد كإنسان ، بل كان بنظرها مجرد عبء آخر ، فم آخر ليطعم . . . وفيما بعد عندما تنكشف هذه الغمة ، ستلعب وإياه ، ستقص عليه الأقاصيص ، وتعلمه الحروف الهجائية ، بينما هي الآن لا تملك الوقت ولا الرغبة في ذلك . . لقد كانت تزجره في أغلب الأحيان لأنه كان يتعثر دائماً بين قدميها ، وهي في منتهى الضيق والإعياء .

وكان يزعجها أن يجلب تأنيبها السريع له مثل هذا الرعب الشديد لعينيه المستديرتين ، فقد كان يبدو في غاية البله ساعة يتملّكه الرعب . ولم تدرك سكارلت أن الصبي الصغير يعيش جنباً إلى جنب مع فزع هائل أكبر من أن يدرك كنهه شاب يافع . كان الخوف يعيش مع ويد ، الخوف الذي يهز روحه ، ويجعله يستيقظ في الليل مولولاً . كان كل صوت غير متوقع ، وكل كلمة حادة ، تجعله يرتعد فزعاً ، لأن الأصوات والكلمات الحادة كانت في تفكيره مختلطة بصورة معقدة مع الشماليين الذين كان يخافهم أكثر مما يخاف قرصات برسي .

لم يكن ويد يعرف شيئاً غير الحياة الهادئة السعيدة المطمئنة ، إلى الوقت الذي بدأ فيه قصف مدافع الحصار ، ومع أن أمه لم تكن تعيره إلاّ القليل من الانتباه ، لم يخبر الصبي شيئاً إلاّ الدلال والكلمات الحنونة ، إلى أن حلت الليلة التي وثب فيها من نومه ليجد السماء ملتهبة والهواء يصم الآذان بالانفجارات . في تلك الليلة ، وفي اليوم الذي تلا ، صفعته أمه للمرة الأولى في حياته ، وسمع صوتها يزجره بكلمات قاسية . لقد انقرضت الحياة في البيت الآجري السعيد القائم في شارع بيتشتري ، الحياة الوحيدة التي عرفها ، انقرضت في تلك الليلة ، ولم يصح الفتى من صدمة فقدها ، ولم يسعه فهم شيء في أثناء الهرب من أتلانتا سوى أن الشماليين يلحقونه . وها هو لا يزال إلى اليوم يعيش في خوف من أن يقبض عليه الشماليون ، ويمزقوه إرباً إرباً . وكلما رفعت سكارلت صوتها لتعنيفه كلما كان يتخاذل من الرعب ، لأن مخيلته الفتية الغامضة كانت تذكره بأهوال المرة الأولى التي عنفته فيها . وهكذا أضحى الشماليون الآن مقترنين في تفكيره أبداً بصوت تعنيفها . ولذلك صار يخاف أمه .

ولم تستطع سكارلت احتمال رؤية ابنها وقد راح يتجنبها ، الأمر الذي كان يمضها كثيراً كلما فكرت به خلال الدقائق النادرة التي كانت تسمح بها واجباتها التي لا نهاية لها . لقد كان ذلك أسوأ من تعلقه بأهدابها طيلة الوقت ، وكان يغيظها أن يكون ملجأه سرير ميلاني ، حيث كان يلهو هادئاً بألعاب تقترحها عليه هذه ، أو يصغي لقصص تقصها عليه . وأحب ويد عمته الناعمة الصوت ، المبتسمة دائماً ، والتي لم تقل له يوماً «صه يا ويد ! لقد صدعت رأسي» أو «كف عن النكد يا ويد ، من أجل الله» .

لم يكن لدى سكارلت الوقت لتدليله أو الرغبة في ذلك ، لكنها كانت تغار عندما ترى ميلاني تفعل ذلك مع ابنها . وفي أحد الأيام عندما ألفته يقف على رأسه فوق سرير ميلاني ثم يسقط عليها ، صفعته قائلة :

ـ «ألا تعرف شيئاً أفضل من أن تهز عمتك هكذا ، في الوقت الذي هي فيه مريضة . هيا اخرج الآن إلى الساحة والعب هناك ، وإياك أن تدخل هنا ثانية» .

إلا أن ميلاني مدت ذراعاً ضعيفة وجذبت الطفل المولول نحوها .

ـ «كفى ، كفى يا ويد ، أنت لم تقصد أن تهزني ، أليس كذلك؟ إنه لا يضايقني يا سكارلت ، دعيه يمكث معي . دعيني أعتني به ، فهذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع عمله إلى أن أشفى ، وأنت مرهقة بالعمل» .

ـ «لا تكوني طفلة يا ميلي» قالت سكارلت باقتضاب «فأنت لا تتحسنين كما ينبغي ، ولن ينفعك وقوع ويد فوق معدتك . اسمع يا ويد ، إذا اتفق ووجدتك فوق سرير عمتك مرة ثانية فسأسلخ جلدك . كف عن تنشق مخاطك ، إنك دائم التنشق ، حاول أن تكون رجلاً صغيراً» .

لم يكن أحد يعارض سكارلت في هذه الأيام ، بل كانوا جميعاً يخشون لسانها اللاذع ، يخشون الإنسان الجديد الذي يمشي في جسدها .

كانت الآن تحكم متنفذة في تارا بحيث طفت غرائز طبيعتها العاتية إلى السطح . ولم يكن ذلك لأنها عديمة الرحمة أصلاً ، بل لأنها كانت خائفة جداً ، غير واثقة من نفسها ، فتشددت في حكمها لئلا يكتشف الآخرون عدم كفاءتها ويرفضوا سلطتها ، هذا فضلاً عن وجود بعض اللذة في الصياح على الآخرين ، ومعرفة أنهم خائفون ، واكتشفت سكارلت أن هذا التأمّر قد أراح أعصابها المرهقة . ولم تكن هي تجهل حقيقة تغير شخصيتها ، ففي بعض

الأحيان ، عندما كانت أوامرها المقتضبة تدفع بورك إلى أن يمد شفته السفلى ، ومامي إلى أن تدمدم قائلة «بعض الناس يحلقون عالياً جداً هذه الأيام» كانت تتساءل أين ذهبت أخلاقها الطيبة؟ كل الدماثة ، كل اللطف الذي جاهدت إيلين في سبيل تلقينها إياه قد زال منها سريعاً كما تسقط أوراق الأشجار في أول ريح خريفية باردة .

لقد كانت إيلين تردّد على مسامعها المرة تلو الأخرى «كوني حازمة مع من هم أقل منك شأناً ولكن بلطف ، خصوصاً مع الزنوج . ولكن إذا تلاطفت الآن ، سيجلس الزنوج في المطبخ طوال اليوم يتحدثون حديثاً لا ينتهي عن الأيام الجميلة الماضية ، عندما لم يكن يتوجب على زنجي البيت أن يقوم بعمل عامل الحقل» .

«أحبي وراعي شقيقتيك . كوني رحيمة مع المحزونين» . أظهري الرأفة بالمهمومين والمعذبين» . . هكذا كانت تقول أمها .

ولكن سكارلت لا تستطيع أن تحب شقيقتيها الآن ، فلقد كانتا مجرد عبء ثقيل على كاهلها ، وأما بصدد مراعاتهما . . أفلم تكن تحممهما ، تمشط شعريهما ، وتطعمهما حتى ولو اقتضى ذلك المشي مسافة أميال كل يوم في سبيل أن تجد لهما الخضار؟ ألم تكن تتعلم حلب البقرة ، حتى رغم أن قلبها كان يصل إلى حلقها دوماً عندما يوجه ذلك الحيوان المخيف قرنيه إليها؟ وأما أن تكون رحيمة فذلك مضيعة الوقت ، وإذا هي بالغت في الرحمة عليهما ، فمن المحتمل أن تطيلا مكثهما في السرير ، بينما هي تريدهما أن تنهضا بأسرع وقت ممكن حتى تضاف أربع أيد أخرى لمساعدتها .

كانت شقيقتاها تنقهان ببطء ، وكانتا تضطجعان في سريرهما نحيلتين ، ضعيفتين . ويوم كانتا في دور اللاوعي ، كانت الدنيا تتغير من حولهما ، فقد جاء الشماليون وفر الزنوج وماتت أمهما . ثلاثة أحداث يصعب تصديقها ، وبالفعل عجز عقلاهما عن استيعاب هذه الأحداث ، فكانتا تعتقدان ، أحياناً ، أنهما ما زالتا حتماً في طور الهذيان وأن هذه الأحداث لم تقع البتة . غير أن سكارل كانت قد تغيرت كثيراً ، إلى درجة لا يمكن تصديقها ، فعندما كانت تقف عند مقدمة سريرهما ، وتسرد العمل الذي تتوقع منهما القيام به بعد إبلالهما من المرض ، كانتا تنظران إليها كما لو كانت وحشاً . وكان مما لا يحده

إدراكهما حقيقة أن عائلتهما لم تعد تملك مائة عبد ليقوموا بالأعمال ، وأن سيدة من آل أوهارا يتوجب عليها القيام بعمل يدوي .

ـ «ولكن يا شقيقتي !» قالت كارين ووجهها الطفلي العذب ينبئ بالذعر «لا أستطيع تكسير الحطب ، فيداي ستتلفان» .

ـ «انظري إلى يدي» أجابت سكارلت بابتسامة مفزعة وهي تدفع راحتيها المنفطتين المقرّحتين نحو أختها .

ـ «أعتقد أنك مقيتة عندما تتحدثين إلى طفلة ، وإليّ ، بمثل هذا الحديث» ، صاحت سولين ، «أعتقد أنك تكذبين وتحاولين إفزاعنا . حبذا لو أن أمك حية ، إذاً لما تركتك تتحدثين إلينا بمثل هذا ! . . . تكسير الحطب ، حقاً !» .

نظرت سولين إلى أختها باشمئزاز وهي واثقة من أن سكارلت أعلنت هذه الأمور لتنفذ وحسب .

لقد كادت سولين تموت بدائها ، كما أنها فقدت أمها وعانت من الوحدة والخوف الشيء الكثير ، ولذا فإنها كانت تشعر برغبة في أن تدلل وترفه ، ولكن ها هي سكارلت بدلاً من ذلك تنظر كل يوم من مقدمة السرير ، تتأمل مدى تحسنها وشقيقتها ببريق جديد مقيت يشع من عينيها الخضراوين ، ثم تتحدث عن ترتيب الأسرّة وتحضير الطعام وحمل دلاء الماء وتكسير الحطب ، وتبدو كأنها مسرورة للإعلان عن هذه الأمور المقيتة .

والحقيقة أن سكارلت كانت تسر بذلك . فلقد كانت تنهر الزنوج وتجرح شعور شقيقتيها ، ليس فقط لأنها في غاية الجزع والإجهاد والتعب بحيث لا يسعها فعل أي شيء آخر ، بل لأن ذلك كان يساعدها على نسيان خيبتها المريرة الناجمة عن أن كل شيء لقنتها إياه أمها عن الحياة كان خطأ .

وفكرت سكارلت وهي يائسة : «لا ، لم تعلمني شيئاً ذا نفع ! ماذا ستفيدني الرحمة الآن؟ وأي قيمة للطف ! كان من الأفضل أن لو تعلمت الحرث أو قطاف القطن كالزنوج . آه يا أمي ، لقد كنت مخطئة» .

ولم تتريث لتفكر بأن دنيا أمها المنظمة قد ولت ، وأن دنيا وحشية قد حلت محلها ، دنيا تغيرت فيها كل القيم وكل المقاييس الاجتماعية . لقد رأت فقط ، أو اعتقدت أنها رأت ، أن أمها كانت مخطئة ، وأنها تحولت بسرعة لتواجه هذه الدنيا الجديدة التي لم تستعد لها .

والذي لم يتغير قط شعورها نحو تارا ، فلم يحدث أن عادت يوماً منهوكة عبر الحقول ورأت البيت الأبيض إلاّ وعمر قلبها الحب والفرح لأنها بلغت تارا ، ولم تنظر يوماً عبر نافذتها إلى المراعي الخضراء والحقول الحمراء إلى أشجار الأجمة الباسقة المتشابكة ، إلاّ وملأ نفسها الإحساس بالجمال . كان حبها لهذه الأرض بتلالها الخفيفة الانحدار ، الأرض ذات التراب الأحمر المتلألئ ، التراب الجميل المصطبغ بلون الدم ، التراب الحقيقي اللون ، والتراب الآجري ، القرمزي ، الذي ينبت بصورة عجيبة للغاية ، الشجيرات الخضراء ، ترصعها الأزهار النجمية البيضاء ، كان حبها لهذه الأرض جزءاً منها لم يتغير ، بينما كانت جميع الأجزاء الأخرى في تغير مطرد . . . ليس في كل الدنيا أرض كهذه الأرض .

وعندما كانت سكارلت تنظر إلى تارا كانت تدرك جزئياً لماذا تخاض الحروب . لقد أخطأ ريت عندما قال إن الرجال يخوضون الحرب من أجل المال . لا ! إنهم يقاتلون من أجل المزارع الشاسعة التي حفر المحراث أثلامها برفق ، من أجل المراعي الخضراء بأعشابها القصيرة المرعية ، من أجل الأنهار البطيئة الصفراء ، والبيوت البيضاء المعتدلة الهواء القائمة وسط أشجار المانيوليا . هذه فقط الأشياء التي تستحق القتال في سبيلها ، الأرض الحمراء التي هي ملكهم وستكون ملك أبنائهم ، الأرض الحمراء التي ستحمل القطن من أجل أبنائهم وأبناء أبنائهم .

أجل ! إن تارا تستحق القتال من أجلها ، وتقبلت سكارلت ببساطة ودونما نقاش فكرة القتال . . لن ينتزع أحد تارا من يديها . . لن يشردها أحد . . هي أو عائلتها . . . لتعيش على إحسان الأقرباء . . لا ، ستحافظ على تارا حتى لو اضطرت إلى قصم ظهر كل من يعيش فيها .



سكارلت أوهارا

26

كان قد مضى أسبوعان على سكارلت منذ عودتها من أتلانتا عندما بدأت القرحة الأكبر في قدمها تتقيح وتتورم حتى أضحى من المستحيل عليها ارتداء حذائها، أو إتيان عمل أكثر من التنقل قريباً على كعبها. وانتابها اليأس عندما نظرت إلى القرحة الملتهبة في إبهام قدمها. هب أنها تأكلت كما كانت تتأكل جراح الجنود، وقدر لها أن تموت بعيداً عن طبيب؟! إنها لا ترغب في مغادرة الحياة رغم كونها مرة كما هي الآن، فمن سيعتني بتارا إذا هي قضت؟!

كانت قد أملت، عند وصولها إلى البيت، أن روح جيرالد القديمة ستنتعش فيستلم قيادة الأمور، ولكن ذلك الأمل غاض بعيد هذين الأسبوعين، وأدركت سكارلت أنها الآن تحمل مسؤولية تارا وكل من بتارا بين يديها العديمتي التجربة، سواء أشاءت ذلك أم أبته، ذلك لأن جيرالد ما زال يجلس صامتاً كرجل في حلم، يجلس بهدوء بالغ غائباً عن تارا بصورة مريعة. وكان يرد، كجواب على التماساتها من أجل النصح، بهذه العبارة الوحيدة: «افعلي ما تعتقدين أنه الأفضل يا ابنتي»، أو يرد بعبارة أسوأ «استشيري أمك يا ابنتي».

لن يتحسن أبداً، أدركت سكارلت هذه الحقيقة الآن، وتقبّلتها دون تأثر، سيظل على هذه الحال إلى حين موته، دائماً في انتظار إيلين.. دائماً مصغياً لقدومها. لقد كان في أرض غامضة مجهولة.. حيث الزمن متوقف لا يمضي، وحيث إيلين دائماً في الغرفة المجاورة. لقد غاب باعث وجوده يوم توفيت، ومضت مع هذا الباعث ثقته الكبيرة، وجرأته وحيويته الدفاقة. كانت إيلين بمثابة الجمهور المتفرج الذي تمثل أمامه مسرحية جيرالد أوهارا الصاخبة، ولقد أسدل الستار الآن إلى الأبد، وأطفئت أضواء المسرح، واختفى المتفرجون فجأة، بينما ظل الممثل العجوز المبهور على مسرحه الشاغر ينتظر الإشارة.

كان المنزل هادئاً في ذلك الصباح، لأن الجميع كانوا في الهور لاصطياد الخنزيرة، ما عدا سكارلت وويد والمريضات الثلاث، حتى جيرالد كان قد تنشط قليلاً فتمشى عبر الحقول المثلمة، وإحدى يديه على ذراع بورك والأخرى تحمل لفة حبال. وكانت سولين وكارين قد بكتا حتى أخذهما النوم، كما كانتا

تفعلان على الأقل مرتين يومياً كلما فكرتا بأمهما ، إذ كانتا تسفحان دموع الحزن والضعف على وجناتهما الغائرة . أما ميلاني ، التي كانت قد دعمت بالوسائل لأول مرة في ذلك اليوم ، فقد اضطجعت يغطيها شرشف مرقع ، بين طفلين ، رأس أحدهما الأزغب الملفوف بالكتان محضون بذراعها ، بينما حملت برفق بالذراع الأخرى رأس طفل دلسي الأسود الجعد . وأما ويد فقد جلس على أسفل السرير يصغي لقصة خرافية .

كان السكون في تارا رهيباً بحيث لا يمكن احتماله بالنسبة إلى سكارلت ، لأنه كان يذكرها تذكيراً قوياً بالسكون الشبيه بالموت الذي غمر الريف الذي اجتازته ذلك اليوم الطويل ، وهي في طريقها إلى البيت ، عائدة من أتلانتا .

وتصرّمت ساعات ، ولم يصدر أي صوت من البقرة أو العجل ، ولم يكن هناك طيور تغرد خارج نافذتها ، وحتى سرب الطائر الحداء الصخاب ، الذي كان يعيش بين أوراق المانيوليا ذات الحفيف الخشن ، منذ أجيال ، لم يغرد هذا اليوم .

وكانت سكارلت قد سحبت كرسياً واطئاً إلى قرب نافذة مخدعها المفتوحة ، وجلست تنظر إلى الخارج ، إلى الطريق الأمامي وإلى مرجه المرعي الأخضر الخالي خلف الطريق . كانت تجلس وقد رفعت تنورتها فوق ركبتيها ، ووضعت ذقنها على ذراعيها المتكئتين على حافة النافذة . وعلى الأرض بجانبها كان دلو من ماء البئر ، تغطس فيه قدمها المنفطة بين الفينة والأخرى ، وهي تجعد وجهها بإحساس الألم .

وضغطت ذقنها فوق ذراعها ، والغيظ ينهشها . أكان لا بد لهذا الأصبع من أن يتقيح ، في هذا الوقت بالذات ، الذي هي فيه بحاجة قصوى إلى قدمها؟ . إن أولئك الأغبياء لن يقبضوا على الخنزيرة ، لقد استغرقوا أسبوعاً كاملاً في القبض على الخنانيص ، واحداً واحداً ، والآن ، وبعد أسبوعين ، ما زالت الخنزيرة حرة طليقة . لقد كانت سكارلت تعرف أنها لو كانت موجودة ، في الهور معهم لاستطاعت ثني ثوبها حتى ركبتيها ، ولأخذت الحبل وربطت الخنزيرة .

ولكن حتى بعد أن يُقبض على الخنزيرة ـ إذا قبض عليها ـ ماذا سيحدث؟ ثم ماذا بعد أن تلتهم هي وخنانيصها ! ستستمر الحياة ، وكذلك الشهيات . كان

الشتاء يقترب، ولن يبقى طعام، حتى ولا البقايا الزهيدة من خضار حدائق الجيران. ينبغي إذاً تجفيف الفاصوليا والذرة واللحم والأرز و ـ و ـ آه، وأصناف أخرى كثيرة جداً.. ذرة وبذور قطن للبذار في الربيع القادم، وملابس جديدة أيضاً.. من أين سيأتي كل ذلك، وكيف ستدفع الثمن!.

كانت قد فتشت سراً جيوب أبيها وحافظة نقوده، وكل ما وجدته كان رزماً من سندات الحلف، وثلاثة آلاف دولار على شكل فواتير حلفية، وكان ذلك يكفي تقريباً لشراء وجبة دسمة واحدة لهم جميعاً... فكرت بتهكم، بعد أن أصبحت العملة الحلفية الآن لا تساوي شيئاً البتة. ولكن إذا ما حصلت على نقود واستطاعت إيجاد الطعام، فكيف ستنقله إلى البيت؟ لماذا أمات الله الحصان الهرم؟ حتى ذلك الحيوان الحزين الذي سرقه ريت كان يمكن أن يؤثر كل التأثير في حياتها... آه، يا لتلك البغال البديعة السمينة التي اعتادت ضرب حوافرها بعنف في أراضي المرعى خلف الطريق... وخيول العربات الجميلة، وفرسها الصغيرة، ومهرتي شقيقتيها، وحصان جيرالد الكبير الفحل، يجري حارساً العشب بسنابكه ـ آه على واحد منها.. حتى لو كان أحرن بغل.

لكن، لا بأس ـ عندما ستشفى قدمها ستذهب إلى جونسبورو مشياً، وستكون تلك أطول مسيرة مشتها في حياتها، ولكنها ستمشيها. وحتى لو كان الشماليون قد أحرقوا البلدة بأكملها، ستجد حتماً أحد الناس في الجوار يستطيع إخبارها من أين يمكنها شراء القوت. وتمثلت أمام عينيها عينا ويد الفاترتين. إنه لا يحب البطاطا، هكذا كان يردد، إنه يريد فخذ دجاجة وبعض الأرز والمرق.

وفجأة تجمع الغيم حاجباً أشعة الشمس المتلألئة عن الساحة الأمامية، وغابت الأشجار خلال الدموع، وأسقطت سكارلت رأسها على ذراعيها، وجاهدت كي لا تبكي. إن البكاء عديم الفائدة الآن، والوقت الوحيد الذي كان البكاء فيه يجدي نفعاً كان في أثناء وجود رجل في جوارها تلتمس منه معروفاً. وفيما هي تقبع هناك، تعصر عينيها بشدة، كي تمنع انهمار الدموع، أجفلت عندما طرق مسامعها صوت حوافر حصان. ولكنها لم ترفع رأسها.. فلقد كانت تتوهم سماع ذلك الصوت مراراً، في ليالي ونهارات هذين

الأسبوعين الأخيرين ، تماماً كما كانت تتوهم سماع حفيف تنورة أمها . وخفق قلبها ، شأنه دائماً في مثل هذه اللحظات ، قبل أن تخاطب نفسها بحزم قائلة : «لا تكوني بلهاء» .

غير أن الحوافر بطؤ وقعها بطريقة طبيعية مثيرة ، حتى أضحى وقع خطى تسير على مهل أخذت تسمع صرير اصطدامها بالحصى . . إنه وقع حصان ـ فمن يكون القادم؟ أبناء تارلتون . . أبناء فونتين !؟ وتطلعت إلى أعلى بسرعة . . . وإذا به فارس شمالي .

اندست خلف الستار بحركة آلية ورنت إليه مذهولة ، خلال طيات القماش القائمة . كانت فزعة جداً بحيث أن النفس خرج على شكل تنهدة من رئتيها .

كان الشمالي يجلس مسترخياً على سرج حصانه ، رجل بدين خشن المظهر ، بلحية سوداء غير مشذبة تتهادى فوق معطفه الأزرق غير المزرر . وكانت عيناه صغيرتين متقاربتين تخزران في وهج الشمس وتعاينان المنزل بسكينة من تحت مقدم قبعته الزرقاء الضيقة . وعندما ترجل متباطئاً ، وألقى زمام فرسه فوق عمود المربط ، عاد نفس سكارلت إليها بصورة مفاجئة مؤلمة ، كما يعود على أثر تلقي ضربة في البطن ، شمالي ، شمالي ومسدس طويل على جنبه ! وهي وحيدة في البيت مع ثلاث فتيات مريضات والأطفال !

وحين مشى متمهلاً في الممشى ويده على قراب مسدسه ، وعيناه الصغيرتان الشبيهتان بحبتي سبحة تتطلعان يمنة ويسرة ، دار أمام مخيلتها شريط من الصور المختلطة : قصص كانت العمة بيتي قد همست لها بها عن هجمات على نساء ليس هناك من يحميهن ، رقاب قطعت ، وبيوت أحرقت على رؤوس نساء مائتات ، وأطفال ذبحوا بحراب البنادق لأنهم بكوا . . . كل الأهوال التي تصعب رؤيتها والتي تكمن في نفسها مرتبطة باسم «شمالي» .

كان رد فعلها الأول الناجم عن الخوف رغبتها في أن تختبئ في المرحاض ، أن تزحف تحت السرير ، أن تهبط الدرج الخلفي بسرعة البرق وتجري زاعقة إلى الهور . . أن تلجأ إلى أي طريقة للتخلص منه . ثم سمعت خطواته على الدرجات الأمامية ، ووطء خطوه المتلصص وهو يدخل القاعة ، فأدركت أن طريق الهرب قد قطع عليها . وبينما هي تقف يغمرها شعور الخوف البارد ، ولا تستطيع حراكاً سمعته يتقدم من غرفة إلى أخرى في الطابق السفلي ، وكان

وقع خطواته قد ازداد ارتفاعاً وجرأة حين لم يكتشف وجود أحد . . . إنه الآن في غرفة الطعام وسيخرج منها إلى المطبخ بعيد لحظات .

وعندما ذكر المطبخ ، اشتعل الغضب فجأة في صدر سكارلت ، انتفض بعنف بالغ ، حتى إنه وخز قلبها كطعنة سكين وأزال الخوف بثورته الطاغية . . . المطبخ ، هناك فوق موقد المطبخ المفتوح يوجد قدران أحدهما مملوء بتفاح قيد الطهي ، والآخر مليء بخضار متنوعة ، جلبت من تولف أوكس ومن مزرعة ماك أنتوش بشق النفس . ـ غداء ينبغي أن يقدم لتسعة أناس جائعين بينما هو لا يكاد يكفي شخصين اثنين ، ولقد مضى على سكارلت ساعات وهي تكبح شهيتها في انتظار عودة الآخرين ، ولذلك ارتجفت غضباً وهي تتخيل الشمالي يلتهم وجبتهم الزهيدة .

ليلعنهم الله جميعاً ! لقد انحدروا كالجراد وتركوا تارا تموت بطيئاً من الجوع ، وها هم الآن يعودون ثانية ليسرقوا البقية الضئيلة . وتلوّت معدتها الفارغة في جوفها . . . والله إن هذا شمالي واحد لا يستطيع سرقة شيء آخر .

وخلعت حذاءها البالي وهرولت سريعاً حافية القدمين إلى المكتب دون أن تحس بآلام أصبعها المتقيح ، ثم فتحت الجرار العلوي دون أن تحدث صوتاً ، وتناولت المسدس الثقيل الذي أحضرته من أتلانتا ، والذي كان قد حمله تشارلز ولكنه لم يستعمله أبداً . وبحثت في الصندوق الجلدي المعلق على الجدار تحت السيف وأخرجت كبسولة وأنزلتها في مكانها بيد عديمة الرجفة ، وبسرعة ، وبدون أن تحدث ضجيجاً ركضت إلى القاعة العليا ثم هبطت السلم وثبتت نفسها على الدرابزين متمسكة به بيد واحدة حاملة المسدس باليد الأخرى قريباً من فخذها وضمن طيات تنورتها .

ـ «من هناك؟»صاح صوت أجش . فوقفت على منتصف السلم والدم ينتفض في أذنيها بصوت عال جداً ، بحيث لم تستطع سماع الشمالي إلاّ بصعوبة «قفي وإلا أطلقت النار» ارتفع الصوت ثانية .

انتصب الفارس في باب غرفة الطعام ، ساكناً متوتر الأعصاب ، مسدسه في يده ، وفي يده الأخرى علبة خياطة إيلين الصغيرة المصنوعة من خشب الورد ، والتي كانت تحتوي كشتباناً ذهبياً ومقصاً ذا مقبض ذهبي وقطعة من السنباذج على شكل ثمر البلوط محلاة الرأس بالذهب .

وأحست سكارلت بساقيها تبتردان حتى الركبتين ، ولكن الغضب ألهب وجهها ، رأت علبة خياطة أمها بين يديه وشاءت أن تصرخ «ضعها من يدك ! ضعها من يدك القذرة !» ولكن الكلمات لم تسعفها ، وكل ما استطاعته هو التحديق به من على الدرابزين ومراقبة وجهه يتغير من حالة توتر عنيف إلى ابتسامة نصفها ازدراء ونصفها استعطاف .

ـ «يوجد إنسان في البيت إذاً» ، قال ، معيداً مسدسة إلى قرابه ، ماشياً في القاعة إلى أن وقف تحتها مباشرة «وحدك فقط أيتها السيدة الصغيرة؟» .

وبسرعة البرق ، رفعت مسدسها فوق الدرابزين وصوبته إلى الوجه المجفل الملتحي ، وحتى قبل أن يتمكن من البحث في حزامه ، ضغطت الزناد وتهادى جسدها بفعل ردة المسدس الخلفية ، بينما ملأ دوي الانفجار أذنيها ، ولسع الدخان الحاد الرائحة منخريها . أما الرجل فقد هوى إلى الخلف وارتطم بالأرض وتدحرج إلى غرفة الطعام بعنف هز قطع الأثاث ، وانفلتت العلبة من يديه ، وانتشرت محتوياتها حوله . وهبطت سكارلت السلم ، وهي تكاد لا تعي أنها تتحرك ، ووقفت فوقه محملقة في ما تبقى من الوجه فوق اللحية . كان هناك ثقب دام في موضع الأنف ، وعينان براقتان محترقتان بالبارود . وفيما هي تتأمل الرجل كان مجريان من الدم يسيلان عبر الأرض اللماعة ، أحدهما خرج من وجهه والثاني من مؤخرة رأسه .

أجل ، لقد مات ، دون شك ، لقد قتلت رجلاً .

وارتفعت حلقات الدخان بطيئة نحو السقف ، واتسع المجريان الأحمران حول قدميها ، وظلت واقفة هناك فترة غير محدودة . وفي السكون الحار لذلك الصباح الصيفي ، بدت جميع الأصوات والروائح متضخمة مهولة : خفقان قلبها السريع الذي بدا كدوي الطبل ، وحفيف أوراق المانيوليا الخافت ، والصوت الشجي البعيد المنبعث من طائر في الأجمة ، والرائحة الشذية المتضوعة من الأزهار خارج النافذة .

لقد قتلت رجلاً ، تلك التي كانت تحرص على أن لا تشاهد عملية قتل في أثناء الصيد ، تلك التي لا تستطيع احتمال قباع(*) خنزير في أثناء الذبح ! جريمة

(*) قَبَع الخنزير : نخر وصوّت .

قتل ! فكرت بعقل واهن . لقد اقترفت جريمة قتل . آه . إن هذا لا يمكن أن يكون قد حدث لي ! واتجهت عيناها إلى اليد الغليظة الشَّعرة على الأرض ، القريبة جداً من علبة الخياطة ، وفجأة عاودتها حيوية الحياةَ ، حيوية السرور بفرحة النمر المنتصر . لقد كان بوسعها أن تدوس بكعبها في الجرح الفاغر ، أي في أنفه ، وتشعر باللذة المنعشة وهي تحس بالدم الحار يبلل قدميها الحافيتين . لقد سددت ضربة انتقام لتارا وأمها .

ثم سمعت خطوات متعثرة مسرعة في القاعة العليا ، وتلا ذلك لحظة صمت ثم خطوات أسرع ، ولكنها الآن خطوات ضعيفة تجرجر أقدامها ، يتخللها صليل معدني ، وعندئذ عاود سكارلت الشعور بقيمة الزمن وحقيقة الموقف . وفيما هي ترفع بصرها رأت ميلاني في أعلى السلم ، ترتدي الجلباب الممزق فقط ، الجلباب الذي تستعمله كثوب للنوم ، وذراعها الضعيفة مثقلة بسيف تشارلز .

استوعبت عينا ميلاني المشهد تحتها بكل تفاصيله : الجسد الممدد بالبزة الزرقاء وسط بركة الدم ، علبة الخياطة إلى جانبه ، سكارلت حافية القدمين شاحبة الوجه تقبض على المسدس الطويل .

وقابلت عيناها عيني سكارلت في صمت . كان في وجهها الرقيق وهج من الكبرياء المتجهمة ، وفي ابتسامتها العذبة رضى وفرح صارم ، يعادل الاضطراب الناري الذي كان يضطرم في صدر سكارلت .

ـ «كيف لا ، كيف لا ، إنها مثلي ، إنها تفهم شعوري» فكرت سكارلت في هنيهة الصمت الطويلة «لو كان الأمر معها لفعلت ما فعلت» وبرجفة حادة تطلعت إلى الفتاة النحيلة المترنحة التي لم تشعر سكارلت يوماً نحوها بغير شعور البغض والازدراء . غير أنها ، الآن ، أحست بشعور من الإعجاب والرفقة يجيش في صدرها ويقف في وجه شعور الكراهية لزوجة آشلي . ورأت في ومضة من الصفاء ، الذي لا يشوبه شيء من العواطف الصغيرة ، رأت أن تحت صوت ميلاني الناعم وتحت عينيها الشبيهتين بعيون الحمام ، يكمن نصل رفيع براق من فولاذ لا يكسر ، وأحست أيضاً أن هناك بيارق وأبواقاً من الشجاعة تهتز في دم ميلاني الهادئ .

ـ «سكارلت ! سكارلت !» صاح صوتا سولين وكارين الضعيفان المذعوران ، المنبعثان من وراء باب غرفتهما المغلق ، بينما ارتفع صوت ويد :

«عمتي اعمتي!» . وعلى عجل وضعت ميلاني أصبعها على فمها ، وحطت السيف على أعلى درجة من السلم ، ثم اتخذت طريقها بعناء في القاعة العليا ، وفتحت باب غرفة المريضتين .

ـ «لا تخافا أيتها الدجاجتان» علا صوتها مرحاً مثيراً «لقد كانت شقيقتكما الكبرى تحاول إزالة الصدإ من مسدس تشارلز فانطلق وأرعبها رعباً هائلاً!» . . . اسمع يا ويد هاملتون ، لقد أطلقت ماما مسدس والدك العزيز ، وعندما ستكبر ، ستدعك تطلقه» .

ـ «يا لها من كاذبة باردة الأعصاب!» فكرت سكارلت معجبة بها «لم يكن بوسعي التفكير بذلك سريعاً . . ولكن لماذا تكذب؟ ينبغي أن يعرفوا أني فعلتها» .

ونظرت إلى الجثة ثانية ، وغمرها الاشمئزاز في هذه المرة ، بعد أن كان الغضب والرعب قد زاولاها ، وطفقت ركبتاها ترتجفان من جراء رد الفعل ، بينما جرجرت ميلاني نفسها إلى أعلى السلم ثانية وبدأت تهبط الدرجات ، متمسكة بالدرابزين ، عاضة بأسنانها على شفتها السفلى الفائضة الدم .

ـ «ارجعي إلى سريرك أيتها الحمقاء ، ستقتلين نفسك» صاحت سكارلت ، ولكن ميلاني نصف العارية ، تابعت طريقها إلى القاعة السفلى .

ـ «سكارلت» قالت «ينبغي أن نخرجه من هنا وندفنه ، فمن المحتمل أن لا يكون وحيداً ، وإذا ما وجدوه هنا ـ»وأسندت نفسها إلى ذراع سكارلت .

ـ «لا بد أنه وحيد» أجابت سكارلت «فأنا لم أشاهد أحداً غيره من النافذة العليا . لا بد أن يكون فاراً من الجيش» .

ـ «حتى لو كان وحيداً ، ينبغي أن لا يعلم أحد بالحادث ، فقد يتحدث الزنوج بالأمر ، وعندئذ سيأتون ويأخذونك يا سكارلت . ينبغي أن نخفيه قبل أن تعود الجماعة من الهور» .

وتحرك عقلها للتفكير بفعل الإلحاح المحموم في صوت ميلاني ، وفكرت جدياً : «بوسعي دفنه في زاوية الحديقة تحت العريشة ، التربة طرية هناك حيث حفر بورك وأخرج برميل الويسكي . ولكن كيف سأنقله إلى ذلك المكان؟» .

ـ «سنتعاون كلانا على جره من ساقيه» قالت ميلاني بحزم وتصميم .

وعلى الرغم منها ، استمر إعجابها بميلاني يزداد .

ـ «ليس بوسعك سحب هرة ، سأجره وحدي» قالت سكارلت بحزم ، ارجعي إلى السرير ، ستقتلين نفسك ، ولا تحاولي أن تساعديني ، وإلا حملتك إلى سريرك بنفسي» .

فانفرج وجه ميلاني الشاحب عن ابتسامة عذبة مدركة «أنت عزيزة جداً يا سكارلت» قالت ذلك وجرت شفتيها بلطف على وجنة سكارلت . وقبل أن تتنبه هذه من دهشتها ، تابعت ميلاني القول : «إذا كان بوسعك جره خارجاً ، فسأمسح الدم قبل أن تبلغ الجماعة البيت يا سكارلت» .

ـ «ماذا؟» .

ـ «هل تعتقدين أنه سيكون من العار تفتيش جيوبه؟ فقد نجد معه شيئاً للأكل» .

ـ «لا أعتقد ذلك» قالت سكارلت بضيق ، لأنها لم تفكر بهذا الأمر هي نفسها «خذي مزادته وسأبحث أنا في جيوبه» .

وانحنت بنفور فوق الرجل الميت ، وفكت الأزرار الباقية في معطفه ، وشرعت بتفتيش جيوبه واحدة تلو الأخرى .

ـ «يا لله العزيز» همست ساحبة محفظة منتفخة ملفوفة بخرقة «ميلاني . . . ميلي ، أعتقد أنها ملأى بالنقود» .

لم تقل ميلاني شيئاً ، غير أنها جلست على الأرض فجأة ، وأسندت ظهرها إلى الجدار :

ـ «أنت انظري ما فيها» قالت وهي ترتعش «إني أشعر بقليل من الإعياء» .

مزقت سكارلت الخرقة وفتحت الطيات الجلدية بيدين مرتجفتين .

ـ «انظري ميلي ـ فقط انظري» .

نظرت ميلاني واتسعت عيناها . لقد رأت رزمة من السندات مكدسة على بعضها : نقود ورقية اتحادية مختلطة بنقود حلفية ، تلمع من بينهما قطعة ذهبية من فئة العشرة دولارات وقطعتان فضيتان من فئة الخمسة دولارات .

ـ «لا تعديها الآن» قالت ميلاني عندما بدأت سكارلت تعد السندات «فليس لدينا وقت . . .» .

ـ «هل تستنتجين يا ميلاني أن هذه النقود تعني أننا سنجد ما نأكله؟» .

ـ «نعم ، نعم يا عزيزتي ، إني أستنتج ذلك ، ولكن ليس لدينا وقت الآن .

ابحثي في جيوبه الأخرى ، وسآخذ أنا المزادة» .

كرهت سكارلت أن تضع المحفظة جانباً ، فإن آفاقاً مشرقة تتفتح أمامها الآن ـ نقود حقيقية ، حصان الشمالي ، طعام ! وجلست على ردفيها وحدقت بالمحفظة وهي تبتسم ، ولكن ميلاني أخذتها من يدها .

ـ «أسرعي !» .

ولكن البحث في جيوب السروال لم يسفر عن شيء سوى بقية شمعة وسكين وعلبة تبغ وقطعة من القنب ، بينما أخرجت ميلاني من المزادة صرة قهوة صغيرة شمتها كما لو كانت ألذ من العطور ، ثم رغيف خبز ، وصورة فتاة صغيرة ، ضمن إطار ذهبي مرصع بحبات اللؤلؤ ـ وقد تغير وجهها وهي تخرج الصورة ـ كما أخرجت أيضاً دبوساً من العقيق ، وسوارين ذهبيين عريضين بسلاسل ذهبية صغيرة متدلية ، وكشتباناً ذهبياً وكأساً فضية لطفل صغير ، ومقص تطريز ذهبياً ، وخاتماً ذا فص واحد ، وقرطين بفصين متدليين من الماس بشكل الكمثرى ، فصين يمكن لأيديهما العديمة الخبرة أن تقدر أن كلاً منهما يزيد وزنه عن قيراط .

ـ «لص !» همست ميلاني مرتدة عن الجثة الهامدة «سكارلت ! لا بد أنه سرق كل هذا» .

ـ «طبعاً» قالت سكارلت «ولقد قدم هنا الآن آملاً في أن يسرق منّا أشياء أخرى» .

ـ «إني مسرورة لأنك قتلته» قالت ميلاني وعيناها تقدحان ، «والآن أسرعي يا عزيزتي وأخرجيه من هنا» .

انحنت سكارلت وأمسكت بالرجل الميت من حذائه وشدته . . ما أثقله ! وما أضعفها ! هكذا أحست فجأة . ما العمل إن لم تستطع تحريكه؟ واستدارت بحيث أضحت الجثة خلفها وأمسكت بحذائه الثقيل تحت ذراعها وقذفت بجسدها إلى الأمام ، فتحركت الجثة ، ثم جرت ثانية ، لكن قدمها المتقرحة ، والتي نسيت في هذه الجلبة ، آلمتها إيلاماً رهيباً جعلها تصر بأسنانها وتنقل ثقل جسدها إلى كعبها ، والعرق يتصبب من جبينها بسبب الشد والإجهاد ، جرته عبر القاعة ، يتبعها خط من الدم الأحمر .

ـ «إذا ما نزف عبر الساحة فلن يسعنا إخفاء الأثر» قالت وهي تلهث «أعطني

جلبابك يا ميلاني ، فسألفه حول رأسه» .

فتخضب وجه ميلاني الأبيض باللون القرمزي .

ـ «لا تكوني حمقاء ، لن أنظر إليك» قالت سكارلت ، «لو كنت أرتدي تنورة أو سروالاً لاستعملته» .

وجلست ميلاني القرفصاء مقابل الحائط ، وخلعت الدثار الكتاني الخلق من فوق رأسها ، ثم دفعته إلى سكارلت دون أن تنبس بكلمة ، ساترة جسدها بذراعيها بقدر ما أمكنها .

ـ «شكراً لله ، إني لست حيية مثلها» . فكرت سكارلت ، إذ أحست ، وهي تلف بالقماش الرث الوجه المهشم ، بنوبة الضيق التي انتابت ميلاني قبل أن تشاهدها بعينيها .

استطاعت سكارلت ، بعد محاولات من الدفعات المتقطعة ، أن تسحب الجثة من القاعة تجاه الشرفة الخلفية . ثم توقفت قليلاً لتمسح جبينها بظهر يدها ، وألقت نظرة على ميلاني خلفها ، وكانت هذه ما زالت تجلس مستندة إلى الحائط ضامة ركبتيها النحيلتين إلى ثدييها العاريين . . . ما أحمق ميلاني وهي تحفل بالحياء في وقت كهذا ! فكرت سكارلت . . . لقد كانت بعض أساليب تصرفاتها الحكيمة تدفع سكارلت دائماً إلى احتقارها . . . غير أن هذه سرعان ما أحست بالعار ، فرغم هذا التصرف ، نعم رغم هذا التصرف ، لقد جرت ميلاني نفسها من السرير ولم يمض على ولادتها سوى فترة وجيزة جداً ، وأتت لمساعدتها بسلاح ثقيل جداً حتى بالنسبة إليها هي . وقد تطلب ذلك شجاعة تعرف سكارلت معرفة صادقة أنها لا تملك من نوعها ، شجاعة حريرية النسج ، فولاذية الجوهر ، تجلت في ميلاني ليلة سقوط أتلانتا الرهيبة ، وخلال الرحلة الطويلة إلى تارا . إنها الشجاعة الكامنة التي يتحلى بها جميع الويلكسيين ، إنها الميزة التي لم تفهمها سكارلت ولكنها كانت تقابلها بالإعجاب الحقود .

ـ «ارجعي إلى سريرك» قالت من فوق كتفها «ستموتين إن لم ترجعي ، وسأنظف أنا الدم بعد أن أدفنه» .

ـ «سأنظفه أنا بإحدى قطع السجاد البالية» همست ميلاني وهي تنظر إلى بركة الدم بعين كليلة .

ـ «حسناً ، اقتلي نفسك إذاً وانظري إن كنت أعبأ بك ! إذا جاء أحد من

الجماعة قبل أن أفرغ من دفنه ، فأبقيه داخل البيت وأخبريه أن الحصان دخل المزرعة من حيث لا ندري» .

جلست ميلاني ترتجف في شمس الصباح ، وقد أصمت أذنيها حتى لا تسمع سلسلة الرطمات الممرضة الناجمة عن سقوط رأس القتيل على درجات الشرفة .

لم يستوضح أحد عن المكان الذي قدم منه الحصان ، فقد كان من الجلي أنه شرد من المعركة الأخيرة . . . ولقد سروا كثيراً بالحصول عليه . أما الشمالي فقد قبع في الحفرة الضحلة التي حفرتها سكارلت له ، تحت عريشة الكرمة الصفراء . وكانت الأعمدة الخشبية التي تحمل عروق الكرمة الغليظة قد تلفت ، فأجهزت سكارلت عليها في تلك الليلة بسكين المطبخ إلى أن سقطت على الأرض ، فغطت كتلة الأغصان المتشابكة القبر تغطية تامة . وكان وضع أعمدة جديدة محل المهترئة أحد الإصلاحات التي لم تشر إليها سكارلت ، ولو عرف الزنوج سبب ذلك لاحتفظوا بصمتهم .

ولم يرتفع شبح من ذلك القبر الضحل ليلازم سكارلت في الليالي الطوال ، التي كانت تضطجع خلالها مستيقظة وهي مرهقة جداً بحيث لا تستطيع النوم . ولم يجتح ذاكرتها كذلك أي إحساس بالرعب أو بتقريع الضمير . ولقد استغربت سبب ذلك ، إذ كانت تعلم أنها لم يكن بوسعها الإقدام على ذلك العمل قبل شهر من هذا التاريخ فقط .

ـ «لن أفكر بهذا بعد اليوم» قررت في نفسها «لقد مضى وقضي أمره ، وكنت سأعتبر حمقاء غبية لو لم أقتله . أحسب ـ أحسب أن لا بد أن تغيرت قليلاً منذ عودتي إلى البيت ، وإلا لما استطعت إتيان هذه الفعلة» .

ولم تفكر في فعلتها عن وعي ، ولكن الفكرة كانت تتربص في مؤخرة تفكيرها تمنحها القوة كلما اعترضتها مهمة صعبة غير سارة : «لقد اقترفت جريمة ، ولذلك بوسعي حتماً تنفيذ هذه المهمة» . والحقيقة أن سكارلت كانت قد تغيرت أكثر مما تصورت ، فالقشرة الصلبة التي بدأت تتكون حول قلبها عندما استلقت في حديقة الرقيق في تولف أوكس كانت تتماسك ببطء .

*

بعد أن حصلت سكارلت على فرس ، صار بوسعها أن تكتشف بنفسها ما

الذي حدث للجيران . . . لقد تساءلت منذ قدومها إلى البيت ألف مرة دون جدوى «هل نحن الوحيدون الباقون في الولاية؟ هل احترق جميع الآخرين؟ هل لجأوا كلهم إلى ميكون؟» ونظراً لأن ذكرى آثار تولف أوكس ومزرعة ماك أنطوش وكوخ آل سلاتري ما زالت حية في ذاكرتها ، فإنها كادت تفزع من اكتشافها للحقيقة . غير أنه كان من الأفضل معرفة أسوإ الأمور على البقاء نهبة للشك والحيرة . وقررت أن تركب إلى منزل آل فونتين أولاً ليس لأنهم أقرب الجيران ، بل لأن من المحتمل وجود الطبيب العجوز فونتين هنالك ، إذ كانت ميلاني بحاجة إلى طبيب ، فهي لم تكن تتحسن كما ينبغي ، وكانت سكارلت تفزع من ضعفها الشاحب .

وهكذا امتطت حصان الشمالي في اليوم الذي اندملت فيه قدمها بصورة تمكنها من تحمُّل ارتداء الخف ، ووضعت إحدى قدميها في الركاب المقصر ، ولفت الساق الأخرى حول قربوس السرج ، في شبه ركوب جانبي ، ثم انطلقت دون أن تخبر أحداً عبر الحقول تجاه ميموسا فوجدتها محترقة . غير أن الذي أدهشها وسرها في الوقت عينه هو أنها وجدت البيت الأصفر الباهت قائماً وسط أشجار السنط ، وقد بدا وهو على حالته المعتادة ، ففاضت نفسها بالسعادة الحارة ، السعادة التي تذرف الدموع غالباً ، فاضت عندما خرجت نساء آل فونتين الثلاث من البيت يرحبن بها بالقبل وصيحات الفرح .

ولكن ، وبعد أن تمت عبارات اللقاء الحارة الأولى ، ودلف الجميع ليجلسن في غرفة الطعام ، انتابت سكارلت قشعريرة باردة . إن الشماليين لم يبلغوا ميموسا لأنها بعيدة جداً عن الطريق الرئيسي ، ولذلك فما زال آل فونتين يحتفظون بمخزونهم ومؤنهم . بيد أن ميموسا كان يغمرها السكون الغريب ذاته الذي كان يخيم على تارا ، وعلى الريف كله ، وكان جميع العبيد فيها ، ما عدا زنجيات أربع بيتيات ، قد فروا مذعورين بفعل اقتراب الشماليين ، ولم يكن يوجد أي رجل في المزرعة إلاّ إذا أمكن اعتبار ابن سالي الصغير ، جو ، الذي خلص من القماط مؤخراً ، رجلاً . لقد كانت النسوة الثلاث يعشن في البيت الكبير وحيدات . غراندما فونتين (الجدة فونتين) في عقدها الثامن ، وكنتها التي كانت تود أن تدعى دائماً بالآنسة الفتية رغم كونها في العقد السادس ، ثم سالي التي كانت تشارف العشرين . لقد كن بعيدات جداً عن الجيران ، يعشن

دون من يحميهن ، غير أن وجوههن لم تكن تفصح عما إذا كن خائفات أم لا . وفكرت سكارلت بأن ذلك قد يكون عائداً لكون سالي والآنسة الشابة تخافان كثيراً العجوز غراندما الضعيفة ضعف الخزف ، ولكن التي لا تلين ، بحيث كانتا لا تجرؤان على المصارحة بما كان يساورهما من المخاوف . ولقد كانت سكارلت نفسها تخشى السيدة العجوز ، لأنها كانت تملك عينين حادتين ولساناً أكثر حدّة ، ولقد ذاقت سكارلت لذع الثلاثة فيما مضى .

وعلى الرغم من عدم وجود قرابة الدم ، وعلى الرغم من فارق السن الكبير ، كان هناك قرابة في الروح والتجربة تربط هؤلاء النسوة معاً . لقد كن ثلاثتهن يرتدين ثياب الحداد المصبوغة محلياً ، وكن جميعاً خائرات القوى ، حزينات جزعات ، تعيسات تعاسة لا تتجهم ولا تتذمر ، ولكنها مع ذلك تطل من خلف بسماتهن وعباراتهن الترحيبية ، تعاسة ناجمة عن هروب زنوجهن وصيرورة نقودهن عديمة القيمة . يضاف إلى ذلك أن جو زوج سالي كان قد توفي في جيتسبرغ ، كما أن الآنسة الفتية كانت قد ترملت كذلك ، إذ قضى الدكتور فونتين الصغير بالزحار في فكسبرغ . أما الشابان الآخران ، ألكسي وطوني فكانا في مكان ما في فرجينيا ولم يكن أحد يعرف إذا كانا حيين أو ميتين . وأما الدكتور فونتين العجوز فقد كان بعيداً في مكان ما مع فرسان ويلر .

ـ «والعجوز الأحمق في الثالثة والسبعين من العمر ، مع أنه يحاول أن يتصرف وكأنه أصغر سناً ، وهو مفعم بالروماتيزم كخنزير مملوء بالبراغيث»قالت غراندما فخورة بزوجها ، وبريق عينيها يناقض كلماتها الجارحة .

ـ «هل سمعت إحداكن أي نبإ عما حدث في أتلانتا؟» سألت سكارلت بعد أن استقر بهن المقام المريح «نحن متورطون تماماً في تارا» .

ـ «والله أيتها الفتاة» قالت «الآنسة» العجوز ، مستلمة دفة الحديث كما كانت عادتها «نحن في الورطة ذاتها مثلكم ، ونحن لا نعرف شيئاً سوى أن شيرمان قد احتل المدينة أخيراً» .

ـ «احتلها إذاً ، وماذا يفعل الآن؟ وأين يدور القتال؟» .

ـ «وكيف تدري ثلاث سيدات وحيدات يعشن هنا في الريف في الوقت الذي لم نر فيه رسالة أو جريدة منذ أسابيع؟ !» قالت السيدة العجوز محتدة

«لقد تحدث أحد زنوجنا مع زنجي كان قد رأى زنجياً قادماً من جونسبورو، ولم نسمع شيئاً سوى ذلك. والذي قاله ذلك الزنجي هو أن الشماليين كانوا فقط يستجمون في أتلانتا، يريحون رجالهم وخيولهم. أما إذا كان هذا الحديث صحيحاً أم لا ففي استطاعتك أنت الحكم عليه مثلي. إنهم حتماً لا بد أن يحتاجوا إلى راحة بعد القتال الشديد الذي خضناه ضدهم».

ـ «ما أغرب أن تكونوا في تارا طيلة هذه المدة دون أن ندري!» تدخلت الآنسة الفتية في الحديث «آه، كم ألوم نفسي لأني لم أركب إلى هنالك وأستطلع الأمر. ولكن كان يوجد الكثير من الأعمال لدينا، بعد أن ذهب معظم الزنوج، بحيث لم يسعني مغادرة المكان، ومع ذلك فقد كان يجب علي تدبير الوقت الكافي للذهاب. إن موقفي لم يكن وفياً للجيرة، غير أننا بالطبع كنا نعتقد أن الشماليين أحرقوا تارا كما فعلوا بتولف أوكس ومنزل ماك أنتوش، وأن أهلك ذهبوا إلى ميكون، ولم نفكر أبداً بأنك كنت في البيت يا سكارلت».

ـ «بالطبع، كيف كان يمكننا معرفة ذلك في الوقت الذي رأينا فيه عبيد السيد أوهارا يمرون من هنا وهم جاحظو العيون من شدة الفزع، وأخبرونا أن الشماليين سيحرقون تارا!» قاطعت غراندما.

ـ «واستطعنا أن ندرك..» بدأت سالي.

ـ «إني أخبرها بهذا، أرجوك» قالت السيدة المسنة باقتضاب «وقالوا إن الشماليين معسكرون في جميع أنحاء تارا، وأن أهلك عازمون على الذهاب إلى ميكون. وفي تلك الليلة شاهدنا وهج النار ينبعث من ناحية تارا، ودام الوهج ساعات أربعاً، أفزع خلالها زنوجنا الأغبياء إلى حد كبير حتى إنهم هربوا جميعاً... ما الذي احترق؟».

ـ «كل أقطاننا. ما قيمته مائة وخمسون ألف دولار» قالت سكارلت بمرارة.

ـ «اشكري الله على أنه لم يكن منزلكم» قالت غراندما متكئة بذقنها على عصاها، «إن بوسعكم دائماً إنتاج المزيد من القطن، ولكن ليس بوسعكم بناء بيت. وبهذه المناسبة، هل كنت قد بدأتم بقطف القطن؟».

ـ «لا! قالت سكارلت» ومعظمه قد تلف الآن. إني لا أتصور أن ما سلم من التلف ينتج أكثر من ثلاث بالات، وهو موجود في الحقل البعيد في أسفل

الوادي . أي نفع يمكن أن يؤتيه مقدار كهذا؟ كل عمال حقلنا قد ذهبوا ، وليس هناك من يقطفه» .

ـ «يا إلــهي ! كل عـمال حقلنا قد ذهبوا وليس هناك من يقطفه !» رددت غراندما ساخرة ، رامقة سكارلت بنظرة تأنيب «وما نفع أناملك الظريفة وأنامل شقيقتيك !» .

ـ «أنا؟ ! أقطف قطناً !» صاحت سكارلت مشدوهة ، كما لو كانت غراندما تقترح عليها القيام بجريمة شنعاء «كعاملة الحقل ! كالبيض الحقيرين ! كنساء آل سلاتري !» .

وهنا أسرعت سكارلت ، في سبيل تغيير الموضوع ، إلى الاستفسار :

ـ «ومـاذا عن آل تارلتـون وآل كـالفـرت؟ هل احـتـرقـوا؟ هل لجـأوا إلى ميكون؟» .

ـ «لم يصل الشـماليون إلى آل تارلتون ، فهم بعيدون عن الطريق الرئيسي شـأننا نحن ، ولكنهم بلغـوا منزل آل كـالفـرت ، وسـرقـوا كل مـخـزونهم وطيورهم ، وفر معهم جميع الزنوج . .» بدأت سالي ، ولكن غراندما قاطعتها قائلة :

ـ «ها ! لقد وعدوا جميع العاهرات السوداوات بفساتين حريرية وأشناف ذهبية . . . هذا ما فعلوه . ولقد قالت كاثلين كالفرت إن بعض الجنود انطلقوا حـاملين الزنجيـات الغـبيـات على السـروج خلفـهـم . حـسناً ، إن كل مـا سـيجنينه سيكون أطفـالاً صفـر اللون ، ولا أستطيع القول بأن الدم الشـمالي سيحسن الأصل» .

ـ «لماذا لم يحرقوا منزل آل كالفرت؟» .

ـ «لقد نجا البيت بفعل لهجة السيدة كالفرت الثانية ، ولهجة ذلك الناظر الشمـالي هلتون الذي يعمل عندهم» قـالت السيدة العجوز التي كـانت تشير دائماً إلى المربية السابقة «السيدة كالفرت الثانية» رغم أن السيدة كالفرت الأولى كانت قد ماتت منذ عشرين سنة .

ـ «نحن مؤيدون أوفياء للاتحاد» قالت السيدة العجوز مقلدة السيدة كالفرت جاعلة الكلمات تخن عبر أنفها الطويل الرفيع «ولقد قـالت كاثلين إن كليهما أقسما بجميع الأيمان أن كل آل كالفرت شماليون ، هكذا ، بينما الحقيقة هي أن

السيد كالفرت قد قتل في قفر الولدرنس، وريفورد في جيتسبرغ، وكيد يحارب الآن مع الجيش في فرجينيا . . . ولقد أذلت كاثلين كثيراً حتى إنها صرحت أنها كانت تفضل أن لو أحرقوا البيت، كما قالت إن كيد سيستشيط غيظاً عندما يعود إلى البيت ويسمع القصة . على أن هذا هو ما يصيب الرجل جزاء تزوجه بامرأة شمالية . . . لا أنفة لديهن . . ولا حشمة . . إنهن دائماً يفكرن بأبناء جلدتهن . . . كيف حدث ولم يحرقوا تارا يا سكارلت؟» .

صمتت سكارلت هنيهة قبل أن تجيب . لقد أدركت أن السؤال التالي سيكون . . وكيف حال جميع الأهل، وكيف حال أمك العزيزة؟ وأدركت أنها لن تستطيع إخبارهن أن إيلين ماتت، وأدركت أنها إذا نطقت بهذه الكلمات، أو حتى إذا سمحت لنفسها مجرد التفكير بهذه الكلمات، في حضور هؤلاء النسوة العطوفات، فستنفجر في عاصفة من الدموع، وستبكي حتى تمرض . . في الوقت الذي لا تستطيع فيه السماح لنفسها بالبكاء . . فهي في الحقيقة لم تبك منذ عودتها إلى البيت، ولذلك أدركت أنها إذا ما سمحت مرة بانسياب الدمع من شؤونها، فإن شجاعتها الموفرة ستذهب كلها . ولكنها أدركت أيضاً، وهي تنظر حائرة إلى الوجوه الصديقة حولها، أنها إذا كتمت نبأ موت أمها، فلن يسامحها الفونتينيون أبداً، خصوصاً أن غراندما كانت مخلصة لإيلين، ولم يكن يوجد في الولاية سوى عدد قليل جداً من الناس الذين تقدرهم السيدة العجوز .

ـ «هيّا، تكلمي» قالت غراندما، ناظرة إليها نظرات حادة «ألا تعرفين يا آنسة؟» .

ـ «إن المسألة هي أني لم آت البيت حتى اليوم الذي تلا المعركة» . أجابت على عجل «لقد كان جميع الشماليين قد ذهبوا حينئذ . أبي ـ أبي أخبرني ذلك ـ لقد استطاع إقناعهم بعدم إحراق البيت، لأن سولين وكارين كانتا مريضتين بالتيفوئيد، بحيث لم يكن نقلهما ممكناً» .

ـ «هذه أول مرة أسمع فيها أن شمالياً يقوم بعمل نبيل» قالت غراندما، وكأنها آسفة لسماع شيء حسن عن الغزاة . «وكيف حالة الفتاتين الآن؟» .

ـ «إنهما أحسن من قبل، أحسن بكثير . شفيتا تقريباً، ولكنهما لا تزالان ضعيفتين» أجابت سكارلت، ثم أسرعت، وقد رأت السؤال الذي تخشاه يحوم

على شفتي السيدة العجوز ، تبحث عن موضوع آخر للحديث . .

ـ «هل لي ، هل لي أن أعلم إن كنتن ستقرضننا شيئاً نأكله؟ لقد سلبنا الشماليون كل شيء ، كما يفعل سرب الجراد ، ولكن إن كنتن تفتقرن إلى الغذاء فأخبرنني بصراحة» .

ـ «أرسلي بورك مع عربة ، وسنبعث لك بنصف ما عندنا من الأرز والدقيق واللحمة وبعض الدجاج» قالت السيدة العجوز ملقية على سكارلت نظرة حادة فجائية .

ـ «إن ذلك كثير جداً! في الحقيقة إني . . .» .

ـ «ولا كلمة . لا أريد أن أسمعها . . . فلأي شيء يكون الجيران؟» .

ـ «أنت لطيفة جداً بحيث أني لا أستطيع . . . ولكن ينبغي أن أذهب الآن ، فسيكون الأهل في البيت قلقين علي» .

نهضت غراندما فجأة ، وأخذت سكارلت من ذراعها قائلة : «ابقيا أنتما هنا» ثم اتجهت وإياها نحو الشرفة الخلفية وأردفت : «عندي حديث خاص سأقوله لهذه البنية . ساعديني على نزول الدرجات يا سكارلت» .

ودعت الآنسة الفتية وسالي سكارلت ، ووعدتاها بالزيارة سريعاً ، وكانتا تتحرقان إلى معرفة الذي ستقوله غراندما لسكارلت ، ولكنهما لن تعرفا شيئاً عن ذلك ما لم تبادر هي إلى إخبارهما . إن العجائز عسيرات جداً ، همست الآنسة الفتية في أذن سالي ، وهما عائدتان لاستئناف الخياطة .

وقفت سكارلت ويدها على لجام الحصان ، وقلبها ينتابه شعور غامض . ـ «والآن» قالت غراندما متفرسة في وجهها «ماذا حدث في تارا؟ ماذا تكتمين؟» .

نظرت سكارلت في العينين الحادتين المسنتين ، وعرفت أن بوسعها قول الحقيقة دون أن تذرف الدمع ، فلم يكن بوسع إنسان البكاء في حضور غراندما فونتين دون إذنها الصريح .

ـ «لقد ماتت أمي» قالت بفتور .

واشتد ضغط اليد التي على ذراعها حتى آلمتها ، وأطرف الجفنان المتغضنان على العينين الصفراوين .

ـ «هل قتلها الشماليون؟» .

ـ «ماتت بالتيفوئيد . ماتت . . . في اليوم الذي سبق وصولي» .

ـ «لا تفكري في ذلك» قالت غراندما بحزم ، ورأتها سكارلت تبلع ريقها . . . «ووالدك؟» .

ـ «والدي . . . والدي ليس على طبيعته» .

ـ «ماذا تعني؟ أفصحي . . هل هو مريض؟» .

ـ «إن الصدمة . . إنه غريب الأطوار كثيراً . . . إنه ليس . . .» .

ـ «لا تخبريني أنه ليس على طبيعته . . هل تعنين أن عقله اختل؟» .

كان سماع الحقيقة تنطق جهاراً أمراً مفرجاً عن النفس . ما أحسن السيدة العجوز لأنها لم تبد من التأثر ما كان سيدفع سكارلت إلى البكاء . «نعم» ، قالت باكتئاب «لقد فقد عقله . إنه يتصرف تصرف الشدة ، وأحياناً يبدو كأنه لا يستطيع أن يتذكر أن أمي ميتة . . آه أيتها السيدة ، إن أكثر مما أستطيع احتماله أن أراه يجلس في وقت محدد ، ينتظر قدومها ، ويصبر أيضاً . . وهو الذي اعتاد أن لا يصبر أكثر من طفل . . . بيد أن أسوأ من هذا كله ، حالته عندما يتذكر أنها قضت . . . فبين الفينة والأخرى ، وبعد أن يكون قد جلس صامتاً وأذنه منتصبة لسماعها ، يثب فجأة ويخرج منفعلاً من البيت متجهاً إلى مدفنها ، ثم يعود مجرجراً قدميه ، والدموع تغمر وجهه ، ويردد القول التالي مرة بعد مرة ، حتى إني أكاد أصرخ : «كيتي سكارلت ، لقد ماتت السيدة أوهارا . لقد ماتت أمك» وأحس تماماً كما لو أني أسمع العبارة للمرة الأولى . وأحياناً ، وفي ساعة متأخرة من الليل ، أسمعه يناديها فأغادر سريري وأذهب إليه وأخبره أنها في حي الزنوج مع عبد مريض ، فيثور لأنها تتعب نفسها دائماً في تمريض الناس ، وحينذاك تصعب إعادته إلى السرير . . . إنه كالطفل . آه ، أتمنى لو كان الدكتور فونتين هنا ! إني أعرف أن بوسعه عمل شيء من أجل أبي ! كما أن ميلاني بحاجة إلى طبيب أيضاً ، فهي لم تتحسن كما ينبغي بعد أن وضعت طفلها» .

ـ «ميلاني . . . طفل؟ أهي معك؟» .

ـ «نعم» .

ـ «ماذا تفعل ميلاني معك؟ لماذا هي ليست في ميكون مع عمتها وأقربائها؟ لم أعتقد يوماً أنك تميلين إليها كثيراً يا آنسة ، على الرغم من أنها شقيقة زوجك ! والآن أخبريني كل ما في الأمر» .

ـ «إنها قصة طويلة يا سيدة . ألا تريدين العودة إلى داخل البيت للجلوس؟» .

ـ «بوسعي الوقوف» قالت غراندما «وإذا أنت رويت قصتك أمام الأخريين، فستولولان وتجعلانك تتألمين . والآن دعينا نسمعها» .

بدأت سكارلت متلعثمة بالحديث عن الحصار وعن حالة ميلاني، ولكن فيما كانت تتقدم بسرد قصتها أمام عيني العجوز النافذتين اللتين لم يرف لهما جفن في أثناء تحديقهما، وجدت ألفاظاً تسعفها، ألفاظاً ذات قوة ورهبة، وحضرتها كل الأحداث : يوم ولادة الطفل الشديد القيظ، نوبة الخوف الرهيبة التي انتابتها آنذاك، ، ثم الهرب ومغادرة ريت لهم . وتحدثت عن ظلام الليل البهيم، وعن نيران المعسكرات المتأججة، التي كان يمكن أن تكون نيران أصدقاء أو أعداء . . . وتحدثت عن المداخن الهزيلة التي واجهت عينيها الشاخصتين خلال شمس الصباح، وعن الرجال والخيول الميتة طول الطريق، وعن الجوع والدمار، والخوف من أن تكون تارا قد احترقت .

ـ « . . . وفكرت أن لو أستطيع فقط بلوغ البيت . . . بلوغ أمي، فستدبر هي كل شيء، وأستطيع بذلك أن ألقي عن نفسي العبء المضني . واعتقدت وأنا في طريقي إلى البيت أن أسوأ الأحداث قد حل بي، ولكنني عندما علمت بموتها عرفت ما كان أسوأ الأحداث حقاً» .

وأطرقت عينيها إلى الأرض تنتظر غراندما حتى تتكلم، وطال الصمت كثيراً بحيث تساءلت إذا ما كانت غراندما قد فشلت في إدراك حالتها المؤئسة . وأخيراً سمع الصوت الهرم، وكانت لهجته شفوقة أكثر من أي لهجة سمعت سكارلت غراندما تخاطب بها أي إنسان .

ـ «يا بنيتي، إن من السيئ جداً للمرأة أن تواجه أسوأ ما يمكن أن ينتابها من أحداث، لأنها بعد أن تكون قد واجهت الأسوأ، لن تستطيع أن تخاف شيئاً البتة . ومن السيئ جداً للمرأة أيضاً، أن لا تخاف شيئاً . أتعتقدين أني لم أفهم ما رويته لي . . . ما كابدته من أهوال؟ لا، إني أفهم ذلك جيداً» .

وتلاشى صوتها ووقفت صامتة، وعيناها تنظران إلى الماضي، إلى ما قبل نصف قرن، إلى اليوم الذي كانت فيه خائفة، وتحركت سكارلت وقد نفد صبرها . . . لقد اعتقدت أن غراندما ستفهم، ولربما تدلها على بعض الوسائل

لحل مشاكلها . ولكنها كجميع المسنين ، أغرقت في الحديث عن الأمور التي حدثت قبل أن يولد أي إنسان ، الأمور التي لم يكن أحد ليحفل بها . وتمنت سكارلت أن لو لم تثق بها .

ـ «حسناً ، عودي إلى البيت يا بنية ، وإلاّ فسيجزعون عليك» قالت غراندما فجأة ، «وأرسلي بورك مع العربة بعد ظهر اليوم . . . ولا تظن أن بإمكانك إلقاء العبء عن نفسك يوماً . ، إني أعرف ذلك» .

*

طال الصيف الهندي في تلك السنة فامتد حتى تشرين الثاني/ أكتوبر ، وكانت أيامه الدافئة أياماً رائعة بالنسبة إلى سكان تارا . لقد انقضت أسوأ الأيام . أما اليوم فهم يملكون حصاناً ، وبوسعهم الركوب بدلاً من المشي ، وهم ينعمون ببيض مسلوق للفطور ، وبلحم مشوي للغداء في سبيل تغيير ديمومة البطاطا والفول والتفاح المجفف ، وفي إحدى المناسبات المفرحة ظفروا حتى بالدجاج المحمر .

وكان قد قبض على الخنزيرة الهرمة في النهاية ، فقبعت هي وخنانيصها هانئة تحت البيت ، حيث زربت . وكانت بعض الأحيان تقبع قباعاً عالياً جداً بحيث لا يستطيع أحد التحدث داخل البيت ، ولكنه كان صوتاً ساراً رغم ذلك ، فقد كان يعني لحماً طازجاً للبيض ومقانق للزنوج ، وذلك عندما يبرد الطقس ويحين أوان ذبح الخنازير ، وهو يعني أيضاً طعاماً للجميع خلال فصل الشتاء .

لقد شدّت زيارة سكارلت لآل فونتين عزمها أكثر مما شعرت ، فإن مجرد معرفتها بوجود جيران لها ، وبأن بعض أصدقاء العائلة والبيوت القديمة ما زالت باقية ، أبعدت عنها فكرة الخسارة الفادحة والشعور بالوحدة اللذين أمضاها خلال أسابيعها الأولى في تارا . وكان آل فونتين وآل تارلتون ، الذين لم تكن مزرعتاهما في طريق الجيش الزاحف ، كرماء جداً في إشراك تارا بالقليل الذي يملكون ، لقد كان من تقاليد الولاية أن يساعد الجار جاره ، ولذلك رفضوا قبول بنس واحد من سكارلت ، قائلين إنها كانت ستفعل الشيء ذاته معهم لو هم أصيبوا ، وإن بوسعها سدادهم من المحاصيل عندما تعود تارا إلى الإنتاج في السنة التالية .

أضحت سكارلت الآن تملك طعاماً لأفراد بيتها ، وتملك حصاناً ونقوداً ومصاغاً أخذت من الشمالي الشارد ، وصار أشد ما تحتاج إليه اليوم هو الكساء الجديد . كانت تعرف أن من المخاطرة إرسال بورك جنوباً لشراء الثياب ، حيث يمكن أن يسلب الحصان سواء من قبل الشماليين أو الجنوبيين ، غير أنها على الأقل كانت تملك النقود التي تستطيع بها شراء الثياب ، وتملك حصاناً وعربة من أجل الرحلة ، وقد يستطيع بورك القيام بالرحلة دون أن يُقبض عليه . . . أجل لقد انقضى الأسوأ .

وكانت عندما تستيقظ كل صباح ، تشكر الله على السماء الشاحبة الزرقة وعلى الشمس الدافئة ، لأن كل يوم من هذا الطقس الجيد كان يؤخر الوقت الذي لا بد منه ، والذي سيكون فيه الرهط في حاجة إلى الملابس الشتوية ، كما أن كل يوم دافئ يمر كان يلازمه قطن أكثر وأكثر من سابقه يتكوم عالياً في غرف الزنوج الفارغة ، المكان الوحيد الذي بقي للخزن في المزرعة . ويبدو أن حقول المزرعة كانت تحوي قطناً أكثر مما ظنت هي وبورك ، فقد يبلغ النتاج أربع بالات ، وسرعان ما تمتلئ الغرف به .

ولم تكن سكارلت قد قررت قطاف شيء من القطن بنفسها ، حتى بعد سماع ملاحظة غراندما فونتين اللاذعة . لقد كان مما لا يمكن التفكير فيه أن يكون عليها هي ، إحدى سيدات آل أوهارا وسيدة تارا الآن ، العمل في الحقل ، فإن ذلك يضعها في مستوى السيدة سلاتري ذات الشعر الجعدي ، وابنتها إيمي . لقد قررت أن يكون من واجب الزنوج القيام بعمل الحقل ، بينما تعتني هي وشقيقتاها النقهتان بشؤون البيت . غير أنها جوبهت بشعور طبقي أعنف حتى من شعورها هي ، ذلك أن بورك ومامي وبرسي ، استنكروا صائحين فكرة تشغيلهم في الحقل ، مرددين القول إنهم زنوج بيتيون لا عمال حقل ، كما أعلنت مامي ، بصورة خاصة ، أنها لم تكن يوماً ما حتى زنجية ساحة . لقد ولدت في بيت آل روبلارد العظيم ، لا في غرفة الزنوج ، ولقد تربّت في غرفة نوم السيدة الجليلة ، تنام على فرشة قش عند أسفل السرير . أما دلسي فهي الوحيدة التي لم تقل شيئاً ، بل إنها أخضعت ابنتها برسي بعين لا تطرف جعلتها تتلوى فزعاً .

رفضت سكارلت سماع الاحتجاجات ، وساقتهم جميعاً إلى أثلام القطن ،

ولكن مامي وبورك اشتغلا ببطء شديد ، وبكثير جداً من عبارات التذمر ، ما دفع سكارلت إلى إعادة مامي إلى المطبخ لطهي الطعام ، وإلى إرسال بورك إلى الغابات والنهر ، ومعه فخاخ لصيد الأرانب والسناجب وشباك لصيد السمك . لقد كان قطاف القطن محطاً لكرامة بورك ولكن الصيد لم يكن كذلك .

جربت سكارلت بعد ذلك شقيقتيها وميلاني في عمل الحقل ، ولكن ذلك لم يسفر عن نتيجة أفضل ، لقد قطفت ميلاني بعناية وسرعة وطيبة خاطر مدة ساعة في الشمس الحارة ، ثم أغمي عليها ، واضطرت إلى أن تلزم فراشها طيلة أسبوع . أما سولين فقد تظاهرت بالإغماء وهي متجهمة الوجه منهمرة الدموع ، ولكنها عادت إلى رشدها وهي تبصق كقطة غضبى ، عندما سكبت سكارلت قدر ماء على وجهها ، وأخيراً أعلنت رفضها جهاراً قائلة :

ـ «لن أشتغل في الحقول كزنجية ، وليس بوسعك إرغامي على ذلك . وماذا لو سمع أحد أصدقائنا بذلك؟ ماذا لو . . . لو علم السيد كندي؟ آه لو أن أمك علمت بهذا !» .

ـ «إذا ما ذكرت اسم أمك مرة أخرى فقط يا سولين أوهارا ، فسأصفعك علناً» ، صاحت سكارلت «لقد كانت أمنا تشتغل بجد أكثر من أي زنجي في هذا المكان ، وأنت تعرفين ذلك أيتها الآنسة المدللة» .

ـ «لا ، لم تكن تشتغل ! على الأقل ليس في الحقل ، وليس بوسعك تشغيلي . سأخبر أبي عنك ، فهو لن يجبرني على العمل» .

ـ «إياك أن تقدمي على إزعاج أبي بأي من مشاكلنا !» صاحت سكارلت حائرة بين السخط على شقيقتها وبين الخوف على أبيها .

ـ «أنا أساعدك يا أختاه» تدخلت كارين بسذاجة «سأشتغل عن سولين وعن نفسي أيضاً . إنها لم تنقه بعد وينبغي أن لا تخرج في الشمس» .

فأجابتها سكارلت مقرة بجميلها :

ـ «أشكرك يا حلوتي» ، ولكنها نظرت بغيظ إلى سولين .

لم تعد كارين التي كانت دائماً بيضاء موردة الوجه كأزهار البستان التي نثرها ريح الربيع ، لم تعد متوردة الوجه ، بيد أنها ما زالت تحمل في وجهها العذب المفكر صفة شبيهة بصفات الزهور ، فقد كانت صامتة مبهورة قليلاً ، منذ استعادت وعيها واكتشفت أن أمها لفظت روحها وأن سكارلت أصبحت

فظة وأن الدنيا تبدلت وأن نظام العهد الجديد هو العمل الدائم الذي لا يتوقف . ولم يكن في طبيعة كارين الرقيقة القدرة على تكييف نفسها على هذا التطور ، ولم تستطع ببساطة فهم الذي حدث ، ولذا راحت تتجول في تارا كمن يسير في نومه ، تفعل تماماً ما تؤمر بفعله . كانت تبدو كما هي نحيلة ، ولكنها كانت ذات إرادة قوية ، مطيعة مفضالة ، وعندما لم تكن منهمكة في تنفيذ أوامر سكارلت ، كانت سبحتها دائماً في يديها ، وشفتاها تتحركان في الصلاة لأمها ولبرنت تارلتون . ولم يخطر لسكارلت ببال أن كارين قد اعتبرت موت برنت بمثل هذه الفداحة ، وأن حزنها عليه لم ينضب بعد ، إذ كانت كارين بنظرها لا تزال طفلة صغيرة جداً أصغر من أن تفدحها قضية حب جدي حقاً .

وفيما كانت سكارلت تقف في الشمس بين صفوف القطن وظهرها مقصوم من الانحناء ،ويداها متخشنتان من لوزات القطن الجافة ، تمنت أن لو كان لها شقيقة تجمع بين حيوية سولين وقوتها ومزاج كارين الطيب . فقد كانت كارين تقطف بنشاط ولهفة ، ولكنها بعد أن عملت مدة ساعة ، ثبت بوضوح أنها هي ، لا سولين ، التي لم تنقه بعد لتستطيع القيام بعمل كهذا ، وهكذا أعادت سكارلت كارين إلى البيت أيضاً . ولم يبق معها الآن بين صفوف القطن الطويلة سوى دلسي وبرسي فقط ، برسي تقطف بتوان ونزق ، متذمرة من قدميها وظهرها ودواعي شقائها الداخلية وإعيائها التام ، حتى اضطرت أمها إلى أن تأخذ ساق قطن وتجلدها به إلى أن صاحت . وعلى أثر ذلك حسنت عملها قليلاً ، وحرصت على أن تقف بعيداً عن متناول أمها .

وأما دلسي فكانت تعمل صامتة دون إعياء كالآلة ، وفكرت سكارلت وظهرها يؤلمها وكتفها منفط من جراء حمل كيس القطن الثقيل ، فكرت أن دلسي تساوي وزنها ذهباً .

- «دلسي» قالت «عندما تعود الأوقات الطيبة ، لن أنسى كيف كنت تشتغلين ، لقد كنت طيبة جداً» .

لم تبتسم العملاقة البرونزية سروراً ، ولم تتهاد إعجاباً بتأثير الإطراء ، كما كان يفعل الزنوج الآخرون ، بل أدارت وجهاً رصيناً نحو سكارلت وقالت بوقار .

- «أشكرك يا سيدة ، ولكن السيد جيرالد والسيدة إيلين كانا كريمين معي ،

لقد اشترى السيد جيرالد ابنتي برسي لئلا أحزن من أجلها ولن أنسى صنيعه . إني هندية جزئياً ، والهنود لا ينسون من أحسن إليهم . إني آسفة لتصرف برسي ، فهي عديمة الفائدة تماماً ، ويظهر أنها زنجية مائة في المائة كأبيها . . . لقد كان أبوها في منتهى الرعونة» .

وعلى الرغم من فشل سكارلت في الحصول على عون الآخرين من أجل قطاف القطن ، وعلى الرغم مما أصابها من إجهاد بسبب قيامها بالمهمة بنفسها ، فقد ارتفعت معنوياتها والقطن يأخذ طريقه ببطء إلى غرف الزنوج ، إذ كان هناك شيء في هذا القطن يطمئنها ويقوي عزمها . . . لقد ارتقت تارا إلى الثروة من طريق القطن ، تماماً كما ارتقى الجنوب كله ، ولقد كانت سكارلت جنوبية إلى درجة تجعلها تؤمن بأن تارا والجنوب سيرتقيان ثانية من طريق الحقول الحمراء .

دون شك ، لم يكن هذا القطن الذي جمعته مقداراً كبيراً ، ولكنه كان شيئاً له قيمته ، إذ سيتيح لها الظفر بقليل من العملة الحلفية ، وسيساعدها هذا القليل على توفير أوراق النقد والذهب المدخرين في حافظة الشمالي إلى أن يحين الوقت اللازم لصرفهما . وستحاول في الربيع التالي أن تجعل حكومة الحلف تعيد إليها سام الكبير وزنوج الحقل الآخرين الذين جندتهم ، وإذا لم تطلق الحكومة سراحهم ، فستستغل نقود الشمالي لاستئجار عمال حقول من الجيران . . . ستزرع في الربيع القادم ، ستزرع الكثير . . . ورفعت ظهرها المتعب وأرسلت نظرها فوق حقول الخريف البنية اللون ، ورأت نبتات السنة التالية تنتصب قوية خضراء .

الربيع القادم! قد تنتهي الحرب وتعود الأوقات الطيبة في الربيع القادم . وسواء أربح الحلف أم خسر ، ستكون الأيام أفضل من هذه . أي شيء سيكون أفضل من خطر الغارات الدائم من كلا الجيشين . . . عندما تنتهي الحرب ، سيكون بوسع المزرعة أن توفر معيشة شريفة لقاطنيها . . آه لو أن الحرب منتهية وحسب ، لاستطاع الناس حينئذ أن يزرعوا الغلال ، وفي قلوبهم بعض الثقة في أنهم سيحصدونها .

27

في يوم من أيام منتصف تشرين الثاني/ أكتوبر ، كان آل أوهارا يجلسون مجتمعين حول مائدة الغداء يأكلون بقية الحلوى التي ابتدعتها مامي من دقيق الذرة والتوت ، وكان الهواء يحمل لذعة باردة ، اللذعة الباردة الأولى لهذه السنة ، حين فرك بورك ، الذي كان يقف وراء كرسي سكارلت ، يديه فرحاً ثم استفسر :

ـ «أليس هذا هو أوان ذبح الخنازير يا آنسة سكارلت؟» .

ـ «بوسعك تذوق تلك المقانق منذ الآن ، أليس كذلك؟» قالت سكارلت مبتسمة «على كل حال بوسعي أنا تذوق لحم الخنزير الطازج ، وإذا احتفظ الطقس بحالته أياماً قليلة أخرى ، فسوف . . .» .

وهنا قاطعتها ميلاني ، وملعقتها على شفتيها ، قائلة :

ـ «أصغي يا عزيزتي . . . هناك شخص قادم» .

ـ «شخص يصيح» قال بورك مضطرباً .

وحمل هواء الخريف الجاف صوت حوافر خيل تدق الأرض سريعة كطرقات قلب مذعور ، وحمل الهواء أيضاً صوت امرأة تصيح بأعلى صوتها :

ـ «سكارلت ! سكارلت !» .

والتقت العيون حول المائدة في لحظة رهيبة ، قبل أن تدفع الكراسي إلى الخلف ، ويقفز الجميع ، وعلى الرغم من أن الخوف أحال الصوت إلى زعيق حاد ، فإن كل من في الغرفة ميز فيه صوت سالي فونتين ، التي كانت قد توقفت في تارا لحديث قصير ، وهي في طريقها إلى جونسبورو قبيل ساعة فقط . وعندما اندفع الجميع في هرج ومرج ليتجمهروا على الباب الأمامي ، رأوها تصعد الممشى بسرعة الريح فوق حصان مزبد ، وقبعتها متدلية بشرائطها .

لم تجذب سالي عنان فرسها ، ولكن فيما كانت تعدو كالمجنونة نحوهم ، راحت تلوح بيدها إلى الخلف ، في الاتجاه الذي جاءت منه» .

ـ «الشماليون قادمون ! لقد رأيتهم في أسفل الطريق ! الشماليون . . .» .

وضربت بعنف على خطم الحصان ، تماماً في الوقت الملائم ، لتمنعه من الوثب

على الدرجات الأمامية ، فاستدار الحيوان باندفاع ، وقطع المرجة الجانبية في قفزات ثلاث ، وقادته سالي عبر الحاجز البالغ ارتفاعه أربعة أقدام كما لو كانت في ميدان الصيد . ثم سمع الواقفون وقع حوافره الثقيلة وهو يجري في الساحة الخلفية ، ومنها نزولاً إلى الزقاق الضيق ، بين غرف العبيد ، وأدركوا أنها تعدو عبر المزارع نحو ميموسا .

وقف الجميع هنيهة مشلولين بلا حراك ، ثم شرعت سولين وكارين بالنشيج ، ووقف ويد الصغير مسمراً في الأرض ، يرتجف وهو غير قادر على البكاء . لقد وقع الذي كان يخافه منذ الليلة التي غادر فيها أتلانتا . . .إن الشماليين قادمون ليأخذوه .

ـ «الشماليون؟» قال جيرالد مخبولاً «ولكن الشماليين كانوا هنا منذ فترة وجيزة» .

ـ «يا إلـــهي» صاحت سكارلت وعيناها تقابلان عيني ميلاني المذعورتين . وعادت بها الذكرى في لحظة خاطفة إلى أهوال ليلتها الأخيرة في أتلانتا ، إلى البيوت المدمرة المنتشرة في الريف ، إلى كل قصص الاغتصاب والعذاب والتقتيل ، ورأت ثانية الجندي الشمالي يقف في القاعة وبيده علبة خياطة أمها ، وفكرت : «سوف أموت الآن هنا ، لقد ظننت أننا انتهينا من كل هذا ، سوف أموت ، لا يسعني احتمال أي رزء آخر» .

ثم وقعت عيناها على الحصان مسرجاً مربوطاً ينتظر بورك ليركبه في مهمة إلى مزرعة آل تارلتون . حصانها ! حصانها الوحيد ! سيأخذه الشماليون ويأخذون البقرة والعجل أيضاً ، والخنزيرة وخنانيصها ـ آه ، كم ساعة متعبة استغرقت عملية القبض على تلك الخنزيرة وصغارها الخفاف الحركة ! وسيأخذون الديك والدجاجات الرابضة فوق البيض ، والبط الذي أعطاها إياه آل فونتين ، والتفاح والبطاطا الحلوة التي في صندوق المؤونة ، والدقيق والأرز والحمص ، والنقود التي في حافظة الشمالي ، سيأخذون كل شيء ، وسيتركونهم ليموتوا جوعاً .

ـ «لا ، لن يأخذوها» صاحت بصوت مرتفع ، والتفت الجميع نحوها ووجوههم مجفلة ، ، وقد خشوا أن يكون قد أصاب عقلها سوء جراء النبإ ، «لا ، لن أجوع ! لن يأخذوها !» .

ـ «ما هي يا سكارلت؟ ما هي» .

ـ «الحصان ! البقرة ! الخنازير ! لن يأخذوها ! لن أدعهم يأخذونها !» .

والتفتت بسرعة إلى الزنوج الأربعة ، الذين ازدحموا في البوابة ، يظلل وجوههم السوداء لون رمادي غريب . وقالت على عجل :

ـ «الهور !» .

ـ «أي هور؟» .

ـ «هور النهر أيها الأغبياء . خذوا الخنازير إلى الهور ، جميعكم ، بسرعة . بورك ، أنت وبرسي ازحفا تحت البيت وأخرجا الخنازير . سولين ، أنت وكارين املآ السلال بالقدر الذي تستطيعان حمله من الطعام ، وأسرعا إلى الغابات ، مامي ! ضعي الأواني الفضية في البئر ثانية ، وبورك أصغ إليّ ، لا تقف هناك هكذا ، خذ أبي معك ، لا تسلني أين ! إلى أي مكان ! اذهب مع بورك يا أبي . . إنه رجل طيب» .

وحتى وهي على هذه الحالة من الجنون ، فكرت بما يمكن أن يفعل منظر المعاطف الزرقاء في عقل أبيها المترجرج . ووقفت تلوي يديها ، وزاد في هلعها نشيج الذعر ينبعث من ويد الصغير ، وهو يتمسك بتنورة ميلاني .

ـ «ماذا أعمل يا سكارلت؟» ارتفع صوت ميلاني هادئاً وسط العويل والدموع والأقدام المسرعة . ومع أن وجهها كان أبيض كالورق ، وجسدها كان يرتجف كله ، إلاّ أن مجرد الهدوء في صوتها قوّى من جأش سكارلت ، إذ أبان لها أنهم جميعاً يتطلعون إليها لتلقي الأوامر ، لتلقي الإرشاد .

ـ «البقرة والعجل» قالت بسرعة ، «إنهما في المرعى القديم . خذي الحصان وسوقيهما إلى الهور ، و . .» .

وقبل أن تتمكن من إنهاء عبارتها نفضت ميلاني قبضتي ويد عن تنورتها ، وانطلقت تنزل الدرجات الأمامية ، وجرت نحو الحصان رافعة تنورتها وهي تركض . ولمحت سكارلت في نظرة خاطفة ، ساقين نحيلتين وتنورة تتطاير ، وثياباً داخلية تخفق ، ثم أضحت ميلاني فوق السرج ، قدماها يتدليان أعلى من الركابين بمسافة كبيرة ، بيد أنها جمعت الزمام بيدها وصفقت بقدميها على جنبي الحيوان ثم جذبته فجأة ، ووجهها ينتفض فزعاً .

ـ «ولدي !» صاحت «آه ولدي ! سيقتله الشماليون ! أعطني إياه !» .

كانت يدها على عجرة السرج ، وكانت تستعد للرحيل ، ولكن سكارلت صاحت بها :

ـ «تابعي المسير . تابعي المسير ! خذي البقرة ! وسأعتني أنا بولدك . إني أقول لك تابعي المسير ! هل تعتقدين أني سأدعهم ينالون ابن آشلي بسوء؟ تابعي المسير !» .

وتطلعت ميلاني إلى الوراء بوجه بائس ، ولكنها ضربت الحصان بقدميها ، وانطلقت في الممشى نحو المرعى ، بعد أن بعثرت الحصباء تحتها .

وهجست سكارلت : «لم أكن أتوقع أبداً أن أرى ميلاني هاملتون تهمز حصاناً بساقيها» ، ثم جرت إلى داخل البيت ووِيد في أعقابها ينشج محاولاً إمساك تنورتها المتطايرة . وفيما هي تصعد الدرجات ثلاث ثلاث ، رأت سولين وكارين وسلال السنديان على أذرعهما ، تركضان باتجاه غرفة المؤونة ، كما رأت بورك يشد بذراع جيرالد دونما رفق ، يجره نحو الشرفة الخلفية ، بينما الأخير يغمغم متذمراً ويحاول الإفلات منه كصبي صغير .

وسمعت صوت مامي المجلجل صادراً من الساحة الخلفية :

ـ «أنت يا برسي ، انزلي تحت البيت وناوليني الخنانيص ، أنت تعرفين تمام المعرفة أني سمينة جداً لا أستطيع الزحف عبر هذا الممر . دلسي ، تعالي هنا واجعلي هذه البنية العديمة الجدوى . . .» .

ـ «ولقد اعتقدت أن حفظ الخنازير تحت البيت خطة سليمة جداً ، بحيث لن يستطيع أحد سرقتها» تمتمت سكارلت وهي تركض إلى غرفتها «كيف ! ها ، لماذا لم أبتن لها حظيرة في الهور؟» .

وفتحت أعلى جارور في خزانتها بعنف وبحثت بين الثياب ، إلى أن صارت حافظة الشمالي في يدها . وبسرعة ، تناولت الخاتم الثمين ذا الفص الواحد والقرطين الماسيين من حيث كانت تخبئهما في علبة خياطتها ودستهما في الحافظة . ولكن أين ستخبئ الحافظة؟ في الفرشة؟ في أعلى المدخنة؟ ترميها في البئر؟ تضعها في صدرها ، لا ، ليس هناك أبداً ! فقد تبين معالم الحافظة من خلال قميصها ، وإذا رآها الشماليون ، فسوف يجردونها من ملابسها ويفتشونها .

ـ «سأموت إن هم فعلوا ذلك» فكرت ذاهلة .

ومن الطابق السفلي ، كان يسمع هدير الأقدام المتسابقة والأصوات الناشجة ، وحتى وهي في حالة جنونها هذه ، تمنت سكارلت أن لو كانت ميلاني معها ، ميلاني بصوتها الهادئ ، ميلاني التي تحلت بشجاعة فائقة يوم قتلت الشمالي . إن ميلاني تساوي ثلاثة من الآخرين ، ميلاني . . . ماذا قالت ميلاني؟ ها ، نعم ، الطفل !

وقربت الحافظة منها ، وجرت عبر القاعة إلى الغرفة التي كان ينام فيها بو الصغير في مهده المنخفض ، فانتشلته بين ذراعيها ، واستيقظ هو ، ملوحاً بقبضتيه الصغيرتين ، مرغياً ناعساً . وسمعت سولين تصيح :

ـ «هيا كارين ، لقد أخذنا الكفاية ، هيا يا أختاه ، أسرعي» .

وعلا صراخ حاد وقباع ساخط من الساحة الخلفية ، وعندما أسرعت سكارلت إلى النافذة ، رأت مامي تتهادى مسرعة عبر حقل القطن بخنوص يحاول الهرب من تحت ذراعها ، وخلفها ، كان بورك يحمل خنوصين ويدفع أمامه أباها ، الذي كان يدوس عبر الأثلام ، ملوحاً بعصاه .

وانحنت سكارلت عبر النافذة وصاحت :

ـ «خذي الخنزيرة يا دلسي ! دعي برسي تطردها إلى الخارج ، بوسعك سوقها عبر الحقول» .

ورفعت دلسي بصرها ، وكان معها كومة من أدوات المائدة الفضية ، وعلى وجهها أمائر الضيق ، ثم أشارت إلى تحت البيت قائلة : «لقد عضت الخنزيرة برسي ، وحبستها تحت المنزل» .

ـ «شكراً للخنزيرة» قالت سكارلت ، وقفلت راجعة إلى غرفتها بسرعة ، وعلى عجل ، جمعت من مخبئها الأساور والدبوس والرسم الصغير والكأس الذي وجدته مع الشمالي القتيل ، ولكن أين ستخبئها؟ كان الوضع مربكاً ، فهي تحمل بو الصغير في إحدى ذراعيها ، وتحمل المحفظة والحلى في الأخرى . وهرعت لتضع الرضيع فوق السرير ، ولكن الطفل شرع في العويل عندما غادر ذراعها ، وإذ ذاك خطرت لها فكرة سارة ، أي مخبأ يمكن أن يكون أفضل من قماط الطفل؟ وبسرعة ، قلبته على وجهه ، ورفعت ثوبه ودفعت الحافظة في القماط إزاء عجزه ، فزاد عويله حدة بفعل ذلك ، ولكنها بسرعة أحكمت وضع الخرقة المثلثة حول ساقيه الملبطتين .

ـ «والآن» فكرت متنفسة نفساً عميقاً، «الآن إلى الهور».

واندفعت في القاعة العليا، حاشرة بو المولول تحت ذراعها، ضامة المصاغ إلى صدرها بالذراع الأخرى. وفجأة توقفت قدماها المسرعتان، وثنى الرعب ركبتيها.. ما أشد سكون البيت! ما أدعى صمته إلى الفزع! هل ذهب الجميع وتركوها؟ ألم ينتظرها أحد؟ إنها لم تقصد أن يتركوها وحيدة هنا! ففي هذه الأيام يمكن أن يحدث كل شيء لامرأة وحيدة... والشماليون قادمون»...

وقفزت على أثر سماع صوت خفيف، وعندما استدارت بسرعة، رأت ابنها المنسي يجلس القرفصاء بجانب الدرابزين وعيناه متسعتان من الرعب. وحاول الصبي أن يبكي، ولكن بلعومه تحرك بصمت فقط.

ـ «انهض يا ويد هاملتون»، أمرته بسرعة «انهض وسر على قدميك، فإن أمك لا تستطيع حملك الآن».

فعدا نحوها كحيوان صغير مذعور، وقبض على تنورتها الواسعة، دافناً رأسه فيها، واستطاعت أن تحس بيديه وهما تتلمسان طريقهما بين ثنايا الثوب لتمسكا بساقيها. وشرعت تهبط السلم، ويدا ويد تعرقلان كل خطوة من خطواتها، الأمر الذي جعلها تخاطبه بعنف «اتركني يا ويد، اتركني وسر على قدميك» ولكن الطفل ازداد تعلقاً بها.

وعندما بلغت بسطة الدرج، وثب جميع الطابق السفلي نحوها، وبدا لها كأن جميع قطع الأثاث المألوفة المحبوبة كانت تهمس «وداعاً» وارتفعت تنهدة إلى حنجرتها ووقع بصرها على باب المكتب المفتوح، حيث كانت تعمل أمها بنشاط فائق، واستطاعت أن تلمح زاوية المنضدة العتيقة. ورأت غرفة الطعام، الكراسي فيها مدفوعة جانبياً، والطعام ما زال في الصحاف، وعلى الأرض امتدت قطع السجاد الخشنة التي كانت إيلين قد حاكتها وصبغتها بنفسها، وكان هناك الرسم القديم لغراندما روبلارد بثديين نصف عاريين، وبشعر مجموم عالياً، وبمنخرين مرسومين بشكل بارز جداً كي يضفيا على وجهها طابعاً تهكمياً رفيعاً خالداً. وبدت كل الأشياء التي كانت جزءاً من ذكرياتها الأولى، كل الأشياء المرتبطة بها بأعمق الجذور، بدت وكأنها تقول:

ـ «وداعاً! وداعاً! سكارلت أوهارا!».

سيحرق الشماليون كل شيء.. كل شيء!

إن هذه آخر رؤية لها للبيت ، آخر رؤية لها ، سوى الذي يمكن أن تراه من خلال حجب الغابات ، أو من الهور ، كالمداخن الطويلة يلفها الدخان ، والسقف يدمره اللهيب .

ـ «لا ، لا أستطيع تركها» فكرت وأسنانها تصطك من الخوف ، «لا أستطيع تركها . . . أبي لا يود تركها . . . لقد أخبرهم أن يحرقوها فوق رأسه . إذاً ليحرقوها فوق رأسي ، لأني لا أستطيع تركها أنا أيضاً . . . إنها كل ما أملك» .

وبهذا القرار ، زاولها بعض الخوف ، ولم يبق فقط سوى إحساس متصلب في صدرها ، كما لو أن كل الأمل والخوف قد تجمدا . وفيما هي تقف هناك ، سمعت من ناحية الممشى الواسع صوت قوائم خيل عديدة ، جلجلة حديد أعنة ، وقعقعة سيوف في أغمادها ، وصوت أجش يصيح آمراً :

ـ «ترجلوا !» ، فانحنت بسرعة نحو الصبي الذي بجانبها ، وقالت بصوت ملح ولكنه رقيق على غير عادته :

ـ «اتركني ، ويد ، حبيبي ! هيا انزل السلم جرياً واقطع الساحة الخلفية إلى الهور ، ستكون مامي والعمة ميلي بانتظارك ، اجر بسرعة يا عزيزي ولا تخف» .

وتطلع الصبي إلى أعلى ، يدفعه التغير في لهجة أمه ، وارتاعت سكارلت من النظرة التي انتابت عينيه ، إذ بدا بها كأرنب صغير في الفخ .

ـ «يا مريم العذراء !» ابتهلت «لا تدعيه يتشنج من الخوف ! لا ، ليس أمام الشماليين ، ينبغي أن لا يعرفوا أنّا خائفون» .

وعندما بالغ الطفل في تعلقه بأهدابها ، خاطبته بصوت جلي :

ـ «كن شاباً يا ويد ، إنهم مجرد زمرة من الشماليين الملعونين !» .

ونزلت الدرج لتواجههم .

*

من أتلانتا إلى البحر ، كان شيرمان يزحف عبر جورجيا ، وخلفه يتراكم حطام أتلانتا الداخن ، التي أشعلت فيها النار ساعة غادرها الجيش الأزرق ، وأمامه كانت تمتد مئات الأميال من ولاية تكاد تكون خالية من وسائل الدفاع عملياً ، اللهم إلاّ من عدد قليل من ميليشيا الولاية وأفراد الحرس الوطني من الشيوخ والفتيان .

هنا تقع الولاية الخصبة ، التي تنتشر فيها المزارع ، وتأوي إليها النساء والأطفال والشيوخ المسنون والزنوج ، وعلى خط عرضه ثمانون ميلاً منها ، كان الشماليون ينهبون ويحرقون . كان هناك مئات من المنازل المشتعلة ، مئات من المنازل تهتز بوقع أقدامهم . ولكن ، بالنسبة إلى سكارلت ، التي كانت تراقب المعاطف الزرقاء وهي تندفع في القاعة الأمامية من البيت ، لم يكن الأمر قضية بلاد عامة ، بل كان أمراً شخصيّاً محضاً ، عملاً خبيثاً موجهاً إليها وإلى ممتلكاتها .

وقفت عند أسفل السلم ، والطفل بين ذراعيها ، وويد يلتصق بها بقوة ورأسه مختف في تنورتها ، بينما أخذ الشماليون يتجمّعون داخل البيت ، وينطلقون إزاءها بخشونة ، صاعدين الدرج ، جارين قطع الأثاث إلى الشرفة الأمامية ، غارزين الحراب والخناجر في المفروشات ، نابشين بطونها بحثاً عن أشياء ثمينة مخبأة .

وفي الطابق العلوي راحوا يشقون الفراش وحشايا الريش ، حتى امتلأ هواء القاعة بالريش الذي أخذ يتطاير ببطء هابطاً على رأسها . وفيما كان الجنود ينهبون ويسرقون ويدمرون ، وقفت هي حائرة دون حيلة ، وقد طرد الغضب الواهن ما تبقى من خوف قليل في قلبها .

كان العريف المسؤول رجلاً صغير الحجم شائب الشعر مقوس الساقين ، داخل فمه مضغة تبغ كبيرة ، وكان قد بلغ موضع سكارلت قبل جميع رجاله ، فابتدرها باقتضاب ، باصقاً على الأرض ، وعلى تنورتها جهاراً :

ـ «دعيني آخذ ما بيدك يا سيدة» .

كانت سكارلت قد نسيت الحلى التي اعتزمت تخبئتها ، فقذفت بها إلى الأرض باستهزاء أملت أن يكون بيّن الدلالة كذلك الاستهزاء الذي ينطق به وجه غراندما روبلارد في الصورة وابتهجت تقريباً إذ رأت ما نتج عن قذف الحلي من تدافع ضار بين الجنود في سبيل اغتنامها .

ـ «سأزعجك من أجل ذلك الخاتم وذينك القرطين» . قال .

فحشرت سكارلت الطفل تحت ذراعها بصورة أكثر أماناً ، بحيث تدلى وجهه نحو الأرض مخضباً مولولاً ، ثم نزعت القرطين العقيقين اللذين كانا هدية جيرالد لإيلين في عرسها ، وبعد ذلك جردت أصبعها من الخاتم ذي

الياقوتة الزرقاء الكبيرة ، الذي كان قد قدمه لها تشارلز كخاتم للخطوبة .

ـ «لا تقذفيها ، ناوليني إياها» ، قال العريف ماداً يديه ، «لقد نال أولاد الزانية إلى الآن ما يكفيهم . . . ماذا تملكين أيضاً؟» ومرت عيناه فوق قميصها بتمعن .

وفي الحال شعرت سكارلت لفترة بالإغماء ، وأحست بيدين خشنتين تندفعان إلى صدرها وتعبثان بأحزمتها .

ـ «هذا كل ما أملك ، ولكن أظن أن من المألوف لديكم تجريد ضحاياكم؟» .

ـ «ها ، سأثق بكلمتك» قال بنية سليمة ، وبصق ثانية وهو يستدير منصرفاً عنها . وعدلت سكارلت وضع الطفل ، وحاولت تهدئته واضعة يدها فوق موضع المحفظة المخبأة في الدثار ، شاكرة الله أن لميلاني طفلاً ، وأن للطفل دثاراً .

واستطاعت سماع وقع الجزمات الثقيلة من الطابق العلوي ، وقعقعة الأثاث وهو يقاوم جره على الأرض ، وقرقعة الأواني الخزفية والمرايا المهشمة ، وصوت اللعنات تنبعث عندما كان الناهبون لا يجدون شيئاً ثميناً . وبلغت مسامعها الصيحات العالية ترتفع من الساحة «اقطعوا رؤوسها ، لا تدعوها تفلت!» ، وسمعت قوقأة الدجاج ورفرفة وبطبطة البط والإوز ، وساورتها الغصة وهي تسمع قباعاً معذباً أسكت فجأة بطلقة مسدس ، وأدركت أن الخنزيرة قتلت . . . ليلعن الله برسي ! لقد هربت وتركتها ، لو أن الخنانيص سلمت فقط ! لو أن العائلة بلغت الهور بأمان فقط ! ولكن ليس من سبيل لمعرفة شيء ، .

ووقفت ساكنة في القاعة ، والجنود يتقدون غيظاً من حولها ، صائحين لاعنين ، وأصابع ويد تقبع داخل تنورتها بقبضة مذعورة . وأحست جسده يرتجف وهو يلتصق بها ، ولكنها لم تتمكن من استعادة رباطة جأشها وطمأنينتها ، كما لم تتمكن من مخاطبة الشماليين بكلمة واحدة ، سواء أكانت كلمة توسل أو احتجاج أو تسخط ، لقد كان بوسعها فقط أن تشكر الله لأن ركبتيها ما زالتا تملكان القوة لحمل جسدها ، ولأن عنقها ما زالت قوية إلى الدرجة التي تستطيع معها حمل رأسها عالياً . ولكن عندما أقبل جماعة من الرجال الملتحين ، ينزلون السلم ببطء ، ويحملون تشكيلة من الأدوات المسروقة ، ورأت سيف تشارلز في يد أحدهم صرخت باستنكار :

ـ «ذلك سيف ويد ، لقد كان يخص والده وجده» .

وكانت سكارلت قد قدمت السيف إلى ابنها الصغير في عيد ميلاده الأخير

حين أقاموا له احتفالاً رائعاً ، وحيث بكت ميلاني بدموع الفخر والذكرى الأليمة ، ثم قبلت ويد قائلة إن عليه أن يكبر ليكون جندياً شجاعاً كأبيه وجده . وكان ويد فخوراً بسيفه ، وكثيراً ما ارتقى المنضدة الموضوعة تحت الموضع الذي علق عليه السيف وربت عليه . وكان بوسع سكارلت رؤية ممتلكاتها تخرج من البيت في أيد أجنبية مقيتة ، ولكن ليس هذا ، ليس فخر ابنها الصغير . أما ويد فإنه على أثر سماعه صرخة أمه ، حدق من خلف تنورتها ، ووجد الكلام والشجاعة فصرخ في نهدة قوية ، ماداً يده :

ـ «سيفي !» .

ـ «لا تستطيع أخذ ذلك السيف !» قالت سكارلت بسرعة ، مادة يدها هي أيضاً .

ـ «لا أستطيع؟ !» قال الجندي الصغير الذي كان يحمله ، وكشر عن أنيابه بوقاحة وأردف . . . «بلى أستطيع ، إنه سيف ثائر» .

ـ «إنه . . . إنه ليس كذلك ، إنه سيف من حرب المكسيك . . لا تستطيع أخذه ، إنه لابني الصغير . لقد كان يخص جده . ها كابتن !» صاحت ملتفتة إلى العريف «أرجوك ، مره كي يعطيني إياه» .

فخطا العريف إلى الأمام ، مسروراً بلقبه الجديد الكبير :

ـ «دعني أرى ذلك السيف يا بوب» .

فناوله الجندي الصغير السيف بتردد قائلاً :

ـ «إن له مقبضاً ذهبياً خالصاً» .

فقلبه العريف في يده ، ورفع المقبض عالياً إلى ضوء الشمس ليقرأ الكتابة المنقوشة عليه :

ـ «إلى الكولونيل وليم ر . هاملتون . من هيئة قيادته لشهامته . بوينا فستا ١٨٤٧» .

ـ «ها يا سيدة ، قال « لقد كنت في بوينا فستا بنفسي» .

ـ «حقاً» ، قالت سكارلت ببرود ظاهر .

«أكنت أنا؟ كان هناك قتال ضار ، دعيني أخبرك . لم أشهد قتالاً في هذه الحرب كذاك الذي رأيناه في تلك . إذاً هذا السيف كان سيف جد هذا الصبي الصغير؟» .

ـ «أجل» .
ـ «حسناً ، بوسعه أخذه» قال العريف الذي قنع بالمجوهرات والحلى المصرورة في منديله .
ـ «ولكن له مقبض ذهبي خالص» قال الرجل الصغير .
ـ «سنتركه لها لتذكرنا به» قال ضاحكاً .
وأخذت سكارلت السيف ، حتى دون أن تقول «أشكرك» . ولماذا يتوجب عليها شكر هؤلاء اللصوص وقد أعادوا إليها ملكها الخاص؟ ووضعت السيف على صدرها بينما كان الخيال الصغير يجادل العريف ويتشاجر معه .
ـ «والله ، سأعطي هؤلاء المتمردين الملعونين شيئاً يتذكرونني به» صاح الخيال أخيراً عندما قال له العريف ، وقد خرج عن طبعه ، أن يذهب إلى الجحيم ، وأن لا يعارضه . وذهب الرجل الصغير ناقماً ، واتجه إلى مؤخرة البيت ، وتنفست سكارلت بسهولة أكثر . . . إنهم لم يقولوا شيئاً عن إحراق البيت ، إنهم لم يبلغوها وجوب مغادرة البيت كي يستطيعوا إشعال النار به . ربما . . . ربما . . . وأقبل الرجال من الطابق العلوي ، ومن خارج البيت ، إلى القاعة .
ـ «هل وجدتم شيئاً؟» سأل العريف .
ـ «خنزيرة واحدة وبعض الدجاج والبط» .
ـ «بعض القمح والقليل من البطاطا الحلوة والفاصوليا . لا بد أن تكون تلك القطة البرية ، التي رأيناها على الحصان ، قد أنذرتهم . لا بأس» .
ـ «ماذا أيها الجندي بولديفير؟» .
ـ «لا يوجد الكثير هنا . لقد نلت أنت أفضل الموجود . دعنا نتابع المسير قبل أن تعلم جميع المنطقة بقدومنا» .
ـ «هل حفرت يا ددجا تحت الفرن؟» .
ـ «لا يوجد فرن» .
ـ «وهل حفرت في غرفة الزنوج؟» .
ـ «لا يوجد شيء سوى القطن في الغرف ، وقد أشعلنا النار فيه» .
للحظة قصيرة ، تذكرت سكارلت الأيام الطويلة الحارة التي قضتها في مزارع القطن ، وشعرت ثانية بالألم الرهيب في ظهرها ، وأحست بجلد كتفيها المنفط المرضوض . . كل ذلك ذهب سدى . . لقد ضاع القطن .

- «إنك لا تملكين كثيراً في الحقيقة ، أليس كذلك يا سيدة؟» .
- «لقد كان جيشكم هنا من قبل» قالت بفتور .
- «هذا هو الواقع ، فلقد كنا هنا في هذه الناحية في أيلول» قال أحد الرجال ، مقلباً شيئاً في يده «لقد نسيت ذلك».

ورأت سكارلت أن ما كان يحمله الرجل هو كشتبان أمها الذهبي . آه ، كم مرة رأته يلمع وإيلين تقوم بصنع زخارفها الجميلة . وأعاد منظره إلى تفكيرها ذكريات عديدة أليمة عن اليد النحيلة التي كانت تستعمله . وها هو الآن في راحة هذا الغريب القذرة الخشنة ، وسرعان ما سيجد طريقه إلى الشمال ، إلى إصبع امرأة شمالية تعتز بارتداء أشياء مسروقة . . . آه إنه كشتبان إيلين !

وأطرقت سكارلت برأسها كي لا يراها العدو وهي تبكي ، وسقط الدمع بطيئاً على رأس الرضيع ، ومن خلال الدموع ، رأت الرجال يتجهون نحو البوابة ، وسمعت العريف يصيح آمراً بصوت مرتفع أجش . كانوا ذاهبين ، وقد نجت تارا ، ولكن سكارلت قلما شعرت بالسرور لأن ألم ذكرى إيلين كان يساورها . غير أن صليل السيوف ووقع حوافر الخيل جلبا لها قليلاً من الراحة ، وفجأة وقفت ضعيفة فاقدة الأعصاب ، فيما هم يبتعدون في الممشى الواسع ، وكل رجل منهم مثقل بالمتاع المسروق من ألبسة وحرامات وصور ودجاج وبط وخنزيرة .

ثم حمل الهواء إلى منخريها رائحة الدخان ، فالتفتت وقد أوهنها جهد متضائل بحيث جعلها لا تعبأ بالقطن . ومن خلال النوافذ المفتوحة في غرفة الطعام ، رأت الدخان يتعالى ببطء من غرف الزنوج . لقد ضاع القطن ، وضاعت بضياعه أموال الضرائب وجزء من النقود التي كانت ستفرج عنها خلال هذا الشتاء المرير . ولم يكن بوسعها عمل شيء تجاه ذلك سوى مشاهدة أتعابها تحترق . لقد رأت النيران تلتهم أقطاناً من قبل ، وعرفت صعوبة إخمادها ، حتى مع وجود رجال كثيرين يكافحون من أجل ذلك . شكراً لله ، فالغرف بعيدة جداً عن البيت ، وشكراً له ، لأنه لا توجد ريح اليوم لتحمل الشرر إلى سقف تارا .

وفجأة ترنحت في مكانها وهي متيبسة كقضيب خشبي ، وحملقت بعينين مذعورتين عبر القاعة ، عبر الممر المسقوف المؤدي إلى المطبخ . كان هناك دخان

يتصاعد من المطبخ .

وفي مكان ما بين القاعة والمطبخ ، ألقت الرضيع من يدها ، وفي مكان ما ، طوحت بقبضة ويد قاذفة به إلى الحائط ، واندفعت داخل المطبخ العابق بالدخان وقفلت منه مترنحة وهي تسعل وعيناها تذرفان الدموع بفعل الدخان . وثانية وثبت إلى الداخل وقد رفعت تنورتها إلى أنفها .

كانت غرفة المطبخ معتمة يأتيها النور من نافذة صغيرة مفتوحة ، ويغشاها دخان كثيف أعمى سكارلت ، غير أنها استطاعت سماع زفير النار وصفيرها ، فمررت يدها عبر عينيها وحدقت خزراً ، فرأت خيوطاً رفيعة من اللهيب تزحف عبر أرض المطبخ باتجاه الجدران . . . لقد نثر أحدهم كتل الخشب المتأججة ، التي كانت في الموقد المكشوف ، في أنحاء الغرفة ، التي كانت أرضها المصنوعة من ألواح الصنوبر الجاف السريع الاشتعال ، تتشرب النار ثم تلقي بها عالياً كأنها الأمواه .

واندفعت سكارلت خلفاً إلى غرفة الطعام ، واختطفت قطعة سجاد خشنة من أرضها بعد أن أوقعت كرسيين بصوت داو :

ـ «لن أتمكن من إخمادها أبداً ـ أبداً ، أبداً ! آه يا إلـــهي . لو كان أحد معي ليساعدني . إن تارا تحترق تحترق ! . . آه يا إلـــهي ! هذا ما عناه ذلك الوغد الصغير عندما قال إنه سيعطيني ما يذكرني به . آه لو أنني تركته يأخذ السيف !» .

وفي طريقها إلى القاعة مرت بابنها مستلقياً في الزاوية مع سيفه . كانت عيناه مغمضتين ، وفي وجهه استرخاء غير طبيعي .

ـ «يا إلـــهي ، إنه ميت . لقد أفزعوه حتى الموت» فكرت في كرب عظيم ، ولكنها تجاوزته مندفعة نحو دلو ماء الشرب الذي كان يوضع دائماً في الممر قرب باب المطبخ .

غطست سكارلت طرف السجادة في الدلو ، وتنفست نفساً عميقاً ، ثم اخترقت الغرفة العابقة بالدخان مرة أخرى ، صافقة الباب خلفها بعنف ، واستمرت خلال فترة أبدية ، تترنح وتسعل وتضرب بالسجادة ألسنة اللهيب المندلعة أمامها بسرعة فائقة . وعلقت النار بتنورتها مرتين فأطفأتها بضربات يديها ، واستطاعت أن تشم الرائحة المسقمة المنبعثة من شعرها المحترق ، وقد

أفلت من دبابيسه وانسدل على كتفيها . واستمرت ألسنة اللهيب تندلع أمامها نحو جدران الممر المسقوف ، وأدركت والإعياء يجتاحها ، أن لا أمل في إخماد النار .

ثم اندفع الباب بعنف ، ودفع تيار الهواء المتسرب ألسنة اللهيب إلى أعلى ، وانغلق الباب بدوي شديد ، ورأت سكارلت ، وهي تقف عمياء ، ميلاني تدوس بقدميها فوق النيران وتقذفها بشيء قاتم ثقيل ، ورأتها تترنح ، وسمعتها تسعل ، وبنظرة خاطفة كالبرق ، لمحت وجهها المتصلب الشاحب ، وعينيها وقد ضيقتهما اتقاء الدخان فأمستا كسيفين طويلين ، ورأت جسدها الصغير ينحني إلى الأمام وإلى الوراء ، وهي تدفع سجادتها هبوطاً وصعوداً ، ولفترة سرمدية ثانية ، كافحتا وترنحتا جنباً إلى جنب ، واستطاعت سكارلت أن تلحظ أن ألسنة اللهيب كانت تتقلص ، ثم استدارت ميلاني نحوها فجأة ، وبصيحة عالية ، ضربتها على كتفيها بكل ما أوتيت من قوة فسقطت سكارلت وسط دوامة من الدخان والظلام .

وعندما فتحت عينيها وجدت نفسها مضطجعة في الشرفة الخلفية ورأسها يتوسد حضن ميلاني مرتاحاً ، وأشعة شمس الأصيل تصافح وجهها . وكان وجهها ويداها وكتفاها ، جميع هذه كانت تؤلمها ألماً لا يطاق جراء الحروق ، وكان الدخان لا يزال يتصاعد من غرف العبيد ويحجبها بسحبه الكثيفة ، كما كانت رائحة القطن المحترق تنبعث شديدة قوية . ورأت سكارلت خيوطاً من الدخان تخرج من المطبخ فتحركت بعصبية تريد الوقوف .

ولكن ميلاني منعتها وصوتها الهادئ يقول :

ـ «نامي مطمئنة يا عزيزتي ، لقد أخمدت النار» .

واستلقت سكارلت ساكنة لهنيهة قصيرة وعيناها مغمضتان ، وهي تتنفس الصعداء ، ثم سمعت خرخرة الرضيع المرغية ، وفواق ويد المطمئن . . . وهكذا لم يكن ميتاً ، شكراً لله ! وفتحت عينيها ، ورفعت بصرها نحو ميلاني ، وإذا بخصلات شعرها قد احترقت أطرافها ، وإذا بوجهها سوده السخام ، ولكن عينيها كانتا تومضان عزيمة وهي تبتسم .

ـ «إنك تشبهين زنجية» دمدمت سكارلت ، ودفنت رأسها من الإعياء في وسادته الطرية .

ـ «وأنت تشبهين الرجل الأخير في عرض شاعر متجول» أجابت ميلاني جواباً مناسباً .

ـ «لماذا اضطررت إلى أن تضربيني؟» .

ـ «لأن ظهرك يا عزيزتي كان يشتعل ناراً ، ولم أتصور أنك ستقعين مغمياً عليك ، مع أن الله يعلم أنك بلوت اليوم ما يكفي لقتلك . . . لقد عدت حالما أوصلت الحيوانات سالمة إلى الغابات ، وكدت أموت وأنا أفكر بك وبالطفل وحيدين . هل أساء الشماليون إليك؟» .

ـ «إذا كنت تقصدين هل هتكوا عرضي ، فلا» قالت سكارلت وهي تئن محاولة النهوض ، فمع أن حضن ميلاني كان طرياً ، إلاّ أن الشرفة التي كانت تستلقي فوقها كانت أبعد من أن تكون مريحة ، «ولكنهم سرقوا كل شيء ، كل شيء ، لقد فقدنا كل شيء . . . على كل حال ، ماذا يوجد لنتطلع إليه بعين قريرة هانئة؟» .

ـ «إننا لم نفقد بعضنا ، وولدانا في صحة جيدة ، وعندنا سقف يظلل رؤوسنا» قالت ميلاني بصوت تشوبه نغمة هانئة ، ، «وهذا كل ما يمكن أن يرجوه إنسان في الوقت الحاضر . . . يا لله . . ولكن دثار بو مبلل ! أظن أن الشماليين سرقوا حتى دثاره الإضافي ، إنه . . . سكارلت ! أي شيء في دثاره؟» .

وفجأة مدت يدها المرتعشة نحو أسفل ظهر الطفل وأخرجت المحفظة ، وظلت تتأملها هنيهة ، كأنها لم تكن قد رأتها من قبل ، ثم طفقت تضحك ، قهقهة إثر قهقهة لا يشوبها شيء من الخبل ، بسبب ما اعتراها من فرح .

ـ «لا أحد سواك يمكن أن يفكر بهذه الطريقة» صاحت مطوحة بذراعيها حول عنق سكارلت وقبّلتها .

ـ «أنت أشقى شقيقة رأيتها في حياتي» .

سمحت سكارلت بالعناق لأنها كانت تعبة جداً لا تستطيع المقاومة ، ولأن كلمات الثناء كانت تجلب البلسم لروحها ، ولأنه ، كان قد ولد في المطبخ العابق بالدخان احترام أعظم لشقيقة زوجها ، شعور أقرب إلى الصداقة .

ـ «سأقول هذا لها» ، فكرت رغماً عنها «إنها دائماً في خدمتك ، عندما تحتاجين إليها» .

*

28

حل الشتاء وطغى الطقس البارد فجأة بثقل قاتل ، وتسربت الرياح الباردة من تحت عتبات الأبواب ، وخفقت مصاريع النوافذ بصوت داو مطرد النغم ، وسقطت آخر الأوراق عن الأشجار العارية ، ولم تبق إلاّ أشجار الصنوبر مكسوة بأوراقها ، دكناء باردة تطاول السماء الشاحبة ، وتصلبت الطرق الحمراء المحفوفرة ، حتى أمست بصلابة الصوان ، وعصفت رياح الجوع في أنحاء جورجيا .

وتذكرت سكارلت بمرارة حديثها مع غراندما فونتين ، ففي أصيل يوم منذ شهرين ، يوم يبدو الآن وكأنه مر منذ سنين ، قالت سكارلت للسيدة العجوز إنها عرفت أسوأ ما يمكن أن يقع لها . قالت ذلك من صميم قلبها ، وها هي تلك العبارة تبدو الآن وكأنها غلو تلميذة مدرسة .

كانت سكارلت ، قبل أن ينهب رجال شيرمان تارا للمرة الثانية ، تملك ثروة صغيرة من القوت والنقود ، وكانت تنعم بجيران أسعد منها حظاً ، وتقتني القطن الذي سيعينها حتى الربيع . أما الآن فقد ضاع القطن ، ونفد الطعام ، وأصبحت النقود عديمة الفائدة لها ، لأنه لم يكن هناك طعام ليشترى بها ، وتردى الجيران في ضائقة أشد من ضائقتها ، فلقد كانت هي ، على الأقل ، تملك البقرة والعجل والحصان والخنانيص القليلة ، بينما لم يكن الجيران يملكون شيئاً سوى القليل الذي استطاعوا إخفاءه في الغابات ، أو طمره في الأرض .

كان فيرهل ، منزل آل تارلتون ، قد أحرق من أساسه ، وكانت السيدة تارلتون تعيش في بيت الناظر مع بناتها الأربع ، وكذلك منزل آل مونرو قرب لفجوي ، سوّي بالأرض أيضاً ، كما أحرق جناح ميموسا الخشبي ، ولم ينقذه من الانهيار إلاّ الإسمنت السميك الصلب في البيت الرئيسي ، والعمل الجنوني الذي قامت به نساء آل فونتين وعبيدهم ، بالشراشف واللحف المبللة ، أما منزل آل كالفرت فقد نجا مرة ثانية بفضل شفاعة هلتون ، الناظر الشمالي ، ولكن لم يبق لهم حيوان واحد ، أو طير ، ولم يبق عرناس ذرة في مزرعتهم .

كانت المشكلة في تارا ، وفي أنحاء الولاية ، هي القوت ، فمعظم العائلات لم تكن تملك شيئاً سوى بقايا محصول البطاطا الحلوة والفول ، وما يستطيعون

صيده في الغابات من طير أو حيوان . وكانت كل عائلة تشرك أصدقاءها الأقل حظاً في ما تملك . كما سبق لهم أن فعلوا في الأيام الأكثر خصباً . ولكن سرعان ما جاء الوقت الذي لم يبق فيه شيء للمشاركة .

ففي تارا ، صاروا يأكلون الأرانب والسناجب والسلاور ، وذلك إذا وفق بورك في صيده ، ويتناولون في الأيام الأخرى قليلاً من الحليب والجوز البري وثمار البلوط والبطاطا الحلوة المشوية ، وكانوا دائماً جوعى ، وتراءى لسكارلت أنها تلتقي دوماً بأيد ممدودة ، وعيون متضرعة ، هذه المناظر التي كادت تقودها إلى الجنون لأنها كانت جائعة مثلهم .

أمرت سكارلت بذبح العجل ، لأنه كان يشرب كثيراً من الحليب الثمين ، وأكثر الجميع في تلك الليلة من أكل اللحم الطازج حتى مرضوا . وأدركت سكارلت أن لا بد من ذبح أحد الخنانيص ، ولكنها كانت تؤجل الأمر من يوم ليوم ، آملة أن تنمّي تلك الحيوانات الصغيرة إلى حد النضوج ، فقد كانت هذه صغيرة جداً ، ولا يستفاد منها إلا القليل إذا ما ذبحت الآن ، بينما إذا وفرت لفترة قصيرة أخرى ، فستكون حصيلتها أوفر بكثير . وبحثت سكارلت في الليل مع ميلاني مدى الصواب في إرسال بورك إلى الخارج على الحصان مع بعض النقود الاتحادية ليحاول شراء الطعام ، ولكن الخوف من احتمال مصادرة الحصان ، وسلب النقود من بورك ، ردعهما عن إتيان ذلك . فهما لا تعرفان أين يرابط الشماليون . . ومن الممكن أن يكونوا على بعد ألف ميل ، أو خلف النهر فقط . وفي إحدى المرات ، همت سكارلت في ركوب الحصان يدفعها اليأس للبحث عن القوت ، ولكن الصراخ الجنوني لجميع أفراد العائلة الخائفين عليها من الشماليين ، جعلها تتخلى عن خطتها .

وكان بورك يسعى بعيداً ، فيغيب طول الليل في بعض المرات دون أن تسأله سكارلت إلى أين ذهب ، وكان أحياناً يعود ببعض الصيد ، وأحياناً ببعض عرانيس من الذرة ، أو بكيس من الحمص الجاف . ومرة عاد ومعه ديك قال إنه وجده في الغابة ، فأكلته العائلة بشهية يشوبها شعور بالإثم إذ كانت على يقين من أن بورك كان قد سرق الديك كما كان قد سرق الحمص والذرة . ولم تمض برهة وجيزة على هذا الحادث ، حتى طرق بورك باب مخدع سكارلت في إحدى الليالي ، وكان المنزل قد غرق في النوم منذ فترة طويلة ، وعرض

أمامها ، وهو خجل ، ساقه المتألمة من إصابة صغيرة ، وبينما هي تضمدها له ، أوضح لها بارتباك أنه اكتُشف فيما كان يحاول الدخول إلى قن دجاج في فايتفيل ، فلم تسأله سكارلت عن صاحب ذلك القن ، بل ربتت على كتفه برفق ، والدموع في عينيها ، لقد كان الزنوج مثيرين أحياناً كما كانوا خمولين أغبياء ، ولكن كان بهم إخلاص لا يمكن شراؤه بالمال ، وشعور بأنهم وأسيادهم البيض شيء واحد ، ما كان يجعلهم يخاطرون بأرواحهم في سبيل إيجاد طعام لهم .

كانت سرقات بورك تعتبر في أيام غير هذه مسألة خطيرة من المحتمل أن تستدعي جلده ، وكانت سكارلت في وقت غير هذا تضطر إلى تأنيبه بصرامة عليها ، على الأقل .

ـ «تذكري دائماً يا عزيزتي» كانت إيلين تقول لها ، «إنك مسؤولة عن أخلاق الزنوج ، الذين عهد الله بهم لعنايتك ، تماماً كمسؤوليتك عن صحتهم الجسدية . ينبغي أن تدركي أنهم كالأطفال ، وأنه يجب حفظهم من أنفسهم كالأطفال أيضاً ، وعليك دوماً أن تضربي لهم مثلاً طيباً وتكوني قدوة حسنة» .

ولكنها الآن ، أبعدت تلك العظة عن تفكيرها ، فإن تشجيعها للسرقة ، وربما سرقة أناس أتعس منها حالاً ، لم تعد قضية تتعلق بالضمير . والحقيقة أن الناحية الأخلاقية من المسألة لم تكن لتؤثر فيها ، إلاّ قليلاً ، وبدلاً من تأنيبه وعقابه أسفت لإصابته فحسب .

ـ «ينبغي أن تكون أكثر حذراً يا بورك ، فنحن لا نريد أن نخسرك . كيف نعمل بدونك؟ إنك في غاية الطيبة والوفاء ، وعندما نحصل على المال ثانية سأشتري لك ساعة ذهبية» .

فأشرق وجه بورك بفعل المديح ، وحك ساقه المضمدة بحذر ، وقال :

ـ «إن هذا رائع جداً يا آنسة سكارلت ، متى تتوقعين الحصول على تلك النقود؟» .

ـ «لا أعرف يا بورك ، ولكني سأحصل عليها يوماً ما بإحدى الوسائل» .

ورنت إليه بنظرة خاطفة ، نظرة مريرة حادة ، جعلته يضطرب متأثراً .

ـ «يوماً ما ، عندما تنتهي هذه الحرب ، سيصبح في حوزتي كثير من المال ، وعندئذ لن أجوع ، أو أبرد ثانية ، لن يجوع أو يبرد أحد منا ، سنرتدي جميعاً

الملابس الجميلة ، وسنأكل الدجاج المشوي كل يوم و . . .» .

ثم صمتت ، إذ كان القانون الأشد صرامة في تارا ، وهو القانون الذي وضعته هي نفسها والذي كانت تنفذه بحزم ، لا يبيح لأي فرد التحدث عن الطعام الشهي الذي كانوا يأكلونه في الماضي ، أو الذي يمكن أن يأكلوه الآن إذا ما سنحت الفرصة .

تسلل بورك خارج الغرفة ، بينما ظلت هي تحدق مكتئبة نحو البعيد . . في الأيام الماضية ، الأيام التي أمست ميتة ضائعة الآن ، كانت الحياة متشابكة جداً ، تزخر بالقضايا المعقدة المتشابكة . فقد كانت هناك قضية محاولة كسب قلب آشلي ، ومحاولة الاحتفاظ بعشرة عشاق آخرين متعلقين بها ، أشقياء بحبها ، وكانت هناك انحرافات خلقية صغيرة ينبغي إخفاؤها عمّن هم أكبر منها سناً ، ثم كان هناك بنات حسودات ينبغي إغاظتهن أو ملاطفتهن ، وأزياء للثياب والأدوات ينبغي اختيارها ، وتسريحات للشعر مختلفة ينبغي تجربتها ، وهناك قضايا كثيرة كثيرة جداً كان لا بد من البت فيها . أما الآن ، فالحياة بسيطة بصورة مدهشة ، وكل ما يهمها هو إيجاد طعام كاف يرد عن أهلها غائلة الجوع ، وثياب كافية تدرأ عنهم البرد ، وسقف فوق رؤوسهم لا يرشح بالماء إلاّ قليلاً .

ولقد كان خلال هذه الأيام أن حلمت سكارلت ، مرة بعد أخرى ، بكابوس رهيب لازمها سنين فيما بعد ، واستمر أبداً على الوتيرة ذاتها ، لم تتغير تفاصيله مطلقاً ، ولكن الخوف منه كان يزداد في كل مرة ، كما كان الخوف من معاناته مرة أخرى يقلق حتى ساعات يقظتها . وكانت سكارلت تتذكر تماماً حوادث ذلك اليوم الذي شاهدت فيه ذلك الحلم لأول مرة .

كان المطر البارد قد استمر في انهماره عدة أيام ، وكان المنزل شديد البرودة بفعل الرطوبة وتيارات الهواء ، وكان حطب الموقد مبللاً يبعث الدخان ويشيع القليل من الدفء ، ولم يكن يوجد شيء للأكل منذ الفطور سوى الحليب ، فقد نفدت البطاطا الحلوة ، ولم تؤت فخاخ بورك وشباكه صيداً ، وكان لا بد من ذبح أحد الخنانيص في اليوم التالي ، إذا أريد لهم أن يأكلوا شيئاً . . . وجوه متوترة جائعة ، سوداء وبيضاء ، كانت تشخص إليها ، تطلب منها بصمت تدبير طعام ، وكان عليها أن تخاطر بالحصان وترسل بورك لشراء القوت . وحتى

تزداد الأمور سوءاً كان ويد مصاباً بالتهاب في الحنجرة تلازمه حمى مرتفعة، ولم يكن يوجد طبيب ولا دواء.

عهدت سكارلت بابنها لعناية ميلاني، بعد أن أعيت هي من رعايته، واضطجعت وهي جائعة في سريرها لتنام قليلاً، كانت قدماها باردتين كالثلج، فراحت تتثنى وتتقلب وهي عاجزة عن النوم، يثقلها ويهدها الخوف والقنوط. وفكرت مرة بعد مرة: «ماذا أعمل؟ إلى أين ألتجئ؟ ألا يوجد إنسان في الدنيا يستطيع مساعدتي؟» أين ذهب كل أمان الحياة؟ لماذا لم يوجد إنسان، إنسان قوي عاقل، ليحمل الأعباء عنها. إنها لم تخلق لتحملها، إنها لم تعرف كيف تحملها. ثم أغرقت في غفوة منغصة.

رأت نفسها في بلاد غريبة موحشة، كثيفة جداً بالضباب الدائم بحيث لم تستطع رؤية يدها أمام وجهها. وأحست بالأرض سبخة تحت قدميها، لقد غدت بلاداً تسكنها الأرواح، بلاداً صامتة صمتاً رهيباً، وغدت هي ضائعة فيها، ضائعة مذعورة كطفل في الليل، جائعة باردة برداً شديداً، هلعة جداً مما يكمن في الضباب حولها، حتى إنها حاولت أن تصيح فلم تستطع. كانت هناك أجرام غريبة في الضباب، تمد أصابعها لتقبض على تنورتها، لتحطها في الأرض القلقة المضطربة التي كانت تقف عليها، أياد طيفية صامتة عديمة الرحمة. ثم عرفت أنه في مكان ما، في الظلمة البهيمة المحدقة بها، يوجد ملجأ، عون، نعيم من النجدة والدفء، ولكن أين هو؟ وهل تستطيع بلوغه قبل أن تقبض عليها الأيدي وتغرسها في الأرض السبخة.

وفجأة رأت نفسها تركض، تركض خلال الضباب كإنسان مجنون، تبكي وتصرخ، تمد ذراعيها لتقبض فقط على الهواء الفارغ والضباب الرطب.. أين كان الملجأ؟ إنه كان يتجنبها ولكنه كان موجوداً.. مختفياً في مكان ما. لو أنها تستطيع بلوغه فقط! لو أنها تستطيع بلوغه لنجت! ولكن الرعب كان يهد ساقيها، والجوع يقودها إلى الإغماء. وصرخت صرخة يأس واحدة، واستيقظت لترى وجه ميلاني الجزع فوقها، ويدها تهزها لإيقاظها.

وراح هذا الحلم يعاودها مرة بعد مرة... كلما ذهبت إلى النوم بمعدة فارغة، الأمر الذي كان يتكرر دائماً. وأرعبها الأمر كثيراً حتى أصبحت تخاف النوم، مع أنها كانت تطمئن نفسها وهي قلقة أن لا وجود لشيء تخافه في

الحلم ، لا وجود لشيء في حلم عن الضباب ليخيفها إلى هذه الدرجة ، لا شيء أبداً . . . ومع ذلك ظلت فكرة وقوعها في تلك البلاد المليئة بالضباب ترعبها كثيراً ، بحيث بدأت تنام مع ميلاني التي ينتظر أن توقظها عندما يدل أنينها وانتفاضاتها المفاجئة على أنها في قبضة الكابوس مرة أخرى .

وبفعل هذا الإرهاق ، أضحت نحيلة شاحبة اللون ، وفقد وجهها استدارته الجميلة ، فبرزت عظام وجنتيها ، وبذا اتضح انحراف عينيها الخضراوين ، وبدت سمنتها كسمنة قطة جوعى ، تبحث عن فريستها .

ـ «حسبي ما أقاسيه في النهار عن كابوس أحلام الليل» . فكرت بائسة ، وبدأت تدخر حصة يومها من الطعام لتأكلها قبل أن تأوي إلى النوم مباشرة .

*

توجه فرانك كندي وجماعة من فرقة التموين ، في فترة عيد الميلاد ، إلى تارا في مسيرة متثاقلة ، في محاولة فاشلة لجمع حبوب وحيوانات للجيش . كانت جماعة رثة الثياب زرية المنظر ، تمتطي خيولاً عرجاء لاهثة ، كانت من السوء على درجة بيّنة بحيث لا يمكن استعمالها في مجال أكثر نشاطاً . وكان الرجال ، كخيولهم ، مسرحين من خطوط الجبهة الأمامية . وباستثناء فرانك ، كان كل منهم بذراع مفقودة ، أو عين مفقوءة ، أو مفاصل متيبسة . وكان معظمهم يرتدي المعاطف الزرقاء التي انتزعوها من الأسرى الشماليين ، ولذا ظن الموجودون في تارا ، لهنيهة مرعبة قصيرة ، أن رجال شيرمان قد عادوا إليهم .

أمضى الرجال ليلتهم في المزرعة ، نائمين فوق أرض الردهة ، متنعمين بالاستلقاء على السجاد المخملي ، إذ كان قد مضى عليهم أسابيع ، منذ أن ناموا تحت سقف ، أو فوق أي شيء ألين من أوراق الصنوبر المسنّنة ، أو الأرض القاسية . وعلى الرغم من لحاهم القذرة وأسمالهم البالية ، كانوا جماعة مهذبة ، غنية بالأحاديث القصيرة الممتعة ، وبالفكاهات والمجاملات ، وسعيدة جداً لأنها تقضي أمسية الميلاد في بيت كبير ، محاطة بنساء جميلات ، كما اعتادت أن تقضيها في الماضي البعيد . ورفض الرجال أن يكونوا جديين فيما يتعلق بالحرب ، وراحوا يختلقون أكاذيب مثيرة ليضحكوا البنات ، فجلبوا للبيت المنهوب ، لأول مرة ، حياة المرح ، جلبوا إليه الذكرى الأولى للحفلات التي

كانت العائلة قد عرفتها في كثير من الأيام .

ـ «إنها كالأيام الماضية تقريباً ، عندما كنا ننعم بالحفلات العائلية . أليس كذلك؟» همست سولين بسرور في أذن سكارلت . وكانت سولين قد ارتفعت إلى السماء بوجود عشيقها في البيت ثانية ، وقلما استطاعت أن ترفع بصرها عن فرانك كندي . ودهشت سكارلت كيف أمكن أن تبدو سولين على قسط من الجمال على الرغم من الهزال الذي ما زال ملازماً لها منذ المرض . كانت وجنتاها محمرتين ، وعيناها تتألقان بنظرة مشرقة خلابة .

ـ «ينبغي أن تحفل به ، في الحقيقة» ، فكرت سكارلت بازدراء «وأظن أنها تكون أقرب إلى الإنسان إذا اتفق وحظيت بزوج لها ، حتى لو كان هذا الزوج هو فرانك العجوز الثرثار» .

وتألقت كارين قليلاً كذلك في تلك الليلة ، وزاول عينيها بعض نظرة السائر في نومه . لقد اكتشفت أن أحد الرجال كان قد عرف برنت تارلتون ورافقه يوم قتل ، فمنّت نفسها بحديث طويل خاص معه ، بعد العشاء ، وعند العشاء ، أدهشت ميلاني الجميع بإرغامها نفسها على الخروج من طوق حيائها والتحلي بخفة الروح في معظم الوقت ، فقد ضحكت ، ومزحت ، وداعبت ، أو كادت تداعب جندياً فاقد العين ، كافأها على تصرفها بأعمال مسرفة في الشهامة ، وأدركت سكارلت مدى الجهد العقلي والجسدي الذي يتطلبه تصرف كهذا ، لأن ميلاني كانت تعاني من آلام الخجل في حضور أي من الجنس الآخر ، إضافة إلى أنها لم تكن قد استعادت صحتها بعد . ورغم أنها كانت تصر على أنها بصحة جيدة ، وأنها كانت تقوم بعمل أكثر مما تقوم به دلسي ، فقد كانت سكارلت تعلم أنها مريضة ، فعندما كانت ترفع بعض الأدوات ، كان وجهها يبيض ، وكانت تجلس فجأة كيفما اتفق بعد أن تبذل أي جهد ، كما لو أن ساقيها لا تقويان على حملها ، ولكنها الليلة ، كانت تفعل كل شيء ممكن لجعل الجنود يتمتعون بليلة عيد الميلاد ، شأنها في ذلك شأن سولين وكارين . أما سكارلت فقد كانت الوحيدة التي لم تبتهج بالضيوف .

كانت السهرة على جانب كبير من المرح ، وحتى جيرالد ، الذي ترأس المائدة وهو شارد اللب ، استطاع أن يستحضر من مؤخرة عقله المظلم شيئاً من صفات المضيف ، وابتسامة حائرة . وتحدث الرجال ، وابتسمت النساء

ولاطفن . . . ولكن بينما كانت سكارلت تلتفت فجأة نحو فرانك كندي ، تود سؤاله عن أخبار الآنسة بيتي بات ، لمحت في وجهه تعبيراً جعلها تنسى ما كانت تعتزم قوله .

كانت عيناه قد فارقتا سولين وراحتا تطوفان في الغرفة ، تنظران إلى عيني جيرالد الحائرتين كعيني الطفل ، إلى الأرض العارية من سجادها ، إلى رف الموقد المجرد من زخارفه ، إلى الزبارك المرتخية والمفروشات الممزقة التي خرقتها حراب الشماليين ، إلى المرآة المتشققة فوق الخزانة النصفية ، إلى الإطارات الزاهية على الجدران حيث كانت تعلق الصور قبيل مجيء الغزاة ، إلى المائدة الفقيرة ، إلى أثواب البنات العتيقة المرقعة بشكل مناسب ، إلى كيس الطحين الذي صنع تنورة للصغير ويد .

كان فرانك يتذكر تارا التي قد عرفها قبل الحرب ، وعلى وجهه نظرة مضض ، نظرة غضب عاجز تعب . لقد كان يحب سولين ، ويميل إلى شقيقتيها ، ويحترم جيرالد ويعتمل في نفسه ولع شديد بالمزرعة . وكان فرانك قد رأى ، منذ توغل شيرمان في جورجيا ، مناظر كثيرة مذهلة وهو يطوف في الولاية محاولاً جمع المؤن ، ولكن لا شيء آلم قلبه كما آلمته تارا الآن ، وود لو يفعل شيئاً لآل أوهارا ، خصوصاً لسولين ، ولكن لم يكن هناك ما يستطيع تقديمه ، فراح يحرك رأسه الملتحي بلا وعي ، في حركة تنم عن الشفقة وينضنض لسانه تجاه أسنانه . وفي هذه الأثناء لمحت سكارلت نظرته ، ورأى هو في عينيها بريق الكبرياء الساخط ، فأطرق بعينيه إلى الأرض مغتاظاً .

كانت البنات يتعطشن للأنباء ، إذ لم تكن توجد خدمة بريدية منذ سقوط أتلانتا ، وها قد مضى الآن أربعة شهور وهم في جهل مطبق عن مكان الشماليين ، وعن كيفية تحرك الجيش ، وعما حل بأتلانتا والأصدقاء القدامى . وكان فرانك ، الذي كان بطبيعة عمله يتجول في جميع أنحاء القطاع ، مفيداً كالجريدة بل أكثر فائدة منها ، لأنه كان يعرف جميع الناس تقريباً من ميكون شمالاً إلى أتلانتا ويتصل ببعضهم بالقرابة ، وكان بوسعه أن يروي نتفاً من أحاديث شخصية شيقة ، تحذفها الصحف دائماً . وفي سبيل أن يحجب انفعاله الناجم عن افتضاح سحنته لناظري سكارلت ، اندفع فرانك بسرعة يسرد الأنباء ، فأخبر الحضور أن الحلفيين كانوا قد استردوا أتلانتا بعد أن أخلاها

شيرمان ، ولكنها كانت جزءاً عديم القيمة ، لأن شيرمان كان قد أحرقها إحراقاً تاماً .

ـ «ولكني اعتقدت أن أتلانتا احترقت ليلة غادرتها» صاحت سكارلت دهشة ، «اعتقدت أن جنودنا أحرقوها» .

ـ «لا يا آنسة سكارلت» ، صاح فرانك مذهولاً «إننا لا نحرق أبداً مدينة من مدننا وأهلونا فيها ، إن الذي رأيته يحترق هو المستودعات والمؤن التي لم نشأ أن يستولي الشماليون عليها ، ثم المصانع والذخيرة ، هذا وحسب . وعندما احتل شيرمان المدينة كانت المنازل والمخازن لا تزال قائمة ، جميلة كما ترجون ، وقد أحل رجاله بها» .

ـ «ولكن ماذا حدث للناس؟ هل . . . هل قتلهم؟» .

ـ «قتل بعضاً منهم . . . ولكن ليس بالرصاص» . قال الرجل الفقيد العين عابساً ، «حالما دخل أتلانتا ، أبلغ المحافظ أن على جميع القاطنين في المدينة أن يرحلوا خارجها ، دونما استثناء . وكان هناك الكثير من الشيوخ الذين لم يستطيعوا تحمل الرحيل ، والعديد من المرضى الذين لا يجوز نقلهم والسيدات اللواتي كن . . . السيدات اللواتي كان لا يجوز نقلهن أيضاً ، ولكنه أجلاهم خلال أعظم عاصفة ماطرة رأيتها ، مئات ومئات منهم ، وطرحهم في الغابة قرب رف إند ريدي ، ثم بعث بكلمة للجنرال هود حتى يأتي ويأخذهم . ومات الكثير منهم بداء الرئة ، وبسبب عجزهم عن احتمال ذلك النوع من المعاملة» .

ـ «ولكن لماذا فعل ذلك؟ وليس بوسعهم إيذاؤه أبداً؟» صاحت ميلاني .

ـ «قال إنه يريد المدينة ليريح فيها رجاله وخيله» أجاب فرانك «وقد أراحهم هناك حتى منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر ، ثم انتقل خارج المدينة ، وأشعل النار فيها ، وقد أحرق كل شيء» .

ـ «آه ، حتماً ليس كل شيء» صاحت البنات في ذعر .

ـ «تقريباً كل شيء» استدرك فرانك بسرعة ، وقد أزعجه ما ينم عنه وجهاهما من جزع ، فحاول أن يبدو مرحاً لأنه لم يكن يعتقد بتكدير السيدات ، فالسيدات الجزعات كن يجزعنه دائماً ، ويجعلنه يشعر بالحيرة وفقدان الحيلة . ولم تطاوعه نفسه على أن يخبرهم عما هو أسوأ من هذا ،

وليطلعوا على ذلك من قبل شخص آخر .
وبحث فرانك في عقله عن نبإ يهدئ من روع السيدات .
ـ «توجد بعض البيوت التي لا تزال قائمة» قال «البيوت المشيدة فوق بعض المرتفعات بعيداً عن البيوت الأخرى فلم تبلغها النيران ، وكذلك بقيت الكنائس والقاعة الماسونية وبعض المخازن أيضاً ، ولكن حي الأعمال ، وكل ما على جانبي السكة الحديد ، وحي فايف بوينتس . . أجل أيتها السيدات ، كل ذلك الجزء من المدينة سوّي بالأرض» .
ـ «إذاً» ، صاحت سكارلت بمرارة ، «ذلك المستودع الذي أورثنيه تشارلز ، والواقع بجانب السكة ، قد ذهب أيضاً؟» .
ـ «إذا كان على مقربة من السكة فلقد ذهب ، ولكن . . .» وابتسم فجأة ، لماذا لم يفكر بذلك من قبل؟ «أبشرن أيتها السيدات ، فبيت عمتكن بيتي ما زال قائماً ، أصيب ببعض الأضرار ولكنه ما زال قائماً» .
ـ «ها ، وكيف سلم؟» .
ـ «إنه مشيد من الآجر ، كما أنه يمتاز بسطحه الأردوازي الوحيد تقريباً في أتلانتا ، الأمر الذي منع احتراقه كما أظن . ثم إنه يكاد يكون آخر بيت في الجهة الشمالية من المدينة ، ولم تكن النار مندلعة بشدة في ذلك الاتجاه . طبعاً ، لقد أتلف الشماليون ، الذين أقاموا فيه ، الكثير من أجزائه ، حتى إنهم أحرقوا خشب الأساس ودرابزين سلالم الماهوكوني واستعملوه عوضاً عن الحطب ، ولكن على كل حال ، إنه لا يزال في هيئة جيدة ، عندما رأيت الآنسة بيتي في الأسبوع الماضي في ميكون . . .» .
ـ «رأيتها؟ كيف حالها؟» .
ـ «حسنة تماماً ، حسنة تماماً ، عندما أخبرتها أن بيتها ما زال قائماً ، قررت العودة إلى أتلانتا فوراً ، يعني ـ إذا سمح لها ذلك الزنجي العجوز ـ بطرس . لقد عادت جماعات كثيرة من سكان أتلانتا ، لأنهم قلقوا من مصير ميكون . . لم يحتلها شيرمان ولكن ويلسون سيبلغها سريعاً بمغيريه ، وهو أسوأ من شيرمان» .
ـ «ولكن ما أغبى أن يعودوا إليها في الوقت الذي لا توجد فيها بيوت ! أين يسكنون؟» .
ـ «إنهم يسكنون في خيام وأكواخ وغرف خشبية ، يا آنسة سكارلت ،

وتشترك ست أو سبع عائلات منهم في كل بيت من البيوت القليلة التي ما زالت قائمة ، وهم يحاولون إعادة البناء . لا تقولي إنهم أغبياء يا آنسة سكارلت ، فأنت تعرفين سكان أتلانتا معرفة جيدة كما أعرفهم أنا . إنهم متعلقون جداً بمدينتهم ، كتعلق الشارلستونيين بشارلستون ، وسيحتاج الأمر إلى أكثر من شماليين وأكثر من حريق ، ليبعدهم عنها . إن أهل أتلانتا . . . أرجو معذرتك يا آنسة ميلي . . . عنيدون كالبغال في تعلقهم بأتلانتا ، ولست أعلم سبباً لذلك ، إذ إنني كنت أعتقد دائماً أن تلك المدينة شديدة الزحام ، صعبة العيش ، ضارية الخلق ، غير أنني رجل قروي المولد ولا أحب أي مدينة . واسمحن لي أن أخبركن بأن الأشخاص الذين عادوا أولاً هم الأذكياء ، إذ إن الذين سيعودون أخيراً لن يجدوا قطعة خشب أو حجر أو آجر من بيوتهم ، لأن جميع الناس ينشدون هذه الأشياء من كل أنحاء المدينة وذلك لإعادة بناء بيوتهم ، فأول أمس فقط ، رأيت السيدة ميريويذر والسيدة مايبيل وزنجيتهما العجوز خارجات لجمع الآجر في عربة يد ، كما أخبرتني السيدة ميد أنها تفكر ببناء غرفة خشبية عندما يعود الدكتور ليساعدها في ذلك ، وأردفت أنها كانت قد أقامت في غرفة خشبية يوم قدمت لأتلانتا أول مرة ، يوم كانت المدينة تدعى مارتسفيل ، وإن فعل ذلك ثانية لن يضايقها أبداً . بالطبع كان حديثها مجرد مزاح ، ولكن ذلك يريكن كيف ينظر الأتلانتيون إلى مدينتهم» .

ـ «أعتقد أنهم يتمتعون بروحية عظيمة» قالت ميلاني باعتزاز «ألا تعتقدين ذلك يا سكارلت؟» .

فأطرقت هذه برأسها ، وغمرها الكبرياء والسرور العابس بمدينتها المفضلة ، المدينة التي كانت شديدة الزحام ، صعبة العيش ، ضارية الخلق ، كما قال فرانك ، وكان ذلك سبب حب سكارلت لها . ولم تكن ضيقة متزمتة ، غارقة في الوحل كالمدن الأقدم نشأة ، كانت تنعم بحيوية فائرة توافق حيوية سكارلت : «إني كأتلانتا» فكرت سكارلت «إن إخضاعي يحتاج إلى أكثر من شماليين وحريق» .

ـ «إذا كانت العمة بيتي ستعود إلى أتلانتا ، فمن الأفضل لنا أن نعود ونقيم معها يا سكارلت» قالت ميلاني قاطعة حبل تفكيرها «فسوف تموت رعباً إن بقيت وحيدة» .

ـ «ماذا !؟ كيف يسعني مغادرة تارا يا ميلاني؟» سألت سكارلت بوجه متجهم «إذا كنت متلهفة جداً على الذهاب فاذهبي ، فإنني لن أمنعك» .

ـ «لم أقصد بحديثي ذلك يا عزيزتي» صاحت ميلاني وقد خضب وجهها الكرب «ما أغباني ، طبعاً لا يسعك مغادرة تارا ، و . . . وأظن أن العم بطرس وكوكي يستطيعان الاعتناء بعمتي» .

ـ «لا يوجد ما يمنعك من الذهاب» قالت سكارلت .

ـ «أنت تعرفين أني لن أفارقك» أجابت ميلاني ، «و . . . وسأخاف حتى الموت بدونك» .

ـ «افعلي ما يناسبك . ولكني لن أعود إلى أتلانتا ، فحالما تشيد بيوت قليلة فيها ، سيعود شيرمان ويحرقها ثانية» .

ـ «لن يعود» ، قال فرانك ، وانخفض وجهه رغم ما بذل من جهد لرفعه ، «إنه يتابع طريقه عبر الولاية إلى الساحل . لقد سقطت سافانا هذا الأسبوع ، ويقولون إن الشماليين يتابعون المسير إلى كارولينا الجنوبية» .

ـ «سافانا سقطت !» .

ـ «أجل . . . ولم الدهشة أيتها السيدات ، فسافانا لم تكن تستطيع إلا الاستسلام ، إذ لم يكن بها من الرجال ما يكفي للدفاع عنها ، مع أنهم استخدموا كل رجل استطاعوا الحصول عليه ، كل رجل كان يستطيع جر قدم وراء القدم الأخرى . هل تعرفون أنه عندما كان الشماليون يزحفون إلى ملدج فيل ، استدعى جماعتنا كل تلاميذ المدارس الحربية ، دون اعتبار لصغر سنهم . ليس هذا فحسب ، بل إنهم فتحوا كذلك أبواب سجن الولاية ليحصلوا على جنود جدد . أجل يا سيداتي ، لقد أطلقوا سراح كل مجرم أعلن عن عزمه على القتال ، ووعدوه بالعفو إذا عاش إلى ما بعد الحرب . ولقد أمضّني أن أرى أولئك التلاميذ الصغار في صفوف اللصوص والسفاحين» .

ـ «أطلقوا سراح المجرمين علينا !؟» .

ـ «أرجوك يا آنسة سكارلت ، لا تنفعلي . إنهم بعيدون جداً عن هنا ، فضلاً عن أنهم يحاربون كجنود أكفاء . وأظن أن كون الإنسان لصّاً لا يمنعه من أن يكون جندياً نادر المثال ، أليس كذلك؟» .

ـ «أعتقد أن ذلك أمر مدهش» قالت ميلاني برقة .

ـ «أما أنا فلا أوافق على هذا الرأي» قالت سكارلت بصراحة «فهناك عدد كاف من اللصوص يجوبون الريف على كل حال ، ألا يكفي الشماليون و . . .» وأمسكت نفسها في الوقت المناسب ، ولكن الرجال ضحكوا .

ـ «ألا يكفي الشماليون ودائرة التموين» أتموا العبارة ، بينما احمرت هي خجلاً .

ـ «ولكن أين جيش الجنرال هود؟» تدخلت ميلاني بسرعة «من المؤكد أنه كان بوسعه حماية سافانا» .

ـ «يا آنسة ميلاني» أجاب فرانك مجفلاً «لم يكن الجنرال هود في تلك المنطقة أبداً . إنه كان ولا يزال يقاتل شمالاً في تنيسي ، محاولاً استدراج الشماليين خارج جورجيا» .

ـ «أولم تنجح خطته البسيطة تلك؟» صاحت سكارلت متهكمة «لقد ترك الشماليين اللعينين يدخلون المدينة ، دون أن يكون هناك من يدافع عنا سوى تلاميذ المدارس الحربية والحرس الوطني» .

ـ «يا ابنتي» قال جيرالد موقظاً نفسه «إنك عقوق ، ستجلبين الكدر لروح أمك» .

ـ «إنهم شماليون لعينون» صاحت سكارلت بحدة «ولا أتوقع أن أدعوهم بلقب آخر» .

وعند ذكر إيلين أحس الجميع بشعور غريب ، وانقطع الحديث فجأة ، وثانية تدخلت ميلاني :

ـ «عندما كنت في ميكون ، هل رأيت إنديا وهوني ويلكس؟ هل سمعتا ، هل كانتا قد سمعتا شيئاً عن آشلي؟» .

ـ «أرجوك يا آنسة ميلاني ، أنت تعرفين أني لو سمعت أنباء عن آشلي لركبت إلى هنا فوراً لإخبارك» قال فرانك . . . «لا ، لم يصلهما أي نبإ . ولكن . . . اسمعي . . . لا تجزعي على آشلي يا آنسة ميلاني . أنا أعلم أنه قد مضى زمن طويل منذ سمعت عنه ، ولكن ، لا يمكنك أن تتوقعي سماع شيء عن إنسان عندما يكون في السجن ، أليس كذلك؟ والأحوال ليست سيئة في المعتقلات الشمالية كما هي في معتقلاتنا ، ففي حوزة الشماليين الوفير من القوت والدواء والحرامات .. إنهم يختلفون عنا في هذا الشأن ، فنحن لا نملك ما يكفي لتغذية أنفسنا ، بله أسرانا !» .

ـ «نعم بحوزة الشماليين الشيء الوفير» صاحت ميلاني بمرارة شديدة

«ولكنهم لا يقدمون شيئاً للأسرى ، أنت تعرف أنهم لا يقدمون شيئاً يا سيد كندي ، إنما تقول ذلك لتهدئة روعي فقط . أنت تعلم أن جنودنا يكادون يموتون من البرد هناك ، ويتضورون جوعاً أيضاً ، ويموتون دون أطباء وعلاج ، لأن الشماليين ، إنما يبغضوننا كثيراً! حبذا لو نستطيع مسح جميع الشماليين عن وجه الأرض . آه ، إني أعرف أن آشلي . . .» .

ـ «لا تقولي ذلك !» صاحت سكارلت وقلبها في حلقها ، فطالما أن أحداً لم يقل إن آشلي قد مات ، فإنه لا يزال في قلبها أمل ضئيل بأنه حي ، ولكنها كانت تشعر بأنه لن يكون ميتاً في اعتبارها قبل أن تسمع بنبإ وفاته .

ـ «اسمعي يا سيدة ويلكس ، لا تجزعي على زوجك» قال الرجل ذو العين الواحدة مهدئاً «لقد أسرت بعد معركة ماناساس الأولى ، وتبودلت فيما بعد ، وعندما كنت في المعتقل كانوا يغذونني بأحسن ما عندهم ، دجاج مشوي وبسكويت طازج . . .» .

ـ «أعتقد أنك كاذب» قالت ميلاني بابتسامة ذاوية ، وبأول أمارة شجاعة رأتها سكارلت تظهر على ميلاني وهي تتحدث مع رجل «وماذا تعتقد أنت؟» .

ـ «أعتقد كذلك أيضاً» قال الرجل ذو العين الواحدة ، وصفع ساقه ضاحكاً .

ـ «إذا دخلتم جميعاً إلى الردهة سأغني لكم بعض أناشيد الميلاد» قالت ميلاني وهي سعيدة بتغيير الموضوع «لقد كان البيانو أحد الأشياء التي لم يستطع الشماليون حملها معهم . هل نغماته ناشزة جداً يا سولين؟» .

ـ «بصورة فظيعة» أجابت سولين مومئة بابتسامة لفرانك ، والسعادة بادية في وجهها .

ولكن عندما خرج الجميع من الغرفة ، تخلف فرانك جاذباً سكارلت من ردنها .

ـ «هل يمكن أن أتحدث إليك على انفراد؟» .

ولهنيهة عصيبة ، خشيت أن يطلب منها حيواناتها الحية ، فأعدت نفسها لكذبة بارعة . وعندما خلت الغرفة ووقفا بجانب النار ، غاضت من وجه فرانك كل البشاشة التي كانت تعمر وجهه أمام الآخرين ، وبدا لسكارلت وكأنه رجل هرم . كان وجهه أدكن جافاً كالأوراق التي كانت تعصف بها الريح حول المرجة في تارا ، وكانت لحيته الشقراء رقيقة هزيلة يخطها الشيب ، وكان يعبث بها

بأظفاره وهو شارد الذهن ، كما كان يتنحنح بشكل مزعج قبل أن يبدأ بالكلام :

ـ «إني آسف جداً لوفاة أمك ، يا آنسة سكارلت» .

ـ «أرجوك ، لا تتكلم عن هذا الموضوع» .

ـ «ووالدك . . . هل أضحى بهذه الحالة منذ . . .؟» .

ـ «نعم ، إنه . . . إنه على غير طبيعته كما يمكنك أن ترى» .

ـ «من المؤكد أنه يحبها حباً جماً» .

ـ «آه يا سيد كندي ، أرجوك أن لا تدعنا نتحدث . . .» .

ـ «آسف يا آنسة سكارلت» وحرك قدميه بعصبية «الحقيقة أني أردت أن أتحدث مع أبيك في أمر ، ولكني أرى الآن أن ذلك لن يجدي شيئاً» .

ـ «ربما استطعت أن أساعدك يا سيد كندي ، فأنت ترى . . . إني ربة البيت الآن» .

ـ «حسناً إني . . .» استهل فرانك حديثه وقد راح يربت لحيته بعصبية «الحقيقة أني . . . أني يا آنسة سكارلت ، كنت عازماً على أن أطلب منه يد سولين» .

ـ «هل تقصد أن تخبرني؟ . .» صاحت سكارلت باستغراب وانفعال «لم تطلب يد سولين من أبي إلى الآن ، وأنت في عشرتها منذ سنين؟ !» .

فتخضَّب وجهه خجلاً ، وابتسم مضطرباً ، وبدا على العموم كشاب حيي خجول .

ـ «لم أكن . . . لم أكن أعلم إن كانت ترغب فيّ ، فأنا أكبر منها بكثير و . . . قد كان يوجد العديد من الشبان الظريفين يحومون حول تارا . . .» .

ـ «ها» فكرت سكارلت ، «لقد كانوا يحومون حولي . . وليس حولها !» .

ـ «وأنا لا أعرف حتى الآن إذا كانت ستقبل بي ، فلم يتفق لي أن سألتها ، ولكن لا بد أنها تعرف شعوري . . . فكرت ، فكرت بأن أستأذن السيد أوهارا وأبلغه الحقيقة . إنني لا أملك سنتاً واحداً الآن يا آنسة سكارلت . لقد كنت أملك نقوداً وفيرة ، إذا ما سمحت لي قول ذلك ، ولكني في هذه اللحظة لا أملك إلا حصاني وثيابي التي ألبسها . عندما تطوعت في الجيش بعت معظم أراضي وحولت كل نقودي إلى سندات حلفية ، وأنت تعلمين ماذا تساوي هذه السندات الآن ، إنها أقل قيمة من الورق الذي طبعت عليه . وعلى كل حال ، فأنا لا أملكها الآن ، لأن النيران التهمتها عندما أحرق الشماليون بيت شقيقتي ،

إني أعلم أني أتواقح حين أطلب يد الآنسة سولين الآن ، وليس معي سنت واحد . . . ولكن ، هذه هي الحقيقة . لقد بدأت أعتقد أننا لا نعرف ما ستؤول إليه الأمور بالنسبة إلى هذه الحرب ، فالأكيد أن الوضع يبدو لي كأنه نهاية العالم ، ولكن لا يوجد شيء نستطيع التأكيد منه و . . . وفكرت أنه سيكون من العزاء العظيم لي وربما لسولين إذا ما خطبنا لبعضنا . إنني واثق من ذلك . غير أنني لن أطلب التزوج بها إلى أن يصير بوسعي الاعتناء بها يا آنسة سكارلت ، وأنا لا أعرف متى سيحين ذلك ، ولكن ، إذا كان للحب الحقيقي شأن لديك ، فبوسعك التأكد من أن الآنسة سولين ستكون غنية به ، إذ لم يكن هناك شيء غيره» .

نطق فرانك الكلمات الأخيرة بإباء ساذج ، أثر في سكارلت حتى على الرغم من انفعالها . كان مما لا يحده إدراكها أن إنساناً ما يمكن أن يحب سولين التي كانت تبدو لها كتلة من الأنانية ، ومن التذمر ، ومما تستطيع فقط وصفه بالعناد المحض .

ـ «لا بأس ، يا سيد كندي» قالت بلطف «وأنا واثقة من أني أستطيع الكلام نيابة عن أبي . لقد كان دائماً يقدر شخصك ، وكان دائماً يتوقع تزوج سولين بك» .

ـ «وهل هو كذلك الآن؟» صاح فرانك والسعادة بادية على وجهه .

ـ «نعم حقاً» أجابت سكارلت ، حاجبة ابتسامتها وهي تتذكر كم مرة هدد جيرالد بكلامه السليط على مائدة العشاء مخاطباً سولين : «والآن يا بنيتي ، ألم يبت عشيقك المتحمس بالمسألة بعد؟ هل أسأله عن نواياه؟» .

ـ «سأسألها هذه الليلة» قال فرانك ووجهه يرتعش ، ثم أمسك بيد سكارلت مصافحاً «إنك لطيفة جداً يا آنسة سكارلت» .

ـ «سأرسلها إليك» ابتسمت سكارلت واتجهت إلى الردهة . وكانت ميلاني قد بدأت العزف ، وأخذت أنغام البيانو ترتفع بنشاز محزن ، غير أن بعض الأوتار كانت موسيقية النغمة ، وكانت ميلاني ترفع صوتها لتقود الآخرين في ترنيمة : «مع ملاك الله جند . . .» .

ووقفت سكارلت صامتة . لقد كان يبدو من غير الممكن أن تكون الحرب قد اجتاحتهم مرتين ، وأنهم كانوا يعيشون في بلاد مدمرة ، ويشارفون حدود الموت جوعاً ، في الوقت الذي تغني فيه هذه الترنيمة المسيحية القديمة العذبة . وفجأة التفتت نحو فرانك قائلة :

ـ «ماذا عنيت عندما قلت إن الأمر يبدو بالنسبة إليك وكأنه نهاية العالم؟» .

ـ «سأتحدث بصراحة» قال متمهلاً «ولكني لا أريد أن تفزعي السيدات الأخريات بما سأقوله . إن الحرب لا يمكن أن تستمر مدة أطول ، فلا يوجد أي رجال جدد لملء الصفوف ، والفرار من الجيش يتفاقم أمره ، يتفاقم أكثر مما يود الجيش أن يعترف به ، إن الرجال لا يسعهم احتمال البقاء بعيداً عن عوائلهم في الوقت الذي يعرفون فيه أن عوائلهم تتضور جوعاً ، ولذلك يعودون إلى بيوتهم ليحاولوا تأمين القوت لذويهم . ولا يسعني لومهم ، بيد أن ذلك يضعف الجيش ، كما أن الجيش لا يستطيع أن يقاتل بلا طعام ، وليس هناك أي طعام . إني أعرف ذلك لأنه كما ترين جمع القوت هو وظيفتي . لقد طفت شمالاً وجنوباً في هذا الإقليم منذ استرجعنا أتلانتا فلم أجد ما يكفي لغذاء طير أبي زريق . والحالة ذاتها تسود جميع المنطقة الممتدة ثلاثمائة ميل جنوباً إلى سافانا . إن الأهالي يتضورون جوعاً ، والسكك الحديد مدمرة ، ولا يوجد بنادق جديدة ، والذخيرة تنفد ، وليس من جلود قط لصنع الأحذية . . . وهكذا ترين أن هذه هي النهاية تقريباً» .

على أن آمال الحلف الذاوية أقلقت خاطر سكارلت أقل مما أقلقته عبارة فرانك المتعلقة بندرة الطعام . كانت قد عزمت على إرسال بورك مع الحصان والعربة والقطع الذهبية ، ونقود الولايات المتحدة ، ليجوب الريف بحثاً عن المؤن والقماش . ولكن إذا كان ما قاله فرانك صحيحاً . . .

ولكن ميكون لم تسقط ، ولا بد من وجود طعام في ميكون . . . وحالما يأخذ فصل التموين طريقه بأمان ، مغادراً تاراً ، سترسل بورك إلى ميكون وستتحمل نتيجة المغامرة .

ـ «حسناً ، دعونا لا نتحدث عن الأمور غير السارة هذه الليلة يا سيد كندي !» قالت «اذهب واجلس في مكتب والدتي الصغير وسأرسل إليك سولين ، وهكذا تستطيع . . . حسناً ، وهكذا تنعم بخلوة قصيرة» .

وانسل فرانك خارج الغرفة خجلاً مبتسماً ، وراقبته سكارلت في أثناء خروجه

ـ«واأسفاه لأنه لا يستطيع أن يتزوجها الآن» فكرت «فذلك يعني الخلاص من فم يأكل» .

*

29

استسلم الجنرال جونستون ، الذي كان قد أعيد إلى قيادة بقايا جيشه القديم المحطم ، استسلم بهذه البقايا في كارولينا الشمالية في نيسان/ أبريل التالي ، وهكذا انتهت الحرب . ولكن الأخبار لم تبلغ تارا ، إلاّ بعد أسبوعين ، فقد كان الجميع منهمكين جداً بالعمل ، بحيث لم يستطع أحدهم إضاعة الوقت في السفر إلى الخارج وسماع الأنباء . ولما كان الجيران في شغل كأبناء تارا ، قلت الزيارات ، وصارت الأنباء تنتشر ببطء .

كانت حراثة الربيع في أوجها ، وكانت بذور القطن وبذور الحديقة التي جلبها بورك من ميكون تبذر في الأرض . وكان بورك قد أضحى منذ قام برحلته عديم الفائدة تقريباً ، فقد غدا شديد الزهو برجوعه سالماً بحمولة عربته من القماش والحبوب والدجاج ولحم الخنزير واللحم المجفف والدقيق . . . ومرة بعد مرة ، روى قصة فراره الحرج من مآزق كثيرة ، وقصة الممرات الجانبية وأزقة الريف التي سلكها في عودته إلى تارا ، والطرق غير المطروقة والشعاب القديمة وممرات الخيل التي لجأ إليها . وكان قد أمضى خمسة أسابيع في الطريق ، ورغم أنها كانت أسابيع قلقة بالنسبة إلى سكارلت ، إلاّ أنها لم تعنفه عند عودته لأنها سرت لكونه أتم رحلته بنجاح ، كما سرت لأنه أعاد معه الكثير من النقود التي كانت قد أعطته إياها ، وأنبأها شكها الأريب أن سبب احتفاظه بهذا الكثير يعود إلى أنه لم يشتر الدجاج ومعظم القوت الذي جلبه . ولو صرف بورك نقودها في الوقت الذي كان يوجد فيه زرائب دجاج بلا حراسة وأفران يسيرة المنال على طول طريقه ، لاعتبر ذلك عاراً عليه .

والآن ، وقد صار بحوزتهم قليل من الطعام ، انهمك كل شخص في تارا بالعمل ، يحاول أن يسترجع للحياة بعض مظهرها الطبيعي . وكان هناك عمل لكل زوج من الأيدي ، عمل كثير جداً ، عمل لا ينتهي أبداً . لقد كان ينبغي قطع السيقان الذابلة لقطن السنة الماضية ، كي يفسح في المجال لبذار السنة الحالية ، وكان الحصان الحرون غير المعتاد على المحراث يجرجر خطاه كارهاً بين المزارع ، وكذلك كان يجب نزع الأعشاب من الحديقة ، ويجب بذر الحبوب ،

وقطع أخشاب الموقد ، كما كان يجب المباشرة بتبديل الزرائب وأميال الأسيجة الطويلة التي احترقت بنيران الشماليين ، ثم كان ينبغي زيارة الفخاخ التي كان ينصبها بورك لصيد الأرانب مرتين في اليوم ، وكذلك وضع الطعوم مرة تلو أخرى في شباك السمك في النهار ، وكان هناك توضيب السرر وكنس أرض الغرف وطبخ الطعام وغسل الصحون وعلف الخنازير والدجاج وجمع البيض وحلب البقرة ورعايتها قرب الهور ، حيث لا بد من أن يرافقها أحدهم طيلة النهار خوفاً من أن يعود الشماليون أو رجال فرانك ويأخذوها . حتى ويد الصغير كانت عليه واجباته ، ففي كل صباح ، كان يخرج منهمكاً وبيده سلة لجمع الأغصان وقطع الأخشاب التي تشتعل النار بها .

كان شابا آل فونتين اللذان عادا من الحرب قبل جميع رجال الولاية أول من حمل نبأ الاستسلام إلى الولاية . وكان ألكس الذي ما زال يملك حذاء يسير ماشياً ، بينما ركب طوني ، الحافي القدمين ، على بغل عاري الظهر ، لقد كان طوني ينجح دائماً في الحصول على أحسن الأشياء في تلك العائلة ، وبدا الشقيقان أشد سمرة من أي وقت مضى بفعل أربع سنين من التعرض للشمس والريح ، كما بديا أنحف قامة وأكثر صلابة ، وظهرا كأنهما غريبان بفضل اللحيتين السوداوين السارحتين اللتين عادا بهما من الحرب .

وفي طريقهما إلى ميموسا ، نظراً لاشتياقهما إلى بيتهما ، لم يتوقفا سوى هنيهة قصيرة في تارا ليقبّلا البنات ، ويبلغاهن نبأ الاستسلام قائلين إن كل شيء قد انتهى ، قد انقضى . وبدا كأنهما لا يحفلان كثيراً بهذا الأمر ولا يرغبان في الحديث عنه ، وكان كل ما أرادا معرفته هو ما إذا كانت ميموسا قد أحرقت . لقد مرا في طريقهما جنوباً من أتلانتا بمدخنة إثر مدخنة ، حيث كانت تقوم بيوت الأصدقاء ، وبدا لهما أنه يكاد يكون من السذاجة أن يأملا بأن يكون بيتهما قد وفره الشماليون ، ولذلك تنفسا الصعداء للنبإ المشجع وضحكا ، صافعين فخذيهما ، عندما أخبرتهما سكارلت عن ركوب سالي الجريء وكيف أنها استأصلت سياج بيتهما .

ـ «إنها فتاة مقدامة» قال طوني «وإن من سوء حظها أن جو قد قتل ، هل عندكم تبغ يا سكارلت؟» .

ـ «لا شيء سوى تبغ الأرانب ، يدخنه أبي في قصبة ذرة» .

ـ «لم أنحط إلى هذه الدرجة بعد، ولكن من المرجح أن أصلها» قال طوني .

ـ «هل ديميتي مونرو على ما يرام؟»سأل ألكس متلهفاً، ولكن بقليل من الاضطراب، وتذكرت سكارلت بغموض أنه كان يغازل شقيقة سالي الصغرى .

ـ «ها، نعم . إنها تعيش الآن مع عمتها هناك في فايتفيل . أنت تعرف أن بيتها في لفجوي قد أحرق، وأن بقية عائلتها في ميكون» .

ـ «إن ما يعنيه هو . . . هل تزوجت ديميتي مونرو أحد الضباط الشجعان في الحرس الوطني؟» قال طوني متهكماً، بينما رمقه ألكس بعينين حانقتين .

ـ «طبعاً، لم تتزوج» قالت سكارلت طربة .

ـ «ربما كان من الأفضل أن لو تزوجت» قال ألكس متجهم الوجه «يا للجحيم . . . أرجو عفوك يا سكارلت، ولكن كيف يستطيع رجل أن يطلب من فتاة أن تتزوج به وقد فر جميع زنوجه وضاعت حيواناته وليس معه سنت في جيبه؟» .

ـ «أنت تعرف أن ذلك لن يزعج ديميتي» قالت سكارلت . لقد استطاعت أن تكون مخلصة لديميتي وتقول قولاً حسناً عنها لأن ألكس فونتين لم يكن يوماً من عشاقها .

ـ «يا للجحيم . . لا بأس أرجو عفوك ثانية . ينبغي أن أكف عن الشتائم وإلا فستسلخ غراندما جلدي حتماً . . . إني لا أطلب من أي فتاة أن تتزوج متسوّلاً . قد لا يضايقها ذلك ولكنه يضايقني أنا» .

وبينما كانت سكارلت تتحدث إلى الشابين في الشرفة الأمامية انسلت ميلاني وسولين وكارين صامتات إلى داخل البيت حالما سمعن نبأ الاستسلام . وبعد أن ذهب الشابان، متخذين طريقهما إلى البيت، عبر مزارع تارا الخلفية، دخلت سكارلت، فسمعت البنات ينشجن معاً فوق الكنبة في مكتب إيلين الصغير . لقد انتهى كل شيء، الحلم البراق الجميل الذي أحببنه ورجون تحقيقه، والقضية الوطنية التي انتزعت أصدقاءهن ومحبيهن وأزواجهن والتي أفقرت عوائلهن . لقد ضاعت القضية الوطنية التي كن قد اعتقدن أنها لا يمكن أن تضيع أبداً .

على أن سكارلت لم تذرف دمعة واحدة، بل إنها عندما سمعت النبأ لأول وهلة فكرت : شكراً لله، الآن لن تسرق البقرة، الآن يسلم الحصان، الآن

نستطيع إخراج الأواني الفضية من البئر ، ويستطيع كل منا أن يستعمل سكينة وشوكة ، الآن لن أخاف التجوال في الريف بحثاً عن شيء للأكل .

يا له من فرج عظيم ! لن ينتابها الخوف بعد اليوم عند سماع وقع الحوافر ! لن تستيقظ بعد اليوم في الليالي المظلمة ، حابسة النفس لتصغي حائرة فيما إذا كان في الحقيقة أو في الحلم سماعها لقرقعة لقم الألجمة ، لوقع الحوافر ، لصوت الأوامر الفظ ، ينبعث من الشماليين . . وأهم من هذا كله ، إن تارا قد سلمت ! الآن لن يتحقق أشد كوابيس أحلامها رهبة ، الآن لن تضطر إلى الوقوف على المرجة لترى الدخان يندلع من البيت الحبيب وتسمع دوي النيران عندما ينهار السقف .

نعم لقد ماتت القضية ، ولكن الحرب كانت تتراءى لها دوماً أمراً أحمق ، وكان السلم أفضل في رأيها . إنها لم تقف يوماً مبهورة النظر عندما كان علم الحلف يرتفع فوق صاريته ، ولم تحس يوماً بقشعريرة باردة عندما كانت تنشد أغنية الجنوب «دكسي» .

لقد انتهى كل هذا ، وتدبرت أمرها فيه ، وسوف لا تبكي عليه . . . انتهى كل شيء ! الحرب التي بدت وكأنها لن تنتهي ، الحرب التي لم تطلبها ولم تكن راغبة فيها ، شطرت حياتها شطرين ، وأقامت بينهما هوة عميقة جداً بحيث صار من الصعب تذكر تلك الأيام الهنيئة الماضية . لقد أصبح بوسعها أن تنظر إلى الماضي دون انفعال ، إلى سكارلت الجميلة بخفيها الأخضرين الناعمين من جلد السختيان ، وبأهدابها المعطرة برائحة الخزامى . ولكنها تساءلت إذا كان يمكن أن تكون هي ، تلك الفتاة ذاتها ، سكارلت أوهارا ، بأهل الولاية عند قدميها ، بمائة عبد ينفذون أوامرها ، بثروة تارا كسور يسند ظهرها وبوالدين مشغوفين بها ، متلهفين لتلبية أي رغبة من رغبات قلبها . لقد مضت سكارلت المستهترة التي لم تعرف يوماً رغبة خائبة إلا فيما يتعلق بآشلي .

في مكان ما على الطريق الطويلة المتعرجة .خلال هذه السنين الأربع ، انسلت الفتاة ذات الحقيبة وخفي الرقص ، وبقي مكانها امرأة بعينين خضراوين حادتين ، امرأة تعد البنسات وتشغل يديها بأعمال وضيعة كثيرة ، امرأة لم يترك لها شيء من الحطام إلا الأرض الحمراء التي تقف عليها والتي لا تحطم .

وبينما هي في القاعة ، تصغي لنشيج الفتيات ، كان عقلها يقدح زناده :

- «سنزرع قطناً أكثر . سأرسل بورك غداً إلى ميكون ليشتري بذوراً أخرى ، فلن يحرق الشماليون القطن الآن ولن يحتاج إليه جنودنا . يا إلــهي الرحيم ، ينبغي أن يرتفع سعر القطن إلى السماء هذا الخريف !» .

ودخلت المكتب الصغير ، وجلست إلى المنضدة ، دون أن تلتفت إلى الناشجات على الكنبة ، ثم تناولت قلماً لتوازن بين ثمن بذور القطن الجديدة وما تبقى معها من نقود .

- «لقد انتهت الحرب» فكرت ، ثم أفلت القلم فجأة من يدها ، إذ غمرتها سعادة فياضة : «لقد انتهت الحرب وآشلي . . . إذا كان آشلي حياً فسيكون الآن في طريقه إلى البيت !» وتساءلت فيما إذا كانت ميلاني قد فكرت بهذا الأمر وهي مسترسلة في النشيج حزناً على القضية الخاسرة .

- «سرعان ما سنتلقى رسالة ، لا ليس رسالة ، فليس بوسعنا تلقي رسائل ، ولكن سرعان . . . آه سيطلعنا على نبإ قدومه بطريقة ما» .

ولكن الأيام مرت وغدت أسابيع ولم يصل نبأ من آشلي . وكانت الخدمة البريدية غير منتظمة في الجنوب ، ومنعدمة تماماً في المقاطعات الريفية . وكان يمر بتارا من وقت إلى آخر مسافر قادم من أتلانتا يحمل رسالة صغيرة من العمة بيتي ، تلتمس باكية عودة الصبيتين ، ولكن أحداً لم يأتهم بنبإ عن آشلي .

*

وحدث بعد استسلام الجنوب أن كان ينشب نزاع حاد دائم بين سكارلت وسولين حول الحصان . فقد أرادت سولين ، وقد زال خطر الشماليين ، أن تقوم بزيارات للجيران ، فشعورها بالوحدة وافتقارها إلى حياة الماضي الاجتماعية السعيدة حديا بها إلى أن تتوق إلى زيارة الأصدقاء ، إن لم يكن لأي سبب آخر ، فعلى الأقل لتتحقق بنفسها من أن باقي الولاية كان على الدرجة نفسها من السوء التي كانت عليها تارا . غير أن سكارلت وقفت عقبة كأداء في طريقها ، مصرة على أن الحصان كان للعمل ، ولجر الأخشاب من الغابات ، وللحرث ، ولركوب بورك في أثناء بحثه عن الطعام ، أما في أيام الآحاد فكان له حق الراحة وقضم العشب في المرعى ، فإذا ما أرادت سولين أن تقوم بزياراتها فبوسعها الذهاب على قدميها .

ولم تكن سولين ، قبل السنة الأخيرة ، قد مشت طيلة حياتها مسافة مائة ياردة ، ولذلك لم ترحب بهذا الاقتراح ومكثت في البيت تشتكي وتردد «آه لو أن أمي موجودة فقط !» ، وعندئذ صفعتها سكارلت الصفعة الموعودة منذ زمن ، وضربتها ضرباً مبرحاً ، بحيث وقعت فوق السرير مولولة ، مثيرة الذعر في أنحاء البيت . ومنذ ذلك الحين ، خف شكوها ، على الأقل ، في حضور سكارلت .

لقد نطقت سكارلت بالصدق عندما قالت إنها تريد أن يرتاح الحصان غير أن ذلك كان نصف الحقيقة ، أما النصف الآخر فكان يكمن في أنها كانت قد قامت بدورة زيارات في الولاية في أول شهر بعد الاستسلام ، وقد زعزع عزيمتها منظر الأصدقاء القدامى والمزارع أكثر مما تود أن تعترف به .

كان آل فونتين أفضل حالاً من الجميع ، ويعود الفضل في ذلك إلى جولات سالي الشاقة على الحصان . غير أن حالهم هذا كان حسناً إذا ما قيس بوضع جيرانهم المؤنس ، فغراندما فونتين لم تكن قد شفيت بعد من النوبة القلبية التي انتابتها يوم قادت الأخريات في مكافحة النيران وإنقاذ البيت ، وكان الدكتور فونتين العجوز ينقه ببطء من ذراعه المبتورة ، وكان ألكس وطوني قد اتجها إلى المحراث والمجرفة بأيد متوانية ، وعندما رأيا سكارلت ، انحنيا من فوق السياج ليصافحاها ، وضحكا على عربتها الخربة والمرارة جلية في عيونهما السوداء لأنهما كانا يضحكان على نفسيهما كما يضحكان عليها . وطلبت سكارلت منهما أن يبيعاها ذرة للبذر فوعداها بذلك ، وشرعا يباحثانها بمشاكل المزرعة ، وكان عندهما اثنتا عشرة دجاجة وبقرتان وخمسة خنانيص والبغل الذي جلباه من الحرب ، وقد مات أحد الخنانيص مؤخراً ، ولذلك كان الشابان قلقين يخشيان فقدان البقية . وضحكت سكارلت عندما سمعت أقوالاً خطيرة كهذه عن الخنازير ، تصدر عن هذين المدلّلين سابقاً ، اللذين لم يحدث يوماً أن أعارا الحياة أي اهتمام يفوق من حيث اهتمامهما بأي ربطة عنق هي الأنسب طرازاً ، ضحكت وكان ضحكها هذه المرة مريراً أيضاً .

لقد رحب بها الجميع في ميموسا وأصروا على إعطائها بذور الذرة ، لا بيعها إياها ، واحتدت طباع الفونتينيين السريعة الهياج عندما وضع سكارلت ليرة شمالية على المنضدة ، فرفضوا استلامها بصراحة . وأخذت سكارلت

البذور ودست سنداً بدولار واحد في يد سالي ، التي بدت وكأنها فتاة تختلف عن تلك التي حيتها منذ ثمانية شهور ، في أول عودة سكارلت إلى تارا . فقد كانت حينذاك شاحبة اللون حزينة ، وكان يعروها شيء من البهجة رغم ذلك ، أما الآن فقد فارقتها تلك البهجة ، فبدت وكأن الاستسلام قد جردها من كل أمل .

ـ «سكارلت» همست وهي تقبض على السند «ماذا كانت فائدة كل تلك التضحيات؟ لماذا حاربنا؟ آه يا لولدي جو التعيس ! آه لطفلي التعيس» .

ـ «أنا لا أعرف لماذا حاربنا ، ولا أعبأ بمعرفة ذلك» قالت سكارلت «وأنا لست مهتمة بهذا الأمر ، ولم أهتم به يوماً ، فالحرب من شأن الرجال لا السيدات . وكل ما أهتم به الآن هو نتاج قطن جيد . خذي الآن هذا الدولار واشتري به ثوباً لجو ، إن الله يعلم أنه بحاجة إليه . إنني لا أريد سلبكم الذرة ، على الرغم من لطف ألكس وطوني» .

وتبعها الشابان إلى العربة وساعداها على الصعود ، وكانا دمثين على الرغم من ثيابهما الرثة ، مرحين مرح آل فونتين الجياش ، ولكن سكارلت ، وصورة الفاقة التي اعترتهما لم تفارق عينيها ، كانت ترتعش وهي تقود عربتها خارج ميموسا ، فلقد تعبت من الفاقة والضيق . آه كم سيكون سرورها عظيماً لو رأت أناساً أغنياء ، لا يشغل بالهم من أين ستأتي وجبة الطعام التالية !

كان كيد كالفرت في منزله في مزرعة باين بلوم . وعندما صعدت سكارلت درجات هذا المنزل القديم ، الذي كانت قد رقصت فيه مراراً في الأيام السعيدة ، رأت الموت في وجه كيد . لقد كان هزيلاً يسعل وهو مضطجع في كرسي مريح في ضوء الشمس ، وقد غطى ركبتيه بشال ، ورغم ذلك فقد أشرق وجهه عندما رآها ، وحاول أن ينهض لتحيتها قائلاً إن مجرد برودة خفيفة قد استقرت في صدره من جراء النوم الطويل تحت المطر ، على أنها سرعان ما ستزول وعندئذ سيساهم في العمل .

أما كاثلين كالفرت ، التي خرجت من البيت عند سماع الأصوات ، فقد التقت عيناها بعيني سكارلت من فوق رأس شقيقها ، فقرأت سكارلت فيهما الحقيقة واليأس المرير ، إذ كانت كاثلين تعرف ما قد يكون كيد يجهله . فقد بدت مزرعة باين بلوم في حالة متأخرة تكسوها الحشائش الضارة ، وتتخللها

شجيرات الصنوبر التي نبتت من البذور الساقطة . أما البيت الذي فيها فقد كان مقوس السقف عديم التناسق .

وكانت كاثلين متوترة الأعصاب . وكانت هي وكيد وزوجة أبيهما الشمالية وبناتها الأربع الصغيرات وهلتون ، الناظر الشمالي ، قد ظلوا في البيت الصامت الذي كانت الأصوات تتناهى داخله بصورة غريبة . ولم تكن سكارلت قد مالت يوماً إلى هلتون أكثر مما كانت تميل إلى جوناس ويلكرسون ناظر تارا ، وغدا ميلها إليه أقل الآن حين تقدم نحوها متباطئاً وحياها كندٍّ لها . وكان يتصف سابقاً ، بالمركب نفسه من الذلة والقحة اللتين اتصف بهما جوناس ولكرسون ، غير أنه الآن ، وقد مات السيد كالفرت ريفورد في الحرب ، وعاد كيد مريضاً منها ، تخلى عن ذلته . أما زوجة السيد كالفرت الثانية ، فلم تكن يوماً تعرف كيف تنزع الاحترام من الزنوج الخدم ، ولذلك لم يكن من المتوقع أن تستطيع الحصول عليه من رجل أبيض .

ـ «لقد كان السيد هلتون لطيفاً جداً لبقائه معنا خلال هذه الأيام الصعبة» ، قالت السيدة كالفرت بعصبية ، ملقية نظرات سريعة على ابنة زوجها «نعم ، لطيفاً جداً . أظن أنكم سمعتم كيف أنه أنقذ بيتنا من الحريق مرتين عندما كان شيرمان هنا . أنا واثقة أني لا أعرف كيف سنتدبر أمورنا بدونه وليس معنا نقود ، وكيد . . .» .

وعلت حمرة الخجل وجه كيد الشاحب ، وحجبت أهداب كاثلين الطويلة عينيها والتجم فوها . وأدركت سكارلت أن روحيهما تتلويان في سخط عاجز لكونهما مدينان بالجميل لناظرهما الشمالي ، وبدا على السيدة كالفرت أنها تكاد تجهش للبكاء . كانت قد ارتكبت خطأ نوعاً ما ، فلقد كانت ترتكب الأخطاء دوماً . إنها لم تستطع فهم الجنوبيين وحسب ، وعلى الرغم من أنها قضت في جورجيا عشرين عاماً . لم تكن تعرف يوماً ، ما الذي لا يجوز قوله لأبناء زوجها ، ومع ذلك كانوا دائماً مؤدبين لبقين معها ، دون اعتبار لما تقول أو تفعل . والآن ، ودون أن تنبس بكلمة ، أقسمت أن تعود إلى أهلها في الشمال وتصحب أولادها معها ، تاركة هؤلاء الغرباء العنيدين المحيرين .

لم تشعر سكارلت بعد هاتين الزيارتين بالرغبة في زيارة آل تارلتون . فالآن ، وقد توفي الشبان الأربعة واحترق البيت ، وحشرت العائلة نفسها في كوخ ناظر

المزرعة ، لم تستطع سكارلت أن تقنع نفسها بالذهاب . ولكن سولين وكارين التمستا ذلك منها ، وقالت ميلاني إنه سيكون من العقوق بحق الجيرة عدم زيارة هذه العائلة والترحيب بالسيد تارلتون العائد من الحرب ، وهكذا ذهبن في أحد أيام الآحاد .

وكانت هذه أسوأ الزيارات .

فبينما كانت العربة تسير بهن بجانب حطام البيت ، رأين بياتريس تارلتون ترتدي ثوباً بالياً للركوب وتحمل سوطاً تحت إبطها ، وتجلس فوق ركيزة السياج العليا ، على مقربة من حظيرة الخيل ، تحدق كئيبة بلا شيء ، وقد ربض إلى جانبها الزنجي الصغير المحني الساقين ، الذي كان قد درب خيولها ، والكآبة تغمر وجهه كسيدته . أما الحظيرة ، التي كانت يوماً مليئة بالمهر الأشرة وخيول السفاد الوديعة ، فقد أمست الآن خالية إلا من بغل واحد هو البغل الذي عاد عليه السيد تارلتون إلى البيت بعد الاستسلام .

ـ «أقسم أني لا أعرف ماذا أفعل بنفسي الآن ، بعد أن ذهب أعزائي» قالت السيدة تارلتون وهي تنزل عن السياج . وكان يمكن أن يظن الغريب أنها كانت تقصد أولادها الأربعة الأموات ، ولكن بنات تارا عرفن أن الذي كان يشغل بال السيدة تارلتون هو الخيول «لقد ماتت كل خيولي الجميلة . آه ، يا لنيلي التعسة ! آه لو بقيت لي نيلي وحسب ! لا شيء في الحظيرة سوى بغل حقير ، بغل حقير» كررت وهي تنظر بسخط إلى الحيوان الأعجف .

ـ «إنها لإهانة لذكرى أعزائي الأصائل أن يحل بغل في حظيرتهم ، فالبغال وليدة الحرام ، إنها حيوانات غير طبيعية ولا بد أن يكون من المحرم تربيتها» .

وخرج جيم تارلتون الذي كانت تخفيه تماماً لحيته الكثة ، خرج ليرحب بالفتيات ويقبلهن ، واندفعت بناته الأربع ، ذوات الشعر الأحمر ، في أثواب مرقعة ، يتعثرن بالكلاب الأثني عشر الحمر والسود التي جرت تنبح إلى الباب إثر سماع أصوات غريبة . كان يشوب العائلة مظهر بهيج مدروس معتمد ، مظهر جعل عظام سكارلت تحس بقشعريرة آلم من مرارة ميموسا أو من الجو الموحي بالموت المخيم على باين بلوم .

أصر التارلتيون على أن تبقى البنات من أجل العشاء ، قائلين إن ضيوفهم كانوا قليلين جداً في تلك الأيام ، وإنهم يريدون سماع كل الأخبار . ولم تكن

سكارلت تود البقاء لأن الجو أمضها، ولكن ميلاني وشقيقتيها كن متلهفات لإطالة الزيارة . وهكذا بقي أربعتهن لوقت العشاء، واقتصدن في أكل اللحم المجفف والحمص الناشف الذي قدم لهن .

وارتفع الضحك بسبب الطعام الشحيح، وقهقهت بنات تارلتون وهن يروين حيلهن في موضوع الثياب، كما لو كن يروين أروع الفكاهات المضحكة، وقابلتهن ميلاني في منتصف الطريق، مدهشة سكارلت بخفة روحها غير المتوقعة، وذلك عندما تحدثت عن تجاربهم في تارا، ملقية ضوءاً على المصاعب التي كانوا يجابهونها . ولم تستطع سكارلت التحدث أبداً، فالغرفة كانت تبدو لناظريها شاغرة بدون الشبان الأربعة العظام، يسترخون في جلساتهم، يدخنون ويراودون . وإذا كانت الغرفة تبدو شاغرة لناظريها هي، فكيف كان ينبغي أن تبدو للتارلتونيين الذين ظهروا بوجوه باسمة لجيرانهم؟

كانت كارين قد تكلمت قليلاً في أثناء العشاء، ولكن ما إن انتهوا حتى اتجهت إلى جانب السيدة تارلتون وهمست شيئاً في أذنها، فتغير وجه المرأة وغادرت الابتسامة الجافة شفتيها وهي تلف ذراعها حول خصر كارين النحيل ثم تركتا الغرفة تتبعهما سكارلت التي شعرت أنها لن تستطيع تحمل جو الغرفة دقيقة أخرى . سارت الاثنتان في الممر خلال الحديقة ورأت سكارلت أنهما تتجهان إلى المقبرة . . . فماذا تفعل؟ لن يسعها الرجوع إلى داخل البيت الآن، لأن ذلك سيبدو في منتهى الوقاحة، ولكن أي شيء تقصد كارين بسحب السيدة تارلتون خارجاً نحو قبور الشبان، في الوقت الذي كانت فيه بياتريس تجهد في أن تكون شجاعة؟

كان هناك نصبان رخاميان جديدان في الفسحة المحاطة بالآجر تحت أشجار الأرز الحزينة، جديدان تماماً بحيث أن المطر لم يلطخهما بعد بالتراب الأحمر .

ـ «لقد جلبناهما في الأسبوع الماضي» قالت السيدة تارلتون باعتزاز «ذهب السيد تارلتون إلى ميكون وأحضرهما في العربة» .

أنصاب قبور! وما أكثر ما كلفت! وفجأة لم تشعر سكارلت بالأسف على التارلتيين كما شعرت في البدء، فأي إنسان يبدد المال على أنصاب القبور، بينما الطعام باهظ الثمن، بل ولا يمكن الحصول عليه قريباً، لا يستحق العطف، ثم إن عدة سطور قد حفرت على كل نصب، وكلما زاد الحفر عنى

ذلك ثمناً أبهظ . . . لا! ينبغي أن يكون جميع أفراد العائلة أغبياء . . . ثم إنهم كذلك تكلفوا نقوداً في سبيل جلب جثث الشبان الثلاثة إلى البيت ، أما بويد فلم يعثروا على جثته ، ولا على أي أثر منها .

كان بين قبري برنت وستيوارت حجر صغير نقش عليه «لقدكانا ظريفين هنيئين في حياتهما ، وفي مماتهما لم يفترقا» . وعلى الحجر الآخر اسما بويد وتوم .

كل ذلك المال في سبيل أنصاب القبور! أجل ، إنهم أغبياء ، وأحست بالسخط كما لو كانت أموالها الخاصة هي التي أهدرت .

وكانت عينا كارين تلمعان بصورة غريبة :

ـ «أعتقد أنه بديع» همست مومئة إلى النصب الأول .

من المنتظر أن تعتقد كارين أنه بديع ، إذ إن أي شيء عاطفي يثيرها .

ـ «أجل» أجابت السيدة تارلتون بصوت ناعم «فكرنا أنه موافق تماماً ، فقد ماتا في الوقت نفسه تقريباً ، ستيوارت أولاً ثم برنت الذي رفع العلم بعد أن سقط من يد شقيقه» .

وفيما البنات عائدات إلى تارا ظلت سكارلت صامتة هنيهة ، تفكر في ما قد رأته في مختلف البيوت ، وتتذكر كارهة ، كيف كانت الولاية أيام عزها ، والزوار يملأون جميع المنازل الكبيرة ، والنقود كثيرة ، والزنوج يملأون الربوع ، والحقول الجيدة العناية تزدهي بالقطن .

ـ «خلال سنة أخرى ، ستنمو أشجار الصنوبر الصغيرة في جميع أنحاء هذه الحقول» فكرت ، ولكنها عندما تطلعت إلى الغابة المحيطة هزت كتفيها وأضافت «كل ما نستطيع عمله ، بدون الزنوج ، هو حفظ أجسامنا وأرواحنا معاً . لن يستطيع أي إنسان إدارة مزرعة كبيرة بدون الزنوج ، ولن تفلح قط مزارع عديدة ، وستكسو الغابات الحقول مرة ثانية ، ولن يستطيع امرؤ زراعة الكثير من القطن . وماذا سيحل بأهل الريف؟ إن أهل المدن يستطيعون تدبير أمورهم بطريقة ما . لقد كانوا يتدبرون أمورهم دوماً ، ولكننا نحن أهل الريف ، سنعود القهقرى قرناً ، ونغدو كالرواد الأوائل الذين كانوا يملكون غرفاً قليلة ويحرثون فدادين قليلة ، ويحافظون على حياتهم بالكد والجهد .

«لا» ، فكرت مقطبة الجبين ، «لن تغدو تارا كذلك ، حتى لو اضطررت إلى

أن أحرث بنفسي . وبوسع هذا الإقليم كله ، بوسع هذه الولاية كلها ، أن تعود إلى حياة الغابات إذا شاءت ، غير أنني لن أدع تارا تعود إليها أبداً ، ولا أنوي أن أبذر نقودي على أنصاب القبور ، أو أبدد وقتي في البكاء على ضحايا الحرب وما خلفته . إن بوسعنا تدبير الأمر تقريباً ، غير أنني أعرف أنه كان بوسعنا تدبير الأمور على أي حال لو لم يكن جميع الرجال موتى . ليس فقدان الزنوج هو أسوأ ما في هذه القضية ، لا ، وإنما فقدان الرجال ، الرجال الشباب» وفكرت ثانية بأبناء تارلتون الأربعة وجو فونتين ، وريفورد كالفرت والأخوين مونرو وكل الشباب من فايتفيل وجونسبورو ، الذين كانت قد قرأت أسماءهم في قوائم المصابين خلال الحرب .

ـ «لو بقي عدد كاف من الرجال لاستطعنا تدبير الأمر بطريقة ما ولكن . . .» .

وساورتها فكرة ثانية . . . هب أنها ستتزوج ثانية . طبعاً ، إنها لا تريد أن تتزوج ثانية ، فزواج واحد كان يكفي قطعاً . هذا فضلاً عن أن الرجل الوحيد الذي رغبت دوماً في التزوج به هو آشلي ، وآشلي كان متزوجاً ، هذا ، إن كان لا يزال حياً . ولكن هب أنها رغبت في الزواج ، من سيوجد ليتزوج بها؟ كانت الفكرة مرعبة .

ـ «ميلي» قالت «ماذا سيحل بفتيات الجنوب؟» .

ـ «ماذا تعني؟» .

ـ «أعني تماماً ما أقوله ، ماذا سيحل بهن؟ لا يوجد من يتزوجهن ، أجل يا ميلي ، وذلك لأن جميع الشبان قد قضوا . سوف يوجد الألوف من الفتيات في أنحاء الجنوب اللواتي سيمتن عوانس» .

ـ «ولن ينجبن أطفالاً أبداً» أجابت ميلاني ، التي كان هذا الموضوع أهم الأمور في نظرها .

من الواضح أن الفكرة لم تكن جديدة بالنسبة إلى سولين التي كانت تجلس في مؤخرة العربة ، فقد شرعت تبكي فجأة ، لأنها لم تكن قد سمعت عن فرانك كندي منذ عيد الميلاد ، ولم تكن تعرف إذا كان ذلك يعود إلى انعدام الخدمة البريدية ، أو إلى أنه استهان بعواطفها فحسب ، ثم نسيها ، أو أنه ربما قضى في الأيام الأخيرة من الحرب ! إن الاحتمال الأخير أفضل حتماً من نسيانه

إياها ، لأنه على الأقل ، كان يوجد بعض الجلال في أمر حبيب ميت ، كما هو الحال مع كارين وإنديا ويلكس ، بينما لم يكن يوجد شيء من الجلال في أمر خطيبة مهجورة .

ـ «باسم الإلــه ، اصمتي» قالت سكارلت .

ـ «آه ، بوسـعك الاسـتـمـرار في الحـديث ، بكت سـولين «لأنك تزوجت وولدت طفلاً ، والجميع يعرفون أن أحد الرجال يرغب في التزوج بك . ولكن انظري إلى حالتي ! إنك تتصرفين بلؤم ، وتلمحين إلى أني سأغدو عانساً عندما لا أستطيع أن أجد من أتزوجه . أظن أنك مقيتة» .

ـ «اسكتي ، إنك تعلمين كم أمقت الناس الذين ينتحبون طيلة الوقت ، وتعرفين تمام المعرفة أن السيد كندي العجوز ، ذا اللحية الزنجبيلية ، ليس ميتاً ، وأنه سيـعـود ويتـزوج بك . إنه لا يملك ذوقاً أفضل من ذوقك ، غيـر أني شخصياً ، أفضل أن أصبح عانساً على أن أتزوج به» .

وخيم الصمت هنيهة على مؤخرة العربة ، ثم سمعت كارين تواسي شقيقتها بتربيت ذاهل ، فقد كان عقلها بعيداً جداً ، يسير في الممرات التي كانت تركب فيها بجانب برنت تارلتون منذ ثلاث سنوات . وكانت عيناها تبرقان ببريق رائع .

ـ «ها» قـالت مـيـلاني بحـزن «كـيف سـيـغـدو الجنوب بدون شـبـاننا الظرفاء؟وكيف كان سيغدو لو أنهم ظلوا على قيد الحياة؟ كان بوسعنا أن نستفيد من شجاعتهم ونشاطهم وتفكيرهم . سكارلت ، ينبغي علينا جميعاً ، نحن المطفلات ، أن ننشئ أطفالنا ليحلوا محل الرجال الذين قضوا ، وليكونوا رجالاً شجعان مثلهم» .

ـ «لن يكون أبداً رجال مثلهم» قالت كارين بلطف «ولن يستطيع أحد أن يحل محلهم» .

وقطعت البنات بقية رحلتهن إلى البيت صامتات .

*

حدث قبل فترة طويلة على هذه الجولة ، وفي أحد الأيام أن جاءت كاثلين كـالفـرت إلى تارا مع غـروب الشـمس ، وكـان بغلهـا الأعـرج المتـدلي الأذنين مشدود السرج ، كئيباً كأتعس حيوان رأته سكارلت . وكذلك كانت كاثلين

كالفرت حزينة كالحيوان الذي تركبه ، وكانت ترتدي ثوباً قطنيّاً مخططاً باهت اللون ، من النوع الذي كان يلبسه الخدم فيما مضى . وكانت قبعتها الواقية من الشمس معقودة تحت ذقنها بقطعة من القنب . وعندما بلغت الشرفة لم تترجل ، بل إن سكارلت وميلاني ، اللتين كانتا تتأملان الغروب ، نزلتا الدرجات لتقابلاها ، فألفتاها شاحبة اللون شحوب كيد يوم زارتهم سكارلت ، شاحبة متجهمة هضيمة ، كما لو أن وجهها سيتهشم إن هي تكلمت . بيد أن ظهرها كان منتصباً ورأسها مرفوعاً عندما أطرقت برأسها لتحييهما .

وتذكرت سكارلت فجأة يوم حفلة الشواء عند آل ويلكس ، يوم تهامست وكاثلين عن ريت بتلر . كم كانت كاثلين نضرة جميلة في ذلك اليوم وهي تلبس تنورة الأوركندي الأزرق والورود العطرة في حقيبتها ، وخفان أسودان مخمليان صغيران معقودان بشريطين حول كاحليها ، بينما لا يوجد الآن أي أثر من تلك الفتاة ، في هذا الشخص الجامد الجالس فوق البغل .

ـ «لن أترجل ، أشكركما» قالت «أتيت فقط لأخبركم أني سأتزوج» .

ـ «ماذا !؟» .

ـ «من؟» .

ـ «كاثي ، ما أعظمه من نبإ !» .

ـ «متى؟» .

ـ «غداً ، قالت كاثلين بهدوء ، وفي صوتها نغمة كدّرت الابتسامتين المتلهفتين في وجهيهما «لقد أتيت لأخبركما أني سأتزوج غداً في جونسبورو . . .وأنا أدعوكم جميعاً للحضور» .

فأدركتا قصدها في صمت وتطلعتا إليها مبهورتين ، ثم تكلمت ميلاني :

ـ «هل هو شخص نعرفه يا عزيزتي؟» .

ـ «نعم» قالت كاثلين بإيجاز «إنه السيد هلتون» .

ـ «السيد هلتون !؟» .

ـ «أجل ، السيد هلتون ، ناظرنا» .

ولم تستطع سكارلت حتى إيجاد الصوت لتعبّر عن دهشتها ، ولكن كاثلين قالت بصوت صارم ، وهي ترمق ميلاني فجأة «إذا بكيت يا ميلي ، فلن يسعني تحمل ذلك ، سأموت !» .

فلم تفعل ميلاني شيئاً ، بل ربتت ، وقد طأطأت رأسها ، على قدم كاثلين ، القابع داخل حذائها المخملي القبيح ، المتدلي من الركاب

ـ «ولا تربتي على قدمي ، فأنا لا أستطيع احتمال ذلك أيضاً» .

أنزلت ميلاني يدها دون أن ترفع رأسها .

ـ «حسناً ، ينبغي أن أذهب . أتيت فقط لأخبركم» وكسا وجهها ثانية القناع الشاحب الهش ، ثم تناولت الزمام .

ـ «كيف حال كيد؟» سألت سكارلت وهي في غاية الابتهاج ، ولكنها بحثت عن هذه الكلمات لتقطع الصمت الرهيب الذي ساد .

ـ «إنه يحتضر» قالت كاثلين باقتضاب دون أن يشوب صوتها أثر من حزن «وسوف يموت في راحة وطمأنينة إذا استطعت تدبير الأمر ، دون أن يجزع على من سيعتني بي بعد وفاته ، فأنتما تعلمان أن زوجة أبي وبناتها مسافرات نهائياً إلى الشمال وعلى ذلك ، ينبغي أن أتزوج» .

ورفعت ميلاني بصرها والتقت عيناها بعيني كاثلين الصارمتين . كانت الدموع المتلألئة عالقة على أهداب ميلاني ، وكان في عينيها فهم وإدراك . وزمت كاثلين شفتيها أمام ميلاني في ابتسامة ملتوية ، كتلك التي تصنعها شفتا طفلة شجاعة وهي تحاول أن لا تبكي . أما بالنسبة إلى سكارلت فقد كانت مذهولة ، وهي لا تزال تحاول استيعاب فكرة أن كاثلين كالفرت ستتزوج ناظراً . . . كاثلين ابنة المزارع الكبير ، كاثلين التي كانت تنعم بالمعجبين أكثر من أي فتاة أخرى في الولاية ، باستثناء سكارلت .

انحنت كاثلين واشرأبت ميلاني وهي على رؤوس أصابعها وتبادلتا القبل ، ثم ساطت كاثلين البغل بشدة وانطلق الحيوان العجوز .

وتبعتها ميلاني بعينيها والدموع تنهمر على وجهها ، بينما وقفت سكارلت مبهورة تحدق خلف كاثلين .

ـ «ميلي ، هل هي مجنونة؟ أنت تعرفين أنها لا يمكن أن تحبه» .

ـ «تحبه؟ آه سكارلت ، لا تفترضي أمراً فظيعاً كهذا ، آه يا لكاثلين المسكينة ! يا لكيد المسكين !» .

ـ «يا للسخرية !»صاحت سكارلت ، وقد بدأت تشعر بالسخط . لقد كان من المغيظ أن تبدو ميلاني دائماً مدركة أكثر منها ، إذ بدت ورطة كاثلين لها

أقرب إلى الأمر المذهل منه إلى الكارثة طبعاً، لم يكن الزواج بشمالي أبيض حقير فكرة سارة، ولكن رغم هذا، ليس بوسع فتاة أن تعيش وحيدة في مزرعة، إذ لا بد من زوج يساعدها على تدبير أمورها.

ـ «ميلي، إن هذا ينطبق على ما قلته في ذلك اليوم. لا يوجد من يتزوج صبايا الجنوب، ولا بد من أن يتزوجن أحداً ما».

ـ «لسن مرغمات على الزواج، وليس من عار في كون الفتاة عزباء. ها هي العمة بيتي. آه، إني أفضل أن أرى كاثلين ميتة! إني أعلم أن كيد يفضل رؤيتها ميتة! أهذه هي نهاية آل كالفرت؟ فقط فكري ماذا... ماذا سيكون أولادهما. سكارلت، دعي بورك يسرج الحصان بسرعة واركبي وراءها وأخبريها أن تأتي وتعيش معنا».

ـ «يا لله العظيم!» صاحت سكارلت مذهولة من هذا الأسلوب العملي الذي تتبرع فيه ميلاني بتارا! ولم يكن في نية سكارلت حتماً إطعام فم جديد، ولذا همت بإعلان ذلك، ولكن شيئاً في وجه ميلاني الملتاع أوقف كلماتها:

ـ «لن تأتي يا ميلي» قالت مصلحة موقفها، «أنت تعرفين أنها لن تأتي، فهي عزيزة النفس جداً، وستعتقد أن عرضنا هو تصدق عليها».

ـ «صحيح، صحيح» قالت ميلاني مشتتة الأفكار، وهي تتأمل السحابة الصغيرة من الغبار الأحمر تختفي في أسفل الطريق.

ـ «لقد عشت معي عدة شهور» فكرت سكارلت وهي متجهمة الوجه «ولم يخطر لك يوماً أنك تعيشين بالصدقة، وأظن أن ذلك لن يخطر على بالك أبداً، فأنت واحدة من هؤلاء الناس الذين لم تغيرهم الحرب، وأنت ستستمرين في التفكير والعمل ذاته، تماماً كأن شيئاً لم يقع ـ كأننا ما زلنا أغنياء، وكأننا نملك طعاماً أكثر مما نستطيع التصرف به، ولا أهمية لقدوم الضيوف. أظن أني سأقسر على إعالتك بقية عمري. ولكني لا أريد إعالة كاثلين أيضاً».

*

30

في فصل الصيف الدافئ، الذي أعقب السلم، نسيت تارا عزلتها فجأة، فلعدة شهور فيما بعد، ظل يتدفق على المزرعة سيل من الرجال الأشباح الملتحين ذوي الثياب الرثة والأقدام المقرحة والمعد الخاوية. كانوا يبلغون البيت بعد أن يعانوا مشقة صعود التلة الحمراء التربة، فينشدون الراحة فوق الدرجات الأمامية الظليلة، طالبين قوتاً ومأوى يقضون فيه ليلتهم. كانوا جنوداً حلفيين عائدين مشياً إلى بيوتهم، إذ كانت قطارات السكة الحديد قد حملت فلول جيش جونستون من كارولينا الشمالية إلى أتلانتا، حيث لفظتهم هناك. ومن أتلانتا بدأوا رحلتهم على الأقدام. وبعد أن مرت موجة رجال جونستون وصل جنود جيش فرجينيا الأكفاء المنهوكين، وتبعهم جنود الفرقة الغربية الذين كانوا يشقون طريقهم جنوباً نحو بيوت يمكن أن لا تكون موجودة، وإلى عائلات يمكن أن تكون مشردة مبعثرة أو ميتة. كان معظمهم يسير على الأقدام، والقلة المحظوظة منهم تركب خيولاً وبغالاً عجفاء، سمحت لهم شروط الاستسلام الاحتفاظ بها، حيوانات هزيلة، كان بوسع حتى العين العديمة الخبرة أن تتنبأ بأنها لن تبلغ فلوريدا البعيدة أو جورجيا الجنوبية.

العودة إلى البيت! العودة إلى البيت! تلك كانت الفكرة الوحيدة في رؤوس الجنود. كان بعضهم حزيناً صامتاً، وبعضهم الآخر مرحاً هازئاً بالصعاب، ولكن فكرة انتهاء الحرب، وعودتهم إلى البيت، كانت الشيء الوحيد الذي كان يقوي من عزائمهم. وكان القليل منهم يشعر بالمرارة، أما الباقون فقد تركوا المرارة لنسائهم ولذويهم الكبار، لقد قاتلوا قتالاً مشرّفاً وهزموا، ولقد صمَّموا الآن على أن يستقروا في أراضيهم بسلام، يفلحونها في ظل العلم الذي حاربوه.

إلى البيت! إلى البيت! لم يكن بوسعهم التحدث عن شيء آخر، لا عن المعارك ولا عن الجراح والأسر والمستقبل، ففيما بعد، سيتحدثون عن المعارك وسيخبرون أطفالهم وأحفادهم عن المناورات والغارات والهجمات، عن الجوع والمسيرات القسرية والجراح.. لكن ليس الآن.

وعندما بدأ الجنود يفدون يومياً إلى تارا ، احتجت مامي على السماح لهم باستعمال غرف النوم ، إذ كانت تخشى دائماً أن تفلت إحدى القملات من بين يديها . وزاد في الطين بلة ، أن سكارلت حولت الردهة بسجاجيدها المخملية السميكة إلى غرفة نوم ، قبل أن تناقش مامي الأمر . وكذلك احتجت مامي بالعنف ذاته على انتهاك قدسية سجادة السيدة إيلين عندما سمح للجنود بالنوم عليها ، ولكن سكارلت أصرت على رأيها ، إذ كان لا بد له من أن يناموا في مكان ما . وهكذا بدأ وبر السجاد الكثيف الناعم في البلى خلال الشهور التي تلت الاستسلام ، وأخيراً بانت خيوط سداة الحياكة ولحمتها السميكة . وذلك في المواضع التي أبلتها الأقدام وخرقتها المهاميز دون اكتراث .

وكان أفراد تارا يستفسرون بلهفة من كل جندي عن آشلي ، وكانت سولين تسأل دائماً عن فرانك كندي بأنفة واعتزاز ، ولكن لم يكن أحد من الجنود قد سمع عن أي منهما ، وكذلك لم يكن بجميع الجنود ميل للحديث عن المفقودين ، فقد كان حسبهم أنهم أحياء يرزقون ، ولم يكونوا ليكلفوا أنفسهم جهد التفكير بالألوف الراقدة في قبور غير معلمة ، ممن لن يعودوا إلى بيوتهم أبداً .

وحاولت العائلة أن ترفع من معنويات ميلاني بعد كل من خيبات الأمل هذه . . . طبعاً إن أشلي لم يمت في معتقل الأسرى ، وإلاّ لكتب أحد القسس الشماليين لعائلته ، طبعاً إنه قادم إلى البيت ولكن معتقله كان بعيداً جداً . . كيف لا ، وقطع مسافة كهذه يستغرق أياماً في القطار ، فإذا كان آشلي يقطعها ماشياً كهؤلاء الرجال . . . ولكن لماذا لم يكتب؟ حسناً يا عزيزتي ، أنت تعرفين وضع البريد في هذه الأيام . . . إنه مضطرب جداً كثير الضياع ، حتى في المناطق التي أعيد تنظيم البريد فيها . ولكن هبي . . . هبي أنه مات في طريق عودته إلى البيت . لو حدث هذا لكتبت إلينا إحدى النساء الشماليات عنه حتماً . . . النساء الشماليات ! أف منهن ! . . . ميلي ، يوجد بعض النساء الشماليات الطيبات . ها ، أجل يوجد ، فلا يمكن أن يخلق الله أمة بأسرها دون أن يجعل فيها بعض النساء الطيبات ! سكارلت ، أنت تتذكرين أننا التقينا بشمالية طيبة في سراتوغا يوماً ما ، أخبري ميلي عنها يا سكارلت .

ـ «طيبة ! أعوذ بالله !» أجابت سكارلت «لقد سألتني عن عدد الكلاب التي

نقتنيها لنطارد بها زنوجنا . إني أتفق مع ميلي ، فأنا لم أر أبداً شمالياً طيباً ، ذكراً كان أم أنثى . ولكن لا تبكي يا ميلي ! سيأتي آشلي إلى البيت ، إنها مسيرة طويلة ، وربما . . . وربما ليس لديه حذاء .

وعندئذ ، عند التفكير بآشلي حافي القدمين ، كان يمكن لسكارلت أن تذرف الدموع ، فليتعثر الجنود الآخرون في ثيابهم الرثة ، وبأقدامهم الملفوفة بالخيش وخرق السجاد ، ولكن ليس آشلي . إنه يجب أن يأتي البيت على حصان يتخطر في مشيته مرتدياً ثياباً جميلة وحذاء لماعاً ، وعلى قبعته ريشة . إن من الإذلال الشديد لها أن ينحدر تفكيرها بآشلي إلى تصوره بمثل حالة هؤلاء الجنود .

وبعد ظهيرة يوم من أيام حزيران/ يونيو ، وبينما كان جميع من في تارا محتشدين في الشرفة الخلفية يراقبون بورك بلهفة ، وهو يقص أول بطيخة نصف ناضجة من بطيخ الموسم ، سمعوا وقع حوافر على حصباء الممشى الأمامي ، فاتجهت برسي متوانية نحو الباب ، فيما راح الآخرون ، الذين بقوا في أماكنهم ، يتناقشون بحدة حول هل يجب تخبئة البطيخة ، أو الاحتفاظ بها للعشاء إذا ثبت أن القادم عند الباب كان جندياً .

وهمست ميلي وكارين بأن الجندي الضيف ينبغي أن ينال حصته ، بينما أوعزت سكارلت إلى بورك بإخفاء البطيخة بسرعة ، يؤيدها في ذلك كل من سولين ومامي .

ـ «لا تكونا غبيتين أيتها الفتاتان ! إنها لا تكفينا كلها ، وإذا كان القادم جنديين أو ثلاثة من الجائعين ، فلن ينال أحدنا حتى قطعة صغيرة» قالت سكارلت .

وبينما وقف بورك وقد قرب البطيخة الصغيرة من صدره ، وهو حائر في أي هو القرار النهائي ، سمعوا برسي تصرخ :

ـ «يا لله ! آنسة سكارلت ! آنسة ميلي ! هيا أسرعا !» .

ـ «مَن؟» صاحت سكارلت ووثبت من الدرجات مندفعة عبر القاعة ، وميلي في إثرها تلامس كتفيها ، والآخرون خلفها .

ـ «آشلي» ، فكرت «آه ، ربما . . .» .

ـ «إنه العم بطرس ، العم بطرس خادم الآنسة بيتي بات» .

ركض الجميع إلى الشرفة الأمامية ورأوا الرجل الطويل الشائب، الحاكم بأمره في بيت العمة بيتي بات، رأوه يترجل عن حصان صغير ذنبه كذنب الفأر، وقد أسرج بجزء من لحاف.

كان وقار بطرس المعتاد يغالب في وجهه الأسود العريض سروره برؤية الأصدقاء القدامى، وكانت النتيجة أن جبينه قطب في عبوس، ولكن فمه انفغر مفتوحاً كفم كلب هرم عديم الأسنان.

ونزل الجميع الدرجات جرياً ليحيوه، وصافحه البيض والسود على السواء، وأخذوا يمطرونه بالأسئلة، ولكن صوت ميلي ارتفع فوق جميع الأصوات:

- «عمتي ليست مريضة، أليس كذلك؟».

- «بلى، إنها في صحة جيدة، شكراً لله» أجاب بطرس مصوباً نظرة صارمة إلى ميلاني أولاً ثم إلى سكارلت، بحيث شعرتا فجأة بالإثم، ولكنهما لم تستطيعا معرفة السبب. «إنها في صحة جيدة، ولكنها مغتاظة جداً منكما أيتها الآنستان، وإذا أردتما الصراحة، فأنا مغتاظ أيضاً».

- «لماذا يا عم بطرس، ماذا . . .؟».

- «لا حاجة بكما إلى نشدان النجاة لأنفسكما، ألم تكتب لكما الآنسة بيتي وتكرر الكتابة لتعودا إليها؟ ألم أشاهدها أنا تكتب وأشاهدها تبكي عندما أجبتما بأن لديكما أعمالاً كثيرة في هذه الدسكرة القديمة هنا، بحيث لا يسعكما العودة؟».

- «ولكن يا عم بطرس . .».

- «كيف يسعكما ترك الآنسة بيتي وحدها على هذه الصورة في الوقت الذي تعرفان أنها شديدة الخوف؟ أنتما تعرفان جيداً، كما أعرف أنا، أن العمة بيتي لا تستطيع العيش وحدها، ولقد ظلت ترتجف منذ عادت من ميكون. ولقد طلبت مني أن أوضح لكم جميعاً كيف أنها لم تستطع أن تفهم ترككم جميعاً لها في وقت حاجتها إليكم».

- «كفى، اصمت» قالت مامي محتدة، فقد ساءها جداً أن تسمع تارا تدعى بـ«الدسكرة القديمة»، حقاً، إن الزنجي الجاهل المنشأ في المدينة لا يعرف الفرق بين الدسكرة والمزرعة «ألسنا نحن في وقت حاجة؟ ألسنا نحن بحاجة إلى الآنسة سكارلت والآنسة ميلي هنا، وبحاجة ماسة؟ لماذا لا تطلب الآنسة بيتي

مساعدة أخيها إذا كانت بحاجة إلى مساعدة؟» .

فرمقها العم بطرس بنظرة موهنة :

ـ «نحن لا علاقة لنا بالسيد هنري منذ سنين ، ولقد انقضى على انقطاع العلاقة بيننا وبينه مدة طويلة بحيث لا يسعنا استئنافها الآن» . والتفت ثانية نحو الفتاتين اللتين كانتا تحاولان كتم ابتسامتيهما «أما أنتما ، أيتها الآنستان ، فينبغي أن تشعر بالخزي لتركهما الآنسة المسكينة بيتي وحدها ، وقد توفي نصف أصدقائها ، وبقي النصف الآخر في ميكون ، ثم إن أتلانتا تعج بالجنود الشماليين والزنوج المحررين الحقيرين .

تحملت الفتاتان التأنيب بوجهين هادئين رصينين أطول مدة ممكنة ، ولكن فكرة إرسال العمة بيتي للعم بطرس كي يؤنبهما ويعود بهما يداً بيد إلى أتلانتا ، كانت أكثر مما يسعهما احتماله ، فانفجرتا في الضحك وتعلقت كل بكتف الأخرى لتسند نفسها . ومن الطبيعي أن وجد بورك ودلسي ومامي مخرجاً لقهقاتهم الداوية عندما سمعوا التشهير الذي شهر بتارا العزيزة عليهم . وكذلك ضحكت سولين وكارين بصوت مرتفع ، وحتى جيرالد علت وجهه ابتسامة مبهمة . وهكذا ضحك الجميع إلا بطرس ، الذي نقل عبء جسده من على إحدى قدميه الكبيرتين المفلطحتين إلى القدم الأخرى في سخط بالغ .

ـ «ماذا أصابك أيها الزنجي؟» استوضحت مامي «هل أصبحت هرماً جداً بحيث لا تستطيع حماية سيدتك؟» .

فثارت ثائرة بطرس :

ـ «هرم جداً! أنا هرم جداً! لا يا سيدة ، إن بوسعي حماية الآنسة بيتي كما فعلت دائماً ، ألم أحمها ونحن في طريقنا إلى ميكون يوم نزوحنا؟ ألم أحمها عندما دخل الشماليون ميكون وانتابها فزع شديد بحيث ظلت مغمياً عليها طوال الوقت؟ ألم أحصل على هذا الحصان الموجود هنا لأعيدها فوقه إلى أتلانتا وأحميها هي والأواني الفضية التي ورثتها من والدها طول الطريق؟» .

وبينما كان يبرئ نفسه من تهمة الشيخوخة ، مد بطرس قامته إلى أعلاها ، ثم قال : «أنا لا أتحدث عن الحماية ، أنا أتحدث عن كيف يبدو . . .» .

ـ «كيف يبدو مَن؟» .

ـ «إني أتحدث عن كيف يبدو الأمر في أعين الناس ، وهم يرون الآنسة بيتي

تعيش وحدها ، فالناس يتحدثون بكلام السوء عن السيدات العزباوات اللواتي يعشن وحيدات» تابع بطرس . واتضح لسامعيه أنه يعتبر بيتي بات لا تزال آنسة نضرة فاتنة في السادسة عشرة من عمرها ، تجب رعايتها دفعاً لألسنة السوء . «وأنا لا أسمح أن ينتقدها الناس . لا . . . يا سيدة . . . وأنا لا أسمح لها بإدخال أحد غريب عليها ، حتى ولو كان ذلك من أجل الرفقة فقط . لقد صارحتها بالقول ، لا تلجأي إلى ذلك أبداً طالما أنك تنعمين بأقارب من لحمك ودمك ، وها هم أقرباؤها الذين هم من لحمها ودمها ينكرونها الآن عند الحاجة . ليست السيدة بيتي بات سوى طفلة و . . .» .

وهنا ارتفعت قهقهة سكارلت وميلي أكثر من ذي قبل ، وتهالكتا على الدرجات ، وأخيراً مسحت ميلي دموع الفرح من عينيها .

ـ «يا عم بطرس المسكين ، إني آسفة لضحكي هذا ، آسفة حقاً وصدقاً ، أرجوك سامحني . ليس بوسعنا أبداً ، أنا والآنسة سكارلت ، أن نعود إلى أتلانتا الآن . ربما عدت أنا في أيلول بعد قطاف القطن . هل أرسلتك عمتي عبر هذه الطريق كلها فقط لتعدينا فوق تلك الكومة من العظام؟» .

وارتخى شدق بطرس عند سماع هذا السؤال ، واجتاحت أمائر الإثم والدهشة وجهه الأسود المجعد ، ثم عادت شفته السفلى المتدلية إلى وضعها الطبيعي .

ـ «يا آنسة ميلي ، لقد أضحيت رجلاً عجوزاً . إني أقول ذلك لأني نسيت تماماً في هذه الهنيهة السبب الذي أرسلتني الآنسة بيتي من أجله ، وهو أمر هام أيضاً . لقد أحضرت رسالة إليك ، إذ إن الآنسة بيتي لم تأتمن البريد ولا أي إنسان آخر سواي ، على حملها و . . .» .

ـ «رسالة؟ لي؟ ممن؟» .

ـ «حسناً ، إنها . . . قالت لي الآنسة بيتي انتبه يا بطرس ، بلغها بلطف للآنسة ميلاني ، وأنا أقول . . .» .

نهضت ميلاني عن الدرجات ويدها على قلبها :

ـ «آشلي ! آشلي ! إنه ميت !» .

ـ «لا ! لا !» صاح بطرس وقد ارتفع صوته إلى صراخ حاد ، وهو يبحث في جيب صدر معطفه الرث . «إنه حي ، ها هنا رسالة منه ، إنه عائد إلى البيت ،

إنه . . . يا لله ، أمسكيها ، مامي ، إني . . .» .

ـ «لا تلمسها أيها العجوز الأحمق !» زمجرت مامي وهي تكافح لتمنع جسد ميلاني المسترخي من السقوط على الأرض «أيها القرد الأسود ، بلغها بلطف ! أنت ، بورك أمسك قدميها . آنسة سكارلت ، أسندي رأسها . دعونا نمددها فوق الكنبة في الردهة» .

وارتفع ضجيج صاخب عندما تجمهر الجميع عدا سكارلت حول ميلاني المغمى عليها . وصاح الكل فزعين مهرولين إلى داخل البيت طلباً للماء والوسائد ، وما هي إلاّ لحظة حتى كانت سكارلت قد تركت وحدها مع العم بطرس ، تركا واقفين في الممشى ، وقد تسمرت سكارلت في الأرض وعجزت عن التحرك من النقطة التي وثبت إليها عندما سمعت كلماته . كانت تحملق في الرجل العجوز الذي وقف يلوح بالرسالة واهن القوى ، ووجهه الأسود الهرم يدعو للرثاء كوجه طفل قد غضبت عليه أمه . لقد انهارت كرامته .

ومرت هنيهة وسكارلت لا تستطيع حراكاً ولا كلاماً ، على الرغم من أن عقلها كان يصرخ :

ـ «إنه ليس ميتاً ! إنه قادم إلى البيت !» ولم يكن النبأ قد حمل لها فرحاً أو أسفاً ، وإنما فقط سكوناً ذاهلاً . ثم ارتفع صوت العم بطرس جليّاً مهدئاً كأنه ينبعث من مكان بعيد .

ـ «لقد حمل هذه الرسالة إلى الآنسة بيتي السيد ويلي بور أحد أقربائنا من ميكون ، وقد كان في المعتقل نفسه مع السيد آشلي ، واستطاع الحصول على حصان والعودة سريعاً ، بينما يقطع السيد آشلي المسافة على قدميه . و . . .» .

انتزعت سكارلت الرسالة من يده . لقد كانت موجهة إلى ميلاني بخط الآنسة بيتي ، ولكن ذلك لم يجعل سكارلت تتردد لحظة في فضها ، فشقتها ووقعت ورقة الآنسة بيتي الموجودة ضمنها على الأرض . وكان في داخل المغلف قطعة ورق مطوية ، قاتمة اللون بسبب الجيب القذر الذي حملت فيه ، مهترئة عند الأطراف . وقد كتبت عليها الكلمات التالية بخط آشلي :

«حضرة السيدة قرينة جورج آشلي ويلكس ، بوساطة الآنسة سارة جين هاملتون ، أتلانتا ، أو تولف أوكس ، جونسبورو ـ جورجيا» .

ونشرت الورقة بأصابع مرتعشة وقرأت :

ـ «محبوبتي ، إني عائد إليك . . .» .

وطفقت الدموع تنهمر على وجهها بحيث لم تستطع القراءة ، وانتفخ قلبها إلى أن أحست أنها لن تستطيع تحمل الفرحة ، فأدنت الرسالة من صدرها وجرت تنهب درجات الشرفة الأمامية إلى القاعة ، ومرت بالردهة حيث كان جميع أفراد تارا يتدافعون جيئة وذهاباً ، يعتنون بميلاني الفاقدة الوعي ، ثم دخلت مكتب أمها حيث أغلقت الباب وأوصدته ، وقذفت نفسها فوق الكنبة العتيقة المخلّعة تصرخ وتضحك وتقبل الرسالة :

ـ «محبوبتي» همست «إني عائد إليك» .

*

ما لم يتحول آشلي إلى طائر ذي أجنحة ، فسيحتاج إلى أسابيع ، وحتى إلى شهور ، كي يصل من إلينويز إلى جورجيا ، هذا ما أدركته الجماعة في تارا منطقيّاً ، ومع ذلك فقد ظلت القلوب تخفق بضراوة كلما انعطف جندي في الممشى الموصل إلى تارا . فكل جندي نحيل ملتح كان من المحتمل أن يكون آشلي ، وإذا لم يكن آشلي ، فلربما كان يحمل نبأ منه أو رسالة منه من العمة بيتي . كان الجميع ، سوداً وبيضاً ، يندفعون إلى الشرفة الأمامية كلما سمعوا وقع أقدام ، وكان منظر بزة عسكرية كافياً لأن يجعل الجميع يطيرون سراعاً من مكان الحطب أو من المرعى أو أرض القطن في سبيل الاستطلاع . وظل العمل متوقفاً تقريباً طيلة شهر بعد وصول الرسالة ، إذ لم يكن أحد منهم يرغب في أن يكون خارج البيت ساعة وصوله ، خصوصاً سكارلت . ولذلك لم تستطع الإلحاح على الآخرين كي يواظبوا على واجباتهم ، في الوقت الذي كانت هي تهمل فيه واجباتها .

ولكن عندما مرت الأسابيع متباطئة ولم يأت آشلي ولا أي نبإ منه ، انتظمت تارا ثانية في عملها الرتيب ، ولم يكن بوسع القلوب المشتاقة إلاّ تحمل المزيد من الشوق والانتظار . بيد أن خوفاً مقلقاً ساور سكارلت ، خوفاً من أن يكون قد وقع له سوء في أثناء الطريق . فجزيرة رك بعيدة جداً ، ولربما كان ضعيفاً أو مريضاً عندما أطلق سراحه . وكذلك فهو لم يكن يملك مالاً ، وكان يشق طريقه عبر بلاد تبغض الحلفيين . . . آه لو أنها فقط تعرف مكانه ، لأرسلت له نقوداً ، لأرسلت له كل بنس تملكه ، وتركت العائلة تتضور جوعاً كيما يستطيع هو

العودة بسرعة في القطار .

ـ «محبوبتي ، إني عائد إليك» .

عندما قابلت عيناها هذه الكلمات في دفقة الفرح الأولى ، فهمت منها فقط أن أشلي كان عائداً إليها . ولكنها الآن ، في ضوء المنطق الأكثر اتزاناً ، رأت أنه كان عائداً إلى ميلاني ، ميلاني التي كانت تطوف في البيت هذه الأيام ، وهي تغني فرحة . وكانت سكارلت تتساءل من وقت إلى آخر : لماذا لم يكن من الممكن أن تموت ميلاني في أثناء الولادة في أتلانتا؟ إذ لو حدث ذلك لوضعت الأمور في نصابها ، ولاستطاعت تزوج آشلي بعد فترة معقولة ، وجعلت من نفسها أيضاً امرأة أب صالح لـ«بو» الصغير .

كان الجنود يفدون إلى تارا فرادى ومثاني وعشرات ، وكانوا جائعين دوماً . وفكرت سكارلت بائسة بأن أرتال الجراد قد تكون أخف وطأة من هؤلاء الرجال ، ولعنت ثانية عادة الضيافة القديمة التي ازدهرت في فترة الرخاء ، العادة التي لم تكن تسمح لأي مسافر ، كريم أو حقير ، أن يتابع رحلته دون قضاء ليلة وتناول طعام ، هو وحصانه ، ثم الحظوة بأقصى رعاية يستطيع البيت تقديمها . وكانت هي تدرك أن تلك الفترة من الرخاء قد انقضت إلى الأبد ، ولكن بقية العائلة لم تدرك الحقيقة ، وكذلك لم يدركها الجنود أيضاً ، وهكذا كان كل جندي يكرم كأنه ضيف يُتاق إليه منذ أمد طويل .

وفيما كان هذا الصف اللانهائي من الجنود يستمر في تدفقه ، كان قلب سكارلت يتصلّب . لقد كان الجنود يأكلون الطعام المخصص لأفواه تارا ، والخضار التي أنهكت ظهرها وهي تنحني فوقها ، والغذاء الذي قطعت الأميل الطويلة في سبيل شرائه . كان القوت صعب المنال ، كما أن النقود التي وجدت في حافظة الشمالي لن تدوم إلى الأبد ، ولم يبق منها الآن سوى أوراق مالية قليلة والقطعتين الذهبيتين ، فلماذا يتوجب عليها إطعام هذا الفيض من الرجال الجائعين؟ لقد انتهت الحرب ، ولن يقفوا ثانية بينها وبين الخطر ، ولذا أصدرت أوامرها إلى بورك بوجود الاقتصاد في إعداد المائدة في أثناء وجود جنود في البيت . واستمر تنفيذ هذا الأمر إلى أن لاحظت أن ميلاني ، التي لم تكن قد استعادت قوتها منذ ولادة بو ، كانت تقنع بورك بأن يضع قليلاً من الطعام في صحنها ويعطي حصتها للجنود .

ـ «ينبغي أن تكفي عن ذلك يا ميلاني» ، أنّبتها «فأنت نفسك نصف مريضة ، وإذا لم تأكلي أكثر ، فستمرضين في الفراش وسنضطر إلى تمريضك . اتركي هؤلاء الرجال يجوعون ، فبوسعهم تحمل ذلك . لقد تحملوا الجوع طيلة أربع سنين ولن يضيرهم أن يتحملوا مدة قصيرة أخرى» .

فالتفتت ميلاني نحوها ، وقد نطق وجهها بأول تعبير عن عاطفة صريحة رأتها سكارلت في تينك العينين الصافيتين الهادئتين :

ـ «آه يا سكارلت ، لا تؤنبيني ، دعيني أفعل ذلك . أنت لا تعرفين كم يسري عني هذا العمل . كل مرة أعطي بها حصتي لأحد الرجال المساكين ، أفكر بأن من المحتمل أن تكون إحدى النساء الشماليات في مكان ما في الطريق شمالاً ، تعطي جزءاً من غذائها لزوجي آشلي ، الأمر الذي يساعده على أن يعود إلي» .

«زوجي آشلي» .

«محبوبتي ، إني عائد إليك» .

واستدارت سكارلت ، ومضت بعيداً دون أن تنبس بكلمة . ولاحظت ميلاني فيما بعد ازدياد كمية الطعام على المائدة في أثناء وجود الضيوف ، مع أن سكارلت كان يمكن أن تحسدهم على كل لقمة يلتهمونها .

وفي الحالات التي كان الجنود فيها شديدي المرض ، بحيث لا يستطيعون متابعة رحلتهم ، كما كان حال الكثيرين منهم ، كانت سكارلت تقدم لهم الأسرة دونما أي ترحيب ، إذ كان كل مريض يعني فماً جديداً عليها إطعامه ، وكان لا بد لكل مريض من شخص يمرضه ، الأمر الذي يعني خسارة عامل آخر من أفراد تارا الذين كانوا يعملون في بناء الأسيجة أو في العزق أو التعشيب أو الحرث .

وحدث في يوم أن أنزل أحد الجنود الفرسان ، القاصدين إلى فايتفيل ، شاباً أشقر غراً على الشرفة الأمامية لتارا ، وكان الجندي قد وجده فاقد الوعي بجانب الطريق ، فحمله على سرج حصانه إلى تارا ، أقرب مكان إليه . وفكرت البنات أن الشاب لا بد أن يكون أحد التلاميذ العسكريين الذين كانوا قد استدعوا من المدارس الحربية عندما اقترب شيرمان من ميلدجفيل ، ولكنهن لم يعرفن الحقيقة لأنه مات دون أن يستعيد وعيه ، ولم يسفر البحث في جيوبه

عن أي دليل .

كان شاباً جميل الطلعة ، يبدو جلياً أنه من السادة البيض ، وفي مكان ما إلى الجنوب ، كانت إحدى النساء تراقب الطرقات وتتساءل عن مكانه وموعد عودته ، تماماً كما كانت سكارلت وميلاني ، والأمل يطفر من قلبيهما ، تراقبان كل رجل ملتح يصعد ممشى تارا .

دفن التلميذ الحربي في مقبرة العائلة بجانب أولاد أوهارا الثلاثة ، وبكت ميلاني بكاء مرّاً ، فيما كان بورك يطمر القبر ، وتساءلت في قلبها عما إذا كان بعض الغرباء يفعلون هذا الفعل ذاته بجسد آشلي الطويل .

وكان ويل بنتين جندياً آخر وصل وهو فاقد الوعي إلى تارا فوق سرج أحد رفاقه ، كالشاب المجهول الهوية . كان ويل مريضاً جداً بداء الرئة ، وقد خشيت الفتيات عندما وضعنه في السرير أن يلحق عاجلاً بالشاب الذي دفنوه في المقبرة .

كان له وجه أحد فقراء بيض جنوبي جورجيا ، وجه أصفر شاحب بفعل الملاريا ، وشعر أحمر فاقع وعينان زرقاوان ذاويتان كانتا حتى في أثناء بُحران الحمى صابرتين وادعتين . وكانت إحدى ساقيه مبتورة عند الركبة ، وقد ثبت للجزء الباقي منها عكاز خشبي خشن الصنع . وكان من الواضح أنه من فقراء بيض الجنوب ، تماماً كوضوح كون الصبي ، الذي دفنوه قبل مدة وجيزة ، ابن مزارع . أما كيف عرفت البنات ذلك فليس باستطاعتهن القول ، فمن الأكيد أن ويل لم يكن أقذر ، ولا أغزر شعراً ، ولا أشد ابتلاء بالقمل من كثير من السادة المحترمين الذين أتوا تارا ، ومن الأكيد أيضاً أن اللغة التي تفوه بها في أثناء بحرانه لم تكن أقل بلاغة من لغة التوأم تارلتون ، ومع ذلك فقد عرفن بحدس الغريزة ، كما كن يعرفن الجياد الأصيلة من الحقيرة ، أنه لم يكن من طبقتهن . بيد أن هذه المعرفة لم تمنعهن من السعي جاهدات في سبيل إنقاذه .

ولـمّا كان قد أسقمه بقاؤه سنة كاملة في معتقل الشماليين ، وأضناه سيره الطويل الوئيد على رجله الخشبية المختلة ، فإنه لم يقو على مقاومة داء الرئة ، فظل طريح الفراش أياماً ، يئن ، ويحاول النهوض ، ويهذي بالحرب ، ولم يحدث مرة أن سمعنه ينادي أمه أو زوجته أو شقيقته أو حبيبته ، الأمر الذي أقلق كارين .

ـ «لا بد للرجل من أن يكون له أهل» قالت «ويبدو كأنه لا يملك قريباً في هذه الدنيا» .

وعلى الرغم من نحوله كان صلب العود ، ودفعه التمريض الجيد إلى العافية ، وجاء اليوم الذي فتح فيه عينيه الزرقاوين الذاويتين ، اللتين كانتا مطلعتين تمام الاطلاع على ما كان يدور حولهما ، فإذا بهما تقعان على كارين وهي تجلس بجانبه تقرأ تسابيحها وشمس الصباح تعكس أشعتها على شعرها الأشقر .

ـ «إذاً لم تكوني حلماً ، رغم كل هذا» قال بصوته الواضح المعتدل «آمل أن لا أكون أزعجتك كثيراً أيتها السيدة» .

وامتدت فترة نقاهته طويلاً ، وكان يضطجع ساكناً ينظر من النافذة إلى أشجار المانيوليا ، لا يكلف أحداً من سكان تارا غير القليل من الجهد . وأحبته كارين بسبب صمته المطمئن العديم الإزعاج ، فكانت ترغب في الجلوس إلى جانبه خلال الأمسيات الطويلة الحارة ، تروح عليه بالمروحة دون أن تنبس بكلمة .

ولم تكن كارين تتحدث إلا قليلاً جداً هذه الأيام ، وذلك عندما كانت تتحرك وانية كالشبح ، لتتمم المهمات التي تقدر عليها . كانت تصلي كثيراً ، وما من مرة دخلت سكارلت غرفتها ، دون أن تقرع الباب ، إلاّ ووجدتها جاثية على ركبتيها بجانب السرير . وكان منظرها هذا يضايق سكارلت دائماً لأنها كانت تشعر أن وقت الصلاة قد مضى ، فإذا كان الله قد ارتأى أن من المناسب عقابهم فبوسعه أيضاً الإحسان إليهم . وهكذا ، فكلما وجدت كارين على ركبتيها في الوقت الذي كان يجب أن تنعم بقيلولتها أو تقوم بأعمال الرتق ، كلما كانت تحس أنها تتهرب من نصيبها من الأعباء .

وبعد ظهيرة أحد الأيام ، تحدثت سكارلت في هذا الموضوع مع ويل بنتين حين استطاع الجلوس على كرسي ، غير أنها وجمت عندما أجابها بصوته المنخفض :

ـ «دعيها تصلي يا آنسة سكارلت ، فإن ذلك يسري عنها» .

ـ «يسري عنها؟» .

ـ «أجل ، إنها تصلي من أجل أمك ومن أجله» .

- «من هو؟» .

فرنت إليها عيناه الزرقاوان الذاويتان من تحت أهداب صفراء قاتمة ، دون أن تشوبهما الدهشة ، ولم يكن يبدو أن شيئاً يدهشه أو يثيره ، فلعله كان قد رأى الكثير من المحاذير بحيث لم يعد ينذهل أبداً . وهكذا لم يبد غريباً بالنسبة إليه أن لا تعرف سكارلت ما يكمن في قلب شقيقتها ، وتقبل الأمر بصورة طبيعية ، شأنه في تقبل حقيقة كون كارين وجدت عزاء في الحديث معه ، وهو الرجل الغريب .

- «فتاها ، ذلك الشاب برنت الذي قتل في جيتسبرغ» .

- «فتاها؟» قالت سكارلت باقتضاب «فتاها . . . أبداً . . . هو وأخوه كانا عشيقي» .

- «أجل ، هكذا أخبرتني . ويبدو لي أن معظم شبان الولاية كانوا عشاقك . بيد أن هذا لن يغير شيئاً ، فلقد صار عشيقها بعد أن أعرضت عنه ، لأنه عندما عاد إلى البيت في آخر إجازة له ، خطبا الواحد للآخر . ولقد أخبرتني أنه كان الفتى الوحيد الذي حفلت به . وهكذا فإن في الصلاة من أجله نوعاً من العزاء لها» .

- «يا لسخرية القدر!» قالت سكارلت وقد داخل قلبها قليل من الغيرة .

وتطلعت بفضول إلى هذا الشاب النحيل ، بكتفيه المنحنيتين البارزتي العظام ، بشعره الأحمر ، وعينيه الوادعتين المطمئنتين . . . إذاً ، كان يعرف أموراً عن عائلتها لم تكن هي قد كلفت نفسها مؤونة اكتشافها ، وإذاً ، فهذا هو السبب في أن كارين تحوم وهي شاردة اللب ، وتصلي طيلة الوقت . . . حسناً . . ستتغلب على هذه المحنة ، فكثير من الفتيات نسين أحباءهن الموتى ، بل أزواجهن الموتى أيضاً . ومن الأكيد أنها هي قد تغلبت على مصيبتها بموت تشارلز ، كما أنها كانت تعرف فتاة في أتلانتا ترملت ثلاث مرات بسبب الحرب ، وما زال بوسعها الاهتمام بالرجال ، وقد أخبرت ويل عنها ، ولكنه هز رأسه منكراً قائلاً بإصرار :

- «ليست الآنسة كارين» .

كان الحديث مع ويل شيقاً عادة ، لأنه لم يكن لديه إلاّ القليل ليتحدث عنه ، ولذلك فقد كان مستمعاً واعياً تماماً . وحدثته سكارلت عن مشاكلها في التعشيب والعزق والزراعة ، عن مشاكلها في تسمين الخنازير وإنسال البقرة ، وقدم لها هو نصيحة خالصة جيدة ، لأنه كان يملك مزرعة صغيرة في جورجيا

الجنوبية تضم زنجيين ، وكان يعرف أن زنجييه قد تحررا الآن ، وأن المزرعة قد غمرتها الحشائش البرية ونبيتات الصنوبر . أما أخته ، وهي قريبته الوحيدة ، فكانت قد رحلت إلى تكساس مع زوجها منذ سنين وبقي هو وحيداً في هذه الدنيا . ومع ذلك فلم يبد أن أمراً من هذه الأمور المنغصة كان يضايقه أكثر من فقدان ساقه التي تركها في فرجينيا .

أجل ، لقد كان ويل عزاء لسكارلت بعد نهاراتها الشاقة ، نهارات دمدمة الزنوج ونكد سولين وأسئلة أبيها المتكررة : أين إيلين . واستطاعت أن تخبر ويل بكل شيء ، أخبرته حتى عن قتلها الشمالي ، وازدهت كبرياء عندما علق على ذلك بإيجاز : «إنه عمل جليل» .

وأخيراً وجد جميع أفراد تارا طريقهم إلى غرفة ويل لعرض مشاكلهم . . . حتى مامي ، التي ابتعدت عنه في أول الأمر ، لأنه لم يكن من فئة البيض الممتازة ، ولأنه لم يكن يملك سوى زنجيين فقط .

وعندما أصبح بوسع ويل أن يمشي متداعياً في أنحاء البيت ، أخذ في صنع سلال السنديان وإصلاح قطع الأثاث التي أتلفها الشماليون . وكان ماهراً في النحت ، وقد اعتاد ويد الجلوس إلى جانبه لأنه كان ينحت له دمى ، وهي اللعب الوحيدة التي حظي بها الصبي . ونظراً لوجود ويل في البيت ، اطمأن الجميع إلى ترك ويد والرضيعين معه بينما هم يقومون بأعمالهم ، فقد كان بوسعه الاعتناء بهم بمهارة كما كانت تفعل مامي . ولم يكن يبزه في تهدئة زعيق الرضيعين ، الأسود والأبيض ، سوى ميلاني فقط .

ـ «لقد أحسنت إلي كثيراً يا آنسة سكارلت» ، قال «وأنا غريب وليس لي أي صلة بكم أبداً . لقد سببت لكم الكثير من المتاعب والإزعاج . وإذا لم يكن من مانع لديكم فسأظل هنا وأساعدكم جميعاً في العمل كي أفي بعض جميلكم ، مع أني لن أستطيع يوماً إيفاءه جميعه ، لأنه لم يوجد شيء يستطيع الإنسان تقديمه ثمناً لحياته» .

وهكذا بقي في تارا . ومع الأيام ، وبطريقة تخلو من الفضول ، انتقل جزء كبير من أعباء تارا عن كتفي سكارلت إلى كتفي ويل بنتين الناتئي العظام .

*

جلس ويل بنتين على الدرجات الأمامية عند قدمي سكارلت تحت أشعة

الشمس البهيجة بعد ظهيرة يوم من أيام الخريف الأولى ، كانت أيام أيلول/ سبتمبر ، أيام قطاف القطن ، وكان صوته الهادئ يتحدث واهناً عن التكاليف الباهظة التي يتطلبها حلج القطن في المحلج الجديد قرب فايتفيل . . . ومهما يكن من أمر ، فإن ويل كان قد علم في أثناء وجوده في فايتفيل ذلك اليوم ، أن بوسعه توفير ربع تكاليف الحلج ، مقابل تأجير الحصان والعربة لصاحب المحلج مدة أسبوعين . ولذلك أخّر إنهاء المساومة حتى يباحث سكارلت في الأمر .

تأملت سكارلت الشخص النحيل المتكئ على عمود الشرفة ، والذي كان يمضغ قطعة من القش ، وأدركت أن ويل كان ولا شك نعمة أرسلها الله ، كما أعلنت مامي مراراً ، وكثيراً ما كانت تتساءل كيف كان يمكن لتارا أن تعيش بدونه خلال الأشهر القليلة الماضية . إنه لم يستفض في حديثه يوماً ، ولم يتباه بقوته أبداً ، ولم يبد عليه مرة أنه يعير كبير اهتمامه لأي من الأمور التي كانت تجري حوله ، ومع ذلك فقد كان يعرف كل شيء عن كل شخص في تارا ، وكان يقوم بأعماله بمهارة صامتاً صابراً ، فمع أنه كان بساق واحدة فقد كان يستطيع العمل أسرع من بورك ، الأمر الذي كان عجيباً بنظر سكارلت . وعندما أصيبت البقرة بالقضاع ، ووقع الحصان بمرض غامض ، هدد بفقده نهائياً ، سهر ويل الليالي مع الحيوانين وأنقذهما . ولقد أكسبه احترام سكارلت كونه تاجراً حاذقاً ، إذ كان يستطيع الخروج في الصباح على ظهر الحصان ، ومعه سلة أو سلتان من التفاح والبطاطا الحلوة والخضار ، ثم يعود بالحبوب وبأطوال من القماش ، بالدقيق والحاجات الماسة الأخرى التي كانت سكارلت تعرف أنها لن تستطيع الحصول عليها رغم كونها تاجرة ماهرة .

وتدريجياً توصل ويل إلى أن يتبوأ منزلة عضو في العائلة ، وينام على سرير في غرفة اللبس الصغيرة التابعة لغرفة جيرالد ، ولم يكن يقول شيئاً عن مغادرته لتارا ، وكانت سكارلت تحرص على أن لا تسأله خشية احتمال مغادرته ، وكانت أحياناً تفكر في أنه لو كان إنساناً على شيء من الوعي لرجع إلى بيته حتى لو لم يعد يملك بيتاً . ولكن ، وعلى الرغم من تفكيرها هذا ، كانت ترجو من كل قلبها أن يبقى في تارا مدة غير محدودة . . فلقد كان وجود رجل في البيت أمراً مناسباً جداً .

وفكرت سكارلت أيضاً أنه إذا كانت كارين تملك عقل فأر وحسب ، فستدرك أن ويل كان يهتم بها ، وستظل سكارلت تعترف بفضله إلى الأبد ، إن هو طلب منها يد كارين . طبعاً لم يكن ويل ، قبل الحرب ، يصلح أبداً كمرشح لائق للزواج ، لأنه لم يكن من طبقة المزارعين ، مع أنه لم يكن أيضاً من البيض الفقراء ، بل كان رجلاً عادياً من فقراء البيض ، مزارعاً صغيراً نصف مثقف ، معرضا للأخطاء النحوية ، جاهلاً ببعض الآداب الرفيعة التي كان آل أوهارا يألفونها في السادة . والحقيقة أن سكارلت تساءلت ما إذا كان يمكن اعتباره سيداً بصورة جازمة ، ثم أجمعت رأيها على عدم إمكان ذلك ، بينما دافعت عنه ميلاني بحرارة قائلة إن أي إنسان يملك قلب ويل الرحيم وتفكيره بالآخرين ، لا بد من أن يكون رفيع النسب . غير أن سكارلت كانت تدرك أن إيلين كان يمكن أن يغمى عليها من جراء فكرة زواج إحدى بناتها برجل كهذا ، ولكنها الآن ، مرغمة بفعل الضرورة على أن تتخلى عن تعاليم إيلين كي لا تقلقها . لقد كان الرجال نادرين الآن ، ولا بد للفتاة من أن تتزوج بإنسان ما ، ولا بد لتارا من رجل . على أن كارين ، التي كانت تنغمس أعمق وأعمق في كتاب صلواتها ، والتي كانت كل يوم تزداد بعداً عن دنيا الواقع ، كانت تعامل ويل بلطف كما تعامل شقيقاً لها ، وتألفه كما كانت تألف بورك .

«إذا كانت كارين تملك شيئاً من عرفان الجميل لي ، . جزاء ما عملته لها ، فسوف تتزوجه ولا تتركه يرحل من هنا» فكرت سكارلت حانقة «ولكن لا ينبغي أن تقضي وقتها في التحسر على شاب أحمق قد لا يكون فكر بها جدياً» .

وهكذا بقي ويل في تارا ، دون أن تعرف سكارلت سبب بقائه . ولكنها وجدت في علاقته المنظمة معها ، علاقة الرجل بالرجل ، أمراً ممتعاً ومعيناً . ورغم أنه كان يحترم جيرالد التائه ويصغي إلى نصائحه ، فإنه كان يرجع إلى سكارلت كرأس العائلة الحقيقي .

وافقت سكارلت على فكرة تأجير الحصان ، حتى مع أن ذلك كان يعني بقاء العائلة ، مؤقتاً ، بدون أي وسيلة للتنقل ، الأمر الذي سيؤلم سولين بصفة خاصة ، إذ كانت فرحتها العظمى تكمن في الذهاب إلى جونسبورو أو فايتفيل برفقة ويل وذلك في أثناء خروجه في مهمة ، فكانت تزين نفسها بأحسن

مقتنيات العائلة وتزور الأصدقاء القدامى ، وتسمع كل أحاديث الولاية ، وتشعر أنها أضحت ثانية الآنسة أوهارا من تارا ، وهكذا لم تفت سولين فرصة مغادرة المزرعة والتباهي بين الناس الذين كانوا يجهلون أنها كانت تعشب الحديقة وترتب الأسرّة .

ـ «ستضطر الآنسة المدلّلة (سولين) إلى البقاء دون تطواف طيلة أسبوعين» فكرت سكارلت «وسيكون علينا تحمل نكدها وصراخها» .

ثم جاءت ميلاني إلى الشرفة وانضمت إليهما ، وطفلها بين ذراعيها ، فأنزلته ليزحف فوق الشرشف العتيق الذي فرشته على الأرض . وكانت ميلاني منذ وصول رسالة آشلي قد قسمت وقتها بين السعادة المتألقة الشادية وبين التلهف القلق ، ولكنها في كلا حالتي الهناء والجزع كانت نحيلة شاحبة جداً . ومع أنها كانت تقوم بنصيبها من العمل دون تذمر ، إلاّ أنها كانت تحس بالألم دائماً . وقد شخّص الدكتور فونتين العجوز مرضها بأنه مرض نسائي ، وأيد الدكتور ميد بأنها كان يجب أن لا تحبل ، وأضاف بصراحة ، إن حبلها بطفل آخر سيودي بها إلى القبر .

ـ «عندما كنت اليوم في فايتفيل» قال ويل «وجدت شيئاً رائعاً جداً ، اعتقدت أنه يسركما أيتها السيدتان فأحضرته معي» .

وبحث في جيب سرواله الخلفية وأخرج المحفظة التي كانت قد صنعتها له كارين من الخام المصلب بلحاء الشجر ، ثم سحب منها سنداً حلفياً .

ـ «إذا كنت تعتقد أن النقود الحلفية رائعة يا ويل ، فأنا لا أعتقد ذلك» قالت سكارلت باقتضاب ، ذلك أن مجرد منظر النقود الحلفية أثار ثائرتها .

ـ «لدينا ثلاثة آلاف دولار منها ، موجودة الآن في محفظة والدي ، وما انفكت مامي تلح علي بأن أدعها تلصقها فوق الثقوب في جدران العلية ، كي تمنع عنها تيارات الهواء ، وأظن أني سأسمح لها بذلك ، عندئذ نكون قد استفدنا منها بعض الشيء» .

ـ «لقد مات قيصر الطاغية وتحول إلى طين» قالت ميلاني بابتسامة حزينة ، «لا تفعلي ذلك يا سكارلت ، احفظيها لويد فسيكون فخوراً بها يوماً ما» .

ـ «حسناً ، إني لا أعرف شيئاً عن قيصر الطاغية» ، قال ويل بلهجة الصبور ، «غير أن ما معي يتفق مع ما قلته الآن عن ويد يا آنسة ميلاني ، إنها قصيدة

ملصقة على ظهر هذا السند . أنا أعرف أن الآنسة سكارلت لا تعير كبير أهمية للشعر ، ولكني ظننت أن هذه القصيدة قد تلذها» .

وقلب السند ، وكان قد ألصق على ظهره قصاصة ورق خشن بني من ورق اللف ، مكتوب عليها بحبر محلي الصنع . وتنحنح ويل ، وقرأ ببطء وصعوبة :

«العنوان : (سطور على ظهر سند حلفي) قال :

ـ «إنك لا تمثل شيئاً على أرض الله الآن ،
ولا شيء في الأمواه تحتها . . .
ولكن احفظه أيها الصديق وأره للناس
كعهد لأمة مضت .
أره لأولئك الذين سيصغون
للقصة التي ستروبها هذه القصاصة
قصة الحرية التي ولدتها أحلام الوطنيين ،
قصة أمة سقطت ومهدها العواصف» .

ـ «ها ما أروعه ! ما أفعله في النفس» صاحت ميلاني «سكارلت ، ينبغي أن لا تعطي النقود لمامي لتلصقها على جدران العلية . إنها أكثر من ورقة» .

ـ «تماماً كما قالت هذه القصيدة : عهد أمة مضت !» .

ـ «آه ميلاني ، لا تكوني عاطفية ، فالورق ورق ، وليس عندنا إلاّ القليل منه ، ولقد سئمت من سماع مامي تتذمّر من شقوق العلية ، وآمل أن يكون بحوزتي ، عندما يكبر ويد ، كثير من النقود الشمالية ، كي أقدمها له بدلاً من النقود الحلفية العديمة القيمة» .

رفع ويل ، الذي كان في أثناء هذه المناقشة يغري بو الصغير بالسند كي يزحف عبر الشرشف ، رفع بصره ، ثم ظلل عينيه ونظر نحو الممشى :

ـ «ضيف جديد» قال «جندي آخر» .

وأرسلت سكارلت نظرها خلف نظره ، فرأت منظراً مألوفاً ، منظر رجل يلبس خليطاً رثّاً من بزة زرقاء ورمادية ، وقد حنا التعب رأسه وراح يجرجر قدميه ببطء .

ـ «ظننت أننا كدنا ننتهي من الجنود» قالت «أرجو أن لا يكون هذا القادم خاوي البطن» .

ـ «سيكون جائعاً» قال ويل .

ـ «من الأفضل أن أخبر دلسي كي تضع صحناً إضافياً» قالت ميلاني «وأن أنبه مامي بأن لا تنزع ثياب المسكين عن ظهره بسرعة» .

وصمتت بصورة مفاجئة غريبة جعلت سكارلت تلتفت وتتطلع إليها ، فرأت يدها النحيلة على حنجرتها ، تقبض عليها كما لو كانت تتمزق من الألم ، واستطاعت سكارلت رؤية العروق تخفق متوترة تحت البشرة البيضاء . وازداد وجهها شحوباً واتسعت عيناها العسليتان اتساعاً مخيفاً .

ـ «سيغمى عليها» فكرت سكارلت ، ووثبت على قدميها ممسكة بذراع ميلاني .

غير أن ميلاني نفضت يدها بسرعة خاطفة ، وانطلقت تهبط الدرجات ، ثم راحت تنهب ممر الحصباء نهباً ، تطأ الأرض بخفة العصفور ، وتنورتها الباهتة تتطاير خلفها ، وذراعاها ممتدتان . ثم عرفت سكارلت الحقيقة ، فنزلت عليها كالضربة ، وترنحت مسندة جسدها على عمود في الشرفة ، بينما رفع القادم وجهاً تكسوه لحية شقراء قذرة ، وجمد في مكانه يتطلع نحو البيت ، كأنه في منتهى التعب بحيث لا يستطيع التقدم خطوة أخرى . وقفز قلب سكارلت وتوقف ، ثم طفق يخفق ، في حين ألقت ميلاني نفسها بين ذراعي الجندي القذر ، وهي تصيح صيحات متقطعة ، وانحنى الرجل برأسه فوق رأسها ، وبخفة الفرح ، تقدمت سكارلت خطوتين سريعتين إلى الأمام ولكنها توقّفت عندما أطبقت يد ويل على تنورتها :

ـ «لا تعكري صفو اللقاء» قال بهدوء .

ـ «اتركني ، أيها الأحمق ، اتركني ، إنه آشلي !» .

ولكنه لم يخفف قبضته .

ـ «إنه زوجها ، أليس كذلك؟» سأل ويل بهدوء . وعندما نظرت إليه في ذهول من الفرح والغضب الواهن ، رأت في أعماق عينيه المطمئنة إدراكاً وشفقة .





مرغريت ميتشل

ذهب مع الريح

الجزء الثاني



سلسلة أجمل الروايات العالمية

مرغريت ميتشل



الجزء الثاني

إعداد وتحليل وتقديم

الدكتور رحاب عكاوي



دار الحرف العربي

31

جلست سكارلت في المكتب، بعد ظهر يوم بارد من شهر كانون الثاني/ يناير عام ١٨٦٦، تكتب رسالة إلى العمة بيتي بات، توضح فيها بالتفصيل، وللمرة العاشرة، سبب عدم تمكنها هي وميلاني وآشلي من العودة إلى أتلانتا للعيش معها. كانت تكتب بسأم لأنها كانت تعرف أن العمة بيتي لن تقرأ أكثر من السطور الأولى، لتعاود الكتابة مجدداً: «ولكنني أخاف أن أعيش وحيدة».

وكان ويل قد ساق الحصان إلى جونسبورو في ذلك الصباح، لحذوه. وفكرت سكارلت باكتئاب بأن الظروف كانت حرجة حقاً حيث تنعم الخيول بحذوات لقوائمها، بينما تظل أقدام الناس حافية كأقدام كلاب البيت.

وتناولت ريشتها لتستأنف الكتابة، ولكنها ما عتمت أن وضعتها عندما سمعت وقع ساق ويل الخشبية في القاعة خارج المكتب، ثم توقف عن السير، فانتظرت هنيهة كي يدخل، ولكنها ما لبثت أن نادته عندما لم يحرك ساكناً.

دخل ويل وأذناه محمرتان من البرد، وشعره الأحمر مائل إلى جانب رأسه، ثم وقف ينظر إليها، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة مرحة.

- «آنسة سكارلت»، سأل «كم تملكين من النقود تماماً؟».

- «هل ستحاول التزوج بي من أجل نقودي يا ويل؟» سألته باسمة.

- «لا يا سيدة، ولكني أريد معرفة المبلغ فقط».

فحدّقت إليه مستوضحة. ولم يكن ويل يبدو قلقاً، غير أنه لم يكن قد بدا قلقاً هذه الأيام، ومع ذلك، فقد أحست أن أمراً سيئاً قد وقع.

- «إني أملك عشر دولارات ذهبية» قالت «وهي آخر ما تبقى من نقود ذلك الشمالي».

- «حسناً يا سيدة... إن ذلك لن يكفي».

- «يكفي لِمَ؟».

- «يكفي لَلضرائب» أجاب، وخطا متعثراً نحو الموقد، ثم انحنى ماداً يديه الحمراوين فوق اللهيب.

- «ضرائب؟» كررت «يا لله يا ويل! لقد دفعنا الضرائب مؤخراً».

ـ «أجل ولكنهم يقولون إنك لم تدفعي مبلغاً كافياً ، لقد سمعت ذلك اليوم ، هناك في جونسبورو» .

ـ «ولكنني يا ويل ، لم أستطع فهم الذي تقصده» .

ـ «آنسة سكارلت ، إني حتماً أكره أن أضايقك بمتاعب أخرى في الوقت الذي تحملين فيه نصيبك منها ، ولكن من واجبي أن أخبرك على كل حال . إنهم يقولون إن عليك دفع ضرائب أكثر جداً مما دفعت ، وإنني واثق من أنهم رفعوا المبلغ المفروض على تارا عالياً حتى السماء ، أعلى من أي مبلغ فرضوه في الولاية» .

ـ «ولكنهم لن يستطيعوا إرغامنا على دفع ضرائب أكثر في حين أنّنا دفعنا مؤخّراً» .

ـ «آنسة سكارلت ، أنت لم تذهبي إلى جونسبورو أبداً ، وأنا سعيد بذلك ، فهي مكان لا يليق بالسيدات هذه الأيام ، ولكنك إذا ما ترددت عليها كثيراً فستعرفين أن هناك طغمة باغية عاتية من الجمهوريين الجنوبيين والسكالاوغز(*) والكاربت بغرز(**) الذين استلموا زمام الأمور حديثاً ، والذين ستودي بك أعمالهم إلى الجنون الصارخ . ثم هناك أيضاً الزنوج الذين يدفعون البيض عن أرصفة الطرقات و . . .» .

ـ «ولكن ما علاقة ذلك بضرائبنا؟» .

ـ «سأصل إلى هذه النقطة يا آنسة سكارلت . لقد بالغ هؤلاء الأوغاد ، لسبب ما ، في تخمين الضرائب على تارا ، حتى إنك لتظنين أنها مزرعة تنتج ألف بالة قطن سنوياً . وبعد أن سمعت ذلك ، رحت أتسكع حول الحانات أسترق السمع ، فاكتشفت أن أحد الناس يريد شراء تارا بثمن بخس في المزاد الذي يقيمه مأمور التنفيتذ ، وذلك في حال عدم تمكنك من دفع الضرائب

(*) من الكلمة الإنكليزية Scalawag وتعني الوغد ، النذل ، وهم هنا : فريق من الجنوبيين الجمهوريين .

(**) الـ «Carpetbaggers» أحد أبناء الشمال الأميركي ، وتعني ذا الخُرْج ، والكاريت بغرز هنا هم الانتهازيون الشماليون الذين هرعوا إلى الجنوب بعد استسلامه كي يستفيدوا من ظروفه الحرجة .

الإضافية . والجميع يعرفون تمام المعرفة أنك لن تستطيعي دفعها . ولم أعرف حتى الآن من هو الذي يريد شراء هذا المكان ، غير أني أعتقد أن ذلك الرجل الخسيس هلتون ، الذي تزوج الآنسة كاثلين ، يعرف الحقيقة ، فقد ضحك ضحكة زرية عندما حاولت استنطاقه» .

نظرت سكارلت إليه بانفعال . لقد كانت لهجته طبيعية جداً فيما كان يقرع ناقوس موت تارا . . . أتباع في مزاد المأمور؟ وأين سيذهبون جميعاً؟ . . وتارا يمتلكها إنسان آخر! لا . . . إن ذلك لا يمكن التفكير فيه .

كانت سكارلت منهمكة جداً في مهمة جعل تارا تعود إلى إنتاجها الوافر ، بحيث أنها لم تعبأ إلاّ قليلاً بما كان يدور في العالم الخارجي ، فالآن وقد منّ الله عليها بويل وآشلي ليقوما بأي أمر لها في جونسبورو وفايتفيل ، لم تكن تغادر المزرعة إلاّ نادراً . وكما كانت تصغي بأذنين صماوين لأحاديث والدها عن الحرب في الأيام التي سبقت وقوع الحرب ، هكذا تماماً كانت لا تعير إلاّ قليلاً من الانتباه مناقشات ويل وآشلي حول المائدة بعد العشاء ، تلك المناقشات التي كانت تدور عن بداية إعادة بناء الجنوب .

كانت قد علمت بالطبع بأمر أولئك الجنوبيين الذين انقلبوا إلى جمهوريين بدافع الربح الوفير ، كما علمت بأمر أولئك الشماليين الذين انقضوا على الجنوب بعد الاستسلام كالبزاة ، وقد حمل كل منهم جميع ما ملكت يمينه في كيس واحد . وكانت قد عانت بعض التجارب المكدرة على يد هيئة التحرير ، وكان قد بلغها أيضاً أن بعض الزنوج المتحررين كانوا ينقلبون إلى زنوج وقحين تماماً ، الأمر الذي كادت أن لا تصدقه لأنها لم تكن قد رأت طيلة حياتها زنجياً وقحاً .

ولكن كان يوجد أمور كثيرة اتفق ويل وآشلي على حجبها عنها . . . ذلك أن محنة الحرب كان قد تلاها محنة أشد هولاً ، محنة إعادة البناء . غير أن الرجلين كانا قد اتفقا على أن لا يذكرا شيئاً من التفاصيل المثيرة خلال أحاديثهما في البيت . وعندما كانت سكارلت تتكلف مؤونة الإصغاء إليهما كان معظم الذي تسمعه يدخل من إحدى أذنيها ليخرج من الأخرى .

كانت قد سمعت آشلي يقول إن الجنوب كان يعامل كمقاطعة محتلة ، وإن سلاح الانتقام كان السياسة المسيطرة لدى المحتلين ، غير أن تلك العبارة لم تكن

تعني شيئاً البتة بالنسبة إليها ، فالسياسة كانت من شؤون الرجال . وكذلك كانت قد سمعت ويل يقول إن الأمر يبدو وكأن الشمال لا يهدف إلى جعل الجنوب يقف على قدميه ثانية . حسناً ، فكرت سكارلت ، لا بد للرجال دائماً من أن يكون لديهم شيء يقلقون من أجله . أما بالنسبة إليها فكل ما كان يهمها هو أن الشماليين لم يسحقوها في الماضي ، وأنهم لن يفعلوا ذلك في الوقت الحاضر ، وأن ما ينبغي عمله الآن هو أن تكدح وتكف عن القلق من ناحية حكومة الشماليين ، فلقد انتهت الحرب على كل حال . ولم تدرك سكارلت أن جميع قوانين الحياة قد تغيرت ، وأن العمل الشريف لم يعد يكسب جزاءه العادل ، لقد كانت جورجيا الآن تحت الحكم العسكري فعلاً ، وكان الجنود الشماليون يعسكرون في أنحاء الإقليم ، وكان القائمون على هيئة التحرير يتقلدون زمام جميع الأمور ويسنون القوانين لتلائم مصالحهم .

كانت هذه الهيئة التي نظمت من قبل الحكومة الشمالية الاتحادية ، . لتعتني بالعبيد المحررين ، الخاملين المستفزين ، تسحب هؤلاء العبيد بالألوف من المزارع إلى القرى والمدن ، وتقوم بتغذيتهم وهم عاطلون ، وفي أثناء ذلك كانت تحشو عقولهم وتسممها ضد ملاّكهم السابقين . وكان جوناس ويلكرسون ، ناظر جيرالد القديم ، مسؤولاً عن فرع الهيئة المحلي ، وكان هلتون ، زوج كاثلين كالفرت ، مساعداً له ، هذان الرجلان نشرا بكل ما أوتيا من قوة شائعة أن الديموقراطيين والجنوبيين يتربصون الفرصة المواتية لإعادة الزنوج إلى العبودية ، وأن أمل الزنوج الوحيد في تحاشي هذا المصير هو الحماية الممنوحة لهم من قبل هيئة التحرير والحزب الجمهوري .

وأكثر من ذلك ، لقد أخبر ويلكرسون وهلتون الزنوج أنهم على مستوى واحد مع البيض من جميع النواحي ، وأنه سرعان ما سيسمح بتزاوج الفئتين ، وسرعان ما ستوزع عليهم أملاك أسيادهم السابقين ، وأن كل زنجي سيعطى أربعين فداناً وبغلاً ، ملكاً خاصّاً له ، وهكذا أبقيا الزنوج في حالة هياج ، بما كان يشيعان من حكايات القسوة التي يقترفها البيض ، فبدأ الشك والبغض ينموان في إقليم كان قد اشتهر منذ زمن بحسن العلاقات السائدة فيه بين العبيد وأسيادهم .

كان الجنود الشماليون يدعمون هيئة التحرير ، وكان العسكريون قد أصدروا

أوامر عديدة ومتضاربة للتحكم بتصرف الشعب المنهزم ، وكان من السهل إلقاء القبض على أي إنسان حتى بسبب زجر موظفي هيئة التحرير ، كما كانت قد صدرت أوامر عسكرية تتعلق بشؤون المدارس وحفظ الصحة وأنواع الأزرار التي ينبغي وضعها على البزز ، وبيع السلع وجميع المرافق الأخرى تقريباً . وكان ويلكرسون وهلتون يتمتعان بسلطة التدخل بأي تجارة يمكن أن تقوم بها سكارلت ، وبسلطة فرض الأسعار التي يريانها مناسبة على أي شيء كانت تبيعه أو تقايض به .

ولحسن حظها أنها لم تصطدم بكلا الرجلين إلاّ قليلاً جداً ، لأن ويل كان قد أقنعها في أن تدعه يتسلم أمور التجارة ، بينما تنصرف هي إلى إدارة المزرعة ، وقد استطاع ويل بفضل أسلوبه الليّن أن يذلل كثيراً من الصعوبات التي من هذا النوع ، دون أن يخبر سكارلت بشيء عنها ، كان بوسعه تدبير الأمور مع الجنوبيين الجمهوريين والجنود الشماليين إذا ما اضطر إلى ذلك . غير أن المشكلة التي برزت الآن كانت أكبر مما يستطيع تدبيره ، وكان لا بد من إطلاع سكارلت ، وإطلاعها فوراً ، على أمر الضريبة الإضافية المفروضة وعلى خطر خسران تارا .

نظرت إليه بعينين وامضتين ، وصاحت :

ـ «آه ، لعن الله الشماليين . ألم يكفهم أنهم هزمونا وأفقرونا ، فجاؤوا اليوم يطلقون علينا أولئك اللئام؟» .

لقد انتهت الحرب ، ومع ذلك فما زال بوسع الشماليين نهبها ، ما زال بوسعهم تجويعها ، ما زال بوسعهم طردها من البيت . لقد كانت حمقاء عندما فكرت خلال الشهور المضنية أنها إذا استطاعت المقاومة حتى الربيع فإن كل شيء سيكون على ما يرام . لقد كان هذا النبأ الصاعق ، الذي جاء به ويل ، بعد عام من العمل القاصم للظهر ، والأمل الموعود ، الضربة القاضية .

ـ «آه يا ويل ، لقد ظننت أن متاعبنا قد انتهت جميعها بانتهاءالحرب !» .

ـ «لا يا سيدة» ، رفع وجهه ورمقها بنظرة طويلة ثابتة «إن متاعبنا قد ابتدأت للتو» .

ـ «كم تبلغ الضرائب التي يريدون أن ندفعها» .

ـ «ثلاثمائة دولار» .

فألجمتها الصدمة لحظة . . . ثلاثمائة دولار ! لو كانت ثلاثة ملايين دولار لكان الأمر ذاته .

ـ «ماذا ! . . . قالت متلعثمة» أجل . . . أجل ! علينا إذاً أن نحصل على ثلاثمائة . . . بطريقة ما» .

ـ «نعم يا سيدة ، وعلى قوس قزح وقمر أو قمرين» .

ـ «آه ، ولكن يا ويل ! لن يسعهم بيع تارا . . . كيف؟ . . .» .

فظهر في عينيه الهادئتين من البغض والمرارة أكثر مما اعتقدته ممكناً .

ـ «لن يسعهم؟ بلى يسعهم ذلك ، وسيفعلونه ، وسيشوقهم القيام به ! آنسة سكارلت ، إن البلاد تهوي سريعاً إلى الجحيم ، إذا ما سمحت لي بهذا القول ، فهؤلاء الكاربت بغرز والسكالاوغز يحق لهم التصويت بينما لا يحق ذلك لمعظمنا نحن الديموقراطيين . . . لا يحق التصويت لديموقراطي في هذه الولاية إذا كان يملك في سجلات الضرائب أكثر من ألفي دولار بالنقود الجديدة ، وهذا يعني حرمان أناس كوالدك والسيد تارلتون وآل ماك ريز وأبناء فونتين . ولا يحق التصويت لشخص كان برتبة كولونيل أو أعلى في الحرب ، وأنا أراهن يا آنسة سكارلت أن كولونيلات هذه الولاية أكثر من أية ولاية أخرى من ولايات الحلف . ولا يحق التصويت لشخص كان موظفاً في حكومة الحلف ، وهذا يحرم الجميع ، من كتّاب العدل حتى القضاة ، وقد امتلأت الغابات بأمثال هؤلاء . والحقيقة هي أن الطريقة التي صاغ بها الشماليون عهد الأمان ذاك ، لا تمكّن أي شخص ممن كان لهم أي مقام قبل الحرب من التصويت أبداً ، لا الناس الأذكياء ولا الوجهاء ولا الأغنياء .

أواه ! إن بوسعي التصويت إذا ما أخذت على نفسي عهدهم اللعين ، فأنا لا أملك أي نقود جديدة ، وأنا قطعاً لم أكن كولونيلاً ولا أي شخص مرموق ، ولكني لن آخذ على نفسي ذلك العهد . . . لا ، ليس في مشهد حافل ! لو تصرف الشماليون تصرفاً سليماً لأقسمت لهم يمين الولاء ، ولكن لن أفعل ذلك الآن ، في وسعي أن أعود إلى الاتحاد ، كما كان ، ولكني لا أقبل أن يعاد بنائي فيه . لن أقسم بالولاء لهم حتى لو لم أصوت طيلة حياتي . ولكن إنساناً تافهاً كهلتون ذاك يستطيع أن يصوت ، لئام كجوناس ويلكرسون ، وبيض حقيرون كآل سلاتري ، وأناس لا قيمة لهم كآل ماك أنتوش ، أولئك هم الذين يديرون

الأمور الآن، والذين بوسعهم، إذا شاؤوا، أن يأتوا إليك عشرات المرات في طلب ضرائب إضافية، تماماً كما يمكن لزنجي أن يقتل رجلاً أبيض دون أن يعدم أو . . .» وصمت هنيهة وهو يشعر بالضيق، وحضرت عقليهما ذكرى ما حدث لامرأة بيضاء، كانت وحدها في مزرعة منعزلة قرب لفجوي.

ـ «إن بوسع هؤلاء الزنوج ارتكاب أي شيء ضدنا، وسيحميهم الجنود وهيئة التحرير بالبنادق، بينما لا نستطيع نحن التصويت أو إتيان أي عمل».

ـ «التصويت!» صاحت «التصويت! أي علاقة للتصويت بكل هذه الأمور يا ويل؟ إن ما نتحدث عنه هو الضرائب . . . ويل، كل إنسان يعرف أي مزرعة خصيبة هي تارا، فبوسعنا رهنها مقابل مبلغ كاف لدفع الضرائب إذا ما اضطررنا إلى ذلك».

ـ «آنسة سكارلت، أنت ذكية، ولكنك تتحدثين كغبية أحياناً. من هو الذي يملك النقود ليقرضك مقابل هذه المزرعة؟ من سوى الشماليين الذين يحاولون انتزاع تارا منك؟ وكل إنسان يملك أرضاً، وجميع الملاكين فقراء، وليس بوسعك أن تهبي الأرض وهباً».

ـ «إني أملك هذين القرطين اللؤلؤيين اللذين انتزعتهما من ذلك الشمالي. إن بوسعنا بيعهما».

ـ «يا آنسة سكارلت، من الذي يملك النقود لشراء الأقراط في كل هذه الأنحاء؟ إن الناس لا يملكون المال لشراء أردإ اللحم. دعي هذه الحلى البرّاقة وشأنها. إني أقسم أن لو كنت تملكين عشر دولارات ذهباً، لكان ذلك أكثر مما بحوزة معظم الناس».

وخيم الصمت عليهما ثانية، وأحست سكارلت كما لو كانت تدق رأسها علىَ جدار حجري.

ـ «ماذا سنفعل يا آنسة سكارلت؟».

ـ «لا أدري» قالت بفتور، وشعرت أنها لم تأبه للأمر، ولذلك أحست فجأة بتعب شديد آلم عظامها. لماذا ينبغي لها أن تعمل وتكافح وتفني نفسها حين كان يبدو في نهاية كل كفاح أن الهزيمة تنتظر لتسخر منها؟!.

ـ «لا أدري» قالت «ولكن لا تدع أبي يعرف بالأمر، فقد يزعجه ذلك».

ـ «لن أدعه يعرف».

ـ «هل أخبرت أحداً؟» .
ـ «لا ، أتيت مباشرة إليك» .
أجل ، فكرت ، الجميع دوماً يأتون مباشرة إليها بالأنباء السيئة ، ولقد تعبت من كل هذا .
ـ «أين هو السيد ويلكس ، لعله يستطيع اقتراح شيء ما» .
فالتفت ويل إليها بنظرته الوادعة ، وأحست ، كما أحست منذ اليوم الأول لعودة آشلي ، أن ويل كان يعرف كل شيء .
ـ «إنه هناك في البستان يشقق القضبان الخشبية . لقد سمعت فأساً وأنا أربط الفرس ، بيد أنه لا يملك من النقود أكثر مما نملك» .
ـ «إن بوسعي التحدث إليه في هذا الموضوع ، أليس كذلك؟» وقفزت واقفة على قدميها .
ـ من الأفضل أن تتلفعي بشالك يا آنسة سكارلت ، فالجو بارد في الخارج» .
ولكن سكارلت ذهبت بدون الشال ، لأن هذا كان في الطابق العلوي ، ولأن حاجتها إلى رؤية آشلي وإلقاء متاعبها أمامه كانت ملحة جداً بحيث لم تدعها تتريث .
ما أسعد حظها إن هي وجدته وحيداً! منذ عودته لم تنفرد معه بحديث خاص ولو مرة واحدة . لقد كانت العائلة تحتشد حوله دائماً ، وكانت ميلاني تظل بجانبه أبداً ، تلمس ردنه بين الفينة والأخرى ، لتطمئن نفسها بأنه كان حقاً موجوداً بجانبها . وكان منظر تلك العملية المشعرة بالملكية قد أيقظ في نفس سكارلت كل الكراهية الحاقدة التي كانت قد خبت خلال الشهور التي كانت تفكر فيها باحتمال كون آشلي ميتاً ، ولقد صممت الآن على أن تراه وحيداً ، إذ لن يمنعها أحد هذه المرة من الحديث إليه على انفراد .

*

مشت خلال البستان تحت الأغصان العارية ، واستطاعت سماع صوت الفأس تقرع فيما كان آشلي يكسر الكتل الخشبية المجرورة من الهور إلى قضبان . كانت عملية إقامة حواجز خشبية جديدة بدلاً من تلك التي أحرقها الشماليون مغتبطين ، مهمة شاقة طويلة الأمد . ولقد كان كل شيء مهمة شاقة طويلة الأمد ، فكرت سكارلت وهي خائرة القوى . ولقد كانت هي تعبة من هذه

المهمات ، تعبة وبرمة وسقيمة منها كلها . حبذا لو أن آشلي كان زوجها بدلاً من أن يكون زوج ميلاني ، إذاً لما كان أعذب أن تذهب إليه وتضع رأسها على كتفيه ، وتبكي ، وتنقل أعباءها إلى كاهله ليقوم بها على أحسن وجه يستطيعه .

ودارت حول أيكة من أشجار الرمان ورأت آشلي منحنياً فوق فأسه ، يمسح جبينه بظهر يده ، كان يرتدي بقايا سروال بني اللون من صنع محلي ، وقميصاً من قمصان جيرالد ، قميصاً كان في أوقات أفضل من هذه يرتدى أيام المحاكمات وحفلات الشواء ، قميصاً ذا كشاكش ، قصيراً جداً بالنسبة إلى مالكه الجديد . وكان آشلي قد علق معطفه على غصن شجرة ، لأن عمله كان يبعث الحرارة ، وعندما بلغته وقف طلباً للراحة .

خفق قلب سكارلت في موجة دافقة من الحب والغضب على هذا المصير ، وهي ترى آشلي في خرقه البالية ، والفأس في يده ، ولم تستطع احتمال رؤيته في هذا الثوب الخلق يشتغل في الحقل ، إنه آشليها ، الرقيق الطاهر ، إن يديه لم تخلقا للعمل ، وإن جلده لم يخلق لأي شيء سوى قماش الجوخ والكتان الجيد . لقد أراده الله ليجلس في بيت عظيم ويتحدث إلى أناس ظرفاء ، ويعزف على البيانو ، ويكتب الأشياء التي كان سماعها يبدو جميلاً ، ولكنها لم تكن لتحمل معنى أبداً .

كان بوسعها احتمال رؤية ابنها في خرق مصنوعة من الخيش ، ورؤية شقيقتها في قماش قطني قديم قذر ، وكان بوسعها كذلك احتمال كون ويل يكدح في العمل أكثر من أي عامل حقل ، ولكن لم يكن بوسعها رؤية آشلي كذلك ، فآشلي كان أظرف من أن يكون كذلك ، أرفع من كل هذا ، كان عزيزاً عليها إلى درجة لا توصف .

- «يقولون إن أبراهام لنكولن بدأ حياته في تكسير الخشب» ، قال عندما بلغته «فكري فقط إلى أي مستوى رفيع يمكن أن أصل !» .

فتجهم وجهها . لقد كان يتفوه دائماً بمثل هذه العبارات الخفيفة عن متاعبهم ، تلك المتاعب التي كانت في نظرها أموراً خطيرة للغاية ، بحيث كانت عباراته عنها تكاد تثيرها في بعض الأحيان .

وعلى الفور ، أخبرته بنبإ ويل بإيجاز شديد ، وبكلمات مقتضبة ، وأحست بأن قد سُرِّي عنها وهي تتكلم ، فمن الأكيد أن لديه ما يقترحه من الحلول

المساعدة . غير أنه لم يقل شيئاً ، وإنما تناول معطفه ووضعه على كتفيها وقد رآها ترتجف .

ـ «أخبرني» ، قالت أخيراً «ألم يدر بخلدك أن علينا تدبير المال من مصدر ما؟» .

ـ «أجل» قال «ولكن من أين؟» .

ـ «إني أسألك» أجابت منزعجة ، وقد تلاشى الشعور بالتسرية الذي انتابها وهي تلقي العبء عن كاهلها . . . وفكرت ، حتى لو لم يكن بوسعه المساعدة ، لماذا لم يقل شيئاً مواسياً . . حتى لو كان هذا الشيء عبارة «آسف» فقط !

وابتسم :

ـ «طيلة هذه الشهور التي انقضت منذ عودتي إلى البيت لم أسمع بغير اسم رجل واحد فقط يملك مالاً في الحقيقة ، وهو ريت بتلر» .

وكانت العمة بيتي بات قد كتبت إلى ميلاني ، في الأسبوع المنصرم ، تخبرها أن ريت عاد إلى أتلانتا بعربة وحصانين جميلين ، وجيوب مليئة بأوراق النقد الشمالية ، ولمّحت ، بطريقة ما ، إلى أنه لم يصل إلى هذا المال من طريق شريف ، وأنها تعتقد ، ويشاركها في ذلك معظم سكان أتلانتا ، أن ريت كان قد استطاع الهرب بمالية الحلف التي تبلغ ملايين خيالية .

ـ «لا تدعنا نتحدث عنه» قالت سكارلت «إنه ظربان إذا كان يوجد حيوان من هذا النوع . . . ماذا سيحل بنا جميعاً؟» .

وضع آشلي الفأس على الأرض ونظر بعيداً ، وبدت عيناه وكأنهما مسافرتان إلى بلاد نائية لا تستطيع هي اللحاق بهما إليها .

ـ «إني أتساءل» ، قال «إني لأتساءل ليس فقط عما سيحل بنا نحن الذين في تارا ، بل عما سيحل بكل من في الجنوب» .

فأحست كأنها ستنفجر على الفور .

ـ «إلى الجحيم بكل من في الجنوب ! ما هو مصيرنا نحن؟» ولكنها ظلت صامتة ، لأن الشعور المرهق كان قد عاودها بشكل أقوى مما مضى ، فإن آشلي لم يقترح أي عون لها أبداً .

ـ «إن ما سيحدث في النهاية هو عين ما يحدث كلما انهارت حضارة من

الحضارات ، ينجح الأذكياء الشجعان في الخلاص بينما يتساقط الجبناء الأغبياء ، على الأقل إن مشاهدة نهاية العالم أمر مثير إن لم يكن مريحاً» .

ـ «مشاهدة ماذا؟» ، صاحت «من أجل الله يا آشلي ويلكس ، لا تقف هناك وتتكلم معي كلاماً فارغاً ، بينما نحن الذين سيتساقطون !» .

وبدا كأن شيئاً من خورها الساخط قد اخترق عقله واستدعاه من تطوافه ، فقد رفع يديها بعطف ، وقلب الراحتين إلى أعلى ، وتأمل مواضع اندمال القروح فيهما .

ـ «هاتان أجمل يدين عرفتهما في حياتي» قال ذلك وقبل كلا الراحتين برقة ، «إنهما جميلتان لأنهما قويتان ، وإن كل ندب فيهما وسام ، إن كل قرحة يا سكارلت هي شهادة ساطعة على الشجاعة وإنكار الذات . لقد تخشنت يداك في سبيلنا جميعاً ، في سبيل أبيك وشقيقتيك وميلاني والطفل ، ومن أجل وأجل الزنوج . إني أعرف بما تفكرين يا عزيزتي ، إن لسان حالك يقول : «هنا يقف إنسان غبي غير عملي يتحدث حديثاً فارغاً عن انهيار الحضارات بينما تتهدد الأخطار الناس الأحياء ، أليس ذلك صحيحاً؟» .

فأومأت برأسها أن نعم ، وهي ترجو أن يظل رافعاً يديها إلى الأبد ، ولكنه أفلتهما .

ـ «ولقد أتيت إلي آملة أن أستطيع مساعدتك . . . والواقع أني لا أستطيع» .

ونطقت عيناه بالمرارة وهو ينظر نحو الفأس وكومة الخشب .

ـ «لقد ضاع بيتي وكل المال الذي لم أكن أعتقد بأني سأحوزه يوماً ما . وإني الآن لا أصلح لشيء في هذه الدنيا ، لأن الدنيا التي أنتمي إليها قد ضاعت . ولذلك فأنا لا أستطيع مساعدتك يا سكارلت إلاّ بأن أتدرب بكل ما يسعني من نشاط على أن أصبح مزارعاً غليظاً ، وذلك لن يحفظ تارا لك . ألا تظنين أني أدرك مرارة وضعنا وأنا أعيش هنا على إحسانك . . . أجل يا سكارلت على إحسانك ، ولن أستطيع أبداً أن أرد لك ما قدمته لي ولعائلتي من الجميل بدافع من قلبك الرحيم . إني أتحسس ذلك بشدة تزداد كل يوم ، وفي كل يوم أتبين بوضوح أكثر كم أنا عاجز عن مواجهة ما حل بنا جميعاً . . . وفي كل يوم يزيد إغضائي اللعين عن الحقائق في صعوبة مواجهتي للحقائق الجديدة . هل أدركت الذي أعنيه؟

فأطرقت رأسها بالإيجاب ، ولم تكن قد أدركت أية فكرة جلية من الذي عناه ، ولكنها تعلقت بكلماته محتبسة النفس . لقد كانت هذه أول مرة يتحدث فيها إليها عما كان يفكر به وهو يبدو شارداً عنها ، الأمر الذي أثارها كثيراً كما لو كانت على عتبة كشف جديد .

ـ «إنه لعنة . . ذلك الإحجام عن النظر إلى الحقائق المجردة . . فإلى حين وقوع الحرب لم تكن الحياة بالنسبة إليّ أدنى إلى الحقيقة من مشهد وهمي على ستار ، وكنت أفضل أن تكون كذلك ، فأنا لا أحب أن تكون حدود الأشياء المرئية بارزة جداً ، إني أريدها غامضة نوعاً ما ، مبهمة بعض الإبهام» .

وتوقف عن الكلام وابتسم ابتسامة خفيفة ، وارتعش قليلاً عندما اخترقت الريح الباردة قميصه الرقيق :

ـ «وبكلمات أخرى يا سكارلت ، أنا جبان» .

لم يحمل حديثه عن المشاهد الوهمية والحدود المبهمة أي معنى لسكارلت ، ولكن الكلمات الأخيرة جاءت في لغة استطاعت فهمها وعرفت أنها كلمات غير حقيقية ، فالجبن لم يكن من صفاته ، إذ إن كل عضو من أعضاء جسده النحيل كان يتحدث عن أجيال من الرجال الشجعان ، كما أن سكارلت كانت تحفظ سجله الحربي عن ظهر قلب .

ـ «ماذا ، ليس الأمر كذلك ! هل كان بوسع جبان أن يعتلي المدفع في جيتسبرغ ويستحث همم الجنود؟ أكان الجنرال نفسه يكتب رسالة إلى ميلاني عن جبان؟ و . . .» .

ـ «تلك ليست شجاعة» قال بجهد «فالقتال كالشمبانيا ، إنه يسري إلى رؤوس الجبناء بالسرعة ذاتها التي يصل فيها إلى رؤوس الأبطال ، وبوسع أي أحمق أن يكون شجاعاً في ساحة المعركة عندما يتحتم عليه أن يكون شجاعاً أو أن يقتل . . لا ، إني أتحدث عن شيء آخر ، وإن نوع الجبن الكائن فيّه أسوأ بدرجة لانهائية مما لو هربت لدى سماعي دوي المدفع لأول مرة» .

كانت في عينيه نظرة استعصى فهمها على سكارلت . . . ليست نظرة خوف ولا نظرة اعتذار ، ولكنها الانقياد إلى إجهاد محتوم غامر . واجتاحت ريح الشتاء كاحليها وارتجفت ثانية ، ولكن رجفتها انبعثت من الرعب الذي أثارته كلماته في قلبها أكثر مما انبعثت من الريح .

ـ «ولكن يا آشلي ، مم أنت خائف؟» .

ـ «آه ، من أشياء لا تسمى ، أشياء تبدو عقيمة إذا ما نطق بها ، ولكن معظمها يكمن في أن الحياة انقلبت فجأة إلى حياة حقيقية جداً ، وفي أني نقلت إلى عالم المحسوس لأحتك احتكاكاً شخصيّاً ببعض حقائق الحياة البسيطة . ليس ما يهمني هو تكسير كتل الخشب ، هنا في الوحل ، وإنما الذي يهمني هو ما يعنيه هذا العمل . إن ما يؤلمني كثيراً هو فقدان جمالات الحياة القديمة التي أحببتها . . لقد كانت الحياة قبل الحرب جميلة يا سكارلت ، كانت تزدهي بسحر وكمال وتمام وانسجام ، كالفن الإغريقي . ولربما لم تكن كذلك بالنسبة إلى كل إنسان ـ وهذا ما اكتشفته الآن ـ ولكن بالنسبة إلي ، أنا الذي كنت أعيش في تولف أوكس ، كان هناك جمال حقيقي في العيش . لقد انسجمت مع تلك الحياة ، لقد كنت جزءاً منها ، وها قد ولت الآن ، ولا مكان لي في هذه الحياة الجديدة ، ولذلك فإني خائف . أجل ، إني أعرف أن ما كنت أتأمله في الأيام القديمة كان مشهداً وهمياً ، فقد كنت أتجنب كل شيء لم يكن وهميّاً ، الناس والحالات التي كانت حقيقية جداً وحيوية جداً . كنت أنفر من تطفلهم ، وكنت أحاول تجنبك أيضاً يا سكارلت ، فلقد كنت أنت مفعمة جداً بالحياة ، واقعية جداً ، وكنت أنا على درجة كبيرة من الجبن جعلتني أفضل الأوهام والأحلام» .

ـ «ولكن . . . ولكن . . . ميلاني؟» .

ـ «إن ميلاني جزء من أحلامي ، بل هي أروع حلم . ولو أن الحرب لم تقع لعشت طيلة حياتي سعيداً ، مدفوناً في تولف أوكس ، أتأمل قانعاً مضي الحياة دون أن أكون جزءاً منها . ولكن عندما أتت الحرب ، قذفت الحياة بنفسها علي ، الحياة كما هي على حقيقتها . وهكذا ففي المرة الأولى التي دخلت فيها إلى دنيا الواقع . . . وكان ذلك في بول ران ، كما تذكرين ، رأيت أصدقاء الصبا يتمزقون إرباً إرباً ، وسمعت صهيل الخيول النافقة ، وأحسست بالشعور الرهيب الممرض المنبعث من رؤية الرجال يتلوون ألماً ويبصقون دماً عندما أطلق النار عليهم . غير أن هذه لم تكن أسوأ ويلات الحرب يا سكارلت ، إن أسوأ ويلات الحرب هم الناس الذين كان علي أن أعيش معهم ، أنا الذي كنت قد انزويت بنفسي بعيداً عن الناس طيلة حياتي ، أنا الذي كنت قد اخترت بعناية

أصدقائي القليلين . ولكن الحرب علمتني أني كنت قد خلقت عالماً خاصاً بي، عالماً بأناس من دنيا الأحلام، علمتني كيف يكون الناس حقاً، ولكنها لم تعلمني كيف أعيش معهم، وإني أخشى أن لا أتعلم ذلك أبداً . أجل، إني أعرف أنه في سبيل أن أعيل زوجتي وولدي لا بد لي من أن أشق طريقي وسط عالم من البشر الذين لا ألتقي وإياهم في أي شأن . أما أنت يا سكارلت، فإنك تقبضين على الحياة من قرنيها، تقودينها حسب مشيئتك، ولكن أين يمكنني أنا أن أتلاءم وهذه الحياة؟ لقد قلت لك إني خائف» .

وفيما كان صوته الخفيض الرنان يتابع حديثه كئيباً، يحمل شعوراً لم تستطع فهمه، كانت هي تتمسك بالكلمات هنا وهناك، تحاول تفسيرها .

ـ «سكارلت، إني لا أعرف تماماً متى واجهتني الحقيقة السافرة، حقيقة أن مشهدي الوهمي الخاص قد انتهى . . ربما كان ذلك في الدقائق الخمس الأولى في بول ران، عندما رأيت أول رجل قتلته يهوي إلى الأرض، ولكني عرفت أن المشهد انقضى، وأني لم أعد أستطيع أن أكون متفرجاً . لا، لقد ألفيت نفسي فجأة على الستار ممثلاً، أقف وأقوم بحركات عقيمة عابثة . إن حياتي الداخلية الصغيرة قد ولّت، لقد غزاها أناس بأفكار غير أفكاري وبأفعال غريبة عني . لقد داسوا خلال عالمي بأقدام وضيعة، ولم يبق متسع أستطيع أن ألجأ إليه عندما أصبحت الأمور على درجة من السوء لا تحتمل، ويوم كنت في الأسر كنت أفكر بأنه عندما تنتهي الحرب سيكون بوسعي العودة إلى الحياة والأحلام القديمة ومراقبة المشهد الوهمي ثانية، ولكن ليس هناك عودة يا سكارلت، وإن هذا الذي يواجه كلاً منا الآن لأسوأ من الحرب، وأسوأ من الأسر . . . وبالنسبة إلي أسوأ من الموت . . . وهكذا ترين يا سكارلت، إني أعاقب لكوني خائفاً» .

ـ «ولكن يا آشلي، إذا كنت تخشى أننا سنموت جوعاً، فإننا . . . فإننا . . سنتدبر الأمر بطريقة ما . إنني واثقة من أننا سنتدبر الأمر» .

ـ «ليس الجوع» قال «إني أعرف ذلك لأني قاسيت الجوع، ولكني لست خائفاً منه . إني خائف من مواجهة الحياة وقد فقدت الجمال الذي ينطوي عليه بطء عالمنا القديم الذي انقضى» .

وفكرت سكارلت، يائسة، بأن ميلاني يمكن أن تعرف الذي عناه آشلي،

فلقد كانا دائماً يتحدثان بمثل هذه الحماقات : الشعر والكتب والأحلام وأشعة القمر وغبار النجوم . لم يكن آشلي يخاف الأشياء التي تخافها هي ، لا نهش المعدة الخاوية ولا لسع ريح الشتاء ولا الإجلاء عن تارا . لقد كان يهوي أمام خوف لم تعرفه في حياتها ، ولا تستطيع تصوره ، لأنه بحق الإلـه ، ماذا كان يوجد ليخاف في هذه الحياة المنهارة سوى الجوع والبرد وضياع الوطن؟

وفكرت أنها إذا أنصتت بانتباه ، فستعرف كيف تجيب آشلي .

ـ «آه !» قالت وقد شاب صوتها خيبة كتلك التي تنتاب طفلاً يفتح علبة حسنة الرزم فإذا به يجدها خاوية . وابتسم آشلي مشفقاً وهو يسمع لهجتها ، كأنه يعتذر إليها .

ـ «سامحيني يا سكارلت لأني تحدثت إليك بمثل هذا الحديث ، وليس بوسعي أن أجعلك تفهمينني لأنك لا تعرفين معنى الخوف ، فأنت تملكين قلب أسد ، وتمتازين بانعدام التخيل لديك تماماً ، وهما الصفتان اللتان أحسدك عليهما . لن يهمك أبداً مواجهة الحقائق ، ولن ترغبي مطلقاً في الهرب منها كما أرغب أنا» .

ـ «الهرب !» .

وبدا كأن تلك كانت الكلمة الوحيدة التي يمكن فهمها من بين جميع ما نطق به من كلمات . . . إن آشلي مثلها قد سئم الكفاح وهو يرغب في الهرب . وارتد نفسها سريعاً .

ـ «آه ، آشلي» صاحت «إنك مخطئ ، لا ، فأنا أريد الهرب أيضاً ، إني تعبة جداً من كل هذا الوضع» .

فارتفع حاجباه في تعبير غير مصدق ، بينما وضعت هي يداً ملحة محمومة على ذراعه .

ـ «أصغ إلي» بدأت بسرعة والكلمات تتكدس واحدة فوق أخرى : «دعني أخبرك أني تعبة من كل شيء ، تعبة حتى العظم ، ولن أتحمل ذلك بعد اليوم . لقد كافحت من أجل القوت ومن أجل المال ، لقد عشبت وعزقت وقطفت القطن ، وحتى لقد حرثت إلى أن لم أعد أستطيع الاحتمال دقيقة أخرى ، إني أقول لك يا آشلي إن الجنوب ميت ! إنه ميت ! لقد استولى عليه الشماليون والزنوج المحررون والكاربت بغرز ولم يبق لنا شيء . آشلي ، دعنا نهرب !» .

فحدجها بنظرة حادة ، وخفض رأسه لينظر في وجهها الذي تخضب بلون الدم الملتهب .

ـ «أجل دعنا نهرب . . . سنتركهم جميعاً ! لقد سئمت العمل من أجل الأهل ، سيعيلهم بعض الناس ، يوجد دائماً من يعيل البؤساء الذين لا يستطيعون إعالة أنفسهم . آه آشلي ، دعنا نهرب ، أنت وأنا . إن بوسعنا الذهاب إلى المكسيك . . . إنهم يريدون ضباطاً في الجيش المكسيكي ، وبوسعنا أن نعيش هناك في غاية السعادة . سأشتغل من أجلك يا آشلي ، سأعمل كل شيء في سبيلك . إنك تعرف أنك لا تحب ميلاني» .

وهمّ بأن يتكلم ، وفي وجهه نظرة مجفلة ، ولكنها كتمت كلماته بدفق من كلماتها :

ـ «لقد أخبرتني أنك تحبني أكثر منها ، في ذلك اليوم . . . آه أنت تتذكر ذلك اليوم ، وأنا أعرف أنك لم تتغير ، إني أستطيع القول بأنك لم تتغير . وها قد قلت الآن إنها لم تكن شيئاً سوى حلم . . . آه آشلي ، دعنا نهرب . إن بوسعي أن أجعلك في غاية السعادة ، وعلى كل حال» أضافت بحقد «إن ميلاني لا تستطيع . . . لقد قال الدكتور فونتين إنها لا تستطيع أبداً أن تلد أي طفل آخر ، بينما أستطيع أنا أن أنجب لك . . .» .

كانت يداه تضغطان على كتفها ضغطاً شديداً آلمها ، فتوقفت منقطعة النفس :

ـ «كان علينا أن ننسى ذلك اليوم في تولف أوكس» .

ـ «هل تظن أن بوسعي نسيانه؟ هل نسيته أنت؟ هل تستطيع أن تقول مخلصاً إنك لا تحبني» . وتنفس عميقاً وأجاب :

ـ «لا ، لا أحبك» .

ـ «تلك كذبة» .

ـ «حتى لو كانت كذبة» قال آشلي وصوته خفيض جداً «فليس هذا بالأمر الذي يمكن بحثه» .

ـ «أنت تعني . . .» .

ـ «هل تعتقدين أن بوسعي الهرب وترك ميلاني وطفلها حتى لو كنت أبغضهما كليهما؟ أن أحطم قلب ميلاني؟ أن أتركهما يعيشان على إحسان

الأصدقاء؟ سكارلت ، هل أنت مجنونة؟ أليس عندك أي شعور بالإخلاص؟ أنت لا تستطيعين ترك والدك وشقيقتيك ، فأنت مسؤولة عنهم ، تماماً كما أنا مسؤول عن ميلاني ويو . وسواء أكنت تعبة أم لا فهم موجودون هنا ، وعليك أن تتحمليهم» .

ـ «إن بوسعي تركهم . . . لقد سئمت منهم . . . تعبت منهم . . .» .

وعطف عليها ، وفكرت لهنيهة ، وقلبها ينقبض بشدة ، أنه سيأخذها بين ذراعيه ، ولكنه بدلاً من ذلك ربت على كتفها وتكلم كمن يواسي طفلاً :

ـ «إني أعرف أنك متعبة ، وأن هذا ما جعلك تتحدثين بهذه الصورة . إنك تحملين عبء ثلاثة رجال ، ولكني سأساعدك . . لن أظل خمولاً هكذا أبداً . .» .

ـ «يوجد فقط طريقة واحدة تستطيع مساعدتي بها» قالت بغباء «وهي أن تأخذني بعيداً من هنا ، وتمنحني حياة جديدة في مكان ما ، مع فرصة للسعادة ، فلا شيء هنا نبقى من أجله» .

ـ «لا شيء» ، قال بهدوء «لا شيء . . . سوى الشرف» .

ونظرت إليه بلهفة حائرة خائرة ، ورأت ، كما لو كانت للمرة الأولى ، كيف أن أهداب جفنيه المقوسين كانت مرصوفة الشعر ذهبية كشعرات سنبلتي قمح ناضجتين وكيف أن رأسه كان يشمخ بكبرياء فوق رقبته العارية ، وكيف أن مظهر الكرامة والأصل الرفيع كان يبدو جلياً في جسده النحيل المنتصب حتى وهو في خرقه البالية .

وقابلت عيناها عينيه ، عيناها صريحتان بتوسلاتهما ، وعيناه بعيدتان كما تبدو بحيرات الجبال تحت السموات الملبدة بالغيوم الرمادية .

ورأت فيهما هزيمة حلمها الهمجي ، هزيمة رغباتها المجنونة .

و اجتاحها الإنهاك وآلام القلب الكسير ، وأسقطت رأسها بين يديها ، وراحت تبكي ، ولم يكن قد رآها تبكي من قبل ، ولم يكن قد فكر من قبل أن نساء بمثل بأسها العتيد يملكون دموعاً ، وغمره فيض من الحنان وتأنيب الضمير . واقترب منها مسرعاً ، وفي لحظة ، أخذها بين ذراعيه وطفق يهزها مواسياً ، يضغط رأسها الأسود على قلبه ويهمس في أذنها : «عزيزتي ! يا عزيزتي ! الشجاعة . . لا ! لا تبكي ! ينبغي ألا تبكي» .

وحين لمسها أحس بتغيرها وهي في قبضته . وتحرك السحر والجنون في

الجسد النحيل الذي كان يسنده ، وسطع الوهج الدافئ الناعم في العينين الخضراوين اللتين كانتا تتطلعان إليه ، وفجأة لم يعد هناك شتاء بارد قارص ، وعاد الربيع ثانية بالنسبة إليه ، ذلك الربيع البلسمي نصف المنسي ، ذو الحفيف والهمسات الخضر ، ربيع الراحة والخمول ، أيام لم يكن هناك يفكر فيه ، حين كانت أماني الشباب دافئة في جسده . وتهاوت بعيداً جميع السنين المريرة التي كانت قد تلت ذلك الربيع ، ورأى أن الشفتين المتطلعتين إلى شفتيه حمراوين ترتجفان ، فقبّلها .

وسمعت سكارلت صوت دوي خفيض غريب يهدر في أذنيها ، كأنما أصداف بحر قربت منهما ، وخلال الهدير سمعت بغموض وجيب قلبها السريع ، وبدا كأن جسدها في جسده ، ولفترة من فترات الخلود ، وقفا منصهرين معاً ، بينما أخذت شفتاه شفتيها بنهم جائع كأنه لن يستطيع شبعاً . وعندما أفلتها فجأة أحست أنها لن تستطيع الوقوف دون سند ، فتمسكت بالسياج كي تسند نفسها ، ثم رفعت نحوه عينين تتألقان بالحب والنصر .

ـ «إنك لتحبني ! إنك لتحبني ، قلها ـ !» .

كانت يداه لا تزالان مستقرتين على كتفيها ، وأحست بهما ترتجفان ، وأحبت رجفتهما ، ومالت نحوه بلهفة ، ولكنه أبعدها عنه ، ونظر إليها بعينين خلتا من كل شرود ، عينين تتعذبان بالمقاومة واليأس .

ـ «لا» قال «لا تقتربي . إذا اقتربت فسأغتصبك الآن هنا» .

فابتسمت ابتسامة حارة مشرقة ، ابتسامة تنم عن نسيان المكان والزمان ، وكل شيء آخر سوى ذكر شفتيه على شفتيها .

وفجأة هزها ، هزها إلى أن تهدل شعرها الأسود حول كتفيها ، هزها كأنه في سخط مجنون عليها وعلى نفسه .

ـ «لن نرتكب هذا» قال «أقول لك إننا لن نرتكب هذا» .

وبدا كأن عنقها ستنقصف إذا هو هزها ثانية . وكان الشعر قد أعماها ، وكانت حركته قد أذهلتها ، فاعتصرت نفسها من بين يديه ، وحملقت في وجهه . وكان على جبينه حبات صغيرة من العرق ، وكانت قبضتاه قد تقوستا على شكل مخالب ، كما لو كانتا متألمتين ، ونظر إليها مباشرة وعيناها الرماديتان نفاذتان :

ـ «إنها غلطتي ـ ليست غلطتك ، ولن تحدث ثانية ، لأني سوف آخذ ميلاني والطفل ونرحل» .

ـ «ترحل؟» صاحت في ألم هائل «آه ، لا!» .

ـ «أجل ، أقسم! هل تعتقدين أني سأمكث هنا بعد هذا الذي حدث؟ في حين أنه يمكن أن يتكرر ثانية! . .» .

ـ «ولكن يا آشلي . . . لن تستطيع الذهاب . . . لماذا يتوجب عليك الذهاب؟ إنك تحبني . . .» .

ـ «تريدينني أن أقولها؟ حسناً . . سأقولها : أحبك» .

وانحنى فوقها بوحشية مفاجئة جعلتها تتراجع نحو السياج . واستطرد يقول :

ـ «أحبك وأحب شجاعتك وعنادك وحرارتك وقساوة قلبك المطلقة ، إلى أي درجة أحبك؟ ، إلى الدرجة التي كانت لدقيقة خلت ستدفعني إلى انتهاك حرمة ضيافة البيت الذي آواني وآوى عائلتي ، وإلى نسيان أحسن زوجة حظي بها إنسان في هذه الحياة ـ الدرجة التي كانت كافية لأن تدفعني إلى اغتصابك هنا في هذا الوحل ، مثل . .» .

وجاهدت ضد خواطر من الأفكار المشوشة ، وفي قلبها ألم بارد ، بارد كأنه قطعة من جليد قد نفذت إليه ، ثم قالت :

ـ «إذاً كنت تشعر نحوي بمثل ذلك الشعور ـ ولم تغتصبني ـ فأنت إذاً لا تحبني» .

ـ «لا أستطيع أبداً أن أجعلك تفهمينني» .

وصمت ، وراحا يتبادلان النظرات ، وفجأة ارتعشت سكارلت ورأت ، كما لو كانت عائدة من رحلة طويلة ، أن الوقت كان شتاء وأن الحقول كانت جرداء قاسية ، وأنها مبتردة جداً ، ورأت أيضاً أن وجهه القديم الشارد ، الوجه الذي كانت تعرفه تمام المعرفة قد عاد ، وأنه كان متجهماً كالشتاء ، مفعماً بالألم وتأنيب الضمير .

وكان يمكن أن تدور على عقبيها وتغادر المكان آنئذ وتنشد البيت ، تلجأ إليه وتخبئ نفسها فيه ، ولكنها كانت تعبة جداً بحيث لم تستطع حراكاً ، حتى الكلام كان عملاً مرهقاً مضنياً لها .

ـ «لم يبق شيء» قالت أخيراً «لم يبق شيء لي ، شيء أحبه ، شيء أكافح من أجله ، لقد ضعت أنت ، وستضيع تارا» .

ونظر إليها هنيهة طويلة ثم انحنى وتناول من الأرض حفنة صغيرة من الطين الأحمر .

ـ «أجل ، لقد بقي شيء» قال ، وعاد إلى شفتيه شبح ابتسامته القديمة ، الابتسامة التي كانت قد سخرت من نفسه ومنها «شيء تحبينه أكثر مني ، مع أنك قد تكونين لا تعرفينه ، أجل ، ما زلت تحتفظين بتارا» .

وأمسك يدها المرتخية ، وضغط الطين الرطب داخلها ، وثنى أصابعها عليه . لم تكن هناك حرارة في يديه الآن ، ولا في يديها . ونظرت إلى التراب الأحمر لحظة ، فلم يعن لها شيئاً . ونظرت إلى آشلي ، وأدركت ، بغموض ، أن فيه طهراً روحيّاً ، طهراً كان ينبغي أن لا يهتك بيديها العاطفيتين ، ولا بأي أيد أخرى .

لن يترك ميلاني حتى ولو قتلته ، ولن يغتصبها هي حتى ولو بقي يتحرك شهوة إليها إلى نهاية أيامه ، وسيكافح كي يبقيها بعيدة عنه ، ولن تستطيع ثانية اختراق ذلك الدرع الحديدية . لقد كانت الكلمات : كرم الضيافة والإخلاص والشرف تعني بالنسبة إليه أكثر مما تعني هي ، سكارلت .

كان الطين بارداً في يدها ، ونظرت إليه ثانية ، وقالت :

ـ «أجل ما زلت أحتفظ بهذا» .

ونظرت إلى آشلي ثانية ، وتساءلت أين ذهب ذلك الفيض من الأحاسيس الذي كان يغمره . كانت تستطيع التفكير ، ولكنها لم تكن تستطيع الشعور ، الشعور نحوه أو نحو تارا أيضاً ، لأنها كانت قد استنزفت من كل عاطفة .

ـ «لست بحاجة إلى الذهاب» قالت «لن أدعكم جميعاً تجوعون لمجرد إلقائي بنفسي على رأسك ، ولن يحدث ذلك ثانية» .

*

32

كانت سكارلت لا تزال تقبض على حفنة الطين الأحمر عندما صعدت الدرجات الأمامية ، وقد تعمدت أن تتجنب المدخل الخلفي ، لأن عيني مامي النفاذتين كانتا ستكتشفان حتماً أن في الأمر شيئاً . ولم تكن سكارلت ترغب في رؤية مامي أو أي شخص آخر ، فهي لم تكن تشعر أن بوسعها احتمال رؤية أي إنسان ، أو التحدث مع أي إنسان بعد اليوم . على أنها لم تكن تحس الآن بشيء من العار أو الخيبة أو المرارة ، وإنما فقط بضعف في الركبتين ، وفراغ عظيم في القلب . وضغطت الطين ضغطاً هائلاً جعله ينعصر في قبضتها المشدودة ، وكانت تردد مرة بعد مرة بصورة آلية : «ما زلت أحتفظ بهذا ، أجل ، ما زلت أحتفظ بهذا» .

ولم يكن هناك أي شيء آخر تحتفظ به ، أي شيء سوى هذه الأرض الحمراء ، هذه الأرض التي كانت قد عزمت ، منذ دقائق قليلة فقط ، على طرحها جانباً كمنديل خَلَق ، بينما هي الآن عزيزة على قلبها ثانية ، حتى إنها تساءلت باكتئاب : أيَ جنون كان قد تملكها فجعلها تشعر نحوها بذلك الفتور المريع !؟

لو أن آشلي استسلم لمشيئتها لكانت قد ارتحلت معه ، وتركت العائلة والأصدقاء دون نظرة إلى الوراء . ولكنها ، وحتى في حالتها المريرة ، عرفت أن مغادرة هذه التلال العزيزة الحمراء والأخاديد الطويلة المغتسلة بالماء ، وأشجار الصنوبر النحيلة السوداء ، أمر سيغري فؤادها ألماً ، وأن أفكارها ستتلفّت جائعة نحو هذه الأرض ، يوم مماتها ولن يستطيع ، حتى آشلي ، أن يملأ فراغ قلبها ، حيث كانت تارا متأصلة الجذور . ما كان أعقل آشلي ، وما أحسن معرفته بها !كان عليه فقط أن يضغط التراب الرطب في يدها كي يعيدها إلى رشدها .

وسمعت فجأة هدير عجلات عربة ، إن مجيء زوار في هذا الوقت بالذات أمر لا يحتمل ، ستسرع إلى غرفتها وتعتذر بوجود صداع في رأسها ، ولكن عندما اقتربت العربة ، أوقفتها الدهشة عن متابعة الهرب . لقد كانت عربة جديدة تتألق بطلائها اللماع ، وكانت عدتها جديدة أيضاً بقطع من النحاس اللألاء هنا وهناك ، إنهم غرباء حتماً ، فليس من بين معارفها من يملك النقود لمثل هذا التجديد الفخم .

ووقفت تتأمل عند الباب ، وتيار الهواء البارد ينفخ تنورتها حول كاحليها المبللين . ثم وقفت العربة أمام البيت وترجل منها جوناس ويلكرسون . وما إن رأت سكارلت ناظرهم القديم يسوق عربة بهذه العدة البديعة ، ويرتدي معطفاً فاخراً كهذا ، حتى تملكتها دهشة بالغة بحيث لم تصدق عينيها للوهلة الأولى . كان ويل قد أخبرها أن جوناس تبدو عليه مظاهر النعمة الغامرة منذ تقلد وظيفته الجديدة مع هيئة التحرير ، وأنه جمع مقداراً كبيراً من المال ، وأنه يختلس إما من الزنوج أو من الحكومة أو يصادر أقطان الناس ، مقسماً أنها أقطان حكومة الحلف . . حتماً إنه لم يصل إلى كل تلك الثروة من طريق شريف في هذه الأوقات الصعبة .

وها هو الآن هنا ، يترجل من عربة فخمة ، ويمد يده ليساعد على النزول امرأة ، ولمحت سكارلت بنظرة سريعة أن الثوب كان زاهي اللون إلى درجة مبتذلة ، ولكن عينيها رغم ذلك تأملتاه بنظرات نهمة ، فلقد مضى زمن طويل منذ أن رأت أثواباً حديثة . . . حسناً ! إذاً ليست أطواق هذا العام واسعة جداً ، هجست سكارلت وهي تنعم النظر بالثوب الصوفي الأحمر . وعندما رأت المعطف المخملي الأسود قالت في نفسها : ما أقصر المعاطف ! وأي قبعة دقيقة الصنع ! لا بد أن تكون القبعات قد بطلت ، لأن هذه الطاقية لم تكن سوى قطعة مخمل حمراء مستوية سخيفة ، تجثم على قمة رأس المرأة ، كفطيرة متيبسة . ولم تكن شرائط الطاقية معقودة تحت ذقن المرأة كما تعقد شرائط القبعات ، وإنما عقدت خلف العنق ، تحت الثياب الكثيفة المتهدلة من خلف الطاقية ، الثنيات التي لم تستطع سكارلت ، إلاّ أن تلاحظ أنها لم تكن تناسب شعر المرأة سواء في اللون أو في الشكل .

وعندما نزلت المرأة إلى الأرض ، وتطلّعت نحو البيت ، رأت سكارلت أن هناك شيئاً أليفاً في الوجه الشبيه بوجه الأرنب ، والمعفر بمسحوق أبيض .

ـ «ماذا ، إنها إيمي سلاتري ! صاحت ، وكانت صيحتها عالية بسبب ما أصابها من دهشة .

ـ «أجل إنني هي» قالت إيمي ودفعت رأسها إلى الوراء بابتسامة متوددة ، ثم اتجهت نحو الدرجات .

إيمي سلاتري ! المهملة القذرة ، ذات الشعر الذي يشبه ألياف الكتان ، التي

عمّدت إيلين ابنها غير الشرعي ، إيمي التي نقلت التيفوئيد إلى إيلين وقتلتها به ! هذه الفتاة العامية النتنة المبهرجة اللباس ، والتي تنتمي إلى فئة البيض الحقيرين ، تصعد الآن درجات تارا ، تشمخ برأسها وتبتسم كأنها تنتسب إلى هذا المكان . وفكرت سكارلت بأمها ، فعاود ارتجافة فراغ عقلها باندفاع شعور سخط فتاك عنيف جداً جعلها ترتجف ارتجافة البرداء .

ـ «ابتعدي عن هذه الدرجات أيتها العاهرة الحقيرة !» صاحت ، ابتعدي عن هذه الأرض ! اخرجي !» .

فتدلى شدق إيمي فجأة ، وتطلعت إلى جوناس الذي تقدم مقطّباً جبينه ، وبذل جهداً كي يحتفظ بوقاره رغم غضبه .

ـ «ينبغي أن لا تتكلمي بمثل هذا الكلام مع زوجتي» .

ـ «زوجتك؟» قالت سكارلت ، وانفجرت في ضحكة جارفة نمّت عن ازدراء «لقد آن أن تجعلها زوجتك . ومن سيعمّد أولادك الآخرين بعد أن قتلت أمي؟» .

ـ «آه !» صاحت إيمي .

وتقهقرت بسرعة نزولاً عن الدرجات ، ولكن جوناس أوقفها عن الركض باتجاه العربة بقبضة قوية على ذراعها .

ـ «لقد أتينا إلى هنا لنقوم بزيارة ـ زيارة صداقة» قال جوناس «ونتحدث في قضية صغيرة مع أصدقائنا القدامى .

ـ «أصدقاء؟» «متى حدث وكنا أصدقاء مع أمثالكما . لقد عاش آل سلاتري على إحساننا الذي ردوه بأن قتلوا أمي ـ وأنت ـ أنت ـ لقد طردك والدي بسبب وليد إيمي غير الشرعي ، وأنت تعرف هذا . أصدقاء؟ ابتعد عن هذا المكان قبل أن أستدعي السيد بنتين والسيد ويلكس» .

تخلصت إيمي من قبضة زوجها مدفوعة بتأثير كلمات سكارلت وهربت إلى العربة ، وتسلقت إلى داخلها بحذاء جلدي براق . مميز ذي مقدمة حمراء لماعة وشراريب حمراء .

وكان جوناس الآن ينتفض من السخط انتفاضة سخط سكارلت ، وبدا وجهه الشاحب أحمر كوجه ديك رومي هائج .

ـ «ما زلت مترفعة قوية النفس ، أليس كذلك؟ حسناً ، إني أعرف كل شيء

عنك ، أعرف أنك لا تملكين حذاء لقدميك ، أعرف أن والدك انقلب إلى رجل أبله» .

ـ «أخرج من هذا المكان» .

ـ «لن تغني على هذا الوتر طويلاً ، إني أعرف أنك محطمة . أعرف أنك لن تستطيعي حتى دفع الضرائب . لقد أتيت هنا لأعرض عليك شراء هذا المكان ـ لأقدم لك عرضاً حسناً عادلاً . إن إيمي متلهفة لأن تعيش هنا ، ولكن والله لن أدفع لك بنساً واحداً ! أنت يا شامخة الأنف ، سوف تكتشف إيرلندية المستنقعات من هو الذي يدير أمور هذا الإقليم عندما تباع مزرعتك في المزاد وتطردين منها بسبب عجزك عن دفع الضرائب ، وأنا الذي سأشتري هذه المزرعة ، بكل ما فيها ، وسأعيش فيها» .

هكذا إذاً ، لقد كان جوناس ويلكرسون هو الذي يريد تارا ـ جوناس وإيمي ، اللذان فكرا بطريقة عوجاء أن يعوضا عن الإهانات السابقة بالعيش في المنزل الذي كانا يزدريان فيه . وضجت جميع أعصاب سكارلت بالبغضاء كما ضجت ذلك اليوم الذي صوبت فيه فوهة المسدس نحو وجه الشمالي الملتحي ، وأطلقت النار عليه ، وتمنت أن لو كانت تحمل ذلك المسدس الآن .

ـ «سأهدم هذا البيت حجراً حجراً وأحرقه وأنثر الملح في كل فدان من أرضه قبل أن أرى أياً منكما يطأ بقدمه هذه العتبة» صاحت ، «أقول لكما اخرجا ! اخرجا !» .

فحدجها جوناس محمر العينين ، وهم بالمزيد من الحديث ، ولكنه ما لبث أن مشى نحو العربة ، وصعد إليها وجلس إزاء زوجته المنتحبة . وفيما انطلقت العربة ، شعرت سكارلت بالرغبة في أن تبصق عليهما ، وبصقت ، وكانت تعرف أن هذا عمل صبياني ، بيد أنها شعرت بتحسن نفسيتها ، وتمنت أن لو أقدمت على ذلك عندما كان بمقدورهما رؤيتها .

ثم تولاها رعب مفاجئ وتلاشى سخطها . يا لله ! سيأتيان ويعيشان هنا ! وليس من شيء تستطيع عمله لمنعهما من شراء تارا ، ليس من شيء يمنعهما من الحجز على كل مرآة وطاولة وسرير ، وعلى أثاث إيلين المصنوع من خشب الماهوكي وخشب الورد ، وكل قطعة منه ثمينة لديها رغم أنه كان قد أتلف بحراب الشماليين الغزاة ـ وكذلك على أواني روبلارد الفضية أيضاً . . لن

أدعهما يفعلان ذلك . . . فكرت سكارلت محتدة ، لا ، لا حتى لو اضطررت إلى حرق البيت . . . لا ، لن تضع إيمي سلاتري قدمها على أي موطئ قدم من أرض البيت كانت أمي قد وطئته من قبل .

وأغلقت الباب واتكأت عليه . وكانت فزعة جداً ، حتى أكثر مما كانت في ذلك اليوم الذي دخل فيه جنود شيرمان إلى البيت . لقد كان أسوأ ما خشيت وقوعه في ذلك اليوم أن يحرق الجنود المنزل على رأسها ، بيد أن هذا كان أسوأ ـ هذان المخلوقان الجاهلان الحقيران يعيشان في هذا البيت ، ويفخران أمام أصدقائهما الرعاع الحقيرين بأنهما طردا آل أوهارا المتغطرسين ، بل قد يجلبان زنوجاً إلى هذه الدار ، يأكلون فيها وينامون ! لقد أخبرها ويل أن جوناس جمع ثروة كبيرة من جراء مساواة نفسه بالزنوج ، لقد كان يؤاكلهم ويزورهم في بيوتهم ويركبهم معه في العربة ويضع ذراعه حول أكتافهم .

وعندما فكرت باحتمال وقوع هذه الإهانة الأخيرة لتارا ، خفق قلبها خفقاناً شديداً ، بحيث لم تستطع التنفس بسهولة ، ثم راحت تحاول تركيز تفكيرها على المشكلة ، تحاول إيجاد مخرج ، ولكنها في كل مرة جمعت فيها شتات أفكارها كانت تهزها موجات جديدة من الخوف والغضب . لا بد أن يكون هناك مخرج من هذه الضائقة ، لا بد أن يكون هناك إنسان ما ، في مكان ما ، يملك نقوداً تستطيع استدانتها منه ، فالنقود لا يمكن أن تنضب تماماً ، وتنقرض من الوجود . لا بد أن يكون هناك مال مع بعض الناس ، ثم تذكرت كلمات آشلي المضحكة : ـ «شخص واحد فقط يملك مالاً ، هو ريت بتلر» .

ريت بتلر . ومشت بسرعة إلى داخل الردهة ، وأغلقت الباب خلفها . لقد كانت بحاجة إلى الوقت من أجل التفكير دون أن يضايقها إنسان . وكانت الفكرة التي خطرت لها الآن بسيطة جداً بحيث استغربت لماذا لم تفكر بها من قبل .

ـ «سأحصل على النقود من ريت ، سأبيعه القرطين اللؤلؤيين ، أو سأستدين النقود منه وأدعه يحتفظ بالقرطين إلى أن أتمكن من إعادة المال إليه» .

وللوهلة الأولى ، كان شعورها بالتسرية عظيماً جداً بحيث أحست بالضعف . ستدفع الضرائب ، وستضحك في وجه جوناس ويلكرسون . ولكن ، تماماً في إثر هذه الفكرة السعيدة ، جاءت الحقيقة التي لا ترحم .

ـ «ليست حاجتي إلى أموال الضرائب مقصورة على هذه السنة ، بل هناك السنة التالية ، وكل سني حياتي ، وإذا أنا أوفيت المطلوب مني هذه المرة فسيرفعون الضرائب في المرة التالية ، وهكذا إلى أن يخرجوني من المزرعة . وإذا أنا أنتجت محصولاً جيداً من القطن فسيفرضون عليه الضرائب حتى لا أحصل على شيء من ثمنه ، أو ربما صادروه مباشرة وقالوا إنه قطن حكومة الحلف . لقد تمكن الشماليون والأوغاد الذين لاذوا بهم مني حيث يشاؤون ، وسأظل طيلة حياتي فزعة منهمكة في سبيل جمع المال أكدح حتى الموت ، فقط لأرى عملي يذهب سدى ، وقطني يسرق . . . إن استدانة ثلاثمائة دولار لدفع الضرائب إن هو إلاّ حل مؤقت ، على أن ما أريده هو الخروج نهائياً من هذا المأزق بصورة ناجحة ـ وهكذا يصير بوسعي أن آوي إلى فراشي ليلاً دون أن أخاف من الذي سيحل بي في اليوم التالي ، وفي الشهر التالي ، وفي السنة التالية .

واستمر عقلها يقرع بثبات ، وتذكرت الليلة الحارة في أتلانتا ، الليلة التي سبقت نهاية الحصار ، عندما جلس ريت في شرفة العمة بيتي ، نصف منحجب في ظلام الصيف ، وأحست ثانية بيده فوق ذراعها عندما قال : «إني أرغب فيك أكثر مما رغبت في أي امرأة أخرى . . ولقد انتظرتك أكثر مما انتظرت أي امرأة أخرى» .

ـ «سأتزوجه» فكرت «وعندئذ لن أقلق من أجل المال أبداً» .

آه ، يا لها من فكرة مباركة أعذب من الأمل بالنعيم ، أن لا تجزع أبداً من أجل المال ، أن تعرف أن تارا آمنة ، وأن العائلة تأكل وتكتسي ، وأن ليس عليها بعد اليوم أن تدق رأسها بالجدران الحجرية !

وأحست بأنها عجوز مسنّة . لقد جففت أحداث بعد الظهر كل مشاعرها : نبأ الضرائب المذهل أولاً . ثم آشلي ، وأخيراً جوناس ويلكرسون وإيمي . لا ، لم تبق عاطفة حية فيها . ولو لم تكن جميع طاقتها على الشعور قد نضبت منها ، لاحتج شيء من داخلها على هذه الخطة التي بدأت تتكوّن في عقلها ، لأنها كانت تبغض ريت أكثر من أي إنسان آخر في الدنيا ، ولكنها لم تكن تستطيع الشعور ، وإنما كانت تستطيع التفكير فقط ، وكانت أفكارها عملية جداً .

ـ «لقد خاطبته بأمور مهينة جداً في تلك الليلة ، عندما غادرنا في الطريق ،

ولكني أستطيع أن أجعله ينساها» فكرت ، وهي ما انفكت واثقة من سلطانها في فتنة الرجال «لن تذوب الزبدة في فمي عندما أكون عنده . سأجعله يفكر أني كنت دائماً أحبه وأني فقط كنت مضطربة مذعورة في تلك الليلة . . . إن الرجال مغرورون كثيراً ، بحيث أنهم يصدقون أي حديث يتملقهم . . . ينبغي أن لا أتركه يتصور بأي ضائقة نحن الآن ، لا ، إلى أن أظفر به . ينبغي أن لا يعرف ! لأنه حتى إذا ما ارتاب بمدى فقرنا المدقع ، فسيعرف أن ما كنت أبغيه هو نقوده لا شخصه . ومع ذلك ، فليس من سبيل أمامه يستطيع أن يعرف به وضعنا ، فحتى العمة بيتي لا تعرف أسوأ ما وصلنا إليه . وبعد أن أتزوجه ، يصبح من واجبه مساعدتنا ، إذ لن يستطيع أن يدع أهل زوجه يتضورون جوعاً» .

زوجته !السيدة ريت بتلر ! وتحرك فيها شعور من الاشمئزاز كان قد دفن عميقاً تحت تفكيرها البارد ، تحرك ببطء ، ثم ما لبث أن سكن . وتذكرت الأحداث المكدرة والمنفرة التي كانت قد عانتها خلال شهر عسلها القصير مع تشارلز ، كما تذكرت يديه الفظتين ، وثقل دمه ، وعواطفه التي لم تستطع إدراكها . . . وويد هاملتون .

- «لن أفكر بهذا الآن . . . سأزعج نفسي بالتفكير به بعد تزوجي به» .

بعد تزوجها به . . . وتذكرت ثانية تلك الليلة ، في شرفة العمة بيتي . تذكرت كيف أنها سألته عما إذا كان يعرض الزواج بها ، وتذكرت كيف أنه ضحك ضحكة نكراء وقال : «عزيزتي ، لست رجل زواج» .

هب أنه ما زال كذلك ، هب أنه رفض التزوج بها ، رغم جميع مفاتنها وأحابيلها؟ هب . . .آه أفكار رهيبة ، هب أنه قد نسي شخصها تماماً ، وكان يطارد امرأة أخرى «إني أرغب فيك أكثر مما رغبت في أي امرأة أخرى . . .» .

وغرزت أظفارها في راحتيها وهي تضغط قبضتيها .

- «إذا كان قد نسيني فسأجعله يتذكرني . سأجعله يرغب فيّ ثانية» .

وإذا كان لا يرغب في الزواج بها ، وإنما لا يزال يشتهيها فقط ، فهناك طريقة لتحصيل المال . وعلى كل حال ، لقد طلب منها مرة أن تكون خليلته .

وفي ظلمة القاعة الخفيفة ، خاضت سكارلت معركة سريعة حاسمة ضد أقوى روابط ثلاث تربط روحها . . . ذكرى إيلين ، وتعاليم دينها ، وحبها

لآشلي . كانت تعرف أن ما كانت تفكر به لا بد أن يكون مذهلاً لأمها حتى وهي في تلك السماء البعيدة ، حيث كانت ترقد حتماً . وكانت تعرف أيضاً أن الزنى إثم بشري فتاك . وكانت تعرف كذلك ، وهي التي تحب آشلي ، أن خطتها ستكون عهراً مزدوجاً . غير أن هذه الأمور جميعها انهارت أمام برودة عقلها العديمة الرحمة ، وأمام دواعي اليأس .

حتى هذا اليوم ذاته ، كانت لا تزال تحتفظ بأملين يشدان من أزرها ، لقد كانت تأمل أن الحياة ، وقد انتهت الحرب ، ستستعيد مظهرها القديم تدريجاً ، كما كانت تأمل أن تعيد عودة آشلي إلى البيت بعض المعاني للحياة . ولكن كلا الأملين ذهبا الآن وجعلها منظر جوناس ويلكرسون وهو في ممشى تارا الأمامي ، تدرك أن الحرب لن تنتهي أبداً ، لا بالنسبة إليها ، ولا بالنسبة إلى كل الجنوب ، وأن القتال الأمر وأفظع عمليات الثأر قد بدأتا الآن ، وأن آشلي سيظل إلى الأبد سجين كلمات أقوى من أي سجن .

لقد خيّب السلام رجاءها ، ولقد خيب آشلي أملها ، الاثنان في اليوم ذاته ، وغمرها إحساس غريب من الانطلاق ، من الحرية ، بحيث أنها قست قلبها في وجه كل الذي كان يربطها بالأيام القديمة وبسكارلت القديمة . لقد اتخذت قرارها ، وشكراً لله ، أنها لم تكن خائفة ، فهي لا تملك شيئاً لتفقده ، وقد قر رأيها وعزمت .

إذا ما استطاعت أن تراود ريت حتى يتزوجها فإن كل شيء سيغدو على ما يرام ، ولكن إذا لم تستطع . . . على كل حال ، ستحصل على النقود ، فالنتيجة هي ذاتها تماماً . وتساءلت لهنيهة قصيرة ، وبفضول غامض ، عما يتوقع عمله من خليلة . هل سيصر ريت على الاحتفاظ بها في أتلانتا كما احتفظ بالمرأة وتلنغ ، على حد قول الناس؟ إذا هو أرغمها على الإقامة في أتلانتا ، فعليه أن يدفع جيداً . . . يدفع جيداً ، ثمناً يعادل ما يستحقه غيابها عن تارا . لقد كانت سكارلت تجهل الجانب الخفي من حياة الرجال ، ولم يكن بوسعها معرفة ما يمكن أن تفرضه هذه المسألة عليها ، وتساءلت عما إذا كانت ستضع طفلاً . إن ذلك سيكون أمراً رهيباً فاضحاً .

ـ «لن أفكر بذلك الآن ، سأفكر به فيما بعد» ودفعت الفكرة المستنكرة إلى مؤخرة عقلها ، لئلا تزلزل تصميمها . ستخبر العائلة الليلة بأنها ستذهب إلى

أتلانتا لتحاول استدانة نقود، لتحاول رهن المزرعة إذا وجدت ذلك ضرورياً. وسيكون هذا كل ما يجب أن يعرفوه، إلى أن يحل اليوم الرهيب، حيث يمكن أن يكتشفوا الحقيقة المغايرة.

وعلى أثر التفكير بتنفيذ الخطة، ارتفع رأسها وارتد كتفها إلى الوراء. إن هذا الأمر لن يكون سهلاً، إنها تعرف ذلك. ففي الماضي، كان ريت هو الذي يطلب إحسانها، وكانت هي التي تمسك بالزمام، بينما ستغدو الآن هي المستجدية، مستجدية في وضع لا يمكن معه إملاء أية شروط.

ـ «ولكني لن أذهب إليه كمستجدية، سأذهب إليه كملكة تمنح الفضل، ولن يعرف شيئاً».

ما كان أغباها عندما فكرت أن بوسعها الذهاب إلى أتلانتا ودفعه إلى أن يعرض الزواج بها، بها هي، بعنقها الهزيل وعينيها الجائعتين كعيني قطة، وفستانها الرث. وإذا كانت قد عجزت عن أن تنتزع منه الاقتراح بالزواج يوم كانت في أوج فتنتها، يوم كانت ترفل بأجمل أثوابها، فكيف يسعها الآن أن تتوقع الحصول على هذا الاقتراح وهي زرية المنظر رثة الثياب؟ وإذا كانت رواية الآنسة بيتي صادقة، فلا بد من أن يكون بحوزته نقود أكثر من أي إنسان آخر في أتلانتا، ولربما ظفر بمنيته من كل النساء الجميلات، الصالحات والطالحات. على كل حال، هجست مكتئبة، إني أنعم بشيء لا تنعم به معظم السيدات الجميلات... عقل مصمم. وإذا ما ظفرت فقط بفستان بديع...

ولم يكن يوجد فستان بديع في تارا، أو فستان لم يكن قد قلب مرتين ورقع.

ـ «تلك هي المسألة» فكرت ونظرت إلى الأرض مغتمة، فرأت سجادة أمها المخملية الخضراء بلون الطحلب، وقد أضحت الآن بالية مستهلكة ممزقة، ملطخة بفعل من نام عليها من الرجال الكثيرين، الذين لا يحصى عددهم. وزاد المنظر في غمها، لأنه جعلها تتحقق من أن تارا كانت رثة كرثاثتها هي. وأغمتها الغرفة المعتمة كلها فاتجهت إلى النافذة ورفعت الستار وفتحت مصراعيها، وسمحت بدخول شعاع الغروب الشتوي الأحمر، ثم أغلقت زجاج النافذة وأسندت رأسها إلى الستائر المخملية، ونظرت إلى الخارج عبر المرعى الموحش، باتجاه أشجار الأرز القائمة المنتصبة في المقبرة. وأحست

بالسجف المخملية الخضراء الطحلبية اللون لينة شائكة تحت وجنتيها، فحكت وجهها بها شاكرة، كما تفعل الهررة، ثم فجأة نظرت إليها.

وبعد دقيقة، كانت تجر طاولة ثقيلة ذات سطح رخامي، راحت دواليبها الصدئة تقاوم صارة، ولكن سكارلت جرتها تحت النافذة، ولملمت تنورتها وصعدت فوقها واقفة على رؤوس أصابعها لتبلغ قضيب السجف الثقيل. كان بعيداً بعض البعد عن متناول يدها، فأخذت تشد بالسجف بنفاد صبر، حتى إن المسامير خرجت من الخشب وهوت السجف والقضيب وكل شيء على الأرض بقرقعة مدوية.

وانفتح باب الردهة كما لو كان بفعل ساحر، وبرز منه وجه مامي الأسود العريض يتجلى في كل غضونه الفضول المتوقد والشك العميق. ونظرت بعين عديمة الرضى إلى سكارلت، التي وقفت على الطاولة باتزان، تنورتها فوق ركبتيها، متأهبة للوثوب إلى الأرض، وقد شع وجهها بنظرة الفرح والنصر، الأمر الذي أثار ريبة مفاجئة في مامي.

ـ «ما شأنك وستائر السيدة إيلين؟» استفسرت.

ـ «ما شأنك والتنصت خارج الأبواب؟» سألت سكارلت، وقفزت إلى الأرض بخفة، ثم لملمت قطعة طويلة من المخمل الثقيل المغبر.

ـ «أنا لا أتنصت عليك، لا خارج الباب ولا داخله». أجابت مامي «لا شأن لك بستائر السيدة إيلين. تنزعين مسامير الأعمدة من الخشب، وتسقطينها على الأرض فوق الأوساخ. لقد كانت السيدة إيلين تهتم كثيراً بستائرها، وأنا لن أتركك تتلفينها بهذه الصورة».

فأدارت سكارلت عينين خضراوين نحو مامي، عينين كانتا محمومتين طرباً، عينين تشبهان الفتاة الغرة المحيا، فتاة الأيام القديمة الطيبة التي كانت مامي تتنهد تحسراً من أعمالها.

ـ «أسرعي إلى العلية يا مامي وأحضري علبة نماذج فساتيني» صاحت سكارلت ودفعت مامي قليلاً «فسأظفر بثوب جديد».

ـ «ليس من سجف السيدة إيلين ستظفرين بثوبك الجديد، إذا كان ذلك ما تفكرين به. لن تتمكني من ذلك طالما أملك نفساً في جسدي».

وللحظة بدا التعبير عن العناد الذي اعتادت مامي أن تصف به سكارلت في

نفسها ، بدا في وجه سيدتها الشابة ، ثم تحول إلى ابتسامة كان من الصعب جداً على مامي أن تقاومها . غير أن هذه الابتسامة لم تخدع المرأة العجوز إذ أدركت أن سكارلت كانت تستعمل الابتسامة فقط لتتمكن منها ، ولكنها في هذه المرة صممت على أن لا تتمكن منها .

- «مامي ، لا تكوني لئيمة ، إني ذاهبة إلى أتلانتا لاستدانة بعض المال ، وعلي أن أرتدي فستاناً جديداً» .

- «لست بحاجة إلى فستان جديد ، فجميع النساء الأخريات لا يملكن فساتين جديدة . إنهن يرتدين أثوابهن القديمة ، ويرتدينها بكبرياء . وليس من عار في أن ترتدي ابنة السيدة إيلين ثياباً رثة إذا ما اضطرت إلى ذلك ، وسيحترمها الجميع كما لو كانت تلبس الموسلين» .

- «أصغي يا مامي ، أنت تعرفين أن العمة بيتي كتبت لنا بأن الآنسة فاني ألسنغ ستتزوج يوم السبت القادم ، وطبعاً سأذهب إلى حفلة الزفاف ، وسأحتاج إلى فستان جديد لأرتديه» .

- «الفستان الذي ترتدينه الآن سيكون رائعاً كفستان زفاف الآنسة فاني نفسه . لقد كتبت الآنسة بيتي تقول إن آل ألسنغ فقراء جداً» .

- «ولكن لا بد لي من فستان جديد . مامي ، أنت تعرفين كم هي حاجتنا إلى المال . إن الضرائب . . .» .

- «أجل ، إني أعرف كل شيء عن الضرائب ، ولكن . . .» .

- «تعرفين؟» .

- «طبعاً ، لقد منحني الله أذنين ، أليس كذلك ، لأسمع بهما؟ خصوصاً عندما لا يكلف السيد ويل نفسه مشقة إغلاق الباب» .

أيوجد شيء لم تسترق مامي سماعه؟ وتعجبت سكارلت كيف يستطيع ذلك الجسد الثقيل الذي يهز الأرض أن يتحرك بخلسة فظيعة كهذه ، وذلك عندما تنوي صاحبته أن تسترق السمع .

- «حسناً ، إذا كنت قد سمعت كل ذلك ، فأظن أنك سمعت أيضاً جوناس ويلكرسون وإمي . . .» .

- «أجل» قالت مامي بعينين تتقدان حزناً .

- «إذاً ، لا تكوني بغلة ، ألا ترين أن علي أن أذهب إلى أتلانتا وأحصل على

مـال من أجل الضـرائب؟ علي أن أحـصل على بعض المال ، علي أن أقـوم بذلك !» .

وضربت قبضة صغيرة على القبضة الأخرى .

ـ «باسم الإلـه يا مـامي ، سيطردوننا جـميـعـاً إلى الطريق ، وعندئذ أين سنذهب؟ هل ستناقشينني حول قضية تافهة عن سجف أمي ، في الوقت الذي تنوي فيه إيمي سلاتري ، تلك الحقيرة التي قتلت إيلين ، أن تنتقل إلى هذا البيت وتنام في السرير الذي كانت تنام فيه والدتي؟» .

وحولت مامي ثقلها من قدم إلى قدم أخرى ، وشعـرت شعوراً غامضاً بالانكسار .

ـ «لا ، أنا لا أريد أن أرى البيض الحقيرين في بيت السيدة إيلين ، ولا أريد أن أرى أياً منا في الطريق ، ولكن . . .» وصـوبت نظرة اتهـام مـفـاجئ إلى سكارلت «ممن تنوين استدانة النقود حتى تحتاجين إلى فستان جديد؟» .

ـ «ذلك» قالت سكارلت مشدوهة «من شأني وحدي» .

فرمقتها مامي بنظرة نفاذة ، تماماً كما كانت تفعل عندما كانت سكارلت صغيرة السن ، وكانت تحاول دون نجاح أن تختلق أعذاراً مقبولة لتعليل ذنوبها . وبدا كأنها كانت تقرأ أفكار سكارلت ، وأطرقت سكارلت عينيها كارهة ، وقد شرع أول إحساس بالإثم ، من خطتها المقررة ، يزحف عليها .

ـ «وهكذا أنت في حـاجة إلى فستان جديد ، مزركش بديع ، لتستديني النقود بوساطته ، إن ذلك لا يبدو عملياً بالنسبة إلي . وأنت لا تقولين من أين ستستدينين النقود» .

ـ «إني لا أقول شيئاً» قـالت سكارلت بسخط «إن هذا من شأني أنا . هل ستعطينني ذلك الستار وتساعدينني في صنع الثوب؟» .

ـ «أجل» قالت مامي برقة مستسلمة بصورة مفاجئة أثارت الشكوك في عقل سكارلت «سأساعدك في صنعه . وإني أرى أنه ينبغي أن نصنع صدره من ساتان بطانة السجف ، ونخيط سروالاً من الستائر الزاهية» .

وناولت السجف المخملية إلى سكارلت ، ووجهها تغمره ابتسامة ماكرة .

ـ «هل السيدة ميلاني ذاهبة معك إلى أتلانتا يا آنسة سكارلت؟» .

ـ «لا» قالت سكارلت بحدة ، وقد بدأت تتبيّن ما سيتبع هذا السؤال . . .

«إني ذاهبة وحدي» .

ـ «ذلك ما تفكرين به» قالت مامي بحزم «ولكني سأذهب معك ، ومع ذلك الفستان الجديد . أجل يا سيدة ، سأرافقك كل خطوة من الطريق» .

ولهنيهة قصيرة ، تخيلت سكارلت رحلتها إلى أتلانتا ، وحوارها مع ريت ، ومراقبة مامي المتيقظة ، فابتسمت ثانية ووضعت يدها على ذراع مامي .

ـ «مامي عزيزتي ، أنت مخلصة لأنك تريدين الذهاب معي ، ومساعدتي ، ولكن كيف يستطيع الجماعة هنا تدبير الأمور بدونك؟ أنت تعرفين أنك تديرين تارا تقريباً !» .

ـ «هاه !» قالت مامي «إن هذا الكلام العذب لا يجدي معي يا آنسة سكارلت ، إني أعرفك مذ لففتك بأول دثار . . . لقد قلت إني سأذهب معك إلى أتلانتا وإني سأذهب . ستتقلب السيدة إيلين في قبرها إن ذهبت وحدك هناك والمدينة تعج بالشماليين والزنوج المحررين ومن هم على شاكلتهم» .

ـ «ولكني سأكون تحت مراقبة العمة بيتي بات» أجابت سكارلت بعصبية .

ـ «إن الآنسة بيتي امرأة طيبة ، وهي تعتقد أنها ترى كل شيء ، ولكن الأمر ليس كذلك» . قالت مامي واستدارت خارجة إلى القاعة ، وقد غمرها المظهر الجليل لأنها أنهت المقابلة . واهتزت الألواح الخشبية عندما راحت تنادي :

ـ «برسي ، أيتها الفتاة ، اصعدي الدرج بسرعة وأحضري من المقصورة علبة سكارلت التي تحتوي نماذج الخياطة ، وحاولي أن تجدي المقص دون أن تستغرقي الليل بطوله في البحث» .

ـ «هذه ورطة معقدة» فكرت سكارلت مكتئبة . «سرعان ما ستتبعني» .

*

بعد أن رفعت أطباق العشاء في تلك الليلة ، نشرت سكارلت ومامي نماذج الأزياء على مائدة غرفة الطعام ، بينما انهمكت سولين وكارين في قص بطانة الستائر الساتانية ، وميلاني في إزالة غبار المخمل بفرشاة شعر نظيفة ، أما جيرالد وويل وآشلي فجلسوا في الغرفة يدخنون ويبتسمون على هذه الضجة النسوية . وقد أحس الجميع بإحساس من الانفعال البهيج ، ظهر كأن منشأه سكارلت ، انفعال لم يستطيعوا فهمه . فلقد كان هناك لون في وجه سكارلت ، وبريق صارم لألاء في عينيها ، كما أنها ضحكت ضحكاً كثيراً . ولقد سرهم ضحكها

لأنه قد مضى شهور منذ سمعوها تضحك ، وخصوصاً جيرالد الذي كانت عيناه أقل شروداً من المعتاد وهما تتبعان شخصها ذي الحفيف يتنقل في الغرفة ، والذي كان عليها راضياً كلما أضحت في متناول يده . وكذلك شقيقتاها فإنهما كانتا مسرورتين كأنهما تحضران من أجل حفلة رقص ، وراحتا تفتقان وتقصان وتلفقان كأن كلاً منهما كانت تعد فستان رقص لنفسها .

كانت سكارلت ذاهبة إلى أتلانتا لتستدين مالاً أو لترهن تارا إذا اقتضت الضرورة ، ولكن كيف سيكون فك الرهن أخيراً؟ قالت سكارلت إنهم يستطيعون بسهولة دفع جميع المال وفك الرهن من قطن السنة القادمة ، ومع ذلك يبقى مال لديهم . ولقد قالت ذلك بصورة جازمة بحيث لم يفكروا بالاستيضاح .

وعندما سألوا عمن سيقرض المال قالت : «الصابرون يغلبون الفضوليين» قالتها بمكر شديد ، بحيث ضحك الجميع وراحوا يستفزونها في موضوع صديقها صاحب الملايين .

ـ «لا بد أن يكون الكابتن ريت بتلر» قالت ميلاني بخبث ، وانفجر الجميع ضاحكين على هذه الحماقة ، فقد كانوا يعرفون شدة بغض سكارلت له ، وكيف أنها لم تفشل يوماً في أن تشير إليه بـ«ذلك الظربان ، ريت بتلر» .

بيد أن سكارلت لم تضحك على هذه الدعابة ، وكذلك كف آشلي عن الضحك فجأة عندما رأى مامي تصوب نظرة مراقبة سريعة نحو سكارلت .

وكانت سكارلت وهي تسمع الضحك تنظر إلى الجميع بازدراء ومرارة مكتومة .

ـ «ليس لديهم أدنى فكرة عما يحدث حقيقة لي ، أو لهم أنفسهم أو للجنوب . إنهم ما انفكوا يفكرون رغم كل الوقائع أنه لن يقع لأي منهم أي حادث مريع حقاً ، لأنهم من آل أوهارا وويلكس وهاملتون . حتى الزنوج كانوا يشعرون بالشعور ذاته . . . آه إنهم جميعاً أغبياء؟ إنهم لن يدركوا الواقع ! بل سيستمرون في التفكير والعيش كما كانوا دائماً ، ولن يغيرهم شيء .

وأخرجت مامي الرجال أخيراً من غرفة الطعام وأغلقت الباب حتى يمكن الشروع بالقياس . وساعد بورك جيرالد في الصعود إلى الطابق العلوي كي يأوي إلى فراشه ، بينما ترك آشلي وويل وحيدين في القاعة الأمامية . وانقضت

برهة وهما صامتان ، وكان ويل يمضغ الطباق ، ولكن وجهه الوادع كان بعيداً عن الاطمئنان .

ـ «هذه الرحلة إلى أتلانتا» قال أخيراً في صوت بطيء «لا تروق لي أبداً» .

فنظر آشلي إليه بسرعة ، ثم تطلع بعيداً دون أن يقول شيئاً ، ولكنه تساءل عما إذا كان ويل يحس بالشك الرهيب ذاته الذي كان يلازمه هو . . . بيد أن ذلك كان محالاً ، فويل لا يعرف الذي حدث في البستان بعد ظهر ذلك اليوم وكيف أن الحادثة أودت بسكارلت إلى اليأس ، ولم يكن بوسع ويل ملاحظة وجه مامي عندما ذكر اسم ريت بتلر ، بالإضافة إلى أن ويل يمكن أن يكون على علم بهذه الأمور ، غير أنه منذ عودته إلى تارا ، تبيّن أنه يبدو كمامي ، يعرف الأمور دون أن يخبر بها ، ويدركها قبل أن تقع . لقد كان في الجو نذير شؤم ، لم يعرف آشلي حقيقته بالضبط ، غير أنه كان عاجزاً عن إنقاذ سكارلت منه . لقد فقد بعد ظهر ذلك اليوم كل حقوقه ، وإلى الأبد ، ولذلك لم يكن بوسعه مساعدتها ، بل لم يكن بوسع أحد أن يساعدها . ولكنه عندما فكر بمامي وبنظرة التصميم الحاسم التي غمرت وجهها ، وهي تقص السجف المخملية ، انتعش فؤاده قليلاً . فمامي ستحرص على سكارلت ، سواء أرغبت سكارلت في ذلك أم لم ترغب .

*



سكارلت وريت

33

عندما نزلت سكارلت ومامي من القطار في أتلانتا بعد ظهر اليوم التالي ، كانت ريح باردة تهب بعنف ، والسماء رمادية قاتمة ، ولم يكن قد أعيد بناء المحطة منذ أن أحرقت المدينة ، ولذلك نزلتا بين الرماد والوحل ، على بعد أمتار قليلة شمالي الحطام الأسود الذي يشير إلى موقع المحطة . وتطلعت سكارلت حولها ، بدافع العادة القديمة ، تبحث عن العم بطرس وعربة العمة بيتي بات ، حيث كانت تلتقي بهما دائماً عند عودتها من تارا إلى أتلانتا في أثناء سني الحرب ، ولكنها ما عتمت أن فطنت إلى نفسها بشهقة استنكار لهذا الشرود الذهني ، فمن الطبيعي ألاّ يكون بطرس في انتظارها الآن ، لأنها لم تكن قد أشعرت العمة بيتي بقدومها ، بالإضافة إلى أنها كانت تعرف أن إحدى رسائل السيدة العجوز كانت قد ذكرت بحزن دامع موت الحصان الهرم الذي كان قد عثر به بطرس في ميكون ليعيدها إلى أتلانتا بعد الاستسلام .

وألقت سكارلت نظرة على الساحة المحفوفرة الممزقة التي تكتنف المحطة ، تأمل رؤية تابع من أتباع إحدى صديقاتها أو معارفها القدامى بعربته ليحملهما إلى بيت العمة بيتي ، ولكنها لم تتبيّن أحداً ، لا أسود ولا أبيض . من المرجح أن لا تكون واحدة من صديقاتها القدامى تملك عربة الآن ، إذا كان ما كتبته العمة بيتي حقيقياً ، لقد كانت الأيام صعبة جداً ، بحيث كان من العسير إطعام وإسكان البشر ، فكيف بالحيوان !؟ وكان معظم صديقات بيتي يتنقلن على أقدامهن هذه الأيام مثلما كانت تفعل هي .

كان هناك عربات قليلة تنقل حمولتها إلى شاحنات البضاعة ، وكان عدد من عربات الركوب الصغيرة ، الملطخة بالوحل ، يقودها غرباء أجلاف المظهر ، ولم يكن يوجد سوى عربتي ركوب عاديتين فقط ، إحداهما مقفلة والثانية مكشوفة تشغلها امرأة أنيقة اللباس وضابط شمالي .

وحمل الفراغ النسبي حول المحطة عقل سكارلت إلى ذلك الصباح من عام ١٨٦٢ عندما كانت قد أتت إلى أتلانتا كأرملة شابة يلفها ثوب الحداد وتثقلها الهموم . وتذكرت كم كان هذا المكان مزدحماً بالشاحنات والعربات وسيارات

الإسعاف ، وكم كان صاخباً بالحوذيين يشتمون ويصفرون ، وبالناس يحيون أصدقاءهم . وتنهدت ألماً على الهرج المرح الذي عم أيام الحرب ، وتنهدت ثانية عندما فكرت بأنها ستمشي كل الطريق إلى بيت العمة بيتي ، ولكنها كانت قوية الأمل في أن تلقى في شارع بيتشتري بعض من كانت تعرفهم فيقدم لهما ركوباً .

وفيما راحت تنظر حولها ، ساق زنجي متوسط السن عربته المغلقة تجاهها ثم انحنى من الصندوق مستوضحاً : «عربة يا سيدة؟ ببنسين أحملكما إلى أي مكان في أتلانتا» .

فقذفته مامي بنظرة حادّة .

ـ «حصان مستأجر !» قالت متجهمة الوجه «هل تعرف أيها الزنجي من نحن؟» .

كانت مامي زنجية ريفية ، ولكنها لم تكن دائماً زنجية ريفية ، ولذلك كانت تعرف أن أياً من السيدات الطاهرات لم تركب مرة ركوباً مستأجراً ـ خصوصاً عربة مغلقة ـ دون أن يكون معها حارس من أفراد أسرتها الذكور ، وحتى وجود امرأة زنجية لم يكن ليرضي التقاليد . ولذلك حدقت في سكارلت عندما رأتها تتطلع بلهفة لركوب العربة .

ـ «هيا من هذا المكان يا آنسة سكارلت ، عربة مستأجرة ، وزنجي محرر ! حسناً ، إنها شركة ممتازة» .

ـ «أنا لست زنجيّاً محرراً» قال الزنجي بحرارة «إني أخص السيدة تالبوت العجوز وها هي عربتها ، وإني أسوقها لأحصل نقوداً لها» .

ـ «أي تالبوت هذه؟» .

ـ «الآنسة سوزانا تالبوت من ملدجفيل . لقد نزحنا إلى هنا بعد أن قتل مارس العجوز» .

ـ «هل تعرفينها يا آنسة سكارلت؟» .

ـ «لا» ، قالت سكارلت بأسف «إني أعرف أناساً قليلين جداً من ملدجفيل» .

ـ «سنمشي إذاً» . قالت مامي بوجه عبوس «تابع طريقك أيها الزنجي» .

وتناولت كيس الخيش الذي كان يحوي ثوب سكارلت المخملي الجديد وطاقيتها ولباس نومها ، ودست تحت إبطها المنديل الأنيق الذي كانت قد صرت أغراضها به ، ثم قادت سكارلت كالنعجة عبر بقعة الرماد الرطب .

وبينما كانتا تسيران على الرصيف الضيق باتجاه بيتشتري ، شعرت سكارلت بالخيبة والأسف الشديدين ، لأن أتلانتا تبدو مقفرة جداً ، تختلف عما كانت عليه . ومرتا إزاء ما كان يدعى بفندق أتلانتا حيث كان ينزل ريت والعم هنري ، ولم يكن قد بقي من ذلك الفندق الفخم سوى جدار خارجي هو جزء من الجدران المفحّمة . وكذلك بدت خطوط سكة الحديد عارية مكشوفة بعد أن زال سور البنايات عن كلا الجانبين ، وبعد أن ذهبت حظيرة السيارات ، وفي مكان ما ، بين هذا الدمار ، كان يثوي بصورة لا يمكن تمييزها ما تبقى لسكارلت من المخزن الذي كان تشارلز قد خلفه لها من الأملاك . وكان العم هنري قد دفع بالنيابة عنها ما ترتب على البناء من ضرائب السنة الماضية ، فكان عليها أن تسدّد المال يوماً ما ، الأمر الذي كان يعني بالنسبة إليها عبئاً آخر يقلقها .

وعندما عطفتا إلى شارع بيتشتري ، ونظرت سكارلت تجاه فايف بوينتس ، صاحت منذهلة ، فعلى الرغم من كل الذي كان فرانك قد أخبرها به من أن المدينة قد أحرقت وسويت بالأرض ، لم تكن قد تصورت قبل الآن معنى الدمار الكامل . لقد كانت المدينة التي أحبتها لا تزال قائمة في تفكيرها ، مليئة بالمخازن المقفلة والبيوت الجميلة ، ولكن شارع بيتشتري ، هذا الذي كانت تنظر إليه ، كان مجرداً تماماً من معالم البناء بحيث بدا لها غريباً جداً كأنها لم تكن قد رأته من قبل .

هذا الشارع الموحل الممتد أمامها الذي كانت قد عبرته ألف مرة خلال الحرب ، والذي قطعته فراراً برأس جبان وساقين متسارعتين من الخوف عندما كانت القنابل تتفجر فوقها في أثناء الحصار ، هذا الشارع الذي رأته آخر مرة في عجلة ومرارة وعذاب يوم التقهقر ، هذا الشارع كان يبدو الآن غريب المظهر كثيراً بحيث شعرت أنها على شفير البكاء .

كانت توجد بقايا مبان قليلة تذكرتها سكارلت : جدران آجرية بلا سقوف ، يشع ضوء الصباح الباهت خلالها ، ونوافذ بلا زجاج ، ومداخن ترتفع وحيدة . وكانت عيناها تميز ، هنا وهناك ، مخزناً مألوفاً لديها ، كان قد نجا جزئياً من القنابل ومن النار ، ثم رمم ، فكان الآجر الأحمر الجديد يتألق مشرقاً وسط سخام الجدران القديمة . ورأت سكارلت على واجهات مخازن جديدة ، وعلى نوافذ مكاتب جديدة ، الأسماء المشجعة لرجال كانت تعرفهم ، بيد أن الأسماء

الغريبة كانت أكثر عدداً ، خصوصاً ما بدا منها على عشرات اليافطات لأطباء ومحامين وتجار قطن غرباء . لقد كانت فيما مضى تعرف عملياً كل إنسان في أتلانتا ، ولذلك كدّرها منظر هذه الأسماء الغريبة الكثيرة . ولكنها ما لبثت أن انتعشت بمنظر المباني الجديدة تقوم على طول الشارع .

وبينما كانت تسير في بيتشتري ، تتبعها مامي المتهادية ، رأت أن رصيفي الشارع كانا مزدحمين بالناس شأنهما في أوج الحرب ، وكان هناك المظهر ذاته من الاندفاع والجلبة يميز المدينة المتجددة التي كانت قد جعلت قلبها يرقص عندما جاءتها منذ زمن طويل ، في زيارتها الأولى للعمة بيتي ، وبدا كأن هناك عربات كثيرة تخوض في الوحل ، تماماً كما كانت كثيرة يومئذ ، سوى أنه لم يكن يوجد الآن عربات إسعاف حلفية ، وكان هناك أيضاً خيول وبغال عديدة مربوطة بحبال طويلة إلى مرابط مسننة أمام مظلات المخازن الخشبية ، تماماً كما كانت عديدة في الماضي . وكانت الوجوه التي رأتها غريبة كاليافطات التي فوق رأسها : ناس جدد ، رجال كثيرون خشان المظهر ، ونساء مبهرجات الثياب . وكانت الشوارع سوداء بالزنوج المتسكعين الذين كانوا يستندون إلى الجدران أو يجلسون على حجارة الرصيف ، يراقبون العربات المارة بفضول الأطفال السذج وهم يشاهدون سيركاً متجولاً .

- «زنوج ريفيون متحررون» . قالت مامي متحدية «إنهم لم يروا عربة خاصة في حياتهم . ويتطلعون بوقاحة أيضاً» .

إنهم وقحون ، وافقت سكارلت ، لأنهم حدقوا بها بطريقة مهينة . ولكنها نسيتهم بفعل الصدمة الناجمة عن رؤيتها المعاطف الزرقاء مجدداً . كانت المدينة ملأى بالجنود الشماليين : على الخيول ، أو سائرون على أقدامهم ، في عربات الجيش ، أو متسكعون في الشوارع ، أو خارجون من الحانات يترنحون .

- «لن آلفهم أبداً» هجست ضاغطة قبضتيها ، أبداً ، ثم خاطبت «أسرعي مامي ، دعينا نخرج من بين هذه الزمرة» .

وتابعتا طريقهما فوق الحجارة المتابعة الزلقة التي كانت تمتد كجسر في وحول شارع ديكاتور ، ثم استمرتا في شارع بيتشتري خلال حشد كان يتضاءل تدريجاً .

وعندما بلغتا كنيسة ويسلي ، حيث كانت سكارلت قد توقفت مرة لتلتقط

أنفاسها في ذلك اليوم من عام ١٨٦٤ حين هرعت لتبحث عن الطبيب ميد، عندما بلغتاها نظرت سكارلت إليها وضحكت بصوت مرتفع، ضحكة رقيقة. وعندئذ نشدت عينا مامي المسنتان السريعتان عينيها بشك واستيضاح، غير أن فضولها تلاشى دون أن يشبع.

كانت سكارلت تتذكر الفزع الذي أصابها في ذلك اليوم، لقد كانت تحبو من الخوف وهي منهارة من الرعب، مذعورة من الشماليين، فزعة من اقتراب مولد بو. وقد تساءلت الآن كيف أمكن أن تكون فزعة إلى تلك الدرجة، فزعة كطفل أرعبه صوت مدو، وأي طفل قد كانته لتفكر أن الشماليين والنار والهزيمة هي أسوأ الأشياء التي يمكن أن تقع لها! أي أمور تافهة كانت هذه أمام موت إيلين وخبل جيرالد، أمام الجوع والبرد والعمل القاصم للظهر وحياة القلق الرهيبة!.. كم ستجد من السهل الآن أن تكون شجاعة أمام جيش غاز، ولكن كم كان من الصعب مواجهة الخطر الذي يهدد تارا! لا، لن تخاف ثانية من أي شيء سوى الفقر.

وصلت عربة مغلقة من شارع بيتشتري، ومشت سكارلت إلى حافة الرصيف بلهفة، لترى إذا كانت تعرف الراكب، لأن بيت العمة بيتي كان لا يزال على بعد عدة قسائم من الأبنية. واشرأبت هي ومامي إلى الأمام عندما حاذتهما العربة. وكادت سكارلت تنادي وقد افتر ثغرها عن ابتسامة مصطنعة، عندما ظهر رأس امرأة من النافذة لهنيهة قصيرة... رأس أحمر كثير البهاء تحت قبعة من الفرو الرائع. فتراجعت سكارلت خطوة إلى الوراء، عندما بدت أمارات المعرفة المتبادلة في كلا الوجهين. كانت المرأة هي بيل وتلنغ، ولذلك مدت سكارلت أنفها بنظرة اشمئزاز قبل أن يختفي الرأس ثانية. لقد كان من الغريب أن يكون وجه بيل هو أول وجه أليف رأته.

ـ «من هي تلك؟» سألت مامي مسترببة «إنها تعرفك ولكنها لم تنحن. إني لم أر أبداً شعراً بهذا اللون طيلة حياتي، حتى ولا في عائلة تارلتون، إنه يبدو... إنه يبدو شعراً مصبوغاً».

ـ «إنها...» قالت سكارلت بإيجاز، وأسرعت في سيرها.

ـ «هل تعرفين امرأة مصبوغة الشعر؟ إني أسألك من تكون».

ـ «إنها داعرة المدينة» قالت سكارلت «وإني أصدقك القول أني لا أعرفها،

لذلك كفي عن الحديث» .

ـ «يا الله !» تنفست مامي وهي تنظر خلف العربة بفضول منفعل . ولم تكن مامي قد رأت امرأة داعرة ممتهنة منذ غادرت سافانا مع إيلين ، قبل أكثر من عشرين سنة ، وتمنت من كل قلبها لو أنها تأملت بيل بانتباه أكثر .

ـ «إنها تبدو أنيقة الثياب ، كما أنها تمتلك عربة وحوذياً» دمدمت «أنا لا أعرف كيف يغفر الله فيدع الساقطات ينجحن مثل هذا النجاح ، بينما نحن الناس الطيبين ، جائعون ، ومعظمنا حفاة الأقدام» .

أرادت سكارلت أن تشعر بشعور رفيع فاضل تجاه بيل ، ولكنها لم تستطع ذلك ، وهجست بأنها إذا ما نجحت في إغواء ريت فإنها يمكن أن تكون على المستوى ذاته مع بيل ، يعيلها الرجل نفسه . ورغم أنها لم تأسف على قرارها أبداً ، إلا أن المسألة سحقتها عندما وضحت في ضوئها الحقيقي : «لن أفكر بها الآن» ثم حثت الخطى .

ومرتا إزاء البقعة التي كان ينتصب فيها بيت آل ميد ، وكان قد بقي منه فقط درجتان حجريتان وممر يؤدي إلى لا شيء . أما المكان الذي كان يقوم فيه بيت آل ويتنغ ، فكان أرضاً جرداء . وكان بيت آل ألسنغ الآجري لا يزال قائماً بسقف جديد وطابق ثان جديد .

ثم بدا للعيان سطحُ منزل العمة بيتي المبلط حديثاً ، بجدرانه الآجرية الحمراء . وخفق قلب سكارلت عند رؤيته . ما أعظم رحمة الله عندما لم يدعه يستوي مع الأرض بحيث يصعب ترميمه ! واتفق أن كان العم بطرس خارجاً من الساحة الأمامية ، وعندما رأى سكارلت ومامي تسيران على الطريق انفرج وجهه الأسود عن ابتسامة عريضة .

إن بوسعي تقبيل الزنجي الأحمق الهرم ، إذ إني سعيدة جداً برؤيته ، هجست سكارلت بهناءة ، ثم نادت : «أسرع وهيىء أملاح الإغماء لعمتي يا بطرس ! أنا هي حقاً !» .

*

على العشاء في تلك الليلة ، وفي ضوء الشمعة الأصفر الذي كان ينير غرفة الطعام ، سألت العمة بيتي سكارلت عن وضعها المالي وهي تأمل ، ضد منطق الأمل ، أن يكون بوسع عائلة تشارلز إقراضها المال الذي تحتاج إليه . ولم تكن

أسئلة سكارلت محنكة ، ولكن بيتي ، وقد غمرها الفرح بوجود من تتحدث إليه من أفراد عائلتها ، لم تلاحظ الطريقة الساذجة التي صيغت بها الأسئلة ، بل غرقت في الدموع ، وهي تسرد تفاصيل مصائبها . كانت لا تعرف أين ذهبت مزارعها وأموالها وعقاراتها في المدينة ، وكل ما كانت تعرفه أن كل شيء قد زال ، أو على الأقل ، هذا ما كان قد أخبرها به شقيقها هنري ، الذي لم يكن بوسعه دفع الضرائب عن ممتلكاتها . لقد ذهب كل شيء إلاّ البيت الذي كانت تعيش فيه ، ولم تتوقف بيتي ، إن البيت لم يكن بيتها ، وإنما كان ملكية مشتركة بين ميلاني وسكارلت ، بل أضافت قائلة إن شقيقها هنري بالكاد استطاع دفع الضرائب عن هذا البيت وإنه يمنحها مبلغاً صغيراً في كل شهر لتعيش منه . ومع أنه كان من المهين جداً أن تأخذ مالاً منه ، فقد كانت مضطرة إلى قبوله .

ـ «يقول الأخ هنري إنه لا يعرف كيف سيرتّب ماليته بهذا العبء الذي يحمله ، وارتفاع الضرائب هذا ، ولكن طبعاً من المحتمل أنه يكذب ، وأنه يملك مقادير كبيرة من المال ، وهو فقط لا يريد منحي الكثير منها» .

أدركت سكارلت أن العم هنري لم يكن يكذب ، فالرسائل القليلة التي كانت قد استلمتها منه تبين ذلك . لقد كان المحامي العجوز يكافح ببسالة لينقذ البيت والعقار الواقع في أسفل المدينة ، حيث كان يقوم مخزن الذخيرة ، ليظل في حوزة ويد سكارلت شيء سالم من الدمار . وكانت سكارلت تعرف أن العم هنري كان يتحمل هذه الضرائب نيابة عنها كتضحية كبيرة من جانبه .

ـ «طبعاً ، إنه لا يملك مالاً» فكرت سكارلت بحزن «حسناً ، لأشطبه والعمة بيتي من قائمتي ، والآن لم يبق أحد سوى ريت . . . سآخذ منه ، وعلي أن أفعلها ، ولكن ينبغي أن لا أفكر بذلك الآن . . . ينبغي أن أقودها للحديث عن ريت ، وبذلك أستطيع ، وبصورة منطقية ، أن أقترح عليها دعوته لزيارتنا غداً» .

وابتسمت وضغطت راحتي بيتي السمينتين بين يديها :

ـ «عمتي العزيزة» قالت «دعينا نترك الحديث عن الأمور المكدّرة كالمال ، دعينا نتناساها ونتحدث عن أمور أكثر بهجة . ينبغي أن تخبريني كل شيء عن أصدقائنا القدامى . كيف هي السيدة ميريويذر ، ومايبيل؟ سمعت أن كريول الصغير ، زوج مايبيل ، عاد إلى البيت سالماً . كيف حال آل ألسنغ ، والدكتور ميد ، والسيدة ميد؟» .

فأشرقت بيتي بات سروراً بتغيير الموضوع ، وتوقف وجهها الشبيه بوجه الطفل عن الارتعاش بالدموع ، ثم راحت تقدم تقارير مفصلة عن الجيران القدامى ، عما كانوا يفعلون ويلبسون ويأكلون ويفكرون . وتحدثت بنبرات الذعر كيف أن السيدة ميريويذر ومايبيل كانتا ، قبل عودة رينيه بيكارد من الحرب ، تعيلان أنفسهما بصنع الفطائر وبيعها للجنود الشماليين ، تصوري ذلك ! وأحياناً كان يقف عشرون شمالياً في الساحة الخلفية لبيت آل ميريويذر ينتظرون انتهاء خبز الفطائر . أما الآن ، وقد عاد رينيه ، فإنه يقود كل يوم عربة قديمة إلى معسكرات الشماليين ، ويبيع الكعك والفطائر والبسكويت للجنود . وقد قالت السيدة ميريويذر إنها عندما تجمع نقوداً أكثر بقليل ، ستفتح فرناً في الحي التجاري من المدينة . ولم تكن بيتي ترغب في انتقادها ولكنها مع كل ذلك قالت إنها نفسها تفضل الموت جوعاً على أن تمارس مثل هذه التجارة مع الشماليين . وألمحت إلى أنها تنظر نظرة احتقار إلى كل جندي تقابله ، وأنها تعبر إلى جانب الشارع الآخر بأشد ما تستطيع من أسلوب مهين ، مع أن ذلك ، كما قالت ، كان من غير المناسب في الطقس الماطر . واستنتجت سكارلت أن أي تضحية ، حتى لو كانت إغراق الأحذية بالوحل ، لا يمكن أن تعتبر كبيرة في اعتبار الآنسة بيتي في سبيل إظهارها الإخلاص للحلف .

أما السيدة ميد وزوجها الدكتور ، فقد خسرا بيتهما عندما ضرب الشماليون المدينة بالقنابل ، ولم يكونا يملكان المال لإعادة بنائه ، وذلك بعد أن توفي دارسي وفيل . لقد قالت السيدة ميد إنها لا تريد منزلاً أبداً ، لأنه ما قيمة المنزل إن لم يكن فيه أولاد وأحفاد؟ لقد كانا يشعران بالعزلة تماماً ، ولذلك ذهبا ليعيشا مع آل ألسنغ ، الذين كانوا قد أعادوا بناء الجزء المتضرر من بيتهم . وكان السيد والسيدة ويتنغ يقيمان في إحدى غرفه أيضاً ، كما أن السيدة بونل كانت تتحدث عن الانتقال إليه ، إذا ما أسعدها الحظ بتأجير بيتها إلى أحد الضباط الشماليين وعائلته .

- «ولكن كيف يحشر الجميع أنفسهم داخل بيت واحد ، فهناك السيدة ألسنغ وفاني وهيو . . .» صاحت سكارلت .

- «إن السيدة ألسنغ وفاني تنامان في الردهة ، وهيو في العلية» أوضحت بيتي ، التي كانت تعرف التنظيمات الداخلية لجميع أصدقائها . «عزيزتي ، إني

أمقت أن أنبئك بهذا ولكن . . . السيدة ألسنغ تدعوهم ضيوفاً نزلاء ولكن» ، وأخفضت بيتي صوتها «إنهم في الحقيقة لا شيء سوى نزلاء بالأجرة وإن السيدة ألسنغ تدبر منزلاً للإيجار ، أليس ذلك مريعاً !» .

ـ «أعتقد أنه مذهل» قالت سكارلت «إني أتمنى لو كان لدينا في تارا نزلاء بالأجرة ، خلال السنة الماضية ، بدلاً من النزلاء بالمجّان ، إذاً لما وصلنا إلى هذه الحالة من الفقر الآن» .

ـ «سكارلت ، كيف يسعك التلفظ بكلام كهذا؟ تصوري أن العزيز هيو يضطر إلى بيع الحطب متجولاً بعد أن كان قد وطد العزم على أن يكون محامياً شهيراً ، إني أكاد أبكي من هذه المهانة التي انحدر إليها أبناؤنا !» .

وفكرت سكارلت بصفوف القطن تحت الشمس النحاسية المتوهجة في تارا ، وكيف كان ظهرها يتألم وهي تنحني فوق النبات ، وتذكرت ملمس قبضة المحراث بين راحتيها المنفطتين العديمتي الخبرة ، وشعرت أن هيو ألسنغ لا يستحق أن يتفرد بعطف خاص ، ما أسذج بيتي العجوز الحمقاء ، وما أشد طمأنينتها ، على الرغم من كل الدمار الذي يحيط بها .

ـ «إن لم يكن يحب البيع المتجول ، فلماذا لا يشتغل بالمحاماة؟ أولا يوجد مجال لممارسة المرافعات القانونية في أتلانتا؟» .

ـ «آه يا عزيزتي ، بلى ! يوجد مجال كبير لممارسة المحاماة ، فالواقع أن كل إنسان يقاضي الآخر في هذه الأيام ، ذلك لأن جميع الأبنية قد احترقت ، ومخططات الحدود قد زالت ، ولا يعرف أحد أين تبدأ أرضه وأين تنتهي . بيد أنه لن يسعك الحصول على نقود مقابل المرافعة ، فلا أحد يملك مالاً . ولذا لزم هيو مهنة البيع المتجول . . . آه كدت أنسى ، هل كتبت لك؟ ستتزوج فاني ألسنغ ليلة الغد ، وطبعاً ينبغي حضورك . ستكون السيدة ألسنغ سعيدة جداً بزيارتك عندما تعرف أنك في المدينة . إني آمل أن يكون لديك ثوب آخر سوى ذاك ، وهذا لا يعني أنه ليس ثوباً جميلاً جداً يا عزيزتي ، ولكن . . . حسناً ، إنه يبدو بالياً نوعاً ما . . . آه هل لديك ثوب جميل؟ إني سعيدة جداً لأنه سيكون العرس الحقيقي الأول الذي سنقيمه في أتلانتا منذ قبيل سقوط المدينة . وسيتبع ذلك كعك وخمر ورقص ، مع أني لا أعرف كيف يستطيع آل ألسنغ تأمين ذلك ، فهم فقراء جداً !» .

ـ «من ستتزوج» فاني؟ لقد فكرت أنه بعد مقتل دلاس ماك لور في جينسبرغ . . .» .

ـ «عزيزتي ، ينبغي أن لا تنتقدي فاني ، فليس من أحد مخلص للموتى كإخلاصك لشارلي المسكين . دعيني أتذكر ، ما اسمه؟ أنا لا أستطيع تذكر الأسماء أبداً . . . توم ! . . لقد كنت أعرف أمه جيداً . . كنا قد ذهبنا معاً إلى معهد الإناث في لاغرانج . . . كانت من آل تاملنسون من لاغرانج ، وكانت أمها . . . دعيني أتذكر . . . بركنز؟ باركنز؟ باركنسن ! تلك هي . . عائلة طيبة جداً من سبارطة . عائلة طيبة جداً ، ولكن المشكلة . . لا قيمة لذلك أبداً . . . حسناً ، إني أعرف أنه ينبغي أن لا أقولها . . . ولكن لا أدري كيف تستطيع فاني إقناع نفسها بالتزوج منه !» .

ـ «هل يشرب الخمر أو . . .» .

ـ «لا يا عزيزتي ! إن أخلاقه ممتازة ، ولكنه جرح في أسفل جسده بقنبلة متفجرة أضرت بساقيه . . . وجعلتهما ، حسناً إني أمقت استعمال الكلمة ، ولكنها جعلته وزوازاً(*) فأضفت عليه مظهراً وضيعاً جداً في أثناء المشي . . . إن الأمر لا يبدو حسناً جداً ، إني لا أدري لماذا ستتزوجه» .

ـ «على البنات أن يتزوجن على أي حال» .

ـ «ليس عليهن ذلك ، حقاً» قالت بيتي متكدرة «إنني لم أضطر إلى ذلك أبداً» .

ـ «لا يا عزيزتي ، أنا لم أقصدك بقولي ! فالجميع يعرفون كم كنت محبوبة وكم ما زلت إلى الآن . كيف لا ، والقاضي كارلتون العجوز اعتاد أن يسترق النظر إليك حتى إنني . . .» .

ـ «ها سكارلت ، اسكتي ! ذلك العجوز الأحمق !» قهقهت بيتي ، وقد استعادت مزاجها الطيب «ولكن علاوة على ذلك ، فقد كانت فاني محبوبة جداً بحيث كان بوسعها الظفر بزوج أفضل . وأنا لا أعتقد أنها تحب توم هذا ، أنا لا أصدق أنها تجاوزت فترة حداد دلاس ماك لور الذي قتل ، ولكنها ليست مثلك يا عزيزتي . لقد بقيت أمينة جداً لشارلي العزيز ، مع أنه كان بوسعك

(*) الذي يمشي مقارباً للخطو مع تحريك الجسد .

الزواج عشرات المرات . لقد كنا ، ميلي وأنا ، نردد ذاماً كم أنك مخلصة لذكره ، بينما كان الجميع يقولون إنك مغناج ودون قلب» .

تغاضت سكارلت عن هذه الثقة غير اللبقة ، وقادت بيتي بمهارة من الحديث عن صديق إلى صديق آخر ، ولكنها كانت في أثناء كل ذلك في صبر محموم لتوصل الحديث إلى ريت . لم يكن من الملائم لها أبداً أن تسأل عنه مباشرة حال وصولها ، إذ كان من الممكن أن يقود ذلك عقل العجوز إلى التفكير بقضايا كان من الأفضل عدم طرقها ، سيحين الوقت الكافي لإثارة شكوك بيتي إذا رفض ريت التزوج بها .

وتابعت العمة بيتي ثرثرتها سعيدة ، وقد سرها كالطفل وجود من يستمع إليها ، قالت إن الأمور في أتلانتا كانت في حالة رهيبة ، بفعل تصرفات الجمهوريين الشائنة ، ولم يكن يوجد نهاية لأعمالهم ، وأن أسوأ الأمور كانت الطريقة التي يُشربون فيها رؤوس الزنوج الفقراء بالأفكار .

- «عزيزتي ، إنهم يريدون أن يسمحوا للزنوج بالتصويت ! هل سمعت في حياتك أمراً أسوأ من هذا؟ مع أني - لا أدري - لقد فطنت لذلك الآن ، مع أني أرى أن العم بطرس يفهم أكثر من أي جمهوري رأيته ، ويتمتع بأخلاق أرفع بكثير من أي جمهوري . ولكن طبعاً ، إن العم بطرس أرقى تنشئة بكثير من أن يرغب في التصويت . غير أن الفكرة ، بحد ذاتها ، أثارت الزنوج ، حتى إنهم أفسدوا تماماً ، وأضحى بعضهم في منتهى القحة . إن حياتك ليست آمنة في الشوارع بعد الغروب ، وحتى في وضح النهار إذ يقدمون على دفع النساء عن الرصيف إلى الوحل . وإذا ما تجرأ أحد الرجال الأفاضل على الاحتجاج ، فإنهم يقبضون عليه . . . عزيزتي ، هل أخبرتك أن الكابتن ريت بتلر في السجن؟» .

- «ريت بتلر؟» .

- ورغم هذا النبإ المباغت ، حمدت سكارلت الله لأن العمة بيتي وفرت عليها ضرورة سوق اسمه إلى الحديث بنفسها .

- «أجل ، حقاً !» وخضب السرور وجنتي بيتي واعتدلت في جلستها «إنه في السجن الآن ، في هذه الدقيقة ، لأنه قتل زنجياً ، وقد يعدمونه ! تصوري أن الكابتن بتلر يعدم !» .

وللوهلة الأولى ، خرج النفس من رئتي سكارلت بزفرة سقيمة ، ولم يسعها إلاّ التحديق في السيدة العجوز البدينة التي كانت صريحة البهجة للصدى الذي لاقاه خبرها .

ـ «لم يثبتوا الجرم عليه حتى الآن ، ولكن شخصاً قتل هذا الزنجي الذي كان قد أهان امرأة بيضاء . والشماليون ثائرون جداً ، لأن عدداً كبيراً من الزنوج المتطاولين قد قتل مؤخراً . إنهم لن يستطيعوا إثبات الجرم على الكابتن بتلر ، ولكنهم يريدون أن يضربوا مثلاً على عقابهم الصارم بأحد الناس . هذا ما يقوله الدكتور ميد . ويقول الدكتور ميد أيضاً إنهم إذا ما أعدموه ، فسيكون ذلك أول عمل شريف قام به الشماليون . ولكن عندئذ . . . لست أدري . . . وليفكر الإنسان كيف أن الكابتن بتلر كان هنا منذ أسبوع ، وجلب لي هدية : أجمل قبرة رأتها عيناك . كما أنه سألني عنك وقال إنه يخشى أن يكون قد أساء إليك في أثناء الحصار ، وأنك لن تسامحيه أبداً» .

ـ «كم سيبقى في السجن؟» .

ـ «لا أحد يعرف ، ربما إلى أن يعدموه . ولكن قد لا يستطيعون في النهاية أن يثبتوا جريمة القتل عليه . على كل حال ، يبدو أن الشماليين لا يهمهم أكان الناس مجرمين أم أبرياء طالما أن بوسعهم إعدام أحد الرجال . إنهم ثائرون جداً» . وخفضت صوتها إلى درجة السرية – «أما فيما يتعلق بجماعة الكوكلوكس كلان ، هل يوجد منهم في مقاطعتكم؟ عزيزتي ، إني واثقة أنه لا بد من وجودهم هناك ، وإنما آشلي لا يخبركن أنتن البنات بشيء عن هذه الجماعة ، فليس من المفروض أن يعلن رجال الكوكلوكس كلان عن وجودهم . إنهم يتجولون في الليل ، متزيين كأشباح ، ويزورون الشماليين الانتهازيين الذين يسرقون المال ، والزنوج المغرورين المتعجرفين . وهم أحياناً يكتفون بإخافتهم وإنذارهم بمغادرة أتلانتا ، ولكن عندما لا يحسن هؤلاء سلوكهم ، يجلدونهم» . وهمست بيتي «يقتلونهم أحياناً ويتركونهم حيث يمكن اكتشاف جثتهم بسهولة ، وبطاقة الكوكلوكس كلان عليهم . . . والشماليون حانقون جداً من هذا العمل ، ويريدون أن يضربوا عبرة للناس بأحد الناس . . . على أن هيو ألسنغ أخبرني أنه لا يعتقد بأنهم سيعدمون الكابتن بتلر ، لأنهم يعتقدون أنه يعرف أين توجد الأموال التي كانت للحلف . غير أنه لا يريد أن يصرح بذلك ، وهم

يحاولون إرغامه على التصريح» .

ـ «الأموال؟» .

ـ «ألم تعرفي؟ ألم أكتب إليك؟ عزيزتي ، لقد كنت مطمورة في تارا ، أليس كذلك؟ لقد لغطت المدينة بذلك ، عندما عاد الكابتن بتلر إليها بحصان جميل وبعربة ، وجيوب مليئة بالنقود ، بينما كنا جميعاً لا نعرف من أين نأتي بوجبة طعامنا التالية . ولقد أثار حنق الجميع أن يملك مضارب قديم ، كان دائماً يتلفظ بعبارات سيئة عن الحلف ، مثل هذه الأموال الوفيرة بينما نحن جميعاً في غاية الفقر ، وتميز الجميع غيظاً لأن يعرفوا كيف استطاع أن يوفر أمواله ، بيد أن أحداً لم يكن يملك الشجاعة ليسأله . . . إلاّ أنا ، وما كان منه إلاّ أن ضحك وقال : «بطريقة غير شريفة ، يمكنك أن تثقي بذلك» ، وأنت تعرفين ما أصعب أن يحصل المرء على شيء معقول منه» .

ـ «ولكن بالطبع ، لقد جمع ثروته من التهريب . .» .

ـ «بالطبع جمع جزءاً منها بهذه الطريقة ، يا جميلتي ، ولكن ذلك الجزء ليس نقطة في دلو بالنسبة إلى ما يمتلكه ذلك الرجل حقيقة . ويعتقد الجميع ، والشماليون من جملتهم ، أنه يمتلك ملايين من الدولارات الذهبية تخص حكومة الحلف ، مخبأة في مكان ما» .

ـ «ملايين . . . ذهباً؟» .

ـ «إذاً ، يا حلوتي ، إلى أين ذهبت جميع ثروة الحلف الذهبية؟ لقد ظفر بها بعض الناس ، ولا بد أن يكون الكابتن بتلر أحد هؤلاء الناس . لقد كان الشماليون يعتقدون أن الرئيس ديفس حملها معه عندما غادر ريتشموند ، ولكنهم ، عندما أسروا الرجل التعس لم يكن في حوزته بنس واحد . كما أنه لم يكن يوجد أبداً أي نقود في خزينة الحلف عندما انتهت الحرب ، والجميع يعتقدون أن بعض المهربين ظفروا بالمال ، وأنهم يلوذون بالصمت فيما يتعلق به» .

ـ «ملايين . . . ذهباً ! ولكن كيف . . .» .

ـ «ألم يأخذ الكابتن بتلر ألوفاً من بالات القطن إلى إنكلترا وناسو ليبيعها لحساب حكومة الحلف؟» سألت بيتي بشعور من الظفر «ليس فقط قطنه هو ، بل أيضاً أقطان الحكومة؟ وأنت تعرفين أي ثمن كان يجنيه القطن في إنكلترا

في أثناء الحرب! أي ثمن كنت ترغبين في طلبه! وكان بتلر وكيلاً مطلق الصلاحية، يمثل الحكومة، وكان من المفروض أن يبيع القطن ويشتري مدافع بثمنه، ثم يهرب المدافع إلينا. حسناً، وعندما أحكم الحصار تماماً، لم يعد بوسعه تهريب المدافع، ولا يمكن أن يكون قد صرف جزءاً من مائة من ثمن القطن على شرائها في أي حال من الأحوال. ولذلك فقد بقي هناك ملايين الدولارات في مصارف إنكلترا، وضعها الكابتن بتلر والمهربون الآخرون بانتظار فك الحصار. وليس بوسعك أن تخبريني بأنهم وضعوا المال في المصارف باسم الحلف. لقد وضعوه بأسمائهم هم، وهو ما زال هناك... لقد كان الجميع يتحدثون عنه منذ الاستسلام، وينتقدون المهربين نقداً مرّاً. وعندما قبض الشماليون على الكابتن بتلر، بتهمة قتل هذا الزنجي، كان لا بد أن سمعوا بهذه الشائعة، لأنهم أصروا عليه بأن يخبرهم بمكان وجود الأموال. وأنت تعرفين أن جميع أموال الحلف تخص الشماليين الآن... على الأقل، هكذا يعتقد الشماليون، ولكن الكابتن بتلر يقول إنه لا يعرف عن المال شيئاً... ويقول الدكتور ميد إن عليهم أن يعدموه مهما كان الأمر، فالإعدام فقط هو العقاب العادل للص وانتهازي... عزيزتي، إنك لا تبدين بحالتك الطبيعية أبداً، هل تحسين بالدوار؟ هل أزعجتك بهذا الحديث؟ إني أعرف أنه كان في الماضي أحد المعجبين بك، ولكني اعتقدت أنكما تخاصمتما منذ زمن. من ناحيتي، أنا لم أمل إليه أبداً، فهو محتال كبير...».

- «إنه ليس صديقي» قالت سكارلت بجهد «لقد تشاجرت وإياه في أثناء الحصار، بعد أن رحلت إلى ميكون... أين... أين هو الآن؟».

- «في دار الإطفائية، هناك عند الساحة العامة».

- «في دار الإطفائية؟».

- «أجل، إنه في دار الإطفائية، فالشماليون يستعملونها كسجن حربي الآن».

كانت سكارلت تسمع الصوت الهادئ المرح يتابع حديثه، ولكنها لم تكن تسمع الكلمات. لقد كان يشغل عقلها فكرتان فقط: الأولى أن ريت كان يملك مالاً حتى أكثر مما أملت هي، والثانية أنه كان في السجن. إن حقيقة كونه في السجن واحتمال إعدامه غيرت وجه القضية إلى حد ما، وجعلتها في

الواقع تبدو أكثر إشراقاً بقليل . وكان يخامر سكارلت شعور ضئيل جداً تجاه إعدام ريت . لقد كانت حاجتها إلى المال ملحة جداً ، مثبطة جداً لآمالها ، بحيث لم يكن بوسعها أن تقلق على مصيره النهائي ، فضلاً عن أنها كانت تشارك الدكتور ميد جزئياً في رأيه أن الإعدام كان قصاصاً عادلاً له ، إذ إن كل رجل يرضى بأن يترك امرأة تترنح بين جيشين في منتصف الليل ، لينطلق ويحارب في سبيل قضية كانت قد خسرت وحسب ، يستحق الإعدام . . . وإذا استطاعت ، بطريقة ما ، أن تنجح في التزوج به في أثناء وجوده في السجن ، فستؤول كل هذه الملايين إليها ، وإليها وحدها إذا أعدم . وإذا لم يكن الزواج ممكناً فربما استطاعت الحصول على قرض منه ، وذلك بأن تعده بأن تتزوج منه عندما يطلق سراحه ، أو أن تعده . . . ها ! أن تعده بأي شيء ! وإذا ما أعدموه ، فلن يأتي يوم إيفاء الدين .

وللحظات ، التهب خيالها لفكرة صيرورتها أرملة من طريق تدخل الحكومة الشمالية الرحيم ! ملايين ذهباً ! إنها تستطيع ترميم تارا أو استئجار أيد عاملة وزرع أميال وأميال من القطن ، ويكون بمقدورها التمتع بأثواب جميلة وبكل ما تريده من طعام ، هي وسولين وكارين أيضاً . ويستطيع ويد أن يظفر بطعام مغذ يسمن وجنتيه النحيلتين وأن ينعم بملابس دافئة ومربية ، وأن يذهب إلى الجامعة لاحقاً . . . لا أن يشب حافي القدمين ، جاهلاً . ، كما يكون بوسع طبيب ماهر أن يعتني بجيرالد . وأما بالنسبة إلى آشلي ـ فماذا لم تستطع هي عمله من أجل آشلي !

وانقطع حديث العمة بيتي فجأة عندما قالت مستوضحة : «نعم مامي؟» . ورأت سكارلت التي استيقظت من أحلامها ، رأت مامي تقف في البوابة ، يداها تحت مريلتها ، وفي عينيها نظرة يقظة نفاذة . وتساءلت سكارلت كم مضى على مامي وهي تقف هناك ، وكم سمعت ولاحظت . ربما كل شيء ، إذا حكمنا من البريق الذي في عينيها المسنتين :

ـ «إن الآنسة سكارلت تبدو تعبة ، أتصور أن من الأفضل أن تأوي إلى سريرها» .

ـ «إني تعبة» قالت سكارلت ذلك ، ونهضت ، وقابلت عيناها عيني مامي بنظرة حائرة كنظرة طفل «وأخشى أيضاً أن أكون قد أصبت بالزكام . عمتي

بيتي ، هل يضايقك إن أنا لازمت الفراش غداً ولم أذهب معك للزيارة؟ إن بوسعي الذهاب للزيارات في أي وقت ، بينما أنا متلهفة جداً للذهاب إلى عرس فاني ليلة الغد . وإذا ما اشتد زكامي فلن يكون بوسعي الذهاب ، ويوم في الفراش سيكون علاجاً ناجعاً لي» .

تحولت نظرة مامي إلى قلق بالغ عندما أحست يدي سكارلت ونظرت إلى وجهها . ولم تكن سكارلت حتماً تبدو في حالة جيدة ، إذ كان الانفعال السار الذي أثارته أفكارها قد زال فجأة وتركها شاحبة ترتجف .

ـ «إن يديك كالثلج يا حلوتي . تعالي إلى السرير ، وسأمزج لك بعض الجعة بالشاي وأجلب لك آجرة ساخنة لأجعلك تعرقين» .

ـ «ما كان أقل تفكيري» صاحت بيتي ، «لقد أغرقت في الحديث دون أن أفكر فيك . يا حلوتي ، ينبغي أن تظلي في الفراش طيلة الغد ، وترتاحي تماماً ، وبوسعنا أن نتحدث معاً . . . آه ، عزيزتي ، لا ، لن يسعني البقاء معك . لقد وعدت السيدة بونل أن أجلس إلى جانبها غداً ، إذ إنها مصابة بالزكام ، وكذلك طاهيتها . إني سعيدة جداً لكونك موجودة هنا يا مامي . يجب أن تذهبي معي هنالك في الصباح وتساعديني» .

وبدت سكارلت وديعة قانعة ، فإذا استطاعت أن تسكن شكوك مامي أكثر ، وتجعلها تخرج من البيت في الصباح ، سيكون كل شيء على ما يرام ، وعندئذ يصير بإمكانها الذهاب إلى سجن الشماليين ورؤية ريت . وفيما هي تصعد السلم ، بدا دوي الرعد الخافت ، وفكرت سكارلت وهي تقف على بسطة الدرج ، التي تذكرتها جيداً ، كم كان صوت الرعد يشبه دوي مدافع الحصار . وارتجفت ، فالرعد سيظل يعني المدافع والحرب بالنسبة إليها وإلى الأبد .

34

في الصباح التالي ، أشعّت الشمس بصورة متقطعة ، وصفقت الريح الشديدة التي كانت تدفع بسرعة غيوماً قاتمة أمام قرص الشمس ، صفقت مصاريع النوافذ وراحت تئن حول البيت بصوت خافت ، وتلت سكارلت صلاة شكر قصيرة ، لأن مطر الليلة الماضية قد انقطع ، وكانت هي قد استلقت مستيقظة تترقب انقطاعه ، مدركة أن استمراره يعني تلف فستانها المخملي وقبعتها الجديدة . أما الآن ، وقد صار بمقدورها رؤية ملامح خاطفة من الشمس ، فقد ارتفعت معنوياتها ، واستطاعت بصعوبة أن تلازم السرير وهي تنظر حولها بفتور وتخرج الأصوات المتذمرة إلى أن أضحت العمة بيتي ومامي والعم بطرس خارج البيت في طريقهم إلى بيت السيدة بونل . وعندما علا صوت انغلاق البوابة الأمامية أخيراً وغدت وحيدة في البيت ، باستثناء كوكي ، التي كانت تغني في المطبخ ، وثبت من السرير ، وتناولت ثيابها الجديدة من على مشجب الخزانة .

كان ارتداؤها لثيابها ، دون أن يكون هناك من يساعدها ، عملية صعبة ، ولكنها أنجزت المهمة أخيراً . وبعد أن وضعت القبعة ذات الريش الهزاز جرت إلى غرفة العمة بيتي لتهندم نفسها أمام المرآة الطويلة . . . ما أجمل ما تبدو ! لقد أضفى عليها ريش الديك مظهراً فاتناً ، وبدت عيناها براقتين بشكل مثير ، بفضل مخمل قبعتها الأخضر ، لقد بدتا بلون الزمرد تقريباً . وبدا فستانها لا مثيل له ، ذا مظهر جميل ، ثمين جداً ، وجليل أيضاً ! . . لقد كان من المدهش أن تنعم ثانية بفستان جذاب ، وكان من الممتع أن تعرف أنها كانت تبدو جميلة مثيرة . وهزتها الفرحة فانحنت وقبلت وجهها في المرآة ، ثم ضحكت على سخفها . وتناولت شال إيلين المصنوع من الحرير لتتلفع به ، ولكن ألوان هذا الشال المربع العتيق الباهت تنافرت مع الفستان الأخضر الطحلبي ، الأمر الذي جعلها تبدو زرية المنظر . ثم فتحت خزانة العمة بيتي وتناولت منها معطفاً عريضاً أسود من الجوخ ، معطفاً خريفياً رقيقاً كانت بيتي ترتديه أيام الآحاد فقط ، فلبسته ، ثم أدخلت قرطيها اللؤلؤيين ، اللذين جلبتهما معها من تارا ، في أذنيها المثقوبتين ، ودفعت رأسها إلى الوراء لترقب أثر ذلك ، وعندما أخرج

القرطان أصواتاً رنانة سارة ، فكرت أن عليها أن تتذكر ضرورة دفع رأسها إلى الوراء مراراً عندما تجتمع بريت ، فالأقراط المتراقصة تجذب الرجل دائماً ، وتضفي على الفتاة مظهراً روحياً .

ولكن يا للعار ! إن العمة بيتي لا تملك غير ذينك القفازين اللذين كانا الآن في يديها السميتين ، وليس بوسع امرأة أن تشعر بكونها سيدة حقّاً دون قفازات . ولكن سكارلت لم تكن تملك زوج قفازات منذ غادرت أتلانتا ، وقد خشنت يديها شهور العمل الطويلة الشاقة في تارا ، حتى غدتا بعيدتين عن أن تكونا ناعمتين . . . على كل حال ليس بالإمكان تدبير الأمر . . . ستأخذ قطعة فرو الفقمة الصغيرة التي تخص العمة بيتي وتخفي يديها داخلها . وأحست سكارلت أن تلك الفروة منحتها المسحة الأخيرة الممتعة لأناقتها ، فلن يشك أحد ، إذا ما نظر إليها الآن ، أن الفقر والعوز ينوء بهما كاهلها .

كان من المهم جداً أن لا يرتاب ريت ، بل كان ينبغي أن لا يفكر بأن الذي ساقها إليه دافع غير شعورها المرهف .

خرجت من البيت وهي تخطو على رؤوس أصابعها ، بينما استمرت كوكي في غنائها داخل المطبخ دون أن تعير سكارلت أدنى انتباه . وأسرعت سكارلت في شارع بيكر لتتجنب كل عيون الجيران الكاشفة ، ثم جلست على سلم عربة في شارع آيفي ، أمام بيت محترق ، لتنتظر إحدى العربات أو الشاحنات المارة التي يمكن أن تمتطيها . وفي الوقت الذي كانت تستعد فيه لبدء المسير على الطريق الطويلة الموصلة عبر المدينة إلى معسكر الشماليين ، ظهرت عربة مهلهلة في داخلها سيدة عجوز كانت تسوق بغلاً هرماً متثاقل الخطوات ، باتجاه بناية البلدية ، فسمحت لسكارلت بالركوب بعين حقود ، إذ كان من الواضح أنها لم ترتح لرؤية الفستان والقبعة والفرو .

ـ «إنها تظن أني داعرة» هجست سكارلت ، «وربما كانت على حق في ذلك» ، وعندما وصلت العربة أخيراً إلى ساحة المدينة ، انتصبت أمام المرأتين القبة البيضاء الشاهقة التي كانت تعلو بناية البلدية . وعندئذ شكرت سكارلت المرأة ونزلت من العربة ولكنها ظلت تراقب تلك القروية وهي تبتعد عنها بعربتها . وبعد أن تطلعت حولها بانتباه ، لتطمئن إلى أن أحداً لم يراقبها ، قرصت وجنتيها لتمنحهما لوناً ، وعضت شفتيها إلى أن آلمتاها في سبيل أن

تبدوا حمراوين ، ثم أصلحت وضع القبعة وثمدت شعرها إلى الخلف وتطلعت في أنحاء الساحة . كانت بلدية المدينة ذات الطابقين العتيقين من الآجر الأحمر ، قد بقيت سالمة من حريق المدينة ، ولكنها كانت تبدو مهجورة تحت السماء المربدة . وكانت أكواخ الجنود القذرة الملطخة بالوحل تحيط ببناية البلدية إحاطة السوار بالمعصم ، وتملأ مربع الأرض الذي هو ساحة المبنى ، وكان الجنود الشماليون يتسكعون في كل مكان . نظرت سكارلت إليهم بارتياب ، وقد فارقتها بعض شجاعتها . كيف سيسعها التجول بينهم كي تجد ريت في معسكر العدو هذا؟

ونظرت إلى أسفل الشارع نحو دار الإطفائية فرأت أن الأبواب الواسعة ذات القناطر كانت مغلقة ومحصنة بقضبان حديدية متينة ، وأن حارسين كانا يروحان ويجيئان أمام كل جانب من جوانب البناء . لقد كان ريت هناك في الداخل ، ولكن ماذا ينبغي لها أن تقول للجنود الشماليين؟ وماذا يمكن أن يجيبوها؟ ولكن ، طالما لم تخف من قتل جندي شمالي ، إذاً عليها أن لا تخشى مجرد التحدث إلى جندي آخر .

واتخذت طريقها بحذر ، وراحت تخطو فوق الحجارة عبر الشارع الموحل ، ثم تابعت تقدمها إلى أن أوقفها حارس كان معطفه الأزرق مزرّراً إلى أعلاه اتقاء للريح .

ـ «ماذا تريدين يا سيدة؟» كان يشوب صوته غنة نصف غربية غير أنه كان صوتاً مهذباً محترماً .

ـ «أريد رؤية رجل في الداخل - إنه سجين» .

ـ «في الواقع ، لا أدري» ، قال الحارس وهو يحك رأسه «إنهم متشددون كثيراً فيما يتعلق بالزوار . . .» وصمت وحملق في وجهها بقوة «من أجل الله يا سيدة ، لا تبكي ! اذهبي إلى مركز القيادة هناك ، واسألي الضباط ، سوف يسمحون لك برؤيته على ما أعتقد» .

ابتسمت سكارلت في وجهه ، ولم تكن تنوي البكاء مطلقاً . أمّا الجندي فقد التفت إلى حارس آخر كان يوازن خطواته ببطء : «بيل ، تعال هنا» .

فاتجه الحارس الآخر نحوهما عبر الوحل ، وكان رجلاً ضخم الجثة ، يتلفع بمعطف أزرق يبرز منه شاربان أسودان ينمان عن الشر .

ـ «خذ هذه السيدة إلى مركز القيادة» .

فشكرته سكارلت وتبعت الحارس .

ـ «احذري من أن تلوي كاحلك على هذه الحجارة المنتشرة بين الوحل» قال الجندي وأخذ بذراعها ، «ومن الأفضل أن ترفعي تنورتك قليلاً لتبعديها عن الوحل» .

كان يشوب الصوت الصادر من تحت الشاربين ذات الغنة الخناء التي ظهرت في صوت زميله ، ولكنه كان صوتاً رقيقاً ساراً ، وكانت يد الرجل حازمة وقورة . . . الواقع أن ليس الشماليون أشراراً أبداً !

ـ «إن الجو بارد جداً اليوم بالنسبة إلى سيدة تخرج من البيت» قال «هل قدمت من مكان بعيد؟» .

ـ «أجل ، من طرف المدينة الآخر تماماً» قالت وقد شجعتها رقة صوته .

ـ «إن هذا جو لا يناسب أبداً خروج السيدة من بيتها» قال بلهجة التأنيب «وهذا الزكام منتشر في الهواء . هنا مركز القيادة أيتها السيدة . . . ما المسألة؟» .

ـ «هذا البيت . . . هذا البيت هو مركز قيادتكم؟» ونظرت سكارلت إلى المنزل الجميل القديم القائم في الساحة ، وكادت تبكي ، لقد حضرت حفلات عديدة في هذا البيت خلال الحرب ، لقد كان مكاناً هادئاً جميلاً ، وها هو الآن . . . يخفق فوقه علم اتحادي كبير .

ـ «ما القضية؟» .

ـ «لا شيء . . . سوى . . . سوى . . . أني كنت أعرف الناس الذين كانوا يعيشون هنا» .

ـ «الواقع أن هذا مؤلم جداً . أظن أنهم لن يعرفوه هم أنفسهم إذا ما رأوه الآن ، لأنه حتماً مهدم في الداخل ، هيا تابعي طريقك إلى الداخل واسألي عن الكابتن» .

صعدت سكارلت الدرجات مربتة بيدها على الدرابزين الأبيض المكسر ، ثم دفعت الباب الأمامي ودخلت . كانت القاعة مظلمة باردة برودة سرداب ، وكان هناك حارس يرتجف وهو يقف متكئاً على مصراعي الباب المقفل للغرفة التي كانت في الأيام السعيدة غرفة الطعام .

ـ «أريد رؤية الكابتن» .

فدفع المصراعين إلى الخلف، ودخلت سكارلت الغرفة، وقلبها يخفق بسرعة، ووجهها متخضب من الانفعال والاضطراب. وبعد أن بلعت ريقها مرة، وجدت صوتها... لقد كان واجبها أن لا تدع هؤلاء الشماليين يعرفون أنها خائفة. لقد كان واجبها أن تبدو وتكون في أجمل صورة وبنفس غير مكترثة.

- «أين الكابتن؟».

- «أنا الكابتن» قال رجل بدين يرتدي معطفاً غير مزرر.

- «أريد رؤية سجين هو الكابتن ريت بتلر».

- «بتلر مرة أخرى؟ يا له من رجل محبوب» ضحك الكابتن وأخرج سيجاراً ممضوغاً من فمه «وهل أنت قريبته يا سيدة؟».

- «نعم... إني.. إني شقيقته».

فضحك ثانية.

- «إن له شقيقات كثيرات جداً، كانت إحداهن هنا أمس».

فاحمر وجه سكارلت خجلاً.. لا بد أن تكون تلك هي إحدى أولئك المخلوقات البائسات اللواتي كان ريت يتعاطى اللذة معهن، وربما كانت هي المرأة وتلنغ بالذات. ولقد ظن هؤلاء الشماليون أنها امرأة أخرى من الطراز ذاته... الأمر الذي لا يمكن احتماله... لا، ولن تبقى هنا دقيقة أخرى... وتهان، حتى ولا من أجل تارا. واستدارت نحو الباب، ومدت يدها إلى المقبض بحنق، ولكن ضابطاً آخر أضحى بجانبها بسرعة. كان نظيفاً حليقاً وفتياً ذا عينين عطوفتين قريرتين:

- «دقيقة واحدة يا سيدة، ألا تجلسين هنا قرب النار حيث المكان الدافئ؟ سأذهب وأرى ماذا أستطيع فعله من أجلك... ما اسمك؟ فلقد رفض مقابلة السيدة التي زارته أمس».

جلست سكارلت على الكرسي الذي قدم لها، وأخبرت الضابط باسمها وهي تحدق في الكابتن البدين الذي خيّب رجاءها. وارتدى الضابط الجميل الشاب معطفه وغادر الغرفة، بينما انسحب الآخرون بعيداً إلى طرف الطاولة الآخر حيث راحوا يتحدثون بأصوات خفيضة، ويخطون بأيديهم على الأوراق، ومدت سكارلت قدميها، باغتباط، نحو النار، وقد تبينت، للمرة الأولى،

شدة برودتهما ، وتمنت أن لو فكرت أن تضع قطعة من الكرتون تحت الثقب الموجود في نعل خفيها . وبعد هنيهة سمعت أصواتاً تدمدم خارج الباب ، تلتها ضحكة ريت ، ثم انفتح الباب وظهر ريت بلا قبعة ، وقد وضع شالاً طويلاً على كتفيه بصورة مستهترة . كان قذراً غير حليق ، بلا ربطة عنق ، ولكنه كان مرحاً نوعاً ما ، رغم كونه في ثياب النوم . أما عيناه السوداوان فكانتا تبرقان مغتبطتين لرؤيتها .

ـ «سكارلت !» .

وأخذ يديها بين يديه ، وكما هو الحال دائماً ، أحست أن شيئاً حاراً حيوياً مثيراً يكمن في قبضتيه ، وقبل أن تعرف تماماً ماذا كان يهم أن يفعل ، كان قد انحنى وقبّل وجنتيها ودغدغها بشاربه . وعندما أحس بحركة جسدها المجفلة للابتعاد عنه ، ضمها من حول كتفيها قائلاً :

ـ «شقيقتي الصغيرة المحبوبة» وافتر ثغره ، كأنه كان يتلذذ بعجزها عن مقاومة مضايقته ، فلم يسعها إلاّ أن تجيبه بضحكة على هذا الظفر الذي ناله . ما كان أشد خسته ! لم يغير منه السجن شيئاً .

كان الكابتن البدين يدمدم من خلال سيجاره إلى الضابط :

ـ «مسألة في غاية الشذوذ . ينبغي أن يكون في دار الإطفائية . أنت تعرف الأوامر» .

ـ «من أجل الله يا هنري ! فستجمد السيدة من البرد في ذلك المخزن» .

ـ «حسناً ، حسناً ، أنت المسؤول» .

ـ «إني أؤكد لكم أيها السادة» قال ريت ملتفتاً إليهم ، وهو ما زال محتفظاً بيديه تحضنان كتفي سكارلت «أن أختي لم تجلب لي معها أي منشار أو مبرد لتساعدني على الهرب» .

فضحك الجميع ، وعندئذ نظرت سارلت بسرعة إلى ما حولها . يا لله الرحيم هل ستضطر إلى الحديث مع ريت أمام ستة ضباط شماليين ! أهو سجين شديد الخطورة بحيث لن يدعوه يفلت من تحت أبصارهم؟ غير أن الضابط الوسيم ، وقد رأى نظرتها القلقة ، فتح أحد الأبواب ، وهمس بكلمتين قصيرتين إلى جنديين كانا قد حيياه عند دخوله . فتناولا بندقيتهما وخرجا إلى القاعة وأغلقا الباب خلفهما .

ـ «بوسعكما الجلوس هنا في غرفة المراسل ، إذا ما رغبتما» قال الكابتن الشاب «وإياكما أن تحاولا الهرب من خلال ذلك الباب ، فا! جلان يقفان خلفه تماماً» .

ـ «أنت ترين أي شخصية يائسة أنا يا سكارلت» قال ريت «أشكرك أيها الكابتن ، فهذا لطف فائق منك .

وانحنى دون اكتراث ، وأمسك بذراع سكارلت وأنهضها على قدميها ثم دفعها أمامه إلى غرفة المراسل القذرة . ولم تستطع سكارلت أبداً أن تتذكر ماذا كانت الغرفة تشبه ، سوى أنها كانت صغيرة ومغمة وباردة ، وأن أوراقاً مكتوبة بخط اليد كانت مثبتة على الجدران الملطخة ، وأنها كانت تحوي كراسي ذات مقاعد من جلود البقر ما زال الشعر عليها .

وبعد أن أغلق ريت الباب خلفهما ، اتجه نحوها بسرعة وانحنى فوقها ، فأدارت رأسها بسرعة وقد أدركت رغبته ، إلاّ أنها ابتسمت له ابتسامة مثيرة شعت من زوايا عينيها .

ـ «ألا أستطيع حقاً تقبيلك الآن؟» .

ـ «من جبيني ، كشقيق مخلص» أجابت بحزم .

ـ «أشكرك ، لا . أفضل أن أنتظر وأتطلع إلى أشياء أفضل» ونشدت عيناه شفتيها واستمرتا تنظران إليهما لحظة «ولكن ما ألطفها منك أن تأتي لتريني يا سكارلت . إنك أول مواطن محترم زارني منذ أن سجنت ، والسجن يجعل الإنسان يقدّر الأصدقاء . متى أتيت إلى المدينة؟» .

ـ «بعد ظهر أمس» .

ـ «وجئت إلي هذا الصباح؟ الواقع يا عزيزتي أنك أكثر من مخلصة» ، وابتسم لها بأول تعبير ينم عن سرور نزيه رأته في وجهه . وابتسمت سكارلت في سرها مغتبطة ثم أحنت رأسها كأنها منزعجة .

ـ «طبعاً ، لقد أتيت إليك رأساً ، لقد أخبرتني العمة بيتي عنك ليلة البارحة فلم أستطع النوم طيلة الليل ، لأني كنت أفكر بهول هذا الأمر الفظيع . ريت ، إني بائسة جداً» .

ـ «ماذا يا سكارلت !» .

كان صوته رقيقاً يشوبه نغم متهدج . وعندما نظرت إلى وجهه الأسمر لم تر

فيه شيئاً من الريبة من الابتسامة الساخرة التي كانت تعرفها تمام المعرفة . غير أن عينيها أطرقتا بحيرة حقيقية أمام نظراته الحادة . لقد كانت الأمور تسير أفضل حتى ممّا أملت .

- «حبذا السجن إن كان يتيح لي أن أراك ثانية ، وأسمعك تقولين أشياء كهذه . إني في الحقيقة لم أستطع تصديق أذني عندما أخبروني بحضورك ، فأنت ترين أني لم أكن أتوقع أبداً أن تصفحي عني لسلوكي الوطني في تلك الليلة ونحن على الطريق قرب رف إند ريدي ، ولكني أعتبر أن زيارتك هذه تعني أنك قد صفحت عني» .

واستطاعت سكارلت أن تشعر بالغضب السريع يتحرك في داخلها ، حتى في هذا الوقت المتأخر ، عندما فكرت بتلك الليلة . ولكنها كبتت غضبها ودفعت رأسها إلى الوراء كي تحرّك قرطيها :

- «لا ، أنا لم أصفح عنك» قالت ذلك وقطبت وجهها .

- «لقد تحطم أمل آخر ، وذلك بعد أن وهبت نفسي لوطني ، وقاتلت حافي القدمين في الثلج في فرانكلين ، وأصبت بأشد حالة من الزحار نتيجة لجهودي» .

- «أنا لا أريد السماع عن جهودك» ، قالت ، وهي لا تزال مقطبة الوجه ، ولكنها كانت تبتسم له من عينين مائلتين عند طرفيهما «إني لا أزال أعتقد أنك كنت مقيتاً في تلك الليلة . وأنا لا أتوقع أبداً أن أعفو عنك بعد أن تركتني وحيدة على تلك الحالة ، في وقت كان يمكن أن يحدث لي فيه أي مكروه» .

- «ولكن لم يحدث لك شيء ، وهكذا فأنت ترين أن ثقتي فيك كان لها ما يعلّلها . لقد كنت أعرف أنك ستبلغين البيت بأمان ، وكان الله بعون أي شمالي يقع في طريقك !» .

- «ريت ، لماذا أقدمت على فعلة حمقاء كتلك . . . انضممت إلى الجيش في الدقيقة الأخيرة ، بينما كنت تعرف أننا كنا سننهزم؟ إضافة إلى أنك كنت تتحدث عن الحمقى الذين خرجوا إلى الحرب وقتلوا !» .

- «سكارلت ، اعذريني ! إن العار يغمرني دائماً كلما فكرت بفعلتي تلك» .

- «حسناً ، إني مسرورة لمعرفتي أنك خجل من الطريقة التي عاملتني بها» .

- «لقد أسأت فهمي . إني آسف لأني أقول إن ضميري لم يؤنبني أبداً بسبب

تركي لك، وإنما التحاقي بالجيش . . . عندما أفكر بالتحاقي بالجيش يوم كنت أرتدي حذائي اللماع، وبذلتي الكتانية البيضاء، وأتسلح فقط بزوج من مسدسات المبارزة . . وعندما أفكر كذلك بتلك الأميال الطويلة التي سرتها في الثلج بعد أن بلي حذائي، ولم أكن أملك معطفاً ولا شيء أتغذى به . . . عندما أفكر بكل ذلك، لا أستطيع أن أفهم لماذا لم أفر من الجيش . . . لقد كان عملي جنوناً محضاً، ولكن ذلك كائن في دمي، فليس بوسع الجنوبيين احتمال قضية خاسرة . ولكن لنترك حججي، وحسبي أنك سامحتني» .

- «أنا لم أسامحك، أعتقد أنك كلب صيد» قالت ذلك ولكنها لطفت اللقب الأخير بحيث كاد يعني «حبيبي» .

- «لا تكذبي، لقد سامحتني، فالصبايا لا يقدمن على مقابلة الحراس الشماليين ليرين سجيناً بقصد العطف الجميل فقط، وكذلك لا يأتين بكل هذا المخمل والريش وفرو الفقمة . . . ما أجمل ما تبدين يا سكارلت! شكراً لله، إنك لا ترتدين ثياباً رثة أو ثياب حداد! إني أتضايق كثيراً من النساء اللواتي يرتدين الثياب الرثة أو نقاب الحداد الدائم . إنك تظهرين زاهية . استديري يا عزيزتي ودعيني أتأملك» .

وهكذا فقد لاحظ الفستان . . . طبعاً كان من المتوقع أن يلاحظ أشياء كهذه لأنه ريت . وضحكت في فرحة خفيفة، ودارت على أصابع قدميها، وذراعاها ممتدان وأطواقها ترتفع كي تكشف عن سراويلها المزركشة المصنوعة من الدنتلة . والتهمتها عيناه السوداوان من القبعة حتى أخمص قدميها في نظرة لم يفتها شيء، تلك النظرة العارية الوقحة القديمة التي كانت تشعرها بالخوف دائماً .

- «إنك تبدين وافرة الثروة، في غاية الأناقة، وعلى وشك أن تكوني جاهزة للالتهام، ولولا وجود الشماليين خارجاً . . . ولكنك في أمان تام يا عزيزتي . اجلسي فلن أغتنم شيئاً منك كما فعلت في آخر مرة رأيتك فيها» وفرك وجنته بأسف زائف «أجيبي بأمانة يا سكارلت . ألا تعتقدين أنك كنت على شيء من الأنانية في تلك الليلة؟ فكري بكل ما كنت قد فعلته من أجلك . لقد خاطرت بحياتي - عندما سرقت حصاناً - وحصاناً كهذا! ثم انطلقت للدفاع عن قضيتنا المجيدة! وماذا نلت مقابل جهودي؟ بعض الكلمات القاسية وصفعة قوية جداً على وجهي» .

وجلست سكارلت . لم يكن الحديث يجري تماماً في الاتجاه الذي كانت ترجوه . لقد بدا ريت لطيفاً جداً في البداية ، بدا سعيداً حقاً بقدومها . لقد بدا كإنسان تقريباً ، لا ذلك الرجل العنيد الحقير الذي كانت تعرفه جيداً .

ـ «ألا بد لك من ثمن لجهودك دائماً؟» .

ـ «كيف لا ، طبعاً ! إنني أناني للغاية كما ينبغي أن تعرفي ، إني دائماً أتوقع ثمن كل شيء أقدمه» .

فسرت في جسد سكارلت قشعريرة خفيفة إثر هذا الجواب ، ولكنها استجمعت قواها ، ورقصت قرطيها ثانية .

ـ «لا ، في الحقيقة لست رديئاً جداً يا ريت ، ولكنك تميل إلى إظهار نفسك بذلك المظهر فقط» .

ـ «إني أصر على كلمتي ، ولكن أنت التي تغيرت !» قال ذلك وضحك «ما الذي جعل منك مسيحية؟ لقد بقيت على اتصال بأخبارك من طريق الآنسة بيتي بات ، ولكنها لم تبلغني أية إشارة على أنك تقدمت في حقل العذوبة النسوية . زيديني أخباراً عنك يا سكارلت . ماذا كنت تفعلين منذ رأيتك آخر مرة؟» .

كانت الإساءة والخصومة القديمتان ، اللتان أثارهما ريت في قلبها ، قد حميتا الآن بحيث تاقت إلى أن تلذعه بكلمات قارصة ، ولكنها ابتسمت بدلاً من ذلك وبدت الغمازة في وجنتها . وكان هو قد سحب كرسيّاً إلى مقربة من كرسيها فانحنت نحوه ووضعت يداً ناعمة على ذراعه ، في حركة شاردة الذهن .

ـ «لقد كنت أقوم بعمل ممتع ، أشكرك . وكل شيء في تارا رائع الآن . طبعاً ، لقد عانينا فترة عصيبة تماماً بعد أن اخترق شيرمان أراضينا ، ولكنه مع ذلك لم يحرق البيت ، كما أن الزنوج أنقذوا معظم الحيوانات بأن ساقوها إلى الهور ، وقد جمعنا محصولاً جيداً هذا الخريف المنصرم . . عشرين بالة . طبعاً ، هذا لا يساوي شيئاً إذا ما قيس بما تستطيع تارا أن تنتجه ، ولكنا لا نملك عمال حقل كثيرين ، ويقول أبي إننا سننتج أكثر في السنة التالية . ولكن يا ريت ، إن الحياة كئيبة جداً في الريف هذه الأيام ، تصور أنه لا يوجد أي حفلة رقص أو شواء ، والشيء الوحيد الذي يتحدث الناس عنه هو الظروف الصعبة ! يا لله ،

لقد سقمت من ذلك! وأخيراً، في الأسبوع الماضي، تضايقت جداً بحيث لم يعد بوسعي احتمال الوضع أبداً. ولذا قال أبي إنه يجب أن أقوم برحلة، وأنعم بوقت طيب. ولذلك أتيت هنا لأخيط بعض الأثواب، ومن ثم سأذهب إلى شارلستون لزيارة خالتي، وسيكون من الجميل أن أعود إلى حفلات الرقص ثانية».

وهكذا فكرت باعتزاز «لقد نفذت الخطة بالطريقة المرسومة الصحيحة تماماً، وأظهرت أني لست غنية جداً، ولكن لست فقيرة طبعاً».

- «إنك تظهرين جميلة في أثواب الرقص يا عزيزتي، وأنت تعرفين ذلك حقاً. يا لحظك السيئ! إني أظن أن السبب الحقيقي لقيامك بالزيارات هو أنك قد اختبرت عشاق الولاية وأنك ترومين عشاقاً جدداً في ولايات أخرى بعيدة».

وخامرت سكارلت فكرة امتنان، لأن ريت كان قد قضى الشهور العديدة الأخيرة في الخارج، ولأنه كان قد عاد مؤخراً إلى أتلانتا، وإلا لما كان نطق بعبارة مضحكة كهذه. وفكرت قليلاً بعشاق الولاية: ابني فونتين المنكودين الصغيري الجثة بثيابهما الرثة، أبناء مونرو الذين أخنى عليهم الدهر، عشاق جونسبورو وفايتفيل الذين كانوا منهمكين جداً في الحراثة وتكسير القضبان الخشبية وتطبيب الحيوانات المسنة المريضة، بحيث أنهم كانوا قد نسوا أن أموراً كالرقص والمغازلات السارة كانت موجودة يوماً ما. على أن سكارلت أغفلت هذه الذكرى وقهقهت بوعي تام كأنها كانت تقر صدق تصريحه.

- «ها، حسناً» قالت بلهجة ساخرة.

- «إنك مخلوقة بلا قلب يا سكارلت، ولكن ربما كان ذلك جزءاً من سحرك» وابتسم بطريقته القديمة، ولكنها أدركت أنه كان يطريها «لأنك طبعاً تعرفين أنك تملكين سحراً أكثر مما يسمح به القانون، حتى إنني شعرت به رغم ظروفي القاسية، وكثيراً ما تساءلت عن السر الذي يكتنفك ويجعلني أتذكرك دوماً. لقد عرفت سيدات كثيرات، كن أجمل منك وأذكى حتماً، وأخشى أن أقول إنهن كن أكثر استقامة وألطف خلقاً، ولكن لسبب ما، كنت دائماً أتذكرك، حتى خلال الشهور التي تلت الاستسلام، عندما كنت في فرنسا وإنكلترا، ولم أكن قد رأيتك أو سمعت عنك، وكنت أنعم بمعشر سيدات

جميلات كثيرات ، حتى خلال تلك الشهور ، كنت دائماً أتذكرك وأتساءل عما كنت تعملين» .

ولهنيهة ، أحست سكارلت بالسخط للوهلة الأولى ، لأنه قال إن نساء أخريات كن أجمل وأذكى وألطف منها ، ولكن تلك الفورة العارضة انزاحت بفعل سرورها ، لأنه كان يتذكرها ويتذكر سحرها . . . وهكذا فهو لم ينسها . . . إن ذلك سيسهل مهمتها ! أضف إلى ذلك أنه كان يسلك سلوكاً حسناً جداً ، تقريباً كما كان يمكن أن يسلك رجل فاضل في هذا الوضع ذاته . والآن ، كل ما يتوجب عليها فعله هو أن تغيّر موضوع الحديث ليتجه إلى شخصه ، وهكذا تستطيع أن تدعي أنها هي أيضاً لم تنسه ، وعندئذ . . .

وضغطت على ذراعه برفق وحركت غمازتيها ثانية .

ـ «ها ، ريت ، كيف أنك تتابع حديثك لتغيظ فتاة ريفية مثلي ! إني أعرف تمام المعرفة أنك لم تفكر بي مطلقاً ، بعد أن تركتني في تلك الليلة . وليس بوسعك أن تخبرني أنك فكرت بي مرة واحدة ، وكل أولئك الفتيات الإنكليزيات والفرنسيات يحطن بك . على أني لم آت كل هذه الطريق إلى هنا لأسمعك تتحدث هذراً عني . لقد أتيت . . . لأني . . .» .

ـ «لأنك؟» .

ـ «آه يا ريت ، إني مكدّرة جداً بسببك ، خائفة جداً عليك . متى سيطلقون سراحك من ذلك المكان الرهيب؟» .

لمس ريت يدها بيده بسرعة ، ثم رفعها بشدة صوب ذراعه .

ـ «إن حزنك يرفع من قدرك . لا يوجد نبأ عن وقت إطلاق سراحي ، ربما عندما يكونون قد مدوا الحبل أكثر قليلاً» .

ـ «الحبل؟» .

ـ «أجل ، إني أتوقع أن أخرج من هنا على طرف الحبل» .

ـ «لن يعدموك حقاً؟» .

ـ «سيعدمونني إذا ما استطاعوا الحصول على بينة ضدي أقوى قليلاً» .

ـ «آه ريت !» صاحت ويدها على قلبها .

ـ «هل تحزنين علي؟ إذا حزنت إلى درجة كافية فسأذكرك في وصيتي» .

وضحكت عيناه السوداوان وضغط على يدها .

وصيته ! وأطرقت بناظريها خوفاً من الفضيحة ، غير أنها لم تفعل ذلك بالسرعة المطلوبة ، إذ برقت عيناه بفضول مفاجئ .

ـ «برأي الشماليين ، لا بد أن تكون وصيتي قيمة ، إذ يظهر أن هناك اهتماماً بثروتي في الوقت الحاضر ، فكل يوم أجر أمام هيئة تحقيق جديدة ، وأسئلة سخيفة ، إذ يبدو أن هناك شائعة تقول بأني فررت بثروة الحلف الذهبية الخيالية» .

ـ «وهل فعلت ذلك حقاً؟» .

ـ «ما أسهل أن يوحي هذا السؤال بجوابه ! أنت تعرفين جيداً ، كما أعرف أنا ، أن الحلف كان يدير مطبعة ورق بدلاً من صك نقود ذهبية» .

ـ «ومن أين جمعت كل ثروتك؟ من المضاربة؟ لقد قالت العمة بيتي بات . .» .

ـ «أي أسئلة هذه التي تسألينها !؟» .

ليلعنه الله . طبعاً لقد حصل على ثروة الحلف . واهتاجت كثيراً بحيث أصبح من العسير عليها أن تتحدث إليه برقة .

ـ «ريت ، إني مضطربة جداً لكونك هنا . ألا تعتقد أن هناك طريقاً لخروجك !» .

ـ «إن شعاري في الحياة : «لا تدع اليأس يستولي عليك أبداً» .

ـ «وماذا يعني ذلك؟» .

ـ «إنه يعني (ربما) يا جاهلتي الفاتنة» .

فرفعت أهدابها الغليظة إلى أعلى لتنظر إليه ثم خفضتها ثانية .

ـ «إنك أذكى من أن تمكنهم من إعدامك . إني أعرف أنك ستفكر ببعض الأساليب الحاذقة لتتغلب عليهم وتخرج من السجن ، وعندما تخرج . . .» .

ـ «وعندما أخرج؟» سأل بسرعة وقد انحنى مقترباً منها .

ـ «حسناً ، إني . . .» وتصنعت حمرة الخجل وحيرة ظريفة ، لم تكن حمرة الخجل بالأمر العسير ، لأنها كانت محتبسة الأنفاس وكان قلبها يقرع .

ـ «ريت ، إنني آسفة جداً لما . . . لما قلته لك في تلك الليلة . . . في رف إند ريدي . لقد كنت . . . يا الله ! مذعورة جداً ومضطربة ، وكنت أنت في غاية . . . في غاية . . .» ونظرت إلى أسفل ، ورأت يده السمراء تحكم الوضع

فوق يدها «و . . . وفكرت عندئذ أنني لن . . . لن أسامحك أبداً! ولكن عندما أخبرتني العمة بيتي أمس أنك . . . أنهم يمكن أن يعدموك فاجأني الخبر ، و . . . و . . .» وتطلعت في عينيه بنظرة متوسلة سريعة ، حملتها لوعة من لوعات القلب الكسير «آه ، ريت سأموت إذا أعدموك . لن أستطيع احتمال خسارتك ، فأنت ترى أني . . .» وأطرقت بعينيها ثانية لأنها لم تستطع تحمل بريق عينيه مدة أطول .

بعد لحظات ، سأشرع في البكاء ، هجست وهي في نوبة من جنون الحيرة والاضطراب ، هل أطلق لدموعي العنان؟ أيبدو ذلك أكثر طبيعية؟

وقال هو بسرعة « يا إلــهي ، سكارلت ، لا يمكن أن تعني أنك . . .» وأطبقت يداه على يديها في قبضة قاسية جعلتها تحس بالألم .

واستمر هو مطرقاً برأسه ، واستمرت هي عاجزة عن النظر إلى وجهه . ثم فتح قبضتها بقوة لا ترحم وراح يحدق فيها . وبعدئذ تناول يدها الأخرى ورفع الاثنتين معاً وهو صامت يتأملهما .

ـ «انظري إلي» قال أخيراً وقد رفع رأسه ، وكان صوته هادئاً جداً : «تخلي عن مظهر الحشمة ذاك» وقابلت عينيه كارهة والتحدي والقلق يشوبان وجهها ، ورأت حاجبيه الأسودين مرتفعين وعينيه تومضان .

ـ «كنت تقومين بعمل ممتع في تارا إذاً ، أحقّاً ما تقولين؟ لقد حصلت على مال كثير جداً من القطن بحيث يمكنك القيام بزيارات! وماذا كنت تفعلين بيديك . . . تحرثين؟» .

وحاولت أن تنتزعهما من يديه ، ولكنه تمسك بهما بقوة ، ومرر إبهاميه على ثآليلهما .

ـ «ليست هاتان يدي سيدة» قال ذلك ودفعهما إلى حجرها .

ـ «اخسأ» ، صاحت وقد شعرت بخلاص آني لأنها استطاعت التعبير عن عواطفها «إن ما أقوم به بيدي هو من شأني وحدي» .

ما أحمقني ، فكرت محتدة . كان ينبغي أن أستعير قفازي العمة بيتي أو أسرقهما ، غير أني لم أعلم أن يدي كانتا تبدوان بهذه الصورة المريعة . طبعاً كان سيلاحظهما . والآن وبعد أن فقدت رويتي وربما أفسدت كل شيء . . يؤسفني أن يحدث هذا بينما أضحى عند نقطة التصريح برأيه المرتجى تماماً!

ـ «إن يديك ليستا من شأني ، حتماً» قال ريت ببرود ، وتراجع مسترخياً في كرسيه .

سيكون صعب المنال إذاً . على كل حال ، عليها أن تتحمل هذا الأمر مستسلمة ، رغم شدة مقتها له ، وذلك إذا كانت تتوقع أن تنتزع ظفراً من هذه النكسة . وربما إن تكلمت معه بعذوبة . . .

ـ «أعتقد أنك وقح حقاً حين تقذف بيدي الضعيفتين . ألأني كنت قد ركبت في الأسبوع الماضي دون أن ألبس قفازي ، فتشوهتا على إثر ذلك . .» .

ـ «ركبت ، يا للجحيم !» قال بالصوت المعتدل ذاته «لقد كنت تشتغلين بهاتين اليدين ، تشتغلين كزنجية . بماذا تجيبين؟ لماذا كذبت علي بقولك إن كل شيء على ما يرام في تارا؟» .

ـ «والآن يا ريت . . .» .

ـ «افرضي أننا سنصل إلى الحقيقة ، ما هي الغاية الرئيسية من زيارتك؟ لقد كدت أقتنع بفعل مظاهرك المغناجة أنك تحفلين بي نوعاً ما ، وأنك حزنت من أجلي . .» .

ـ «آه ، إني حزينة . . حقاً . . .» .

ـ «لا ، أنت لست حزينة . إن بوسعهم أن يعلقوني بحبل أطول من حبل هامان(*) رغم أنك تحفلين بي . إن ذلك مكتوب بوضوح على وجهك كما كتب العمل الشاق على يديك . إنك تحتاجين إلى شيء مني ، وتحتاجين إليه حاجة ماسة دفعتك إلى انتحال هذا المظهر الجذاب . لماذا لم تتحدثي بصراحة وتخبريني ما هي غايتك؟ كان ذلك سيتيح لك حظاً أفضل بكثير للحصول عليها ، لأنه إذا كان هناك فضيلة واحدة أقدرها في النساء فتلك الفضيلة هي الصراحة . ولكن لا ، كان لا بد لك من أن تأتي وترقصي قرطيك وتمطي شفتيك وتتثني كعاهرة» .

ولم يرفع صوته وهو ينطق الكلمات الأخيرة ولم يؤكد عليها بطريقة ما ، ولكن سكارلت أحست بها كلسعة سوط ، ورأت واليأس يتملكها نهاية آمالها في أن تقوده إلى طلب الزواج بها ، لو أنه انفجر بالغضب وأهان غرورها أو عنفها كما كان يمكن أن يفعل الرجال الآخرون ، لكان بوسعها أن تتدبر الأمر

(*) وزير أحشويرش الفارسي وعدو اليهود ، كما ورد في سفر أستير .

معه ، ولكن الهدوء المميت في صوته أرعبها وتركها في ضياع مطبق بالنسبة إلى الخطوة التالية . وخطر لها فجأة أن ريت بتلر كان رجلاً خطيراً لا يمكن خداعه ، خطر لها ذلك رغم أنه كان سجيناً والشماليون يقفون في الغرفة المجاورة له .

ـ «أظن أن ذاكرتي قد أخطأت ، كان ينبغي أن أتذكر أنك مثلي تماماً ، وأنك لا تأتين عملاً دون غاية مكتومة . والآن دعيني أرى ، ماذا يمكن أن تكوني قد أضمرت في نفسك يا سيدة هاملتون؟ أليس من الممكن أن تكوني قد ضللت السبيل فظننت أني سأقترح الزواج بك؟» .

فتخضب وجهها ولم تجب .

ـ «ولكن لا يمكن أن تكوني قد نسيت ملاحظتي التي كنت قد كررتها كثيراً من أني لست رجل زواج؟» .

وعندما لم تتكلم ، أضاف بقسوة مفاجئة :

ـ «ألم تنسي؟ أجيبي» .

ـ «لم أنس» قالت بائسة .

ـ «أي مقامرة أنت يا سكارلت !» قال ساخراً «لقد انتهزت الفرصة معتقدة أن انحباسي بعيداً عن معاشرة النساء سيجعلني في وضع أتحرق معه إليك تحرق سمكة النهر على دودة» .

وهذا ما فعلته ، فكرت سكارلت بسخط ، ولولا يداي . . .

ـ «الآن لقد توصلنا إلى معظم الحقيقة ، إلى كل شيء سوى غايتك . . . فكري إذا كان بوسعك إخباري عن حقيقة السبب الذي أردت من أجله أن تدفعيني إلى الزواج» .

كان في صوته نغمة رقيقة مستفزة تقريباً ، الأمر الذي شجعها . ربما لم يكن كل شيء قد ضاع ، رغم كل الذي حدث . طبعاً لقد حطمت كل أمل بالزواج ، ولكنها كانت سعيدة حتى وهي في يأسها . كان يكتنف هذا الرجل العنيد شيء أفزعها ، شيء جعل فكرة الزواج به أمراً مخيفاً ، ولكن ربما استطاعت أن تضمن قرضاً منه إذا كانت ذكية ولعبت بعاطفته وذكرياته . ورفعت وجهها في تعبير طفلي مطمئن .

ـ «ريت ، إن بوسعك مساعدتي كثيراً . . . إذا كنت إنساناً مخلصاً لي» .

ـ «لا يوجد شيء أحبه أكثر من أن أكون مخلصاً» .

ـ «ريت ، من أجل صداقتنا القديمة ، أريد أن تقدّم لي معروفاً» .

ـ «وهكذا وصلت السيدة المقرحة اليدين إلى هدفها الحقيقي أخيراً . أخشى أن لا تكون «زيارة المرضى والمسجونين» هي الدور المناسب لك . ماذا تريدين؟ نقوداً؟» .

فحطمت لهجة سؤاله الباردة كل الآمال في الوصول إلى طرح الموضوع بأي طريقة عاطفية ملتوية .

ـ «لا تكن وغداً يا ريت» قالت «إني أريد بعض المال . أريدك أن تقرضني ثلاثمائة دولار» .

ـ «وهكذا اتضحت الحقيقة أخيراً ، تتحدثين بالحب وتفكرين بالمال . ما أصدق أنوثتك ! هل تحتاجين إلى النقود حاجة ماسة؟» .

ـ «نعـ . . . لا ، ليس إلى درجة كبيرة ، ولكن بوسعي أن أستعملها» .

ـ «ثلاثمائة دولار . . . ذلك مبلغ كبير ، لأي شيء تحتاجين إليه؟» .

ـ «لدفع الضرائب عن تارا» .

ـ «لهذا تريدين اقتراض مال إذاً . حسناً ، طالما أنك امرأة عملية ، سأكون عملياً أيضاً ، أي مقابل ستعطينني؟» .

ـ «ماذا؟» .

ـ «مقابل ، تأمين على مالي المقدم ، فبالطبع أنا لا أريد أن أفقد ذلك المبلغ» .

كان صوته رقيقاً مراوغاً ، على جانب من النعومة ، ولكنها لم تلحظ ذلك . . . قد ينتهي كل شيء بنتيجة مرضية أخيراً .

ـ «قرطيّ» .

ـ «أنا لا أحفل بالأقراط» .

ـ «أرهن تارا لديك» .

ـ «وماذا أفعل بمزرعة؟» .

ـ «كيف ! إن بوسعك . . . بوسعك . . . إنها مزرعة جيدة ، وأنت لن تخسر ، فسأدفع لك المبلغ من مردود قطن السنة التالية» .

ـ «لست واثقاً من ذلك» ، وتراجع منحرفاً في كرسيه ، وثبت يديه داخل جيبيه «إن أسعار القطن في هبوط ، وإن الظروف قاسية جداً ، والنقود نادرة جداً» .

- «آه ريت ، أنت تثيرني ، إنك تعرف أنك تملك الملايين» .

وفيما هو يراقبها ، كانت عيناه تتراقصان بحقد دافئ .

- «وهكذا يسير كل شيء سيراً حسناً فلا تحتاجين إلى النقود حاجة ماسة . لا بأس ، إني سعيد لسماع هذا ، كما أني أحب أن أعرف أن كل شيء حسن مع الأصدقاء القدامى» .

- «آه ريت ، من أجل الله . . .» بدت يائسة ، وقد انهارت شجاعتها وأعصابها .

- «خفضي صوتك ، فأنت لا تريدين ، كما أرجو ، أن يسمعك الشماليون . هل أخبرك أحد يوماً أن لك عينين كعيني قطة . . . قطة في الظلام؟» .

- «حسبك يا ريت ! سأخبرك كل شيء . إني أحتاج إلى النقود حاجة ملحّة . . . لقد . . . لقد كذبت بقولي إن كل شيء على ما يرام . . . فكل شيء سيئ إلى أقصى درجة ممكنة . . . ووالدي . . . ووالدي ليس على طبيعته . . . إنه غريب الأطوار منذ توفيت أمي ، وليس بوسعه مساعدتي أبداً ، إنه كالطفل تماماً ، ونحن لا نملك عامل حقل واحداً لينتج القطن ، بينما لدينا العديد لإعالتهم ، إذ إننا ثلاثة عشر شخصاً . . . ثم الضرائب . . . إنها مرتفعة جداً . . . سأخبرك كل شيء يا ريت . منذ أكثر من سنة ونحن في هذه الضائقة من الجوع ، آه أنت لا تعرف ، بل لا تستطيع أن تعرف ! إننا لا نملك ما يسدّ رمقنا ، ومن الفظيع جداً أن يستيقظ المرء جائعاً ويأوي إلى فراشه جائعاً . كما أننا لا نملك أي ملابس شتوية ، والأطفال دائماً مبتردون ومرضى» .

- «من أين حصلت على هذا الفستان الجميل؟» .

- «إنه مصنوع من ستائر غرفة أمي» أجابت وهي في حالة بالغة من اليأس بحيث لم يسعها إخفاء هذه الحقيقة المشينة «لقد استطعت تحمل الجوع والبرد ، ولكن الآن . . . الآن رفع الشماليون قيمة الضرائب المفروضة علينا ، وينبغي أن ندفع النقود فوراً ، وليس لدي أي نقود سوى خمسة دولارات ذهبية . إن علي أن أحصل على المال من أجل الضرائب ، ألا ترى؟ وإن أنا لم أدفعها . . . سنخسر تارا ، وليس بوسعنا أن نخسرها . . . ليس بوسعي أن أتركها تضيع» .

- «لماذا لم تخبريني بهذا كله منذ البداية ، بدلاً من أن تعذبي قلبي المرهف الحس الذي يضعف دائماً حيث يكون الأمر متعلقاً بالسيدات الجميلات؟ لا يا

سكارلت ، لا تبكي . لقد جربت كل حيلة معي سوى هذه ، وأنا لا أعتقد أن بوسعي تحملها . لقد سحقت الخيبة شعوري لاكتشافي أنّ ما كنت تبغينه هو مالي وليس شخصي» .

وتذكرت أنه كثيراً ما كان يذكر حقائق مجردة عن نفسه عندما كان يتحدث متهكماً . . . متهكماً على نفسه وعلى الآخرين ، ولذلك رفعت بصرها إليه بسرعة : «هل كان شعوره متألماً حقاً؟ أحفل بها حقاً؟ أكان على وشك اقتراح الزواج عندما رأى راحتيها؟ أو أنه فقط كان يقودها إلى اقتراح آخر مقيت كذاك الذي كان قد عرضه عليها قبلاً مرتين؟ إذا كان قد حفل بها حقيقة ، فقد تستطيع تهدئة ثائرته . بيد أن عينيه السوداوين كانتا تقلّبانها بغير أسلوب المحب ، وكان هو يضحك برقة .

- «أنا لا أرغب في هذا المقابل الذي اقترحته ، لأني لست مزارعاً ، ماذا تملكين أيضاً لتقترحي تقديمه؟» .

لقد وصلت إلى المحظور أخيراً ، فلتعلنه الآن . وتنفست بعمق وقابلت عينيه مباشرة وقد زاولها كل غنج عندما انطلقت روحها لتتمسك بذلك المقبوح الذي خشيته أكثر من الجميع .

- «إني . . إني أملك نفسي» .

- «حقاً؟» .

وضاقت نهاية لحييها حتى أضحت مربعة ، وتحولت عيناها إلى لون الزمرد :

- «هل تتذكر تلك الليلة ، ونحن نجلس على شرفة العمة بيتي في أثناء الحصار؟ لقد قلت . . . لقد قلت آنئذ إنك ترغب فيّ» .

فانحنى في كرسيه إلى الخلف باستهتار ، وحدق في وجهها المجهود ، وكان وجهه الأسمر مبهم التعبير . ورف شيء خلف عينيه ، ولكنه لم يقل شيئاً .

- «لقد قلت . . . لقد قلت إنك لم ترغب يوماً في امرأة كما رغبت فيّ ، فإذا كنت لا تزال ترغب في ، فبوسعك أن تنالني . سأنفذ أي شيء تطلبه يا ريت ، ولكن من أجل الله ، اكتب لي سنداً بالنقود ! إن كلمتي صادقة . إني أقسم لك بذلك ولن أحنث بعهدي . سأسجل ذلك على نفسي إذا شئت» .

فنظر إليها بتهكم ، وما زال وجهه غامضاً ، فلم تستطع وهي تسرع في

الحديث أن تميز ما إذا كان مسروراً أو مشمئزاً . . . لو أنه فقط يقول شيئاً ، أي شيء ! وأحست بوجنتيها تشتعلان .

- «علي أن أحصل على المال بسرعة ، فسيخرجوننا إلى الطريق ، وسيمتلك المزرعة ذلك الناظر اللعين الذي كان مساعد أبي . و . . .» .

- «دقيقة من فضلك ! ما الذي يجعلك تفكرين بأني ما زلت أرغب فيك؟ ما الذي يجعلك تفكرين بأنك تساوين ثلاثمائة دولار؟ إن معظم النساء لا يرتفعن إلى ذلك المبلغ» .

فتخضب وجهها حتى أضحى أحمر كلون شعرها ، كما أن شعورها بالمهانة كان قد بلغ ذروته .

- «لماذا تقومين بهذا العمل؟ لماذا لا تدعين المزرعة تذهب وتعيشين في بيت الآنسة بيتي بات ، فأنت تملكين نصف ذلك البيت» .

- «باسم الله !» صاحت «هل أنت مجنون؟ أنا لا أستطيع أن أترك تارا تضيع لن أدعها تذهب طالما بي رمق من حياة» .

- «الإيرلنديون» قال معيداً كرسيه إلى وضعه السوي ، ومخرجاً يديه من جيبيه «هم ألعن الأجناس البشرية . إنهم يتعصبون كثيراً لأمور عديدة خاطئة كالأرض مثلاً ، بينما كل أراضي الدنيا متشابهة تماماً . والآن دعيني أضع هذا الأمر في وضعه الحقيقي يا سكارلت : لقد جئتني باقتراح عملي سأعطيك بموجبه ثلاثمائة دولار وتصبحين خليلتي» .

- «أجل» .

وهكذا ، وبعد أن لفظت الكلمة المشينة ، أحست سكارلت ببعض الراحة ، وانتعش الأمل في قلبها ثانية . لقد قال «سأعطيك» ولقد رأت بريقاً خبيثاً في عينيه ، كأن شيئاً كان يطربه كثيراً .

- «ومع ذلك ، عندما كنت أملك الجرأة لأعرض عليك هذا الاقتراح ذاته طردتني من البيت ، وكذلك نعتني بعدد من الصفات البذيئة جداً ، وذكرت في حديث عابر أنك لا تريدين مجموعة من اللقطاء ! لا يا عزيزتي ، أنا لا أحاول إقناعك بذلك ، وإنما أتساءل فقط عن مزايا عقلك ، فأنت لم تشائي أن تقدمي على تلك الفعلة من أجل متعتك ، ولكنك ستفعلينها الآن . . . لتبعدي الذئب عن الباب ، الأمر الذي يثبت وجهة نظري في أن الفضيلة مجرد مسألة ثمن» .

ـ «آه ريت ، كيف أنك تتابع حديثك ! وإذا كنت تريد إهانتي فاستمر في حديثك ولكن أعطني النقود» .

ولهنيهة قصيرة ، أحست كأنها في منتصف الصيف ، وسماء الظهيرة زرقاء اللون ، وهي تضطجع ناعسة على العشب الكثيف في مرجة تارا ، تتطلع إلى كتل الغيوم المتماوجة ، ورائحة الأزهار البيضاء تفعم منخريها ، وطنين النحل يدندن في أذنيها . . . والأمسية والسكون وصوت العربات البعيد البعيد آتياً من الحقول المتماوجة الحمراء . . . إن هذا يستحق كل التضحيات . . ويستحق أكثر من ذلك . . . ورفعت رأسها . .

ـ «هل ستعطيني النقود؟» .

وهنا ، لم يستطع عقلها استيعاب كلماته .

ـ «أنا لا أستطيع أن أعطيكها حتى ولو كنت أرغب في ذلك ، لأني لا أملك سنتاً واحداً هنا في السجن ، ولا دولاراً في أتلانتا . . . نعم أنا أملك بعض المال ، ولكنه ليس موجوداً هنا . ولا أقول أين هو ولا كم يبلغ . غير أني إذا حاولت أن أسحب سنداً منه ، فسينقض الشماليون علي ، وعندئذ لن نستطيع ، كلانا ، الحصول على المال . ما رأيك في ذلك؟» .

فتلوّن وجهها بلون أخضر قبيح المنظر ، وبرز الكلف على أنفها ، وبدا فمها الملتوي كفم جيرالد في أثناء غضبه العارم . ووثبت على قدميها في صيحة متقطعة ، جعلت لغط الأصوات في الغرفة المجاورة ينقطع فجأة ، وقفز ريت إلى جانبها سريعاً كأنه نمر ، وأحكم يده على فمها وضغط ذراعه حول خصرها ، وكافحت هي بضراوة لتخلص من بين يديه ، وحاولت أن تعض يده وترفس ساقيه ، وتزعق بقوة سخطها ويأسها وكراهيتها وعذاب كبريائها الجريح . وانحنت وتثنت بكل اتجاه لتتخلص من قبضة ذراعه الحديدي ، وكاد قلبها أن يتفجر . وكاد مشدها الضاغط أن يقطع نفسها بينما قبض هو عليها بقوة هائلة ، بخشونة بالغة آلمتها . وكذلك كانت يده تضغط على شدقيها بقسوة ، وبدا وجهها أبيض تحت سمرته ، وبدت عيناه صارمتين قلقتين وهو يرفعها عن الأرض ويطوح بسجدها إلى صدره ، ثم جلس على الكرسي وهي ما زالت تتلوى في حضنه .

ـ «حبيبتي ، من أجل الله ، كفي ، اصمتي ، لا تصيحي ، سيكونون هنا بعد

دقيقة إذا ما صحت . هدئي روعك . هل تريدين أن يراك الشماليون وأنت على هذه الحالة؟» .

لقد كانت أبعد من أن تحفل بمن رآها ، أبعد من أي شيء سوى الرغبة المستعرة في قتله ، ولكن الدوار كان يجتاحها ولم تستطع التنفس ، فقد كان يخنقها ، وكان مشدها كعصابة حديدية تعصرها بسرعة ، وجعلتها ذراعاه المحيطتان بها ترتجف بسخط وكراهية عاجزة . ثم أضحى صوته رفيعا غامضاً وأخذ وجهه فوقها يدور في ضباب ممرض ، ضباب راح يتكاثف ويتكاثف حتى لم تعد تراه . . . ولا أي شيء آخر .

وعندما قامت بحركات سابحة واهنة لتصحو من الإغماء ، كانت تعبة حتى العظم ، ضعيفة مشتتة الذهن . كانت تضطجع على ظهرها في الكرسي ، وقبعتها ليست على رأسها ، وكان ريت يربت على معصمها وعيناه تتفحصان وجهها بقلق . وكان الكابتن الوسيم الشاب يحاول أن يسكب كأساً من البراندي في فمها ، وقد أراق بعضه على عنقها ، بينما كان الضباط الآخرون يحومون في الغرفة حائرين ، يتهامسون ويلوحون بأيديهم .

- «أظن . . . أن . . . قد أُغمي علي» قالت ، وبدا صوتها بعيداً جداً بحيث أفزعها .

- «اشربي هذا» قال ريت وتناول الكأس ودفعه إلى شفتيها ، وتذكرت الآن كل شيء ، وحدقت في وجهه بوهن ، ولكنها كانت تعبة جداً بحيث لم تستطع الغضب .

- «أرجوك ، من أجلي» .

فجرعت جرعة وغصت ، وشرعت تسعل ، ولكنه رفع الكأس إلى فمها ثانية ، فبلعت عميقاً واشتعل السائل فجأة في حلقومها .

- «أظن أنها في حالة أفضل الآن أيها السادة» قالت ريت ، «وإني أشكركم كثيراً . لقد كان لتحققها من أني سأعدم وقع شديد جداً عليها» .

فتحركت أقدام الضباط وبدا التأثر على وجوههم ، وبعد عدة نحنحات ، خطوا إلى الخارج ، بينما توقف الكابتن الشاب عند الباب :

- «إن كان هناك شيء آخر أستطيع عمله . . .» .

- «لا ، أشكرك» .

فخرج مغلقاً الباب خلفه .

ـ «اشربي جرعة أخرى» قال ريت .

ـ «لا . .» .

ـ «اشربي» .

فبلعت جرعة أخرى وبدا الدفء ينتشر في جسدها ، وانسابت القوة ببطء في ساقيها المرتعشتين . ثم دفعت الكأس بعيداً وحاولت أن تنهض ، ولكنه أقعدها .

ـ «ارفع يديك عني إني ذاهبة» .

ـ «ليس الآن ، انتظري دقيقة أخرى ، فقد يغمى عليك ثانية» .

ـ «أفضل أن يغمى علي في الطريق على أن أبقى هنا معك» .

ـ «النتيجة ذاتها ، فأنا لا أريدك أن يغمى عليك في الطريق» .

ـ «دعني أذهب . إني أكرهك» .

فعاودت ابتسامة خفيفة وجهه إثر كلماتها .

ـ «إن ذلك الكلام ينطبق على ميلك كثيراً ، لا بد أنك تشعرين بتحسن» .

ظلت سكارلت مسترخية في ضجعتها هنيهة ، تحاول استدعاء الغضب ليدعم معنوياتها ، تحاول استنفار قوتها ، ولكنها كانت تعبة جداً ، كانت تعبة جداً بحيث لم تستطع أن تبغض أو تحفل بأي شيء . كانت الهزيمة تربض على روحها ، لقد قامرت بكل شيء وخسرت كل شيء ، وحتى الكبرياء لم تبق لها . . . لقد كانت هذه نهاية أملها الميتة ، كانت هذه نهاية تارا . نهايتهم جميعاً . . . ولفترة طويلة ، ظلت مستلقية على ظهرها ، وعيناها مغمضتان ، تسمع تنفسه العميق بقربها ، وحمى البراندي تزحف شيئاً فشيئاً في جسدها ، تمنحها دفئاً وقوة كاذبة . وعندما فتحت عينيها أخيراً ، ونظرت في وجهه ، ثار الغضب فيها ثانية . وبينما كان حاجباها المائلان ينخفضان معاً في تعبير عابس ، عاودت الابتسامة القديمة وجه ريت :

ـ «الآن تحسن حالك . إن بوسعي معرفة ذلك من تجهم وجهك» .

ـ «طبعاً ، إني في حالة جيدة . إنك مقيت يا ريت بتلر . ظربان إن كنت قد رأيت واحداً . لقد كنت تعرف تمام المعرفة ما كنت أنوي قوله حالما بدأت الحديث ، وكنت تعرف أنك لن تعطيني النقود . ومع ذلك تركتني أستمر في

الحديث ، بينما كان بوسعك أن تريحني من . . .» .

ـ «أريحك وأخسر سماع كل الذي سمعته؟ ليس هذا كثيراً ، فأنا لا أنعم إلاّ بمسرّات قليلة جداً هنا ، وأنا لا أعرف متى حدث وسمعت حديثاً ممتعاً كهذا» وضحك ضحكته الساخرة المفاجئة . وما إن سمعتها سكارلت حتى وثبت على قدميها وانتزعت قبعتها .

ولكن ريت أحاط بكتفيها فجأة :

ـ «لن تذهبي الآن أيضاً . هل تشعرين بتحسن كاف يمكنك من الخوض في حديث جدي؟» .

ـ «دعني أذهب» .

ـ «أنت بحالة حسنة جداً كما أرى . أجيبيني على هذا السؤال إذاً . هل أنا الحديدة الوحيدة التي وضعتها في النار؟» .

وكانت عيناه نافذتين متيقظتين ، تراقبان كل تغير في وجهها .

ـ «ماذا تعني؟» .

ـ «هل أنا الرجل الوحيد الذي كنت ستجربين خدعتك معه؟» .

ـ «هل هذا من شأنك؟» .

ـ «أكثر مما تتصورين . هل هناك رجال آخرون تحاولين اصطيادهم؟ أخبريني !» .

ـ «كلا» .

ـ «إن هذا لا يصدق ، فلا يمكنني تصورك دون خمسة أو ستة رجال أبقيتنهم كاحتياط . ومن الأكيد أن أحدهم سيتقدم لقبول عرضك الممتع ، إني أشعر بصدق ذلك تماماً بحيث أرغب في تزجية نصيحة صغيرة لك» .

ـ «أنا لا أريد نصحيتك» .

ـ «ومع ذلك سأقدمها ، فالذي يبدو أن النصح هو الشيء الوحيد الذي أستطيع تقديمه إليك في الوقت الحاضر . أصغي إلي لأنها نصيحة جيدة : عندما تحاولين نيل شيء من رجل ، لا تبوحي بغايتك كما فعلت معي . حاولي أن تكوني أكثر دهاء ، أكثر إغراء ، فذلك يحرز نتائج أفضل . لقد كنت تعرفين ذلك معرفة تامة ، ولكنك الآن ، عندما عرضت عليّ نفسك مقابل نقودي ، ظهرت صلبة كالمسامير . لقد رأيت عينين كعينيك فوق مسدس مبارزة ، على

بعد عشرين خطوة مني ، وأنا أقول لك إن منظر ذينك العينين ليس ممتعاً . إنهما لا تثيران أية رغبة في صدر الرجل . وليست تلك هي الطريقة لإخضاع الرجال يا عزيزتي . لقد نسيت تدريبك الأول» .

ـ «لست بحاجة إليك لتخبرني كيف أسلك» قالت ذلك وارتدت قبعتها وتساءلت كيف يسعه أن يهرج بابتهاج كهذا والحبل على عنقه وأوضاعها المؤلمة أمام ناظريه . بيد أنها لم تلاحظ كذلك أن يديه كانتا متجمعتين في جيبيه بقبضتين صلبتين كأن عجزه عن كل شيء كان يجهده» .

ـ «رافقتك السلامة» ، قال بينما كانت تعقد شريطي قبعتها «بوسعك الحضور لمشاهدة إعدامي ، فذلك يجعلك تشفين غليلك وتنتعشين ، بل إنه يوفي كل ديونك القديمة معي . . . حتى إساءتي اليوم . وسأذكرك في وصيتي» .

ـ «أشكرك ، ولكن قد لا يعدمونك إلاّ بعد أن يضحي الوقت متأخراً جداً بالنسبة إلى دفع الضرائب» .

ـ قالت ذلك بحقد مفاجىء ، ناسب حقده ، وكانت تعني ما تقول .



ريت بتلر

35

كان المطر يتساقط والسماء رمادية شاجبة عندما خرجت سكارلت من المبنى ، وكان الجنود قد تركوا الساحة واعتصموا بأكواخهم ، بينما خلت الشوارع من المارة ، ولم يقع بصر سكارلت على عربة واحدة ، وأدركت أن عليها أن تقطع الطريق الطويلة إلى البيت .

وبينما كانت تتابع مشيها في الطريق ، زال دفء البراندي وارتجفت من الريح الباردة ، وانصبت على وجهها حبات المطر الباردة حادة كوخز الإبر . ولم تمض فترة قصيرة حتى اخترق المطر معطف العمة بيتي الرقيق فتدلى حولها في طيات رطبة ، وأدركت أن الفستان المخملي قد تلف . وأما بالنسبة إلى ريش القبعة فقد كان متهدلاً متمرطاً شأنه أيام كان مالكه السابق يحمله في أنحاء الساحة الماطرة أمام مخزن حبوب تارا . وكان آجر الرصيف مكسراً منعدماً لمسافات طويلة ، وكان الوحل في هذه المناطق يبلغ الكاحل عمقاً ، وكان خفاها يلصقان به وكأنه غراء ينتزعهما أحياناً من قدميها ، وكلما انحنت لتخرجهما من الوحل ، تلطخت أهداب الفستان به . ولم تحاول حتى تجنب برك الماء ، بل كانت تدوس فيها بحماقة ، جارة تنورتها الثقيلة خلفها . وكان بوسعها أن تحس تنورتها وسروالها المبللين باردين حول كاحليها ، ولكنها كانت أبعد من أن تحفل بتلف ثوبها الذي كانت قد قامرت عليه بثمن باهظ . لقد كانت متبردة يائسة فاترة الهمة .

كيف يمكنها أن تعود إلى تارا وتواجه أهلها بعد تلك الكلمات المشجعة التي نطقت بها؟ كيف يسعها أن تخبرهم أن عليهم أن يغادروا البيت إلى مكان آخر؟ كيف يسعها مغادرة المزرعة ، والحقول الحمراء ، والصنوبرات الباسقة ، وأراضي الأهوار المنخفضة القاتمة ، وأرض المقبرة الهادئة التي ترقد فيها أمها في ظلال أشجار الأرز العتيقة؟

وتأجج بغض ريت في قلبها بينما كانت تتهادى على الطريق . ما كان أشد سفهه ! ورجت أن يعدموه حتى لا تضطر إلى رؤيته ثانية ، بعد أن أطلع على شينها ومهانتها . طبعاً . لقد كان بمقدوره أن يحصل المال من أجلها لو كان يريد

تحصيله . آه ، لقد كان الإعدام حقيقاً جداً به ! شكراً لله ، لأنه لا يستطيع رؤيتها الآن وثيابها مشربة بالرطوبة وشعرها مشعث وأسنانها مصطكة . لا بد أنها تبدو قبيحة جداً زرية المنظر ، ولا بد أن يضحك منها كثيراً .

وسمعت صوت رشاش وقع حوافر خلفها ، فأسرعت مبتعدة إلى طرف الرصيف الضيق لتتجنب لطخات وحل جديدة تشوه معطف العمة بيتي . وكانت عربة بحصان واحد ، آتية ببطء على الطريق . فالتفتت لتراقبها ، وعزمت على أن تلتمس ركوباً إذا كان السائق شخصاً أبيض ، غير أن المطر أعاقها عن رؤية العربة وهي تمر إزاءها ، ومع ذلك فقد رأت السائق يرنو من فوق المشمع الذي كان يمتد من اللوحة الواقية من الوحل في مقدمة العربة ، إلى ذقنه ، كان في سحنته شيء أليف لديها ، وعندما خطت إلى الشارع لتتأمله من قرب ، طرق أذنيها سعلة ارتباك خفيفة من الرجل ، ثم تلاها صوت تعرفه جيداً ، صوت ارتفع في نغم مسرور مندهش : «حتماً لا يمكن أن تكون الآنسة سكارلت !» .

- «ها سيد كندي !» صاحت ثم خطت عبر الطريق واتكأت على العجلة الموحلة ، غير مبالية بأن يصيب المعطف أذى جديد «لم أشعر يوماً بمثل هذه السعادة عند رؤية أي إنسان !» .

فاحمر وجهه سروراً بتأثير الود الجلي في كلماتها ، وبسرعة ، نفث سحابة من دخان التبغ من جانب العربة المقابل ، وقفز بخفة إلى الأرض ، وصافحها بحماسة ، ثم ساعدها على الصعود إلى العربة ، بعد أن رفع المظلة .

- «آنسة سكارلت ، ماذا تفعلين في هذا الحي وحدك؟ ألا تعلمين بوجود خطر هذه الأيام؟ إنك مبللة أيضاً ، دونك العباءة لفيها حول قدميك» .

وفيما هو منهمك بها ، سلمت هي نفسها لدلال من يكون موضع غاية . كان من الجميل أن تجد رجلاً ينهمك بها ، حتى لو كان ذلك الرجل هو العجوز المخنث اللهاث ، فرانك كندي . لقد كان ذلك عاملاً ملطفاً لها ، خصوصاً بعد معاملة ريت الوحشية . ثم ، ما أحسن أن رأت وجه رجل من الولاية وهي بعيدة جداً عن بيتها ! كان فرانك جيد الملبس كما لاحظت ، وكانت العربة جديدة كذلك ، وبدا الحصان فتياً جيد التغذية . إلاّ أن فرانك تراءى لها أكبر بكثير من عمره ، أكبر مما بدا في ليلة عيد الميلاد التي كان فيها

في تارا هو ورجاله، كان هزيلاً شاحب الوجه، وكانت عيناه الصفراوان زائغتين غائرتين في تغضنات جلد متهدل، وكانت لحيته الزنجبيلية اللون أخف مما كانت عليه في أي وقت، ملوثة بخطوط من التبغ، مشعثة كأنه كان يعبث بها باستمرار. ولكنه رغم ذلك، كان يبدو مرحاً مشرق الروح بعكس أمائر الأسى والقلق والإعياء التي رأتها سكارلت في وجوه الناس في كل مكان.

- «إن من دواعي سروري أن أراك» قال فرانك بحرارة «لم أكن أعرف أنك في المدينة، إذ كنت قد رأيت الآنسة بيتي بات في الأسبوع الماضي فقط، ولم تخبرني أنك آتية. هل... هل جاء معك أحد آخر من تارا؟».

لقد كان يفكر بسولين، هذا العجوز الأحمق.

- «لا» قالت، ولفت السترة الدافئة حولها، وحاولت أن ترفعها حول عنقها «جئت وحدي، ولم أشعر العمة بيتي بمجيئي مسبقاً».

فنهز الحصان، الذي انطلق متهادياً يشق طريقه بحذر على الطريق الزلقة.

- «هل الجميع في تارا بصحة جيدة؟».

- «أجل، لا بأس».

يجب أن تفكر بموضوع تتحدث فيه، مع أن التحدث كان أمراً عسيراً جداً عليها، فقد كان عقلها مثقلاً بالهزيمة. وكل ما كانت ترجوه هو أن تستلقي في هذا الحرام الدافئ وتقول لنفسها: «لن أفكر بتارا الآن، سأفكر بها فيما بعد، عندما لا يضيرني التفكير كثيراً». وإذا ما استطاعت فقط أن تجعله يشرع في التحدث في موضوع ما يشغله طيلة الطريق إلى البيت، فلن يكون عليها إلاّ أن تدمدم بين الفينة والأخرى: «ما أظرف ما تقول!» و«من الأكيد أنك ذكي».

- «سيد كندي، لقد دهشت كثيراً لرؤيتك. إني أعرف أني فتاة عاقة لأني لم أحافظ على الاتصال بالأصدقاء القدامى، غير أني لم أكن أعرف أنك هنا في أتلانتا، وأظن أن أحدهم أخبرني أنك كنت في ماريتا».

- «لي أعمال في ماريتا، أعمال كثيرة» قال «ألم تخبرك سولين أني استقررت في أتلانتا؟ ألم تخبرك عن مخزني؟».

كان في تفكيرها ذكرى غامضة عن حديث من أحاديث سولين عن فرانك ومخزنه، ولكنها لم تكن قد أعارت اهتماماً كبيراً لأي شيء قالته سولين، واكتفت بأن تعرف أن فرانك كان حيّاً، وأنه سيرفع سولين عن كاهلها يوماً ما.

ـ «لا ، ولا كلمة» قالت «هل تملك مخزناً؟ ما أشد ما لا بد أن تكون عليه من حذق !» .

فظهر عليه قليل من الضيق ، لأن سولين لم تنشر النبأ ، بيد أنه ما لبث أن أشرق بفعل إطرائها .

ـ «أجل ، إني أملك مخزناً ، ومخزناً بديعاً جداً كما أعتقد . والناس يقولون لي إني ولدت تاجراً» وضحك ضحكته الحيية المقوقئة التي كانت سكارلت تجدها دائماً مضايقة جداً .

ما أشد غرور هذا العجوز الأحمق ! تمتمت .

ـ «طبعاً ، إن بوسعك أن تنجح في أي عمل تتعاطاه يا سيد كندي . ولكن كيف أسست هذا المخزن؟ إذ عندما رأيتك في عيد الميلاد ، الذي سبق السنة الماضية ، قلت إنك لا تملك سنتاً في هذه الدنيا» .

فتنحنح بصوت أجش ، وعبث بشاربيه وابتسم ابتسامته العصبية الحيية :

ـ «حسناً ، إنها قصة طويلة يا آنسة سكارلت» .

شكراً لله ، فكرت ، ربما تشغله إلى أن تبلغ البيت . ثم رفعت صوتها : «قصها علي» .

وقصّها فرانك عليها منذ البداية .

ـ «إني سعيد لسماعك . لقد كنت أملك بعد الاستسلام عشرة دولارات فضية ولا شيء آخر من حطام الدنيا . وأنت تعلمين ما فعلوه بجونسبورو وبيتي ومخزني فيها . ولم أدر عندئذ ما أفعل ، ولكني استعملت العشرة دولارات في بناء سقف لمخزن قديم في فايف بوينتس ، ونقلت إليه أجهزة المستشفى وبدأت في بيعها ، وكانت مما تركه الشماليون فلم يحرقوه . وكان الجميع بحاجة إلى أسرّة وأدوات خزفية وفرش . وتقاضيت بدلاً منها ثمناً بخساً لأنني تصورت أنها كانت تقريباً ملك الناس كما كانت ملكي . ومع ذلك جمعت نقوداً منها واشتريت بضائع أخرى . وهكذا اطرد نجاح المخزن ، وأعتقد أني سأجني نقوداً وفيرة منه إذا ما انتعشت الأحوال التجارية» .

وعند كلمة نقود ، عاد انتباهها لحديثه ، صافياً كالبلور .

ـ «قلت إنك جمعت نقوداً» .

فانتفخ مزهواً بصورة جلية ، بفعل اهتمامها ، إذ كان القليل من النساء ،

باستثناء سولين ، يعاملنه بأكثر من المجاملة المتكلفة ، ولذلك كان من المبهج كثيراً له أن تعلق على كلماتها حسناء كسكارلت أوهارا . ولذلك أبطأ سير الحصان كي لا يبلغا البيت قبل أن يتم قصته .

ـ «أنا لست صاحب ملايين يا آنسة سكارلت ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما اعتدت أن أحوزه من مال ، فإن الذي حصلته الآن يبدو مقداراً صغيراً ، على أني ربحت ألف دولار هذا العام . طبعاً ، دفعت خمسمائة منها في شراء بضائع جديدة وفي إصلاح المخزن ودفع بدل الإيجار ، ولكني كسبت خمسمائة ربحاً صافياً . وطالما أن الأوضاع تزدهر حتماً ، فلا بد لي من أن أربح ألفي دولار في السنة القادمة . كما أني واثق من أن بوسعي استخدام ذلك المبلغ أيضاً ، إذ قد وضعت حديدة أخرى في النار» .

ازداد اهتمام سكارلت بسرعة بسبب الحديث عن المال ، فحجبت عينيها بأهدابها الكثيفة القاسية واقتربت قليلاً منه :

ـ «ماذا تعني يا سيد كندي؟» .

فضحك فرانك ، ولسع ظهر الحصان بحبال العنان :

ـ «أظن أني أزعجك وأنا أتحدث عن التجارة يا آنسة سكارلت ، فالشابة الجميلة مثلك ليست بحاجة إلى أن تعرف شيئاً عن التجارة» .

ـ «لا ، أنا أعرف أني غبية فيما يتعلق بالتجارة ، ولكني مسرورة جداً بالحديث . أرجوك أخبرني كل ما يتعلق بعملك ، وبوسعك أن توضح الذي لا أفهمه» .

ـ «كما ترغبين ، إن حديدتي الأخرى هي منجرة» .

ـ «ماذا؟» .

ـ «معمل لنشر كتل الخشب وقشرها . لم أشتره بعد ولكني سأشتريه . هناك رجل اسمه جونسون يملك معملاً من هذا النوع ، يقع على طريق بعد طريق بيتشتري وهو متلهف لبيعه . إنه بحاجة ماسة إلى نقود فورية ، ولذلك فهو يرغب في بيع معمله والبقاء فيه لإدارته بالنيابة عني ، مقابل أجر أسبوعي . إنه أحد المعامل القليلة من نوعه في هذا الإقليم يا آنسة سكارلت ، إذ قد دمر الشماليون معظمها . وكل من يملك منجرة يملك منجم ذهب ، لأن بوسع المرء في هذه الأيام أن يطلب الثمن الذي يريده مقابل الألواح الخشبية ، فقد أحرق

الشماليون بيوتاً عديدة هنا ، بحيث لم تبق منازل تكفي لسكنى الناس الذين يبدو أنهم صمموا على تجديد البناء ، ولكن ليس بوسعهم الحصول على أخشاب كافية ، وليس بوسعهم كذلك أن يحصلوا عليها بالسرعة المطلوبة . إن الناس يتدفقون على أتلانتا ، كل سكان ولايات الريف ، الذين لا يستطيعون الزراعة بدون العبيد ، وكذلك الجنود الشماليون والمضاربون الذين يحتشدون في المدينة محاولين تعريق عظامنا أكثر مما عرقت حتى الآن . إني أقول لك إن أتلانتا سرعان ما ستصبح مدينة كبيرة ، ولا بد لسكانها من أن يحصلوا على أخشاب لبيوتهم ، ولذلك فسأشتري هذا المعمل حالما . . . حسناً ، حالما أستوفي بعض فواتير الدين الذي يخصني . وفي هذا الوقت من السنة القادمة ، لا بد من أن أتنفس بسهولة أكثر فيما يتعلق بالمال ، أظن . . . أظن أنك تعرفين سبب كوني متلهفاً جداً لجمع المال بسرعة . ألا تعرفين؟» .

واحمر وجهه خجلاً ثانية . إنه يفكر بسولين ، هجست سكارلت باشمئزاز .

وفكرت هنيهة في موضوع سؤاله أن يقرضها ثلاثمائة دولار ، ولكنها نبذت الفكرة بامتعاض ، وأدركت أنه سيضطرب ويعرض أعذاره دون أن يقرضها المبلغ ، فلقد عمل بجد في سبيل أن يجمع المال حتى يتمكن من التزوج بسولين في الربيع ، وإذا فرغت يده ، فسيؤجل موعد زفافه إلى أجل غير مسمى . وحتى لو استصرخت عواطفه وواجباته نحو عائلته المستقبلة وظفرت بوعده في منحها قرضاً ، فإنها تعرف أن سولين لن تسمح بذلك ، فسولين التي كان قلقها يزداد جراء الحقيقة الكائنة في أنها أضحت عملياً فتاة مسنة ، ستهز الأرض والسماء لتمنع أي شيء يؤخر زواجها .

أي مزية كانت تزين تلك الفتاة النكدة المتذمرة لتجعل هذا العجوز الأحمق يتلهف لمنحها عشاً هادئاً؟ لم تكن سولين تستحق زوجاً محبّاً ونتاج مخزن ومنجرة . وحالما تحوز يداها نقوداً قليلة ، سيشمخ أنفها إلى درجة لا تطاق ، ولن تتبرع بسنت واحد لتارا المهددة . لا ، لن تفعلها سولين ! ستستفيد هي نفسها من الفرصة ، ولن تعبأ إذا ما ضاعت تارا بسبب الضرائب أو إذا ما احترقت جميعها طالما أنها تملك ثياباً جميلة وتنعم بلقب «سيدة» أمام اسمها .

وعندما فكرت سكارلت بمستقبل سولين المضمون وبمستقبلها القلق هي وتارا ، اشتعل الغضب فيها لعدم عدالة الحياة ، وأطلت بسرعة من العربة على

الشارع الموحل ، لئلا يلحظ فرانك تعبير وجهها . إنها ستخسر كل ما تملكه ، بينما سولين . . وفجأة تولّد تصميم فيها .

ينبغي أن لا تظفر سولين بفرانك وبمخزنه ومعمله ! لم تكن سولين تستحق كل ذلك وستظفر بهم هي نفسها . وفكرت بتارا ، وتذكرت جوناس ويلكرسون يقف كأفعوان خشاش على أسفل الدرجات الأمامية ، فتمسكت بآخر قشة عائمة فوق حطام حياتها الغريق . لقد خيب ريت رجاءها ولكن الله بعث لها فرانك .

ولكن هل تستطيع الظفر به؟ وثنت أصابعها بينما كانت تنظر إلى المطر دون أن ترى شيئاً هل أستطيع أن أجعله ينسى سولين ويعرض التزوج بي حقيقة ، وبسرعة؟ إذا كنت قد استطعت أن أجعل ريت يعرض علي ذلك تقريباً ، فإن بوسعي الظفر بفرانك ! وتأملته عيناها ، وارتعش جفناها . . . طبعاً إنه ليس وسيماً ، فكرت ببرود ، وإن أسنانه بشعة جداً ورائحة نفسه رديئة وعمره كبير جداً بحيث يمكن أن يكون والداً لي ، فضلاً عن أنه عصبي وحيي وساذج ، وأنا لا أعرف أي صفات زرية أخرى يمكن أن يتصف بها رجل . غير أنه على الأقل ، رجل فاضل ، وأنا أعتقد أن بوسعي أن أحتمل الحياة معه أفضل مما مع ريت ، إذ سأقوده بسهولة أكثر ، وعلى كل حال ، ليس بمقدور المتسولين أن يكونوا مخيرين .

أما إنه كان خطب شقيقتها سولين فإن ذلك لم يسبب أي تأنيب لضميرها . ذلك أنه بعد الانهيار الخلقي التام الذي حملها إلى أتلانتا ، وإلى ريت ، بدا أن اغتصاب خطيب شقيقتها أمر ضئيل الأهمية ، أمر ينبغي أن لا يقلق من أجله في هذا الوقت .

وببزوغ هذا الأمل الجديد ، تصلب عمودها الفقري ، ونسيت أن قدميها كانتا مبللتين باردتين . ونظرت إلى فرانك نظرة ثابتة ، وعيناها تضيقان ، بحيث ذعر قليلاً ، وعندئذ غضت بصرها بسرعة متذكرة كلمات ريت «لقد رأيت عينين كعينيك فوق مسدس مبارزة . . . إنهما لا تثيران أية رغبة في صدر الرجل» .

- «ما القضية يا آنسة سكارلت؟ هل أصابتك قشعريرة؟» .

- «نعم» أجابت بوهن «هل تنزعج؟ . . .» وترددت حيية ، «هل تنزعج إن أنا وضعت يدي في جيب سترتك؟ فالجو بارد جداً وفروي مشرب بالماء» .

ـ «ماذا . . . ماذا . . . طبعاً لا! وليس معك قفازان! يا إلــهي ، أي وحش كنته وأنا مستمر في الثرثرة هكذا ، أتحدث وفكري شارد بينما أنت لا بد أن تكوني متبردة وبحاجة إلى الوصول إلى مدفأة! وبهذه المناسبة يا آنسة سكارلت ، لقد كنت منهمكاً جداً بالحديث عن نفسي بحيث لم أسألك عما كنت تفعلين في هذا الحي وفي هذا الطقس؟» .

ـ «كنت في مركز قيادة الشماليين» أجابت قبل أن تفكر ، بينما ارتفع حاجباه الرمليا اللون من الدهشة :

ـ «ولكن يا آنسة سكارلت! الجنود . . . كيف . . .» .

ـ «يا إلــهي ، دعني أفكر بكذبة بارعة حقاً» التمست بسرعة «فليس من المستحسن أبداً أن يرتاب فرانك في أنها كانت قد رأت ريت ، إذ كان يعتقد بأن هذا الرجل هو أخس اللئام ، وأمن غير الأمان للمرأة المحتشمة أن تتحدث إليه» .

ـ «لقد ذهبت هناك . . . لقد ذهبت هناك لأرى إذا . . . إذا كان أحد من الضباط يشتري أشغالاً يدوية مني ليرسلها إلى زوجته . إني أطرز تطريزاً جميلاً» ، فاسترخى متكئاً على المقعد وهو لا يزال مشدوهاً والسخط يعارك الحيرة في نفسه .

ـ «أنت ذهبت إلى الشماليين . . . ولكن يا آنسة سكارلت! ينبغي أن لا تذهبي . . كيف . . . ـ . . . حتماً إن والدك لا يعلم بذلك! حتماً إن الآنسة بيتي بات . . .» .

ـ «آه ، سأموت إن أخبرت الآنسة بيتي بات» صاحت في قلق حقيقي وانفجرت في البكاء . وكان من السهل عليها أن تبكي لأنها كانت شديدة الابتراد والبؤس ، غير أن نتيجة البكاء كانت مذهلة ، فلم يكن من الممكن أن يغدو فرانك أكثر جزعاً وحيرة لو أنها بدأت تخلع ثيابها فجأة . لقد راح يلهج بلسانه عدة مرات مدمدماً : «يا أماه!» وأخذ يومئ لها بإشارات عديمة الجدوى . وساورت عقله فكرة جريئة وهي أن عليه أن يضع رأسها على كتفه ويربت على ظهرها ولكنه لم يكن قد فعل هذا لأي امرأة ، وكان من العسير عليه أن يعرف كيف يجب أن يتصرف في مثل هذه الحالة . إن سكارلت أوهارا الرفيعة النفس ، الجميلة ، تبكي في عربته . سكارلت أوهارا ، أعظم المتكبرات كبرياء تحاول أن تبيع أشغال إبرة إلى الشماليين . واشتعل قلبه .

وتابعت هي نشيجها ، وكانت تتفوه بكلمات قليلة بين الفينة والأخرى ، واستنتج هو أن الأمور ليست على ما يرام في تارا ، وأن السيد أوهارا ما زال على «على غير طبيعته» وأنه لا وجود لطعام يمسك رمق ذلك العدد الكبير منهم . وهكذا اضطرت سكارلت إلى المجيء إلى أتلانتا لتحاول أن تحصل على مال قليل لها ولابنها . وحرّك فرانك لسانه ثانية ، وفجأة وجد أن رأسها كان على كتفه ولم يعرف بالضبط كيف أضحى هنالك ، فمن الأكيد أنه لم يضعه هناك ، ولكن ها هو رأسها على كتفه ، وها هي سكارلت أوهارا تنشج عاجزة على صدره النحيل ، الأمر الذي كان بمثابة عاطفة روائية مثيرة بالنسبة إليه . وربت على كتفها بحياء ، حذراً في أول الأمر ، ولكن جرأته ما لبثت أن اشتدت عندما لم تصده ، فراح يربت بحزم . . . أي امرأة صغيرة عذبة عاجزة . . . وما كان أشجع وأحمق أن تجرب يدها في جمع المال من طريق عمل الإبرة . . . ولكن أن تتعامل مع الشماليين . . . إن ذلك كثير جداً .

ـ «لن أخبر الآنسة بيتي بات ، ولكن ينبغي أن تعديني يا آنسة سكارلت أنك لن تقدمي على عمل كهذا مرة ثانية . إن فكرتك . . .» .

كانت عيناها الخضراوان الدامعتان تنشدان عينيه حائرتين :

ـ «ولكن يا سيد كندي ، ينبغي أن أعمل شيئاً . ينبغي أن أعتني بابني الصغير المسكين وليس من أحد يعتني بنا الآن» .

ـ «إنك شابة شجاعة» قال «ولكني لا أريدك أن تأتي مثل هذا النوع من الأعمال . إن عائلتك تموت من العار» .

ـ «ماذا ينبغي علي أن أعمل إذاً؟» وتطلعت عيناها السابحتان إليه ، كأنها تعلم أنه يعرف كل شيء ، وكانت تتطلع لجوابه .

ـ «الواقع ، أني لا أعرف الآن تماماً ، ولكني سأفكر بعمل ما» .

ـ «آه ، إني أعرف أنك ستفكر ، فأنت حاذق جداً . . . يا فرانك» .

ولم تكن قد دعته باسمه الأول من قبل ، ولذلك نزل النداء على مسامعه كصدمة ومفاجأة سارة . . . من المحتمل أن تكون الفتاة التعيسة مضطربة جداً بحيث أنها لم تلاحظ حتى زلة لسانها ، وأحس بعطف كبير عليها وبضرورة حمايتها ، حبذا لو كان يوجد أي شيء يستطيع عمله لشقيقة سولين أوهارا ، لنفذه إذاً حتماً . وأخرج منديلاً كبيراً ملوناً وناولها إياه ، فمسحت عينيها به

وبدأت تبتسم وهي ترتعش .

ـ «إنني جبانة غريرة حمقاء» قالت معتذرة «أرجوك ، سامحني» .

ـ «أنت لست جبانة غريرة حمقاء ، إنك شابة شجاعة جداً ، كما أنك تحاولين حمل عبء ثقيل جداً ، أخشى أن لا يكون في استطاعة الآنسة بيتي بات مساعدتك كثيراً ، إني أسمع أنها فقدت معظم ممتلكاتها ، وأن السيد هنري هاملتون هو نفسه في وضع سيئ . وكل ما أتمناه أن لو كنت أملك بيتاً أقدمه لك لتأوي إليه . ولكن يا آنسة سكارلت ، ينبغي أن تتذكري أنه عندما سأتزوج الآنسة سولين سيكون لك دائماً مكان تحت سقف منزلنا ، ولابنك ويد هاملتون أيضاً» .

لقد حان الوقت الآن ! حتماً لقد كانت الملائكة تحرسها كي تمنحها فرصة سماوية كهذه . ونجحت في أن تبدو مجفلة مضطربة جداً ، وفتحت فمها كأنها تريد أن تتكلم بسرعة ثم أغلقته مخرجة صوتاً .

ـ «لا تخبريني أنك لم تكوني تعلمين أني سأغدو صهرك في هذا الربيع» قال بدعابة عصبية . ثم استوضح مذعوراً ، وقد رأى عينيها تغرقان بالدموع .

ـ «ما القضية؟ آمل أن لا تكون الآنسة سولين مريضة . هل هي مريضة؟» .

ـ «كلا ، كلا !» .

ـ «يوجد شيء سيئ لا بد أن تخبريني» .

ـ «آه ، لا أستطيع . لم أكن أعرف ! لقد اعتقدت واثقة أنها لا بد أن تكون قد كتبت إليك ، ما أحقرها !» .

ـ «آنسة سكارلت ، ما القضية؟» .

ـ «فرانك . . . أنا لم أقصد أن أفشي سراً ، ولكني ظننت ، طبعاً ، أنك تعرف . . . أنها قد كتبت إليك . . .» .

ـ «كتبت إلي ماذا؟» سأل وهو يرتجف .

ـ «آه ، أن تفعل هذا مع إنسان نبيل مثلك !» .

ـ «ماذا فعلت؟» .

ـ «ألم تكتب إليك؟ آه ، أظن أنها كانت تحس بعار فظيع بحيث لم يسعها أن تكتب إليك . لا بد أنها كانت تحس بالعار ! آه من أن يكون لي شقيقة منحطة كهذه !» .

وعندئذ لم يعد بوسع فرانك أن يوصل الأسئلة إلى شفتيه . فجلس يحدق بها ووجهه مربد والزمام مرتخ بين يديه .

ـ «ستتزوج طوني فونتين في الشهر القادم ، آه إني آسفة جداً يا فرانك ، آسفة جداً أن أكون الإنسان الذي يخبرك . لقد سئمت من الانتظار وخشيت أن تغدو عانساً» .

*

عندما كان فرانك يساعد سكارلت على النزول من العربة ، كانت مامي تقف على الشرفة الأمامية ، وكان من الواضح أنها كانت تقف هناك منذ وقت طويل ، لأن خرقة رأسها كانت مبللة ، كما أن شالها القديم كان يلتصق تماماً حول جسدها ونقاط الماء بادية عليه . وكان الوجه الأسود المغضّن صورة عن الغضب والإدراك . وكان شفتها متدلية أكثر من أي مرة استطاعت سكارلت تذكرها ، وتطلعت إلى فرانك بسرعة ، وعندما عرفت شخصه ، تغير وجهها وغمره السرور والحيرة ، وشيء شبيه بأمارات الإثم . وتهادت مامي نحو فرانك بتحيات سارة ، وابتسمت له ولاطفته وهو يصافحها :

ـ «إن رؤية المرء لمواطنيه أمر جميل حقّاً» . قالت «كيف حالك يا سيد فرانك؟ عجباً ، ألا تبدو في صحة جيدة ! لو أني كنت قد عرفت أن الآنسة سكارلت ستكون برفقتك في الخارج لما قلقت كثيراً ، ولكنت أدركت أنك ستحرص عليها ، ولكني عدت إلى البيت ووجدت أنها خرجت فذهلت وصرت كدجاجة قطع رأسها ، وفكرت أنها تسير في أنحاء هذه المدينة وحدها ، وكل هؤلاء الزنوج المحررين الحقيرين في الشوارع . كيف لم تخبريني أنك ستخرجين يا حلوتي؟ وأنت مصابة بالزكام !» .

فغمزت سكارلت فرانك غمزة ماكرة ، ورغم كل التعاسة التي جلبها عليه النبأ السيئ الذي كان قد سمعه ، ابتسم ، مدركاً أنها توصيه بالصمت ، وأنها تجعل منه شريكاً في مؤامرة ممتعة .

ـ «أسرعي إلى الطابق العلوي ، وهيئي لي بعض الثياب الجافة يا مامي» قالت «وأعدي شاياً ساخناً» .

ـ «يا الله ، لقد تلف فستانك الجديد تماماً» صاحت مامي «ولن يكون لدي وقت لتجفيفه ومسحه بالفرشاة كي يصبح لائقاً لترتديه في العرس هذه الليلة»

ودخلت البيت ، بينما مالت سكارلت نحو فرانك وهمست : «أرجو أن تأتي لتناول العشاء معنا الليلة ، فنحن نشعر بالوحدة ، وسنذهب إلى العرس بعد ذلك ، فكن مرافقنا . وأرجوك أن لا تقول شيئاً للعمة بيتي عن . . . عن سولين ، فإن ذلك سيؤلمها كثيراً ، وأنا لا يسعني أن أتحمل كدرها إذا ما علمت أن شقيقتي . . .» .

ـ «لن أخبرها ، لن أخبرها» . قال فرانك ، وقد أجفل من مجرد الفكرة .

ـ «لقد كنت طيباً جداً معي هذا اليوم ، وأحسنت إلي إحساناً عظيماً ، وإني أشعر بارتياح تام الآن» وضغطت يده وهي تودعه ، وصوبت كل سهام عينيها عليه .

أما مامي التي كانت تنتظر خلف الباب تماماً ، فقد رمقت سكارلت بنظرة مبهمة ، ثم تبعتها على السلم إلى غرفة النوم وهي تلهث . واحتفظت بالصمت وهي تجرد سكارلت من ملابسها المبللة وتعلقها على الكراسي ثم تدس سكارلت في فراشها . وعندما أحضرت كوب الشاي الساخن ، وقطعة آجر حارة ملفوفة في خرقة من الفانيلا ، نظرت إلى سكارلت وقالت بأقرب لهجة إلى الاعتذار ، سمعتها سكارلت في صوتها : «يا حملي ، كيف لم تخبري مربيتك الخاصة بما كنت تنوينه؟ وإلاّ لما كنت سافرت كل هذه الطريق إلى أتلانتا . إني كبيرة السن جداً ، وبدينة جداً ، بحيث لا أستطيع الركض والبحث عنك» .

ـ «ماذا تقصدين؟» .

ـ «يا حلوتي ، لن تستطيعي خداعي . إني أعرفك . لقد رأيت وجه السيد فرانك الآن ورأيت وجهك ، وبوسعي أن أقرأ أفكارك كما يقرأ الإنسان الإنجيل . ولقد سمعت ذلك الهمس الذي كنت تهمسين به إليه عن الآنسة سولين ، ولو كنت أعرف أن السيد فرانك هو هدفك لظللت في البيت الذي أنتمي إليه» .

ـ «حسناً» قالت سكارلت باقتضاب ، وهي تتستر تحت الحرامات مدركة أن من غير المجدي أن تحاول إبعاد مامي عن المشهد «ومن كنت تفكرين أنه هدفي؟» .

ـ «يا فتاتي ، أنا لا أدري ، غير أني لم أشأ أن أنظر إلى وجهك أمس ، وتذكرت أن الآنسة بيتي بات قد كتبت للآنسة ميلاني أن ذلك الوغد بتلر يملك

أموالاً طائلة ، وأنا لا أنسى ما أسمع . أما السيد فرانك فإنه رجل فاضل ، رغم كونه ليس وسيماً» .

فرمقتها سكارلت بنظرة حادة ، وأجابت مامي بنظرة هادئة تنم عن علمها بكل شيء :

ـ «حسناً ، وماذا ستفعلين ، هل ستنقلينه إلى سولين» .

ـ «سأساعدك من أجل مسرة السيد فرانك بكل وسيلة أعرفها» قالت مامي واضعة الغطاء حول رقبة سكارلت» .

لقد أدركت مامي غاية سكارلت وصمتت . وكانت سكارلت قد وجدت في مامي إنساناً واقعياً أكثر تصلباً في الرأي منها . لقد كانت عيناها المسنّتان الحكيمتان المرقطتان تنفذان عميقاً ، تبصران بوضوح ، وتنظران باستقامة الهمجي والطفل ، لا يقرعها ضمير عندما يهدد الخطر محبوبتها المدللة . ولقد كانت سكارلت طفلتها ، والذي كانت تريده طفلتها كانت ترغب في مساعدتها للحصول عليه حتى لو كان يخص الآخرين . أما حقوق سولين وفرانك كندي فلم تطرق عقلها أبداً ، اللهم إلاّ لتثير ضحكاً مكتوماً قاتماً . وقد كانت سكارلت في مأزق ، تعمل جهد المستطاع ، كما كانت أيضاً ابنة إيلين ، ولذلك اشتركت مامي معها دون لحظة من تردد .

وأحست سكارلت بالعون الصامت ، وبينما كانت الآجرة الساخنة تدفئ قدميها ، غدا الأمل الذي كان يختلج ضعيفاً في أثناء عودتها الباردة إلى البيت ، غدا لهيباً اجتاحها وجعل قلبها يضخ الدم في عروقها بدفقات هادرة . وعاودتها القوة تصحبها فرحة مستهترة ، فرحة جعلتها ترغب في الضحك عالياً . لم أغلب حتى الآن ، همست فرِحة .

ـ «ناوليني المرآة يا مامي» .

ـ «ابقي كتفيك تحت الغطاء» أمرت مامي . وناولتها مرآة اليد ، والابتسامة على شفتيها الغليظتين .

ونظرت سكارلت إلى وجهها في المرآة :

ـ «إني أبدو شاحبة كروح شزيرة» قالت «وشعري مشعث كذيل فرس» .

ـ «إنك لا تبدين مرحة كما ينبغي» .

ـ «نعم . . . هل تمطر بغزارة؟» .

ـ «من أفواه القرَب ، كما تعلمين» .
ـ «الأمر سيان َ، وعليك أن تنزلي إلى المدينة من أجلي» .
ـ «ليس تحت هذا المطر ، لن أنزل» .
ـ «بلى ، ستنزلين ، وإلاّ نزلت بنفسي» .
ـ «أي شيء عليك تأديته بحيث لا يمكنه الانتظار ، يبدو لي أنك قمت بما يكفي ليوم واحد» .
ـ «أريد» قالت سكارلت وهي تتأمل نفسها في المرآة باهتمام «قارورة عطر ، كي تستطيعي غسل شعري وتضميخه . وكذلك تشترين لي قاروة هلام بذور السفرجل لتستعمليه في جعل الشعر يهمد» .
ـ «لن أغسل شعرك في هذا الطقس ، ولن أدعك كذلك تضعين عطراً على رأسك كالداعرات . لا ، طالما أن بي رمق من حياة» .
ـ «بلى سأضع . انظري في حافظة نقودي وأخرجي قطعة الدولارات الخمسة الذهبية ، واذهبي إلى المدينة ، و . . . مامي ، في أثناء وجودك في المدينة اشتري لي حُقّ حُمرة» .
ـ «ما هو هذا؟» سألت مامي بارتياب .
فقابلت عينا سكارلت عينيها ببرود لم تكن تحس به أبداً ، ولم يكن هناك أي وسيلة يستطع بوساطتها معرفة إلى أي درجة يمكن الاستبداد بمامي .
ـ «لا شأن لك به . فقط اسألي عنه» .
ـ «أنا لا أشتري شيئاً لا أعرف ماهيته» .
ـ «حسناً ، إنه طلاء إذا كنت فضولية إلى هذا الحد . طلاء للوجه . لا تقفي هنا وتنتفخي كضفدع ، هلمي» .
ـ «طلاء !» صرخت مامي «طلاء للوجه ! لقد فقدت عقلك . إن أمك تتلوى في قبرها الآن في هذه الدقيقة . تريدين أن تطلي وجهك مثل الـ . . .» .
ـ «إنك تعرفين تمام المعرفة أن الجدة روبلارد كانت تطلي وجهها و . . .» .
ـ «أجل ، وكانت تلبس أيضاً تنورة واحدة وتبلها بالماء لتجعلها تلتصق بجسدها وتكشف عن ساقيها . ولكن ذلك لا يسوّغ لك القول إنك ستفعلين مثلها ، فزمن صباها كان زمناً منحطاً . غير أن الزمن يتغير . إنهم . . .» .
ـ «يا إلـــهي !» صاحت سكارلت ، وقد ثارت ثائرتها وقذفت الغطاء بعيداً

عنها «تستطيعين العودة فوراً إلى تارا» .

ـ «ليس بوسعك أن تعيديني إلى تارا ما لم أكن أرغب في ذلك . إني حرة ، قالت مامي بحدة ، وأنا سأقيم هنا . عودي إلى ذلك السرير ، هل تريدين أن تصابي بداء الرئة فوراً؟ اتركي المشد ، اتركيه يا حلوتي ، اسمعي يا آنسة سكارلت ، لن تذهبي إلى أي مكان في هذا الطقس . يا لله ! إنك حتماً تشبهين والدك ، عودي إلى السرير . . . أنا لا أستطيع الذهاب وشراء أي طلاء ، إني أموت من العار . فالجميع سيعرفون أن ذلك الطلاء هو لفتاتي . ويا آنسة سكارلت ، إنك رائعة جداً ، جميلة المظهر ، بحيث لا تحتاجين إلى طلاء . ولكن النساء الفاسدات وحدهن هن اللواتي يستعملن تلك المادة» .

ـ «ويحصلن على نتائج ، أليس كذلك؟» .

ـ «يا لله ، اسمعها ! يا حملي ، لا تتفوهي بعبارات رديئة كتلك ! اتركي تلك الجوارب المبللة ، فلن أدعك تشترين ذلك الطلاء بنفسك . ستؤنبني السيدة إيلين . عودي إلى السرير ، سأذهب ، ولعلي أجد مخزناً في مكان لا يعرفنا فيه أحد» .

*

عندما عقد قران فاني في تلك الليلة في منزل السيدة ألسنغ ، وبينما كان ليفي العجوز والموسيقيون الآخرون يعزفون من أجل الرقص ، تطلعت سكارلت حولها ، فقد سرها كثيراً أن تكون حقيقة في حفلة موسيقية مرة ثانية ، كما سرها أيضاً الاستقبال الحار الذي قوبلت به . إذ عندما دخلت البيت وهي تتكئ على ذراع فرانك ، اندفع الجميع نحوها بصيحات الفرح والترحاب وقبّلوها وصافحوها وأخبروها أنهم افتقدوها كثيراً ، وأن عليها أن لا تعود إلى تارا . وبدا أن الرجال كانوا قد نسوا بشهامة أنها كانت قد حاولت جهدها أن تحطم قلوبهم في الأيام الماضية ، كما كانت البنات قد نسين أيضاً أنها كانت قد بذلت كل ما في مقدورها لتنتزع عشاقهن منهن . وحتى السيدة ميريويذر والسيدة ويتنغ والسيدة ميد والسيدات الفاضلات الأخريات ، اللواتي كن فاترات جداً معها خلال الأيام الأخيرة من الحرب ، كن جميعاً قد نسين سلوكها الطائش واستنكارهن لذلك السلوك ، ولم يتذكرن سوى أنها قاست معهن من الهزيمة المشتركة ، وأنها كانت قريبة بيتي وأرملة تشارلز ، ولذلك قبّلنها وتحدثن إليها

برفق عن وفاة أمها العزيزة والدموع تترقرق في عيونهن ، وسألنها أخيراً عن والدها وشقيقتيها ، كما سأل الجميع عن ميلاني وآشلي ، مستوضحين سبب عدم عودتهما مثلها إلى أتلانتا .

وعلى الرغم من سرور سكارلت بهذا الاستقبال ، أحست بكدر خفيف حاولت إخفاؤه ، كدر ناشىء عن منظر فستانها المخملي ، الذي كان لا يزال رطباً حتى مستوى الركبتين وملطخاً حول حاشيته ، رغم الجهود المهووسة التي بذلتها مامي وكوكي مستعملين غلاية يتصاعد منها البخار وفرشاة شعر نظيفة ، ولاجئتين إلى تهوية نشيطة أمام نار مكشوفة . وكانت سكارلت تخشى أن يلحظ أحدهم وضعها الزري ويدرك أن هذا كان فستانها الجميل الوحيد . وأشرقت روحها قليلاً عندما لمست أن كثيراً من فساتين المدعوات الأخريات بدت أسوأ من فستانها بكثير . لقد كانت أثواباً قديمة جداً ، تبدو مصلحة ومكوية بعناية زائدة . أما فستانها فلقد كان على الأقل جديداً تماماً ، ورغم رطوبته . . . كان في الحقيقة الثوب الجديد الوحيد في الحفل باستثناء ثوب عرس فاني المصنوع من الحرير الأبيض .

اكتشفت سكارلت أنها كانت تعرف العريس تمام المعرفة إذ كان تومي ولبورن من سبارطة ، وكانت قد مرضته عام ١٨٦٣ عندما كان جريحاً في كتفه . لقد كان آنئذ شاباً جميلاً ، ترك دراسته الطبية ليلتحق بسلاح الفرسان . بينما كان يبدو الآن كرجل عجوز صغير الجثة ، إذ كان شديد الانحناء بفعل الجرح الذي في وركه . وكان يمشي ببعض الصعوبة ، ولكنه ظهر وكأنه غير شاعر أبداً بحقيقة مظهره أو مكترث به ، وإنما بدا كرجل لا تنقصه قباحة . لقد قطع كل أمل في متابعة دراسته الطبية ، وهو الآن مقاول يتعهد عمل جماعة من الإيرلنديين يبنون الفندق الجديد . واستغربت سكارلت كيف يستطيع القيام بعمل شاق كهذا وهو في هذه الحالة ، ولكنها لم تسأل أي سؤال بهذا الصدد إذ كانت تدرك بصورة مشوهة أن كل شيء ممكن عندما تسوق الضرورة الإنسان إليه .

كان تومي وهيو ألسنغ ورينيه بيكارد الصغير الشبيه بالقرد قد وقفوا يتحدثون معها ، بينما كانت الموائد وقطع الأثاث تدفع خلفاً نحو الجدار استعداداً للرقص . ولم يكن هيو قد تغير منذ رأته سكارلت عام ١٨٦٢ ، بل

كان لا يزال ذلك الفتى النحيل الحساس ، ذا الشعر البني الفاتح المتدلي فوق جبينه ، وذا اليدين الرقيقتين العابثتين اللتين كانت تتذكرهما جيداً . غير أن رينيه كان قد تغير منذ تلك الإجازة التي تزوج خلالها مايبيل ميريويذر . فعلى الرغم من أنه كان لا يزال يتصف بالبريق في عينيه السوداوين وبشهوة الخلاسي للحياة ، فقد كان هناك رغم كل ضحكه الخالص شيء قاس في وجهه ، شيء لم يكن موجوداً في الأيام الأولى من الحرب . كما كان قد فارقه تماماً ، مظهر الأناقة المتعجرفة التي كانت تلازمه يوم كان يرتدي بذلة جندي المشاة الفاتنة .

ـ «وجنتان كالورد ، وعينان كالزمرد» قال وهو يقبل يد سكارلت مطرياً الطلاء الأحمر الذي كان يزين وجهها «رائعة ، كما كنت عندما رأيتك أول مرة في السوق الخيرية ، أتتذكرين ، لم أنس أبداً كيف ألقيت بخاتم عرسك في سلتي . ها ، لقد كان ذلك عملاً ممتازاً . ولكن لم يكن يخطر ببالي أنك ستنتظرين كل هذه المدة الطويلة لتحصلي على خاتم آخر!» .

وبرقت عيناه بلؤم ، ودس مرفقه في صدر هيو :

ـ «وأنا لم يخطر ببالي أبداً أنك ستسوق عربة لبيع الفطائر يا رينيه بيكارد» قالت ، ولكن بدلاً من أن يشعر بالعار لكونه جوبه بحقيقة عمله المهين ، ظهرت عليه أمائر السرور ، وضحك بصوت مدو ، صافعاً هيو على ظهره :

ـ «أصبت !» صاح «إن حماتي ، السيدة ميريويذر ، هي التي جعلتني أقوم بهذا العمل ، وهو أول عمل أقوم به في حياتي ، أنا رينيه بيكارد الذي كان من المقدر له أن يكبر ويتعاطى تربية الخيول ، ويعزف على القيثار! بينما أنا الآن أسوق عربة الفطائر وأحب هذا العمل! إن بوسع السيدة ميريويذر أن تجعل الرجل يقوم بأي عمل . كان ينبغي أن تكون القائد العام وعندها تربح الحرب . ماذا تقول يا تومي؟» .

ما أغرب هذا! هجست سكارلت ، أن يحب رجل قيادة عربة فطائر بينما كان أهله يملكون عشرة أميال من الأرض على طول نهر المسيسيبي ، وبيتاً كبيراً في نيو أورليانز أيضاً!

ـ «لو كانت حمواتنا في صفوف الجيش ، لكنا غلبنا الشماليين في خلال أسبوع» أجاب تومي موافقاً وعيناه تشردان إلى شخص حماته الجديدة ، حماته النحيلة التي لا تقهر «إن السبب الوحيد لصمودنا طيلة هذه المدة يعود للسيدات

اللواتي كن خلفنا واللواتي لم يستسلمن» .

ـ «اللواتي لن يستسلمن أبداً !» صحح هيو عبارة تومي بابتسامة فخورة ، ولكنها ملتوية قليلاً «لا يوجد سيدة واحدة هنا في هذه الليلة ، قد استسلمت ، بغض النظر عما فعل رجال عائلتها يوم استسلام الجنرال لي نهائياً . لقد كان وقع النبإ أسوأ عليهن بكثير منه علينا ، فعلى الأقل ، سرينا نحن عن نفوسنا بالقتال» .

ـ «وهنَّ في الكراهية» أتم تومي العبارة «أليس كذلك يا سكارلت ، «إنه ليكظ السيدات أن يرين رجالهن قد انحدروا إلى هذا الدرك أكثر مما يكظنا نحن . كان هيو سيصبح قاضياً ، وكان رينيه سيعزف على القيثارة أمام رؤوس أوروبا المتوجة» قال ذلك وأحنى رأسه عندما صوب رينيه ضربة نحوه «وكنت أنا سأصبح طبيباً . والآن . . .» .

ـ «امنحنا بعض الوقت» صاح رينيه «وعندئذ سأصبح أنا أمير الفطائر في الجنوب ، وسيصبح هيو صديقي الطيب ، ملك الحطب ، وأنت يا صديقي تومي ، ستمتلك العبيد الإيرلنديين بدلاً من العبيد الزنوج . . . أي تطور . . . أية مهزلة ! وماذا حل بكما يا آنسة سكارلت وآنسة ميلي؟ تحلبان البقرة وتقطفان القطن؟» .

ـ «لا ، في الحقيقة !» قالت سكارلت ببرود ، وقد عجزت عن فهم تقبّل رينيه الرضي للصعوبات «إن عبيدنا هم الذين يقومون بذلك» .

ـ «لقد سمعت أن الآنسة ميلي سمّت ابنها «بوروغارد» . أخبريها أني أنا ، رينيه ، أوافق على هذه التسمية ، وقولي لها إنه باستثناء يسوع ، لا يوجد اسم أفضل من هذا الاسم» .

ومع أنه ابتسم ، إلاّ أن عينيه تألقتا ببريق الكبرياء ، لذكر اسم بطل لويزيانا المقدام .

ـ «وأيضاً ، يوجد اسم روبرت إدوارد لي» علق تومي . ومع أني لا أحاول التقليل من سمعة بو العجوز ، إلاّ أن ابني الأول سيدعى «بوب لي ولبورن» .

فضحك رينيه وهز كتفيه .

شرع الموسيقيون ، بعد عزف ودوزنة تمهيديين ، ينشدون أغنية : «دان توكر العجوز» وعندئذ التفت تومي نحو سكارلت وقال :

ـ «هل ترقصين يا سكارلت؟ ليس بوسعي أن أكرمك ولكن هيو ورينيه . . .» .

ـ «لا ، أشكرك . إني ما زلت في فترة الحداد على أمي» قالت بسرعة «سأجلس بعيداً عنهما» .

وعزلت عيناها فرانك كندي عن الجمع . واجتذبته من جانب السيدة ألسنغ :

ـ «سأجلس في تلك الزاوية هناك ، فإذا جلبت لي بعض المرطبات فعندئذ يمكننا أن ننعم بحديث ممتع» أخبرت فرانك عندما ابتعد الرجال الثلاثة الآخرون .

وحين أسرع فرانك ليجلب لها كأس خمر وقطعة من الكعك ، جلست سكارلت في الزاوية في نهاية الصالة ، ورتبت وضع تنورتها بعناية كي لا تظهر البقع المشوهة . كانت أحداث الصباح المهينة ، التي وقعت لها مع ريت ، قد طردت من عقلها ، بفضل سرورها برؤية هذا العدد الكبير من الناس ، وبسماع الموسيقى ثانية . وغداً ستفكر بسلوك ريت وبعارها ، الأمر الذي سيجعلها تتلوى من الألم ثانية . غداً ستتساءل إذا كانت قد أحدثت أي تأثير في قلب فرانك الجريح الحائر . غداً ، لا هذه الليلة ، ففي هذه الليلة تحس بالحياة حتى أخمص قدميها ، عيناها متألقتان ، وكل حاسة من حواسها مفعمة بالأمل .

ونظرت من الزاوية التي جلست فيها إلى غرفة الاستقبال الواسعة ، وتأملت الراقصين ، وتذكرت ما كان أجمل هذه الغرفة عندما شاهدتها أول مرة جاءت فيها إلى أتلانتا خلال الحرب . هنا وفي مكان الكنبة المتقوسة ، التي كانت سكارلت قد أحبتها كثيراً ، وضع مقعد صلب لم يكن مريحاً أبداً ، فجلست فوقه بقدر ما استطاعت من رضى ، متمنية أن لو كانت تنورتها بحالة حسنة ، تمكنها من الرقص ثانية . طبعاً ، لقد كان بوسعها أن تستفيد من حديثها مع فرانك في هذه الخلوة أكثر مما كانت ستجنيه من رقصة ريل تقطع الأنفاس ، كما كان بوسعها أيضاً ، أن تصغي مخلوبة اللب إلى حديثه وتشجعه ليحلق في أجواء واسعة من الحماقات .

غير أن الموسيقى كانت حتماً مغرية بالرقص . ولذا كانت تقرع قدمها الأرض بلهفة ، في الوقت ذاته الذي كان يقرع فيه ليفي العجوز قدمه الكبيرة المفلطحة وهو يعزف على بانجو لعلاع ويدعو إلى رقصات الريل . وراحت الأقدام تحف بالأرض وتحك وتقرع ، بينما الصفان المتماثلان يرقصان ثم يتراجعان ثم يدوران ويصنعان أقواساً بأيديهما .

كان من الجميل ، بعد الأشهر الكئيبة المضنية التي قضتها سكارلت في تارا ، أن تعود إلى سماع الموسيقى ثانية ، وسماع صوت الأقدام الراقصة أيضاً . كان من الجميل أن ترى وجوهاً صديقة أليفة ، تضحك في الضوء الباهت ، وتصيح بالفكاهات القديمة ، وتمزح وتداعب ، وتتدلله ، لقد كان الأمر بمثابة عودة إلى الحياة بعد الموت . وبدا كأن الأيام المشرقة التي انقضت منذ خمسة أعوام قد عادت ثانية ، تقريباً . آه لو كان بوسعها أن تغمض عينيها ، ولا تشاهد الفساتين المقلوبة البالية والأحذية المرقعة والأخفاف المصلحة ، لو أن عقلها لم يذكر وجوه الشبان المفقودين من الريل ، إذاً لكان بمقدورها أن تفكر بأنه لم يكن قد تغير شيء تقريباً . ولكنها فيما كانت تراقب الرجال المسنين الذين كانوا يتجمعون حول قارورة الشراب في غرفة الطعام ، والمتزوجات اللواتي كن جالسات في صفوف موازية للجدران ، يتحدثن وأيديهن خالية من المراوح ، والراقصين الشباب ، الواثبين ، المتمايلين ، فيما كانت تراقب هؤلاء جميعاً خطر لها فجأة ، وبصورة باردة مريعة ، بأن كل شيء كان قد تغير تغيراً كبيراً بحيث أن هؤلاء الأشخاص كانوا مجرد أشباح .

وكانت سكارلت تعرف أنها كانت قد تغيرت أيضاً ، ولكن ليس كتغيّرهم هم ، الأمر الذي حيرها . فجلست تراقبهم وأحست بنفسها غريبة بينهم ، غريبة وحيدة ، كأنها كانت قد قدمت من عالم آخر ، تتكلم لغة لم يكونوا يفهمونها بينما هي لا تفهم لغتهم . ثم أدركت أن هذا الشعور كان الشعور ذاته الذي كانت قد أحست به وهي مع آشلي ، معه ومع الناس الذين كانوا من نوعه ـ وكان هؤلاء يؤلفون معظم عالمها ـ وأحست أنها تقف خارج شيء لم تستطع فهمه .

أدركت أنها هي أيضاً كانت قد تغيرت كثيراً ، وإلاّ لما كان بوسعها أن تقوم بما قامت به منذ كانت في أتلانتا أخيراً ، ولـمّا كانت تفكر الآن في عمل كانت ترجو يائسة أن تنجزه . على أنه كان هناك فرق بين صلابتهم هم وصلابتها هي ، أما ماذا كان ذلك الفرق ، فإنها لم تكن تستطيع معرفته في الوقت الحاضر . ربما كان ذلك الفرق هو أنه لم يكن يوجد شيء لا تتورع هي عن عمله ، بينما كان يوجد أشياء كثيرة جداً كان هؤلاء الناس يفضلون الموت على أن يفعلوها ، وربما كان ذلك يعود إلى أنهم كانوا بلا أمل ، غير أنهم ما زالوا

يبتسمون للحياة ، وينحنون بكياسة متغاضين عن منغصاتها ، الأمر الذي لم تكن تستطيع سكارلت فعله .

وبينما كانت تحدق في الراقصين الذين احمرت وجوههم من رقص الريل ، تساءلت عما إذا كانت الأقدار قد ساقتهم إلى ما آلت هي إليه ، فمات أحباؤهم ، وتعطل أزواج النساء منهم ، وجاع أطفالهم ، وتهددت أراضيهم ، وغدت سقوف بيوتهم العزيزة مأوى للغرباء . غير أنهم حتماً كانوا مسوقين! فهي تعرف أوضاعهم معرفة لا تقل عن معرفتها بأوضاعها غير قليل . لقد كانت خسائرهم هي خسائرها ، وحرمانهم حرمانها ، ومشاكلهم مشاكلها ، ومع ذلك فقد اختلف رد الفعل فيهم عنه في نفسها ، فالوجوه التي كانت تراها في الغرفة لم تكن وجوهاً ، لقد كانت أقنعة ، أقنعة فاخرة لن تسقط أبداً .

وفجأة كرهتهم جميعاً ، لأنهم كانوا يختلفون عنها ، لأنهم كانوا يحملون خسائرهم بمظهر لم تستطع بلوغه ، بل لم تكن ترجو أن تبلغه أبداً ، لقد كرهتهم ، هؤلاء الغرباء الباسمين الرشيقي الحركة ، هؤلاء الحمقى المتكبرين الذين يتباهون بشيء قد خسروه . كانت النسوة تقدرن أنفسهن كأنهن سيدات ، مع أن العمل الحقير كان نصيبهن اليومي ، ولم تكن الواحدة منهن تعرف من أين ستأتي بفستانها التالي . . . كلهن سيدات! ولكنها لم تكن تحس بأنها سيدة ، رغم فستانها المخملي وشعرها المعطر ، رغم كبرياء النسب الذي كان يدعمها ، وكبرياء الثروة التي كانت تخصها يوماً . لقد انتزع التماس الخشن مع أرض تارا الحمراء الرقة منها ، وأدركت أنها لن تشعر بشعور السيدة مرة ثانية إلى أن تثقل مائدتها بالأواني الفضية والبلورية ويتصاعد منها بخار الطعام الدسم ، وإلى أن تقف خيولها وعرباتها في الإصطبلات ، وإلى أن تقطف قطن تارا الأيدي السوداء لا البيضاء .

- «آه» فكرت غضبى وهي تبلع ريقها «ذلك هو الفرق! فحتى مع أنهن فقيرات ، ما زلن يشعرن شعور السيدات ، ولا يبدو أن الحمقاوات يدركن أن المرأة لا تستطيع أن تكون سيدة بلا مال!» .

وحتى في هذه الومضة من الإلهام ، أدركت سكارلت ، بغموض ، أنه مع أنهم - سيدات وسادة - كانوا يظهرون أغبياء ، إلا أن تصرفهم كان هو التصرف الصائب ، وكانت إيلين ستوافق على ذلك ، الأمر الذي أقلق سكارلت . لقد

كانت تعرف أن عليها أن تشعر كما كان يشعر هؤلاء الناس ، ولكنها لم تستطع ، كانت تعرف أن عليها أن تؤمن بإخلاص ، كما كان هؤلاء الناس يؤمنون ، بأن المرأة المولودة سيدة ، تظل سيدة حتى لو انحدرت إلى هوة الفقر ، ولكنها لم تستطع أن تجعل نفسها تؤمن بهذا الآن .

وهزت كتفيها في ضيق . ربما كان هؤلاء الناس مصيبين ، وكانت هي على خطإ ، ولكن الأمرين سيان . فهؤلاء الناس لم يكونوا ينظرون إلى الأمام كما كانت تنظر هي ، تجهد كل عصب في جسدها ، تخاطر حتى بالشرف والسمعة لتستفيد من الذي فقدته . لقد كان أدنى من مقام الكثيرين منهم أن ينغمسوا في عمل مشين من أجل المال ، لقد كانت الأيام قاسية صعبة تتطلب من المرء الجرأة والنضال الصعب إذا ما أراد التغلب عليها . وكانت سكارلت تعرف أن تقاليد العائلات ستردع ، عنوة ، الكثيرين من هؤلاء الناس عن نضال كهذا . . . نضال غايته الصريحة ، هي جمع المال . لقد كان الجميع يظنون أن عملية جمع المال الصريحة ، وحتى الحديث عن المال ، أمران مبتذلان للغاية . طبعاً كان هناك استثناءات للمسألة : السيدة ميريويذر وفرنها ، رينيه يسوق عربة الفطير ، هيو ألسنغ يقطع الحطب ويبيعه متجولاً ، تومي يعمل مقاولاً ، وفرانك يمتلك الرغبة العملية ليؤسس مخزناً تجارياً . ولكن ماذا حل بمراتبهم الاجتماعية؟ سيحرث المزارعون فدادين قليلة ويعيشون في الفقر ، وسيعود المحامون والأطباء إلى مهنهم وينتظرون الزبائن الذين كان من المحتمل أن لا يأتوا أبداً ، أما الآخرون ، أولئك الذين كانوا قد عاشوا على دخلهم ، دون عمل يقومون به ! ماذا سيحل بهم؟

وبينما هي في تلك التأملات عادت إليها من تجاويف عقلها كلمات كان ريت قد تفوه بها في سني الحرب الأولى ، كلمات تتعلق بالمال الذي كان قد جمعه في أثناء الحصار . ولم تكن سكارلت آنئذ قد كلفت نفسها مشقة فهم تلك الكلمات ، غير أنها بدت الآن في غاية الوضوح ، وتساءلت عما إذا كان الذي منعها عن تقدير تلك الكلمات في ذلك الوقت هو صغر سنها فقط أو حماقتها .

ـ «في أثناء انهيار حضارة ما يوجد مال كثير ليجنى ، تماماً بقدر المال الذي يوجد في أثناء ازدهار حضارة أخرى» .

ـ «هذا هو الانهيار الذي كان قد تنبأ به» فكرت سكارلت «ولقد كان مصيباً، فما زال يوجد مال وفير ليجنيه أي إنسان لا يخاف العمل . . . أو الاستغلال» .

ورأت فرانك آتياً نحوها عبر القاعة، وبيده كأس من خمر وقطعة صغيرة من الكعك موضوعة في صحن فنجان شاي . فأسرعت في إضفاء ابتسامة على وجهها، دون أن يخطر لها أن تتساءل عما إذا كانت تارا تستحق التزوج بفرانك . لقد كانت تعرف أنها تستحق، فلم تعط القضية ثانية من تفكيرها .

وابتسمت له وهي ترتشف الخمر، وأدركت أن وجنتيها كانتا موردتين جذابتين، أكثر من وجنتي أي من الراقصات، ولملمت تنورتها كي يجلس بجانبها، ولوحت منديلها بتوان كي تبلغ أنفه الرائحة العطرة الخفيفة . وقد لاحظ فرانك ذلك، وهمس في أذنها في نوبة من الجرأة، قائلاً إنها كانت موردة الوجنتين، شذية الرائحة كالوردة .

آه، حبذا لو لم يكن حيياً، لقد كان يذكرها بأرنب حقل بني عجوز جبان، حبذا لو كان يملك الشهامة والحمية، الصفتين اللتين كان يتمتع بهما أبناء تارلتون، أو حتى الوقاحة الفظة التي كان يتصف بها ريت بتلر . ولكن، لو كان فرانك يملك هذه الصفات، لكان من المرجح أن ينعم بإدراك كاف يجعله يحس باليأس الذي كان يكمن تحت جفنيها الخافقتين . غير أن الواقع أن فرانك لم يكن يعرف عن النساء ما يدفعه حتى إلى الارتياب بما كانت على وشك التصريح به، وكان ذلك من حسن حظها، غير أنه لم يزد من احترامها له .

36

لم يمض أكثر من أسبوعين حتى تزوجت سكارلت فرانك كندي إثر غزل عاصف ، قالت عنه لفرانك بحياء ، إنه تركها عاجزة عن أن تقاوم أكثر رغبته الجامحة .

ولم يدر فرانك أنها ، خلال تينك الأسبوعين ، كانت تذرع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً ، في كل ليلة ، تصر أسنانها غيظاً من بطء فهمه للتلميحات والعبارات المشجعة ، وتصلي كي لا تصله أية رسالة غير متوقعة من سولين تهدم خططها . لقد كانت تشكر الله لأن شقيقتها كانت أقل الناس كتابة للرسائل ، فكانت تحب استلام الرسائل وتمقت كتابتها . ولكن كانت هناك إمكانية لكتابتها دائماً . . . إمكانية لأن تكتب له ، فكرت سكارلت في ساعات الليل الطويلة ، وهي تمشي جيئة وذهاباً ، على أرض غرفة نومها الباردة ، وشال أمها الباهت يحوط ثوب نومها . ولم يدر فرانك ، كذلك ، أن سكارلت قد تلقت رسالة مقتضبة من ويل ، ينبئها فيها أن جوناس ويلكرسون قد زار تارا ثانية وأنه عندما وجد أنها قد ذهبت إلى أتلانتا ، راح يرغي ويزبد إلى أن أبعده ويل وآشلي عن المكان . وقد قرعت رسالة ويل على وتر الحقيقة في عقلها ، الحقيقة التي كانت تعرفها تمام المعرفة . . . أن موعد دفع الضرائب الإضافية كان يزداد قرباً . وفيما هي ترى الأيام تدبر سريعاً ، تملكها يأس ضار ، وتمنت أن لو تقبض على الساعة الرملية بيدها لتمنع رملها من الانهيار .

على أنها أخفت شعورها بمهارة فائقة ، وبمهارة فائقة مثلت دورها فلم يشك فرانك بشيء البتة ، ولم ير أكثر مما كان بادياً . . . أرملة تشارلز هاملتون الفتية الجميلة الحائرة ، التي كانت تحييه كل ليلة في ردهة العمة بيتي بات ، وتصغي إليه بإعجاب ، محتبسة النفس ، وهو يتحدث عن مشاريع المستقبل لمخزنه ، وعما يتوقع أن يجمع من المال عندما يصبح بمقدوره شراء المنجرة . كانت مشاركتها الرقيقة لشعوره ، واهتمامها المتمثل في عينيها المشرقتين ، بكل كلمة ينطق بها ، كان ذلك بمثابة بلسم للجرح الذي كان نكث سولين المزعوم قد أحدثه له . لقد كان قلبه متألماً حائراً من سلوك سولين . وكان غروره ، الغرور الحيي النزق

لعازب متوسط السن يعرف أنه غير جذاب للنساء ، قد جرح جرحاً عميقاً ، كما أنه لم يستطع أن يكتب إلى سولين يؤنبها على عدم وفائها له ، فقد نفر من مجرد التفكير بذلك . ولكنه استطاع أن يواسي قلبه بالتحدث عنها إلى شقيقتها دون أن يتفوه بكلمة نابية عن سولين . وكذلك استطاعت سكارلت أن تخبره عما كان أسوأ معاملة شقيقتها له ، وعن أي معاملة حسنة كان هو يستحق من امرأة تقدره حقاً .

لقد كانت السيدة هاملتون الصغيرة امرأة جميلة موردة الخدين . تنتقل بين التنهدات المغمة عندما تفكر بورطتها المحزنة ، وبين الضحك والعذاب الهنيء الذي كان يشبه رنين الأجراس الفضية الصغيرة ، عندما كان فرانك يروي فكاهات صغيرة ليبهجها . وكان فستانها الأخضر ، الذي كان الآن قد نظف جيداً بيدي مامي ، ينم بصورة تامة عن جسدها النحيل ذي الخصر الرشيق . وما كان أشد سحر العطر الخفيف الذي يلازم دائماً منديلها وشعرها ! لقد كان من العار أن تظل امرأة شابة جميلة كهذه وحيدة حائرة ، في دنيا قاسية جداً إلى درجة لم تستطع معها حتى فهم قساوتها . ولم يكن لها زوج أو أخ ، أو حتى أب قادر على حمايتها في هذه الأونة الصعبة . وفكر فرانك أن الدنيا أضحت مكاناً فظاً جداً لامرأة وحيدة ، وعلى هذه الفكرة وافقته سكارلت بصمت ومن صميم القلب .

كان فرانك يأتي للزيارة كل ليلة ، لأن جو منزل بيتي كان ساراً ملطفاً ، فابتسامة مامي على الباب الأمامي كانت الابتسامة التي يحتفظ بها لكرام الناس ، وكانت بيتي تقدم له القهوة ممزوجة بالبراندي ، وتحوم حوله ، بينما كانت سكارلت تصغي باهتمام لكل كلمة ينطق بها ، وكان فرانك يصطحب سكارلت معه في عربته بعد الظهر أحياناً ، عندما يخرج في إحدى المهمات ، وكانت هذه الركوبات سارة له ، لأن سكارلت كانت تسأله خلالها أسئلة سخيفة كثيراً جداً ـ «كالنساء تماماً» على حد قوله لنفسه باستحسان . ولم يكن بوسعه إلاّ أن يضحك على جهلها بأمور العمل ، وكانت هي أيضاً تضحك قائلة :

- «لا يمكن أن تتوقع من امرأة فتية حمقاء مثلي أن تفهم شؤون الرجال» ، وجعلته يشعر للمرة الأولى ، في حياته العانسة الطويلة ، أنه كان رجلاً قوياً

مستقيماً ، خلقه الله من طينة أنبل من طينة غيره من الرجال ، خلقه ليحمي النساء العاجزات الحمقاوات .

وعندما وقفا معاً أخيراً ، لإتمام عقد زواجهما ، ويدها المطمئنة الصغيرة في يده ، وأهدابها المسبلة تلقي ظلالاً هلالية كثيفة قاتمة على وجنتيها الموردتين ، كان فرانك لا يزال يجهل كيف حدث كل هذا الشيء ، وكان يعرف فقط ، أنه قام بعمل رومانسي مثير ، لأول مرة في حياته . إنه فرانك كندي ، الذي طوح بهذه المخلوقة الجذابة من قدميها إلى ذراعيه . وقد كان ذلك الشعور عنده شعوراً دافقاً .

لم يقف معهم في العرس قريب أو صديق . وكان الشهود غرباء استدعوا من الشارع . لقد أصرت سكارلت على ذلك «فقط كلانا يا فرانك» رجته ضاغطة على ذراعه «كالحبيبين الفارين . لقد كنت دائماً أرغب في أن أهرب وأتزوج ! أرجوك يا حبيبي ، فقط من أجلي !» .

وقبل أن يفكر ، كان قد تزوج .

*

وهكذا منحها فرانك الثلاثمائة دولار ، وقد أربكه إلحاحها العذب بعد أن تمنع في البداية ، لأن ذلك كان يعني نهاية أمله في شراء المتجرة حالاً . غير أنه لم يكن بوسعه أن يرى عائلته تشرد ، وسرعان ما تضاءلت خيبته عندما رأى سعادتها المشرقة ، ثم تلاشت تماماً بفعل الأسلوب الحبي الذي كانت تستجيب به لأريحيته . ولم يكن فرانك قد عرف امرأة تتأثر به من قبل ، ولذلك انتهى إلى الشعور بأن النقود صرفت كما ينبغي .

أرسلت سكارلت مامي إلى تارا بمهمة ثلاثية : إعطاء النقود إلى ويل ، وإعلان نبأ زواجها ، وإحضار ويد إلى أتلانتا . وبعد يومين تلقت رسالة قصيرة من ويل ، رسالة حملتها وراحت تطوف بها ، وتقرأها وتعيد قراءتها بفرح غامر . لقد كتب لها ويل أن الضرائب قد دفعت ، وأن جوناس ويلكرسون قد استشاط غيظاً عندما بلغه النبأ ، غير أنه لم يوجه لهم تهديدات جديدة . وختم ويل رسالته متمنياً لها السعادة بعبارة رسمية موجزة لم يحملها أي معنى آخر . وعرفت هي أن ويل أدرك الذي فعلته ، ولم يلمها ولم يثن عليها ، ولكن ماذا ينبغي لآشلي أن يفكر؟ تساءلت بلهفة محمومة . ماذا ينبغي له أن يفكر بي

الآن ، بعد الذي قلته له منذ فترة قصيرة جداً في بستان تارا؟

وتلقت سكارلت أيضاً رسالة من سولين ، رسالة مليئة بالأخطاء الإملائية ، رسالة قاسية بذيئة ملطخة بالدموع ، مفعمة جداً بالحقد والتعليقات الصادقة عن سلوكها ، بحيث لم تكن لتنساها أو تسامح كاتبتها . ولكن حتى كلمات سولين لم تكن لتستطيع تعكير سعادتها الناجمة من أن تارا كانت قد سلمت ، وعلى الأقل ، من خطر فوري .

لقد كان من الصعب أن تتحقق أن أتلانتا ، وليست تارا ، أضحت الآن مقرها الدائم . فخلال استماتتها للحصول على نقود الضرائب ، لم يكن يشغل تفكيرها سوى تارا ، والمصير الذي يتهددها . وحتى في لحظات العرس ، لم تلق بالاً إلى حقيقة أن الثمن الذي كانت تدفعه مقابل سلامة بيتها ، هو النفي الدائم عنه . والآن وقد أنجزت المهمة ، تبينت هذا الأمر بفيض من الحنين إلى البيت ، وصعب عليها الخلاص من ذلك الشعور . ولكن تلك كانت حقيقة أمرها ، لقد أتمت صفقتها وعزمت على أن تقف إلى جانبها . ولقد كانت شاكرة جداً لفرانك لأنه أنقذ تارا ، بحيث أنها شعرت بعاطفة حارة نحوه ، وبتصميم أكيد حار يعادل تلك العاطفة ، على أن ينبغي أن لا يندم أبداً على التزوج بها .

كانت سكارلت تعرف أن أتلانتا كانت تتحدث عنها ولكنها لم تعبأ بذلك . فعلى كل حال لم يكن يوجد أي أمر مشين في التزوج برجل ، ثم إن تارا سلمت ، فليتحدث الناس . إن لديها أموراً كثيرة جداً لتشغل عقلها بها ، وكان أهم هذه الأمور يتعلق بكيفية جعل فرانك يدرك ، بطريقة ماكرة لبقة ، أن مخزنه يجب أن يدر نقوداً أكثر . ذلك أنه بعد الرعب الذي كان قد انتابها من جوناس ويلكرسون ، لم تكن لتنعم براحة البال ، إلى أن تدخر هي وفرانك بعض المال ، وحتى إذا لم تنزل بهما حاجة ملحة ، فإن فرانك سيحتاج إلى جني نقود أكثر ، إن هي أرادت أن توفر مبلغاً كافياً لتسديد ضرائب السنة القادمة . أضف إلى أن ما قاله فرانك عن المنجرة ، كان قد ثبت في عقلها . فبوسع فرانك أن يجني أموالاً طائلة من معمل نجارة ، بل إن ذلك بوسع أي إنسان ، طالما أن الخشب يباع بهذه الأثمان الفادحة . واغتاظت بصمت لأن نقود فرانك لم تكن تكفي لدفع ضرائب تارا وشراء المصنع أيضاً . وأجمعت رأيها

على أن عليه أن يكسب نقوداً أكثر من المخزن بطريقة ما ، وأن ينجز ذلك بسرعة ، كي يستطيع شراء المعمل قبل أن ينتزعه شخص آخر . لقد استطاعت أن ترى أنه صفقة رابحة .

ولو كانت سكارلت رجلاً لكانت ابتاعت ذلك المعمل ولو اضطرت إلى رهن المخزن من أجل إيجاد المال . ولكنها عندما اقترحت ذلك على فرانك بطريقة لبقة ، في اليوم التالي ليوم زواجهما ، ابتسم وأخبرها أن لا تزعج رأسها الجميل البديع الصغير في شؤون العمل . لقد فاجأه أنها كانت تعرف حتى ماذا يعني الرهن ، وطرب في بادئ الأمر ، ولكنه سرعان ما زاولته الفرحة ، ليحل محلها شعور بالصدمة ، ولما يزالا في أيام زواجهما الأولى ، وكان قد أخبرها فيما مضى ، ودون انتباه منه ، أن أناساً (وحرص على أن لا يذكر أسماءهم) كانوا مدينين له ، ولكن لم يكن بوسعهم أن يوفوا ديونهم الآن . وكان هو ، طبعاً ، غير راغب في أن يحرج هؤلاء الأصدقاء القدامى والناس الطيبين . وقد ندم فرانك على ذكر هذه الحقيقة أمامها . لأنه منذ ذلك الوقت ، وسكارلت تسأله عنها مرة بعد مرة . لقد كانت تنعم بأعظم المظاهر الوديعة سحراً ، ولكنها كانت فقط متلهفة ، كما قالت ، لتعرف الذين كانوا مدينين له ، ومقدار ديونهم . وكان فرانك يراوغ كثيراً حول هذه القضية ، فيسعل بعصبية ويلوح بيديه ويكرر عبارته المزعجة عن رأسها الصغير الجميل البديع .

وكان فرانك قد بدأ يسقط في يده ، لأن هذا الرأس الصغير الجميل البديع نفسه ، كان رأساً ماهراً في الأرقام ، وفي الحقيقة ، كان رأساً أمهر بكثير من رأسه ، الأمر الذي أزعجه . لقد أذهله أن يكتشف أنه كان بوسعها جمع عمود طويل من الأعداد عقليّاً ، بينما كان هو يحتاج إلى قلم وورقة من أجل جمع أكثر من ثلاثة أعداد . وكانت الكسور لا تمثل أية صعوبة بالنسبة إليها . وأحس فرانك أن هناك شيئاً غير لائق في امرأة تفهم الكسور وشؤون العمل . وأعتقد أنه إذا ما قدر لامرأة أن تكون سيئة الحظ بامتلاكها فهماً لا يليق بالسيدات كهذا الفهم ، فإن عليها أن تتظاهر بعدم مقدرتها على ذلك . وغدا الآن يكره أن يتحدث عن العمل معها ، بقدر ما كان يبهجه ذلك قبل زواجهما . لقد كان آنئذ يعتقد أن هذه الأمور أبعد من متناول عقلها ، وكان من الممتع له أن يشرح لها هذه الأمور ، وها هو الآن قد أدرك أنها تفهم كل شيء فهماً تاماً . وأحس

بسخط الرجل على رياء النساء ، مضافاً إلى ذلك خيبة أمل الرجل المعتادة عند اكتشافه أن امرأة تملك عقلاً .

أما بعد كم من أيام زواجه علم فرانك بالخدعة التي استخدمتها سكارلت لتتزوج منه ، فلم يعرف أحد أبداً ، ربما اتضحت له الحقيقة عندما جاء طوني فونتين إلى أتلانتا في مهمة عملية ، وكان من الواضح أنه أعزب خلي البال . وربما أنبئ بالحقيقة بصورة أكثر مباشرة ، في رسائل من شقيقته التي كانت تقطن جونسبورو والتي ذهلت بنبإ زواجه . على أنه حتماً لم يعلم بالأمر من سولين نفسها ، فهي لم تكتب له أبداً . ولم يستطع هو طبعاً أن يكتب ويوضح الأمر لها ، وأي فائدة كانت ستؤتيها الإيضاحات ، على كل حال ، وقد غدا متزوجاً الآن؟ وهكذا كان يتلوى ألماً في نفسه وهو يفكر بأن سولين لن تعرف الحقيقة وأنها ستفكر دائماً أنه هو الذي كان قد شجعها على الحب ثم أعرض عنها بقلب عديم الإحساس ، وأن من المرجح أن يكون جميع الآخرين يفكرون بهذا التفكير أيضاً ، وينتقدونه ، الأمر الذي وضعه حتماً ، في موقف لا يحسد عليه . ولم يكن فرانك يملك طريقة يبرئ نفسه بها ، لأنه لم يكن بوسع الرجل أن يدور بين الناس قائلاً إنه كان قد فقد عقله في حب امرأة ـ كما أن الرجل الفاضل لم يكن يسعه أن يعلن عن حقيقة أن زوجته كانت قد اصطادته بكذبة .

لقد كانت سكارلت زوجته ، وكانت الزوجة تكتسب حق إخلاص زوجها لها . وأكثر من هذا ، إن فرانك لم يكن يستطيع أن يقنع نفسه كي تصدق بأن سكارلت كانت قد تزوجته ببرود وبلا عاطفة نحوه أبداً . فغرور الرجل فيه لن يسمح لفكرة كهذه أن تبقى طويلاً في عقله ، وكان من المبهج أكثر أن يفكر أنها كانت قد وقعت في حبه فجأة بحيث رضيت بالكذب في سبيل أن تظفر به . بيد أن القضية كلها كانت محيرة جداً . لقد كان يعرف أنه لم يكن غنيمة كبيرة لامرأة تبلغ من العمر نصف عمره ، امرأة جميلة أنيقة حتى نعليها . على أن فرانك كان رجلاً نبيلاً ، ولذلك احتفظ بحيرته في نفسه . لقد كانت سكارلت زوجته ، ولم يكن بوسعه أن يهينها بسؤالها أسئلة مربكة لن تصحح الأمور في النتيجة .

ولم يكن فرانك ، بصفة خاصة ، يرغب في تصحيح الأمور ، فقد بدا له أن

زواجه سيكون زواجاً سعيداً . لقد كانت سكارلت أعظم النساء فتنة وإثارة ، واعتقد هو أنها كانت كاملة في كل شيء ـ سوى أنها كانت عنيدة جداً . وأدرك منذ بدء زواجه أنه طالما تركت سكارلت تتصرف على هواها ، فإن الحياة يمكن أن تكون بهيجة ، ولكنها عندما كانت تعارض . . . وحين كانت تترك لتتصرف على هواها ، كانت تكون هنيئة كطفلة ، تضحك كثيراً جداً ، وتأتي دعابات صغيرة سخيفة ، وتجلس على ركبته وتنتش لحيته ، حتى إنه أقسم أنه كان يشعر بأنه أصغر من عمره بعشرين سنة . كما كانت تكون كذلك عذبة مفكرة بصورة غيرمتوقعة : تدفئ خفيه على النار عندما يعود إلى البيت ليلاً ، وتلغط بحنان ، خوفاً على قدميه المبللتين ورأسه المصاب بالزكام الذي لا نهاية له . وكانت تتذكر أنه كان يحب دائماً قوانص الدجاج ، وثلاث ملاعق سكر في قهوته . أجل ، لقد كانت الحياة لذيذة مريحة جداً مع سكارلت ـ طالما أنها تترك على هواها .

وبعد أسبوعين من زواجه ، أُصيب فرانك بالإنفلونزا ، وأمره الطبيب ميد بأن يلزم فراشه . وكان فرانك في أول سني الحرب قد أمضى شهرين في المستشفى مريضاً بداء الرئة ، ومنذ ذلك الوقت ، وهو يعيش في رعب من أن يهاجمه ذلك الداء ثانية . ولذلك كان سعيداً جداً في أن يضطجع تحت ثلاث حرامات ، يتصبب عرقاً ويشرب الدواء الساخن الذي حضّرته مامي والعمة بيتي ، وراحتا تعطيانه له في كل ساعة .

وطال مرضه ، وقلقه على مخزنه يزداد يوماً بعد يوم . لقد كان المخزن في عهدة المحاسب ، الذي كان يأتي إلى البيت في كل ليلة ليقدم تقريراً عن مبيع اليوم . ولكن فرانك لم يكن مطمئناً ، فظل يتبرّم إلى أن وضعت سكارلت ، التي كانت تنتظر فرصة كهذه ، يداً باردة على جبينه وقالت : «اسمع يا حبيبي ، سأتضايق إذا استمررت على هذه الحال . سأذهب إلى المدينة وأرى بنفسي كيف تسير الأمور في المخزن» .

وذهبت ، وابتسمت عندما خنقت احتجاجاته الضعيفة . لقد ظلت خلال الأسابيع الثلاثة من أيام زواجها الجديد في لهفة محمومة إلى رؤية دفاتر حساباته واكتشاف حقيقة وضع أحواله المادية . ما أسوأ حظه لكونه طريح الفراش .

كان المخزن يقع قرب فايف بوينتس ، وكان سقفه الجديد يتزلق أمام الآجر المسود للجدران القديمة . لم تكن الأرض مبلطة ، ، وكان الخليط المتنوع من المواد مكوماً ، يختلط حابله بنابله فوق الأرض المملوءة بالبضائع . ورأت سكارلت في شبه الظلام ، صناديق وبالات من البضائع ومحاريث وعدد خيل وسروج ونواويس صنوبرية رخيصة وأثاثاً مستعملاً مصنوعاً من أنواع كثيرة من الخشب ابتداء من الخشب الصمغي الرخيص إلى خشب الورد ، كل ذلك رأته مكدساً في العتمة . وكانت الأقمشة الحريرية المعرقة الثمينة ، ولكن البالية ، والمفروشات المصنوعة من شعر الخيل ، تلمع بصورة متناقضة في ما يحيط بها من ظلام .

ـ «لقد كنت أفكر أن رجلاً عازباً كبيراً كفرانك ، يحفظ البضائع بصورة أكثر ترتيباً» هجست وهي تمسح يديها القذرتين بمنديلها «إن هذا المكان مجرد حظيرة خنازير . . . أي طريقة هذه في إدارة مخزن ! حبذا لو أنه أزال هذا الغبار عن البضاعة وأخرجها أمام المخزن حيث يتمكن الناس من رؤيتها ، لكان بوسعه إذاً أن يبيع بضاعته بسرعة أكثر . وإذا كانت بضاعته بهذه الحالة فماذا ينبغي أن تكون حساباته إذاً؟» .

سأنظر في دفتر حساباته الآن ، فكرت ، وتناولت المصباح وخرجت إلى مقدمة المخزن . وتردد ويلي المحاسب في إعطائها دفتر الحسابات الكبير المتسخ الدفتين . لقد كان من الجلي أنه ، رغم صغر سنه ، يشارك فرانك رأيه في أن النساء ليس لهن مكان في ميدان العمل ، ولكن سكارلت أسكتته بكلمة قاسية وأرسلته إلى الخارج ليتناول غداءه . وعندما ذهب أحست براحة أكثر لأن معارضته كانت قد ضايقتها ، ثم استقرت في كرسي مشقوق القاعدة ، قرب الموقد الهادر ، ودست إحدى قدميها تحتها ، وفتحت الدفتر على حجرها . وكان الوقت وقت الغداء والشوارع مهجورة ، فلم يأت زبائن ، ولذا أضحى المخزن لها وحدها .

أخذت تقلب الصفحات ببطء ، وتنعم النظر بدقة في صفوف الأسماء والأرقام المكتوبة بيد فرانك المشدودة ، كأنها طابعة نحاسية ، لقد كان الدفتر كما توقعت تماماً . وتجهم وجه سكارلت عندما رأت أحدث دليل على قلة إدراك فرانك في العمل ، فعلى الأقل كان هناك دين يبلغ خمسمائة دولار ،

وبعضه قد مضى عليه أشهر . كانت الديون مسجلة بأسماء أناس تعرفهم جيداً ، وكان اسم آل ميريويذر بين أسماء العائلات المعروفة الأخرى ، وكانت سكارلت قد تخيلت ، بناء على أقوال فرانك المتملص فيها عن النقود المدينة للناس ، أن المبالغ المدينة كانت قليلة . ولكن لماذا هذا الدين؟

ـ «إن كانوا لا يستطيعون الدفع فلماذا يستمرون في الشراء» فكرت مغتاظة «وإن كان هو يعرف أنهم لا يستطيعون الدفع ، فلماذا يستمر في بيعهم بضائعه؟ لقد كان بوسع الكثيرين منهم أن يدفعوا لو أنه طلب منهم ذلك فقط . فمن الأكيد أن آل ألسنغ كان بمقدورهم أن يدفعوا ، طالما أنهم استطاعوا شراء فستان جديد لفاني ، وإقامة عرس باهظ لها . إن فرانك مجرد إنسان رقيق القلب جداً والناس يستغلونه . كيف لا ، وهو لو استطاع جمع نصف هذه النقود لكان بوسعه شراء المنجرة ، ولوفر لي بسهولة ضرائب تارا أيضاً» .

ثم فكرت «تصوروا فقط أن فرانك يدير منجرة ! يا لله ! طالما أنه كان يدير هذا المخزن كمؤسسة إحسان ، فكيف وسعه أن يتوقع جني المال من منجرة؟ سيضع مأمور التنفيذ في المدينة يده على منجرة فرانك بعد شهر . إن بمقدوري أنا أن أدير هذا المخزن أفضل مما يفعل هو ، وإن بمقدوري كذلك أن أدير مصنعاً أفضل مما يستطيع هو ، حتى ولو أني لا أعرف شيئاً عن صناعة الأخشاب !» .

ورافق تفكير سكارلت ، بأنها مقتدرة كرجل ، شعور دافق مفاجئ من الكبرياء ، ولهفة زاخمة لإثبات هذه الفكرة ، لجمع نقود لنفسها ، نقود تكون خاصتها هي ، نقود لن تضطر إلى طلبها أو تعليل طلبها من أي رجل .

ـ «حبذا لو كان لدي مال كاف لأشتري ذلك المعمل أنا نفسي» قالت بصوت مرتفع وتنهدت «فأنا واثقة من أني سأجعله يدوي بضجيج العمل ، ولن أدع حتى شظية خشب صغيرة تخرج منه بالدين» وتنهدت ثانية ، إذ لم يكن هناك مصدر تستطيع أن تأخذ منه نقوداً ، وهكذا بدت الفكرة خارجة عن الموضوع .

ينبغي على فرانك ببساطة أن يجمع هذه النقود التي تخصه ويشتري المعمل ، المعمل الذي هو وسيلة أكيدة لجني المال . وعندما يقتني المعمل ، ستجد هي حتماً وسيلة ما ، تجعله أكثر مهارة في إدارته من إدارته للمخزن .

ونزعت صفحة خلفية من الدفتر ، وشرعت تنسخ قائمة بأسماء المدينين

الذين لم يكونوا قد دفعوا منذ عدة شهور ، إذ ستبحث المسألة مع فرانك عندما تبلغ البيت ، ستجعله يدرك أن على هؤلاء الناس أن يدفعوا ديونهم حتى ولو كانوا أصدقاء قدامى ، حتى ولو أزعجه أن يضغط عليهم من أجل المال ، لقد كان من المرجح أن يتكدر فرانك من ذلك ، لأنه كان هيّاباً مغرماً برضى أصدقائه . لقد كان حييّاً جداً ، بحيث كان يفضل خسارة نقوده على أن يتصرف تصرف رجل عمل فيما يتعلق باستيفاء تلك الديون .

ومن المرجح أن يخبرها أن لا أحد من هؤلاء المدينين يملك نقوداً لدفعها . لا بأس ، قد يكون ذلك حقيقياً ، غير أن الفقر لم يكن شيئاً جديداً بالنسبة إليها ، ولذا فهي تعلم أن كل إنسان تقريباً ، كان قد أنقذ الأواني الفضية أو المجوهرات ، أو كان ما زال ينعم بملكية حقيقية صغيرة ، وبوسع فرانك أن يأخذ هذه الأشياء عوضاً عن نقوده .

واستطاعت سكارلت أن تتخيل كيف سيتأوه فرانك ألماً عندما تعرض عليه فكرة كهذه : أن يأخذ المصاغ والملكية من أصدقائه ! حسناً ، هزت كتفيها ، بوسعه أن يتأوه كما يشاء ، فأنا سأخبره آنذاك أن بإمكانه أن يرضى بالبقاء فقيراً في سبيل الصداقة ، ولكن ليس بإمكاني ذلك . ولن ينجح فرانك في أي مضمار إن هو لم يصبح رجلاً عملياً ، ولا بد له من أن ينجح في أحد الميادين ! لا بد له من أن يجني مالاً حتى لو اضطررت إلى أن ألعب دور الرجل في العائلة لأساعده على القيام بذلك .

كانت سكارلت منهمكة بالكتابة ، ووجهها متجهم من الجهد ، ولسانها مضغوط بين أسنانها ، عندما انفتح الباب الأمامي ، واجتاح المخزن تيار دافق من الريح الباردة ، ودخل الحانوت المعتم رجل طويل ، كان يمشي بخطوات خفيفة كخطوات الهنود . ورفعت سكارلت بصرها لترى ريت بتلر أمامها .

كان يبدو بهي الطلعة ، بملابس جديدة ، ومعطف وشال جذاب ملقى من خلف كتفيه القويتين . وعندما قابلت عيناها عينيه نزع قبعته الطويلة وانحنى انحناءة كبيرة ، ثم اتجهت يده إلى صدر قميص نظيف مثنى ، ولمعت أسنانه البيضاء بصورة مخيفة في وجهه الأسمر ، وقلّبتها عيناه الوقحتان .

- «عزيزتي السيدة كندي» قال ذلك ومشى نحوها «عزيزتي العزيزة السيدة كندي !» وانفجر في ضحكة مدوية .

ذعرت سكارلت في بادئ الأمر كأن شبحاً قد غزا المخزن ، ولكنها بعدئذ سرعان ما أخرجت قدمها من تحتها واستقامت بجلستها ورمقته بنظرة باردة .

ـ «ماذا تفعل هنا؟» .

ـ «زرت الآنسة بيتي ، وعلمت بنبإ زواجك ، فهرعت إلى هنا لأهنئك» .

فاحمر وجهها من العار ، وقد تذكرت إهانتها على يديه .

ـ «أنا لا أرى كيف تملك الجرأة لتواجهني !» .

ـ «بالعكس ! أنت كيف تملكين الجرأة لتواجهيني؟» .

ـ «ها ، إنك أشد . . .» .

ـ «ألا ندع الأبواق تنفخ من أجل الهدنة؟» وابتسم لها ابتسامة عريضة براقة ، تشوبها الوقاحة ، لا العار من أفعاله أو اللوم على أفعالها . ورغماً عنها اضطرت إلى أن تبتسم أيضاً ، ولكن ابتسامتها كانت ملتوية متكدرة .

ـ «يا للأسف لأنهم لم يعدموك !» .

ـ «أخشى أن يكون آخرون يشاركونك شعورك هذا . اسمعي يا سكارلت ، خففي ثورتك ، فأنت تظهرين كأنك ابتلعت مدك بندقية ، الأمر الذي لا يليق بك . من الأكيد أنك نعمت بمتسع من الوقت لتتعافي من . . . أعني . . . من دعابتي الصغيرة» .

ـ «دعابة؟ ها ! أنا لن أنساها أبداً !» .

ـ «لا ، بل ستنسين . إنك لا تظهرين بهذا الوجه الحانق ، إلاّ لأنك تعتقدين أنه المظهر اللائق الذي يدعو إلى الاحترام . هل يمكنني الجلوس؟» .

ـ «لا» .

ولكنه تهالك على كرسي بجانبها وافتر ثغره مبتسماً .

ـ «علمت أنك لم تستطيعي حتى أن تنتظريني أسبوعين» قال وتنهد ساخراً «ما أشد تقلب المرأة !» .

وعندما لم تجب ، تابع حديثه .

ـ «أخبريني يا سكارلت ، بين صديقين فقط ـ بين صديقين قديمين جداً ، وودودين جداً ـ ألم يكن من الأفضل أن تنتظري إلى حين خروجي من السجن ، أو أن مغريات الزواج بفرانك كندي كانت أكثر إغراء من العلاقات المحرمة معي؟» .

وكما كانت العادة دائماً ، حين كانت سخريته تثير الغضب فيها ، تعارك الحنق والضحك في نفس سكارلت بفعل وقاحته .

ـ «لا تكن أحمق» .

ـ «وهل لديك مانع في أن تشبعي فضولي في قضية واحدة أقلقتني بعض الوقت؟ أليس لديك كرامة أنثوية ، إباء ، نفور رقيق من الزواج ، ليس برجل واحد فحسب ، بل برجلين لم تكوني تشعرين بأدنى حب لهما أو حتى بأدنى ميل؟ أو هل فهمت خلاف الواقع فيما يتعلق برقة أنوثتنا الجنوبية؟» .

ـ «ريت !» .

ـ «إني أملك الجواب على سؤالي ، لقد كنت أشعر دائماً أن لدى النساء صلابة وجلداً يجهلهما الرجال ، وذلك رغم الفكرة الرائعة التي لقنتها وأنا في عهد الطفولة ، من أن النساء مخلوقات ضعيفة رقيقة حساسة . ولكن على كل حال ، وطبقاً لقانون الأخلاق العادي في أوروبا ، يعتبر من العادات السيئة أن يحب الزوجان واحدهما الآخر ، عادة رديئة جداً في الحقيقة . لقد كنت دائماً أشعر أن فكرة الأوروبيين هي الفكرة الصائبة في هذا الموضوع : تزوج من أجل الراحة ، وأحب من أجل المتعة . إنه نظام معقول . ألا تعتقدين كذلك؟ إنك أقرب إلى الأوروبيين مما كنت أعتقد» .

كم يكون من الممتع أن لو تصيح به : «إني لم أتزوج من أجل الراحة !» ولكن لسوء الحظ ، لقد تغلب ريت عليها في تلك النقطة ، وأي احتجاج منها تمليه البراءة المهانة سيؤدي إلى عبارات جارحة منه فقط .

ـ «كيف أنك تتابع حديثك !» قالت ببرود . ثم سألته وهي متشوّقة إلى تغيير الموضوع :

ـ «كيف خرجت من السجن؟» .

ـ «ها ، ذلك !» أجاب مبدياً حركة خفيفة الروح «إنه ليس بمشقة عظيمة . لقد أطلقوا سراحي هذا الصباح ، وكنت قد استخدمت نظاماً دقيقاً من البريد السري إلى صديق لي في واشنطن يحتل منصباً رفيعاً جداً في مجلس الحكومة الفدرالية . . . رجل عظيم . . . أحد وطنيي الاتحاد الأوفياء الذين كنت قد اعتدت أن أشتري منهم للحلف بنادق وتنانير وأطواق ، وعندما وصلت قضية سجني المؤلمة إلى رعايته في شكلها الصحيح ، اسرع في استخدام نفوذه ،

وهكذا أطلق سراحي . النفوذ هو كل شيء يا سكارلت . تذكري ذلك عندما يلقى القبض عليك . النفوذ هو كل شيء ، وما الإجرام والبراءة سوى مسألة أكاديمية» .

ـ «إني أقسم أنك لم تكن بريئاً» .

ـ «لا . الآن وقد تحررت من الأغلال ، أعترف بصراحة أني مجرم لقد قتلت الزنجي لأنه تواقح على سيدة ، وأي شيء غير هذا كان بوسع سيد جنوبي فاضل أن يفعل؟ وحيث أني أعترف الآن ، ينبغي أن أقر أيضاً أني قتلت فارساً شمالياً إثر تفوهه ببعض الكلمات في إحدى الحانات . ولم أتهم بتلك الهفوة ، ولذلك فقد يكون أعدم بسببها رجل مسكين منذ زمن .

كان مسروراً جداً بجريمتيه ، حتى إنها اقشعرت من ذلك وارتفعت إلى شفتيها كلمات سخط مؤدبة ، ولكنها تذكرت فجأة الشمالي الذي كان يرقد تحت عريشة الكرمة في تارا ، القتيل الذي لم يكن قد أرق ضميرها أكثر مما يمكن أن يؤرقها قتل صرصور قد تكون داسته . ولذلك لم يكن بوسعها أن تقف من ريت موقف القضاء بينما هي مجرمة مثله .

ـ «ولما كان من الجلي أني أصرح لك بكل شيء ، فينبغي إذاً أن أخبرك في ثقة مطلقة (وذلك يعني أن لا تخبري الآنسة بيتي بات) أني أملك النقود آمنة في مصرف في ليڤربول» .

ـ «النقود؟» .

ـ «أجل ، النقود ، التي كان الشماليون متلهفين إليها يا سكارلت . ولم تكن الخسة فقط هي التي منعتني من إعطائك النقود التي كنت بحاجة إليها ، فلو أني سحبت سنداً منها لكان بوسعهم أن يتتبعوه بطريقة ما ، الأمر الذي يجعلني أشك في إمكان نيلك شيئاً منها . وكان أملي الوحيد للاحتفاظ بالنقود هو أن لا أقدم على عمل شيء ، إذ كنت أعرف أن النقود في حرز حريز . ولو وقع المحذور ، أي لو عرفوا مكان وجودها وحاولوا انتزاعها مني ، فعندئذ كنت سأذكر أسماء جميع الوطنيين الشماليين الذين كانوا قد باعوني بنادق وذخائر في أثناء الحرب ، الأمر الذي كان يعني حدوث فضيحة ، لأن بعضهم يتقلد الآن مناصب رفيعة جداً في واشنطن . والحقيقة هي أن تهديدي بفضحهم هو الذي أخرجني من السجن . إني . . .» .

ـ «وهل تعني أنك . . أنك تملك حقاً ذهب الحلف؟» .

ـ «ليس كله . يا إلـهي العظيم ، لا ! لا بد أن يكون هناك خمسون مهرباً أو أكثر ، من المهربين السابقين ، يملكون مقادير كبيرة مخبأة في ناسو أو إنكلترا أو كندا . سيمقتنا الشماليون الذين لم يثبتوا مهارتهم كما فعلنا نحن ، إن لدي قرابة نصف مليون دولار . فقط فكري يا سكارلت ، نصف مليون دولار ! لو أنك كبحت طبيعتك النارية فقط . ولم تندفعي إلى حظيرة الزواج ثانية !» .

نصف مليون دولار . وشعرت بغصة ، بمرض جسماني تقريباً ، لدى تفكيرها بهذا المبلغ الكبير . وتجاوزت كلماته الساخرة رأسها دون أن تسمعها . كان من الصعوبة بمكان كبير أن تصدق أن هناك مالاً وفيراً بهذا المقدار في كل هذه الدنيا المريرة التي أخنى عليها الدهر . مبلغاً كبيراً كهذا ، وإنساناً غيرها يملكه ، إنساناً أخذه بسهولة ، دون أن يكون بحاجة إليه ، بينما هي لا تملك في هذا العالم العدواني سوى زوج كهل مريض ، وهذا المخزن الصغير القذر الحقير . ليس من العدل أن يملك رجل شرير كريت بتلر كل هذه الثروة ، بينما هي ، التي كانت تحمل عبئاً ثقيلاً جداً ، لا تملك إلاّ القليل القليل . وأحست بالكراهية نحوه ، وهو جالس هناك في كسائه الأنيق يعيرها . . . حسناً ، لن تزيد غروره بإطراء ذكائه . وتحرقت بدافع أثيم على كلمات جارحة تلذعه بها .

ـ «أظن أنك تفكرين أن من الأمانة أن أحافظ على مال الحلف . لا ، ليس كذلك ، فمن الجلي أن الأمر يعتبر خارج موضوع السرقة ، وأنت تعرفين ذلك ، ولن أحمّل ضميري تبعة سرقة» .

ـ «أماه ، ما أشد حموضة العنب هذه الأيام ! صاح مقطباً وجهه «أخبريني فقط من هو الذي أسرقه؟» .

كانت سكارلت مخلدة إلى الصمت ، تحاول أن تفكر بمن هو الذي يسرقه ريت حقّاً . وعلى كل حال ، فما فعله لم يكن سوى ما فعله فرانك على مقياس صغير .

ـ «إن نصف النقود مال حلال لي» أردف قوله «مال حلال جمعته بمساعدة مواطنين اتحاديين أمناء كانوا موافقين على بيع الاتحاد من خلف ظهره ـ مقابل بيع بضائعهم بربح مقداره مائة بالمائة . ثم هناك جزء آخر جنيته من تجاربي البسيطة في القطن في بداية الحرب ، القطن الذي كنت قد اشتريته رخيصاً ثم

بعته كل رطل بدولار ، عندما كانت المصانع البريطانية تستصرخ طلباً له ، وجزء ثالث كسبته من المضاربة بالمواد الغذائية . فلماذا يتوجب علي إذاً أن أدع الشماليين يأخذون ثمرة أتعابي؟ إلاّ أن الجزء الباقي يخص الحلف ، لقد حصلت عليه من أقطان الحلف التي استطعت تهريبها عبر الحصار وبيعها في ليفربول بأسعار خيالية . وكان القطن قد سلم إلي بثقة طيبة ، لأشتري به جلوداً وبنادق وآلات ، وكانت الأوامر الصادرة إلي تنص على أن أضع الذهب باسمي في مصارف إنكليزية ، وذلك كي تكون سمعتي طيبة ، وأنت تذكرين أيام أحكم طوق الحصار ، عندئذ لم أستطع أن أتسلل بقارب واحد من أي الموانئ الحلفية أو إليه . وهكذا بقيت الأموال في إنكلترا ، فماذا كان يجب علي أن أفعل؟ أأسحب كل ذلك الذهب من المصارف الإنكليزية كرجل غبي ، وأحاول تهريبه إلى ولمنفتون؟ هل أنا المسؤول عن إحكام طوق الحصار؟ هل أنا المسؤول عن فشل قضيتنا؟ لقد كان المال يخص الحلف . أجل ، ولا يوجد حلف الآن مع أنك لن تدركي ذلك ما لم تسمعي بعض الناس يتحدثون عنه . فإلى من سأعطي المال إذاً؟ إلى الحكومة الشمالية؟ إني أكره كرهاً شديداً أن يعتقد الناس بأني لص» .

وأخرج محفظة جلدية من جيبه ، وسحب منها سيجاراً طويلاً وشمه بانشراح وهو يراقبها بلهفة زائفة كأنه كان يعلق كثيراً على كلماتها .

ليأخذه الطاعون ، فكرت ، فهو دائماً يسبقني بقفزة واحدة . يوجد دائماً شيء خطأ في مناقشاته ، ولكني لا أستطيع أبداً أن أضع أصبعي على ماهية الخطإ .

- «يمكنك» قالت برصانة «أن توزعه على أولئك الذين هم في حاجة إلى المال . لقد ذهب الحلف ، ولكن ما زال يوجد العديد من الحلفيين وعائلاتهم يتضورون جوعاً» .

فألقى رأسه إلى الخلف ، وضحك بنزق .

- «إنك أبداً لا تبدين في منتهى الفتنة أو في شدة الحمق مثلما تكونين عندما تبدين بعض النفاق شأنك الآن» صاح في غبطة صريحة «إنك دائماً تقولين الحقيقة يا سكارلت ، لأنك لا تستطيعين الكذب . إن الإيرلنديين هم أقل الناس كذباً في الدنيا . أصغي إلي الآن وكوني صريحة . إنك لم تبالي أبداً بمصير

الحلف الذي تتصنعين الآن الأسى عليه ، كما أنك تبالين أقل من ذلك بالحلفيين الجائعين ، وستصرخين محتجة إن أنا اقترحت توزيع كل تلك النقود دون أن أبدأ بمنحك نصيب الأسد منها» .

ـ «أنا لا أريد نقودك» أجابت ، وهي تحاول أن تكون رصينة ببرود .

ـ «ها ، لا تريدين ! إن راحتك تحكك لتضربي حزام النقود الآن في هذه الدقيقة ، وإن أنا أريتك ربع دولار فستنقضين عليه» .

ـ «إذا كنت قد أتيت هنا لتهينني وتضحك من فقري ، فإني أرجو انصرافك» . ردت على إهانته وهي تحاول تخليص حجرها من الدفتر الثقيل كي تستطيع النهوض وإظهار كلماتها بمظهر أكثر فعالية . وفي الحال كان هو قد انتصب على قدميه وانحنى فوقها ضاحكاً وهو يدفعها إلى كرسيها ثانية .

ـ «متى ستتغلبين على فورات غضبك عند سماع الحقيقة؟ إنك لا تبالين يقول الحقيقة عن الآخرين ، فلماذا تثورين إذاً عندما تسمعينها تقال عنك؟ إني لا أهينك . إني أعتقد أن التملك صفة رائعة جداً .

ولم تكن واثقة مما تعنيه كلمة «تملك» ولكن بما أنه مدحها ، فقد شعرت بقليل من الراحة .

ـ «وأنا لم آت هنا لأتحرى فقرك ، وإنما لأرجو لك الهناء وطول العمر بزوجك . وبالمناسبة ماذا كان رأي الشقيقة سولين باغتصابك خطيبها» .

ـ «بماذا؟ !» .

ـ «بسرقتك فرانك عنوة» .

ـ «أنا لم . . .» .

ـ «حسناً ، لن نتشاجر على الكلمة ، ماذا قالت؟» .

ـ «لم تقل شيئاً» أجابت سكارلت ، بينما رقصت عيناه وهما تتهمانها بالكذب .

ـ «ما أعظم إيثارها . والآن دعينا نسمع عن فقرك ، فمن الأكيد أني أملك الحق في أن أعرف ذلك ، بعد رحلتك القصيرة إلى السجن منذ مدة وجيزة . أليس لدى فرانك مال وفير كما أملت؟» .

لم يكن هناك مهرب من وقاحته ، فإما أن تتحملها وإما أن تطلب منه أن ينصرف . ولكنها الآن لم تكن تريده أن ينصرف . لقد كانت كلماته شائكة ،

ولكنها أشواك الحقيقة . لقد كان يعرف حقيقة الذي فعلته ، ولماذا فعلته ، ولم يكن يبدو أن تقديره لها قلّ بسبب ذلك . ومع أن أسئلته كانت باردة مكدرة إلاّ أنها كانت تبدو وكأنها تصدر عن اهتمام ودي . لقد كان ريت إنساناً تستطيع أن تبوح له بالحقيقة ، الأمر الذي يكون متنفساً لها ، لأنه كان قد مضى عليها زمن طويل لم تفصح خلاله لأحد عن حقيقة نفسها ورغباتها . فكلما كانت تصرح بأفكارها كلما كان يبدو شعور بالفاجعة لدى الجميع ، بينما كان حديثها مع ريت بشيء واحد فقط ، هو الشعور بالراحة والارتياح الناجم عن ارتداء خفين عتيقين بعد رقص بخفين ضيقين جداً .

ـ «ألم تحصلي على النقود لدفع الضرائب؟ لا تخبريني أن الذئب ما زال يقف على باب تارا» وكان يشوب صوته نغمة غريبة جديدة .

ورفعت بصرها لتقابل عينيه السوداوين ، ولتلمح في وجهه تعبيراً أجفلها وحيرها بادئ الأمر ، غير أنه ما لبث أن جعلها تبتسم فجأة ، ابتسامة عذبة فاتنة قل أن ظهرت على وجهها هذه الأيام . . . ما أحقره وأشد مشاكسته ! . . ولكن كم هو لطيف في بعض الأوقات ! وأدركت الآن أن السبب الحقيقي لزيارته لم يكن لإغاظتها والكيد لها ، وإنما ليتأكد من أنها حصلت على النقود التي كانت مستميتة للحصول عليها . وأدركت الآن أيضاً أنه كان قد هرع إليها حالما أطلق سراحه ، دون أن يبدو عليه أي أمارة من أمارات السرعة ، وذلك كي يقرضها النقود إن كانت لا تزال بحاجة إليها . ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يعذبها ويهينها وينكر أن ذلك كان قصده ، لو أنها اتهمته به . لقد كان ريت أبعد تماماً من أي إدراك . هل كان حقاً يحفل بها ، يحفل أكثر مما يرغب في التصريح به؟ أو هل كان لديه باعث آخر؟ ربما كان الاحتمال الثاني هو الصواب ، فكرت ، ولكن من كان بوسعه أن يعرف؟ وهو الذي كان يقوم بأعمال غريبة أحياناً .

ـ «لا» قالت «لم يعد الذئب على الباب ـ لقد ـ لقد حصلت على النقود» .

ـ «ولكن ليس دون جهاد ، إني واثق من ذلك . هل استطعت أن تردعي نفسك إلى أن تقلدت خاتم الزواج بأصبعك؟» .

فحاولت أن تبتسم على عبارته الصحيحة ، التي أجملت سلوكها ، ولكنها لم تستطع منع غمازتيها من الابتسام . وعاد إلى الجلوس ، ومد ساقيه الطويلتين في وضع مريح .

ـ «حسناً ، حدثيني عن فقرك . هل خدعك فرانك الوحش فيما يتعلق بمطامحه؟ ينبغي أن يجلد تماماً لأنه استغل صبية عديمة الحيلة . هيا سكارلت ، حدثيني عن كل شيء . يجب أن لا تكتمي شيئاً عني ، فمن الأكيد أني أعرف أسوأ الأشياء عنك» .

ـ «ها ، ريت أنت أسوأها ـ الواقع ، إني لا أعرف ما هو . . . لا ، إنه في الحقيقة لم يخدعني ، ولكن ـ»وفجأة بدا من الممتع لها أن تخفف عن كاهلها : «ريت ، إذا ما استوفى فرانك نقوده المدانة للناس ، فلن أقلق على شيء . ولكن يا ريت ، إن خمسين شخصاً مدينون له ولن يلح عليهم . إنه خجول جداً ، ويقول إن الرجل الفاضل لا يستطيع أن يلح على رجل فاضل آخر ، وربما تمضي شهور قبل أن نحصل على النقود» .

ـ «حسناً ، وماذا في ذلك؟ أليس لديك ما يكفي من الطعام إلى أن يستوفي الديون؟» .

ـ «بلى ، ولكن ـ الواقع ، حقاً ، أن بوسعي استخدام بعض المال ، الآن فوراً» . وبرقت عيناها وهي تفكر بالمنجرة . وربما . . .

ـ «لأي شيء؟ ضرائب أخرى؟» .

ـ «هل ذلك من شأنك؟ !» .

ـ «أجل ، لأنك على وشك إثارتي لأقرضك ، فأنا أعرف جميع طرقك ، وسأقرضك يا عزيزتي السيدة كندي ـ دون ذلك المقابل الفاتن الذي عرضته علي منذ مدة وجيزة ، إلاّ ، بالطبع أن أصررت على تقديم المقابل» .

ـ «إنك أوقح . . .» .

ـ «لا أبداً . لقد أردت فقط أن أريح تفكيرك . لقد عرفت أنك ستقلقين بسبب تلك النقطة ، ليس كثيراً . وإني راغب في إقراضك النقود ، ولكني أريد أن أعرف كيف ستصرفينها . فإذا كانت لشراء أثواب جميلة وعربة لك ، فخذيها مع مباركتي ، ولكن إذا كانت لشراء سروال سهرة جديد لآشلي ويلكس ، فإني أخشى أن أضطر إلى الامتناع عن إقراضك» .

فانتفض جسدها بغضب مفاجئ ، وتلعثمت إلى أن أسعفتها الكلمات .

ـ «لم يحدث يوماً أن أخذ آشلي ويلكس سنتاً واحداً مني ، ولا أستطيع إقناعه بأخذ سنت إذا كان يتضور جوعاً ! أنت لا تفهمه . . . كم هو

شريف ! . . . كم هو كريم النفس ! طبعاً ليس بوسعك أن تفهمه وأنت من أنت . . .» .

ـ «دعينا لا نشرع بالتنابذ بالألقاب ، فإن بوسعي أن أنعتك بألقاب قليلة تعادل كل ما يمكنك أن تفكري به عني . أنت تنسين أني كنت على صلة بأخبارك من طريق الآنسة بيتي بات ، تلك المرأة الطيبة القلب التي تخبر كل ما تعرفه لأي مستمع متعطف يحسن الإصغاء . إني أعرف أن آشلي يقيم في تارا منذ عاد إلى البيت من جزيرة رك ، وأعرف أنك تحملت حتى بقاء زوجته معك ، الأمر الذي لا بد أن كانت فيه مشقة عليك» .

ـ «إن آشلي . . .» .

ـ «ها نعم» قال ملوّحاً يده باستهتار «إن آشلي سام جداً بالنسبة إلى إدراكي الدنيوي ، ولكن أرجوك أن لا تنسي أني كنت شاهداً على مشهدك العاطفي معه في تولف أوكس . وإن هاجساً يهجس لي أنه لم يتغير منذ ذلك الحين ، كما أنك أنت لم تتغيري أيضاً . إنه لم يتصرف تصرف الملائكة في ذلك اليوم إذا كنت أتذكر جيداً ، وأنا لا أعتقد أن تصرفه الآن أفضل من ذلك بكثير . لماذا لم يأخذ عائلته ويخرج ليجد عملاً وينقطع عن العيش في تارا؟ طبعاً إنها مجرد خاطرة من خواطري ، ولكني لست عازماً على إقراضك سنتاً واحداً من أجل تارا كي تساعدي في إعالته ـ إن بين الرجال نعتاً معيباً جداً للذين يسمحون للنساء بأن يعلنهم» .

ـ «كيف تجرؤ على التفوه بهذه الكلمات؟ إنه يشتغل كعامل حقل !» ورغم كل سخطها تفطر قلبها لذكرى آشلي وهو يكسر قضباناً للسياج .

ـ «ويساوي وزنه ذهباً ، إني أجرؤ على قول هذا أيضاً . أي عامل ينبغي أن يكون آشلي مع السماد و . . .» .

ـ «إنه . . .» .

ـ «ها أجل أعرف ، دعينا نفترض أنه يبذل جهده المستطاع ، ولكني لا أتصور أنه عون كبير . فأنت لا تستطيعين أن تصنعي عامل حقل من ويلكسي ـ ولا أي شيء مفيد آخر . إن تلك الذرية خلقت لأجل الزينة فقط . والآن هدئي ريش القبعة المضطرب وتغاضي عن عباراتي الفظة المتعلقة بآشلي الشريف العزيز النفس . من الغريب أن تستمر هذه الأوهام حتى عند نساء عنيدات

مثلك . كم تريدين من النقود ولماذا تريدينها؟» .
وعندما لم تجب كرر :
ـ «لماذا تريدينها؟ وانظري فيما إذا كان بإمكانك أن تقولي الحقيقة التي ستفيدك كالكذب ، بل أكثر في الواقع ، لأنك إذا كذبت علي سأكون واثقاً من أني سأكتشف الأمر ، وعندئذ ، فكري أي حيرة محرجة ستقعين فيها . تذكري دائماً هذا الذي سأقوله لك يا سكارلت : إن بوسعي احتمال كل شيء منك إلا الكذب ـ كراهيتك لي وثوراتك ، أساليبك المراوغة كلها ، ولكن ليس الكذب . والآن من أجل ماذا تريدين النقود؟» .
غير أن حنق سكارلت الذي تولاها بسبب هجومه على آشلي كان يمكن أن يجعلها تضحي بأي شيء ، وتبصق عليه ، وتقذف بعرضه المالي بكبرياء في وجهه المتهكم . وخلال هنيهة قصيرة ، كادت أن تفعل ذلك ، ولكن يد الإدراك الباردة منعتها ، فابتلعت غضبها كارهة ، وحاولت أن تتصنع ملامح تعبر عن وقار بهيج . وانحنى هو في كرسيه إلى الخلف ، ومد ساقيه نحو الموقد .
ـ «إن كان يوجد شيء في الدنيا يمنحني متعة أكثر من أي شيء سواه» ، قال معلقاً ، «فإن هذا الشيء هو منظر صراعك العقلي عندما توضع أمامك قضية مبدئية مقابل شيء عملي كالنقود . طبعاً إني أعرف أن النزعة العملية فيك ستفوز دائماً ، ولكني أظل متربصاً دائماً كي أرى ما إذا كانت طبيعتك الفضلى لن تفوز يوماً ما . وعندما يأتي ذلك اليوم سأحزم حقيبتي وأغادر أتلانتا إلى الأبد ، فهناك عدد كبير من النساء اللواتي تنتصر طبيعتهن الفضلى دائماً . . . على كل حال ، دعينا نرجع إلى قضايا العمل . . . كم تريدين ولماذا؟» .
ـ «أنا لا أعرف تماماً المبلغ الذي سأحتاج إليه» قالت بتجهّم ، «ولكني أريد أن أشتري منجرة ـ وأعتقد أن بوسعي شراءها بثمن بخس . كما أني سأحتاج إلى شاحنتين وبغلين ، وأريدهما بغلين جيدين ، ثم حصاناً وعربة صغيرة لاستعمالي الخاص» .
ـ «منجرة؟» .
ـ «أجل ، وإذا أقرضتني المال ، فسأعطيك نصف أرباحها» .
ـ «ماذا أفعل بمنجرة؟» .
ـ «تكسب منها نقوداً! إن بوسعنا أن نربح أكياساً من النقود . أو أني سأدفع

لك فائدة على القرض ـ دعنا نرى ، أي نسبة تعتبر فائدة جيدة؟» .

ـ «خمسون بالمائة تعتبر حسنة جداً» .

ـ «خمسون . . . لا . إنك تمزح ! كف عن الضحك أيها الشيطان ، فإني جادة» .

ـ «وذلك هو سبب ضحكي ! إني لأتساءل إذا كان أحد سواي يدرك ما يدور في ذلك الرأس الكامن خلف وجهك الحلو الخادع» .

ـ «وأي إنسان يعبأ بهذا؟ أصغ يا ريت ، وفكر إذا كان ذلك لا يبدو عملاً مفيداً لك . لقد أخبرني فرانك عن ذلك الرجل الذي يملك منجرة ، منجرة صغيرة تبعد قليلاً عن طريق بيتشتري ، وهو يريد بيعها ، ولأنه مضطر لتدبير مال نقدي بسرعة فإنه سيبيعها بثمن بخس . لا يوجد الآن في المنطقة مناجرة كثيرة ، كما أن الطريقة التي يعيد الناس بها بناء ـ كيف لا ، إن بوسعنا بيع كميات هائلة ، جبال ضخمة من ألواح الخشب . وسيبقى الرجل مديراً للمعمل مقابل أجر . لقد أنبأني فرانك بالأمر ، وكان سيشتريه بنفسه لو كان يملك الثمن . إني أظن أنه كان مصمّماً على شرائه بالنقود التي أعطانيها لسداد الضرائب» .

ـ «يا لفرانك المسكين ! ماذا سيقول عندما تخبرينه أنك قد اشتريت المعمل دون علمه؟ وكيف ستوضحين له موضوع إقراضي النقود لك دون أن تعرضي سمعتك للشبهات؟» .

ولم تكن سكارلت قد أعارت أي اهتمام لهذه النقطة ، فلقد كانت مصممة على الظفر بالنقود التي ستقدمها لها المنجرة .

ـ «حسناً ، لن أخبره وحسب» .

ـ «سيعرف أنك لم تقطفيها من شجرة» .

ـ «سأخبره . . . ولم لا؟ أجل ، سأخبره أني بعت قرطيّ اللؤلؤين وسأعطيكهما أيضاً . ذلك ما أقدمه» .

ـ «لن آخذ قرطيك» .

ـ «أنا لا أريدهما ، أنا لا أحبهما ، وهما في الحقيقة ليسا ملكي على كل حال» .

ـ «ملك من؟» .

فعاد تفكيرها سريعاً إلى الظهيرة الحارة الساكنة ، إلى هدأة الريف الشاملة حول تارا ، إلى الشمالي الميت ذي البذلة الزرقاء منطرحاً في القاعة .

ـ «لقد تركهما معي . . . رجل توفي . لقد أصبحا خاصتي في الواقع . خذهما ، إني لا أريدهما . إني أفضل النقود عليهما» .

ـ «يا إلــهي العظيم!» صاح وقد نفد صبره «ألا تفكرين مرة بغير المال؟» .

ـ «لا» أجابت بصراحة . وسلطت عليه عينين خضراوين صارمتين «وإذا ما عانيت الذي عانيته ، فلن تفكر بغير المال أيضاً . لقد اكتشفت أن المال هو أهم شيء في الحياة ، وأشهد الله على أنني لن أرضى بعد اليوم أن أكون فقيرة مرة ثانية» .

وتذكرت الشمس الحارة والتراب الطري الأحمر تحت رأسها المريض ، كما تذكرت الرائحة الزنجية تنبعث من غرف العبيد الصغيرة وراء أطلال تولف أوكس ، وتذكرت اللازمة التي كان ينبض بها قلبها : «لن أجوع ثانية ، لن أجوع ثانية» .

ـ «سيصير بحوزتي نقود يوماً ما ، نقود كثيرة فأستطيع أن آكل أي طعام أشتهيه ولا تكون عندئذ عصيدة ذرة أو فاصوليا جافة على مائدتي . وسأقتني ملابس جميلة ، وتكون كلها حريرية» .

ـ «كلها؟» .

ـ «كلها» قالت بإيجاز ، حتى دون أن تكلف نفسها عناء الخجل من مضمون سؤاله . «سيكون بحوزتي مال كثير جداً بحيث لن يستطيع الشماليون أبداً انتزاع تارا مني . وسأبني سقفاً جديداً لتارا ومخزناً جديداً . وسأشتري بغالاً جميلة للحرث وأظفر بقطن أكثر مما رأته عيناك . ولن أجعل ويد يعرف معنى للحاجة . لا ، أبداً ، سينال كل شيء في الدنيا ، وكذلك كل أفراد عائلتي ، لن يجوعوا ثانية . إني أعني ما أقول ، كل كلمة مما أقول . إنك لا تفهم ما أقول . إنك مجرد كلب صيد أناني . ولم يحدث مرة أن جاءك الشماليون المتفعون يحاولون طردك من بيتك . ولم يحدث مرة أن بردت وارتديت الخرق واضطررت إلى أن تقصم ظهرك كي لا تموت جوعاً» .

ـ «لقد بقيت في جيش الحلف مدة ثمانية شهور ، ولا أعرف مكاناً أفضل منه للموت جوعاً» .

ـ «الجيش ! ياه ! ، أنت لم ترغم يوماً على قطف القطن وتعشيب القمح ، لقد . . . لا تضحك مني !» .

وثانية ، أضحت يداه فوق يديها عندما ارتفع صوتها بشكل أجش .

ـ «لم أكن أضحك ، كنت أضحك على الفرق بين مظهرك وحقيقتك ، وكنت أتذكر المرة الأولى التي رأيتك فيها في الحفلة عند آل ويلكس . لقد كنت ترتدين آنئذ فستاناً أخضر وخفين أخضرين صغيرين ، وكنت غارقة حتى ركبتيك بين الرجال ، مملوءة زهواً بنفسك ، وأراهن أنك لم تكوني تعرفين آنئذ كم سنتاً يوجد في الدولار . كان يشغل عقلك آنئذ فكرة واحدة ، وتلك كانت صيد آشلـ . . .» .

فانتزعت يديها بعيداً .

ـ «ريت ، إذا كانت علاقتنا ستستمر فعليك أن تكف عن الحديث عن آشلي ويلكس ، فنحن سنتشاجر دائماً بسببه ، لأنك لا تستطيع أن تفهمه» .

ـ «أظن أنك تفهمينه كما تفهمين كتاباً» قال بمكر «لا يا سكارلت ، إذا كنت سأقرضك النقود ، فإني أحتفظ بحق الحديث عن آشلي ويلكس بأي طريقة أشاء . إني أتنازل عن حقي في أخذ فائدة على قرضي ، ولكني لا أتنازل عن ذلك الحق ، ثم إن هناك عدداً من الأمور التي تتعلق بذلك الشاب ، والتي أحب أن أعرفها» .

ـ «لست مضطرة إلى الحديث عنه معك» أجابت باقتضاب .

ـ «ها ، ولكنك مضطرة فعلاً ! فأنا أمسك بخيوط المحفظة كما ترين ، وعندما تصبحين غنية يوماً ما ، سيكون بوسعك أن تملكي القوة على أن تفعلي الشيء ذاته مع الآخرين . . . من الواضح أنك ما زلت تحفلين به» .

ـ «أنا لا أحفل به» .

ـ «ها . إن الأمر واضح جداً من الطريقة التي اندفعت فيها للدفاع عنه ، إنك . . .» .

ـ «إني لا أحتمل أن يسخر أحد من أصدقائي» .

ـ «حسناً ، سنتغاضى عن ذلك في الوقت الحاضر . هل ما زال هو يحفل بك؟ أو أن جزيرة رك جعلته ينسى؟ أو قد يكون عرف أي جوهرة هي زوجته؟» .

وعند ذكر ميلاني ، بدأت سكارلت تتنفس بصعوبة ، واستطاعت بالكاد أن

تمنع نفسها عن التصريح بكل القصة ، قصة أن الشرف وحده هو الذي كاد يبقي آشلي مع ميلاني . وفتحت فمها لتتكلم ثم أطبقته .

ـ «وهكذا ما زال ينقصه الوعي الكافي لتقدير السيدة ويلكس؟ وشدائد السجن لم تخمد عاطفته نحوك؟» .

ـ «أنا لا أرى حاجة إلى بحث هذا الموضوع» .

ـ «إني أرغب في بحثه» قال ريت وفي صوته نغمة خفيفة لم تفهم سكارلت كنهها ، كما أنها لم تمل إلى سماعها و«والله سأبحثه ، وأتوقع منك أن تجيبي على أسئلتي . إنه لا يزال يحبك إذاً؟» .

ـ «حسناً ، وماذا إن كان لا يزال يحبني؟» صاحت سكارلت بجرأة «أنا لا أعبأ ببحث موضوعه معك ، لأنك لا تستطيع أن تفهمه أو تفهم نوع حبه ، لأن نوع الحب الوحيد الذي تعرفه أنت هو فقط . . . ذلك النوع الذي تسلكه مع نساء مثل تلك المرأة وتلنغ» .

ـ «ها» قال ريت بلطف «أنا إذاً لست قادراً إلاّ على الشهوات الجسدية فقط؟» .

ـ «ذلك لا ريب فيه ، كما تعلم» .

ـ «الآن أقدر ترددك في بحث الموضوع معي ، فيداي وشفتاي القذرة تدنس طهارة حبه» .

ـ «الواقع . . . نعم . . . شيء من هذا القبيل» .

ـ «إني مهتم بهذا الحب الخالص . . .» .

ـ «لا تكن قذراً إلى هذا الحد يا ريت ، وإذا كنت وغداً إلى درجة تفكر معها أنه حدث شيء غير شرعي بيننا . . .» .

ـ «ها ، في الحقيقة ، إن تلك الفكرة لم تدخل عقلي أبداً ، وذلك هو سبب اهتمامي الشديد بها . إنما لماذا لم يحدث شيء غير شرعي بينكما؟» .

ـ «إن كنت تفكر أن آشلي يـ . . .» .

ـ «ها ، إذاً آشلي هو الذي خاض معركة الطهر ولست أنت . . . في الحقيقة يا سكارلت ، ينبغي أن لا تسلمي نفسك بهذه السهولة» .

فنظرت في وجهه الرقيق الغامض ، بسخط واضطراب :

ـ «لن نذهب أبعد من هذا في هذا الحديث ، وأنا لا أريد نقودك ، ولذلك اخرج» .

ـ «نعم . . . إنك لا تريدين نقودي ، وإذ إننا قد توغلنا إلى هذا الحد ، فلماذا نقف؟ من الأكيد أنه لا يمكن أن يوجد ضرر في بحث موضوع طاهر كهذا . . . طالما ليس هناك أي شيء غير شرعي . إذاً آشلي يحبك من أجل عقلك وروحك ونبل أخلاقك» .

فاحترّت سكارلت من الغيظ بفعل كلماته . طبعاً ، لقد كان آشلي يحبها من أجل هذه الأمور بالذات ، وكانت معرفتها هذه لهذا الأمر هي التي تجعل الحياة محتملة لديها ، هذه المعرفة بأن آشلي ، الذي كان يربطه الشرف بها ، كان يحبها من بعيد من أجل صفات جميلة مدفونة عميقاً فيها ، بحيث كان بوسعه وحده أن يراها . غير أن تلك الصفات لم تبد جميلة عندما أخرجها ريت إلى الضوء ، خصوصاً بذلك الصوت الناعم الغرار الذي كان يغطي تهكمه .

ـ «إن معرفتي بأن حباً كهذا يمكن أن يوجد في دنيا فاسدة كهذه تعيد إليَّ مثاليات عهد الصبا» تابع ريت «وإذاً ليس للجسد أي أثر في حبه لك؟ وكان الأمر يكون نفسه لو كنت قبيحة ولا تملكين تلك البشرة البيضاء؟ ولا تنعمين بهاتين العينين الخضراوين اللتين تجعلان الرجل يتساءل عما ستفعلين إذا هو أخذك بين ذراعيه؟ ولا بطريقة أرجحة وركيك التي فيها إغراء لكل رجل دون التسعين من العمر؟ ولا بهاتين الشفتين . . . حسناً ، ينبغي أن لا أدع شهواتي الجسدية تفرض نفسها . ألا يرى آشلي أياً من هذه الأمور؟ أو إن هو رآها أفلا تثيره أبداً؟» .

وعاد عقل سكارلت مختاراً إلى ذلك اليوم في البستان ، عندما راحت ذراعا آشلي تهتزان وهو يمسك بها ، وعندما وقعت شفتاه حارتين فوق شفتيها ، وكأنه لم يكن ليدعها تفلت أبداً . وتخضب وجهها من الذكرى ، ولم يفت ريت معنى احمرار لونها :

ـ «وإذاً» قال وقد شاب صوته نغم متهدج كأنه الغضب «لقد فهمت . إنه يحبك من أجل عقلك فقط» .

كيف يجرؤ على أن يتلمّس الحقائق بأصابعه القذرة ، جاعلاً الشيء الجميل المقدس في حياتها يبدو مشيناً؟ لقد كان يهدم ببرود وتصميم آخر احتياطي عندها ، وكانت المعلومات التي يريدها آتية في الطريق .

ـ «أجل إنه يحبني من أجل عقلي» صاحت مبعدة عنها ذكرى شفتي آشلي .

ـ «عـزيزتي ، إنه لا يعـرف أنك تنعـمين بعـقل . وإذا كـان عـقلك هو الذي جذبه ، فإنه لم يكن بحاجة إذاً إلى أن يجاهد ضدك ، في وقت كان ينبغي عليه فيه أن يعمل في سبيل الاحتفاظ بهذا الحب هكذا . . . هل نقول (مقدساً)؟ لقد كان بوسعه أن يبقى مرتاحاً دون عناء ، لأنه على كل حال ، بوسع أي رجل أن يكبر عقل امرأة وروحها ، ويظل سيداً شريفاً ومخلصاً لزوجته ، ولكن لا بد إن كان من العسير عليه أن يوفق بين شرف الويلكسيين وبين اشتهاء جسدك ، الاشتهاء الذي يختلج فيه» .

ـ «أنت تحكم على نوايا كل إنسان على أساس نواياك السيئة» .

ـ «ها ، أنا لم أنكر أنني أشتهيك إذا كان ذلك ما تعنيه . ولكن شكراً لله ، إني لا أقلق فيما يتعلق بقضايا الشرف ، فالذي أريده آخذه إذا ما استطعت الحصول عليه ، وهكذا فأنا لا أصارع الملائكة أو الشياطين . أي جحيم ممتع لا بد أنك صنعته لأشلي ! إن بوسعي أن أتأسف من أجله» .

ـ «أنا . . . أنا صنعت جحيماً له؟» .

ـ «أجل أنت ، فتلك هي حقيقتك ، إغراء دائم له . ولكنه كمعظم أبناء عائلته ، يفضل ما يعتبر في هذه الأنحاء شرفاً على أي مقدار من الحب ، ويبدو لي كأن الشيطان المسكين لم يظفر بالحب ولا بالشرف لينعش روحه» .

ـ «إنه ينعم بالحب ! . . أعني ، إنه يحبني» .

ـ «هل هو يحبك؟ إذاً أجيبيني على هذا السؤال ونكون قد اكتفينا حديثاً عنه بالنسبة إلى هذا اليوم ، وبوسعك أن تأخذي النقود وترميها في المرحاض رغم حرصي عليها» .

ونهض ريت على قدميه ، وألقى بنصف سيجار في المبصقة . «إذا كان يحبك ، فلأي سبب إذاً سمح لك بأن تأتي إلى أتلانتا لتحصلي على نقود الضرائب ، فأنا قبل أن أسمح لامرأة أحبها تفعل ذلك . . .» .

ـ «لم يكن يعرف ! لم يكن لديه أي فكرة عن أني . . .» .

ـ «ألم يخطر ببالك أنه ينبغي أن يكون قد عرف؟» وكان في صوته نغمة قاسية مكبوتة صريحة «إذا كان يحبك كما تقولين ، كان يجب أن يعرف ماذا كنت ستفعلين عندما تولاك اليأس . كان يجب أن يقتلك على أن يدعك تأتين

إلى هنا . . وإلي أنا من بين جميع الناس ! يا لله في سماواتك !» .

ـ «ولكنه لم يكن يعرف . . .» .

ـ «إذا لم يحدس ذلك دون أن يخبره به أحد ، فلن يعرف أي شيء أبداً عنك وعن عقلك الثمين» .

ما كان أشد ظلمه ! كأن آشلي كان قارئ عقول ! كأن آشلي كان بوسعه أن يوقفها حتى لو كان يعرف بنيّتها ! ولكنها أدركت فجأة أنه كان بوسع آشلي أن يوقفها . لقد كانت أقل إشارة تصدر منه ، وهما في البستان ، وتوضح أن من الممكن أن تتغير الأمور في يوم ما ، لقد كانت مثل تلك الإشارة كافية لتوقفها عن التفكير تماماً في أن تذهب إلى ريت . بل إن مجرد كلمة عاطفية ، بل مداعبة وداعية منه وهي تصعد القطار ، كانت كافية لتمنعها عن السفر . ولكن آشلي لم يتحدث عن غير الشرف . ومع ذلك . . أكان ريت صائباً؟ أكان ينبغي لآشلي أن يعرف ما كان يدور بخلدها؟ وأبعدت الفكرة الخائنة عنها بسرعة . طبعاً إن آشلي لم يكن يشك بما قررت فعله . إن آشلي لن يشك أبداً بأنها ستفكر بارتكاب أي عمل شائن كهذا . إن آشلي رفيع الخلق جداً بحيث لا تراوده أفكار كهذه ، ولقد كان ريت يحاول تشويه حبها فقط . لقد كان يحاول هدم أثمن شيء لديها . وفكرت ، بنية أثيمة ، أنها يوماً ما ، عندما يكون المخزن مزدهراً أو المعمل ينتج ربحاً وفيراً ، وهي تنعم بالمال ، ستجعل ريت بتلر يدفع ثمن البؤس والإهانة اللتين كان يسببهما لها .

كان يقف فوقها ينظر إليها بقليل من المتعة ، وقد فارقته العاطفة التي كانت قد أثارته .

ـ «وماذا يهم من كل هذا الأمر؟» سألته «إنه من شأني وشأن آشلي وليس من شأنك أنت» .

ـ إنه يهمني من هذه الناحية فقط ، إني أشعر بإكبار عميق غامض لمعاناتك يا سكارلت ، وأنا لا أحب أن أرى روحك تنسحق تحت وطأة أعباء عديدة جداً . فهناك تارا ، التي هي مهمة رجل قادر بحد ذاتها ، وهناك والدك المريض بالإضافة إلى ذلك ، والدك الذي لن يكون أي عون لك ، ثم شقيقتاك ، والزنوج ، والآن أضفت إليهم زوجاً ، وربما الآنسة بيتي بات أيضاً . إنك تحملين أعباء كافية ، غير آشلي ويلكس وعائلته» .

ـ «إنه ليس عبثاً علي، إنه يساعد...».

ـ «من أجل الله» قال بحنق «لا تدعينا نسمع أكثر من هذا الكلام، إنه ليس عوناً، إنه عبء عليك، أو على أي شخص آخر إلى أن يموت، أنا شخصياً قد سئمت من كونه موضوع حديث... كم تريدين من المال؟».

فاندفعت كلمات لاذعة إلى شفتيها، إذ بعد كل إهاناته، وبعد أن انتزع منها تلك الأشياء الثمينة جداً لديها، وداس عليها، ما زال يفكر بأنها ستأخذ نقوده!

ولكن الكلمات كبحت دون أن تلفظ. ما كان أجمل أن تهزأ بعرضه وتطرده من المخزن! لكن الغني الحقيقي، والشاعر باطمئنان حقيقي، هو الذي كان بوسعه فقط تنفيذ فكرة أثيرة كهذه، وطالما أنها فقيرة فستظل تتحمل مشاهد كهذه، ولكن عندما تصبح غنية، ـ آه، أي فكرة جميلة منعشة هذه!... عندما تصبح غنية، لن تتحمل أي شيء لا تحبه، ولن تعيش محرومة من أي شيء ترغب فيه، أو حتى لن تكون مهذبة مع الناس ما لم ترض عنهم.

سأخبرهم جميعاً أن يذهبوا إلى هاليفكس، فكرت، وسيكون ريت بتلر أولهم!

وجلب السرور، الناجم من هذه الفكرة، بريقاً للعينين الخضراوين ونصف ابتسامة لشفتيها، وابتسم ريت أيضاً.

ـ «إنك جميلة يا سكارلت» قال، «خصوصاً عندما تكونين تفكرين بالشر. ومن أجل منظر تلك الغمازة فقط، سأشتري لك ثلاثة عشر بغلاً إن كنت ترغبين في ذلك».

وانفتح الباب الأمامي، ودخل المحاسب وهو ينظف أسنانه بريشة. فنهضت سكارلت، ولفت ثيابها حولها، وعقدت رباط قبعتها بحزم تحت ذقنها، وكان عقلها قد قر قراره:

ـ «هل أنت مشغول بعد ظهر هذا اليوم؟ أبوسعك أن تأتي معي الآن؟» سألت.

ـ «أين؟».

ـ «أريدك أن تأخذني بالعربة إلى المعمل. لقد وعدت فرانك أن لا أخرج من المدينة وحدي».

ـ «إلى المعمل في هذا المطر؟» .

ـ «أجل ، فإني أريد شراءه الآن ، قبل أن تغير رأيك» .

ـ «هل نسيت أنك متزوجة؟ إن السيدة كندي لا يمكن أن ترضى بأن ترى خارجة إلى الريف مع ذلك المنبوذ بتلر ، الذي لا يستقبل في أحسن الردهات . هل نسيت سمعتك؟» .

ـ «سمعة ! هذا هراء . إني أريد شراء ذلك المعمل قبل أن تغير رأيك أو أن يكتشف فرانك أني في صدد شرائه . دعنا نسرع» .

*

أمسى فرانك يئن كلما فكر بالمنجرة ، لاعناً نفسه لأنه سبق وذكرها مرة أمام سكارلت . لقد كان من المشين جداً أن تبيع قرطيها إلى الكابتن بتلر (من بين جميع الناس !) وتشتري المنجرة ، حتى دون أن تستشير زوجها في الأمر . ولكن لقد كان أكثر شيئاً من ذلك أنها لم تحولها إليه ليديرها هو ، الأمر الذي بدا سيئاً ، كأنها لم تكن تثق به أو بإدارته .

ومثل جميع الرجال ، الذين كان يعرفهم ، كان فرانك يشعر أن الزوجة ينبغي أن توجه بمعرفة زوجها الأوسع من معرفتها ، كما ينبغي أن تقبل بآرائه كلها دون أن يكون لها رأي ، وكان فرانك يرغب في أن يمنح معظم النساء حريتهن في التصرف ، فالنساء في نظره مخلوقات صغيرة مضحكة ، ولا يضر أحداً أبداً ، أن يتمتعن بنزواتهن الصغيرة . ولما كان وديعاً رقيقاً بالفطرة ، لم يكن به ميل لأن ينكر على الزوجة كثيراً من أهوائها ، وكان يجد متعة ، في بعض الأحيان ، في إشباع الميول السخيفة لإنسانة صغيرة رقيقة ، وفي تأنيبها ودياً على حماقتها وإسرافها . ولكن الأمور التي صممت سكارلت على عملها لم تكن بالحسبان بالنسبة إليه .

فتلك المنجرة ، مثلاً ، كانت صدمة حياته ، وذلك عندما أخبرته سكارلت بابتسامة عذبة ، جواباً على أسئلته ، أنها صممت على أن تديرها بنفسها : «سأنزل إلى صناعة الأخشاب بنفسي» كانت الصيغة التي استخدمتها ، ولن ينسى فرانك هول تلك اللحظة ، تنزل إلى العمل بنفسها ! إن ذلك لا يمكن التفكير به ، فلم يكن يوجد نساء في ميدان العمل في أتلانتا ، والواقع أن فرانك لم يكن قد سمع بامرأة تتعاطى العمل في أي مكان . وإذا كانت النساء سيئات

الحظ جداً بحيث أرغمن على كسب قليل من النقود ليساعدن عوائلهن في هذه الأوقات الصعبة ، فإنهن كن يفعلن ذلك بطرق نسائية هادئة . . . كأن يخبزن ، كما كانت تفعل السيدة ميريويذر ، أو يطلين الخزف ويخطن الثياب ويؤجرن غرف بيوتهن للنزلاء ، كما كانت تفعل السيدة ألسنغ وفاني ، أو يعلمن في المدارس كما كانت تفعل السيدة ميد ، أو يعطين دروساً في الموسيقى كالسيدة بونل . لقد كانت هؤلاء النسوة يجنين نقوداً ، ولكنهن كن يمكثن في البيوت وهن يقمن بأعمالهن ، كما كان ينبغي للمرأة أن تفعل . أما أن تتخلى المرأة عن رعاية بيتها وتخرج لتخاطر في دنيا الرجال الخشنة ، تنافسهم في العمل وتحتك كتفاها بهم ، وتكون عرضة للإهانة والتحدث عنها ، فأمر لا يحتمل ، خصوصاً عندما لا تكون مضطرة إلى فعل ذلك ، عندما يكون لها زوج قادر على توفير المال لها بسعة !

لقد توهّم فرانك أن تكون سكارلت إنما تغيظه أو تقوم بدعابة معه ، دعابة لا تنم عن ذوق سليم ، ولكنه سرعان ما وجد أنها كانت تعني ما تقول . لقد أدارت المنجرة بنفسها ، وكانت تنهض ، أبكر منه ، لتذهب إلى أبعد من طريق بيتشتري ، ولم تكن ترجع غالباً إلا بعد أن يكون قد أغلق مخزنه بوقت طويل ، وعاد إلى بيت العمة بيتي للعشاء ، كانت تقطع الأميال الطويلة إلى المعمل في عربة العم بطرس ، الذي كان يستنكر عملها ، والذي كان حاميها الوحيد ، في حين كانت الغابات تغص بزنوج محررين وبأوغاد شماليين ، ولم يكن بوسع فرانك أن يذهب معها ، فقد كان المخزن يستغرق جميع وقته . على أنه عندما احتج ، أجابته باقتضاب «إذا لم أراقب ذلك الماكر المحتال جونسون ، فسيسرق أخشابي ويبيعها ويضع النقود في جيبه . وعندما أستطيع الحصول على رجل طيب يدير المعمل نيابة عني ، عندئذ لن أضطر إلى الذهاب هنالك مراراً عديدة ، وعندئذ أستطيع أن أقضي وقتي في المدينة ، أبيع الخشب» .

تبيع الخشب في المدينة ! تلك كانت أسوأ العروض . فكثيراً ما كانت تعفي نفسها من يوم من أيام المنجرة وتتجول في المدينة لبيع الخشب . وكان فرانك ، في أيام البيع تلك ، يتمنى أن لو يستطيع الاختباء في مؤخرة مخزنه المعتمة كي لا يرى أحداً . . . زوجته تبيع خشباً !

وكان الناس يتحدثون حديثاً فظيعاً عنها ، وربما عنه أيضاً ، لأنه كان قد

سمح لها بأن تسلك هذا الطريق الذي لا يليق بالنساء . وأزعجه أن يواجه زبائنه من فوق البسطة ، ويسمعهم يقولون : «لقد رأينا السيدة كندي منذ دقائق قليلة ، هناك في . . .» وكان كل منهم يجد مشقة في إخباره عما كانت تفعل . وكان كل فرد يتحدث عما وقع في المكان الذي كان يشاد فيه الفندق الجديد ، حيث كانت سكارلت قد وصلت تماماً في الوقت الذي كان فيه تومي ولبورن يشتري بعض الألواح الخشبية من رجل آخر . فنزلت سكارلت من عربتها بين البنائين الإيرلنديين الخشنين الذين كانوا يضعون الأساسات ، وأخبرت تومي بإيجاز أنه كان يخدع ، وقالت إن خشبها كان أفضل وأرخص ، ولتبرهن على صدق قولها حسبت عموداً طويلاً من الأرقام في عقلها ، وقدمت إليه ثمناً تقديرياً على الفور . لقد كان من الرديء جداً أن حشرت نفسها بين عمال غرباء خشان ، ولكن كان لا يزال أسوأ بالنسبة إلى المرأة أن ترى جهاراً أن بوسعها أن تحسب ، كما فعلت سكارلت ، وعندما قبل تومي الثمن الذي عرضته وأعطاها الحوالة المالية ، لم تغادر المكان بسرعة ، بل راحت تتسكع وتتحدث إلى جوني كاليكر ، ناظر العمال الإيرلنديين ، وهو رجل قزم داهية ذو سمعة زرية . وهكذا ظلت المدينة تتحدث عن تلك الواقعة مدة أسابيع .

وكان على رأس جميع أعمالها المعيبة ، أنها كانت تكسب فعلاً نقوداً من المنجرة ، ولم يكن بوسع أحد أن يشعر شعوراً طبيعياً نحو زوجة نجحت في نشاط عملي غير أنثوي أبداً . ولم تكن تحول النقود أو أي جزء منها ، إلى فرانك ليستثمرها في المخزن ، بل كان معظمها يذهب إلى تارا ، وكانت تكتب لويل بنتين رسائل لا آخر لها ، تخبره فيها كيف ينبغي صرف النقود . وأكثر من ذلك ، إنها أخبرت فرانك أنه إذا أمكن تمام الإصلاحات في تارا ، ففي نيتها استثمار نقودها بعمليات الرهون .

ـ «يا ويلتاه !» هكذا كان يندب فرانك ، كلما فكر بهذا العمل ، فلم يكن من شأن المرأة حتى أن تعرف ماهية الرهن .

وكان عقل سكارلت قد امتلأ بالمشاريع ، وكل مشروع منها كان يبدو لفرانك أسوأ من سابقه . لقد كانت تتكلم عن بناء حانة فوق الأرض التي كان يقوم عليها مخزونها قبل أن يحرقه شيرمان . ولم يكن فرانك ممتنعاً عن تعاطي المسكرات ، ولكنه احتج على الفكرة بعصبية ، ذلك أن امتلاك حانة كان عملاً

شائناً ، عملاً مشؤوماً ، عملاً مزرياً كاستئجار بيت للدعارة تقريباً . أما لماذا كان مزرياً ، فلم يكن بوسع فرانك أن يوضح ، ولذلك أجابت على حججه الضعيفة بقولها : «هراء!» .

- «إن الحانات تجد دائماً مستأجرين جيدين . لقد قال ذلك العم هنري» ، أخبرته «إنهم دائماً يدفعون بدل الإيجار . وانتبه يا فرانك ، إن بوسعي بناء صالة زهيدة التكاليف من الخشب الرديء النوع الذي لا أستطيع بيعه ، ثم أحصل على بدل إيجار جيد لها . وبنقود الإيجار ، ونقود المعمل ، وبما أستطيع جنيه من الرهونات ، أستطيع أن أشتري مناجر أخرى» .

- «حسنائي ، لست بحاجة إلى أي منجرة أخرى!» صاح فرانك مذعوراً «إن ما يجب عليك عمله هو أن تبيعي المنجرة التي تملكينها الآن . إنها تجهدك ، وأنت تعرفين أي مشقة تكابدينها بتشغيل الزنوج المحررين هنا . . .» .

- «حتماً ، إن الزنوج المحررين عديمو الفائدة» وافقت سكارلت متجاهلة تمام التجاهل تلميحه بوجوب بيعها المنجرة «ويقول السيد جونسون إنه لا يعرف أبداً ، عندما يأتي إلى المعمل في الصباح ، إذا كان سيجد عدداً تامّاً من العمال أم لا . لم يعد بوسع المرء أبداً الإعتماد على الزنوج ، فهم يشتغلون يوماً أو يومين ، ثم يغادرون العمل إلى أن يصرفوا الأجر الذي قبضوه ، وكأن جميع العمال . . .» .

- «كلما رأيت عدداً أكبر من العبيد المحررين كلما اعتقدت أن عملية تحريرهم هي أكثر إجراماً . إنها دمرت الزنوج وحسب . فالألوف منهم لا يشتغلون أبداً ، والأفراد الذين نستطيع جلبهم منهم للعمل في المنجرة كسالى عديمو الحيلة جداً بحيث لا يستحقون أن نقتنيهم . وإن أنت اغتظت كثيراً وعنفتهم وضربتهم قليلاً في سبيل إصلاحهم ، فإن قانون التحرير ينزل عليك كبقة تربض على بطة حزيران» .

- «حلوتي ، إنك لا تدعين السيد جونسون يضرب هؤلاء . . .» .

- «طبعاً لا» ، أجابت جازعة «ألم أقل الآن إن الشماليين يضعونني في السجن إن أنا فعلت ذلك؟» .

- «إني أراهن أن والدك لم يضرب زنجياً في حياته» قال فرانك .

- «الواقع ، لقد ضرب زنجيّاً واحداً فقط ، عاملاً في الإصطبل لم يعلف

حصانه بعد يوم صيد . ولكن يا فرانك ، لقد كان الأمر آنئذ يختلف عنه اليوم ، فالزنوج المحررون أناس يختلفون عن أولئك ، والجلد الجيد سيفيد البعض منهم فائدة قصوى» .

لم يكن فرانك دهشاً من آراء زوجه ومشاريعها وحسب ، بل كان دهشاً كذلك من التغير الذي طرأ عليها في الأشهر القليلة التي انقضت منذ زواجهما ، إذ لم تعد تلك الإنسانة العذبة الرقيقة التي كان قد اتخذها زوجة له . لقد اعتقد ، خلال فترة معاشرته القصيرة لها ، أنه لم يكن قد عرف امرأة أكثر منها أنثوية جذابة في استجابتها للحياة ، امرأة جاهلة حيية عاجزة . بيد أن استجابتها أضحت الآن كاستجابة الرجل ، فرغم وجنتيها الموردتين ، ورغم غمازتيها وابتساماتها البديعة ، كانت تتحدث وتتصرف كرجل ، وكان صوتها سريعاً حازماً ، وكذلك كانت تقرر رأيها في الحال ، ودون أي تردد أنثوي . لقد كانت تعرف ما تريد فتلاحقه من أقصر طريق كما يفعل الرجل ، وليس من الطرق الخفية الملتوية المألوفة لدى النساء .

ولم تكن القضية أن فرانك لم يكن قد رأى نساء متنفذات قبل سكارلت ، فأتلانتا ، كجميع المدن الجنوبية الأخرى ، كان لها نصيبها من السيدات المسنات ، اللواتي كان الناس يتحاشون معارضتهن . ولم يكن من الممكن أن تكون امرأة أوسع نفوذاً من السيدة ميريويذر البدينة ، أو أشد استبداداً من السيدة ألسنغ النحيلة ، أو أكثر مكراً في ضمان نتائج أعمالها من السيدة ويتنغ ذات الصوت العذب والشعر الفضي . ولكن مهما كانت البدع التي كان يستعملها هؤلاء السيدات ليبلغن مآربهن ، فإنها كانت دائماً بدعاً نسوية . لقد كن يحرصن على أن تكون آراؤهن مغايرة لآراء الرجال ، سواء أكنّ موجهات بآرائهم أم لم يكنّ . كان بهن من التهذيب ما يجعلهن يظهرن بأنهم موجهات بأقوال الرجال ، الأمر الذي كان له كل أثره ، ولكن سكارلت لم يكن يوجهها أحد سوى نفسها ، وكانت تدير شؤونها بأسلوب رجل ، الأمر الذي جعل كل المدينة تتحدث عنها . «ومن المرجح» فكر فرانك بائساً «أنها تتحدث عني أيضاً ، لأني قد سمحت لها بأن تسلك هذا الطريق غير النسوي» . ثم كان هناك ذلك الرجل بتلر ، الذي كانت زياراته المتكررة لبيت العمة بيتي أعظم إهانة . وكان فرانك يكرهه دائماً ، حتى عندما كان يتعاطى العمل معه ، قبل الحرب .

ولذلك راح يلعن ، مراراً ، اليوم الذي أحضره فيه إلى تولف أوكس وقدمه إلى أصدقائه . كان فرانك يحتقره للأسلوب البارد الذي كان قد اتبعه في مضارباته خلال الحرب ، ولأنه لم يكن في الجيش . ولم يكن أحد ، سوى سكارلت ، يعلم بخدمة ريت في جيش الحلف مدة ثمانية أشهر ، لأنه كان قد رجاها ، بخوف مصطنع ساخر ، أن لا تفضح عاره لأحد . وكان أكثر الأشياء التي تجعل فرانك يحتقره هو احتفاظه بذهب الحلف ، بينما كان الرجال الشرفاء الذين جوبهوا بالظروف ذاتها كالإدميرال بولوك وآخرين ، قد أعادوا الألوف إلى خزينة الحلف . على أن ريت ظل زائداً مكثراً سواء أأحب فرانك أم كره .

كان يأتي لزيارة الآنسة بيتي في الظاهر ، ولم تكن هي تملك إدراكاً أفضل من أن تصدقه وتتباهى بزياراته لها . ولكن فرانك كان يشعر شعوراً مزعجاً بأن الآنسة بيتي لم تكن الجاذب الذي كان يستدعيه . أما ويد الصغير فكان مغرماً جداً به ، مع أنه كان حيياً مع معظم الناس . فكان يدعوه «يا عمي ريت» الأمر الذي كان يزعج فرانك . ولم يسع فرانك إلاّ أن يتذكر أن ريت كان قد تجول برفقة سكارلت في أثناء الحرب ، ودار الحديث عنهما آنئذ . وتصور أنه يمكن أن يدور عنهما الآن حتى حديث أسوأ . ولم يكن أحد من أصدقائه يملك الشجاعة ليذكر شيئاً من هذا القبيل أمامه ، رغم كل عباراتهم الصريحة عن سلوك سكارلت في موضوع المعمل . ولكن لم يسعه إلا أن يلاحظ أن دعوته هو وسكارلت إلى ولائم الطعام وإلى حفلات الرقص ، كانت قد قلّت كثيراً ، وأن عدد الناس الذين كانوا يزورونهما ، كان يتناقص شيئاً فشيئاً . وكانت سكارلت تبغض معظم جيرانها ، كما كانت منهمكة جداً بعملها ، بحيث لم تعبأ برؤية من ترغب في رؤيتهم ، ولذلك لم يزعجها نقص الزيارات ، غير أن فرانك أحس بالأمر إحساساً عميقاً .

- «يا أماه !» فكر وقد أسقط في يده «إن بوسعها أن تجن أسرع من أي امرأة أخرى رأيتها ، ثم أن تظل مجنونة مدة أطول كذلك !» .

ولم تكن سكارلت تقصد أن تكون سريعة الغضب ، بل كانت تريد في الحقيقة أن تجعل من نفسها زوجة صالحة لفرانك ، لأنها كانت مولعة به ، عارفة لجميله في مساعدتها لإنقاذ تارا . بيد أنه كان يستنفد صبرها مراراً عديدة ، وبأساليب مختلفة عديدة ، فتنفجر .

ولم يكن بوسع سكارلت أبداً أن تحترم رجلاً يدعها تجري من فوقه ، وكانت

السحنة الحيية المترددة التي كان يبدو بها في كل مناسبة غير سارة، معها أو مع الآخرين، تضايقها بصورة غير محتملة. ولكن كان بوسعها الآن أن تتغاضى عن هذه الأشياء، وحتى أن تكون سعيدة، بعد أن أضحت معظم مشاكلها المادية في طريق الحل، لولا غيظها المتجدد الدائم، الناجم عن الحوادث العديدة التي كانت تظهر أن فرانك لم يكن رجل أعمال ناجحاً، ولا يريدها أن تكون «رجل أعمال ناجح».

وكما توقعت، كان قد رفض أن يطلب استيفاء فواتيره غير المدفوعة إلى أن وخزته وخزاً ليقوم بذلك، وعندئذ نفذ المهمة باعتذار وتهيب. وكانت تلك التجربة الدليل الأخير الذي كانت تفتقر إليه لتبرهن على أن عائلة كندي لن تنعم يوماً بأكثر من المعيشة المعدمة ما لم تكسب هي شخصياً المال الذي عزمت على أن تجنيه. لقد أدركت الآن أن فرانك يقنع في التقدم تقدماً وانياً بمخزنه الصغير القذر لبقية حياته، ولم يكن يبدو أنه يدرك ضآلة ما كانوا يملكونه لأمان مستقبلهم، وأهمية حصولهم على نقود أكثر من هذه الأوقات العصيبة، حيث النقود هي الحامي الوحيد من كوارث جديدة.

وفكرت سكارلت أنه يمكن لفرانك أن يكون رجل أعمال ناجحاً في الأيام السهلة قبل الحرب، غير أنه كان قديم الطراز جداً بشكل مزعج، وكان شديد العناد في تصميمه على أن ينفذ الأمور بالأساليب القديمة، بينما كانت الأساليب القديمة قد ولت. لقد كان يعوزه، تماماً، روح التحدي الضرورية في هذه الأوقات المريرة الجديدة. طبعاً لقد كانت هي تنعم بتلك الروح، ولقد صممت على أن تستعملها سواءاً أحب فرانك أم كره. لقد كانا بحاجة إلى المال ـ وكانت هي تجني المال الأمر الذي كان عملاً شاقاً في حد ذاته ـ ولذلك، فإن أقل عمل كان يمكن لفرانك أن يفعله، هو، في رأيها، أن يكف عن التدخل بمشاريعها التي كانت تؤتي أكلها.

لم تكن إدارة المعمل الجديد أمراً سهلاً على سكارلت، وذلك لأنها تفتقر إلى الخبرة، ولأن المنافسة الآن أكثر حدة مما كانت في البداية. ولذلك كانت سكارلت عندما تعود ليلاً إلى البيت تبدو قلقة متعبة مقطبة في العادة، وعندما كان فرانك يسعل وهو يعلل موقفه ويقول: «حلوتي، ما كنت لأفعل هذا» أو «ما كنت لأفعل ذاك يا حلوتي، لو كنت في مكانك» كان كل ما تستطيع عمله هو أن تمنع نفسها من الانفجار غضباً، وما أكثر ما كانت تفشل في كبح

ثورتها . فلئن كان يفتقر إلى روح العمل الحقيقية التي تمكنه من أن يخرج ويجني بعض المال ، فلماذا كان دائماً يجد لها الأخطاء؟ ثم إن الأشياء التي كان يلومها بسببها ، كانت تافهة جداً . ثم ماذا يهم إن كانت هي ، في أوقات كهذه ، تسلك سلوكاً غير نسوي؟ خصوصاً عندما كانت منجرتها غير النسوية تدخل نقوداً كانوا بحاجة ماسة إليها ، هي والعائلة وتارا وفرانك أيضاً .

لقد كان فرانك يريد الراحة والسكينة ، ذلك لأن الحرب التي كان قد خدم فيها بكل إخلاص ، كانت قد أوهنت صحته وكلفته مستقبله وجعلت منه رجلاً عجوزاً . ولم يكن يأسف على أي من هذه الأمور ، غير أن كل ما كان يرجوه من الحياة بعد أربع سنين من الحرب ، هي الطمأنينة والعطف : الوجوه المحبة حوله ورضى أصدقائه . ولكن سرعان ما وجد أن الطمأنينة البيتية كان لها ثمنها ، وذلك الثمن كان في أن يترك سكارلت تتصرف على هواها ، مهما كان يمكن أن يكون هواها ذاك . وهكذا ، ولأنه كان تعباً ، اشترى الطمأنينة حسب شروطها هي . وكان يفكر أحياناً أن ذلك الثمن يتناسب ورؤيته زوجته تبتسم له وهي تفتح الباب الأمامي في الغسق البارد ، وتقبله عند أذنه أو أنفه أو أي مكان آخر غير مناسب ، كما يتناسب أيضاً وإحساسه برأسها في الليل وهو يستكن ناعساً فوق كتفه ، تحت اللحف الدافئة . كان يمكن أن تكون الحياة البيتية ممتعة جداً عندما كانت سكارلت تفعل ما يطيب لها ، بيد أن الطمأنينة التي حصدها كانت جوفاء ، مجرد مظهر خارجي فقط ، لأنه كان قد دفع ثمنها كل شيء اعتقد أنه صواب في الحياة الزوجية .

- «ينبغي للمرأة أن تعير اهتمامها لبيتها ولعائلتها ، وأن لا تتجول من مكان إلى مكان كالرجال» هجس فرانك «الآن ، لو أنها رزقت طفلاً فقط . . .» .

وابتسم عندما فكر بطفل ، وكثيراً ما كان يفكر بطفل . ولقد كانت سكارلت كثيراً ما أعلنت رغبتها في أنها لا تريد طفلاً ، غير أن الأطفال نادراً ما ينتظرون إلى أن يدعوا . وكان فرانك يعرف أن سكارلت لم تكن سعيدة ، فرغم كونه جاهلاً بشؤون النساء ، لم يكن أعمى البصيرة بحيث لا يستطيع أن يرى أنها كانت غير سعيدة في بعض الأحيان .

كان يستيقظ ليلاً أحياناً ويسمع صوت الدموع الرقيق يتلاشى في الوسادة . وأول مرة استيقظ فيها ليشعر بالسرير يهتز بنحيبها ، سألها مذعوراً «حلوتي ، ما الأمر؟» إلا أنه زجر بصرخة عاطفية «آه دعني وشأني !» .

37

حدث ذلك في ليلة عاصفة ماطرة من ليالي نيسان/ أبريل ، عندما قدم توني فونتين من جونسبورو إلى أتلانتا ، راكباً حصاناً مرغياً نصف نافق من الإعياء ، وراح يقرع باب البيت موقظاً سكارلت وفرانك من النوم وهما في غاية الذعر . وعندئذ ، وللمرة الثانية منذ أربعة أشهر ، قُدّر لسكارلت أن تشعر بمرارة معنى التجديد(*) ، بكل مضامينه . قُدّر لها أن تفهم فهماً أكثر اكتمالاً ما كان يدور في عقل ويل عندما قال : «إن متاعبنا قد بدأت الآن» وأن تدرك أن كلمات آشلي الكئيبة ، التي كان قد تفوه بها في بستان تارا في اليوم العاصف ، كانت كلمات صادقة : «إن هذا الذي يواجهنا جميعاً هو أسوأ من الحرب ـ أسوأ من السجن ـ أسوأ من الموت» .

كانت المرة الأولى التي جابهت فيها سكارلت التجديد وجهاً لوجه ، يوم علمت أن جوناس ويلكرسون يستطيع طردها من تارا بمؤازرة الشماليين . غير أن مجيء توني وضعها أمام الحقيقة الساخرة بصورة أشد رعباً ، فقد جاء في الظلام وتحت سياط المطر ، وبعد دقائق انطلق في الليل ثانية ، وإلى الأبد . ولكن خلال الفترة القصيرة بين مجيئه وانطلاقه رفع توني الستار عن مشهد مهول جديد ، مشهد شعرت سكارلت يائسة بأنه لن يسدل الستار عليه أبداً .

تلك الليلة العاصفة عندما قرع توني الباب بإلحاح سريع جداً ، وقفت سكارلت على بسطة السلم ، ممسكة بدثارها حولها ناظرة إلى القاعة أسفل منها ، لتظفر بلمحة واحدة من وجه توني الأسمر المتجهم ، قبل أن ينحني ويطفيء الشمعة التي كانت في يد فرانك ، وعندئذ أسرعت تنزل في الظلام لتقبض على يده الباردة المبللة ، ولتسمعه يهمس «إنهم يطاردونني ـ ذاهب إلى تكساس ـ إن حصاني على وشك أن ينفق . . . وأكاد أن أموت جوعاً . . . لقد قال آشلي إنكما سـ . . . لا تضيء الشمعة ! لا توقظ الزنوج . . . أنا لا أريد أن أورط جماعتكما في المتاعب إن كان بوسعي ذلك» .

(*) يعني إعادة البناء ، وهي الحركة التي أعقبت احتلال الشماليين للجنوب وتناولت أوجه الحياة المختلفة .

وبعد إغلاق مصاريع شبابيك المطبخ ، وإسدال جميع الستائر إلى عتبات النوافذ ، سمح توني بالضوء وراح يتحدث إلى فرانك بعبارات متهدجة سريعة ، بينما كانت سكارلت تهرع من حولهما ، تدبر وجبة طعام له .

كان بلا معطف ، مبللاً حتى الجلد ، حاسر الرأس ، قد التصق شعره الأسود بجمجمته الصغيرة . ولكن مرح أبناء فونتين ، ذلك المرح الفاتر في تلك الليلة ، كان يبدو في عينيه الصغيرتين الراقصتين وهو يكرع الويسكي الذي قدمته سكارلت له ، بعد أن شكرت الله لأن العمة بيتي بات كانت تشخر مطمئنة في الطابق العلوي ، إذ كان سيغمى عليها حتماً إن هي رأت هذا الذي يشبه الشبح .

ـ «لقيط ملعون . . . أحقر من سكالاواغ» قال توني رافعاً كأسه من أجل جرعة أخرى «لقد ركبت بجد ، وسيكلفني روحي إن لم أخرج من هنا بسرعة . ولكن الأمر يستحق كل هذا ، أجل والله ! سأحاول أن أذهب إلى تكساس ، وأعيش متخفياً هناك . كان آشلي معي في جونسبورو وأشار علي أن آتيكما . عليك أن تتدبر لي حصاناً آخر يا فرانك وبعض النقود ، فحصاني يكاد يسقط . .» .

«كل الطريق إلى هنا وأنا منطلق بسرعة مميتة . . . وكالأبله . خرجت من البيت هذا اليوم كخفاش يخرج من الجحيم ، بدون معطف أو قبعة أو سنت . ولا يعني هذا أن هناك نقوداً وفيرة في بيتنا» .

وضحك ، وأقنع نفسه بدافع الجوع بتناول خبز الذرة البارد وأوراق اللفت الباردة التي كان الشحم كثيفاً عليها في قطع بيضاء .

ـ «بوسعك أخذ حصاني» قال فرانك بهدوء «ولدي الآن عشرة دولارات فقط ، ولكن إذا كنت تستطيع الانتظار حتى الصباح . . .» .

ـ «يا للهول ! ليس بوسعي الانتظار !» قال توني بشكل حاسم ، ولكن ببشاشة «قد يكونون خلفي تماماً ، فأنا لم أنطلق قبلهم بوقت طويل . ولولا أن آشلي انتزعني من هناك ، ودفعني إلى امتطاء حصاني لبقيت هناك كالأبله ، وربما كانت رقبتي قد تدلت الآن ، إن آشلي رجل طيب» .

آشلي إذاً كان مرتبطاً بهذه المشكلة المريعة المحيرة . وبردت سكارلت ووضعت يدها على حلقها . هل اعتقل الشماليون آشلي الآن؟ لماذا لم يسأل فرانك عن

سبب كل هذا الأمر؟ لماذا استقبل كل شيء بهذا البرود ، وكأن القضية كانت مجرد أمر عادي؟ وجاهدت كي توصل السؤال إلى شفتيها .

ـ «ماذا . . .» شرعت «من . . .» .

ـ «ناظر والدك القديم . . . ذلك اللعين . . . جوناس ويلكرسون» .

ـ «هل . . هل هو ميت؟» .

ـ «يا الله ، سكارلت أوهارا !» قال توني برماً «عندما أخرج لأقتل إنساناً ما ، لا تفكري بأني سأقتنع بخدشه بحد سكيني المثلّم ، هل تفكرين كذلك؟ لا ، والله ، إني أقطعه إرباً إرباً» .

ـ «حسناً» قال فرانك دون تعمد «فأنا لم أمل إلى ذلك الرجل أبداً» .

وتطلعت سكارلت إليه . لم يكن هذا هو فرانك الوديع الذي عرفت فيه منقب اللحية العصبي ، والذي كانت قد أدركت أنه يمكن الاستبداد به بسهولة فائقة ، لقد كان يكتنفه الآن مظهر قصم بارد ، لقد كان يواجه الطارئة بالكلمات الضرورية وحسب . لقد كان رجلاً ، وكان توني رجلاً ، وهذه الظروف القاسية كانت من شأن الرجال ، حيث لم يكن للمرأة نصيب .

ـ «ولكن آشلي ، هل . . .» .

ـ «لا ، لقد أراد أن يقتله ولكني أخبرته أن ذلك من حقي أنا ، لأن سالي هي زوجة أخي . وأخيراً اقتنع بحجتي ، وذهب معي إلى جونسبورو ، كي يكون إلى جانبي في حالة تغلب ويلكرسون علي . على أني أعتقد بأن آشلي الحكيم لن يقع في أية ورطة بسبب هذا الحادث ، أرجو ذلك . أليس لديك أي فاكهة مطبوخة لتؤكل مع هذا الخبز؟ وهل بوسعك أن ترزمي شيئاً لآخذه معي؟» .

ـ «سأصرخ إن لم تخبرني كل شيء» .

ـ «انتظري إلى أن أذهب ثم اصرخي إن كنت مضطرة ، سأنبئك بالأمر بينما فرانك يسرج الحصان . لقد سبب ذلك اللعين . . . ويلكرسون متاعب كثيرة حتى الآن . تعرفين كيف تصرف معك من أجل الضرائب ، وتلك فقط واحدة من دناءاته ، ولكن أسوأها كانت طريقته في تهييج الزنوج . آه ، لو أن أحداً كان قد أخبرني أني سأعيش لأرى اليوم الذي سأبغض فيه الزنوج ! لعن الله نفوسهم السوداء . إنهم يصدقون كل ما يحدثهم به أولئك الأوغاد ، وينسون كل شيء

فعلناه من أجلهم . ويتحدث الشماليون الآن عن السماح للزنوج بالتصويت ، بينما هم لن يدعونا نصوت . أجل يوجد بالكاد حفنة من الديموقراطيين في كل الولاية ، ممن لن يُمنعوا من التصويت ، وذلك بعد أن استثنوا منه كل رجل حارب في جيش الحلف . وإن هم منحوا الزنوج حق التصويت ، فإن ذلك يعني نهايتنا . ليلعنهم الله ، إنها ولايتنا نحن ! إنها لا تخص الشماليين . والله يا سكارلت ، إن الوضع لا يمكن أن يحتمل ! وإنه لن يحتمل ! سنفعل شيئاً في الموضوع حتى لو كان ذلك يعني حرباً ثانية . سرعان ما سيصبح لدينا قضاة زنوج ومشترعون زنوج . . قرود سوداء خارجة من الغابة . . .» .

ـ «أرجوك . . . أسرع ، أخبرني ! ماذا فعلت؟» .

ـ «أعطيني كسرة أخرى من ذلك الخبز قبل أن ترزميه . أجل ، لقد شاع أن ويلكرسون أوغل كثيراً في حملته من أجل مساواة الزنوج . أجل ، إنه يتحدث بذلك إلى أولئك الحمقى السود في كل ساعة . لقد كان الحقد يسعره . . . الـ .» وتمتم توني حائراً «ليقول إن الزنوج لهم الحق في . . . في النساء البيضاوات» .

ـ «ها ، توني ، لا!» .

ـ «أجل والله ، أنا لا أستغرب أن تبدي كالمريضة . ولكن يا للجحيم يا سكارلت ! لا يمكن أن يكون ذلك نبأ جديداً بالنسبة إليك ، فهم ما زالوا يخبرون به الزنوج هنا في أتلانتا» .

ـ «إني . . .إني لم أعلم به» .

ـ «حسناً ، قد يكون فرانك حجبه عنك . وعلى كل حال ، لقد أجمع رأينا بعد ذلك على أن نأتي السيد ويلكرسون سرآ في الليل وننقض عليه . ولكن قبل أن نتمكن من ذلك . . . أنت تتذكرين ذلك الحقير الأسود ، يوستس ، الذي كان ناظرنا؟» .

ـ «أجل ، أتذكره» .

ـ «لقد أتى إلى باب المطبخ هذا اليوم بينما كانت سالي تضع الغداء ، و . . . وأنا لا أعرف الذي قاله لها ، وأظن أني لن أعرفه الآن أبداً ، غير أنه قال شيئاً وسمعت أنا صراخها وزكضت إلى المطبخ وهناك وجدته : كان مخموراً كعاهرة . . أرجو عفوك يا سكارلت ، إنها زلة لسان فقط» .

ـ «استمر» .

- «فقتلته ، وعندما ركضت أمي لتعتني بسالي ، امتطيت حصاني وانطلقت إلى جونسبورو قاصداً ويلكرسون ، فهو الذي كان ينبغي أن يلام ، لأن الأسود الأحمق اللعين لم يكن ليفكر بارتكاب فعلته أبداً لولا ويلكرسون . وفي الطريق بجانب تارا ، التقيت بآشلي ، وطبعاً رافقني ، وطلب أن أتركه ينفذ المهمة بسبب الطريقة التي تصرف بها ويلكرسون نحو تارا ، ولكني رفضت طلبه ، لأن ذلك كان من شأني أنا ، فسالي هي زوجة أخي الميت . غير أن آشلي رافقني ، وكان طول الطريق يحاول إقناعي . وعندما بلغنا البلدة ، بالله يا سكارلت ، هل تعرفين بأني لم أحضر حتى مسدسي . لقد تركته في الإصطبل ، لقد كنت منفعلاً جداً بحيث أني نسيته . . .» .

وصمت لحظات ، وقضم الخبز اليابس ، بينما ارتجفت سكارلت . إن سورات غضب آل فونتين الدامية هي التي صنعت تاريخ الولاية ، من قبل أن يفتح هذا الفصل بزمن طويل .

- «وهكذا اضطررت إلى أن أحمل سكيني . وبعد أن وجدته في الحانة ، استدرجته نحو إحدى الزوايا ، بينما كان آشلي يشغل انتباه الآخرين . وهناك بلغته السبب قبل أن أطعنه . أجل ، لقد تمت العملية قبل أن أعيها» . قال توني وهو يتذكر «أول شيء وعيته هو أن آشلي أركبني فوق حصاني ، وأخبرني أن آتيكما . إن آشلي رجل مفيد في المصائب . إنه يحتفظ بعقله» .

ودخل فرانك وناول توني معطفه الذي كان فوق ذراعه . لقد كان معطفه الثقيل الوحيد ، ولكن سكارلت لم تحتج أبداً ، فلقد كانت تبدو خارج نطاق هذا الموضوع ، هذا الموضوع الذي هو من شأن الرجال وحدهم .

- «ولكن يا توني . . .إنهم بحاجة إليك في البيت . من المؤكد أنك إذا عدت وشرحت . . .» .

- «فرانك ، لقد تزوجت امرأة بلهاء» قال توني بابتسامة خفيفة ، وهو يجاهد ليرتدي المعطف «إنها تفكر أن الشماليين سيكافئون رجلاً لأنه أبعد الزنوج عن نسائه . نعم إنهم يكافئونه بالمثول أمام محكمة عسكرية ، وبحبل . أعطني قبلة يا سكارلت ، فلن يغضب ذلك فرانك ، إذ من المحتمل أن لا أراك ثانية . إن تكساس بعيدة جداً من هنا ، ولن أجرؤ على مراسلتكم ، ولذلك دعي أهلي يعلمون أني وصلت إلى هنا سالماً» .

وخرج الرجلان في المطر المنهمر ، ووقفا هنيهة يتحدثان في الشرفة الخلفية ، ثم سمعت صوت رشاش مفاجئ انبعث من وقع حوافر ، وهكذا ذهب توني ، وفتحت الباب قليلاً ، ورأت فرانك يقود حصاناً متعثراً لاهثاً إلى حظيرة العربات ثم أغلقت الباب ثانية ، وجلست وركبتاها ترتجفان .

الآن عرفت ماذا كان يعني التجديد ، عرفت تماماً كما لو كان البيت محاطاً بمتوحشين عراة ، يجلسون القرفصاء بخرق تستر عوراتهم . الآن اندفعت إلى عقلها أمور كثيرة لم تكن قد أعارتها أخيراً إلا قليلاً من الاهتمام : محادثات كانت قد سمعتها ولكنها لم تكن قد أصغت إليها ، أحاديث رجال كانت قد قطعت قبل نهاياتها عندما كانت تدخل الغرف ، حوادث صغيرة لم تكن قد رأت فيها أي مغزى في ذلك الوقت ، تحذيرات فرانك العقيمة لها بأن لا تخرج في عربتها إلى المنجرة بحماية العم بطرس الضعيف فقط . الآن تجلّت هذه الأمور جميعها معاً في صورة واحدة مريعة .

لقد أضحى الزنوج في القمة ، وخلفهم حراب الشماليين . لقد كان يمكن أن تقتل ، لقد كان يمكن أن يغتصب عفافها ، وكان من المحتمل أن لا يتخذ أي شيء عقاباً على ذلك . وأي إنسان ينتقم لها سيعدمه الشماليون ، سيعدمونه دون أن يمنح حق المحاكمة من قبل القاضي والمحلفين . فلقد كان بوسع الضباط الشماليين ، الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن القانون ، والذين لم يكونوا يحفلون إلاّ قليلاً بظروف الجريمة ، كان بوسعهم أن يتابعوا إجراءات المحاكمة ، ويضعوا حبلاً حول عنق أي جنوبي .

ـ «ماذا نستطيع أن نفعل؟» فكرت وهي تلوي يديها في نوبة شديدة من الخوف القاهر «ماذا نستطيع أن نفعل مع الشياطين الذين يمكن أن يعدموا شاباً جميلاً كتوني ، فقط لأنه قتل وغداً مخموراً وسكالاواغاً وغداً ، من أجل أن يحمي حريمه؟ . . إنها لا يمكن أن تحتمل! هكذا صاح توني ، وقد كان توني على حق ، فإن هذا لا يمكن أن يحتمل . ولكن ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا سوى أن يحتملوه ، وهم على هذه الحالة من عدم الحيلة؟ وأغرقت في الارتعاش ، وللمرة الأولى في حياتها ، رأت الناس والأحداث كشيء منفصل عنها ، رأت بوضوح ، أن سكارلت أوهارا المذعورة العاجزة لم تكن هي كل ما يهم في القضية ، فلقد كان هناك الألوف من النساء مثلها في جميع أنحاء

الجنوب ، ممن كن مذعورات عاجزات ، ولقد كان هناك أيضاً الألوف من الرجال الذين كانوا قد ألقوا سلاحهم في «أبو ماتوكس» ثم انتضوه ثانية ووقفوا على استعداد ليخاطروا بأعناقهم إثر إشارة عاجلة ليحموا النساء .

وعندما فكرت سكارلت بقدوم توني الفجائي ، وذهابه السريع ، أحست أنها قريبة له ، لأنها تذكرت القصة القديمة ، قصة والدها الذي كان قد غادر إيرلندا ، غادرها بسرعة الليل ، إثر جريمة قتل لم تكن جريمة في نظره ، أو في نظر عائلته . لقد كان دم جيرالد ، دمه العنيف ، يجري في عروقها ، وتذكرت فرحها الحار عندما قتلت الشمالي اللص . لقد كان الدم العنيف ، فيهم جميعاً قريباً إلى السطح بصورة خطيرة ، كان يكمن تماماً تحت مظاهرهم الخارجية المهذبة الرقيقة ، جميعهم ، جميع الرجال الذين كانت تكمن فيهم روح الفتك ، عنيفين إذا ما دعا الداعي . وحتى ريت ، رغم كونه رجلاً محتالاً دون ضمير ، كان قد قتل زنجياً لأنه «تواقح مع سيدة» .

وعندما أطل فرانك وهو يسعل وينقط بماء المطر ، وثبت سكارلت على قدميها وقالت :

ـ «آه فرانك ! إلى متى سيظل الحال على هذا المنوال؟» .

ـ «طالما يبغضنا الشماليون إلى هذه الدرجة يا حلوتي» .

ـ «ألا يستطيع أحد عمل شيء بهذا الشأن؟» .

فمرر فرانك يداً تعبة على لحيته المبللة وقال :

ـ «إننا نعمل أشياء» .

ـ «مثل ماذا؟» .

ـ «ولماذا نتحدث عنها قبل أن ننجز شيئاً منها؟ قد يستغرق الأمر سنين ، وربما بقي الجنوب على هذا الحال إلى الأبد» .

ـ «آه لا !» .

ـ «حلوتي ، هلمي إلى السرير . لا بد أنك مبتردة ، فها إنك ترتجفين» .

ـ «ومتى سينتهي كل شيء؟» .

ـ «عندما نستطيع أن نصوت ثانية يا حلوتي ، عندما يستطيع كل رجل حارب من أجل الجنوب أن يضع ورقة اقتراع في الصندوق لينتخب جنوبياً أو ديموقراطياً» .

ـ «ورقة اقتراع؟» صاحت خائبة «أي فائدة للاقتراع عندما يكون الزنوج قد فقدوا عقولهم . . . وعندما يكون الشماليون قد أوغروا صدورهم ضدنا؟» .

فاستمر فرانك يشرح لها الأمر بأسلوبه الصبور ، ولكن فكرة أن الاقتراع كان يمكن أن يحل المشكلة كانت أعقد من أن تستطيع إدراكها . وكانت تفكر شاكرة أن جوناس ويلكرسون لن يستطيع تهديد تارا بعد اليوم ، كما كانت تفكر بتوني أيضاً .

ـ «آه ، يا للفونتينيين التعساء !» صاحت «لقد بقي ألكس فقط بينما هناك عمل كثير جداً يتطلب إنجازاً في ميموسا . لماذا لم يكن لدى توني من الإدراك ما يجعله . . . يجعله يقوم بفعلته في الليل ، حيث لا أحد كان سيعرف الفاعل؟ كان أفضل له أن لو ساعد في حراثة الربيع من أن يكون في تكساس» .

وطوقها فرانك بذراعه ، وكان يفعل ذلك عادة بحذر كأنه كان يتوقع أن يردع بجزع ، غير أن عينيه في هذه الليلة كان يتخللهما نظرة بعيدة ، وكانت ذراعه قوية حول خصرها .

ـ «هناك أمور أكثر أهمية الآن من الحراثة يا حلوتي . فترهيب الزنوج وإعطاء السكالاواجيين درساً ، هو أحد هذه الأمور . وطالما لا يزال على قيد الحياة شبان مخلصون كتوني ، فإني أظن أننا لسنا بحاجة إلى أن نقلق على الجنوب كثيراً . هيا إلى السرير» .

ـ «ولكن يا فرانك . . .» .

ـ «إذا نحن تعاضدنا فقط ، ولم نعط الشماليين أي شيء مهما كان ضئيلاً ، فإننا سننتصر يوماً ما . لا تزعجي رأسك الجميل بهذه القضية يا حلوتي ، ودعي رجال وطنك يقلقون من أجلها . ربما لن تأتي النتيجة في زماننا ، ولكنها ستأتي يوماً ما حتماً . ستعجز الشماليين مضايقتهم لنا عندما يرون أن ليس بوسعهم التأثير فينا ، وعندئذ سننعم بدنيا محترمة نعيش فيها ونربي أولادنا» .

وفكرت سكارلت بويد ، وبالسر الذي كانت قد كتمته منذ بضعة أيام . لا ، إنها لم تكن ترغب في أن يترعرع أطفالها في هذه الحمأة من الكراهية والريبة ، هذه الحمأة من المرارة والقسوة التي كانت تكمن تحت السطح تماماً ، الحمأة من العوز والمحن الساحقة ، والقلق . إنها لم ترد يوماً أن يعرف أطفالها مثل هذا

البؤس . كانت تريد حياة آمنة هنيئة تستطيع فيها أن تتطلع إلى الأمام وتعرف أن هناك مستقبلاً آمناً ينتظرهم ، حياة يعرف فيها أطفالها رغد العيش والدفء والملابس الجيدة والطعام اللذيذ وحسب .

لقد كان فرانك يعتقد أن هذا يمكن بلوغه من طريق التصويت . التصويت؟ وما أهمية الأصوات ما دام كرام الناس في الجنوب لن يظفروا بأغلبية الأصوات ثانية؟ ! لقد كان يوجد في الحياة شيء واحد فقط ، شيء كان متراساً أكيداً ضد أي كارثة يمكن أن يجلبها القدر ، وذلك الشيء هو المال . وفكرت محمومة بأن عليهم أن يجمعوا مقادير وفيرة من المال لتحفظهم من الكوارث .

وفجأة أخبرت فرانك أنها سترزق طفلاً .

*

طوال أسابيع مضت بعد فرار توني ، ظل بيت العمة بيتي عرضة لتفتيش متكرر من قبل جماعات من الجنود الشماليين ، كانوا يغيرون على البيت في كل الأوقات ، وبدون سابق إنذار ، يحتشدون داخل الغرف ، يسألون أسئلة ويفتحون مخادع النوم وينخسون وأجرِبَة الثياب ، ويفتشون تحت الأسرّة ، ذلك لأن السلطات العسكرية كانت قد سمعت أن توني نصح بالذهاب إلى بيت العمة بيتي ، وكانت واثقة من أنه ما زال مختبئاً هناك ، أو في مكان آخر قريب .

وبسبب ذلك ، تردّت العمة بيتي بصورة دائمة في ما دعاه العم بطرس «حالة عصبية» ، فلم تكن تعرف أبداً متى كان يمكن أن تداهم غرفة نومها من قبل ضابط وجماعة من الرجال . ولم يكن فرانك أو سكارلت قد ذكرا أمامها نبأ زيارة توني القصيرة ، وهكذا لم يكن بوسع السيدة العجوز أن تفضح شيئاً ، حتى ولو كانت ترغب في ذلك . لقد كانت صادقة تماماً في احتجاجاتها المضطربة من أنها لم تكن قد رأت توني فونتين إلا مرة واحدة في حياتها ، وذلك في عيد الميلاد من عام ١٨٦٢ .

وكانت تضيف إلى الجنود الشماليين قولها وهي تلهث : «وقد كان مخبولاً تماماً يومئذ» ، وذلك محاولة منها في أن تكون ذا نفع لهم .

أما سكارلت ، التي كانت مريضة بائسة في مرحلة الحمل الباكر ، فقد كانت تتقلب بين كراهية شديدة للجنود الشماليين الذين كانوا يغيرون على غرفة

نومها ويحملون معهم غالباً أي سلعة صغيرة تروق لهم ، وبين خوف بالغ يعادل تلك الكراهية ، خوف من أن يكون توني سبب وبالهم جميعاً . لقد كانت السجون ملأى بالناس الذين كانوا قد قبض عليهم لأسباب أقل قيمة من هذا الأمر بكثير ، ولذا كانت سكارلت تدرك أنه إذا ثبتت ضدهم ذرة من الحقيقة فلن تذهب هي وفرانك فقط إلى السجن ، بل وبيتي البريئة أيضاً .

وخلال فترة قصيرة ، ارتفعت في واشنطن دعوة لمصادرة جميع أملاك الثوار ، وذلك لتسديد ديون الحرب للولايات المتحدة ، وقد أبقت هذه الدعوة سكارلت في حالة من الخوف الضاغط . والآن ، وبالإضافة إلى كل هذا ، كانت أتلانتا تزخر بالإشاعات المروعة عن مصادرة أملاك المخالفين للقانون العسكري ، وارتاعت سكارلت خوفاً من أن تفقد هي وفرانك ، ليس فقط حريتهما ، بل البيت والمخزن والمعمل أيضاً . وحتى إذا لم تضع السلطات العسكرية يدها على ممتلكاتها ، فإن دخولهما السجن سيكون بمثابة خسارة هذه الممتلكات ، لأنه من كان سيعتني بأعمالهما في أثناء غيابهما؟

وشعرت سكارلت بالكراهية نحو توني ، لأنه أنزل بهم مصيبة كهذه . كيف وسعه أن يفعل أمراً كهذا بأصدقائه؟ وكيف وسع آشلي أن يوجهه إليهم؟ لن تقدم عوناً بعد اليوم لأي إنسان ، إذا كان ذلك سيعني انقضاض الشماليين عليها كسرب من الدبابير . لا ، ستوصد الباب في وجه أي إنسان يحتاج إلى مساعدة ، طبعاً باستثناء آشلي . لقد ظلت طيلة أسابيع ، بعد زيارة توني القصيرة ، تستيقظ من أحلامها المزعجة ، خشية أن يكون القادم هو آشلي ، في محاولة للهرب إلى تكساس ، لأنه كان قد ساعد توني ، ولم تكن سكارلت تعرف كيف كانت الأمور تسير معه ، لأنهم لم يجرؤوا على الكتابة إلى تارا عن زيارة توني ، فقد كان يمكن أن تضبط رسائلهم من قبل الشماليين ، وعندئذ تنزل المتاعب بتارا أيضاً . ولكن عندما انقضت الأسابيع تباعاً ، ولم يسمعوا بأي نبإ ، أدركوا أن آشلي كان قد نجا بطريقة ما . وهكذا كف الشماليون عن إزعاجهم في النهاية .

ظهور توني في تلك الليلة البهيمة الماطرة كان قد نزع الأغشية الرحيمة عن عينيها وأرغمها على أن ترى قلق حياتها الحقيقي .

وتطلعت سكارلت حولها في ذلك الربيع البارد من عام ١٨٦٦ ، فأدركت

ما كان يواجهها هي وكل الجنوب . لقد كان بإمكانها أن ترسم وتخطط ، وكان بإمكانها أن تعمل أشق مما كان يعمل عبيدها ، وكان يمكن أن تنجح في التغلب على كل مصاعبها ، وكان يمكن بزخم من العزم أن تحل مشاكلها التي لم تكن حياتها الأولى قد دربتها عليها قط . ولكن رغم كل عملها وتضحيتها ودهائها ، كان يمكن أن تنتزع منها في كل دقيقة خطط مشاريعها الصغيرة ، التي تكون قد كلفتها آنذاك ثمناً باهظاً جداً . وإذا ما حدث هذا ، فلن يكون لها أي حق شرعي أو تعويض قانوني يتعدى المحاكم العسكرية ذاتها التي كان توني قد تحدث عنها بمرارة قاسية ، تلك المحاكم العسكرية ذات السلطة التعسفية ، والتي رؤوس أعضائها كالطبول . فلقد كان الزنوج وحدهم فقط يتمتعون بالحقوق والتعويض هذه الأيام . لقد كان الجنوب منطرحاً على وجهه تحت أقدام الشماليين الذين كانوا عازمين على إبقائه على هذه الحالة . كان مترنحاً وكأنه في قبضة عملاق حاقد ، بحيث أضحى هؤلاء الذين كانوا يحكمون فيما مضى أعجز اليوم مما كان عليه عبيدهم السابقون في أي وقت .

كانت جورجيا تعج بالحاميات العسكرية ، الحاميات التي نالت أتلانتا منها أكثر من نصيبها . وكان آمرو الفرق الشمالية في المدن المختلفة يتمتعون بصلاحيات تامة ، حتى صلاحية الحكم بالحياة أو الموت على المدنيين ، تلك الصلاحية التي مارسوها فعلاً . لقد كان بوسعهم أن يسجنوا المدنيين لأي سبب ، وأن يصادروا ممتلكاتهم ويعدموهم ، كان بوسعهم ، وهذا ما نفذوه ، أن يضايقوا ويعرقلوا شؤون الأهلين بأنظمة متناقضة تتعلق بإدارة أعمالهم ، بالأجور التي يجب عليهم دفعها لخدمهم ، وبما ينبغي عليهم أن يقولوا في تصريحاتهم العامة والخاصة ، وما يجب أن يسطروا في صحفهم . وكذلك حددوا كيف ومتى وأين يجب أن يفرغ المواطنون النفايات ، وأقروا الأغاني التي تستطيع إنشادها بنات وزوجات الحلفيين السابقين ، بحيث أصبح إنشاد أغنيتي «دكسي» و«العلم الأزرق الجميل» جريمة لا تقل في خطورتها عن الخيانة العظمى إلاّ قليلاً . كما أنهم أصدروا أمراً بأن ليس بوسع أحد أن يستلم رسالة من مكتب البريد دون أن يقسم «القسم الصارم» ، أي قسم الولاء لحكومة الاتحاد الشمالية ، وفي بعض الحالات ، كانوا يمنعون حتى إصدار رخص الزواج ما لم يقسم الزوجان ذلك القسم البغيض .

وهكذا كان المدنيون الذين كان يسوقهم سوء طالعهم إلى أن يزجوا في السجن ، تحت رحمة السلطات العسكرية عملياً . وما كان أكثر الذين زجوا في السجن ، فإن مجرد الشك بتصريحات تدعو للتمرد على الحكومة ، أو الارتياب بالاشتراك في جمعية كوكلوكس كلان ، أو شكوى من زنجي بأن رجلاً أبيض قد تعجرف عليه ، كل هذه الأمور ، كانت كافية لتوصل المواطن إلى السجن . ولم يكن هناك حاجة إلى الإثبات أو الشهادة ، فالتهمة كانت كافية . وقد كان من الممكن دائماً إيجاد الزنوج الذين يرضون بتقديم التهم بسبب أعمال التحريض التي كانت تقوم بها هيئة التحرير .

لم يكن الزنوج قد منحوا حق التصويت بعد ، ولكن الشمال كان مصمّماً على وجوب منحهم هذا الحق ، كما كان مصمّماً أيضاً على أن تكون أصواتهم لمصلحته .

لقد أضحى من كانوا عبيداً أسياد الناس الآن ، وبمساعدة الشماليين ارتفع أحطهم وأجهلهم إلى القمة ، بينما كانت الطبقة الفضلى منهم ، التي ازدرت الحرية ، تعاني بمرارة ، كأسيادها البيض ، وقد ظل ألوف من خدم البيوت ، وهم أرفع طبقة بين الزنوج ، ظلوا مع أسيادهم البيض يقومون بالأعمال اليدوية التي كانت دون مكانتهم في الأيام القديمة ، وكذلك رفض كثيرون من عمال الحقول المخلصين لأسيادهم أن يستفيدوا من الحرية الجديدة ، إلاّ أن جماعات «الزنوج الحقيرين المتحررين» التي كانت تثير معظم المشاكل كانت في معظمها طبقة عمال الحقول هذه .

في فترة العبودية ، كان هؤلاء السود المنحطون محتقرين من قبل الزنوج البيتيين وزنوج الحظائر ، باعتبارهم مخلوقات قليلة القيمة ، وتماماً كما كانت إيلين قد فعلت ، كانت سيدات المزارع الأخريات ، في أنحاء الجنوب ، قد وضعن الزنوج الصغار في دورات تدريبية يستبعدن خلالها بعضهم وينتقين أفضلهم لإشغال المراكز ذات المسؤوليات الكبيرة . وكان الذين يرسلون إلى الحقل منهم هم أقل الجميع مقدرة على التعلم وأقلهم نشاطاً وأمانة واستقامة ، وأكثرهم شراً وهمجية . هذه الطبقة ، التي هي أحط الطبقات في نظام الزنوج الاجتماعي ، كانت تجعل الآن من حياة الجنوب بؤساً .

وبمساعدة المغامرين غير المحتسبين الذين كانوا ينفذون قانون التحرير ،

وبتحريض من حمى كراهية شمالية كادت تشبه التعصب الديني ، وجد عمال الحقول السابقين أنفسهم فجأة يرتفعون إلى مناصب القوة ، حيث كانوا يتصرفون كما يمكن أن يتوقع من أناس يفتقرون إلى العقل . لقد أفلتوا كالقردة والأولاد الصغار بين أشياء مدخرة قيمتها أبعد من أن يدركوها ، لقد تصرفوا بوحشية . . . إما بدافع سرورهم اللئيم في التدمير وإما بدافع جهلهم .

أصبحت الحرية في نظرهم نزهة مستمرة لا نهاية لها أبداً ، أصبحت حفلة شواء ورقص في كل يوم من أيام الأسبوع ، مهرجاناً من الخمول واللصوصية والوقاحة . وتدفق زنوج الريف إلى المدن ، تاركين المقاطعات الريفية دون من ينتج الغلال . وازدحمت بهم أتلانتا ، وما زالوا يفدون إليها بالمئات ، كسالى خطرين ، كنتيجة للمبادئ الجديدة التي لقنوها ، فحشروا أنفسهم في الغرف القذرة ، وانتشر الجدري والتيفوئيد والسل بينهم . ونظراً لأنهم كانوا معتادين على عناية سيداتهم بهم في أثناء المرض في أيام العبودية ، فإنهم لم يعرفوا كيف يمرضون أنفسهم أو مرضاهم . ونظراً لأنهم كانوا يعتمدون على أسيادهم للعناية بعجائزهم وأطفالهم ، لم يكن عندهم الآن أي شعور بالمسؤولية حيال ضعفائهم . أما هيئة التحرير فقد كانت منهمكة في المسائل السياسية ، بحيث لم يسعها تأمين العناية التي كان أصحاب المزارع يقدمونها لهم في الماضي .

وفي وقت متأخر جداً ، أدركت هيئة التحرير ، وقد أذهلتها الجموع الزنجية الفقيرة التي كانت تتدفق عليها ، أدركت جزءاً من خطئها ، وحاولت أن تعيدهم إلى أسيادهم السابقين . وأخبر رجالها الزنوج أنهم إذا رغبوا في العودة ، فسيعودون كعمال أحرار تحميهم العقود المسجلة التي تعين الأجور اليومية . وهكذا عاد الزنوج المسنون إلى مزارعهم سعداء ، ليضحوا عبئاً أثقل مما كانوا في الماضي على المزارعين المعدمين الذين لم يكونوا يملكون الشجاعة لطردهم . أما الزنوج الشبان فقد بقوا في أتلانتا ، رافضين أن يكونوا عمالاً من أي نوع ، وفي أي مكان .

ولكنَّ هذه الفضائح والأخطار لم تكن شيئاً إذا قيست بالخطر الذي كان يتهدد النساء البيض ممن كن يعشن وحيدات في المقاطعات البعيدة وعلى جوانب الطرق المنعزلة ، وقد عدمت الكثيرات منهن حماية الرجال بسبب الحرب . وكانت حوادث انتهاك الأعراض الكثيرة ، والخوف الدائم على سلامة

الزوجات والبنات ، هما السببان اللذان دفعا الجنوبيين إلى السخط الحاد الدفين ، وإلى ظهور جماعة الكوكلوكس كلان في الليل ، وضد هذه المنظمة الليلية راحت جرائد الشمال ترفع أصواتها عالياً جداً ، دون أن تدرك الضرورة المؤلمة التي بعثتها إلى الوجود . وطالب الشماليون باعتقال كل عضو في الكوكلوكس كلان وإعدامهم لأنهم تجرؤوا على أن يأخذوا على عاتقهم أمر المعاقبة على الجرائم في وقت كانت إجراءات القانون والنظام العادية معطلة فيه من قبل الغزاة .

هنا في الجنوب كان يمثل المشهد المثير ، مشهد نصف أمة تحاول أن تفرض على نصفها الآخر ، برؤوس الحراب ، حكم الزنوج الذين لم يكن قد مضى على خروج الكثيرين منهم من أدغال إفريقية إلاّ جيل واحد أو أقل قليلاً . لقد أضحى من الواجب منحهم حق التصويت في وقت ينبغي فيه إنكار هذا الحق على معظم أسيادهم السابقين ، بل كان ينبغي إبقاء الجنوب مخضعاً ، وسلب البيض حريتهم كان إحدى الوسائل لتحقيق ذلك الغرض . فمعظم أولئك الذين كانوا قد حاربوا في سبيل الحلف ، أو تقلدوا الوظائف في ظله ، أو قدموا له مساعدة ، أو رفهوا عنه ، لم يكن يسمح لهم بالتصويت أو بانتخاب موظفيهم العموميين ، وإنما كانوا كلية تحت سلطة حكم أجنبي . لقد رغب كثير من الرجال ، بعد أن فكروا بتعقل بكلمات الجنرال لي وأمثاله ، في أن يقسموا يمين الولاء ويصبحوا مواطنين ثانية ، وينسوا الماضي ، ولكن لم يسمح لهم بأداء اليمين ، بينما رفض آخرون بشدة ، ممن سمح لهم بأدائها ، أن يقدموا على ذلك العمل مترفعين عن أن يقسموا يمين الولاء لحكومة كانت تخضعهم عمداً للقسوة ، للمذلة والظلم .

وسمعت سكارلت الناس مراراً وهم يكررون إلى حد الإزعاج عبارة : «كنت سأؤدي قسمهم اللعين بعد الاستسلام لو أنهم تصرفوا بتعقل ! يمكن أن أرجع إلى حظيرة الاتحاد ، لكن والله لا يمكن أن أجدد بوساطتها» .

خلال هذه الأيام والليالي المضطربة ، كانت سكارلت تتمزق من الخوف ، فالتهديد الدائم الذي كان يوجده الزنوج ، والجنود الشماليون العابثون بالقانون ، كان ينهش عقلها ، وخطر المصادرة كان يلازمها دائماً حتى في أحلامها ، كما كانت تفزع من أن تنزل بها أهوال أشد فظاعة . ولم يكن من الغريب ، وقد

غمها عجزها وعجز أصدقائها ، أن تتذكر مراراً ، خلال هذه الأيام ، تلك الكلمات التي كان توني فونتين قد تفوه بها بمرارة بالغة : «والله يا سكارلت ، إنها لا تحتمل ، ولن تحتمل» .

*

من جديد أصبحت أتلانتا ، رغم الحرب والحريق وعهد التجديد ، مدينة زاخرة بالنشاط ، تشابه من نواح عدة المدينة الفتية المزدحمة التي كانت مزدهرة أيام الحلف الأولى . وكان الفرق المؤلم الوحيد ينحصر في أن الجنود ، المحتشدين في الشوارع ، كانوا يرتدون بذلات العدو ، وأن النقود كانت بغير أيدي أصحابها الشرعيين ، وأن الزنوج كانوا يعيشون في فراغ ودعة ، بينما كان أسيادهم السابقون يكدحون ويتضورون جوعاً .

كان الفقر والخوف يكمنان مستترين ، فجميع مظاهر المدينة الخارجية كانت تنبئ بأنها مدينة نامية ، تنهض بسرعة فائقة من وسط الخراب ، مدينة صاخبة باطراد . وبدا كأن أتلانتا كان لا بد لها من أن تسرع دائماً مهما كانت ظروفها ، بينما لم تكن كل من سافانا وشارلستون وأوغستا ونيو أورليانز لتسرع أبداً ، فلقد كانت السرعة من علائم سوء التربية والاصطباغ بالصبغة الشمالية . غير أن أتلانتا ، في هذه الحقبة ، كانت أسوأ تربية وأكثر اقتداء بالشمال مما كانت عليه في أي وقت مضى ، أو مما يمكن أن تكون في المستقبل ، «فبالناس الجدد» الذين احتشدوا فيها من جميع الأنحاء غصت الشوارع ، وضجت من الصباح حتى الليل . وكانت العربات البراقة التي تخص زوجات الضباط الشماليين والكاربت بكرز الحديثي النعمة تنثر الوحل على عربات سكان المدينة المتخلخلة . بينما تجمعت البيوت الجديدة المزخرفة للغرباء الأثرياء بين المساكن الكئيبة للمواطنين القدماء .

كانت الحرب قد أكدت أهمية أتلانتا في شؤون الجنوب بصورة حاسمة ، وبذا أصبحت المدينة ، التي كانت مغمورة قبل الآن ، واسعة الشهرة بعيدتها . وغدت السكك الحديدية التي حارب شيرمان من أجلها طيلة صيف كامل ، وقتل آلاف الرجال ، تنعش حياة المدينة مرة ثانية ، المدينة التي كانت السكك ذاتها قد أخرجتها إلى الوجود . فقد أضحت ثانية مركز الأعمال لمنطقة واسعة ، كما كانت قبل دمارها ، وغدت تستقبل تياراً دافقاً من المواطنين الجدد من أخيار وأشرار .

واتخذ الانتهازيون الشماليون الغزاة أتلانتا مركزاً لقيادتهم ، وفي شوارعها كانوا يتدافعون بالمناكب مع أفراد أقدم العائلات في الجنوب ، الذين كانوا أيضاً من القادمين الجدد . وكذلك جاءت لتعيش في أتلانتا عائلات من الأقاليم الريفية التي كانت الحرائق قد شردتها من بيوتها في أثناء زحف شيرمان ، والتي لم يعد بوسعها أن تعيل نفسها بدون العبيد لحراثة أرض القطن . وفي كل يوم ، كان يدخل المدينة مستوطنون جدد قادمون من تينسي وكارولينا الشمالية والجنوبية ، حيث كانت يد التجديد أقسى حتى مما كانت عليه في جورجيا . كما أن الكثيرين من الإيرلنديين والألمان ، الذين كانوا متطوعين في جيش الاتحاد ، استقروا في أتلانتا بعد تسريحهم . وقدم أيضاً إلى المدينة ، ليزيد في تضخم عدد سكانها ، زوجات وعائلات حامية الشماليين ، اللواتي كن يملأهن الفضول عن الجنوب ، بعد أربع سنين من الحرب . وكذلك توافد عليها حشود المغامرين من كل نوع يحدوهم الأمل في الثراء ، بينما استمر زنوج الريف يفدون إليها بالمئات .

كانت أتلانتا صاخبة ، وهي مشرعة الأبواب كقرية على الحدود ، لا تبذل أي جهد لستر معايبها وآثامها ، فقد كانت الصالات تتلألأ طوال الليل ، صالتان وأحياناً ثلاث في الحي الواحد ، وبعد أن كان الليل يسدل ستائره ، كانت الشوارع تمتلئ بالرجال السكارى من السود والبيض ، يترنحون جيئة وذهاباً بين الجدران والحواجز ، وكان القتلة واللصوص والعاهرات يقبعون في المنعطفات المظلمة والشوارع المعتمة ، وكانت بيوت القمار تعج بالناس ، وقل أن مرت عليها ليلة دون حوادث قتل أو مشاجرات جارحة . وشين أفاضل المواطنين عندما وجدوا أن أتلانتا أصبحت تضم منطقة نامية تشعشع فيها الأضواء الحمراء ، منطقة أكبر وأسرع نماء مما كانت عليه خلال الحرب . وطوال الليل كانت البيانوات تعزف من خلف الستائر المسدلة ، والأغاني المعربدة وأصوات الضحك تنساب إلى الخارج ، تتخللها من وقت إلى آخر الصيحات وطلقات المسدسات . وكانت نزيلات هذه البيوت أوقح من عاهرات أيام الحرب ، يمددن رؤوسهن من النوافذ بقحة ، وينادين المارة . وبعد أظهار أيام الآحاد ، كانت العربات الجميلة المغلقة ، التي تخص مديرات هذه البيوت تخطر في الشوارع الرئيسية ، مملوءة بالبنات في أجمل حللهن ، يتنسمن الهواء

من خلف ستائر حريرية مسدلة .

وكانت بيل وتلنغ أوسع مديرات البيوت شهرة ، وكانت قد فتحت بيتاً جديداً لها يتألف من بناية ذات طابقين جعلت المنازل المجاورة في المنطقة تبدو أمامها كجحور الأرانب . وكان هذا البيت موضوعاً تتهامس حوله ، خلسة ، سيدات أتلانتا المتزوجات ، ويعظ القسس بعبارات متحفظة لتجنبه ، لأنه كان بمثابة بالوعة من الإثم والاشمئزاز والعار . وأدرك الجميع أن امرأة على نمط بيل لم يكن بوسعها أن تجمع وحدها نقوداً تكفي لتشييد هذه المؤسسة المترفة ، فكان لا بد لها إذاً من ظهير ورجل غني يدعمها . ولم يكن ريت بتلر يتمتع أبداً بالحشمة بحيث يخفي علاقاته معها ، ولذلك كان من الجلي أنه هو الذي لا بد أن يكون ظهيرها ، دون أي إنسان آخر .

وهكذا ، بينما كانت الأنوار المتلألئة والخمر ، القيثارات والرقص ، الحرير المشجر والجوخ ، تفيض بها البيوت الكبيرة الفخمة ، كان في الجوار تماماً بقع الموت البطيء جوعاً . وبينما كان الكبرياء والتصلب حليفي الغالبين ، كان الصبر المرير والكراهية الأكثر مرارة نصيب الذين غلبوا على أمرهم .

38

هذا كله كانت تراه سكارلت ، تحياه بالنهار وتحمله معها إلى السرير في الليل . وكانت تخشى دائماً ما كان يمكن أن يتبع ذلك من أحداث ، فقد كانت تعرف ، أنها وفرانك ، أمسيا في سجلات الشماليين السوداء بسبب توني ، وأن من الممكن أن تنزل بهما الكارثة في أي وقت . ولكنها الآن ، من بين جميع الأوقات ، لم يكن بوسعها أن تحتمل إعادتها إلى بدايتها . . . ليس الآن وجنينها آت ، والمعمل قد باشر في الإنتاج ، وتارا تعتمد عليها في النقود إلى أن يستثمر القطن في الخريف . آه ، هب أنها ستفقد كل شيء ! هب أنه سيكون عليها أن تبدأ كل شيء من جديد ، بسلاحها الضعيف فقط ، ضد هذا العالم المجنون . سيكون عليها أن تُجيِّش شفتيها الحمراوين ، وعينيها الخضراوين ، ودماغها الماكر الضحل ، ضد الشماليين ، وضد كل شيء يدافع عنه الشماليون . وأحست ، وقد أضناها الرعب ، أنها تفضل قتل نفسها على أن تحاول أن تبدأ من جديد .

وفي وسط دمار ذلك الربيع من عام ١٨٦٦ وفوضاه ، وجهت سكارلت قواها بتصميم لتجعل من المعمل أداة ربح . لقد كان يوجد نقود في أتلانتا ، وكانت موجة التجديد تتيح لها الفرصة التي كانت تريدها ، وأدركت أن بوسعها أن تجني النقود إذا ما استطاعت أن تبقى خارج السجن وحسب . ولكنها كانت تنبئ نفسها ، مرة بعد أخرى ، بأن عليها أن تسير على مهل ، بحذر ، وأن تكون رحبة الصدر أمام الإهانات ، وأن تتقبل المظالم ، وأن لا تسيء إلى إنسان أبداً ، أسود كان أو أبيض ، ممن يمكن أن يسيء إليها . لقد كانت تكره الزنوج المتحررين الوقحين كثيراً ، كأي إنسان آخر ، وكان جلدها يتخدر بالسخط كلما سمعت عباراتهم المهينة وضحكهم المدوي وهي تمر إزاءهم ، ولكنها لم تكن تلقي عليهم حتى ولا نظرة ازدراء . وكذلك كانت تكره الكاربت بكرز والسكالاواغز الذين كانوا يجمعون الثروات بسهولة ، بينما كانت هي تكافح في سبيل ذلك ، غير أنها رغم هذا لم تكن تقول شيئاً في لومهم . ولم يكن يمكن لإنسان في أتلانتا أن يشمئز من الشماليين أكثر مما كانت هي تشمئز منهم ، لأن مجرد رؤية معطف أزرق ، كان يملؤها سخطاً ، ولكن ، حتى وهي في عزلتها البيتية ، كانت تحتفظ بالصمت فيما يتعلق بهم .

لن أكون حمقاء ثرثارة ، فكرت باكتئاب ، دع الآخرين يمزقون قلوبهم حزناً على الأيام السالفة ، وعلى الرجال الذين لن يرجعوا أبداً ، دع الآخرين يشتعلون سخطاً على حكم الشماليين ، ويخسرون ورقة الاقتراع ، دع الآخرين يدخلون السجن بسبب الجهر بآرائهم ، ويوصلون أنفسهم إلى المقصلة لكونهم أعضاء في الكوكلوكس كلان (آه ، ما كان أشد رهبة ذلك الإسم ، كان مفزعاً لسكارلت كإفزاعه للزنوج تقريباً) . أرجوك يا الله ، فقط دعني خارج حوزة المتاعب حتى حزيران ! فقط إلى حزيران ! لأن سكارلت كانت تعرف أنها في ذلك الشهر ستضطر إلى أن تعتزل في بيت العمة بيتي ، وتظل منزوية هناك إلى ما بعد أن يولد الطفل . ومنذ الآن ، كان الناس ينتقدونها لظهورها في المجتمع بينما هي في حالة كهذه ، ولم يحدث أن أظهرت سيدة نفسها وهي في حالة الحمل . ومنذ الآن أيضاً ، كان فرانك وبيتي يرجوانها أن لا تعرض نفسها وإياهما إلى المضايقة . وكانت فقد وعدتهما أن تنقطع عن العمل في حزيران .

فقط إلى حزيران ! ففي حزيران لا بد أن تكون قد نظمت المعمل جيداً ، بحيث تستطيع مغادرته ، وفي حزيران ، لا بد تكون قد جمعت نقوداً تكفي لتؤمن لها ، على الأقل بعض الحماية ضد النوائب . لقد كان عليها القيام بكل هذا العمل الكثير ، ولم يكن لديها إلاّ وقت قصير جداً لتنجزه ! وتمنت أن لو كان اليوم أكثر ساعات مما هو عليه ، وراحت تعد الدقائق وهي تجهد نفسها محمومة في جمع المال .

ولأنها حثت فرانك الحيي ، أصبح المخزن ينتج الآن أكثر من السابق ، وغدا فرانك يستوفي بعض ديونه القديمة . إلاّ أن المنجرة هي التي كانت قد ركزت آمالها عليها . فقد كانت أتلانتا هذه الأيام كنبتة عملاقة ، كانت قد قطعت من أسفل ساقها ، ولكنها كانت تنمو الآن ثانية ببراعم أصلب وأوراق أكثف وأغصان أكثر عدداً . وكانت الحاجة إلى مواد البناء أكبر بكثير مما يمكن تأمينها ، ولذا حلقت أسعار الخشب والآجر والحجارة ، وأبقت سكارلت المعمل يشتغل من الفجر إلى وقت إضاءة المصابيح .

كانت تسلخ جزءاً من نهارها في المعمل ، تتدخل في كل شيء ، وتبذل جهدها لتمنع السرقة ، التي كانت تشعر شعوراً أكيداً أنها كانت مستمرة . غير أنها في معظم الوقت كانت تتجول راكبة في أنحاء المدينة تطوف بالبنائين

والمقاولين والنجارين ، بل إنها كانت أيضاً تزور الغرباء الذين كانت قد سمعت أن من المحتمل أن يباشروا البناء في مواعيد قادمة ، فكانت تتحلفهم كي يعدوها بأن يشتروا منها ، ومنها فقط .

وسرعان ما غدت سكارلت منظراً مألوفاً في شوارع أتلانتا ، تجلس في عربتها الصغيرة بجانب السائق الزنجي العجوز المتجهم الوجه ، والمستنكر لعملها ، تجلس بجانبه وقد وضعت على حجرها دثاراً وشبكت يديها الصغيرتين المقفزتين في حجرها .

ولم تكن سكارلت الشخص الوحيد الذي وجد الفرص سانحة لجمع المال من تجارة الخشب ، بيد أنها لم تخش منافسيها ، إذ كانت تعرف ، بكبرياء واع لحذقها ، أنها كانت كفء لأي منهم ، فلقد كانت ابنة جيرالد ، وكانت الغريزة التجارية الماهرة التي ورثتها قد شحذت الآن بتأثير الحاجة .

كان منافسوها قد ضحكوا عليها في البداية ، ضحكوا بازدراء سليم النية ، على مجرد فكرة وجود امرأة تعمل ، ولكنهم لم يكونوا يضحكون الآن ، بل كانوا يشتمونها في سريرتهم ، عندما يرونها تمر راكبة إزاءهم . فلقد كانت حقيقة كونها امرأة تخدمها غالباً ، إذ كان بوسعها عند الحاجة أن تنتحل مظهر المسكينة المستعطفة بحيث تذيب القلوب . وبدون أية صعوبة ، كان بوسعها أن تنقل إلى أذهان الرجال بصمت ، صورة سيدة شجاعة ، ولكنها حيية ، تدفعها ظروف وحشية إلى وضع مستقبح ، سيدة صغيرة عاجزة ، من المحتمل أن تتضور جوعاً إذا لم يشتر الزبائن أخشابها . ولكن عندما كانت المظاهر الرقيقة تفشل في إحراز النتائج ، كانت سكارلت تنقلب ببرود إلى امرأة عملية وتضارب بخسارة وبطيبة خاطر على أسعار منافسيها إذا كان ذلك سيجلب لها زبوناً جديداً . ولم تكن سكارلت أرفع من أن تبيع نوعاً رديئاً من الخشب بسعر النوع الجيد إذا اعتقدت أن فعلتها لن تكتشف ، ولم تكن الوساوس تنتابها بسبب تكسيدها لأخشاب التجار الآخرين . وكانت ، عند كل مظهر من التردد في فضح الحقيقة المكدرة ، تتنهد وتخبر الزبائن المأمولين بأن أخشاب منافسيها أغلى سعراً بكثير ، وأنها نخرة ، مليئة بالعقد والتجاويف ، وأنها من نوع رديء يرثى له عموماً .

وأحست سكارلت ، في أول مرة كذبت فيها على تلك الصورة ، بالارتباك

والإثم . . . الارتباك لأن الكذبة ارتفعت إلى شفتيها بسهولة فائقة وبصورة طبيعية جداً ، والإثم لأن فكرة خاطفة ومضت في عقلها : ماذا ستقول أمي؟

ولكنها لم تعد تفكر بأمها أبداً ، في كل ما يتعلق بأمور عملها ، ولم تعد تندم أبداً على أي وسيلة استخدمتها لتنتزع التجارة من تجار الخشب الآخرين . وكانت تعرف أنها في أمان تام من مغبة كذبها عليهم ، فالمروءة الجنوبية كانت تحميها ، إذ كان بوسع السيدة الجنوبية أن تكذب على السيد الجنوبي ، بينما لم يكن بوسع هذا أن يكذب على سيدة . وكان أسوأ من ذلك أن يدعوا الرجل امرأة بـ«كذابة» . وهكذا لم يكن بوسع تجار الأخشاب الآخرين إلا أن يستشيطوا غيظاً في سرهم ، ويعلنوا بحدة داخل عوائلهم أنهم يتمنون من الله أن لو كانت السيدة كندي رجلاً لمدة خمس دقائق فقط .

وبرزت الآن ، وقد تملكت المعمل ، المشكلة المعقدة المتعلقة بإيجاد رجل جدير بالثقة لتعينه مسؤولاً عن المعمل . ولم تكن تريد رجلاً آخر كالسيد جونستون ، فقد كانت تعرف أنه ، رغم مراقبتها له ، كان لا يزال يبيع أخشابها دون علمها أحياناً . غير أنها فكرت أن من السهل إيجاد الرجل المطلوب . ألم يكن كل الناس فقراء مساكين ، أولم تكن الشوارع ملأى بالرجال الذين لا عمل لهم ممن كان بعضهم من الأغنياء سابقاً؟ ولم يكن النهار يمضي ، دون أن يعطي فرانك بعض النقود إلى جندي قديم جائع ، أو دون أن ترزم بيتي أو كوكي بعض الطعام لمستجدين هزال .

ولكن سكارلت لسبب ، لم تستطع فهمه ، لم تكن تريد أياً من هؤلاء : «أنا لا أريد رجالاً لم يجدوا شيئاً ليعملوه بعد سنة» فكرت ، «فإذا كانوا لم يكيفوا أنفسهم مع السلم حتى الآن ، فلن يكون بوسعهم أن يتكيّفوا معي ، كما أن جميعهم يبدون أذلاء مدحورين ، وأنا لا أريد إنساناً مدحوراً ، بل أريد إنساناً حاذقاً نشيطاً كرينيه أو تومي ولبورن أو كلز ويتنغ أو أحد أبناء سيمونز أو . . . أو أي واحد من ذلك الرهط ، فهم لا تشوبهم نظرة عدم الاكتراث لشيء ، تلك النظرة التي انتابت الجنود بعد الاستسلام مباشرة ، وإنما كانوا يبدون وكأنهم يهتمون بعدد كبير من الأمور» .

غير أن الذي أدهشها هو أن أبناء سيمونز ، الذين كانوا قد شرعوا باستثمار أتون آجر ، وكلز ويتنغ الذي كان يبيع مستحضراً مصنوعاً في مطبخ أمه ،

ومضموناً في تقويم أكثر شعور الزنوج جعودة ، بعد استعماله ست مرات ، أنهم جميعاً ابتسموا بأدب وشكروها رافضين عرضها . كما أن أحد أبناء شقيقة السيدة ميريويذر علق بوقاحة قائلاً إنه في الوقت الذي لا يسعده أن يسوق عربة النقل الكبيرة ، بصفة خاصة ، إلاّ أن تلك كانت عربته هو ، وأنه يفضل أن يبلغ أي قسط من النجاح بعمله الخاص ، على أن يبلغه في مشروع سكارلت .

وبعد ظهر يوم ، أوقفت سكارلت عربتها بجانب عربة فطير رينيه بيكارد ، وحيته وتومي ولبورن الأعرج ، الذي كان قد انتهز فرصة لقاء صديقه ليركب معه إلى البيت :

ـ «اسمع يا رينيه ، لماذا لا تأتي وتشتغل عندي؟ فإدارة معمل نجارة أكثر احتراماً من سوق عربة فطير . إني أعتقد أنك تكون خجلاً وأنت تقوم بعملك هذا» .

ـ «أنا ، إني ميت من الخجل» ابتسم رينيه «من يكون محترماً؟ لقد كنت محترماً طيلة حياتي إلى أن حررتني الحرب كالزنوج . لا ينبغي علي أبداً أن أعود محترماً موجع الرأس . أعود حرآً كالطير؟ ! أعوذ بالله ، إني أحب عربة فطيري ، إني أحب بغلي ، إني أحب الشماليين الأعزاء الذين يشترون بلطف زائد الفطير من السيدة حماتي ، لا يا سكارلت ، لا بد لي من أن أصبح ملك الفطير . إن هذا هو ما قدّر لي ! وكنابليون أتبع طالعي» وهز سوطه هزة عنيفة .

ـ «ولكنك لم تنشأ لتبيع الفطائر ، كما أن تومي لم ينشأ ليتعامل مع زمرة من البنائين الإيرلنديين الخشان . إن عملي من نوع أكثر . . .» .

ـ «وأظن أنك نُشِّئت لتديري معمل أخشاب» قال تومي وشدقاه ينتفضان ، «نعم ، إن بوسعي الآن أن أرى سكارلت الصغيرة على ركبة أمها ، تتلعثم بتلاوة درسها ، ـ لا تبيعي خشباً جيّداً إذا كان بوسعك أن تحصلي على ثمن أفضل للنوع الرديء» .

وانفجر رينيه ضاحكاً على هذه العبارة ، ورقصت عيناه الصغيرتان كعيني قرد ، رقصتا بفرح وهو يربت على ظهر تومي المنحني .

ـ «لا تكن وقحاً» قالت سكارلت ببرود ، لأنها شعرت بقليل من السخرية في عبارة تومي «طبعاً ، أنا لم أنشأ لأدير منجرة» .

ـ «أنا لم أقصد أن أكون وقحاً ، ولكنك تديرين منجرة سواء أنُشِّئت لذلك

العمل أم لا ، وتديرينها بصورة ممتازة كذلك . والحقيقة أننا جميعاً ، كما أستطيع أن ألاحظ ، لا نقوم بما كنا نعزم على القيام به في هذا الوقت بالذات ، ولكنني أعتقد أننا سنفلح مع ذلك . والشخص المسكين وأمه المسكينة هما اللذان يجلسان ويندبان لأن الحياة ليست بالضبط كما توقعاها أن تكون . لماذا لا تختارين أحد الشماليين الانتهازيين الجريئين ليشتغل عندك يا سكارلت؟ إن الغابات مليئة بهم ، والله يعلم ذلك» .

ـ «أنا لا أريدهم ، فهؤلاء سيسرقون كل ما لم يكن متقداً كالجمر أو ثابتاً مسمّراً . ولو كان فيهم خير ، لبقوا حيث كانوا ، بدلاً من أن يأتوا هنا إلى الجنوب لينزعوا عظامنا . أريد رجلاً صالحاً من أناس صالحين ، رجلاً حاذقاً أميناً نشيطاً و . . .» .

ـ «أنت لا تريدين الكثير . إنك لن تظفري به بهذا الأجر الذي تقترحينه ، فكل الرجال من ذلك النوع ، باستثناء المصابين منهم بإصابات بالغة ، قد توصلوا إلى عمل يعملونه . قد يكونون في أعمال لا يصلحون لها ، ولكنهم جميعاً قد وجدوا عملاً يعملونه ، عملاً خاصاً بهم ، يفضلون أن يقوموا به ، على أن يعملوا عند امرأة» .

ـ «إن الرجال لا يدركون إدراكاً واسعاً ، ولو لم يكونوا كذلك لما وصلت إلى الحضيض» .

ـ «ربما ، ولكنهم يملكون كثيراً من الكبرياء» قال تومي بحزم .

ـ «كبرياء ! إن الكبرياء طعمها لذيذ للغاية ، خصوصاً عندما يكون غلافها رقيقاً وتضع حلوى عليه» قالت سكارلت بحدة .

ـ «سكارلت» قال تومي بخشونة «إني أكره أن أسألك إحساناً ، بعد أن كنت وقحاً معك ، غير أني سأسأله على كل حال ، ومن الممكن أن يساعدك ذلك بطريقة ما . إن شقيق زوجتي ، هيو ألسنغ ، لا يظفر بنتيجة حسنة في أثناء تجواله في بيع الحطب ، لأن جميع الناس ، باستثناء الشماليين ، يخرجون ويجمعون حطبهم . وإني أعلم أن الأمور سيئة للغاية مع جميع عائلة ألسنغ . وأنا . . . أنا أقوم بما يسعني ، ولكنك تعرفين أن علي أن أعيل فاني ، وأن أهتم أيضاً بأمي وشقيقتي الأرملتين ، اللواتي يعشن هناك في سبارطة . إن هيو رجل طيب ، وأنت تريدين رجلاً طيّباً ، كما أنه من عائلة طيبة ، كما تعلمين ،

بالإضافة إلى أنه أمين» .

- «ولكن . . . الواقع أن هيو لا ينعم بأي حذق ، وإلاّ لنجح في بيع الحطب» .

فهز تومي كتفيه باستهجان .

- «إنك تنظرين إلى الأمور بطريقة صارمة يا سكارلت» قال «ولكن تروي في الحكم على هيو . إن بوسع المرء أن ينطلق بعيداً ، ويأتي بنتيجة أسوأ ، ولكني أعتقد أن أمانة هيو ، وإرادته الطيبة ، سترجحان على نقص حذقه» .

فلم تجب سكارلت لأنها لم تكن تريد أن تكون فظة جداً . ولكن ، في نظرها ، لم يكن يوجد سوى صفات قليلة ترجح على الحذق ، هذا إن وجدت .

ولما كانت قد فشلت في التماس بغيتها في أنحاء المدينة ، ورفضت إلحاح كثير الشماليين الطارئين المتلهفين على العمل ، قررت أن ترضى باقتراح تومي ، وتطلب من هيو العمل لديها .

وكان هيو هذا ضابطاً مقداماً واسع الحيلة في أثناء الحرب ، ولكن بدا أن جرحين بليغين وأربع سنوات من القتال قد أنضباه من كل سعة حيلته هذه الأيام ، وتركاه ليواجه شدائد السلم بعجز الطفل . كانت تشوب عينيه نظرة كلب ضال وهو يتجول لبيع حطبه ، ولم يكن هو أبداً ذلك الرجل الذي كانت قد أملت الحصول عليه .

إنه أحمق ، فكرت ، إنه لا يعرف شيئاً عن التجارة ، وأنا أراهن أنه ليس بوسعه أن يجمع اثنين واثنين ، كما أنني أشك فيما إذا كان سيتعلم ذلك يوماً . ولكنه على الأقل رجل أمين ولن يختلس أموالي» .

ولم تكن سكارلت تعتمد على الأمانة في نفسها كثيراً في هذه الأيام ، ولكن كلما كانت تقلل من أهميتها في نفسها كلما شرعت في تعظيم قيمتها في الآخرين .

- «إنه لمن المؤسف أن يكون جوني غاليغر مرتبطاً مع تومي ولبورن في عمل البناء ذاك» فكرت سكارلت «إنه تماماً ذلك النوع من الرجال الذي أبغيه . إنه صلب كالفولاذ ، مرن كالحية ، ويكون أميناً حين يجد الأمانة في ما يغنيه عن عدمها . إني أفهمه كما أنه يفهمني ، وبوسعنا أن نقوم بالتجارة معاً بنجاح تام .

ربما ظفرت به عندما ينتهي بناء الفندق ، وحتى ذلك الوقت ، علي أن أعتمد على هيو والسيد جونستون . وإذا أنا عينت هيو مسؤولاً عن المعمل الجديد ، وأبقيت السيد جونستون مسؤولاً عن المعمل القديم ، سيكون بوسعي أن أظل في المدينة وأنصرف لشؤون البيع ، بينما يشرفان هما على قص الخشب وشحنه . وإلى أن أظفر بجوني ، علي أن أخاطر في أن أترك السيد جونستون يسرقني إذا ظللت في المدينة طيلة الوقت . آه ، حبذا لو لم يكن لصاً ! إني أعتقد أني سأبني مخزن أخشاب على نصف تلك المساحة التي خلفها لي تشارلز . حبذا لو أن فرانك لم يرفع صوته علي حول فكرة بنائي لصالة على نصف الأرض الأخرى . على كل حال ، سأبني الصالة حالما أحوز على نقود كافية مقدماً ، مهما كان موقفه من ذلك . آه ، حبذا لو أن فرانك لم يكن حساساً إلى هذه الدرجة . آه يا إلــهي ، حبذا لو أني لم أكن مقبلة على ولادة طفل في هذا الوقت عينه ! فبعد فترة قصيرة سأغدو بدينة جداً بحيث لن يسعني الخروج من البيت ، آه يا إلــهي ، حبدا لو أني لم أكن مقبلة على ولادة طفل ! وآه يا إلــهي حبذا لو أن الشماليين يتركونني وشأني ! لو . . .» .

لو ! لو ! لو ! لقد كانت هناك تمنيات كثيرة في الحياة ، في وقت خلا فيه التأكد من الظفر بشيء ، وافتقر فيه الناس إلى أي شعور بالأمان ، وخشوا فقدان كل شيء ، والوقوع فريسة البرد والجوع ثانية . طبعاً ، لقد كان فرانك يجني قليلاً من النقود الآن ، بيد أنه كان دائماً يعتل بالزكام ويضطر غالباً للبقاء في سريرة مدة أيام . هب أنه أصبح عليلاً عاجزاً عن العمل؟ لا ، لم تكن تستطيع أن تعتمد على فرانك للحصول على الكثير . لا ، ينبغي أن لا تعتمد على أي إنسان أو أي شيء سوى ذاتها . غير أن الذي كان بوسعها أن تكسبه وحدها بدا ضئيلاً يدعو للرثاء . آه ، ماذا ستفعل إذا ما أتى الشماليون وانتزعوا كل شيء منها . . لو ! لو ! لو ! . .

كان نصف الذي تنتجه في كل شهر يذهب إلى ويل في تارا ، وجزء منه إلى ريت لسداد القرض ، والباقي تدخره هي . ولم يحدث أن كان بخيل يوماً يعد ذهبه كما كانت تعد ذهبها ، ولم يحدث أن خاف مقتّر يوماً على ضياع ذهبه أكثر من خوفها هي . ولم تكن سكارلت ترغب في وضع نقودها في المصرف ، لأنه كان من الممكن أن يفلس أو يصادره الشماليون . ولذلك كانت

تحمل معها ما تستطيع حمله، تدسه في مشدها، وتخبئ رزماً من السندات حول البيت، وتحت قطع من الآجر المتفكك على الموقد، وفي محفظة أدواتها الصغيرة، وبين صفحات الإنجيل. وكان طبعها قد أخذ يزداد حدة بمرور الأسابيع، لأنها كانت تعتقد أن كل دولار تكسبه كان يضاف إلى الدولارات التي ستخسرها إذا وقعت الواقعة.

وكان فرانك وبيتي والخدم يتحملون ثوراتها بعطف، عازين مزاجها السيئ إلى كونها حاملاً، وغير مدركين السبب الحقيقي أبداً. ولم يبد أن أحداً كان يدرك ما كان يتحكم بتصرفاتها حقاً، ولا ما كان يسوقها كامرأة مجنونة. إنه رغبتها الشديدة الجارفة في تنظيم شؤونها قبل أن تضطر إلى الاعتزال خلف الأبواب، وفي أن تجمع من المال قدر المستطاع، خشية أن يغمرها الطوفان ثانية، وفي أن تحوز على ركيزة قوية من المال النقدي تجابه به موجة الحقد الشمالية المرتفعة. لقد كانت النقود هي الروح الشريرة الملازمة المتسلطة على عقلها في هذه الأيام، ولو حدث وفكرت بالطفل كان ينتابها سخط حائر على قدومه قبل أوانه. الموت والضرائب والولادة! لا يوجد أبداً أي وقت مناسب لأي منها.

*

كان العار قد جلّل أتلانتا عندما بدأت سكارلت، امرأة، تدير منجرة، ولكن مع مرور الوقت، قررت المدينة أنه لا يوجد حد لما يمكن أن تفعله سكارلت. لقد كانت تجارتها الجريئة أمراً مذهلاً، خصوصاً أن أمها المسكينة كانت من آل روبلارد، وأن من المعيب حتماً إن استمرت تتجول في الشوارع بينما كان الجميع يعرفون أنها حامل. ولم يحدث مرة أن خرجت امرأة بيضاء محترمة من بيتها بعد اللحظة الأولى من شكها بأنها تحمل جنيناً، وكذلك معظم الزنجيات. وقد صرحت السيدة ميريويذر ساخطة بأنه نظراً للطريقة التي تتصرف بها سكارلت فإن من المحتمل أن تلد طفلها في الشوارع العامة.

غير أن جميع الانتقادات، السابقة لسلوكها، لم تكن شيئاً إذا ما قيست بدوي الثرثرة التي كانت تدور الآن في المدينة، والمتعلقة بكون سكارلت لم تكن تتاجر مع الشماليين وحسب، بل كانت أيضاً تبدي كل ما يدل على أنها ترغب في هذه التجارة حقاً.

لقد كانت السيدة ميريويذر ، وجنوبيون كثيرون آخرون ، يتاجرون كذلك مع القادمين الجدد من الشمال ، ولكن الفرق كان في أنهم لم يكونوا يستحسنون عملهم هذا ، بل كانوا يظهرون بصراحة أنهم لم يكونوا يستحسنونه . بينما كانت سكارلت تستحسن عملها وتكشف عن رأيها ذاك ، الأمر الذي كان رديئاً كالعمل ذاته . كانت سكارلت قد تناولت الشاي فعلاً مع زوجات الضباط الشماليين في بيوتهن ، بل الحقيقة أنها كانت قد قامت عملياً بكل شيء عدا دعوتهن إلى بيتها ، وقد تكهنت المدينة بأنها كانت لتقدم حتى على ذلك الشيء لولا وجود العمة بيتي وفرانك . .

كانت سكارلت تعرف أن المدينة كانت تتحدث عنها ، ولكنها لم تكن تكترث ، ولم يكن بوسعها أن تكترث . كانت لا تزال تكره الشماليين كراهية عنيفة ، ككراهيتها لهم يوم حاولوا إحراق تارا ، ولكن كان بوسعها أن تتغاضى عن تلك الكراهية . لقد أدركت أنها إذا كانت ستجمع مالاً ، فإن عليها أن تجمعه من الشماليين ، كما أنها كانت قد عرفت أن مداهنتهم بالابتسامات والكلمات اللطيفة ، هي أوثق طريق للظفر بالتعامل معهم من أجل معملها .

واكتشفت سكارلت أن مصادقة الضباط الشماليين أمر سهل سهولة صيد طيور وهي على الأرض ، فقد كان هؤلاء غرباء معزولين في بلاد معادية ، وكان الكثير منهم يتحرق إلى علاقات نسائية شريفة في مدينة كان فيها النساء المحترمات يجذبن تنانيرهن جانباً في أثناء مرورهن بهم ، ويظهرن كأنهن يرغبن في أن يبصقن عليهم ، وكانت فيها العاهرات والزنجيات هن وحدهن اللواتي يتحدثن إليهم حديثاً لطيفاً . غير أن من الواضح أن سكارلت كانت تبدو سيدة ، وسيدة من عائلة شريفة ، رغم أنها كانت تشتغل ، ولذلك طربوا لابتسامتها المشرقة ، وبريق عينيها الخضراوين الأخاذ .

وحين كانت سكارلت تتحدث إليهم وتحرك غمازتيها وهي جالسة في عربتها الصغيرة ، كان بغضها لهم يثور مراراً بعنف شديد بحيث كان من العسير عليها أن تلعنهم في وجوههم . ولكنها كانت تكبح جماح نفسها ، بعد أن اكتشفت أن ثني الرجال الشماليين حول أصبعها لم يكن أكثر صعوبة من تلك التسلية ذاتها التي كانت تمارسها مع الرجال الجنوبيين ، اللهم إلاّ أن هذا لم يكن تسلية وإنما تجارة جدية . كان الدور الذي تقوم به هو دور سيدة جنوبية

مهذبة حلوة أصيبت بضيق . فبمظهرها المتحفظ الوقور كانت تستطيع أن تبقي ضحاياها على بعد لائق منها ، ولكن رغم ذلك ، كان يوجد لطف في أسلوبها ، لطف يترك في ذاكرات الضباط الشماليين دفئاً معيناً عن السيدة كندي .

هذ الدفء كان نافعاً جداً . . . كما قصدت سكارلت أن يكون . إذ إن كثيراً من ضباط الحامية ، الذين لم يكونوا يعرفون كم سيبقون في أتلانتا ، كانوا قد أرسلوا يطلبون زوجاتهم وعوائلهم ، ونظراً لأن الفنادق وبيوت الأجرة كانت تغص بالنزلاء ، لذلك راح هؤلاء الضباط يبنون بيوتاً صغيرة ، وكانوا سعداء في أن يشتروا أخشابهم من السيدة كندي اللطيفة التي كانت تعاملهم بأدب أكثر من أي إنسان آخر في المدينة . وكذلك الكاربت بغرز والسكالاواغز ، الذين كانوا يبنون منازل ومخازن وفنادق رائعة ، بثرواتهم الجديدة ، فإنهم وجدوا أن من الممتع أكثر أن يتعاملوا مع سكارلت ، من أن يتعاملوا مع الجنود الحلفيين السابقين ، الذين كانوا أيضاً لطفاء ، ولكن لطفهم كان أكثر جدية وأشد فتوراً من الكراهية الصريحة .

وهكذا ، لأنها كانت جميلة فاتنة ، ولأنه كان بوسعها أن تبدو عاجزة يائسة بعض الأحيان ، أعان الشماليون مستودع أخشابها ومخزن فرانك ، إذ شعروا أن عليهم مساعدة امرأة فتية جريئة ، لم يكن لها من يعيلها سوى زوج عديم الحيلة . وأحست سكارلت ، وهي ترى تجارتها تزدهر ، أنها لم تكن تحمي حاضرها وحسب ، بنقود شمالية ، بل مستقبلها أيضاً ، بأصدقاء شماليين .

لقد كان احتفاظ سكارلت بعلاقاتها مع الضباط الشماليين ، على الصعيد الذي أرادته ، أمراً أسهل مما توقعت ، فقد بدا أن جميعهم كانوا يحترمون السيدات الجنوبيات . ولكن سرعان ما وجدت سكارلت أن زوجاتهم كن يمثلن مشكلة لم تكن قد توقعتها .

ففي أثناء عودتها إلى البيت مع العم بطرس ، بعد ظهر أحد الأيام ، مرت بالبيت الذي كانت قد اجتمعت فيه عوائل ثلاثة ضباط كانوا يبنون بيوتهم بأخشابها . كانت الزوجات الثلاث واقفات في الممشى عندما مرت سكارلت بجانبهن ، فلوحن لها أن تقف ، وخرجن إلى موقف العربات ، وحيينها بلهجة كانت دائماً تجعلها تشعر أن بوسع الإنسان أن يسامح الشماليين على كل شيء

تقريباً ، إلاّ أصواتهم .

ـ «أنت بالذات الشخص الذي أريد رؤيته يا سيدة كندي» قالت امرأة طويلة نحيلة من مين . أريد أن أحصل على بعض المعلومات عن هذه المدينة التي تعيش في الظلام» .

فابتلعت سكارلت الإهانة الموجهة إلى أتلانتا ، ابتلعتها بالاحتقار الذي تستحقه .

ـ «وماذا يسعني أن أخبرك؟» .

ـ «إن مربيتنا بردجت قد رحلت إلى الشمال . لقد قالت إنها لن تظل هنا يوماً آخر بين «الزنوج» كما تدعوهم ، ولذلك فإن الأطفال يوقعونني الآن في حيرة عظيمة . أخبريني كيف أستطيع أن أحصل على مربية أخرى ، فأنا لا أعرف إلى من ألجأ في هذا الشأن» .

ـ «ينبغي أن لا يكون هذا أمراً صعباً» قالت سكارلت ، وضحكت «إذا استطعت أن تجدي زنجية قدمت من الريف لتوها ، ولم تفسدها هيئة التحرير ، فعندئذ ستفوزين بأحسن صنف ممكن من الخدم . فقط قفي على بوابتك هنا واسألي كل زنجية تمر أمامك ، أنا واثقة . . .» .

فانفجرت النسوة الثلاث بصيحات السخط .

ـ «هل تعتقدين أني أؤمّن زنجية سوداء على أطفالي؟» صاحت امرأة مين «أنا أريد فتاة إيرلندية مخلصة» .

ـ «أخشى أن لا تجدي خادمات إيرلنديات في أتلانتا» أجابت سكارلت ببرود «فأنا شخصياً لم أر خادمة بيضاء أبداً ، ولن أهتم بإيجاد واحدة منهن في بيتي» ولم تستطع أن تمنع لهجة تهكم خفيفة من أن تشوب كلماتها «إني أطمئنك أن الزنوج ليسوا من أكلة لحوم البشر ، وأنهم جديرون بالثقة تماماً» .

ـ «يا لله ، لا! لن أستخدم واحدة في بيتي ، يا لها من فكرة !» .

ـ «أنا لا يمكن أن أثق بهم أكثر مما أستطيع أن أراهم . وأما أن أدعهم يعتنون بأطفالي . . .» .

وفكّرت سكارلت بيدي مامي الرحيمتين المغضنتين ، اللتين اهترأتا وعرتهما الخشونة في تربية إيلين وتربيتها هي وتربية ويد . ماذا يعرف هؤلاء الغرباء عن الأيدي السوداء ، وكم يمكن أن تكون عطوفة مواسية ، وما كان أصوب معرفتها

بكيفية التهدئة والتربيت والتدليل؟ وضحكت قليلاً .

ـ «إنه لمن الغريب أن تشعرن بمثل ذلك الشعور بينما أنتم الذين حررتم الزنوج» .

ـ «يا لله ، لست أنا يا عزيزتي» ضحكت امرأة مين «أنا لم أر زنجياً حتى جئت الجنوب في الشهر الماضي ، وأنا لا أحفل إن لم أر زنجياً آخر . إن جسدي يقشعر من رؤيتهم . لن أثق بأي منهم . . .» .

وكانت سكارلت قد انتبهت ، لبضع لحظات ، إلى أن العم بطرس كان يتنفس بصعوبة ، ويجلس منتصب القامة تماماً وهو يحدق بثبات إلى أذني الحصان . وقد ازداد انتباهها له عندما انفجرت امرأة مين فجأة بضحكة ، وأومأت إليه كي تراه رفيقتاها .

ـ «انظرا إلى ذلك الزنجي العجوز ، ينتفخ كضفدع» قالت مقهقهة «إني أراهن أنه مهرجك العجوز ، أليس كذلك؟ أنتم الجنوبيون لا تعرفون كيف تعاملون الزنوج ، إنكم تفسدونهم جداً» .

فتمالك بطرس نفسه ، وظهرت تجاعيد عميقة على جبينه المتغضن ، ولكنه ظل ينظر باستقامة إلى الأمام ، ذلك أن بطرس طيلة حياتهم لم يكن قد دعي أبداً بلفظة «زنجي» من قبل إنسان أبيض ، أما من قبل الزنوج الآخرين فقد حدث ذلك . ثم أن يقال عنه إنه غير جدير بالثقة ويدعى «مهرجاً عجوزاً» ، وهو بطرس الذي كان السند الموقر لآل هاملتون منذ سنين ، فشيء لا يحتمل .

وشعرت سكارلت ، دون أن ترى ، أن الذقن السوداء تهتز بكبرياء جريح ، فاجتاحها سخط فتاك . كانت قد أصغت بازدراء هادئ بينما كان هؤلاء النسوة يستخففن بالجيش الحلفي ويحقرن جف ديفس ويتهمن الجنوبيين بقتل عبيدهم وتعذيبهم ، ولو كان الأمر في سبيل مصلحتها ، لتحملت الإهانات بحق فضيلتها ، وأمانتها ، ولكن علمها بأنهن آلمن الزنجي العجوز الوفي بملاحظاتهن الحمقاء ، أشعلها كعود ثقاب في بارود ، ونظرت لهنيهة إلى المسدس الكبير في حزام بطرس ، وتحرقت يداها على لمسه . لقد كان هؤلاء الظافرات المتعجرفات الوقحات الجاهلات يستحققن القتل ، ولكنها عضت بأسنانها حتى برزت عضلات شدقها ، مذكرة نفسها بأن الوقت لم يحن بعد حين يكون بوسعها أن تصارح الشماليين بما تفكر به تماماً . يوماً ما ، أجل ، ، يا إلــهي ، أجل ! ولكن

لم يحن الوقت بعد .

- «إن العم بطرس أحد أفراد عائلتنا» قالت وصوتها يرتجف «عِمْن مساء ، سق يا بطرس» .

فساط بطرس الحصان بضربة مفاجئة ، جعلت الحيوان الجفل يقفز إلى الأمام . وعندما اندفعت العربة ، سمعت سكارلت امرأة مين تقول بلهجة حائرة «عائلتها؟ ألا تظنان أنها تقصد قريبها؟ ولكنه أسود» .

- «ليلعنهم الله ! ينبغي أن يُزالوا عن وجه الأرض . وإذا ما قدر لي أن أحصل على نقود كافية ، سأبصق في وجوههم جميعاً ! سا . . .» .

وألقت نظرة على بطرس ، فرأت أن دمعة كانت تسيل على أنفه .

- «بطرس» قالت وقد تقطع صوتها وهي تضع يدها على ذراعه النحيلة «إني لأشعر بالعار بسبب بكائك . لماذا تهتم؟ إنهن لا شيء سوى شماليات ملعونات !» .

- «لقد تحدثن أمامي كما لو كنت بغلاً وليس بوسعي فهمهن . . . كما لو كنت إفريقيّاً ولا أعرف عمّ كنّ يتحدثن» قال بطرس ونفث زفيراً حاداً «ودعونني زنجيّاً ، وأنا لم أدع زنجيّاً أبداً من قبل أي إنسان أبيض . ودعونني مهرجاً عجوزاً ، وقالوا إن الزنوج لا يوثق بهم . أنا لا يوثق بي ! أنا الذي قال لي الكولونيل العجوز وهو يعاني سكرات الموت «أنت يا بطرس ! اعتن بأولادي واعتن بسيدتك الشابة ، الآنسة بيتي بات ، لأنها ، كما قال ، لا تملك إدراكاً أوسع من إدراك جرادة» ولقد اعتنيت بها جيداً طيلة هذه السنين» .

- «لم يكن بوسع أحد أن يفعل أفضل مما فعلت سوى الملاك» قالت سكارلت تهدئ روعه «ونحن لم يكن بوسعنا أن نعيش بدونك» .

- «أجل ، أشكرك كثيراً يا سيدة . إني أعرف ذلك كما تعرفينه ، ولكن أولئك الشماليين لا يعرفونه ، وهم لا يريدون أن يعرفوه . كيف أتيح لهم أن يتدخلوا بشؤوننا يا آنسة سكارلت؟ إنهم لا يفهموننا ، نحن الحلفيين» .

ولم تقل سكارلت شيئاً لأنها كانت لا تزال تشتعل بالسخط الذي لم تفجره في وجوه النسوة الشماليات . ما أغرب هؤلاء الشماليين الملاعين ! الشماليون ! يبدو أن أولئك النسوة كن يفكرن بأنه لما كان العم بطرس أسود ، فهو لم يكن يملك أذنين ليسمع بهما ، ولا شعوراً كشعورهن ليجرح ، ولم يكن يعرفن أن

الزنوج يجب أن يعاملوا برفق، كما لو كانوا أطفالاً، يوجهون ويشجعون، ويدللون ويعنفون. لم يكن الشماليون يفهمون الزنوج ولا العلاقات بين الزنوج وأسيادهم السابقين، ومع ذلك فقد خاضوا حرباً لتحريرهم. والآن وبعد أن حرروهم لا يرغبون أو يثقون بهم أو يفهمونهم، ومع ذلك فقد كانت صرختهم الدائمة هي أن الجنوبيين لم يكونوا يعرفون كيف يعاملون الزنوج.

- «ومع ذلك فقد حرروك» قالت سكارلت بصوت مرتفع.

- «لا يا سيدة، إنهم لم يحرروني. ولن أدع أناساً حقيرين كهؤلاء يحررونني» قال بطرس ساخطاً «إني ما زلت أتبع الآنسة بيتي، وعندما أموت ستدفنني في مقبرة آل هاملتون حيث أنتمي... ستثور ثائرة سيدتي عندما أخبرها كيف أنك سمحت لهؤلاء الشماليات بأن يهينني».

- «أنا لم أفعل شيئاً في هذا السبيل!» صاحت سكارلت مجفلة.

- «لقد فعلت ذلك يا آنسة سكارلت» قال بطرس ماطاً شفته أكثر «إن القضية هي أنه لم يكن لك ولا لي شأن بالبقاء مع الشماليات حتى يهينني. ولو أنك لم تتحدثي إليهن لما أتيحت لهن الفرصة ليعاملنني كبغل أو إفريقي. كما أنك لم تدافعي عني أيضاً».

- «لقد دافعت» قالت سكارلت متألمة من تهكمه «ألم أخبرهن أنك أحد أفراد العائلة».

- «إن ذلك ليس دفاعاً، إن ذلك مجرد حقيقة» قال بطرس «آنسة سكارلت، ليس من الضروري أن تتعاملي مع الشماليين، فليس هناك سيدة أخرى تفعل ذلك. إنك لن تقنعي الآنسة بيتي بأن تمسح حذاءها الصغير على حقيرات كهؤلاء، ولن يسرها الأمر عندما تسمع ما قلنه عني».

لقد آلم عتاب بطرس سكارلت أكثر من أي شيء قاله فرانك أو العمة بيتي أو الجيران. لقد كدرها ذلك كثيراً، بحيث رغبت في أن تهز الزنجي العجوز إلى أن تصطفق لثتاه العديمتا الأسنان. كان الذي قاله بطرس كلاماً حقيقياً، ولكنها كانت تمقت سماعه من زنجي، ومن زنجي عائلة أيضاً. فأن لا يكون الإنسان رفيع المقام في نظر خدمه أمر كان أشد ما يمكن أن يقع للجنوبي من إذلال.

- «مهرج عجوز!» دمدم بطرس «إني أقول إن الآنسة بيتي لا تريدينني أن

أسوق عربتك بعد ذلك الحادث . لا يا سيدة !» .

ـ «ستريدك الآنسة بيتي أن تسوق عربتي كالمعتاد» قالت بتجهّم «ولذلك دعنا لا نسمع المزيد عن هذه القضية» .

ـ «إني سأعاني من ألم في ظهري» أعلن بطرس وهو متكدّر ، «إن ظهري يبرح بي تبريحاً شديداً في هذه الدقيقة ، بحيث أكاد لا أستطيع أن أجلس باعتدال ، وسيدتي لن تريدني أن أسوق عندما أكون متألماً . . آنسة سكارلت ، لن يفيدك التعامل مع الشماليين والبيض الحقيرين شيئاً إذا كان أهلك لا يرضون عنك» .

كان ذلك أدق موجز صحيح يمكن تقديمه عن وضع سكارلت التي انكمشت في صمت ساخط . أجل ، لقد كان المحتلون راضين عنها ، بينما لم تكن عائلتها وجيرانها كذلك . وكانت هي تعرف كل الأشياء التي كانت المدينة تتحدث بها عنها . وحتى بطرس استنكر عملها الآن ، إلى حد أنه لم يعد يريد أن يُرى معها في الأماكن العامة ، وذلك آخر ما كانت تتوقعه .

كانت سكارلت ، فيما مضى من أيامها ، غير عابئة بالرأي العام ، ليس هذا فحسب ، بل كانت تزدريه بعض الازدراء أيضاً . ولكن كلمات بطرس جعلت الغيظ العنيف يشتعل في صدرها ، ويسوقها إلى نقطة دفاعية ، ويجعلها فجأة تبغض الجيران كما تبغض الشماليين .

وكان بطرس صادقاً ككلمته ، فلقد ثارت العمة بيتي واشتد ألم بطرس طوال الليل ، إلى حد أنه لم يسق العربة ثانية . ومنذ ذلك الحين ساقتها سكارلت وحيدة ، وعاودت راحتيها تلك القرح التي كانت قد بدأت تزول منهما .

وهكذا مضى فصل الربيع ، وتحول طقس نيسان المعطر اللطيف إلى طقس أيار البلسمي الدافئ المخصب . وكانت الأسابيع مثقلة بالعمل والقلق وعقبات الحمل النامي ، وبالأصدقاء القدامى يزدادون فتوراً نحوها ، وبعائلتها تزداد عطفاً مطرداً عليها ، واهتماماً جنونياً بها ، وتعامياً عما كان يدفعها في تصرفاتها . وخلال أيام القلق والكفاح هذه ، كان يوجد في دنياها شخص واحد فقط يمكن الاعتماد عليه ، وذلك الشخص هو ريت بتلر ، لقد كان من الغريب أن يظهر من بين جميع الناس في هذا الضوء ، فقد كان عديم الاستقرار كالزئبق ،

شريراً كشيطان خرج من الجحيم حديثاً ، ولكنه كان يمنحها العطف ، الشيء الذي لم تكن قد نعمت به من أحد ، والذي لم تكن تتوقعه منه أبداً .

وكثيراً ما كان ريت يظل خارج المدينة في تلك الرحلات الغامضة إلى نيو أورليانز ، الرحلات التي لم يكن يكشف عن سرها أبداً ، والتي كانت سكارلت تشعر واثقة ، بطريقة غيورة غامضة ، بأنها كانت تتعلق بامرأة ـ أو بنساء . ولكن بعد أن رفض العم بطرس أن يقود عربتها ، صار بتلر يمكث في أتلانتا فترات أطول وأطول .

وفي أثناء إقامته في المدينة ، كان يقضي معظم وقته في المقامرة داخل الغرف التي تقع فوق صالة «فتاة العصر» أو في حانة بيل وتلنغ ، حيث كان يتداول مع أغنياء الشماليين والكاريت بغرز في خطط جمع المال ، الأمر الذي جعل سكان المدينة يمقتونه حتى أكثر من عشرائه . ولم يكن يزور بيت العمة بيتي الآن ، وقد يكون ذلك مراعاة لشعور فرانك وبيتي ، اللذين كان يمكن أن يغتاظا من زيارة رجل في وقت كانت فيه سكارلت في وضع دقيق . غير أن هذه كانت تلتقي به عرضاً كل يوم تقريباً . ومرة بعد أخرى كان يتجه إلى عربتها وهو على حصانه ، وذلك عندما كانت تمر خلال أماكن منعزلة في طريقي بيتشري وديكاتور حيث كان يقع المعملان . وكان يجذب عنان فرسه دائماً ويتحدث إليها ، وأحياناً كان يربط حصانه خلف العربة ويقود سكارلت في جولاتها . وكانت هي تتعب في هذه الأيام بسرعة أكثر مما كانت تود أن تعترف ، ولذلك كانت تشكر صنيعه دائماً بصمت ، عندما يستلم زمام عربتها . ورغم أنه كان دائماً يفارقها قبل أن يبلغا المدينة ، فإن جميع سكان أتلانتا كانوا يعلمون باجتماعاتهما ، الأمر الذي أضفى على الحديث عنها شيئاً جديداً ، ليضاف إلى قائمة تعديات سكارلت على أوجه اللياقة .

وكانت سكارلت تتساءل بين الفينة والأخرى عمّا إذا كانت هذه اللقاءات ليست أكثر من عرضية ، هذه اللقاءات التي أخذت تزداد حدوثاً كلما مرت الأسابيع ، في وقت كان التوتر يشتد في المدينة من جراء انتهاك الزنوج للأعراض . ولكن لماذا كان بتلر يقصدها الآن من بين جميع الأوقات ، وهي تبدو بأسوإ مظاهرها؟ من الأكيد أنه لم يكن يضمر لها السوء ، إن كان قد أضمر يوماً . وقد بدأت سكارلت تشك حتى بهذا الأمر ، فقد انقضت شهور

منذ أن تفوه بأي تلميح ساخر عن مشهدها المغيظ في السجن الشمالي ، كما أنه لم يذكر آشلي أو حبها له أبداً ، وكذلك لم ينبس بأي عبارات فظة بذيئة عن «اشتهائه لها» . وفكرت سكارلت أن من الأفضل أن تدع الكلاب النائمة تستغرق في نومها ، وهكذا لم تسأله إيضاحاً عن سبب لقائهما المتكرر ، وأخيراً قررت أنه ، لكونه لا يملك إلاّ القليل ليعمله بالإضافة إلى القمار ، ولكونه لا ينعم إلاّ بالقليل جداً من الأصدقاء الطيبين في أتلانتا ، فإنه كان ينشدها وحيدة من أجل الرفقة .

ويغض النظر عن دافعه ، فإنها وجدت رفقته مبهمة جداً ، فقد كان يصغي لتذمراتها عن الزبائن المفقودين والديون المزعجة ، وانزعاجها من أساليب السيد جونستون المحتالة ، ومن عدم كفاءة هيو . وكان يطري انتصاراتها ، بينما كان فرانك يبتسم لها مجاملاً فقط ، وبيتي تقول «يا لله !» في أسلوب ينم عن انبهار . وكانت سكارلت واثقة من أن بتلر كثيراً ما كان يقذف بالأعمال في طريقها ، لأنه كان يعرف الشماليين والكاربت بغرز الأغنياء معرفة ودية . ولكنه كان دائماً ينكر أنه كان يساعدها . لقد كانت تعرفه على حقيقته ولم تكن تثق أبداً به ، غير أنها كانت تنتعش بالبشر دائماً عند رؤيته راكباً حول منعطف طريق ظليل ، فوق حصانه الأسود الضخم . وعندما كان يصعد إلى عربتها ، ويأخذ العنان منها ، ويقذفها ببعض العبارات الوقحة ، كانت تشعر أنها ما زالت شابة مرحة جذابة ، رغم كل همومها وتضخم جسدها المطرد . لقد كان بوسعها أن تتحدث إليه عن كل شيء تقريباً ، دون أن تعبأ بإخفاء بواعثها أو آرائها الحقيقية ، ولم تكن تتهرب أبداً من الأمور التي كان ينبغي أن تقولها ، كما كانت تفعل مع فرانك ـ أو حتى مع آشلي ، إن كان لا بد أن تكون صادقة مع نفسها . ولكن طبعاً ، في كل أحاديثها مع آشلي ، كان هناك أمور كثيرة جداً لم يكن من الممكن أن تقال حفاظاً على الشرف ، بحيث أن قوة تلك الأمور كانت تنهى عن التصريح بعبارات أخرى . ولذلك كان من العزاء لها أن تنعم بصديق كريت طالما قرر أن يسلك سلوكاً حسناً معها لسبب لا يمكن تعليله . أجل ، كان ذلك من العزاء العظيم لها ، لأنها لم تكن تنعم إلا بقليل جداً من الأصدقاء في هذه الأيام .

ـ «ريت» ـ قالت منفعلة ، بعد قرار العم بطرس الأخير بفترة قصيرة ، لماذا

يعاملني الناس في هذه المدينة بخسة بالغة، ويتحدثون عني هكذا؟ لا أدري بمن يشهرون أكثر، بي أم بالكاربت بغرز؟ إنني لا أهتم إلاّ بأعمالي الخاصة، ولم أرتكب أي عمل خاطئ و . .».

ـ «إذا لم ترتكبي أي عمل خاطئ، فذلك لأنه لم تتح لك الفرصة، وقد يكونون أدركوا ذلك بغموض».

ـ «كن جدّياً أرجوك! إنهم يثيرونني كثيراً، إن ما فعلته هو محاولة جمع نقود قليلة و . .».

ـ «كل ما فعلته يختلف عن فعل النساء الأخريات، ولقد نجحت قليلاً فيه. وكما أخبرتك قبلاً، تلك هي الجريمة التي لا تغتفر في أي مجتمع، كوني مخالفة تكوني ملعونة! اسمعي يا سكارلت، مجرد نجاحك في عملك هو إهانة لكل رجل لم ينجح. تذكري أن مكان المرأة الراقية النشأة هو البيت، ولا ينبغي لها أن تعرف شيئاً عن هذا العالم الصاخب المتوحش».

ـ «ولكن لو انزويت في بيتي لما بقي لي أي بيت أقيم فيه».

ـ «والنتيجة، أنه كان يجب أن تتضوري جوعاً وتحتفظي برقتك وكبريائك».

ـ «هراء! ولكن انظر إلى السيدة ميريويذر، إنها تبيع الفطائر للشماليين الأمر الذي هو أسوأ من إدارة معمل. والسيدة ألسنغ تخيط الثياب وتؤجر النزلاء، وفاني تطلي أدوات خزفية بشعة لا يرغب فيها أحد، ولكن الجميع مع ذلك يشترونها لمساعدتها . . و».

ـ «ولكنك غفلت عن النقطة الأساسية يا مدللتي، إنهن لسن ناجحات، ولذلك فهن لم يتعدين على الكبرياء الجنوبية الكامنة في رجالهن. ولا يزال بوسع أي من هؤلاء الرجال أن يقول: «يا للغبيات الحلوات المسكينات، ما أشق ما يحاولن! حسناً سأدعهن يعتقدن أنهن يساعدننا». هذا إضافة إلى أن السيدات اللواتي ذكرتهن لا يغتبطن باضطرارهن إلى العمل، وهن يعلنّ أنهن إنما يقمن بذلك حتى يأتي رجل ويريحهن من أعبائهن. وهكذا يشعر أيضاً أنك لن تسمحي لأي رجل بأن يرعى تجارتك بدلاً منك، ولن تسامحك أتلانتا أبداً على هذه الخطيئة. إن من الممتع جداً أن يشعر الإنسان بالأسف من أجل الناس».

ـ «أرجو أن تكون جدياً في بعض الأوقات».

ـ «هل اتفق لك أن سمعت المثل الشرقي «الكلاب تنبح ولكن القافلة

تسير»؟ دعيهم ينبحون يا سكارلت ، فأنا أخشى أن لا يستطيع أحد إيقاف قافلتك» .

ـ «ولكن لماذا ينبغي لهم أن يستاءوا من جمعي قليلاً من النقود؟» .

ـ «ليس بإمكانك أن تنالي كل شيء يا سكارلت ، فبوسعك إما أن تجمعي مالاً بطريقتك الحالية التي لا تتفق وشيم النساء ، فتقابلين وجوهاً فاترة في كل مكان تذهبين إليه ، وإما أن تكوني فقيرة دمثة الأخلاق فتنعمين بأصدقاء كثر ، ولقد أجريت اختيارك» .

ـ «لن أكون فقيرة» قالت بسرعة «ولكن . . . إنه الاختيار الصائب ، أليس كذلك؟» .

ـ «إذا كانت النقود هي أهم ما ترغبين فيه» .

ـ «نعم ، إني أرغب في المال أكثر من أي شيء آخر في الدنيا» .

ـ «لقد اخترت الشيء الوحيد إذاً ، ولكن هناك العقاب المترتب عليه ، الأمر الذي يوجد مع معظم الأشياء التي ترغبين فيها . . . إنه العزلة» .

ـ «أظن . . . أظن . . .» بدت مترددة «كنت دائماً وحيدة حيث كان للنساء شأن ، فليس عملي فقط هو الذي يجعل نساء أتلانتا يبغضنني ، وإنما هنا لا يحببنني على أية حال ، بل لم يحدث أن أحبتني امرأة حباً حقيقياً باستثناء أمي . حتى شقيقتاي لم تكونا تحبانني . ولست أعرف سبب ذلك ، ولكن حتى قبل الحرب ، وحتى قبل أن أتزوج بشارلي ، لم يبد أن السيدات كن يرضين عن أي شيء كنت أفعله» .

ـ «لقد نسيت السيدة ويلكس» قال ريت وعيناه تشعان بالمكر «لقد كانت دائماً ترضى عنك حتى القمة ، وإني لأتجرأ على القول إنها كانت تستحسن كل شيء كنت تفعلينه ، كل شيء أقل من جريمة قتل» .

ففكرت باكتئاب «لقد رضيت حتى عن القتل» ثم ضحكت بازدراء :

ـ «ها ، ميلي !» قالت وأردفت بتحسر «ليس من صالحي حتماً أن تكون ميلي هي المرأة الوحيدة التي ترضى عني ، لأنها لا تملك عقل دجاجة ، هذا إذا كانت تملك أي عقل» وصمتت في شيء من الارتباك .

ـ «لو كانت تملك أي إدراك ، لأدركت بعض الأمور ، ولما كان بوسعها أن ترضى عنك» أتم ريت العبارة «على كل حال ، أنت تعرفين عن ذلك الأمر

أكثر مما أعرف أنا طبعاً» .

ـ «آه ، لعن الله ذاكرتك وأخلاقك !» .

ـ «سأتجاوز عن وقاحتك التي لا مسوّغ لها بالصمت الذي تستحقه ، وأعود إلى موضوعنا السابق . كيّفي عقلك مع ما سأقوله لك : إذا كنت تختلفين عن غيرك من النساء ، فلن تعزلي عن الناس الذين هم في سنك فقط ، بل وعن أولئك الذين هم في جيل والديك ، ومن جيل أولادك أيضاً ، فهم لن يفهموك وسيذهلون مما تفعلين أياً يكن . ولكن من المحتمل أن يفخر جداك بك ويقولان «شبل من ذاك الأسد» بينما سيتنهد أحفادك حسداً ويقولون : «لا بد أن جدتنا العجوز كانت شديدة الفسق» وسيحاولون أن يقتدوا بك» .

فضحكت سكارلت طرباً .

ـ «إنك تصيب الحقيقة أحياناً ، فقد كان لي جدة تدعى روبلارد ، اعتادت مامي أن تعيّرني بها كلما ارتكبت خطأ . وكانت جدتي هذه عجوزاً باردة كجبل من الجليد ، متعنتة فيما يتعلق بأخلاقها وأخلاق جميع الناس الآخرين ، ولكنها مع ذلك تزوجت ثلاث مرات ، وحظيت بعدد من المبارزات في سبيل نيلها . وكانت تضع أحمر الشفاه وترتدي أكثر الفساتين القصيرة إثارة ، وترتديها دون ـ حسناً ـ ولا ترتدي شيئاً كثيراً تحت فساتينها» .

ـ «وكنت تكبرينها غاية الإكبار ، رغم أنك حاولت أن تكوني كأمك ! كان لي جد من عائلة أبي ، وكان قرصاناً» .

ـ «ليس حقاً ! أمن فئة القتلة السفاكين؟» .

ـ «أستطيع القول إنه كان يسوق الناس إلى حتوفهم إذا وجد أن هناك مجالاً لنيل نقود من ذلك السبيل . وعلى كل حال ، لقد جمع مالاً كافياً لجعل والدي ثرياً تماماً ، ولكن العائلة كانت تشير إليه دائماً بـ«قائد بحري» . لقد قتل في أثناء مشاجرة في إحدى الحانات قبل أن أولد بمدة طويلة . ولا داعي للقول بأن وفاته كانت فرجاً عظيماً لأولاده ، ذلك لأن والدهم العظيم كان ثملاً معظم أوقاته . وعندما كان يجلس بين الكؤوس ، كان عرضة لنسيان أنه كان قائداً بحرياً متقاعداً ، فيروي ذكريات تقشعر لها شعور أولاده . وعلى كل حال ، لقد أعجبت به وحاولت أن أحذو حذوه ، أكثر بكثير مما حذوت حذو والدي ، لأن والدي رجل ودود ، غني بالعادات الشريفة والأقوال الدينية ـ وهكذا ترين كيف

تجري الأمور . إني واثق أن أولادك لن يرضوا عنك يا سكارلت أكثر مما ترضى عنك السيدة ميريويذر والسيدة ألسنغ وذريتهما الآن ، ذلك أن أولادك يرجح أن يكونوا أناساً حيية رقيقة ، كما يكون أولاد ذوي الطباع الصلبة المغمز في العادة . ومما يزيد في نقائصهم هو أنك ، كأي أم أخرى ، قد تكونين مصممة على أنه لا ينبغي لهم أن يعرفوا الشدائد التي عرفتها أنت ، الأمر الذي هو خطأ كلية ، لأن الشدائد هي التي تصقل الإنسان أو تسحقه . وهكذا سيكون عليك أن تنتظري الرضى من أحفادك» .

- «إني لأتساءل كيف سيكون أحفادنا؟» .

- «هل تعنين بـ«أحفادنا» أنك وأنا سنرزق حفداء مشتركين؟ يا للعار يا سيدة كندي !» .

فاحمر وجه سكارلت ، وقد أدركت فجأة غلطة حديثها . والواقع أن الذي جعلها تشعر بالعار كان أكثر من كلماته الساخرة ، فقد تنبهت فجأة إلى حالة جسدها المنتفخ . ولم يكن أحد منهما قد أشار قبلاً إلى حالتها تلك ، بأي شكل من الأشكال . وكانت هي دائماً تبقي رداء الحبل عالياً تحت إبطيها عندما تكون برفقته ، حتى في الأيام الحارة ، معزية نفسها ، شأن غيرها من النساء ، بالاعتقاد بأنها لم تكن تبدو حاملاً أبداً وهي مسربلة هكذا . ولذلك تولاها فجأة غضب شديد سريع على حبلها ، كما تولاها عار لأنه عرف بهذا الحبل .

- «اخرج من هذه العربة أيها الوغد القذر التفكير» قالت وصوتها يرتجف .

- «لن آتي شيئاً قذراً» أجاب بهدوء «ستظلم الدنيا قبل أن تصلي إلى البيت . وهناك مستعمرة جديدة للزنوج ، من الخيام والأكواخ ، قرب الينبوع التالي ، زنوج أوغاد كما أنبئت ، ولست أرى سبباً يضطرك إلى أن تقدمي للكوكلوكس حجة لارتداء قمصان الليل والخروج هذا المساء» .

- «اخرج» صاحت وهي تشد العنان ، بيد أن القيء اندفع من فمها فجأة . وعندئذ أوقف ريت العربة بسرعة ، وناولها منديليه النظيفين ، وأمسك رأسها فوق جانب العربة بشيء من المهارة . وبعد أن زالت النوبة ، وضعت رأسها بين يديها وراحت تبكي من هذه المهانة العلنية ، فهي لم تتقيأ أمام رجل وحسب ـ الأمر الذي كان يعتبر بحد ذاته حادثاً سيئاً من أفظع ما يمكن أن يحل بامرأة ـ بل إنها أيضاً لا بد أن تكون بعملها هذا قد كشفت الآن عن الحقيقة المخزية ،

حقيقة كونها حبلى . وأحست أنها لن تستطيع أبداً أن تنظر في وجهه ثانية . آه أن يحدث هذا معه من بين جميع الناس ، مع ريت الذي لم يكن يحترم النساء ! وبكت ، وكانت تتوقع منه بعض العبارات الماجنة الفظة ، التي لن تستطيع نسيانها أبداً .

ـ «لا تكوني حمقاء» قال بهدوء «إنك لحمقاء إن كنت تبكين خزياً . اسمعي يا سكارلت ، لا تكوني طفلة . لا بد أنك تعلمين حتماً أنني كنت أعرف أنك حامل ، طالما أني لست أعمى» .

تنهدت «آه» في صوت مذهول ، وضغطت أصابعها على وجهها المحمر . لقد كانت الكلمة نفسها ترعبها ، لقد كان فرانك دائماً يشير إلى حبلها بارتباك ، بكلمة «حالتك» ، كما أن جيرالد كان من عادته أن يقول برقة «في طريق تكوين عائلة» كلما اضطر إلى ذكر أمور كهذه . وكذلك السيدات ، كن يشرن إلى موضوع الحبل بأدب وبعبارة «إنها بحالة حرجة» .

ـ «أنت طفلة إذا كنت تفكرين أني لم أكن أعرف ، رغم أنك كنت تخنقين نفسك داخل ذلك الرداء الحار . طبعاً لقد كنت أعرف . لماذا تفكرين أني كنت !

وسكت فجأة ، وخيم السكوت بينهما ، ثم تناول الزمام ، وقرقع للحصان وتابع حديثه بهدوء . وبينما كانت كلماته البطيئة تهبط على مسامعها ، كانت الحمرة تتلاشى من وجهها المطرق إلى أسفل .

ـ «لم أكن أعتقد أنك يمكن أن تصدمي هكذا يا سكارلت . كنت أعتقد أنك إنسان عاقل ، ولقد خاب أملي الآن . أمن الممكن أن تكون الحشمة ما زالت تكمن في صدرك؟ أخشى أن لا أكون رجلاً فاضلاً لأني طرقت الموضوع . غير أني أعرف أني لست رجلاً فاضلاً ، نظراً لأن الحبالى لا يربكنني كما ينبغي . فأنا أجد أن من الممكن أن أعاملهن كمخلوقات عادية ، وأن لا أنظر إلى الأرض أو إلى السماء أو إلى أي مكان آخر في الدنيا ، باستثناء خصورهن ـ ومن ثم أختلس النظرات إليهن ، النظرات التي كنت أعتقد دائماً أنها قمة العار . لماذا ينبغي علي أن أفعل ذلك؟ إنها حالة طبيعية تماماً . إن الأوروبيين أعقل منا بكثير ، إنهم يهنئون الأمهات الحوامل على حملهن . وعلى الرغم من أنني لا أنصح بالتطرف إلى هذا الحد ، فإنني أعتقد بأن ذلك أعقل من طريقتنا في محاولة تجاهل الأمر . إنها حالة طبيعية ، ويجب على النساء أن يفخرن بها ،

بدلاً من أن يختبئن خلف الأبواب المغلقة كأنهن اقترفن جريمة» .

ـ «يفتخرن !» صاحت بصوت متلعثم ـ «يفتخرن ، أواه !» .

ـ «ألست فخورة لأنك تحملين طفلاً؟» .

ـ «آه ، يا لله العزيز ، لا ! ـ إني ـ إني أكره الأطفال !» .

ـ «تقصدين ـ طفل فرانك؟» .

ـ «لا ، طفل كل إنسان» .

وأحست بالضيق ثانية ، من جراء الغلطة الجديدة في كلامها . ولكن صوته استمر طبيعياً كأنه لم يلحظ خطأها .

ـ «فنحن مختلفان إذاً . إني أحب الأطفال» .

ـ «أنت تحبهم؟» صاحت رافعة بصرها ، مشدوهة بقوله بحيث نسيت ضيقها «ما أفظع كذبك !» .

ـ «إني أحب الأطفال ، وأحب الأولاد الصغار إلى أن يكبروا ويكتسبوا عادات الشبان البالغين في التفكير والمقدرة على الكذب والخداع والقذارة ، وإن ذلك لا يمكن أن يكون جديداً عليك ، فأنت تعرفين أني أحب ويد هاملتون حباً جماً ، رغم أنه ليس الصبي الذي ينبغي أن يكونه» .

لقد كان ذلك كلاماً صادقاً ، فكرت سكارلت فجأة باستغراب ، فقد كان يبدو على ريت أنه يبتهج حقاً باللعب مع ويد ، وكثيراً ما جلب له الهدايا .

ـ «الآن ، وقد كشفنا القناع عن هذا الموضوع الخطير ، واعترفت بأنك تنتظرين مولوداً في المستقبل القريب ، فإني سأقول شيئاً كنت أريد أن أقوله منذ أسابيع ـ شيئين : الأول أنه من الخطر عليك أن تخرجي بالعربة وحدك ، إنك تعرفين ذلك ، ولقد أخبرت به مراراً . وإذا كنت شخصياً لا تعبئين ، أهتك عرضك أم لا ، فإن بإمكانك أن تقدري النتائج ، فقد تؤدين بنفسك ، بسبب عنادك ، إلى وضع يضطر معه أبناء مدينتك الشهام إلى أن ينتقموا لعرضك بشنق بعض الزنوج ، الأمر الذي سيدفع الشماليين إلى مطاردتهم وشنق أحدهم على الأرجح . هل خطر ببالك يوماً أنه ربما كان أحد الأسباب التي تجعل السيدات لا يحببنك هو أن سلوكك يمكن أن يسبب إعدام أبنائهن أو أزواجهن؟ وأكثر من ذلك ، إذا ما قبض الكوكلوكس على عدد كبير آخر من الزنوج ، فإن الشماليين سيشددون قبضتهم على أتلانتا بصورة تجعل فظائع شيرمان تبدو

رحيمة أمام أعمالهم . إني أعرف عما أتكلم ، لأني على صلة وثيقة بهم . وإني أخجل أن أقول إنهم يعاملونني كواحد منهم ، فأسمعهم يتحدثون بصراحة . إنهم ينوون أن يستأصلوا شأفة الكوكلوكس ولو كان ذلك يعني حرق المدينة مرة ثانية وإعدام كل ذكر يتجاوز العاشرة من عمره . إن ذلك سيؤذيك يا سكارلت ، إذ من الممكن أن تخسري بعض المال . هذا وليس بوسع أحد أن يعرف أين ستقف النار الهائجة إذا ما اشتعلت : مصادرة أملاك ، ضرائب أبهظ ، غرامات على النساء المريبات ـ لقد سمعتهم يقترحون ذلك كله . أما بخصوص الكوكلوكس . .» .

ـ «هل تعرف أحداً من الكوكلوكس؟ هل تومي ولبورن أو هيو أو . .» .

فهز كتفيه وقد نفد صبره :

ـ «كيف يمكنني أن أعرف؟ إني رجل خائن مارق ، سكالاواغ ، فهل من الممكن أن أعرف؟ إلا أنني أعرف رجالاً يرتاب بهم الشماليون ، وأي حركة خاطئة تصدر عنهم ستودي بهم إلى المقصلة . وبينما أعرف أنك لا تندمين على إيصال جيرانك للمشنقة ، أعتقد أنك ستندمين على خسارة معمليك . إني أدرك من النظرة العنيدة التي تبدو في وجهك أنك لا تصدقينني وأن كلماتي تنزل على أرض صخرية . ولذلك فإن كل ما أستطيع قوله : احتفظي بمسدسك ذاك في متناول يدك ، وعندما أكون في المدينة ، سأحاول أن أكون تحت تصرفك لأقود لك العربة» .

ـ «ريت ، هل أنت حقاً ـ هل من أجل حمايتي ـ؟» .

ـ «أجل يا عزيزتي ، إنها فروسيتي الذائعة الصيت هي التي تجعلني أحميك» .

أجابها وقد بدا البريق الساخر يتراقص في عينيه السوداوين ، بينما زالت من وجهه كل أمارات الجد «وأما لماذا؟ فلحبي العميق لك يا سيدة كندي . أجل ، إني أتحرق بصمت جوعاً وعطشاً إليك ، إني أتعشّقك من بعيد ، ولما كنت رجلاً شريفاً كالسيد آشلي ويلكس ، فقد أخفيت ذلك عنك . إنك ويا للأسف زوجة فرانك ، وقد منعني الشرف من أن أصارحك بهذا . ولكن ، لما كان حتى شرف السيد ويلكس ينثلم من وقت إلى آخر ، فهكذا ينثلم شرفي الآن ، وأنا أفصح عن عاطفتي السرية وعن . .» .

ـ «آه من أجل الله ، اصمت !» قاطعته سكارلت وقد انزعجت كعادتها عندما يجعلها تبدو كحمقاء مخدوعة ، لا تحفل في أن يصبح آشلي وشرفه موضوع حديث مستطرد . . «وماهو الشيء الآخر الذي كنت تريد أن تخبرني به؟» .

ـ «ماذا ! أتغيّرين الموضوع عندما أكشف لك عن قلب محب ممزق؟ حسناً ، إن الشيء الآخر هو ما يلي» وتلاشى الضوء الساخر من عينيه ثانية ، وبدا وجهه أسمر مطمئناً «أريدك أن تفعلي شيئاً بخصوص هذا الحصان . إنه حرون وله خطم صلب كالحديد . إن قيادته تتعبك ، أليس كذلك؟ وإذا ما ارتأى أن يجمح مرة ، فلن يكون بوسعك إيقافه . وإذا ما انقلبت في أحد الخنادق فمن المحتمل أن يودي ذلك بجنينك وبك أيضاً . عليك أن تستعملي أمتن شكيمة تستطيعين الحصول عليها ، وإلاّ دعيني أقايض عليه بحصان سهل القياد ، ذي خطم أكثر حساسية» .

فتطلعت في وجهه الرقيق المبهم ، وفجأة زال غيظها ، تماماً كما كان ضيقها قد اختفى إثر الحديث عن حبلها . لقد كان رحيماً بها قبيل دقائق قليلة عندما أراد أن يهدئ من روعها ، بينما كانت هي تتمنى لو كانت ميتة . وقد كان الآن أرحم من المرة السابقة ، إذ كان دائب التفكير بأمر الحصان . وأحست بدفق من عرفان الجميل نحوه ، وتساءلت لماذا لم يكن بوسعه أن يكون بهذه الخصال دائماً .

ـ «إن الحصان صعب القياد» وافقت بوداعة «فبعض الأحيان تظل ذراعاي تؤلمانني طول الليل جراء جذبي له . افعل به ما تراه الأفضل يا ريت» .

فبرقت عيناه بنزق :

ـ «إن هذا الكلام يبدو شديد العذوبة والأنوثة يا سيدة كندي . وهو ليس بأسلوبك المسيطر المعتاد أبداً . حسناً ، إن المسألة لا تتطلب غير معاملة بارعة ، كي يستخرج الإنسان منك كرمة متدلية» .

فتجهم وجهها وثارت ثائرتها مجدَّداً .

ـ «ستنزل من هذه العربة هذه المرة ، وإلاّ سأضربك بالسوط . أنا لا أعرف لماذا أصبر عليك ، ولماذا أحاول أن أكون لطيفة معك ، فأنت لا أخلاق لك ولا أدب . أنت لا شيء سوى ـ هيا اخرج ، إني أعني ما أقول» .

وعندما نزل ، وفك فرسه من خلف العربة ووقف في الطريق المنيرة بضوء

الغسق ، يبتسم كيداً لها ، لم تستطع أن تخنق ابتسامتها وهي تنطلق بالعربة .

أجل لقد كان فظاً ، كان محتالاً ، كان التعامل معه أمر لا يؤتمن ، ولم يكن بمقدور أحد أن يعرف متى يمكن أن يتحول السلاح الكليل الذي وضعته بيديه في لحظة من الغفلة إلى نصلٍ حادّ ، ولكن مع ذلك ، كان ريت منعشاً كـ . . حسناً ، ككوب من البراندي يُجرع خلسة !

وكانت سكارلت خلال هذه الشهور قد عرفت فائدة البراندي ، فعندما كانت تعود إلى البيت أواخر النهار وهي مبللة من المطر ، متوترة الأعصاب ، متألمة من الساعات الطوال التي قضتها في العربة ، لم يكن يعينها شيء سوى التفكير بالقارورة المخبأة في جارور مكتبها العلوي ، الجارور المقفل خوفاً من عينيّ مامي المتجسستين ، ولم يكن الدكتور ميد قد قرر أن يحذرها من أن امرأة في حالتها لا ينبغي لها أن تشرب الخمر ، لأنه لم يخطر له أبداً أن امرأة محتشمة يمكن أن تشرب أي مشروب أقوى من عرق العنب ، طبعاً ، باستثناء كأس من الشمبانيا في عرس ، أو كأس من خمر تمر النخيل الحار عند ملازمة الفراش بزكام شديد . طبعاً كان يوجد نساء تعسات يشربن فيسمن عوائلهن بالعار إلى الأبد ، تماماً مثل ما كان يوجد نساء معتوهات أو مطلقات أو نساء يشاركن الآنسة سوزان ب . أنطوني اعتقادها في أن النساء ينبغي أن يصوتن . ولكن بالقدر الذي كان فيه الطبيب غير راض عن سكارلت ، لم يداخله أي شك في أنها لا تشرب .

ولكن كانت هناك بعض الليالي التي لم يستطع حتى البراندي أن يسكن الألم في قلبها ، الألم الذي كان أقوى حتى من الخوف من فقدان المصنعين ، ألم الشوق لرؤية تارا ثانية . فأتلانتا بضجيجها ، بأبنيتها الجديدة ، بوجوهها الغريبة ، بشوارعها الضيقة المزدحمة بالخيل والعربات ، وبالجماهير الصاخبة ، أتلانتا هذه كانت تبدو أحياناً وكأنها تخنقها . لقد كانت تحب أتلانتا ، ولكن ـ آه ، على الطمأنينة العذبة والهدوء الريفي في تارا . على الحقول الحمراء والصنوبرات الدكناء حولها ! آه ، حبذا العودة إلى تارا مهما يمكن أن تكون الحياة صعبة فيها ، وحبذا قرب آشلي ، لتراه فقط ، لتسمعه يتكلم ، لتنتعش بمعرفة أنه يحبها ! لقد كانت كل رسالة من ميلاني تخبرها بأنهم جميعاً في حالة جيدة ، لقد كانت كل مذكرة قصيرة من ويل تحدثها عن الحراثة وعن

الزرع وعن نمو القطن ، لقد كان كل ذلك يجعلها تتوق إلى تارا ثانية .

سأذهب إلى البيت في حزيران/ يونيو ، سأذهب لأمكث مدة شهرين ، فكرت ، وقلبها ينتعش . وفعلاً ذهبت سكارلت إلى البيت ، ولكن ليس كما كانت قد رغبت في أن تذهب ، ذلك أنه في وقت مبكر من ذلك الشهر وصلت رسالة قصيرة من ويل تعلن وفاة أبيها .



سكارلت وميلاني

39

عندما نزلت سكارلت في جونسبورو في حزيران/ يونيو ، كانت هناك فسحات واسعة بين مباني الشارع الرئيسي ، حيث كان السكان قد احترقوا أو لاقوا حتفهم من قصف المدافع ، وكانت البيوت المدمرة التي فتحت القنابل فجوات في سقوفها ، وانتصبت جدرانها نصف متهدمة ، تحدق بسكارلت صامتة قاتمة . ورأت سكارلت بعض خيول الركوب وبغال الحراثة مربوطة خارج خيمة مخزن بولارد الخشبية ، أما الطريق الحمراء المغبرة فقد كانت خالية من المارة ، وكانت الأصوات القليلة المسموعة في القرية عبارة عن بعض صيحات وضحكات مخمورة فقط ، تطفو في هواء الغسق الساكن ، صادرة من حانة بعيدة في أسفل الشارع .

لم تكن محطة القطار قد أعيد بناؤها بعد منذ أن احترقت في المعركة ، وكان يقوم في مكانها مظلة خشبية ، مظلة بلا جوانب لاتقاء أعراض الطقس . سارت سكارلت تحت المظلة وجلست على أحد البراميل الصغيرة الفارغة التي كان من الواضح أنها وضعت هناك لتستعمل كمقاعد . ثم راحت تحدق نحو أعلى الشارع وأسفله بحثاً عن ويل بنتين ، الذي كان ينبغي أن يكون هنا لاستقبالها ، والذي كان ينبغي أن يعرف أنها كانت ستأخذ أول قطار بعد أن تلقت رسالته الموجزة المتضمنة نبأ وفاة أبيها .

ولم تكن مرتاحة في الثوب الأسود الضيق الذي كانت قد استعارته من السيدة ميد لأنه لم يكن لديها الوقت لتبتاع ثياب حداد لها ، وكانت السيدة ميد نحيفة الآن بينما كان حبل سكارلت يتقدم ، الأمر الذي جعل ثوب الحداد مضاعف الضيق . ولم تغفل سكارلت ، حتى وهي في حزنها على موت أبيها عن المظهر الذي كانت تبدو به ، فكانت تنظر إلى جسدها باشمئزاز ، كان قوامها قد تغيّر تماماً ، وكان وجهها وكاحلاها متورمة ، ولم تكن تحفل بمظهرها قبل الآن ، ولكن لما كانت ستـرى آشلي في خلال ساعة من الوقت ، فإنها اهتمت للأمر كثيراً . وحتى وهي مفجوعة القلب ، انكمشت من فكرة مواجهته ، بينما هي تحمل طفل رجل غيره . لقد كانت تحبه ، وكان هو يحبها ،

ولكن هذا الطفل غير مرغوب فيه ، كان يبدو الآن برهاناً على الكفر بذلك الحب . ورغم شدة نفورها من أن يراها وقد ذهب منها ضمور خصرها ورشاقة خطوها ، فإنه لم يكن بوسعها الآن تجنب هذا الأمر .

وقرعت بقدمها الأرض بنفاد صبر ، فقد كان ينبغي أن يستقبلها ويل . طبعاً ، لقد كان بوسعها أن تذهب إلى مخزن بولارد وتستوضح عنه ، أو تطلب من أحد الحوذيين الموجودين هناك أن يحملها بعربته إلى تارا ، وذلك إذا ما اكتشفت أن ويل لم يستطع القدوم . غير أنها لم تكن ترغب في الذهاب إلى مخزن بولارد ، فالليلة كانت ليلة السبت ، ومن المحتمل أن يكون نصف رجال الولاية موجودين هناك ، ولم تكن ترغب في أن تعرض حالها وهي في هذا الثوب الأسود العديم الذوق ، الذي يبرز هيكلها بدلاً من أن يحجبه . ولم تكن تريد كذلك أن تسمع عواطف الحزن التي ستتدفق عن جيرالد ، فهي لم تكن تريد أن يشاركها أحد في أحزانها ، لأنها كانت تخشى البكاء إذا ما ذكر بعضهم أمامها حتى مجرد اسم والدها ، ولم تكن هي تريد البكاء ، لأنها كانت تعرف أنها إذا شرعت فيه مرة ، فسيحدث لها مثل ما حدث يوم بكت ورأسها في عرف الحصان ، في تلك الليلة الرهيبة عندما سقطت أتلانتا وغادرها ريت في الطريق المظلم خارج المدينة ، هناك حيث سفحت الدموع الغزيرة التي مزقت قلبها .

لا ، لن تبكي ! وأحست بالغصة في حلقها ترتفع ثانية كما حدث لها مراراً منذ بلغها النبأ . بيد أن البكاء لن يجديها شيئاً وإنما سيربكها ويضعفها . عجباً ، آه ، لماذا لم يكتب لها ويل أو ميلاني أو شقيقتاها أن جيرالد كان بين براثن الألم؟ لو فعلوا ذلك لأخذت أول قطار إلى تارا لتعتني به ، ولأحضرت طبيباً من أتلانتا إذا اقتضى الأمر . يا للأغبياء ، جميعهم ! ألم يكن بوسعهم تدبير أي شيء بدونها؟ فهي لم تكن تستطيع أن تكون في مكانين في وقت واحد ، والله يعرف أنها كانت تعمل جهدها من أجل مصلحتهم جميعاً في تارا .

وتململت في جلستها فوق البرميل وقد غدت نزقة برمة لأن ويل لم يأت بعد . أين هو؟ ثم سمعت صرير الفحم الحجري الموجود بين قضبان السكة الحديدية خلفها ، وعندما استدارت بجسدها رأت ألكس فونتين يعبر القضبان باتجاه إحدى العربات ، وعلى كتفه كيس من الشوفان .

ـ «يا لله العظيم ! ألست سكارلت؟» صاح طارحاً الكيس وراكضاً ليصافحها ، والسرور يغمر كل وجهه الصغير الأسمر «إنني سعيد جداً برؤيتك . لقد شاهدت ويل هنالك في دكان الحداد يحذو حصانه . لقد تأخر القطار فاعتقد أن لديه بعض الوقت . هل أجري وأحضره؟» .

ـ «نعم أرجوك يا ألكس» قالت مبتسمة رغم حزنها ، فقد كان من دواعي الشعور بالفرج أن ترى أحد وجوه الولاية ثانية .

ـ «آه . . سكارلت» شرع يتحدث بارتباك وهو ما زال ممسكاً بيدها ، «إني حزين جداً على وفاة والدك» .

ـ «أشكرك» أجابت متمنية أن لو لم يتفوه بها ، لأن كلماته ذكرتها بوجه أبيها المورد وصوته الهدار .

ـ «إننا هنا فخورون جداً به يا سكارلت ، إن كان في هذا شيء من العزاء لك» . تابع ألكس مفلتاً يدها «إنه . . حسناً ، إننا نعتبر أنه مات كجندي وفي قضية وطنية» .

ماذا كان يعني بذلك ، فكرت سكارلت حائرة ، جندي؟ هل قتله أحد؟ هل تعارك مع السكالاوغز كما سبق لتوني أن فعل؟ ولكن ينبغي أن لا تسمع أكثر من ذلك ، لأنها ستبكي إن هي تحدثت عنه ، بينما كان ينبغي أن لا تبكي . نعم ، إلى أن تغدو آمنة في العربة مع ويل ، خارج البلدة ، في الريف حيث لا يستطيع غريب أن يراها . أما ويل فلن يؤثر وجوده إذ كان بمثابة الشقيق تماماً .

ـ «ألكس ، إني لا أرغب في التحدث عن هذا الأمر» .

ـ «أنا لا ألومك مطلقاً يا سكارلت» قال ألكس ، بينما كان دم الغضب الأسود يتدفق في وجهه «لو أنها كانت أختي ـ لكنت ـ على كل حال يا سكارلت ، أنا لم أتفوه حتى الآن بأي كلمة قاسية عن أي امرأة ، ولكني أعتقد أنه ينبغي أن تجلد سولين بسوط جلدي» .

أي سخف كان الذي يتحدث عنه الآن ، ما علاقة سولين بهذا كله؟

ـ «ويؤسفني أن أقول إن كل إنسان في الجوار يشعر الشعور ذاته نحوها . إن ويل هو الشخص الوحيد الذي يدافع عنها ـ والآنسة ميلاني طبعاً ، غير أن هذه قديسة ، ولن ترى سوءاً في أي إنسان و . .» .

ـ «قلت إني لا أريد أن أتحدث عن هذا الأمر» قالت ببرود ، ولكن لم يبد أن

ألكس قد صدم بردها ، وإنما بدا وكأنه فهم وقاحتها ، الأمر الذي كان مزعجاً لها . ولم تكن ترغب في أن تسمع أنباء سيئة عن عائلتها من رجل غريب عن هذه العائلة ، كما لم تكن تريده أن يعرف جهلها بما كان قد حدث . لماذا لم يبعث لها ويل بالتفاصيل؟

وتمنّت أن لا ينظر إليها ألكس بقسوة شديدة ، وشعرت أنه أدرك حالها ، الأمر الذي ضايقها . غير أن الذي كان يفكر فيه ألكس وهو يحدق بها في ضوء الغسق هو أن وجهها كان قد تغير تغيّراً تامّاً ، بحيث أنه تساءل كيف استطاع أن يميز شخصها . قد يكون ذلك لأنها حبلى ، فالنساء كن يبدون كالشياطين في أوقات كهذه . وطبعاً ، لا بد أنها كانت تشعر بحزن شديد على السيد أوهارا العجوز ، فقد كانت مدللته . ولكن لا ، لقد كان التغير أعمق من ذلك ، كانت في الحقيقة تبدو أحسن مما كانت عليه عندما رآها آخر مرة ، فعلى الأقل ، كانت تبدو الآن كما لو كانت تأكل ثلاث وجبات كاملة في كل يوم ، وقد غادرت نظرة الحيوان المطارد عينيها جزئياً ، وأضحت العينان اللتان كانتا مخيفتين يائستين ، أضحتا صارمتين ، يكتنفهما مظهر من السلطة والثقة والتصميم ، حتى وهي تبتسم . ولكنها ، أخذ يفكر ، كانت تؤمن حياة هنيئة لفرانك العجوز! أجل لقد تغيرت . لقد كانت امرأة جميلة بلا شك ،غير أن كل تلك النعومة العذبة الحلوة قد ذهبت من وجهها ، وتلك الطريقة المتملقة في التطلع إلى الرجل ، التي كان يعرفها فيها معرفة تفوق قدرة البشر ، قد اختفت تماماً .

حسناً ، ألم يكونوا جميعهم قد تغيروا؟ ونظر ألكس إلى ثيابه الخشنة وكست وجهه ملامح المرارة المعتادة . حبذا لو أن توني لم يضطر للهرب إلى تكساس ، فوجود رجل آخر معه كان يمكن أن يسبب كل الاختلاف في دنياه . إن شقيقه الصغير المحبوب السيئ الطبع يعيش الآن معدماً في مكان ما في الغرب . أجل لقد تغيّروا جميعهم . ولم لا؟ وتنهد عميقاً .

ـ «أنا لم أشكرك بعد لما قمت به أنت وفرانك من أجل توني» قال «لقد كنتما من ساعداه على الهرب ، أليس كذلك؟ لقد كان ذلك عملاً نبيلاً منكما . لقد سمعت بطريقة غير مباشرة أنه يعيش الآن آمناً في تكساس . لقد كنت خائفاً من أن أكتب إليك وأسألك . ولكن هل أقرضته أنت أو فرانك أي

نقود؟ فأنا أريد أن أسدد . .» .

ـ «ها ألكس ، أرجوك اصمت ! ليس الآن !» صاحت سكارلت إذ لم تكن النقود تعني شيئاً لها الآن .

وصمت ألكس لحظة .

ـ «سأحضر لك ويل» قال وسنلتقي جميعاً في الجنازة غداً» .

وعندما رفع كيس الشوفان واستدار بعيداً ، خرجت تترنح من أحد الشوارع الجانبية عربة بعجلات مخلعة ، تصر وهي تسير نحوها ، ونادى ويل من المقعد : «آسف لتأخري يا سكارلت» . نزل ويل من العربة مرتبكاً ثم راح يتعثّر نحوها وانحنى مقبّلاً وجنتها ، ولم يكن قد قبّلها من قبل ، كما لم يدعها مرة دون أن يقرن اسمها بكلمة «آنسة» ، ولذا أدهشها الأمر ، إلاّ أنه رغم ذلك أدفأ قلبها وأفرحها كثيراً . ثم رفعها ويل بعناية فوق الدولاب إلى داخل العربة ولم يتكلم ويل في البداية ، الأمر الذي ارتاحت له سكارلت ، ولكنه ألقى بقبعته البالية إلى مؤخرة العربة وهمهم للفرس فانطلقت بهما .

غادرا القرية وانثنيا في الطريق الحمراء المؤدية إلى تارا . وكانت حمرة خفيفة لا تزال تتوانى عند أطراف السماء ، وغيوم قزعية ملبدة تتألق بلون الذهب والخضرة الشاحبة . وغمرها سكون الغسق الريفي ، مطمئناً كالصلاة . كيف استطاعت أن تتحمل ذلك ، هجست ، ذلك البعاد طيلة هذه الأشهر كلها ، البعاد عن الرائحة الذكية لهواء الريف والأرض المحروثة وصفاء ليالي الصيف؟ وكان هذا التراب الأحمر الندي يتضوع برائحة شذية ، ويبدو أليفاً جداً ، ودوداً جداً ، بحيث أنها أرادت أن تخرج من العربة وتغرف حفنة منه . ورأت سكارلت ، باغتباط ، القطن ينتصب قوياً بينما كانت العربة تمر بين الحقول المحروثة ، حيث برزت الشجيرات الخضراء القوية من الأرض الحمراء ما كان أجمل هذا المنظر !

ـ «سكارلت ، قبل أن أخبرك عن السيد أوهارا . . . وأنا أريد أن أخبرك كل شيء قبل أن تصلي إلى البيت . . . أريد أن أسألك عن رأيك في إحدى القضايا ، إذ إني أعتبرك عميدة العائلة الآن» .

ـ «ما هي هذه القضية يا ويل؟» .

فأدار نظرته الرزينة إليها .

ـ «إني أطلب موافقتك على زواجي بسولين» .

فأمسكت سكارلت بالمقعد وهي مندهشة جداً بحيث كادت تقع إلى الخلف . يتزوج سولين ! لم تكن قد فكرت أبداً بأن أي إنسان يتزوج سولين منذ أن انتزعت فرانك كندي منها ، من سيتزوج سولين؟ !

ـ «بالله يا ويل !» .

ـ «أعتبر أنك لا تمانعين إذاً؟» .

ـ «أمانع ! لا ، ولكن . . . كيف ويل ، لقد فاجأتني أنت تتزوج سولين؟ لقد كنت أظن دائماً أنك تهوى كارين» .

فاستمر ويل ينظر إلى الحصان ، ثم هز العنان دون أن تتغير ملامح وجهه ، ولكنها ظنت أنه تنهد تنهداً خفيفاً .

ـ «ربما كنت كذلك» .

ـ «حسناً ، ألا ترضى بك؟» .

ـ «أنا لم أسألها أبداً» .

ـ «ها ، ويل ، إنك أحمق . سلها . إنها تساوي اثنتين من سولين» .

ـ «سكارلت ، أنت تجهلين كثيراً من الأمور التي حدثت في تارا ، فأنت لم تتكرمي علينا بالكثير من عنايتك هذه الأشهر الأخيرة» .

ـ «أنا؟ ألم أفعل !» ثارت «ماذا كنت تظن أني أفعل في أتلانتا؟ أتجول في عربة ذات أربعة خيول وأذهب إلى حفلات الرقص؟ ألم أكن أرسل لكم نقوداً كل آخر شهر؟ ألم أدفع عنكم الضرائب ، وأصلح السقف ، وأشتري المحراث الجديد والبغال؟ ألم . .» .

ـ «أصغي إلي . لا تطوحي بزمام الأمر وتثيري طبعك الإيرلندي؟» قاطعها بهدوء «إذا كان أحد يعرف ما عملته فهو أنا ، ولقد كان عمل رجلين» .

فخفت ثائرتها قليلاً وسألت «حسناً ، ماذا تعني إذاً؟» .

ـ «لقد حفظت السقف فوق رؤوسنا والطعام في غرفة المؤونة ، وأنا لا أنكر ذلك ، غير أنك لم تعيري ما كان يجري في عقل كل منا في تارا انتباهاً كافياً . أنا لا ألومك يا سكارلت ، فتلك هي طريقتك تماماً ، وأنت لم تكوني يوماً شديدة الاهتمام بما يكمن في عقول أهلك . ولكن الذي أحاول أن أخبرك به هو أني لم أقترح الزواج على الآنسة كارين لأني عرفت أن ذلك لن يجدي ،

أجل ، لقد كانت لي بمثابة شقيقة صغيرة ، وأظن أنها كانت تتحدث معي بصراحة أكثر من صراحتها مع أي إنسان آخر في الدنيا ، ولكنها لم تنس أبداً ذكرى فتاها القتيل ، ولن تنساها أبداً ، ويمكنني أن أخبرك أيضاً أنها عازمة على الدخول إلى أحد الأديرة في شارلستون» .

ـ «هل تمزح؟» .

ـ «لقد عرفت أن النبأ سيذهلك . ولكني أريد أن أطلب منك يا سكارلت أن لا تناقشيها في الأمر أو تؤنبيها أو تهزئي منها . دعيها تذهب ، فذلك كل ما تبتغيه الآن . إن قلبها محطم» .

ـ «ولكن ، يا لله ، قلوب كثير من الناس تحطمت ، ولم يلتجئ أصحابها إلى الدير . تأمل حالي ، لقد فقدت زوجاً يوماً ما» .

ـ «ولكن قلبك لم يتحطم» قال ويد بهدوء ، وتناول قشة من قاع العربة ، ووضعها في فمه وراح يمضغ ببطء . وانتزعت عبارته العاصفة أنفاسها ، فكما هو الحال دائماً ، عندما كانت تسمع الحقيقة تقال ، مهما كانت هذه الحقيقة غير مستساغة ، كانت الاستقامة الأصيلة فيها تدفعها إلى أن تعترف بها كحقيقة ، ولذلك صمتت هنيهة ، وحاولت أن تعوّد نفسها على فكرة كون كارين راهبة .

ـ «عديني أنك لن تثوري عليها» .

ـ «ها ، حسناً ، أعدك» ثم نظرت إليه بإدراك جديد وببعض الدهشة . كان ويل قد أحب كارين حباً جماً ، وقد غدا الآن يحبها حباً كافياً لجعله يقف إلى جانبها ويسهل أمر اعتزالها الدنيا ، ومع ذلك أراد الزواج بسولين .

ـ «حسناً ، وما قضية سولين؟ أنت لا تحفل بها ، أليس كذلك؟» .

ـ «ها ، أجل ، إني أحفل بعض الشيء» قال وأخرج القشة من فمه وراح يتأملها كأنها شيء شبق جداً «ليست سولين سيئة كما تفكرين يا سكارلت ، وأعتقد أننا سنوفق في حياتنا . إن كل ما يزعج سولين حاجتها إلى زوج وبعض الأولاد ، وذلك هو بالضبط ما تحتاج إليه كل امرأة» .

ـ «لم تخبرني السبب الحقيقي يا ويل . إذا كنت أنا عميدة العائلة فلي الحق في أن أعرف ذلك» .

ـ «صحيح» قال ويل «وأظن أنك ستفهمينه . أنا لا أستطيع أن أغادر تارا ، فلقد أضحت موطني يا سكارلت ، الموطن الحقيقي الوحيد الذي عرفته ، وإني

أحب كل حجر فيها، فلقد عملت في أرضها كما لو كانت ملكي، وعندما يعمل المرء في شيء فإنه يحبه. تعرفين ما أعني؟».

عرفت سكارلت الذي عناه، وخرج قلبها في دفق من العاطفة القوية نحوه، وهي تسمعه يقول إنه هو أيضاً أحب الشيء الذي أحبته أكثر من أي شيء.

- «وإنني أتصور الأمر كما يلي: بذهاب والدك وصيرورة كارين راهبة سنظل أنا وسولين وحدنا، وطبعاً، لن يكون بوسعي أن أستمر في الحياة في تارا دون أن أتزوج سولين، فأنت تعرفين كيف يتحدث الناس؟».

- «ولكن... ولكن يا ويل هناك ميلاني وآشلي...».

وعندما سمع اسم آشلي، التفت ونظر إليها وعيناه الشاحبتان غامضتان لا يكنه سرهما. وعندئذ انتابها الشعور القديم بأن ويل كان يعرف كل شيء عنها وعن آشلي، كان يفهم كل شيء دون أن يلومها أو يشجعها.

- «سيرحلان سريعاً».

- «يرحلان! إلى أين؟ إن تارا موطنهما كما هي موطنك».

- «لا، ليست موطنهما، وذلك هو ما ينهش قلب آشلي. إنها ليست موطنه، وهو لا يشعر شعور من يكسب قوته بعرق جبينه، فهو لا يجيد الزراعة، وهو يعرف ذلك. إن الله يعلم أنه يحاول جهده، ولكنه لم يخلق للزراعة، وأنت تعرفين ذلك كما أعرفه أنا، وإذا هو كسر حطباً فمن الأرجح أن يقطع قدمه، ولا يستطيع أن يقود المحراث مستقيماً في ثلم أفضل مما يستطيع بو، وإن جهله في تصريف الأمور ليملأ كتاباً. وليست تلك غلطته، وإنما هو لم يخلق لذلك. والذي يضايقه هو أنه رجل يعيش في تارا على إحسان امرأة، ولا يقدم الكثير في مقابل ذلك».

- «إحسان، هل حدث وقال..».

- «لا، إنه لم يقل كلمة واحدة، أنت تعرفين آشلي، ولكني أستطيع أن أقول ذلك عنه، ففي الليلة الماضية، عندما بقينا ساهرين إلى جانب والدك، أخبرته أني قد طلبت يد سولين وأنها وافقت، وعندئذ قال إن ذلك النبأ أنقذه، لأنه كان يشعر شعور كلب لبقائه في تارا، وكان يعرف أن عليه وميلاني أن يظلا في تارا الآن، بعد أن توفي السيد أوهارا، فقط ليمنع الناس من التحدث

عني وعن سولين ، وهكذا أخبرني عندئذ أنه ينوي مغادرة تارا والحصول على عمل» .

ـ «عمل؟ أي نوع من العمل؟ وأين؟» .

ـ «أنا لا أعرف ماذا سيفعل بالتحديد ، ولكنه قال إنه ذاهب إلى الشمال ، لأن له صديقاً شمالياً في نيويورك كتب له عن وجود عمل له في مصرف هنالك» .

ـ «ها ، لا!» صاحت سكارلت من أعماق قلبها . وعندئذ رمقها ويل بالنظرة السابقة ذاتها .

ـ «ربما كان من الأفضل ، من كل النواحي ، إن هو سافر إلى الشمال» .

ـ «لا! لا! أنا لا أعتقد ذلك» .

وراح عقلها المحموم يفكر . ليس بوسع آشلي أن يسافر إلى الشمال! فمن الممكن أن لا تراه أبداً مرة ثانية إن هو سافر . ومع أنها لم تكن قد رأته منذ شهور ، ولم تكن قد تحدثت إليه على انفراد ، منذ مشهدهما المشؤوم في البستان ، إلا أنه لم يكن يمضي يوم دون أن تفكر فيه وتشعر بالسرور لأنه يأوي تحت سقف بيتها . ولم تكن قد أرسلت دولاراً واحداً إلى ويل دون أن تحس بالغبطة لأن ذلك سيهون على آشلي حياته . طبعاً ، لم يكن يصلح أبداً كمزارع فهو قد خلق لأمور أفضل ، فلا عجب أنه يريد مغادرة تارا .

إنها لا تستطيع أن تدعه يذهب بعيداً من جورجيا ، وإذا اقتضى الأمر فستضطر فرانك على أن يمنحه عملاً في المخزن ، ستجعل فرانك يخرج الصبي الذي كان يعمل عنده الآن ، ولكن لا . . ليس مكان آشلي خلف البسطة أمام المتجر بأفضل منه خلف المحراث ، ويلكسي وحانوتي! أبداً لن يكون هذا . لا بد من إيجاد عمل ما في مكان مناسب - أجل ، معملها طبعاً! ينبغي أن تكيف الأمر بحيث تجعله يفكر أنه يصنع معها معروفاً لو قبل . ستطرد السيد جونستون وتضع آشلي مسؤولاً عن المعمل القديم بينما يدير هيو المعمل الجديد . ستوضح لآشلي كيف أن صحة فرانك السيئة ، وضغط العمل في المخزن ، منعاه من مساعدتها ، وستتوسل بحبلها كسبب آخر لحاجتها إلى مساعدته .

ستجعله يدرك بطريقة ما أنها لن تستطيع العمل في هذا الوقت بدون عونه ،

وستعطيه نصف ربح المعمل ، إن هو وافق على العرض ، ستعطيه أي شيء لتبقيه قربها فقط ، أي شيء من أجل أن ترى تلك الابتسامة المشرقة تضيء وجهه ، أي شيء من أجل سنوح فرصة تلمح فيها بعينيه ، وعلى غفلة منه ، نظرة ترى أنه ما زال يحفل بها . ولكن ، لقد وعدت نفسها أنها لن ، لن تحاول ثانية أن تدفعه إلى كلمات الحب ، لن تحاول ثانية أن تجعله يلقي بعيداً بذلك الشرف السخيف الذي كان يقدره أكثر من الحب . ينبغي ، بطريقة ما ، أن تنقل إليه برفق قرارها الجديد هذا ، وإلا فيمكن أن يرفض خشية حدوث مشهد آخر كذلك المشهد الرهيب الأخير في البستان .

ـ «بوسعي أن أجد له عملاً في أتلانتا» . قالت .

ـ «حسناً ، ذلك من شأنك وشأن آشلي» قال ويل «والآن يا سكارلت ، يوجد شيء آخر ينبغي أن أطلبه منك قبل أن أحدثك عن والدك . أنا لا أريدك أن تثوري على سولين ، فالذي عملته عملته ، وإذا ما اقتلعت جميع شعر رأسها ، فلن يعيد ذلك السيد أوهارا ، هذا فضلاً عن أنها كانت تظن مخلصة بأنها كانت تعمل من أجل المصلحة» .

ـ «لقد أردت أن أسألك عن ذلك ، فلماذا كل هذا اللغو عن سولين؟ لقد نطق ألكس بألغاز ، وقال إنه ينبغي أن تجلد ، فماذا فعلت؟» .

ـ «أجل ، إن الناس مغتاظون جداً منها . جميع الناس الذين التقيت بهم بعد ظهر هذا اليوم ، في جونسبورو ، كانوا يعدون بقطع رأسها في المرة التالية التي سيرونها بها ، ولكن ربما ينسون الأمر . والآن ، عديني أنك لن تثوري عليها ، فأنا لا أريد أن يقع شجار الليلة والسيد أوهارا مسجى على فراش الموت في الردهة» .

إنه لايريد أن يقع أي شجار ! هجست سكارلت بسخط ، إنه يتكلم كما لو أن تارا أصبحت ملكه سلفاً !

ثم فكرت بأبيها ميتاً في الردهة ، وفجأت شرعت تبكي ، تبكي في شهقات مريرة غاصة ، فطوقها ويل بذراعه ، وقربها مه بصورة مواسية دون أن يقول شيئاً .

ـ «لماذا لم تكتب إلي أنه كان مريضاً؟ لكنت قدمت بسرعة فائقة» .

ـ «لم يكن مريضاً ، ولا لدقيقة . إليك يا حلوتي ، خذي منديلي وسأخبرك كل شيء عن القضية» .

أسندت ظهرها على ذراع ويل وأصغت .

ـ «حسناً ، لقد حدث الأمر على الوجه التالي يا سكارلت : لقد كنت ترسلين لنا نقوداً باستمرار ، وآشلي وأنا . . . على كل حال ، لقد دفعنا الضرائب واشترينا البغل والبذار وكل شيء وبعض الخنازير والدجاج . ولقد اعتنت الآنسة ميلي بالدجاج عناية بالغة . أجل يا سيدتي اعتنت به ، إنها امرأة رائعة ، والآنسة ميلاني ممتازة . حسناً ، على كل حال ، بعد أن اشترينا متطلبات تارا ، لم يبق معنا نقود كثيرة للأشياء التافهة ، ولم يكن أحد منا يتذمر سوى سولين .

وكانت الآنسة ميلاني والآنسة كارين تظلان في البيت ، وتلبسان ثيابهما القديمة وكأنهما فخورتان بلبسها ، ولكنك تعرفين سولين يا سكارلت . إنها لم تعتد أبداً أن تظل بلا فساتين جديدة . لقد كان يؤلمها اضطرارها إلى ارتداء فساتين قديمة كلما أخذتها معي إلى جونسبورو أو فايتفيل ، خصوصاً لأن بعض النساء يرفلن بثياب مزركشة مبهرجة ، وزوجات أولئك الشماليين الملعونين ، القائمين على هيئة التحرير ، يلبسن ثياباً فاخرة ! والواقع ، أن ارتداء سيدات الولاية أسوإ ملابسهن في أثناء ذهابهن إلى المدينة ، أضحى مصدراً لاعتزازهن ، وذلك ليربن كيف أنهن لم يكن ليحفلن بذلك ، بل كن فخورات بثيابهن هذه . غير أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى سولين ، التي كانت ترغب في حصان وعربة أيضاً ، وقد ألحت إلي بأنك تملكين مثل ذلك» .

ـ «إنها ليست عربة ، إنها عربة عتيقة» قالت سكارلت بسخط .

ـ «لتكن ما تكون . وبوسعي أن أخبرك أيضاً أن سولين لم تنس أبداً قضية زواجك بفرانك كندي ، وأنا لا أدري لماذا ألومها على ذلك ، فأنت تعرفين أن من المكر المشين أن تخدعي شقيقة» .

فرفعت سكارلت رأسها من على كتفه ، ثائرة كشرير يستعد للضرب .

ـ «مكر مشين ، هه؟ سأكون شاكرة إن احتفظت بلسان مهذب في فمك يا ويل بنتين ! هل كان بوسعي تجنب الأمر إن كان هو قد فضلني عليها؟» .

ـ «أنت فتاة ذكية يا سكارلت ، وأنا أتصور أنه كان بوسعك تجنب أمر تفضيله إياك ، فذلك بوسع الفتيات دائماً . ولكن أظن أنك راودته بطريقة ما ، فأنت إنسانة أخاذة جداً عندما تريدين أن تكوني كذلك ، ولكن مهما كان الأمر فلقد كان عشيق سولين . كيف لا ، وقد كانت قد استلمت رسالة منه قبيل أن

تذهبي إلى أتلانتا بأسبوع ، وكان عذباً كالسكر فيما يتعلق بها ، وتحدث عن كيف أنهما سيتزوجان عندما سيجني نقوداً قليلة أخرى في المستقبل ، إني أعرف ذلك لأنها أطلعتني على الرسالة» .

وصمتت سكارلت ، لأنها كانت تعرف أنه كان يقول الحقيقة ، ولم يكن بوسعها التفكير بشيء تقوله ، ولم تكن قد توقعت أن يقاضيها ويل من بين جميع الناس . أضف إلى ذلك أن الكذبة التي كانت قد أخبرتها لفرانك لم تقرع ضميرها بشدة أبداً . . إذا لم تستطع الفتاة أن تحافظ على عشيقها فإنها تستحق فقدانه .

ـ «اسمع يا ويل ، لا تكن دنيئاً» قالت «لو أن سولين تزوجته ، فهل تعتقد أنها كانت تصرف سنتاً واحداً على تارا أو على أي منا؟» .

ـ «قلت إن بوسعك أن تكون أخاذة جداً ، إذا شئت» ، قال ويل والتفت إليها بابتسامة هادئة «لا ، أنا لا أعتقد أننا كنا سنرى سنتاً من نقود فرانك العجوز . ولكن ما زلت لا تستطيعين المراوغة في القضية ، فلقد كان الأمر احتيالاً مشيناً ، وإذا كنت تريدين أن تعللي الغاية بالوساطة فليس الأمر من شأني ، ومن أنا لأتذمر؟ ولكن مهما كان الأمر ، فلقد غدت سولين كالدبّور منذ ذلك الوقت . وأنا لا أعتقد أنها كانت تحفل كثيراً بفرانك العجوز ، غير أن القضية كانت بمثابة جرح لكبريائها ، فراحت تتحدث كيف أنك تنعمين بثياب جميلة وبعربة ، وتعيشين في أتلانتا ، بينما هي مدفونة هنا في تارا . إنها تحب الذهاب للزيارات والحفلات كما تعرفين ، وكذلك ارتداء الثياب الجميلة ، وأنا لا ألومها ، فالنساء نساء .

وأضاف ويل :

ـ «حسناً ، منذ شهر تقريباً ، أخذتها إلى جونسبورو وتركتها لتقوم بالزيارات ، بينما انصرفت أنا لملاحقة أعمالي . وعندما رجعت بها إلى البيت كانت صامتة ، ولكن كان بوسعي أن أرى أنها كانت مضطربة جداً بحيث كانت على استعداد لتنفجر . ثم ذهبت لترى الآنسة كاثلين كالفرت ـ ستتلفين عينيك من البكاء على كاثلين يا سكارلت . يا لها من فتاة مسكينة ، كان من الأفضل أن تموت على أن تتزوج هلتون ، ذلك الشمالي الخسيس . هل علمت أنه قد رهن البيت وخسره ، وأنهم سيضطرون إلى مغادرته؟» .

- «لا ، لم أعلم ولا أريد أن أعلم . أريد أن أعلم عن والدي» .

- «حسناً ، سأصل إلى تلك النقطة» قال ويل بصبر «وعندما رجعت من هنالك ، قالت إننا جميعاً قد أخطأنا في الحكم على هلتون ، ودعته السيد هلتون ، وقالت إنه كان رجلاً حاذقاً ، ولكننا ضحكنا عليها وحسب . ثم شرعت تأخذ والدك خارجاً ليتنزها معاً في الأمسيات ، وقد رأيتها مرات كثيرة ، وأنا عائد من الحقل إلى البيت ، تجلس معه على الجدار المحيط بالمقبرة ، تتحدث إليه بخشونة ، وتلوح بيديها ، وكان السيد العجوز يتطلع إليها فقط ، بمظهر حائر نوعاً ما ويهز رأسه . أنت تعرفين كيف كانت حالته يا سكارلت ، لقد كان يزداد ذهولاً حتى أصبح كأنه بالكاد يعرف أين هو ومن نحن . ومرة رأيتها تشير إلى ضريح أمك ، بينما السيد العجوز يشرع في البكاء . وعندما رجعت إلى البيت سعيدة جداً مضطربة المظهر ، وجهت إليها حديثاً ، وكان صارماً ، فقلت :

- «آنسة سولين ، لأي سبب تثيرين والدك وتذكرينه بأمك؟ إنه لا يتبين حقيقة كونها ميتة معظم الوقت ، وها أنت تذكرينه بالحقيقة» فأجابتني بأن هزت رأسها فقط ثم ضحكت قائلة : «اهتم بشؤونك ، ويوماً ما ، ستكونون جميعاً سعداء بفضل ما أقوم به» . ولقد أخبرتني الآنسة ميلاني ، في الليلة الماضية ، أن سولين كانت قد أعلمتها بخططها ، غير أن الآنسة ميلاني قالت إنها لم تتصور أبداً أن سولين كانت جادة في حديثها ، وقالت إنها لم تخبر أحداً منا لأنها امتعضت كثيراً من مجرد الفكرة» .

- «أية فكرة؟ هل سنصل إلى صلب الموضوع؟ نحن في منتصف الطريق إلى البيت الآن ، وأنا أريد أن أعرف قضية والدي» .

- «إني أحاول أن أطلعك عليها» قال ويل «لقد اقتربنا جداً من البيت ، ولذلك أظن أن من الأفضل أن نتوقف هنا إلى أن أتم حديثي» .

وجذب عنان الفرس ، وكانت نقطة توقفهما قرب سياج الأشجار البرية النامية ، الشبيهة بأشجار البرتقال ، والتي كانت تحدد ملكية آل ماك أنتوش . واستطاعت سكارلت ، وهي ترسل بصرها تحت الأشجار القاتمة ، أن ترى تماماً أن المداخن الطويلة كالأشباح ، كانت لا تزال تنتصب فوق الدمار الصامت ، وتمنت أن لو اختار ويل مكاناً آخر ليقف فيه .

ـ «حسناً، إن فكرتها تتلخص في جعل الشماليين يدفعون تعويضاً عن القطن الذي أحرقوه، والمواشي التي ساقوها معهم، والأسيجة والمخازن التي هدموها».

ـ «الشماليين؟ !».

ـ «ألم تسمعي بالأمر؟ إن الحكومة الشمالية تدفع تعويضات عن الملكيات المدمرة لمؤيدي الاتحاد في الجنوب».

ـ «طبعاً لقد سمعت بهذا»، قالت سكارلت «ولكن ما علاقة ذلك بنا؟».

ـ «علاقة كبيرة في رأي سولين، ففي ذلك اليوم الذي أخذتها فيه إلى جونسبورو، التقت بالسيدة ماك أنتوش. وبينما كانتا تتحدثان، لم يسع سولين إلا أن تلاحظ أية ملابس جميلة كانت ترتديها السيدة ماك أنتوش، ولم تستطع إلا أن تسألها عنها، وعندئذ أضفت السيدة ماك أنتوش على نفسها مظهراً وقوراً وتحدثت عن كيف أن زوجها قدم للحكومة الفدرالية طلب تعويض مقابل تدمير ملكية مؤيد مخلص للاتحاد، مؤيد لم يكن قد قام بأي عون أو نجدة للحلف في أي صورة أو صفة».

ـ «إنهم لم يقدموا أي عون أو نجدة لأي إنسان أبداً» زمجرت سكارلت «أولئك الإيرلنديين ـ الاسكتلنديين !».

ـ «حسناً، قد يكون ذلك حقيقياً، فأنا لا أعرفهم، على أن الحكومة منحتهم، الواقع لقد نسيت كم ألف دولار. لقد كان مبلغاً كبيراً جداً، الأمر الذي أذهل سولين، فراحت تفكر به طوال الأسبوع دون أن تقول لنا شيئاً، لأنها كانت تعرف أننا لا نملك إلاّ أن نضحك فقط. ولكن كان لا بد لها من أن تتحدث إلى أحد الناس، ولذلك ذهبت إلى منزل كاثلين كالفرت، فزودها ذلك الأبيض الحقير هلتون بمجموعة من الأفكار الجديدة. لقد أشار إلى أن والدك لم يكن مولوداً في هذه البلاد، وأنه لم يكن قد اشترك في الحرب، ولم يكن لديه أولاد ليحاربوا، وأنه لم يكن يتقلد أي وظيفة في ظل الحلف. كما قال إنهم يمكن أن يعلقوا أهمية كبيرة على كون السيد أوهارا مؤيداً مخلصاً للاتحاد. وهكذا ملأها بأفكار كهذه، فعادت إلى البيت وبدأت تنفذ خطتها في السيد أوهارا. إني أراهن على حياتي أن والدك لم يكن يعرف طيلة نصف الوقت عما كانت تتحدث، وذلك ما كانت تعتمد عليه، وسيقسم (القسم

الصارم) حتى دون أن يعلم بذلك» .

ـ «والدي يقسم (القسم الصارم) !» صاحت سكارلت .

ـ «كان قد أصبح ضعيف العقل جداً في الشهور الأخيرة ، وإني أظن أنها كانت تعتمد على ذلك . انتبهي ، لم يرتب أحد منا بأي شيء عن القضية ، لقد كنا نعرف أنها كانت تطبخ شيئاً ما ، ولكننا لم نكن نعرف أنها كانت تستخدم أمك الميتة لتؤنبه لكون بناته يرتدين الخرق ، بينما كان بوسعه أن ينال مائة وخمسين ألف دولار من الشماليين» .

ـ «مائة وخمسون ألف دولار» دمدمت سكارلت وقد خفت رهبتها من القسم .

ـ «أي مبلغ كبير من المال كان ذلك ! وأن يكون نيله مقابل التوقيع على قسم الولاء لحكومة الولايات المتحدة فقط ، قسم يقرر أن الموقع كان دائماً يساند الحكومة وأنه لم يقدم معونة أو نجدة لأعدائها ! مائة وخمسون ألف دولار ! تلك النقود الكثيرة مقابل تلك الكذبة الصغيرة ! إذاً لم يكن بوسعها أن تلوم سولين . يا لله العظيم ، أكان ذلك ما عناه ألكس بضرورة جلدها؟ وما عنته الولاية بعزمها على قتلها؟ إنهم حمقى ، جميعهم . أي شيء لم يكن بوسعها أن تفعله بذلك المال الوفير؟ ! أي شيء لم يكن بوسع أي من سكان الولاية أن يفعله به؟ ! وماذا كانت ستؤثر كذبة صغيرة كهذه؟ أضف إلى ذلك أن كل شيء تستطيع تحصيله من الشماليين كان مالاً حلالاً مهما كانت كيفية الحصول عليه .

ـ «وأمس ، قبيل الظهر ، عندما كنت وآشلي نكسر الخشب قضباناً ، أخذت سولين هذه العربة ووضعت والدك فيها وانطلقا إلى البلدة دون أن تنبس بكلمة لأي إنسان . وكان لدى الآنسة ميلي فكرة عما كان هدف سولين ، ولكنها كانت ترجو أن شيئاً ما سيغير رأيها ، ولذلك لم تقل شيئاً لأي منا . إنها لم تدرك أبداً كيف كان بوسع سولين أن تقدم على عمل كهذا . ولقد سمعت اليوم كل شيء عن الذي حدث ، إن ذلك الرجل الخسيس هلتون يتمتع ببعض النفوذ ، هو والسكالاوغز والجمهوريون الآخرون الذين في البلدة ، وكانت سولين قد وافقت على أن تعطيهم بعض النقود ـ ولست أعرف كم هو المبلغ ـ وذلك إذا ما أشاروا بغمزة عين إلى أن السيد أوهارا كان اتحادياً مخلصاً ، وأنه كان رجلاً إيرلندياً ولم يحارب في الجيش وغير ذلك ، ثم وقعوا على

توصيات . وكل ما كان على والدك فعله هو أن يتلو القسم ويوقع على الورقة ، ومن ثم تحمل إلى واشنطن .

وهكذا تمتموا بفحوى القسم بسرعة ، ولم يقل هو شيئاً ، وسارت الأمور على ما يرام إلى أن دعته للتوقيع عليه . وعندئذ رجع السيد العجوز إلى نفسه لحظة ، وهز رأسه ممتنعاً . أنا لا أعتقد أنه عرف حقيقة الأمر ، ولكنه لم يرغب فيه ، كما أن سولين كانت تقوده في الطريق الخاطئ أبداً . وعلى كل حال ، لقد أثارها موقفه تماماً بعد كل الجهد الذي بذلته ، فصحبته إلى خارج المكتب ، وأخذا يروحان ويجيئان في العربة على الطريق ، وهي تتحدث إليه عن أن أمك تصرخ عليه من القبر لأنه يدع بناتها يعانين الشقاء ، بينما كان بوسعه أن يؤمن لهن حاجاتهن ، وقد عرفت أن والدك جلس هناك في العربة وراح يبكي كالطفل ، كما كان يفعل دائماً عندما كان يسمع اسمها . ولقد رآهما كل من في المدينة ، وقصد ألكس فونتين إليهما ليرى ما في الأمر ، ولكن سولين أنبته وأخبرته أن يهتم بشأنه ، وهكذا ابتعد عنهما حانقاً .

أنا لا أعرف من أين جاءت بالفكرة ، ولكنها في إحدى الساعات بعد الظهر جاءت بقارورة براندي ، وعادت بالسيد أوهارا إلى المكتب وبدأت تصب له منها ، ولم نكن نملك أي مشروب في تارا منذ سنة ، اللهم إلا عرق ثمر العليق الذي تصنعه دلسي ، والذي لم يكن السيد أوهارا معتاداً عليه . وهكذا غدا مخموراً حقاً . وبعد أن كانت سولين قد ناقشت وتنكدت مدة ساعتين ، استسلم وقال نعم إنه سيوقع على أي شيء تريده . فأخرجوا القسم ثانية ، وما إن أوشك على وضع القلم على الورقة تماماً ، حتى ارتكبت سولين غلطتها ، إذ قالت (حسناً الآن ، أظن أن آل سلاتري وآل ماك أنتوش لن يتكبروا علينا !) وأنت تعرفين يا سكارلت أن آل سلاتري كانوا قد طلبوا تعويضاً بمبلغ كبير مقابل كوخهم الصغير الذي كان الشماليون قد أحرقوه ، وقد حصله لهم زوج إيمي من طريق واشنطن ، وأخبروني أنه عندما نطقت سولين بهذين الاسمين انتصب والدك بقامته ، وشمخ برأسه ، ونظر إليها شزراً ، ولم يعد ذاهلاً أبداً ، وقال :

- «هل وقع آل سلاتري وآل ماك أنتوش على وثيقة كهذه؟» .

وثارت عصبية سولين ، وقالت نعم ولا ، وتلعثمت ، وصاح هو بصوت مرتفع صاخب : «أخبريني هل وقع ذلك الأورانجي وذلك الأبيض الحقير ،

اللذان لعنهما الله ، على شيء كهذه؟» وتكلم ذلك الوغد هلتون بلهجة مهدئة وقال : «أجل يا سيدي ، لقد وقعا ونالا كومة من المال كما ستنال أنت» .

«وعندئذ خار السيد العجوز بخوار كخوار الثور سمعه ألكس فونتين من أسفل الشارع وهو في الحانة ـ على حد قوله ـ ثم قال بلهجة إيرلندية أصيلة واضحة : «وهل كنت تفكرين أن أوهارياً من تارا سيتبع الخطوات القذرة لأورانجي وأبيض حقير لعنهما الله؟» ثم مزق الورقة قطعتين ورماها في وجه سولين وصاح هائجاً : «أنت لست ابنتي» وخرج من المكتب حالاً .

وقال ألكس إنه رآه خارجاً إلى الشارع ، جامحاً كالثور . وقال إنه كان يبدو كشخصه السابق ، للمرة الأولى منذ وفاة والدتك . وأضاف إنه كان يترنح مخموراً ويشتم بأعلى صوته ، وقال ألكس إنه لم يسمع أبداً شتائم بذيئة كتلك . وكان حصان ألكس يقف هناك ، فامتطاه والدك دون استئذان ، وانطلق على صهوته بسحابة من الغبار كثيفة جداً بحيث كانت تخنق . وكان يشتم مع كل نفس يخرجه .

«وهكذا ، قرب الغروب ، بينما كنت جالساً وآشلي على الدرجة الأمامية ننظر نحو أسفل الطريق قلقين ، وكانت الآنسة ميلاني في الطابق العلوي ، تبكي في سريرها دون أن تشاء إخبارنا بشيء ، إذ بنا نسمع فجأة وقع حوافر في أسفل الطريق ، وأحد الناس يصيح كما لو كان يصيد ثعالب ، فقال آشلي : «إن ذلك لصوت غريب ! إنه يشبه صوت السيد أوهارا عندما كان يأتي إلى بيتنا قبل الحرب» .

«ثم رأيناه بعيداً عند طرف المرعى ، ولا بد أنه كان قد قفز عن السياج هناك . وانبرى يصعد التلة بسرعة مخيفة ، ويغني بأعلى صوته كأنه لم يكن يحمل هماً في هذه الدنيا . ولم أكن أعرف أن والدك يملك صوتاً كهذا . كان يغني ويضرب الحصان بقبعته ، وكان الحصان ينطلق كالمجنون ، ولم يجذب العنان عندما وصل قرب القمة ، وأدركنا أنه سوف يقفز عن سياج المرعى ، فهرولنا مسرعين خائفين حتى الموت . ثم صاح : «انظري يا إيلين ! راقبيني أقوم بهذه القفزة !» غير أن الحصان وقف فوراً مقعياً على وركيه عند السياج ولم يقفز ، بينما اندفع والدك ساقطاً على رأسه . لم يقاس أبداً ، وكان ميتاً عندما بلغناه ، وأظن أن السقطة كسرت عنقه . . .» .

40

مساء ذلك اليوم نامت سكارلت قليلاً، وعندما بزغ الفجر وراحت الشمس تزحف فوق الصنوبرات القائمة على التلال الشرقية، نهضت من سريرها وجلست على كرسي صغير قرب النافذة، ووضعت رأسها المتعب على ذراعيها، وسرحت نظرها عبر ساحة المخزن وبستان تارا باتجاه حقول القطن. كان كل شيء يبدو أخضر نضراً، ندياً صامتاً. وبعث بها منظر حقول القطن دفقاً من الفرح والعزاء لقلبها الكليم، فلقد كانت تارا تبدو عند الشروق مكاناً محبَّباً، معتنى به، مطمئناً، رغم أن سيدها كان مسجى على فراش الموت. وكان قن الدجاج، المصنوع من الخشب السميك، مطليّاً بالوحول كي يمنع دخول الجرذان وأبناء عرس، ولكنه كان مبيضاً نظيفاً، وهكذا كان الإصطبل. وكانت الحديقة بما فيها من صفوف القمح، ونبات القرع الأصفر اللألاء، وفول الليما واللفت، جيدة التعشيب، منظمة التسييج بقضبان السنديان. وكان البستان منظفاً من الشجيرات السفلية، ولم يكن ينمو تحت صفوف الأشجار سوى أزهار الأقحوان، وكانت أشعة الشمس الخفيفة المتلألئة تنعكس على حبات التفاح والدراق الأحمر ذي الفروة المختبىء جزئيّاً بين الأوراق الخضراء. وفيما وراء البستان، كانت صفوف القطن تمتد ساكنة خضراء تحت ذهب السماء. وكان البط والدجاج يتهادى ويتخطر وهو في طريقه إلى الحقول، لأنه كان يوجد تحت الشجيرات في التربة الطرية المحروثة أفضل الحشرات والديدان.

امتلأ قلب سكارلت بالعاطفة وعرفان الجميل لويل الذي كان قد قام بكل هذا العمل. ولم يكن بوسع إخلاصها لآشلي أن يجعلها تعتقد أنه كان مسؤولاً عن الكثير من هذا الوضع الجيد، لأن ازدهار تارا لم يكن من مهمة مزارع أرستقراطي، وإنما كان من عمل «مزارع صغير» كادح لا يكل، محب لأرضه. لقد كانت مزرعة لا تحوي غير حصانين ولم تكن مزرعة الأيام السالفة الفخمة، ذات المراعي المليئة بالبغال والخيول الجميلة، والقطن والذرة الممتدين على مدى البصر. غير أن الذي كان يوجد من تلك المزرعة الفخمة الآن كان في حالة جيدة، كما كان من الممكن أن تستصلح الفدادين المتروكة دون زراعة منها

عندما تتحسن الظروف ، وعندئذ ستكون أكثر خصباً بسبب استراحتها من الإنتاج .

لقد قام ويل بأكثر من مجرد زراعة فدادين قليلة ، إذ قد صد بثبات ذينك العدوين لمزارعي جورجيا : فواسق بذور الصنوبر ، وأشجار العليق الشائكة ، فلم تكن هذه النباتات قد استولت خلسة على الحديقة والمرعى وحقول القطن والمرجة ونمت جذوعها بوقاحة بجانب شرفات تارا ، كما كانت قد فعلت في مزارع عديدة لا تحصى في الولاية .

وسكت قلب سكارلت في إحدى خفقاته عندما فكرت ما كان أقرب تارا إلى العودة إلى أن تصبح أرضاً جدباء . أجل ، لقد قامت هي وويل بعمل عظيم ، لقد صدا الشماليين والكاربت بغرز وهجمات الطبيعة . وأعظم من كل هذا ، أن ويل كان قد أخبرها أنه ، بعد أن يجني القطن في الخريف ، فلن يعود بها حاجة إلى إرسال نقود . . . هذا إذا لم يشته أحد الكاربت بغرز الآخرين تارا وبرفع الضرائب كثيراً . وكانت سكارلت تعرف أن ويل كان سيتحمل عبئاً ثقيلاً بدون مساعدتها ، ولكنها أكبرت استقلاله واحترمته . وطالما أنه كان في مركز العون المستأجر ، كان سيأخذ نقودها ، غير أنه ، وقد كان الآن سيصبح صهرها ورجل البيت ، مصمم على أن يعتمد على جهوده الخاصة وحسب . أجل ، لقد كان ويل إنساناً أرسله الله لها .

*

ليلة أمس كان بورك قد حفر القبر ، قريباً من قبر إيلين . وكان يقف ، والمجرفة في يده ، خلف التراب الأحمر الرطب الذي كان سريعاً ما سيعيده إلى مكانه ، وكانت سكارلت تقف خلفه في بقع من ظلال شجرة أرز ملتوية ذات أغصان منخفضة ، وتحاول أن تبعد عينيها عن الحفرة الحمراء التي أمامها . وجاء جيم تارلتون وهيو مونرو الصغير وألكس فونتين وأصغر حفداء الرجل العجوز ماكري ، قادمين ببطء وارتباك على الجادة من البيت ، وهم يحملون ناووس جيرالد على لوحين طويلين من ألواح السنديان ، وخلفهم على مسافة سار صامتاً جمهور متعثر من الجيران والأصدقاء ، جمهور رث الثياب . وبينما كانوا يسيرون في الممر المشمس عبر الحديقة ، حنى بورك رأسه فوق مقبض المجرفة وشرع في البكاء ، ورأت سكارلت بدهشة طبيعية أن جعدات الشعر في رأسه ،

التي كانت سوداء فاحمة عندما ذهبت إلى أتلانتا منذ شهور قليلة ، قد أضحت الآن صهباء .

وشكرت سكارلت الله ، وهي خائرة القوى ، لأنها ذرفت كل دموعها في الليلة الفائتة ، ولذا كان باستطاعتها الآن أن تقف منتصبة القامة ، جافة العينين ، وأغاظها صوت دموع سولين الذي كان ينبعث من خلف كتفيها تماماً ، واضطرت إلى أن تشد قبضتيها لتمنع نفسها من الاستدارة وصفع وجه شقيقتها المنتفخ . لقد كانت هذه سبب وفاة والدها ، سواء أقصدت ذلك أم لم تقصده ، وكان ينبغي أن يكون لديها الحشمة الكافية لتكبح عاطفتها أمام الجيران ذوي الشعور العدائي لها . ولم يكن قد تكلم معها أحد في ذلك الصباح أو ألقى عليها نظرة مواساة ، بينما كان الجميع قد قبّلوا سكارلت وصافحوها ، كما دمدموا ببعض الكلمات لكارين ، وحتى لبورك ، ولكنهم نظروا عبر سولين كأنها لم تكن هناك .

كان المشيعون يتلوون من السخط ، غير أن الحزن كان قد هدهم ، خصوصاً ثلاثة منهم . . . ماكري الرجل العجوز الذي كان صديق جيرالد منذ جاء إلى الشمال من سافانا قبل سنين عديدة ، والجدة فونتين التي كانت تحبه لأنه كان زوج إيلين ، ثم السيدة تارلتون التي كانت أقرب إليه من أي شخص آخر من جيرانها ، لأنه ، كما كانت تصرح كثيراً ، كان الرجل الوحيد في الولاية الذي يعرف الحصان الفحل من المخصي .

كان مشهد وجوه هؤلاء الثلاثة الغاضبة في القاعة المعتمة التي سجي فيها جيرالد قبل الجنازة ، قد سبب بعض القلق لآشلي وويل ، فانسحبا إلى مكتب إيلين للمشاورة .

ـ «سيتفوه بعضهم بشيء عن سولين» قال ويل فجأة «إنهم يعتقدون أن لديهم الحق في أن يقولوا شيئاً ، وربما كان لديهم ذلك ، فليس من شأني أن أقرر هذا . ولكن يا آشلي ، سواء أكانوا على حق أم لا ، فعلينا أن نستنكر هذا العمل إن حدث ، لكوننا رجلي العائلة ، وذلك خشية أن تحدث متاعب . ولا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً مع الرجل العجوز ماكري ، لأنه أصم كعمود خشبي ولا يستطيع أن يسمع الناس وهم يسكتونه . وأنت تعرف أنه لم يحدث أن وجد إنسان في الدنيا استطاع منع الجدة فونتين من أن تصرح برأيها . وأما

بالنسبة إلى السيدة تارلتون . . . أما رأيتها تقلب عينيها الخمريتين كلما نظرت إلى سولين؟ إنها تبدو متحفزة وقلما تستطيع الانتظار . وإذا هم تفوهوا بشيء فعلينا أن ندحضه ، نحن الذين لدينا الآن متاعب جمة في تارا ، دون أن نكون على خصام مع جيراننا» .

ونظراً لعدم وجود كاهن ، كان على آشلي أن يقوم بالطقوس الدينية بمؤازرة كتاب عبادات كارين . أما مساعدة المبشرين المعمدانيين والنظاميين من جونسبورو فكانت قد رفضت بلباقة . وإذ كانت كارين كاثوليكية أكثر تعبّداً من شقيقتيها ، فقد اضطربت كثيراً لأن سكارلت لم تحضر معها كاهناً من أتلانتا . ولكنها ما لبثت أن هدأت قليلاً لأنها تذكرت أنه عندما سيأتي الكاهن لعقد قران ويل وسولين ، سيكون بوسعه أن يقرأ الصلوات على قبر أبيها ، وكانت هي التي عارضت قدوم المبشرين البروتستانت المجاورين ، وعهدت بالأمر إلى آشلي بعد أن أشارت إلى فقرات خاصة في كتابها كي يقرأها . وكان آشلي يعرف ، وهو متكئ على المنضدة العتيقة في مكتب إيلين ، أن مسؤولية منع حدوث المتاعب تقع عليه هو . ولما كان يعرف طباع الولاية النارية السريعة الغضب ، فإنه أضحى في حيرة فيما يتعلق بكيفية سيره في الأمر .

ـ «لا يوجد مفر منها يا ويل» قال وهو يجعد شعره اللماع ، «فأنا لا أستطيع أن أطرح الجدة فونتين أرضاً أو ماكري العجوز كذلك ، كما أنه لا يسعني أن أرفع يدي على فم السيدة تارلتون . وإن ألطف الأشياء التي سيقولونها هي أن سولين مجرمة وخائنة ، وأنه لولاها لكان السيد أوهارا ما زال حيّاً . ليلعن الله عادة التحدث على قبر الميت هذه ، إنها عادة همجية» .

ـ «اسمع يا آشلي» قال ويل «أنا لا أنوي أن أترك إنساناً يتفوه بشيء ضد سولين ، مهما كانوا يفكرون . فدع الأمر لي ، وعندما تفرغ من القراءة والصلاة وتقول «إن كان أحد منكم يريد أن يتكلم بضع كلمات» انظر إلي مباشرة كيما أستطيع أن أتكلم أولاً» .

على أن سكارلت ، التي كانت تتأمل الصعوبة التي كان يلاقيها حاملو بساط الرحمة في إدخال الناووس عبر المدخل الضيق إلى أرض المقبرة ، لم يكن لديها أي فكرة عن المتاعب التي ستنشأ بعد الدفن . لقد كانت تفكر بقلب موحش أنها كانت تدفن بدفن أبيها أحد الروابط الأخيرة التي كانت تربطها بالأيام

القديمة ، أيام السعادة وراحة البال .

وأخيراً أنزل حملة بساط الرحمة الناووس قرب القبر ، ووقفوا يطوون وينشرون أصابعهم المتألمة ، بينما اصطف آشلي وميلاني وويل في الباحة خلف بنات أوهارا ، ووقف خلفهم جميع الجيران الأقربين الذين استطاعوا أن يحتشدوا في الباحة ، أما الآخرون فوقفوا خارج الحائط الآجري . وقد أدهش عددهم الكبير سكارلت وأذهلها ، وهي التي كانت تراهم لأول مرة في الحقيقة .

وسكنت قرقعة الأقدام ، ورفعت القبعات ، وانثنت الأيدي ، وصمت حفيف التنانير عندما خطا آشلي أماماً وهو يحمل في يده كتاب عبادات كارين البالي ، ثم وقف ينظر دقيقة إلى الأسفل والشمس تنعكس متلألئة على رأسه الذهبي . وخيم سكون عميق على الجمهور ، سكون عميق جداً بحيث أن خفقان الريح الأجش بين أوراق المانيوليا بلغ مسامعهم جليّاً ، كما أن الزقزقة البعيدة المتكررة لطير الحداء بدت مرتفعة حزينة إلى درجة لا تحتمل .

وبدأ آشلي يتلو الصلوات ، وانحنت جميع الرؤوس عندما ردد صوته الرخيم الرنان الكلمات المهيبة الموجزة .

ـ «آه» فكرت سكارلت وحلقها ينقبض «ما أبدع صوته ! إذا كان لا بد من أن يقوم إنسان بهذا العمل من أجل والدي ، فأنا سعيدة بأن هذا الإنسان هو آشلي . إني أفضله على كاهن . إني أفضل أن يدفن والدي من قبل أحد أفراد جماعته على أن يتم ذلك على يد إنسان غريب» .

وعندما بلغ آشلي في صلاته الجزء المتعلق بالأرواح في المطهر ، ذلك الجزء الذي كانت كارين قد أشارت إليه ليقرأه ، أغلق الكتاب فجأة . ولكن لم يلاحظ أحد عملية حذف بقية الصلاة سوى كارين التي تطلعت مشدوهة . وكان آشلي يعرف أن نصف الناس الحاضرين لم يكونوا قد سمعوا بالمطهر ، أما أولئك الذين كانوا قد سمعوا به ، فسيعتبرونها كإهانة شخصية إن هو ألمح ، حتى في الصلاة ، إلى أن رجلاً طيّباً جداً كالسيد أوهارا لم يذهب إلى السماء مباشرة .

وعندما انتهى آشلي من الصلاة ، فتح عينيه الرماديتين الحزينتين واسعاً ، وتطلع إلى الحشد ، وبعد هنيهة صامتة ، وقعت عيناه على عيني ويل وقال «هل

يوجد بين الحضور من يريد أن يلقي كلمة؟» .

فانتفضت السيدة تارلتون بعصبية ، ولكن قبل أن تستطيع التقدم ، كان ويل قد خطا إلى الأمام ، ووقف عند رأس الناووس وشرع بالتكلم :

ـ «أيها الأصدقاء» بدأ بصوته الخفيض الخافت «من المحتمل أنكم تظنون أني أتجاوز مقامي لأني تقدمت للكلام أولاً ـ أنا الذي لم أعرف السيد أوهارا إلا منذ سنة تقريباً ، بينما أنتم جميعاً تعرفونه منذ عشرين سنة أو أكثر ، ولكن إليكم حجتي ، لو أنه عاش لشهر آخر أو أكثر قليلاً ، لكان أصبح من حقي أن أدعوه عمي» .

فسرت بين الجمهور حركة ذاهلة . لقد كانوا مهذبين جداً بحيث لم يهمسوا ، إلاّ أنهم بدلوا مواضع أقدامهم ، وتطلعوا إلى رأس كارين المطرق ، فلقد كان الجميع يعرفون إخلاصه الصامت لها . وعندما رأى ويل وجهة أنظارهم ، تابع حديثه وكأنه لم يلحظ شيئاً .

ـ «ولما كنت سأتزوج الآنسة سولين حالما يصل الكاهن من أتلانتا اعتقدت أن ذلك يمكن أن يمنحني حق التكلم أولاً» .

وضاع الجزء الأخير من حديثه في طنين خافت سرى بين المجتمعين ، طنين غاضب كدوي النحل . وكان يشوب الطنين نغمة سخط وخيبة . لقد كان الجميع يحبون ويل ويحترمونه جزاء ما قدمت يداه لتارا ، وكان الجميع يعرفون أن عواطفه مع كارين ، ولذلك وقع نبأ رغبته في التزوج بمنبوذة الولاية بدلاً منها موقعاً سيئاً في نفوسهم . ويل العجوز الطيب يتزوج سولين أوهارا الصغيرة الخسيسة تلك !

ولهنيهة ، ظل الجو متوتراً ، وشرعت عينا السيدة تارلتون تبرقان وشفتاها تصوغان كلمات عديمة الصوت . وخلال ذلك الصمت ، كان يمكن سماع صوت الرجل العجوز ماكري ، وهو يتوسل إلى حفيده كي ينبئه عما قيل . وواجه ويل الجميع ، وما زال وجهه وديعاً ، ولكن كان في عينيه الزرقاوين الشاحبتين شيء يتحداهم جميعاً في أن يقولوا كلمة واحدة عن زوجته المستقبلية . وللحظة ظل الميزان متأرجحاً بين الشعور الوفي الذي يكنه الجميع لويل ، وبين ازدرائهم لسولين ، وفاز ويل فتابع الحديث وكأن صمته كان توقعاً طبيعياً .

ـ «لم أكن أعرف السيد أوهارا وهو في الذروة، كما كنتم تعرفونه. وكل ما عرفته فيه، شخصياً، هو أنه كان سيداً نبيلاً مسناً، شارد الذهن قليلاً. ولكني سمعتكم جميعاً تتحدثون عما كان في ماضيه. وأنا أريد أن أقول ما يلي: لقد كان السيد أوهارا إيرلندياً مكافحاً، وسيّداً جنوبياً، وحلفيّاً مخلصاً كأعظم الحلفيين إخلاصاً في الوجود، وليس بوسعكم أن تجدوا مجموعة صفات كهذه، وليس من المحتمل أن نرى الكثير من أمثاله، لأن الأوقات التي ولدت رجالاً مثله أضحت ميتة مثله. لقد ولد في بلاد غريبة، ولكن الرجل الذي نحتفل بدفنه هنا اليوم كان جورجياً أكثر من أي منا نحن الذين نشيعه. لقد عاش عيشتنا وأحب بلادنا، وعندما تتحرون الحقيقة، تجدون أنه مات من أجل قضيتنا، تماماً كما فعل الجنود. لقد كان واحداً منا، وكان يتحلى بعاداتنا الطيبة، ويتصف بعاداتنا الخبيثة، وكان ينعم بقوتنا، ويتميز بضعفنا. كان يتحلى بعاداتنا الطيبة من حيث أنه لم يكن يخاف من أي مخلوق يمشي في حذاء جلدي، ولذا لم يكن هناك أي شيء خارجي يستطيع أن يسحق روحه.

«فهو لم يخش الحكومة الإنكليزية عندما قررت إعدامه، وإنما انسل خارجاً وغادر وطنه. وعندما أتى إلى هذه البلاد، وكان فقيراً، لم يخفه ذلك مثقال ذرة، بل اندفع إلى العمل وجمع ثروته. كما أنه لم يخش أن يستقر في هذا الإقليم، يوم كان هذا الإقليم مقفراً، وكان الهنود الأورويون قد غادروه حديثاً، فأبدع مزرعة كبيرة من أرض قفراء. وعندما نشبت الحرب وأخذت نقوده بالنفاد، لم يخش أن يصبح فقيراً ثانية، وعندما اجتاح الشماليون تارا، وكان يمكن أن يحرقوها أو يقتلوه، لم يضطرب أبداً ولم تضعف معنوياته، بل ثبت قدميه وظل في أرضه. وذلك هو السبب الذي قلت لأجله إنه كان يتحلى بعاداتنا الطيبة، فليس هناك أي شيء خارجي يمكن أن يسحق أياً منا».

وصمت ويل قليلاً، وطافت عيناه في دائرة الوجوه حوله، كان الحشد يقف في الشمس الحارة، وكأنه مسمر بالأرض، وقد نسي كل ما كان يشعر به من سخط على سولين. واستقرت عينا ويل على سكارلت، وزوتا قليلاً عند المآقي، كأنه يبتسم في قلبه مواساة لها، وأحست سكارلت، التي كانت تكافح لتمنع دموعها المنحبسة من الانبجاس، بالعزاء. لقد كان ويل يتحدث حديثاً معقولاً، بدلاً من جعجعة طويلة عن جمع الشمل في عالم أفضل آخر،

وإخضاع إرادتها لمشيئة الله . وكانت سكارلت تجد العزاء والقوة في المنطق السليم دائماً .

ـ «وأنا لا أريد أن يقلل أي منكم من اعتباره للفقيد لأنه توفي على تلك الصورة ، فجميعكم ، وأنا أيضاً ، مثله ، نتصف بالضعف والنقائص ذاتها . ليس هناك مخلوق يمشي يستطيع أن يسحقنا أكثر مما استطاع سحقه ، لا الشماليون ، ولا الكاريت بغرز ، ولا الأوقات الصعبة ، ولا الضرائب المرتفعة ، حتى ولا المجاعة العامة . ولكن ذلك الضعف الكامن في قلوبنا يستطيع وحده أن يهزمنا ما بين فتحة عين وغمضتها . وليس فقدان إنسان حبيب هو دائماً السبب في ذلك ، كما حدث للسيد أوهارا ، فالدوافع الأصيلة تختلف في الناس . وإني أريد أن أقول هذا : إن الناس الذين تثور دوافعهم يموتون ميتة أفضل من الآخرين ، وليس لهؤلاء مكان في الدنيا هذه الأيام ، وهم أسعد في مماتهم منهم في حياتهم . . . وهذا هو السبب في قولي إنكم جميعاً لا تملكون داعياً للحزن على السيد أوهارا الآن ، فوقت الحزن قد مضى عندما جاء شيرمان وفقد الراحل زوجه السيدة أوهارا . أما الآن وقد غادرنا جسده ليتصل بقلبه ، فأنا لا أرى سبباً لأن نندبه ، ما لم نكن أوغاداً في منتهى الأنانية . والذي يقول ذلك هو أنا الذي أحببته كما لو كان والدي . . ولن تلقى كلمات أخرى إذا كنتم أيها الناس لا تمانعون في ذلك ، لأن العائلة في كرب عظيم بحيث لا تستطيع الإصغاء ، ولن يكون عملنا رفيقاً بهم» .

وصمت ويل ، والتفت إلى السيدة تارلتون وخاطبها بصوت أقل ارتفاعاً من سابقه : «إني لأتساءل عما إذا لم يكن بوسعك أن تأخذي سكارلت إلى البيت يا سيدة؟ فليس من الصواب أن تقف في الشمس هذه المدة الطويلة؟ ومع احترامي للجدة فونتين فإنها لا تبدو نشيطة جداً للقيام بهذا العمل» .

تخضب وجه سكارلت من الانفعال عندما تحولت جميع الأنظار إليها ، وقد أجفلها هذا الانتقال المفاجئ من التأبين إلى شخصها . لماذا كان لا بد لويل من أن يشهر بحبلها الذي غدا جلياً آنذاك؟ ورمته بنظرة حيية ساخطة ، إلا أن نظرة ويل المطمئنة جعلتها تغض الطرف .

«أرجوك» قالت نظرته «إني أعرف الذي أفعله» .

لقد أصبح الآن رب البيت ، ولذلك استدارت سكارلت نحو السيدة تارلتون

وهي عديمة الحيلة وغير راغبة في أن تقدم مشهداً للناس . أما السيدة تارلتون التي صرفت فجأة ، كما قصد ويل ، عن الأفكار المتعلقة بسولين إلى موضوع التناسل الأخاذ أبداً ، سواء أكان يتعلق بالحيوان أو الإنسان ، فقد أخذت ذراع سكارلت قائلة :

«هيا تعالي إلى البيت يا حلوتي» .

سار ثلاثتهن ببطء بين الجمهور الذي انضمت صفوفه خلفهن ، ثم صعدن الممشى المظلل باتجاه البيت . وكانت يد السيدة تارلتون المعينة الغيور قوية جداً تحت إبط سكارلت ، بحيث كادت ترفعها عن الأرض عند كل درجة .

ـ «أخبريني ، لماذا فعل ويل ذلك؟» صاحت سكارلت محتدة وقد أصبحن خارج دائرة الأسماع «فقد قال بصورة عملية (انظروا إليها ، إنها ستضع وليداً !)» .

ـ «طبعاً ، إن ذلك صحيح . أليس كذلك؟» قالت السيدة تارلتون «لقد فعل ويل الصواب ، فقد كان من الغباء أن تقفي في الشمس الحارة ، في حين كان يمكن أن يغمى عليك وتجهضي» .

ـ «لم يكن ويل قلقاً على إجهاضها» قالت الجدة ، منقطعة النفس قليلاً وهي تكدح عبر الساحة الأمامية نحو الدرجات ، وقد شعت ابتسامة متجهمة واعية في وجهها «إن ويل رجل حاذق ، فلم يكن يريدك أنت أو أنا يا بياتريس أن نلقي كلمة على الضريح ، لأنه كان يخشى ما كان يمكن أن نقوله ، وقد أدرك أن هذه هي الوسيلة ليتخلص منا .

ـ «ينبغي أن تأوي سكارلت إلى فراشها» أصرت السيدة تارلتون وهي تميزها بنظرها ، بهيئة امرأة خبيرة حسبت مدة الحمل حتى آخر دقيقة منها .

ـ «هيا اذهبي» قالت الجدة ، ووخزتها بعصاها . وسارت السيدة تارلتون نحو المطبخ ، وألقت قبعتها باستهتار ، ومررت يديها في شعرها الأحمر الرطب .

استلقت سكارلت في كرسيها وفكت الزرين العلويين في قميصها الضيق . كان الجو معتماً معدل المناخ في القاعة المرتفعة السقف ، وكان تيار الهواء العابث الذي يجري من مؤخرة البيت إلى مقدمته منعشاً بعد حرارة الشمس . ونظرت سكارلت عبر القاعة إلى الردهة ، حيث كان جيرالد قد أسجي ، ثم انحرفت بأفكارها عنه ، وتطلعت إلى صورة الجدة روبلارد المعلقة فوق الموقد ،

فكان لتلك الصورة المجرحة برؤوس النصال، المتجلية بشعر صاحبتها المجموم عالياً، وبثدييها نصف العاريين، وبعجرفتها الباردة، كان لها تأثير مقو في سكارلت.

ـ «أنا لا أعرف أيهما آلم بياتريس تارلتون أكثر: فقدان أبنائها أم فقدان خيولها» قالت الجدة فونتين، فهي لم تكن أبداً تعير اهتماماً كبيراً لجيم أو لبناتها كما تعرفين. إنها إحدى هؤلاء الناس الذين كان ويل يتحدث عنهم. لقد انهارت دوافعها الأصيلة، وإني لأتساءل أحياناً عما إذا لم يكن سيصيبها ما أصاب والدك من الذهول. فهي لم تكن سعيدة في أي يوم ما لم تكن الخيول والناس تتوالد أمام ناظريها مباشرة، وأن واحدة من بناتها لم تتزوج أو تأمل بالظفر بزوج في هذه الولاية، ولذا فليس لديها شيء ليشغل عقلها، ولو لم تكن كذلك في قلبها لكانت امرأة عامية تماماً... أكان ويل يقول الحقيقة عن زواجه بسولين؟».

ـ «أجل»، قالت سكارلت وهي تحدق في عين السيدة العجوز تحديقاً.

ـ «لقد كان بوسعه أن يفعل أفضل من ذلك» قالت الجدة بصراحة.

ـ «حقاً؟» قالت سكارلت بكبرياء.

ـ «انزلي عن كبريائك يا آنسة» قالت السيدة العجوز محتدة «أنا لن أنتقد شقيقتك الغالية، مع أنه كان يمكن أن أفعل ذلك لو أني بقيت عند المقبرة. إن ما أقصده هو أنه نظراً لندرة الرجال في المنطقة، فإن بوسع ويل أن يتزوج أي فتاة تقريباً، فهناك بنات بياتريس الأربع الشبيهات بالقطط البرية، وبنات مونرو وماكري...».

ـ «سيتزوج سولين، وهذا كل ما في الأمر».

ـ «إنها سعيدة الحظ به».

ـ «إن تارا سعيدة الحظ به».

ـ «إنك تحبين هذا المكان، أليس كذلك؟».

ـ «أجل».

ـ «تحبينه كثيراً بحيث أنك لا تكترثين بأن تتزوج شقيقتك رجلاً من غير طبقتها طالما أن هذا الرجل يستطيع أن يعتني بتارا؟».

ـ «طبقة؟» قالت سكارلت وقد أذهلتها الفكرة «طبقة؟ ماذا تهم الطبقة الآن!

طالما أن الفتاة تحصل على زوج يستطيع الاعتناء بها؟» .

ـ «تلك مشكلة فيها نظر» قالت السيدة العجوز «سيقول بعض الناس إنك تتكلمين كلاماً معقولاً ، وسيقول آخرون إنك تخفضين الحواجز التي ينبغي أن لا تخفض مقدار بوصة واحدة . من الأكيد أن ويل ليس من الفئة الممتازة ، بينما كان بعض أهلك منهم ، وهكذا فأنت ترضين عن انتماء ويل إلى عائلتك» .

ـ «أجل» أجابت سكارلت بحدة .

ـ «يمكنك أن تقبليني» ، قالت الجدة بصورة تدعو للدهشة ، ثم ابتسمت ابتسامة تنم عن أعظم استحسان «أنا لم أحبك كثيراً إلا الآن يا سكارلت ، فلقد كنت دائماً صلبة صلابة قشرة جوزة الهند حتى وأنت طفلة ، وأنا لا أحب الفتيات الصلبات ، باستثناء نفسي . إلا أنني أحب الطريقة التي تواجهين بها الأمور ، فأنت لا تقيمين ضجة حول الأمور التي لا يمكن تجنبها ، حتى ولو كانت غير موافقة . إنك تحفظين نفسك بدقة كصياد ماهر» .

ابتسمت سكارلت بارتياب وأطاعت العجوز فطبعت قبلة على وجنتها المتغضنة . كان من المبهج أن تسمع كلمات الاستحسان ثانية ، حتى ولو كانت تملك بعض الفكرة عما كانت تعني تلك الكلمات .

ـ «هناك كثير من الناس في هذه الأنحاء ممن سيكون لديهم بعض ما يقولونه عنك لأنك سمحت لسولين أن تتزوج بكريكر ، رغم أن الجميع يحبون ويل . إنهم سيقولون بلهجة واحدة «ما أجمله من رجل وما أفظعها بالنسبة إلى فتاة أوهارية أن تتزوج من طبقة أقل منزلة من طبقتها . ولكن لا تدعي الأمر يزعجك» .

ـ «أنا لم يزعجني كلام الناس أبداً» .

ـ «هذا ما سمعت به» . وشاب الصوت الهرم نغم حاد «حسناً ، لا تنزعجي مما يقوله الناس . من المحتمل أن يكون زواجاً ناجحاً . طبعاً سيكون ويل مفيداً لسولين وتارا» .

ـ «إذاً لقد استحسنت عملي لأني سمحت له بالزواج بها» .

ـ «يا الله ، لا !» كان الصوت المسن تعباً مريراً ولكنه كان عنيفاً «أستحسن أن يتزوج الكريكرز من العائلات العريقة؟ باه ! هل أستحسن زواج الأدنياء من

كرام الأصل؟ آه ، إن الكريكرز طيبون وصلاب وأمناء ولكنهم . . .» .

- «ولكنك قلت إنك تظنين أنه سيكون زواجاً ناجحاً!» صاحت سكارلت مذهولة .

- «إني أظن أنه نجاح بالنسبة إلى سولين ، في أن تتزوج ويل - في أن تتزوج أي إنسان ، بسبب تلك القضية ، لأنها تحتاج إلى زوج حاجة ملحة . ومن أي مكان آخر كانت تستطيع الحصول على زوج؟ ومن أي مكان آخر تستطيعين الحصول على مدير ماهر لتارا؟ ولكن ذلك لا يعني أني أستحسن هذه الوضعية أكثر مما تستحسنيها أنت» .

- «ولكني أستحسنها» هجست سكارلت ، وهي تحاول أن تفهم معنى حديث السيدة العجوز «وإني سعيدة لأن ويل سيتزوجها» .

- «أنا لا أستحسن هذا الزواج أكثر مما تستحسنينه أنت ، ولكني امرأة عملية ، وكذلك أنت . وعندما يصل الأمر إلى قضية غير سارة ، ولا يمكن تجنبها ، فإني لا أجد أي معنى في الضجيج والرفس حولها ، فليست تلك هي الطريقة المثلى لمواجهة مراقي الحياة ودركاتها . إني أعرف ذلك لأن عائلتي وعائلة الدكتور العجوز خبرتا من تقلبات الدهر أكثر مما كان نصيبنا منها ، وإذا كان لدينا نحن الناس شعار ما فهو هذا : «لا تضج - ابتسم وانتظر فرصتك» . لقد تخطينا كثيراً من العقبات بهذه الطريقة ، نبتسم وننتظر فرصتنا . لقد كان علينا أن نكون بارعين في تخطي العقبات ، أجل ، لقد كان علينا ذلك . لقد راهنا على الخيول الخاسرة دائماً ، هربنا من فرنسا وهربنا من إنكلترا مع الملكيين ، وهربنا من اسكتلندا مع الأمير شارلي الصغير ، وهربنا من هايتي بسبب الزنوج ، وها نحن الآن يهزمنا الشماليون . ولكننا دائماً ، نعود إلى القمة في سنين قليلة ، أتعرفين لماذا؟» .

ورفعت رأسها خيلاء ، وفكرت سكارلت أنها لم تكن تشبه شيئاً أكثر من شبهها ببغاء عجوز عليم .

- «لا ، لا أعرف ، إني أؤكد لك» أجابت بأدب ، ولكنها كانت مكتظة قلبياً ، تماماً كما كانت ذلك اليوم ، عندما حثت الجدة ذكرياتها عن ثورة الوادي .

- «حسناً ، هذا هو السبب ، إننا نرضخ للذي لا يمكن تلافيه ، فنحن لسنا قمحاً وإنما حنطة سوداء ! عندما تهب عاصفة ، فإنها تعصف بالقمح الناضج

لأنه يكون جافاً ولا يستطيع الانحناء للريح ، بينما الحنطة السوداء الناضجة تحوي عصارة ولذلك تنحني ، وبعد أن تمر الريح تنتصب مستقيمة قوية ، كما كانت من قبل تقريباً . نحن لسنا عشيرة عنيدة ، نحن لينون للغاية ، عندما تهب ريح عاصفة ، لأننا نعرف أن من الأفضل للمرء أن يكون ليّناً . وعندما تأتي المتاعب ، ننحني لما لا يمكن تجنبه دون أي تذمر ، ونعمل ونبتسم وننتظر فرصتنا ، ونتعامل مع من هم أقل منا ، ونأخذ ما نستطيع أخذه منهم ، حتى إذا ما أضحينا أقوياء كما ينبغي ، نركل الناس الذين صعدنا على رقابهم . ذلك يا بنيتي هو سر البقاء» وبعد برهة صمت أضافت «إني أقدم هذا الشعار لك» .

ـ «لا يا سيدتي» أردفت السيدة العجوز «لقد سحق شعبنا ولكنه سينهض ثانية ،وإن ذلك أكثر مما أستطيع أن أقوله بالنسبة إلى أناس كثيرين ليسوا بعيدين جداً عن هذا المكان . انظري إلى كاثلين كالفرت ، إن بوسعك أن تري إلام وصلت ، مجرد بيضاء فقيرة ! وأقل قدراً بكثير من الرجل الذي تزوجته ، انظري إلى آل ماكري ، إنهم معدمون على الأرض ، عديمو الحيلة ، لا يعرفون ما يفعلون ، لا يعرفون كيف يقدمون على أي شيء ، وحتى إنهم لا يحاولون عمل شيء ، إنهم يبددون وقتهم بالنواح على الأيام السعيدة القديمة . ثم انظري إلى . . حسناً ، انظري إلى أي إنسان في هذه الولاية تقريباً ، باستثناء ألكس وابنتي سالي وأنت وجيم تارلتون وبناته وبعض الآخرين ، لقد انهار الباقون لأنهم لم يكونوا يملكون المهارة لينهضوا ثانية . لم يكن هؤلاء الناس يملكون سوى المال والزنوج ، والآن وقد ذهب المال والزنوج سيغدون كريكرز في جيل قادم» .

ـ «لقد نسيت الويلكسيين» .

ـ «لا ، أنا لم أنسهم وإنما فكرت فقط أن أكون مهذبة فلا أذكرهم في وقت أرى فيه آشلي ضيفاً تحت هذا السقف . ولكن وقد ذكرت اسمهم ـ انظري إليهم ! فهناك إنديا التي أضحت ، بناء على ما سمعت ، عانساً عجوزاً جافة ، تضفي على نفسها كل مظاهر الترمل لأن ستيوارت تارلتون قتل ، ولا تبذل أي جهد في سبيل نسيانه ومحاولة صيد رجل آخر . طبعاً إنها مسنة ، إلا أن بوسعها اصطياد رجل أرمل ذي عائلة كبيرة إذا هي حاولت ، وكذلك هوني المسكينة ، كانت دائماً فتاة حمقاء ، مجنونة على رجل ، ولا تملك إدراكاً أوسع

من إدراك دجاجة غينياوية . وأما بالنسبة إلى آشلي ، فتأمليه !» .

ـ «إن آشلي رجل رائع جداً» قالت سكارلت بحماسة .

ـ «أنا لم أقل أبداً إنه ليس كذلك ، ولكنه عديم الحيلة كسلحفاة مقلوبة على ظهرها . وإذا ما قدر لآل ويلكس أن يجتازوا هذه الظروف الصعبة فستكون ميلي هي التي ستجعلهم يجتازونها ، وليس آشلي» .

ـ «ميلي ، يا لله أيتها الجدة ! عم تتحدثين؟ لقد عشت مع ميلي مدة كافية لأعرف أنها امرأة سقيمة جبانة ، وليس لديها الحذق الكافي لتقول (بو) لإوزة» .

ـ «لأي سبب في الوجود ينبغي لأي إنسان أن يقول (بو) لإوزة؟ إن ذلك يبدو لي دائماً كهدر للوقت ـ فمن الممكن أن لا تقول (بو) لإوزة ، ولكنها تقول (بو) للدنيا ولحكومة الشماليين أو لأي شيء آخر يهدد آشليها الغالي أو ابنها أو آراءها عن النبل . إن طريقها ليس طريقك يا سكارلت أو طريقي أنا ، إنها الطريق التي كانت أمك ستسلكها لو أنها بقيت حية . إن ميلي تذكرني بأمك عندما كانت صبية . . وربما جعلت آل ويلكس يجتازون المحنة» .

ـ «ها ، إن ميلي مجرد حمقاء صغيرة حسنة النية . ولكنك غير منصفة أبداً بحق آشلي ! . . إنه . . .» .

ـ «ها ! لقد خلق آشلي ليقرأ الكتب ، لا لشيء آخر ، الأمر الذي لا يساعد الرجل في اجتياز مأزق صعب كهذا الذي نرزح فيه الآن . وبناء على ما أسمع ، إنه أسوأ حراث في الولاية ! قارنيه بابني ألكس وحسب ! لقد كان ألكس قبل الحرب أتفه مدلّل في الدنيا ولم يكن ليفكر في غير ربطة عنق جيدة ، والشرب حتى الثمالة ، وقتل إنسان ، ومطاردة البنات اللواتي لم يكن أفضل مما كان ينبغي لهن أن يكن . ولكن انظري إليه الآن ! لقد تعلم الزراعة لأنه كان عليه أن يتعلم وإلا لتضور وتضورنا جوعاً . . إنه ينتج الآن أحسن قطن في الولاية ـ أجل يا آنسة ، إنه أحسن بكثير من قطن تارا ! ـ وهو يعرف ماذا يفعل بالخنازير والدجاج . ها ، إنه شاب رائع رغم طبعه السيئ . إنه يعرف كيف ينتظر فرصته ، ويتغير مع الأساليب المتغيرة ، وعندما تنتهي مأساة هذا التجديد كله ، ستجدين ابني ألكس رجلاً غنياً كما كان والده وجده ، بينما آشلي . .» .

كانت سكارلت متكدرة من ازدراء الجدة لآشلي ولذلك أجابت ببرود :

ـ «إن كل ما تقولينه يبدو جعجعة بالنسبة إلي» .

ـ «الواقع أنه ينبغي أن لا يبدو لك كذلك» قالت الجدة وصوبت نظرة حادة إليها «لأنه هو النهج ذاته تماماً الذي كنت تسيرين عليه منذ ذهبت إلى أتلانتا . أجل ! إننا نسمع بمخازيك ، حتى لو كنا مدفونين هنا في الريف . لقد تغيرت مع الأوقات المتغيرة كذلك . نحن نسمع كيف تمالئين الشماليين والبيض الحقيرين والكاربت بغرز الحديثي الثراء ، لأجل أن تكسبي المال منهم . إن الزبدة لا تذوب في فمك حسب ما أسمع . على كل حال ، إني أقول لك تابعي طريقك ، وحصلي كل سنت تستطيعين تحصيله منهم . ولكن عندما يصبح في حوزتك مال كاف اركليهم في وجوههم ، لأنهم لا يخدموك أكثر من ذلك . وتأكدي من أنك ستقدمين على هذا العمل ، وستقدمين عليه كما يجب ، لأن التراب العالق على أطراف معطفك يستطيع أن يسحقك» .

فنظرت سكارلت إليها وجبينها متغضن بما كانت تبذله من جهد كي تستوعب كلام الجدة الذي ما زال لا يعني كثيراً ، وكانت لا تزال حانقة لأن آشلي كان قد دعي سلحفاة مقلوبة على ظهرها .

ـ «أعتقد أنك مخطئة فيما يتعلق بآشلي» .

ـ «سكارلت ، أنت لست ذكية أبداً» .

ـ «ذلك هو رأيك» قالت سكارلت بوقاحة ، وهي تتمنى أن لو كان من المسموح صفع خدود السيدات المسنات .

ـ «ها ، أنت ذكية جداً فيما يتعلق بالدولارات والسنتات وذلك هو أسلوب الرجل في أن يكون ذكياً ، ولكنك لست ذكية أبداً كامرأة . أنت لست ذكية مثقال ذرة فيما يتعلق بالناس» .

وشرعت عينا سكارلت تنفثان النار ، ويداها تنقبضان وتنفتحان .

ـ «لقد جعلتك طيبة ومجنونة ، أليس كذلك؟» سألت السيدة العجوز وهي تبتسم «الواقع أني قصدت أن أفعل ذلك الشيء تماماً بك» . .

ـ «لقد فعلت ، أليس كذلك؟ ولكن لماذا ، أرجوك؟» .

ـ «إن لدي أسباباً كثيرة وجيهة» .

واسترخت الجدة في كرسيها ، وتبينت سكارلت فجأة أنها كانت تبدو تعبة جداً ، ومسنة جداً إلى درجة لا يمكن تصديقها . وزاول الغضب قلب سكارلت

عندما راودتها فكرة ، فانحنت وأخذت إحدى يدي الجدة في يديها .

ـ «أنت عجوز كذابة رائعة جداً» قالت «إنك لم تكوني تعنين كلمة من كل هذا الهذر . لقد كنت تتكلمين لتبعدي تفكيري عن والدي فقط» .

ـ «لا تعبثي معي !» قالت السيدة العجوز متذمرة ، منتزعة يدها بعيداً . «من أجل ذلك السبب من جهة ، ولأن الذي كنت أقوله لك هو الحقيقة من جهة أخرى . على أنك غبية جداً بحيث لم تتبيّني ما كنت أعنيه» .

ولكنها ابتسمت قليلاً ، بحيث خففت لذعة كلماتها ، بينما فرغ قلب سكارلت نفسه من السخط الناجم بسبب آشلي . لقد كان من الجميل أن تعرف أن الجدة لم تكن تعني كلمة مما قالت .

ـ «أشكرك على كل حال ، لقد كان من الجميل أن تتحدثي إليّ ـ وإني سعيدة لأنك تؤيدينني فيما يتعلق بويل وسولين ، حتى ولو ـ حتى ولو أن كثيراً من الناس الآخرين يستنكرون ذلك» .

وواجهت عينا سكارلت عيني الجدة . كان هناك في العينين المسنتين بريق ماكر وجد جواباً في عينيها الخضراوين .



سكارلت ترقص مع ريت
بعد وفاة زوجها

41

بعد الدفن ، عندما ألقيت تحية الوداع الأخيرة ، وتلاشى صوت العجلات والحوافر ، دخلت سكارلت إلى مكتب أمها ، وأخرجت شيئاً براقاً من حيث كانت قد خبأته في الليلة السابقة ، بين الأوراق المصفرة في خانات المنضدة . وعندما سمعت بورك ينشق في غرفة الطعام ، وهو منهمك في إعداد مائدة العشاء ، نادته . فجاءها ووجهه الأسود قانط .

ـ «بورك» قالت بجفاء «إذا ما بكيت مرة أخرى فقط فسأ ـ فسأبكي أنا أيضاً ، ينبغي أن تكف عن البكاء» .

ـ «سمعاً وطاعة . إني أحاول ، ولكن كلما أحاول كلما أفكر بالسيد جيرالد وـ » .

ـ «حسناً ، لا تفكر به ، فإن بوسعي أن أتحمل دموع أي شخص آخر ، ولكن ليس دموعك . انظر» غيرت الحديث فجأة «ألا ترى؟ ليس بوسعي أن أتحمل دموعك لأني أعرف كم كنت تحبه . امخط يا بورك ، إن عندي هدية لك» .

فبرقت عينا بورك ببعض الاهتمام وهو يمخط بصوت مرتفع : بيد أن ذلك البريق كان تأدباً أكثر منه اهتماماً .

ـ «أنت تذكر تلك الليلة ، عندما أصبت برصاصة وأنت تسرق قن أحد الناس» .

ـ «يا لله يا آنسة سكارلت ، أنا لم . .» .

ـ «الواقع أنك سرقت ، لذلك لا تكذب علي فيما يتعلق بذلك الحادث في هذا الوقت المتأخر . أنت تذكر أني قلت لك إني سأمنحك ساعة لأنك كنت وفياً جداً؟» .

ـ «نعم ، إني أتذكر . تصورت أنك نسيت» .

ـ «لا ، أنا لم أنس ، وهذه هي» .

ـ «ومدت يدها نحوه بساعة ذهبية كبيرة ، عليها نقش بارز كثيف ، وتتدلى منها سلسلة فيها زخارف وحلقات كثيرة .

ـ «من أجل الله يا آنسة سكارلت !» صاح بورك «تلك ساعة السيد جيرالد ، لقد رأيته ينظر إلى تلك الساعة مليون مرة !» .

ـ «أجل ، إنها ساعة والدي ،وإني أعطيكها ، خذها» .

ـ «ها ، لا» ، تراجع بورك فزعاً «تلك ساعة سيد أبيض ، وساعة السيد جيرالد بالذات ، فكيف تتحدثين عن منحها لي يا آنسة سكارلت؟ تلك الساعة تخص ويد هاملتون الصغير شرعاً» .

ـ «إنها تخصك . ماذا قدم ويد هاملتون إلى والدي؟ هل كان يعتني به عندما كان مريضاً وضعيفاً؟ هل كان يحممه ويلبسه ويحلق له ذقنه؟ هل وقف إلى جانبه عندما أتى الشماليون؟ هل كان يسرق من أجله؟ لا تكن أحمق يا بورك . إذا كان أحد يستحق الساعة فأنت هو الذي يستحقها . إني أعرف أن أبي كان سيوافق على ذلك . خذها» .

وتناولت سكارلت اليد السوداء ووضعت الساعة في كفها . وحدق بورك فيها بمهابة ، وغمر السرور وجهه تدريجاً .

ـ «لي ، حقا يا آنسة سكارلت؟» .

ـ «أجل ، حقَاً» .

ـ «حسناً ، أشكرك يا سيدة» .

ـ «هل تريد أن آخذها إلى أتلانتا من أجل أن ينقش عليها؟» .

ـ «ماذا يعني أن ينقش عليها؟» وبدا صوته مرتاباً .

ـ «يعني أن تدون كتابة على ظهرها مثل ـ مثل «إلى بورك من الأوهاريين ـ خادم وفيّ أمين في عمله» .

ـ «لا ـ أشكرك يا سيدة ، لا يهمنك النقش» وتراجع خطوة إلى الوراء وهو يقبض على الساعة بحزم .

واختلجت شفتاها بابتسامة صغيرة .

ـ «ما القضية يا بورك؟ ألا تثق بي أن أرجعها إليك؟» .

ـ «بلي . إني أثق بك ـ وإنما ، وإنما ، حسناً ، يمكن أن تغيري فكرك» .

ـ «لن أفعل ذلك» .

ـ «الواقع ، يمكن أن تبيعيها . إني أقول ذلك لأنها تساوي مبلغاً كبيراً من المال» .

ـ «هل تظن أني سأبيع ساعة والدي؟» .

ـ «نعم ، إذا كنت بحاجة إلى ثمنها» .

ـ «ينبغي أن تضرب عقاباً على ذلك يا بورك . يخامرني رأي في أن أسترد الساعة منك» .

ـ «لا ، لن تستردیها يا سيدة !» وظهرت أول ابتسامة خفيفة ذلك اليوم على وجهه الأسود الذي أضناه الحزن «إني أعرفك يا آنسة سكارلت» .

ـ «أجل يا بورك؟» .

ـ «لو أنك لطيفة مع الناس البيض نصف لطفك مع الزنوج ، فإني أقول إن العالم سيعاملك معاملة أفضل من معاملته لك الآن» .

ـ «إنه يعاملني معاملة طيبة كما ينبغي» قالت «اذهب وجد السيد آشلي وأخبره أني أريد أن أراه هنا ، فوراً» .

كان آشلي يجلس على كرسي الكتابة الذي كان يخص إيلين ، وقد جعل جسده الطويل قطعة الأثاث الهزيلة هذه تبدو صغيرة ، وذلك حينما كانت سكارلت تعرض عليه نصف أرباح المعمل . لم تقابل عيناه عينيها مرة واحدة ولم يقاطعها بكلمة واحدة ، بل جلس ينظر إلى يديه ، يقلبهما ببطء يتأمل باطنهما أولاً ثم ظاهرهما ، كأنه لم يكن رآهما من قبل . ورغم العمل الشاق ، كانت يداه لا تزالان نحيلتين بضتين ، معتنى بهما بصورة غريبة إذا ما قيستا بيدي مزارع .

وأزعجها صمته ورأسه المطرق ، فضاعفت جهودها لتجعل المعمل يبدو جذاباً مغرياً ، وأعدت كل سحر الابتسامة والنظرة اللتين تنعم بهما للتأثير فيه ، ولكن دون جدوى لأنه لم يرفع عينيه . حبذا لو أنه ينظر إليها ! ولم تتطرق إلى ذكر النبإ الذي أخبرها به ويل عن عزم آشلي على السفر شمالاً . وراحت تتحدث بافتراض ظاهري عن عدم وجود عائق يقف في طريق موافقته على خطتها . ومع ذلك فإنه لم يتكلم ، وأخيراً تلاشت كلماتها في الصمت . كانت كتفاه النحيلتان منتصبتين بعزم شديد أفزعها ، حتماً إنه لن يرفض ! أي سبب في الوجود كان بوسعه أن يعتمد عليه في رفضه؟

ـ «آشلي» شرعت تتحدث ثانية ، ثم صمتت . ولم تكن قد عزمت على أن تستخدم موضوع حبلها كحجة لها ، بل لقد نفرت من مجرد التفكير بأن آشلي سيراها منتفخة قبيحة هكذا . ولكن عندما ظهر أن وسائل الإقناع الأخرى لم تلق أي تأثير لديه ، قررت أن تستخدم موضوع حبلها وعجزها كورقة أخيرة .

ـ «ينبغي أن تأتي إلى أتلانتا ، إني أحتاج إل مساعدتك الآن حاجة ملحّة لأني لا أستطيع الاهتمام بعملي ، ومن المحتمل أن تمضي شهور قبل أن يكون بمقدوري ذلك . لأني ـ لأني ـ وعلى كل حال ، لأني . .» .

ـ «أرجوك» قال بخشونة «يا لله يا سكارلت!» .

ونهض متجهاً فجأة إلى النافذة ووقف وظهره إليها .

ـ «هل ذلك . . هل ذلك هو السبب في أنك لن تنظر إلي؟» استوضحت باستخذاء «إني أعرف أني أبدو . . .» .

فاستدار نحوها بسرعة خاطفة وقابلت عيناه الرماديتان عينيها بشدة جعلت يديها تسرعان إلى حلقها .

ـ «لعنة الله على مظاهرك!» قال بقوة وسرعة «أنت تعرفين أنك تبدين دائماً جميلة في عيني» .

ففاضت منها السعادة ، حتى أن عينيها ترقرقتا بالدمع .

ـ «ما أعذبها منك أن تقول ذلك! لأني كنت أشعر بالخجل إذ سمحت لك بأن تراني» .

ـ «أنت تشعرين بالخجل؟ لماذا ينبغي لك أن تشعري بالخجل؟ أنا الذي ينبغي أن أشعر بالخجل ، ولولا حماقتي لما كنت في هذا المأزق ، ولما كنت تزوجت فرانك أبداً . كان يجب أن لا أدعك تغادرين تارا في الشتاء المنصرم . آه ما كان أغباني! كان يجب أن أعرفك ـ أعرف أنك كنت يائسة ، يائسة جداً بحيث أنك ـ كان يجب ـ يجب» وشحب وجهه .

وخفق قلب سكارلت بعنف . لقد كان يتحسر لأنه لم يهرب معها!

ـ «إن أقل ما كان يمكنني عمله هو أن أخرج وأحترف مهنة قطع الطرق أو القتل لأحصل على نقود الضرائب لك حين كنت قد أحتضنتنا كمتسوّلين . آه! لقد أسأت التصرف من جميع الوجوه» . فانقبض قلبها بالخيبة وغادرها بعض السعادة ، لأن هذه لم تكن الكلمات التي أملت سماعها .

ـ «كنت سأذهب ، على أية حال» قالت بعناء «لم يكن بوسعي أن أدعك تفعل أي شيء من ذلك القبيل . وعلى كل حال ، لقد قضي الأمر الآن» .

ـ «أجل لقد قضي الأمر الآن» قال بمرارة «إنك لم ترضي أن أقوم بأي عمل منحط ، ولكنك رضيت بأن تبيعي نفسك لرجل لم تكوني تحبينه ـ وتحملين

طفلاً منه ، حتى لا تجوع عائلتي وأنا . لقد كان لطفاً منك أن تؤوي عجزي» .

كانت الحدة في صوته تنطق عن جرح عميق غير مندمل ، جرح كان يؤلمه داخليّاً . وجلبت كلماته العار إلى عينيها ، لقد كان سريعاً في ملاحظة ذلك فتحول وجهه إلى الرقة .

ـ «إنك لم تعتقدي أني كنت ألومك؟ يا لله العزيز يا سكارلت ! لا . إنك أظرف امرأة عرفتها في حياتي ، إني ألوم نفسي» .

ـ «آه آشلي ، لا تلم نفسك ! كيف كان يمكن أن تكون غلطتك ! ستأتي إلى أتلانتا وتساعدني ، ألن تأتي؟» .

ـ «لا» .

ـ «ولكن يا آشلي» وشرع صوتها يتقطع بالألم والخيبة «ولكني سأعتمد عليك . إني بحاجة ماسة إليك . إن فرانك لا يستطيع مساعدتي . إنه مشغول جداً في المخزن . وإن أنت لم تأت فإني لا أعرف من أين أجد رجلاً ! كل رجل ذكي في أتلانتا مشغول بشؤونه الخاصة والآخرون غير قديرين أبداً و . .» .

ـ «لا جدوى من هذا الكلام يا سكارلت» .

ـ «تعني أنك تفضل الذهاب إلى نيويورك والعيش بين الشماليين على المجيء إلى أتلانتا؟» .

ـ «ومن أخبرك ذلك؟» والتفت وواجهها .

ـ «ويل» .

ـ «أجل ، قد قررت أن أذهب إلى الشمال ، لقد عرض علي صديق قديم ، كان قد قام معي بالرحلة العظيمة قبل الحرب ، وظيفة في مصرف والده . وهذا أفضل يا سكارلت . ولن أكون ذا نفع لك ، فأنا لا أعرف شيئاً عن صناعة الأخشاب» .

ـ «ولكنك تعرف أقل عن أعمال المصارف ، وإنها لأصعب بكثير ! كما أني أعرف أني سأدفع لك علاوات لعدم خبرتك أكثر مما سيدفع الشماليون» .

فأجفل آشلي ، وأدركت هي أنها أخطأت . ثم استدار وسرّح بصره خارج النافذة ثانية .

ـ «أنا لا أريد علاوات توهب لي ، إني أريد أن أعتمد على نفسي في ما أنا جدير به . ماذا فعلت بحياتي حتى الآن؟ لقد آن الأوان لأصنع شيئاً من نفسي

أو أنهار بسبب خطأي . لقد ظللت متقاعداً على نفقتك منذ مدة طويلة وإلى الآن» .

ـ «ولكني أعرض عليك نصف أرباح المعمل يا آشلي ! ستعتمد على نفسك لأن العمل ، كما ترى ، سيكون عملك الخاص» .

ـ «سنصل إلى الشيء ذاته ، فإنني لن أكون منتجاً لما يؤهلني لنصف الأرباح ، بل سأكون آخذاً إياه كهبة . ولقد أخذت هبات كثيرة منك حتى الآن يا سكارلت . غذاء ومأوى وحتى ثياباً لي ولميلاني وللطفل ، وأنا لم أعطك شيئاً مقابل ذلك» .

ـ «ها ، ولكنك أعطيتني . لم يكن بوسع ويل . . .» .

ـ «إن بوسعي تكسير الحطب جيداً الآن» .

ـ «آه آشلي» ، صاحت يائسة والدموع في عينيها ، وقد أثارتها النغمة الساخرة في صوته «ماذا حدث لك منذ أن غادرت تارا؟ ـ إنك تبدو قاسياً جداً ! لم يكن من عادتك أن تكون كذلك» .

ـ «ماذا حدث؟ شيء جدير بالاعتبار كثيراً . لقد كنت أفكر . إني لا أعتقد أنني كنت أفكر حقيقة منذ الاستسلام إلى حين ذهبت بعيداً من هنا . لقد كنت في حالة من الحيوية الخامدة ، وكان يكفيني أن أنعم بشيء أقتات به وبسرير أنام عليه . ولكن عندما ذهبت إلى أتلانتا ، وأخذت على عاتقك عبء رجل ، ألفيت نفسي أقل بكثير من رجل ـ أقل بكثير من امرأة في الحقيقة . إن أفكاراً كهذه ليست سارة ليعيش الإنسان معها ، وأنا لا أنوي أن أعيش معها مدة أطول . لقد خرج رجال آخرون من الحرب وهم يملكون أقل مما كنت أملك ، ولكن انظري إليهم الآن ، ولذا فإني ذاهب إلى نيويورك» .

ـ «ولكن ـ أنا لا أفهم ! إذا كان العمل هو ما تبغي ، فلماذا لا تفي أتلانتا بالقصد كنيويورك؟ وإن معملي . .» .

ـ «لا يا سكارلت ، إن هذه هي فرصتي الأخيرة . سأذهب إلى الشمال . وإن أنا ذهبت إلى أتلانتا وعملت عندك فإني سأضيع إلى الأبد» .

ودوت كلمة «أضيع ـ أضيع» في قلبها بصورة مرعبة كجرس موت يقرع . وأسرعت عيناها تنشد عينيه ولكنهما كانتا متسعتين رماديتين بلوريتين ، وكانتا تنظران خلالها وإلى ما وراءها ، إلى مصير لم يكن بوسعها أن تراه ، ولم يكن

بوسعها أن تدركه .

ـ «تضيع؟ هل تعني ! هل قمت بشيء في وسع شماليي أتلانتا القبض عليك بسببه؟ أعني ، فيما يتعلق بمساعدة توني على الهروب ، أو ـ أو ـ آه يا آشلي ، أنت لست عضواً في الكوكلوكس ، أليس كذلك؟» .

ـ «فعادت عيناه الشاردتان إليها بسرعة ، وابتسم ابتسامة موجزة لم تبلغ عينيه أبداً .

ـ «لقد نسيت أنك حرفية جداً . لا ، ليس الشماليون هم الذين أخافهم ، إني أعني أنه إذا ما ذهبت إلى أتلانتا وعدت إلى أخذ العون منك فسأدفن إلى الأبد كل أمل في الاعتماد على نفسي» .

ـ «آه» تنهدت «إذاً ، كان هذا كل ما في الأمر !» .

ـ «أجل ! وابتسم ثانية ، وكانت ابتسامة أكثر كآبة من سابقتها «هذا فقط ، كبريائي الرجولية ، كرامتي الشخصية ، وروحي الخالدة . إن طاب لك أن تسميها كذلك» .

ـ «ولكن» واستدارت بجسدها وفي رأسها خطة أخرى «تستطيع أن تشتري المعمل مني مستقبلاً ، وسيصبح ملكك ، وعندئذ . .» .

ـ «سكارلت» قاطعها بحدة «إني أقول لك لا ! توجد أسباب أخرى !» .

ـ «أي أسباب؟» .

ـ «أنت تعرفين هذه الأسباب أكثر من أي شخص آخر في الدنيا» .

ـ «ها ، تلك؟ ولكن تلك لن تضيرك أبداً» أكدت بسرعة «لقد وعدت كما تعرف ، هناك في البستان في الشتاء الماضي ، وسأحافظ على وعدي و . .» .

ـ «إذاً أنت واثقة من نفسك أكثر من ثقتي بنفسي . إني لا أستطيع أن أعتمد على نفسي في الحفاظ على وعد كهذا . كان ينبغي أن لا أقول ذلك ، ولكن علي أن أجعلك تفهمين . سكارلت ، لن أتحدث بهذا ثانية ، لقد انتهى . وعندما ستتزوج سولين وويل سأذهب إلى نيويورك» .

وقابلت عيناه الواسعتان الحانقتان عينيها لحظة ، ثم قطع الغرفة بسرعة ، ورنت سكارلت إليه في ألم شديد بينما كانت يده على مقبض الباب . لقد انتهت المقابلة ، ولقد خسرتها هي . وفجأة أحست بالضعف الناجم عن جهد اليوم السابق وحزنه ، وعن الخيبة الحالية . وهكذا انهارت أعصابها فجأة وزعقت

«آه آشلي!» ثم طوحت بنفسها على الكنبة وانفجرت في عويل مدو .

وسمعت وقع خطواته الحائرة وصوته المرتبك ينطق باسمها مرة بعد مرة ، وهو فوق رأسها ، ثم سمعت قرقعة خطوات سريعة تجري في القاعة آتية من المطبخ ، واخترقت ميلاني الغرفة وعيناها متسعتان من الذعر .

ـ «سكارلت ، أليس الطفل؟ . .» .

فدست سكارلت رأسها في الكنبة المغبرة وزعقت ثانية :

ـ «آشلي ـ إنه حقير ، حقير لعين ـ مقيت جداً!» .

ـ «آه آشلي ، ماذا فعلت لها؟» وألقت ميلاني نفسها على الأرض بجانب الكنبة ، وضمت سكارلت بين ذراعيها «ماذا قلت لها؟ كيف وسعك؟! كان يمكن أن تسبب لها إجهاضاً! يكفي يا عزيزتي ، ضعي رأسك على كتفي! ما القضية؟» .

ـ «آشلي ـ إنه ـ إنه عنيد ومقيت جداً!» .

ـ «آشلي ، إني مندهشة منك! تثيرها إثارة بالغة وهي حامل والسيد أوهارا لم يكد يوسد قبره!» .

ـ «لا تثوري عليه!» صاحت سكارلت بصورة غير منطقية ، ثم رفعت رأسها فجأة عن كتف ميلاني ، وكان شعرها الأسود الخشن قد تناثر داخل شبكته بينما هطلت الدموع على وجهها «إن له الحق في أن يفعل ما يطيب له!» .

ـ «ميلاني» قال آشلي ووجهه أبيض «دعيني أوضح لك الأمر . لقد كانت سكارلت لطيفة جداً في أن عرضت علي وظيفة في أتلانتا كمدير لأحد معمليها» .

ـ «مدير!» صاحت سكارلت بسخط «عرضت عليه نصف الربح ولكنه . .» .

ـ «وأخبرتها أني قد أعددت ترتيبات لسفرنا إلى الشمال ولكنها . . .» .

ـ «آه» صاحت سكارلت وقد شرعت في النحيب ثانية «لقد أخبرته كيف أنني بحاجة شديدة إليه ، كيف أنه لم يكن بوسعي أن أحصل على أي رجل ليدير المعمل ، وكيف أني سألد هذا الطفل ، وقد رفض أن يأتي! والآن ـ الآن ، علي أن أبيع المعمل ، وإني أعرف أني لن أستطيع أن أحصل على ثمن جيد له ، وسأخسر مالاً . وإني أظن أن من المحتمل أن نتضور جوعاً على أثر ذلك ،

ولكنه لم يعبأ بكل هذا . إنه حقير جداً !» ودست رأسها ثانية في كتف ميلاني النحيل ، وغادرها بعض الألم الحقيقي عندما استيقظ فيها شعاع من الأمل . كان بوسعها أن تدرك أنها كانت تنعم بحليف في قلب ميلاني المخلص ، كما كان بوسعها أن تشعر بسخط ميلاني على أي إنسان ، حتى على زوجها المحبوب ، إذا هو دفع سكارلت إلى البكاء . وانقضت ميلاني على آشلي كحمامة صغيرة مصممة ، ونقرته للمرة الأولى في حياتها :

ـ «آشلي ، كيف استطعت أن ترفض رجاءها؟ وبعد كل الذي فعلته من أجلنا ! ما أعظم ما جعلتنا نبدو جاحدين للجميل ! إنها حائرة جداً الآن بسبب وليدها . ما أقلها شهامة منك ! لقد ساعدتنا عندما كنا بحاجة إلى المساعدة ، وقد أنكرت عليها الآن عونك وهي بحاجة إليك !» .

وتطلعت سكارلت إلى آشلي خلسة ، ورأت الدهشة والحيرة واضحتين في وجهه فيما كان ينظر في عينيّ ميلاني السوداوين الحانقتين . وكانت دهشة كذلك من عنف هجوم ميلاني ، لأنها كانت تعرف أن ميلاني تعتبر زوجها أرفع من الملامة الزوجية ، وتعتقد أن قراراته لا تناقش .

ـ «ميلاني . . .» بدا آشلي ، ولكنه لم يلبث أن قذف يديه حائراً .

ـ «آشلي ، كيف تستطيع أن تتردد؟ وفكر في الذي فعلته من أجلنا ـ من أجلي ! كنت سأموت في أتلانتا عند ولادة بو لو لم تكن هي موجودة ! ثم إنها ـ أجل ، إنها قتلت شمالياً دفاعاً عنا . هل عرفت ذلك؟ لقد قتلت رجلاً من أجلنا . ولقد اشتغلت وكدحت كالعبيد قبل أن تأتي أنت وويل ، وذلك فقط لتوجد طعاماً لأفواهنا . وعندما أفكر بها وهي تحرث وتقطف القطن ، لا أستطيع إلا أن ـ آه يا عزيزتي !» .

وهوت برأسها وقبلت شعر سكارلت الشعث في إخلاص شديد «وهذه هي المرة الأولى التي تسألنا فيها لنفعل شيئاً من أجلها» .

ـ «أنت لست بحاجة لتخبرني ما فعلت من أجلنا» .

ـ «فكر فقط يا آشلي ! إنه علاوة على مساعدتها ، فكر فقط ماذا ستعني بالنسبة إلينا أن نعيش في أتلانتا بين شعبنا ، وأن لا نضطر إلى أن نعيش مع الشماليين ! فهناك ستكون عمتي وعمي هنري وجميع أصدقائنا . ويستطيع بو أن ينعم بالكثير من رفاق اللعب ويذهب إلى المدرسة . بينما إذا ذهبنا إلى

الشمال فلن يكون بوسعنا أن ندعه يختلط بالأولاد الشماليين ويجلس مع الزنوج الصغار في صفه! وسنضطر إلى اقتناء مربية، وأنا لا أرى كيف سنؤمن . .» .

ـ «ميلاني» قال آشلي وصوته هادئ للغاية «هل أنت حقيقة ترغبين في الذهاب إلى أتلانتا رغبة أكيدة؟ إنك لم تقولي ذلك أبداً عندما تحدثنا عن الذهاب إلى نيويورك . إنك لم تلمحي أبداً!» .

ـ «ها ، ولكن عندما تحدثنا عن الذهاب إلى نيويورك كنت أعتقد أنه لم يكن يوجد عمل لك في أتلانتا ، لم يكن من حقي أن أقول أي شيء . إن واجب المرأة هو أن تذهب حيث يذهب زوجها . ولكن الآن ، وسكارلت تحتاجنا حاجة ماسة ، ولديها وظيفة تستطيع أنت فقط أن تشغلها ، أصبح بوسعنا أن نذهب إلى بيتنا! بيتنا! بيت خاص بنا» .

وتألقت عيناها بالحماسة والسعادة ، وحدق الاثنان بها : آشلي بنظرة غريبة مشدوهة ، وسكارلت بدهشة يشوبها الخجل ، فلم يكن قد خطر لها أبداً أن ميلاني افتقدت أتلانتا إلى هذه الدرجة الكبيرة وتلهفت للعودة إليها ، تلهفت لبيت خاص بها . لقد كانت تبدو قانعة جداً في تارا ، فجاءت معرفة تلهفها إلى بيت كصدمة لسكارلت .

ـ «ها سكارلت ، ما أحسنك لأنك خططت كل هذا من أجلنا! فقد كنت تعرفين شدة لهفتي للبيت!» .

وشأنها دائماً ، عندما كانت تواجه بعادة ميلاني في عزو البواعث القيمة لها حيث لا وجود لأي قيمة لديها ، أحست سكارلت بالخجل والضيق ، وفجأة لم يعد باستطاعتها أن تواجه عيني آشلي ، ولا عيني ميلاني .

ـ «إن بوسعنا أن نحصل على بيت صغير خاص بنا . هل تحققت أنه مضى على زواجنا خمس سنين ولم ننعم ببيت أبداً» .

ـ «بوسعكم الإقامة معنا في بيت العمة بيتي ، فهو بيتكم» تمتمت سكارلت وهي تعبث بوسادة مبقية اتجاه عينيها إلى أسفل كي تخفي بريق النصر المشرق فيهما بعد أن أحست أن الموجة تنقلب في صالحها .

ـ «لا ، ولكني أشكرك على كل حال يا عزيزتي . إن ذلك سيزحمنا كثيراً . سنحصل على بيت ـ آشلي ، قل نعم!» .

ـ «سكارلت» قال آشلي «انظري إلي» .

فرفعت بصرها الذاهل وقابلت عينيه الرماديتين اللتين كانتا ناضحتين بالخيبة ، مليئتين بالرضوخ المتعب «سكارلت ، سأجيء إلى أتلانتا فأنا لا أستطيع أن أحاربكما كليكما» .

واستدار خارجاً من الغرفة ، وخمد بعض النصر في قلبها بفعل خوف مضايق . لقد كانت النظرة التي شابت عينيه عندما تكلم النظرة ذاتها التي شابتهما عندما قال إنه سيضيع إلى الأبد إن هو ذهب إلى أتلانتا .

*

بعد أن تزوجت سولين بويل ، وبعد أن ذهبت كارين للدير في شارلستون ، جاء آشلي وميلاني وبو إلى أتلانتا ، وأحضروا معهم دلسي للطبخ والتمريض . أما برسي وبورك فقد تركا في تارا إلى حين يستطيع ويل الحصول على زنوج آخرين يساعدونه في الحقول ، وعندئذ سيأتيان إلى أتلانتا .

كان البيت الأجري الصغير الذي استأجره آشلي لعائلته يقع في شارع آيفي ، خلف بيت العمة بيتي مباشرة ، بحيث أن الساحتين الخلفيتين كانتا تتصلان ولا يفصل بينهما سوى سياج مهلهل من نبات الحناء النامي . وكانت ميلاني قد اختارت هذا البيت خصيصاً لهذا السبب ، فقد قالت في اليوم الأول من عودتها إلى أتلانتا ، وبينما كانت تضحك وتصيح وتضم سكارلت والعمة بيتي ، قالت إنها كانت قد فرقت عن أحبائها مدة طويلة بحيث أنها لم يكن بوسعها أن تكون قريبة منهم كما ينبغي مرة ثانية .

وفكرت سكارلت أن ذلك البيت كان أقبح مسكن رأته عيناها ، ولكن بالنسبة إلى ميلاني ، لم يكن تولف أوكس بكل فخامته أكثر جمالاً منه . لقد كان بيتها ، وقد اجتمعت هي وآشلي وبو أخيراً تحت سقف خاص بهم .

وعادت إنديا ويلكس من ميكون ، حيث كانت تعيش وهوني منذ عام ١٩٦٤ ، فسكنت مع شقيقها زاحمة سكان البيت الصغير ، إلاّ أن آشلي وميلاني رحّبا بها ، فمع أن الأوقات كانت قد تغيرت والنقود ندرت ، إلا أن شيئاً ما لم يكن قد غير من قانون الحياة الجنوبية في أن العائلات كانت دائماً تفسح بسرور مكاناً للقريبات المعوزات أو العازبات .

كانت هوني قد تزوجت ، وكما قالت إنديا ، تزوجت رجلاً دون مقامها ،

رجلاً غريباً وضيعاً من المسيسبي ، كان قد أقام في ميكون ، رجلاً ذا وجه أحمر وصوت جهوري وأساليب طروبة . ولم تكن إنديا قد استحسنت هذا الزواج ، ولذلك لم تكن سعيدة في بيت صهرها ، فرحبت بنبإ حصول آشلي على بيت خاص به الآن ، وهكذا أضحى بوسعها أن تبعد نفسها عن محيط لا يجانسها ، وعن المشهد المؤلم ، مشهد شقيقتها مسرورة جداً وبحماقة برجل غير جدير بها .

على أن بقية أفراد العائلة فكروا في قرارة نفوسهم بأن هوني ، الضحوك الساذجة العقل ، قد أنجزت عملاً أفضل بكثير مما كان يتوقع منها ، كما أنهم استغربوا من أنها كانت قد ظفرت برجل ما . لقد كان زوجها سيداً ورجلاً غنياً بعض الغنى . أما بالنسبة إلى إنديا المولودة في جورجيا ، والمنشأة على التقاليد الفرجينية ، فإن أي إنسان لم يكن من أبناء الساحل الشرقي ، كان في نظرها جلفاً همجياً . وقد يكون زوج هوني سعيداً في خلاصه من رفقتها يوم همت بفراقه ، لأن الحياة مع إنديا لم تكن سهلة هذه الأيام .

كان وشاح العزوبة قد استقر على كتفيها الآن ، لقد بلغت من العمر الخامسة والعشرين وبدت بهذا العمر ، وهكذا لم يعد بها أي حاجة إلى محاولة أن تكون جذابة . كان الوضع الذي تردت فيه وضع أرملة ، لأن الجميع كانوا يعرفون أن ستيوارت تارلتون كان سيتزوجها لو أنه لم يقتل في جيتسبرغ . وهكذا فقد استحقت الاحترام الواجب تجاه امرأة كانت مطلوبة للزواج وإن لم تتزوج .

أما الغرف الست التي كان يتألف منها البيت الصغير في شارع آيفي فسرعان ما أثثت بقلة ، بأرخص الأثاث المصنوع من خشب الصنوبر والسنديان الموجود في مخزن فرانك ، لأنه ، لما كان آشلي لا يملك سنتاً واحداً ، وكان مضطراً إلى أن يشتري بالدين ، فقد رفض أن يبتاع أي شيء سوى أقل الحاجات كلفة والضروريات الملحة . وقد ضايق هذا الأمر فرانك الذي كان مغرماً بآشلي ، وكذلك آلم سكارلت . فقد كان يمكن أن يقدم كلاهما بطيبة خاطر ، وبدون أي مقابل ، أجمل الأثاث المصنوع من خشب الماهوغوني وخشب الورد المحفور الموجود في المخزن ، إلاّ أن الويلكسيين رفضوا ذلك بإصرار . كان بيتهم قبيحاً عارياً بصورة مؤلمة ، وكانت سكارلت تمقت بعناد أن ترى آشلي يعيش في

الغرف العارية من السجاد والستائر، ولكن لم يكن يبدو أن آشلي كان يلاحظ ما يحيط به.

وكانت ميلاني، وقد حظيت ببيتها للمرة الأولى منذ زواجها، سعيدة جداً بحيث أنها كانت فخورة حقاً بسكنها. لقد كان من المحتمل أن تعاني سكارلت نوبات مؤلمة من الشعور بالضعة إن هي اضطرت إلى أن يجدها الأصدقاء بدون أقمشة وسجاجيد ووسائد وعدد كاف من الكراسي وأكواب الشاي والملاعق، أما ميلاني فكانت تقوم بواجبات الضيافة في بيتها، كما لو أن السجف والأرائك الحريرية المعرّقة كانت موجودة فيه.

ولكن رغم سعادتها البادية، لم تكن ميلاني في صحة جيدة، إذ كان بو الصغير قد كلفها صحتها، وكان العمل الشاق الذي قامت به في تارا منذ ولادة بو قد تقاضى ضريبة أخرى من قوتها. لقد كانت نحيلة جداً بحيث أن عظامها الصغيرة كانت تبدو بارزة من خلال جلدها الأبيض. وكانت تظهر من بعيد، وهي تمرح في الساحة الخلفية مع طفلها، كأنها فتاة صغيرة، فقد كان خصرها صغيراً بصورة ملفتة، وكانت في الواقع بلا قوام، ولم تكن تنعم بصدر، وكان وركاها مستويين كوركي بو. وكان وجهها نحيلاً شاحباً جداً كجسدها، وكان حاجباها الحريريين مقوسين رفيعين كمجاسي فراشة، بارزين بلونهما الشديد السواد في بشرتها العديمة اللون. وكانت عيناها تبدوان كبيرتين جداً في وجهها الصغير، بحيث كانتا تتجاوزان حدود الجمال، وكانت البقع القاتمة تحتهما تجعلهما تظهران واسعتين، إلاّ أن تعبيرهما لم يكن قد تغير منذ أيام بنوتتها المطمئنة. فلقد كانت الحرب والألم الدائم والعمل الشاق عاجزة أمام هدوئها العذب، كانتا عيني امرأة سعيدة، امرأة يمكن للزوابع أن تعصف حولها دون أن تكدر نواة وجودها الرضية.

كان البيت الصغير يعج بالزوار دائماً. لقد كانت ميلاني محبوبة حتى وهي طفلة، ولذلك اندفعت المدينة لترحب بها عند عودتها إلى البيت، وكان كل من القادمين يجلب معه هدية للبيت: طرفاً وصوراً وملعقة فضية أو ملعقتين وأغشية وسائد كتانية وفوط سفرة وبسط خلقان وأدوات صغيرة كانوا قد أنقذوها من شيرمان وادخروها، إلا أنهم كانوا يقسمون الآن أنها لم تكن ذات فائدة مادية لهم.

وجاء لرؤية ميلاني ، أيضاً ، الرجال المسنون الذين كانوا قد اشتركوا في غزوة المكسيك مع والدها ، والذين كانوا يحضرون معهم زواراً ليروا الابنة الحلوة للكولونيل هاملتون المسن . وكذلك كانت صديقات والدتها القديمات يلتففن حولها لأن ميلاني كانت تكن إكراماً لمن يفقنها سناً ، إكراماً كان مواسياً جداً للسيدات المسنات في هذه الأيام الصعبة ، حيث كان يبدو أن الشباب قد نسي جميع أخلاقه . أما بنات جيلها الزوجات الشابات والأمهات والأرامل فكن يحببنها أيضاً لأنها كانت قد قاست الذي قاسينه هنا ، ومع ذلك فلم تغد نكدة بل كانت دائماً تعيرهن أذناً صاغية وعطفاً ، وكان الشبان يأتون كما يأتي الشباب عادة ، أي بصريح القول ، لأنهم كانوا ينعمون بوقت طيب في بيتها ويقابلون أصدقاءهم الذين كانوا يريدون مقابلتهم .

حول شخص ميلاني اللبق المنكر لذاته ، نمت بسرعة ثلة من الشبان والشيوخ الذين كانوا يمثلون ما تبقى من أحسن مجتمع أتلانتا قبل الحرب ، كانوا جميعهم فقراء في المال ، فخورين بالنسب ، عنيدين من أصلب نوع . ويدا الأمر كأن مجتمع أتلانتا المبعثر المدمر بفعل الحرب ، المستنفد بفعل الموت ، المذهول من التغير ، قد وجد فيها نواة عنيدة كان بوسعه أن يتكوّن حولها من جديد .

لقد كانت ميلاني شابة ، إلا أنها كانت تتحلى بكل الصفات التي كانت تكبرها هذه البقية المعدة للقتال : فقر وكبرياء في الفقر ، شجاعة عديمة التذمر ، مرح ، كرم ضيافة ، لطف ، وفوق كل هذا ، إخلاص لكل التقاليد القديمة . لقد رفضت ميلاني أن تتغير ، رفضت حتى أن تعترف بوجود أي سبب للتغير في دنيا متغيرة . كانت الأيام القديمة تبدو تحت سقفها وكأنها تعود ثانية . وتشجع الناس وأحسوا بازدراء أكثر نحو موجة الحياة الهمجية والمعيشة الباذخة التي كانت تجتاح الكاربت بغرز والجمهوريين الحديثي النعمة .

وعندما كانوا ينظرون إلى وجهها الفتي ويرون فيه الإخلاص العنيد للأيام القديمة ، كان بوسعهم أن ينسوا ، لهنيهة ، الخونة في طبقتهم ، الذين كانوا يثيرون السخط ، والخوف ومآسي القلوب . والذين كان يوجد منهم الكثير هذه الأيام . فقد كان هناك رجال من عائلات كريمة دفعهم الفقر إلى اليأس فاتصلوا بالعدو وأصبحوا جمهوريين ، وقبلوا مراكز من المحتلين كي لا تعيش عوائلهم

على الإحسان . وكان هناك جنود سابقون شبان تنقصهم الشجاعة ليواجهوا السنين الطويلة الضرورية لبناء المستقبل ، هؤلاء الفتيان كانوا ينهجون نهج ريت بتلر فيعملون يداً بيد مع الكاربت بغرز في خطط جمع المال .

وكان أسوأ هؤلاء الخونة ، بنات بعض أشهر عائلات أتلانتا . فهؤلاء الفتيات اللواتي كن قد بلغن سن النضوج منذ الاستسلام لم يكن ينعمن إلاّ بذكريات طفلية عن الحرب ، وكانت تعوزهن المرارة التي كان يحيا عليها كبار عوائلهن ، فلم يكن قد فقدن أزواجاً أو أحباء ، وكان لديهن ذكريات قليلة عن الثروة الماضية والمجد ـ وكان الضباط الشماليون وساماً جداً ، بديعي الملبس ، مستهترين للغاية ، فكانوا يدعونهن إلى حفلات رقص فاخرة ، وكانوا يسوقون خيولاً رائعة ، وبصراحة ، كانوا يعشقون الصبايا الجنوبيات ! كانوا يعاملونهن كملكات ، وكانوا حريصين جداً على أن لا يجرحون كبرياءهن السريع الغضب . وبعد كل هذا ـ لماذا لا يختلطن معهم؟

ولم يخطر لميلاني أبداً أنها كانت تغدو قائدة مجتمع جديد ، بل كانت تفكر فقط أن الناس كانوا لطفاء في أن يأتوا ليزوروها وليطلبوا إليها أن تنضم إلى حلقات الخياطة الخاصة بهم ، وإلى نوادي رقصهم ، وجمعياتهم الموسيقية .

ولقد ارتبكت ميلاني قليلاً عندما وجدت نفسها ذات يوم على رأس «حلقة موسيقى مساء السبت» المؤلفة حديثاً . ولم يكن بوسعها أن تعلل سبب ارتفاعها إلى هذا المركز إلا بأنها كانت تستطيع أن ترافق على البيانو أي منشد ، حتى الآنستين ماك لور اللتين كانتا لا تميزان الأنغام ، ولكن كانتا مع ذلك تنشدان أناشيد ثنائية .

وكانت حقيقة المسألة تكمن في أن ميلاني كانت قد استطاعت بطريقة ديبلوماسية أن تدمج «حلقة السيدات العازفات على الطنبور» و«نادي الطرب للسادة» و«حلقة صبايا المندولين والقيثارة» في «حلقة موسيقى مساء السبت» ، وهكذا نعمت أتلانتا الآن بموسيقى جديرة بأن تسمع . والحقيقة أن معزوفة «الفتاة البوهيمية» للحلقة ، كانت أرفع جداً ، كما قال الكثيرون ، من معزوفات المتهنين التي كانت تسمع في نيويورك ونيو أورليانز . وبعد أن كانت السيدة ميريويذر قد ناورت لإدخال «حلقة السيدات العازفات على الطنبور» في الحظيرة ، قالت للسيدتين ميد وألسنغ أن يضعن ميلاني على رأس الحلقة ، فإن

كان بوسعها أن تنجح مع العازفات على الطنبور ، فإن بوسعها إذاً أن تنجح مع أي جماعة أخرى . هكذا صرحت السيدة ميريويذر ، التي كانت هي نفسها ، تعزف على الأرغن لجوقة كنيسة النظاميين ، والتي كانت ، كعازفة على الأرغن تكن احتراماً قليلاً للطنابير والعازفات عليها .

وكذلك عينت ميلاني أمينة سر «جمعية تجميل القبور لموتانا الأمجاد» و«حلقة الخياطة لأرامل وأيتام الحلف» كليهما . وقد حظيت بهذا الشرف الجديد بعد اجتماع مشترك مثير لهاتين الجمعيتين ، اجتماع كان يهدد بالانتهاء بالعنف ، ويقطع روابط الصداقة الدائمة بين الجمعيتين . وقد ثارت المشكلة في الاجتماع ، حول موضوع (هل نعشب قبور الجنود الاتحاديين القريبة من قبور الجنود الحلفيين أم لا؟) .

وقد عبرت السيدة ميد عن آراء الجمعية الثانية عندما قالت : «نستأصل الأعشاب عن قبور الشماليين؟ مقابل سنتين اثنين أنبش جميع قبورهم وأقذف بالجثث في مستودع قمامة المدينة» .

ونتيجة لهذه الكلمات الرنانة ، نهضت الجمعيتان وراحت كل سيدة تعبر عن رأيها ، ولم تعد واحدة تصغي للأخرى . وبطريقة ما شقت ميلاني طريقها إلى وسط الجمع المضطرب ، وبطريقة ما ، جعلت صوتها الناعم المعتاد ، يسمع فوق الضوضاء . كان قلبها في بلعومها بسبب الرعب من المغامرة بمخاطبة هذا الجمع الساخط . وارتعد صوتها ولكنها استمرت في الصياح : «أيتها السيدات ! أرجوكن !» إلى أن زال الضوضاء .

- «إني أريد أن أقول - أعني ، لقد فكرت مدة طويلة أن - أن ليس علينا فقط أن نقتلع الأعشاب ، بل علينا أيضاً أن نغرس الأزهار على - أنا - أنا لا أعبأ بما تفكرن ، ولكن كلما ذهبت لأضع أزهاراً على قبر شارلي العزيز ، كنت أضع دائماً الأزهار على قبر شمالي مجهول قريب منه - فهو - فهو يبدو مهملاً جداً» .

فانفجرت الضجة ثانية في كلمات أكثر ارتفاعاً ، واختلطت عضوات الجمعيتين هذه المرة ، ورحن يتكلمن وكأنهن جمعية واحدة :

- «على قبور الشماليين ! آه ميلي ، كيف وسعك ذلك !» «وهم الذين قتلوا شارلي !» «لقد كادوا أن يقتلوك !» «كيف لا ، وقد كان يمكن أن يقتل الشماليون

بو عندما ولد !» «لقد حاولوا أن يحرقوا تارا ويخرجوك منها !» .

وتمسكت ميلاني بظهر كرسيها لتسند نفسها وهي مقطبة الوجه تقريباً تحت عبء استنكار لم تكن قد عرفته من قبل .

ـ «أيتها السيدات !» صاحت متوسلة «أرجوكن ، دعنني أتم حديثي ! إني أعرف أني لا أملك الحق للتكلم في هذه القضية ، لأنه لم يقتل أحد من أحبائي سوى شارلي ، كما أني أعرف أين يرقد ، شكراً لله ! ولكن هناك الكثيرات بيننا الآن اللواتي لا يعرفن أين يرقد أبناؤهن وأزواجهن وأخوانهن و . .» .

وغصت ، وساد الغرفة صمت تام .

والتفت جميع هؤلاء إلى ميلاني بعيون تقول «لماذا تنكئين هذه الجراح ثانية؟ هذه الجراح التي لم تكن لتندمل أبداً ـ الجراح الناجمة عن عدم معرفتهن أين يرقدون !» .

واستجمع صوت ميلاني قوة من سكون الغرفة :

ـ «إن قبورهم تقع في مكان ما شمالاً ، في بلاد العدو ، تماماً كما تقع قبور الشماليين هنا . وآه ، ما أفظع أن نعرف أن إحدى النساء الشماليات قالت إنها ستنبش قبورهم وـ» .

فزفرت السيدة ميد صوتاً مرعباً قصيراً .

ـ «ولكن ما أجمل أن نعرف أن إحدى النساء الشماليات الطيبات ـ ولا بد أن يوجد هناك بعض النساء الطيبات . أنا لا أحفل بما يقوله الناس ، فليس من الممكن أن يكون جميع الشماليين أشراراً ! ـ ما أجمل أن نعرف أنهن يستأصلن الأعشاب من قبور رجالنا ويجلبن الأزهار إليها ، حتى ولو كن أعداء . ولو كان شارلي مدفوناً في الشمال ، لكان من العزاء لي أن أعرف أن أحد الناس ـ وأنا لا أحفل بما تفكرن في هذا أيتها السيدات» وغص صوتها ثانية «سأنسحب من كلا الجمعيتين وسـ . . . وسأقتلع كل نبتة عشب من كل قبر شمالي أستطيع أن أجده ، وسأزرع الأزهار أيضاً ـ و ـ إني أتحدى أي إنسان أن يمنعني عن ذلك» .

وبهذا التحدي النهائي ، انفجرت ميلاني في البكاء ، وحاولت أن تتخذ طريقها المتعثرة إلى الباب .

وكانت ميلاني من هيئة إدارة «بيت اليتيم» من السيدات ، وكذلك كانت تساعد في جمع الكتب لمكتبة جمعية الشباب الحديثة النشأة ، وحتى جمعية

الممثلين الذين كانوا يقومون بتمثيليات هواية مرة في كل شهر راح أعضاؤها يستصرخون من أجل انضمام ميلاني إليهم ، إلا أنها كانت حيية جداً بحيث لم ترض الظهور خلف صف مصابيح الكاز على أرض المسرح ، ولكن كان بوسعها أن تصنع ملابس من أكياس القنب إذا كانت هذه هي المادة الوحيدة الموجودة .

وفي ليالي الصيف الأخيرة ، كان بيتها الصغير الخافت الأضواء يعج دائماً بالضيوف . ولم يكن هناك أبداً كراسي تكفي الحضور ، فكانت السيدات يجلسن على درجات الشرفة الأمامية ، والرجال يتجمعون حولهن على الدرابزين ، وعلى الصناديق ، وعلى المرجة في الأسفل ، وأحياناً ، عندما كانت سكارلت ترى الضيوف جالسين على العشب ، يرتشفون الشاي ، المرطب الوحيد الذي كان وسع الويلكسيين تقديمه ، كانت تتساءل كيف كان يسع ميلاني أن توصل نفسها إلى أن تعرض فقرها بهذه الصورة الوقحة . ولم تكن سكارلت تنوي استقبال الضيوف في بيتها ـ خصوصاً الضيوف المرموقين كأولئك الذين كانوا يزورون ميلاني ـ إلا بعد أن يصبح بمقدورها أن تؤثث بيت العمة بيتي كما كان قبل الحرب ، وأن تقدم لضيوفها العرق الجيد وشراب الجلاب ولحم الخنزير المشوي ولحومات الغزلان الباردة .

*

استمرت سكارلت تنسل وفرانك عبر السياج الخلفي لينضما إلى اجتماعات ليالي الصيف على شرفة ميلاني ، إلى أن بلغ جسدها حداً من التضخم لم يستطع معه حتى شال العمة بيتي الأسود أن يستر حبلها . كانت تجلس دائماً خارج نطاق الضوء بشكل ناجح ، تختبئ في الظلال الواقية حيث لم يكن يتعذر تمييزها فقط ، بل كان بوسعها أيضاً أن تراقب وجه آشلي إرضاء لقلبها دون أن يلحظها أحد .

لقد كان آشلي فقط هو الذي يجذبها إلى البيت ، لأن الأحاديث كانت تضايقها وتنفرها ، الأحاديث التي كانت دائماً تتبع نموذجاً مقرراً ـ أولاً الأوقات الصعبة ، ثم الوضع السياسي ، وبعدئذ الموضوع الذي لا يمكن تجنبه ألا وهو الحرب .

وحدث مرة أن أبعد موضوع الأوقات الصعبة ، وتحدثت السيدات عن

وقاحة الزنوج المتفاقمة وانتهاكات الأعراض من قبل الكاريت بغرز، كما تحدثن عن الإذلال الناجم عن كون الجنود الشماليين يتسكعون في كل زاوية في المدينة. هل كان السادة يعتقدون أن الشماليين سيتبجحون يوماً في تجديد جورجيا؟ لقد كان السادة المطمئنون يعتقدون أن التجديد سينتهي في وقت سريع جداً ـ يعني تماماً حالما يستطيع الديموقراطيون أن يستعيدوا حق التصويت. بيد أن السيدات كن رصينات جداً بحيث لم يسألن متى كان سيتم هذا الأمر. وهكذا بعد أن فرغن من الحديث عن السياسة بدأ الحديث عن الحرب.

كلما التقى حلفيان سابقان في أي مكان، لم يكن هناك أبداً موضوع للحديث سوى موضوع الحرب. وحيث كان يجتمع عشرة أشخاص، أو أكثر، فإن نتيجة اجتماعهم المفروغ منها، كانت أن الحرب ستخاض ثانية، وكانت كلمة «لو» تحظى بالمركز الأكثر بروزاً من الحديث.

ـ «إنهم لا يتحدثون عن أي شيء آخر» فكرت سكارلت «لا شيء سوى الحرب، الحرب دائماً، ولن يتحدثوا عن أي شيء إلاّ الحرب، إلى أن يموتوا».

وتطلعت حولها ورأت الصبية الصغار يضطجعون على أذرع آبائهم المثنية، وأنفاسهم تخرج سريعة، وعيونهم تتوهج وهم يسمعون عن هجمات منتصف الليل وانقضاضات الفرسان الضارية وغرز الأعلام في صدور الأعداء. لقد كانوا يسمعون الطبول والأبواق وصيحة الثورة وهم يرون رجالاً مقرحي الأقدام، يزحفون في المطر بأعلام ممزقة مائلة.

ـ «وهؤلاء الأطفال لن يتحدثوا عن أي شيء آخر كذلك، بل سيعتقدون أنه كان عملاً مدهشاً مجيداً أن يحارب أهلوهم الشماليين ثم يعودوا إلى البيت عمياناً وعرجاً ـ أو أن لا يعودوا أبداً. إنهم جميعاً يحبون أن يتذكروا الحرب ليتحدثوا عنها، ولكني لا أحب ذلك، لا أحب حتى أن أفكر بها، وكنت سأنسى كل شيء عنها لو استطعت إلى ذلك سبيلاً ـ آه حبذا لو أني استطعت!».

وأصغت سكارلت وبشرتها تتخدر عندما راحت ميلاني تروي قصص تارا، جاعلة سكارلت بطلة لأنها واجهت الغزاة وأنقذت سيف تشارلز، متباهية كيف أن سكارلت أخمدت النار. إلا أن هذه لم تشعر بالسرور أو الفخر عند ذكر

هذه الأمور لأنها لم تكن ترغب في أن تفكر فيها أبداً .

كانت سكارلت ترى آشلي مراراً هذه الأيام ، ولكنها لم تكن تراه وحيداً أبداً . فقد كان يمر بالبيت في كل ليلة ، وهو في طريقه من المعمل إلى منزله ليقدم تقريراً عن عمل اليوم ، إلا أن فرانك وبيتي كانا يوجدان عادة معهما ، أو أسوأ من ذلك ، كانت توجد ميلاني وإنديا ، فلم يكن بوسعها والحالة هذه أن تسأله سوى أسئلة تتعلق بالعمل فقط وتقدم اقتراحات ثم تقول «لقد كان لطفاً منك أن تمر بي ، عم مساء» .

حبذا لو أنها لم تكن تحمل جنيناً ! فها هنا فرصة ربانية لتركب وإياه إلى المعمل كل صباح ، عبر الغابات المنعزلة ، بعيداً عن العيون المتجسسة ، وحيث كان بوسعهما أن يتخيلا أنفسهما في الولاية ثانية ، في الأيام السعيدة قبل الحرب .

لا ، لن تحاول أن تجعله يقول أي كلمة حب ! لن تشير إلى الحب بأية طريقة . ستقسم يميناً لنفسها أنها لن تفعل ذلك ثانية . ولكن ، ربما إذا انفردت به مرة أخرى ، يمكن أن يسقط قناع المجاملة الرسمية الذي تقنع به منذ مجيئه إلى أتلانتا . ربما رجع إلى حقيقته ثانية وأضحى آشلي الذي كانت قد عرفته قبل الحفل ، قبل أية كلمة حب كانت قد قيلت بينهما . فإذا لم يكن بوسعهما أن يكونا محبين فإن بمقدورهما أن يكونا صديقين ثانية ، وتستطيع هي أن تدفىء قلبها البارد الموحش في وهج صداقته .

ـ «حبذا لو كان وسعي أن أضع الطفل وأنتهي من أمره» فكرت بفراغ صبر «إذاً لكان بوسعي عندئذ أن أركب معه كل يوم ، ولكان بوسعنا أن نتكلم» .

ولم تكن الرغبة في مرافقته هي فقط التي جعلتها تتلوى بجزع عاجز عن الحصر الذي هي فيه ، بل كان المعملان بحاجة إليها أيضاً . لقد كانا يخسران نقوداً منذ اعتزلت الإشراف العملي عليهما ، تاركة هيو وآشلي مسؤولين عنهما .

كان هيو عاجزاً جداً ، رغم أنه حاول جهده بجد كبير . لقد كان ضعيفاً في فن التجارة ، وأضعف من ذلك في إشرافه على العمل ، وكان بوسع أي إنسان أن يغلبه في المساومة على الأسعار . وإذا ما ارتأى أي مقاول مكار أن يقول إن الخشب كان من نوع رديء ولا يستحق الثمن المطلوب ، فإن هيو كان يحس أن كل ما كان بوسع الرجل الفاضل أن يعمله هو في أن يعتذر ويرضى بثمن

أقل . وعندما سمعت سكارلت بالثمن الذي تقاضاه مقابل ألف قدم من الألواح الأرضية ، انفجرت في دموع الغضب : «إن أحسن نوع من الخشب الأرضي كان المعمل قد أنتجه قد أضاعه هيو عملياً ! وكذلك لم يكن بوسع هيو أن يسوس عماله . كان الزنوج يصرون على أن يدفع لهم أجرهم يومياً ، فكانوا غالباً يسكرون حتى يخمروا بأجورهم ، ولا يأتون للعمل في الصباح التالي ، وفي مثل هذه الحالة ، كان هيو يضطر إلى تصيد عمال جدد ، فيتأخر المعمل في مباشرة العمل . ومع وجود هذه الصعوبات لم يكن هيو ينزل إلى المدينة لبيع الخشب طيلة أيام بلا انقطاع .

وهكذا غدت سكارلت مجنونة بسبب عجزها عن العمل وحماقة هيو ، وهي ترى الأرباح تفلت من بين أصابعه . وحالما سيولد الطفل ويصير بإمكانها العودة إلى العمل ، ستتخلص من هيو وتستخدم رجلاً آخر ، فأي رجل يستطيع أن ينتج أفضل منه ، كما أنها لن تخدع بالزنوج المحررين ثانية . ولكن كيف كان بوسع أي إنسان أن يستخلص أي عمل من الزنوج المحررين الذين كانوا يتملصون من العمل طيلة الوقت؟

ـ «فرانك» قالت بعد مقابلة عاصفة مع هيو فيما يتعلق بعماله المفقودين . . إنني على وشك أن أقرر استئجار مجرمين محكوم عليهم ليشتغلوا في المعملين ، وقبيل فترة قصيرة ،كنت أتحدث مع جوني كاليغر ، ناظر توني ولبورون ، عن المتاعب التي نعانيها في إنجاز أي عمل بوساطة الزنوج ، فسألني لماذا لم أحصل على مجرمين وبدت تلك فكرة جيدة في نظري . لقد قال إن بوسعي أن أستأجرهم بمنتهى الرخص وأغذيهم بطعام رديء رخيص . وقال إن بوسعي أن أنجز عملاً بوساطتهم بأية طريقة أريدها ، دون أن يأتي رجال هيئة التحرير وينقضوا علي كالدبابير مدخلين أنوفهم في أشياء ليست من شأنهم . وحالما تنتهي اتفاقية جوني كالغير ، سأستخدمه ليدير معمل هيو فكل رجل يستطيع أن يستخلص عملاً من تلك الزمرة من الإيرلنديين الهمجيين الذين يشرف عليهم ، يستطيع حتماً أن يستخلص عملاً كبيراً من المجرمين .

مجرمون ! وانقلب فرانك إلى رجل أبكم ! إن استئجار المجرمين كان أسوأ المشاريع الطائشة التي كانت سكارلت قد اقترحتها ، أسوأ حتى من فكرتها في بناء حانة .

وعلى الأقل ، لقد بدا أسوأ من تلك في نظر فرانك وفي نظر الأوساط المحافظة التي كان يتنقل فيها . كان هذا النظام الجديد في استئجار المجرمين قد ظهر إلى الوجود بسبب فقر الدولة بعد الحرب . فلكونها عاجزة عن إعالة المجرمين ، راحت تؤجرهم لأولئك الذين كانوا بحاجة إلى جماعات كبيرة من العملة في بناء السكك الحديد وفي غابات أشجار التربنتين وفي معسكرات الأخشاب . وبينما كان فرانك وأصدقاؤه المتدينون الهادئون يدركون ضرورة هذا النظام ، إلا أنهم كانوا يستنكرونه مع ذلك .

لقد كان الكثير منهم لا يؤمنون حتى بنظام العبودية ، ولذلك اعتقدوا أن هذا النظام كان أسوأ مما كانت عليه العبودية في أي وقت مضى .

بيد أن سكارلت كانت تريد أن تستأجر مجرمين ! وكان فرانك يعرف أنها إذا ما فعلت ذلك ، فلن يستطيع أن يرفع رأسه ثانية . لقد كان هذا أسوأ بكثير من امتلاكها للمعملين وإدارتها إياهما بنفسها ، أو من أي شيء آخر كانت قد فعلته . لقد كانت معارضاته السالفة مقرونة دائماً بالسؤال التالي «ماذا سيقول الناس؟» إلا أن هذا ـ هذا الأمر الأخير كان له في نفسه أثر أعمق من خوفه من الرأي العام ، لقد أحس أنه كان تجارة محرمة في أجساد بشرية ، تجارة مساوية للبغاء ، إثماً سينزل على روحه إن هو سمح لها بارتكابه .

من هذا الاعتقاد بالخطيئة ، استجمع فرانك شجاعة ليمنع سكارلت من ارتكاب شيء كهذا . وكانت ملاحظاته قوية جداً بحيث أنها ارتدت صامتة وهي مجفلة . وأخيراً ومن أجل تهدئته ، قالت بوداعة إنها لم تكن تعني ما قالته حقيقة ، وإنما كانت يائسة من هيو ومن الزنوج المحررين بحيث أنها فقدت طبعها . غير أنها ظلت تفكر في الأمر وببعض اللهفة على تحقيقه ، فعمل المجرمين سينهي أحد مشاكلها . ولكن إذا كان فرانك سيستمر على هذه الوتيرة فيما يتعلق بالموضوع . . .

وتنهدت . لو أن أحد المعملين كان يثمر نقوداً لكان بوسعها أن تتحمل الوضع . غير أن آشلي كان يسير بمعمله أفضل بقليل من هيو .

في البدء ، صدمت سكارلت وخاب أملها لأن آشلي لم يمسك بزمام الأمور فوراً ، ويجعل المعمل ينتج ضعف ما كان ينتج وهو تحت إدارتها . لقد كان ذكياً جداً ، وكان قد قرأ كتباً كثيرة جداً ، ولم يكن هناك سبب البتة يمنعه من

أن يحرز نجاحاً باهراً ومقادير وفيرة من المال ، غير أنه لم يكن أكثر نجاحاً من هيو . فلقد كان عدم خبرته ، وأخطاؤه ، وافتقاره المطلق إلى الحنكة في التجارة ، وارتيابه فيما يتعلق بالمعاملات التي يعتمد فيها على الثقة ، كانت كل هذه الصفات كما هي عند هيو .

إلاّ أن حب سكارلت سرعان ما وجد المعاذير له ، فلم تعتبر الرجلين في المستوى ذاته . لقد كان هيو مجرد غبي عديم الحيلة ، بينما كان آشلي حديثاً في التجارة وحسب . ومع ذلك ، وبدون استدعاء ، أتتها فكرة أن آشلي لم يكن بوسعه أبداً أن يقوم بتقدير سريع صحيح في عقله للأثمان ، كما كان بوسعها هي أن تفعل ، وكانت أحياناً تتساءل عما إذا كان قد تعلم أن يميز بين الألواح الخشبية وعتبات النوافذ السفلية . ولأنه كان رجلاً فاضلاً جديراً بالثقة ، فإنه كان يثق بكل وغد يأتي إلى المعمل ، ولذا كان يمكن أن يخسرها نقوداً في مرات عديدة لو لم تتدخل هي بلباقة . وإذا هو أحب شخصاً . . . وكان يبدو أنه يحب أشخاصاً كثيرين جداً . . . فإنه يبيعه الخشب بالدين دون أن يفكر في أن يكتشف ما إذا كان لديه نقود في المصرف أو عقار . لقد كان رديئاً كفرانك من تلك الناحية .

ولكنه سيتعلم حتماً ! وبينما كان يتعلّم ، كانت هي تتجمل بصبر ورفق أمومي ودود أمام أخطائه . وفي كل مساء ، عندما كان يمر ببيتها منهوكاً واهن العزيمة ، كانت تدأب على تقديم اقتراحاتها المساعدة اللبقة له . ولكن رغم كل تشجيعها ومرحها ، فقد كانت تشوب عينيه نظرة غريبة سقيمة لم تستطع فهمها ، الأمر الذي أفزعها . لقد كان مختلفاً ، مختلفاً جداً عن الرجل الذي اعتاد أن يكونه . حبذا لو كان بوسعها أن تراه على انفراد ، فربما اكتشفت السبب .

هذه الوضعية أرقتها ليالي كثيرة . لقد كانت قلقة على آشلي ، أولاً لأنها كانت تعرف أنه كان غير سعيد ، وثانياً لأنها كانت تعرف أن عدم سعادته لم تكن لتساعده على أن يغدو تاجر أخشاب ناجح . وكان مما يعذبها كون معمليها في أيدي رجلين لا يملكان من الوعي التجاري أكثر مما يملك هيو وآشلي . وتقطر قلبها أسى وهي ترى أن منافسيها كانوا ينتزعون أحسن زبائنها ، بينما كانت هي قد عملت بجد كبير ، ووضعت خططها بعناية فائقة لهذه

الشهور التي تكون فيها عاجزة عن العمل . آه حبذا لو كان بوسعها أن تعود إلى العمل ثانية ! إذاً لكانت تأخذ بيد آشلي ، وعندئذ سيتعلم حتماً ، وبوسع جوني كاليغر أن يدير المعمل الآخر ، بينما هي تستطيع الإشراف على البيع ، وعندئذ سيكون كل شيء على ما يرام . أما بالنسبة إلى هيو ، فبوسعه أن يسوق عربة تسليم الأخشاب لمشتريها إن كان لا يزال يريد أن يشتغل عندها ، وذلك كل ما كان يصلح له .

طبعاً ، كان كاليغر يبدو كرجل لا مبدأ له رغم كل مهارته ، ولكن ـ أي شخص آخر كان بوسعها الحصول عليه؟ لماذا كان جميع الرجال الآخرين الحاذقين والأمناء متمردين عن العمل معها؟ لو أنها فقط كانت تنعم بأحدهم الآن بدلاً من هيو لما اضطرت إلى أن تقلق هذا القلق العظيم ، ولكن !

كان تومي ولبورن أوفر المقاولين عملاً في المدينة وأكثرهم كسباً للمال ، كما كان يقول الناس . وكذلك كانت السيدة ميريويذر ورينيه ناجحين ، وقد افتتحا الآن فرناً في أسفل المدينة يديره رينيه بحسن تدبير فرنسي صادق ، وكان الجد ميريويذر يسوق عربة فطير رينيه وهو مسرور لخلاصه من زاوية المدخنة . وكذلك كان أبناء سيمونس منهمكين جداً بتشغيل فرنهم لعمل الآجر بثلاث دفعات من العمال يومياً . كما كان كلس ويتنغ يجني من مقوم الشعر الذي كان يصنعه ، لأنه كان يخبر الزنوج بأنه لن يسمح لهم بالتصويت إن ظل شعرهم جعداً .

وكان ذلك أيضاً شأن جميع الشبان الحاذقين الذين كانت تعرفهم : الأطباء والمحامين والتجار ، إذ كان الجمود الذي انتابهم فور انتهاء الحرب قد زال تماماً الآن ، وكانوا منهمكين جداً في بناء مستقبلهم بحيث لم يكن بوسعهم أن يساعدوها في بناء مستقبلها . أما الذين كانوا بلا عمل فهم الذين كانوا على شاكلة هيو . . أو آشلي .

إنها لمشكلة كبيرة أن يحاول المرء أن يدير عملاً ويحمل وليداً في آن .

ـ «لن أحمل بوليد آخر أبداً !» قررت بحزم «ولن أكون كالنساء الأخريات فأحبل كل سنة . يا لله ، ذلك يعني أن أظل بعيدة عن معملي ستة شهور من السنة ! وإني أرى الآن أني لا أستطيع أن أظل بعيدة عنهما حتى ليوم واحد . سأخبر فرانك بصراحة أني لا أريد إنجاب أطفال آخرين» .

42

وضعت سكارلت بنتاً، وليدة صغيرة صلعاء، قبيحة كقرد عديم الشعر وشبيهة بفرانك بصورة تدعو إلى السخرية، ولم يكن بوسع أي إنسان باستثناء أبيها المغرم أن يرى أي شيء جميل فيها. إلاّ أن الجيران كانوا طيبين جداً عندما قالوا إن جميع الأطفال القبيحين يصبحون جميلين أخيراً. سميت الطفلة إيلا لورينا، إيلا تكريماً لجدتها إيلين ولورينا لأنه كان أشهر أسماء البنات الدارجة في ذلك الوقت، تماماً كما كان روبرت لي، وستونول جاكسون، الاسمين الشائعين للصبيان، وأبراهام لنكولن وأمانسيبيشن لأولاد الزنوج.

ولدت إيلا لورينا في منتصف أسبوع، حين كان ينتاب أتلانتا اضطراب مجنون، وحين كان الجو متوتراً بانتظار كارثة. ذلك أن زنجيّاً كان قد تباهى بهتك أحد الأعراض، وكان قد ألقي القبض عليه فعلاً، ولكن قبل أن يستطاع إحضاره للمحاكمة، هوجم السجن من قبل الكوكلوكس كلان وأعدم السجين بهدوء. وقد فعل الكلان ذلك لينقذوا الضحية التي لم يكن قد شاع اسمها بعد، من أن تضطر إلى الاستجواب في محاكمة علنية. وكان والدها وشقيقها يفضلان أن يقتلاها على أن تظهر وتعلن عن عارها. ولذا بدا إعدام الزنجي بلا محاكمة حلاً معقولاً في نظر أهل المدينة، والحقيقة أنه كان الحل المحتشم الممكن الوحيد. غير أن السلطات العسكرية غضبت ولم تر أي سبب يمنع الفتاة من أن تستجوب علنياً.

وراح الجنود يقبضون على الناس يميناً وشمالاً، ويقسمون على أن يزيلوا الكلان من الوجود، ولو اضطروا إلى أن يزجوا بكل رجل في أتلانتا بالسجن. وشرع الزنوج الفزعون المكتئبون يدمدمون عن عمليات الثأر بحرق البيوت، وتلبد الجو بإشاعات عن إعدام بالجملة من قبل الشماليين إذا ما اكتشفت الجماعات المجرمة، وعن ثورة مدبرة على البيض من قبل الزنوج. ومكث أهل المدينة في بيوتهم خلف الأبواب الموصدة والنوافذ المغلقة، بعد أن خشي الرجال الذهاب إلى أعمالهم وترك نسائهم وأولادهم دون حماية.

شكرت سكارلت الله بسكينة وصمت، وهي مستلقية في سريرها خائرة القوى، لأن آشلي كان لديه من الإدراك الواسع جداً ما منعه من الانضمام إلى

الكلان ، ولأن فرانك كان مسناً ضعيف الروح . ما أفظع ما سيكون أن تعرف أن الشماليين يمكن أن ينقضوا على البيت ويقبضوا عليهما في أية دقيقة ! لماذا لم يترك شباب الكلان المختلو العقول الأوغاد وشأنهم فلم يثيروا الشماليين على هذه الصورة؟ وبعد كل هذا ، فإن من المحتمل أن لا تكون الفتاة قد اغتصبت ، من المحتمل أن تكون قد أرعبت بصورة حمقاء وحسب ، وبسببها يمكن أن يفقد كثير من الرجال أرواحهم .

في هذا الجو المسيطر ، استعادت سكارلت قواها بسرعة ، وهي متوترة الأعصاب كمن يراقب فتيل المتفجرات يشتعل باتجاه برميل من البارود . ومكنتها الحيوية السليمة ، التي كانت قد اجتازت بها الأيام الصعبة في تارا ، من أن تصبح في حالة جيدة الآن ، وهكذا أضحت بعد أسبوعين من ولادة إيلا لورينا ، في حالة من القوة مكنتها من أن تجلس وتثور على خمولها . وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع نهضت معلنة أن لا بد لها من الاهتمام بمعمليها اللذين كانا متوقفين عن الإنتاج لأن كلا هيو وآشلي كانا يخشيان مغادرة عائلتيهما وحيدتين طوال النهار .

ثم نزلت الضربة .

استجمع فرانك الذي كان مفعماً بكبرياء الأبوة الجديدة ، استجمع قوة كافية لمنع سكارلت من مغادرة البيت طالما أن الأوضاع خطرة جداً . ولم تكن أوامره لتزعجها أبداً ، وكان من المتوقع أن تذهب لتشرف على معمليها رغم تلك الأوامر ، لو أنه لم يكن قد وضع حصانها وعربتها في إصطبل الأجرة ، وأمر بوجوب عدم تسليمهما لأي إنسان سواه ، ولكي تزداد الأمور سوءاً ، كان فرانك ومامي قد فتشا البيت بصبر دائب في أثناء مرض سكارلت ، واكتشفا مدخرها من النقود ، ثم أودع فرانك هذه النقود في المصرف باسمه . وهكذا لم يعد بوسعها الآن حتى استئجار عربة وحصان .

ثارت سكارلت على فرانك ومامي كليهما ، ثم خمدت ثورتها إلى رجاء ، وأخيراً راحت تبكي طيلة صباح أحد الأيام كولد غاضب . ولكن رغم كل محاولاتها لم تكن تسمع من فرانك سوى «اسمعي يا حلوتي ، إنما أنت فتاة مريضة صغيرة» . ولم تكن تسمع من مامي سوى «يا آنسة سكارلت ، إذا لم تقلعي عن هذا البكاء ، فسيختثر حليبك ، وستصاب الطفلة بالمغص» .

واندفعت سكارلت وهي في مزاج حانق عبر ساحة البيت الخلفية إلى منزل ميلاني . وهناك فرجت عن نفسها بأعلى صوتها معلنة أنها ستذهب إلى المعملين مشياً على الأقدام ، وستتجول في أتلانتا ، تخبر كل إنسان أي وغد كانت قد تزوجت ، وأنها لن ترضى أن تعامل كطفلة شقية ساذجة العقل ، وستحمل مسدساً وتقتل كل من يهددها . لقد قتلت رجلاً وإنها لتحب ، أجل لتحب أن تقتل رجلاً آخر . إنهاستقتل . . .

وفزعت ميلاني التي كانت تخاف أن تخاطر بالخروج إلى شرفة بيتها الأمامية ، فزعت من هذه التهديدات .

ـ «آه ، ينبغي أن لا تخاطري بنفسك ! سأموت إذا حدث مكروه لك آه ، أرجوك . . .» .

ـ «سأذهب ، سأذهب ، سأذهب مشياً . . .» .

فنظرت ميلاني إليها ، ورأت أن هذه لم تكن هستيريا امرأة لا تزال ضعيفة بعد الولادة . لقد كان هناك في وجه سكارلت التصميم المتهور الفتاك ذاته الذي كانت ميلاني قد رأته مراراً في وجه جيرالد عندما كان عقله يصمم على رأي ما . ولذلك طوقت خصر سكارلت بذراعيها وتمسكت بها بقوة؟

ـ «إنها جميعها غلطتي أنا ، لأني لم أكن شجاعة مثلك ، ولأني أبقيت آشلي معي طيلة هذا الوقت ، بينما كان ينبغي أن يكون في المعمل . آه يا عزيزتي ! إني امرأة ساذجة . عزيزتي ، سأخبر آشلي أني لست فزعة أبداً ، وسآتي وأقيم معك والعمة بيتي ، وعندئذ يستطيع أن يعود إلى عمله و . . .» .

ولم تكن سكارلت لتعترف ، حتى لنفسها ، بأنها لم تكن تعتقد بأن بوسع آشلي أن يكافح الوضع وحيداً ، ولذلك صرخت : «لن تفعلي شيئاً من هذا النوع ! أي نتيجة يمكن أن يؤديها آشلي في المعمل إذا كان قلق البال عليك في كل دقيقة؟ إن الجميع مقيتون جداً ، حتى العم بطرس يرفض أن يخرج معي ! ولكني لا أبالي ! سأذهب وحدي ، سأمشي كل خطوة من الطريق وأنتقي جماعة من الزنوج من مكان ما . . .» .

ـ «آه ، لا ! ينبغي أن لا تفعلي ذلك ! فيمكن أن يقع لك حادث مريع . إنهم يقولون إن مستعمرة شانتيتون الواقعة على طريق ديكاتور تعج بالزنوج الأوغاد ، وأنت ستمرين إزاءها تماماً . دعيني أفكر ـ عزيزتي ، عديني أنك لن تفعلي شيئاً

هذا اليوم وأنا سأفكر بحل ما . عديني أنك ستذهبين إلى البيت وتأوين إلى فراشك ، فأنت تبدين شاحبة تماماً . عديني» .

ولأنها كانت منهوكة جداً جراء غضبها ، بحيث لم يكن بوسعها أن تفعل خلاف ذلك ، وعدت سكارلت ميلاني بعبوس ، وذهبت إلى البيت ، رافضة بعجرفة أي عروض سليمة من أفراد بيتها .

وبعد ظهر ذلك اليوم اجتاز رجل غريب سياج ميلاني وعبر ساحة بيتي الخلفية . كان من الواضح أنه أحد أولئك الرجال الذين كانت مامي ودلسي تشيران إليهم بـ«الأوغاد الذين تلتقطهم الآنسة ميلي من الشوارع وتدعهم ينامون في قبو بيتها» .

كان هناك ثلاث غرف في قبو بيت ميلاني كانت سابقاً مساكن للخدم وغرفة خمر ، وكانت دلسي تشغل إحداها الآن ، بينما كانت الغرفتان الأخريان مشغولتين باستمرار من قبل سيل من عابري الطريق البائسين الخَلقي الثياب .

ولم يكن أحد باستثناء ميلاني يعرف من أين كانوا يأتون وإلى أين كانوا يذهبون ، ولم يكن أحد سواها أيضاً يعرف من أين كانت تجمعهم . وربما كانت الزنجيتان مصيبتين في أن ميلاني كانت تلتقطهم من الشوارع . ولكن كما كان الرجال العظام وأشباه العظام ينجذبون إلى صالتها الصغيرة ، كذلك كان التعساء يجدون طريقهم إلى قبوها ، حيث كانوا يطعمون وينامون ، ثم يستأنفون طريقهم محملين برزم الطعام . وكان نزلاء تينك الغرفتين في العادة جنوداً حلفيين سابقين من الفئة الأمية الفظة ، ورجالاً بلا مأوى ، ورجالاً بلا عائلات ، يضربون في أنحاء الولاية أملاً في إيجاد عمل .

ومراراً ما قضت الليل هناك نساء ريفيات سمراوات ذاويات يصحبن أطفالاً صامتين كثيثي الشعور ، نساء رملتهن الحرب ، طردن من مزارعهن ، ، ينشدن أقرباءهن الذين كانوا مبعثرين مفقودين . وكان الجيران يشعرون بالمهانة أحياناً بسبب وجود هؤلاء الغرباء ، الذين كانوا يتكلمون الإنكليزية قليلاً أو لا يتكلمونها أبداً ، والذين كانوا قد انجذبوا إلى الجنوب بتأثير القصص البراقة عن الثروات التي تجمع بسهولة فيه . وحدث مرة أن نام جمهوري هناك ، أو على الأقل ، أصرت مامي على أنه جمهوري ، قائلة إن بوسعها أن تشم رائحة الجمهوري تماماً كما يشم حصان حبة الجرس . بيد أن أحداً لم يصدق قصة

مامي ، لأنه يجب أن يكون هناك حدود حتى لإحسان ميلاني ، وهذا ما كان يرجوه كل إنسان على الأقل .

أجل ، فكرت سكارلت ، وهي تجلس على جانب الشرفة في شمس تشرين الثاني/ نوفمبر الشاحبة ، والطفلة على حجرها ، أنه أحد كلاب ميلاني العرج ، وأنه لأعرج حقاً ، بلا جدال !

كان الرجل الذي اتخذ طريقه عبر الساحة الخلفية يخطو على ساق خشبية مثل ويل بنتين . كان رجلاً مسناً نحيفاً طويل القامة ذا رأس أصلع يلمع قذراً محمراً ، وذا لحية شائبة طويلة جداً ، بحيث كان بوسعه أن يدسها تحت حزامه . وكان يبدو أنه تجاوز الستين من العمر بالنظر لوجهه الجاف المتغضن ، ومع ذلك فإن عمره لم يحن قامته ، وكان أيضاً ضامر الجسد فظ الهيئة ، ولكنه كان يتحرك بسرعة رغم ساقه الخشبية .

صعد الدرجات واتجه إليها ، وعرفت سكارلت أنه كان من أبناء الجبال حتى قبل أن يتكلم ويظهر في لهجته طنين وتشديد لحرف الراء ، تلك الميزة غير المعتادة في المناطق المنخفضة . ورغم قذارته وثيابه الرثة ، فقد كان يكتنفه ، شأن كل الجبليين مظهر من الكبرياء الصامتة الصارمة ، التي لا تسمح بأي حرية ، ولا تبيح أي سخف . وكانت لحيته ملطخة بالتبغ ، بينما كانت مضغة كبيرة في شدقه تجعل وجهه يبدو مشوهاً . وكان أنفه نحيفاً مشمخراً ، وحاجباه كثين متينين ، أما أذناه فكانت تبرز منهما جمة كثيفة من الشعر ، تضفي عليهما مظهر أذني وشق مكسوين بالشعر . وتحت أحد حاجبيه كانت توجد نقرة فارغة يمتد منها ندب على وجنته ، حافراً خطاً منحرفاً خلال لحيته . أما العين الأخرى فكانت صغيرة شاحبة ساكنة ، عين عديمة الرحمة لا تطرف . وقد علق في حزام سرواله مسدساً ثقيلاً بادياً للعيان . وكان يبرز من أعلى جزمته المهلهلة مقبض سكين صيد طويل .

رد الغريب على تحديق سكارلت ببرود ، وبصق من فوق الدرابزين قبل أن يتكلم . وكانت عينه تنطق بالازدراء ، ليس ازدراء شخصياً لها ، بل ازدراء لكل جنسها .

- «لقد أرسلتني السيدة ولكس لأشتغل عندك» قال باقتضاب . كان يتكلم ببلادة كإنسان لم يكن معتاداً على التكلم ، وكانت الكلمات تخرج بطيئة من

فمه ، بصعوبة تقريباً «اسمي آرشي» .

ـ «إني آسفة لعدم وجود عمل لك لدي يا سيد آرشي» .

ـ «إن آرشي هو اسمي الأول» .

ـ «أرجو عفوك ، ما هو اسمك الأخير؟» .

فبصق ثانية «أعتقد أن ذلك من شأني أنا» قال «فآرشي يكفي» .

ـ «أنا لا أحفل باسمك الأخير! ليس لدي عمل لك» .

ـ «أعتقد أن لديك . لقد كانت السيدة ويلكس مهمومة فيما يتعلق برغبتك في التجول وحدك كامرأة بلهاء ، ولذا أرسلتني هنا لأسوق لك العربة» .

ـ «حقاً؟» صاحت سكارلت حانقة من وقاحة الرجل وتدخل ميلي .

وقابلت عينه عينيها ببغض غير شخصي «أجل ، ليس من شأن المرأة أن تضايق رجال عائلتها عندما يحاولون أن يحرصوا عليها . إذا كنت مضطرة إلى الخروج والتجول ، فسأسوق عربتك . إني أكره الزنوج ـ والشماليين أيضاً» .

ونقل مضغة التبغ إلى الشدق الآخر ، ودون أن ينتظر دعوتها جلس على الدرجة العليا «أنا لم أقل إني أحب أن أقود النساء في تجوالهن ، ولكن السيدة ويلكس أحسنت إلي وسمحت لي بالنوم في قبوها ثم أرسلتني لأسوق عربتك» .

ـ «ولكن . . .» بدأت سكارلت حائرة ، ثم صمتت ونظرت إليه . وبعد لحظة شرعت تبتسم . إنها لم تحب نظرات هذا العجوز ولكن قدومه سيسهل الأمور ، فبوجوده إلى جانبها كان يسعها أن تذهب إلى المدينة وتركب إلى المعملين وتزور الزبائن . ولكن لا يكون بوسع أحد أن يرتاب في سلامتها معه ومجرد مظهره كان كافياً ليقيها فضيحة الناس .

ـ «المسألة فيها نظر» قالت «أعني إذا وافق زوجي» .

أعلن فرانك موافقته المترددة بعد محادثة خاصة مع آرشي . وبعث بكلمة إلى إصطبل الأجرة ليطلق سراح الحصان والعربة . وكان فرانك متألماً قانطاً لأن الأمومة لم تكن قد غيرت سكارلت كما كان قد أمل . ولكن إذا كانت مصرة على أن تعود إلى معمليها اللعينين فإن آرشي كان نعمة من عند الله .

وهكذا بدأت العلاقة التي أذهلت أتلانتا في بادئ الأمر . فقد كان آرشي وسكارلت نقيضين غريبين : الرجل العجوز الشرس القذر ينتصب بساقه الخشبية في مقدمة العربة ، والمرأة الشابة الجميلة الأنيقة الثياب المنقبضة الجبين في عبوس

مشدوه . وكان يمكن أن يريا في كل الساعات وفي كل الأمكنة في أتلانتا وعلى مقربة منها ، ونادراً ما رؤيا يتكلمان معاً ، بل كان من الواضح أنهما كانا يكرهان أحدهما الآخر . غير أنهما مع ذلك كانا مرتبطين معاً بحاجة متبادلة : هو بحاجته إلى المال ، وهي بحاجتها إلى الحماية . ولقد قالت سيدات أتلانتا إن هذا على الأقل أفضل من أن تركب بصفاقة متناهية مع ذلك الرجل بتلر . وكن يتساءلن بفضول أين كان ريت هذه الأيام ، لأنه كان قد غادر المدينة فجأة منذ ثلاثة شهور ، ولم يكن أحد ، حتى سكارلت ، يعرف أين كان .

كان آرشي رجلاً صامتاً ، لا يتكلم أبداً ما لم يخاطب ، وكان يجيب عادة بصوت كأنه صوت خنزير . كان يجيء كل صباح من قبو ميلاني ويجلس على درجات بيت بيتي ، يمضغ التبغ ويبصق على الأرض إلى أن تخرج سكارلت ويحضر بطرس العربة من الإصطبل . وكان العم بطرس يخافه ، أقل بقليل من خوفه من الشيطان أو الكوكلوكس كلان . وحتى مامي كانت تمشي صامتة متهيبة حوله . وكان آرشي يكره الزنوج الذين كانوا يعرفون ذلك ، ويخافونه . وكان قد دعم مسدسه وسكينه بمسدس آخر ، وشاعت شهرته واسعاً بين السود . إلاّ أنه لم يضطر يوماً إلى أن يسحب مسدسه أو حتى إلى أن يضع يده على السكين ، فتأثيره النفسي كان كافياً ، إذ لم يكن أي زنجي يجرؤ حتى على الضحك عندما يكون آرشي في مدى السمع .

ومرة سألته سكارلت بفضول ، عن سبب كراهيته للزنوج . فدهشت عندما أجابها كما كان يجيب على كل الأسئلة عموماً :

- «إني أكرههم كما يكرههم جميع الجبليين . ونحن لم نحبهم أبداً ، كما أننا لم نمتلك واحداً منهم مطلقاً . لقد كان الزنوج هم الذين أشعلوا الحرب . إني أكرههم لذلك السبب أيضاً .

- «ولكنك اشتركت في الحرب» .

- «أعتقد أن ذلك حق خاص بالرجل . إني أكره الشماليين أيضاً ، أكثر مما أكره الزنوج ، أكرههم كراهية شديدة ككراهيتي للنساء الثرثارات» .

مثل هذه الوقاحة الصريحة كانت السبب الذي جعل سكارلت تتردى في ثورات صامتة وتتوق للخلاص منه . ولكن كيف كان بوسعها أن تشتغل بدونه؟ بأي طريقة أخرى كان بوسعها أن تحصل على حرية كهذه؟ لقد كان

وقحاً قذراً تفوح منه من حين إلى آخر رائحة نتنة جداً . بيد أنه كان يخدم غايتها . كان يسوق عربتها من المعملين وإليهما ، وفي جولاتها على الزبائن ، وهو يبصق أو يحدق بعيداً ، بينما كانت هي تتحدث أو تصدر الأوامر . وإذا ما نزلت من العربة نزل خلفها وتبع خطواتها . وإذا كانت بين العمال الأجلاف أو الزنوج أو الشماليين ، كان نادراً ما يبعد عن مرفقها أكثر من خطوة .

وسرعان ما ألفت أتلانتا رؤية سكارلت وحارسها . ومن هذه الألفة شرعت السيدات يحسدنها على حريتها في التنقل ، فمنذ اقتصاص الكوكلوكس ، كانت النسوة محجوزات عمليّاً ، حتى إنهن لم يكن يذهبن إلى المدينة لابتياع حوائجهن ما لم يكن ستة على الأقل ، ولما كن اجتماعيات التفكير بالفطرة ، لذلك شرعن بالتذمر ، ووضعن كبرياءهن في جيوبهن وبدأن يلتمسن إعارة آرشي لهن من سكارلت . وهكذا كلما لم تكن بحاجة إليه ، كانت لطيفة جداً في أن تستغني عنه لخدمة السيدات الأخريات .

وسرعان ما أصبح آرشي مؤسسة أتلانتية ، وصارت السيدات يتنافسن على وقت فراغه ، ونادراً ما انقضى صباح دون أن يأتي ولد أو خادم زنجي في وقت الفطور ، يحمل رسالة تقول : «إذا كنت لن تستخدمي آرشي بعد ظهر هذا اليوم ، فأعيريني إياه ، لأني أريد أن أذهب إلى المقبرة ببعض الزهور» أو «علي أن أذهب إلى محلات بيع القبعات» أو «إني أرغب في أن يسوق آرشي عربة العمة نيلي في نزهة قصيرة» أو «علي أن أذهب في زيارة إلى شارع بطرس والجد لا يشعر بصحة جيدة كي يأخذني ، فهل يستطيع آرشي أن . .» .

كان يسوق عرباتهن جميعاً : صبايا ومتزوجات وأرامل . وكان يبدي تجاه الجميع الازدراء عينه الذي لا يلين . لقد كان من الواضح أنه لا يحب النساء ، باستثناء ميلاني ، أكثر مما يحب الزنوج والشماليين ! إلا أن النساء تعودن عليه أخيراً رغم أنهن صدمن من وقاحته في بادئ الأمر . ولما كان شديد الصمت باستثناء ما كان يصدر عنه من فرقعات متقطعة ناجمة عن بصق عصير التبغ ، لذلك اعتبرنه واقعاً لا بد منه ، كالخيل التي كان يسوقها ، ونسين وجوده ذاته . والحقيقة أن السيدة ميريويذر.روت للسيدة ميد التفاصيل الكاملة لمضايقات حصر ابنة شقيقتها حتى قبل أن تتذكر وجود آرشي على مقعد العربة الأمامي .

ولم يكن من الممكن قبول وضعية كهذه في وقت غير هذا الوقت ، فقبل

الحرب لم يكن من الممكن أن يسمح لآرشي حتى بدخول مطابخ السيدات، بل كن يناولنه الطعام من الأبواب الخلفية ثم يرسلنه في سبيله، غير أنهن الآن كن يرحبن بوجوده المطمئن. ورغم أنه كان فظاً أمياً قذراً، فقد كان متراساً يحول بين السيدات وبين أهوال التجديد. ولم يكن هو صديقاً ولا خادماً، وإنما حارساً مستأجراً يحمي النساء في الوقت الذي كان فيه الرجال يشتغلون نهاراً أو يغيبون عن بيوتهم ليلاً.

وبدا لسكارلت أن فرانك أخذ يتغيب عن البيت مراراً بعد أن دخل آرشي في خدمتها. كان يقول إن من الواجب أن توازن دفاتر حسابات المخزن وأن العمل أضحى كثيراً جداً الآن، بحيث لم يكن يسمح له بوقت يكفيه للقيام بهذه الموازنة في ساعات العمل. ثم إن هناك أصدقاء مرضى كان يجب أن يزورهم، ثم منظمة الديموقراطيين التي كانت تجتمع كل ليلة لتبتكر أساليب لاسترجاع حق الاقتراع، ولم يكن فرانك يضيع أياً من اجتماعاتها. وكانت سكارلت تعتقد أن هذه المنظمة لم تعمل إلا قليلاً بالإضافة إلى تقريظ مزايا الجنرال جون ب. غوردون وتقديمها على مزايا أي جنرال آخر ما عدا الجنرال لي، وكذلك بالإضافة إلى خوض الحرب مجدداً، إذ كان من الأكيد أنها لم تستطع أن تلاحظ أي تقدم في اتجاه استرجاع حق الاقتراع. ولكن من الواضح أن فرانك كان يبتهج بالاجتماعات لأنه كان يظل خارج البيت طيلة ساعات تلك الليالي.

وكان آشلي يزور المرضى أيضاً، وكذلك كان يحضر اجتماعات الديموقراطيين، وكان يتغيب عادة في الليالي ذاتها التي كان فرانك يتغيب فيها. وكان آرشي يرافق في هذه الليالي بيتي وسكارلت ووِيد وإيلا الصغيرة، عبر الساحة الخلفية، إلى منزل ميلاني حيث كانت العائلتان تقضيان الأمسيات معاً: السيدات يخطن بينما ينبطح آرشي بكامل قامته على كنبة الردهة ويأخذ بالشخير وشارباه الرماديان يهتزان عند كل شهيق وزفير. ولم يكن أحد يدعوه ليرقد بجسده على الكنبة، التي كانت السيدات يتذمرن كلما اضطجع عليها لأنها أجمل قطعة أثاث في البيت. وكان آرشي يدس حذاءه في الفراش الجميل، بيد أن واحدة منهن لم تكن تملك الشجاعة لتعترض عليه، خصوصاً بعد أن علق قائلاً إن من حسن حظه أنه كان ينام بسهولة، وإلاّ لكان صوت

السيدات الذي يقرقع كسرب من الدجاج الغينياوي سيودي به حتماً إلى الجنون .

كانت سكارلت تتساءل من أي بلاد أتى آرشي ، وكيف كانت حياته قبل أن يأتي ليعيش في قبو ميلاني ، غير أنها لم تسأله أي سؤال في هذا الصدد ، فلقد كان ما يشوب وجهه الكئيب الأعور هو الذي يخمد فضولها . وكل ما كانت تعرفه هو أن صوته كان يدل على سكان الجبال الشمالية ، وأنه كان في الجيش وفقد ساقه وعينه قبيل الاستسلام بقليل . ولم يكشف الحقيقة عن ماضيه إلاّ بعض الكلمات التي تفوهت بها سكارلت في نوبة غضب ضد هيو ألسنغ .

ففي صباح أحد الأيام ، وكان الرجل العجوز قد ساق عربة سكارلت إلى معمل هيو ، وكانت هي قد وجدت المعمل متوقفاً عن العمل والزنوج غير موجودين وهيو يجلس يائساً تحت شجرة ، ولم يكن عماله قد حضروا في ذلك الصباح ، فكان في حيرة مما ينبغي عمله . وثارت سكارلت ، ولم تتردد في أن تمد ثورتها إلى هيو ، لأنها كانت قد تلقت طلباً لتقديم كمية كبيرة من الخشب ـ طلباً سريعاً بلا جدال ـ كانت قد استخدمت نشاطها وفتنتها ومهارتها في المساومة لتظفر بذلك الطلب ، والآن ها هو المعمل متوقف عن العمل .

ـ «خذني إلى المعمل الآخر» أمرت آرشي «أجل إني أعرف أن ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً وأننا لن نتناول غداءنا ، ولكن لماذا أدفع لك راتبك؟ علي أن أدع السيد ويلكس يوقف الذي يعمله الآن ، وينجز لي هذا الطلب سريعاً ، هذا ما لم يكن عماله لا يشتغلون كذلك . يا للجحيم! أنا لم أر غبيّاً مثل هيو ألسنغ . سوف أتخلص منه حالما يتم جوني كاليغر ذاك بناء المخازن التي يعمل بها . ماذا يهمني إن كان كاليغر جندياً في الجيش الاتحادي؟ إنه سيشتغل . إني لم أر ، إيرلندياً خاملاً حتى الآن . ولقد سئمت من الزنوج المحررين فليس بوسع المرء أن يعتمد عليهم ، سأعيّن جوني كاليغر وأستأجر بعض الأشقياء المحكومين ، فهو سيستخلص عملاً منهم ، سيـ ـ» .

فالتفت آرشي إليها وعينه تنطق بالحقد ، وعندما تكلم خامر غضب بارد صوته الصدئ :

ـ «إن اليوم الذي تستأجرين فيه أشقياء هو اليوم الذي أتركك فيه» .

فأجفلت سكارلت : «يا لله! لماذا؟» .

- «إني أعرف ما يعني استجار الأشقياء، إني أدعو ذلك قتل الأشقياء، شراء الرجال كما لو كانوا بغالاً، ومعاملتهم أسوأ من أي معاملة تعامل بها البغال، وضربهم وتجويعهم وقتلهم. ومن يعبأ؟ الحكومةلا تعبأ لأنها تحصل بدل الإيجار، والناس الذين يستأجرونهم لا يعبأون، وإنما يريدون أن يطعموهم أرخص طعام ويستخلصون منهم أكثر ما يستطيعون من عمل. يا للجحيم يا سيدة! لم أكن أقدر النساء كثيراً، وإني لا أقدرهن أقل من ذلك الآن».

- «هل هذا من شأنك؟».

- «أعتقد ذلك» قال آرشي باقتضاب، ثم أردف بعد فترة صمت «لقد كنت شقياً مجرماً قرابة أربعين سنة».

فشهقت سكارلت، وللحظات، تراجعت متكئة على الوسائد. هذا إذاً هو الجواب على لغز آرشي، وعدم رغبته في أن يقول اسم عائلته أو مكان ولادته أو أي نبذة عن حياته الماضية، الجواب على الصعوبة التي كان يتكلم بها وعلى كراهيته الباردة للدنيا. أربعون سنة!! ينبغي أن يكون قد دخل السجن شاباً. أربعون سنة! عجباً - ينبغي أن يكون سجيناً مؤبداً، والسجناء المؤبدون كانوا..

- «ما السبب؟ جريمة قتل!».

- «أجل» أجاب بإيجاز وهو يهز العنان «زوجتي».

فرف جفنا سكارلت بسرعة من الرعب.

وبدا أن الفم الذي كان تحت اللحية أخذ يتحرك وكأنه يبتسم على خوفها بشكل كالح «أنا لن أقتلك يا سيدة، إذا كان ذلك ما أفزعك. يوجد سبب واحد فقط لقتل امرأة».

- «أنت قتلت زوجتك!؟».

- «كانت تضاجع شقيقي الذي هرب. لست متأسفاً أبداً لأني قتلتها، فالنساء المنحلات ينبغي أن يقتلن. وليس من حق القانون أن يسجن رجلاً بسبب ذلك، ولكني سجنت».

- «ولكن كيف خرجت من السجن؟ هل هربت؟ هل عفي عنك؟».

- «يمكنك أن تسميه عفواً» وتلوى حاجباه الأشهبان الثخينان معاً، كان الجهد الذي كان يبذله في إخراج الكلمات منسجمة مع بعضها كان جهداً قاسياً.

ـ «عندما قدم شيرمان في عام ١٨٦٤ كنت في سجن ملدجفيل ، شأني منذ أربعين سنة . وعندئذ دعا السجان جميع المسجونين وقال إن الشماليين قادمون ، يحرقون ويقتلون . وإذا كنت أنا أكره شيئاً ، أكثر من كراهيتي للزنوج لو للنساء ، فإن هذا الشيء هو الشماليون» .

ـ «لماذا؟ هل كنت . . هل كنت تعرف أي شمالي؟» .

ـ «لا ، ولكني أسمع عنهم ، أسمع أنهم لا يستطيعون أن يعتنوا بشؤونهم الخاصة . ماذا كانوا يفعلون في جورجيا ، يحررون زنوجنا ويحرقون بيوتنا ويقتلون حيواناتنا؟ على كل حال ، قال السجان إن الجيش بحاجة إلى جنود آخرين حاجة ماسة ، وإن أياً منا يلتحق بالجيش سيغدو حراً عند نهاية الحرب ـ إذا ما خرجنا أحياء منها . ولكن نحن المؤبدين ، نحن القتلة ، قال السجان إن الجيش ليس بحاجة إلينا . وكان ينبغي أن نرسل إلى سجن آخر في مكان ما ، ولكني قلت للسجان إني لست كمعظم المؤبدين ، وإني سجنت لأني قتلت زوجتي وحسب ، وإنها كانت تستحق القتل ، وإني أريد أن أحارب الشماليين . ورأى السجان رأيي في الأمر ، فأخرجني مع المساجين الآخرين» .

وصمت ثم قال :

ـ «ها ، لقد كان ذلك مضحكاً في الحقيقة . لقد أدخلوني السجن بسبب القتل ثم أخرجوني وبندقية في يدي ولدي حق مطلق في أن أقترف عمليات قتل أكثر . كان من الجميل حتماً أن أغدو حراً والبندقية في يدي ثانية . ولقد قمنا نحن الرجال الذين غادرنا سجن ملدجفيل بقتال وبتقتيل عظيمين ، وقتل الكثير منا ، ولم أعرف أن أحداً فر من المعركة . وعندما تم الاستسلام غدونا أحراراً . لقد فقدت هذه الساق وهذه العين ، غير أني لست آسفاً» .

ولهنيهة قصيرة ، فكرت سكارلت ما كان أحمق هذا الرجل العجوز عندما ذهب ليحارب من أجل حكومة كانت قد أخذت أربعين سنة من حياته . لقد سلبت جورجيا شبابه وسني عمره الوسطى عقاباً على جريمة لم تكن جريمة في نظره ، ومع ذلك فقد قدّم مختاراً ساقاً وعيناً لجورجيا . وعاودتها الكلمات المرة التي كان ريت قد تفوه بها في أيام الحرب الأولى ، وتذكرته يقول إنه لا يريد أن يحارب من أجل مجتمع كان قد طرده منبوذاً ، ولكن عندما برزت الضرورة ، انطلق ليحارب من أجل ذلك المجتمع عينه ، تماماً كما فعل آرشي . وبدا لها أن

كل الرجال الجنوبيين من الطبقات العليا والدنيا حمقى عاطفيون لا يهتمون بنفوسهم بقدر ما يهتمون بكلمات عديمة المعاني .

ونظرت إلى يدي آرشي العجوزتين المشوهتين وإلى مسدسيه وسكينه ووخزها الخوف ثانية . أكان يوجد مجرمون سابقون أحراراً مثل آرشي : قتلة وأوباش ولصوص ، عفي عن جرائمهم باسم الحلف؟ كيف لا ، وأي غريب في الشارع يمكن أن يكون مجرماً ! إذا ما عرف فرانك الحقيقة عن آرشي ، فعندئذ ستقع الواقعة ، أو إذا عرفت العمة بيتي ـ بيد أن الصدمة ستقتل بيتي . وأما بالنسبة إلى ميلاني ـ كانت سكارلت ترغب تقريباً في أن تتمكن من إطلاع ميلاني على حقيقة آرشي ، لأن ذلك يعزز صوابها في التقاط الحقيرين وحشرهم بين أصدقائها وأقربائها .

ـ «إني . . إني مسرورة لأنك أخبرتني بذلك يا آرشي ، وإني ـ وإني لن أخبر أحداً . سيكون النبأ صدمة عظيمة للسيدة ويلكس والسيدات الأخريات إذا هن عرفن به» .

ـ «ها ، السيدة ويلكس تعرف به . لقد أخبرتها أول ليلة سمحت لي فيها بالنوم في القبو . أتظنين أني أترك سيدة لطيفة مثلها تدخلني إلى بيتها وهي لا تعلم حقيقة أمري؟» .

ـ «ليحفظنا الله !» صاحت سكارلت دهشة .

كانت ميلاني تعرف أن هذا الرجل قاتل ، وقاتل امرأة أيضاً ، ولم تبعده عن بيتها ، بل إنها أمنت على ابنها معه وعلى عمتها وزوجة شقيقها وجميع صديقاتها ، ولم تكن ، وهي أكثر النساء جبناً ، تخشى أن تظل وحيدة معه في بيتها .

ـ «إن السيدة ويلكس عاقلة تماماً بالنسبة إلى امرأة . لقد أقرت ببراءتي . لقد أقرت أن الكذاب يستمر في الكذب واللص يستمر في اللصوصية ، ولكن الإنسان لا يقترف أكثر من جريمة قتل واحدة في حياته . واعتبرت أن كل من قاتل من أجل الحلف قد كفّر عن أي سيئة كان قد اقترفها . على أني أعتقد أني لم أقترف أي سيئة في قتل زوجتي . . . أجل إن السيدة ويلكس عاقلة تماماً بالنسبة إلى امرأة . . وإني أخبرك أنه في اليوم الذي تستأجرين فيه أشقياء سأتركك» .

فلم تجب سكارلت ، إلاّ أنها فكرت .

ـ «كلما أسرعت في تركي كلما ناسبني ذلك أكثر» . إنه قاتل ! كيف وسع ميلاني أن تكون هكذا ـ هكذا ـ الواقع ، ليس هناك نعت ينعت به عمل ميلاني في إيواء هذا الوغد العجوز ، ودون أن تخبر أصدقاءها أنه من نزلاء السجون . . . وهكذا تكفر الخدمة في الجيش عن المآثم السابقة ! إن ميلاني كانت تخلط بين ذلك وبين التنصير ! ولكنها في ذلك كانت حمقاء تماماً فيما يتعلق بالحلف ، ورجاله المدربين ، وبكل ما يتعلق بهم . ولعنت سكارلت الشماليين في سرها ، وأضافت مثلبة أخرى إلى مجموعة مثالبهم لديها ، فلقد كانوا مسؤولين عن الوضع الذي اضطر المرأة إلى أن تؤوي مجرماً إلى جانبها كي يحميها .

*

وبينما كان آرشي عائداً بسكارلت إلى البيت إبان الغسق البارد ، سمعت وقع حوافر خيول ، ورأت عربات صغيرة وكبيرة تقف خارج صالة «الفتاة العصرية» ، ثم رأت آشلي يجلس فوق حصانه ، وعلى وجهه سمة التيقظ والجهد . وكان أبناء سيمونس يمدون أعناقهم من عربتهم ويشيرون بإشارات توكيدية . وكان هيو ألسنغ يلوح بيديه وخصلة شعره البني متهدّلة على عينيه ، بينما وقفت في وسط الحلقة عربة فطير الجد ميريويذر . وعندما تقدم آرشي بالعربة ، رأت سكارلت أن تومي ولبورن والعم هنري هاملتون كانا يجلسان على المقعد إلى جانب الجد .

ـ «أرجو» فكرت سكارلت مغتاظة «أن لا يركب العم هنري إلى البيت في تلك العربة الخرعة الغريبة ، إذ ينبغي أن يخجل من أن يُرى داخلها . وليس الأمر ناجماً عن أنه لا يمتلك حصاناً ، إنما هو يفعل ذلك كي يستطيع الذهاب والجد معاً إلى الحانة في كل ليلة» .

وعندما حاذت الجمهور بلغها بعض التوتر الذي كان يخامرهم رغم أنها كانت قليلة التأثر ، ثم شرع الخوف يقبض على قلبها .

ـ «ها» فكرت «أرجو أنْ لا تكون فتاة أخرى قد اغتصبت ! إذا ما أعدم الكوكلوكس زنجياً آخر ، فسيمحونا الشماليون» وخاطبت آرشي «قف ، توجد حادثة» .

ـ «إنك لن تقفي خارج صالة» قال آرشي .
ـ «سمعتني . قف . عموا مساء جميعاً . يا آشلي ـ يا عم هنري ، هل حدث حادث سيئ؟ إنكم جميعاً تبدون . .» .
فالتفت الجمهور نحوها ، وأمالوا قبعاتهم مبتسمين ، ولكن عيونهم كانت تنطق بانفعال مضطرم .
ـ «حادث حسن أو سيئ» صاح العم هنري بشراسة» الأمر يعتمد على كيفية نظرتك إليه . . إن ما أقدره هو أن المجلس التشريعي لم يكن بوسعه أن يفعل غير ذلك» .
ـ «المجلس التشريعي؟» فكرت سكارلت وهي تتنفس الصعداء . كانت تهتم قليلاً بالمجلس التشريعي ، لأنها كانت تشعر أن إجراءاته لم تكن لتؤثر فيها إلا قليلاً ، وكان ما يخيفها هو موضوع هيجان الجنود الشماليين ثانية .
ـ «ماذا ينوي المجلس التشريعي أن يفعل الآن؟» .
ـ «لقد رفض التصديق على التعديل نهائياً» . قال غراندبا (الجد) ميريويذر ، وفي صوته نغم من كبرياء «الأمر الذي سيري الشماليين» .
ـ «وسندفع الثمن غالياً . . . أرجو عفوك يا سكارلت» قال آشلي .
ـ «ها ، التعديل؟» استوضحت سكارلت وهي تحاول أن تتظاهر بالذكاء .
لقد كانت السياسة تقع فيما وراء اهتمامها ، ونادراً ما بددت الوقت بالتفكير فيها . كان قد صدق على تعديل ثالث عشر فيما مضى ، أو ربما كان هو التعديل السادس عشر ، ولكن ماذا كان يعني التصديق؟ لم يكن لديها أي فكرة ، بينما كان الرجال يبتهجون عادة فيما يتعلق بهذه الأمور . وظهر على وجهها أمارات النقص في وعيها ، وابتسم آشلي .
ـ «إنه التعديل الذي يسمح للزنوج بالتصويت كما تعلمين» أوضح آشلي «قدم للمجلس التشريعي فرفض أن يصادق عليه» .
ـ «ما أحمقهم ! أنت تعرف أن الشماليين سيفرضونه على أعناقنا !» .
ـ «وهذا ما عنيته بقولي إننا سندفع الثمن غالياً» قال آشلي .
ـ «إني فخور بالمجلس التشريعي ، فخور بحكمته !» صاح العم هنري .
ـ «لن يستطيع الشماليون أن يفرضوه على أعناقنا ، إن نحن رفضنا قبوله» .
ـ «يستطيعون ، وسيفعلون ذلك» أجاب آشلي بصوت هادئ ، إلا أن عينيه

كانتا تنطقان بالقلق «الأمر الذي سيزيد الأوضاع صعوبة بالنسبة إلينا» .

ـ «ها آشلي ، حتماً لا! فالأوضاع لا يمكن أن تزداد سوءاً عما هي عليه الآن» .

ـ «أجل ، يمكن أن تزداد الأوضاع سوءاً ، حتى عما هي عليه الآن . هبي أنه أصبح لدينا مجلس تشريعي زنجي؟ وحاكم زنجي؟ هبي أن الحكم العسكري صار أقسى مما هو اليوم؟» .

فاتسعت عينا سكارلت من الرعب عندما خامر عقلها بعض الفهم .

ـ «كنت أحاول أن أفكر ماذا سيكون الأفضل لجورجيا ، الأفضل لنا جميعاً» قال آشلي وقد تقبّض وجهه «أيكون من الحكمة أن نحارب هذا القانون كما فعل المجلس التشريعي ، ونثير الشمال ضدنا . أنرضى بذلك أم لا . أم . . . نبلع كبرياءنا على أحسن صورة مستطاعة ونخضع بلين ونتغاضى عن كل الموضوع بالسهولة الممكنة؟ إن الأمر سيؤدي إلى النتيجة ذاتها في النهاية . إننا عاجزون ، إننا مضطرون إلى أن نبلع الجرعة التي صمموا على أن يقدموها لنا ، وربما يكون من الأفضل لنا أن نتناولها دون أن نرفس» .

لم تستطع سكارلت سماع كلمات آشلي إلا بصعوبة ، فمن المؤكد أن فحواها التام قد تجاوزت عقلها . لقد كانت تعرف أن آشلي ، كعادته دائماً ، كان يرى كلا جانبي هذه القضية ، بينما كانت هي ترى جانباً واحداً فقط ، وهو كيف يمكن أن تؤثر فيها هذه الصفعة على وجوه الشماليين .

ـ «هل تريد أن تنقلب إلى راديكالي وتصوت مع الجمهوريين يا آشلي؟» سخر الجد ميريويذر بفظاظة .

وخيم على الجمع صمت متوتر ، ورأت سكارلت يد آرشي تتجه بحركة سريعة إلى مسدسه ، ثم تتوقف . لقد كان آرشي يعتقد ، ومراراً ما صرح باعتقاده أن غراندبا كان مجرد كيس هوائي عجوز ، فلم يكن ينوي أن يسمح له بإهانة زوج السيدة ميلاني ، حتى ولو كان زوج السيدة ميلاني يتكلم كأحمق .

واختفى الارتباك فجأة من عيني آشلي ، وتوهج فيهما غضب عارم ، ولكنه قبل أن يتمكّن من التكلم ، هاجم العم هنري الجد ميريويذر قائلاً :

ـ «أنت أيها المتكبّر ـ أنت أيها الآفة ـ أرجو عفوك يا سكارلت ، يا غراندبا

أيها المغفل ، لا تقل ذلك لآشلي !» .

ـ «إن بوسع آشلي أن يهتم بنفسه دون أن تدافع عنه» قال غراندبا ببرود «ثم إنه يتكلم وكأنه سكالاواغ . نخضع ، يا للجحيم ! إني أرجو عفوك يا سكارلت» .

ـ «أنا لم أكن أؤمن بالانفصال» قال آشلي وصوته يرتجف من الغضب «ولكن عندما انفصلت جورجيا وقفت إلى جانبها ، وأنا لم أكن أؤمن بالحرب ، ولكني اشتركت فيها ، وأنا لا أؤمن في جعل الشماليين أكثر جنوناً مما هم الآن ، ولكن إذا كان المجلس التشريعي قد قرر أن ينفذ ذلك فسأقف إلى جانب المجلس التشريعي ، إني . .» .

ـ «آرشي» قال العم هنري فجأة «سق عربة الآنسة سكارلت إلى البيت ، فليس هنا مكان لها . . إن السياسة ليست من شأن النساء بأي حال من الأحوال . وسترتفع شتائم بعد دقيقة ، هيا يا آرشي ، وعمي مساء يا سكارلت» .

وفيما كانت العربة تخطر في شارع بيتشتري ، كان قلب سكارلت يخفق بسرعة من الخوف ، هل سيكون لهذا القرار الأحمق الذي اتخذه المجلس التشريعي أي تأثير في سلامتها؟ هل سيثير حنق لشماليين كثيراً بحيث يمكن أن تخسر معمليها؟

ـ «على كل حال يا سيدتي» دمدم آرشي «لقد سمعت أناساً يتحدثون عن أرانب تبصق في وجوه كلاب ، ولكني لم أر ذلك حتى الآن . ويمكن أن يهتف أعضاء المجلس التشريعي كذلك : (مرحى لجف ديفس وللحلف الجنوبي) وذلك من أجل مصلحتهم ـ ومصلحتنا ، على أن الشماليين المحبين للزنوج قد قر رأيهم على أن يجعلوا الزنوج رؤساءنا ، ومع ذلك فلا بد لك من أن تكبري روح أعضاء المجلس التشريعي» .

ـ «أكبرها؟ يا للجحيم ! أكبرها؟ ينبغي قتلهم . إن قرارهم سيدفع الشماليين إلى أن يرقدوهم علينا كما ترقد بطة فوق بقة حزيران ، لماذا لم يستطيعوا أن يصا ـ يصا ـ الشيء الذي كان مفروضاً أن يفعلوه ، ويهدئوا الشماليين عوضاً عن إثارتهم ثانية؟ إنهم سيضطروننا إلى أن نخضع ، بينما من الممكن أن نخضع الآن كما سنخضع فيما بعد» .

فرمقها آرشي بعين باردة .

ـ «نخضع دون قتال؟ إن النساء لا يشعرن بكبرياء أكثر مما تشعر العنز» .

*

لـمّا استأجرت سكارلت عشرة أشقياء ، خمسة لكل معمل ، نفّذ آرشي وعيده ، ورفض أن تكون له أي علاقة معها ، ولم تجد في إقناعه كل توسلات ميلاني وفرانك كي يعود إلى قيادة عربتها . غير أنه رضي بطيبة خاطر أن يسوق العربة لميلاني وبيتي وإنديا وصديقاتهن في المدينة ، ولكن ليس لسكارلت ، بل إنه رفض حتى أن يسوقها للسيدات الأخريات إذا كانت سكارلت في العربة معهن . لقد كان من المزعج أن يكون الأرعن العجوز قاضياً عليها ، وكان أكثر مضايقة أن تؤيد عائلتها وأصدقاؤها الرجل العجوز فيما ذهب إليه .

كان فرانك يتوسل إليها كي لا تقدم على هذه الخطوة ، كما أن آشلي رفض في البداية أن يشغل أشقياء ، ولكنه اقتنع رغم إرادته بعد دموع وتضرعات ووعود بأنها عندما تتحسن الظروف ستستأجر زنوجاً محررين . وكذلك جاهر الجيران باستنكارهم لهذا العمل ، ووجد فرانك وبيتي وميلاني أن من العسير عليهم رفع رؤوسهم بين الناس ، وحتى بطرس ومامي أعلنا أن استخدام الأشقياء كان فألاً سيئاً وأنه لن ينتج عن ذلك أي خير . وهكذا اتفق جميع الناس على أن من الخطإ استغلال بؤس وتعاسة الآخرين .

ـ «أنت لم تكن تعارض في تشغيل العبيد أبداً!» صاحت سكارلت ساخطة . آه ، ولكن ذلك كان أمراً يختلف عن هذا ، إذ لم يكن العبيد بؤساء ولا تعساء ، بل كانوا أفضل حالاً بكثير وهم تحت نظام العبودية مما هم عليه الآن تحت نظام الحرية ، وإذا لم تكن تصدق ذلك ، فلتتطلع حولها فقط ! ولكن كما هي العادة ، كان تأثير المعارضة يزيد في تصميم سكارلت على خطتها . وهكذا عزلت هيو من إدارة المعمل ، وعينته سائق عربة خشب ، وأنهت التفاصيل النهائية لشروط استئجار جوني كاليغر .

كان يبدو أن كاليغر هو الشخص الوحيد ، من بين الذين كانت تعرفهم ، الذي كان يستحسن فكرة استخدام الأشقياء ، فلقد أومأ برأسه المستطيل موافقاً ، ثم قال إنه كان إجراء حاذقاً . بينما نظرت سكارلت إلى الخيال السابق الصغير الحجم ، الواقف بثبات فوق ساقيه المقوستين القصيرتين ووجهه الأريب جدي

كوجوه رجال الأعمال ، وفكرت «إن كل الذين سمحوا له بامتطاء خيولهم ، لم يكونوا يهتمون بأنضاء تلك الخيول . أما أنا فلن أدعه يقترب أكثر من عشرة أقدام من أي من خيولي» .

غير أنها لم تكن نادمة على إسنادها إليه أمر زمرة من الأشقياء .

ـ «وسأكون حر التصرف بزمرة الأشقياء؟» استوضح وعيناه باردتان .

ـ «حر التصرف . وكل ما أطلبه منك هو أن تحافظ على ذلك المعمل في شغل دائم وتقدم الخشب في الوقت الذي أريده فيه ، وبالقدر الذي أحدّده» .

ـ «إني في إمرتك» قال جوني «سأخبر السيد ولبورن أني سأترك العمل عنده» .

وعندما راح يتمايل خلال جمهور البنائين والنجارين وحملة العوارض الخشبية ، أحست سكارلت بالفرج وارتفعت معنوياتها . لقد كان جوني رجلها حقاً ، فقد كان صلباً صارماً لا يعرف العبث ، وكان فرانك يدعوه بازدراء «إيرلندي مخلوق لأعمال المناجر» غير أن سكارلت كانت تقدره لذلك السبب ذاته . كانت تعرف أن إيرلندياً يتمتع بعزم لبلوغ هدفه كان رجلاً قيّماً يستحق التوظيف ، دون اعتبار إلى ما يمكن أن تكون عليه أخلاقه الشخصية . وأحست نحو جوني بقرابة أقوى منها نحو كثير من الرجال من طبقتها ، لأنه كان يعرف قيمة المال .

وخلال الأسبوع الأول الذي أشرف فيه جوني على العمل ، حقق جميع آمالها ، لأنه أنجز بخمسة أشقياء عملاً أكثر من أي عمل كان هيو قد أنجزه بعشرة من الزنوج المحررين . وفوق ذلك ، أمن لسكارلت فراغاً من الوقت أطول مما كانت قد نعمت به منذ قدمت إلى أتلانتا في السنة الماضية ، لأنه لم يكن يرغب في حضورها إلى المعمل ، الأمر الذي أعلنه صراحة .

ـ «اهتمي بواجبك في البيع ودعيني أهتم بواجبي في قطع الخشب» قال باقتضاب «فمعسكر الأشقياء ليس مكاناً لائقاً بالسيدة وإن لم يخبرك أحد بذلك ، فإن جوني كاليغر يخبرك به الآن . إني أؤمن لك مطلوبك من الخشب أليس كذلك؟ والواقع ، أني لم أفهم لماذا ينبغي أن أضايق كل يوم كالسيد ويلكس ، وهو الذي يحتاج إلى مراقبة ولست أنا» .

وهكذا ظلت سكارلت بعيدة عن معمل كاليغر كارهة ، لأنها خشيت أن

يترك العمل إن هي زارته مراراً ، الأمر الذي سيكون وبالاً عليها . ولذعتها ملاحظته في أن آشلي كان بحاجة إلى مراقبة ، لأن تلك الملاحظة كانت تنطق بحقيقة أكثر مما كانت تريد هي أن تعترف به . لقد كان آشلي ينتج بوساطة الأشقياء أفضل قليلاً مما كان ينتج بوساطة العمال الأحرار ، مع أنه لم يكن يستطيع معرفة السبب . وأكثر من ذلك كان يبدو وكأنه خجل من تشغيل الأشقياء ، وكان لديه القليل ليخبرها به هذه الأيام .

وكانت سكارلت قلقة جراء هذا التغير الذي طرأ على آشلي ، فقد وخط بعض الشعر الشائب رأسه ، وغدت كتفاه تنوءان بعبء كبير ، ونادراً ما كان يبتسم . لم يعد آشلي الظريف الذي كان قد أسر خيالها سنين عديدة من قبل ، وإنما كان يبدو كرجل يضنيه سراً ألم قل أن يحتمل . كان يكتنف وجهه مظهر كئيب صارم ، مظهر حيّرها وآلمها . وساورتها الرغبة في أن تجذب رأسه بقوة وتشده إلى كتفها ، وتربت الشعر الشائب ، وتصيح به : «أخبرني ما الذي يقلقك؟ أنا أزيل أسبابه . إني أصلح الأمر لك !» .



ريت وبيل وتلنغ

43

في يوم من أيام كانون الأول النادرة، حيث كانت الشمس حارة كأيام صيف هندي تقريباً، خرجت سكارلت، والطفلة بين ذراعيها، إلى الشرفة الجانبية حيث جلست على كرسي هزاز في بقعة تغمرها أشعة الشمس . كانت ترتدي فستاناً جديداً من قماش صوفي مزركش بياردات كثيرة من الشريط الأسود المتعرج، وكانت تضع على رأسها قبعة ذات شريط للاستعمال البيتي كانت العمة بيتي قد صنعتها لها، وكان كلا الثوب والقبعة يناسبانها جداً، وكانت تعرف ذلك وتسر بهما كثيراً . ما كان أعظم أن تبدو جميلة مرة ثانية، بعد الشهور الطويلة من المظهر الفظيع للغاية الذي كانت تظهر به !

وفيما كانت جالسة تهز الطفلة، وتدندن في سرها، سمعت وقع حوافر آتية من الشارع الجانبي، فحدقت بفضول خلال زاوية الدوالي الذابلة على الشرفة، ورأت ريت بتلر راكباً باتجاه البيت .

كان قد غاب عن أتلانتا طيلة شهور، بعيد وفاة أبيها تماماً، وقبل ولادة إيلا لورينا بوقت طويل . وكانت سكارلت قد افتقدته غير أنها تمنت الآن بحرارة أن لو كان يوجد وسيلة ما تجنبها رؤيته . والحقيقة أن منظر وجهه الأسمر حمل شعوراً من الذعر الآثم إلى صدرها . لقد كانت ترقد في ضميرها قضية تتعلق بآشلي، قضية لم تكن ترغب في أن تبحثها مع ريت . ولكنها أدركت أنه سيفرض بحثها فرضاً، مهما تكن غير ميالة إلى بحثها .

وجذب عنان فرسه أمام البوابة، وطوح بجسده بخفة إلى الأرض، وفكرت وهي ترنو إليه بعصبية أنه كان يبدو تماماً كصورة للإيضاح في الكتاب الذي كان ويد يضايقها دائماً كي تقرأ له منه بصوت مرتفع .

- «كل ما يحتاج إليه هو قرطان وخنجر بحّار بين أسنانه» فكرت «على كل حال، سواء أكان قرصاناً أم لا، فهو لن يقطع رقبتي اليوم إذا استطعت تحمل وجوده» .

وعندما سار في الممشى حيته واستدعت أجمل ابتسامة . ما كان أعظم حظها لأنها كانت ترتدي الفستان الجديد والقبعة اللائقة ولأنها كانت تبدو جميلة جداً . وعندما استعرضتها عيناه، أدركت أنه كذلك، فكر أنها جميلة .

ـ «طفل جديد! حسناً يا سكارلت إنه مفاجأة!» وضحك منحنياً ليزيح الغطاء عن وجه إيلا لورينا الصغير القبيح.

ـ «لا تكن أحمق» قالت ووجهها يحمر خجلاً «كيف حالك يا ريت؟ لقد غبت مدة طويلة».

ـ «أجل مدة طويلة، دعيني أحمل الطفل يا سكارلت. ها، إني أعرف كيف أحمل الأطفال. إني أنعم بكفاءات غريبة كثيرة. على كل حال، من الأكيد أنه يشبه فرانك، يشبهه في كل شيء ما عدا الشاربين. ولكن أمهليه بعض الوقت».

ـ «أرجو أن لا يكون كذلك. إنه بنت».

ـ «بنت! إن ذلك أفضل، إن الصبيان مزعجون كثيراً، إياك أن تلدي صبياً آخر يا سكارلت».

وكادت تجيب بمرارة أنها لم تكن تنوي أن تنجب أي طفل آخر، صبيّاً كان أم بنتاً، ولكنها أمسكت عن الكلام في الوقت المناسب، وابتسمت باحثة في عقلها بسرعة عن موضوع للحديث، الذي سيؤجل حلول اللحظة التعسة، عندما سيحين موعد الموضوع الذي كانت تخشى بحثه.

ـ «هل نعمت برحلة طيبة يا ريت! أين ذهبت هذه المرة؟».

ـ «ها ـ كوبا ـ نيو أورليانز ـ وأماكن أخرى.، خذي الطفلة يا سكارلت، فقد طفق لعابها يسيل، ولن أستطيع أن أبلغ منديلي. إنها طفلة جميلة، إني واثق من ذلك. غير أنها تبلل صدر قميصي».

فأعادت الطفلة إلى حجرها، بينما أجلس ريت نفسه بتوان على الدرابزين مخرجاً سيجاراً من علبته الفضية.

ـ «إنك تذهب دائماً إلى نيو أوليانز» قالت ومطت شفتيها قليلاً «لم تخبرني أبداً ماذا تفعل هناك».

ـ «إنني رجل عملي يا سكارلت، وقد يكون عملي هو الذي يأخذني هناك».

ـ «عملي! أنت!» وضحكت بوقاحة «أنت لم تشتغل أبداً طيلة حياتك. أنت خامل جداً. كل ما تفعله هو تقديم المال للكاربت بغرز ليقوموا بسرقاتهم ثم تأخذ نصف الأرباح، كما أنك ترشو الضباط الشماليين ليشاركوك في خطط

سلبنا أموال الضرائب» .

فألقى رأسه إلى الوراء واسترسل في الضحك .

ـ و«وما أعظم رغبتك في أن يكون لديك مال كاف لرشوة الضباط كي يصير بوسعك أن تفعلي مثل ما أفعل» .

ـ «إن مجرد الفكرة . .» وشرعت ترتجف .

ـ «ولكن قد تجمعين نقوداً كافية لتتعاطي الرشوة على مقياس واسع يوماً ما . ربما أصبحت غنية من طريق أولئك الأشقياء الذين استأجرتهم» .

ـ «ها» ، قالت وهي مرتبكة قليلاً «كيف اكتشفت أمر عمالي بهذه السرعة؟» .

ـ «لقد وصلت المدينة الليلة الماضية ، وقضيت الأمسية في حانة الفتاة العصرية ، حيث يسمع المرء جميع أنباء البلد . إنها بورصة الأحاديث ، أفضل من حلقة خياطة سيدات ، هناك أخبرني الجميع أنك استأجرت ثلة أشقياء ، وعينت كاليغر الصغير الجثة القبيح مسؤولاً عنهم ، ليشغلهم حتى الموت» .

ـ «تلك كذبة» قالت غاضبة «فهو لن يشغلهم حتى الموت ، وسأراقب ذلك» .

ـ «ستراقبين؟» .

ـ «طبعاً ، سأراقب . كيف يسعك أن تتطرق إلى هذه الأمور» .

ـ «ها ، أرجو عفوك يا سيدة كندي ! . . إني أعرف أن غاياتك هي فوق التأنيب دائماً . وعلى كل حال ، إن جوني كاليغر عربيد صغير بارد إن كنت قد رأيت عربيداً . فمن الأفضل أن تراقبيه وإلاَّ ستعانين متاعب عندما يقوم المفتش بجولته» .

ـ «اعتن بشؤونك وسأعتني أنا بشؤوني» قالت ساخطة «وأنا لا أريد أن أتحدث عن الأشقياء أكثر من هذا الحديث . لقد وقف الجميع موقفاً مقيتاً فيما يتعلّق بهم . إن زمرتي هي من شأني أنا ـ وأنت لم تخبرني حتى الآن ماذا تفعل في نيو أورليانز ، فأنت تذهب هناك مراراً عديدة ، الأمر الذي دفع جميع الناس إلى القول . .» وصمتت لحظات . ولم تكن قد عزمت على أن تقول كل هذا .

ـ «ماذا يقولون؟» .

- «على كل حال . . إن لك حبيبة هناك ، وإنك ستتزوج بها . هل ستتزوج يا ريت؟» .

كان الفضول يملؤها فيما يتعلق بهذا الموضوع منذ مدة طويلة بحيث أنها لم تستطع الامتناع عن توجيه هذا السؤال الصريح له . وانتابتها غصة خفيفة غريبة من الحسد من جراء فكرة زواج ريت ، مع أنها لم تكن تعرف سبب تلك الغصة .

وفجأة ضحك ضحكة قصيرة ثم قال : «انظري إلي يا سكارلت» فرفعت عينيها إلى أن زحفت حمرة ضعيفة على وجنتيها .

- «هل يهمك ذلك كثيراً؟» .

- «الواقع أني أكره أن أخسر صداقتك» قالت متكلفة الجد . وانحنت لتجذب الغطاء أقرب إلى رأس إيلا لورينا وهي تحاول أن تبدو غير مكترثة .

وفجأة ضحك ضحكة قصيرة ثم قال : «انظري إلي يا سكارلت» فرفعت بصرها كارهة وحمرة وجهها تزداد «بوسعك أن تخبري أصدقاءك الفضوليين أنني عندما أتزوج ، سيكون دافع زواجي ذاك هو أني لم أستطع الحصول على المرأة التي أريدها بأي طريقة سوى الزواج . وإلى الآن لم أرغب في امرأة رغبة قوية جداً تدفعني إلى الزواج بها» .

فتولتها الحيرة والضيق الحقيقيان ، لأنها تذكرت تلك الليلة التي كانا يجلسان فيها على هذه الشرفة ذاتها خلال الحصار ، عندما قال : «إني لست رجل زواج» ثم اقترح عرضاً أن تكون خليلته - وتذكرت أيضاً ذلك اليوم الرهيب عندما كان في السجن . وأحست بالعار بفعل تلك الذكرى . وغمرت وجهه ابتسامة بطيئة حقودة وهو يقرأ عينيها .

- «ولكني سأشبع فضولك المبتذل لأنك سألت سؤالاً صريحاً كهذا . ليس ما يأخذني إلى نيو أورليانز حبيبة ، إنما طفل ، صبي صغير» .

- «صبي صغير!» وأزالت صدمة هذا النبإ غير المتوقع اضطرابها .

- «أجل ، إنه تحت وصايتي الشرعية ، وإني مسؤول عنه . إنه في المدرسة في نيو أورليانز . وإني أذهب هناك مراراً كي أراه» .

- «وتأخذ له الهدايا؟» وهكذا فكرت بأن ذلك هو السبب في أنه يعرف أي نوع من الهدايا يحبه ويد .

ـ «أجل» قال كارهاً .

ـ «الواقع أني لم أكن أعلم بذلك أبداً . هل هو جميل؟» .

ـ «أجمل مما تقتضيه مصلحته» .

ـ «هل هو صبي صغير لطيف المعشر؟» .

ـ «لا ، إنه مشاغب حقيقي . أتمنى أن لو لم يولد . إن الصبيان مخلوقات متعبة . هل هناك أي شيء آخر تريدين معرفته؟» وفجأة بدا ساخطاً ثم قطب جبينه ، وكأنه ندم على التصريح بهذه الحقائق .

ـ «لا ، إذا كنت لا ترغب في أن تخبرني أكثر» قالت بترفع مع أنها كانت تتحرق على أنباء أكثر «إنما لا أستطيع أن أتصورك بزي الأوصياء» وضحكت آملة أن تربكه .

ـ «لا ، أنا لا أفترض أنك تستطيعين ، فخيالك محدود جداً» ، ولم يزد على قوله هذا ، وراح يدخن سيكاره في صمت لهنيهة ، بينما كانت سكارلت تبحث عن ملاحظة سليطة كملاحظته ، ولكنها لم تستطع العثور على شيء .

ـ «سأكون ممتناً إن لم تفشي كلمة من هذا الحديث لأي إنسان» قال أخيراً «رغم أني أفترض أن طلب السر من امرأة هو طلب المستحيل» .

ـ «إني أستطيع أن أحفظ السر» قالت بكبرياء جريح .

ـ «تستطيعين؟ إن من الجميل أن يعرف الإنسان أموراً غير متوقعة عن الأصدقاء . والآن ، كفي عن التجهم يا سكارلت . إني آسف لوقاحتي ، غير أنك تستحقينها لتدخلك فيما لا يعنيك . ابتسمي لي ودعينا نبتهج لدقيقة أو دقيقتين قبل أن أبدأ بخوض موضوع غير سار» .

ـ «يا لله !» هجست «سيتكلم الآن عن آشلي والمعمل» وأسرعت تبتسم وترى غمازتيها كي تصرفه عن الموضوع «وإلى أي مكان آخر ذهبت يا ريت؟ فأنت لن تمكث في نيو أورليانز طيلة هذا الوقت ، أليس كذلك؟» .

ـ «لا ، كنت في شارلستون في آخر شهر . لقد توفي والدي» .

ـ «آه إني متأسفة» .

ـ «لا تتأسفي ، فأنا واثق من أنه لم يحزن على موته . .» .

ـ ريت ، ما أفظع ما تقول !» .

ـ «وسيكون أشد فظاعة بكثير إن أنا تظاهرت بالحزن في حين أني لست

حزيناً . أليس كذلك؟ إذ لم يكن هناك أي محبة بيني وبينه . وأنا لا أستطيع أن أذكر متى كان السيد العجوز راضياً عني . لقد كنت أشبه والده شبهاً عظيماً جداً ، وكان هو غير راض عن والده قلبياً . وعندما كبرت ، أصبح عدم رضاه عني كراهية صريحة أعترف بأني لم أعمل غير القليل من أجل تغييرها ، لقد كانت جميع الأشياء التي أراد والدي أن أعملها وأتحلى بها أشياء مضايقة . وأخيراً طردني إلى الدنيا دون أن يكون في حوزتي سنت واحد ، ودون أن تكون لدي أية خبرة من أي نوع ، لتجعلني أي شيء ، سوى سيد شارلستوني ، ومطلق نار ماهر ولاعب بوكر ممتاز . ثم ظهر لي أنه اعتبر من الإهانة الشخصية له أني لم أتضور جوعاً ، بل استخدمت لعبي البوكر بنجاح فائق وأعلت نفسي بشكل ممتاز من طريق القمار ـ لقد اغتاظ كثيراً من أن يغدو بتلري مقامراً ، بحيث أني عندما عدت إلى البيت أول مرة ، منع أمي من رؤيتي . وطيلة أيام الحرب ، عندما كنت أمارس التهريب من شارلستون ، كانت أمي تضطر إلى أن تكذب وتتسلل لتراني . وطبيعي أن لا يزيد ذلك من حبي له» .

ـ «ها ، لم أكن أعلم بكل ذلك» .

ـ «لقد كان ، كما يقال ، سيداً مسناً جليلاً من المدرسة القديمة ، الأمر الذي يعني أنه كان جاهلاً غليظ العقل عديم التسامح ، غير قادر على التفكير بأي أسلوب ، سوى ما يفكر به السادة الآخرون أبناء المدرسة القديمة . وكان الجميع يكبرونه لأنه بترني من العائلة واعتبرني ميتاً (إذا كانت عينك اليمنى تؤذيك فاقلعها) . ولقد كنت أنا عينه اليمنى ، ابنه الأكبر ، فاقتلعني منتقماً» .

وابتسم قليلاً ، وبدت عيناه صارمتين بتأثير الذكرى التعيسة .

ـ «وعلى كل حال ، لقد كان بوسعي أن أصفح عن كل ذلك . غير أني لا أستطيع أن أصفح عما فعل بأمي وبشقيقتي منذ انتهاء الحرب . لقد كانتا معدمتين تقريباً ، لأن بيت المزرعة كان قد أحرق ، ولأن حقول الأرز عادت إلى ما كانت عليه ، أراضي مستنقعات . كما أننا فقدنا بيتاً في المدينة بسبب الضرائب ، ولذا اضطرتا إلى العيش في غرفتين لم تكونا تناسبان حتى الزنوج . وعندما بعثت نقوداً لوالدتي ، أعادها والدي إلي ـ نقود نجسة ! نجسة ! فهمت ! ثم إني ذهبت إلى شارلستون عدة مرات وأعطيت شقيقتي نقوداً بطريقة سرية ، ولكن والدي كان يكتشف الأمر دائماً ويفتح الجحيم عليها ، إلى أن أضحت

حياتها لا تستحق أن تحيا ، يا لها من فتاة مسكينة ! وهكذا كانت النقود ترد إلي ، ولست أعرف كيف كانتا تعيشان . . . بلى إني أعرف . كان أخي يعطيهما ما يستطيع ، مع أنه لا يملك الكثير للعطاء ، ولا يرضى بأن يأخذ مني شيئاً كذلك ، فنقود المضارب مشؤومة ، فهمت ! وعلى إحسان أصدقائهما أيضاً . لقد كانت عمتك يولالي رحيمة جداً ، إنها إحدى أحسن صديقات أمي كما تعرفين . لقد قدمت لهما الثياب و- يا لله الرحيم ! أمي تعيش على الإحسان !

كانت هذه هي إحدى المرات القليلة التي رأت سكارلت ريت خلالها دون قناعه . كان وجهه صارماً بكراهية شريفة لأبيه ، ويحزن على أمه .

- «عمتي يولالي ! ولكن يا لله العظيم ، يا ريت ، إنها لا تملك شيئاً زيادة عما أبعثه إليها !» .

- «ها ، أنت مصدر عطاياها إذاً ! ما أحسن هذا منك يا عزيزتي . أن تتباهي بشيء كهذا في وجه مهانتي ، ينبغي أن تدعيني أرد لك معروفك» .

- «إني أتقبله بسرور» قالت سكارلت وفمها يتكور فجأة بابتسامة قابلها هو بابتسامة أخرى .

- «آه يا سكارلت ، أرأيت كيف أن فكرة دولار تجعل عينيك تتألقان؟ ! هل أنت واثقة من أنه ليس في عروقك دم اسكتلندي أو ربما يهودي مع الدم الإيرلندي؟» .

- «لا تكن مقيتاً ، أنا لم أقصد أن أجابهك بموضوع العمة يولالي . ولكن ، إني أصدقك القول أنها تعتقد أني مجبولة من المال ، فهي تكتب لي دائماً طالبة المزيد . والله يعلم أن لدي من الأعباء ما يكفيني ، دون أن أعيل كل من في شارلستون . مم توفي والدك؟» .

- «من مجاعة لطيفة ، كما أعتقد . . . وآمل . لقد خدمته كما ينبغي ، وكان يريد أن يجعل أمي وروز ماري تتضوران جوعاً معه . والآن ، وقد مات أستطيع أن أساعدهما . لقد اشتريت لهما منزلاً في حي باتري ، كما أن لديهما خدماً للاعتناء بهما . ولكن طبعاً ، ليس بوسعهما أن تدعا أحداً يعرف أن مصدر المال هو أنا» .

- «لم لا؟» .

- «عزيزتي ، من الأكيد أنك تعرفين شارلستون ! لقد زرتها . قد تكون

عائلتي فقيرة ، إلا أنها تحتل مركزاً يجب المحافظة عليه . وليس بوسعهما المحافظة عليه إذا ما عرف أن مال القمار ومال المضاربة يسند هذا المركز ، ولذا أشاعتا أن والدي ترك لهما نقوداً وفيرة كان قد أمن بها على حياته ، وأنه كان قد أعوز نفسه وجوعها حتى الموت ، كي يستمر في الدفع من أجل أن يؤمن لهما الحياة بعد موته . وهكذا ينظر إليه الآن كسيد عظيم من المدرسة القديمة ، أعظم مما كان ينظر إليه سابقاً . . وفي الحقيقة ، كشهيد في سبيل عائلته . . إني أرجو أن يكون الآن يتقلب في قبره ، لمعرفته أن أمي وروز ماري مرتاحتان رغم جهوده . . إني ، نوعاً ما ، آسف لأنه مات لأنه كان يريد أن يموت . . لأنه كان يسعده جداً أن يموت» .

ـ «لماذا؟» .

ـ «ها ، لقد مات في الحقيقة ، عندما استسلم الجنرال لي . أنت تعرفين ذلك الطراز من الرجال . لم يكن بوسعه أبداً أن يكيف نفسه مع الظروف الجديدة ، بل كان يقضي وقته في الحديث عن الأيام القديمة الطيبة» .

ـ «ريت ، هل جميع الناس المسنين من ذلك الطراز؟» سألته وهي تفكر بجيرالد وما كان ويل قد قاله عنه .

ـ «لا ، بالله ! انظري فقط إلى عمك هنري وذلك الهر البربري العجوز السيد ميريويذر ، لقد ذكرت هذين لأسمي لك اثنين فقط . لقد بدأا مرحلة جديدة من الحياة عندما زحفا إلى الجبهة مع الحرس الوطني ، وإنه ليبدو لي أنهما أصبحا أصغر سناً وأكثر حيوية منذ ذلك الحين . لقد قابلت الرجل العجوز ميريويذر في هذا الصباح ، وكان يسوق عربة فطير رينيه ، ويلعن الحصان وكأنه سائق بغل في الجيش ، وأخبرني أنه يشعر بأنه أصبح أصغر من عمره الحقيقي بعشرين سنة ، منذ أن تخلص من البيت ومن بلادة كنته ، وباشر في قيادة العربة . وكذلك عمك هنري ، فإنه تسره منازلة الشماليين داخل المحكمة وخارجها ، وهو يدافع عن الأرامل والأيتام ضد الكاربت بغرز . . . وأخشى أن يكون ذلك دون مقابل . ولو لم تقع حرب ، لكان قد تقاعد منذ زمن طويل ومرض بداء المفاصل . . . لقد انقلبا شابين ثانية لأنهما أضحيا ذوي نفع ثانية ، يشعران أن مجتمعهما بحاجة إليهما ، وهما يحبان هذا العهد الجديد الذي يقدم للشيوخ فرصة أخرى . ولكن هناك كثير من الناس ، من الشباب الذين يشعرون شعور ، والدي

ووالدك ، إنهم لا يستطيعون أن يتكيفوا مع الظروف الجديدة ، ولا يريدون ذلك . وهذا يوصلني إلى الموضوع المكدر الذي أريد بحثه معك يا سكارلت» .

فأربكها انتقاله المفاجىء كثيراً بحيث أنها أجابت متلعثمة؟ «ماذا . . . ماذا !» . وأنّت في سرها «آه يا إلـــهي ! إنها آتية ، إني لأتساءل إذا كان بوسعي إخضاعه بالتملق؟» .

ـ «كان ينبغي أن لا أتوقع منك صدقاً أو شرفاً أو معاملة مستقيمة وأنا أعرفك كما أعرفك ، ولكني وثقت بك بحماقة» .

ـ «أنا لا أعرف ماذا تعني !» .

ـ «أعتقد أنك تعرفين . وعلى كل حال ، فأنت تبدين آثمة جداً ، اسمعي ، بينما كنت أسير راكباً في شارع آيفي منذ فترة قصيرة ، وأنا في طريقي لزيارتك ، وإذا بالسيدة ويلكس تحييني من خلف أحد الأسيجة ! طبعاً وقفت وتبادلت الحديث معها» .

ـ «حقاً؟» .

ـ «أجل ، لقد تبادلنا حديثاً ممتعاً ، وأخبرتني أنها كانت دائماً ترغب في أن تجعلني أعرف أنها كانت تفكر بعظم شجاعتي لأني وجهت ضربة من أجل الحلف ، حتى ولو كان ذلك في الساعة الحادية عشرة»(*) .

ـ «ها ، هراء ! إن ميلي غبية . كان من الممكن أن تموت تلك الليلة بسبب إقدامك على عملك البطولي ذاك» .

ـ «أتصور أنها كان يمكن أن تفكر بأن حياتها انتُزعت في سبيل قضية مجيدة . وعندما سألتها ماذا تفعل في أتلانتا ، بدت مشدوهة تماماً بسبب جهلي ، وأخبرتني أنهم يعيشون هنا الآن ، وأنك تلطفت فأشركت السيد ولكس في معملك» .

ـ «حسناً ، وماذا لو فعلت ذلك؟» استوضحت سكارلت .

ـ «عندما أقرضتك النقود لتشتري ذلك المعمل ، وضعت شرطاً واحداً وافقت عليه ، وكان ذلك الشرط ينص على أن من الواجب أن لا تذهب نقودي لإعالة آشلي ويلكس» .

(*) مصطلح شهير ، أي في الوقت المناسب قبل الساعة الثانية عشرة الأخيرة .

ـ «إنك تتصرف تصرفاً سيئاً جداً! لقد رددت لك نقودك، والمعمل ملكي، والذي أفعله به من شأني أنا».

ـ «هل لديك مانع من أن تخبريني كيف جمعت المال لتسديد قرضي؟».

ـ «جمعته من بيع الخشب طبعاً».

ـ «جمعته من المال الذي أقرضته لك لأمنحك نقطة بداية. إن ذلك هو ما تقصدينه. إن نقودي تستخدم لإعالة آشلي. أنت امرأة عديمة الشرف تماماً، ولو لم تسددي قرضي لكنت قد سررت جداً في أن أطلب تسديده الآن، وأبيع معملك في المزاد العلني إن لم تستطيعي الدفع».

كان يتكلم باستخفاف، ولكن عينيه كانتا تشعان بالغضب.

وأسرعت سكارلت تنقل القتال إلى أرض العدو:

ـ «لماذا تبغض آشلي إلى هذه الدرجة الكبيرة؟ إني أعتقد أنك تغار منه».

كان يمكن أن تعض لسانها بعد أن نطقت بهذه الكلمات، فقد ألقى رأسه إلى الوراء وراح يضحك إلى أن احمر وجهها من المهانة.

ـ «أضيفي الغرور إلى قلة الشرف» قال «إنك لن تنسي أبداً أنك كنت حسناء الولاية. هل ستنسين؟ إنك ستبقين دائماً تفكرين أنك تلك الفتاة الماكرة الفاتنة الصغيرة التي ترتدي حذاء جلدياً، وأن كل رجل تقابلينه يكاد يموت في سبيل حبك».

ـ «إني لا أفكر بذلك أبداً!» صاحت بحدة «غير أني فقط لا أستطيع أن أرى لماذا تكره آشلي إلى هذه الدرجة، وذلك هو التفسير الوحيد الذي أستطيع التفكير به».

ـ «حسناً، فكري بشيء آخر أيتها الفاتنة الجميلة، لأن ذلك هو التفسير الخاطئ، وأما بالنسبة إلى كراهيتي لآشلي... فأنا لا أكرهه أكثر مما أحبه. والحقيقة إن عاطفتي الوحيدة نحوه ونحو أمثاله هي الشفقة».

ـ «الشفقة!».

ـ «أجل، وقليل من الازدراء، والآن انتفخي كديك رومي وأخبريني أنه يساوي ألف سفيه مثلي، وأنه ينبغي أن لا أجرؤ على أن أكون وقحاً إلى درجة أشعر معها بالشفقة أو الازدراء نحوه، وعندما تنتهين من الانتفاخ سأخبرك ما أعني إذا كنت مهتمة بالأمر».

ـ «لا ، لست مهتمة» .

ـ «على كل سأخبرك ، لأني لا أستطيع أن أتحمل عنك استمرارك في تبني وهمك السار فيما يتعلق بغيرتي . إني أشفق عليه لأنه يجب أن يكون ميتاً ، وهو ليس ميتاً ، وإني أشعر بالازدراء نحوه لأنه لا يعرف ماذا يفعل بنفسه الآن بعد أن انقضى عالمه» .

لقد كان هناك شيء مألوف لديها في الفكرة التي عبر عنها . لقد كان لديها ذكرى مضطربة عن سماعها لكلمات مماثلة ، ولكنها لم تستطع أن تتذكر أين ومتى سمعت بها ، كما أنها لم تفكر جديّاً بتلك الذكرى لأن غضبها كان شديداً .

ـ «لو تحقق رأيك لكان جميع الناس المحترمين في الجنوب قد ماتوا» .

ـ «ولو تحققت آراؤهم ، فإني أعتقد أن أمثال آشلي يفضلون أن يكونوا ميتين ، يرقدون تحت حجارة نظيفة نقش عليها : هنا يرقد جندي حلفي ، مات في سبيل الأرض الجنوبية) أو (هنا مرقد الوسامة واللياقة) . . . أو من العبارات الأخرى الشائعة التي تكتب فوق القبور» .

ـ «إني لم أر السبب !» .

ـ «إنك لا ترين أبداً أي شيء غير مكتوب بحروف يبلغ ارتفاعها قدماً ، توضع تحت أنفك مباشرة ، أليس كذلك؟ إذا كانوا ميتين فستنتهي متاعبهم ولن يكون هناك مشاكل ليواجهوها ، مشاكل ليس لها حلول . وأكثر من ذلك ، ستكون عوائلهم فخورة بهم خلال أجيال لا تُعدّ . ولقد سمعت أن الموتى سعداء ، فهل تفترضين أن آشلي ويلكس سعيد؟» .

ـ «كيف لا ، طبعاً . . .» بدأت ، ولكنها ما لبثت أن تذكرت النظرة التي كانت تشوب عيني آشلي مؤخراً ، ولذلك توقفت عن متابعة الكلام .

ـ «هل هو أو هيو ألسنغ أو الدكتور ميد سعداء؟ أسعد مما كان والدي أو والدك؟» .

ـ «قد لا يكونون سعداء كما كانا ، لأنهم جميعاً فقدوا أموالهم» .

فضحك ريت .

ـ «ليس فقدانهم المال يا محبوبتي هو السبب . دعيني أخبرك أن السبب هو فقدانهم عالمهم . . . العالم الذي نشأوا فيه . إنهم كالسمك خارج الماء ، أو

كالهرر المجنحة ، فلقد نشأوا ليكونوا أشخاصاً من نوع معين ، وليقوموا بأعمال معينة ، وليشغلوا مراكز لائقة معينة ، ولكن هؤلاء الأشخاص وهذه الأعمال والمراكز قد زالوا إلى الأبد ، عندما وصل الجنرال لي إلى أبوماتوكس . لا تظهري يا سكارلت حمقاء هكذا! ماذا يوجد لآشلي ويلكس ليعمله الآن وقد ضاع بيته وصودرت مزرعته بسبب الضرائب وغدا السادة الوسام كل عشرين بسنت واحد؟ هل يستطيع أن يشتغل برأسه أو بيديه؟ إني أراهن أنك قد خسرت نقوداً بكثرة وبسهولة منذ استلم إدارة معملك ذاك» .

ـ «لم أخسر» .

ـ «ما أروع ذلك . هل يمكن أن أراجع دفاترك مساء يوم أحد ، عندما تكونين في وقت فراغ؟» .

ـ «يمكنك أن تذهب إلى الجحيم وليس في وقت فراغك ، يمكنك أن تذهب الآن ، ولن أبالي» .

ـ «يا مغناجتي ، لقد كنت مع الشيطان وإنه لمخلوق غبي جداً ولن أذهب إليه ثانية . . . حتى ولو من أجلك . . . لقد أخذت نقودي عندما كنت تحتاجين إليها حاجة ماسة واستعملتها بعد أن أجرينا اتفاقاً بالنسبة إلى الكيفية التي ينبغي استعمال النقود بموجبها ولقد خالفت تلك الاتفاقية . فقد تذكري يا خادعتي الصغيرة الغالية أن الوقت سيحين عندما ترغبين في أن تقترضي مني نقوداً أخرى . سترغبين في أن أقرضك بفائدة ضئيلة لا تصدق ، كي تستطيعي شراء معامل أخرى وبغال أخرى ، وبناء حانات أخرى . وعندئذ ، بوسعك أن تصغري من أجل المال» .

ـ «عندما أحتاج إلى نقود سأقترضها من المصرف ، أشكرك» قالت ببرود ، ولكن صدرها كان يخفق بالسخط .

ـ «هل ستقترضين من المصرف؟ جربي أن تفعلي ذلك ، فأنا أملك أسهماً كثيرة في المصرف» .

ـ «حقاً؟» .

ـ «أجل ، إني مهتم ببعض المشاريع الشريفة» .

ـ «يوجد مصارف أخرى» .

ـ «مصارف كثيرة جداً ، وإذا ما استطعت أن أتدبر الأمر ، فلن تستطيعي

الحصول على سنت من أي منها . ويوسعك أن تذهبي إلى مرابي الكاربت بغرز إذا أردت مالاً» .

ـ «سأذهب إليهم بسرور» .

ـ «ستذهبين ولكن بقليل من السرور ، وذلك عندما تطلعين على أسعار الفائدة التي يتقاضونها يا حلوتي . هناك عقوبات في دنيا العمل للمعاملات المعوجة . كان ينبغي أن تسلكي معي باستقامة» .

ـ إنك رجل طيب ، أليس كذلك؟ رجل غني وقوي النفوذ ، ومع ذلك فإنك تضايق الناس التعساء أمثالي وآشلي !» .

ـ «لا تضعي نفسك في مستواه . فأنت لست تعسة ، ولن يتعسك شيء ، بينما هو رجل تعس وسيظل كذلك ما لم يوجد شخص يدعمه ، ويرشده ويحميه ، طالما هو حي . وليس في نيتي أن أدع مالي يستخدم في صالح إنسان مثله» .

ـ «إنك لم تمانع في مساعدتي عندما كنت تعسة و . . .» .

ـ «لقد كانت مساعدتي لك مغامرة طيبة يا عزيزتي ، مغامرة حلوة . لماذا؟ لأنك لم تلقي بنفسك على أقربائك الذكور وتندبي الأيام القديمة ، بل خرجت ونشطت ، وها إن ثروتك تقوم في أساسها على النقود المسروقة من محفظة رجل ميت ، والنقود المسروقة من الحلف . لقد قتلت وسرقت زوجك ، وحاولت الزنا والكذب والمعاملة السيئة ، وكل ضرب من ضروب الاحتيال الفاضح . إنها لصفات تدعو إلى الإعجاب جميعاً ، فقد جعلتك تبدين كشخص نشيط ذي عزيمة ومجازفة مالية رابحة . إن مساعدة الناس الذين يساعدون أنفسهم أمر مفرح . فأنا أقرض مبلغ عشرة آلاف دولار ، حتى دون أي سند ، إلى ربة البيت الرومانية المسنة تلك ، السيدة ميريويذر . لقد بدأت بسلة فطير ، وتأملي وضعها الآن ، لقد أصبح لديها فرن يستخدم ستة رجال ، كما أن غراندبا العجوز سعيد بعربته التي يوصل بها البضاعة للزبائن ، ورينيه ، ذلك الأوروبي الأميركي المولد ، الصغير الخمول ، يجد ويحب عمله . . . أو ذلك الشيطان ، تومي ولبورن ، الذي يقوم بعمل رجلين وهو يملك نصف جسد رجل ، ويقوم به جيداً . . . أو . . . على كل حال ، لن أتابع حديثي وأضايقك» .

ـ «إنك تضايقني إلى حد الذهول» قالت ببرود ، آملة أن تثيره وتصرفه عن

الموضوع ، الموضوع النكد دائماً ، موضوع آشلي . ولكنه لم يزد على أن ضحك ورفض مهاجمتها .

- «إن الناس أمثال هؤلاء يستحقون المساعدة ، أما آشلي ويلكس . . . آه ! ليس لمن على شاكلته نفع أو قيمة في عالم مقلوب كعالمنا ، كلما انقلب العالم رأساً على عقب ، فإن من على شاكلة آشلي أول من يفنون ، ولماذا لا؟ إنهم لا يستحقون أن يبقوا ، لأنهم لن يكافحوا . . . لا يعرفون كيف يكافحون . وليست هذه هي المرة الأولى التي ينقلب فيها العالم . لقد انقلب قبلاً وسينقلب ثانية . وعندما ينقلب ، يخسر كل إنسان كل شيء ، ويتساوى الجميع ، ثم ينطلقون ثانية من النقطة عينها ، وهم لا يملكون شيئاً البتة ، أعني لا شيء سوى حصافة أدمغتهم وقوة أيديهم . ولكن بعض الناس ، كآشلي ، لا يملكون الحصافة ولا القوة ، أو أنهم ، حين يملكونهما ، يحارون في كيفية استخدامها . وهكذا يهوون إلى الحضيض ، ويجب أن يهووا . إنه قانون طبيعي ، والدنيا أفضل بدونهم . ولكن لا تخلو الدنيا دائماً من قلة من الأشداء يشقون طريقهم بأنفسهم ، إذا ما أعطوا وقتاً كافياً فسرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه تماماً قبل أن تنقلب الدنيا» .

- «لقد كنت فقيراً . لقد قلت الآن إن أباك طردك ولم يكن لديك سنت واحد» . قالت سكارلت غضبى «لذا أعتقد أنك ستفهم الوضع وتشعر مع آشلي» .

- «إني أفهم وضعه ، ولكني ملعون إن أنا شعرت معه . لقد كان بحوزة آشلي بعد الاستسلام أكثر مما كان بحوزتي عندما طردت من البيت ، وعلى الأقل ، كان ينعم بأصدقاء آووه ، بينما كنت أنا وحيداً . ولكن ماذا فعل آشلي بنفسه؟» .

- «إذا كنت تقارنه بنفسك ، أيها المخلوق المغرور ، كيف . . . إنه لا يشبهك شكراً لله ! إنه لن يلوث يديه كما تفعل أنت ، فيجني المال بمشاركة الكاربت بغرز والسكالاوغز والشماليين . إنه شريف يقظ الضمير!» .

- «ولكن ليس شريفاً يقظ الضمير إلى الحد الذي يرضى معه أن يأخذ العون والمال من امرأة» .

- «أي شيء آخر كان بوسعه أن يفعل؟» .

ـ «ومَن أنا لأجيبك عما كان بوسعه أن يفعل؟ إني أعرف ما فعلته أنا فقط ، سواء عندما طردت أو في هذه الأيام ، كما أني أعرف ما فعله الرجال الآخرون غيره . لقد رأينا فرصة سانحة في انهيار إحدى المدنيات فانتهزناها أحسن انتهاز ، بعضنا انتهزها بأمانة ، وبعضنا الآخر بأساليب مشبوهة ، ونحن ما زلنا ننتهزها على الوجه الأفضل ، ومع أن «آشلي» هذا العالم ينعمون بالفرص ذاتها ، إلاّ أنهم لا ينتهزونها . إنهم ليسوا نبهاء يا سكارلت ، والنبهاء فقط هم الذين يستحقون البقاء» .

وبالكاد سمعت سكارلت ما كان يقوله ، إذ كانت تعاودها الآن الذكرى نفسها التي كانت قد أغاظتها لدقائق خلت ، عندما شرع في التكلم بادئ الأمر . . . تذكرت الريح الباردة التي كانت تجتاح بستان تارا حيث كان آشلي يقف قرب كومة من القضبان وعيناه تنظران إلى ما خلفها ، وكان قد ذكر ـ ماذا كان قد ذكر؟ ذكر اسماً غريباً مضحكاً يشبه في لفظة (بروفانتي) ـ الدنس ـ وكان قد تحدث عن نهاية العالم ، ولم تكن قد عرفت ماذا كان يعني عندئذ ، ولكن الفهم التائه كان يأتيها الآن ، يصاحبه شعور مهيض مريض .

ـ «عجباً ، لقد قال آشلي . .» .

ـ «نعم؟» .

ـ «مرة في تارا ، قال شيئاً عن الـ . . عن أفول الآلهة وعن نهاية العالم وسخافة كهذه . .» .

ـ «ها ، الآخرة !» وبدت عيناه حادتين بلهفة «وماذا قال أيضاً؟» .

ـ «لا أذكر بالضبط ، إذ لم أكن أعيره انتباهاً كبيراً ولكن ـ أجل ـ شيئاً عن أن الأقوياء يجتازون المحنة بينما الضعفاء يذرون بعيداً» .

ـ «ها ، إذاً ، هو يعرف ذلك ، إذاً إن معرفته تلك تجعل الأمر أكثر صعوبة له . إن معظم أمثاله لا يعرفون ، ولن يعرفوا مطلقاً ، وسيظلون طيلة حياتهم يتساءلون أين اختفى السحر المفقود ، سيظلون يقاسون في صمت شامخ عاجز وحسب . غير أن آشلي يعرف . إنه يعرف أنه قد انتُبِذ بعيداً» .

ـ «آه ، إنه لم يُنتبذ . لا ، ولن يذرى وفي جسمي نفس» .

فنظر إليها بهدوء ، ووجهه الأسمر صافي التعبير .

ـ «سكارلت ، كيف استطعت أن تنالي موافقته على المجيء إلى أتلانتا وإدارة

المعمل؟ هل قاوم رغبتك بقوة؟» .

فخطرت لها ذكرى سريعة لمشهدها مع آشلي ، المشهد الذي جرى بعد جنازة أبيها ، ولكنها أبعدت الذكرى عنها .

ـ «الواقع ، طبعاً لا» أجابت ساخطة «عندما أوضحت له أني بحاجة إلى مساعدته لأني لا أثق بذلك الوغد الذي كان يدير المعمل ،ولأن فرانك كان مشغولاً جداً بحيث لم يكن بوسعه أن يساعدني ، وأني كنت سأ . . على كل حال ، كنت حاملاً بإيلا لورينا ، فهمت . كان سعيداً جداً بأن يساعدني للخروج من المأزق» .

ـ «رائعة هي فوائد الأمومة ! بهذه الطريقة تغلبت عليه إذاً . حسناً ، لقد ظفرت به حيث تريدينه الآن . ذلك الشيطان المسكين ، إنه مقيد بالتزاماته لك ، شأن تقيد أي من أشقيائك بأغلاله . وإني أتمنى السعادة لكما ، ولكن كما قلت في بداية هذا الحديث ، لن تحصلي أبداً على أي سنت آخر مني من أجل أي من مشاريعك الصغيرة غير النسوية ، أيتها السيدة التي تفتقر إلى الأمانة» .

ـ كانت تتألم من الغضب ، والخيبة أيضاً ، لأنها كانت ذات يوم تفكر في أن تقترض مالاً أكثر من ريت لتشتري أرضاً في أسفل المدينة وتبدأ في بناء مستودع أخشاب هناك .

ـ «بوسعي الاستغناء عن نقودك» صاحت «فأنا أجني نقوداً من معمل جوني كاليغر ، نقوداً وفيرة ، لأني لا أستخدم زنوجاً محررين الآن . كما أن لدي بعض المال من الرهونات ، وكذلك فنحن نكسب نقوداً من تجارة العبيد» .

ـ «أجل ، هكذا سمعت . ما أذكى أن تخدعي العاجز والأرملة واليتيم والجاهل ! ولكن إذا كان لا بد لك من أن تسرقي يا سكارلت ، فلماذا لا تسرقين من الأغنياء والأقوياء بدلاً من الفقراء والضعفاء؟ فمن أيام روبن هود إلى اليوم ، وذلك يعتبر أمراً خلقياً رفيعاً .

ـ «لأن» قالت سكارلت باقتضاب «السرقة من الفقراء ـ كما تدعوها ـ أسهل وآمن» .

فضحك في سره واهتز كتفاه .

ـ «إنك محتالة شريفة رائعة يا سكارلت !» .

محتالة ! كان من المستغرب أن يغيظها ذلك النعت . إنها لم تكن محتالة ،

حدثت نفسها بحدة . وعلى الأقل ، لم يكن ذلك ما تريد أن تكونه ، لقد كانت تريد أن تكون سيدة عظيمة . ولهنيهة ، عاد عقلها سريعاً عبر السنين ، ورأت أمها تتحرك بحفيف التنورة الخفيف ، وبحقيبة ينبعث منها عطر خفيف ، ويداها الصغيرتان المنهمكتان في العمل لا تكلان من خدمة الآخرين . سيدة محبوبة محترمة معززة . وفجأة انتاب السقم قلبها .

ـ «إذا كنت تحاول أن تعذبني» قالت برمة «فلن يجديك ذلك نفعاً ، فأنا أعرف أني لست حساسة الضمير كما ينبغيِ أن أكون في هذه الأيام ، كما أني لست لطيفة سارة كما نُشِّئت لأكون . ولكن لا حيلة لي في ذلك يا ريت . حقا إني لا أستطيع . أي شيء آخر كان بوسعي أن أفعل؟ ماذا كان سيحل بي ، بويد ، بتارا وبكل منا لو أنني كنت ـ لطيفة عندما جاء ذلك الشمالي إلى تارا؟ كان ينبغي أن أكون ـ ولكن لا أريد حتى أن أفكر بذلك . ثم عندما كان من المنتظر أن ينتزع جوناس ويلكرسون البيت منا ، هب أنني كنت لطيفة وحساسة الضمير؟ فأين كان ينتظر أن نكون الآن؟ ثم لو أني كنت عذبة وساذجة ولم ألح على فرانك فيما يتعلق بالديون الميتة التي كانت لنا ـ على كل حال ، يمكن أن أكون وغدة غير أني لن أكون وغدة إلى الأبد يا ريت . ولكن خلال هذه السنين المنصرمة ـ وحتى الآن ـ أي شيء آخر كان بوسعي فعله؟ بأي طريقة أخرى كان بوسعي أن أتصرف؟ كنت أشعر أني كنت أحاول التجذيف بقارب ثقيل الحمل في عاصفة ، وكنت أنوء بمتاعب كثيرة ، فرحت أحاول أن أظل عائمة وحسب ، بحيث أنه لم يكن بوسعي أن أقلق جراء أمور لم تكن تؤثر ، أمور كان بوسعي أن أتخلى عنها بسهولة دون أن أفتقدها ، كالأخلاق الحميدة . . وأمور شبيهة . لقد كنت خائفة جداً من أن يغرق قاربي وهكذا رحت أقذف من على القارب بالأشياء التي كانت تبدو أقل قيمة من غيرها» .

ـ «كالكبرياء والشرف والصدق والفضيلة واللطف» سرد ريت بخبث «إنك على صواب يا سكارلت ، فهذه الأمور ليست بذات بال عندما يكون القارب على وشك الغرق . ولكن انظري إلى أصدقائك ، تجدينهم إما يقودون قواربهم إلى الشاطىء بأمان ، وبحمولات كاملة ، وإما يقنعون بأن يغرقوا وراياتهم تخفق» .

ـ «إنهم زمرة أغبياء» قالت باقتضاب «هناك وقت لجميع الأمور ، عندما يصير بحوزتي مبلغ وفير من المال ، سأكون لطيفة كما تريد ، ولن تذوب الزبدة

في فمي . سيكون بوسعي أن أكون لطيفة عندئذ» .

ـ «سيكون بوسعك أن تكوني ولكنك لن تكوني ـ إن من الصعب إنقاذ حمولة ملقاة في الماء ، وحتى لو استردت فإنها تكون عادة تالفة إلى درجة لا يمكن ترميمها . وإني أخشى أنه عندما يكون بوسعك اصطياد الشرف والفضيلة واللطف التي قد ألقيتها من ظهر القارب ، ستجدين أنها قد تغيّرت بفعل الماء ، وأن تغيرها لم يكن ، كما أخشى ، إلى شيء غني وفريد . . .» .

ونهض فجأة وتناول قبعته .

ـ «أذاهب أنت؟» .

ـ «أجل ، ألم يسر عنك؟ أني أتركك لما تبقى من ضميرك» .

وصمت ، ونظر إلى الطفلة ، ومد إليها أصبعه لتقبض عليه .

ـ «أظن أن فرانك يفخر بها كثيراً» .

ـ «ها ، طبعاً» .

ـ «وأفترض أن لديه مشاريع كثيرة من أجل هذه الطفلة؟» .

ـ «طبعاً ، إنك تعرف عظم حمق الرجال فيما يتعلق بأطفالهم» .

ـ «أخبريه إذاً» قال ريت وصمت قليلاً وقد بان على وجهه تعبير غريب . «أخبريه أنه إذا أراد أن تتحقق مشاريعه لابنته ، فمن الأفضل له أن يقيم في بيته ليلاً ، أكثر مما يفعل الآن؟» .

ـ «ماذا تعني؟» .

ـ «تماماً ما أقوله ، أخبريه أن يقيم في البيت» .

ـ «ها ، أيها المخلوق السفيه ! تريد أن توعز بأن فرانك المسكين سـ ـ» .

ـ «ها ، يا لله الرحيم ! وانفجر في ضحكة مدوية «أنا لم أقصد أنه كان يلاحق النساء ! فرانك ، يا لله العظيم !» .

ونزل الدرج وهو يضحك .

جذبت سكارلت الدثار عالياً تحت إبطيها وهي تسوق العربة من طريق ديكاتور باتجاه معمل جوني كاليغر . كان الجو عاصفاً بارداً بعد ظهر ذلك اليوم من شهر آذار/ مارس ، وكان خروجها وحيدة أمراً خطيراً هذه الأيام ، وكانت هي تعرف ذلك ، لقد كان أخطر من أي يوم مضى ، إذ أضحى الزنوج الآن منطلقين من عقالهم تماماً . وكما كان آشلي قد تنبأ ، فقد كان على الجنوبيين دفع الثمن غالياً منذ رفض المجلس التشريعي المصادقة على التعديل . لقد كان الرفض الشديد بمثابة صفعة على وجه الشمال الحانق . وجاء الرد الثأري سريعاً . لقد صمم الشمال على أن يفرض أصوات الزنوج على الولاية ، ومن أجل هذه الغاية اعتبرت جورجيا في ثورة ووضعت أشد القوانين العسكرية صرامة ، بل إن كيان جورجيا ذاته كولاية أزيل من الوجود ، وأضحت هي وفلوريدا وألاباما «المنطقة العسكرية رقم ٣» تحت حكم جنرال اتحادي .

وإذا كانت الحياة مخيفة غير آمنة من قبل ، فقد تضاعف خوفها وعدم أمانها الآن ، وأصبحت التنظيمات العسكرية التي كانت تبدو صارمة جداً في السنة الماضية ، أصبحت الآن خفيفة إذا ما قورنت بالقوانين الصارمة من قبل الجنرال بوب . وهكذا بدا المستقبل مظلماً لا أمل فيه ، وبدت الولاية المنغصة تتضور ألماً وعجزاً . أما بالنسبة إلى الزنوج فإن أهميتهم الجديدة دخلت في رؤوسهم فأخمرتها ، وعندما أدركوا أن الجيش الشمالي يسندهم زادت حوادث تعدياتهم وانتهاكهم لحقوق الناس ، ولم يكن أحد آمناً من شرهم .

في هذا الظرف الوحشي المخيف ، كانت سكارلت فزعة ، فزعة ولكن مصممة ، وما انفكت تقوم وحيدة بجولاتها ومسدس فرانك مدسوس في فراش العربة . كانت تلعن المجلس التشريعي في سرها لأنه جلب هذه الكارثة الفادحة عليهم جميعاً . أي نفع أداه هذا الموقف الشجاع الرائع ، هذا الموقف الذي نعته الجميع بالشهامة؟ لقد زادت الأمور سوءاً وحسب .

وفيما كانت تقترب من الدرب الموصل ، عبر الأشجار العارية ، إلى أسفل الوادي ، حيث كانت تقع مستعمرة شانتيتون صاتت الحصان ليحث خطاه . لقد

كانت تشعر بالقلق دائماً وهي تسير إزاء هذه المجموعة القذرة الحقيرة من الخيام والتخشيبات التي كانت للجيش فهجرها . هذه المجموعة التي كانت تتردى بسمعة أسوأ من سمعة أي بقعة داخل أتلانتا أو قربها ، إذ كان يعيش فيها الآن الزنوج القذرون المشردون والعاهرات السوداوات وجماعة مشردة من البيض الفقراء من الطبقة الدنيا ، كما شاع أن هذه المستعمرة كانت مأوى المجرمين من السود والبيض ، كما كانت أول مكان يفتشه الجنود الشماليون عندما كانوا يلاحقون رجلاً . كانت حوادث القتل والجرح تستمر هنا بانتظام غريب بحيث ندر أن تحملت السلطة مشقة التحقيق فيها ، إذ كانت تترك سكان شانتيتون ينهون قضاياهم المظلمة بأنفسهم . وكان يوجد في الغابات ، خلف المستعمرة ، معمل تقطير ينتج نوعاً رخيصاً من ويسكي الذرة . وهكذا كانت غرف أسفل الوادي تصخب ليلاً بصيحات المخمورين وشتائمهم .

حتى الشماليون اعترفوا بأنها بقعة موبوءة ويجب أن تزال من الوجود ، غير أنهم لم يتخذوا أي إجراء في هذا السبيل ، واشتد السخط بين سكان أتلانتا وديكاتور ، الذين كانوا مضطرين إلى أن يستعملوا الطريق للسفر بين البلدين . وكان الرجال يمرون إزاء شانتيتون ومسدساتهم مهيأة في قراباتها ، أما النسوة الجميلات فلم يكنّ أبداً يمررن إزاء هذا المكان بطيبة خاطر ، حتى وهن بحماية رجالهن ، إذ كان نساء زنجيات قميئات مخمورات ، يجلسن على طول الطريق ويقذفن الإهانات ويصحن بكلمات شائنة .

ولم تكن سكارلت طيلة وجود آرشي إلى جانبها قد أعارت شانتيتون أدنى اهتمام ، إذ لم تكن حتى أكثر الزنجيات وقاحة لتجرؤ على الضحك بحضورها . ولكن منذ أن اضطرت إلى أن تركب وحدها ، وقع عدد كبير من الحوادث المكدرة ، وبدا أن الزنجيات القميئات شرعن يمارسن وقاحتهن كلما مرت إزاءهن . ولم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً سوى تجاهلهن والتميز غضباً . ولم يكن بوسعها حتى أن تجد عزاء في الترويح عن نفسها بسرد متاعبها على جيرانها أو عائلتها ، لأن الجيران سيقولون حينذاك بنشوة الظافر : «وماذا تتوقعين غير ذلك؟» وستلح عائلتها عليها ثانية بصورة مرعبة وتحاول إيقافها ، ولم تكن هي تنوي التوقف عن جولاتها .

شكراً لله ، لم يكن هناك نساء زريات على جانب الطريق هذا اليوم ! وفيما

كانت تعبر الدرب الموصل إلى المستعمرة ، نظرت باشمئزاز إلى مجموعة الأكواخ الرابضة في الوادي في شمس بعد الظهر الكئيبة المائلة . وكانت ريح باردة تخفق ، ويبلغ منخريها ، بعد أن عبرت الدرب ، مزيج من روائح دخان الحطب ولحم الخنزير المشوي والمراحيض المهملة ، فأشاحت بأنفها وساطت ظهر الحصان بعنف ، وحثت خطاه حول منعطف الطريق .

وحالما أخذت تتنفس الصعداء ، وثب قلبها إلى حلقها برعب مفاجئ ، إذ برز زنجي ضخم بصمت من خلف شجرة سنديان كبيرة فارتاعت ولكن ليس إلى الحد الذي يجعلها تفقد وعيها ، وعلى الفور جذبت عنان الفرس ، وأضحى مسدس فرانك في يدها .

ـ «ماذا تريد؟» صاحت بكل العبوس الذي استطاعت حشده . ولكن الزنجي الضخم كان منكمشاً إلى خلف الشجرة ، وكان صوته الذي أجابها يرتعد فرقاً :

ـ «يا لله يا آنسة سكارلت ، لا تقتلي سام الكبير!» .

سام الكبير! وللوهلة الأولى ، لم تستطع استيعاب كلماته . سام الكبير ناظر عمال تارا الذي كانت قد رأته آخر مرة في أيام الحصار . ماذا . . .

ـ «اخرج ودعني أرى إذا كنت سام حقاً!» .

فانساب من مخبئه متردداً . رجل ضخم زري المنظر حافي القدمين يرتدي سراويل قطنية خشنة مخططة ومعطف بزة عسكرية اتحادية زرقاء ، ومعطفاً قصيراً وضيّقاً جداً بالنسبة إلى جسده الكبير . وعندما رأت سكارلت أن الرجل كان سام الكبير حقاً ، دست المسدس في فراش العربة وابتسمت بسرور .

ـ «هيا يا سام! ما أجمل أن أراك!» .

فهرول سام إلى العربة وعيناه تشعان فرحاً وأسنانه البيضاء تلمع ، وأمسك بيدها الممدودة نحوه بيدين سوداوين كبيرتين ، وتدلى لسانه الأحمر بلون البطيخ ، وراح كل جسده ينشط ، وكانت حركاته الهنيئة مضحكة كحركات كلب قوي كبير .

ـ «يا إلـــهي ، إن من الجميل حتماً أن أرى أحد أفراد العائلة ثانية» صاح ضاغطاً على يدها حتى شعرت أن العظام تكاد تتشقق «كيف وصلت إلى مثل هذه المنزلة الوضيعة ، تحملين مسدساً يا آنسة سكارلت؟» .

ـ «هناك عدد كبير من الناس المنحطين في هذه الأيام يا سام ، ولذا فإني

مضطرة إلى حمله . ماذا تفعل في مكان زري كشانتيتون وأنت الزنجي المحترم؟ ولماذا لم تأت إلى المدينة لتراني؟» .

ـ «لا يا آنسة سكارلت ، أنا لا أسكن في شانتيتون . إني أقيم فيها لمدة قصيرة فقط . وليس هنالك ما يمكن أن يغريني على الإقامة في ذلك المكان . إني لم أر في حياتي زنوجاً حقيرين كهؤلاء . كما أني لم أكن أعرف أنك في أتلانتا . لقد ظننت أنك موجودة في تارا ، وكنت أنوي العودة إليها حالما تسنح لي الفرصة» .

ـ «هل ما زلت تعيش في أتلانتا منذ الحصار؟» .

ـ «لا يا سيدة ! كنت متنقلاً !» وأفلت يدها وطوتها هي في ألم ، «أتذكرين عندما رأيتني آخر مرة؟» .

فتذكرت سكارلت اليوم الحار ، قبل بدء الحصار ، عندما كانت تجلس وريت في العربة ، ومرت عصبة الزنوج وسام على رأسهم ، مرت في الشارع المغبر متجهة إلى الخنادق وهي تغني «اهبط يا موسى» ، ولذلك أومأت برأسها أن نعم .

ـ «حسناً . لقد اشتغلت ككلب وأنا أحفر الخنادق وأملأ أكياس الرمل إلى أن غادر الحلفيون أتلانتا . وكان الكابتن المسؤول عني قد قتل ، ولم يكن هناك أحد ليخبر سام الكبير ماذا يفعل ، ولذلك رقدت بين الشجيرات وفكرت في أن أحاول الوصول إلى تارا ، ولكني سمعت بعدئذ أن كل الريف المحيط بتارا قد أحرق ، فضلاً عن أنه لم يكن هناك سبيل لي للعودة ، فقد كنت أخشى أن يقتلني الحراس لأني لم أكن أملك تصريحاً بالمرور . ثم جاء الشماليون وأخذني سيد منهم ، وكان برتبة كولونيل ، لأعتني بحصانه وجزماته . أجل يا سيدة ! لقد شعرت بالكبرياء طبعاً ، لأني غدوت خادماً خاصّاً كبورك ، بينما أنا لم أكن شيئاً سوى عامل حقل . ولم أخبر الكولونيل بأنني كنت عامل حقل ، وهو . . على كل حال يا آنسة سكارلت إن الشماليين قوم جهلة ! فلم يكن سيدي يعرف الفرق ! وهكذا أقمت معه وذهبت برفقته إلى سافانا ، وذلك عندما قصدِها شيرمان . ووالله يا آنسة سكارلت ، إني لم أر زحفاً كذاك الذي رأيته في طريقي إلى سافانا : نهب وحرق . . هل أحرقوا تارا يا آنسة سكارلت؟» .

ـ «لقد أشعلوا النيران فيها ولكننا أخمدناها» .

ـ «حسناً ، من الأكيد أني سعيد بسماع ذلك ، فتارا موطني وإني أنوي العودة إليها . وعندما انتهت الحرب قال لي الكولونيل «اسمع يا سام ، ستذهب معي إلى الشمال ، وسأنقدك راتباً جيداً . وطبعاً ، كجميع الزنوج ، كنت متحرقاً لأجرب الحرية المرتجاة قبل أن أعود إلى البيت ، ولذلك ذهبت مع الكولونيل . أجل ، لقد ذهبت إلى واشنطن ونيويورك ثم إلى بوسطن حيث يقطن الكولونيل . أجل يا سيدة ، إني زنجي رحالة ! ويا آنسة سكارلت يوجد خيول وعربات في شوارع الشماليين أكثر مما تستطيعين حصرها . وقد كنت خائفاً طيلة الوقت من أن يدوسني أحدها» .

ـ «هل أحببت الشمال يا سام؟» .

فحك رأسه ذا الشعر الصوفي .

ـ «لقد أحببته ـ ولم أحبه . إن الكولونيل رجل طيب للغاية وهو يفهم الزنوج . ولكن زوجته ، إنها نوع آخر . زوجته لقد نادتني «يا سيد» في أول مرة رأتني فيها . أجل ، لقد فعلت ذلك ، وكدت أسقط متعثراً عندما قالت ذلك ، لقد أخبرها الكولونيل أن تدعوني (سام) وعندئذ صارت تدعوني باسمي . إلاّ أن جميع الشماليين كانوا يدعونني (سيد أوهارا) منذ المرة الأولى التي رأوني فيها ، وكانوا يسألونني أن أجلس معهم كما لو كنت مثلهم تماماً . والحقيقة أني لم أكن قد جلست مع أناس بيض أبداً ، كما أني طاعن في السن بحيث أني لن أتعلم آداب الجلوس . كانوا يعاملونني كما لو كنت مثلهم تماماً يا آنسة سكارلت . ولكنهم لم يكونوا يحبونني في قلوبهم ـ لم يكونوا يحبون أي زنجي ، بل كانوا يخافونني لأني كبير الجثة . وكانوا يسألونني دائماً عن الكلاب الدامية التي كانت تطاردني وعن الضرب الذي كنت أتلقاه ، بينما أنا لم أكن قد ضربت أبداً ! أنت تعرفين أن السيد أوهارا لم يكن يسمح لأي إنسان بأن يضرب زنجياً حساساً مثلي !» .

«وعندما أنبأتهم بذلك وأخبرتهم أن السيدة إيلين رحيمة بالزنوج ، وكيف أنها كانت تقيم أسبوعاً بطوله ، إلى جانبي عندما كنت أصاب بداء الرئة ، لم يصدقوني ، ويا آنسة سكارلت ، لقد غدوت متلهفاً إلى السيدة إيلين وإلى تارا حتى بدا وكأني لم أعد أستطيع تحمل البعد مدة أخرى . وفي إحدى الليالي ، هربت قاصداً العودة إلى البيت ، وركبت الشاحنات طول الطريق حتى وصلت

إلى أتلانتا . وإن أنت ابتعت لي تذكرة سفر إلى تارا ، فمن الأكيد أني سأكون سعيداً ببلوغ بيتي . من الأكيد أني سأكون سعيداً برؤية السيدة إيلين والسيد جيرالد ثانية . لقد نعمت بقسط كاف من الحرية ، وأريد الآن من يطعمني غذاء جيداً بانتظام ويخبرني ما أفعل وما لا أفعل ، ويعتني بي عندما أمرض . هبي أني أصبت بداء الرئة ثانية؟ فهل كان ينتظر أن تعتني بي تلك السيدة الشمالية؟ يا سيدة ! كانت ستدعوني (سيد أوهارا) ولكنها لم تكن لتمرضني بينما السيدة إيلين ستمرضني ، فهل أمرض و- ما القضية يا آنسة سكارلت؟» .

- «إن كلا أبويّ متوفيان يا سام» .

- «متوفيان؟ هل تمزحين معي يا آنسة سكارلت؟ ذلك ليس أسلوباً جيّداً لمعاملتي !» .

- «إني لا أمزح . إنها الحقيقة . لقد ماتت أمي عندما اخترق رجال شيرمان تارا ، وأبي قضى في حزيران/ يونيو الماضي . آه يا سام ، لا تبك ، أرجوك لا تبك ، فإن أنت بكيت فسأبكي أنا أيضاً . سام لا تبك ! فأنا لا أستطيع احتمال ذلك . دعنا لا نتكلم عن هذا الموضوع الآن ، وسأخبرك بكل شيء عنه في وقت آخر . . . إن الآنسة سولين تعيش في تارا ، وقد تزوجت برجل طيب للغاية هو السيد ويل بنتين . وأما السيدة كارين فإنها في - »وصمتت سكارلت هنيهة . لم يكن بوسعها أبداً أن توضح للعملاق الباكي ماذا كان يعني الدير «إنها تعيش في شارلستون الآن ، ولكن بورك وبرسي في تارا . . . كفى يا سام ، هل ترغب حقاً في الذهاب إلى البيت؟» .

- «أجل ، ولكن الأمر لن يكون كما ظننت بمعية السيدة إيلين و . . .» .

- «سام ، إلى أي حد ترغب في البقاء بأتلانتا والعمل لدي؟ إني بحاجة إلى سائق وبحاجة ماسة إليه نظراً لوجود أناس منحطين كثيراً في هذه الأيام» .

- «أجل ، إنك بحاجة ماسة حتماً ، لقد كنت أنوي أن أقول لك أن ليس من شأنك أن تسوقي وحدك يا آنسة سكارلت ، فأنت لا تعرفين ما أشد انحطاط بعض الزنوج هذه الأيام ، خصوصاً أولئك الذين يعيشون هنا في شانتيتون . لا أمان عليك ، إذ لم يمض علي سوى يومين في شانتيتون ، ولكني سمعتهم يتحدثون عنك . وأمس عندما مررت إزاءهم ، وراحت تلك العاهرات السوداوات الحقيرات يصحن عليك ، عرفت شخصك ، ولكنك كنت تسيرين

بسرعة عظيمة ، بحيث لم أستطع اللحاق بك . على أني حتماً دققت جلودهم ، أولئك الزنوج ! حتماً فعلت . ألا تلاحظين أنه لا يوجد أحد منهم هنا اليوم؟» .

ـ «لقد لاحظت ذلك وإني أشكرك طبعاً يا سام . وعلى كل حال إلى أي حد ترغب في أن تكون سائق عربتي؟» .

ـ «آنسة سكارلت ، أشكرك يا سيدة ، ولكني أقول إني أفضل الذهاب إلى تارا» .

وخفض سام الكبير بصره ، وخط بأصبع قدمه الكبير شارات عفوية في الأرض ، وبدا وكأنه في حالة قلق خفي .

ـ «والآن قل لي لماذا؟ سأعطيك مرتباً حسناً ، ينبغي أن تبقى معي» .

وتطلع إليها الوجه الأسود الكبير ، وجه غبي سهل القراءة كوجه الطفل ، تطلع إليها وهو ينطق بالخوف ، ثم اقترب منها وانحنى فوق جانب العربة وهمس : «آنسة سكارلت ، علي أن أخرج من أتلانتا ، علي أن أذهب إلى تارا حيث لن يجدوني . لقد ـ لقد قتلت رجلاً» .

ـ «زنجياً؟» .

ـ «لا ، رجلاً أبيض ، جندياً شمالياً ، وهم يبحثون عني الآن ، وذلك هو سبب وجودي في شانتيتون» .

ـ «كيف حدث ذلك؟» .

ـ «كان مخموراً ، وكان يتفوه بعبارات لم أستطع تحملها بأي وجه من الوجوه ، فطوقت عنقه بيدي ـ ولم أكن أقصد قتله يا آنسة سكارلت ، غير أن يدي قويتان جداً ، وقبل أن أدري كان قد مات . وتملكني الخوف بحيث لم أعرف ما أفعل ! ولذلك جئت لأختبئ هنا . وعندما رأيتك تمرين أمس بالقرب من هذا المكان قلت : «تبارك الله ! تلك هي الآنسة سكارلت ! ستهتم بي ، ولن تدع الشماليين يقبضون علي ، وسترسلني إلى تارا» .

ـ «تقول إنهم يلاحقونك؟ هل يعرفون أنك أنت الفاعل؟» .

ـ «أجل ، إن قامتي كبيرة جداً بحيث إنهم لا يخطئونني . أظن أني أضخم زنجي في أتلانتا ، لقد جاؤوا في طلبي ليلة أمس ، ولكن فتاة زنجية خبأتني في كهف هناك بين الغابات إلى أن ذهبوا» .

جلست سكارلت مقطبة الوجه ، غير أنها لم تكن مذعورة أو مغمومة أبداً لأن سام كان قد اقترف جريمة قتل ، وإنما كانت خائبة الأمل لأنه لم يكن بوسعها أن تستخدمه كسائق لعربتها . وزنجي كبير كسام كان ينتظر أن يكون حارساً مفيداً كآرشي . على كل حال ، ينبغي أن توصله سالماً إلى تارا بطريقة ما ، لأنه ، طبعاً ، يجب أن لا تدع السلطات تقبض عليه ، فهو زنجي قيم جداً ، بحيث لا يجوز أن يعدم ، كيف لا ، وقد كان أحسن ناظر عمال نعمت به تارا . ولم يدخل في عقل سكارلت أنه كان حراً ، بل كانت ترى أنه ما زال يخصها ، شأن بورك ومامي وبطرس وكوكي وبرسي . كان ما زال «أحد أفراد عائلتنا» ولذلك كان ينبغي حمايته .

ـ «سأرسلك إلى تارا هذه الليلة» قالت أخيراً «والآن يا سام ، ينبغي أن أسير خارج الطريق مسافة قصيرة ، ولكن علي أن أعود هنا قبيل الغروب فكن بانتظاري عندما أعود ولا تخبر أحداً عن مكان ذهابك . وإذا كنت تملك قبعة فأحضرها معك لتستر بها وجهك» .

ـ «لا أملك قبعة» .

ـ «حسناً ، خذ ربع الدولار هذا ، واشتر قبعة من زنوج الأكواخ أولئك وتعال لملاقاتي هنا» .

ـ «سمعاً وطاعة» وعلى الفور تألق وجهه بالفرح لأنه صار ينعم بمن يخبره ما يفعل .

ساقت سكارلت العربة وهي تفكر . من الأكيد أن ويل سيرحب بعامل حقل ماهر في تارا ، لأن بورك لم يكن ذا نفع أبداً في الحقول ولن يكون ذا نفع مطلقاً . وبوجود سام في المزرعة ، سيكون بوسع بورك أن يأتي إلى أتلانتا ، ويلتحق بدلسي كما كانت قد وعدته عند وفاة أبيها .

عندما بلغت المعمل ، كانت الشمس تغرب ، وكان الوقت أكثر تأخراً من الوقت الذي كانت حريصة على أن لا تظل فيه خارجاً ، وكان جوني كاليغر يقف عند باب الكوخ الحقير الذي كان يستعمل كغرفة طهو لمعسكر الخشب الصغير ، وكان أربعة من الأشقياء الخمسة الذين كرستهم سكارلت لمعمل جوني يجلسون على قطعة خشب أمام التخشيبة التي كانت بمثابة غرفة نومهم . كانت ثيابهم الخاصة بالمجرمين قذرة ملوثة بالعرق ، وكانت الأغلال تقرقع بين كواحل

أقدامهم وهم يتحركون بإعياء ، وكان يكتنفهم مظهر من اليأس وتبلد الشعور . كانوا فئة هزيلة عديمة الصحة ، فكرت سكارلت وهي ترنو إليهم بنظرات حادة . لقد كانوا عندما استأجرتهم منذ وقت قصير رجالاً منتصبي القامات ، بينما هم الآن لم يرفعوا حتى عيونهم وهي تترجل من العربة . أما جوني فالتفت نحوها ونزع قبعته دون اكتراث ، وقد بدا وجهه الأسمر الصغير وهو يحييها .

ـ «لست مرتاحة من مظهر الرجال» قالت فجأة «إنهم لا يبدون في حالة حسنة ، أين خامسهم؟» .

ـ «يقول إنه مريض» قال جوني بإيجاز «إنه في غرفة النوم» .

ـ «مم يشكو؟» .

ـ «من الكسل غالباً» .

ـ «سأذهب لأراه» .

ـ «لا تفعلي ذلك ، فقد يكون عارياً . سأهتم به ، وسيعود إلى العمل غداً» .

وترددت سكارلت ، ورأت أحد الأشقياء الأربعة يرفع رأسه منهوكاً ، ويرمق جوني بنظرة كراهية شديدة ، قبل أن ينظر إلى الأرض ثانية .

ـ «وهل جلدت هؤلاء الرجال؟» .

ـ «اسمعي يا سيدة كندي ، أرجو عفوك ، من الذي يدير هذا المعمل؟ لقد عينتني مسؤولاً عنه ، وأخبرتني أن أديره ، وقلت إني مطلق الصلاحية ، فليس لك ما تشتكين منه علي إذاً ، أليس كذلك؟ ألا أقدم لك أنا ضعف ما كان يقدمه السيد ألسنغ؟» .

ـ «أجل إنك تفعل ذلك» قالت سكارلت ، ولكن رعشة انتابتها .

كان هناك شيء مشؤوم يكتنف هذا المعسكر بأكواخه الزرية ، شيء لم يكن موجوداً عندما كان هيو يديره . كان هناك وحشة ، عزلة تكتنفه ، الأمر الذي جعلها تقشعر منه . وكان هؤلاء الأشقياء مذهولين جداً عن كل شيء ، واقعين كلية تحت رحمة جوني كاليغر . وإذا ما ارتأى أن يجلدهم أو أن يسيء معاملتهم ، فمن المحتمل أن لا تعلم بذلك أبداً ، لأن الأشقياء سيخافون أن يشكوا إليها خشية قصاص أسوأ ينزل بهم بعد ذهابها .

ـ «إن الرجال يبدون هزالى . هل تقدم لهم طعاماً كافياً؟ إن الله وحده يعلم

أني أصرف على طعامهم نقوداً تكفي لجعلهم سماناً كالخنازير . لقد كلفني الدقيق ولحم الخنزير فقط ثلاثين دولاراً في الشهر الماضي . ماذا ستقدم لهم عشاء؟» .

وتقدمت نحو تخشيبة الطهو ، وتطلعت داخلها . فانحنت المرأة الخلاسية البدينة التي كانت منحنية فوق موقد قديم صدئ ، انحنت نصف انحناءة عندما رأت سكارلت ، ثم استمرت في تحريك قدر كانت تطهو فيه بازلاء . كانت سكارلت تعرف أن جوني كاليغر يعيش مع هذه الخلاسية ، ولكنها فكرت أن من الأفضل تجاهل تلك الحقيقة ، ثم رأت أنه باستثناء البازلاء ووعاء خبز الذرة ، لم يكن يوجد أي طعام قيد التحضير .

ـ «أليس لديك أي طعام آخر لهؤلاء الرجال؟» .

ـ «لا» .

ـ «ألا يوجد لحم في هذه البازلاء؟» .

ـ «لا» .

ـ «ولا دهن خنزير؟ ولكن البازلاء لا تصلح دون دهن خنزير . لا يوجد غذاء مقو فيها؟» .

ـ «يقول السيد جوني إنه لا فائدة من وضع الدهن بدون لحم» .

ـ «تضعين بيكون فيه . أين تحفظين المؤن؟» .

فأدارت الزنجية عينين مذعورتين إلى الخزانة الصغيرة التي كانت تستعمل كمخزن للمؤونة ، وفتحت سكارلت بابها بعنف . كان هناك على أرضها برميل مفتوح من طحين الذرة ، وكيس صغير من الدقيق ، ورطل من القهوة وقليل من السكر وإبريق سعته غالون من عسل النبات وفخذان لحم خنزير ، أحدهما حديث الطهو موضوع على الرف ، قد قطعت منه شرحة أو شرحتان وحسب . واستدارت سكارلت هائجة نحو جوني كاليغر وواجهت نظرته الغضبى الباردة :

ـ «أين أكياس الدقيق الخمسة التي أرسلتها في الأسبوع الماضي ، وكيسا السكر والقهوة؟ ولقد أرسلت خمسة أفخاذ خنزير وعشرة أرطال لحم والله يعلم كم كيس بطاطا حلوة وبطاطا إيرلندية ! على كل حال ، أين هي؟ لا يمكن أن تكون قد استهلكتها جميعاً في أسبوع حتى لو كنت أطعمت الرجال خمس وجبات يوميّاً . لقد بعتها ! ذلك ما فعلته أيها اللص ! بعت مؤني الجيدة

ووضعت النقود في جيبك وأطعمت هؤلاء الرجال البازلاء الجافة وخبز الذرة . لا عجب إذاً أن يبدوا بهذا الهزال . ابتعد عن طريقي» .

واندفعت نحو البوابة مارة به .

- «أنت أيها الرجل الجالس في النهاية ، أجل أنت ! تعال هنا !» .

فنهض الرجل ومشى نحوها بتثاقل وأغلاله تصل . ورأت سكارلت أن كاحليه العاريين كانا أحمرين منفطّين نتيجة احتكاك الحديد بهما .

- «متى أكلت لحم خنزير آخر مرة؟» .

فأطرق الرجل بعينيه إلى الأرض .

- «تكلم !» .

ولكن الرجل ما زال يغضي صامتاً زري المنظر . وأخيراً رفع عينيه ونظر إلى وجه سكارلت متوسلاً ، وأطرق بصره ثانية .

- «تخاف أن تتكلم ، أليس كذلك؟ حسناً ، ادخل غرفة المؤونة تلك واجلب فخذ الخنزير من على الرف . ريبكا ، أعطيه سكينك . خذه إلى هؤلاء الرجال وقسمه بينهم . ريبكا ، *اصنعي بعض البسكويت والقهوة لهم* ، وقدمي *لهم* كثيراً من عسل النبات . هيا ، الآن ، كيما أراك تنفذين ذلك» .

- «ذاك دقيق وقهوة السيد جوني الخاصان» دمدمت ريبكا مذعورة .

- «دقيق وقهوة السيد جوني ، قدمي ! وأظن أن ذاك هو فخذ خنزيرة أيضاً ! افعلي ما أقوله لك . هيا باشري . جوني كاليغر ، اخرج إلى العربة معي» .

وخطت عبر الساحة المفروشة قشّاً ، وتسلقت إلى داخل العربة وهي تلاحظ برضى متجهم أن الرجال كانوا يمزقون لحم الخنزير ويحشون أفواههم بقطعه بشراهة . كانوا يبدون وكأنهم يخافون أن ينتزع اللحم منهم في أية لحظة .

- «إنك وغد نادر المثال !» صاحت حانقة على جوني كاليغر وهو يقف عند العجلة وقد أزاح قبعته عن جبينه العابس «وبوسعك الآن أن تناولني ثمن جميع مؤني . وفي المستقبل سأجلب لك المؤن يومياً بدلاً من شرائها لمدة شهر ، وعندئذ لن تستطيع خيانتي» .

- «في المستقبل لن أكون هنا» .

- «تعني أنك ستترك العمل !» .

وللوهلة الأولى ، كان لسان سكارلت الناقم على وشك أن يصيح : «اذهب

ويا له من خلاص عظيم!» ولكن يد الحذر الباردة أوقفتها . . . فإذا ترك جوني العمل ، فماذا تفعل؟ لقد كان ينتج ضعف كمية الخشب التي كان ينتجها هيو ، والآن في هذا الوقت بالذات ، كان لديها طلب كبير ، أكبر طلب حظيت به ، طلب كبير وسريع في الوقت نفسه ، وكان عليها أن توصل الخشب المطلوب إلى أتلانتا ، فإذا ترك جوني العمل فمن ستجد لإدارة المعمل؟

ـ «أجل سأترك العمل . لقد أسندت إلي المسؤولية تامة هنا ، وأخبرتني أن كل ما ترجينه مني هو إنتاج أكبر كمية أستطيعها من الخشب ، ولم تخبريني آنئذ كيف يجب أن أدير عملي ، ولست أنوي أن أدعك تبدأين في توجيهي الآن . أما كيف أنتج الخشب فليس من شأنك . كما ليس بوسعك أن تتذمري من أني قصرت في ما اتفقنا عليه . لقد جمعت لك مالاً ، ولقد كسبت راتبي ـ كما كسبت أيضاً ما استطعت جنيه بطريقة خاصة . وها قد أتيت الآن هنا تتدخلين في شؤوني وتسألين أسئلة ، وتدمرين سلطتي أمام الرجال . كيف تنتظرين أن أحفظ النظام بعد هذا؟ وماذا يحدث لو ضرب الرجال من وقت إلى آخر؟ فالخامل العديم الجدوى يستحق أسوأ من ذلك . ثم ماذا إن لم يطعموا جيداً ويشبعوا؟ إنهم لا يستحقون أفضل من هذا . إما أن تهتمي بعملك وتدعيني أهتم بعملي أو أنني أترك العمل الليلة» .

كان وجهه الصغير الصارم يبدو أصلب مما كان عليه في أي وقت مضى . ووقعت سكارلت في مأزق . فإن هو غادرها الليلة ، فماذا ستفعل؟ لم يكن بوسعها أن تقيم هنا طوال الليل ، لتحرس الأشقياء!

وفضحت عيناها بعض مأزقها ، إذ تغيرت سحنة جوني بدهاء ، وزاولت وجهه بعض الصرامة ، وشاب صوته عندما تكلم ، نغمة رقيقة رضية :

ـ «لقد أضحى الوقت متأخراً يا سيدة كندي ، ومن الأفضل أن تعودي إلى البيت . كما أننا لن نختلف على شيء صغير كهذا ، أليس كذلك؟ ما قولك لو أخذت عشرة دولارات من راتبي للشهر القادم ، ودعينا نعتبر القضية قد سويت» .

واتجهت عينا سكارلت رغماً عنها إلى الجماعة البائسة التي كانت تقضم لحم الخنزير ، وفكرت بالرجل المريض الذي كان يضطجع داخل التخشيبة التي كانت تلعب فيها الريح . . . ينبغي أن تتخلص من جوني كاليغر . لقد كان

لصّاً ومتوحشاً ، كما لم يكن يمكن الحدس بما كان يفعل بالأشقياء في أثناء غيابها . ولكن من الناحية الثانية ، كان جوني حاذقاً ، ويعلم الله أنها كانت بحاجة إلى رجل حاذق . على كل حال ، لم يكن بوسعها تركه الآن . لقد كان يكسب النقود لها ، وما عليها فقط إلاّ أن تتحقق من أن الأشقياء سينالون مخصصاتهم الغذائية المعينة لهم في المستقبل .

ـ «سآخذ عشرين دولاراً من راتبك» قالت «وسأعود هنا وأبحث الأمر بصورة أشمل في الصباح» .

وتناولت الزمام ، ولكنها كانت تعرف أنه لن يجري بحث أوسع وتعرف أن القضية انتهت وأن جوني أدرك ذلك .

وفيما كانت تسوق نحو أسفل الطريق ظلت وجوه الأشقياء النحيلة الكئيبة تعاود تفكيرها .

ـ «آه ، سأفكر بهم فيما بعد» .

*

عندما بلغت سكارلت منعطف الطريق شمال شانتيتون ، كانت الشمس قد غربت تماماً ، وقد غدت الغابات حولها مظلمة ، ومع غروب الشمس سقطت على الدنيا المنيرة بضوء الغسق برودة لاذعة ، وهبت ريح باردة خلال الغابات المظلمة ، جاعلة الأغصان العارية تصطفق ، والأوراق الجافة تهتز بحفيف مسموع ، ولم يسبق لسكارلت أن ظلت خارج البيت وحدها إلى مثل هذا الوقت المتأخر ، ولذلك انتابها القلق وتمنت أن لو كانت في البيت .

ولم يكن سام الكبير موجوداً في أي مكان في مدى بصرها ، وعندما جذبت العنان لتنتظره ، أحست بالضيق جراء غيابه ، وخافت أن يكون الشماليون قد اعتقلوه . ثم سمعت وقع خطوات قادمة في الدرب من المستعمرة ، وخرجت نهدة الفرج من شفتيها . . إنها ستقاصص سام حتماً لأنه أبقاها تنتظر .

بيد أن الذي كان قادماً حول المنعطف لم يكن سام .

كان رجلاً أبيض زري المنظر ويرفقته رجل أسود ذو كتفين ككتفي الغوريلا وصدر كصدره . وساطت سكارلت الحصان على عجل ، وقبضت على المسدس ، وانطلق الحصان خبباً ولكنه أجفل فجأة عندما طوح الرجل الأبيض

بيده أمامه :

ـ «أيتها السيدة» قال «هل بوسعك أن تمنحيني ربع دولار؟ إني جائع جداً» .

ـ تنح عن الطريق» أجابت مبقية صوتها ثابت اللهجة بقدر ما استطاعت «ليس لدي نقود! هيا» .

وبحركة سريعة مفاجئة ، أضحت يد الرجل على لجام الحصان .

ـ «اقبض عليها!» صاح بالزنجي «فمن المحتمل أن تكون نقودها في صدرها!» .

أما الذي حدث بعد ذلك ، فقد كان كحلم رهيب بالنسبة إلى سكارلت ، فقد توالت الحوادث بسرعة مذهلة : أخرجت سكارلت مسدسها بسرعة ، وأنبأتها إحدى غرائزها بأن لا تطلق النار على الرجل الأبيض لئلا تقتل الحصان . وعندما هرع الزنجي ركضاً إلى العربة تغضن وجهه الأسود في تكشيرة شزراء ، فأطلقت النار عليه جهاراً ، ولم تعرف أأصابته أم لا . ولكن في الدقيقة التي تلت ، كان المسدس قد انتزع من يدها بقبضة كادت تهشم معصمها تقريباً . وأضحى الزنجي بجانبها ، قريباً جداً بحيث استطاعت أن تشم رائحته النتنة وهو يحاول أن يجرها إلى جانب العربة . وقاومت بجنون مستخدمة يدها الطليقة الوحيدة ، وجرحت وجهه بأظفارها ، ثم أحست بيده الكبيرة على حنجرتها ، وسمعت صوت الانفتاق ، صوت انشقاق قميصها من العنق إلى الخصر ، ثم راحت اليد السوداء تبحث بين ثدييها ، وتولاها الفزع والاضطراب بصورة لم يسبق لها مثيل ، وشرعت تصرخ كامرأة مجنونة .

ـ «أخرسها! جرها خارج العربة» صاح الرجل الأبيض . ثم مرت اليد السوداء عبر وجه سكارلت إلى فمها . فعضت عليها بقدر ما استطاعت من ضراوة ، وراحت تزعق ثانية . وخلال زعيقها سمعت الرجل الأبيض يشتم ، وتبينت أن هناك رجلاً ثالثاً في الطريق المظلة . ثم ارتدت اليد السوداء عن فمها ووثب الزنجي بعيداً عندما انقض سام الكبير عليه .

ـ «انطلقي يا آنسة سكارلت» صاح سام وهو يتعارك والزنجي ، بينما أمسكت سكارلت الزاعقة المرتجفة الزمام وهوت به على الحصان ، فانطلق في وثبة ، وأحست هي بالعجلات تمر فوق شيء طري ، شيء مقاوم . كان ذلك هو الرجل الأبيض الذي رقد في الطريق حيث كان سام قد صرعه .

وساطت سكارلت الحصان ثانية وقد جننها الرعب ، وثانية انطلق الحصان وثباً ، الأمر الذي جعل العربة تهتز وترنح ، وتنبهت سكارلت حتى وهي مرتعبة ، إلى وقع أقدام تجري خلفها ، ولذلك صاحت بالحيوان كي يحث خطاه . إذا ما بلغها القرد الأسود ثانية ، فستموت حتى قبل أن يقبض عليها بيديه .

وصاح صوت من خلفها : «آنسة سكارلت ، قفي !» .

وبدون أن تخفف من سرعتها ، نظرت من فوق كتفها وهي ترتعش ، فرأت سام الكبير يسرع في الطريق خلفها ، وساقاه الطويلتان تتحركان شديدي الاندفاع ، وعندما بلغها جذبت العنان وطوح هو بجسده إلى داخل العربة التي أمالها وزنه الثقيل إلى أحد جانبيها . كان العرق والدم يجريان على وجهه وهو يلهث :

ـ «هل أوذيت؟ هل ألحقا بك سوءاً؟» .

لم يكن بوسعها أن تتكلم ، ولكنها عندما رأت اتجاه عينيه ، وتحولهما السريع عن ذلك الاتجاه ، أدركت أن قميصها كان مفتوحاً حتى الخصر ، وأن صدرها العاري ومشدها كانا باديين للعيان ، فأمسكت بطرفي القميص معاً بيد مرتجفة ثم أطرقت برأسها وشرعت تبكي بشهقات مذهلة .

ـ «أعطني الزمام» قال سام منتزعاً العنان منها «أيها الحصان ، هيا في طريقك !» .

وقرقع السوط ، وانطلق الحصان المجفل في وثبة طويلة ، وثبة كادت توقع العربة في الخندق .

ـ «أرجو أن أكون قد قتلت ذلك القرد الأسود ، غير أني لم أنتظر لأتبين مصيره» قال وهو يلهث «ولكن إذا كان قد آذاك يا آنسة سكارلت ، فسأعود وأتأكد من موته» .

ـ «لا . . لا تابع سيرك بسرعة» قالت وهي تنشج .

45

عندما أودع فرانك سكارلت والعمة بيتي والطفلين ببيت ميلاني ، وانطلق في الشارع مع آشلي في تلك الليلة ، كان بوسع سكارلت أن تنفجر من السخط والألم . كيف وسعه أن يمضي إلى اجتماع سياسي في هذه الليلة من بين كل الليالي؟ اجتماع سياسي؟ وفي الليلة ذاتها التي هوجمت فيها زوجته ، والتي كان يمكن أن يقع لها فيها أي حادث ! لقد كانت تلك أنانية منه وعدم إحساس ، إلاّ أنه ساعتئذ كان قد قابل الأمر كله بهدوء يدعو إلى الجنون ، وذلك منذ أن حملها سام إلى البيت وهي تنشج ، وقميصها مشقوق حتى الخصر ، ولم يمشط فرانك لحيته بيده ولو مرة واحدة ، وهي تسرد عليه قصتها باكية ، وإنما استوضح بلطف «حلوتي ، هل لحقك سوء أو أنك مذعورة وحسب؟» .

ولما كان الغضب يفعم قلبها لم يكن بوسعها أن تجيب ، ولذا تطوّع سام بالقول بأنها كانت مذعورة وحسب .

ـ «لقد بلغتها قبل أن يمزقا فستانها» .

ـ «إنك شاب طيب يا سام ، ولن أنسى ما فعلته . إذا كان هناك شيء أستطيع فعله لك . .» .

ـ «أجل يا سيدي ، تستطيع أن ترسلني إلى تارا بأسرع ما يمكنك ، فالشماليون يطاردونني» .

كان فرانك قد استمع إلى هذه العبارة بهدوء أيضاً ، دون أن يسأل أي سؤال . كان يبدو كما بدا في تلك الليلة التي جاء فيها توني يقرع الباب كما لو كان هذا الأمر من شأن الرجال وحدهم ، ويجب أن يعالج بالحد الأدنى من الكلمات والعواطف .

ـ «اذهب واركب في العربة ، سأجعل بطرس يقودها لك حتى رف إند ريدي هذه الليلة ، ويوسعك أن تختبئ في الغابات حتى الصباح حيث تأخذ القطار إلى جونسبورو . ستكون الرحلة أكثر أماناً . . والآن ، كفي عن البكاء يا حلوتي ، فقد انتهى الأمر ، وأنت لست مصابة حقاً ، آنسة بيتي ، هل بوسعي

الحصول على أملاح الإغماء خاصتك؟ وأنت يا مامي ، اجلبي كأس خمر للآنسة سكارلت» .

وكانت سكارلت قد انفجرت في سيل جديد من الدموع ، دموع ساخطة هذه المرة . كانت بحاجة إلى مواساة ، إلى حنان ، إلى تهديدات بالانتقام . كانت تفضل حتى أن يثور عليها ويقول إن هذا هو ما كان قد حذرها من وقوعه ، أي شيء آخر كان أفضل من أن يستقبل الأمر كله بهذه الصورة العرضية ، ويقابل الخطر الذي تهددها كمسألة قليلة الأهمية . طبعاً لقد كان لطيفاً رقيقاً ، ولكن بطريقة ذاهلة كما لو كان عقله مشغولاً بقضية أكثر أهمية من هذه بكثير .

وقد ظهر أن تلك القضية الهامة هي اجتماع سياسي صغير!

وبالكاد استطاعت سكارلت أن تصدق أذنيها عندما طلب إليها فرانك أن تبدل ثيابها وتستعد ليرافقها إلى بيت ميلاني لقضاء السهرة . كان يجب أن يعرف ما كان أقسى تجربتها ، وأن يعرف أنها لم تكن ترغب في أن تقضي سهرة في بيت ميلاني ، في حين كان جسدها المتعب وأعصابها الصاخبة تستصرخ من أجل الاسترخاء الدافئ على سرير تحت الشراشف مع آجرة ساخنة تخدر أصابع قدميها وقليل من خمر النخيل الدافئ يهدئ مخاوفها . وإذا كان هو يحبها حقاً ، فلم يكن بوسع شيء أن يمنعه من البقاء إلى جانبها في هذه الليلة من بين كل الليالي . كان ينتظر أن يظل في البيت ويمسك بيدها ويخبرها مرة بعد أخرى أنه كان يمكن أن يموت لو أن مكروهاً لحق بها . . . أجل ، عندما سيعود إلى البيت هذه الليلة وتنفرد به ، ستخبره بهذا الأمر حتماً .

كانت ردهة ميلاني الصغيرة تبدو هادئة ، شأنها في الليالي التي كان يغيب فيها فرانك وآشلي حين تجتمع النسوة معاً للخياطة . كانت الغرفة دافئة منعشة في ضوء النار ، وكان المصباح الموضوع على الطاولة يرسل وهجاً أصفر هادئاً على الرؤوس الأربعة الناعمة المكبة على أشغال الإبرة . وكانت تنانير أربع تتموج بحشمة بينما استقرت أقدام ثمان صغيرة فوق متكآت الأرجل المنخفضة بوضع أنيق . وكان صوت تنفس ويد وإيلا وبو المطمئن يسمع من غرفة الأطفال خلال الباب المفتوح ، أما آرشي فقد جلس على كرسي صغير قرب الموقد ، ظهره مسنود إلى المدفأة ، ووجنتاه منتفختان بالتبغ ، وهو دائب على بري قطعة حطب .

كانت أحداث الأمسية قد هزت سكارلت أكثر مما حرصت على أن تعترف به حتى لنفسها . وفي كل مرة كانت تفكر فيها بذلك الوجه الأسود الخبيث وهو يرنو إليها من ظلال طريق الغابة المضاءة بضوء الغسق ، كانت تنتابها الرجفة ، وعندما كانت تفكر باليد السوداء تعبث في صدرها وما كان يمكن أن يحدث لو لم يظهر سام الكبير ، كانت تحني رأسها وتعصر عينيها عصراً شديداً وهما مغمضتان . وكلما طال بها الجلوس الصامت في الغرفة المطمئنة ، وهي تحاول أن تخيط وتصغي إلى صوت ميلاني التي كانت تتحدث عن الجمعيات ، كلما زادت أعصابها توتراً ، وأحست أنها يمكن أن تسمعها تتفجر في أية دقيقة في هذا الصمت المطبق .

أكانت هناك قضية تشغلهم؟ تساءلت سكارلت . أكانت هي غارقة في مخاوفها بحيث لم تلحظ حقيقة الحال؟ أجل ، فرغم محاولات ميلاني لجعل الأمسية تبدو كأي أمسية من أمسيات الخميس التي كان قد قضاها الجميع معاً ، كان يوجد اختلاف في الجو ، توتر لا يمكن أن يعزى جميعه إلى فزعهم وصدمتهم بسبب ما وقع بعد ظهر ذلك اليوم . وراحت سكارلت تسترق النظر إلى رفيقاتها ، والتقت نظرتها بنظرة من إنديا ، نظرة كدّرتها لأنها كانت طويلة تقديرية ، تحمل في أعماقها الباردة شيئاً أقوى من الكراهية ، شيئاً أكثر إهانة من الازدراء .

ـ «كما لو أنها تظن بأني أنا التي ينبغي أن ألام بسبب ما حدث» فكرت سكارلت بسخط .

وأشاحت إنديا بوجهها عنها ، والتفتت إلى آرشي وقد فارق وجهها كل الانزعاج الذي كان قد شابه بسبب بصاقه ، ثم ألقت عليه نظرة استفهام شغوفة محجبة ، غير أنه لم يبادلها النظر ، بل كان ينظر إلى سكارلت ، يحدق فيها بالطريقة القاسية الجامدة التي بدت في عيني إنديا .

وغمر الغرفة صمت كئيب عندما لم تستأنف ميلاني الحديث ثانية . وسمعت سكارلت خلال السكون صوت الريح التي كانت تهب في الخارج ، وفجأت بدأت الأمسية تتحول إلى أمسية منغصة جداً . وطفقت سكارلت تشعر بتوتر الجو ، وتساءلت عما إذا كان هذا التوتر موجوداً خلال الأمسية بطولها ، وأنها كانت مضطربة جداً بحيث لم تستطع التحسس بوجوده ، كان يشوب

وجه آرشي مظهر انتظار وتيقظ ، وكانت أذناه المكورتان المكسوتان بالشعر تبدوان مثقوبتين كأذني وشق ، وكان يكتنف ميلاني وإنديا قلق مكبوت بضراوة ، قلق جعلهما ترفعان رأسيهما عن الخياطة عند كل صوت حوافر صادر عن الطريق ، عند كل حفيف أغصان عارية تحدثها الريح المولولة ، عند كل حفحفة أوراق جافة تتدحرج عبر المرجة . كانتا تجفلان عند كل طقطقة ناعمة تنبعث من كتل الخشب المشتعلة في الموقد ، كما لو كانت وقع خطوات تتسلل خفية .

كان هناك شيء غير طبيعي ، وقد تساءلت سكارلت في نفسها عن هذا الشيء . كان هناك شيء قيد التنفيذ ، ولكنها لم تكن تعلم به . وأخبرتها نظرة ألفتها على وجه العمة بيتي السمين الصريح ، والمتجهم في عبوس ، أخبرتها أن السيدة العجوز كانت تجهل السر مثلها ، بينما كان يعرفه آرشي وميلاني وإنديا ، لقد كان بوسعها ، والسكون ضارب الجران ، أن تحس تقريباً أفكار إنديا وميلاني تدور بجنون كسناجب في قفص . كانتا تعرفان شيئاً ، تنتظران حدوث شيء ، رغم جهودهما لجعل الأمور تبدو عادية . ولكن قلقهما الداخلي نقل تأثيره إلى سكارلت وجعلها أكثر توتراً من قبل . وفيما كانت تحرك إبرتها باكتئاب وخزت إبهامها ، وبصيحة قصيرة من الألم والضيق جعلت الجميع يقفزون ، عصرت إبهامها إلى أن ظهرت عليه نقطة دم حمراء متلألئة .

- «إني متوترة الأعصاب جداً بحيث لا أستطيع الخياطة» أعلنت قاذفة بثياب الرتق إلى الأرض «إني متوترة الأعصاب جداً بحيث أني أكاد أزعق . أريد أن أذهب إلى البيت وآوي إلى فراشي . لقد كان فرانك يعرف ذلك وكان ينبغي أن لا يخرج هذه الليلة . إنه يتحدث ويتحدث ويتحدث عن حماية النساء من الزنوج والكاربت بغرز ، وعندما تسنح له الفرصة ليقوم ببعض الحماية . . . أين هو الآن؟ في البيت ، يعتني بي؟ لا ، في الحقيقة إنه يتبختر في أنحاء المدينة مع زمرة من الرجال الآخرين الذين لا يفعلون شيئاً سوى التحدث و . .» .

واستقرت عيناها الحانقتان على وجه إنديا ، وصمتت . كانت إنديا تتنفس بسرعة ، وكانت عيناها الشاحبتان ، العديمتا الأهداب ، مثبتتين على وجه سكارلت ببرود قاتل .

- «إذا لم يكن ذلك يؤلمك ؛ كثيراً يا إنديا» انفجرت سكارلت بتهكم

«فسأكون شاكرة جداً لك إن أخبرتني لماذا كنت تحدقين بي طيلة الأمسية . هل امتقع لون وجهي ، أو حدث لي أي شيء آخر؟» .

ـ «لا ، لن يؤلمني أن أخبرك ، بل إني أخبرك بسرور» قالت إنديا وعيناها تتألقان «إني أمقت أن أراك تحطين من قدر رجل رائع كالسيد كندي في الوقت الذي ـ لو أنك عرفت ـ» .

ـ «إنديا !» قالت ميلاني محذرة ، ويداها تقبضان على ما تخيط .

ـ «أعتقد أني أعرف زوجي أفضل مما تعرفينه أنت» قالت سكارلت ، بينما كان توقع العراك ، أول عراك علني لها مع إنديا ، يرفع من معنوياتها ويلاشي توترها ، غير أن عيني ميلاني رمقتا عيني إنديا فأطبقت هذه شفتيها كارهة ، ولكنها ما عتمت أن تكلمت ثانية ، وكان صوتها مشحوناً بالكره :

ـ «إنك تمرضينني يا سكارلت أوهارا وأنت تتحدثين عن الحماية ! أنت التي لا تهتمين بحماية نفسك . فلو كنت تهتمين بذلك لما عرضت نفسك للمخاطر كما فعلت طيلة هذه الشهور . تقحمين نفسك في هذه المدينة وتتباهين بظهورك للرجال الغرباء ، آملة أن يكبروك ! والذي وقع لك بعد ظهر هذا اليوم كان جديراً بك تماماً . ولو كانت هناك أية عدالة لنلت أسوأ من هذا القصاص» .

ـ «ها إنديا ، اصمتي» صاحت ميلاني .

ـ «دعيها تتكلم» صاحت سكارلت «إني مسرورة بحديثها . لقد كنت أعرف دائماً أنها تبغضني ، ولقد كانت منافقة جداً فلم تعترف ببغضها لي . لو أنها تظن أن أي إنسان سيعجب بها لقطعت الشوارع عارية على قدميها من الفجر حتى الظلام» .

فانتصبت إنديا على قدميها وجسدها النحيل ينتفض من الإهانة .

ـ «إني أبغضك» قالت بصوت واضح ، إلا أنه مرتعش «ولكن لم يكن النفاق هو الذي منعني عن التصريح بذلك ، وإنما الذي منعني شيء لا تستطيعين فهمه ، أنت التي لا تملكين أي ـ أي مجاملة اجتماعية ـ أي تربية اجتماعية صالحة . إنه إدراك أنه إذا لم نتحد جميعاً معاً ، وندفن كراهياتنا الصغيرة ، فلن نتوقع التغلب على الشماليين . ولكن أنت ـ أنت ـ لقد ارتكبت كل ما بوسعك لتحطي من مقام كرام الناس ـ تشتغلين وتجلبين العار على زوج طيب . تعطين الشماليين والرعاع الحق في أن يضحكوا علينا ويتفوهوا بعبارات

جارحة عن عدم نبلنا . إن الشماليين لا يملكون من الوعي ما يجعلهم يدركون أنك لا تنعمين بأي نبل ، وعندما كنت تتجولين بعربتك بين الغابات ، وتعرضين نفسك للهجوم ، كنت بذلك تعرضين كل امرأة مهذبة في المدينة للهجوم وذلك بوضعك الإغراء في طرق الزنوج والبيض الحقيرين المنحطين . هذا إضافة إلى أنك عرّضت أرواح رجالنا للخطر ، إذ أصبح من واجبهم أن . .» .

- «بالله عليك يا إنديا !» صاحت ميلاني ، بينما ذُهلت سكارلت على الرغم من سخطها «ينبغي أن تصمتي ! إنها لا تعرف وهي - ينبغي أن تصمتي ! لقد وعدت -» .

- «ها أيتها البنات !» توسلت الآنسة بيتي بات وشفتاها ترتعشان .

- «ما الذي لا أعرفه؟» انتصبت سكارلت على قدميها حانقة ، ووقفت تواجه إنديا المتأججة ببرود ، وميلاني المتوسلة .

- «دجاج غينياوي» قال آرشي فجأة وصوته ينم عن ازدراء . وقبل أن تستطيع إحداهن زجره ، ارتفع رأسه الشائب بعنف ، ونهض بسرعة : «إن أحد الناس قادم في الممشى وليس هو السيد ويلكس . توقّفن عن النقيق :

كان في صوته سلطة الرجل ، ولذلك وقفت النسوة صامتات والغضب يتلاشى سريعاً من وجوههن ، بينما راح هو ينسلت عبر الغرفة إلى الباب .

- «من الطارق؟» استوضح قبل أن يقرع القادم الباب .

- «الكابتن بتلر . دعني أدخل» .

وعبرت ميلاني الغرفة بسرعة فائقة ، بحيث أن أطواقها كانت تتأرجح بشدة ، كاشفة عن سراويلها حتى الركبتين ، وقبل أن يستطيع آرشي أن يضع يده على مقبض الباب ، فتحت الباب دفعاً ، وإذا بريت بتلر يقف في البوابة ، وقبعته السوداء المتدلية منخفضة فوق عينيه والريح شديدة ترطم معطفه على جسده في طيات خاطفة ، وللمرة الأولى تخلى عن أخلاقه الحميدة فلم يرفع قبعته تحية لها ولم يتحدث إلى الآخرين في الغرفة ، بل لم يكن ينظر إلاّ إلى ميلاني ، ثم تكلم فجأة ودون تحية :

- «أين ذهبوا؟ أخبريني بسرعة ، فمصيرهم معلق بين الحياة والموت» .

وأجفلت سكارلت وبيتي واضطربتا وتبادلتا النظرات في استغراب ، بينما تقدمت إنديا عبر الغرفة إلى جانب ميلاني .

ـ «لا تنبئيه بأي شيء» صاحت على عجل «إنه جاسوس ، سكالاواغ !» ، فلم يجبها ريت ، حتى ولا بنظرة .

وبدا أن ميلاني كانت في شلل من الرعب ، ولم يسعها إلاّ أن تحملق في وجهه فقط .

ـ «ماذا . .» بدأت سكارلت .

ـ «اخسأي» قال آرشي «وأنت أيضاً يا آنسة ميلي . اخرج من هنا أيها السكالاواغ» .

ـ «لا يا آرشي ، لا» صاحت ميلاني ، ووضعت يداً مرتجفة على ذراع ريت كأنها تريد حمايته من آرشي «ماذا حدث؟ كيف ـ كيف عرفت؟» .

كانت البشاشة وفراغ الصبر يتصارعان على وجه ريت الأسمر .

ـ «يا لله العزيز ، يا سيدة ويلكس ، لقد كانوا جميعاً محط الريبة منذ البداية ، غير أنهم كانوا أذكى من أن يكشفوا عن أنفسهم حتى جاءت هذه الليلة ! كيف أعرف؟ كنت ألعب البوكر مع ضابطين شماليين مخمورين فأعلنا الخطة أمامي . لقد كان الشماليون يعرفون أنه ستقع حوادث الليلة ، وقد استعدوا للأمر . لقد وقع الأغبياء في شرك» .

ولهنيهة ، بدا كأن ميلاني كانت تترنح تحت تأثير ضربة قوية ، وامتدت ذراع ريت حول خصرها لتسندها .

ـ «لا تخبريه ! إنه يحاول خداعك» صاحت إنديا وهي تنظر شزراً إلى ريت «ألم تسمعيه يقول إنه كان مع ضابطين شماليين هذه الليلة؟» .

ولكن ريت لم ينظر إليها ، فقد كانت عيناه مصوبتين بإصرار إلى وجه ميلاني الشاحب .

ـ «أخبريني ، أين ذهبوا؟ هل لهم مكان معين للاجتماع؟» .

ورغم خوفها وعدم فهمها للموضوع ، فكرت سكارلت أنها لم تكن قد رأت وجهاً أكثر غموضاً وعدم تعبير من وجه ريت ، ولكن كان من الواضح أن وجه ميلاني كان يرى شيئاً آخر ، شيئاً جعلها تمنحه ثقتها ، وانتصبت بجسدها الصغير بعيداً عن ذراعه الساندة ، وقالت بهدوء ولكن بصوت متهدج :

ـ «خارج طريق ديكاتور ، قرب شانتيتون . إنهم يجتمعون في مقصورة مزرعة سوليڤان العجوز ـ المزرعة نصف المحترقة» .

ـ «أشكرك، سأركب إليهم بسرعة. وعندما يأتي الشماليون هنا، فليدع كل منكم أنه لا يعرف شيئاً».

وانطلق بسرعة فائقة، وتلاشى معطفه الأسود في الليل، بحيث لم يعد بوسعهم أن يتحققوا من وجوده إلاّ بصعوبة إلى أن سمعوا تناثر الحصباء ووقع الحوافر السريعة لحصان يجري بأقصى سرعته.

ـ «الشماليون قادمون هنا؟» صاحت بيتي، وخذلتها قدماها الصغيرتان ثم تهالكت على الكنبة مذعورة جداً بحيث لم يكن بوسعها البكاء.

ـ «ما القضية؟ ماذا كان يعني ريت؟ إذا لم تخبرن سأجن!» ووضعت سكارلت يديها على ميلاني وهزتها بعنف، كما لو كان بوسعها أن تنتزع منها جواباً بالقوة.

ـ «يعني؟ يعني أنك ربما كنت السبب في موت آشلي والسيد كندي!» كان يشوب صوت إنديا نغم منتصر رغم نوبة الخوف الشديدة «كفي عن هز ميلي فسيغمى عليها».

ـ «لا، لن يغمى علي» همست ميلاني قابضة على مؤخر الكرسي.

ـ «يا إلــهي يا إلــهي، إنني لا أفهم!.. أقتل آشلي؟ أرجوك، ليخبرني أحدكم ـ».

وقطع صوت آرشي كلمات سكارلت كمقصلة صدئة «اجلسي» أمر باقتضاب «تناولن ثياب الخياطة. خيطن وكأن شيئاً لم يحدث، لأننا جميعاً نعرف أن الشماليين يمكن أن يكونوا يتجسسون على هذا البيت منذ الغروب. أقول اجلسن وخيطن».

فأطعن وهنَّ يرتجفن، حتى بيتي التقطت جورباً عن الأرض بأصابع مرتعشة، بينما كانت عيناها المتسعتان، كعيني طفل مذعور، تحومان في الحلقة تنشدان إيضاحاً.

ـ «أين آشلي؟ ماذا حدث له يا ميلي؟» صاحت سكارلت.

ـ «أين زوجك؟ ألست مهتمة به؟» وبرقت عينا إنديا الصفراوان بحقد مجنون وهي تجعد وتنشر المنشفة الممزقة التي كانت ترقعها.

ـ «إنديا، أرجوك!» وكانت ميلاني قد سيطرت على صوتها ولكن وجهها الأبيض وعينيها المعذبتين، كانت تعكس مدى الجهد الذي كانت ترزح تحته،

«سكارلت ، ربما كان يجب أن نخبرك ولكن ـ ولكن ـ لقد عانيت كثيراً بعد ظهر هذا اليوم بحيث أننا ـ بحيث أن فرانك ظن أن ليس من الـ . . كما أنك كنت دائماً غير متحفظة في حديثك عن الكلان» .

ـ «الكلان !» .

نطقت سكارلت الكلمة في بادئ الأمر كما لو أنها لم تكن قد سمعتها من قبل ولم يكن لديها أي علم بمعنى للكلمة ، ولكنها بعدئذ كررت :

ـ «الكلان !» وأخرجتها كزعيق تقريباً «ليس آشلي في الكلان ! ولا يمكن أن يكون فرانك فيه ، لقد وعدني !» .

ـ «طبعاً ، إن السيد كندي في الكلان ، وآشلي أيضاً ، وكل الرجال الذين نعرفهم» صاحت إنديا «إنهم رجال ، أليس كذلك؟ ورجال بيض وجنوبيون . كان ينبغي أن تكوني فخورة به ، بدلاً من تجعليه يتسلل خارجاً كما لو أن الأمر أمر معيب و . .» .

ـ «إنكم جميعاً تعرفون كل شيء ، وأنا لا . .» .

ـ «كنا نخاف أن يثيرك ذلك» قالت ميلاني متأسفة .

ـ «إذاً هناك هم يذهبون عندما يفرض أن يكونوا في الاجتماعات السياسية؟ آه لقد وعدني ! والآن سيأتي الشماليون وينتزعون مني معملي والمخزن ويضعون فرانك في السجن . آه ، ماذا عنى ريت بتلر؟» .

فقابلت عينا إنديا عيني ميلاني في خوف هائل ، بينما نهضت سكارلت وقذفت بالقماش إلى الأرض .

ـ «إذا لم تخبروني ، فسأذهب إلى المدينة وأكتشف الحقيقة . سأسأل كل إنسان أراه إلى أن أعرف» .

ـ «اجلسي» قال آرشي ، ورمقها بعينيه «سأخبرك ، لأنك رحت تتخطرين بعد ظهر هذا اليوم وأوقعت نفسك في المشاكل . أجل بسبب غلطتك خرج السيد كندي والسيد ويلكس والآخرون هذه الليلة ليقتلوا ذينك الوعلين الزنجي والرجل الأبيض إذا استطاعوا إلقاء القبض عليهما ، وليزيلوا مستعمرة شانتيتون جميعها من الوجود . وإذا كان ما قاله ذلك السكالاواغ صحيحاً فإن الشماليين قد ارتابوا بشيء ما ، وأرسلوا جنوداً ليكمنوا لرجالنا الذين يكونون قد وقعوا في الشرك . وإذا كان ما قاله بتلر ليس صحيحاً ، إذاً فهو جاسوس وسيكشف

أمر رجالنا إلى الشماليين ، الأمر الذي سينتهي بقتلهم أيضاً ، وإذا هو كشف أمرهم للشماليين فسأقتله حتى لو كان ذلك آخر عمل في حياتي ،وإذا لم يقتلوا ، فسيكون عليهم جميعاً أن يفروا من هنا إلى تكساس ويختبئوا هناك وربما لن يعودوا أبداً . إن تلك كلها غلطتك وذلك الدم من صنع يديك» .

نزع الغضب الخوف من وجه ميلاني ، وهي ترى الإدراك يزحف بطيئاً عبر وجه سكارلت ، ثم يتبعه الرعب سريعاً . وعندئذ نهضت ووضعت يدها على كتف سكارلت .

- «كلمة أخرى شبيهة وتخرج من البيت يا آرشي» قالت بعبوس «ليست تلك غلطتها ، إنها فقط فعلت - فعلت الذي كانت تشعر بأن عليها أن تفعله . إن على الناس أن يفعلوا ما ينبغي لهم أن يفعلوا ، نحن لا نفكر جميعاً التفكير ذاته ولا نتصرف التصرف عينه ، ومن الخطإ أن . . نقاضي الآخرين بأنفسنا . كيف تستطيع وإنديا أن تتفوها بكلمات قاسية كهذه بينما يمكن أن يكون زوجها وزوجي - يمكن أن يكونا -» .

- «اصغي !» قاطعها آرشي بلطف «اجلسي يا سيدة . هناك صوت خيل» .

فجلست ميلاني على كرسي ، والتقطت أحد قمصان آشلي ، وشرعت دون وعي منها تمزق الكشاكش إلى شرائط صغيرة ، وقد أحنت رأسها فوق القميص .

علا صوت وقع الحوافر فيما كانت الخيل تخب إلى البيت ، ثم سمعت جلجلة لقم الأعنة واحتكاك الجلود وأصوات الرجال ، وعندما وقفت الحوافر أمام البيت ، ارتفع صوت فوق بقية الأصوات ، في أمر ، وسمع المصغون وقع أقدام تتجه خلال الساحة الجانبية نحو الشرفة الخلفية ، وأحسوا أن ألف عين عدائية تنظر إليهم عبر النافذة الأمامية العديمة الستائر . وحنت النسوة الأربع رؤوسهن وأكببن على إبرهن والخوف يملأ قلوبهن ، وكان قلب سكارلت يصرخ في صدرها : «لقد قتلت آشلي ! لقد قتلته !» وفي تلك اللحظة الرهيبة لم تفكر بأنها يمكن أن تكون قد قتلت فرانك أيضاً ، إذ لم يكن في عقلها متسع لأي صورة باستثناء صورة آشلي مضطجعاً عند قدمي فارس شمالي وشعره الأشقر ملطخ بالدم .

وفيما كان القرع العنيف السريع يدوي على الباب ، نظرت سكارلت إلى

ميلاني ، ورأت تعبيراً جديداً يزحف على الوجه الصغير المتوتر ، تعبيراً غامضاً كذاك الذي رأته على وجه ريت بتلر ، التعبير الغامض الأنيس للاعب بوكر يربح اللعبة احتيالاً بورقتين اثنتين وحسب .

- «آرشي ، افتح الباب» قالت بهدوء .

دس آرشي سكينه في أعلى حذائه ، وأرخى المسدس في حزام سرواله وهرول نحو الباب ، وفتحه دفعاً . وزعقت بيتي زعقة قصيرة ، كفأرة تحس أن المصيدة أطبقت عليها ، عندما رأت البوابة وقد احتشد فيها ضابط شمالي وفصيل من جنوده . غير أن الأخريات لم يقلن شيئاً . ورأت سكارلت وهي يساورها شعور خفيف من الفرج أنها تعرف هذا الضابط ، كان هو الضابط توم جفري أحد أصدقاء ريت ، وكانت قد باعته خشباً لبناء بيته ، وكانت تعرفه سيداً فاضلاً ، وربما لن يجرهم إلى السجن لأنه كان فاضلاً ، وعرف الضابط شخصها فوراً ، وانحنى نازعاً قبعته ، متأثراً بعض التأثر .

- «عمي مساء يا سيدة كندي ، وأي منكن أيتها السيدات هي السيدة ويلكس؟» .

- «أنا هي السيدة ويلكس» أجابت ميلاني ناهضة ، والوقار يطفر منها رغم صغر حجمها «وإلام أعزو هذا الدخول إلى بيتي بدون إذن؟» .

فحامت عينا الضابط في الغرفة بسرعة ، واستقرتا هنيهة على كل وجه . وبسرعة ، تخطتا الوجوه إلى المنضدة ، ومشجب القبعات ، كأنهما كانتا تتطلعان إلى وجود الذكور .

- «إني أرغب في أن أتحدث إلى السيد ويلكس والسيد كندي إذا ما تفضلت» .

- «ليسا هنا» قالت ميلاني وصوتها الناعم تشوبه برودة .

- «أواثقة أنت؟» .

- «لا تسأل السيدة ويلكس أية كلمة» قال آرشي .

- «أرجو عفوك يا سيدة ويلكس ، إني لم أقصد إهانتك . إذا ما صدقتني القول فلن أفتش البيت» :

- «إني أصدقك القول ، ولكن فتش إذا كنت ترغب في ذلك . إنهما موجودان في اجتماع في المدينة ، في مخزن السيد كندي» .

ـ «ليسا في المخزن ، ولم يكن يوجد اجتماع الليلة» أجاب الضابط بعبوس «سننتظر خارجاً إلى أن يعودا !» .

وانحنى قليلاً ، وخرج مغلقاً الباب خلفه ، وسمع من في البيت أمراً صارماً خففت الريح حدته : «طوقوا البيت ، وليقف رجل على كل نافذة وعلى كل باب» . وسمع وقع أقدام ، وكبحت سكارلت انطلاقة ذعر ، عندما رأت بغموض وجوهاً ملتحية تحدق فيهم من النوافذ . أما ميلاني فقد جلست ومدت يداً غير مرتجفة وتناولت كتاباً من على الطاولة . لقد كان نسخة من «البؤساء» ، ذلك الكتاب الذي كان يأسر خيال الجنود الحلفيين ، فلقد قرأوه على ضوء نيران المعسكرات ، وكانوا يشعرون ببعض السرور الكئيب حين يدعونه «بؤساء لي» وفتحت ميلاني الكتاب في منتصفه وبدأت تقرأ بصوت رتيب واضح .

ـ «خطن» أمر آرشي في همسة جشاء ، والتقطت النسوة الثلاث أشغالهن وأحنين رؤوسهن وقد تشجعن بصوت ميلاني الهادئ .

وعاد عقل سكارلت سريعاً إلى الليلة التي كان توني فونتين قد جاءهم فيها مطارداً منهوكاً بلا نقود . لو أنه لم يبلغ بيتهم ويستلم نقوداً وحصاناً نشيطاً ، لكان قد أعدم منذ زمن طويل . وإذا لم يكن فرانك وآشلي قتيلين في هذه الدقيقة بالذات ، فإنهما يكونان في وضع توني ، بل أسوأ من وضعه . ولم يكن بوسعهما والبيت محاصر بالجنود أن يأتيا إلى البيت ويتزودا بالمال والثياب دون أن يلقى القبض عليهما . وربما كان يحوط كل بيت في الشارع حرس شمالي كهؤلاء ، ولذلك لم يكن بوسعهما الالتجاء إلى أصدقاء من أجل العون . ويمكن أن يكونا الآن منطلقين بجهد فوق حصانيهما خلال الليل إلى تكساس مباشرة . ولكن ريت ـ ربما كان ريت قد بلغهما في الوقت المناسب . إن ريت دائماً يحمل مبلغاً وفيراً من المال في جيبه ، وربما أقرضهما مقداراً كافياً ليطمئن إلى أنهما نجوا . على أن ذلك كان أمراً مستغرباً ، إذ لماذا كان ينبغي لريت أن يزعج نفسه على سلامة آشلي؟ من الأكيد أنه كان يبغضه ، ومن الأكيد أنه أقر بازدرائه له ، إذاً لماذا؟ ولكن هذه الأحجية ابتلعها خوف متجدد على سلامة آشلي وفرانك .

ـ «آه ، إنها غلطتي !» ولولت في نفسها «لقد نطقت إنديا وآرشي بالصدق . إنها جميعها غلطتي . غير أني لم أفكر أبداً أن أياً منهما كان غبياً إلى درجة

يلتحق معها بالكلان! كما أني لم أفكر أبداً بأن أي مكروه سيلحق بي حقيقة! ولكن لم يكن بوسعي أن أفعل غير ذلك . لقد نطقت ميلي بالصدق ، إن على الناس أن يفعلوا ما ينبغي لهم فعله . ولقد كان علي أن أبقي المعملين في عمل مستمر! كان علي أن أجني مالاً! وقد أفقد الآن كل شيء ، وإنها جميعها غلطتي بأي وجه من الوجوه» .

وبعد هنيهة طويلة من القراءة ، أخذ صوت ميلاني يتلجلج ، ثم توانى ليغيب في الصمت . وأدارت صاحبته رأسها نحو النافذة ، وحدقت كما لو أنه لم يكن هناك جندي شمالي يحدق من خلف الزجاج ، ورفع الآخرون رؤوسهم ، وقد أخبلهم صمتها المصغي فراحوا يصغون هم أيضاً .

كان هناك صوت حوافر خيل وغناء ، صوت كانت الأبواب والنوافذ المغلقة تلاشيه ، وكانت الريح تحمله بعيداً ، ومع ذلك فما زال يمكن تمييزه . كان الصوت ينشد أسوأ الأغنيات وأشدها كراهية واستنكاراً ، الأغنية المتعلقة برجال شيرمان ـ الزحف عبر جورجيا ـ وكان ريت بتلر هو الذي ينشدها .

ولم يكد ريت ينهي الأسطر الأولى حتى عارضه صوتان آخران ، صوتان مخموران ، صوتان أحمقان محتدان ، يتلعثمان بالكلمات ، ويخلطانها معاً ، ثم سمع من في البيت أمراً سريعاً صادراً عن الضابط جفري في الشرفة الأمامية ، تلاه وقع أقدام سريعة . ولكن حتى قبل أن ترتفع هذه الأصوات ، تبادلت السيدات النظر مشدوهات ، وذلك لأن الصوتين المخمورين اللذين كانا يعارضان صوت ريت ، كانا صوت آشلي وهيو ألسنغ .

واشتد ارتفاع الأصوات في الممشى الأمامي ، صوت الضابط جفري الأجش واستجوابه ، زعيق هيو وضحكه الأحمق ، صوت ريت العميق المستهتر وصراخ آشلي الغريب الزائف :

ـ «يا للجحيم! يا للجحيم!» .

ـ «لا يمكن أن يكون ذلك هو آشلي!» فكرت سكارلت مرتاعة «فهو لا يسكر أبداً . ولا ريت . . فعندما يسكر ريت يغدو أهدأ وأهدأ . . ولا يبدو كذلك أبداً» .

نهضت ميلاني ونهض آرشي معها ، ثم سمع الجميع صوت الضابط الصارم : «ألقوا القبض على هذين الرجلين» وأطبقت يد آرشي على زناد مسدسه .

ـ «لا» همست ميلاني بحزم «لا ، دع الأمر لي» .

كان يشوب وجهها المظهر ذاته الذي كانت سكارلت قد رأته في ذلك اليوم في تارا ، عندما وقفت ميلاني على قمة الدرج ومعصمها الضعيف مرتخ يحمل السيف الثقيل : نفس حيية رقيقة أثارتها الظروف حتى أضحت نمرة في حذرها وشراستها .

ـ «أدخله يا كابتن بتلر» صاحت بصوت جلي يلذع بالحقد «أظن أنك ألفيته مخموراً مرة ثانية أدخله» .

ومن الممشى المظلم العاصف ارتفع صوت الضابط الشمالي : «إني متأسف يا سيدة ويلكس ، ولكن زوجك والسيد ألسنغ تحت القبض الآن» .

ـ «تحت القبض؟ لأي سبب؟ بسبب السكر؟ إذا قبض على كل إنسان في أتلانتا بسبب السكر فإن الحامية الشمالية بأسرها ستزج في السجن باستمرار ، على كل حال ، أدخله يا كابتن بتلر ، وذلك إذا كنت تستطيع المشي» .

لم يكن عقل سكارلت يعمل بسرعة ، ولهنيهة قصيرة ، لم تدرك شيئاً . لقد كانت تعرف أن كلاً من ريت وآشلي لم يكونا مخمورين ، وكانت تعرف أيضاً أن ميلاني كانت تعرف أنهما لم يكونا مخمورين ، ومع ذلك فها هي ميلاني اللطيفة المهذبة عادة ، تزعق كامرأة سليطة ، وأمام الشماليين أيضاً ، مصرحة بأن كليهما كانا مخمورين جداً بحيث لا يقويان على المشي .

وتلا ذلك حوار قصير مغمغم ، تخللته شتائم ، ثم صعدت الدرج أقدام مضطربة ، وظهر آشلي في البوابة ، وجهه أبيض وشعره البراق مشعث ، وجسده الطويل مدثر من الرقبة إلى الركبتين بمعطف ريت الأسود . وكان هيو ألسنغ وريت المضطربا الخطوات يسندانه من كلا الجانبين ، وكان من الواضح أنه كان ينتظر أن يقع على الأرض لولا مساعدتهما . وخلف الثلاثة ، صعد الضابط الشمالي ووجهه صفحة من مزيج من الشك والدهشة ، ووقف في البوابة المفتوحة رجاله يحدقون بفضول ، من فوق كتفيه ، بينما اجتاحت المنزل الريح الباردة .

وراحت عينا سكارلت المذعورة الحائرة تنتقل من ميلاني إلى آشلي المرتخي ، ثم جاءها نصف فهم لما حولها ، وهمت لتصرخ «ولكنه لا يمكن أن يكون مخموراً» إلا أنها عضت على الكلمات قبل أن تخرج ، إذ أدركت أنها كانت

تشهد تمثيلية ، تمثيلية يائسة كانت تتوقف عليها أرواح أناس أحياء . وعرفت أنها لم تكن جزءاً في هذه التمثيلية ، وكذلك العمة بيتي ، بينما كان الآخرون أجزاء فيها ، وكانوا يتبادلون الإشارات فيما بينهم ، كممثلين في مسرحية مكررة التلاوة كثيراً . وهكذا فهمت نصف حقيقة الوضع ، فقط ، إلاّ أن ذلك كان كافياً ليجعلها تخلد إلى الصمت .

ـ «ضعه فوق ذلك الكرسي» صاحت ميلاني ساخطة . وأنت يا كابتن بتلر ، غادر هذا البيت فوراً ! كيف تجرؤ على الظهور هنا بعد أن أسقطته في هذه الهوة ثانية؟» .

وأراح الرجلان آشلي في كرسي هزاز ، وتمسك ريت بظهر الكرسي وهو يتهادى كي يثبت جسده ، ثم خاطب الضابط وصوته ينطق بالألم :

ـ «تلك تشكرات رائعة أنالها ، أليس كذلك؟ ذلك لأني منعت رجال الشرطة من القبض عليه ، وأوصلته إلى البيت وهو يصيح ويحاول خدشي بأظفاره !» .

ـ «وأنت يا هيو ألسنغ ، إني أشعر بالعار من أجلك ! ماذا ينتظر أن تقول أمك المسكينة؟ مخمور وخارج البيت مع ـ مع سكالاواغ محب للشماليين كالكابتن بتلر ! وأنت يا سيد ويلكس ، كيف وسعك أن تأتي عملاً كهذا؟» .

ـ «ميلي ، لست مخموراً جداً» غمغم آشلي ، وتهالك إلى الأمام واضعاً وجهه على المائدة ودافناً رأسه داخل ذراعه .

ـ «آرشي ، خذه إلى غرفته وضعه في سريره كالعادة» أمرت ميلاني «عمتي بيتي ، أرجوك أسرعي وهيئي السرير . آه» وانفجرت بالدموع فجأة «آه ، كيف وسعه ذلك؟ بعد أن وعدني !» .

ـ «لا تلمسه ، إنه تحت القبض . أيها العريف !» .

وعندما خطا العريف داخل الغرفة وهو يجرجر بندقيته خلفه ، وضع ريت يده على ذراع الكابتن وركز عليه بصره بصعوبة ، وقد بدا جلياً أنه كان يسند نفسه خشية الوقوع :

ـ «توم ، لأي سبب أنت تقبض عليه؟ إنه ليس سكران جداً . لقد رأيته في حالات أشد من هذه سكراً» .

ـ «ليسكر حتى الثمالة» صاح الضابط «إن بوسعه أن يرقد في المرحاض دون

أن أحفل بذلك ، فأنا لست شرطياً ـ بيد أنه والسيد ألسنغ تحت القبض بتهمة الاشتراك في هجوم كلاني على شانتيتون ، وقد قتل زنجي ورجل أبيض جراء ذلك . وكان السيد ويلكس هو قائد الحملة» .

ـ «هذه الليلة؟» وطفق ريت يضحك ، راح يضحك ضحكاً شديداً جداً بحيث إنه اضطر إلى أن يجلس على الكنبة ويضع رأسه بين يديه «ليس هذه الليلة يا توم» قال عندما استطاع التكلم «هذان الاثنان كانا معي هذه الليلة ـ منذ الساعة الثامنة فصاعداً ، أي في الوقت الذي كان يفرض فيه أن يكونا في الاجتماع» .

ـ «معك يا ريت؟ ولكن ـ» وخفت عبسة جبين الضابط ونظر بارتياب إلى آشلي المشخر وإلى زوجته الباكية «ولكن ـ أين كنتم؟» .

ـ «لا أريد أن أقول أين كنا» وقذف ريت نظرة مخمور على ميلاني .

ـ «من الأفضل أن تقول !» .

ـ «دعنا نخرج إلى الشرفة وهناك أخبرك أين كنا» .

ـ «أخبرني الآن» . ،

ـ «إني أكره أن أصرح بذلك أمام السيدات . إذا خرجتن أيتها السيدات من الغرفة . .» .

ـ «لن أخرج» صاحت ميلاني وهي تكفكف دموعها بسخط «إن لي الحق في أن أعرف أين كان زوجي» .

ـ «في ماخور السيدة بيل وتلنغ» قال ريت وقد بدا خجلاً .

ـ «لقد كان هناك وهيو وفرانك كندي والدكتور ميد و ـ ومجموعة كاملة منهم . كانوا ينعمون بحفلة ، حفلة كبيرة ، شمبانيا وفتيات» .

ـ «في بيت بيل وتلنغ؟» .

وارتفع صوت ميلاني إلى أن غص بألم شديد جعل كل العيون تلتفت إليها مذعورة . وامتدت يدها لتقبض على صدرها ، وقبل أن يستطيع آرشي أن يمسك بها كان قد أغمي عليها ، وتلا ذلك هرج ومرج : آرشي يرفعها ، إنديا تجري إلى المطبخ لتجلب ماء ، بيتي وسكارلت يروّحان لها ، وتصفعان معصميها ، بينما هيو ألسنغ يصرخ مرة بعد أخرى : «لقد فعلتها الآن ! لقد فعلتها الآن !» .

ـ «الآن سيعم الخبر جميع المدينة» قال ريت بفظاظة «أرجو أن تكون قد اقتنعت يا توم . لن يكون هناك زوجة في أتلانتا تتكلم مع زوجها غداً» .

ـ «ريت ، لم يكن لدي فكرة ـ» ومع أن الريح الباردة كانت تهب على ظهره من خلال الباب المفتوح ، إلا أن الكابتن كان يتصبب عرقاً «أصغ إلي ، هل تقسم أنهم كانوا في . . في بيت بيل؟» .

ـ «يا للجحيم ! نعم أقسم» همهم ريت «اذهب وسل بيل نفسها إن كنت لا تصدقني . والآن دعني أحمل السيدة ويلكس إلى غرفتها ، أعطنيها يا آرشي . أجل فأنا أستطيع حملها . آنسة بيتي ، سيري أمامي بمصباح» .

ـ «احمل السيد ويلكس إلى السرير يا آرشي ، فأنا لا أريد أن تقع عليه عيناي أو يداي ثانية بعد هذه الليلة» .

كانت يد بيتي ترتجف بحيث أن المصباح كان يهدد سلامة البيت ، ولكنها مع ذلك حملته وتقدمت به نحو غرفة النوم المظلمة ، بينما دس آرشي ذراعه تحت إبط آشلي وحمله وهو يقبع كخنزير .

ـ «ولكن لا بد لي من أن أقبض على هذين الرجلين !» .

وعندئذ التفت ريت نحوه وهو في القاعة المعتمة :

ـ «اقبض عليهما في الصباح إذاً ، فليس بوسعهما الهرب وهما في هذه الحالة . لم أكن أعلم قبل الآن أن من غير القانوني أن يسكر المرء في ماخور . يا لله العظيم يا توم ، هناك خمسون شاهداً ليثبتوا أنهم كانوا في بيت بيل» .

ـ «هناك دائماً خمسون شاهداً ليثبتوا أن جنوبياً كان في مكان ما ، بينما لا يكون هنالك !» قال الضابط محتداً «هلم معي يا سيد ألسنغ ، وسأدع السيد ويلكس بعهدة شرفه» .

ـ «إني شقيقة السيد ويلكس وإني مسؤولة عن ظهوره أمامكم غداً» قالت إنديا ببرود «والآن هل تتفضل بالذهاب؟ لقد سببت من المتاعب ما يكفي لليلة واحدة» .

ـ «إني متأسف من أجل ذلك كثيراً» وانحنى الضابط بفظاظة «أرجو فقط أن يتمكنا من إثبات أنهما كانا موجودين في ـ في بيت الآنسة ـ السيدة وتلنغ . هل تخبرين شقيقك أنه يجب أن يظهر أمام الحاكم العسكري غداً صباحاً للاستجواب؟» .

فانحنت إنديا ببرود ، ووضعت يدها على مقبض الباب ، موعزة بصمت إلى أن انسحابه السريع أمر مرغوب فيه . وهكذا خرج الضابط والعريف ويصحبتهما هيو ألسنغ ، بينما أغلقت إنديا الباب خلفهم بعنف . وحتى دون أن تنظر إلى سكارلت ، هرعت إلى كل نافذة من نوافذ البيت ، وأسدلت الستائر . أما سكارلت المرتجفة الركبتين ، فقد تمسكت بالكرسي الذي كان آشلي قد جلس عليه ، كي تسند نفسها . وعندما نظرت إلى الكرسي ، رأت على وسادة ظهره بقعة قاتمة رطبة ، أكبر من راحتها . فامتدت يدها فوقها وهي مشدوهة ، وعندئذ ظهر على كفها رطوبة حمراء لزجة ، الأمر الذي أفزعها .

ـ «إنديا» همست «إنديا ، إن آشلي . . إنه مصاب» .

ـ «أيتها الحمقاء! هل ظننت أنه كان سكران حقاً؟» .

وسحبت إنديا الستار الأخير ، وانطلقت بقدمين طائرتين إلى غرفة النوم ، وسكارلت خلفها تماماً ، سكارلت التي كان قلبها في حلقها . وكان جسد ريت الكبير يسد الباب ، ولكن سكارلت رأت آشلي من على كتفه ، رأته يضطجع شاحباً ساكناً على السرير . أما ميلاني التي كانت نشيطة بصورة مستغربة بالنسبة إلى إنسان كان مغمياً عليه منذ قليل ، فقد كانت تقص قميص آشلي المشرب بالدم بمقص تطريز ، بينما حمل آرشي المصباح منخفضاً فوق السرير لينير المكان ، وقد وضع أحد أصابعه الخشنة على معصم آشلي .

ـ «هل هو ميت؟» صاحت الفتاتان معاً .

ـ «فقط مغمى عليه جراء نزف الدم . إن الإصابة في كتفه» قال ريت .

ـ «لماذا أحضرته هنا أيها الأحمق» صاحت إنديا «دعني أصل إليه! دعني أمر! لماذا أحضرته هنا ، كي يلقى القبض عليه؟» .

ـ «لقد كان خائر القوى كثيراً بحيث لم يكن بوسعه السفر ، ولم أجد مكاناً آخر لآخذه إليه يا آنسة ويلكس . ورغم ذلك ـ هل تريدينه أن يكون منفيّاً كتوني فونتين؟ هل تريدين أن تعيش دزينة من جيرانك في تكساس بأسماء مستعارة لبقية حياتهم؟ إن هناك أملاً أن نبرئهم جميعاً إذا بيل . .» .

ـ «دعني أمر» .

ـ «لا يا آنسة ويلكس ، يوجد عمل لك . ينبغي أن تذهبي لإحضار طبيب ، ليس الدكتور ميد ،فهو متورط في هذه القضية ، ومن المحتمل أن يكون في هذه

الدقيقة بالذات يشرح موقفه للشماليين . أحضري طبيباً آخر ، هل تخافين الخروج وحدك في الليل؟» .

ـ «لا» قالت إنديا وعيناها الشاحبتان تبرقان «لا أخاف» وتناولت معطف ميلاني ذا القبعة «سأذهب إلى بيت الدكتور دين العجوز» قالت وقد زال الانفعال من صوتها كما لو أنها جلبت الطمأنينة لنفسها بقوة وجهد «إني آسفة لأني دعوتك جاسوساً وأحمق ، إذ لم أفهم حقيقة الأمر . وإني الآن شاكرة جداً لما قدمته لآشلي ـ بيد أني أزدريك على كل حال» .

ـ «إني أقدر الصراحة . . وإني أشكرك عليها» انحنى ريت وتدلت شفته بابتسامة طروبة «الآن ، اذهبي بسرعة وفي طرق خلفية ، وعندما تعودين لا تدخلي إلى هذا البيت إن رأيت ما يشير إلى وجود جنود حوله» .

فألقت إنديا نظرة ألم سريعة أخرى على آشلي ، ولفت المعطف حولها ، وجرت بخفة في القاعة إلى الباب الخلفي وخرجت في الليل بهدوء .

وأحست سكارلت بقلبها يخفق ثانية عندما رأت عينيّ آشلي مفتوحتين وهي تحدق بعينيها من فوق كتفي ريت ، وذلك حينما جذبت ميلاني منشفة مطوية من مشجب المغسلة وضغطتها على كتفه النازف دماً ، وابتسم هو لها بتوان ولكن بتعبير مطمئن ، وأحست سكارلت أيضاً بعيني ريت النافذتين مسلطتين عليها ، وعرفت أن قلبها كان جلياً في وجهها ولكنها لم تحفل . لقد كان آشلي ينزف دماً ، وربما كان يحتضر ، وقد سببت هي ، التي كانت تحبه، تلك الثغرة في كتفه . وأرادت أن تجري إلى السرير وتتهالك بجانبه ، وتضمه إليها ، ولكن ركبتيها كانتا ترتجفان بحيث أنها لم تستطع دخول الغرفة . وراحت تحملق بعينيها ، ويدها على فمها ، بينما كانت ميلاني تلف منشفة أخرى على كتفه ، وتضغطها بشدة ، كما لو كان بوسعها أن تحبس الدم في جسده . غير أن المنشفة احمرت ، كما لو كان ذلك بفعل السحر .

كيف كان بإمكان رجل أن ينزف كل هذا الدم ويظل حياً؟ ولكن شكراً لله ، لم يكن هناك فقاعة دم على شفتيه ، آه ، تلك الفقاعات الحمراء المرغية نذر الموت التي كانت تعرفها تمام المعرفة من يوم معركة وادي بيتشتري الرهيبة ، عندما كان الجرحى يموتون في مرجة العمة بيتي بأفواه دامية .

ـ «تشجّعي» قال ريت وفي صوته نغمة صارمة ساخرة قليلاً «لن يموت .

والآن اذهبي وخذي المصباح واحمليه للسيدة ويلكس ، لأني أحتاج آرشي للقيام ببعض المهمات» .

نظر آرشي عبر المصباح إلى ريت :

ـ «إني لا أتلقى أي أمر منك» قال ، ناقلاً مضغة التبغ إلى شدقه الآخر .

ـ «افعل ما يقوله لك» قالت ميلاني بحزم «وافعله بسرعة . افعل كل شيء يقوله الكابتن بتلر . وأنت يا سكارلت خذي المصباح» .

تقدمت سكارلت إلى الأمام وأخذت المصباح وحملته بكلتا يديها ، خشية إسقاطه . كانت عينا آشلي قد أغمضتا ثانية ، وكان صدره العاري يخفق ، يتمدد ببطء ، ثم ينخفض سريعاً فينبجس الدم الأحمر من بين أصابع ميلاني المتوترة . وسمعت سكارلت بغموض آرشي يخطر عبر الغرفة نحو ريت ، ثم كلمات ريت الخفيضة السريعة . كان تفكيرها محصوراً تماماً في شخص آشلي ، بحيث أنها لم تسمع من كلمات ريت الأولى نصف المهموسة سوى . . . خذ حصاني . . . مربوط خارجاً . . اركب بأقصى سرعتك . . .

وتمتم آرشي بسؤال ، وسمعت سكارلت ريت يجيبه «مزرعة سوليفان القديمة . ستجد المعاطف مدفوعة داخل المدخنة الكبيرة ، أحرقها» .

ـ «أجل» قال آرشي .

ـ «ويوجد اثنان ، رجلان في المقصورة ، اربطهما فوق الحصان أحسن ربطة تستطيعها ، وخذهما إلى تلك الساحة الشاغرة خلف بيت بيل . . الساحة التي تقع بين بيتها وبين خطوط السكة الحديد . كن حريصاً . إذا رآك أحد فستعدم مثلنا نحن الآخرين . ضعهما في تلك الساحة ، وضع مسدسين قربهما . . في يديهما . دونك . . خذ مسدسيٍّ» .

ورأت سكارلت وهي تنظر عبر الغرفة ريت يمد يده تحت أذيال معطفه ويخرج مسدسين أخذهما آرشي ودسهما في حزام خصره .

ـ «أطلق رصاصة واحدة من كل منهما . ينبغي أن يبدو الأمر وكأنه قضية شجار جلية . إنك تفهم ما أعني؟» .

فأطرق آرشي رأسه بالإيجاب وكأنه فهم تماماً ، وبرق في عينه الباردة شعاع من الاحترام القسري . إلا أن الفهم كان بعيداً عن سكارلت ، فلقد كانت نصف الساعة الأخيرة ككابوس شديد الوطأة عليها بحيث أنها لم تشعر أن شيئاً

سيتضح وينجلي ثانية . ومهما يكن من أمر ، فقد كان يبدو أن ريت كان يستلم زمام الوضع المضطرب ، الأمر الذي كان فيه بعض العزاء لها .

واستدار آرشي ليمضي إلى مهمته ، ثم التفت على عجل ، واتجهت عينه الوحيدة إلى وجه ريت مستوضحة .

ـ «هو؟» .

ـ «أجل» .

ـ «ما أفظعها!» قال وهو ينسلّ من القاعة إلى الباب الخلفي .

وبعث شيء كائن في الكلمات الأخيرة الخفيضة المتبادلة ، بعث خوفاً جديداً في سكارلت ، وارتفع الشك في صدرها كفقاعة باردة ، منتفخة أبداً . وعندما انفجرت تلك الفقاعة صاحت :

ـ «أين فرانك؟» .

وأسرع ريت عبر الغرفة إلى السرير وجسده الكبير يتهادى بخفة وبلا ضجيج كجسد هر «الجميع ينعمون بوقت طيب» قال وابتسم ابتسامة قصيرة «لا تؤرجحي المصباح يا سكارلت ، فأنت لا تريدين أن تحرقي السيد ويلكس . يا آنسة ميلي . .» .

فرفعت ميلاني بصرها إليه كجندي مطيع صغير ينتظر أمراً . كان الجو متوتراً جداً بحيث لم تفطن ميلاني أن ريت دعاها باسمها بصورة أليفة للمرة الأولى ، الأمر الذي لا يفعله سوى أفراد العائلة والأصدقاء القدامى .

ـ «أرجو عفوك ، أعني السيدة ويلكس . . .» .

ـ «ها كابتن بتلر ، لا تطلب عفوي . ينبغي أن أشعر بالتبجيل إن أنت دعوتني بـ«ميلي» دون لفظة «الآنسة» ، إني أشعر كما لو أنك شقيقي ، أو ابن عمي . ما ألطفك وما أذكاك ! كيف يسعني أن أشكرك كما تستحق !» .

ـ «شكراً» قال ريت وبدا الانفعال عليه لهنيهة قصيرة «ينبغي أن لا أجرؤ إلى هذا الحد . ولكن يا آنسة ميلي » وكانت لهجته اعتذارية «إني آسف لأنني اضطررت إلى أن أقول إن السيد ويلكس كان في بيت بيل وتلنغ . إني آسف لأني اضطررت إلى توريط الآخرين في . . كهذه ، ولكن كان علي أن أفكر بسرعة عندما انطلقت من هنا ، وتلك كانت الخطة الوحيدة التي خطرت لي . وكنت أعرف أن كلمتي ستقبل لأن لدي أصدقاء كثيرين جداً بين الضباط

الشماليين . إنهم يمنحونني التكريم المريب حين يفكرون بأني أكاد أكون واحداً منهم ، ولأنهم يعرفون . . هل ندعوها (عدم محبتي) بين رجال مدينتي . ولقد كنت ألعب البوكر في حانة بيل في وقت مبكر من المساء ، كما أن هناك دزينة من الجنود الشماليين الذين يستطيعون أن يشهدوا بذلك ، وكذلك بيل وبناتها سيكنّ سعيدات لأن يكذبن علانية ويقلن إن السيد ويلكس والآخرين كانوا . . في الطابق العلوي طيلة الأمسية وسيصدقهن الشماليون . إن الشماليين غريبو الأطوار في تلك الناحية ، ولن يخطر لهم أن نساء في . . في مهنتهن قادرات على الإخلاص الشديد أو الوطنية الفذة . لن يأخذ الشماليون بكلام سيدة أتلانتية راقية واحدة فيما يتعلق بمكان وجود الرجال الذين كان يفرض وجودهم في اجتماع الليلة ، ولكنهم سيأخذون بكلام سيدات الهوى . وإني لأعتقد أنه بين كلمة الشرف من سكالاواغ وكلام دزينة من سيدات الهوى يمكن أن نظفر بفرصة لإطلاق سراح رجالنا» .

كان يشوب وجهه ابتسامة تهكمية ، وهو ينطق بالكلمات الأخيرة ، ولكن تلك الابتسامة ما عتمت أن تلاشت عندما رفعت ميلاني إليه وجهها الذي كان يتألق بعرفان الجميل .

- «كابتن بتلر ، إنك ذكي جداً ! إني لم أكن لأهتم لو أنك قلت إنهم كانوا في جهنم نفسها هذه الليلة ، إن كان ذلك سينقذهم ، وذلك لأني أعرف ، وكل إنسان آخر ذو شأن يعرف ، أن زوجي لم يكن في أي يوم في مكان فظيع كذاك !» .

- «على كل حال . .» بدا ريت مرتبكاً «في الحقيقة أنه كان في بيت بيل هذه الليلة» .

فانقبضت ميلاني ببرود .

- «لن تستطيع أبداً أن تجعلني أصدق كذبة كهذه» .

- «أرجوك يا آنسة ميلي ! دعيني أشرح لك الأمر ! عندما خرجت إلى مزرعة سوليفان القديمة هذه الليلة وجدت السيد ويلكس مجروحاً وبرفقته هيو ألسنغ والدكتور ميد والرجل المسن ميريويذر» .

- «ليس السيد المسن !» صاحت سكارلت .

- «لا يكبر الرجال أبداً إلى حد لا يكونون فيه حمقى . وعمك هنري» .

ـ «آه ، ارحمنا يا الله» صاحت العمة بيتي .

ـ «وكان الآخرون قد تفرقوا بعد وقوع المناوشة مع الجنود ، وكانت الجماعة التي تكتلت معاً قد أتت إلى مزرعة سوليفان لتخبئ معاطفها في المدخنة ، ولترى إلى أي درجة كانت إصابة السيد ويلكس بليغة . ولولا جرحه لكان ينتظر أن يكونوا الآن في طريقهم إلى تكساس . . جميعاً ، ولكن لم يكن بوسعه أن يركب مسافة بعيدة ، ولم يشاؤوا أن يتركوه . وكان من الضروري أن نثبت أنهم كانوا موجودين في مكان ما ، بدلاً من المكان الذي كانوا فيه حقيقة ، ولذا أخذتهم إلى بيت بيل وتلنغ من طرق خلفية» .

ـ «ها . . فهمت . إني أرجو عفوك من وقاحتي يا كابتن بتلر . إني أرى الآن أنه كان من الضروري أخذهم هنالك ، ولكن ـ آه يا كابتن بتلر ، لا بد أن الناس رأوكم وأنتم تدخلون ذلك المكان» .

ـ «لم يرنا أحد . لقد دخلنا من باب خاص يفتح على خط السكة الحديد . إنه باب مظلم ومقفل دائماً» .

ـ «إذاً كيف . .؟» .

ـ «لدي مفتاح» قال ريت باقتضاب ، وقابلت عيناه عيني ميلاني بنظرة رصينة ، وعندما شعرت بالصدمة التي ينطوي عليها معنى كلامه ، ارتبكت جداً بحيث أنها راحت تعبث بالعصابة إلى أن انزلقت عن الجرح تماماً .

ـ «إني لم أقصد أن أتحرى» قالت في صوت كتيم ووجهها الشاحب محمر خجلاً ، وهي تسرع في ضغط المنشفة على الجرح ثانية .

ـ «إني آسف أن أضطر إلى أخبار سيدة بشيء مثيل» .

ـ «إذاً فالأمر حقيقي !» فكرت سكارلت بغصة مستغربة «إذاً فهو يعيش مع تلك المخلوقة الرهيبة وتلنغ ! إنه يملك بيتها !» .

ـ «لقد رأيت بيل وأوضحت لها الموضوع . لقد أعطيناها قائمة بأسماء الرجال الذين خرجوا مع الكلان في هذه الليلة ، وستشهد هي وبناتها أنهم كانوا جميعاً في بيتها هذه الليلة . ثم من أجل أن نجعل خروجنا أكثر مجلبة للانتباه ، نادت بيل الوغدين اللذين يحافظان على النظام في بيتها فجرانا إلى الطابق السفلي ، ونحن نتعارك ، ثم سحبانا خلال غرفة الشراب وألقيا بنا في الشارع كسكارى مشاغبين كانوا يزعجون المكان» .

وابتسم وهو يتذكر الحادث «لم ينجح الدكتور ميد في تمثيل شخصية السكران الحقيقي . إن مجرد كونه في مكان كهذا جرح كرامته ، ولكن عمك هنري والعجوز ميريويذر . . لقد كانا رائعين . لقد خسر المسرح ممثلين عظيمين جداً لأنهما لم يمارسا التمثيل ، ولقد بدا أنهما كانا مبتهجين للقيام بدورهما . وإني أخشى أن يكون عمك هنري قد حسد السيد ميريويذر نظراً لحماسة هذا الأخير لدوره . إنه . .» .

وانفتح الباب الخلفي ودخلت إنديا يتبعها الدكتور دين العجوز ومحفظته الجلدية البالية ناتئة من تحت معطفه . وعندما بلغ الغرفة حنى رأسه قليلاً دون أن ينبس بكلمة لأولئك الحاضرين ، ثم رفع العصابة عن كتف آشلي بسرعة .

ـ «بعيدة جداً عن الرئة . إن لم تكن قد هشمت عظمة العنق فليست خطيرة جداً . أعطني عدة مناشف أيتها السيدات ، وقطناً إن كان لديكن شيء منه ، وبعض البراندي» .

أخذ ريت المصباح من سكارلت ووضعه على الطاولة ، بينما أسرعت ميلاني وإنديا تلبيان أوامر الطبيب .

ـ «لن تستطيعي فعل شيء هنا . هلمي إلى الردهة ، لنقف قرب النار» . وتناول ذراعها وساقها خارج الغرفة .

كانت هناك في كلا يدها وصوتها رقة غريبة بالنسبة إليه : «لقد عانيت يوماً فظيعاً ، أليس كذلك؟» .

سمحت سكارلت لنفسها أن تقاد إلى الغرفة الأمامية . ومع أنها وقفت على سجادة الموقد أمام النار ، إلا أنها بدأت ترتجف من البرد . كانت فقاعة الشك في صدرها تنتفخ الآن ، وغدا الأمر أكثر من شك ، لقد أضحى يقيناً تقريباً ، ويقيناً مريعاً . ونظرت إلى وجه ريت العديم التأثر ، ولهنيهة ، لم تستطع التكلم ، ثم نطقت :

ـ «هل كان فرانك في بيت بيل وتلنغ؟» .

ـ «لا» .

وكان صوت ريت خفيضاً .

ـ «إن آرشي يحمله الآن إلى الساحة الشاغرة ، على مقربة من بيت بيل ، إنه ميت ، مصاب في رأسه» .

46

في تلك الليلة الرهيبة ، لم ينم سوى عائلات قليلة في طرف المدينة الشمالي ، وذلك بسبب نبإ كارثة الكلان . وانتشرت ستراتيجية ريت بسرعة على أقدام صامتة ، وذلك عندما انساب هيكل إنديا ويلكس ، الشبيه بالشبح ، عبر الساحات الخلفية ، يهمس على عجل ، خلال أبواب المطابخ ، ثم يسير منساباً في الظلام العاصف ، وفي كل مكان مرت به ، كانت إنديا تترك الخوف والأمل اليائس .

كانت البيوت تبدو من الخارج مظلمة صامتة ، يلفها النوم ، أما في الداخل ، فقد ظلت الأصوات تهمس بحدة ، حتى الفجر . ولم يكن هؤلاء المتورطون في غزوة الليل هم وحدهم الذين كانوا مستعدين للهرب ، بل إن كل عضو في الكلان كان مستعداً أيضاً . وكانت الخيل في كل إسطبل تقريباً في شارع بيتشتري تقف مسرجة في الظلام ، والمسدسات في القرابات ، والطعام في الخروج . وكان الشيء الوحيد الذي منع حدوث هجرة بالجملة هو رسالة إنديا المهموسة : «يقول الكابتن بتلر أن لا تفروا ، فالطرقات ستكون مراقبة . لقد رتب الأمر مع تلك المخلوقة وتلنغ . .» وكان الرجال يهمسون في الغرف المعتمة «ولكن لماذا يجب علي أن أثق ببتلر ، ذلك السكالاواغ الملعون؟ قد يكون ذلك شركاً» وكانت أصوات النساء تتوسل «لا تذهبوا ! فإذا كان قد أنقذ آشلي وهيو ، فمن المحتمل أن ينقذ الجميع إذاً . وإذا كانت إنديا وميلاني تثقان به . .» وهكذا وثقوا به نصف ثقة ، وظلوا في بيوتهم ، لأنه لم يكن هناك أي مجال منفسح أمامهم .

وفي وقت مبكر من الليل ، كان الجنود قد قرعوا دزينة من الأبواب ، وسيق أولئك الذين لم يستطيعوا ، أو لم يشاؤوا ، أن يقولوا أين كانوا في تلك الليلة ، سيقوا مقبوضاً عليهم ، وكان بين أولئك الذين قضوا ليلتهم في السجن رينيه بيكارد وأحد أبناء شقيقة السيدة ميريويذر وأبناء سيمونز وإندي بونل . هؤلاء الذين كانوا قد اشتركوا في الغارة السيئة الطالع ، ولكنهم انفصلوا عن الآخرين بعيد إطلاق النار . وهكذا لأنهم كانوا قد هرعوا فزعين إلى بيوتهم ، قبض

عليهم قبل أن يعلموا بخطة ريت . ولحسن الحظ ، كان جواب الجميع عن الأسئلة الموجهة إليهم بأن المكان الذي كانوا فيه شأن من شؤونهم الخاصة وليس من شأن أي اتحادي لعين . ومع ذلك فقد حجزوا من أجل استجوابات أوسع في الصباح ، أما العجوز ميريويذر والعم هنري فقد أعلنا بكل صفاقة أنهما كانا قد قضيا الأمسية في ماخور بيل وتلنغ ، وعندما علق الكابتن جفري محتداً بأنهما مسنّان جداً بالنسبة إلى فعلة فعال كهذه ، همّا بأن يعاركاه .

وأما بيل وتلنغ فقد أجابت بنفسها على نداءات الكابتن جفري الهاتفية . وقبل أن يستطيع الإعلان عن مهمته ، صاحت بأن البيت كان قد أقفل في تلك الليلة ، لأن زمرة من السكارى المشاغبين كانوا قد أموا المكان في المساء الباكر وتشاجروا مع بعضهم البعض وأتلفوا المكان ، وكسروا أجمل مراياها ، وأفزعوا الصبايا كثيراً بحيث أوقف كل عمل لتلك الليلة (ولكن إذا كان الكابتن جفري يريد أن يتناول مشروباً ، فإن الحانة ما زالت مفتوحة . .) .

ولما كان الكابتن جفري عالماً بدقة مدى تألم رجاله وشاعراً بعجز بأنه كان يحارب ضباباً ، لذلك أعلن بغضب أنه لا يريد صبايا ولا مشروباً . ثم سأل إذا كانت بيل تعرف أسماء زبائنها المخربين . ها طبعاً ، لقد كانت تعرف أسماءهم ، كيف لا ، وقد كانوا زبائنها الدائمين ، يأتون كل ليلة أربعاء ، ويدعون أنفسهم ديموقراطيي الأربعاء ، مع أنها لم تكن تعرف ماذا كانوا يعنون بذلك أو تهتم به . . . وإذا هم لم يدفعوا مقابل الأضرار التي ألحقوها بمرايا القاعة العليا فستطلب تطبيق القانون بحقهم . لقد كانت تدير بيتاً محترماً و ـ ها ، أسماؤهم . .؟ فسردت بيل أسماء أثني عشر رجلاً من المشكوك بأمرهم دون تردد ، بينما ابتسم الكابتن جفري بحقد .

ـ «إن هؤلاء الثوار الملعونين منظمون ببراعة كشرطتنا السرية» قال «عليك أنت وبناتك أن تحضرن أمام الحاكم العسكري غداً» .

ـ «هل سيرغمهم الحاكم على دفع ثمن مراياي؟» .

ـ «إلى الجحيم بمراياك؟ دعي ريت بتلر يدفع ثمنها . إنه يملك المكان أليس كذلك؟» .

وقبيل الفجر ، كانت كل عائلة من العائلات الحلفية ، سابقاً ، قد عرفت بكل شيء ، وكذلك زنوجهم الذين لم يكونوا قد أنبئوا بشيء ، عرفوا كل

شيء أيضاً ، بوساطة ذلك النظام البرقي السري الذي كان يتحدى إدراك البيض . وهكذا عرف الجميع بتفاصيل الغارة ومقتل فرانك كندي ووفاة تومي ويلبورن ، وجرح آشلي وهو يحمل جسد فرانك بعيداً .

وعندما عرفت النسوة أن زوج سكارلت قد قتل خف بعض شعور الكراهية المرة التي كنّ يُسرنّها لها بسبب دورها في المأساة ، ولكن سكارلت لم تستطع أن تسلم بحقيقة النبإ ، وتنعم بالعزاء التعس في طلب جثته . لقد كان ينبغي أن تتظاهر بأنها لم تكن تعرف شيئاً ، إلى أن يكشف ضوء الصباح عن أمر الجثتين ، وتبلغها السلطات النبأ . وكان فرانك وتومي يرقدان متيبسين بين الحشائش الميتة في ساحة خالية ، والمسدسين في يديهما الباردتين . وكان من المنتظر أن يقول الشماليون إن كلاً منهما قتل الآخر في شجار عادي مخمور في تنافس على فتاة في بيت بيل . وعظم العطف على فاني ، زوجة تومي التي كانت قد أنجبت طفلاً في الآونة الأخيرة . ولكن لم يكن بوسع أحد أن ينطلق خلال الظلام ويراها ويواسيها ، لأن فصيلاً من الشماليين كان يطوق بيتها ، ينتظر عودة تومي ، كما كان هناك فصيل آخر يطوق بيت العمة بيتي في انتظار عودة فرانك .

وقبل الفجر ، كان قد انتشر النبأ القائل بأن محكمة التحقيق العسكري ستعقد في ذلك اليوم ، وعرف أهل المدينة ، وعيونهم ثقيلة عن عدم النوم والانتظار والقلق ، أن نجاة بعض أبرز مواطنيهم تتوقف على ثلاثة أشياء : مقدرة آشلي ويلكس في الوقوف على قدميه أمام الهيئة العسكرية كما لو أنه لا يعاني شيئاً أكثر خطورة من صداع صباحي ، ثم كلمة بيل وتلنغ بأن هؤلاء الرجال كانوا في بيتها طيلة الأمسية ، وأخيراً كلمة ريت بتلر أنه كان معهم .

وتقلّبت المدينة ألماً من هذين الشيئين الأخيرين ! بيل وتلنغ ، . . يدينون حياة رجالهم لها ! إن ذلك لا يمكن احتماله ! وتساءلت النسوة اللواتي كن يعبرن الشارع متباهيات عندما كن يرين بيل قادمة ، تساءلن عما إذا كانت هذه تذكر الحدث وانتفضن فرقاً من أن تذكره . أما الرجال فقد كانوا يشعرون بمهانة أقل من تلك التي كان يشعر بها النساء ، والتي كانت ناجمة عن أن رجالهن كانوا سينقذون أرواحهم بفضل بيل ، ذلك لأن كثيراً منهم كان يعتقد بأنها امرأة من طينة جيدة ، غير أنهم كانوا مصعوقين لأنه كان عليهم أن يدينوا بحياتهم

وبحريتهم إلى ريت بتلر المضارب والسكالاواغ . بيل وريت . أشهر امرأة داعرة في المدينة ، وأشد الرجال كرهاً فيها . ولا بد من أن يكونوا مدينين بالشكر لهما .

وهناك فكرة أخرى صعقت الرجال إلى حد السخط الواهن ، وهي معرفة أن الشماليين والكاربت بغرز سيضحكون ، ها ، كم إنهم سيضحكون ! اثنا عشر رجلاً من أبرز مواطني المدينة افتضحوا كزبائن معتادين على الذهاب إلى ماخور بيل وتلنغ . . . وقد قتل اثنان منهم في شجار على فتاة صغيرة رخيصة ، وألقي آخرون خارج المكان لأنهم كانوا سكارى جداً بحيث لم يكن بالمستطاع احتمالهم ، حتى من قبل بيل ، كما أن البعض مقبوض عليهم وهم يرفضون الاعتراف بأنهم كانوا هنالك بينما كان الجميع يعرفون أنهم كانوا هنالك !

كانت أتلانتا على حق في خوفها من أن يضحك الشماليون الذين كانوا قد ترمضوا طويلاً جداً بسبب الازدراء الجنوبي لهم ، وها هم الآن ينفجرون ابتهاجاً ، إذ راح الضباط يوقظون زملاءهم ويقصون النبأ عليهم ، وكذلك أيقظ الرجال زوجاتهم ، وأخبروهن عن الأمر بقدر ما تسمح الحشمة في إخبار النساء ، فارتدين ثيابهن على عجل ورحن يقرعن أبواب جيرانهن ، وينشرن القصة . لقد ابتهجت جميع السيدات الشماليات بالنبإ ،وضحكن إلى أن جرت الدموع على وجناتهن ، هذه كانت الفروسية والشهامة الجنوبيتان ! ربما لن تظل أولئك النسوة اللواتي كن يرفعن رؤوسهن عالياً ويرفضن جميع المحاولات لمصادقتهن ، ربما لن يظللن مغرورات الآن ، وقد عرف الجميع أين كان يقضي رجالهن الوقت ، في حين كان يفترض أن يكونوا في الاجتماعات السياسية . . . الاجتماعات السياسية ! حسناً ، لقد كان ذلك أمراً مضحكاً !

ولكن حتى وهم يضحكون ، كانوا يبدون الأسف على سكارلت ومأساتها ، فعلى كل حال لقد كانت سكارلت سيدة وإحدى سيدات قليلات في أتلانتا كن لطيفات مع الشماليين . كانت قد اكتسبت عطفهم بفعل حقيقة كونها مضطرة إلى أن تعمل لأن فرانك لم يكن يستطيع أو يرغب في إعالتها كما ينبغي . وحتى مع أن زوجها كان آسفاً لعملها فلقد كان من الفظاعة أن تكتشف تلك المخلوقة البائسة أنه كان غير مخلص لها ، وكانت الفظاعة المضاعفة ، أن موته حدث في آن واحد مع اكتشاف خيانته لها ، وبعد كل

هذا ، فإن زوجاً مسكيناً كان أفضل من لا زوج البتة . وهكذا قررت السيدات الشماليات أنهن سيكن أكثر لطفاً مع سكارلت . أما الأخريات ، السيدة ميد والسيدة ميريويذر والسيدة ألسنغ وأرملة تومي ويلبورن ، وخاصة السيدة آشلي ويلكس ، سيضحكن أمامهن كلما رأينهن ، وكذلك سيعلمنهن قليلاً من آداب المجاملة .

كان معظم الهمس ، الذي استمر في الغرف المعتمة في ناحية المدينة الشمالية تلك الليلة ، يدور حول هذا الموضوع ذاته . فكانت سيدات أتلانتا يخبرن أزواجهن بقوة أنهن لا يحفلن مثقال ذرة بما كان يفكر الشماليون ، ولكنهن كن يشعرن في قرارة نفوسهن بأن تحمُّل قصاص هندي(*) كان أفضل ، إلى درجة غير محدودة ، من معاناة عذاب ابتسامات الشماليين ، ومن عدم استطاعتهن أن يقلن الحقيقة عن أزواجهن .

وقد أخبر الدكتور ميد زوجته وهو ممتهن الكرامة بسبب هذا المأزق الذي كان ريت بتلر قد أوقعه فيه والآخرين ، أخبرها أنه يفضل أن يعترف بالحقيقة ويُعدم ، على أن يقول أنه كان في ماخور بيل لولا حقيقة أنه سيورط الآخرين .

ـ «إنها إهانة لك يا سيدة ميد» قال وهو يستشيط غضباً .

ـ «ولكن الجميع سيعرفون أنك لم تكن هناك ، لأن ـ لأن ـ » .

ـ «الشماليون لن يعرفوا . سيضطرون إلى تصديق القصة إن نحن أنقذنا أعناقنا ، وسيضحكون . إن مجرد فكرة كون إنسان ما سيصدق القصة ، وسيضحك ، أمر يثيرني ، كما أنه يهينك لأن . . لقد كنت دائماً وفيّاً لك يا عزيزتي» .

ـ «إني أعرف ذلك» وابتسمت السيدة ميد في الظلام ، ودست يداً نحيلة في يد زوجها .

ـ «ولكني أفضل أن تكون القصة صادقة فعلاً على أن تتعرض شعرة من رأسك للخطر» .

ـ «سيدة ميد ، هل تعرفين ما تقولين؟» صاح الدكتور مشدوهاً من واقعية زوجته الصريحة .

(*) قصاص عسكري شهير يقضي بأن يمر المذنبون بين صفين من الجنود يتوالون عليهم ضرباً .

ـ «أجل أعرف . لقد فقدت دارسي وفقدت فيل ، وأنت كل ما أملك ، وإنني لأفضل أن تتخذ إقامتك الدائمة في ذلك المكان على أن أفقدك» .

ـ «أنت طائشة . إنك لا تستطيعين معرفة ما تقولينه» .

ـ «أيها الأحمق العجوز» قالت السيدة ميد بلطف .

تحول غضب الدكتور ميد إلى غيظ صامت ، وراح يربت على وجنة زوجته ، ولكنه ما عتم أن انفجر ثانية :

ـ «وأن أكون مديناً بالشكر لذلك الرجل بتلر ! إن الإعدام سيكون سهلاً إذا ما قورن بذلك ، لا ، لا يمكنني أن أكون مؤدباً معه ، ولو كنت مديناً له بحياتي . إن وقاحته هائلة ، وإن صفاقته فيما يتعلق باستغلاله تجعلني أغلي بالثورة . أن أكون مديناً بحياتي لرجل لم يلتحق بالجيش أبداً» .

ـ «لقد قالت ميلي إنه انضم إلى الجيش بعد سقوط أتلانتا» .

ـ «إنها كذبة . إن الآنسة ميلي يمكن أن تصدق أي وغد مخادع . والذي لا أستطيع فهمه هو سبب قيام ريت بكل هذا ، سبب قيامه بجميع هذا الإزعاج . إني أمقت أن أقولها ، ولكن ، على كل حال ، كان هناك دائماً حديث عنه وعن السيدة كندي . لقد رأيتهما آتيين معاً من ركوبات كثيرة في هذه السنة . لا بد أنه فعل ذلك من أجلها» .

ـ «لو كان من أجل سكارلت لما رفع يده ، بل كان من المنتظر أن يكون سعيداً في أن يرى فرانك كندي معلقاً على حبل المشنقة ، أعتقد أنه من أجل ميلي» .

ـ «سيدة ميد ، لا يمكن أن تكوني توعزين بأنه كان هناك يوماً أي علاقة سرية بين ذينك الشخصين !» .

ـ «ها ، لا تكن أحمق ، ولكنها كانت دائماً مغرمة جداً به ، وذلك منذ حاول أن يحرر آشلي خلال الحرب من طريق تبادل الأسرى . ولا بد لي أن أذكر هذا ، إذ إنه لا يبتسم أبداً بتلك الطريقة الكريهة المثيرة عندما يكون معها ، وإنما يبدو رجلاً ساراً عاقلاً إلى أقصى حد ـ رجلاً يختلف حقّاً عما هو عليه في العادة . وبوسعك أن تقول ، بناء على المسلك الذي يسلكه مع ميلي ، إن بوسعه أن يكون مهذباً إذا ما رغب في ذلك . والآن ، إن رأيي في سبب عمل ريت هذا كله ، هو . .» وصمتت هنيهة «دكتور ، إنك لا ترتاح إلى فكرتي» .

ـ «إني لا أرتاح إلى أي شيء يتعلق بهذا الأمر كله!» .

ـ «على كل حال ، إنني أعتقد أنه فعل ذلك جزئيّاً من أجل ميلي ، ولكنه غالباً لأنه ظن أن ذلك سيكون موضوع هزل عظيم علينا . لقد كرهناه كرهاً بالغاً ، وجاهرنا بذلك في صراحة . وها هو الآن يتمكّن منا في مأزق تجدون أنفسكم فيه جميعاً بين خيارين : إما أن تقولوا إنكم كنتم في بيت بيل وتلنغ ذاك ، وتهينوا أنفسكم وزوجاتكم أمام الشماليين ، أو أن تصرحوا بالحقيقة وتعدموا . وهو يعرف أننا جميعاً سنكون مدينين بالفعل له ولـ . . خليلته . وإننا لنفضل أن نعدم على أن نكون مدينين بالفعل لهما . وإني أراهن أنه سعيد بهذا الأمر .

فأنَّ الدكتور وأجاب «لقد كان يبدو طروباً حين أخذنا إلى الطابق العلوي من ذلك المكان» .

ـ «دكتور . . . » وتردَّدت السيدة ميد «ماذا يشبه ذلك المكان؟» .

ـ «ماذا تقولين يا سيدة ميد؟» .

ـ «بيتها ، ماذا يشبه؟ هل يوجد به ثريات من البلور؟ وستائر من نسيج بلش الأحمر ، وكثير من المرايا المذهبة الأطر؟ وهل كانت الفتيات . . هل كن عاريات؟» .

ـ «يا لله العظيم» صاح الدكتور مصعوقاً ، لأنه لم يكن قد خطر بباله أن فضول امرأة طاهرة ، فيما يتعلق بشقيقاتها غير الطاهرات ، كان شرهاً إلى هذا الحد «كيف يسعك أن تسألي أسئلة سليطة كهذه؟ إنك لست على طبيعتك . سأركب لك دواء مخدراً» .

ـ «أنا لا أريد دواء مخدراً . أريد أن أعرف . آه يا عزيزي ، إن هذه هي فرصتي الوحيدة لأعرف ماذا يشبه بيت المرأة الفاسدة ، وإنك لحقير لأنك لا تخبرني!» .

ـ «لم ألاحظ شيئاً . إني أؤكد لك أني كنت منفعلاً جداً لأني ألقيت نفسي في مكان كهذا ، منفعلاً بحيث أني لم أستطع أن ألاحظ ما كان يحيط بي» قال الدكتور بلهجة رسمية وقد زاد انفعاله بسبب هذا الانكشاف الصريح لأخلاق زوجته عما كان بسبب جميع أحداث المساء السابقة «إذا سمحت لي الآن ، فسأحاول أن أنعم ببعض النوم» .

ـ «حسناً ، أذهب إلى النوم ، إذاً» أجابت بصوت ينم عن خيبة . وعندما انحنى الدكتور ليخلع حذاءه ، سمع صوتها من الظلمة وقد شابه مرح متجدد : «إني أتصور أن دولي عرفت كل شيء من الرجل المسن ميريويذر وبوسعها أن تخبرني عن ذلك البيت» .

ـ «يا لله العظيم يا سيدة ميد ! هل تقصدين أن تخبريني أن النساء الطيبات يتحدثن عن أمور كهذه فيما بينهن؟» .

ـ «ها ، اذهب إلى السرير» .

*

في اليوم التالي ، أمطرت السماء برداً ، ولكن عندما زحف ضوء الغسق توقف البرد عن السقوط ، وسارت ميلاني متلفّعة بمعطفها في ممشى بيتها الأمامي خلف حوذي زنجي كان قد دعاها سراً إلى عربة مغلقة كانت تنتظر أمام البيت ، وعندما بلغتها ، فتح الباب ، ورأت ميلاني امرأة داخل العربة المعتم . وعندما انحنت نحو العربة ، وحدقت في داخلها سألت :

ـ «من أنت؟ ألا تأتين إلى البيت؟ الطقس بارد جداً بحيث . .» .

ـ «أرجوك ، ادخلي إلى العربة ، واجلسي معي دقيقة واحدة يا سيدة ويلكس» .

خرج صوت أليف خافت ، صوت متهدج من أعماق العربة .

ـ «ها ، إنك الآنسة ـ السيدة وتلنغ !» صاحت ميلاني ، «لقد رغبت كثيراً جداً في أن أراك ! ينبغي أن تأتي إلى البيت» .

ـ «لا أستطيع أن أفعل ذلك يا سيدة ويلكس» ارتفع صوت بيل وتلنغ «ادخلي أنت إلى العربة واجلسي لدقيقة واحدة معي» .

دخلت ميلاني العربة وأغلق الحوذي الباب خلفها ، فجلست إلى جانب بيل ومدت يدها لمصافحتها :

ـ «كيف أستطيع أن أشكرك كما ينبغي على ما فعلته اليوم ! كيف يستطيع أي منا أن يشكرك كما ينبغي !» .

ـ «سيدة ويلكس ، لم يكن يتوجب عليك أن ترسلي لي تلك الرسالة هذا الصباح ، ليس لأني لم أكن فخورة باستلام رسالة منك ، ولكن لأنها كان يمكن أن تقع بأيدي الشماليين . أما بالنسبة إلى قولك بأنك كنت ستزورينني

لتشكريني - الواقع يا سيدة ويلكس لا بد أنك فقدت عقلك! يا للفكرة ذاتها! لقد أتيت هنا حالما خيم الظلام لأخبرك أنك ينبغي أن لا تفكري بأي شيء من هذا القبيل، الواقع أني - الواقع أنك - لن يكون ذلك لائقاً بك أبداً».

- «لن يكون لائقاً بي أن أزور وأشكر امرأة لطيفة أنقذت حياة زوجي؟».

- «لا، أبداً يا سيدة ويلكس. إنك تعرفين ما أعني!».

ظلت ميلاني صامتة لدقيقة وهي متأثرة من مضمون كلام بيل. فبوجه من الوجوه، لم تكن هذه السيدة الجميلة المحتشمة الثياب، الجالسة في ظلام العربة، لم تكن تبدو وتتكلم كما تصورت ميلاني امرأة داعرة، سيدة ماخور، ينبغي أن تبدو وتتكلم. لقد كانت تبدو مثل.. نعم لقد كانت تبدو عامية وقروية قليلاً، ولكنها بديعة لطيفة.

- «لقد كنت مدهشة أمام الحاكم العسكري اليوم يا سيدة وتلنغ! أنت والأخريات - فتيا - السيدات الشابات، أنقذتن أرواح رجالنا حتماً».

- «لقد كان السيد ويلكس هو المدهش، إني لا أعرف كيف وقف وروى قصته بسحنة باردة كتلك التي بدا بها. من الأكيد أنه كان ينزف عندما رأيته في الليلة الماضية. هل أوشك على الشفاء يا سيدة ويلكس؟».

- «نعم، أشكرك. يقول الطبيب إنه جرح سطحي. ورغم أنه فقد كمية كبيرة من الدم لقد كان هذا الصباح.. الواقع، كان منتعشاً جداً بفعل البراندي، وإلاّ لما نعم بالقوة ليقوم بذلك الدور كله على هذه الصورة الحسنة. ولكن لقد كنت أنت يا سيدة وتلنغ التي أنقذته. وعندما ثرت وتكلمت عن المرايا المكسرة كنت مفحمة جداً جداً».

- «أشكرك يا سيدة، ولكني.. ولكني أعتقد أن الكابتن بتلر قام بدور رائع جداً، هو أيضاً» قالت بيل وفي صوتها كبرياء حيي،

- «ها، لقد كان مدهشاً!» صاحت ميلاني بحرارة «لم يكن بوسع الشماليين إلاّ أن يصدقوا شهادته. لقد كان ذكياً جداً فيما يتعلق بالقصة كلها. وليس بوسعي أبداً شكره كما ينبغي - أو شكرك أنت أيضاً. ما ألطفك وأحسنك!».

- «أشكرك شكراً جزيلاً يا سيدة ويلكس. لقد كان من دواعي سروري أن أقوم بذلك العمل. إني.. إني أرجو أن لا يضايقك أبداً قولي إن السيد ويلكس يأتي إلى بيتي بانتظام، إنه لا يأتي مطلقاً، وأنت تعرفين ذلك».

ـ «أجل ، إني أعرف . لا ، إن ذلك لا يضايقني أبداً . إني ممتنة لك جداً» .

ـ «إني أراهن أن السيدات الأخريات لسن ممتنات لي» قالت بيل بحقد مفاجئ «وإني أراهن أنهن لسن ممتنات من الكابتن بتلر أيضاً . بل إني أراهن أنهن ازددن كراهية لي بسبب هذا الحادث ، كما أني أراهن أنك ستكونين السيدة الوحيدة التي تشكرني ، وأراهن أنهن لن ينظرن إلى وجهي عندما يرينني في الشارع ، ولكني لا أحفل ، ولم أكن لأتأثر لو أعدم جمع أزواجهن ، ولكني تأثرت بسبب السيد ويلكس ، فأنا لم أنس كم كنت لطيفة معي خلال الحرب فيما يتعلق بالنقود التي قدمتها للمستشفى ، ولم تكن هناك أية سيدة في هذه المدينة لطيفة معي كما كنت أنت . وإني لا أنسى المعروف ، ولذلك فكرت كيف أنك ستصبحين أرملة إذا ما أعدم السيد ويلكس . إن ابنك لطفل صغير لطيف يا سيدة ويلكس . إن لي ابناً أنا نفسي ، ولذلك فإني . .» .

ـ « لك ولد »؟ هل يقيم . . أو . .» .

ـ «ها ، لا يا سيدة ، إنه ليس في أتلانتا ، ولم يكن هنا أبداً ، إنه في المدرسة في مكان بعيد ، ولم أره منذ كان صغيراً ـ إني ـ حسناً ـ على كل حال عندما رغب إلي الكابتن بتلر في أن أكذب من أجل هؤلاء الرجال ، أردت أن أعرف من هؤلاء الرجال ، وعندما سمعت أن السيد ويلكس كان أحدهم لم أتردد أبداً ، وقلت لبناتي ، قلت «سأجلدكن جميعاً حتى أريكن نجوم النهار إن لم تذكرن ، بصفة خاصة ، أنكن كنتن مع السيد ويلكس طيلة الأمسية» .

ـ «ها !» قالت ميلاني ، وهي أكثر ارتباكاً بسبب عودة بيل العفوية إلى موضوع «بناتها» ـ «ها لقد كان ذلك ـ لطفاً منك و ـ منهن أيضاً» .

ـ «لا ، إنك تستحقين أكثر» قالت بيل بحرارة «ولكني لم أكن لأفعل ذلك من أجل أي إنسان آخر ، ولو كان زوج السيدة كندي هو وحده ، لما تدخلت أبداً مهما قال الكابتن بتلر» .

ـ «لماذا؟» .

ـ «الواقع يا سيدة ويلكس ، إن من يتعاطى مثل مهنتي يطلع على أشياء كثيرة . وكثير من السيدات الطيبات سيدهشن ويصدمن إذا كان لديهن أي فكرة عما نعرف عنهن من أمور كثيرة . إنها ليست امرأة صالحة يا سيدة ويلكس ، لقد قتلت زوجها ، وذلك الشاب الطيب ويلبورن ، تماماً كما لو أنها

أطلقت النار عليهما . لقد كانت السبب في المشكلة كلها : تتجول وحيدة في أتلانتا ، تغري الزنوج وحقيري البيض . الواقع أن لا واحدة من بناتي . .» .

ـ «ينبغي أن لا تتفوهي بأمور قاسية عن زوجة أخي» وانقبضت ميلاني ببرود .

ـ ووضعت بيل يداً مطمئنة على ذراع ميلاني ، ثم سحبتها بسرعة :

ـ «لا تؤاخذيني ، أرجوك يا سيدة ويلكس ، فأنا لا أستطيع احتمال غضبك بعد أن كنت لطيفة عذبة جداً معي . لقد نسيت أنك تحبينها جداً ، وإني آسفة لما بدر مني . إني حزينة على السيد كندي المسكين الذي قتل أيضاً . لقد كان رجلاً طيباً ، وقد اعتدت شراء حوائج بيتي من مخزنه ، وكان يعاملني معاملة تدعو إلى السرور . ولكن السيدة كندي ـ الواقع أنها ليست في مستواك ذاته يا سيدة ويلكس ـ إنها امرأة خالية من الشعور ، وأنا لا أستطيع احتمال ذلك إن فكرت به . متى سيدفنون السيد كندي؟» .

ـ «صباح غد . وإنك مخطئة فيما يتعلق بالسيدة كندي ، كيف لا ، وهي في هذه الدقيقة بالذات غارقة في أحزانها» .

ـ «ربما تكون كذلك» قالت بيل بعدم تصديق جلي «على كل حال ، ينبغي أن أذهب الآن ، لأني أخشى أن يميز البعض هوية هذه العربة إن أنا مكثت هنا مدة أطول ، الأمر الذي لن يعود عليك بالخير . ويا سيدة ويلكس ، إذا ما رأيتني في الشارع . . فلا . . فلا ينبغي لك أن تتحدثي إلي . إني أفهم وضعك» .

ـ «سأكون فخورة بالتحدث إليك ، فخورة بأن أكون ممتنة لك . وأرجو ـ أرجو أن أراك ثانية» .

ـ «لا» قالت بيل «فذلك لن يكون مناسباً . عمي مساءً» .

47

كانت سكارلت تجلس في غرفة نومها ، تلتقم الطعام من صينية العشاء التي كانت مامي قد أحضرتها لها ، وتصغي إلى الريح تصفق مولولة في الليل ، وكان البيت ساكناً بصورة مفزعة أكثر سكوناً حتى مما كان عليه حين كان فرانك مسجى في الردهة قبيل ساعات قليلة فقط . فقد كان هناك آنئذ أقدام تخطو على رؤوس الأصابع ، وأصوات مهموسة ، وقرعات خفيضة على الباب الأمامي ، وجارات يدخلن بحفيف أثوابهن ، ويهمسن بعواطفهن أو شهقات ترتفع بين الآونة والأخرى ، صادرة عن شقيقة فرانك التي كانت قد وصلت من جونسبورو للاشتراك في الجنازة .

أما الآن فقد كان البيت غارقاً في سكون شامل ، ومع أن باب غرفتها كان مفتوحاً ، لم يكن بوسعها سماع أي صوت من الطابق السفلي ، وكان ويد وإيلا قد حُملا إلى بيت ميلاني منذ أحضرت جثة فرانك إلى البيت ، وهكذا افتقدت سكارلت صوت قدمي الصبي ، ومناغاة الطفلة . كما أن هدنة كانت قد عقدت في المطبخ ، فلم يبلغ مسامعها منه أي صوت شجار صادر عن بطرس أو مامي أو كوكي . وحتى العمة بيتي ، التي كانت في المكتبة في الطابق السفلي ، لم تكن تهز كرسيها الصائت ، مراعاة لحزن سكارلت .

لم يكن أحد يدخل عليها بدون إذن ، اعتقاداً منهم بأنها كانت ترغب في أن تترك وحيدة وأحزانها . بيد أن تركها وحيدة كان آخر شيء ترغب فيه ، إذ لو كان الحزن وحده هو الذي يرافقها الآن لكان بوسعها أن تتحمله ، كما كانت قد تحملت أحزاناً أخرى . ولكن ، بالإضافة إلى شعورها المصعوق بالخسارة الناجمة عن وفاة فرانك ، كان هناك الخوف والندم وعذاب ضمير كان قد استيقظ فجأة . ولأول مرة في حياتها ، كانت تندم على أمور فعلتها ، تندم عليها بخوف وهمي كاسح ، جعلها تلقي بنظرات جانبية على السرير الذي كانت تنام وفرانك عليه .

لقد قتلت فرانك ، لقد قتلته بكل تأكيد ، كما لو كان أصبعها هو الذي ضغط على الزناد . كان فرانك قد رجاها أن لا تتجول وحدها ولكنها لم تصغ إليه ، وها قد مات الآن بسبب عنادها ، وسيعاقبها الله على ذلك . ولكن لقد

كانت تجثم على ضميرها قضية أخرى ، قضية كانت أثقل وأشد إفزاعاً حتى من قضية تسببها لموته ، قضية لم تكن قد أزعجتها أبداً إلى أن نظرت إلى وجهه المغطى بالكفن ، فقد كان هناك شيء حائر مثير للشجون في ذلك الوجه الصامت ، الذي كان يتهمها ، وسيعاقبها الله لأنها كانت قد تزوجت به ، بينما كان هو يحب سولين في الحقيقة . إذاً لا بد لها من أن تجثو على ركبتيها يوم الحساب ، وتجيب عن تلك الكذبة التي أخبرته بها عندما كانت عائدة في عربته من معسكر الشماليين .

وكان من غير المجدي لها الآن أن تدافع عن نفسها بالقول بأن الغاية تسوّغ الوساطة ، وبأنها سيقت إلى صيده ، وبأن مصير أناس كثيرين جداً كان متوقفاً عليها ، بحيث لم يكن يدعها تفكر بحقوق فرانك وسولين وسعادتهما . وبرزت الحقيقة أمامها جلية ، ولكنها أشاحت بوجهها عنها . كانت قد تزوجته دون عاطفة ، وعاملته ببرود . ولقد جعلته تعساً خلال الأشهر الأخيرة ، بينما كان بوسعها أن تجعله سعيداً جداً . وسيعاقبها الله لأنها لم تكن أكثر لطفاً معه ، سيعاقبها على جميع عربداتها ، وعلى ثورات طبعها وعباراتها الجارحة ، وعلى إبعادها أصدقائه عنه ، وإشانته بإدارتها للمعملين وبناء الحانة واستئجار الأشقياء .

لقد جعلته تعساً جداً ، وكانت تعرف ذلك ، ولكنه كان قد تحمل كل هذا ، تحمله كرجل فاضل . وكان الشيء الوحيد الذي فعلته ، والذي منحه بعض السعادة الحقيقية ، هو أنها قدمت إليه إيلا . وكانت تعرف أنه لو وسعها أن لا تنجب إيلا لما ولدت أبداً .

وارتجفت فزعة ، وتمنت أن لو كان فرانك حياً كي تستطيع أن تكون لطيفة معه ، لطيفة جداً ، بحيث تعوض عن كل ما فات . آه ، حبذا لو أن الدقائق لم تكن تمر بطيئة هكذا ! والبيت لم يكن ساكناً هكذا ! حبذا لو أنها لم تكن وحيدة هكذا !

ليت ميلاني كانت معها ، فلقد كان بوسع ميلاني أن تهدئ مخاوفها . ولكن ميلاني كانت في بيتها تمرض آشلي . وفكرت سكارلت ، لهنيهة ، أن تستدعي بيتي بات ، لتقف بينها وبين ضميرها ، ولكنها ترددت ، إذ كان من المحتمل أن تزيد بيتي الأمور سوءاً لأنها كانت تندب فرانك بإخلاص ، فرانك

الذي كان من روح عصرها أكثر مما كان بالنسبة إلى سكارلت . وكانت بيتي مغرمة بفرانك جداً ، وكان هو يؤمن حاجتها إلى «وجود رجل في البيت» لأنه كان يجلب لها هدايا صغيرة ، ويوفر لها حديثاً ودعابات ، وقصصاً بريئة ، كما كان يقرأ لها الجريدة في الليل ، ويوضح قضايا الساعة ، بينما تكون ترتق له جواربه . وكذلك كانت تنهمك من حوله ، وتخصصه بأنواع معينة من الطعام ، وتدلله في أثناء إصاباته العديدة بالزكام ، ولذلك افتقدته الآن بشدة ، وراحت تردد مرة بعد أخرى ، وهي تلطم على عينيها المتنفختين الحمراوين : «حبذا لو أنه لم يخرج مع الكلان !» .

حبذا لو أن هناك أحداً يستطيع أن يواسيها ، يهدئ مخاوفها ، يفسر لها ماهية مخاوفها المضطربة تلك ، مخاوفها التي كانت تجعل قلبها يفور بسقم بارد ! حبذا لو أن آشلي . . . إلا أنها انقبضت من الفكرة . لقد كادت تقتل آشلي ، تماماً كما قتلت فرانك . وإذا ما اتفق وعرف آشلي الحقيقة ، حقيقة أنها كذبت على فرانك لتظفر به ، وعرف ما كان أحقرها مع فرانك ، فلن يكون بوسعه أن يحبها بعد ذلك . لقد كان آشلي شريفاً جداً ، صادقاً جداً ، لطيفاً جداً ، وكان ينظر إلى الأمور باستقامة وبوضوح فائقين ، وإذا هو عرف الحقيقة كاملة ، فسيفهم كل شيء . آه ، أجل ، سيفهم كل شيء تمام الفهم ! . . ولكنه لن يبقى على حبها أبداً ، ولذلك فمن الواجب أن لا يعرف الحقيقة ، لأنه ينبغي أن يبقى على حبه لها .

وراح البيت الساكن بشعور الموت الثقيل ، الجاثم فوقه ، يضغط على وحدتها ، إلى أن أحست أنه لم يعد بوسعها أن تحتمله دون أن يكون هناك ما يواسيها . فنهضت بحذر وأغلقت الباب نصف إغلاقة ، ثم أخذت تنبش في جرار المنضدة السفلي ، تحت ثيابها الداخلية ، ثم أخرجت «قارورة إغماء العمة بيتي» ، أي قارورة البراندي التي كانت قد خبأتها هناك ، ورفعتها إلى المصباح . كانت القارورة قد فرغت حتى منتصفها ، ومن الأكيد أنها لم تشرب تلك الكمية كلها منذ الليلة الماضية ! وسكبت مقداراً كبيراً في كوب ماء ، وجرعته .

اشتعل البراندي في جوفها بإمتاع شديد ، وكانت السيدة ميريويذر والسيدة ميد قد اشتمتا نفسها بوضوح في أثناء الجنازة ، وقد رأت هي نظرة الظفر التي تبادلتاها تانك القطتان العجوزتان ! . .

وسكبت جرعة أخرى ، فإن هي سكرت قليلاً هذه الليلة ، فإن ذلك لن يؤثر ، لأنها كانت ستأوي إلى فراشها سريعاً ، وبوسعها أن تتغرغر بالعطر قبل أن تصعد مامي لحل شرائطها . وتمنت أن لو كان بوسعها أن تسكر تماماً فتغيب عن الوعي ، كما كان يفعل والدها أيام القضاء ، إذ تنسى عندئذ وجه فرانك الغائر ، وهو يتهمها بتدمير حياته ثم بقتله .

وتناولت جرعة أخرى إثر هذه الفكرة ، وارتعدت عندما سال البراندي الحار في حلقها . لقد أحست بدفء عظيم الآن ، ولكنها ما زالت عاجزة عن إبعاد فكرة فرانك عن عقلها . ما كان أغبى الرجال عندما كانوا يقولون إن الشراب يجعل الناس ينسون آلامهم ! فما لم تشرب إلى الدرجة التي تفقد معها شعورها ستظل ترى وجه فرانك كما كان يبدو في آخر مرة رجاها فيها أن لا تسوق العربة وحدها ، وجهاً حيياً مؤنباً معتذراً .

فجأة سُمع طرق على الباب . كان الطارق على الباب الأمامي يقرع بصوت خافت جعل البيت الساكن يتصادى مع الطرقات ، وسمعت سكارلت خطوات العمة بيتي المتهادية تعبر القاعة ، وكذلك صوت انفتاح الباب ، ثم سمع صوت تحية ودمدمة لم يكن بالمستطاع تمييزها ، لعل أحد الجيران جاء ليتحدث عن الجنازة أو ليحضر طعاماً ، الأمر الذي ستستحسنه بيتي ، إذ كانت قد شعرت بارتياح وعزاء عظيمين بالتحدث إلى الزوار المعزين .

وتساءلت سكارلت دون استهجان عمن كان هذا الزائر . ولكن عندما علا صوت رجل مدو ومتباطئ فوق همس بيتي الحزين عرفت صاحبه ، وغمرتها السعادة والفرح ، لقد كان ريت ، الذي لم تكن قد رأته منذ أن كشف لها نبأ وفاة فرانك ، وأدركت الآن في أعماق قلبها أنه الشخص الوحيد الذي يستطيع مساعدتها هذه الليلة .

ـ «أعتقد أنها لا تمانع في أن تراني» وصل صوت ريت إليها .

ـ «ولكنها في فراشها الآن يا كابتن بتلر ، ولن ترى أي إنسان . تلك الصبية المسكينة ، إنها خائرة القوى ، إنها . . .» .

ـ «أعتقد أنها ستراني ، أرجوك أن تخبريها أني مسافر غداً ، ومن المحتمل أن أغيب بعض الوقت ، فالقضية مهمة جداً» .

ـ «ولكن . . .» قالت العمة بيتي بات بتأثر .

وخرجت سكارلت جرياً إلى القاعة ، ولاحظت بعض الدهشة أن ركبتيها كانتا ترتجفان قليلاً ، ثم انحنت فوق الدرابزين :

- «سأنزل فوراً يا ريت» .

ولمحت وجه العمة بيتي بات البدين المتطلع نحوها إلى الأعلى بعينين كعيني البوم دهشة واستنكاراً . . . الآن سيعم الخبر المدينة بأني تصرفت أفظع تصرف مستهجن في يوم جنازة زوجي ، فكرت سكارلت وهي تعود بسرعة إلى غرفتها ، وتشرع في تسريح شعرها . ثم زررت قميصها الأسود حتى ذقنها ، وضمت طرفي الياقة بدبوس حداد بيتي بات : إني لا أبدو جميلة جداً ، هجست وهي تنحني تجاه المرآة شاحبة خائفة . ولهنيهة ، امتدت يدها إلى الصندوق المقفل حيث كانت تخبئ أحمر الشفاه ، ولكنها صمدت في وجه رغبتها ، فالعمة بيتي بات تضطرب حقّاً إن هي نزلت إلى الطابق السفلي محمرة الشفتين ، موردة الوجه . وتناولت قارورة العطر واحتست جرعة كبيرة ، وبعد أن تمضمضت بها باعتناء بصقت في وعاء الماء القذر .

ونزلت السلم بسرعة واتجهت نحو الاثنين اللذين ما فتئا واقفين في القاعة ، إذ إن بيتي كانت قد امتعضت كثيراً جراء طلب سكارلت الجلوس من ريت . وكان ريت يرتدي ثوباً أسود لائقاً ، وكان قميصه الكتاني ذو الكشاكش منشى ، كما كان مظهره مستوفياً كل ما تتطلبه العادة من صديق قديم يقوم بزيارة مؤاساة لصديق ثاكل . والحقيقة أنه كان زياً مغالياً في الكمال ، بحيث كان يقارب زي مهزلة تمثيلية رغم أن بيتي بات لم تلاحظه ، وعندما بلغته سكارلت ، اعتذر بلباقة عن إزعاجه لها ، وأظهر أسفه لأنه لم يستطع حضور الجنازة نظراً لانهماكه في إنهاء أعماله قبل أن يغادر المدينة .

- «ما الذي يرغمه على القدوم؟» تساءلت سكارلت «إنه لا يعني كلمة مما يقول» .

- «إني أكره أن أتطفل عليك في هذا الوقت ، إلاّ أن لدي قضية للبحث لا يمكن تأخيرها تتعلق بعمل ، وهي قضية كنت أتدارسها والسيد كندي . . .» .

- «لم أكن أعرف أن بينك وبين السيد كندي علاقات أعمال» قالت العمة بيتي بات وهي ساخطة تقريباً لأن بعض نشاطات فرانك لم تكن معروفة لديها» .

ـ «لقد كان السيد كندي رجل مصالح واسعة» قال ريت بجدية «هل ندخل إلى الردهة؟» .

ـ «لا!» صاحت سكارلت وهي تنظر إلى الأبواب المغلقة . كانت لا تزال ترى التابوت في تلك الغرفة ، وكانت ترجو أن لا تضطر يوماً إلى الدخول إليها ثانية . وأدركت بيتي مقصدها ، مع أنها لم تبد مرتاحة أبداً .

ـ «استعملا المكتبة ، فلا بد . . . فلا بد لي من أن أصعد وأتم الرتق . يا لله ، لقد أهملته كثيراً هذا الأسبوع الأخير . إني أقول . . .» .

وصعدت السلم بنظرة تأنيب خلفية لم يلاحظها كلٌ من سكارلت وريت . ووقف هذا جانباً ليدع سكارلت تسير أمامه إلى المكتبة .

ـ «أي عمل كنت وفرانك مشتركين فيه؟» استوضحت فجأة .

فاقترب منها وهمس :

ـ «لا شيء أبداً . أردت فقط أن أبعد الآنسة بيتي من طريقنا» وصمت وهو ينحني فوقها «هذا ليس مجدياً يا سكارلت» .

ـ «ماذا؟» .

ـ «العطر» .

ـ «إني واثقة من أني لا أعرف ما الذي تعنيه» .

ـ «إني واثق من أنك تعرفينه ، فلقد شربت كثيراً جداً» .

ـ «حسناً ، وماذا لو شربت؟ هل هذا من شأنك؟» .

ـ «تحلي بروح المجاملة ، حتى وأنت في أعماق الحزن ، ولا تشربي وحدك يا سكارلت ، فالناس يكتشفون الأمر دائماً ، وعندئذ تنهار السمعة ، إضافة إلى أن الشرب على انفراد عادة سيئة . ما القضية يا حلوتي؟» .

وقادها إلى الكنبة المصنوعة من خشب الورد ، وجلست وهي صامتة .

ـ «هل يمكنني أن أغلق الباب؟» .

كانت سكارلت تعرف أنه لو قدر لمامي أن ترى الباب المغلق لفضحتها ولوعظت ودمدمت حول الموضوع عدة أيام . ولكن الذي كان أسوأ من ذلك هو أن لو كان يقدّر لمامي أن تسترق السمع إلى هذا الحديث عن الشرب ، خصوصاً على ضوء قارورة البراندي المفقودة . ثم أطرقت موافقة ، فضم ريت المصراعين الانزلاقيين معاً . وعندما عاد وجلس إلى جانبها وعيناه تتفرسان

بتيقظ في وجهها ، تقهقر كفن الموت أمام الحيوية المنبعثة منه ، وبدت الغرفة ممتعة ، أليفة ثانية ، وكذلك بدت المصابيح وردية دافئة .

ـ «ما القضية يا حلوتي؟» .

لم يكن بوسع أحد في الوجود أن يلفظ كلمة المودّة الحمقاء تلك بصورة تهكّمية كما كان ريت يلفظها ، حتى عندما كان يقولها مازحاً ، ولكن لم يكن يبدو الآن أنه كان يمزح . ورفعت سكارلت عينين معذبتين إلى وجهه ، ووجدت بعض العزاء في الغموض المبهم الذي رأته فيه . ولم تدر لماذا شعرت بذلك ، إذ كان ريت شخصاً عديم التأثر ، لا يمكن التكهن بحقيقة عواطفه . ربما كان ذلك لأنهما ، كما كان قد قال مراراً ، متشابهان كثيراً ، وكانت هي تعتقد أحياناً أن جميع الناس الذين سبق وعرفتهم كانوا غرباء عنها باستثناء ريت .

ـ «ألا تستطيعين أن تخبريني؟» وأخذ يدها بلطف مستغرب «أن الأمر يتعدى فقدانك لفرانك العجوز . هل أنت بحاجة إلى نقود؟» .

ـ «نقود؟ يا لله ، لا! آه ، يا ريت ، إني خائفة جداً» .

ـ «لا تكوني إوزة يا سكارلت ، فأنت لم تخافي أبداً في حياتك» .

ـ «آه يا ريت إني خائفة !» .

وتدفقت الكلمات من فمها أسرع مما استطاعت أن تلفظها . لقد كان بوسعها أن تخبره . . لقد كان بوسعها أن تخبر ريت بأي شيء ، إذ كان هو سيئاً جداً بحيث لن يقف منها موقف القاضي . ما أعجب أن تعرف امرءاً رديئاً حقيراً خائناً كذاباً في حين تعج الدنيا بالناس الذين لا يكذبون من أجل إنقاذ أرواحهم ، والذين يفضلون الموت جوعاً على أن يرتكبوا عملاً مُنكراً .

ـ «إني خائفة من أن أموت وأذهب إلى الجحيم» .

لو أنه ضحك عليها ، لماتت في الحال ، إلا أنه لم يضحك .

ـ «إنك بصحة طيبة . . . وقد لا يكون هناك جحيم في الآخرة» .

ـ «آه ، ولكن هناك يا ريت ! إنك تعرف أنه يوجد !» .

ـ «إني أعرف أنه يوجد ، ولكنه هنا في هذه الأرض بالذات ، وليس بعد الموت ، إذ لا يوجد شيء بعد الموت يا سكارلت . إنك تقاسين جحيمك الآن» .

ـ «آه يا ريت ، إن هذا كلام كافر !» .

ـ «ولكنه مؤاس بصورة جليّة . أخبريني ، لماذا ستذهبين إلى الجحيم؟» .

كان يستثيرها الآن . واستطاعت هي أن ترى الومضة في عينيه ولكنها لم تبال . كانت تحس بيديه دافئتين جداً ، مواسيتين جداً إن تعلقت بهما .

ـ «ريت ، كان ينبغي أن لا أتزوج فرانك . لقد كان عملي خطأ ، إذ كان هو عشيق سولين ، وكان يحبها هي لا أنا ، ولكني كذبت عليه وأخبرته أنها ستتزوج توني فونتين . آه ، كيف استطعت أن أفعل ذلك؟» .

ـ «آه ، إذاً ، تلك كانت الكيفية التي تم بها الأمر . لقد كنت أتساءل دائماً عن ذلك» .

ـ «وبعدئذ جعلته يائساً جداً ، جعلته يفعل جميع أنواع الأعمال التي لم يكن يحب فعلها كإرغام الناس على دفع ديونهم بينما لم يكن بوسعهم في الحقيقة دفعها . وقد تألم كثيراً عندما رحت أدير المعملين وابتنيت الحانة واستأجرت الأشقياء ، فلم يعد بوسعه أن يرفع رأسه من العار إلا بصعوبة . كما أني أنا التي قتلته يا ريت . أجل أنا التي قتلته ! لم أكن أعرف أنه كان منتمياً إلى الكلان ، ولم أحلم أبداً أنه كان يتمتع بذلك الحذق الواسع . ولكن كان ينبغي أن أعرف ، وهكذا قتلته فهل سيزيل محيط نبتون(*) العظيم هذا الدم من يدي؟» .

ـ «لا بأس ، استمري» .

ـ «أستمر ! هذا كل شيء ، ألا يكفي؟ لقد تزوجته ، لقد جعلته تعساً وقتلته ، آه ، يا إلهي ، إني لا أرى كيف استطعت فعل ذلك ! لقد كذبت عليه وتزوجته وكان كل شيء يبدو في غاية الصواب عندما أقدمت عليه ، ولكني أرى الآن كم كان كل شيء خاطئاً . ريت ، إن الأمر ليبدو وكأني أنا التي فعلت كل هذه الأشياء . لقد كنت خسيسة جداً معه . غير أني لست خسيسة في الحقيقة ، فأنا لم أنشأ على تلك الصفة ، ولقد كانت أمي . . .» وصمتت ، وبلعت ريقها . كانت قد تجنبت التفكير بأمها طيلة اليوم ، ولكن لم يعد بوسعها الآن أن تطرد طيفها .

ـ «إني لأتساءل مراراً ماذا كانت تشبه . ويبدو لي أنك تشبهين والدك» .

ـ «لقد كانت أمي . . . آه يا ريت ، للمرة الأولى ، أشعر بالسعادة لأنها متوفاة ، وذلك كي لا يمكنها رؤيتي ، فهي لم تنشئني لأكون خسيسة . لقد

(*) إلــه البحر عند الرومان ، هو بوسيدون اليونان .

كانت لطيفة جداً مع كل إنسان ، طيبة جداً ، لقد كانت تفضل أن أموت جوعاً على أن أرتكب هذا الشطط ، وكنت أرغب رغبة جامحة في أن أكون مثلها ، تماماً في جميع النواحي ، ولكني لست مثلها في أي ناحية . إني لم أفكر بذلك . . . لقد كان والدي . . لقد كنت أحبه ، ولكنه كان نزقاً جداً . ريت لقد حاولت بجد ، أحياناً ، أن أكون لطيفة مع الناس ، رقيقة مع فرانك ، ولكن الكابوس كان يعاودني عندئذ ويفزعني بشدة ، بحيث كنت أرغب في أن أنطلق وأنتزع المال من الناس ، سواء أكان مالي أم لم يكن» .

كانت الدموع تنهمر على وجهها دون أن تلتفت إليه ، وكانت تقبض على يده بقوة هائلة بحيث أن أظفارها غرزت في جلده .

ـ «أي كابوس؟» كان صوته هادئاً مطمئناً .

ـ «آه ، نسيت أنك لم تعلم به . على كل حال تماماً في الوقت ذاته الذي كنت أريد فيه أن أكون لطيفة مع الناس ، وأقنع نفسي بأن المال لم يكن كل شيء في هذه الدنيا ، كنت آوي إلى السرير فأحلم بأني عدت إلى تارا ، بعد وفاة والدتي مباشرة ، وفور مرور الشماليين ، وليس بوسعك أن تتصور يا ريت . . . إني أشعر بقشعريرة عندما أفكر بذلك ، إن بوسعي أن أرى كيف أن كل شيء كان محروقاً ساكناً جداً ، ولا طعام أبداً ، آه يا ريت وفي الحلم أشعر بالجوع ثانية» .

ـ «استمري» .

ـ «أشعر بالجوع ، أنا وجميع الآخرين ، والدي وشقيقتاي والزنوج يتضورون جوعاً ، ويرددون باستمرار (إننا جائعون) بينما يداي فارغتان تماماً ، الأمر الذي يؤلمني ، وبينما أنا فزعة جداً . وهكذا يظل عقلي يردد (إذا ما خرجت من هذه الأزمة فلن ، فلن أجوع ثانية) . ثم ينتقل بي الحلم إلى ضباب رمادي ، فأجري فيه ، أجري في الضباب ، أجري باندفاع هائل ، حتى يكاد قلبي يتفجر ، وشيء ما يطاردني ، وليس بوسعي أن أتنفس ، ولكني أظل أفكر أني إذا ما بلغت هنالك فسأنجو بنفسي . ولكني لا أعرف إلى أين أحاول الوصول . ثم أستيقظ وأشعر بالبرد والرعب والخوف الشديد من أن أجوع ثانية . وعندما أستيقظ من ذلك الحلم ، كان يبدو لي وكأنه لا يوجد مال كاف في الدنيا ليحفظني من أن أجوع ثانية . ثم إن فرانك كان ملق الناس ، خاملاً بليداً ، بحيث كان يدفعني

إلى أن أفقد طبعي ، لم يكن يفهمني كما أظن ، ولم يكن بوسعي أن أجعله يفهمني . وظللت أفكر أني سأتودد إليه يوماً ، عندما يصير لدينا المال ، ولا أعود خائفة من أن أجوع ، وها هو قد مات الآن ، وفات الوقت . آه ، لقد بدا الأمر في غاية الصواب عندما أقدمت عليه ، ولكنه كان خطأ كبير ، وإن أنا اضطررت إلى أن أفعله ثانية فسأقوم به بصورة مختلفة تماماً» .

ـ «اصمتي» ، قال رافعاً قبضتها العنيفة ، ساحباً منديلاً نظيفاً من جيبه «امسحي وجهك . لا يوجد معنى لتمزيق نفسك إرباً إرباً على هذا الحال» .

كان ريت يبدو قديراً ، هادئاً جداً ، حتى إن أخف افترارة من فمه كانت مواسية ، وكأنها كانت تثبت أن عذابها واضطرابها كانا لا مسوغ لهما .

ـ «أتشعرين بتحسن الآن؟ إذاً دعينا نصل إلى خلاصة هذا الموضوع . أنت تقولين إنك إذا اضطررت إلى فعلها ثانية فستفعلينها بصورة مغايرة ، ولكن هل ستفعلينها حقاً؟ فكري الآن ، هل ستفعلينها؟» .

ـ «على كل حال . .» .

ـ «لا ، ستفعلين الفعلة ذاتها مرة ثانية . هل أُتيح لك في مجال اختيار آخر؟ إذاً علام أنت متأسفة؟» .

ـ «لأني كنت خسيسة جداً ، وقد غدا ميتاً الآن» .

ـ «ولو لم يكن ميتاً ، فإنك ستظلين خسيسة . وحسب فهمي للموضوع ، فإنك لست في الحقيقة متأسفة لتزوجك بفرانك واستبدادك به وتسبيبك موته عن غير قصد . إنك حزينة فقط لأنك خائفة من أن تذهبي إلى الجحيم ، هل هذا صحيح؟» .

ـ «الواقع . . إن ذلك يبدو لي أمراً مضطرباً جداً» .

ـ «إن فلسفتك الأخلاقية مضطربة كذلك ، وإلى درجة كبيرة . إنك تماماً في مقام لص ، لص قبض عليه متلبّساً بالجريمة ، وليس هو نادماً لأنه سرق ، ولكنه نادم جداً جداً لأنه ذاهب إلى السجن» .

ـ «لص ! !» .

ـ «ها ، ليس بالمعنىٰ الحرفي ! بعبارة أخرى ، لو أنك لا تحملين هذه الفكرة الحمقاء ، فكرة أنك ستتردّين في نار الجحيم الأبدية ، لاعتقدت أنك تخلصت من فرانك» .

ـ «ريت !» .

ـ «أصغي إليّ ! إنك تعترفين ، كما أن من الممكن أن تعترفي بالحقيقة ككذبة براقة ـ هل ـ أي ـ أرقك ضميرك كثيراً عندما عرضت أن ـ هل سنقول ، تتنازلي عن تلك الجوهرة التي هي أعز من الحياة ، وذلك مقابل ثلاثمائة دولار؟» .

كان البراندي يفعل فعله في رأسها الآن ، وأحست بالطيش واللامبالاة . ما جدوى الكذب عليه ، فهو يبدو أنه يقرأ أفكارها دائماً .

ـ «في الحقيقة ، لم أكن أفكر بالله كثيراً في ذلك الحين ـ أو بالجحيم . وعندما كنت أفكر في الواقع ، كنت أعتمد على أن الله يعرف الحقائق» .

ـ «ولكنك لم تفكري بذلك عندما تزوجت فرانك؟» .

ـ «ريت ، كيف يسعك أن تتحدث هكذا ، بينما أنت تعرف أنك لا تؤمن بوجود الله؟» .

ـ «ولكنك تؤمنين بوجود إلــه للغضب ، وذلك هو المهم في الوقت الحاضر ، فلماذا لا ينبغي للإلــه أن يفهم؟ هل أنت حزينة لأنك ما زلت تملكين تارا ولأنه لا يوجد كاربت بغرز يعيشون فيها؟ هل أنت حزينة لأنك لست جائعة رثة الثياب؟» .

ـ «لا» .

ـ «حسناً ، هل أتيح لك مجال للاختيار سوى مجال الزواج بفرانك؟» .

ـ «لا» .

ـ «وهو لم يكن مرغماً على الزواج بك ، أليس كذلك؟ إن الرجال عملاء أحرار . كما أنه لم يكن مرغماً على أن يدعك تستبدين به في إتيان أمور لم يكن يريدها ، أليس كذلك؟» .

ـ «الواقع . .» .

ـ «سكارلت ، لماذا تقلقين بسبب هذا الموضوع إذاً؟ ولو أنك اضطررت إلى فعله ثانية لانسقت إلى الكذب وانساق هو إلى الزواج بك ، وستستمرين في تعريض نفسك للمخاطر ، وسيضطر هو إلى الثأر لك . لو أنه تزوج شقيقتك سولين لكان من الممكن أن لا تسبب موته ، ولكن من المحتمل أن تجعله أتعس بمرتين مما جعلته أنت ، ولا يمكن أن يقع الأمر خلاف ذلك» .

ـ «ولكن ، لقد كان بوسعي أن أكون ألطف معه» .

ـ «لقد كان بوسعك لو كنت إنساناً آخر ، ولكنك خلقت لتستبدي بأي إنسان ، أي إنسان يدعك تستبدين به ، لقد خلق الأقوياء ليستبدوا والضعفاء ليذعنوا . إنها جميعها غلطة فرانك لأنه لم يجلدك بسوط حوذي . . إني دهش منك يا سكارلت لأنك أبدعت ضميراً في هذا الوقت المتأخر من حياتك . إن الانتهازيين أمثالك لا ينبغي أن يكون لهم ضمائر» .

ـ «ما الانتهازي . . ماذا دعوته؟» .

ـ «الشخص الذي يستفيد من الفرص» .

ـ «وهل ذلك عيب؟» .

ـ «لقد اعتبر عاراً دائماً ، خصوصاً من قبل أولئك الذين سنحت لهم الفرص نفسها فلم يستفيدوا منها» .

ـ آه يا ريت ، إنك تمزح بينما كنت أعتقد أنك ستتصرف بلطف» .

ـ «إني أتصرف بلطف . . في رأيي . يا عزيزتي سكارلت ، إنك ثملة ، تلك هي مشكلتك» .

ـ «أتجرؤ !» .

ـ «أجل ، أجرؤ . إنك على وشك أن تكوني ما يدعونه «المخمور المنقبض بعد نشوة» ولذلك سأغير الموضوع وأنعشك بأخبار عن نبإ يفرحك . وفي الحقيقة هذا هو سبب مجيئي هنا هذا المساء لأتحفك بالنبإ قبل سفري» .

ـ «أين ستسافر؟» .

ـ «إلى إنكلترا ، وقد أغيب أشهراً . إنسي ضميرك يا سكارلت ، فلست عازماً على أن أبحث في هناء روحك أكثر مما فعلت . ألا تريدين سماع النبإ؟» .

ـ «ولكن . .» تمتمت بوهن ثم صمتت . وكان طيف فرانك الشاحب يتقهقر الآن في الظلال بين تأثير البراندي ، الذي كان يزيل أطواق التأنيب الصارمة ، وبين تأثير كلمات ريت الساخرة ولكن المواسية ، ربما كان ريت على صواب . ربما فهم الله الحقيقة : وهكذا انتعشت إلى درجة كبيرة وطردت الفكرة من أعماق رأسها وقررت «سأفكر فيها غداً» .

ـ «ما هو نبأك؟» قالت بجهد ، ومخطت في منديله ، ثم دفعت شعرها إلى

الخلف وكان قد بدأ يتشعث .

- «إن نبأي ما يلي» أجاب وابتسم لها : «إني لا أزال أرغب فيك أكثر من رغبتي في أي امرأة أخرى رأيتها ، والآن وقد توفي فرانك ، أعتقد أن هذه الحقيقة ستهمك» .

- «إني . . إنك أحط إنسان في الدنيا . تأتي هنا بقذارتك ، في هذا الوقت من بين جميع الأوقات !! كان ينبغي أن أعرف أنك لن تتغير . وفرانك لـمّا يبرد جسده ! لو كان لديك قليل من حشمة . . هل تغادر هذا . .» .

- «هدئي روعك وإلاّ فستكون الآنسة بيتي بات هنا بعد دقيقة» قال دون أن ينهض ، ولكنه مد يديه وأمسك بكلا قبضتيها «أخشى أن تكون أخطأت قصدي» .

- «أخطأت قصدك؟ إني لا أخطئ أي شيء» وقاومت قبضته «اتركني واخرج من هنا . إني لم أسمع أبداً بذوق خسيس كهذا ، إني . .» .

- «اصمتي» قال «إني أطلب منك أن تتزوجيني . هل تقنعين إن أنا جثوت أمامك؟» .

شهقت «آه» وهي محتبسة النفس ، ثم جلست على الكنبة بصعوبة .

راحت تحدق فيه فاغرة الفم وهي تتساءل عما إذا كان البراندي يخدع عقلها ، وتتذكر لاشعورياً عبارته العتيدة ، «عزيزتي ، لست رجل زواج» .

- «كنت دائماً مصمماً على نيلك يا سكارلت ، منذ ذلك اليوم الأول الذي رأيتك فيه في تولف أوكس ، عندما قذفت بذلك الأصيص وشتمت وبرهنت أنك لم تكوني سيدة . كنت دائماً مصمماً على نيلك بأية وسيلة ، ولكن لما كنت وفرانك قد جمعتما قليلاً من المال ، فإني أعرف أنك لن تنساقي إلي ثانية بأية عروض مثيرة عن القروض والضمانات المقابلة . ولذلك أرى أن علي أن أتزوجك» .

- «ريت بتلر ، هل هذه إحدى دعاباتك الخسيسة؟» .

- «أنا أكشف لك نفسي وأنت مرتابة ! إن هذا تصريح مخلص ، وإني أعترف أن مجيئي في هذا الوقت ليس من الذوق السليم في شيء ، إلاّ أن لدي عذراً وجيهاً على نقص تربيتي ، فأنا مسافر غداً لمدة طويلة ، وأخشى إن انتظرت إلى أن أعود أن تتزوجي برجل آخر يملك قليلاً من المال ، ولذلك

فكرت : لماذا لا تتزوجيني ونقودي؟ فالحقيقة يا سكارلت إني لا أستطيع أن أبقى طيلة حياتي أنتظر التقاطك بين الأزواج» .

لقد كان يعني ما يقول . لم يكن هناك شك في ذلك . وعندما استوعبت سكارلت هذه المعرفة ، كان فمها جافاً ، فبلعت ريقها ونظرت في عينيه ، وهي تحاول أن تجد دليلاً .

لقد كان فعلاً يسألها أن تتزوجه ، لقد كان يقترف ما لا يمكن تصديقه . وكانت قد اختطت مرة كيفية تعذيبه إذا هو اقترح الزواج بها ، وكانت قد فكرت مرة أنه إذا ما نطق بهذه الكلمات فستذله وتجعله يشعر بسلطانها ، وتتمتع بسرور حاقد وهي تفعل ذلك ، وها هو الآن قد نطق ، ولكن خططها الماضية لم تخطر على بالها ، لأن ريت لم يكن واقعاً تحت سلطانها أكثر مما كان فيما مضى . والحقيقة أنه كان يمسك بزمام مبادرة الموضوع تماماً ، بحيث أنها كانت مضطربة كفتاة في أول يوم من خطوبة لها ، ولم يكن بوسعها الآن إلاّ أن تحمر خجلاً ، وتتلعثم .

ـ «إني . . إني . . لن أتزوج ثانية» .

ـ «ها ، أجل ، ستتزوجين ، فلقد خلقت لتتزوجي ، فلماذا لا تتزوجيني أنا؟» .

ـ «ولكن يا ريت ، إني . . إني لا أحبك» .

ـ «ينبغي أن لا يكون ذلك سبباً للتراجع ، كما أني لا أذكر أن الحب كان شعوراً بارزاً في مغامرتيك الأخيرتين» .

ـ «ها ، كيف يسعك معرفة ذلك؟ إنك تعرف أني كنت مغرمة بفرانك» .

فلم يقل شيئاً .

ـ «أجل ، لقد كنت أحبه ! لقد كنت . .» .

ـ «حسناً ، لن نبحث هذا الأمر . هل لك أن تفكري باقتراحي ملياً في أثناء غيابي؟» .

ـ «إني لا أستحسن إرجاء الأمور يا ريت ، وأفضل أن أجيبك الآن . . . أريد أن أذهب إلى البيت وأظل هناك مدة طويلة . وإني . . وإني لا أريد الزواج ثانية» .

ـ «هراء ، لماذا؟» .

ـ «ها ، على كل حال ، ما لك وللسبب . إني فقط لا أميل إلى الحياة

الزوجية ثانية» .

ـ «ولكن يا طفلتي المسكينة ، أنت في الحقيقة لم تنعمي بالحياة الزوجية أبداً ، فكيف يسعك معرفتها؟ إني أقر بأنك لم تسعدي . . مرة للنكاية ومرة للمال ، هل فكرت يوماً بالزواج من أجل متعة الزواج فقط؟» .

ـ «متعة؟ لا تتحدث كأحمق ، فليس هناك متعة في الحياة الزوجية» .

ـ «لا؟ ولِمَ لا؟» .

كان قد عاودها شيء من الهدوء ، الهدوء المصحوب بكل الخشونة الطبيعية التي أظهرها البراندي إلى السطح .

ـ «إنها متعة للرجال . . إن الله وحده يعرف السبب . أما أنا فلم أستطع أبداً فهمه . غير أن الذي تناله المرأة من الزواج هو شيء تقتات به ، وعمل كثير ، واضطرار على تحمل سخافة الرجل . . وولادة طفل كل سنة» .

فقهقه ريت بصوت مرتفع جداً ، بحيث أن الصوت رنّ في السكون وسمعت سكارلت باب المطبخ يفتح .

ـ «اصمت ! إن لمامي أذنين كأذني الوشق ، وليس من الحشمة أن تضحك في هذا الوقت المبكر بعد ـ كف عن الضحك ، أنت تعرف أن ما أقوله حقيقي . متعة ! هراء !» .

ـ «لقد قلت إنك لم تسعدي ، وإن ما قلته الآن يثبت ذلك . لقد تزوجت بشاب ، ثم برجل عجوز ، وإضافة إلى ما ذكرت ، إني أراهن أن والدتك أخبرتك أن على النساء أن يتحملن «هذه الأمور» مقابل متع الأمومة المكافئة . والواقع أن ذلك كله خطأ . لماذا لا تجربي الزواج برجل فتي رائع تميزه سمعة شائنة وطريقة خاصة مع النساء؟ سيكون الزواج حينئذ متعة» .

ـ «إنك فظ مغرور ، وأظن أن هذا الحديث قد اشتط إلى ما فيه الكفاية . إنه مبتذل تماماً» .

ـ «وممتع تماماً أيضاً . أليس كذلك؟ إني أراهن أنك لم تبحثي في العلاقة الزوجية مع رجل قبل الآن ، حتى ولا مع شارلي أو فرانك» .

فقطّبت في وجهه . لقد كان ريت يعرف كثيراً جداً . وتساءلت أين كان قد تعلم كل هذا الذي يعرفه عن النساء ، الأمر الذي كان مبتذلاً .

ـ «لا تتجهمي . حددي الوقت يا سكارلت ، وأنا لن ألح على زواج فوري

وذلك حفاظاً على سمعتك . سننتظر الفترة المقررة . وبالمناسبة ، كم تبلغ هذه الفترة المقررة؟» .

ـ «أنا لم أقل إني سأتزوجك ، وليس من اللائق حتى أن تتحدث بأمور كهذه في وقت كهذا» .

ـ «لقد أخبرتك عن سبب تحدث بها . إني مسافر غداً . وإني محب غيور جداً ، بحيث لم يعد بوسعي أن أكبح عاطفتي . ولكن قد أكون متسرعاً جداً في طلب يدك» .

وبحركة مفاجئة ، أجفلتها ، انساب عن الكنبة ، جاثياً على ركبتيه ، وبعد أن وضع يده على قلبه بلطف ، شرع يتلو :

ـ «سامحيني لأني أفزعتك بعنف عواطفي يا عزيزتي سكارلت ، أعني يا عزيزتي السيدة كندي . لا يمكن أن يكون قد غاب عن بالك أنه منذ وقت مضى نضجت الصداقة التي أكنها لك في قلبي وتحولت إلى شعور أعمق ، شعور أجمل وأطهر وأقدس ، هل أجرؤ على تسميته؟ آه ! إنه الحب ، هو الذي يجعلني جريئاً» .

ـ «انهض» توسلت . «إن تبدو غبياً جداً ، ثم هب أن مامي دخلت الغرفة ورأتك؟» .

ـ «سيصدمها الذهول وعدم التصديق جراء دلائل نبلي الأولى» قال ريت «أنت لست طفلة ، لست تلميذة مدرسة ، كي ترفضي طلبي متذرعة بحجج واهية تتعلق بالحشمة وغيرها . قولي إنك ستتزوجينني عندما أعود ، وإلاّ ، فليشهد الله إني لن أذهب ، بل سأظل هنا أطوف حول البيت وأعزف القيثارة تحت نافذتك كل ليلة ، وأغني بأعلى صوتي ، وأعرضك للشبهات ، وهكذا ستضطرين للزواج بي كي تنقذي سمعتك» .

ـ «ريت ، كن عاقلاً ، لا أريد الزواج بأي إنسان» .

ـ «لا؟ إنك لا تقولين لي السبب الحقيقي ، فلا يمكن أن يكون ذلك هو خفر العذارى ، فما هو إذاً؟» .

وفجأة فكرت بآشلي ، ورأته بهي الطلعة وكأنه يقف بجانبها . لقد كان آشلي السبب الحقيقي لعدم رغبتها في الزواج ثانية ، مع أنها لم يكن لديها مانع من الاقتران بريت ، بل إنها كانت أحياناً مغرمة به بإخلاص . لقد كانت تخص

آشلي ، الآن وإلى الأبد ، ولم تكن يوماً تخص فرانك أو تشارلز ، ولم يكن بوسعها في الحقيقة أن تخص ريت . كل جزء منها ، وتقريباً جميع الأمور التي كانت قد أقدمت عليها ، وجاهدت في سبيلها ، وظفرت بها ، كانت قد فعلتها لأنها كانت تحبه . آشلي وتارا . كانت تخصهما . الابتسامات ، الضحك ، القبل التي لتشارلز وفرانك كانت تخص آشلي ، مع أنه لم يكن قد ادعاها لنفسه ، ولم يكن ليدعيها . وفي مكان عميق من كيانها كانت تكمن الرغبة في أن تحتفظ بنفسها له ، مع أنها كانت تعرف أنه لن يتزوجها .

ولم تكن سكارلت تعرف أن وجهها كان قد تغير ، وأن أحلام النهار كانت قد أضفت عليه نعومة لم يكن ريت قد رآها قبلاً . ونظر إلى العينين الخضراوين المائلتين ، وكانتا متسعتين مبهمتين ، كما نظر إلى ثنية شفتيها الغضة ، ولهنيهة ، احتبس نفسه ثم تدلى فمه بعنف عند أحد شدقيه ، وشتمها بجرح عميق .

ـ «سكارلت أوهارا ، إنك غبية !» .

وقبل أن تستطيع استرجاع عقلها من مواطنه السحيقة ، كانت ذراعاه قد أحاطتا بها بثقة وقوة ، كما فعلتا وهما في الطريق المعتم إلى تارا ، منذ مدة طويلة ، وثانية ، أحست بدفق من العجز ، باستسلام غامر ، بموجة الدفء الزاخرة التي تركتها مسترخية . وتاه وجه آشلي ويلكس الهادئ ثم غاض في اللاشيء ، وأضجع ريت رأسها خلفاً على ذراعه ، وقبّلها أولاً بنعومة ، ثم بتدرج متسارع في العنف ، جعلها تتعلق به كالشيء الصلب الوحيد في عالم دائخ مترنح ، كان فمه الملحاح يفارق شفتيها المختلجتين باعثاً رعشات عنيفة في أعصابها ، مثيراً فيها أحاسيس لم تكن تعرف أبداً أن بوسعها الإحساس بها . وقبل أن يلفها دوار غائم ، عرفت أنها كانت تبادله القبلات .

ـ «كف ، أرجو ، لقد أُغمي علي !» تمتمت وهي تحاول إبعاد رأسها عنه بوهن ، ولكنه ضغط رأسها على كتفه ، ولمحت هي وجهه والدوار ما زال ينتابها . كانت عيناه متسعتين تتألقان بصورة غريبة ، وأفزعها ارتجاف ذراعيه .

ـ «أريد أن أجعلك يغمى عليك . سأجعلك يغمى عليك . لقد كان من الواجب أن تنعمي بذلك منذ سنتين ، ولكن لا أحد من الأغبياء الذين تعرفينهم قبّلك على هذه الصورة أليس كذلك؟ تشارلز الغالي أو فرانك أو آشلي الأحمق» .

ـ «أرجوك» .

ـ «قلت آشليك الأحمق ، جميع السادة . . ماذا يعرفون عن النساء ، ماذا عرفوا عنك . . أنا الذي يعرفك» .

وأطبق فمه على فمها ثانية ، واستسلمت هي دون مقاومة ، فقد كانت ضعيفة جداً بحيث لم يكن بوسعها أن تدير رأسها ، بل لم تكن لها حتى الرغبة في أن تديره . كان قلبها يهزها بوجيبه ، وكان الخوف من قوته وضعفها الواهن يجتاحانها . . . ماذا كان ينتظر أن يفعل؟ سيغمى عليها إن لم يتوقف . حبذا لو توقف . . حبذا لو أنه لا يتوقف أبداً .

ـ «قولي نعم !» وكانت شفتاه مطبقتين على شفتيها ، وكانت عيناه قريبتين جداً بحيث كانتا تبدوان واسعتين ، تملآن الدنيا ، «قولي نعم ، ليلعنك الله أو ـ» .

فهمست «نعم» حتى قبل أن تفكر . وبدا كأنه كان يرغب في الكلمة وكأنها كانت قد نطقتها دون إرادتها . ولكن حالما نطقتها تماماً ، غمر روحها هدوء مفاجىء ، وبدأ رأسها يكف عن الدوران ، وحتى دوار البراندي خف كذلك . لقد وعدته بالزواج ، بينما لم يكن لديها أدنى قصد في الذي وعدت به ، وبالكاد ، عرفت كيف تم كل هذا الأمر . ولكنها لم تبك نادمة ، وبدا قولها نعم طبيعياً جداً ، تقريباً كأن يداً أقوى من يدها تسلّمت أمورها بتدخل مقدس ، وقررت لها حل مشاكلها .

وعندما تكلمت ، تنفس ريت بسرعة ، وانحنى كأنه يريد تقبيلها ثانية ، فأغمضت هي عينيها ، وتداعى رأسها إلى الوراء ، ولكنه سرعان ما تراجع إلى الخلف ، فغاب أملها بحيث كاد يغمى عليها ـ لقد شعرت باستغراب عظيم لأنها قبلت على هذه الصورة ، ومع ذلك فقد كان هناك شيء مثير يتعلق بهذا الأمر .

وجلس ريت ساكناً جداً لبرهة قصيرة ، وهو يحمل رأسها على كتفه ، ثم انقطع ارتجاف ذراعيه وكأنه بذل جهداً في سبيل ذلك ، ثم ابتعد عنها قليلاً ، وراح ينظر إليها ، وفتحت هي عينيها ، ورأت أن الوهج المرعب قد غادر وجهه . ولكن ولسبب ما ، لم تستطع أن تقابل نظراته ، وغضت بصرها في دفق من الاضطراب المخدر .

وعندما تكلم كان صوته هادئاً جداً .

ـ «هل عنيتِها؟ ألا تريدين سحبها؟» .

ـ «لا» .

ـ «ليس فقط لأني ـ ما هي العبارة؟ ـ طوحت بك ، بـ ـ أي ـ بعاطفتي الجائشة؟» .

فلم تستطع الجواب لأنها لم تكن تعرف ما تقوله ، وكذلك لم تستطع مواجهة عينيه . أما هو فقد مد يده تحت ذقنها ورفع وجهها :

ـ لقد أخبرتك مرة أن بوسعي احتمال كل شيء منك إلاّ الكذب ، وإني أريد الصدق الآن . لماذا قلت نعم؟» .

وما زالت الكلمات لا تخرج ، ولكن بعض الاتزان عاودها ، فأبقت نظرها متجهاً إلى أسفل ، متظاهرة بالحياء ، وزمت شفتيها في بسمة صغيرة .

ـ «انظري إلي ، هل هي نقودي؟» .

ـ «كيف يا ريت ! أي سؤال هذا !» .

ـ «ارفعي بصرك ، ولا تحاولي أن تتملقيني ، فأنا لست تشارلز أو فرانك ، أو أياً من شبان الولاية ، لأخدع بجفنيك الرفافين . هل هي نقودي؟» .

ـ «الواقع ـ أجل إلى حد ما» .

ـ «إلى حد ما؟» .

ولم يبد أنه انزعج ، وإنما تنفس نفساً سريعاً . وبجهد ، غيّب من عينيه الشوق الذي سببته كلماتها ، الشوق الذي تستطيع رؤيته بسبب اضطرابها الشديد .

ـ «الواقع» تلعثمت حائرة «إن المال يعين كما تعرف يا ريت ، والله يعلم أن فرانك لم يخلف كثيراً . ولكن اسمع ـ الواقع يا ريت أننا نجاري بعضنا كما تعرف ، وأنك الرجل الوحيد الذي صارحته ، والذي يستطيع تحمل الحقيقة من امرأة . وسيكون من الجميل أن أنعم بزوج لا يعتقد أني حمقاء غبية ، ويتوقع أن أخبره بالأكاذيب ـ و ـ الواقع ، إني مغرمة بك» .

ـ «مغرمة بي؟» .

ـ «على كل حال» قالت بَرِمَة «إذا أنا قلت إني مجنونة بحبّك ، فسأكون كذابة ، والأنكى أنك ستعرف ذلَك» .

ـ «إني أفكر أحياناً أنك تبالغين في الصدق كثيراً ، يا مدللتي ، ألا تعتقدين

أنه حتى لو كانت كذبة فإن من المناسب لك أن تقولي : «إني أحبك يا ريت» حتى لو لم تكوني تعنينها؟» .

ماذا كان ينوي ، تساءلت وقد زاد اضطرابها . وكان هو يبدو مريباً لهوفاً متأملاً ساخراً . وسحب يديه من يديها ودسهما في أعماق جيبي سرواله ، حيث رأته يجمع راحتيه .

ـ «سأقول الحقيقة ولو كان ذلك سيكلفني زوجاً» فكرت باكتئاب ودمها فاتر ، شأنها دائماً عندما يستفزها .

ـ «ريت ، ستكون كذبة ، ولماذا نحن نتطرق إلى كل تلك السخافات؟ إني مغرمة بك كما قلت ، وإنك تعرف كيفية ذلك ، كما أنك أخبرتني مرة أنك لا تحبني ، ولكننا نشترك بصفات كثيرة ، كلانا وغدان ، وهكذا كان الأسلوب الذي . . .» .

ـ «يا إلـــهي !» همس بسرعة «أن أقع في الفخ الذي نصبته أنا !» .

ـ «ماذا قلت؟» .

ـ«لا شيء» ونظر إليها وضحك . ولكنها لم تكن ضحكة سارة «حددي اليوم يا عزيزتي» وضحك ثانية ، وانحنى وقبّل يديها . وساورها الفرج وهي ترى انجلاء الحالة التي كان فيها وعودة روحه المرحة ظاهرياً ، الأمر الذي جعلها تبتسم بدورها .

وراح يعبث بيدها ويبتسم لها .

ـ «هل اتفق لك مرة وأنت تقرأين القصص أن اطلعت على القصص القديم المعروف الذي تقع فيه المرأة بحب زوجها بعد أن تكون زاهدة فيه؟» .

ـ «إنك تعرف أني لا أقرأ القصص؟» قالت ، ثم أردفت كلامها وهي تحاول تقليد موقفه المازح «هذا بالإضافة إلى أنك قلت فيما مضى إن أسوأ الأوضاع بالنسبة إلى الأزواج والزوجات هو أن يحبوا بعضهم بعضاً» .

ـ «وفيما مضى قلت أيضاً لعنة الله على أشياء كثيرة» رد إهانتها فجأة ثم نهض واقفاً .

ـ «لا تشتم» .

ـ «عليك أن تتعودي على الشتم وتتعلميه أيضاً ، عليك أن تتعودي على كل صفة سيئة فيّ ، لأن ذلك سيكون جزءاً من ثمن كونك . . . مغرمة بي ، ومن

وضع مخالبك الظريفة على نقودي . لا يا عزيزتي ، أنا لا أحبك أكثر مما تحبينني ، ولو كنت أحبك لكنت الشخص الأخير الذي أخبره بذلك . ليكن الله في عون الرجل الذي يحبك حقيقة ، لأنك ستحطمين قلبه يا قطتي الصغيرة المدمرة القاسية ، العزيزة علي ، التي لا تبالي والتي تثق بنفسها كل الثقة بحيث لا تكلف نفسها مؤونة إخفاء مخالبها» .

وجذبها لتقف على قدميها ، ثم قبّلها ثانية ، إلاّ أن شفتيه هذه المرة كانتا تختلفان عن السابق ، إذ بدا أنه لم يكن يحفل إن هو آلمها . . بل بدا أنه كان يرغب في إيلامها وإهانتها ، وزلقت شفتاه إلى عنقها ، وأخيراً ضغطهما على قماش التفتا فوق ثدييها ، ضغطهما بشدة ، ولبرهة طويلة ، بحيث أن حرارة نفسه المشتعلة بلغت جسدها ، وكافحت يداها لتبعده في حشمة منتهكة .

ـ «ينبغي أن لا تفعل هذا ! كيف تجرؤ !» .

ـ «إن قلبك يخفق كقلب أرنب» قال ساخراً «إني أعتقد أن خفقانه أسرع من أن يكون ناجماً عن غرام بي ، هذا إذا كنت قد خدعت . هدئي روعك . إنك تتصنعين هذه المظاهر العذرية وحسب . أخبريني ماذا أجلب لك من إنكلترا ، خاتماً؟ أي نوع تفضلين؟» .

فترددت هنيهة بين الاهتمام بكلماته الأخيرة وبين رغبة أنثوية لتمديد المشهد بسخط وغضب .

ـ «ها ، خاتم ماس . . . اشتر واحداً كبيراً جداً يا ريت» .

ـ «وهكذا تستطيعين أن تتباهي به أمام صديقاتك اللواتي أخنى عليهن الفقر ، وتقولين (انظري ماذا نلت !) حسناً ، ستنالين خاتماً كبيراً ، خاتماً كبيراً جداً بحيث إن صديقاتك اللواتي هن أقل منك حظاً سيعزين أنفسهن بأن يهمسن أن من المبتذل حقاً لبس خاتم ذي حجارة كبيرة كهذه» .

وانطلق فجأة عبر الغرفة ، وتبعته هي ذاهلة إلى الباب الموصد؟

ـ «ما الأمر؟ إلى أين أنت ذاهب؟» .

ـ «إلى شقتي لأتمَّ حزم أمتعتي» .

ـ «ها ، ولكن . . .» .

ـ «ولكن ماذا؟» .

ـ «لا شيء ، أرجو أن تنعم برحلة ممتعة» .

ـ «أشكرك» .

وفتح الباب ، ومشى في القاعة ، وهي تتبع خطواته في حيرة ، وفي خيبة أمل خفيفة ، كأنها عانت نكسة غير متوقعة . وارتدى هو سترته ، وتناول قفازيه وقبعته .

ـ «سأكتب لك . دعيني أعرف إن غيّرت رأيك» .

ـ «ألن . . .» .

ـ «ماذا؟» وبدا أنه كان ينتظر انصرافه بنفاد صبر .

ـ «ألن تقبّلني قبلة الوداع؟» همست وهي حريصة من آذان البيت .

ـ «ألا تعتقدين بأنك نعمت بتقبيل كاف لأمسية واحدة؟» أجاب وافتر ثغره لها «لئن يفكر المرء بامرأة فتية محتشمة ، رفيعة التربية . . . على كل حال ، لقد أخبرتك أن الأمر سيكون ممتعاً ، أليس كذلك؟» .

ـ «آه ، إنك لا تطاق !» صاحت ساخطة غير مبالية إن سمعتها مامي «وإني لا أحفل إن لم تعد أبداً» .

واستدارت وهرعت نحو الدرج ، متوقعة أن تشعر بيده الدافئة على ذراعها ، غير أنه لم يزد على أن فتح الباب الأمامي ، فانساب تيار بارد إلى الداخل .

ـ «ولكني سأعود» قال ، وخرج ، وقد تركها على الدرجة السفلية تنظر إلى الباب الموصد .

*

في الحقيقة كان الخاتم الذي جلبه ريت من إنكلترا كبيراً جداً ، كبيراً بحيث أنه غمَّ سكارلت فيما يتعلق بلبسه ، لقد كانت تحب الجواهر الثمينة النفيسة ، ولكنها كانت تشعر شعوراً قلقاً بأن الجميع يقولون ، وهم على حق ، إن هذا الخاتم كان مبتذلاً . كان حجره المركزي ماسة تزن أربعة قراريط ، ويحيط بها مجموعة من الزمرد ، وكان يصل إلى عقدة أصبعها ، ويضفي على يدها مظهر اليد المتدلية المثقلة ، وساور الشك سكارلت في أن ريت قد عانى متاعب عظيمة من أجل صنعه ، وأنه ، بدافع الخسة فقط ، أمر بأن يُصاغ موافقاً للمباهاة بقدر الإمكان . ولم تخبر سكارلت أحداً عن غاياتها ، حتى ولا عائلتها ، إلى أن عاد ريت إلى أتلانتا وأضحى الخاتم في أصبعها . وعندما أعلنت خطوبتها ، انفجرت عاصفة من الأحاديث الساخطة ، وكان ريت وسكارلت منذ حادث الكلان أكثر

سكان المدينة مقتاً، باستثناء الشماليين والكاربت بغرز. وكان الجميع قد نفروا من سكارلت منذ ذلك اليوم الذي هجرت فيه ثياب الحداد على شارلي. وكان نفورهم قد ازداد جراء سلوكها غير النسوي في موضوع المعملين، ولقلة حيائها في إظهار نفسها وهي حامل، ثم لأمور كثيرة أخرى. ولكن عندما سببت موت فرانك وتومي وعرضت أرواح دزينة من الرجال الآخرين للخطر، ازدادت كراهيتهم لها وتحولت إلى إدانة عامة.

أما بالنسبة إلى ريت، فقد كان يبتهج بكراهية المدينة له، منذ مضارباته خلال الحرب، كما أنه لم يحبب أخوانه المواطنين به بسبب تحالفه مع الجمهوريين منذ ذلك الوقت. غير أن مما هو غريب حقاً أن إنقاذه لأرواح بعض أبرز رجال أتلانتا كان ما أثار ضده أشد كراهية سيدات أتلانتا.

ولم يكن سبب ذلك هو أنهن ندمن على أن رجالهن ما زالوا أحياء، بل إنهن استنكرن أن يكن مدينات بأرواح رجالهن إلى رجل مثل ريت، وإلى خدعة مزعجة كتلك. لقد بقين طيلة أشهر يتميّزن غيظاً جراء ضحك الشماليين وازدرائهم. وكانت السيدات يشعرن ويقلن إنه إذا كان ريت يضمر خيراً في قلبه للكلان حقاً، لدبّر الأمر بطريقة أكثر لباقة، ويقلن كذلك إنه جر بيل وتلنغ للقضية عمداً ليضع صفوة المدينة في مركز مشين. ولذلك فهو لم يكن يستحق الشكر على إنقاذ الرجال، أو العفو عن جرائمه السالفة.

وإذ كان هؤلاء النسوة سريعات جداً في تلبية أعمال الرحمة، حساسات جداً مع الحزانى، ولا يكللن من العمل في أوقات الشدة، فقد كان من المنتظر أن يحقدن حقد النساء الغاضبات على أي مارق يشذ بعض الشذوذ على دستورهن غير المدون، هذا الدستور البسيط الذي فحواه: الاحترام للحلف، التكريم للأبطال، الإخلاص للتقاليد القديمة، الكبرياء في الفقر، الكرم مع الأصدقاء، الكراهية الخالدة للشماليين. وكانت سكارلت وريت قد انتهكا جميع بنود هذا الدستور.

وحاول الرجال الذين كان ريت قد أنقذ أرواحهم، حاولوا بدافع من اللياقة والشعور بالجميل، أن يبقوهنّ صامتات، إلاّ أنهم لم ينجحوا إلاّ قليلاً. لقد كان الاثنان قبل إعلان خطوبتهما مكروهين للغاية، ولكن كان ما زال بوسع الناس أن يكونوا مؤدبين معهما بطريقة رسمية، أما الآن، فحتى تلك المجاملة

الفاترة لم تعد ممكنة . لقد وقع نبأ خطوبتهما كانفجار مدمر غير متوقع هز المدينة ، وحتى آلاف النسوة تباعاً جاهرن بآرائهن بحدة في هذا الشأن . أتتزوج ولما تمض سنة على مقتل فرانك ، وهي التي قتلته؟ وتتزوج ذلك الرجل بتلر الذي يملك ماخوراً ، والذي كان مشتركاً مع الشماليين والكاربت بغرز في جميع أنواع الخطط اللصوصية ! كان يمكن احتمال كل منهما على انفراد ، ولكن الاتحاد الوقح بين سكارلت وريت كان أكثر مما يمكن احتماله ، فكلاهما مبتذل وسفيه ! ينبغي أن يطردا من المدينة !

كان يمكن أن تكون أتلانتا أكثر تسامحاً مع الاثنين لو أن نبأ خطوبتهما لم يأت في الوقت الذي أضحى فيه أصدقاء ريت من السكالاواغ والكاربت بغرز أكثر مكروهية في نظر سكان المدينة المحترمين من أي وقت مضى . كان الشعور العام ضد الشماليين وجميع حلفائهم على أشده في الوقت ذاته الذي علمت فيه المدينة بنبإ الخطوبة ، ذلك لأن آخر حصن من حصون مقاومة جورجيا للحكم الشمالي كان قد سقط حديثاً ، وكانت الحملة الطويلة التي ابتدأت بزحف شيرمان جنوباً من شمالي دالتون قبل أربع سنوات ، قد بلغت ذروتها أخيراً ، وبذلك تم إذلال الولاية .

كانت قد انقضت ثلاث سنين من التجديد ، كانت ثلاث سنين من الإرهاب . وكان الجميع قد اعتقد أن الأوضاع لا يمكن أن تصبح أسوأ مما عانوا ، ولكن جورجيا كانت تكتشف أن التجديد في أسوإ مرحلة قد بدأ الآن .

كانت الحكومة الاتحادية تحاول ، خلال السنين الثلاث ، أن تفرض أفكاراً غريبة وحكماً غريباً على جورجيا . ولقد نجحت في ذلك إلى حد كبير بمؤازرة جيش استخدم لتنفيذ أوامرها ، بيد أن قوة الجيش فقط هي التي كانت تحمي الحكومة الجديدة . لقد كانت الولاية تحت حكم الشماليين ولكن دون موافقة سكان الولاية ، وكان قواد جورجيا ماضين في الكفاح من أجل حق هؤلاء السكان في أن يحكموا أنفسهم بموجب مفاهيمهم الخاصة . كانوا قد استمروا في مقاومة كل الجهود التي بذلت لترغمهم على الرضوخ وقبول أوامر واشنطن كقانون ولايتهم الخاص .

ولم تكن حكومة جورجيا قد استلمت رسميّاً ، ولكن الأمر كان عبارة عن كفاح عقيم ، كفاح خاسر دائماً ، كفاح لا يمكن أن ينجح ، ولكنه كان على

الأقل قد أرجأ ما لا مفرّ منه . وكانت ولايات جنوبية أخرى قد ابتليت بزنوج أميين تبوأوا مراكز رفيعة عامة ، وبمشرعين كان يسيرهم الزنوج والكاربت بغرز ، إلاّ أن جورجيا بفضل مقاومتها العنيدة كانت قد أفلتت من هذا الانحطاط الحاسم ، وظلت عاصمتها ، خلال الجزء الأكبر من السنين الثلاث ، بيد الرجال البيض والديموقراطيين ، وبوجود الجنود الشماليين في كل مكان لم يكن بوسع موظفي الولاية أن يفعلوا سوى القليل ، بالإضافة إلى الاحتجاج والمقاومة ، كانت سلطتهم إسمية ولكنهم كانوا قادرين على الأقل أن يبقوا حكومة الولاية في أيدي الوطنيين الجورجيين ، ولكن حتى ذلك الحصن الأخير كان قد سقط الآن .

وتماماً كما كان جونستون ورجاله قد أُجبروا على التقهقر خطوة خطوة من دالتون إلى أتلانتا قبيل أربع سنوات ،أُجبر الديموقراطيون الجورجيون على التقهقر تدريجاً من عام ١٨٦٥ فصاعداً ، إذا كانت سلطة الحكومة الاتحادية على شؤون الولاية وأرواح مواطنيها تزداد باطراد ثابت . وكانت القوى تحشد فوق القوى ، والمراسيم العسكرية المطردة العدد تُصيِّر السلطة المدنية أعجز فأعجز . وأخيراً ، لما كانت جورجيا في وضع مقاطعة عسكرية أمر بفتح جداول انتخابية للزنوج ، سواء أسمحت قوانين الولاية أم لم تسمح .

وقبل أن تعلن سكارلت وريت نبأ خطوبتهما بأسبوع ، كان قد أجري اقتراع لانتخاب حاكم الولاية . وكان مرشح الديموقراطيين الجنوبيين هو الجنرال جون ب . غوردون ، أحد أحب مواطني جورجيا إليهم وأكثرهم احتراماً ، وكان ينافسه مرشح جمهوري يدعى بولوك . وقد استمر الاقتراع ثلاثة أيام بدلاً من يوم واحد ، وأسرعت القطارات في نقل الزنوج من مدينة إلى أخرى ليصوتوا في كل دائرة على طول الطريق . وطبعاً فاز بولوك .

وكان ريت صديق بولوك المقيت !

أما سكارلت ، التي كانت كعادتها قليلة الاهتمام بكل القضايا التي لا تتصل بها مباشرة ، فإنها بالكاد عرفت أن اقتراعاً كان قد جرى . ولم يكن ريت قد اشترك بالاقتراع ، ولم تكن علاقته بالشماليين تختلف عما كانت عليه دوماً ، ولكن حقيقة كونه سكالاواغ وصديق بولوك ظلت قائمة ، وإذا ما تم الزواج فستتحول سكارلت إلى سكالاواغ أيضاً ، ولن تكون أتلانتا بأية حال متسامحة

أو محسنة إلى أي شخص في معسكر الأعداء . وعندما جاء نبأ الخطوبة في ذلك الوقت الذي جاء فيه تذكرت المدينة جميع الأمور السيئة المتعلقة بالخطيبين ، ولم تتذكر أياً من حسناتهما .

كانت سكارلت تعرف أن المدينة تغلي بالسخط ، ولكنها لم تتبيّن مدى شعور الرأي العام إلى أن أخذت السيدة ميريويذر على عاتقها ، مدفوعة بإلحاح حلقتها الكنسية ، أن تتحدث إلى سكارلت من أجل صالحها .

ـ «لأن أمك العزيزة ميتة ، ولأن السيدة بيتي بات ليست متزوجة ، أي ليست أهلاً لـ . . على كل حال ، لتتحدث إليك بموضوع كهذا ، إني أشعر أن علي أن أحذرك يا سكارلت . ليس الكابتن بتلر من الفئة التي تناسب أي امرأة تنتمي إلى عائلة كريمة ليتزوج بها . إنه . .» .

ـ «لقد عمل على أن ينقذ عنق الجد ميريويذر وعنق ابن شقيقتك أيضاً» .

فامتعضت السيدة ميريويذر ، ولم يكن قد مضى ساعة تقريباً على حديث مكدر دار بينها وبين الجد . كان الرجل العجوز قد أبدى أن عليها أن لا تقدّر حياته كثيراً جداً إن هي لم تشعر بالجميل نحو ريت بتلر ، حتى لو كان الرجل سكالاواغ ووغداً .

ـ «إنما فعل ذلك كخدعة قذرة علينا جميعاً ، يا سكارلت ، ليحرجنا أمام الشماليين» ثم أضافت «إنك تعرفين تماماً ، كما أعرف ، أن الرجل خسيس . لقد كان كذلك دائماً ، كما أنه الآن أخس من أن يوصف . إنه بصراحة ليس رجلاً من الفئة التي يرحب بها الناس المهذبون» .

ـ «لا؟ إن ذلك غريب يا سيدة ميريويذر . لقد وجد في ردهتك مراراً كثيرة خلال الحرب ، كما أنه قدم لمايبيل فستان عرسها الساتان الأبيض . أليس كذلك؟ أو أن ذاكرتي تخونني؟» .

ـ «كانت الأمور مختلفة تماماً خلال الحرب ، وقد اختلط كرام الناس مع رجال كثيرين لم يكونوا . . وكان كل ذلك في سبيل القضية الوطنية . كما كان أمراً مناسباً جداً كذلك . ومن الأكيد أنك لا تستطيعين أن تفكري بالزواج برجل لم يكن في الجيش وكان يهزأ بالرجال الذين التحقوا به؟» .

ـ «لقد كان أيضاً في الجيش ، لقد خدم فيه ثمانية شهور . كان في الحملة

الأخيرة وحارب في معركة فرانكلين، وكان مع الجنرال جونستون عندما استسلم».

- «إني لم أسمع بذلك» قالت السيدة ميريويذر وبدت كأنها لم تصدق أيضاً «ولكنه لم يجرح» أضافت بشعور الظفر.

- «كثير من الرجال لم يجرحوا».

- «كل جندي ذي قيمة جرح. أنا لا أعرف أحداً لم يجرح».

- «إذاً، أظن جميع الرجال الذين عرفتهم كانوا أغبياء جداً بحيث لم يكونوا يعرفون متى ينبغي أن يخرجوا من تحت زخة مطر.. أو رصاص. والآن دعيني أخبرك بما يلي يا سيدة ميريويذر، وبوسعك أن تحمليه إلى أصدقائك المتطفلين:

«سأتزوج الكابتن بتلر ولن أحفل إذا ما حارب إلى جانب الشماليين».

وعندما خرجت تلك المرأة المعتبرة من البيت، وقبعتها تهتز من الغضب، أدركت سكارلت أنها أصبحت عدوة صريحة لها الآن، بدلاً من صديقة مستنكرة، ولكنها مع ذلك لم تحفل، ولم يكن بوسع أي شيء تقوله أو تفعله السيدة ميريويذر أن يؤذيها. إنها لم تحفل بما قاله أي إنسان.. أي إنسان باستثناء مامي.

كانت سكارلت قد احتملت إغماء بيتي عند سماعها النبأ، وكذلك كانت قد قست نفسها وهي ترى آشلي وقد بدا شائخاً فجأة متحاشياً عينيها وهو يرجو لها السعادة، وكانت قد دهشت واغتاظت من رسالتي خالتيها في شارلستون، الخالتين اللتين صدمهما النبأ فأخذتا تطالبان بمنع الزواج وتخبرانها أنها بذلك لن تهدم مركزها الاجتماعي وحسب، بل أيضاً ستعرض مركزيهما للخطر، وكانت سكارلت قد ضحكت عندما خاطبتها ميلاني بإخلاص، وفي وجهها تكشيرة قلقة «طبعاً إن الكابتن بتلر أحسن بكثير مما يتبيّن معظم الناس، كما أنه كان لطيفاً ونبيهاً جداً في سعيه لإنقاذ آشلي، وفوق ذلك، فقد حارب من أجل الحلف. ولكن يا سكارلت، ألا تعتقدين أن من الأفضل أن لا تقرري الأمر بهذه السرعة؟».

لا، إنها لم تعبأ بما قاله أي إنسان باستثناء مامي. لقد كانت كلمات مامي هي الكلمات الوحيدة التي أغضبتها أشد الغضب وآلمتها أعظم إيلام.

- «لقد رأيتك تقترفين كثيراً من الأخطاء التي ينتظر أن تؤلم السيدة إيلين إذا

هي علمت بها ، ولقد أحزنني ذلك كثيراً . بيد أن هذه الفعلة هي أسوأ الجميع حتى الآن ، تتزوجين حقيراً ! أجل ، لقد قلت حقيراً . لا تحاولي القول بأنه سليل عائلة عريقة ، فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً . إن الحقيرين ينحدرون من الفئات الرفيعة والدنيئة على السواء ، وهو حقير ، أجل يا آنسة سكارلت ، لقد رأيتك تغتصبين السيد تشارلز من الآنسة هوني بينما لم تكوني تكترثين له البتة ، ورأيتك تجردين شقيقتك سولين من السيد فرانك ، وأسكت فمي على أشياء كثيرة تفعلينها كبيع الخشب الرديء باسم الخشب الجيد ، وكالكذب فيما يتعلق بأخشاب السادة الآخرين ، وكالتجول بالعربة وحدك ، معرضة نفسك للزنوج المحررين ومسببة مقتل السيد فرانك ، وكعدم إطعام الأشقياء المساكين ما يكفي لحفظ أرواحهم في أجسادهم . إني أسكتُ فمي حتى لو كانت السيدة إيلين تقول وهي في الأرض الموعودة «مامي ، مامي ! إنك لا تعتنين بطفلتي جيداً !» أجل لقد تحملت كل ذلك ، ولكني لن أتحمل هذا الشيء الجديد يا آنسة سكارلت . لن تستطيعي أن تتزوجي حقيراً . لا ، طالما هناك روح في جسدي» .

- «سأتزوج من يروق لي» قالت سكارلت ببرود «أعتقد أنك تنسين مقامك يا مامي» .

- «لقد آن الأوان كذلك ! إذا أنا لم أقل لك هذه الكلمات فمن يقولها؟» .

- «لقد فكرت بالأمر ملياً يا مامي ، ولقد قررت أن أفضل شيء تفعلينه هو أن تعودي إلى تارا . سأعطيك بعض المال و . .» .

فنهضت مامي بكل مهابتها .

- «إني حرة يا آنسة سكارلت ، وليس بوسعك أن ترسليني إلى مكان لا أريد الذهاب إليه ، وعندما أعود إلى تارا سيكون ذلك حينما تعودين برفقتي . فأنا لن أترك ابنة السيدة إيلين ولا يوجد وسيلة في الدنيا تجعلني أذهب . كما أني لن أدع حفيد السيدة إيلين ليربيه زوج تافه من أزواج أمه . . إني هنا ، وهنا سأقيم» .

- «لن أدعك تقيمين في بيتي وأنت وقحة مع الكابتن بتلر . سأتزوجه وليس من كلام آخر ليقال في هذا الموضوع» .

- «أجل ، يوجد كلام كثير ليقال » ردت مامي ببطء ، وقد شع في عينيها المسنتين المغبشتين بريق الاحتدام .

ـ «كلام لم أفكر أبداً في قوله لأي من عائلة إيلين . ولكن اصغي إلي يا آنسة سكارلت ، أنت لست سوى بغلة في عدة حصان ، وبوسع المرء أن يلمع قائمتي بغل ويمسح جلده ويضع النحاس على عدته ويربطه إلى عربة جميلة ولكنه سيظل بغلاً لا يتغير ، ولن يخدع أحداً . وهكذا أنت تماماً . لقد نعمت بأثواب حريرية ، وبالمعملين والمخزن والمال ، وأضفيت على نفسك مظاهر براقة كحصان جميل ، ولكنك ما زلت بغلة ، ولا تخدعين أي إنسان . وكذلك الرجل بتلر ، هو أيضاً سليل عائلة طيبة ، وهو أيضاً يتظاهر كحصان أصيل ، ولكنه بغل في عدة حصان ، مثلك تماماً» .

وقذفت مامي سيدتها بنظرة نفاذة ، إلا أن سكارلت لم تنبس بكلمة ، بل كانت تنتفض من الإهانة .

ـ «إذا قلت إنك ستتزوجينه فستتزوجينه لأنك عنيدة كوالدك . ولكن تذكري هذا يا سكارلت ، إني لن أتركك . وسأقيم هنا وأراقب هذا الأمر وهو يتم» .

ودون أن تنتظر جواباً ، استدارت مامي وغادرت سكارلت .

انبأت سكارلت ريت بحديث مامي وهما يقضيان شهر العسل في نيو أورليانز ، فما كان منه إلا أن ضحك على عبارة مامي المتعلقة بالبغال في عُدد الخيل ، الأمر الذي أدهش سكارلت وأسخطها .

ـ «إني لم أسمع حقيقة عميقة تقال بمثل هذا الإيجاز» قال «إن مامي امرأة مسنّة ذكية ، وهي أحد الناس القليلين الذين أعرفهم وأرغب في نيل احترامهم وإرادتهم الطيبة . ولكن لكوني بغلاً ، أظن أني لن أنال أياً من ذلك ، ولقد رفضت حتى قطعة العشرة الدولارات الذهبية التي رغبت في تقديمها لها بعد الزواج وأنا في نشوة العرس . إنني لم أر غير أناس قليلين جداً لم يذوبوا عند رؤية المال . لقد حملقت في عينيّ ، وشكرتني قائلة إنها ليست زنجية حرة ، وهي بذلك لا تحتاج إلى مال» .

ـ «لماذا تستمر على هذا الموقف؟ لماذا يلغط الجميع عني كسرب من الدجاج السوداني؟ إن الرجل الذي أتزوجه ، وعدد المرات التي أتزوج فيها ، قضية تتعلق بي فقط . ولقد كنت دائماً أهتم بشؤوني الخاصة وحسب ، فلماذا لا يهتم الآخرون بشؤونهم؟» .

ـ «يا مدللتي ، إن بوسع الدنيا أن تسامح فعلاً أي شيء ما عدا الناس الذين

يهتمون بشؤونهم الخاصة. لقد قلت مراراً عديدة إنك لا تعبأين بما يقوله الناس عنك، فلماذا لا تبرهنين على قولك؟ أنت تعرفين أنك عرضت نفسك للنقد مراراً عديدة في قضايا صغيرة، فليس بوسعك أن تتوقعي الإفلات من الثرثرة عنك في هذه القضية الكبيرة. ولقد كنت تعرفين أن الحديث سيدور عنك إذا ما تزوجت وغداً مثلي، ولو كنت وغداً معوزاً زريّ المحتد لما جن الناس هكذا، ولكن وغد غني ناجح ـ طبعاً، إن ذلك لا يمكن الصفح عنه».

ـ «أرجو أن تكون جدياً أحياناً».

ـ «إني جـدي. إن من المزعج دائمـاً للورعين أن يروا الملحـدين يزهرون كشجرة الخليج الخضراء. تشجعي يا سكارلت، ألن تخبريني مرة أن السبب الرئيسي لرغبتك في جمع المال الوفير هو كي يصبح بوسعك أن تقولي لكل إنسان (اذهب إلى الجحيم)؟ وها هي الفرصة قد سنحت لك الآن».

ـ «ولكنك كنت الشـخص الرئيـسي الذي كنت أرغب في أن أقـول له أن يذهب إلى الجحيم» قالت سكارلت ذلك وضحكت.

ـ «هل ما زلت ترغبين في أن تبلغيني ذلك؟».

ـ «ليس كثيراً كما كنت أرغب عادة».

ـ «افعليها متى شئت، إذا كان ذلك يسعدك».

ـ «إن ذلك لا يسعدني بصفة خاصة» قالت سكارلت وانحنت تقبّله.



ريت وسكارلت بعد زواجها

نعمت سكارلت بمتعة، متعة أكثر مما نعمت منذ الربيع الذي سبق الحرب. كانت نيو أورليانز مكاناً غريباً فاتناً ابتهجت فيه بسرور أرعن، سرور سجين مؤبد عفي عنه. وكان الكاريت بغرز ينهبون المدينة، وكان كثير من الناس الشرفاء قد طردوا من بيوتهم، فلم يكونوا يعرفون أين يبحثون عن وجبتهم التالية، كما كان زنجي يجلس على كرسي الحاكم الذي كان أصلاً برتبة لفتنانت. بيد أن نيو أورليانز، التي أراها إياها ريت، كانت أهنأ مكان رأته في حياتها، وبدا لها أن الناس الذين كانت تقابلهم كانوا يملكون جميع المال الذي يريدونه ولا يحملون هموماً أبداً. وقدمها ريت إلى كثيرات من النساء، النساء الجميلات بأثوابهن الزاهية، النساء ذوات الأيدي الناعمة التي لا ترى أي أثر من آثار العمل المضني، النساء اللواتي كن يضحكن على كل شيء، ولا يتحدثن عن الأمور الجدية الحمقاء و عن الأوقات الصعبة. أما الرجال الذين قابلتهم فما كان أدعاهم للبهجة، وما كان أشد اختلافهم عن رجال أتلانتا، وما أكثر ما كانوا يجاهدون ليراقصوها ويطروها بإسراف عظيم وكأنها كانت حسناء يافعة.

كان يميز هؤلاء الرجال، المظهر الصارم ذاته الذي كان يميز ريت: عيونهم متيقظة دائماً كرجال عاشوا زمناً طويلاً مع الأهوال بحيث لن يسعهم أن يكونوا عديمي المبالاة أبداً. كانوا يبدون وكأنهم بلا ماض أو مستقبل، وعندما كانت سكارلت، رغبة منها في التحدث إليهم، تسألهم عما كانوا، وأين كانوا قبل مجيئهم إلى نيو أورليانز، كانوا لا يشجعونها على الاسترسال في ذلك، بأسلوب مهذب، الأمر الذي كان غريباً بحد ذاته. فقد كان كل قادم جديد محترم إلى أتلانتا يسرع في تقديم وثائقه، ويعلن بفخر عن موطنه وعائلته، ويتتبع متاهات القرابة الملتوية التي كانت تمتد في الجنوب كله.

ولكن هؤلاء الرجال كانوا قليلي الكلام، ينتقون كلماتهم بعناية. وأحياناً، عندما كان ريت يجتمع بهم وحده، وسكارلت في الغرفة المجاورة، كانت سكارلت تسمع ضحكاً، وتلتقط مسامعها نتفاً من حديث لم يكن يعني شيئاً لها: أجزاء من كلمات، أسماء محيرة ـ كوبا وناسو في أيام الحصار، انطلاقة الذهب والتسابق على حقوق التعدين، وتهريب السلاح والقرصنة، ونيكاراغوا

ووليم ووكر وكيف مات باصطدام بحائط في تروكيلو . وحدث مرة أن أنهى دخولها المفاجئ حديثاً يتعلق بما كان قد وقع إلى أعضاء عصابة كوانتريل من رجال العصابات ، ولقطت سكارلت الاسمين فرانك وجيس جيمس .

إلاّ أنهم جميعاً رجالاً مهذبين ، وكانوا يعجبون بها بصراحة ، ولذلك فإن كونهم قد اختاروا أن يعيشوا في الحاضر كلية لم يهمها إلاّ قليلاً ، والذي همها حقيقة هو أنهم كانوا أصدقاء ريت وأنهم كانوا يملكون بيوتاً كبيرة ، وعربات جميلة يحملونها وريت فيها ، ويدعونهما لولائم العشاء ويقيمون الحفلات على شرفهما . ولذلك أحبتهم حباً جماً ، الأمر الذي أطرب ريت عندما أخبرته به .

ـ «لقد كنت أعتقد أنك ستحبينهم» أجاب ضاحكاً .

ـ «ولم لا؟» استوضحت وقد ثار فيها الشك ، بسبب ضحكه ، شأنها دائماً .

ـ «إنهم جميعاً من الطبقة الثانية ، خراف سود ، أوغاد . إنهم جميعاً مغامرون ، أو ارستقراطيون كاريت بغرز . وقد جمع سائرهم نقودهم من المضاربة بالطعام كزوجك المحب ، أو من عقود حكومية مريبة بأساليب مشبوهة لا تحتمل تحرياً» .

ـ «إني لا أصدق ذلك . إنك تستفزني . فهم أكرم الناس . . .» .

ـ «إن أكرم الناس في المدينة يتضورون جوعاً» قال ريت «ويعيشون في الزرائب بأدب ، وإني أشك في أن استقبل في هذه الزرائب . فأنت ترين يا عزيزتي أني كنت منهمكاً في بعض خططي الفظيعة هنا خلال الحرب ، وهؤلاء الناس ينعمون بذاكرات قوية شيطانية ! إنك متعة دائماً لي يا سكارلت ، لأنك تعملين دون خطإ على انتقاء الناس الأشرار والأمور السيئة» .

ـ «ولكنهم أصدقاؤك !» .

ـ «ها ، ولكني أحب الأوغاد . لقد قضيت مطلع شبابي كمقامر في زورق نهري ، وبوسعي أن أفهم الناس أمثال أولئك . غير أني لست عمياً عن ماهيتهم ، بينما أنت . . وضحك ثانية «ليس لديك غريزة لمعرفة الناس فلا تميزين بين الحقير والعظيم ، وإني أفكر أحياناً بأن السيدات العظيمات اللواتي اختلطت بهن هن فقط أمك والآنسة ميلي ، ولا يبدو أن إحداهما خلّفت أثراً فيك» .

كانت الفساتين التي ابتاعها ريت لها أكثر إمتاعاً من الناس الذين قابلتهم ، وكان يشرف على انتقاء ألوانها وقماشها وزيها بنفسه . وكانت الأطواق قد

بطلت الآن وحل محلها أزياء جديدة فاتنة . واشترت سكارلت ، دون اكتراث ، هدايا للعائلة : جرواً ذا وبر من نوع سانت برنارد لابنها ويد الذي كان يتوق دائماً لمثيله ، هريرة فارسية لإيلا الصغيرة ، عقداً ثقيلاً ذا قطع معدنية بلورية متدلية للعمة بيتي ، مجموعة كتب شكسبير الكاملة لميلاني وآشلي ، حلة متقنة الصنع للعم بطرس من ضمنها قبعة حوذي حريرية ، عالية وعليها فرشاة ، قماش فساتين لدلسي وكوكي ، هدايا ثمينة لجميع من في تارا !

ـ «ولكن ماذا اشتريت لمامي؟» استوضح ريت وهو ينظر إلى الهدايا المنتشرة على السرير في غرفتهما في الفندق ، وينقل الجرو والهريرة إلى غرفة الزينة .

ـ «لا شيء . لقد كانت مقيتة . ولماذا يتوجب علي أن أشتري هدية لها ، بينما هي دعتنا بغلين؟» .

ـ «ولماذا يتوجب عليك أن تستائي من سماع الحقيقة يا مدللتي؟ ينبغي أن تشتري هدية لها ، فسيتحطّم قلبها إن لم . . والقلوب التي كقلبها ثمينة جداً بحيث لا ينبغي تحطيمها .

ـ «لن آخذ شيئاً لها ، فهي لا تستحقه» .

ـ «سأشتري أنا لها هدية إذاً» .

ـ «لن تأخذها منك ، تفضل أن تموت على أن تقبلها» .

ـ «إني لا أشك في ذلك ، ولكني سأقوم بذلك العمل مهما كانت النتيجة» .

كانت حوانيت نيو أورليانز غنية مثيرة جداً ، وكان ابتياع الحوائج برفقة ريت مغامرة . كما كان الأكل برفقته مغامرة أيضاً ، مغامرة أكثر إمتاعاً من الشراء ، لأنه كان يعرف أي صنف يطلب ، وكيف ينبغي أن يُطهى . وكانت كلما تذكرت الفول السوداني الدائم والحمص الجاف والبطاطا الحلوة في تارا ، كانت تشعر بشهية لتلتهم مجدداً ما تستطيع من طباق الأطعمة الفرنسية والإسبانية .

ـ «إنك تأكلين وكأن كل وقعة هي آخر وقعة لك» قال ريت «لا تخدشي الطبق يا سكارلت . إني واثق من وجود المزيد منه في المطبخ ، وما عليك إلاّ أن تطلبي من النادل إحضاره . وإذا أنت لم تكفي عن هذا الشره ، فستصبحين بدينة كنساء كوبا ، وعندئذ سأطلقك» .

غير أنها لم تزد على أن مدت لسانها استهزاء ، وطلبت طبق حلويات آخر .

ما ألذ أن تكوني قادرة على صرف ما تشائين من نقود كثيرة دون أن تعدي

البنسات وتشعري أن عليك أن توفريها من أجل دفع الضرائب وشراء البغال . ما ألذ أن تكوني مع الناس الأغنياء المرحين ، لا الفقراء المهذبين كأهل أتلانتا . ما ألذ أن تلبسي الفساتين الحريرية المشجرة الحفحافة التي تكشف عن خصرك وكل عنقك وذراعيك وبعض صدرك ، أن تعرفي أن الرجال معجبون بك . ما ألذ أن تأكلي كل ما تشتهين دون أن يكون هناك مراقبون يقولون إنك لست كالسيدة ، ثم ما ألذ أن تشربي كل الشمبانيا التي تلذك .

كان من الممتع أن تخرج مع ريت ، لأنه كان جميلاً جداً ، مع أنها لم تكن نوعاً ما قد اهتمت بمظاهره من قبل ، إذ كان الجميع في أتلانتا تشغلهم أبداً نقائصه عن التحدث عن مظهره . ولكن هنا في نيو أورليانز ، استطاعت سكارلت أن ترى كيف أن عيون النساء الأخريات كانت تتبعه وكيف يضطربن وهو ينحني على أيديهن . وفجأة جعلها تحققها من أن النساء الأخريات كن منجذبات نحو زوجها وأنهن ربما كن يحسدنها ، جعلها ذلك فخورة في أن تراه إلى جانبها «كيف لا ، وكلانا جميل» فكرت سكارلت بسرور .

أجل ، يمكن أن يكون الزواج متعة عظيمة ، كما كان ريت قد تنبأ . والواقع أنه لم يكن متعة وحسب ، بل إنها كانت تتعلم منه أشياء كثيرة أيضاً . وكان هذا غريباً بحد ذاته ، لأن سكارلت كانت قد ظنت أن الحياة لم تعد تعلّمها جديداً . غير أنها كانت تشعر الآن وكأنها طفلة ، إذ غدت كل يوم على باب اكتشاف جديد .

لقد تعلمت أولاً أن الزواج بريت كان مسألة تختلف كثيراً عن الزواج بكلا تشارلز وفرانك ، فقد كان الاثنان يحترمانها ويخشيان غضبها ، وكانا يلتمسان الحظوة بها ، فتمنحهما إياها إذا ما طاب لها ذلك ، بينما لم يكن ريت يخشاها ، ومراراً ما فكرت أنه لم يحترمها أيضاً ، وأن الذي كان يريد أن يعمله كان يعمله ، وإذا هي لم تستحسن ذلك العمل ، ضحك عليها . والواقع أن سكارلت لم تكن تحب ريت ، ولكن مما لا ريب فيه أنه كان شخصاً مثيراً يحسن العيش معه . وكانت أعظم الأشياء إثارة فيه هو أنه كان يبدو دائماً مسيطراً على نفسه في أثناء جموحه العاطفي الذي كان ممتعاً مع العنف أحياناً ومع تسلية مثيرة أحياناً أخرى .

ـ «أظن أن ذلك عائد إلى أنه لا يحبني حقيقة» فكرت وهي راضية بواقع

الحال «غير أني أمقت أن يصبح مدلّهاً بي وخاضعاً لإرادتي على أي حال» إلا أن فكرة احتمال ذلك ظلت تثير فضولها بطريقة مشوقة .

كان يجعلها تلهو بعد أن كادت تنسى كيفية اللهو ، فلقد كانت حياتها جديدة مريرة جداً ، بينما كان هو يعرف كيف يلهو ، وهكذا دفعها في تياره . غير أنه لم يكن يلهو كصبي أبداً ، كان رجلاً مهماً أتى من أعمال ، الأمر الذي لم يكن بوسعها أن تنساه أبداً . ولم يكن بوسعها أن تنظر إليه من عل ، من خلال الترفع النسوي ، وهي تبتسم كما تبتسم النسوة دائماً على مجون الرجال الذين هم صبية في قلوبهم .

كان ريت يبقيها مشغولة جداً بحيث لم يكن يدع لها مجالاً ، في معظم الأحيان ، لتفكر بآشلي . وندر أن كان آشلي يراود أفكارها خلال النهار ، ولكن في الليل ، حيث كانت ترقد تعبة من الرقص ، ورأسها يدور بسبب الإكثار من الشمبانيا ، عندئذ كانت تفكر بآشلي . وحين كانت تضطجع نعسة بين ذراعي ريت ، وضوء القمر ينساب على السرير ، كانت تفكر مراراً كم أن الحياة كان ينتظر أن تكون مكتملة السعادة لو أن ذراعي آشلي هما اللتان كانتا تطوقانها هكذا ، لو أن آشلي هو الذي كان يمرر شعرها الأسود عبر وجهه ويلفه حول عنقه . ومرة ، وفيما كانت تفكر بهذا الشيء ، تنهدت وأدارت رأسها نحو النافذة . وبعد لحظة ، أحست بالذراع القوية التي كانت تحت عنقها وكأنها غدت ذراعاً حديدية ، ثم ارتفع صوت ريت في السكينة «ليبعث الله روحك الصغيرة الخائنة إلى الجحيم ، رغم أن الروح خالدة» .

ثم نهض وارتدى ثيابه وغادر الغرفة رغم احتجاجاتها وأسئلتها المذهلة . ثم عاد في الصباح التالي بينما كانت تتناول فطورها في غرفتها ، عاد مشعث الشعر ، ثملاً في أسوأ حالاته التهكمية ، ولم يقدم اعتذارات أو إيضاحات عن غيابه .

على أن سكارلت لم تسأله أي سؤال ، بل كانت باردة تماماً نحوه كما يليق بالسيدة المهانة . وعندما فرغت من الفطور ، ارتدت ثيابها تحت عينيه الملتهبتين ، ثم ذهبت للتسوق . وحين رجعت كان قد ذهب ، ولم يظهر ثانية حتى موعد العشاء .

كان عشاء صامتاً ، وكانت سكارلت متوترة الطبع لأنها كانت آخر وقعة

عشاء لها في نيو أورليانز، وكانت تود أن تصفي حسابها مع سمك الكمبري. ولكن لم يكن بوسعها أن تنعم بذلك تحت بصره، ومع ذلك فقد التهمت سمكة كبيرة، وشربت مقداراً وافراً من الشمبانيا، وربما كان هذا الجمع بين السمك والشراب هو الذي أعاد إليها حلمها الرهيب في ذلك المساء، إذ أفاقت تلك الليلة مبلّلة مبتردة بالعرق، تشهق كسيرة الخاطر. لقد ألفت نفسها في تارا ثانية، وكانت تارا موحشة، وكانت أمها ميتة، وقد ماتت معها كل القوة والحكمة في العالم، ولم يكن هناك إنسان في أي مكان في الدنيا تستطيع أن تلتجئ إليه، أو تعتمد عليه. وكان هناك شيء مفزع يتبعها، وكانت هي تجري، تجري إلى أن كاد قلبها ينفجر، تجري في ضبابة كثيفة سابحة، تجري مولولة، وتنشد وهي عمهة ذلك الملجأ المجهول الذي لم تكن تعرف اسمه، والذي كان يقع في مكان ما في الضباب المحيط بها.

كان ريت منحنياً فوقها عندما أفاقت، وبدون أن ينبس بكلمة، حملها بين ذراعيه، وقرّبها منه، فأحست بعضلاته القوية تواسيها، وبدمدمته المبهمة تهدئ روعها إلى أن كفت عن الشهيق.

ـ «آه يا ريت، لقد كنت أشعر ببرد وجوع وتعب شديد، ولم أستطع إيجاده. لقد جريت خلال الضباب وجريت ولكني لم أستطع إيجاده».

ـ «إيجاد ماذا يا حلوتي؟».

ـ «لا أعلم، أتمنى لو كنت أعلم».

ـ «إنه حلمك القديم».

ـ «آه أجل..».

فوضعها على السرير بلطف. وراح يبحث في الظلام، ثم أضاء شمعة. وفكرت سكارلت وهي ما انفكت تنتفض من الرعب، وهمست: «احملني يا ريت».

ـ «حبيبتي» أجاب بسرعة ثم حملها وأجلسها في كرسي كبير، وراح يؤرجح جسدها باتجاهه.

ـ «آه يا ريت، إن من الفظيع أن يكون المرء جائعاً».

ـ «ينبغي أن يكون من الفظيع أن تحلمي بالجوع بعد عشاء ثقيل كذلك فيه سبع وجبات بما فيها الكمبري الكثير» وابتسم، ولكن عينيه كانتا عطوفتين.

ـ «آه يا ريت ، إني أجري وأجري وأبحث ، ولا أستطيع أن أجد حقيقة الذي أنشده . إنه دائماً مخبأ في الضباب . إني أعرف أني إذا ما وجدته فسأكون آمنة ، ولن أبرد أو أجوع ثانية» .
ـ «أشخص الذي تنشدينه أم شيء؟» .
ـ «لا أدري . لم أفكر به أبداً . هل تعتقد يا ريت أني يمكن أن أحلم يوماً بأني سأصل إلى الأمان هنالك» .
ـ «لا . . لا أعتقد ، فالأحلام ليست كذلك . إني أعتقد أنك إذا اعتدت على حياة الأمان والدفء والغذاء الجيد في حياتك اليومية فستقطعين عن رؤية ذلك الحلم ، وإني سأعمل على أن تكوني آمنة يا سكارلت» .
ـ «إنك لطيف يا ريت» .
ـ «شكراً ، أريد أن تقولي لنفسك عندما تستيقظين كل صباح : «لا يمكن أن أجوع ثانية ، ولن يستطيع شيء أن يمسني طالما أن ريت موجود معي وطالما حكومة الولايات المتحدة صامدة» .
ـ «حكومة الولايات المتحدة؟» استوضحت وهي جالسة مجفلة ، وما زالت الدموع على وجنتيها .
ـ «لقد غدت النقود الحلفية السابقة يوثق بها . ولقد وظفت معظمها في سندات حكومية» .
ـ «يا لله !» صاحت سكارلت وهي تجلس في حجره وقد نسيت فزعها «هل تقصد أن تخبرني أنك أعرت نقودك للشماليين؟» .
ـ «مقابل فائدة مئوية كبيرة» .
ـ «أنا لا أعبأ حتى ولو كانت مائة بالمائة ! ينبغي أن تبيعها فوراً . يا لفكرة السماح للشماليين باستخدام نقودك !» .
ـ «وماذا يجب علي أن أفعل بها؟» استوضح مبتسماً ، وقد لاحظ أن عينيها لم تعودا متسعتين بسبب الرعب .
ـ «الأفضل ـ الأفضل أن تشتري عقاراً في فايف بوينتس . إني أراهن أن بوسعك شراء كل فايف بوينتس بالمال الذي تملكه» .
ـ «أشكرك ، ولكني لن أشتري فايف بوينتس ، فلأن حكومة كاربت بغرز قد سيطرت على جورجيا سيطرة حقيقية ، لا يمكن التنبؤ بما يمكن أن يحدث .

ولذلك فلن أضع أي شيء في قبضة سرب البزاة الذي يجتاح جورجيا الآن من الشمال والشرق ومن الجنوب والغرب، إني أسايرهم، كما تعلمين، كما ينبغي للسكالاواغ الحاذق أن يفعل، ولكني لا أثق بهم، ولن أستثمر نقودي في شراء عقارات، بل أفضل السندات لأن بوسع المرء أن يخبئها، بينما ليس بوسعه أن يخبئ العقارات بسهولة فائقة».

ـ «هل تعتقد . .» بدأت ووجهها يشحب وهي تفكر بالمعملين والمخزن.

ـ «لا أدري، ولكن لا تفزعي هكذا يا سكارلت. إن حاكمنا الجديد صديق ودود لي، والقضية فقط هي أن الظروف مضطربة جداً الآن، وأنا لا أريد تجميد كثير من نقودي في عقار عيني».

ونقلها إلى إحدى ركبتيه وأرجع ظهره إلى الوراء ومد يده وتناول سيجاراً وأشعله. وجلست هي وقدماها العاريتان متدليتان، جلست تراقب حركات عضلات صدره الأسمر، وقد نسيت مخاوفها.

ـ «وطالما أننا في موضوع العقار العيني يا سكارلت» قال «فإني سأبني بيتاً. قد تكونين أرغمت فرانك على العيش في بيت الآنسة بيتي ولكن لا تستطيعين إرغامي، فأنا لا أعتقد أن بوسعي احتمال رفساتها ثلاث مرات يومياً. وأكثر من ذلك، إني أعتقد أن العم بطرس سيغتالني قبل أن يدعني أعيش تحت سقف آل هاملتون المقدس. إن بوسع الآنسة بيتي أن تحضر الآنسة إنديا ويلكس لتقيم معها وتبقي ابن الأهوار بعيداً. وعند عودتنا إلى أتلانتا سننزل في جناح العرائس في الفندق الأهلي، وذلك إلى أن يتم بناء بيتنا، إذ إني قبل مغادرتنا أتلانتا كنت قد قايضت على تلك القطعة الكبيرة من الأرض الواقعة في شارع بيتشتري على مقربة من بيت آل ليدن. أنت تعرفين القطعة التي أعنيها؟».

ـ «ها، ريت، ما أجملها! إني أتشوّق كثيراً إلى بيت خاص بي، بيت كبير عظيم».

ـ «إذاً، فنحن متفقان على شيء ما أخيراً. ما رأيك ببيت أبيض ذي حديد مطاوع كهذه البيوت الفرنسية الموجودة هنا؟».

ـ «لا يا ريت، لا أريد شيئاً من الطراز القديم كبيوت نيو أورليانز هذه، أعرف ما أريده تماماً، إنه أحدث الطرز، لأني رأيت صورة عنه في . . دعني أتذكر . . كانت في مجلة هاربر الأسبوعية تلك، التي كنت أتصفحها. إنه

مبني على نسق ڤيلا سويسرية» .

ـ «ماذا؟» .

ـ «ڤيلا» .

ـ «تهجئيها» .

فامتثلت لطلبه .

ـ «ها» قال ، ومسّد شاربيه .

ـ «أجل ، لا بد أنك قد رأيت مثيلاً له» .

ـ «بلى رأيت ، ولكن ليس في سويسرا ، إن السويسريين أذكياء جداً ، إنهم يتذوقون الجمال البنائي بحذق . هل تريدين حقاً بيتاً كذلك؟» .

ـ«أجل !» .

ـ «كنت أرجو أن تحسن رفقتك لي ذوقك . لماذا لا تريدين بيتاً فرنسي الطراز أو على طراز بيوت المستعمرات ، بيتاً ذا ستة أعمدة بيضاء؟» .

ـ «قلت لك إني أريد أي شيء خرع من طراز قديم . دعنا نضع في داخله أوراقاً حمراء على الجدران ، وستائر مخملية حمراء على جميع الأبواب الطويلة ،وقطعاً كثيرة من الأثاث الثمين المصنوع من خشب الجوز ، وسجاجيد سميكة فخمة و . . ريت ، سيغدو الجميع حسودين جداً عندما يرون بيتنا !» .

ـ «ولكن أصغي إلي بانتباه : لا سنت واحداً من أجل المخزن . ولا سنت من أجل مصنع أخشابك ذاك» .

ـ «ها» ، قالت سكارلت وكبا وجهها . فقد كانت طيلة شهر العسل تفكر كيف يسعها أن تتطرق إلى موضوع الألف دولار الذي كانت تحتاج إليه لشراء مساحة خمسين قدم أخرى من الأرض لتوسيع رقعة مصنع الأخشاب .

ـ «أعتقد أنك كنت دائماً تتباهى بكونك واسع الإدراك ، لا تعبأ بما يقوله الناس عن أني أدير عملاً ، بينما أنت الآن تبدو كأي رجل آخر تماماً شديد الخشية من أن يقول الناس إني أرتدي السراويل في العائلة» .

ـ «لن يكون هناك أدنى شك عند أي شخص فيما يتعلق بمن يرتدي السراويل في عائلة بتلر» تشدق ريت «كما أني لا أعبأ بما يقوله الأغبياء . والحقيقة أني سيئ التربية جداً بحيث لا يسعني أن أتباهى بأن لي زوجة حسناء . إني أريدك أن تستمري في إدارة المخزن والمعملين ، فهي خاصة

بطريقة لبقة لتخبر آشلي أنها وريت لن يعودا بعد اليوم كزوجين حقيقيين، ولكنها أدركت الآن أن ليس بوسعها ذلك. وبدا الأمر جميعه ورطة مريعة، وتمنت بشبه رغبة حقيقية أن لو لم تتفوه بكلمة عن الموضوع، ستفقد الأحاديث الطويلة السارّة في السرير مع ريت، عندما يكون جمر سيجاره يتوهج في الظلام، وستفقد طمأنينة ذراعيه عندما تستيقظ مذعورة من أحلامها التي ترى فيها أنها تجري في الضباب البارد.

وفجأة أبأسها التفكير، فأسندت رأسها على ذراع الكرسي، وراحت تبكي.



بوني ابنة سكارلت وريت

49

بعد أن سمعت وقع خطوات ميلاني يتلاشى في المطبخ ، أرهفت السيدة ألسنغ أذنيها باتجاه القاعة حيث كانت الطباق والصلصة والأواني الفضية المقرقعة تعد بقدوم المرطبات ، التفتت وتكلمت بصوت خفيض إلى السيدات اللواتي كن يجلسن في حلقة في الردهة وسلال خياطتهن في حجورهن .

ـ «شخصياً ، أنا لا أنوي زيارة سكارلت الآن أو غداً» .

وضعت العضوات الأخريات في «حلقة الخياطة لأرامل وأيتام الحرب» إبرهن بحماسة وقربن كراسيهن الهزازة إلى بعضها ، إذ كنّ جميعاً متحرقات لبحث موضوع سكارلت وريت ، ولكن وجود ميلاني منعهن من ذلك ، وكان الزوجان المذكوران قد عادا في اليوم السابق من نيو أورليانز ونزلا في جناح العرائس في الفندق الأهلي .

ـ «يقول هيو إن عليّ القيام بالزيارة ، بداعي المجاملة ، نظراً للطريقة التي أنقذ الكابتن بتلر حياته بها» أردفت السيدة ألسنغ كلامها «وتؤيده في رأيه فاني المسكينة ، وتقول إنها ستزورهما كذلك ، ولقد قلت لها : (فاني ، لولا سكارلت لكان تومي حياً هذه الدقيقة ، وإن من الإهانة لذكراه أن تزوريها) ولكن فاني لم تكن تملك من الفهم ما يجعلها تزيد على القول : أماه ، إني لا أزور سكارلت ، إني أزور الكابتن بتلر ، فلقد حاول جهده لينقذ تومي وليست غلطته إن هو فشل» .

ـ «ما أحمق الشباب !» قالت السيدة ميريويذر «أقوم بالزيارة ، حقاً !» ، وانتفخ صدرها البدين من السخط وهي تتذكر استقبال سكارلت الوقح لنصيحتها فيما يتعلق بزواجها بريت «ابنتي مايبيل حمقاء كابنتك فاني تماماً . إنها تقول إنها ورينيه سيقومان بالزيارة لأن الكابتن بتلر حفظ رينيه من الإعدام ، فأجبتها لولا تعريض سكارلت لنفسها لما تورط رينيه بأي خطر . وكذلك يصر الأب ميريويذر على الزيارة ، ويتحدث كما لو أنه في عهد خرفه قائلاً إنه ممتن لذلك الوغد ، حتى وإن لم أكن أنا كذلك . إني أقسم أنه منذ دخل الأب ميريويذر إلى بيت تلك المخلوقة وتلنغ ، وهو يتصرف بطريقة مشينة . أقوم

بالزيارة ، حقاً ! إني لن أقوم بها حتماً . لقد أسقطت سكارلت نفسها بزواجها برجل كهذا ، رجل كان زرياً جداً عندما كان مضارباً خلال الحرب ، يجني النقود من جوعنا . ولكن لما كان الآن صديقاً صدوقاً للكاربت بغرز والسكالاواغ وصديقاً . . في الواقع صديقاً لذلك القميء المقيت الحاكم بولوك ، أقوم بالزيارة حقاً !» .

فتنهدت السيدة بونل ، وكانت امرأة بدينة سمراء ، صغيرة الجثة ذات وجه مرح .

ـ «إنهم سيقومون بزيارة واحدة وحسب ، من قبيل المجاملة يا دولي . إني لا أعرف كيف ألومهم . لقد سمعت أن جميع الرجال الذين خرجوا في تلك الليلة عازمون على الزيارة ، وأعتقد أن من واجبهم ذلك .

ـ «هراء عاطفي !» قالت السيدة ميريويذر بحدة «كيتي بونل ، هل ستزورين امرأة تزوجت ولما تمض سنة على وفاة زوجها؟ امرأة . . .» .

ـ «وهي التي قتلت السيد كندي في الحقيقة» قاطعت إنديا بصوت فاتر ولكن حاد . وكان يصعب على إنديا كلما فكرت بسكارلت أن تكون مهذبة ، إذ كانت تتذكر ستيوارت تارلتون دائماً «ولقد كنت أحسب دائماً بأنه كان يوجد بينها وبين بتلر ذاك ، قبل مقتل السيد كندي ، أكثر مما ارتاب به معظم الناس» .

وقبل أن يسع السيدات التنبّه من دهشتهن المذهلة الناجمة عن عبارتها أولاً ، وعن كون عزباء ذكرت مسألة كهذه ثانياً ، كانت ميلاني تقف في البوابة .

ـ «كيف تجرؤين يا إنديا؟» استوضحت ميلاني في صوت خفيض مرتعش «أين ستقودك غيرتك؟ يا للعار !» .

فشحب وجه إنديا ولكن رأسها ظل عالياً .

ـ «أنا لا أسحب شيئاً من كلامي» قالت .

ـ «غيورة أنا؟» فكرت أليس لديها سبب وجيه في أن تغار من سكارلت وذكرى ستيوارت تارلتون وهوني وتشارلز تمثل أمامها؟ أليس لديها سبب وجيه لكرهها ، خصوصاً الآن ، وهي تشك في أن سكارلت قد أوقعت آشلي في شبكتها بطريقة ما؟ وفكرت «يوجد الكثير الذي أستطيع أن أخبرك به عن آشلي وسكارلت الغالية» وراحت تتميز غيظاً من رغبتها في أن تحفظ آشلي بصمتها

وبين أن تنتشله من الفخ وتصرح بكل شكوكها لميلاني وللدنيا ، الأمر الذي سيدفع سكارلت إلى رفع كل نفوذ لها على آشلي . ولكن ليس هذا هو أوان ذلك ، فهي لا تملك حقائق معينة بل شكوكاً فقط .

ـ «إني لا أسحب شيئاً» كررت .

ـ «إذاً فإن من حسن الحظ أنك لم تعودي تقيمين تحت سقف بيتنا» قالت ميلاني ببرود .

فوثبت إنديا على قدميها والدم يطفح من وجهها النحيل .

ـ «ميلاني ، إنك ـ زوجة أخي ـ إنك لن تتشاجري وإياي من أجل تلك الداعرة» .

ـ «وسكارلت زوجة أخي أيضاً» أجابت ميلاني وعيناها تواجه عيني إنديا بذهول ، وكأنهما كانتا غريبتين «وأعز علي من أي شقيقة يمكن أن أنعم بها . وإذا كنت قد نسيت أياديها عليّ فإني لم أنسها . لقد أقامت معي طوال الحصار ، بينما كان بوسعها أن تذهب إلى بيتها ، وبينما كانت العمة بيتي قد هربت إلى ميكون ، ثم إنها ولدتني ابني عندما أضحى الشماليون في أتلانتا تقريباً ، وكذلك أثقلت نفسها بي وبطفلي بو طول الرحلة الرهيبة إلى تارا ، بينما كان بوسعها أن تتركني هنا في أحد المستشفيات ليأسرني الشماليون . وكذلك فقد مرضتني وغذتني حتى عندما كانت متعبة ، وحتى عندما كانت تبيت على الطوى ، وذلك لأني كنت مريضة عليلة ، كما أني نعمت بأحسن سرير في تارا . وعندما صار المشي بمقدوري ، خصصت بزوج الأحذية الكامل الوحيد . إن بوسعك نسيان تلك الأمور التي صنعتها معي ، ولكني لا أستطيع ذلك . وعندما عاد آشلي إلى بيته مريضاً واهن العزم ، بلا مأوى وبلا سنت في جيوبه ، آوته كشقيقة . وعندنا فكرنا بأن علينا السفر إلى الشمال ، الأمر الذي كان يحطم قلوبنا لأننا سنغادر جورجيا ، تدخلت سكارلت وقدمت المعمل لآشلي ليديره . ثم إن الكابتن بتلر أنقذه حياة آشلي بدافع رحمة قلبه ، ومن الأكيد أن آشلي لا يضمر حقداً ضده ! وإني ممتنة ، ممتنة لسكارلت والكابتن بتلر . ولكن أنت يا إنديا ! كيف يسعك نسيان الصنائع الحسنة التي قدمتها سكارلت لي ولآشلي؟ كيف تستطيعين تقدير حياة شقيقك بهذا الثمن البخس ، وأنت تقذفين الرجل الذي أنقذه بالعار ! لئن ركعت على ركبتيك طلباً للغفران

من الكابتن بتلر وسكارلت فإن ذلك لن يكفي» .

ـ «اسمعي يا ميلي» بدأت السيدة ميريويذر بسرعة ، إذ كانت قد استعادت رباطة جأشها «ليست تلك هي الطريقة التي تتحدثين بها مع إنديا» .

ـ «لقد سمعت الذي قلته عن سكارلت أيضاً» صاحت ميلاني وهي تندفع نحو السيدة البدينة العجوز ، «وأنت أيضاً يا سيدة ألسنغ . إني لا أعبأ أبداً بما تعتقدانه فيها بعقليكما الصغيرين ، لأن ذلك من شأنيكما ، أما ما تقولانه عنها هنا في بيتي أو على مسمع مني ، فهو من شأني دائماً . ولكن كيف يسعكما أن تعتقدا بأمور فظيعة كهذه ، وأكثر من ذلك ، أن تصرحا بها؟ هل رجلاكما رخيصان جداً عليكما ، بحيث أنكما تفضلان رؤيتهما ميتين على رؤيتهما حيين؟ ألا تشعران بالجميل نحو الرجل الذي أنقذهما ، وأنقذهما مخاطراً بحياته؟ كان من الممكن أن يفكر الشماليون بسهولة أنه عضو في الكلان لو أن الحقيقة ظهرت كلها ! وكان من الممكن أن يعدموه ، ولكنه خاطر بحياته من أجل رجليكما ، من أجل زوجك يا سيدة ميريويذر ، ومن أجل زوج ابنتك وابني شقيقتك أيضاً ، ثم من أجل شقيقك يا سيدة بونل ، وابنك وصهرك يا سيدة ألسنغ . . . جاحدات المعروف ، تلك هي حقيقتكن ! إني أسألكن أن تعتذرن جميعاً» .

وكانت السيدة ألسنغ تقف على قدميها ، تجمع أدوات الخياطة في علبتها وفمها مستعد للكلام :

ـ «لو أن أحداً أخبرني أن من الممكن أن تكوني سيئة التربية هكذا يا ميلي ـ لا ، أنا لن أعتذر ، وإن إنديا على حق ، فسكارلت طائشة ، داعرة ، ولا يمكنني أن أنسى كيف تتصرف منذ جمعت بعض النقود» .

ـ «إن ما لا يمكنك نسيانه . .» اعترضت ميلاني وهي تضغط قبضتيها الصغيرتين على جانبيها «هو أنها أنزلت رتبة هيو لأنه لم يكن حاذقاً إلى تلك الدرجة التي تمكنه من إدارة المعمل» .

ـ «ميلي !» أنت مجموعة أصوات .

ودفعت السيدة ألسنغ رأسها إلى الأعلى ، واتجهت إلى الباب ، وبعد أن وضعت يدها على المقبض ، وقفت واستدارت :

ـ «ميلي» قالت وصوتها ينخفض «يا حلوتي ، إن هذا يحطم قلبي ، لقد

كنت أعز صديقات والدتك ، كما أني ساعدت الطبيب ميد في توليدك ، وإني أحبك كما لو كنت ابنتي . ولو أن القضية ذات أثر لما كان من المؤلم أن أسمعك تتكلمين بمثل هذا الكلام ، ولكنها بسبب امرأة كسكارلت أوهارا قامت مؤخراً بدور قذر معك ، كما فعلت معنا جميعاً» .

كانت عينا ميلاني قد أجهشتا بالدموع ، بفعل كلمات السيدة ألسنغ الأولى ، ولكن وجهها ما عتم أن تصلب عندما فرغت السيدة العجوز من كلامها .

ـ «إني أريد أن يُفهم» قالت «إن أياً منكن لا تزور سكارلت ليس بها حاجة إلى أن تزورني أبداً أبداً .

وسمع لغط مرتفع ، ودبت الفوضى ، عندما نهضت السيدات ، وأسقطت السيدة ألسنغ علبة الخياطة على الأرض وعادت أدراجها إلى داخل الغرفة وإطار ثوبها يهتز بانحراف .

ـ «إني لا أقبل بذلك !» صاحت «إني لا أقبل بذلك ! إنك لست في حالة وعي الآن يا ميلي ، وإني لا أحملك أية مسؤولية . وستظلين صديقتي ، وأظل أنا صديقتك ، كما أني أرفض أن تكون هذه المخلوقة سبباً في الوقيعة بيننا» .

وبينما هي تبكي ، إذ بميلاني تصبح بين ذراعيها بطريقة ما ، وهي تبكي كذلك ، ولكنها تصرح خلال الشهقات أنها كانت تعني كل كلمة قالتها . ثم انفجرت عدة سيدات في البكاء فيما عانقت السيدة ميريويذر كلا السيدتين ألسنغ وميلي ، وهي تمخط بمنديلها بصوت مرتفع ، أما العمة بيتي التي كانت شاهدة مذهلة للمشهد كله ، فقد زلقت إلى الأرض فجأة في إحدى إغماءاتها الحقيقية القليلة التي تنتابها في حياتها . ووسط الدموع والفوضى والتقبيل والبحث السريع عن أملاح الإغماء والبراندي ، كان هناك وجه ساكن واحد فقط ، زوج واحد من العيون الجافة فقط ، وانسلت إنديا ويلكس من الغرفة دون أن يلحظها أحد .

وما انقضت عدة ساعات على الحادث ، حتى كان غراندبا ميريويذر يروي وقائع الصباح ، التي كان قد سمعها من السيدة ميريويذر ، إلى العم هنري في صالون الفتاة العصرية . كان يرويها بمبالغة ، فقد كان مبتهجاً لأن إحدى النساء كانت تملك الشجاعة الكافية لتواجه زوجة ابنه المتعجرفة وتهزمها ، فمن الأكيد أنه لم يكن هو نفسه يملك مثل هذه الشجاعة في أي يوم .

ـ «حسناً، وماذا قررت عصبة الحمقاوات السخيفات أن يفعلن؟» سأل العم هنري.

ـ «لا أعرف تماماً» قال غراندبا «ولكن يبدو لي أن ميلي انتصرت عليهن في هذه الجولة. إني أراهن أنهن سيقمن بالزيارة جميعاً، على الأقل مرة واحدة، فالناس يقيمون وزناً كبيراً لابنة شقيقتك تلك يا هنري».

ـ «ميلي حمقاء والسيدات على حق. إن سكارلت مخلوقة غرارة، وأنا لا أرى لماذا تزوجها تشارلز» قال العم هنري باكتئاب «ولكن من أحد الوجوه كانت ميلي على حق كذلك، إذ إن من اللائق أن تقوم عائلات الرجال الذين أنقذهم الكابتن بتلر بزيارة العروسين. وإن شئت الصراحة فإني لا أحمل كبير حقد على بتلر، لقد بدا رجلاً طيّباً في تلك الليلة، حين أنقذنا. وإن سكارلت هي التي تثير حنقي أبداً، إنها جميلة المنظر كثيراً، الأمر الذي يضر بمصلحتها. والواقع أني مضطر للقيام بالزيارة سواء أكان سكالاواغ أم لم يكن، فسكارلت هي زوجة ابن شقيقي، وعلى كل حال كنت أنوي القيام بالزيارة بعد ظهر هذا اليوم.

ـ «سأذهب معك يا هنري».

*

كان ريت على صواب فيما قال حين أخبر سكارلت بأن الحرس القديم لن يستسلم أبداً. كان يدرك أي معنى ضئيل كانت تعني تلك الزيارات القليلة التي كرِّما بها، كما كان يعرف سبب القيام بتلك الزيارات. ففي بادئ الأمر، زارتهما عائلات الرجال الذين كانوا قد اشتركوا في غارة الكلان السيئة الطالع تلك، ولكن زياراتها ما لبثت أن ندرت بعد ذلك، كما أن تلك العائلات لم تدعهما إلى بيوتها.

لقد قال ريت إنهم لم يكونوا ليأتوا لولا الخوف من تأنيب ميلاني الشديد. ولم تكن سكارلت تعرف من أين أتى زوجها بهذه الفكرة، ولكنها ما عتمت أن طردتها بالازدراء الذي تستحقه، فأي سلطة ممكنة يمكن أن تكون لميلاني على الناس من أمثال السيدة ألسنغ والسيدة ميريويذر؟ وأما أنهم لم يقوموا بزيارات ثانية فإن ذلك لم يزعجها إلاّ قليلاً، والحقيقة أنها كادت أن لا تشعر بغيابهم، لأن جناحها كان مزدحماً بضيوف من نمط آخر، ضيوف كان

يدعوهم الأتلانتيون الأصليون «الناس الجدد» حين كانوا لا يدعونهم باسم أقل تهذيباً من هذا .

كان هناك «ناس جدد» كثيرون ، يقيمون في الفندق الأهلي ، ينتظرون اكتمال بناء بيوتهم ، شأن ريت وسكارلت . كانوا أناساً مرحين أغنياء ، يشبهون أصدقاء ريت في نيو أورليانز شبهاً كبيراً ، أناساً ظريفي الثياب ، أحراراً في التصرف بأموالهم ، غامضي الماضي . وكان جميع الرجال منهم جمهوريين وجدوا «في أتلانتا بأعمال تتعلق بحكومة الولاية» أما ماذا كانت تلك الأعمال فلم تكن سكارلت تعرف ، بل لم تكن تزعج نفسها لتعرف .

في الحقيقة ، كانت حكومة جورجيا بمواطنيها الأصليين قد ماتت فغدت الولاية عديمة الحيلة مزدحمة بالمغامرين .

وكانت زوجات أصدقاء ريت ، من السكالاواغ والكاربت بغرز ، يزرن سكارلت جماعات جماعات ، شأن «الناس الجدد» الذين كانت قد قابلتهم عندما كانت تبيعهم الخشب لبناء بيوتهم . وقد أخبرها ريت أن من واجبها أن تستقبلهم نظراً لأنها كانت قد تعاملت معهم . وبعد أن استقبلتهم وجدتهم رفقة سارة ، فقد كانوا يرتدون ملابس جديدة ، ولا يتحدثون عن الحرب أو الأوقات الصعبة أبداً ، وإنما يقصرون حديثهم على الأزياء والفضائح ولعب الورق ، ولم تكن سكارلت قد لعبت الورق من قبل ، ولذلك أقبلت عليه مبتهجة وسرعان ما غدت لاعبة ماهرة .

والواقع أنها كلما وجدت في الفندق كلما كان يجتمع في شقتها حشد من لاعبي الورق . ولكنها لم تكن دائماً في شقتها هذه الأيام ، لأنها كانت مشغولة جداً ببناء بيتها الحديث بحيث لم تكن تسمح بأن يعيقها الزوار عن ذلك ، كما أنها لم تكن تحفل هذه الأيام أجاءها زوار أو لم يجيئوها ، خصوصاً أنها كانت ترغب في تأخير نشاطاتها الاجتماعية إلى اليوم الذي يتم فيه بناء البيت ، وتستطيع أن تبرز فيه كسيدة أكبر فيلا في أتلانتا ، ومضيفة أعظم الحفلات الفخمة التي شهدتها المدينة .

وخلال الأيام الطويلة الدافئة ، راحت تراقب بيتها الحجري الأحمر ، بحصبانه الرمادية ، يرتفع بفخامة ، ليعلو أي بيت آخر في شارع بيتشتري ، وهكذا كانت تصرف وقتها هنالك ، ناسية المخزن والمعملين ، تصرفه في نقاش

مع النجارين وشجار مع البنائين وفي إزعاج المقاول . وبينما كانت الجدران ترتفع بسرعة ، كانت سكارلت تفكر ، بنفس قانعة ، بأن بيتها سيكون عند تمامه أكبر من أي بيت في المدينة وأجمل ، بل سيكون أكثر تأثيراً في النفس من منزل جيمس المجاور ، المنزل الذي كان قد اشتري مؤخراً ، ليتخذ كمسكن رسمي للحاكم بولوك .

كان البناء بمجمله عبارة عن عمارة تأخذ بنفس الإنسان ، وتذكرت سكارلت وهي تخطو فوق السجاجيد الطرية ، وتغوص في حضن سرر الريش الوثيرة ، تذكرت أراضي الغرف الباردة والفرش المحشوة قشّاً في تارا ، فطابت نفساً ، وفكرت أن بيتها كان من أجمل البيوت ، التي رأتها تأثيثاً وأعظمها أناقة ، ولكن ريت قال إنه كابوس . ومهما كان الأمر ، فإن هذا البيت جعلها تشعر بالسعادة فأهلاً وسهلاً بها فيه .

ـ «سيعرف الغريب أن هذا البيت بُني بمال حرام دون أن يقال له شيء عنّا» قال «وإنك تعرفين يا سكارلت أن المال الحرام لا ينتج عنه الخير أبداً . وهذا البيت برهان على هذه البدهية . إنه البيت ذاته الذي يمكن للاستغلالي أن يبنيه» .

ولكن سكارلت ، التي كانت في أوج ازدهائها وسعادتها ، والتي كان رأسها زاخراً بترتيبات الولائم التي كان ينتظر أن تقيمها حين يتمركزون نهائيّاً في البيت ، لم تزد على أن قرصت أذنه مداعبة وقالت :

ـ «هراء ! كيف أنك تمضي في حديثك» .

كانت تعرف الآن أن ريت كان يرغب في التضييق عليها ، وأنه كان سيفسد عليها هناءها ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، إن هي لم تعر أذناً مصغية لسخريته . ثم إن هي اعتبرت كلامه جدياً فسترغم على الشجار معه وهي التي لم تكن تعبأ بمبارزات السيوف ، لأنها كانت تخرج منها دائماً في المرتبة الثانية ، وهكذا كانت نادراً ما تصغي إلى أي شيء يقوله ، وما كانت ترغم على سماعه كانت تجرب تحويله إلى فكاهة . وعلى الأقل ، لقد جربت ذلك فترة قصيرة .

وفي أثناء شهر العسل ، وخلال معظم إقامتهما في الفندق الأهلي ، كانا يعيشان معاً بلطف . ولكن ما كادا ينتقلان إلى البيت الجديد ، وتجمع سكارلت صديقاتها الجديدات حولها ، حتى نشبت بينهما مشاجرات حادة مفاجئة .

كانت مشاجرات قصيرة ، لأنه كان من المستحيل الاستمرار في شجار مع ريت ، الذي كان يظل عديم الاكتراث بكلماتها الحادة حتى تحين له فرصة يلسعها فيها في مكان لا تستطيع الدفاع عنه . وبكلمة أخرى كانت هي تشاجر ، أما ريت فلا ، بل كان يعلن أو يقرر رأيه الذي لا لبس فيها عنها وعن أعمالها وعن بيتها وأصدقائها . على أن بعض آرائه كانت ذات طبيعة لم يعد بوسع سكارلت معها أن تتجاهلها وتعتبرها دعابات .

مثال ذلك أنها عندما قررت تغيير اسم «مخزن كندي العمومي» إلى اسم آخر أكثر بلاغة . طلبت منه أن يفكر بعنوان يشمل كلمة «أمبوريوم» ، أي المركز التجاري ، . وعندئذ اقترح ريت «كافيت أمبوريوم» وتعني سوق الحذر ، مؤكداً لها أنه سيكون عنواناً منسجماً تماماً مع نوع البضائع التي تباع في المخزن . واعتقدت هي أن سماع هذا الاسم مؤثر ، وذهبت في موافقتها عليه بعيداً إلى حد أنها قررت كتابة اللافتة ، إلى أن ترجم آشلي ويلكس ، وهو مرتبك ، المعنى الحقيقي للعنوان ، فثار ريت وزأر رداً على حنقها .

ثم كانت هناك طريقة معاملته لمامي ، ولم تكن هذه قد تراجعت قيد أنملة عن موقفها في أن ريت كان بغلاً في عدة حصان ، أجل لقد كانت مهذبة معه ، ولكن بفتور ، وكانت تدعوه دائماً «كابتن بتلر» وليس «السيد ريت» أبداً . وكذلك لم تبد أي مجاملة عندما أهداها ريت الصدرة الحمراء ، كما أنها لم تلبسها أيضاً . وكانت تبعد ويد وإيلا عن طريقه كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، رغم حقيقة كون ويد كان يحب العم ريت ، كما كان من الواضح أن ريت مولع بالصبي . ولكن بدلاً من طرد مامي أو معاملتها بجفاء وعبوس ، كان ريت يعاملها بأعظم إكرام ، بلطف أكثر بكثير مما يعامل به أي سيدة أخرى من معارف سكارلت الجدد ، بل في الحقيقة ، بلطف أكثر مما كان يعامل به سكارلت نفسها . فكان دائماً يستأذن مامي لتسمح له بأخذ ويد في العربة معه ، ويستشيرها قبل أن يشتري ألعاب إيلا ، وندر أن كانت مامي مهذبة معه .

وكانت سكارلت تشعر بأن من واجب ريت أن يكون صارماً مع مامي كما يليق برب البيت ، غير أن ريت لم يزد على أن ضحك قائلاً إن مامي هي رب البيت الحقيقي .

وكان يثير حنق سكارلت عندما كان يقول ببرود إنه كان يتهيأ لتحمّل

الأسف الشديد من أجلها بعد بضع سنين، عندما يزول الحكم الجمهوري من جورجيا، ويعود الديموقراطيون إلى السلطة.

«عندما يظفر الديموقراطيون بحاكم وبمجلس تشريع من بينهم سيُجلى جميع أصدقائك الجمهوريين المبتذلين الجدد عن رقعة الشطرنج، ويعادون إلى خدمة البارات ونزح الأقنية، تينك المهنتين اللتين ينتمون إليهما. وستتركين أنت في وضع حرج، ولا صديق ديموقراطياً أو جمهورياً لك أبداً. حسناً، لا تهتمي بالغد.

وضحكت سكارلت، وكانت على جانب من الحق، لأن بولوك كان في ذلك الوقت يتربع بأمان في كرسي الحاكم، وكان سبعة وعشرون زنجيّاً أعضاء في المجلس التشريعي، وآلاف من المنتخبين الديموقراطيين من جورجيا محرومين من حقوقهم المدنية.

ـ «لن يعود الديموقراطيون أبداً. كل ما يستطيعون فعله هو أن يزيدوا في جنون الشماليين ويؤخروا اليوم الذي يمكنهم العودة فيه. كل ما يفعلونه هو التبجح في الكلام والعمل في الليل ضمن منظمة الكلان».

ـ «سيعودون. إني أعرف الجنوبيين. إني أعرف الجورجيين. إنهم صلاب عنيدون جداً. وإذا ما اضطروا إلى خوض حرب ثانية من أجل العودة فإنهم سيخوضونها. وإذا هم اضطروا إلى شراء أصوات زنجية، كما يفعل الشماليون، فسيشترونها. وإذا اضطروا أيضاً إلى الاقتراع بأصوات عشرة آلاف رجل ميت كما فعل الشماليون، فإن كل جيفة في كل مقبرة في جورجيا ستسجل في قوائم الناخبين. إن الأمور ستسوء جداً تحت حكم صديقنا المخلص روفوس بولوك، حكمه الرحيم، حتى أن جورجيا ستلفظه».

ـ «ريت، لا تتفوه بكلمات مبتذلة كهذه!» صاحب سكارلت «إنك تتحدث كما لو أني لن أكون سعيدة برؤية الديموقراطيين يعودون! وإنك تعرف أن الأمر ليس كذلك، لأني سأكون سعيدة جداً برؤيتهم يعودون، هل تعتقد أني أحب رؤية هؤلاء الجنود يتسكعون حولنا، ويذكرونني بـ . . . هل تعتقد أني أحب . . . عجباً، إني جورجية كذلك. إني أحب رؤية الديموقراطيين يعودون. ولكنهم لن يعودوا، لا، أبداً، وحتى لو عادوا فلن يؤثر ذلك في أصدقائي؟ إنهم سيظلون ينعمون بأموالهم، أليس كذلك؟».

ـ «إذا احتفظوا بها . إلاّ أني أشك في مقدرة أي منهم على الاحتفاظ بأمواله مدة تتجاوز الخمس سنين مع هذا المستوى من الصرف الذي هم عليه ، إن المال الذي يأتي بسهولة يذهب بسهولة . إن أموالهم لن تجديهم نفعاً ، لن تفيدهم أكثر مما أفادتك أموالي ، فهي حتماً لم تجعل منك حصاناً حتى الآن ، أليس كذلك يا بغلتي الجميلة ؟» .

دام النزاع الذي شجر بسبب هذه العبارة الأخيرة أياماً . وبعد اليوم الرابع من عبوس سكارلت وطلباتها الصامتة الجلية كي يعتذر إليها ، ذهب ريت إلى نيو أورليانز مصطحباً ويد معه ، رغم احتجاجات مامي ، وظل هناك إلى أن انقضت ثورة سكارلت ، إلاّ أن لسعة عدم إخضاعه ظلت ترمضها .

وعندما عاد من نيو أورليانز بارداً أنيساً ، كتمت سكارلت غضبها بأحسن صورة ممكنة ، ودفعته إلى مؤخرة عقلها لتفكر فيه فيما بعد ، إذ لم تكن تريد أن تكدر نفسها بأي شيء مؤسف الآن ، بل كانت ترغب في أن تكون سعيدة ، لأن عقلها كان منهمكاً بموضوع المأدبة الأولى التي ستقيمها في البيت الجديد ، كان من المنتظر أن تكون حفلة ليلية كبيرة ، تزيّن بسعف نخل وتعزف فيها أوركسترا ، وتكون جميع الشرف خلالها مكسوة بالخيش ، ويكون فيها من الطعام ما يسيل لعابها في انتظاره . وقد عزمت على أن تدعو إليها كل من كانت تعرفه في أتلانتا : جميع الأصدقاء ، القدامى والجدد ، والشخصيات الفاتنة التي كانت قد قابلتها منذ عادت من شهر العسل ، وهكذا لاشى سرورها بالحفلة الجزء الأكبر من ذكرى لذعات ريت ، فغدت سعيدة وهي تضع ترتيبات حفلتها ، أسعد مما كانت منذ سنين .

*

وجهت سكارلت الدعوة إلى جميع أصدقائها ومعارفها القدامى والجدد ، حتى إلى أولئك الذين لم تكن تميل إليهم ، ولم تستثن حتى السيدة ميريويذر التي كانت وقحة تقريباً عندما زارتها في الفندق الأهلي ، أو السيدة ألسنغ التي كانت باردة حتى درجة التجمد ، وكذلك السيدتين ميد وويتنغ اللتين كانت تعرف أنهما تبغضانها ، واللتين كانت تعرف أنهما كانا من المنتظر أن ترتبكا لأنهما لم تكونا تملكان الثياب اللائقة لترتدياها لاجتماع رفيع كهذا ، ذلك لأن حفلة تبريك بيت سكارلت أو حفلة «التدشين» كما كانت تدعى أمثال هذه

الحفلات المسائية في العادة، حيث يتوزع الوقت بين استقبال ورقص، كانت إلى حد كبير أعظم حدث فخم شهدته أتلانتا.

تلك الليلة، كان البيت والشرفات، المغطاة بالخيش، يعجان بالضيوف الذين شربوا الشمبانيا وأكلوا الباتيه والمحار بالقشدة ورقصوا على أنغام الأوركسترا التي كانت محجوبة بعناية خلف جدار من سعف النخل ونبات المطاط. إلاّ أن أيّاً من أولئك الذين كان ريت قد دعاهم بـ«الحرس القديم» لم يحضر الحفلة، باستثناء ميلاني وآشلي والعمة بيتي والعم هنري والدكتور ميد وقرينته والجد ميريويذر (غراندبا).

كانت طائفة كبيرة من الحرس القديم قد قررت كارهة حضور حفلة التدشين، وقد وافق البعض مراعاة لموقف ميلاني، بينما شعر آخرون أن لريت ديناً كبيراً عليهم لأنه كان قد أنقذ أرواحهم وأرواح أقربائهم. ولكن حدث قبل يومين من موعد الحفلة أن سرت إشاعة في أتلانتا بأن الحاكم بولوك كان من بين المدعوين، وعندئذ أبدى أفراد الحرس القديم استنكارهم بإرسال رزمة بطاقات، يعلنون فيها عن أسفهم لعدم استطاعتهم قبول دعوة سكارلت الرقيقة. كما أن مجموعة الأصدقاء القدامى القليلين، الذين حضروا الحفلة، غادروها حالما دخل الحاكم منزل سكارلت.

انفعلت سكارلت كثيراً وثارت جراء هذا الاستخفاف، حتى إن الحفلة فشلت تماماً «حفلة تدشين بيتها الفخمة!» وكانت قد أعدت لها العدة بصورة رائعة جداً، فلم يحضرها إلاّ هذا العدد القليل من الأصدقاء القدامى، كما لم يكن فيها أحد من الأعداء القديمين ليروا ما كان أروعها من حفلة! وبعد أن غادر آخر ضيف المنزل عند الفجر، كان من المتوقع أن تبكي سكارلت وتثور لو لم تكن خائفة من أن يدوي ريت بالضحك، خائفة من أن تقرأ «لقد أخبرتك بهذا» في عينيه السوداوين الراقصتين حتى ولو لم يلفظ بالكلمات. وهكذا بلعت سخطها بطيبة مُذلّة، وتظاهرت بعدم الاهتمام.

ولم تسمح لنفسها بالإفصاح عن غضبها المكبوت إلاّ لميلاني في الصباح التالي:

ـ «لقد أهنتني يا ميلي ويلكس، كما أنك جعلت آشلي والآخرين يهينونني. أنت تعرفين أنهم لم يكونوا ليذهبوا إلى بيوتهم بهذه السرعة لو أنك لم

تجريهم . آه ، لقد رأيتك ! تماماً عندما شرعت بإحضار الحاكم بولوك لأقدمه إليك . جريت كأرنب !» .

ـ «إني لم أصدق . . . بل لم يكن بوسعي أن أصدق أنه يمكن أن يكون موجوداً حقاً» أجابت ميلاني باكتئاب «مع أن الجميع قالوا . . . .» .

ـ «الجميع ! إذاً ، لقد كان الجميع يثرثرون ويهذون عني ، أليس كذلك؟» . صاحت سكارلت بحدة «هل تقصدين أن تخبريني أنك لو كنت تعرفين أن الحاكم سيأتي لما كنت أتيت أيضاً؟» .

ـ «لا» قالت ميلاني بصوت خفيض وعيناها مطرقتان إلى الأرض «حبيبتي ، لم يكن بوسعي القدوم وحسب» .

ـ «يا للجحيم ! إذاً ، كنت ستهينينني كما فعل الآخرون !» .

ـ «آه يا للرحمة !» صاحت ميلي ببؤس «إني لم أقصد إيذاءك ، فأنت زوجة شقيقي يا حبيبتي ، أرملة شارلي . وإني . . .» .

ووضعت يداً واهنة على ذراع سكارلت ، ولكن سكارلت طوحت بها بعيداً ، متمنية بحماسة أن لو تستطيع الصياح بصوت مرتفع ، كما كان يفعل جيرالد إبان ثورته . غير أن ميلاني واجهت حنقها ، وبينما هي تنظر في عيني سكارلت الخضراوين الهائجتين ، شمخت أعطافها النحيلة ، وغمرها وشاح من المهابة ، الأمر الذي كان يناقض بصورة غريبة وجهها وقوامها الشبيهين بوجوه الأطفال وقوامهم .

ـ «إني آسفة لأنك أوذيت يا عزيزتي ، ولكن ليس بوسعي مقابلة الحاكم بولوك أو أي جمهوري أو سكالاواغ . إني لن أقابلهم سواء في بيتك أو في أي بيت آخر . لا ، حتى لو اضطررت . . حتى لو اضطررت . . .» .

وبحثت ميلاني عن أسوإ شيء يمكن أن تفكر به « . . . حتى ولو اضطررت إلى أن أكون وقحة» .

ـ «هل تنتقدين أصدقائي؟» .

ـ «لا يا عزيزتي ، فهم أصدقاؤك وليسوا أصدقائي» .

ـ «هل تنتقدينني لأني دعوت الحاكم إلى بيتي؟» .

ـ «حبيبتي ، إن الذي تفعلينه تفعلينه دائماً لسبب وجيه . وإني أحبك وأثق بك ، وليس من شأني أن أنتقد ، كما أني لن أسمح لأي إنسان أن ينتقدك على

مسمع مني ، آه ، يا سكارلت !» وفجأة بدأت تتدفق من فمها كلمات سريعة حادة ، في صوت يحمل كراهية لا تلين : «هل بوسعك نسيان ما فعله هؤلاء الناس بنا؟ هل بوسعك نسيان الحبيب تشارلز الميت؟ وصحة آشلي المنهار . . وتولف أوكس المحترق؟ آه يا سكارلت ! إن هؤلاء الناس أنفسهم هم الذين دعوتهم إلى حفلتك ، الذين سرقونا وعذبونا وتركونا نتضور جوعاً ! هؤلاء الناس أنفسهم هم الذين رفعوا الزنوج ليحكمونا ، والذين يسرقوننا ويمنعون رجالنا من التصويت ! إني لا أستطيع أن أنسى ، ولن أنسى ، كما أني لن أدع بو ينسى ، وسأعلم أحفادي إن أحياني الله إلى ذلك الوقت ! سكارلت ، كيف يسعك أن تنسي؟ !» .

وصمتت ميلاني لتأخذ نفساً ، بينما كانت سكارلت تحدق إليها وقد شدهت عن غضبها بتأثير لهجة العنف المتهدجة في صوت ميلاني .

ـ «هل تعتقدين أني حمقاء؟» سألت بجزع «طبعاً إني أتذكر ! على أن ذلك كله قد انقضى يا ميلي ، واحتمال الأوضاع الراهنة يتوقف علينا ، وإني أحاول ذلك . وبوسع الحاكم بولوك وبعض كرام الجمهوريين أن يساعدونا كثيراً إذا نحن عاملناهم كما يجب» .

ـ «لا يوجد جمهوريون كرام» قالت ميلاني بصراحة «كما أني لا أريد مساعدتهم ، وذلك لا أنوي أن أحمل نفسي على تحمل هذه الأوضاع إن كانت من صنع الشماليين» .

ـ «يا لله الرحيم ، لماذا نتورط في مأزق كهذا؟» .

ـ «ها» ، صاحت ميلاني وهي تبدو مقرعة الضمير «كيف أمضي في حديثي ! إن كل إنسان يرى صواب رأيه . والآن يا عزيزتي ، إني أحبك وأنت تعلمين بأني أحبك ، ولن يغيرني أي شيء يمكن أن تفعليه . وأنت ما زلت تحبينني ، أليس كذلك؟ فأنا لم أجعلك تكرهينني ، أليس كذلك؟ سكارلت ، إني لا أستطيع تحمل وقوع خلاف بيننا ـ بعد كل هذه المدة التي قضيناها معاً ! إني لم أقصد إهانتك أو انتقادك ، فكل إنسان يفكر غير تفكير الآخر» .

ـ «هراء يا ميلي ، أي عاصفة تثيرينها في فنجان» قالت سكارلت بحقد ، ولكنها لم تطوح باليد التي تسللت حول خصرها .

ـ «الآن لقد تفاهمنا ثانية . قالت ميلاني بسرور ، ولكنها أضافت بصوت

رقيق «أريد أن نتزاور كما كنا نفعل يا عزيزتي . فقط دعيني أعرف أي أيام يأتي فيها الجمهوريون والسكالاواغ لزيارتك ، حيث سأظل في بيتي» .

ـ «إني لا أبالي مطلقاً سواء أأتيت أم لم تأت» قالت سكارلت ذلك وارتدت قبعتها وانطلقت إلى البيت حانقة ، وقد جعلَتها سحنة ميلاني المتألمة تشعر ببعض الرضا لغرورها .

*

خلال الأسابيع التي تلت حفلتها كان من العسير على سكارلت أن تحافظ على مظهر عدم الاكتراث التام بالرأي العام . وعندما لم يزرها الأصدقاء القدامى ما عدا ميلاني وبيتي والعم هنري وآشلي ، وعندما لم تتلق بطاقات الدعوة لحضور حفلاتهم المتواضعة ، حارت وتكدّرت فعلاً . ألم تتخل هي عن أسلوبها لتدفن نزاعات الماضي ولتري هؤلاء الناس أنها لا تضمر لهم نية سيئة بسبب ثرثرتهم واستغابتهم لها؟ حتماً كان ينبغي أن يعرفوا أنها لم تكن تحب الحاكم بولوك أكثر مما كانوا هم يحبونه . ولكن كان من المناسب أن تكون لطيفة معه ، يا للبلهاء ! لو كان كل إنسان لطيفاً مع الجمهوريين لكان من المنتظر أن تخرج جورجيا بسرعة فائقة من الأزمة التي تردّت فيها .

ولم تتبين في ذلك الوقت أنها بضربة واحدة كانت قد قطعت ، إلى الأبد ، كل رابطة واهية كانت لا تزال تربطها بالأيام القديمة ، والأصدقاء القدامى ، ولم يكن بوسع حتى نفوذ ميلاني أن تعقد ذلك الخيط العنكبوتي الذي انقطع . كما أن ميلاني المضطربة الكسيرة القلب ، التي ما زالت مخلصة ، لم تجرب عقده ، حتى ولو أرادت سكارلت أن تعود إلى الأساليب القديمة ، وإلى الأصدقاء القدامى ،لما وجدت العودة ممكنة الآن ، فلقد انقلب وجه المدينة ضدها وأصبح وجهاً متحجّراً كالغرانيت . وكذلك شملتها الكراهية التي كانت تشمل حكومة بولوك ، كراهية قليلة النار والغضب ، ولكنها وافرة بالحقد البارد ، لقد ألقت سكارلت قرعتها مع العدو ، ومهما كانت صلات نسبها وعائلتها ، فقد غدت الآن ضمن فئة المرتدين ، محبي الزنوج ، الخونة الجمهوريين والسكالاواغز .

وبعد برهة يائسة ، رضخ عدم اكتراث سكارلت المزعوم للأمر الواقع ، ولم تعد ذلك الشخص الذي ينزعج طويلاً بسبب أهواء التصرف الإنساني ، أو الذي يكتئب طويلاً إذا ما فشل في عمل من أعماله ، وسرعان ما أصبحت لا

تحفل بما يعتقد فيها آل ميريويذر وألسنغ وويتنغ وبونل وميد والآخرون ، فعلى الأقل ، كانت ميلاني تزورها ، وتصطحب معها آشلي ، وكان آشلي هو الشخص الذي يهمها أكثر من الجميع . كما أنه كان يوجد أناس آخرون في أتلانتا كان ينتظر قدومهم إلى حفلاتها ، أناس آخرون أكثر مجانسة لها بكثير من تلك «الدجاجات» العتيقات الضيقات العقول . فكان بوسعها أن تملأ بيتها بالضيوف إن شاءت ، وكان من المنتظر أن يكون هؤلاء الضيوف أكثر إمتاعاً بكثير ، وأجمل لباساً بكثير من أولئك الغبيات المسنات المتزمتات ، الضاغطات ثيابهن ، واللواتي لم يكن راضيات عنها .

كانت الجماعة التي تختلط بها الآن مجموعة مختلفة المشارب ، فقد كان بينهم الجيليرتيون ، الذين كانوا قد عاشوا في أكثر من عشر ولايات مختلفة ، والذين كان من الواضح أنهم غادروا كل ولاية على عجل إثر اكتشاف أساليبهم الاختلاسية . وكان بينهم الكونينغتيون الذين كانت صلاتهم بهيئة التحرير في ولاية بعيدة مربحة جداً على حساب الزنوج الجهلة ، الذين كان من المفروض أن يحموهم . ثم الديليون الذين كانوا قد باعوا أحذية «كرتونية» إلى الحكومة الحلفية ، حتى أصبح من الضروري بالنسبة إليهم أن يقضوا السنة الأخيرة من الحرب في أوروبا . ثم كان هناك الهوندونيون الذين كانت لهم سجلات في دوائر الشرطة في مدن كثيرة ، ولكنهم مع ذلك كانوا غالباً مزايدين ناجحين في التعهدات الحكومية . والكراهانيون الذين كانوا قد بدأوا نشاطهم في دار للقمار وكانوا الآن يقامرون على صفقات أكبر في بناء السكك الحديد غير الموجودة وذلك بأموال الحكومة ، ثم الفلاهرتيون الذين كانوا قد اشتروا رطل الملح بسنت واحد في عام ١٨٦١ ، ثم البرتيون الذين كانوا يملكون أكبر المواخير في العواصم الشمالية خلال الحرب ، وكانوا الآن يتنقلون في أحسن أوساط مجتمع الكاربت بغرز .

أناس كهؤلاء غدوا أصفياء سكارلت الآن ، أما أولئك الذين كانوا يحضرون ولائمها الكبيرة فكانوا يشملون أناساً آخرين ذوي ثقافة وتهذيب ، وكان الكثيرون منهم من عائلات ممتازة . وهكذا ، نظراً لكون جميع هؤلاء غرباء في مدينة غريبة ، كانوا سعداء في بادئ الأمر بتلبية الدعوات إلى الحفلات المسرفة التي كانت تقيمها السيدة بتلر الثرية المكرامة ، ولكنهم سرعان ما انسلوا من

زمرتها . فلقد كانوا أناساً طيبين ، لا يحتاجون إلاّ إلى معرفة قصيرة فقط بالكاريت بغرز وحكم الكاريت بغرز حتى يصبحوا حانقين عليهم كمواطني جورجيا الأصليين . وهكذا أضحى الكثيرون ديموقراطيين وأكثر جنوبية من الجنوبيين .

في هذا المجتمع المتعدد المشارب ، المجتمع الملفوظ بجميع عناصره بسبب مقتضيات الوضع السياسي ، كان يوجد شيء مشترك واحد فقط ، وذلك الشيء هو المال ، فلأن معظم الناس لم يكونوا يملكون مبلغ خمسة وعشرين دولاراً دفعة واحدة ، في كل حياتهم قبل الحرب ، لذلك كانوا الآن منغمسين في فورة من تبذير المال ، بصورة لم تشهدها أتلانتا من قبل .

وبوجود الجمهوريين في سدة الحكم ، دخلت المدينة في مرحلة من التبذير والمباهاة ، حيث كانت براقع التهذيب المزخرفة لا تموه إلاّ قليلاً عن الرذيلة والابتذال الكامنتين تحتها ، ولم يحدث من قبل أن برز الفرق بين الأثرياء والمعوزين على هذه الصورة ، فكان أولئك الذين في الغمة لا يعبأون أبداً بالذين هم أقل منهم . باستثناء الزنوج طبعاً ، إذ كان يجب أن يظفروا بأحسن الأشياء ، أحسن المدارس والمساكن والثياب ووسائل الطرب ، لأنهم كانوا القوة في السياسة ، وكان لكل صوت زنجي قيمته . أما بالنسبة إلى أهل أتلانتا ، الذين افتقروا مؤخراً ، فقد كان بوسعهم أن يتضوروا جوعاً ويسقطوا في الشوارع دون أن يكترث بهم الجمهوريون المثرون حديثاً .

وعلى رأس هذه الموجة من الابتذال ، ركبت سكارلت منتشية : عروس جديدة ، رائعة الجمال في ثيابها البديعة ، ونقود ريت تدعمها بقوة ، لقد كانت هذه المرحلة توافقها : مرحلة فجة مبهرجة زاهية مليئة بالنساء الغنيات بالثياب ، والبيوت الغنية بالأثاث والجواهر الكثيرة والخيول العديدة والطعام الوافر والويسكي الغزير . وعندما كانت سكارلت تتوقف نادراً لتفكر بالأمر ، كانت تعرف أنه لا يمكن لأي من عشيراتها الجديدات أن تدعى سيدة ، حسب مقاييس إيلين الصارمة ، غير أنها كانت قد نبذت مقاييس أمها مرات عديدة ، منذ ذلك اليوم البعيد عندما وقفت في الردهة في تارا وقررت أن تكون خليلة ريت ، ولم تكن تشعر بتقريع الضمير كثيراً في هذه الأيام .

ربما لم يكن هؤلاء الأصدقاء الجدد سيدات وسادة بالمعنى الدقيق ، إلاّ أنهم

كانوا كأصدقاء ريت في نيو أورليانز ممتعين أكثر بكثير من أصدقاء أيامها الأولى في أتلانتا، أولئك الأصدقاء المغلوبون رواد الكنائس وقراء شكسبير. وباستثناء فترة شهر العسل، لم تكن سكارلت قد شعرت باللذة، منذ زمن طويل، وكذلك لم تكن قد أحست بالأمان أبدا. أما الآن وقد توفر لها الأمان، فكانت تريد أن ترقص، وأن تلهو، وأن تعربد، وأن تلتهم الطعام وترتشف الخمر الجيد، وأن تبهرج نفسها بالحرائر والساتان، وأن تتقلب على السرر الريشية والفرش الوثيرة. وقد حققت جميع هذه الرغبات، فبتشجيع ناجم عن تساهل ريت السعيد، وبتحررها من روادع عهد الصبا، وبتحررها حتى من خوفها الأخير من الفقر، كانت تطلق لنفسها العنان لتنغمس في الرفاهية التي كانت قد حلمت بها مراراً، فتعمل ما يطيب لها بالضبط، وتخبر الناس الذين لا تحبهم بأن يذهبوا إلى الجحيم.

ولم تكن مع ذلك تتردد في إظهار التعجرف على أصدقائها الجدد، من الجمهوريين والسكالاواغز، ولكنها لم تكن مع أي فئة أوقح منها مع ضباط الحامية الشماليين وعائلاتهم. فمن بين جميع الناس المتعددي المشارب، الذين تدفقوا إلى أتلانتا، كان العسكريون فقط هم الذين رفضت سكارلت استقبالهم أو التساهل معهم، بل حتى كانت تخرج عن سمتها فتسيء إليهم، أجل، لم تكن ميلاني هي الوحيدة التي لم تستطع أن تنسى ماذا كانت تعني البذلة الزرقاء، فقد كانت تلك البذلة وهاتيك الأزرار الصفراء، تعني دائماً لسكارلت أهوال الحصار ومخاوف الهرب والنهب والحرق والفقر الرهيب والعمل المضني في تارا. والآن وقد أصبحت غنية وآمنة في صداقة الحاكم وكثير من الجمهوريين البارزين، كان بوسعها أن تكون فظة مع كل جندي شمالي، ولقد كانت.

وكان ريت قد أوعز إليها مرة بأن معظم ضيوفها الرجال، الذين يجتمعون تحت سقفها، كانوا قد ارتدوا البذلة الزرقاء ذاتها، قبل زمن قصير، ولكنها أجابت بأن الشمالي لا يبدو شمالياً ما لم يكن يلبس بذلة زرقاء، الأمر الذي رد عليه ريت قائلاً «يا للمنطق! إنك جوهرة» وهز كتفيه باستهجان.

وكانت سكارلت بدافع كراهيتها للبزز الزرقاء، المتينة الزاهية، التي كانوا يرتدونها، تبتهج في صدهم أكثر وأكثر لأن ذلك كان يحيرهم كثيراً. وكان من

حتى عائلات الحامية أن تحار، لأن معظمهن كن هادئات رفيعات التهذيب، منعزلات في بلاد معادية، متلهفات على العودة إلى مواطنهن في الشمال، خجلات قليلاً بسبب الرعاع الذين كن مرغمات على دعم حكمهم - فئة أحسن إلى درجة لا تحد من عشيرات سكارلت. وهكذا كان من الطبيعي أن تحار زوجات الضباط لأن السيدة بتلر الجريئة كانت تقرب إليها نساء كبرجيت فلاهرتي السوقية الحمراء الشعر، بينما كانت تتنكر لطبعها فتهينهنّ.

غير أن السيدات اللواتي كانت سكارلت تقربهن إليها كان عليهن أن يتحملن الكثير منها، ومهما يكن من أمر فقد تحملن ذلك بسرور، لأن سكارلت لم تكن تمثل بالنسبة إليهن الثروة والظرف وحسب، بل النظام القديم أيضاً، بأسمائه القديمة وعائلاته القديمة وتقاليده القديمة التي كن يرغبن بحماسة في التعرف إليها، ومع أن العائلات القديمة التي كن متحرقات للتعرف إليها كان ينتظر أن تنبذ سكارلت من بين صفوفها إلا أن سيدات الطبقة الأرستقراطية الجديدة لم يكن يعرفن ذلك، بل كل ما كان يعرفنه أن والد سكارلت كان مالك عبيد كبير، وأن أمها كانت من آل روبلارد من سافانا، وأن زوجها كان ريت بتلر من شارلستون، الأمر الذي كان كافياً بالنسبة إليهن. لقد كانت سكارلت بمثابة جسرهن الموصل إلى المجتمع القديم الذي كن يرغبن في دخوله، المجتمع الذي كان يحتقرهن، والذي لم يكن يرد زياراتهن، والذي كان ينحني ببرود بالغ في الكنائس. والواقع أن سكارلت كانت أكثر من جسرهن إلى المجتمع، لقد كانت بالنسبة إليهن، هن المزدهرات حديثاً من بدايات غامضة، هي المجتمع بعينه.

أما الرجال، فمع أنهم كانوا قد جمعوا مالاً، إلا أنهم تعلموا الأساليب الجديدة بسهولة أقل، أو ربما كانوا أقل صبراً على متطلبات الأرستقراطية الجديدة، فكانوا يكثرون من الشراب في ولائم سكارلت، يكثرون جداً، حتى إنه كان من العادة أن يبقى منهم ضيف أو اثنين طوال الليل على غير توقع، ولم يكن هؤلاء يشربون كالرجال الذين عرفتهم سكارلت في صباها، وإنما كانوا يصبحون مخضلين، أغبياء دميمين أو بذيئين، وأكثر من ذلك، كان يبدو على السجاجيد في الصباح التالي بقع من عصير التبغ، رغم ما كانت سكارلت تضعه من مباصق.

كانت سكارلت تزدري هؤلاء الناس ، ولكنها تسر بهم . ولأنها كانت تسر بهم ، ملأت البيت بهم ، ولأنها كانت تزدريهم ، كانت تخبرهم بأن يذهبوا إلى الجحيم مراراً كلما ضايقوها . ومع هذا فقد كانوا يتحملون ذلك منها . وكانوا يتحملون ذلك من أجل ريت ، الأمر الذي كان أكثر صعوبة ، لأن ريت كان يعرف مكنوناتهم ، وكانوا هم يعرفون ذلك ، فلم يكن يتردد في تشهيرهم باللسان ، حتى وهم تحت سقف بيته ، ودائماً ، بطريقة لا تترك لهم جواباً ، ولـمّا لم يكن ريت يخجل من كيفية جمعه لنقوده ، كان يدعي بأنهم هم أيضاً لم يكونوا يخجلون من بداياتهم ، ونادراً ما أضاع فرصة ليعلق فيها على أمور كان الجميع يشعرون بالإجماع بأن من الأفضل أن تترك في إبهام مهذب .

كانت السيدات يشعرن أنَّ ريت كان سوقياً لا يمكن احتماله ، وكان الرجال يقولون في غيبته إنه كان خنزيراً ونذلاً . وهكذا فإن أتلانتا الجديدة لم تحب ريت أكثر مما أحبته أتلانتا القديمة ، كما أن ريت لم يحاول استرضاء الجديدة إلاّ قليلاً ، تماماً كما كان قد فعل مع القديمة ، لقد تابع طريقه مسروراً ، مزدرياً ، غير متأثر بآراء هؤلاء المحيطين به ، مجاملاً جداً ، حتى إن مجاملته كانت إهانة بحد ذاتها . أما بالنسبة إلى سكارلت فقد كان لا يزال لغزاً لم تعد تزعج نفسها بمعرفة كنهه . لقد كانت مقتنعة بأنه لم يكن هناك شيء قد طاب له ، أو يمكن أن يطيب له ، وبأنه إما أن يكون قد رغب في شيء ما رغبة شديدة ولم ينله ، أو أنه لم يكن يرغب بأي شيء أبداً ، ولذلك فلم يكن يحفل بأي شيء ، بل كان يضحك على كل شيء تفعله ، ويشجع غلوها ووقاحتها ، ويسخر من مظاهرها ويسدّد قوائم مشترياتها .

لم يَمل ريت أبداً حتى في أكثر لحظاتهما حميميّة عن أخلاقه الملقة الجادّة، غير أن سَكارلت، التي لم تفقد شعورها القديم بأنه كان يراقبها سراً، كانت تعرف أنها إذا ما أدارت رأسها فجأة فستلمح في عينيه تلك النظرة المتأملة المترقبة، النظرة النافذة التي لم تفهمها.

لقد كان يبدو أحياناً شخصاً مريحاً جداً في أن يعاش معه، رغم عادته السيئة بعدم السماح لأي إنسان أن يكذب في حضوره، أو يصطنع مظهراً زائفاً أو يطنب في الكلام الرنان. كان يصغي إلى حديثها عن المخزن والمعملين والصالة، وعن الأشقياء وتكاليف إطعامهم، وكان يقدم لها نصائح أريبة حاسمة، وكذلك كان ينعم بحيوية لا تكل للرقص والحفلات التي كانت تحبها، وبمؤونة لا تنضب من القصص النابية التي كان يطربها بها في الأمسيات التي ندر أن ينفردا فيها، حيث تكون المائدة قد انتهت ووضع البراندي والقهوة أمامها. وأدركت سكارلت أن ريت كان ينتظر أن يمنحها كل شيء غريب فيه، ويجيبها عن أي سؤال تسأله، طالما أنها مستقيمة السيرة، كما أدركت أن من المنتظر أن يرفض أي طلب تحاول أن تظفر به بطريق غير مباشرة أو بالتلميح أو بالدلال النسوي. وكذلك كان ريت يتصف بمزية مربكة تتعلق بمعرفة مكنوناتها والضحك بوقاحة.

وعندما كانت سكارلت تفكر باللامبالاة الطريفة التي كان ريت يعاملها بها، كانت تتساءل مراراً، ولكن دون فضول منطقي، عن سبب تزوجه بها، لقد كان الرجال يتزوجون من أجل الحب أو البيت والأطفال أو المال، ولكنها كانت تعرف أنه لم يتزوجها من أجل أي من هذه الأمور، فهو حتماً لم يكن يحبها، ثم هو كان يشير إلى بيتها الجميل بأنه مريع من الناحية المعمارية، ويقول إنه يفضل العيش في فندق منظم على العيش في بيته، وكذلك فإنه لم يلمح مرة عن الأطفال كما كان يفعل تشارلز وفرانك. ولقد سألته مرة، وهي تحاول مغازلته، عن سبب تزوجه بها، ولكنها غضبت عندما أجابها، وبريق السرور في عينيه «لقد تزوجتك لأحتفظ بك مدللة يا عزيزتي».

لا ، لم يكن قد تزوجها لأي من الأسباب الطبيعية التي يتزوج الرجال النساء من أجلها ، لقد تزوجها لأنه كان يشتهيها وحسب ، ولم يكن بوسعه أن يظفر بها بطريقة أخرى ، ولقد اعترف بذلك ليلة عرض عليها الزواج ، لقد كان يشتهيها ، تماماً كما كان يشتهي بيل وتلنغ . . . ولم تكن هذه الفكرة سارة لها ، والحقيقة أنها كانت إهانة صريحة ، غير أنها طردتها كما كانت قد تعلمت أن تطرد جميع الحقائق المكدرة ، لقد قام بصفقة ، وكانت هي مسرورة تماماً بنصيبها من الصفقة ، كما كانت تأمل أن يكون هو مسروراً مثلها ، إلاّ أنها لم تكن تحفل كثيراً جداً ، سواء أكان مسروراً أم لم يكن .

وحدث بعد ظهر أحد الأيام ، وبينما كانت تستشير الدكتور ميد في موضوع اضطراب هضمي ، علمت بحقيقة غير سارة ، حقيقة لم تستطع طردها . وعند الغسق ، دخلت غرفة نومها ثائرة وأخبرت ريت والبغض الحقيقي يشع في عينيها أنها كانت حاملاً .

كان مسترخياً ، وعندما تكلمت اتجهت عيناه إلى وجهها بنظرة حادة ، غير أنه لم يقل شيئاً ، بل ظل يراقبها بصمت وقد بدا توتر في سحنته ، وهو ينتظر كلماتها التالية التي افتقدتها . لقد دفعها السخط واليأس إلى أن تبعد جميع الأفكار الأخرى .

ـ «إنك تعرف أني لا أريد أي طفل آخر ! وأني لم أرد أي طفل مطلقاً ، كلما سارت الأمور سيراً صحيحاً معي أقسر على الحمل . لا تجلس هناك وتضحك ! أنت لا تريده أيضاً ، آه يا لله !» .

وإذا كان ريت ينتظر كلماتها ، فإن هذه لم تكن الكلمات التي أرادها ، ولذلك تجهم وجهه قليلاً وغدت عيناه غامضتين .

ـ «على كل حال ، لماذا لا تهبينه للآنسة ميلي ! ألم تخبريني أنها ضُلّلت فغدت تريد طفلاً آخر؟» .

ـ «آه ، إن بوسعي أن أقتلك ! لن ألده ، أقول لك إني لن ألده !» .

ـ «لا؟ أرجوك تابعي حديثك» .

ـ «آه ، هناك وسائل يمكن عملها ، فأنا لست الريفية الغبية التي كنتها ، بل إني أعرف الآن أن ليس على المرأة أن تلد أطفالاً إن هي لم ترغب فيهم ! هناك وسائل . .» .

فنهض على قدميه وأمسك بها من معصمها وفي وجهه خوف صارم .

ـ «سكارلت أيتها الحمقاء ، أخبريني حقاً أنك لم تفعلي شيئاً؟» .

ـ «لا ، لم أفعل ، ولكني سأفعل ، هل تعتقد أني سأدع قوامي يشوه مرة ثانية ، حينما أصبح خصري نحيلاً وصرت أنعم بوقت طيب و . .» .

ـ «من أين أتيت بهذه الفكرة؟ ومن الذي أخبرك عن الوسائل؟» .

ـ «مامي بارت . . إنها . .» .

ـ «سيدة ماخور يمكن أن تعرف وسائل كهذه ! لن تضع تلك المرأة قدماً في هذا البيت مرة ثانية ، هل تفهمين؟ وبعد كل هذا إنه بيتي وأنا سيده ، كما أني لا أريدك أن تتحدثي إليها مرة ثانية !» .

ـ «سأفعل ما يطيب لي . اتركني . لماذا يتوجب عليك أن تهتم بهذا الأمر؟» .

ـ «إني لا أهتم سواء أولدت طفلاً واحداً أو عشرين طفلاً ، ولكني أهتم إن أنت مت» .

ـ «مت؟ أنا؟» .

ـ «أجل ، مت . إني لا أظن أن مامي بارت أخبرتك عن الحوادث التي يمكن أن تحدث للمرأة عندما تفعل شيئاً مثل هذا؟» .

ـ «لا» قالت سكارلت «لقد قالت فقط إنها ستنجز الأمور كما ينبغي» .

ـ «سأقتلها ، أقسم» صاح ريت ووجهه أسود من الغضب ، ثم نظر إلى وجه سكارلت المبقع بآثار الدموع ، والذي كان قد خف بعض سخطه ، ولكنه ما زال متجهماً ساكناً ، وفجأة رفعها بين ذراعيه وجلس على الكرسي وقربها منه ، محكماً قبضته عليها ، كأنه كان يخشى أن تهرب منه .

ـ «أصغي يا ابنتي ، إني لن أدعك تزهقين روحك بيديك ، هل تسمعينني؟ بالله ! إني لا أرغب في الأطفال أكثر مما ترغبين فيهم أنت ، إلاّ أن بوسعي إعالتهم . وإني لا أريد أن أسمع حماقات أخرى تصدر عنك ، وإذا ما تجرأت وحاولت أن . . سكارلت ، لقد رأيت مرة صبية تموت بسبب ذلك . كانت فقط . . على كل حال ، ولكنها كانت صبية جميلة طيبة . إنها ليست طريقة سهلة للموت . إني . .» .

ـ «على كل حال يا ريت !» صاحت وقد أجفلت رغم كدرها ، وذلك بتأثير العاطفة التي لمستها في صوته ، ولم تكن قد رأته على هذه الدرجة من

الانفعال ، «أين . . من . .» .

ـ «في نيو أورليانز ـ منذ سنين ، كنت شاباً وسهل الانقياد» وحنى رأسه فجأة ، وراح يدفن شفتيه في شعرها : «ستلدين طفلك يا سكارلت ولو اضطررت إلى أن أقيدك إلى معصمي طيلة الأشهر التسعة التالية» .

جلست في حجره تحدق في وجهه بفضول ، وفجأة بدا ما تحت نظرها ناعماً أنيساً وكأنه قد انجلى بسحر ساحر .

ـ «هل أعني شيئاً كثيراً لك؟» سألت غاضة جفنيها .

فألقى عليها نظرة متفحصة كأنه كان يسبر عمق ما كان وراء سؤالها من غنج . وبعد أن قرأ معنى بادرتها الحقيقي ، أجاب جواباً عادياً :

ـ «الواقع ، أجل ، فلقد وظفت مبلغاً كبيراً من المال فيك كما تعلمين ، وإني أمقت أن أخسر هذا التوظيف .

*

انسحبت ميلاني من غرفة سكارلت منهوكة من الجهد ، ولكنها فرحة حتى دموع الفرح بولادة سكارلت بنتاً ، وكان ريت يقف متوتر الأعصاب في القاعة .

ـ «بوسعك الدخول الآن يا كابتن بتلر» قالت بخجل .

دخل ريت إلى الغرفة بسرعة ، ولمحته ميلاني ينحني على الطفلة الصغيرة العريانة في حضن مامي ، قبل أن يغلق الطبيب ميد الباب . أما ميلاني فقد استرخت في كرسي ، ووجهها يتخضب من الانفعال لأنها كانت قد شاهدت دون قصد منها منظراً حسّاساً كهذا .

ـ «ها ! » فكرت «ما ألذه ! ما كان أعظم قلق الكابتن بتلر المسكين !» .

ودفعت وسادة صغيرة خلف ظهرها الموجع ، وفكرت بفرح في طفلة منها . . غير أن الدكتور ميد لم يكن قد غير رأيه أبداً في ذلك الموضوع . ومع أنها كانت عازمة كل العزم على أن تخاطر بحياتها من أجل طفل آخر ، إلاّ أن آشلي لم يشأ أن يسمع رأيه ، ابنة ، كم سيحب آشلي ابنة !

ابنة ! أيتها السماء ! وجلست مذعورة . إني لم أخبر الكابتن بتلر بأن الوليد كان بنتاً ! وطبعاً ، لقد كان يتوقع صبياً . آه ما أفظعها !» .

كانت ميلاني تعرف أن كلا الجنسين كانا مقبولين بالنسبة إلى المرأة ، ولكن بالنسبة إلى الرجل ، وخصوصاً إلى رجل متعنت كالكابتن بتلر ، كان من المنتظر أن

تكون البنت ضربة ، صدمة لرجولته . آه ما كان أعظم شكرها لأن الله سمح بأن يكون طفلها الوحيد صبيّاً ! لقد كانت تعرف أنها لو كانت زوجة الكابتن بتلر المخيف لفضلت أن تموت شاكرة في أثناء الولادة على أن تقدم له ابنة كأول مولود .

ولكن مامي التي خرجت تتهادى مبتسمة من الغرفة أعادت تفكيرها إلى طمأنينته ، وجعلتها في الوقت نفسه تتساءل أي نوع من الرجال كان الكابتن بتلر حقيقة .

ـ «عندما كنت أحمم تلك الطفلة الآن تماماً» قالت مامي «اعتذرت بلطف من الكابتن بتلر لأنها لم تكن صبيّاً ، ولكن يا لله يا آنسة ميلي ، هل تعرفين ماذا قال؟ (اخرسي يا مامي ! من الذي يريد صبيّاً ! الصبيان ليسوا متعة ، إنهم مجرد إزعاج ، إزعاج كبير ، والبنات هن المتعة . إني لا أبدل هذه البنت بدزينة صبيان) ، ثم حاول انتزاع الطفلة مني وهي عارية كما كانت . وعندئذ صفقت مصممة وقلت (أحسن التصرف يا سيد بتلر ! سأنتظر حتى ينعم الله عليك بصبي فأضحك بصوت مرتفع عندما أسمعك تهلل فرحاً) ، فابتسم وهز رأسه قائلاً : (مامي ، إنك حمقاء . إن الصبيان لا ينفعون أحداً ، ألست أنا برهاناً على ذلك؟) أجل يا آنسة ميلي ، لقد تصرف كسيد في هذا الموضوع» . أنهت مامي حديثها بلطف ، ولم يفت ميلاني أن تلاحظ أن تصرف ريت قد عمل كثيراً على رفع قدره في عيني مامي «ربما كنت شديدة الخطإ بحق السيد ريت ، ومن الأكيد أن هذا اليوم يوم سعيد بالنسبة إلي . يا آنسة ميلي ، لقد ولدت ثلاثة أجيال من بنات روبلارد ومن الأكيد أن هذا يوم سعيد» .

ـ «آه ، أجل ، إنه يوم سعيد يا مامي ! فأسعد الأيام هي تلك التي يولد فيها الأطفال» .

بيد أن هذا اليوم لم يكن سعيداً بالنسبة إلى شخص واحد في البيت ، كان ويد هامبتون يتسكع دائماً بائساً في غرفة الطعام ، مؤنباً ومهملاً معظم الوقت . وفي صباح ذلك اليوم الباكر ، كانت مامي قد أيقظته فجأة وألبسته بسرعة ثم أرسلته مع إيلا إلى بيت العمة بيتي لتناول الفطور . وعند الظهر ، وكان بطرس منهمكاً في المطبخ ، تسلل ويد خارج الباب الأمامي وهرول إلى البيت بأسرع ما استطاعت ساقاه القصيرتان أن تحملاه ، وكان الخوف يحث خطاه ، من الأكيد أن العم ريت أو العمة ميلي أو مامي ستخبره الحقيقة ، غير أن العم ريت

والعمة ميلي لم يكونا ليرياً ، بينما كانت مامي ودلسي تسرعان على الدرج الخلفي تحملان مناشف وطسوت ماء ساخن دون أن تلحظاه في القاعة الأمامية ، حيث كان بوسعه أن يسمع من وقت إلى آخر عبارات الطبيب ميد المقتضبة كلما فتح الباب . ومرة سمع أنين أمه ، فانفجر في فواق نائح وأدرك أنها ستموت .

وأخيراً وبينما كانت مامي تنزل الدرج الأمامي رأته وعبست . لقد كانت مامي دائماً سند ويد ، وكان ويد يرتجف من عبوسها .

ـ «هل أمي . . هل ستموت؟» .

ـ «إنك أكثر الصبيان الذين رأيتهم إزعاجاً . تموت ! يا لله ، لا ! إن الصبيان عذاب . إني لا أرى لماذا يرسل الله الصبيان للناس ، والآن هيا اذهب من هنا» .

ولكن ويد لم يذهب ، بل تراجع خلف الستائر في القاعة ، مقتنعاً بكلماتها نصف اقتناع فقط ، بينما كانت تلسعه عبارتها المتعلقة بإزعاج الصبيان ، لأنه كان دائماً يحاول جهده كي يكون ولداً باراً .

وبعد نصف ساعة نزلت العمة ميلي الدرج مسرعة منهوكة شاحبة اللون ، ولكنها كانت تبتسم لنفسها ، وعندما رأت وجهه المذعور في ظلال الستائر صعقت . كانت العمة ميلي ، عادة ، تكرس له كل وقتها ، ولم تكن تقول له أبداً «لا تضايقني الآن ، إني على عجل» ، أو «هيا اجر يا ويد ، فإني مشغولة» كما كانت أمه تخاطبه مراراً .

ولكنها هذا الصباح بادرته بقولها «ويد ، إنك عاق جداً . لماذا لم تبق في بيت العمة بيتي؟» .

ـ «هل أمي ستموت؟» .

ـ «يا للرحمة ، لا يا ويد ! لا تكن ولداً أحمق !» ثم أردفت بعطف «لقد أحضر لها الطبيب ميد الآن طفلة صغيرة جميلة ، أختاً لك صغيرة بديعة لتلعب معها . وإذا كنت باراً حقاً فبوسعك أن تراها هذه الليلة . أما الآن فأسرع والعب ولا تحدث أية ضجة» .

فانسل ويد إلى غرفة الطعام الساكنة ، ودنياه الصغيرة المضطربة تتداعى من حوله ربما كانت أمه تموت الآن ولا أحد يعيره أدنى اهتمام ، بل كان الجميع يهرولون من أجل طفل جديد . . . بنت . ولم يكن ويد يسر بالأطفال إلا

قليلاً ، وأقل من ذلك بالبنات . والبنت الوحيدة التي كان يعرفها معرفة أليفة هي إيلا ، التي لم تكن ، إلى حد كبير ، تفعل أي شيء لتنتزع احترامه أو حبه .

وبعد فترة طويلة نزل الطبيب ميد والعم ريت الدرج ، ووقفا يتحدثان في القاعة بأصوات خفيضة ، وبعد أن أغلق الباب خلف الطبيب ، دخل العم ريت غرفة الطعام مسرعاً وملأ لنفسه كأساً كبيرة من القارورة ، قبل أن يرى ويد ، الذي تراجع متوقعاً أن يبلغ ثانية أنه كان ولداً عاقاً ، وأن عليه أن يعود إلى بيت العمة بيتي ، ولكن العم ريت ابتسم له بدلاً من ذلك ، ولم يكن ويد قد رآه يبتسم كتلك الابتسامة أو يبدو سعيداً على تلك الصورة ، ولذلك تشجع ووثب عن عتبة النافذة وجرى نحوه :

ـ «لقد نعمت بشقيقة» قال ريت وهو يعانقه «والله إنها أجمل طفلة رأيتها! والآن لماذا تبكي؟» .

ـ «إن أمي . . .» .

ـ «إن أمك تأكل الآن غداء عظيماً مغذياً : دجاجة وأرز وصلصة لحم وقهوة ، وسنصنع لها مثلجات بعد برهة قصيرة ، وبوسعك أن تتناول ملء صحنين منها ، كما أني سأريك أختك أيضاً» .

وحاول ويد ، وقد أوهنه الفرح ، أن يكون مهذباً فيما يتعلق بأخته الجديدة ، ولكنه فشل ، لقد كان الجميع مهتمين بهذه البنت ، ولم يكن أحد يهتم به أبداً ، حتى ولا العمة ميلي والعم ريت .

ـ «عمي ريت» تمتم «هل يحب الناس البنات أكثر من حبهم للصبيان؟» .

فوضع ريت الكأس من يده ونظر في وجه الصبي الصغير بحدة ، ثم شعت عيناه ببريق الإدراك الفوري :

ـ «لا ، ليس بوسعي أن أقول إنهم كذلك» أجاب جاداً كأنه يعير القضية التفكير اللازم «إن القضية فقط هي أن البنات أكثر إزعاجاً من الصبيان ، والناس عرضة للقلق على الأفراد المزعجين أكثر من قلقهم على غير المزعجين» .

ـ «لقد قالت مامي الآن إن الصبيان مزعجون» .

ـ «الواقع أن مامي منفعلة ، ولم تعن ما قالت» .

ـ «عمي ريت ، ألم تكن تفضل صبياً صغيراً على بنت صغيرة؟» .

ـ «لا» أجاب ريت بسرعة ، ولكنه عندما رأى وجه الصبي ينقبض أردف

بقوله «أصغ إلي ، لماذا ينبغي لي أن أفضل صبياً بينما أنعم أنا بصبي؟» .

ـ «أتنعم بصبي؟» صاح ويد وقد فغر فاه لهذا النبإ «أين هو؟» .

ـ «ها هو هنا» أجاب ريت ورفع الصبي وقربه من ركبته «أنت صبي لي كما ينبغي يا بنيّ» .

وللحظة بدت الطمأنينة والسعادة ، في كونه محبوباً ، بدتا عظيمتين جداً بحيث كاد أن يبكي ثانية ، وتحرك حلقه ودس رأسه في معطف ريت .

ـ «أنت ابني ، أليس كذلك؟» .

ـ «هل يمكن أن تكون . . حسناً ، ابن رجلين؟» سأل ويد والإخلاص لوالده الذي لم يعرفه أبداً يتعارك مع الحب للرجل الذي كان يرعاه .

ـ «أجل» قال ريت بحزم «تماماً مثلما يمكن أن تكون أنت ابن أمك وابن العمة ميلي أيضاً» .

فاستوعب ويد العبارة وشعر أنها ممكنة ، ثم ابتسم وهو يتحرك بحياء فوق ذراع ريت :

ـ «إنك تفهم الأولاد الصغار ، أليس كذلك يا عم ريت؟» .

فعاد وجه ريت إلى سحنته القديمة الصارمة وثنى شفتيه .

ـ «أجل» قال بمرارة «إني أفهم الأولاد الصغار» .

ولهنيهة عاود الخوف ويد ، خوف وشعور فجائي بالحسد ، فالعم ريت لم يكن يفكر به بل بولد آخر .

ـ «ليس لديك ولد آخر ، أليس كذلك؟» .

فأجلسه ريت على قدميه .

ـ «سأتناول كأساً ، وأنت كذلك يا ويد ، إنه كأسك الأول تكريماً لشقيقتك الجديدة» .

ـ «ليس لك أي بنت . . .» بدأ ويد ، ولكنه رأى ريت يمد يده إلى قارورة الخمر ، أطربه السرور لكونه مشتركاً في احتفال الكبار هذا .

ـ «ها ، لا أستطيع يا عمي ريت ! لقد وعدت العمة ميلي أن لا أشرب حتى أتخرج من الجامعة ، وستعطيني ساعة إن أنا حافظت على عهدي» .

ـ «وسأعطيك أنا سلسلة لها ، هذه السلسلة التي أحملها الآن ، إن أردتها» . قال ريت وهو يبتسم ثانية «إن العمة ميلي محقّة تماماً ، ولكنها تكلمك عن

المشروبات الروحية وليس عن الخمر ، وعليك أن تتعلم شرب الخمر كسيد يا بني ، وليس هناك وقت لتتعلم ذلك كالوقت الحاضر» .

*

منذ اللحظة التي ولدت فيها ابنته أضحى سلوك ريت محيّراً لجميع مَن حوله ، كما أنه قلب عدة آراء مقررة تتعلق به ، آراء كانت سكارلت والمدينة قانطتين من زوالها . فمن كان يفكر أن ريت من بين جميع الناس كان سيعتز بأبوته علانية وبلا خجل؟ خصوصاً بالنظر إلى الحادثة المكدرة من أن مولوده الأول كان بنتاً . كان يمسك بتلابيب الناس في الشارع يروي لهم التفاصيل عن تقدم ابنته العجيب ، حتى دون أن يسبق كلامه عنها بالعبارة المنافقة ولكن المهذبة «إني أعرف أن كل إنسان يعتقد أن ابنه نبيه ولكن . .» لقد كان يعتقد ابنته أعجوبة ، وأنها لا تقارن بالأطفال الذين هم أقل نباهة منها ، ولم يكن يحفل بمن كان يعرف تلك الحقيقة منه . وعندما سمحت الممرضة الجديدة بأن تمص الطفلة قطعة من لحم الخنزير المدهن ، الأمر الذي سبب لها أول مغص ، ساق تصرف ريت الآباء والأمهات المجربين إلى عواصف من الضحك ، فقد استدعى الطبيب ميد على عجل ثم استقدم آخرين ، وبصعوبة ، مُنع من ضرب الممرضة السيئة الحظ بمقبض سوط . ثم طردت الممرضة وتبعها منذ ذلك الوقت قافلة من الممرضات اللواتي كن يبقين أسبوعاً كأقصى مدة ، إذ لم تكن أي منهن حاذقة إلى الحد الذي يرضي الأوامر الدقيقة التي وضعها ريت .

وكذلك كانت مامي تنظر بعين السخط إلى الممرضات اللواتي كن يأتين ويذهبن ، لأنها كانت تغار من أي زنجية غريبة ، ولم تكن ترى أي سبب لعدم استطاعتها هي الاعتناء بالطفلة وويد وإيلا أيضاً . غير أن مامي كانت تبدو مسنة ، وكان الروماتيزم يكشف عن خطواتها المتثاقلة ، وكان ريت ، تعوزه الشجاعة ليعلن عن هذه الأسباب التي كانت تدفعه إلى استخدام ممرضة أخرى . وبدلاً من ذلك أخبرها أن الرجل ، الذي يكون في مثل مركزه الاجتماعي ، لا يسعه أن يستخدم ممرضة واحدة وحسب ، فذلك لا يبدو لائقاً ، ولذا فسيستأجر ممرضتين أخريين ويدعها هي كرئيسة عليهما . وقد فهمت مامي رأيه جيداً ، واعتبرت أن وجود خدم كثيرين رفع لمقامها كما هو بالنسبة إلى مقام ريت . غير أنها لا تريد ، أخبرته بحزم ، أي زنجية حقيرة محررة تعمل معها في غرفة الأطفال . ولذا أرسل ريت يستدعي برسي من تارا ، برسي التي كان

يعرف نقائصها ، والتي كانت مع ذلك ، زنجية عائلة . كما أن العم بطرس أحضر ابنة أخ له تدعى «لو» كانت تخص أحد أبناء عم الآنسة بيتي من آل بود .

وحتى قبل أن تتمكن سكارلت من العودة إلى نشاطها ثانية ، لاحظت انشغال ريت بالطفلة ، فاكتظت وتكدرت من تفاخره بها أمام الزوار ، لقد كان من الجميل بالرجل أن يحب طفله ، ولكنها أحست بوجود شيء ليس من شيم الرجال في عرض حب كهذا . . . لا ، ينبغي أن يكون عديم الاكتراث كسائر الرجال .

ـ «إنك تجعل من نفسك أحمق» قالت مغتاظة «وإني لا أرى سبباً لذلك» .

ـ «لا؟ على كل حال ، إنك لن تري . إن السبب هو أنها أول إنسان يخصني كلية» .

ـ «إنها تخصني أيضاً» .

ـ «لا ، إنك تنعمين بولدين آخرين . إنها لي» .

ـ «يا للجحيم !» قالت سكارلت «أنا التي ولدتها ، أليس كذلك؟ وفضلاً عن ذلك يا حبيبي ، إني أخصك» .

ـ «هل تخصينني يا عزيزتي؟» .

لقد كان دخول ميلاني فقط هو الذي منع حدوث واحد من تلك النزاعات الحادة السريعة التي كان يبدو أنها كانت تنشب بينهما بسهولة فائقة هذه الأيام ، ولذا كتمت سكارلت غضبها وراقبت ميلاني وهي تأخذ الطفلة . كان الاسم الذي اتفق عليه للطفلة هو أوجيني فكتوريا ، ولكن بعد ظهر ذلك اليوم ، اقترحت ميلاني دون انتباه منها ، اسماً عَلق بالطفلة ، تماماً كما كان اسم «بيتي بات» قد محا كل ذكرى لـ«سارة جين الاَسم الأول لها .

وكان ريت قد تمتم وهو منحن على الطفلة «ستكون عيناها خضراوين كلون نبات الفاصوليا» .

ـ «لن تكونا كذلك في الحقيقة» صاحت ميلاني بسخط ، وقد نسيت أن عيني سكارلت كانتا بذلك اللون تقريباً «ستكونان زرقاوين كعيني السيد أوهارا ، زرقاوين «كالعلم الأزرق الصغير» بوني .

ـ «بوني بتلر الزرقاء» ضحك ريت وأخذ الطفلة منها محدّقاً في العينين الصغيرتين أقرب من ذي قبل . وهكذا أصبح اسمها «بوني» ولم يعد حتى والداها يذكران أنها كانت قد سميت باسم ملكتين .

عندما صار بمقدور سكارلت أخيراً الخروج من البيت ، أمرت خادمتها لو أن تضغط مشدها إلى أقصى ما تستطيعه الشرائط من الشد .

- «اضغطيه أكثر يا لو . انظري إذا كان بوسعك أن تجعليه ثماني عشرة بوصة ونصف وإلا فلن أستطيع ارتداء أي من فساتيني» .

- «إن الشدّ سيقطع الشرائط» قالت لو «لقد أصبح خصرك ثخيناً ، ولا يوجد شيء لفعله» .

- «يوجد شيء لنفعله» فكرت سكارلت وهي تفتق درزات ثوبها بعنف لتفسح في المجال للبوصات الضرورية «لن أنجب أي طفل آخر» .

لقد كانت بوني جميلة ومفخرة لها بالطبع ، وكان ريت مدلّهاً بها ، ولكنها مع ذلك لن تنجب أي طفل آخر . أما كيف ستتدبّر هذا الأمر فلم تكن تعرف ، لأنها لم تكن تستطيع السيطرة على ريت كما كانت تفعل مع فرانك . فريت لم يكن يخافها ، ومن المحتمل أن يكون الأمر صعباً معه ، هو الذي كان يتصرف مثل ذلك التصرف الأحمق فيما يتعلق ببوني ، وربما كان يرغب في ابن في السنة القادمة ، رغم أنه قال إنه سيغرق أي صبي تأتيه به ، على كل حال ، لن تأتيه بوليد ، سواء أكان صبياً أم بنتاً ، إذ يكفي أي امرأة أن تنجب ثلاثة أطفال .

عندما قطبت «لو» الدرزات المفتقة وملستها بالضغط وزررت الفستان حول جسد سكارلت ، استدعت العربة وانطلقت سكارلت إلى معمل الخشب . وبينما هي في الطريق ، ارتفعت معنوياتها ونسيت موضوع خصرها لأنها كانت ستقابل آشلي في المعمل كي تراجع وإياه دفاتر الحساب ، وإذا أسعدها الحظ فقد تقابله على انفراد . ولم تكن سكارلت قد رأته منذ مدة طويلة ، قبل أن تلد بوني ، إذ كانت لا ترغب في رؤيته مطلقاً وهي بحالة الحمل الواضحة جداً . وهكذا افتقدت لقاءه اليومي ، اللقاء الذي كان يتم حتى مع وجود بعض الناس . كذلك كانت قد افتقدت في أثناء فترة إنجابها أهمية ونشاط صناعتها الخشبية . طبعاً لم تكن مضطرة إلى العمل الآن ، كما كانت تستطيع بسهولة أن تبيع المعملين وتوظف المال لصالح ويد وإيلا ، ولكن ذلك كان يعني ألاّ ترى

آشلي إلا لماماً ، وإلا بطريقة اجتماعية رسمية وحشد من الناس حولها ، بينما كان سرورها الأعظم يكمن في العمل بجانب آشلي .

عندما بلغت ساحة المعمل ، رأت بابتهاج كم كان ارتفاع كومة الخشب عالياً ، وكم كان عدد الزبائن الواقفين كبيراً ، وهم يتحدثون إلى هيو ألسنغ ، ثم كان هناك ستة أزواج من البغال ، وعربات تحمل من قبل السواقين الزنوج ، ستة أزواج ، فكرت بكبرياء . . لقد صنعت كل ذلك بنفسي !

وجاء آشلي من باب المكتب الصغير وعيناه تشعان سروراً بفرحة رؤيتها ثانية ، ثم ساعدها في النزول من العربة ودخول المكتب ، وكأنها كانت ملكة .

غير أن بعض سرورها غاض عندما راجعت دفاتر حسابات معمله وقارنتها بدفاتر جوني كاليغر . لقد كان آشلي يجمع مصاريف المعمل بالكاد ، بينما كان جوني قد أحرز مبلغاً كبيراً . وامتنعت سكارلت عن قول أي شيء وهي تنظر إلى الورقتين ، إلاّ أن آشلي قرأ وجهها .

ـ «سكارلت ، إني آسف ، كل ما أستطيع قوله هو أني أرجو أن تدعيني أستأجر زنوجاً محررين بدلاً من استخدام الأشقياء . إني أعتقد أني سأنتج بهم أفضل مما أنتج الآن» .

ـ «زنوج ! يا الله ، إن أجورهم ستقصم ظهورنا ، بينما أجر الأشقياء زهيد جداً . وإذا كان جوني يستطيع أن ينتج بهم هذا الإنتاج الوفير . . .» .

اتجهت عينا آشلي عبر كتفيها وراحتا تنظران إلى شيء لم تستطع هي رؤيته ، ثم تلاشى ألق البهجة منهما .

ـ «إني لا أستطيع تشغيل الأشقياء كما يفعل جوني كاليغر . إني لا أستطيع أن أسوق الرجال سوقاً» .

ـ «يا الله ، إن جوني أعجوبة في ذلك ، آشلي ، إنك رقيق القلب جداً وحسب . عليك أن تستخلص منهم عملاً أكثر . ولقد أخبرني جوني أنه كلما أراد متمارض أن يتهرب من العمل كان يخبرك أنه مريض ، وكنت تمنحه يوم عطلة ، يا الله العظيم يا آشلي ! تلك ليست طريقة لجني المال . إن زوجاً من السياط حري بأن يشفي من معظم الأمراض التي تتجاوز ساقاً مكسورة . . .» .

ـ «سكارلت ، سكارلت ، يكفي ! ليس بوسعي أن أحتمل سماعك تتكلمين على هذه الصورة» صاح آشلي وقد عادت عيناه إليها بنظرات شرسة ، جعلتها

تصمت بسرعة «ألا تدركين أنهم رجال ـ بعضهم مريض، سيئ التغذية، يائس وـ آه يا عزيزتي، إني لا أستطيع احتمال رؤية الطريقة التي قسّاك بها، أنت التي كنت دائماً في غاية الرقة».

ـ «من الذي فعل ذلك؟».

ـ «إني مضطر إلى قولها مع أني لا أملك الحق في ذلك، ولكني مضطر إلى قولها، زوجك ريت بتلر، فكل شيء يلمسه يسممه. ولقد تزوجك أنت التي كنت في منتهى الرقة والكرم واللطف رغم أساليبك الشجاعة، وقد سبب لك هذا ـ قسّاك ـ خشنك بسلوكه».

ـ «آه» تنفست سكارلت والإثم يصارع الفرح في داخلها، لأن آشلي كان يشعر شعوراً عميقاً نحوها، ولأنه ما انفك يعتقد برقتها. شكراً لله، لقد كان يعتقد أن ريت هو الذي ينبغي أن يلام على أساليب ابتزازها للمال. طبعاً لم يكن لريت أي علاقة بذلك، وكان الذنب ذنبها هي. ولكن، وبعد كل هذا، إن علامة سوداء أخرى في سجل ريت لن تضيره أبداً.

ـ «لو أنه كان أي رجل آخر في الدنيا لما حفلت كثيراً، ولكنه ريت بتلر! لقد رأيت ما فعله بك، إنه يحرف أفكارك في المجرى الخشن ذاته الذي تسير فيه أفكاره. ها، طبعاً إني أعرف أن من الواجب أن لا أقول هذا فقد أنقذ حياتي، وأنا ممتن له، ولكني كنت أرجو من الله لو أن المنقذ كان أي رجل آخر سواه! وإني لا أملك الحق لأتحدث إليك بمثل . . .».

ـ «آه آشلي، إنك تملك الحق ولا يملكه إنسان آخر سواك».

ـ «دعيني أخبرك بأني لا أستطيع احتمال الأمر وأنا أرى رقتك تخشن بسببه، وأعرف أن جمالك وسحرك هما بحوزة رجل عندما أفكر به وهو يلمسك فإني . . .».

ـ «سيقبّلني» فكرت سكارلت بسرور بالغ! «ولن تكون غلطتي!» وتهادت نحوه، ولكنه تراجع فجأة وكأنه أدرك أنه كان قد قال قولاً كثيراً جداً، ـ قال أشياء لم يكن ينوي قولها».

ـ «إني أعتذر بكل تواضع يا سكارلت. لقد كنت أشير إلى أن زوجك لم يكن سيداً، ولكن كلماتي برهنت على أني لست سيداً، فليس من حقي نقد زوج أمام زوجته. وليس لي عذر سوى ـ سوى . . .» وتلعثم والتوى وجهه،

وانتظرت هي وهي محتبسة النفس .

ـ «ليس لي عذر أبداً» .

ظل عقل سكارلت ، طوال الطريق إلى البيت في العربة ، في سباق مع الأفكار . لا عذراً أبداً سوى . . سوى أنه كان يحبها ! وأن تفكيره بها مضطجعة بين ذراعي ريت كان يثير سخطاً لديه لم تعتقد بإمكان حدوثه . وعلى كل حال استطاعت هي أن تفهم ذلك ، ولولا معرفتها بأن علاقاته بميلاني كانت بحكم الضرورة علاقات أخ بأخته لكانت حياتها عذاباً . وقد خشنتها ضمات ريت وجعلتها قاسية القلب ! حسناً ، إذا كان آشلي يعتقد ذلك ، فإن بوسعها الاستغناء عن هذه الضمات . وفكرت كم ستكون علاقتهما عذبة ورومانسية لو أخلصا الواحد للآخر جسدياً حتى رغم كونهما متزوجين بشخصين آخرين . وملكت الفكرة خيالها وسرت بها ، ثم كان هناك أيضاً جانب عملي للفكرة ، إذ كانت تعني أنها ستضطر إلى عدم إنجاب أي طفل .

وحين بلغت البيت ، بدأ بعض الشعور بالرفعة ، الذي كان قد ملأها بفعل كلمات آشلي ، يفيض وهي تواجه موضوع إخبار ريت بأنها تريد غرفتي نوم منفصلتين ، وكل ما يترتب على ذلك ، ستكون المهمة صعبة ، وفوق ذلك ، كيف يسعها أن تخبر آشلي أنها حرمت نفسها على ريت بسبب رغباته هو؟ أي قيمة للتضحية إذا لم يعلم أحد بها؟ أي عبء كانت الحشمة ورقة المعاملة ! حبذا لو أنها تستطيع أن تتحدث إلى آشلي بصراحة كما تتحدث مع ريت ! على كل حال ، فإنها ستوعز إلى آشلي بتلك الحقيقة ، بطريقة ما ، مهما كلفها الأمر .

وصعدت الدرج ، وعندما فتحت غرفة الأطفال وجدت ريت يجلس إلى جانب سرير بوني وإيلا على حضنه ووید يعرض ما تحتويه جيبه أمامه . أي نعمة هذه : ريت يحب الأطفال ويقدرهم كثيراً ! بينما كان بعض الرجال صارمين جداً مع الأطفال الذين كانوا نتاج زوجات سابقة .

ـ «أريد أن أتحدث إليك» قالت وتابعت طريقها إلى غرفة نومهما . من الأفضل أن تنهي هذا الموضوع الآن ، بينما تصميمها على عدم إنجاب أي طفل آخر كان ناضجاً في نفسها ، وبينما كان حب آشلي يمنحها قوة .

ـ «ريت» قالت فور أن أغلق باب غرفة النوم خلفه «لقد قررت أن لا أنجب

أي طفل آخر» .

وإذا كان ريت قد بُغت من عبارتها غير المتوقعة ، فإنه لم يظهر ذلك ، بل مضى إلى كرسي وجلس ، مميلاً إياه إلى الوراء .

ـ «مدللتي . كما أخبرتك من قبل أن تولد بوني ، سواء أأنجبت طفلاً أم عشرين ، فذلك أمر قليل الأهمية بالنسبة إلي» .

ما كان أشد دهاءه في أن يتحاشى النتيجة بهذه الدقة ، كأنه لم يكن يحفل إذا كان لإنجاب الأطفال أي علاقة بمقدمهم الحقيقي .

ـ «إني أعتقد أن ثلاثة أولاد عدد كافٍ ، ولست أنوي إنجاب طفل في كل سنة» .

ـ «أجل ، إن ثلاثة يبدو عدداً مناسباً» .

ـ «إنك تعرف تمام المعرفة . . .» شرعت والارتباك يخضب وجنتيها «تعرف ما أعني؟» .

ـ «أعرف . هل تدركين أن بوسعي أن أطلقك لرفضك منحي حقوقي الزوجية؟» .

ـ «إنك منحط لتفكيرك بأمور كتلك» صاحت وهي منزعجة لأن شيئاً لم يتم حسب خطتها «لو أنك تنعم بقليل من النبل لكنت لطيفاً مثل . . على كل حال ، انظر إلى آشلي ويلكس ، إن ميلاني لا تستطيع أن تنجب أي طفل آخر وهو . . .» .

ـ «نعم إن السيد الصغير آشلي . . .» قالت ريت ، وقد بدأت عيناه تشعان بصورة غريبة «أرجوك أن تتابعي حديثك» غير أن سكارلت غصت ، لأن حديثها كان قد انتهى ، ولم يكن لديها ما تقوله . ولقد رأت الآن ما كان أتعس أملها في تقرير أمر هام كهذا بطريقة ودية ، خصوصاً مع وغد أناني كريت .

ـ «كنت في مكتب معمل الأخشاب بعد ظهر هذا اليوم ، أليس كذلك؟» .

ـ «وما علاقة ذلك بالأمر؟» .

ـ «إنك تحبين الكلاب ، أليس كذلك يا سكارلت ، هل تفضلينها في بيوتها أم في مذاودها؟ . .» .

غير أن الإشارة المقصودة فاتتها لأن موجة الغضب والخيبة ارتفعت في نفسها .

ونهض هو بخفة ، واتجه إليها ووضع يده تحت ذقنها ثم رفع رأسها إلى الأعلى ليقابل وجهه .

ـ «يا لك من طفلة ! لقد عشت مع ثلاثة رجال ، وما زلت لا تعرفين شيئاً عن طبائع الرجال . يبدو أنك تفكرين بأنهم كالعجائز لا يؤثر فيهم تغير الحياة» .

وقرص ذقنها مداعباً ، ثم أنزل يده بينما ارتفع أحد حاجبيه الأسودين وهو يرمقها بنظرة باردة .

ـ «سكارلت ، افهمي هذا : إذا كنت وفراشك لا زلتما تملكان أي فتنة لي ، فليس بوسع أي قفل أو رجاء أن يمنعني عنكما ، كما أني لن أشعر بأي عار جراء أي عمل أعمله ، لأني عقدت اتفاقية معك ، الاتفاقية التي حافظت أنا عليها بينما تخلين أنت بشروطها الآن . حافظي على سريرك الطاهر يا عزيزتي» .

ـ «هل تقصد أن تخبرني» صاحت سكارلت ساخطة «بأنك لا تحفل . . .» .

ـ «لقد مللت مني ، أليس كذلك؟ الواقع أن الرجال يملون قبل النساء . حافظي على طهرك يا سكارلت ، فالأمر لن يكون عسيراً علي ، ولا يهمني شيء» وهز كتفيه وابتسم «ومن حسن الحظ أن الدنيا مليئة بالسرر . . . ومعظم السرر مليئة بالنساء» .

ـ «إنك تعني أنك ستكون فعلاً ؛ . . .» .

ـ «يا عزيزتي البريئة ! ولكن طبعاً ، إن من العجيب أني لم أشرد قبل الآن بوقت طويل ، ولم أعتقد بأن الإخلاص فضيلة» .

ـ «سأوصد بابي كل ليلة !» .

ـ «لماذا تزعجين نفسك؟ إذا ما اشتهيتك فلن يمنعني أي قفل من الدخول» .

واستدار ، وكأن الكلام قد ختم ، ثم غادر الغرفة . وسمعته سكارلت عائداً إلى غرفة الأطفال الذين رحبوا به . أما هي فقد جلست فجأة . لقد نالت مآربها . لقد كان هذا هو ما أرادته هي وآشلي ، ولكنه لم يكن يشعرها بالسعادة . كان كبرياؤها جريحاً ، وكانت هي كسيرة النفس جراء فكرة أن ريت كان قد تلقى الأمر كله باستخفاف بالغ ، وبأنه لم يكن يشتهيها ، وبأنه وضعها في مستوى نساء أخريات في سرر أخرى . وتمنت أن لو كان بوسعها أن تفكر

بطريقة لبقة لتخبر آشلي أنها وريت لن يعودا بعد اليوم كزوجين حقيقيين ، ولكنها أدركت الآن أن ليس بوسعها ذلك . وبدا الأمر جميعه ورطة مريعة ، وتمنت بشبه رغبة حقيقية أن لو لم تتفوه بكلمة عن الموضوع ، ستفقد الأحاديث الطويلة السارّة في السرير مع ريت ، عندما يكون جمر سيجاره يتوهج في الظلام ، وستفقد طمأنينة ذراعيه عندما تستيقظ مذعورة من أحلامها التي ترى فيها أنها تجري في الضباب البارد .

وفجأة أبأسها التفكير ، فأسندت رأسها على ذراع الكرسي ، وراحت تبكي .



بوني ابنة سكارلت وريت

52

أيام مضت ، وبعد ظهر يوم ماطر ، وكانت بوني تجاوزت عيد ميلادها الأول ، كان ويد يخطر في غرفة الجلوس مكتئباً ، ويتجه إلى النافذة من وقت إلى آخر ، حيث يحك أنفه بمصراعها المنقط بالماء . كان صبياً نحيلاً صغير الجثة بالنسبة إلى سنّه البالغ ثمانية أعوام ، هادئاً حيّياً ، لا يتكلم إلا إذا خوطب . لقد كان ضجراً وفي حيرة لعدم وجود من يسليه ، إذ كانت إيلا منهمكة بألعابها في الزاوية ، وكانت سكارلت في مكتبها تدمدم لنفسها وهي تجمع عموداً طويلاً من الأرقام ، بينما كان ريت مستلقياً على الأرض يؤرجح ساعة يده بسلسلتها ، بعيداً عن متناول بوني .

وبعد أن تناول ويد عدة كتب ثم أسقطها من يده ، وتنهد تنهّداً عميقاً ، التفتت سكارلت إليه مغتاظة .

ـ «يا لله يا ويد ، اخرج بسرعة والعب» .

ـ «لا أستطيع ، إنها تمطر» .

ـ «تمطر؟ لم ألحظها . على كل حال ، قم بعمل ما ، إنك تثير أعصابي بتنهّدك . اذهب وأخبر بورك أن يجهز العربة ويأخذك لتلعب مع بو» .

ـ «بو ليس في البيت» تنهد ويد «إنه في حفلة ميلاد راوول بيكارد» .

كان راوول ابن مايبيل ورينيه بيكارد الصغير ، إنه طفل صغير بغيض ، فكرت سكارلت ، إنه أشبه بالقرد منه بالطفل .

ـ «حسناً ، بوسعك أن تذهب لزيارة من تريد . اجر وأخبر بورك» .

ـ «لا يوجد أحد في بيته» أجاب ويد «فجميعهم في الحفلة» .

وعلقت الكلمات غير الملفوظة في الهواء : «جميعهم سواي» ولكن سكارلت التي كان عقلها في دفاتر حساباتها لم تعره أي اهتمام .

غير أن ريت أنهض نفسه إلى وضعية الجلوس وقال «ولماذا لست في الحفلة كذلك يا بني؟» .

فخطا ويد مقترباً منه ، محرّكاً قدماً واحدة ، وقد ظهر الكدر على وجهه .

ـ «أنا لم أدع يا سيدي» .

فوضع ريت ساعته في قبضة بوني ونهض بخفة واقفاً على قدميه .

ـ «اتركي هذه الأرقـام اللعـينة جـانبـاً يا سكارلـت . لماذا لم يدع ويد إلى الحفلة؟»

ـ «من أجل الله يا ريت! لا تزعجني الآن . لقد أوصل آشلي هذه الحسابات إلى عقدة فظيعة ـ ها ، تلك الحفلة؟ الواقع ، إني أعتقد أن عدم دعوة ويد ليس أمـراً غيـر عـادي ، كـمـا أني لم أكن لأدعـه يذهب لو أنه دعي . ، لا تنس أن راوول هو حفيد السيدة ميريويذر التي تعتبر وجود أي منا في ردهتها المقدسة كوجود زنجي محرر» .

وفيما كان ريت يراقب وجه ويد بعينين متأملتين رأى الصبي يجفل .

ـ «تعال إليَّ يا بني ، هل تحب أن تحضر تلك الحفلة؟» .

ـ «لا يا سيدي» قال ويد .

ـ «هل ذهبت إلى حفلات جو ويتنغ الصغير أو فرانك بونل أو . . . أي من زملائك؟» .

ـ «لا يا سيدي ، أنا لم أدع إلى حفلات كثيرة» .

ـ «ويد ، إنك تكذب» صاحت سكارلت ملتفتة إليه «لقد ذهبت إلى ثلاث حـفـلات في الأسـبـوع الماضي ، حـفـلات أولاد بارت وأولاد جلبـرت وأولاد هندون» .

ـ «إنهـا مجمـوعة مـختارة من بغال في عُدد خيل ، كـأحسن ما تـستطيعين جمعه معاً» قال ريت وصوته يتحول إلى لهجة بطيئة ناعـمة «هل نعمت بوقت طيب في هذه الحفلات؟ كن صريحاً» .

ـ «لا يا سيدي» .

ـ «ولم لا؟» .

ـ «أنا . . . أنا لا أعـرف يا سـيـدي ، إن مـامـي . . . مـامي تـقـول إنهـم بيض حقيرون» .

ـ «سأسلخ جلد مامي هذه الدقيقة!» صاحت سكارلت منتصبة على قدميها «وأما أنت يا ويد ، الذي تتكلم هكذا عن أصدقاء أمك . . .» .

ـ «إن الصبي يقـول الحقيقة ، وكذلك مامي» قال ريت «ولكن ، طبعاً ، ليس بوسـعك معرفة الحقـيقة إذا قـابلتـها في الطريق . . لا تتكدر يا بني ، أنت لست

مضطراً إلى الذهاب إلى أي حفلة لا تريد الذهاب إليها بعد الآن . خذ» وسحب دولاراً من جيبه «أخبر بورك أن يعد العربة ويأخذك إلى المدينة ، وهناك اشتر لنفسك بعض الحلويات . . . كمية كبيرة تكفي لتسبب لك مغصاً في معدتك» .

أشرق وجه ويد ودس الدولار في جيبه ، ثم نظر بقلق نحو أمه لأخذ موافقتها ، ولكنها كانت تراقب ريت وهي مقطبة الجبين ، وكان ريت قد التقط بوني عن الأرض وراح يؤرجحها على صدره ووجهها الصغير يلامس وجنته ، الأمر الذي منع سكارلت من قراءة وجهه ، ولكنها رأت شيئاً في عينيه ، شيئاً كالخوف تقريباً ، الخوف والاتهام الذاتي .

وتشجع ويد بكرم عمه فاقترب منه حيياً .

ـ «عمي ريت ، هل أستطيع أن أسألك سؤالاً؟» .

ـ «طبعاً» وبدت نظرته جدية شاردة فيما كان يقرب رأس بوني منه «ما هو يا ويد؟» .

ـ «عمي ريت . . . أكنت . . . هل اشتركت في الحرب؟» .

فعادت عينا ريت متيقظتين حادتين إلاّ أن صوته ظل عادياً .

ـ «لماذا تسأل يا ابني؟» .

ـ «الواقع ، لقد قال جو ويتنغ إنك لم تشترك ، وهكذا قال فرانك بوتل» .

ـ «ها» قال ريت «وبماذا أجبتهما؟» .

فبدا الانزعاج على ويد .

ـ «لقد . . . لقل قلت . . . لقد أجبتهما أني لا أعرف» ثم أضاف بسرعة : «ولكني لم أكترث بهما وضربتهما . هل كنت في الحرب يا عم ريت؟» .

ـ «أجل» قال ريت وقد احتد فجأة : «لقد كنت في الحرب . كنت في الجيش مدة ثمانية شهور . لقد حاربت طيلة الطريق من لفجوي إلى فرانكلين وتنيسي وكنت مع جونستون عندما استسلم» .

فانتفخ ويد بالكبرياء ولكن سكارلت ضحكت .

ـ «أعتقد أنك كنت خجلاً من سجلك الحربي» قالت «ألم تخبرني أن أخلد إلى الصمت فيما يتعلق به» .

ـ «اصمتي» قال باقتضاب «هل ذلك يرضيك يا ويد؟» .

ـ «ها ، أجل يا سيدي ، لقد عرفت الآن أنك كنت في الحرب . لقد عرفت أنك لم تكن جباناً كما كانوا يقولون . ولكن . . . لماذا لم تكن مع آباء الأولاد الصغار والآخرين؟» .

ـ «لأن آباء الأولاد الصغار الآخرين كانوا أغبياء جداً بحيث اضطرت القيادة إلى أن تضعهم مع المشاة ، بينما كنت أنا خريج وست بوينت ، ولذلك التحقت بالمدفعية ، بالمدفعية النظامية يا ويد ، وليس بالحرس الوطني ، إذ إن الالتحاق بالمدفعية يتطلب إدراكاً واسعاً يا ويد» .

ـ «أراهن . . .» قال ويد ووجهه يشرق فرحاً «هل جرحت يا عم ريت؟» .

فتردد ريت في الجواب .

ـ «أخبره عن مرضك بالزحار» سخرت سكارلت .

غير أن ريت وضع الطفلة على الأرض بعناية ، وسحب قميصه الخارجي ثم قميصه الداخلي من تحت حزام سرواله .

ـ «تعال إلي يا ويد وسأريك موضع جرحي» .

فتقدم ويد منفعلاً وحدق حيث أشار أصبع ريت . كان هناك ندب بارز طويل يمتد عبر صدره الأسمر إلى بطنه ذي العضلات القوية ، وكان هذا أثر قتال بالسكاكين في حقول الذهب في كاليفورنيا ، ولكن ويد لم يكن يعرف الحقيقة ، بل تنفس بعمق وسعادة :

ـ «أظن أنك شجاع كوالدي يا عم ريت» .

ـ «تقريباً ، وليس تماماً» قال ريت داساً قميصه في سرواله «والآن اذهب واصرف دولارك ، واضرب بعنف كل صبي يقول إني لم أكن في الجيش» .

خرج ويد وهو يرقص فرحاً ، ثم نادى بورك ، بينما التقط ريت الطفلة عن الأرض ثانية .

ـ «والآن لماذا كل هذه الترهات ، يا فتاي الجندي الشهم؟» .

ـ «على الصبي أن يكون فخوراً بأبيه أو بعمه . وأنا لا أستطيع أن أدعه يخجل أمام الوحوش الصغيرة الأخرى ، المخلوقات الفظة ، الأولاد» .

ـ «ها ، هراء ! . .» .

ـ «أنا لم أفكر أبداً ماذا كان الأمر يعني بالنسبة إلى ويد» قال ريت «أنا لم أفكر أبداً كيف كان يعاني ، ولن يكون الأمر على ذلك النسق بالنسبة إلى بوني» .

ـ «أي نسق؟» .

ـ «هل تعتقدين أني سأدع بوني تخجل بأبيها؟ أدعها تُستثنى من الحفلات عندما تبلغ التاسعة أو العاشرة؟ هل تعتقدين أني سأدعها تذل كويد بسبب أمور ليست هي مسؤولة عنها وإنما أنت وأنا؟» .

ـ «ها ، حفلات الأطفال !» .

ـ «من حفلات الأطفال تنشأ حفلات الصبايا الأولى . هل تعتقدين أني سأدع ابنتي تتجاوز كل ما هو محتشم في أتلانتا وهي تنمو؟ لن أرسلها إلى الشمال للمدرسة أو للزيارة لأنها لن تكون مقبولة هنا أو في شارلستون أو سافانا أو نيو أورليانز ، كما أني لن أراها تضطر إلى الزواج بشمالي أو أجنبي ، لأن جميع العائلات الكريمة لن تقبل بها . . . لأن أمها كانت حمقاء وأبيها كان وغداً» .

كان ويد الذي عاد إلى الباب ، مصغياً ملتذاً بالحديث ، ولكنه كان محتاراً .

ـ «بوسع بوني أن تتزوج بو يا عمي ريت» .

زاول الغضب وجه ريت عندما التفت إلى الصبي ، وقد قدّر كلماته باهتمام جلي ، كما كان يفعل دائماً في أثناء تعاطيه الحديث مع الأولاد .

ـ «ذلك حقيقي يا ويد ، بوسع بوني أن تتزوج بو ويلكس ، ولكن أنت من ستتزوج؟» .

ـ «ها ، أنا لن أتزوج أية فتاة» قال ويد بنفس واثقة ، سعيداً بحديث الرجل للرجل ، مع الشخص الوحيد الذي لم يؤنبه بل كان يشجعه دائماً كالآنسة ميلي . «سوف أذهب إلى هارفارد وأتخرج محامياً كوالدي ، ثم سأستعد لأكون جندياً شجاعاً ، مثله تماماً» .

ـ «أرجو أن تحتفظ ميلي بلسانها صامتاً» صاحت سكارلت «ويد سوف لا تذهب إلى هارفارد ، فتلك مدرسة شمالية ، وأنا لن أدعك تذهب إلى مدرسة شمالية . سوف تذهب إلى جامعة جورجيا . وبعد أن تتخرج ستدير المخزن نيابة عني ، وأما بالنسبة إلى كون والدك جندياً شجاعاً . . .» .

ـ «صه» قال ريت باقتضاب دون أن تفوته ملاحظة الضوء المشرق في عيني الصبي عندما تكلم عن والده الذي لم يكن قد عرفه أبداً «ألم أكن شجاعاً كوالدك يا ويد . حاول أن تكون مثله تماماً لأنه كان بطلاً ، ولا تدع أي شخص

يقول لك خلاف ذلك . لقد تزوج أمك ، أليس كذلك؟ حسناً ، إن هذا برهان كاف على بطولته ، كما أني سأحرص على ذهابك إلى هارفارد وتخرجك محامياً . والآن أسرع وأخبر بورك بأن يأخذك إلى المدينة» .

ـ «سأكون لك ممتنة إن تركتني وتربية أطفالي» صاحت سكارلت عندما انطلق ويد من الغرفة ، مطيعاً أمر ريت .

ـ «إنك مربية فاشلة لعينة . لقد حطمت كل فرصة سنحت لكلا ويد وإيلا ، ولن أدعك تفعلين ذلك مع بوني ، لأني بوني ستغدو أميرة صغيرة ، وسيرغب فيها كل إنسان في الدنيا ، ولن يكن هناك أي مكان لا تستطيع الذهاب إليه . يا لله الرحيم ، هل تعتقدين أني سأدعها تنمو وتعاشر الغوغاء الذين يملأون هذا البيت؟» .

ـ «إنهم جماعة موافقة جداً لك . . .» .

ـ «ومنظرهم منظر ملعون موافق جداً لك يا مدللتي ، ولكن ليس لبوني . هل تعتقدين أني سأدعها تتزوج أياً من هذه الزمرة الضالة التي تقضين وقتك معها؟ إنهم إيرلنديون بالفطرة ، شماليون بيض أوغاد ، كاريت بغرز حديثو نعمة . . إن ابنتي بوني ذات الدم البتلري والنسب الروبلاردي . . .» .

ـ «الأوهاريون . . .» .

ـ «الأوهاريون يمكن أن يكون ملوك إيرلندا فيما مضى ، ولكن والدك لم يكن سوى إيرلندي بالفطرة كما أنك لست أفضل . . . ولكن مع ذلك ، فإن بي نقصاً أيضاً ، إذ قد قضيت حياتي كخفاش خارج جحيم ، لا أحفل مطلقاً بما أفعل ، لأنه لم يكن يهمني شيء . إلا أن بوني تهمني الآن . يا لله ، أي أحمق كنته ! . . لن يرحب ببوني في شارلستون مهما فعلت أمي أو خالتك يولاي أو خالتك بولين . . . ومن الواضح أنها لن يرحب بها هنا ما لم نقم بعمل ما سريعاً» .

ـ «ها يا ريت ، إنك تأخذ القضية بصورة جدية بالغة ، بحيث أنك تبدو مضحكاً . إننا بنقودنا . . .» .

ـ «ليلعن الله نقودنا ! كل نقودنا لا تستطيع شراء ما أريده لها . إني أفضل أن لو دعيت بوني لتأكل خبزاً جافاً في بيت آل بيكارد البائس أو في شونة السيدة ألسنغ البالية على أن تكون حسناء حفلة رقص شمالية تدشينية . لقد كنت غبية

يا سكارلت . كان يجب أن تؤمني مركزاً لولديك في النظام الاجتماعي منذ سنين . . . ولكنك لم تفعلي ، بل إنك حتى لم تزعجي نفسك وتحافظي على المركز الذي كان لك . ومن الغرور أن أؤمل نفسي بأنك ستصححين أساليبك في هذا الوقت المتأخر . إنك متلهفة جداً إلى جني المال ، مولعة جداً بمقارعة الناس» .

ـ «إني أعتبر هذا الأمر كله زوبعة في فنجان» قالت سكارلت ببرود ، وقرقعت بأوراقها لتشير إلى أن الحديث انتهى بالنسبة إلى موقفها منه .

ـ «ليس لدينا سوى السيدة ويلكس لتساعدنا ، وأنت اعملي جهدك لتنفريها وتبعديها . آه ، وفري علي ملاحظاتك عن عوزها وثيابها الرثة . إنها روح كل شيء خالص في أتلانتا ، محوره ، شكراً لله على وجودها ، فستساعدنا في عمل شيء في هذا الصدد» .

ـ «وماذا ستفعل؟» .

ـ «أفعل؟ سأهذب كل أفعوان من الحرس القديم في هذه المدينة ، خصوصاً السيدات ميريويذر وألسنغ ووايتنغ وميد ، وإذا ما اضطررت إلى أن أزحف على بطني للوصول إلى كل قطة عجوز من اللواتي يكرهنني فسأفعل ذلك ، سأكون وديعاً أمام برودتهن ، وتائباً عن أساليبي القديمة ، وسأعترف وأتباهى بخدماتي للحلف ، وفي أسوإ الاحتمالات سألتحق بجمعية الكلان اللعينة الخاصة بهم . كما أني لن أتردد في تذكير الأغبياء الذين أنقذت أرواحهم أنهم مدينون لي بجميل . وأنت يا سيدة ستمتنعين إكراماً عن هدم عملي من خلف ظهري بتنفيذ الرهونات على أي من الأشخاص الذين أجاملهم ، أو أبيعهم خشباً مهترئاً ، أو أهينهم بطرق أخرى . ثم إن الحاكم بولوك لن يضع قدمه في هذا البيت مرة ثانية ، أتسمعين؟ وكذلك أي من هذه الزمرة من اللصوص الظرفاء الذين تعاشرينهم ، وإذا ما دعوتهم رغم رجائي إياك فستجدين نفسك في المركز المربك ، الناجم عن عدم وجود مضيف في بيتك . إذا أتوا إلى هذا البيت فسأقضي وقتي في حانة بيل وتلنغ ، وأخبر كل إنسان يهمه السماع بأني لن أقيم وإياهم تحت سقف واحد .

ضحكت سكارلت التي كانت تتألم بفعل كلماته ، ضحكت ضحكة قصيرة .

ـ «وهكذا فإن مقامر الزورق النهري والمضارب سيصبح رجلا محترماً! حسناً، من الأفضل أن تكون أول خطواتك نحو المركز المحترم في بيع بيت بيل وتلنغ» .

لقد كانت تلك العبارة رصاصة في الظلام، لأن سكارلت لم تكن واثقة تماماً من أن ريت كان يمتلك البيت، أما هو فقد ضحك فجأة وكأنه قرأ تفكيرها .

ـ «شكراً على اقتراحك» .

*

ربما كان ريت لو حاول لما استطاع أن يختار وقتاً أكثر صعوبة من هذا الوقت ليشق طريقه فيه إلى استعادة احترام الناس له ثانية، فلم يحدث قبل هذا الوقت، أو بعده، أن حمل اسماً «جمهوري» أو «سكالاواغز» مثل هذا العار، لأن فساد نظام الكاربت بغرز كان الآن قد بلغ الذروة، بينما كان اسم ريت منذ الاستسلام مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالشماليين والجمهوريين والسكالاواغز .

كان سكان أتلانتا قد اعتقدوا عام ١٨٦٦، بحنق عاجز، أنه لا يمكن أن يكون هناك أسوأ من الحكم العسكري الصارم الذي كانوا يرزحون تحته . ولكنهم الآن، وهم تحت حكم بولوك، كانوا يتعرفون على الأسوإ . فبسبب أصوات الزنوج أضحى الجمهوريون وحلفاؤهم متحصنين بثبات، وكانوا يركبون بمناعة فوق أكتاف الأقلية العديمة القوة، التي ما انكفت تقاوم رغم ذلك .

لقد كانت تلك الفرصة مجيدة للزمرة التي كانت تقبض على جورجيا من عنقها . واستشرى النهب وعم الناس استهزاء بارد فيما يتعلق باللصوصية المفضوحة في المناصب الرفيعة التي كان الإنسان يقشعر من التفكير فيها، ولم تجد الاحتجاجات والجهود شيئاً في مقاومة ذلك، لأن حكومة الولاية كانت مسنودة مدعومة بقوة جيش الولايات المتحدة .

كان سكان أتلانتا يلعنون أسماء بولوك وسكالاواغيين وجمهوريين ويلعنون اسم كل من له علاقة بهم، وكان لريت علاقة بهم، إذ كان ضمن زمرتهم، كما كان الجميع يقولون في كل مؤتمراتهم . ولكنه الآن انقلب ضد التيار الذي كان منحرفاً فيه قبيل برهة وجيزة، وبدأ يسبح بحماسة ضد التيار .

خطا في حملته ببطء ويدهاء ، دون أن يثير شكوك أتلانتا . خطا بمظهر نمر يحاول أن يغير إهابه خلال الليل . كان يتجنب أصدقاءه المريبين ، ولم يعد يُرى في رفقة الضباط الشماليين والسكالاواغيين والجمهوريين . ثم راح يحضر اجتماعات الديموقراطيين ويقترع إلى جانبهم بتفاخر ، وكذلك تخلى عن لعب القمار وتحلى بالوقار بدلاً من ذلك . وكان إذا اتفق وذهب إلى بيت بيل وتلنغ ، فإنه كان يذهب ليلاً وخلسة كما كان يفعل أكثر رجال المدينة المحترمين ، بدلاً من يدع فرسه أمام بيتها في الأمسيات كإعلان عن وجوده داخل البيت .

وكان جمهور الكنيسة الأسقفية يكاد يقع عن مقاعده وهو يتطلع إلى ريت وهو يدخل على أصابع قدميه متأخراً عن القداس وممسكاً بيد ويد . وكان ذهول الجمهور بظهور ويد يعادل ذهوله بظهور ريت ، إذ كان يفرض في الصبي أن يكون كاثوليكياً ، فعلى الأقل ، لقد كانت سكارلت كاثوليكية أو أنها كان يفترض أن تكون كاثوليكية . غير أنها لم تكن قد وضعت قدمها في الكنيسة منذ سنين ، لأن الديانة كانت قد هجرتها ، كما كان قد هجرها كثير من تعاليم أمها الأخرى ، وكان الجميع يعتقدون أنها كانت قد أهملت تربية ابنها الدينية ، ويكبرون ريت لمحاولته إصلاح الأمر حتى ولو كان ذلك من طريق اصطحاب الصبي إلى الكنيسة الأسقفية بدلاً من الكاثوليكية .

كان بوسع ريت أن يبدو رصين الخلق فاتناً عندما كان يختار أن يكبح لسانه ويمنع عينيه السوداوين من الرقص الخبيث . وكان قد مضى سنوات منذ اختار أن يفعل هذا ، ولكنه كان يفعله الآن ، متحلياً بالرصانة والوسامة ، تماماً كما كان يتحلى بالصدرة ذات الألوان الوقورة . ولم يكن من الصعب عليه أن يكسب موطئ قدم للصداقة بين الرجال المدينين له بأعناقهم ، هؤلاء الرجال الذين كان يمكن أن يظهروا عن تقديرهم له منذ زمن طويل ، لو أنه لم يتصرف كما لو أن تقديرهم كان قضية لحظة عابرة . غير أن هيو ألسنغ ورينيه وأبناء سيمونز وإندي بونل والآخرين كانوا يجدونه الآن ممتعاً ، حيياً فيما يتعلق بالتباهي بنفسه ، مرتبكاً عندما يتكلمون عن الجميل المدينين له به .

ـ «لم يكن ذلك شيئاً مذكوراً» كان يحتج «فلو كنتم في مكاني لفعلتم جميعكم الشيء ذاته» .

وكان يتبرع بسخاء لميزانية ترميم الكنيسة الأسقفية ، ولقد قدم مبلغاً كبيراً ،

ولكنه ليس كبيراً إلى حد الابتذال، إلى جمعية «تجميل قبور موتانا الأمجاد» وقد نشد السيدة ألسنغ ليقدم هذه الهبة ورجاها وهو مرتبك أن تحفظ أمر هبته سراً، وهو يعرف تمام المعرفة أن هذا الرجاء سيحفزها إلى نشر النبإ. أما السيدة ألسنغ فقد كرهت أن تقبل نقوده ـ وهي نقود مضارب ـ ولكن الجمعية كانت بحاجة ماسة إلى المال.

ـ «إني لا أرى لماذا ينبغي لك من بين جميع الناس أن تتبرع لجمعيتنا؟».

قالت بحدة.

وعندمات أخبرها ريت، بجهد رصين لائق، أنه انساق للتبرع بدافع ذكريات زملاء السلاح السابقين، الذين كانوا أشجع منه، ولكن أقل حظاً، والذين كانوا الآن يرقدون في قبور مجهولة، تدلى شدق السيدة ألسنغ الأرستقراطي، إذ كانت دولي ميريويذر قد أخبرتها أن سكارلت كانت قد ذكرت أن الكابتن بتلر كان في الجيش، ولكن طبعاً لم تكن قد صدقت النبأ، بل لم يكن أحد قد صدقه.

ـ «أنت في الجيش؟ ماذا كانت فرقتك.. فصيلك؟».

فذكر لها ريت ذلك.

ـ «ها، المدفعية. كل من أعرفه كان إما في المشاة أو الفرسان. إذاً، ذلك يوضح..» وصمتت مرتبكة، متوقعة أن ترى عينيه تبرقان بالخبث. غير أنه لم يزد على أن غض بصره، وراح يعبث بسلسلة ساعته.

ـ «كنت أفضّل المشاة» قال «ولكن عندما وجدوا أني كنت في وست بوينت ـ رغم أني لم أنل شهادة التخرج منها يا سيدة ألسنغ بسبب زلة هرج صبياني، ألحقوني بالمدفعية النظامية وليس الاحتياطية. لقد كانوا بحاجة إلى رجال من ذوي الاختصاص في تلك الحملة الأخيرة، وأنت تعرفين كم كانت الخسائر بالغة، إذ قتل عدد كبير من رجال المدفعية وغدا سلاح المدفعية موحشاً آنذاك، فلم أر فيه إنساناً أعرفه. وإني لا أعتقد أني رأيت رجلاً واحداً فيه من أتلانتا خلال خدمتي».

ـ «حسناً» قالت السيدة ألسنغ وهي مرتبكة، إذا كان قد خدم في الجيش، فلقد كانت هي مخطئة إذاً، إذ كانت قد علّقت بعبارات قارصة كثيرة على جبنه، وجعلتها ذكرى تلك العبارات تشعر بالإثم «حسناً! لماذا لم تخبر أي

إنسان عن خدمتك؟ إنك تتصرف كما لو كنت خجلاً بعملك» .

فنظر ريت إلى عينيها نظرة منصفة ، وقد بدا وجهه مبهماً «سيدة ألسنغ» قال بلهفة «صدقيني حين أقول إني فخور بخدماتي للحلف أكثر من أي شيء فعلته أو ينتظر أن أفعله . إني أشعر . . إني أشعر . .» .

ـ «حسناً ، ولماذا تحتفظ بذلك طي الكتمان؟» .

ـ «كنت خجلاً من التحدث به على ضوء . . على ضوء بعض أفعالي السابقة» .

نقلت السيدة ألسنغ نبأ التبرع والحديث إلى السيدة ميريويذر بالتفصيل .

ـ «ويا دولي ، إني أؤكد لك أنه عندما قال ذلك . . عن كونه خجولاً ، أجهشت عيناه بالدموع ! أجل بالدموع ! وكدت أبكي أنا أيضاً» .

ـ «لغو وهراء !» صاحت السيدة ميريويذر غير مصدقة «إني لا أصدق أن عينيه أجهشتا بالدموع أكثر مما أصدق أنه كان في الجيش . كما أن بوسعي أن أكتشف بسرعة فائقة إذا كان في فرقة المدفعية تلك . أجل ، بوسعي أن أحصل على الحقيقة ، لأن الكولونيل كارلتون الذي كان في إمرة الفرقة تزوج ابنة إحدى عمات والدي ، وسأكتب إليه» .

وكتبت للكولونيل كارلتون ، ولكن ما أدهشها أنها تلقت منه جواباً يطري فيه خدمات ريت بعبارات صريحة إذ يقول : هو مدفعي بالفطرة ، جندي شجاع ، وسيد عديم التذمر . إنه رجل نزيه شهم لم يكن ليأخذ أجراً على ما يكلف بعمله حتى ولو قدم له هذا الأجر .

ـ «الواقع !» قالت السيدة ميريويذر وهي تُري الرسالة للسيدة ألسنغ «إنني أكاد أصعق !» قد نكون أسأنا الحكم على هذا الوغد فيما يتعلق بعدم كونه جندياً ، وربما كان من واجبنا أن نصدق ما قالته سكارلت وميلاني عنه من أنه انضم إلى الجيش يوم سقوط المدينة . ولكن مهما كان الأمر فإنه سكالاواغ ووغد ، وأنا لا أحبه !» .

ـ «كيفما كان الأمر» قالت السيدة ألسنغ بتردد «كيفما كان الأمر ، فإني لا أعتقد أنه رديء جداً . فرجل حارب من أجل الحلف لا يمكن أن يكون رديئاً كلية . إن سكارلت هي الرديئة ـ هل تعلمين يا دولي أني أعتقد حقيقة أنه ـ على كل حال ، أنه خجل بسكارلت ، ولكنه لا يفصح عن ذلك لأنه سيد عظيم» .

ـ «خجل ! أواه ! إنهما كليهما مجبولان من طينة واحدة . من أين أتيت بهذه الفكرة الغبية؟» .

ـ «إنها ليست غبية ! قالت السيدة ألسنغ حانقة «فأمس ، تحت المطر المدرار ، كان ينزه أولئك الأطفال الثلاثة ، وحتى الرضيع ، انتبهي ، في عربته ذهاباً وإياباً في شارع بيتشتري ، وقد أوصلني إلى البيت . وعندما قلت له : «هل فقدت عقلك لتخرج بهؤلاء الأطفال في هذا الجو الرطب؟ لماذا لا تأخذهم إلى البيت؟» لم ينبس ببنت شفة وإنما بدا مرتبكاً . ولكن مامي صرحت مجيبة عن سؤالي : «إن البيت مزدحم بحقيري البيض ، وإن من الأصح للأطفال أن يكونوا تحت المطر من أن يكونوا في البيت !» .

ـ «وماذا قال هو؟» .

ـ «ماذا كان بوسعه أن يقول؟ كشر فقط في وجه مامي وتغاضى عن الأمر . أنت تعرفين أن سكارلت كانت تقيم حفلة قمار كبرى بعد ظهر أمس ، حفلة ضمت جميع أولئك النسوة العاميات العاديات ، وأظن أنه لم يكن يريدهن أن يقبّلن ابنته» .

ـ «لا بأس» قالت السيدة ميريويذر مترددة ، ولكنها ما زالت متشبثة برأيها . غير أنها في الأسبوع التالي ، أذعنت هي أيضاً .

وكان ريت قد وضع لنفسه مكتباً في المصرف ، أما ماذا كان يعمل أمام هذا المكتب فلم يكن موظفو المصرف المندهشون يعرفون ، ولكنه كان يملك عدداً كبيراً من أسهم المصرف بحيث لم يكن بوسعهم الاحتجاج على وجوده هناك . وما لبث الموظفون بعد برهة قصيرة أن نسوا أنهم كانوا قد عارضوا وجوده في مصرفهم ، لأنه كان هادئاً حسن السيرة ، يعرف في الحقيقة بعض الشيء عن الأعمال المصرفية واستثمار الأموال . وعلى أية حال ، فقد راح ريت يجلس أمام مكتبه طيلة يومه ، مضيفاً على نفسه كل مظاهر رجل الأعمال ، لأنه كان يرغب في أن يتحلى بالصفات ذاتها التي يتحلى بها رجال المدينة المحترمون ، الرجال الذين كانوا يثابرون على أعمالهم .

وكانت السيدة ميريويذر ، رغبة منها في توسيع فرنها النامي ، قد حاولت أن تقترض ألفي دولار من المصرف مقابل رهن بيتها ، ولكن طلبها قد رفض ، نظراً لكون بيتها مرهوناً مرتين ، وبينما كانت السيدة البدينة العجوز خارجة من

المصرف وهي ثائرة، أوقفها ريت واطلع على مشكلتها، ثم قال مضطرباً «ولكن لا بد أن يكون هناك خطأ ما، خطأ فاحش، يا سيدة ميريويذر، فأنت من بين جميع الناس ينبغي أن لا تنزعجي من أجل الضمان. كيف لا، وأنا أقرضك مالاً، اعتماداً على شرفك فقط! وإن السيدة التي تستطيع أن تقيم الصناعة التي أقمتها أنت هي أفضل مغامرة في الدنيا. إن المصرف يرغب في أن يقرض مثلك. والآن اجلسي هنا في كرسيي وسأرى أنا الأمر نيابة عنك.

وعندما رجع كان يبتسم بلطف وقال إنه كان هناك خطأ «تماماً كما كان قد توقع» وأن الألفي دولار كانت تنتظرها في أي وقت تريد سحبها. وفيما يتعلق ببيتها فإنه لم يطالبها بشيء، وكل ما طلبه منها التوقيع فقط.

أما السيدة ميريويذر، التي كانت تتميز غيظاً وإهانة، والتي كانت ساخطة لأنها اضطرت إلى أن تقبل هذا الجميل من رجل كانت تكرهه ولا تثق به، فإنها بالكاد بدت لطيفة في شكرها له.

غير أن ريت فشل في ملاحظة ذلك، وفيما كان يشيعها إلى الباب خاطبها قائلاً «سيدة ميريوذر، إني أحمل تقديراً عظيماً لمعرفتك دائماً، وإني لأتساءل إذا كان بوسعك أن تخبريني شيئاً؟».

وبالكاد تحرك ريش قبعتها عندما أطرقت برأسها موافقة.

- «ماذا كنت تفعلين عندما كانت ابنتك مايبيل صغيرة تمص إبهامها».

- «ماذا؟».

- «إن ابنتي بوني تمص إبهامها، وليس بوسعي أن أمنعها عن تلك العادة».

- «ينبغي أن توقفها» قالت السيدة ميريويذر بحماسة «لأن ذلك سيشوه شكل فمها».

- «أعرف! أعرف! وهي تنعم بفم جميل، غير أني لا أعرف ماذا أفعل!».

- «على كل حال، لا بد لسكارلت من أن تعرف» قالت السيدة ميريويذر «فلقد ربت ولدين آخرين».

فأطرق ريت ببصره ناظراً إلى حذائه وتنهد، ثم قال:

- «لقد حاولت أن أضع صابوناً تحت أظفار أصابعها» قال متغاضياً عن عبارتها المتعلقة بسكارلت.

- «صابون!.. لا! الصابون لا يصلح أبداً. لقد وضعت كينا على إبهام

مايبيل . ودعني أخبرك يا كابتن بتلر بأنها كفت عن مص ذلك الإبهام بسرعة فائقة» .

ـ «كينا ، لم أكن لأفكر بها أبداً! ليس بوسعي أن أشكرك كما ينبغي يا سيدة ميريويذر . لقد كان الأمر يقلقني» .

وابتسم لها ابتسامة تنم عن سرور وامتنان عظيمين حتى إن السيدة ميريويذر وقفت هنيهة حائرة ، ولكن عندما حيّته تحية الوداع ، كانت تبتسم هي أيضاً .

ومنذ أن أصبحت ابنته قادرة على المشي ، راح يصطحبها معه باستمرار ، إما في العربة أو على السرج أمامه . وعندما كان يعود من المصرف إلى البيت بعد الظهر كان يأخذها مشياً في شارع بيتشتري ، يمسك بيدها ، يخفف من مدى خطواته الطويلة كي تعادل خطواتها القصيرة ، ويجيب بصبر على أسئلتها العديدة . وكان الناس يجلسون دائماً في ساحات بيوتهم الأمامية أو في الشرفات ، عند الغروب ، ولما كانت بوني طفلة ودودة جميلة ، بجعدات شعرها الأسود المنكوث ، وبعينيها الزرقاوين اللألاءتين ، فإن القليل منهم كان يستطيع مقاومة رغبته في التحدث إليها . ولم يكن ريت يتدخل أبداً في هذه المحادثات ، بل كان يقف جانباً ، مظهراً كبرياءه الأبوي ، وسروره للفتة المزجاة لابنته .

كانت أتلانتا تحمل ذكرى طويلة الأمد ، وكذلك كانت مرتابة ، بطيئة في تغيير رأيها . وكانت الأوقات صعبة ، والشعور مريراً ضد أي إنسان كان له أي علاقة ببولوك وجماعته . غير أن بوني كانت قد ورثت السحر المشترك من سكارلت وريت ، في أحسن صفاتهما ، ولذا كانت الوتد الصغير الذي دقه ريت في جدار تجرد أتلانتا من العطف عليه .

*

كانت بوني تكبر بسرعة . وكان يتضح يوماً بعد يوم أن جيرالد أوهارا كان جدها ، إذ كان يميزها احتداده الفجائي ، الذي وجدت له منفذاً في ثوراتها الزاعقة التي كانت تنسى حالما تشبع رغباتها ، وكانت تلك الرغبات تشبع دائماً بسرعة طالما والدها بقربها ، والدها الذي كان يفسدها رغم كل جهود مامي وسكارلت ، لأن بوني كانت تسره في جميع الصفات ، ما عدا صفة واحدة هي خوفها من الظلام .

وكانت سكارلت منزعجة من الاهتمام الكبير الذي كان ريت يعيره إلى مخاوف بوني الليلية ، ولكنها فكرت أنها تستطيع أخيراً أن تصحح الوضع وتعيد الطفلة إلى غرفتها ، فجميع الأطفال كانوا يخافون الظلام ، والعلاج الوحيد هو الحزم . لقد كان ريت عنيداً فيما يتعلق بالموضوع ، مظهراً إياها أماً فاشلة ، فقط لينتقم منها ، لأنها أبعدته عن غرفتها .

ولم يكن ريت قد وضع قدماً في غرفتها ، أو حتى طرق بابها منذ الليلة التي أخبرته فيها بأنها لا تريد أطفالاً آخرين . فمنذ ذلك الوقت وإلى أن شرع يظل في البيت بسبب مخاوف بوني ، كان تغيبه عن مائدة العشاء أكثر من حضوره بكثير . وكان أحياناً يظل خارج البيت طيلة الليل ، وكانت سكارلت ، وهي مستلقية يقظى خلف بابها الموصد ، تتساءل وهي تسمع الساعة تدق ساعات الصباح الباكرة ، أين كان وتتذكر عبارته : «يوجد أسرّة أخرى يا عزيزتي !» ومع أن الفكرة كانت تجعلها تتلوى غيظاً ، إلاّ أنه لم يكن هناك ما تستطيع عمله ، بل لم يكن هناك ما تستطيع قوله ما لا يعجل في حدوث مشهد يعلق فيه ريت حتماً على موضوع بابها الموصد وعلاقة آشلي المحتملة بذلك ، أجل إن سخافته فيما يتعلق بنوم بوني في غرفة مضاءة - في غرفته المضاءة - كانت مجرد أسلوب حقير للانتقام منها .

وصار الناس الذين لم يكونوا يحبونه أبداً يبتسمون عندما يمر بجانبهم ، والطفلة الصغيرة جاثمة أمامه على السرج . وبدأت النسوة اللواتي كن حتى الآن يعتقدن أن أية امرأة لا يمكن أن تكون آمنة معه ، يقفن ويتحدثن إليه في الشوارع ليطرين بوني . حتى السيدات العجائز المتعنتات كن يشعرن بأن رجلاً كان بوسعه أن يبحث في علل ومشاكل الطفولة ، كما كان هو يفعل ، لا يمكن أن يكون رديئاً تماماً .

53

ذات يوم ، وكان ذلك في عيد ميلاد آشلي ، كانت ميلاني تعد له حفلة مفاجئة ، وكان الجميع يعلمون بأمر الحفلة ما عدا آشلي ، حتى ويد وبو الصغير عرفا وأقسما على الكتمان ، الأمر الذي جعلهما ينتفخان زهواً . وكان كل إنسان فاضل في أتلانتا قد دعي إلى الحفلة وينتظر قدومه . فالجنرال غوردون وعائلته قبلوا الدعوة بامتنان ، وألكسندر ستفنس كان ينتظر قدومه إذا ما سمحت له صحته المضطربة أبداً ، وحتى بوب تومبس ، طائر نوء الحلف ، كان يتوقع حضوره .

وطيلة ذلك الصباح ، كانت سكارلت وميلاني وإنديا والعمة بيتي يهرعن في أنحاء البيت الصغير ، يوجهن الزنجيات وهن يعلقن الستائر المغسولة والمكوية حديثاً ، ويلمعن الأواني الفضية ويشمعن الأرض ويطبخن ويحركن ويذقن المرطبات . ولم تكن سكارلت قد رأت ميلاني منفعلة أو مسرورة على مثل هذه الصورة .

ـ «إنك ترين أن آشلي العزيز لم ينعم بحفلة ميلاد منذ . . منذ . . إنك تتذكرين الحفلة في تولف أوكس ! اليوم الذي سمعنا فيه عن دعوة السيد لنكولن المتطوعين للخدمة؟ الواقع أنه لم ينعم بحفلة ميلاد منذ ذلك الوقت . إنه يشتغل بجد كبير ويكون تعباً جداً عندما يعود إلى البيت ليلاً ، بحيث أنه لم يفكر في الحقيقة أن هذا اليوم هو يوم ميلاده ، أو أنه لن يدهش بعد العشاء عندما يتدفق الجميع !

ـ «علي أن أذهب الآن» . قالت سكارلت «لا بد لي من أن أذهب لتناول الغداء ، ثم أذهب إلى المخزن لأدفع أجور الكتبة ، ثم إلى مستودع الخشب كي أدفع الأجور للحوذيين وهيو ألسنغ» .

ـ «ها ، هل ستذهبين إلى مستودع الخشب؟» سألت ميلاني «سيأتي آشلي إلى المستودع في وقت متأخر من بعد ظهر هذا اليوم ليقابل هيو ، فهل بوسعك إبقاءه هناك حتى الساعة الخامسة؟ لأنه إذا جاء البيت قبل ذلك الوقت فمن الأكيد أنه سيكشفنا ونحن ننجز صنع كعكة أو شيء آخر ، وعندئذ ، لن يفاجأ أبداً» .

ـ «أجل سأبقيه» قالت .

وبينما كانت تتكلم ، قابلت عينا إنديا الشاحبتان ، العديمتا الرموش ، عينيها بنظرات نفاذة «إنها دائماً تنظر إلي نظرات غريبة جداً عندما أتكلم عن آشلي» فكرت سكارلت .

ـ «حسناً ، أبقيه أطول مدة تستطيعينها بعد الساعة الخامسة» قالت ميلاني «ثم ستركب إنديا إليكما وتأتي به . . . سكارلت تعالي باكراً هذه الليلة ، فأنا لا أريد أن تفوتك دقيقة من هذه الحفلة» .

وبينما كانت سكارلت تركب إلى البيت ، فكرت فجأة «إنها لا تريد أن تفوتني دقيقة من الحفلة ، إيه؟ إذاً ، لماذا لم تدعني لأقوم بالاستقبال معها وإنديا والعمة بيتي؟» .

لم تكن سكارلت ، عموماً ، لتهتم سواء أقامت بالاستقبال في حفلات ميلاني التافهة أم لم تقم ، ولكن هذه كانت أكبر حفلة أقامتها ميلاني ، وحفلة ميلاد آشلي خصوصاً . وكانت سكارلت تتوق لتقف إلى جانب آشلي وتستقبل الضيوف معه . بيد أنها كانت تعرف سبب عدم دعوتها للقيام بواجب الاستقبال ، وحتى لو لم تكن تعرفه ، فإن تعليق ريت على الموضوع كان صريحاً بما فيه الكفاية :

ـ «أيقوم سكالاواغي بالاستقبال في الوقت الذي سيكون هناك جميع الديموقراطيين السابقين البارزين ! إن آراءك مذهلة كما هي مشوشة ، وإن دعوتك إنما تمت بفضل إخلاص السيدة ميلاني فقط» .

لبست سكارلت ثيابها بعد ظهر ذلك اليوم باهتمام أكثر من المعتاد من أجل رحلتها إلى المخزن ومستودع الخشب ، ولذلك لبست ثوب التفتا الأخضر القاتم المتموج الذي كان يبدو بنفسجياً في بعض الأضواء . ثم وضعت على رأسها القبعة الخضراء الفاتحة الجديدة ، المحاطة بريش أخضر قاتم . لو أن ريت يدعها تقص خصلات شعرها وتجعدها متدلية على جبينها ، عندئذ كم تكون هذه القبعة تبدو أجمل مما هي عليه الآن ! ولكن ريت كان قد صرح بأنه سيحلق جميع شعر رأسها إن هي قصت خصلات شعرها الأمامية . وكان ريت هذه الأيام يتصرف تصرفاً شنيعاً جداً ، بحيث كان من الممكن أن ينفذ وعيده فعلاً .

كان النسيم الدافئ الذي يخفق بأوراق الشجر في شارع بيتشتري يرقص

ريش قبعة سكارلت ، وكان قلبها يرقص كذلك ، شأنه دائماً عندما تكون ذاهبة لرؤية آشلي ، ربما إن هي دفعت أجور فريق السواقين وهيو باكراً ، فسينصرفون إلى بيوتهم ويتركونها وآشلي وحيدين في المكتب المربع الصغير ، وسط مستودع الخشب ، خصوصاً أن فرصة رؤية آشلي وحيداً كانت نادرة جداً هذه الأيام . ولتفكر أن ميلاني كانت قد طلبت منها أن تبقيه ! لقد كان ذلك مضحكاً !

كان قلبها فرحاً عندما بلغت المخزن . ودفعت الأجرة لـ«ويلي» والمحاسبين الآخرين حتى دون أن تسأل كيف كان عمل اليوم ، مع أن اليوم كان يوم السبت ، أهم أيام الأسبوع بالنسبة إلى المخزن ، لأن جميع المزارعين كانوا يؤمون المدينة ليبتاعوا فيه ، غير أنها لم تسأل أي سؤال .

وعلى طول الطريق إلى المستودع وقفت عشر مرات لتتحدث إلى سيدات كاربت بغرز كن في حلل فاخرة ، ليست فاخرة كحلتها ، فكرت بسرور ، كما أنها تحدثت مع رجال كانوا يأتون خلال غبار الشارع الأحمر ليقفوا ويطروها وقبعاتهم في أيديهم . لقد كانت أمسية جميلة ، وكانت هي سعيدة . لقد كانت تبدو رائعة ، وكان سيرها ملكياً .

وبسبب هذه التأخيرات وصلت إلى مستودع الخشب متأخرة عن الوقت الذي كانت قد عزمت على أن تصل فيه . . . وهناك وجدت هيو وفريق السواقين جالسين بانتظارها على كومة أخشاب منخفضة .

ـ «هل آشلي هنا؟» .

ـ «أجل إنه في المكتب» قال هيو وقد غادر وجهه التعبير القلق المعتاد ، عندما رأى عينيها السعيدتين الراقصتين .

ـ «إنه يحاول أن . . أعني إنه يراجع دفاتر الحساب» .

ـ «ليس به حاجة إلى أن يزعج نفسه بذلك هذا اليوم» قالت ثم خفضت صوتها «لقد أرسلتني ميلي هنا لأبقيه إلى أن يكونوا قد أعدوا البيت تماماً لحفلة الليلة» .

فابتسم هيو لأنه كان سيذهب إلى الحفلة ، كان يحب الحفلات وظن أن سكارلت تحبها أيضاً ، وذلك من الحالة التي كانت تبدو فيها ذلك المساء . دفعت سكارلت له وللسواقين أجورهم وتركتهم فجأة ، ثم مشت تجاه المكتب بعد أن تظاهرت بوضوح من خلال تصرفها أنها لم تكن تحفل في أن يرافقها

أحد . وقابلها آشلي عند الباب ووقف في ضوء شمس الأصيل ، شعره متلألئ ، وعلى شفتيه بسمة صغيرة كانت افترارة تقريباً .

ـ «عجباً يا سكارلت ، ماذا تفعلين في المدينة في هذا الوقت من النهار؟ لماذا لست في بيتي تساعدين ميلي في الإعداد للحفلة المفاجئة؟» .

ـ «ماذا ، آشلي ويلكس !»صاحت «لم يكن من المفروض أن تعرف شيئاً عنها ، سيخيب أمل ميلي كثيراً إن أنت لم تدهش بالمفاجأة» .

ـ «ها ، إني لن أكشف عن معرفتي ، وسأكون أكثر الرجال دهشة في أتلانتا» .

ـ «والآن من الذي كان وغداً كبيراً فأخبرك؟» .

ـ «في الواقع كل رجل دعته ميلي ، والجنرال غوردون كان أولهم ، فقد قال إنه كان من اختباراته أن النساء عندما كن يقمن حفلات مفاجئة ، فإنهن كن يقمنها عادة في الليالي ذاتها التي كان الرجال يعزمون فيها على مسح كل البنادق الموجودة في البيت وتنظيفها . ولقد أخبرني كل رجل أُقيمت له مرة حفلة مفاجئة .

ـ «ما أحقرهم !» صاحت سكارلت ، ولكن كان لا بد لها من أن تبتسم .

لقد كان يبدو كآشلي القديم الذي كانت تعرفه في تولف أوكس عندما ابتسم هذه الابتسامة ، وهو الذي كان يبتسم نادراً هذه الأيام . كان الهواء منعشاً جداً ، والشمس لطيفة للغاية ، ووجه آشلي في ذروة البهجة ، وحديثه صريحاً تماماً ، بحيث أن قلبها ظفر بالسعادة وراح ينتفخ في صدرها إلى أن صار فعلاً يؤلمها بسرور ، يؤلمها وكأنه يحمل عبئاً من الدموع المبهجة الحارة غير المنهمرة . وفجأة أحست أنها في السادسة عشرة ثانية وبأنها سعيدة .

وانفعلت واحتبس نفسها قليلاً ، وراودتها رغبة مجنونة في أن تنتزع قبعتها وتقذفها في الهواء وتصيح «مرحى !» ثم فكرت كم أن آشلي سيجفل إن هي نفذت رغبتها ، وضحكت فجأة ، ضحكت إلى أن اغرورقت عيناها بالدموع ، وضحك هو أيضاً ملقياً رأسه إلى الوراء ، كما لو أنه كان يستمتع بالضحك ، معتقداً أن فرحتها ناجمة عن الخيانة الحبية التي اقترفها الرجال الذين فضحوا سر ميلي .

ـ «ادخلي يا سكارلت ، إني أراجع دفاتر الحساب» .

فدخلت إلى الغرفة الصغيرة التي كانت تتألق بشمس الأصيل ، وجلست على كرسي أمام المكتب المنحدر السطح ، بينما جلس آشلي ، الذي تبعها ، على زاوية الطاولة الخشبية ، وتدلت ساقاه الطويلتان بسهولة .

ـ «ها ، لا تدعنا نفسد وقتنا بأي دفاتر هذه الأمسية يا آشلي ! فأنا لا يمكن أن أدع نفسي تزعج عندما أكون مرتدية قبعة جديدة ، إذ يبدو لي آنئذ أن جميع الأرقام التي أعرفها تزاول رأسي» .

ـ «الأرقام تفتقد جيداً عندما تكون القبعة رائعة كتلك» قال «سكارلت ، إنك تزدادين جمالاً يوماً بعد يوم !» .

ونزل عن الطاولة وأخذ يديها وهو يضحك ثم واسع ما بينهما ليتأمل ثوبها جيّداً . «إنك جميلة جداً ! إني لا أعتقد أنك ستشيخين» ، وعلى إثر ملامسته لها ، أدركت دون أن تكون واعية ذلك ، أنها كانت قد تلهفت على حدوث هذا الشيء ، طيلة هذه الأمسية السعيدة . كانت قد تاقت إلى دفء يديه ، وحنان عينيه ، وكلمة ترى أنه كان يحفل بها . كانت هذه هي المرة الأولى التي ينفردان بها تماماً منذ ذلك اليوم البارد في بستان تارا ، المرة الأولى التي تلتقي فيها أيديهما في حركات بعيدة عن الرسمية ، وكانت سكارلت خلال الشهور الطويلة قد تحرقت إلى لقاء أقرب . . ولكنها الآن . . .

ما أغرب أن لا تثيرها لمسة يديه ! في الماضي كان مجرد قربه منها يوقعها في الرجفة ، بينما كانت تشعر الآن برضى وود دافئ غريب وحسب ، ولم تنتقل أية حمى من يديه إلى يديها ، وكذلك استكان قلبها بين يديه في صمت سعيد ، الأمر الذي حيرها وأربكها قليلاً . كان لا يزال آشليها ، لا يزال حبيبها المشرق اللألاء ، وكانت تحبه أكثر من الحياة ، وإذاً ، فلماذا . . .

ولكنها أبعدت الفكرة عن عقلها ، كان يكفي أنها كانت معه وأنه كان يمسك بيديها ويبتسم بوداد تام وبدون جهد أو حمى . وعندما فكرت بكل الأشياء غير المعقولة بينهما ، بدا إمكان هذا الذي حدث أمراً عجيباً . كانت عيناه تنظران إلى عينيها ، عينان صافيتان مشرقتان ، تبتسمان بالصورة القديمة التي كانت تحبها ، تبتسمان كما لو لم يكن هناك أي شيء بينهما سوى السعادة . لم يكن هناك حاجز بين عينيه وعينيها الآن ولا شرود محير . وضحكت :

ـ «آه آشلي ، إني أكبر وأهرم» .

ـ «ها ، إن ذلك واضح جداً! لا يا سكارلت ، عندما تكونين في الستين ستبدين كما أنت الآن في نظري . سأتذكرك دائماً كما كنت ذلك اليوم في آخر حفل في بيتنا ، جالسة تحت سنديانة ودزينة من الشبان حولك . إن بوسعي أن أخبرك ماذا كنت تلبسين آنذاك : فستاناً أبيض مغطى بأزهار خضراء صغيرة ، وشالاً أبيض مزركشاً على كتفيك ، وخفين أخضرين صغيرين بشرائط سوداء ، ثم قبعة قش واسعة ذات أشرطة خضراء طويلة . إني أحفظ ذلك الثوب عن ظهر قلب ، لأني عندما كنت في السجن ، وساءت الأمور كثيراً ، رحت أنبش ذكرياتي وأستعرضها وكأنها صور ، متذكراً جميع تفاصيلها الصغيرة . . .» .

وصمت فجأة ، وخفت الضوء المتلهف من وجهه ، ثم أفلت يديها بلطف ، وجلست هي تنتظر ، تنتظر كلماته التالية :

ـ «لقد قطعنا مرحلة طويلة ، كلانا ، منذ ذلك اليوم ، أليس كذلك يا سكارلت؟ لقد اجتزنا طرقاً لم نكن نتوقع اجتيازها . لقد تقدمت أنت بسرعة حازمة ، وأنا ببطء وتردد» .

وجلس على الطاولة ثانية ، ونظر إليها ، وثانية زحفت إلى وجهه ابتسامة صغيرة ، ولكنها لم تكن الابتسامة التي كانت قد أشعرتها بالسعادة الغامرة منذ برهة وجيزة جداً ، لقد كانت ابتسامة كئيبة .

ـ «أجل ، لقد تقدمت بسرعة وأنت تجرينني على دواليب عربتك . إني لأتساءل أحياناً ، يا سكارلت ، بصورة متجردة ، عما كان يمكن أن يقع لي من دونك» .

فأسرعت سكارلت لتدافع عنه ضد نفسه ، أسرعت كثيراً لأنه ارتفع إلى عقلها كلمات ريت في هذا الموضوع :

ـ «ولكني لم أقم بأي شيء من أجلك يا آشلي ، فبدوني كنت ستصل إلى النتيجة ذاتها ، وكنت ستصبح ذات يوم رجلاً غنياً ، رجلاً عظيماً كما ينتظر أن تكون» .

ـ «لا يا سكارلت ، إن بذور العظمة لا تكمن فيّ أبداً . إني أعتقد أنه لولاك لكنت انحدرت في هوة النسيان . . . كما حدث لكاثلين كالفرت المسكينة ، ولأناس آخرين كثيرين كانت لهم يوماً شهرة عريقة» .

ـ «آه آشلي ، لا تتكلم بمثل ذلك . إنك تبدو حزيناً جداً» .

ـ «لا ، لست حزيناً ، لا أبداً ، فيما مضى . . . فيما مضى كنت حزيناً ، أما الآن ، فإني فقط . . .» .

وصمت ، وأدركت فجأة بماذا كان يفكر . لقد كانت المرة الأولى التي أدركت فيها بماذا كان آشلي يفكر ، عندما كانت عيناه تتجاوزانها وهما شاردتان صافيتان كالبلور . فحينما كانت ثورة الحب تخفق في قلبها ، كان عقله قريباً منها ، والآن ، وفي المودة الصامتة التي كانت تكمن بينهما ، استطاعت سكارلت أن تتوغل قليلاً في عقله ، وتفهم بعض الفهم أنه لم يعد حزيناً . لقد كان حزيناً بعد الاستسلام ، حزيناً عندما رجته أن يأتي إلى أتلانتا ، أما الآن فقد كان مستسلماً وحسب .

ـ «إني أكره أن أسمعك تتحدث بمثل ذلك يا آشلي» قالت بحدة «إنك تبدو كريت تماماً ، فهو دائماً يعزف على ألحان كهذا اللحن ، ويردد شيئاً يدعوه «بقاء الأصلح» إلى أن أصير متضايقة جداً بحيث أكاد أصرخ» فابتسم آشلي .

ـ «هل اتفق لك يا سكارلت أن توقفت لتفكري بأنني وريت متشابهان في النواحي الأساسية» .

ـ «ها ، لا ! إنك رجل فاضل شريف جداً ، وهو . . .» وصمتت مرتبكة .

ـ «إلاّ أننا متشابهان . لقد انحدرنا من النوع ذاته من الناس ، ونشأنا على النسق عينه ، وربينا لنفكر بالأشياء نفسها . وفي مكان ما على الطريق ، اتخذنا منعطفين مختلفين ، إننا ما زلنا متماثلين في التفكير ولكننا نتفاعل مع أفكارنا بطريقتين مختلفتين . وكمثل على ذلك : لم يكن أي منّا يؤمن بالحرب ، ولكني تطوعت وحاربت ، بينما ظل هو بعيداً حتى النهاية تقريباً . وكذلك كان كلانا يعرف أن الحرب كانت خطأً بكليتها ، وأنها كانت قتالاً خاسراً ، ولكني كنت راضياً في أن أخوض قتالاً خاسراً ، بينما لم يكن هو كذلك . إني أفكر أحياناً أنه كان على صواب ، ولكني أعود بعدئذ . . .» .

ـ «ها ، آشلي ، متى ستكف عن رؤية كلا جانبي المشاكل؟» سألت . ولكنها لم تتحدث بجزع كما كان ينتظر أن تفعل فيما مضى «فلن يصل أي إنسان إلى أي نقطة وهو يرى كلا الجانبين» .

ـ «تلك حقيقة ولكن . . . يا سكارلت لقد تساءلت مراراً أين تريدين الوصول بالتحديد؟ فأنا لم أرد يوماً الوصول إلى أي نقطة أبداً ، وكل ما أردته

هو أن أكون نفسي» .

أين تريد الوصول؟ لقد كان ذلك سؤالاً غبيّاً . إلى المال والأمان طبعاً . ومع ذلك . . . وارتبك عقلها .

- «إنك تريد أن تكون نفسك فقط» ضحكت آسفة بعض الأسف «إن عدم كوني نفسي كان دائماً أكثر مشاكلي صعوبة ! أما بالنسبة إلى أين أريد أن أصل ، الواقع أني أظن أني وصلت هنالك . . . لقد كنت أريد أن أكون غنية وآمنة و . . .» .

- «ولكن ، سكارلت ، هل خطر لك يوماً أني لا أحفل سواء أكنت غنياً أم لم أكن؟» .

لا لم يخطر لها أبداً أن أي إنسان يمكن أن لا يرغب في أن يكون غنيّاً . .

- «ماذا تريد إذاً؟» .

- «إني لا أعرف الآن . لقد كنت أعرف فيما مضى ، غير أني نسيت نصف ما كنت أعرف . إن أكثر ما كنت أريده هو أن أكون وحيداً ، أن لا أكون مزعجاً من قبل الناس الذين لا أحبهم ، أو منقاداً لفعل أشياء لا أريد فعلها . ربما . . . أريد عودة الأيام القديمة التي لن تعود ، الأيام التي تعاودني ذكراها ، وذكرى العالم الذي ينهار أمام ناظريّ» .

- «إني أحب هذه الأيام أكثر» قالت ، ولكنها لم تقابل عينيه عندما تكلمت . «يوجد دائماً أشياء مثيرة الآن ، حفلات وما شاكلها . وكل شيء له بريق جذاب» .

- «إني أحب هذه الأيام أكثر» قالت ، ولكن صوتها كان مرتعشاً .

وانزلق عن الطاولة وهو يضحك ضحكة ناعمة ، يضحك وهو غير مصدق قولها ، ثم وضع يده تحت ذقنها ورفع وجهها ليقابل وجهه :

- «ها سكارلت ، يا لك من كذابة مسكينة ! أجل إن للحياة بريقاً الآن . . . بريقاً من نوع خاص ، وذلك هو العيب فيها ، بينما لم يكن هناك بريق للأيام القديمة ، إلاّ أنها كانت تزدهي بسحر وجمال ، بصخب بطيء الخطى» .

فاندفع عقلها في طريقين ، وغضت بصرها . كان وقع صوته ولمسه يديه بابين غير موصدين ، كانت قد أوصدتهما إلى الأبد . وخلف ذينك البابين كان يكمن جمال الأيام القديمة التي كان جوع حزين لها يتفجر داخلها . ولكنها كانت تعرف أنه مهما كان الجمال الذي كان يكمن خلف البابين فلا بد له من

أن يظل هنالك ، وليس بوسع أي إنسان أن يتقدم من البابين يحمل من الذكريات المؤلمة .

وهوت يده عن ذقنها ، وتناول إحدى يديها بين يديه .

ـ «أتذكرين» قال . . . وقرع جرس محذر في عقلها يقول : لا تنظري إلى الوراء ! لا تنظري إلى الوراء !

ولكنها سرعان ما أهملته ، واندفعت إلى الأمام على موجة من السعادة . لقد فهمت أخيراً ، لقد كانت هذه اللحظة ثمينة جداً ، بحيث ينبغي أن لا تضيع مهما تبعها من ألم .

ـ «أتتذكرين؟» قال ، وتحت تأثير ترنيمة صوته ، بهت لون جدران المكتب الصغير العارية وتتابعت السنين جانباً ، ورأت شخصيهما يركبان معاً عبر دروب الجبل الريفية في نزهة ربيعية طويلة . وبينما كان يتكلم ، اشتدت القبضة الخفيفة على يدها ، وخامر صوته السحر الحزين ، سحر الأغاني نصف المنسية . واستطاعت سكارلت سماع صليل عدة السرج المطربة وهما يركبان تحت الأشجار إلى وليمة آل تارلتون ، وسماع ضحكها المستهتر آنذاك ، ورؤية الشمس تتلألأ على شعره الفضي المذهب ، وملاحظة الرشاقة البهية البسيطة التي جلس فيها فوق حصانه . لقد كان يشوب صوته موسيقى القيثارات والبانجوات التي رقصوا على أنغامها في البيت الأبيض الذي لم يعد في الوجود . وكان هناك عواء كلاب ناحب بعيد في الهور المعتم في أظهار الخريف الباردة ورائحة طاسات البيرة ، تكتنفها أشجار الميلاد في عيد الميلاد ، وابتسامات تعلو الوجوه السوداء والبيضاء ، وأصدقاء قدامى عائدون زرافات زرافات ، يضحكون وكأنهم لم يكونوا في عداد الأموات طيلة هذه السنين الطويلة : ستيوارت وبرنت بسيقانهما الطويلة وشعرهما الأحمر ودعاباتهما العملية ، توم وبويد الجامحان كحصانين فتيين ، جو فونتين بعينيه السوداوين ، ثم كيد وريفورد كالفرت اللذان كانا يتحركان برشاقة فاترة ، وكا هناك جون ويلكس أيضاً ، وجيرالد ، محمر الوجه من البراندي ، وإيلين متمثلة بالهمس والعطر . وفوق المنظر كله ، استقر إحساس بالأمان ، معرفة أن الغد لن يستطيع أن يجلب السعادة ذاتها التي جلبها الحاضر .

وتلاشى صوته ، وتبادلا النظرات هنيهة طويلة صامتة ، وبينهما كان يكمن

الشباب الوضاء الضائع الذي كانا قد تقاسماه دون تفكير .

ـ «إني أعرف لماذا لا يسعك أن تكون سعيداً» فكرت محزونة «لم أكن أفهم ذلك قبلاً ، لم أكن أفهم قبلاً لماذا لم أكن أنا أيضاً سعيدة . ولكن . . . عجباً ، إننا نتحدث كما يتحدث المسنون! فكرت بدهشة كئيبة «المسنون الذين يتطلعون إلى الوراء خمسين سنة ، ونحن لسنا مسنين وإنما القضية أن أموراً كثيرة حدثت خلال سنيّ عمرنا ، وأن كل شيء قد تغيّر تغيراً كبيراً جداً بحيث يبدو وكأنه قد مضى علينا خمسون عاماً . . ولكننا لسنا مسنين» .

ولكنها عندما نظرت إلى آشلي رأت أنه لم يعد فتياً مشرق الوجه ، كان رأسه منحنياً وهو ينظر شارداً إلى يدها التي ما انفك يمسك بها . ورأت أن الشعر اللألاء في الماضي غدا رمادياً إلى حد بعيد ، رمادياً فضياً كضوء القمر في الماء الساكن . وكان الجمال الوضاء قد غاض تقريباً من بعد ظهر نيسان ، ومن قلبها كذلك ، وغدت عذوبة الذكرى المحزونة مريرة كالعلقم .

ـ «ينبغي أن لا أدعه يجعلني أنظر إلى الوراء» فكرت بيأس «لقد كنت مصيبة عندما قلت إني لن أنظر إلى الوراء أبداً . إن النظر إلى الوراء يضر كثيراً . إنه يشد قلب المرء حتى لا يستطيع أن يفعل أي شيء سوى النظر إلى الوراء . وتلك هي مشكلة آشلي . إنه لم يعد يستطيع أن ينظر إلى الأمام ، إنه لا يستطيع أن يرى الحاضر ، إنه يخاف المستقبل ، ولذلك ينظر إلى الوراء ، هذا ما لم أكن أفهمه من قبل . بل إني لم أكن أفهم آشلي من قبل . آه ، آشلي حبيبي ينبغي أن لا تنظر إلى الوراء! فأي نفع سيجديك ذلك؟ ينبغي أن لا أدعك تغريني بالحديث عن الأيام القديمة . إن هذا هو ما يحدث عندما تنظر خلفاً إلى السعادة : هذا الألم ، هذه الخيبة وعدم الرضى» .

ونهضت على قدميها ، ويدها ما انفكت في يده . ينبغي أن تذهب . ليس بوسعها أن تظل هنا وتفكر بالأيام القديمة وترى وجهه متعباً حزيناً كئيباً كما هو الآن .

ـ «لقد قطعنا طريقاً طويلة منذ تلك الأيام يا آشلي» قالت وهي تحاول أن تهدئ اضطراب صوتها ، تحاول أن تقاوم الانقباض في حنجرتها «كنا ننعم بأفكار جميلة آنئذ ، أليس كذلك؟» ثم قالت باندفاع «آه آشلي لم يتم شيء كما كنا نتوقع! .

ـ «لن يتم أبداً» قال «فالحياة ليست مدينة لنا بشيء لتمنحنا ما نتوقع ، ونحن نأخذ ما نحصل عليه شاكرين كونه ليس أسوأ مما هو عليه» .

وفجأة انقبض قلبها بالألم والكلل ، وذلك عندما فكرت بالطريق الطويلة التي قطعتها منذ تلك الأيام . وعندئذ ارتفعت في عقلها ذكرى سكارلت أوهارا التي كانت تحب العشاق والفساتين الجميلة والتي كانت مصممة يوماً ما ، عندما يسمح لها الزمن ، أن تكون سيدة عظيمة كأمها .

وفجأة سحت الدموع من عينيها ، وترقرقت ببطء على وجنتيها ، ووقفت تنظر إليه ذاهلة مُبلسة كطفلة مضطربة متألمة ، ولكنه لم ينبس بكلمة ، بل أخذها بين ذراعيه بحنان ، وضغط رأسها على كتفه ، ثم انحنى فوقها ، واضعاً وجنته على وجنتها ، فارتخت عليه وطوقت ذراعاها جسده ، وساعدت طمأنينة ذراعيه على تجفيف دموعها الفجائية . ها ، لقد كان من العذب أن تكون بين ذراعيه ، دون انفعال ، ودون توتر ، أن تكون كصديق محبوب . لقد كان آشلي فقط ، آشلي الذي شاركها ذكرياتها وشبابها والذي يعرف ماضيها وحاضرها ، هو الذي يستطيع أن يفهم .

وسمعت أصوات أقدام في الخارج ، ولكنها لم تعرها سوى قليل من الاهتمام ، إذ ظنت أن السواقين كانوا منصرفين إلى بيوتهم فظلت هنيهة تصغي إلى وجيب قلب آشلي ، ولكنه ما عتم أن تملص من بين ذراعيها فجأة ، وقد أربكها عنف حركته ، فتطلعت إلى وجهه مشدوهة ، ولكنه لم يكن ينظر إليها ، بل كان ينظر إلى الباب من فوق كتفها .

فالتفتت ، وهناك كانت تقف إنديا ممتقعة الوجه ، وعيناها الشاحبتان تتألقان ، وخلفها كان يقف آرشي ، حقوداً كببغاء بعين واحدة ، وخلفهما وقفت السيدة ألسنغ .

*

لم تتذكر سكارلت أبداً كيف خرجت من المكتب ، ولكنها انطلقت فوراً ، وبسرعة ، تنفيذاً لأمر آشلي ، الذي تركته وآرشي في حديث صارم في الغرفة الصغيرة ، بينما ظلت إنديا والسيدة ألسنغ في الخارج ، وظهراهما إليها . وحث العار والخوف خطاها إلى البيت ، وفي عقلها كان آرشي بلحيته الجليلة ينتحل صفات الملاك المنتقم المنبعث رأساً من صفحات العهد القديم .

كان البيت خلواً من الناس ، صامتاً في غروب نيسان ، وقد ذهب جميع الخدم للاشتراك في جنازة ، بينما كان الأطفال يلعبون في ساحة بيت ميلاني الخلفية . ميلاني . . .

ميلاني ! وابتردت سكارلت إثر التفكير بها وهي تصعد الدرج إلى غرفتها . ستسمع ميلاني بالأمر . لقد قالت إنديا إنها ستخبرها . آه ، ستتباهى إنديا بأخبارها دون أن تعبأ إن هي سودت اسم آشلي ودون أن تعبأ إن هي آلمت ميلاني طالما أن عملها هذا سيسيء إلى سكارلت . كما أن السيدة ألسنغ ستتكلم أيضاً ، حتى مع أنها لم تر شيئاً في الحقيقة لأنها كانت تقف خلف إنديا وآرشي في باب مكتب المستودع ، ولكنها ستتكلم مع ذلك ، وسيعم الخبر المدينة عند العشاء ، وسيعرف الجميع ، حتى الزنوج ، عند الفطور غداً . وفي حفلة الليلة ، ستتجمع النسوة في الزوايا ويهمسن بحذر وفرح حقود . لقد سقطت سكارلت بتلر من مكانتها الرفيعة المكينة ! وستكبر القصة وتكبر . ولم تكن توجد طريقة لإيقاف انتشارها وتضخمها . ولن تقف عند الحقيقة المجردة بأن آشلي كان يضمها بين ذراعيه بينما كانت هي تبكي . وقبل سقوط الليل ، سيكون الناس يقولون إنها كانت مغتصبة في حادث زنى ، مع أن الحادث كان في غاية البراءة ، في غاية العذوبة . وفكرت سكارلت غاضبة : حبذا لو أننا اكتشفنا في عيد الميلاد ذاك في أثناء إجازته ، عندما قبّلته قبلة الوداع ، لو أننا اكتشفنا في البستان في تارا ، عندما رجوته أن يهرب معي . . . آه ، لو أننا اكتشفنا في أي من الأوقات الأخرى ، عندما كنا آثمين حقاً ، لما كان الأمر مؤلماً إلى هذه الدرجة ! ولكن الآن ! الآن ! عندما اندفعت إلى ذراعيه كصديقة . . .

ولكن أحداً لن يصدق ذلك ، ولن تحظى بصديق واحد يقف بجانبها ، ولن يرتفع صوت واحد ليقول : «إني لا أصدق أنها كانت ترتكب عملاً خاطئاً» كانت قد أساءت إلى الأصدقاء القدامى فترة طويلة جداً بحيث لن تجد واحداً بينهم يدافع عنها الآن . كما أن أصدقاءها الجدد كانوا يعانون إهاناتها صامتين ، سيرحبون بفرصة يهينونها فيها ، لا ، سيصدق الجميع أي شيء عنها مع أنه كان يمكن أن يتأسفوا لأن رجلاً فاضلاً كآشلي ويلكس قد اشترك في قضية زرية كهذه . وكما هي العادة سينحون باللائمة على المرأة ويهزون أكتافهم استهجاناً لإثم الرجل . وفي هذه الحالة ، سيكونون على حق ، لأنها كانت قد اندفعت إلى ذراعيه .

أواه ، إن بوسعها أن تتحمل التجريح والازدراء والابتسامات المكتومة وأي شيء يمكن أن تقوله المدينة إذا ما كان عليها أن تتحمل ذلك . . . ولكن ليس ميلاني ! آه ، ليس ميلاني ، ولم تعرف لماذا كان ينبغي لها أن تهتم بمعرفة ميلاني للأمر أكثر من اهتمامها بمعرفة أي إنسان آخر . كانت فزعة جداً ، مثقلة بوعيها لإثم قديم بحيث لم تستطع محاولة فهم السبب . ولكنها انفجرت بالبكاء عندما فكرت بما ينتظر أن يكون في عيني ميلاني حين تخبرها إنديا أنها اكتشفت آشلي يحضن سكارلت . وما ينتظر أن تفعله ميلاني عندما تعرف؟ أتترك آشلي؟ أي شيء آخر تستطيع عمله بعزة نفس؟ وماذا سأفعل وآشلي عندئذ؟ فكرت بهوس والدموع تهمي على وجهها . آه سيموت آشلي من العار ، وسيكرهني لأني جلبت هذا الشنار عليه . وفجأة انقطعت دموعها عندما اخترق قلبها خوف مميت . وما شأن ريت؟ ماذا سيفعل؟

ربما لن يعرف أبداً ، ما هو ذلك المثل القديم «إن الزوج آخر من يعلم دائماً . ربما لن يخبره أحد» سيتطلب الأمر رجلاً شجاعاً ليفشي نبأ كهذا لريت ، لأن ريت كان مشهوراً بأنه يطلق النار أولا ثم يلقي الأسئلة بعد ذلك ، أرجوك يا الله لا تدع أي إنسان يتشجع إلى الحدَ الذي يستطيع إخباره فيه ! ولكنها تذكرت وجه آرشي في مكتب الخشب ، وعينه الشاحبة الباردة . رجل متحجر القلب ، مفعم بالكراهية لها ولكل النساء . ولم يكن آرشي يخاف الله أو الرجال ، وكان يكره النساء المنحلات . لقد كان يكرههن كثيراً إلى حد أنه قتل إحداهن . ولقد قال إنه سيخبر ريت ، وسيخبره رغم كل ما يستطيع آشلي عمله ليثنيه عن ذلك . وما لم يقتله آشلي فإن آرشي سيخبر ريت ، يملأه الشعور بأن ذلك هو واجبه المسيحي .

ونزعت ثيابها واستلقت على السرير وعقلها في دوامة هائلة . لو أنها تستطيع فقط أن توصد بابها وتقيم في هذا المكان الآمن إلى الأبد ولا ترى أي إنسان مطلقاً . ربما لن يكتشف ريت الأمر هذه الليلة . ستقول إن صداعاً ينتابها وأنها تشعر أن ليس بوسعها الذهاب إلى الحفلة ، وإلى أن يحين الصباح تكون قد فكرت بعذر لتتذرع به ، بدفاع معقول .

- «لن أفكر به الآن» قالت بيأس ودست رأسها في الوسادة «سأفكر به فيما بعد عندما أستطيع احتمال النتيجة» .

وسمعت الخدم يعودون عندما جثم الليل ، وبدا لها أنهم كانوا مطبقي الصمت وهم يتحركون في المكان لإعداد العشاء ، أو كان ذلك ضميرها الآثم؟ وجاءت مامي إلى الباب وقرعته ، ولكن سكارلت صرفتها قائلة إنها لا تريد أي عشاء . ومضى الوقت ، وأخيراً سمعت ريت يصعد الدرجات ، فثبتت جأشها عندما بلغ القاعة العليا ، واستجمعت كل قواها استعداداً لمقابلته . ولكنه تجاوز الباب إلى غرفته ، فتنفست الصعداء ، لم يكن قد سمع بالنبإ بعد ، شكراً لله لأنه ما زال يحترم التماسها بأن لا يطأ غرفتها ثانية ، فهو إن رآها الآن ، فإن وجهها سيفضح سرها . ينبغي أن تجمع شتات جأشها لتخبره بأنها تشعر بمرض شديد بحيث لا تستطيع الذهاب إلى الحفلة ، لا بأس ، إن لديها متسعاً من الوقت لتهدئ روعها . أكان يوجد وقت حقاً؟ منذ اللحظة المفزعة في تلك الأمسية والحياة تبدو لها لازمنية ، ثم سمعت ريت يحوم في غرفته برهة طويلة ، ويتحدث إلى بورك من وقت إلى آخر ، ولكنها ما زالت عاجزة عن أن تجد القوة لتدعوه . وظلت مستلقية في الظلمة على السرير ترتعش صامتة . وبعد مدة طويلة قرع باب غرفتها ، فأجابت وهي تحاول السيطرة على صوتها :

ـ «هل أنا أُدعى إلى دخول المعبد حقاً؟» استوضح وهو يفتح الباب ، كانت الغرفة مظلمة ولم تستطع رؤية وجهه ، كما لم تستطع أن تستنتج شيئاً من صوته . ودخل وأغلق الباب خلفه .

ـ «هل أنت على استعداد للحفلة؟» .

ـ «إني آسفة جداً لأني أشعر بصداع» ما أغرب أن يخرج كلامها بصورة طبيعية ! شكراً لله على الظلمة ! «إني لا أعتقد أني سأذهب . اذهب أنت يا ريت وقدم لميلاني أسفي» .

ـ «يا لك من عاهرة صغيرة جبانة» .

لقد عرف ! وظلت مستلقية ترتجف ، لا تستطيع كلاماً . وسمعته يبحث في الظلام ، ويشعل عود ثقاب فتشع الغرفة بالضوء . ثم مشى إلى السرير ونظر إليها ، ورأت أنه كان يرتدي ملابس المساء .

ـ «انهضي» قال دون أن تشوب صوته لهجة محدّدة «إننا ذاهبان إلى الحفلة . عليك أن تسرعي» .

ـ «ها ريت ، لا أستطيع ، فأنت ترى . . .» .

ـ «أجل بوسعي أن أرى . انهضي» .

ـ «ريت ، هل تجرأ آرشي . . .» .

ـ «نعم تجرأ آرشي . إن آرشي رجل شجاع جداً» .

ـ «كان ينبغي أن تقتله لتفوهه بالافتراءات . . .» .

ـ «إن لي طريقة غريبة في عدم قتل الناس الذين يقولون الصدق . لا يوجد وقت للجدل الآن ، انهضي» .

فجلست في السرير وهي تلف دثارها حول جسدها ، بينما عيناها تتفحصان وجهه . كان قاتماً عديم التأثر .

ـ «لن أذهب يا ريت ، فأنا لا أستطيع ذلك إلى أن ينجلي . . . ينجلي سوء التفاهم هذا» .

ـ «إن أنت لم تظهري وجهك هذه الليلة فلن يكون بوسعك إظهاره في هذه المدينة طيلة حياتك . وبينما يُمكنني أن أتحمل عاهرة كزوجة ، فإني لا أستطيع احتمال جبانة . إنك ذاهبة الليلة حتى إذا انتقدك الجميع ، ابتداء من ألكسي ستيفنس إلى من دونه ، وحتى إذا طلبت منا السيدة ويلكس مغادرة البيت» .

ـ «ريت ، دعني أوضح . . .» .

ـ «لا أريد أن أسمع ، لا يوجد وقت ، ارتدي ملابسك» .

ـ «لقد أساؤوا فهمي . . . إنديا والسيدة ألسنغ وآرشي ، كما أنهم يكرهونني غاية الكره ، فإنديا تكرهني إلى درجة كبيرة بحيث أنها يمكن أن تفتري الأكاذيب عن شقيقها لتجعلني أبدو في وضع مشين . لو تسمح لي بأن أوضح فقط . . .» .

ها ، يا الله ، فكرت باغتمام ، هب أنه قال «أرجوك أوضحي !» فكيف أستطيع أن أوضح؟

ـ «لا بد أن يخبروا الجميع أكاذيب . لا أستطيع الذهاب الليلة» .

ـ «ستذهبين» قال «ولو اضطررت إلى أن أجرك من عنقك وأركل بحذائي مؤخرتك الفاتنة كل خطوة من الطريق» .

كان هناك ألق بارد في عينيه ، عندما جذبها لتقف على قدميها ، ثم تناول مشدها وقذف به إليها .

ـ «ألبسيه ، سأشد خصرك . أجل ، فإني أعرف كل شيء عن شد الخصور . لا ، لن أنادي مامي لتساعدك ، وأدعك تغلقين الباب وتربضين هنا كالجبانة التي

هي حقيقتك» .

ـ «أنا لست جبانة» صاحت رغم خوفها «إني . . .» .

ـ «ها ، وفري علي قصة بطولتك عن قتل الشمالي ومواجهة جيش شيرمان . إنك جبانة في الأمور الأخرى . وإذا لم يكن من أجل مصلحتك فإنك ذاهبة الليلة من أجل مصلحة بوني . كيف يسعك تدمير فرصها أكثر مما فعلت . ألبسي مشدك ، أسرعي» .

فنزعت دثارها ببراعة ، ووقفت عارية إلاّ من قميص النوم . حبذا لو أنه ينظر إليها ليرى كم كانت تبدو جميلة في قميصها ، فلربما تغادر تلك السحنة المرعبة وجهه ، إذ لم يكن قد رآها في القميص منذ فترة طويلة . إلاّ أنه لم ينظر إليها . كان في مقصورة ثيابها يتفحص فساتينها بسرعة ، ثم بحث وأخرج فستانها الحريري الأخضر الجديد المنشى . كان فستاناً منخفض الصدر ، وكانت أطواقه مثنية إلى الخلف فوق عجازة كبيرة ، وعلى العجازة ثبتت ضمة كبيرة من الورود المخملية الحمراء .

ـ «البسي هذا» قال وقذفه إلى السرير ، واقترب نحوها ثم أضاف : «لا ملابس نسوية محتشمة رمادية أو زهرية هذه الليلة . ضعي كثيراً من الحمرة ، فأنا واثق من أن المرأة التي قبض عليها الفريسيون بالزنى لم تكن شاحبة نصف شحوبك . استديري» .

وتناول شريطي المشد في يديه ، وجذبهما جذبة عنيفة جعلتها تصرخ مرتعبة مولولة ، مرتبكة بفعل هذا الإجراء المشؤوم .

ـ «يؤلم ، أليس كذلك؟ من المؤسف أنه ليس حول عنقك» .

كان بيت ميلاني يشع بالأنوار من كل غرفة ، واستطاع الزوجان سماع الموسيقى في أعلى الشارع ، وعندما أوقفا العربة أمام المنزل ، حمل الهواء إليهما الأصوات الهانئة صادرة عن أناس كثيرين كانوا ينعمون بالأمسية . كان البيت مزدحماً بالضيوف الذين كانت الشرفات تغص بهم ، حتى أن الكثيرين جلسوا على المقاعد في الساحة المعتمة ذات المصابيح المعلقة .

ـ «لا أستطيع الدخول . . . لا أستطيع» فكرت سكارلت ، وهي لا تزال جالسة في العربة ، تقبض على منديلها في يدها . لا ، لا أستطيع ، ولن أدخل . سأقفز من العربة وأهرب إلى مكان ما ، إلى تارا . لماذا أرغمني ريت على المجيء؟

ماذا ستفعل ميلاني؟ كيف ستبدو؟ إني لا أستطيع مواجهتها . سأهرب» .

وكأن ريت كان يقرأ أفكارها ، فقد أطبقت يده على ذراعها في قبضة كان ينتظر أن تترك رضة في ذراعها ، قبضة عنيفة لرجل غريب مستهتر .

ـ «إني لم أعرف إيرلندياً يمكن أن يكون جباناً . أين هي شجاعتك المتبجح بها كثيراً؟» .

ـ «ريت ، أرجوك ، دعني أعود إلى البيت وأوضح . .» .

ـ «لديك العالم الآخر لتوضحي فيه ، وليلة واحدة فقط لتكوني شهيدة في مدرج المتفرجين . انزلي يا حبيبتي ودعيني أرى الأسود تلتهمك . انزلي» .

وعلى أية حال ، اجتازت الممشى والذراع التي تتأبطها صلبة قاسية كالغرانيت ، إلاّ أنها كانت تبعث فيها بعض الشجاعة . والله لقد كان بوسعها أن تواجههم ، وستفعل ذلك . ومن هم سوى زمرة من القطط المواءة الخداشة التي تحسدها؟ إنها لم تكن تعبأ بما يفكرون ، باستثناء ميلاني . . . باستثناء ميلاني .

لقد أصبحا في الشرفة ، وكان ريت ينحني يمنة ويسرة وقبعته في يده ، وصوته بارد ناعم . وصمتت الموسيقى عندما دخلا ، وبدا لعقلها المضطرب أن جمهور الناس سيتدفق نحوهما كهدير البحر ثم ينكفئ عائداً بصوت يزداد انخفاضاً ! سيقرعها كل من الحاضرين ! على كل حال ، لا بأس ، دعهم يفعلون ! وارتفعت ذقنها وافتر ثغرها بابتسامة بينما ضاقت زاويتا عينيها .

وقبل أن تستطيع الالتفات لتتحدث إلى أولئك الذين كانوا أقرب الجميع إلى الباب ، تقدم أحدهم خلال زحمة الناس ، وران على المكان سكون غريب ، سكون قبض على قلب سكارلت . ثم ، وخلال الممر الضيق خرجت ميلاني على قدمين صغيرتين مسرعتين ، مسرعتين لتقابل سكارلت على الباب ، لتتحدث إليها قبل أن يستطيع ذلك أي إنسان آخر . كان كتفاها الضيقتان مرتفعتين ، وكان شدقها الصغير في وضع ساخط ، ورغم قوة ملاحظتها ، فقد بدا وكأنه لم يكن لديها أي ضيف سوى سكارلت . وهكذا قصدت إلى جانبها ولفت ذراعها حول خصرها .

ـ «يا له من فستان جميل يا حبيبتي» قالت بصوت جلي ناعم «أستكونين ملاكاً؟ لم تستطع إنديا القدوم الليلة لمساعدتي ، فهل لك أن تستقبلي الضيوف معي؟» .

54

بعد أن وجدت سكارلت نفسها وحيدة آمنة في غرفتها مرة ثانية ، تهالكت على السرير دون أن تكترث بفستانها اللامع المواج ، ولم تستطع خلال بعض الوقت إلاّ أن تظل مستلقية هكذا ، تفكر بوقفتها بين ميلاني وآشلي وهي تحيي الضيوف . ما أفظع ذلك ! إنها تفضل أن تواجه جيش شيرمان ثانية على أن تكرر هذه الوقفة ! وبعد برهة ، نهضت من السرير وراحت تذرع أرض الغرفة بعصبية ، وتنثر الأثواب في أثناء مشيها .

وانتابها رد فعل للجهد وبدأت ترتجف ، وانسابت دبابيس الشعر من بين أصابعها ورنت إلى الأرض . وعندما حاولت تمشيط شعرها المائة مشطة المعتادة قرع مؤخر الفرشاة قرعة مؤلمة على صدغها . وخلال ذلك خطت إلى الباب عشر مرات كي تصيخ السمع إلى أصوات صادرة من الطابق السفلي ، إلاّ أن القاعة السفلية كانت ككهف مظلم صامت .

كان ريت قد أرسلها إلى البيت وحيدة في العربة عند انتهاء الحفلة ، وكانت هي قد شكرت الله على هذه المهلة ، إذ لم يكن ريت قد عاد حتى هذا الوقت . شكراً لله ، لم يكن قد أتى بعد ، فهي لا تستطيع مواجهته هذه الليلة وهي خجلة فزعة مرتعدة . ولكن أين كان ريت؟ ربما في بيت تلك المخلوقة . وللمرة الأولى ، شعرت سكارلت بالسعادة لوجود شخص كبيل وتلنغ تلك ، شعرت بالسعادة لوجود مكان آخر غير هذا البيت ، حيث يأوي ريت إلى أن تكون حالته الإجرامية المستعرة قد تلاشت .

تلك كانت فكرة أثيمة ، أن تشعر بالسعادة لأن زوجها كان في بيت عاهرة ، ولكنها لم تستطع إلاّ أن تشعر بالسعادة أيضاً لو أنه كان ميتاً ، إذا كان ذلك يعني أنها لن تضطر إلى مواجهته هذه الليلة .

غداً . . . لا بأس ، فغداً يوم آخر ، غداً ستفكر بعذر ما ، باتهامات مقابلة ، بطريقة توقع ريت في الخطإ . غداً لن تكون ذكرى الليلة الفظيعة تدفعها دفعاً عنيفاً بحيث ترتعد فرائصها شأنها الآن . غداً لن تكون مذعورة هكذا بفعل ذكرى وجه آشلي ، ذكرى كبريائه المحطم وعاره . . . العار الذي كانت قد جللته

به ، العار الذي لـم يساهم هو فيه سوى مساهمة ضئيلة . هل سيكرهها الآن ، آشليها الحبيب الشريف ، لأنها كانت قد شانته بالعار؟ طبعاً سيكرهها الآن . . . الآن ، بعد أن أنقذا ، كلاهما ، من طريق الشموخ الساخط في كتفي ميلاني النحيلتين ، والحب والثقة الصريحة اللذين ظهرا في صوتها وهي تعبر الأرض الزجاجية لتتأبط ذراع سكارلت ، ولتواجه الحشد العدائي الحاقد الحسود . ما كان أتقن عمل ميلاني في دفع الفضيحة عندما أبقت سكارلت إلى جانبها طوال الأمسية الرهيبة ! لقد كان الناس فاترين بعض الشيء ، حائرين بعض الحيرة ، غير أنهم كانوا مهذبين .

آه ، يا للعار من الأمر كله ، أن تصان خلف تنورة ميلاني من أولئك الذين يكرهونها ، الذين كان يمكن أن يمزقوها إرباً إرباً بهمساتهم ! أن تصان بثقة ميلاني العمياء ، ميلاني من بين جميع الناس !

وارتعشت سكارلت من الفكرة ، وكأن قشعريرة اعترتها . ينبغي أن تتجرع خمراً ، عدة جرعات ، قبل أن يصير بوسعها أن تضطجع وتأمل في النوم . وألقت بدثار على ثوبها وخرجت بسرعة إلى القاعة المظلمة ، وخفاها العديما الظهر يشقان السكون بقرقعة عظيمة . كانت قد بلغت نصف الدرج المؤدي إلى الطابق السفلي قبل أن تنظر نحو باب غرفة الطعام المقفل وترى خيطاً رفيعاً من النور ينساب من تحته . وعندئذ كف قلبها عن الخفقان لحظه . أكان ذلك النور عندما عادت إلى البيت ، وكانت هي مضطربة إلى حد أنها لم تلحظه ، أم أن ريت كان قد عاد إلى البيت أخيراً؟ لقد كان بوسعه أن يدخل بهدوء عبر باب المطبخ . وإذا كان ريت في البيت فإنها ستعود على رؤوس أصابعها إلى السرير دون البراندي رغم حاجتها الشديدة إليه ، وعندئذ لن تضطر إلى مواجهته ، إذ ستغدو آمنة في غرفتها لأنها ستوصد الباب خلفها .

كانت منحنية إلى أسفل تهم بالتقاط خفيها كي تستطيع الإسراع في سكون حين انفتح باب غرفة الطعام فجأة ، وبرز هيكل ريت في ضوء المصباح الباهت ، المصباح الذي انحجب خلف جسده . كان يبدو كبير الجثة ، أكبر مما رأته في أي وقت مضى ، هيكل مفزع أسود عديم الوجه ، يتهادى على قدميه قليلاً .

- «أرجوك تعالي إلي يا سيدة بتلر» قال وقد بدا صوته غليظاً نوعاً ما .

كان ثملاً ، وكان يبدي عن سكره ، ولم تكن هي قد رأته يبدي عن سكره قبلاً ، مهما كانت كمية الخمر التي يشربها كبيرة . صمتت سكارلت مترددة ، دون أن تقول شيئاً ، بينما ارتفع ذراعه بإشارة آمرة :

ـ «تعالي هنا ، ليلعنك الله !» قال بخشونة .

«ينبغي أن لا أدعه يعرف أني خائفة من مواجهته» فكرت ، ثم ضمت الدثار أقرب إلى عنقها ونزلت الدرج ورأسها شامخ وكعباها يقرقعان قرقعة شديدة .

أما هو فقد انتحى جانباً وانحنى إليها بسخرية وهي تعبر الباب ، بسخرية جعلتها تنتفض فزعاً . ثم لاحظت أنه كان مستهتراً بهندامه ، وأن ربطة عنقه كانت متدلية على كلا جانبي ياقته المفتوحة ، وأن قميصه كان مفتوحاً إلى رقعة الشعر الأسود الكثيفة على صدرها ، وأن شعره كان مشعثاً وعيناه ملتهبتين ضيقتين . كان هناك شمعة مضيئة واحدة على الطاولة ، شعاع ضوء صغير يلقي ظلالاً كئيبة في أنحاء الغرفة المرتفعة السقف ، ظلالاً تجعل الخزانة الضخمة والبوفيه يبدوان كوحشين رابضين صامتين . وعلى الصينية الفضية فوق المائدة ، استقرت القارورة وقد انتزعت سدادتها الزجاجية ، وأُحيطت بالكؤوس .

ـ «اجلسي» قال بإيجاز وهو يتبعها إلى الغرفة .

وانتابها الآن نوع جديد من الخوف ، خوف جعل فزعها من مواجهته يبدو ضئيلاً جداً ، فقد كان ريت يبدو ويتحدث ويتصرف كغريب . لقد كان ريت هذا سيئ الخلق لم تره من قبل أبداً ، فلم يحدث في أي وقت آخر ، حتى في أعنف اللحظات عاطفة ، أن كان ريت سوى رجل بارد . حتى في ساعات الغضب ، كان دمثاً تهكميّاً ، وكان الويسكي عادة يفيد في تعميق هاتين الصفتين . وكانت سكارلت قد تضايقت بادئ الأمر وحاولت أن تدمر ذلك البرود ، ولكنها سرعان ما أصبحت تتقبله كشيء ملائم جداً . وهكذا ظلت طوال سنين تعتقد أنه لم يكن هناك شيء يهم زوجها كثيراً ، وأنه يعتقد بأن كل شيء في الحياة ، بما في ذلك شخصها ، مجرد فكاهة تهكمية . ولكن ، وبينما هي جالسة قبالته وبينهما المائدة ، أدركت بشعور غائر فيها أنه أصبح هناك أخيراً شيء يهمه ، يهمه كثيراً جداً .

ـ «لا يوجد سبب يمنعك من ارتشاف سكرة رقادك ، حتى وإن كنت سيئ الخلق كثيراً لوجودي في البيت» قال «أأسكبها لك؟» .

ـ «لا أريد مشروباً» قالت بجفاء «لقد سمعت صوتاً فأتيت . . .» .

ـ «أنت لم تسمعي شيئاً ، وما كنت لتنزلي لو كنت تظنين بأني موجود في البيت ، كنت أجلس هنا وأصغي إليك وأنت تذرعين أرض الغرفة جيئة وذهاباً في الطابق العلوي . لا بد أنك بحاجة ماسة إلى مشروب . اجرعيه» .

وتناول القارورة وسكب ملء الكأس ، سكبه دون اعتناء .

ـ «خذيه» قال ونقله إلى يدها «إنك ترتعشين بكل جسدك . ها ، لا تضفي على نفسك مظاهر كاذبة ، فأنا أعرفك تشربين في السر ، وأعرف مقدار ما تشربين . وخلال بعض الوقت كنت عازماً على أن أخبرك لتكفي عن ادعاءاتك الكاذبة المقنعة وتشربي علانية إذا ما أردت الشراب . هل تعتقدين أني أستشيط غضباً إن كنت تحبين البراندي؟» .

تناولت سكارلت الكأس المبلل وهي تلعن ريت في سرها . ولكنه كان يقرأ أفكارها كما يقرأ كتاباً ، وهو الذي كان يقرأها دائماً ، والوحيد في الدنيا الذي كانت سكارلت ترغب في إخفاء أفكارها الحقيقية عنه .

ـ «أقول اشربيه» .

فرفعت الكأس واجترعت ما فيه بحركة فجائية واحدة بذراعها ، بينما ظل معصمها ثابتاً ، تماماً كما كان جيرالد يجترع ويسكيه الخالص دائماً . اجترعته قبل أن تفكر كم كان ذلك يبدو أمراً مبتذلاً غير لائق . ولم تفت ريت الحركة وتدلى شدقه :

ـ «اجلسي وسننعم بحديث عائلي سار عن الحفلة الأنيقة التي كنا فيها الآن» .

ـ «أنت ثمل» قال ببرود «وسآوي إلى فراشي» .

ـ «إني ثمل جداً وإني مصمم على أن أزيد من سكري قبل أن ينقضي المساء . ولكنك لن تأوي إلى الفراش . . . ليس الآن ، اجلسي» .

كان صوته ما زال يحمل بقية من بطئه البارد المعتاد ، ولكن تحت الكلمات ، كان بوسعها أن تحس بالعنف يقتحم طريقه إلى السطح ، العنف اللاذع كلسعة سوط . وارتجفت كارهة ولكنه أضحى بجانبها ويده على ذراعها في قبضة موجعة . ثم ضغط الذراع قليلاً فأسرعت بالجلوس زافرة صرخة قصيرة من الألم . . . الآن . . . أمست خائفة . . . خائفة أكثر مما كانت في أي وقت في

حياتها . وبينما كان ينحني فوقها رأت أن وجهه كان أسمر محمراً وأن عينيه ما فتئتا تتوهجان بألقهما الخفيف . كان هناك شيء في أعماقهما لم تميزه بل لم تستطع فهمه ، شيء أعمق من الغضب وأقوى من الألم ، شيء كان يسوقه إلى أن توهجت عيناه باحمرار كجمر الفحم . ونظر إليها هنيهة طويلة ، طويلة جداً بحيث أن نظراتها المتحدية ارتعشت وأغضت . وعندئذ تهالك على كرسي مقابل كرسيها وسكب لنفسه كأساً أخرى . وفكرت هي بسرعة محاولة أن تضع خطاً من الدفاع ، ولكن وإلى أن تكلم ، لم تعرف ما تقول ، لأنها لم تكن تعرف بالضبط أي تهمة كان عازماً على التفوّه بها .

كان يشرب ببطء ويراقبها من فوق الكأس بينما شدت هي على أعصابها محاولة أن تكف عن الرجفان . ولبعض الوقت ، لم يتغير تعبير وجهه ، إلاّ أنه ضحك أخيراً محتفظاً بعينيه مصوبتين إليها . أما هي فلم تستطع تسكين رجفتها إثر سماع ضحكته .

ـ «لقد كانت هزلية مطربة هذه الأمسية ، أليس كذلك؟» .

فلم تقل شيئاً ، بل راحت تثني أصابع قدميها في جهد داخل الخفين المحلولين لإيقاف رجفانها .

ـ «هزلية سارة دون تغيّب أي ممثل . لقد اجتمعت القرية لترجم المرأة الخاطئة ، وكان الزوج المثلوم الشرف يسند زوجته كما ينبغي للسيد أن يفعل ، وكانت الزوجة المخونة تدخل بروح مسيحية وتقذف أثواب سمعتها غير الملطخة فوق جميع المشهد ، وكان العاشق . . .» .

«أرجوك» .

ـ «لا أريد ، ليس هذه الليلة ، إنها مطربة جداً ، وكان العاشق يبدو فيها كأحمق ملعون ويتمنى أن لو كان ميتاً . كيف كنت تشعرين يا عزيزتي والمرأة التي تبغضينها تقف إلى جانبك تستر آثامك من أجلك؟ اجلسي» .

فجلست .

ـ «إنك لم تزدادي حباً لها بسبب ذلك كما أتخيل . إنك لتتساءلين إذا كانت تعرف كل شيء عنك وعن آشلي ـ تتساءلين لماذا فعلت هذا إذا كانت تعرف ـ وإذا كانت فعلته لتحفظ ماء وجهها فقط ـ وأنك تفكرين أنها حمقاء لأنها فعلت ذلك ، حتى ولو أن عملها أنقذ جلدك ولكن . . .

ـ «لن أصغي إلى . . .» .

ـ «بل ستصغين ، وسأخبرك ما يلي لأخفف عنك : إن الآنسة ميلي حمقاء ولكن ليس من النوع الذي تفكرين به . لقد كان من الواضح أن أحدهم كان قد أخبرها ولكنها لم تصدق النبأ ، وحتى لو رأت بعينيها فإنها لن تصدق ، لأنها تنعم برصيد كبير من الشرف بحيث لا تستطيع أن تدرك العار في أي إنسان تحبه . لست أعرف أي كذبة أخبرها بها آشلي ويلكس . . . إلاّ أن أي كذبة ساذجة تكفي لأنها تحبه كما أنها تحبك . إني واثق بأني لا أستطيع أن أفهم لماذا تحبك ، غير أنها تحبك دعي تلك تكون إحدى بلاياك» .

ـ «لو أنك لست ثملاً وسليطاً هكذا لكنت أوضحت لك كل شيء» قالت سكارلت مستعيدة بعض كرامتها «ولكن الآن . . .» .

ـ «لست مهتماً بإيضاحاتك ، فأنا أعرف الحقيقة أفضل مما تعرفينها أنت . والله إذا ما نهضت من ذلك الكرسي مرة أخرى . . .» .

وأضاف :

ـ «والذي أجده أكثر إطراباً من هزلية الليلة هو حقيقة أنه بينما كنت تنكرين عليّ متع سريرك بإباء ، بسبب آثامي الكثيرة ، كنت تتقدين شهوة في قلبك على آشلي ويلكس «تتقدين شهوة في قلبك» تلك عبارة جيدة ، أليس كذلك؟ هناك عدد من العبارات الجديدة في ذلك الكتاب ، أليس كذلك؟» .

ـ «أي كتاب؟ أي كتاب؟» بحث عقلها ، بحث ببلاهة وبطريقة غير مجدية فيما كانت صاحبته تحدق بنظرات عصبية في الغرفة وتلاحظ ما كان أبهت لمعان الأواني الفضية الضخمة ، وكم كانت زوايا الغرفة معتمة بصورة مرعبة .

ـ «ولقد كنت منبوذاً لأن شهواتي الجامحة كانت نكراء كثيراً بالنسبة إلى تهذيبك لأنك لم تكوني تريدين أي طفل آخر . ما أشد ما آلمني ذلك ! ما أبلغ ما جرحني ! وهكذا خرجت ووجدت عزاء ساراً وتركتك لتهذيبك . أما أنت فقد قضيت ذلك الوقت تطاردين السيد ويلكس الذي قاسى طويلاً . ليلعنه الله ، ما الذي يؤلمه؟ إنه لا يستطيع أن يكون أميناً لزوجته بعقله أو خائناً لها بجلده؟ لماذا لم يقرر رأيه؟ فأنت لن تعارضي في إنجاب أطفاله ، أليس كذلك . . والإدعاء بأنهم أطفالي» .

فوثبت على قدميها صارخة ، واندفع هو من مقعده ضاحكاً تلك الضحكة

الناعمة ، التي جعلت دمها يبرد ، ثم دفعها خلفاً إلى كرسيها بيدين كبيرتين سمراوين وانحنى فوقها .

ـ «لاحظي يديّ يا عزيزتي» قال ثانياً يديه أمام عينيها «إن بوسعي أن أمزقك إرباً إرباً بهما وبدون أي جهد . وسأفعل ذلك لو أن هذا سيخرج آشلي ويلكس من عقلك ، ولكنه لن يخرجه . ولذلك فإني أعتقد أني سأخرجه من عقلك إلى الأبد بهذه الطريقة ، سأضع يديَّ هكذا ، كلاً منهما على أحد جانبي رأسك ، وسأهشم جمجمتك بينهما كحبة بندق ، الأمر الذي سيزيله من رأسك» .

وأضحت يداه على رأسها ، تحت شعرها المنساب ، يدان ملاطفتان قاسيتان ترفعان وجهها إلى وجهه . وأحست هي أنها كانت تنظر إلى وجه غريب ، غريب ثمل بطيء الكلام . ولم تفقد سكارلت الشجاعة الحيوانية أبداً في الماضي ، ولذا عادت هذه الشجاعة تتدفق في عروقها بحرارة وهي تواجه خطراً ، تصلب عمودها الفقري وزوت عينيها :

ـ «أيها الأحمق السكران» قالت «ارفع يديك عني» .

ولدهشتها ، لبى طلبها ، ثم أجلس نفسه على طرف الطاولة وسكب ملء كأس أخرى .

ـ «لقد كنت دائماً أكبر روحك يا عزيزتي ، ليس أكثر من الآن أبداً وأنت في مأزق حرج» .

فضمت دثارها أقرب إلى جسدها ، آه ، حبذا لو أنها تستطيع أن تبلغ غرفتها وتدير المفتاح في الباب المتين وتنفرد وحدها . وعلى أية حال ، ينبغي أن تقاومه ، أن تهدده حتى يخضع . لم تكن قد رأت ريت هكذا من قبل ، ونهضت دونما إسراع ، مع أن ركبتيها كانتا ترتجفان ، وشدت الدثار حول ردفيها ، وطوحت بشعرها عن وجهها .

ـ «لست في مأزق حرج» قالت بحدة «ولن تحرجني أبداً يا ريت بتلر ، أو تفزعني . إنك لست سوى وحش مخمور ، وحش عاش مع امرأة فاسقة وقتاً طويلاً جداً بحيث أنك لا تستطيع أن تكنه أي شيء آخر سوى الفسق . إنك لا تستطيع أن تفهم آشلي أو تفهمني . لقد عشت في الفساد مدة طويلة جداً بحيث لا يمكنك أن تعرف أي شيء آخر . إنك غيور من شيء لا تستطيع

فهمه ، عم مساء» .

واستدارت بصورة عرضية ، وتحركت باتجاه الباب ، غير أن عاصفة من الضحك أوقفتها ، فالتفتت إليه بينما ترنح هو عبر الغرفة نحوها . يا الله لو أنه يكف عن تلك الضحكة المريعة ! وماذا كان هناك ليضحك عليه من بين كل هذه الأمور؟ وفيما كان يقترب منها تراجعت نحو الباب لتجد نفسها تلامس الجدار ، وعندئذ وضع يده فوقها بعنف ، وضغط كتفيها على الجدار .

ـ «كف عن الضحك» .

ـ «إني أضحك لأني مشفق جداً عليك» .

ـ «مشفق ! عليّ؟ كن مشفقاً على نفسك» .

ـ «أجل والله ، إني مشفق عليك يا عزيزتي ، ياحمقائي الجميلة الصغيرة ، إن ذلك يؤلم ، أليس كذلك؟ وليس بوسعك أن تتحملي الضحك أو الشفقة أليس كذلك؟» .

وكف عن الضحك ، وانحنى على كتفيها بشدة بالغة بحيث أنهما آلمتاها ، وتغيرت سحنته ، وانحنى أقرب إليها ، بحيث أن رائحة الويسكي القوية العابقة من نفسه جعلتها تدير وجهها .

ـ «غيور ، آأنا كذلك؟» قال «ولم لا؟ ها ، لا تحاولي أن تتكلمي وتوضحي . إني أعرف أنك كنت أمينة لي بجسدك . أكان ذلك ما كنت تحاولين قوله؟ ها ، لقد عرفت ذلك كله طيلة هذه السنين . كيف أعرف؟ ها ، حسناً . إني أعرف آشلي ويلكس وتربيته . أعرف أنه شريف وسيد ، وذلك يا عزيزتي أكثر مما يمكنني قوله لأجلي ـ أو لأجلك بخصوص تلك القضية . نحن لسنا سيدين ، كما أننا لا نتحلى بأي شرف ، أليس كذلك؟ وهذا هو السبب في أننا نزدهر كأشجار الخليج الخضراء» .

ـ «دعني أذهب فإني لن أقف هنا وأهان» .

ـ «إني لا أهينك . إني أطري فضيلتك الجسدية ، الأمر الذي لم يخدعني مطلقاً . إنك تعتقدين أن الرجال أغبياء يا سكارلت ، ولا يفيدك أبداً التقليل من شأن قوة خصمك وذكائه . كما أني لست غبياً ، ألا تظنين أني أعرف أنك كنت تضطجعين بين ذراعي وتدعين بأنني كنت آشلي ويلكس؟» .

فتدلى شدقها ، وكان الخوف والدهشة مسطورين في وجهها بوضوح «إن

ذلك شيء سار ، بل إنه في الحقيقة من عالم الأشباح ، كوجود ثلاثة أشخاص في سرير واحد ، حيث ينبغي أن يكون هناك اثنان فقط» وهز كتفيها هزاً خفيفاً ، ثم سعل وفوّق باستهزاء .

«ها أجل ، لقد كنت أمينة لي ، لأن آشلي لم يكن ليضاجعك . ولكن يا للجحيم ، ما كنت لأحسده على جسدك ، فإني أعرف ما أقل ما تعني الأجساد - خصوصاً أجساد النساء . على أني أحسده على قلبك ، وعلى عقلك العنيد المتهور الصلب النادر المثال . إن ذلك الأحمق لا يريد عقلك ، بينما أنا لا أريد جسدك . إن بوسعي أن أشتري النساء بثمن بخس ، غير أني أريد عقلك وقلبك ، ولن أحظى بهما أكثر مما يمكن أن تحظي أنت بعقل آشلي ، وذلك هو سبب إشفاقي عليك» .

وحتى خلال خوفها واضطرابها ، فإنها أحست بسخريته تلسعها .

- «مشفق ! عليّ؟» .

- «أجل ، مشفق لأنك طفلة يا سكارلت ، طفلة تبكي ابتغاء القمر ، وماذا ستفعل الطفلة بالقمر إن هي حصلت عليه؟ وماذا ستفعلين بآشلي؟ أجل إني مشفق عليك ، مشفق لأني أراك تبددين السعادة بكلتا يديك ثم تمدينهما طلباً لشيء لن يسعدك مطلقاً . إني مشفق لأنك حمقاء لا تعرفين أنه لا يمكن أن يكون هناك سعادة إلاّ عندما يتزاوج المتماثلون . ولو أني كنت ميتاً وكانت الآنسة ميلي ميتة كذلك ، وحظيت أنت بحبيبك الشريف الغالي ، فهل تعتقدين أنك ستكونين سعيدة معه؟ يا للجحيم ، لا ! بل إنك لن تعرفيه أبداً . لن تعرفي بماذا يفكر ، لن تفهميه أكثر مما تفهمين الموسيقى والشعر والكتب أو أي شيء مغاير للدولارات والسنتات . بينما نحن ، يا زوجتي العزيزة ، كان يمكن أن نكون سعيدين للغاية ، لو أنك منحتنا نصف فرصة فقط ، لأننا متماثلان كثيراً ، فكلانا وغد يا سكارلت ، لا شيء يستعصي علينا عندما نريده . أجل كان يمكن أن نكون سعيدين ، لأني كنت أحبك ، كما أني أعرفك يا سكارلت ، أعرفك حتى عظامك بطريقة لا يستطيع آشلي أن يعرفك بها أبداً ، وسيحتقرك إن هو عرفك . . ولكن لا ينبغي أن تظلي هائمة طوال حياتك خلف رجل لا تستطيعين فهمه . أما أنا يا عزيزتي فسأظل خلف العاهرات ، وإني أجرؤ على القول بأننا سنحيا أفضل من حياة معظم الأزواج» .

وتركها فجأة ، وعاد متأرجحاً نحو القارورة . ووقفت سكارلت مسمرة لهنيهة ، والأفكار تندفع من عقلها وإليه بسرعة فائقة بحيث لم تستطع التمسك بإحداها مدة تكفي لاختبارها . لقد قال ريت إنه كان يحبها ، فهل كان يعني قوله ذلك؟ أو كان هو مخموراً وحسب؟ أم كانت هذه إحدى فكاهاته المريعة؟ وآشلي - القمر - تبكين ابتغاء القمر . وركضت بسرعة في القاعة المظلمة ، مندفعة كما لو أن الشياطين كانت تنقض عليها . آه ، حبذا لو أنها تستطيع بلوغ غرفتها فقط ! وأدارت كعبيها ولكن الخف أفلت من قدمها نصف إفلاتة ، وعندما وقفت لخلعه بعصبية ، ركض ريت نحوها بخفة وكأنه هندي ، وأضحى بجانبها في الظلام . كان نفسه ساخناً على وجهها ، ويداه تطوقانها بخشونة ، تطوقانها من تحت الدثار حول جسدها العاري .

«لقد شردتني إلى المدينة بينما كنت تطاردينه . والله إن هذه ليلة سيكون فيها اثنان فقط في سريري» .

وطوح بها عن الأرض إلى ذراعيه وراح يصعد الدرج . كان رأسها مضغوطاً على صدره ، وكانت هي تسمع طرقات قلبه تحت أذنيها . وآلمها ريت ، فصرخت مذعورة ، مخنوقة الصوت ، ولكنه تابع تسلق الدرج في الظلام الشامل ، صعوداً صعوداً ، بينما الخوف يثيرها ، كان غريباً مجنوناً . وكانت هذه ظلمة قاتمة لم تعرفها ، أظلم من الموت . وكان هو كالموت ، يحملها بعيداً بين ذراعيه الموجعتين . وزعقت ، وانكتم صوتها على صدره ، ووقف فجأة على بسطة الدرج ، ثم قلبها بسرعة في ذراعيه ، وانحنى فوقها وقبّلها بوحشية وبإشباع أزال كل شيء من عقلها سوى الظلام الذي كانت تغرق فيه ، والشفتين اللتين كانتا على شفتيها . كان يرتجف كأنه يقف في ريح قوية . وكانت شفتاه الزاحفتان من فمها سفلاً ، إلى حيث سقط الدثار عن جسدها ، تنقضان على بشرتها الناعمة . كان يدمدم بكلمات لم تكن تسمعها ، وكانت شفتاه تثيران فيها شعوراً لم تكن تتحسسه من قبل ، كانت هي ظلاماً ، وكان هو ظلاماً ، وكانت شفتاه على جسدها ، وحاولت أن تتكلم ، ولكن شفتيه أضحتا على شفتيها ثانية ، وفجأة أحست بارتعاشة عاطفية عنيفة لم تكن قد عرفت مثلها من قبل : بهجة وخوف وجنون واضطراب واستسلام لذراعين كانتا قويتين جداً ، ولشفتين عاصرتين بشدة ولمصير يتحرك بسرعة فائقة .

وللمرة الأولى في حياتها التقت بأحد الناس، بشيء أقوى منها، بإنسان لم يكن بوسعها أن تتهدده أو تحطمه. إنسان كان يتهددها ويحطمها، والتفت ذراعاها حول عنقه، وانتفضت شفتاها تحت شفتيه، وكانا يسيران صعوداً في الظلمة ثانية، الظلمة التي كانت رقيقة دوّامة تغلف كل شيء.

عندما استيقظت في الصباح التالي كان قد ذهب، ولولا وجود الوسادة المجعدة إلى جانبها لاعتقدت أن أحداث الليلة السابقة كانت مجرد حلم مثير لا يصدقه العقل. وتخضب وجهها إثر الذكرى، ثم جذبت غطاء السرير عالياً حول عنقها، واضطجعت تستحم في ضوء الشمس، وتحاول أن تفرز التأثيرات المختلطة في عقلها.

وبرز شيئان في المقدمة: كانت قد عاشت مع ريت مدة سنوات، نامت معه، وأكلت معه، وتشاجرت معه، وحملت طفلته، ومع ذلك فلم تعرفه. لقد كان الرجل الذي حملها صعوداً على الدرج المظلم إنساناً غريباً لم تكن قد حلمت بوجوده. والآن، ومع أنها حاولت أن تجعل نفسها تكرهه وأن تستثير سخطها عليه، إلاّ أنها لم تستطع ذلك. لقد أخضعها، وآلمها، واستباحها بوحشية خلال ليلة مجنونة مخيفة، ولكنها اعتزت بذلك.

للمرة الأولى في حياتها كانت قد شعرت بأنها حية، شعرت بالعاطفة جامحة أصيلة كالخوف الذي كانت قد عرفته ليلة هروبها من أتلانتا، شعرت بها عذبة مدوخة كالكراهية الباردة التي انتابتها عندما قتلت الشمالي.

لقد كان ريت يحبها! على الأقل لقد قال إنه كان يحبها، فكيف يسعها أن ترتاب بذلك الآن؟ ما أغرب وأدعى للحيرة أن يكون يحبها، بل ما أبعد إمكانية تصديق ذلك! ذلك الأجنبي المتوحش، الذي كانت قد عاشت معه في برود شديد. ولم تكن متأكدة تماماً من كيفية شعورها تجاه هذا التصريح، ولكنها ضحكت فجأة، وبصوت مرتفع عندما ساورتها فكرة. لقد كان يحبها، وقد أخضعته أخيراً. وكانت سكارلت قد نسيت تقريباً رغبتها القديمة في إيقاعه بشباك حبها كيما تستطيع أن تحمل السوط فوق رأسه الأسود الوقح. وها قد عاودتها تلك الرغبة الآن، ومنحتها رضى عظيماً. لقد أخضعها، ووضعها تحت رحمته ليلة واحدة، ولكنها عرفت الآن ضعف سلاحه. ومن الآن فصاعداً سيكون بقبضتها حيث أرادته أن يكون. لقد تألمت بفعل سخرياته مدة

طويلة ، إلا أنها قد امتلكته الآن ، بحيث تستطيع أن تجعله يقفز خلال أي طوق يهمها أن تمسك به .

وعندما فكرت بمقابلته ثانية ، وجهاً لوجه في ضوء النهار الوقور ، غمرتها حيرة عصبية مخدرة تحمل معها فرحة مثيرة :

ـ «إني متلهفة كعروس» فكرت «وعلى ريت !» وبتأثيرات هذه الفكرة أغرقت في قهقهة حمقاء .

غير أن ريت لم يكن على مائدة الغداء ، وكذلك لم يكن في كرسيه على مائدة العشاء . ومضت الليلة ، ليلة طويلة ، اضطجعت خلالها مستيقظة حتى الفجر ، أذناها مرهفتان لسماع مفتاحه في القفل ، ولكنه لم يأت . وعندما انقضى اليوم التالي دون أي خبر منه ، أضحت نزقة من الخيبة والخوف . ومرت بجانب المصرف ، ولكنه لم يكن هناك . وذهبت إلى المخزن وتصرفت بحدة مع الجميع ، لأنه في كل مرة كان يفتح فيها الباب ليدخل زبون منه كانت تنظر باضطراب آملة أن يكون القادم هو ريت . ثم ذهبت إلى مستودع الخشب واستفزت هيو إلى أن خبأ نفسه خلف كومة خشب ، بيد أن ريت لم يأت إليها هناك .

ولم تستطع أن تذل نفسها وتسأل الأصدقاء عما إذا كانوا قد رأوه ، كما لم تستطع أن تجري تحريات بين الخدم عن نبإ عنه ، ولكنها شعرت أنهم كانوا يعرفون شيئاً لم تكن هي تعرفه . لقد كان الزنوج يعرفون دائماً كل شيء ، وكانت مامي صامتة بصورة غير عادية ذينك اليومين . كانت تراقب سكارلت من زاوية عينها دون أن تقول شيئاً . وعندما انقضت الليلة الثانية ، أجمعت سكارلت رأيها على الذهاب إلى دائرة الشرطة . ربما كان قد أصابه مكروه ، ربما كان حصانه قد طرحه أرضاً ، وكان هو مطروحاً عاجزاً في أحد الخنادق . ربما ، آه ـ فكرة رهيبة ـ ربما كان ميتاً .

وفي الصباح التالي ، وبعد أن تناولت فطورها وكانت في غرفتها ترتدي القبعة ، سمعت خطوات سريعة على الدرج . وفيما كانت تتهالك على السرير في شكر واهن دخل ريت الغرفة . كان مقصوص الشعر حديثاً ، حليق الذقن ، وكذلك كان رصيناً ، ولكن عينيه كانتا محمرتين ووجهه منتفخاً من الشراب . ولوح لها بيد خفيفة وقال : «ها ، مرحباً» .

ـ «كيف يستطيع رجل أن يقول «ها مرحباً» بعد أن يكون قد غادر البيت يومين دون إيضاح؟ كيف يستطيع أن يكون في مثل هذا البرود مع ذكرى ليلة كتلك التي قضاها؟ إنه لا يستطيع ذلك ما لم ـ ما لم ـ وقفزت الفكرة الرهيبة إلى عقلها، ما لم تكن ليال كهذه شيئاً عادياً بالنسبة إليه. ولهنيهة، لم تستطع الكلام، ونسيت كل الحركات والابتسامات الجذابة التي كانت قد فكرت باستخدامها لإخضاعه، ولم يقترب هو منها ليقبّلها القبلة العرضية، بل وقف ينظر إليها مفتر الثغر وبيده سيجار داخن.

«أين . . أين كنت؟» .

ـ «لا تخبريني بأنك لا تعرفين! لقد كنت أعتقد واثقاً أن المدينة بأسرها كانت تعرف حتى هذا الوقت. ربما كان الجميع يعرفون سواك. إنك تعرفين المثل القديم «الزوجة هي آخر من يعرف دائماً» .

ـ «ماذا تعني؟» .

ـ «كنت أعتقد أنه بعد أن جاء رجال الشرطة إلى بيت بيل الليلة التي سبقت الليلة الماضية . . .» .

ـ «بيت بيل . . . تلك . . . تلك المرأة! كنت مع . . .» .

ـ «طبعاً، في أي مكان آخر سأكون؟ آمل ألاّ تكوني قد قلقت عليّ؟» .

ـ «ذهبت من عندي إلي . . آه!» .

ـ «مهلاً . . رويدك يا سكارلت . لا تتصنّعي دور المرأة المخدوعة، ينبغي أن تكوني عارفة بأمر بيل منذ زمن» .

ـ «ذهبت إليها من عندي بعد . . بعد . .» .

ـ «ها، تلك» وأومأ إيماءة استهتار «سأنسى أخلاقي . أقدم اعتذاري على سلوكي في آخر لقاء . كنت مخموراً جداً كما تعرفين دون ريب، ومسلوب اللب تماماً بفعل مفاتنك ـ أأنا في حاجة إلى سردها؟» .

وفجأة ودت أن تبكي، أن تضطجع على السرير، وتنشج إلى ما لا نهاية، لم يكن قد تغيّر. لم يكن شيء قد تغيّر. وكانت هي غبية حمقاء مخدوعة سخيفة تافهة عندما فكرت أنه كان يحبها. لقد كان عمله مجرد دعاية من دعاياته المخمورة الشنيعة، لقد أخضعها وتلذذ عندما كان مخموراً، تماماً كما كان يمكن أن يتلذذ بأي امرأة في ماخور بيل. وها قد عاد الآن إلى سابق

عهده ، مهيناً لاذعاً صعب المنال . وكنّت دموعها واستجمعت قواها . ينبغي أن لا يعرف بما كانت تفكر به أبداً أبداً ، كيف كان ينتظر أن يضحك لو أنه عرف! حسناً ، ولكنه لن يعرف أبداً . ، ونظرت إليه بسرعة ، ولمحت في عينيه ذلك البريق المتيقظ المحير القديم ، بريقاً حاداً متلهفاً كأنه كان يتحرق إلى كلماتها التالية ، آملاً أن تكون ـ ماذا كان يأمل؟ أن تجعل حمقاء من نفسها وتزعق وتقدم له شيئاً ليضحك منه؟ ليست هي من يفعل ذلك . والتقى حاجباها المائلان معاً في تكشيرة باردة .

ـ «لقد كان من الطبيعي أن أرتاب بماهية علاقاتك بتلك المخلوقة» .

ـ «ارتبت فقط؟ لماذا لم تسأليني وتشبعي فضولك؟ لكنت قد أخبرتك إذاً . لقد كنت أعيش معها منذ اليوم الذي قررت فيه وآشلي ويلكس أنه ينبغي أن يكون لكل منا غرفة نوم منفردة» .

ـ «ما أحقر أن تقف هناك وتتبجح أمامي ، أنا زوجتك ، بأن . .» .

ـ «ها ، وفري علي غضبك الخلقي ! إنك لم تكوني تعيرين أي اهتمام لما كنت أفعله ، طالما كنت أدفع فواتير الحساب ، كما أنك تعرفين أني لم أكن ملاكاً في المدة الأخيرة . وأما بالنسبة إلى كونك زوجتي . . . فإنك لم تكوني زوجتي منذ ولدت بوني ، أليس كذلك؟ لقد كنت استثمارة غير مجدية يا سكارلت وكانت بيل استثمارة أفضل منك» .

ـ «استثمارة؟ تعني أنك أعطيتها . .؟» .

ـ «أقمتها في العمل ، هي العبارة الصحيحة كما أعتقد . إن بيل امرأة نبيهة . كنت أريد أن أراها تتقدم ، وكان كل ما تحتاج إليه هو المال لتؤسس بيتاً خاصاً بها . ينبغي أن تعرفي أي معجزات تستطيع المرأة صنعها عندما يكون في حوزتها قليل من المال . تأملي نفسك» .

ـ «أنت تقارنني . .» .

ـ «على كل حال كلاكما امرأتان عنيدتان في العمل ، وكلاكما ناجحتان ، ولكن بيل تمتاز عنك طبعاً ، لأنها رقيقة القلب ، طيبة الروح» .

ـ «هلاّ خرجت من هذه الغرفة؟» .

فتوجّه نحو الباب وقد ارتفع أحد حاجبيه بطريقة مضحكة . كيف يسعه أن يهينها هكذا ، فكرت في غضب وألم . كان يخرج عن مألوفه ليؤلمها ويذلها .

وتلوت أسى وهي تفكر كيف كانت قد تاقت لعودته إلى البيت بينما كان هو طيلة الوقت مخموراً يتشاجر مع رجال الشرطة في بيت الفجور .

ـ «اخرج من هذه الغرفة ولا تعد إليها أبداً . لقد أخبرتك ذلك فيما مضى فلم تكن سيداً لتفهم . سأوصد بابي منذ الآن وصاعداً» .

ـ «لا تنزعجي . .» .

ـ «سأوصده بعد الطريقة التي تصرفت بها في الليلة الماضية مخموراً جداً ، منفراً جداً !» .

ـ «هيا الآن يا عزيزتي ! لست منفراً ، حتماً !» .

ـ «اخرج» .

ـ «لا تنزعجي . إني ذاهب . وإني أعدك ألا أضايقك ثانية . إن ذاك وعد نهائي . ولقد فكرت بأن أصارحك بأنه إذا كان سلوكي الشائن مقيتاً جداً بحيث لا تستطيعين تحمله فإني أسمح لك بحق الطلاق . أعطني بوني فقط ولن أعارض بالطلاق» .

ـ «لا أفكر بإشانة العائلة بعملية طلاق» .

ـ «ستشينينها بسرعة فائقة إذا ما توفيت الآنسة ميلي ، أليس كذلك؟ إن التفكير بالسرعة العظيمة التي ستطلقينني بها عندئذ تجعل رأسي يدور» .

ـ «هل لك أن تذهب؟» .

ـ «أجل ، إني ذاهب ، وهذا ما جئت إلى البيت لأخبرك به . إني ذاهب إلى شارلستون ونيو أورليانز و . . ها ، الواقع أنها رحلة طويلة جداً ، إني مسافر اليوم» .

ـ «ها !» .

ـ «وسآخذ بوني معي . دعي برسي ، تلك الغبية ، تحزم أمتعتها الصغيرة ، وسآخذ برسي أيضاً» .

ـ «لن تأخذ طفلتي خارج هذا البيت» .

ـ «إنها طفلتي كذلك يا سيدة بتلر . من الأكيد أنك لا تؤاخذينني إن أنا أخذتها إلى شارلستون لترى جدتها؟» .

ـ «جدتها ! هل تعتقد أني أدعك تأخذها خارج هذا المكان ، بينما ستكون كل ليلة ، ومن المحتمل جداً ، أن تأخذها إلى بيوت كبيت بيل تلك» .

فقذف بالسيجار بعنف ، وانبعثت رائحة حادة من اشتعال السجادة ، وارتفعت رائحة الصوف اللاذعة إلى منخريها ، وبعد لحظة ، كان قد عبر الغرفة ووقف إلى جانبها ووجهه أسود من الغضب :

ـ «لو كنت رجلاً لكسرت عنقك عقاباً على تلك العبارة ، أما والحالة هذه فإن كل ما أستطيع قوله لك هو أن تغلقي فمك الذي لعنه الله . هل تعتقدين أني لا أحب بوني ، وأني سآخذها حيث . . ابنتي ، يا لله الرحيم منك أيتها الحمقاء ! وأما بالنسبة إليك ، أنت التي تضفين على نفسك مظاهر التقوى فيما يتعلق بأمومتك فالواقع أن قطة أفضل أمّاً منك ! ماذا فعلت يوماً من أجل أولادك؟ إن ويد وإيلا يخافان منك حتى الموت ، ولولا ميلاني ويلكس لما كان لهما أن يعرفا ماهية الحب والعاطفة . ولكن بوني ، ابنتي بوني ! هل تعتقدين أني لا أستطيع أن أعتني بها أفضل من اعتنائك بها؟ هل تعتقدين أني سأسمح لك بالاستبداد بها وبتحطيم روحها كما حطمت روحي ويد وإيلا؟ يا للجحيم ، لا ! احزمي امتعتها وجهزيها خلال ساعة أو أني أحذرك بأن الذي حدث في الليلة الماضية سيكون معتدلاً إلى جانب ما يمكن أن يحدث . لقد كنت أفكر دائماً أن جلداً ناجعاً بسوط عربة يمكن أن ينفعك كثيراً» .

ودار على عقبيه قبل أن تستطيع التكلم ، وخرج من الغرفة على قدمين مسرعتين ، ثم سمعته يعبر أرض القاعة إلى غرفة لعب الأطفال ويفتح بابها ، وتلا ذلك أصوات سعيدة سريعة صادرة عن ثلاثة أولاد ، ولكن سكارلت سمعت كلمات بوني تعلو الجميع :

ـ «بابا ، أين كنت؟» .

ـ «أبحث عن جلد أرنب لألف به ابنتي بوني الصغيرة . أعطي حبيب قلبك قبلة يا بوني ـ وأنت أيضاً يا إيلا» .

55

ـ «عـزيزتي ، أنا لا أريد أي تعليل منك ، كـمـا أني لن أصـغي إلى أي إيضاح» . قالت ميلاني بحزم وهي تضع برفق يداً صغيرة على شفتي سكارلت المعذبتين وتسكت كلماتها «إنك تهينين نفسك وآشلي وتهينينني حتى بمجرد تفكيرك بأنه يمكن أن تكون هناك حاجة إلى إيضاحات بيننا . كيف لا ، ونحن الثلاثة كنا . . كنا كالجنود نحارب الدنيا معاً لسنين طويلة بحيث أني خجلة بك لتفكيرك بأن بوسع حديث تافه أن يسيء إلى علاقتنا . هل تفكرين بأني أصدق أنك وآشلي . . يا لها من فكرة ! ألا تدركين أني أعرفك أفضل مما يعرفك أي إنسان آخر في الدنيا؟ هل تظنين أني نسيت جميع الأشياء المدهشة البعيدة عن الأنانية التي قدمتها لآشلي وبو ولي ـ كل شيء ابتداء من إنقاذ حياتي إلى حفظنا من الموت جوعاً ! هل تظنين أن بوسعي أن أتذكرك تمشين في أخدود خلف حصان ذلك الشمالي ، عارية القدمين تقريباً ويداك مقرّحتان ـ فقد كيما أستطيع والطفل أن نجد شيئاً لنأكله ـ ثم أصدق تلفيقات فظيعة كهذه عنك؟ إني لا أريد سماع كلمة منك يا سكارلت أوهارا» .

ـ «ولكن» تلعثمت سكارلت ثم صمتت .

كان ريت قد غادر المدينة في الساعة السابعة ، مصطحباً معه بوني وبرسي ، وكانت الوحشة قد أضيفت إلى عار سكارلت وغضبها . وكان العبء الإضافي الناجم عن إثمها مع آشلي ، ثم دفاع ميلاني أكثر مما تستطيع احتماله . لو أن ميلاني صدقت إنديا وآرشي وأنبتها في الحفلة ، أو حتى حيّتها ببرود ، لكان بوسعها عندئذ أن ترفع رأسها عالياً وتدافع عن نفسها بكل سلاح في عدتها . ولكن الآن ، ومع ذكرى ميلاني تقف بينها وبين تحطمها الاجتماعي كشفرة رقيقة براقة ، وشعاع الثقة والعراك يشع في عينيها ، لم يكن يبدو أن هناك عملاً أميناً يمكن عمله سوى الاعتراف . أجل ، الإفشاء بكل شيء ابتداء من تلك البداية البعيدة البعيدة على الشرفة المشمسة في تارا .

فيما مضى ، كانت فكرة قذف الحقيقة في وجه ميلاني ، بطريقة جارحة لاذعة ، ورؤية انهيار نعيم غبائها ، فكرة مدهشة بالنسبة إلى سكارلت ، خطوة تستحق كل شيء كان يمكن أن تخسره من أجل تنفيذها . ولكن الآن تغير كل

شيء في ليلة ، ولم يعد هناك شيء ترغب فيه أقل من رغبتها في هذه الفكرة .

كانت فزعة من أن تخبر ميلاني الحقيقة ، ولكن إحدى غرائزها الشريفة النادرة اشتعلت فيها ، غريزة لم تكن لتدعها تتنكر في ألوان كاذبة أمام المرأة التي خاضت المعارك من أجلها ، ولذلك أسرعت إلى ميلاني في ذلك الصباح حالما غادر ريت وبوني البيت . ولكن وعلى إثر كلماتها الأولى المتعثرة : «ميلي ينبغي أن أوضح قضية ذلك اليوم» . أسكتتها ميلاني بلهجة آمرة . وأدركت سكارلت وهي تنظر بوجه خجول إلى العينين السوداوين اللتين كانتا تبرقان بالحب والغضب ، أدركت ، بقلب هابط ، أن السكينة والطمأنينة اللتين كانتا ستتبعان الاعتراف لا يمكن أن تكونا من نصيبها . لقد قطعت ميلاني إلى الأبد طريق الاعتراف ذاك بكلماتها الأولى . وأدركت سكارلت بإحدى العواطف الرشيدة القليلة ، التي كانت تنعم بها ، أن التخفيف عن قلبها المعذب سيكون محض أنانية ، إذ ستكون قد تحررت من عبئها ووضعته على قلب إنسان بريء مخلص . لقد كانت تدين لميلاني بدفاعها عنها ، وذلك الدين كان يمكن أن يسدد بالصمت فقط . أي وفاء مجحف سيكون في تدمير حياة ميلاني بإطلاعها على الحقيقة المستنكرة ، حقيقة أن زوجها كان خائناً لها ، وأن صديقتها المحبوبة كانت شريكته في الخيانة .

ـ «ليس بوسعي أن أخبرها» فكرت بيأس «أبداً . لا ، حتى ولو قتلني ضميري» وتذكرت ، وفي وقت غير مناسب ، عبارة ريت السكرى «إنها لا تستطيع أن تدرك الخيانة في أي إنسان تحبه . . دعي تلك تكون إحدى بلاياك» .

أجل ، ستكون بليتها ، إلى أن تموت ، أن تبقي هذا العذاب صامتاً في داخلها ، أن تلبس قميص العار المنسوج من الشعر ، وأن تحس به يخزها عند كل نظرة أو إشارة ودودة يمكن أن تصدر عن ميلاني خلال السنين ، وأن تخضع إلى الأبد رغبتها في أن تصيح : «لا تكوني لطيفة جداً ! لا تحاربي من أجلي ! فأنا لا أستحق ذلك !» .

كانت ميلاني تجلس قبالتها على كرسي منخفض ، وكانت قدماها مركزتين بثبات على متكإ شديد الارتفاع بحيث أن ركبتيها كانتا معلقتين كركبتي طفلة ، الوضع الذي لم تكن لتتخذه لو لم يكن الغضب قد تملكها إلى حد أن نسيت

أصول اللياقة . وكانت تحمل شريطاً في يديها وتحرك الإبرة اللماعة بعنف وكأنها كانت تحرك سيفاً رفيعاً في مبارزة .

لو أن غضباً كهذا كان يتملك سكارلت لضربت الأرض بكلتا قدميها ، ولزأرت كجيرالد في أجمل أيامه ، ولدعت الله أن يشهد على النفاق الملعون وعلى مكر بني الإنسان ، ولنطقت بتهديدات تقشعر منها الأبدان ، تهديدات عن الانتقام . ولكن ميلاني أعلنت عن سعير غضبها الداخلي بالإبر اللماعة وبحاجبيها الناعمين المنخفضين باتجاه أنفها وحسب . كان صوتها بارداً ، وكانت كلماتها أكثر اقتضاباً من المعتاد ، ولكن الكلمات المؤثرة التي نطقت بها كانت غريبة على ميلاني ، التي نادراً ما جاهرت برأي والتي لم تتفوه بكلمة قاسية أبداً . وتبينت سكارلت فجأة أن الويلكسيين والهاملتيين قادرون على ثورات تعادل وتفوق ثورات الأوهاريين تلك .

ـ «لقد غدوت تعبة جداً من سماع الناس ينتقدونك يا حبيبتي» قالت ميلاني «وهذه هي القشة الأخيرة ، وإني لعازمة على أن أفعل شيئاً بصددها . لقد حدث كل هذا لأن الناس يحسدونك ، لأنك نبيهة وناجحة جداً . لقد نجحت حيث فشل كثير من الرجال . والآن لا تغتاظي مني يا عزيزتي بسبب قولي ذلك . إني لأعني أنك تصرفت يوماً بطريقة لا تليق بالنساء ، أو أخرجت نفسك عن تقاليد جنسهن كما قال كثير من الرجال . لا ، فأنت لم تفعلي ذلك ، ولكن الناس لا يفهمونك ، كما أنهم لا يستطيعون احتمال كون النساء نبيهات . غير أن نباهتك ونجاحك لا يمنحان الناس الحق لأن يقولوا إنك وآشلي ـ يا للسماء!» .

حملقت سكارلت فيها وقد أجفلت من هذه الثورة التي لم يسبق لها أن رأتها منها .

ـ «أما أن يأتوا إلي بالافتراءات القذرة التي كانوا قد لفقوها ـ آرشي وإنديا والسيدة ألسنغ! كيف تجرأوا؟ طبعاً لم تأت السيدة ألسنغ هنا ، لا في الحقيقة ، فهي لم تملك الشجاعة الكافية لذلك ، ولكنها كانت دائماً تبغضك يا عزيزتي ، لأنك كنت محبوبة أكثر من فاني . وكذلك فإنها اغتاظت كثيراً لإقالتك هيو من إدارة المعمل ، غير أنك كنت محقة تماماً في إقالته . إنه مجرد إنسان تافه قليل العمل ، لا يصلح لشيء!» وهكذا طردت ميلاني بسرعة زميل لعب

طفولتها، وعشيقها وهي في العقد الثاني من العمر «إني ألوم نفسي بسبب آرشي. كان ينبغي أن لا آوي الوغد العجوز. لقد قال الجميع ذلك. إلا أني لم أصغ إليهم. كان لا يحبك يا عزيزتي بسبب الأشقياء، ولكن من هو لينتقدك؟ إنه قاتل امرأة أيضاً! وبعد كل الذي فعلته من أجله يأتي إلي ويخبرني ـ كان ينبغي أن لا أندم أبداً لو أن آشلي قتله. وبوسعي أن أخبرك أنني طردته وقد غادر المدينة.

«وأما بالنسبة إلى إنديا، تلك المخلوقة الرذيلة! عزيزتي، إني لم أستطع إلاّ أن ألاحظ منذ المرة الأولى التي رأيتكما فيها معاً أنها تغار منك وتبغضك لأنك أجمل منها بكثير، ولأنَّ عشاقاً كثيرين كانوا يحومون حولك. وكانت تبغضك بسبب ستيوارت تارلتون بصفة خاصة، لأنها كانت تأمل كثيراً الزواج به بحيث أنها.. الواقع، إني أمقت أن أقول ذلك عن شقيقة آشلي، إلاّ أني أعتقد أن عقلها قد شل جراء تفكيرها الكثير الدائم! لا يوجد تفسير آخر لفعلتها... لقد أخبرتها أن لا تطأ هذا البيت أبداً. وإني إذا ما سمعتها تدس دساً رخيصاً كهذا فسأدعوها كاذبة أمام الناس».

وفجأة كفت ميلاني عن الكلام وغادر الغضب وجهها ليغمره الندم. كانت ميلاني تؤمن بالوفاء العائلي المتين الخاص بالجورجيين، ولذلك كان التفكير بشجار عائلي يمزق قلبها، وعلى ذلك ترددت لحظة، إلاّ أن سكارلت كانت أعز الناس عليها، لقد كانت تأتي في المرتبة الأولى في قلبها، ولذلك تابعت حديثها بإخلاص:

ـ «لقد كانت دائماً غيورة لأني كنت أحبك أكثر من الجميع يا عزيزتي. لن تدخل هذا البيت ثانية، كما أني لن أضع قدمي تحت سقف يستقبلها. إن آشلي يؤيدني في هذا الموقف. غير أن الأمر كاد يحطم قلبه لأن شقيقته نطقت كذبة».

وعند ذكر اسم آشلي انهارت أعصاب سكارلت المنهوكة وانفجرت بالدموع. ألن تكف عن طعنه في القلب؟ لقد كانت فكرتها الوحيدة هي أن تجعله سعيداً وآمناً، ولكن في كل دور كان يبدو أنها كانت تؤذيه. لقد حطمت حياته وهدمت كبرياءه واحترامه الذاتي، ودمرت تلك الطمأنينة الداخلية، تلك السكينة المرتكزة على الكمال. وها هي الآن قد فصلته عن

شقيقته التي كان يحبها حباً جماً في سبيل أن ينقذ سمعته وسعادة زوجته .

ـ «لا تبكي ! لا تبكي !» صاحت ميلاني مسندة رأس سكارلت على كتفها «كان ينبغي أن لا أتحدث عن الموضوع كله وأكدرك هكذا . إني أعرف مدى رهبة ما لا بد أنك تشعرين به ، ولذلك فلن أذكر القضية مرة ثانية . لا ، ليس لأي منا نحن الاثنتين ، أو لأي إنسان آخر ، وسيغدو الأمر وكأنه لم يحدث ولكن . .» أضافت بغل ساكن «سأري إنديا والسيدة ألسنغ ماهية فعلتهما ، ليستا بحاجة إلى أن تفكرا أن بوسعهما نشر الافتراءات عن زوجي وعن زوجة شقيقي . سأنتقم لنفسي بحيث لن تستطيع كلاهما رفع رأسيهما في أتلانتا . وكل شخص سيصدقهما أو يستقبلهما سيكون عدوي» .

وأدركت سكارلت ، وهي تنظر بحزن إلى فترة السنين الطويلة القادمة ، أنها كانت سبب نزاع سيقسم المدينة والعائلة مدى أجيال .

*

وفت ميلاني بوعدها ، فلم تعد تذكر الموضوع لسكارلت أو لآشلي مطلقاً ، كما لم تكن لتبحثه مع أي إنسان . لقد احتفظت بمظهر عدم اهتمام بارد سرعان ماكان يمكن أن يتحول إلى وضع رسمي يتسم بعدم الاكتراث ، إذا ما تجرأ أي إنسان حتى على التلميح إلى الموضوع . وخلال الأسابيع التي تلت حفلتها المدهشة ، وبينما كان ريت في غياب غامض والمدينة في حالة مجنونة من الحديث والاضطراب والتحزب ، لم ترحم ميلاني أولئك الذين كانوا يعيبون سكارلت ، سواء أكانوا من أصدقائها القدامى أو أقربائها بالدم . لم تكن تتكلم بل كانت تفعل .

كانت تلازم جانب سكارلت وأقنعتها بالذهاب إلى المخزن وإلى معمل الخشب كالمعتاد في كل صباح ، وكانت تذهب معها ، كما أصرت على أن تذهب سكارلت في العربة بعد الظهر ، مع أن هذه قلما كانت ترغب في عرض نفسها على الأنظار الفضولية المتلهفة ، أنظار زميلاتها في المدينة . وكانت ميلاني تجلس في العربة إلى جانبها ، وكذلك كانت تصطحبها في زياراتها بعد أظهار الأيام الرسمية وتدفعها برفق داخل الردهات التي لم تكن سكارلت قد جلست فيها منذ أكثر من سنتين .

كانت تجعل سكارلت تصل باكراً بعد أظهار هذه الأيام ، وتظل هناك إلى أن

تكون آخر الزائرات قد غادرت المكان ، وبهذا كانت تحرم السيدات فرصة حديث الجماعة الممتع والتخمينات الكلامية الشيقة ، ما كان يسبب لهن بعض السخط .

كان من ميزة الاعتبار الذي تبوأته سكارلت أن أناساً قليلين بنوا دفاعهم عنها أو انتقادهم لها على ضوء استقامتها الشخصية «نحن لا ننظر إلى أبعد من شخصها» كانت وجهة النظر الاجتماعية . كانت سكارلت قد أوجدت لنفسها أعداء كثيرين جداً ، بحيث لم تحظ الآن بمدافعين كثيرين عنها . كانت أقوالها وأفعالها تعتمل في قلوب عديدة جداً ، ولكن الجميع حفلوا بحماسة فيما يتعلق بإيلام ميلاني أو إنديا . وهكذا دارت العاصفة حولهما لا حول سكارلت ، متمركزة على سؤال واحد «هل كذبت إنديا؟» .

وأشار أولئك الذين اتخذوا جانب ميلاني إلى حقيقة أن ميلاني كانت برفقة سكارلت دائماً هذه الأيام ، أكان يمكن لامرأة مثل ميلاني أن تناصر قضية امرأة مذنبة ، خصوصاً امرأة مذنبة مع زوجها؟ لا ، حقّاً! لقد كانت إنديا مجرد عانس عجوز مختلّة العقل كانت تكره سكارلت فافترت عليها وأقنعت آرشي والسيدة ألسنغ بأن يصدقا افتراءاتها .

ولكن كان أنصار إنديا يسألون : إذا لم تكن سكارلت مذنبة فأين الكابتن بتلر؟ لماذا هو غير موجود هنا إلى جانب زوجته ، يمدها بقوة رضاه عنها؟ لقد كان ذلك سؤالاً بلا جواب . وعندما توالت الأسابيع ، وانتشرت الإشاعة معلنة حبل سكارلت ، أطرق أنصار إنديا رؤوسهم مقتنعين . لا يمكن أن يكون ذلك الجنين طفل الكابتن بتلر ، كانوا يقولون ، ولبرهة طويلة ، ظلت حقيقة دهشتهم أمراً عامّاً ، ولبرهة طويلة ، ظلت المدينة مسرحاً لفضيحة وجود غرفتي النوم المنفصلتين .

وهكذا استمر الحديث ممزقاً المدينة قسمين ، ممزقاً كذلك عشيرة آل هاملتون وويلكس وبور ووبتمن وونفيلد ، العشيرة المتينة الأواصر . إذ اضطر كل فرد من أفراد العشيرة إلى أن يأخذ أحد الجانبين ، فلم يكن هناك موقف حيادي . وكانت كل من ميلاني وإنديا تهتم بالأمر ، الأولى بوقار رصين والثانية بمرارة حادة . ولكن مهما كان الجانب الذي كان الأقرباء يأخذونه فقد كان الجميع مستائين من أن تكون سكارلت سبب انشقاق العائلة . ولم يكن أحد منهم

يعتقد بأنها تستحق أن تكون سبب ذلك الانشقاق . ومهما كان الجانب الذي كانوا يؤيدونه فإن الأقرباء أسفوا قلبياً لحقيقة أن إنديا قد أخذت على نفسها غسل شرشف العائلة القذر على تلك الصورة العلنية ، وتوريط آشلي في فضيحة كتلك . ولكن الآن ، وقد صرحت برأيها ، فإن كثيرين هرعوا للدفاع عنها وأيدوا جانبها ضد سكارلت ، تماماً كما أيد آخرون من محبي ميلاني ميلاني وسكارلت .

وكان نصف سكان أتلانتا إما أقرباء أو يدعون قرابة ميلاني وإنديا ، إذ كانوا تفرعات أبناء الأعمام ، وأبناء أبناء الأعمام والأصهار ، وأطراف العمومة .

ولكنهم أضحوا الآن منشقين إلى حزبين ، وحظيت المدينة بميزة مشاهدة أبناء الأعمام من الدرجة الخامسة أو السادسة يتحزبون في أعظم فضيحة مدمرة شهدتها أتلانتا . وقد سبب هذا الخصام مشقة عظيمة وأحرج نصف سكان المدينة الآخر الذي لم تكن القرابة تربطه بالمتخاصمين من حيث معرفة ما يليق عمله أو الامتناع عنه ، ذلك لأن نزاع إنديا ـ ميلاني أحدث عملياً شقاقاً في كل منظمة اجتماعية .

كانت سيدات أتلانتا وهن في جلساتهن البيتية النظامية بعد أظهار الأيام يظللن في كرب واجل خشية أن تزورهن ميلاني وسكارلت في الوقت ذاته الذي تكون فيه إنديا وقريباتها المخلصات في ردهاتهن .

وكانت العمة بيتي المسكينة ، من بين جميع أفراد العائلة ، تعاني من هذا الشجار أكثر من الجميع ، ذلك أن بيتي التي لم تكن ترغب في شيء سوى أن تعيش بهدوء وسط محبة الأقرباء ، كان يمكن أن تكون بالغة السرور في هذا الموضوع ، كي تجري مع الأرانب البرية وتصيد مع الوحوش ، ولكن لم تكن الأرانب أو الوحوش لتسمح بذلك .

كانت إنديا تعيش مع العمة بيتي ، فلو أيدت بيتي ميلاني ، كما كانت ترغب في أن تفعل ، لغادرتها إنديا ، وعندئذ ، ماذا كان ينتظر أن تفعل بيتي المسكينة؟ إنها لا تستطيع العيش وحدها ، وستضطر إلى أن تحضر غريبة لتعيش معها ، أو أن تقفل البيت وتذهب لتعيش مع سكارلت . وكانت العمة بيتي تشعر شعوراً غامضاً بأن الكابتن بتلر لم يكن ليحفل بهذا الأمر كله ، أو أنها كانت ستضطر لتذهب وتعيش مع ميلاني في المقصورة الصغيرة التي كانت غرفة بو .

لم تكن بيتي مولعة بإنديا كثيراً ، لأن إنديا كانت تجفلها بأساليبها العنيدة الجافة ، وباعتقاداتها العاطفية ، إلا أنّها مكنت بيتي من أن تحتفظ بمسكنها المريح . وكانت بيتي دائماً تساس من قبل الاعتبارات المتعلقة براحتها الشخصية أكثر مما تساس من قبل المثل الخلقية ، ولذا ظلت إنديا برفقتها .

على أن وجودها في البيت جعل العمة بيتي محوراً لعاصفة ، لأن كلا سكارلت وميلاني اعتبرتا أن ذلك يعني تأييدها لإنديا . ورفضت سكارلت بفظاظة أن تستمر في تبرعها بالنقود لمسكن بيتي طالما أن إنديا تقيم تحت السقف ذاته . وكان آشلي يبعث بالنقود إلى إنديا كل أسبوع ، وكل أسبوع كانت إنديا تعيد النقود بكبرياء وصمت رغم انزعاج السيدة العجوز وأسفها . وهكذا أضحى من المتوقع أن تصبح الأوضاع المالية في البيت الآجري في حالة محزنة لولا تدخل العم هنري ، وكان مما يحز في كرامة بيتي أن تأخذ المال من شقيقها هنري .

كانت بيتي تحب ميلاني أكثر من أي إنسان آخر في الدنيا باستثناء نفسها ، وكانت ميلي تتصرف الآن تجاهها تصرف غريبة مهذبة لا تربطها بها عاطفة . فمع أنها كانت تعيش عملياً في ساحة بيت بيتي الخلفية ، إلاّ أنها لم تأت مرة عبر السياج ، بل كانت تسرع في الدخول والخروج عشر مرات في اليوم . وكانت بيتي تزورها وتبكي وتثبت حبها وإخلاصها ، غير أن ميلاني كانت دائماً ترفض بحث الأمور معها ، ولم تكن ترد الزيارات أبداً .

وكانت بيتي تعرف تمام المعرفة بماذا كانت تدين لسكارلت . كانت تدين لها بوجودها ذاته تقريباً . فمن الأكيد أنه في تلك الأيام السوداء التي تلت الحرب ، عندما جوبهت بيتي بضرورة الاختيار بين البقاء عند أخيها هنري أو التضور جوعاً ، فتحت لها سكارلت بيتها على مصراعيه وأطعمتها وكستها ومكنتها من أن ترفع رأسها في مجتمع أتلانتا . ومنذ أن تزوجت سكارلت وانتقلت إلى بيتها ، كانت الكرم عينه ، وكان الكابتن بتلر الفاتن المرعب ذاك ، مراراً بعد أن كان يزورها مع سكارلت ، كانت بيتي تجد أكياس نقود قشيبة محشوة بأوراق النقود ، تجدها على منضدتها ، أو تجد مناديل مزركشة معقودة على قطع ذهبية دست خفية في علبة خياطتها . وكان ريت يقسم دائماً أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك ، ويتهمها بطريقة غير مهذبة أبداً بأن لها معجباً بها خفيّاً ، هو في العادة

غراندبا ميريويذر ذو الشاربين .

في النهاية ، اعتقد بعض الناس من كل قلوبهم ببراءة سكارلت ، ليس بسبب فضيلتها الشخصية ، ولكن لأن ميلاني كانت تعتقد بذلك . كما كان لدى البعض تحفظات عقلية في هذا الصدد ، غير أنهم كانوا لطيفين مع سكارلت لأنهم كانوا يحبون ميلاني ويرغبون في الحفاظ على هذا الحب . أما أنصار إنديا فكانوا ينحنون لسكارلت ببرود ، وكان البعض القليل منهم ينتقدها علناً . وكان هؤلاء الأخيرون مُضايقين مثيرين ، إلاّ أن سكارلت أدركت أنه لولا دفاع ميلاني عنها لانقلب وجه المدينة بأسرها ضد شخصها ولغدت شخصية منبوذة .



ريت يعاتب سكارلت

لم تتلق سكارلت في الأشهر الثلاثة التي مضت على سفر ريت أي نبأ منه ، ولم تكن تعرف مكان وجوده ، ولا المدة التي سيطول إليها سفره ، بل لم يكن لديها في الحقيقة أي فكرة عما إذا كان سيعود أم لا . وكانت خلال هذه المدة تشرف على عملها وهي رافعة الرأس مريضة القلب . ولم تكن تشعر بالصحة ، ولكنها بدافع من ميلاني ، كانت تذهب رغم ذلك إلى المخزن كل يوم ، وتحاول أن تحتفظ باهتمام ظاهري بالمعملين . غير أن المخزن ضؤلت قيمته في نظرها للمرة الأولى ، ورغم أن العمل غدا ثلاثة أضعاف ما كان عليه في السنة السابقة ، وكان المال يتدفق منه ، لم يكن بوسعها أن تحفل به ، وأضحت عبوسة حادة مع الكتّاب . وكان معمل جوني كاليغر في ازدهار مستمر ، ومستودع الخشب يبيع كل إنتاجه بسهولة ، ولكن لم يكن ليسرها شيء مما كان جوني يفعله أو يقوله . وأخيراً انفجر جوني ، وهو إيرلندي مثلها ، انفجر غاضباً جراء نكدها ، وهدّد بالاستقالة بعد حملة كلامية طويلة . وهكذا اضطرت سكارلت إلى تهدئته بأخس الاعتذارات .

ولم تكن سكارلت تذهب إلى معمل آشلي أبداً ، وكذلك لم تكن تذهب إلى مكتب مستودع الخشب عندما كانت تعتقد بوجوده هناك . كانت تعرف أنه كان يتجنبها ، وتعرف أن وجودها الدائم في بيته ، تلبية لدعوات ميلاني التي لا مفر منها ، كان عذاباً له ، ولم يكن الاثنان يتكلمان على حدة ، وكانت هي مستميتة على الاستفسار منه ، تريد أن تعرف إذا كان يبغضها الآن ، وماذا كان قد أخبر ميلاني بالضبط ، إلا أنه كان يبقيها على بعد ذراع منه ويتوسل إليها صامتاً أن لا تتكلم ، وكان منظر وجهه ، وجهه المسن الزائغ جراء تقريع الضمير ، يزيد في عبثها . وكانت خسارة معمله في كل أسبوع منغصاً إضافياً لم يكن بوسعها التصريح به .

كان عجزه أمام الوضع الحالي يثيرها ، ولم تكن تعرف ما كان بوسعه أن يفعل ليحسن الوضع ، ولكنها كانت تشعر بأن عليه أن يفعل شيئاً . فلو كان ريت مكانه لفعل شيئاً ، إذ كان دائماً يفعل شيئاً ، حتى ولو كان الشيء

الخاطئ ، وكانت هي تحترمه كارهة بفضل ذلك .

والآن وقد زال سخطها الأساسي على ريت وعلى إهاناته ، شرعت تفتقده ، وتفتقده أكثر كلما مرت الأيام دون ورود نبإ منه . ومن بين خليط الفرح والغضب وخيبة القلب والكبرياء الجريح ، الذي كان قد خلفه لها ، برز الغم ليجثم على كاهلها كغراب الجيف . لقد افتقدته ، افتقدت لمسته الخفيفة الزرية في نوادره التي كانت تجعلها ترفع صوتها بالضحك ، افتقدت ابتساماته التهكمية التي كانت تخفف المتاعب إلى نسبها الصحيحة ، افتقدت حتى سخرياته التي كانت تلسعها لسعاً إلى حد دفعها إلى الرد الغاضب ، بيد أن أكثر ما افتقدته كان وجوده كمستمع إلى أخبارها ، فقد كان ريت مرضياً جداً في تلك الناحية . كان بوسعها أن تروي أمامه بتفاخر وبلا حياء كيف أنها كانت تستغل الناس أسوأ استغلال وكان يصفق استحساناً ، بينما لو ذكرت أموراً كهذه مجرد ذكر لأناس آخرين لذهلوا .

لقد أحست بالوحشة بدونه وبدون بوني . لقد افتقدت الطفلة أكثر مما توقعت ، وعندما تذكرت الكلمات الأخيرة القاسية التي كان ريت قد قذفها بها والتي تتعلق بويد وإيلا ، حاولت أن تملأ بعض ساعات فراغها بها ، ولكن دون جدوى ، ذلك أن كلمات ريت وردود فعل الطفلين فتحا عينيها على حقيقة مرة مفزعة . لقد كانت في أثناء طفولة كل منهما مشغولة جداً ، قلقة جداً بقضايا المال ، حادة الطبع كثيراً ، سريعة التهيج ، بحيث لم يسعها أن تكسب أياً من ثقتهما أو عاطفتهما . والآن ، إما أن الوقت أصبح متأخراً جداً لتصل إلى قلبيهما الصغيرين الخفيين ، أو أنها لم تكن تملك الصبر أو الحكمة للوصول إلى ذلك .

ـ «على الأقل» فكرت «إن بوني تحبني وترغب في اللعب معي» ، ولكن الأمانة أرغمتها على الاعتراف بأن بوني كانت تفضل ريت عليها إلى درجة غير محدودة . وربما لن ترى بوني ثانية ، لأن كل ما كانت تعرفه هو أن ريت يمكن أن يكون في إيران أو مصر ، وأنه كان عازماً على الإقامة هناك إلى الأبد .

وعندما أخبرها الطبيب ميد أنها حامل ، ذهلت ، لأنها كانت تتوقع منه تشخيصاً لمرض الصفراء أو الأعصاب المنهوكة ، لكن عقلها ما لبث أن عاد بسرعة إلى تلك الليلة الأبدة ، وتخضب وجهها خجلاً من الذكرى . إذاً ، فإن

وليداً سيأتي من تلك اللحظات الطافحة هناء ، حتى ولو أن ذكرى الهناء قتمت بما تلاها . وللمرة الأولى شعرت بالسعادة لأنها كانت ستلد طفلاً ، حبذا لو يكون صبيّاً ! صبيّاً جميلاً ! لا مخلوقاً بليداً صغيراً كويد . ما أعظم ما ستعتني به الآن وهي تنعم بالفراغ لتكرسه لطفل وبالمال لتمهد به طريقه . ما أعظم ما ستكون عليه سعادتها ! وأحست بدافع لأن تكتب إلى ريت من طريق والدته في شارلستون ، وتزف إليه النبأ . يا لله الطيب ، ينبغي أن يعود إلى البيت الآن ! هب أنه ظل بعيداً إلى ما بعد ولادة الطفل ! لن يكون بوسعها إيضاح ذلك ! ولكن إن هي كتبت إليه فسيظن أنها تريده أن يعود إلى البيت ، الأمر الذي سيطربه . غير أنه يجب أن لا يظن أبداً بأنها كانت تريده أو تحتاج إليه .

وغمرتها السعادة لأنها أخمدت هذا الدافع عندما بلغها أول نبإ عن ريت في رسالة من الخالة بولين في شارلستون ، حيث ظهر أن ريت كان في زيارة أمه هناك . ما أعظم شعورها بالفرح لمعرفتها أنه كان لا يزال في الولايات المتحدة ، حتى ولو أن رسالة الخالة بولين كانت مثيرة . لقد أحضر ريت بوني لتراها والعمة يولاي ، وكانت الرسالة زاخرة بالثناء عليها :

ـ «فتاة جميلة للغاية ! عندما ستكبر ستكون حسناء حتماً . ولكني أظن أنك تعرفين أن أي رجل سيغازلها سيتشاجر معه الكابتن بتلر ، لأني لم أر أباً غيوراً مثله . والآن يا عزيزتي ، إني أرغب في أن أعترف لك بأمر ما . لقد كنت أشعر إلى أن قابلت الكابتن بتلر ، بأن زواجك به كان زواجاً رهيباً غير متكافئ ، لأنه طبعاً لا أحد في شارلستون يسمع شيئاً حميداً عنه ، كما أن الجميع آسفون جداً على عائلته . والحقيقة أني كنت ويولاي مترددتين أن نستقبله أم لا ـ ولكن مهما كان الأمر فإن الطفلة العزيزة هي حفيدة شقيقتنا . وعندما أتى ، دهشنا بسرور ، بسرور بالغ ، وأدركنا كم أن مما يخالف التعاليم المسيحية أن يثق المرء بالحديث الباطل ، إذ إنه أعظم الرجال سحراً . وإنه في غاية الجمال أيضاً ما حسبنا . وكذلك فهو رزين ولطيف المعشر كثيراً ، ومخلص لك ولابنتك .

ـ «والآن يا عزيزتي ، لا بد لي من أن أكتب إليك عن شيء بلغ مسامعنا ـ شيء أبيت ويولاي تصديقه في بادئ الأمر . لقد سمعنا ، طبعاً ، أنك أحياناً تساعدين في العمل في المخزن الذي خلفه لك السيد كندي . لقد سمعنا إشاعات ، ولكننا أنكرناها طبعاً . لقد أدركنا أنه في تلك الأيام الرهيبة الأولى

بعد الحرب ، حين كانت الأحوال على ما كانت ، ربما كان ذلك من الضروري ، ولكن لا يوجد أية ضرورة الآن لتصرف كهذا من جهتك ، حيث أني أعرف أن الكابتن بتلر يعيش في ظروف مطمئنة تماماً ، وأنه ، فوق ذلك ، قادر تمام القدرة على إدارة أي عمل أو عقار لك . كان لا بد لنا من أن نعرف حقيقة هذه الشائعات ، فاضطررنا إلى أن نسأل الكابتن بتلر أسئلة غير مباشرة الأمر الذي أغمنا جميعاً . وأخبرنا هو كارهاً أنك تقضين أصبحة أيامك في المخزن الذي لم تسمحي لأي إنسان آخر بأن يجري حساباته ، كما أنه أقر أيضاً بأن لك بعض الاهتمام في معمل أو معامل (لم نلح عليه في هذه النقطة ، لأنه كان مضطرباً جداً بسبب هذه الإخبارية التي كانت نبأ جديداً لنا) . ما يتطلب ركوبك وحيدة ، أو برفقة وغد يؤكد لنا الكابتن بتلر أنه قاتل . وقد استطعنا أن نرى كيف أن هذا الأمر يعصر قلبه ألماً ، وأن نفكر بأنه لا بد أن يكون زوجاً سموحاً جداً ـ في الحقيقة ، زوجاً سموحاً أكثر من الضرورة . سكارلت ينبغي وضع حد لهذا الأمر . إن أمك ليست موجودة لتأمرك ، فيجب علي أن أقوم بذلك نيابة عنها . فكري كيف سيشعر أولادك الصغار عندما يكبرون ويتبينون أنك كنت تعملين في التجارة ! كم أنهم سيكونون أذلاء عندما يعرفون أنك كنت تعرضين نفسك لإهانات الرجال الوقحين ولمخاطر الحديث المتهتك في إشرافك على المعامل ، إن استرجالاً كهذا . .» .

قذفت سكارلت بالرسالة على الأرض دون أن تتم قراءتها ثم أقسمت يميناً . لقد كان بوسعها أن ترى الخالتين تقاضيانها في البيت المتداعي في حي باتري وليس يقيهما من الموت جوعاً سوى ما كانت ترسله لهما شهرياً . استرجال؟ والله لو لم تكن مسترجلة ، لكان من المحتمل أن لا يكون هناك سقف فوق رأسيهما في هذه اللحظة بالذات ، وليلعن الله ريت لأنه أخبرهما عن المخزن والحسابات والمعملين ! أذكر ذلك كارهاً؟ لقد كانت تعرف تمام المعرفة مدى السرور الذي كان يجده في التصنع بإظهار نفسه أمام السيدتين كرجل رزين لطيف ساحر ، وزوج وأب يتمثل فيه الإخلاص . لا بد أنه كان يرغب في تكديرهما ببيانات ضافية عن نشاطاتها في المخزن والمعملين والحانة . يا له من شيطان ! لماذا كانت أمور معوجة كهذه تمنحه سروراً عظيماً .

ولكنها سرعان ما خمد فيها حتى هذا الغضب . وكان مقدار كبير جداً من

اللذة الحادة قد غادر حياتها حديثاً . حبذا لو أنها تستطيع أن تسترد روعة آشلي ووهجه . . حبذا لو أن ريت يعود إلى البيت ويجعلها تضحك .

*

وعاد ريت إلى البيت دون سابق إنذار ، وكان أول إشارة لقدومه مع بوني صوت المتاع يلقى على أرض القاعة الأمامية ، وصوت بوني يصيح «أمي !» .

أسرعت سكارلت من غرفتها إلى أعلى الدرج ورأت ابنتها تمد ساقيها السمينتين القصيرتين في جهد لتصعد الدرجات وقد ضمت إلى صدرها هريرة مخططة مستكينة .

ـ «لقد أعطتنيها جدتي» صاحت مسرورة وهي تمد يدها بالهريرة ، ممسكة بها من قذالها .

فحملتها سكارلت بين ذراعيها وقبّلتها وقد غمرها الشكر لأن وجود الطفلة وفر عليها لقاءها الأول بريت وهي منفردة . وفيما هي تنظر من فوق رأس بوني رأته في القاعة السفلى ، يدفع الأجر لسائق العربة ، ثم نظر إلى الأعلى ورآها وطوح بقبضته في حركة واسعة ، وانحنى وهو يفعل ذلك . أما هي فقد وثب قلبها عندما قابلت عينيه السوداوين . فمهما كان قد فعل ، فقد عاد إلى البيت الآن وكانت هي سعيدة بعودته .

ـ «أين مامي؟» سألت بوني وهي تتململ في قبضة سكارلت التي أوقفتها على قدميها .

وبعد أن حيت ريت تحية لا تتعدى الدرجة اللائقة من العرضية ، بدا لها أن من المنتظر أن يكون الأمر أكثر صعوبة مما توقعت . أما إبلاغه أمر الطفل الجديد فبدا أشد صعوبة . ونظرت إلى وجهه وهو يصعد الدرجات ، ذلك الوجه الأسمر العديم الاكتراث ، العديم التأثر ، الشديد الغموض . لا ، ستنتظر قبل أن تخبره ، فليس بوسعها أن تخبره فوراً . ومع ذلك فإن بشائر كهذه تخص الزوج أولاً ، لأن الزوج يسر بسماعها دائماً ، غير أنها لم تعتقد أن ريت سيسر بها .

كانت تقف على بسطة الدرج ، وتتكىء على الدرابزين وتتساءل عما إذا كان سيقبّلها ، إلا أنه لم يفعل ، بل قال فقط «إنك تبدين شاحبة يا سيدة بتلر . هل هناك نقص في طلاء الحمرة؟» .

ولم ينبس بكلمة عن افتقاده لها ، حتى ولو لم يكن يعنيها . وكان يمكن

على الأقل أن يقبّلها أمام مامي التي ، بعد أن تهادت تأدباً ، كانت تقود بوني في القاعة إلى غرفة الأطفال . أما ريت فقد وقف على بسطة الدرج إلى جانبها وعيناه تتأملانها باستهتار .

ـ «هل يمكن أن يعني هذا الشحوب أنك كنت تفتقدينني؟» استوضح ، وشفتاه تبتسمان ، بينما لم تكن عيناه كذلك .

وإذاً ، فتلك ستكون حاله ، سيكون مقيتاً كالعادة . وفجأة أصبح الطفل الذي كانت تحمل به عبئاً مضايقاً بدلاً من أن يكون حملاً ساراً . وبدا هذا الرجل الواقف أمامها باستهتار ، وقبعته الواسعة المصنوعة من قش بناما على وركه ، عدوها الألد ، وسبب كل متاعبها . وعندما أجابت كانت عيناها تنطقان بالحقد ، حقد كان لا يمكن إخطاؤه أبداً . وغاضت الابتسامة من وجهه .

ـ «إذا كنت شاحبة ، فأنت السبب ، وليس ذلك لأني افتقدتك أيها المخلوق المغرور . إن ذلك . .» ها ، لم تكن قد عزمت على أن تقول له مثل هذا القول ، غير أن الكلمات اللاذعة اندفعت إلى شفتيها ، فقذفت بها عليه غير عابئة بوجود الخدم الذين كان يمكن أن يسمعوها «إن ذلك لأني سأضع طفلاً!» .

فشهق فجأة ، واستعرضتها عيناه ، ثم خطا خطوة سريعة نحوها وكأنه يريد أن يضع يده على ذراعها ، ولكنها تثنت مبتعدة عنه ، وأمام الكراهية في عينيها تجهم وجهه :

ـ «حقاً!» قال ببرود «على كل حال ، من هو الوالد السعيد؟ آشلي؟» .

فقبضت على عمود الدرج بشدة ، إلى أن وخزت أذنا الأسد المنحوت راحتها بألم فجائي . حتى هي التي كانت تعرفه جيداً لم تكن تتوقع هذه الإهانة . طبعاً لقد كان يتفكه ، ولكن هناك بعض الفكاهات الفظيعة جداً بحيث لا تحتمل . ولذلك رغبت في أن تقتلع عينيه بأظفارها الحادة وتمحو ذلك الضوء الغريب فيهما .

ـ «ليلعنك الله!» بدأت وصوتها يرتجف بسخط عليه «إنك . . إنك تعرف أنه ابنك ، وإني لا أريده أكثر مما تريده أنت . لا . . لا تريد أي امرأة أطفال وغد مثلك . إني أتمنى . . آه يا إلــهي ، إني أتمنى أن لو كان طفل أي إنسان ، باستثنائك أنت!» .

ورأت وجهه الأسمر يتغير فجأة ، ورأت كيف أن الغضب وشيئاً آخر لم تستطع تحليله جعلاه ينتفض وكأنه ملسوع .

ـ «أجل !» فكرت بسرور «أجل ! لقد آلمته الآن» .

ولكن القناع القديم العديم التأثر عاد فانسدل على وجهه ثانية ، بينما مسد هو أحد جانبي شاربه :

ـ «طيبي نفساً» قال واستدار عنها صاعداً الدرج «فربما أجهضت» .

ولهنيهة زائغة ، فكرت ماذا كان يعني الحمل : الجيشان الذي كان يبرح بها ، الانتظار الممل ، تضخم هيكلها ، ساعات الألم ، أموراً لا يمكن لرجل أن يدركها . وها هو قد جرؤ على أن يتفكه . ستمزقه بمخالبها . لن يخفف شيء هذا الألم المعتمل في قلبها سوى منظر الدم على وجهه الأسمر . واندفعت نحوه بسرعة كهرة ، ولكنه بحركة خفيفة مجفلة ، خطا جانباً وطوح بذراعه ليبعدها عنه . كانت تقف على الدرجة العليا المشمعة حديثاً ، وعندما ضرب ذراعها الذي تدعمه بكل ثقل جسدها ، ذراعه المطوحة ، فقدت توازنها ، فحاولت أن تقبض على عمود الدرج ، غير أنها أخطأته . فتدحرجت القهقرى على الدرج ، وعندما بلغت بسطة السلم ، أحست بوخز ممرض من الألم ، ولكنها كانت دائخة جداً بحيث لم تستطع تثبيت نفسها ، فاستمرت تتدحرج إلى أسفل الدرج .

*

تلك كانت المرة الأولى التي تمرض فيها سكارلت باستثناء فترات ولادة أطفالها الثلاثة التي لم يكن مرضها فيها ذا بال تقريباً . فلم تكن يائسة مذعورة آنئذ كما هي الآن ، ضعيفة مضطربة يبرح بها الألم . كانت تعرف أنها كانت أشد مرضاً مما كانوا يجرؤون على إخبارها ، وتبينت بوهن أنها يمكن أن تموت . كان الضلع المكسور يخزها عندما تتنفس ، وكان وجهها ورأسها المرضوضان يؤلمانها . لا ، لم تكن الولادة كهذا ، لقد كان بوسعها أن تأكل وجبتين شهيتين بعد وضع كل من ويد وإيلا وبوني ، بينما التفكير بأي شيء الآن سوى الماء البارد كان يسبب لها الغثيان الواهن .

ما كان أسهل أن تضع طفلاً ، وما كان آلم أن لا تضع آخر ! غريب ، أي غصة كانت تحس بها حتى وهي في ألمها ، في أن تعرف أنها لن تنال هذا

الطفل ، وأغرب من ذلك أنه كان أول طفل رغبت فيه حقاً . وحاولت أن تفكر لماذا كانت ترغب فيه ، ولكن عقلها كان متعباً جداً بحيث لم يكن بوسعه التفكير بأي شيء سوى الخوف من الموت . لقد كان الخوف من الموت جاثماً في الغرفة معها ، ولم يكن لديها القوة لمجابهته ولدحره ، ولذا كانت مذعورة . كانت تريد إنساناً قوياً يقف إلى جانبها ويمسك بيدها ويدحر الموت إلى أن تعاودها القوة الكافية لتحاربه هي .

كان الألم قد ابتلع سخطها ، ولذلك كانت تريد ريت ، ولكنه لم يكن موجوداً هناك ، ولم تستطع إقناع نفسها لطلبه .

وكانت آخر صورة لديها عنه مظهره وهو يرفعها إلى القاعة المظلمة عند أسفل الدرج ، ووجهه أبيض خال من كل شيء سوى الخوف الرهيب وصوته ينادي «مامي» بنغمة حزينة . ثم كانت هناك ذكرى غامضة لديها ، ذكراها محمولة إلى الطابق العلوي قبل أن يفشي الظلام عقلها ، ثم ألم وألم مطرد ، والغرفة تعج بأصوات مدندنة وبشهقات العمة بيتي وأوامر الطبيب ميد المقتضبة ، وأقدام تسرع على الدرج وتخطو على الأصابع في القاعة العليا . وتلا ذلك ، كوميض برق معم ، معرفة الموت والخوف اللذين جعلاها تحاول فجأة أن تزعق بأحد الأسماء ، ولكن الزعقة كانت همسة وحسب .

غير أن تلك الهمسة اليائسة عادت باستجابة فورية من مكان ما في الظلام ، بجانب السرير ، إذ بعث صوت الإنسان الناعم الذي نادته جواباً في أنغام مرنمة : «إني هنا يا عزيزتي ، لقد كنت هنا طيلة الوقت» .

تقهقر الموت والخوف برفق عندما أخذت ميلاني يدها ووضعتها على وجنتها الباردة بهدوء . وحاولت سكارلت أن تلتفت لتشاهد وجه ميلاني ، إلا أنها لم تستطع ذلك . كانت ميلاني تلد طفلاً ، وكان الشماليون قادمين والمدينة تلتهمها النيران ، وكان عليها أن تسرع ، تسرع ، ولكن ميلاني كانت تلد طفلاً ولم يكن بوسعها أن تسرع ، بل كان يجب عليها أن تظل معها إلى أن يولد الطفل ، كما كان يجب عليها أن تكون قوية لأن ميلي كانت بحاجة إلى قوتها . لقد كانت ميلي تتألم ألماً شديداً . ينبغي أن تمسك بيد ميلي .

ولكن الطبيب ميد حضر أخيراً ، لقد أتى مع أن الجنود في المحطة كانوا بحاجة إليه فقد سمعته يقول : «هذيان ، أين الكابتن بتلر؟» .

كانت الليلة مظلمة أولاً ثم مضيئة ، وكانت أحياناً تضع طفلاً ، وأحياناً كانت ميلاني هي التي تصرخ ، ولكن خلال ذلك كله ، كانت ميلي موجودة هناك ، وكانت يداها باردتين ، ولم تكن تقوم بحركات عقيمة قلقة ، أو تشهق كالعمة بيتي ، وكلما فتحت سكارلت عينيها كانت تقول «ميلي؟» وكان الصوت يجيبها . فتهم بالهمس عادة «ريت ـ إني أريد ريت» ولكنها لا تلبث أن تتذكر ، وكأنه من حلم ، أن ريت لم يكن يريدها ، وأن وجهه كان قاتماً كوجه هندي ، وأسنانه بيضاء في سخرية . لقد كانت تريده ولكنه لم يكن يريدها .

ومرة قالت «ميلي؟» فأجابها صوت مامي «إني هنا يا بنيتي» ووضعت خرقة باردة على جبينها ، بينما ظلت سكارلت تصرخ برقة «ميلي ، ميلاني» إلاّ أن ميلاني لم تأت خلال مدة طويلة ، إذ كانت تجلس على طرف سرير ريت ، وكان ريت المخمور النائح منبطحاً على الأرض يبكي ورأسه في حجرها .

وكانت ميلاني كلما خرجت من غرفة سكارلت تراه جالساً على سريره وبابه مفتوح على مصراعيه ، يراقب منه باب غرفة سكارلت في جانب القاعة الأخرى . كانت الغرفة عديمة الترتيب مشوشة بنفايات السجائر وأطباق الطعام غير الملموس ، وكان السرير شعثاً بدون تنسيق ، وكان هو يجلس عليه غير حليق شاحب الوجه بصورة مستغربة ، يدخن باستمرار . عندما كان يراها ، لم يكن يسألها أي سؤال ، وكانت هي تقف في الباب هنيهة لتبلغه النبأ : «إني آسفة ، إنها أسوأ من قبل «أو» لا ، لم تطلبك حتى الآن . إنها تهذي «أو» ينبغي أن لا تفقد الأمل يا كابتن بتلر . دعني أعد لك بعض القهوة وشيئاً لتأكله . ستمرض نفسك» .

كان قلبها يتألم شفقة عليه ، مع أنها كانت تعبة جداً ، وتعسة جداً ، بحيث لا تستطيع الشعور بأي شيء تقريباً . كيف يسع الناس بأن يقولوا عنه أموراً حقيرة كتلك ـ أن يقولوا إنه كان عديم القلب ، وغداً غير وفي لسكارلت ، بينما كان بوسعها أن تراه يذوب أمام عينيها وترى العذاب في وجهه؟ ورغم تعبها فإنها كانت تحاول دائماً أن تكون ألطف من المعتاد وهي تقدم له الأنباء الصحية من غرفة المرض . كان يبدو كمخلوق تعس ينتظر القضاء ، كطفل وضع فجأة في دنيا معادية . على أن كل إنسان كان كطفل في نظر ميلاني .

ولكن عندما ذهبت أخيراً مبتهجة إلى غرفته لتخبره أن سكارلت غدت

أحسن حالاً ، لم تكن مستعدة لما وجدت .

كان هناك قارورة ويسكي فارغة حتى نصفها على الطاولة بجانب السرير ، وكانت الغرفة تعبق بالرائحة . ونظر ريت إليها بعينين براقتين مقززتين ، وكانت عضلات شدقيه ترتجف رغم جهوده لتهدئة أسنانه .

«هل ماتت؟» .

ـ «لا ، لا ، إنها أحسن بكثير» .

ـ «آه ، يا إلــهي» قال ووضع رأسه بين يديه ، ورأت هي كتفيه العريضتين ترتجفان ، وكأن ذلك بفعل قشعريرة حادة . وفيما كانت تراقبه بإشفاق ، تحولت شفقتها إلى رعب لأنها رأت أنه كان يبكي . ولم تكن ميلاني رأت رجلاً يبكي ، خصوصاً ريت من بين جميع الرجال ، ريت الذي كان لطيفاً جداً ، شديد السخرية ، عظيم الثقة بنفسه دائماً .

وكذلك أرعبها المنظر والصوت اليائس المخنوق الذي كان ينبعث منه . لقد كانت تخشى أنه كان ثملاً ، وكانت هي تخاف من السكر . ولكن عندما رفع رأسه ولمحت عينيه ، خطت بسرعة إلى داخل الغرفة وأغلقت الباب خلفها برفق واتجهت نحوه ، لم تكن قد رأت رجلاً يبكي ، إلا أنها كانت قد كفكفت دموع كثير من الأطفال . وعندما وضعت يداً ناعمة على كتفه ، التفت ذراعاه فجأة حول أطواقها ، وقبل أن تعرف كيف تم ذلك ، ألفت نفسها تجلس على السرير وريت على الأرض ورأسه في حجرها ، ويداه وذراعاه تقبضان عليها في قبضة عصبية آلمتها . ربتت ميلاني على الرأس الأسود برفق ثم قالت :

ـ «كفى ! كفى !» وهي تريد تسكين روعه «كفى ! ستتحسن !» وعند سماع كلماتها ، اشتدت قبضته وبدأ يتكلم بسرعة وبصوت أجش ، بدأ يفشي بأسراره كأنه كان يتحدث إلى قبر لن يكشف عن أسراره أبداً . يفشي الحقيقة للمرة الأولى في حياته ، فاضحاً نفسه بلا رحمة لميلاني التي كانت غير مدركة مطلقاً في بادئ الأمر ، وواقفة موقف الأم تماماً . كان يتكلم كسير النفس دافناً رأسه في حجرها ، شاداً طيات تنورتها ، وكانت كلماته مبهمة مضطربة أحياناً ، وأحياناً كانت تخرج صريحة جداً لأذنيها ، كلمات فظة مرة ، كلمات ـ اعتراف وتذلل ، تتحدث عن أشياء لم تكن قد سمعت امرأة تتحدث بها ، أشياء سرية جلبت دم الخجل الحار إلى وجنتيها وجعلتها ممتنة لرأسه المنكس .

وربتت على رأسه ، كما كانت تفعل برأس بو الصغير :

ـ «صه ! كابتن بتلر ، ينبغي أن لا تخبرني بهذه الأمور !إنك لست على سجيتك . صه !» ولكن صوته استمر في سيل جارف من الكلام المتدفق بينما ظلت يداه متمسكتين بثوبها وكأنه أمل حياته .

لقد اتهم نفسه بأعمال لم تفهمها ، وجمجم باسم بيل وتلنغ ، ثم هزها بأقصى قوته وهو يصيح : «لقد قتلت سكارلت . لقد قتلتها ، إنك لا تفهمين . لم تكن تريد هذا الطفل و . .» .

ـ «ينبغي أن تصمت ، إنك لست على سجيتك ! لا تريد طفلاً؟ إن كل امرأة تريد . .» .

ـ «لا ! لا ! أنت تريدين أطفالاً ، ولكنها لا تريد . ليس أطفالي . .» .

ـ «ينبغي أن تصمت !» .

ـ «إنك لا تفهمينني . إنها لا تريد طفلاً ، ولقد أرغمتها على ذلك . هذا ـ هذا الطفل ، إنه نتيجة غلطتي الملعونة . لم نكن ننام معاً . .» .

ـ «صه ! كابتن بتلر ! ليس من اللائق . .» .

ـ «وكنت ثملاً ومجنوناً وأردت أن أؤلمها ـ لأنها كانت قد آلمتني . أردت أن ـ وفعلتها ولكنها لم تكن تريدني أبداً . وحاولت أن ـ حاولت بجد كبير و . . .» .

ـ «آه أرجوك !» .

ـ «ولم أعرف عن هذا الطفل حتى ذلك اليوم ـ عندما وقعت . لم تكن تعرف مكاني لتكتب إلي وتخبرني ، إلاّ أنها لم تكن لتكتب إلي لو أنها عرفت مكاني . إني أقول لك ، إني أقول لك إني كنت سآتي إلى البيت رأساً لو أني فقط كنت قد عرفت أكانت تريدني أن أعود إلى البيت أم لا . . .» .

ـ «ها . أجل ، إني أعرف أنك كنت ستفعل ذلك !» .

ـ «يا لله ، لقد كنت مجنوناً خلال هذا الأسابيع ، مجنوناً ومخموراً ! وعندما أخبرتني ، هناك على الدرج ، ماذا فعلت؟ ماذا قلت؟ لقد ضحكت وقلت : «طيبي نفساً ، ربما أجهضت» . وعندئذ قامت . .» .

فغاض الدم من وجه ميلاني فجأة واتسعت عيناها من الرعب وهي تنظر إلى الرأس المعذب يتلوى في حجرها . ورأت فجأة ، وكأنها للمرة الأولى ، كم

كانت يداه كبيرتين وسمراوين وقويتين ، وكم كان الشعر الأسود ينمو كثيفاً على ظاهرهما ، وعندئذ ارتدت عنهما رغماً عنها . كانتا تبدوان عظيمتي البطش ، عديمتي الرحمة ، ومع ذلك فقد كانتا مطبقتين في تنورتها ، كسيرتين للغاية ، عاجزتين تماماً .

أكان من المحتمل أن يكون قد سمع وصدق الكذبة المستحيلة عن سكارلت وآشلي فأصبح غيوراً؟ أجل فلقد غادر المدينة فوراً بعد انكشاف الفضيحة ـ لا ، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك ! فالكابتن بتلر دائم السفر فجأة ، ولم يكن بوسعه أن يصدق الإشاعة فهو رجل عاقل جداً . ولو كان ذلك سبب المشكلة أما كان حاول قتل آشلي؟ أو طلب إيضاحاً على الأقل؟

لا ، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك ، لا بد أنه كان ثملاً وعليلاً من الإجهاد ، وكان عقله ذاهلاً كرجل هاذ يصرح بنزوات غريبة . ليس بوسع الرجال أن يتحملوا الإجهاد كالنساء . لقد أثاره شيء ما . ربما كان قد اشتبك مع سكارلت في نزاع صغير ثم كبُر . ربما كانت بعض الأشياء الرهيبة التي قالها حقيقة . ها ، ولكن لا تلك الأخيرة حتماً ! فليس بوسع رجل أن يقول شيئاً كهذا إلى امرأة يحبها كما يحب هذا الرجل سكارلت . لم تكن ميلاني قد رأت شراً أو قسوة ، والآن وقد رأتهما للمرة الأولى وجدت فيهما أمرين لا يدركهما العقل أبداً بحيث لا يمكن تصديقهما . كان ثملاً عليلاً ولا بد من ملاطفة العليلين .

ـ «كفى ! كفى !» قالت بصوت خفيض «صه ، إني أفهم الآن» .

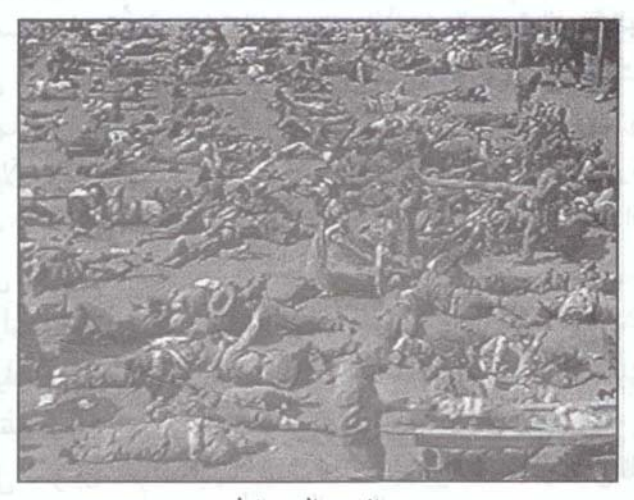
فرفع رأسه بعنف ، ونظر إليها بعينين محمرتين قاذفاً يديها عنه بشراسة .

ـ «لا والله إنك لا تفهمين ! بل إنك لا تستطعين فهماً . إنك ـ إنك طيبة جداً بحيث لا تستطيعين فهماً . إنك لا تصدقينني ، ولكن جميع ما قلته صدق وإني كلب . هل تعرفين لماذا فعلتها؟ لقد كنت مجنوناً ، مجنوناً من الغيرة ، ولم تكن هي تعبأ بي أبداً ، وظننت أن بوسعي أن أجعلها تعبأ . ولكنها لم تعبأ مطلقاً ، لم تحبني أبداً . لا لم تكن تحبني ، إنها تحب . .» .

وقابلت نظرته العاطفية السكرى نظرتها ، وانقطع عن الكلام وفمه مفتوح ، وكأنه قد تبيّن للمرة الأولى شخصية الذي كان يتحدث إليه . كان وجهها شاحباً مجهداً ، غير أن عينيها كانتا ثابتتين عذبتين مفعمتين بالشفقة وعدم التصديق . كانت هناك رصانة جلية فيهما . ولذعته البراءة في أعماقهما البنية

الناعمة كصفعة على الوجه، مزيلة أثر الكحول من دماغه، رادعة كلماته المجنونة المتدفقة وهي في نصف انطلاقها. وهكذا انخفض صوته إلى دمدمة، وأطرق بعينيه بعيداً عن عينيها ورف حاجباه بسرعة وهو يجاهد من أجل العودة إلى عقله «إني وغد»، دمدم مطرقاً برأسه المنهوك ثانية إلى حجرها «ولكن ليس وغداً كبيراً. وإن أنا أخبرتك فلن تصدقيني، أليس كذلك؟ إنك طيبة جداً بحيث لن يسعك تصديقي. إني لم أعرف من قبل أي إنسان طيب حقاً. لن تصدقيني، أليس كذلك؟».

ـ «لا، لن أصدقك» قالت ميلاني بلهجة ملطفة وقد بدأت تمسد شعره ثانية. «ستتحسن. كفى يا كابتن بتلر، لا تبك! ستتحسن».



حرب الشمال والجنوب

57

بدت امرأة عليلة نحيلة تلك التي أركبها ريت قطار جونسبورو بعد انقضاء شهر ، وكان ويد وإيلا ، اللذان كانا سيرافقانها في الرحلة ، صامتين قلقين من منظر وجه أمهما الشاحب الواجم ، وكانا يتمسكان بأهداب برسي ، لأنه ، حتى لعقليهما الصغيرين ، كان هناك شيء مرعب في الجو البارد غير الشخصي المخيم على العلاقة بين والدتهما وزوجها .

كانت سكارلت عائدة إلى بيتها في تارا وهي على ما عليه من ضعف . لقد شعرت أن روحها كانت ستنفق إن هي ظلت في أتلانتا يوماً آخر . وكما كانت قد هربت من أتلانتا فيما مضى أمام جيش غاز ، هكذا كانت تغادرها الآن ، دافعة متاعبها إلى مؤخرة عقلها بدفاعها القديم ضد الدنيا : «لن أفكر فيها الآن ، فلن أستطيع احتمالها إن فعلت ذلك . سأفكر فيها غداً في تارا ، فغداً يوم آخر ، وبدا كأنها إذا استطاعت العودة إلى السكينة وحقول القطن الخضراء في تارا ، فإن كل متاعبها ستزول عنها ، وستغدو نوعاً ما قادرة على صوغ أفكارها المشتتة في قالب تستطيع العيش به .

راقب ريت القطار إلى أن غاب عن الأنظار ، وقد كسا وجهه تأمل مرير ، ثم تنهد وصرف العربة وامتطى حصانه وسار في شارع آيفي باتجاه بيت ميلاني .

كانت ميلاني تجلس على الشرفة ، فغمرها الفزع والارتباك عندما رأت ريت يترجل عن حصانه ويقذف باللجام إلى ذراع الصبي الزنجي الواقف على جانب الممشى . ولم تكن ميلاني قد رأته على انفراد منذ ذلك اليوم الرهيب ، عندما كانت سكارلت في ذروة المرض ، وكان آنذاك شديد ـ شديد السكر ، الكلمة التي كانت ميلاني تمقت مجرد التفكير فيها . كانت قد تحدثت إليه عرضاً في أثناء نقاهة سكارلت ، وفي تلك المناسبات ، كانت تجد أن من الصعب مقابلة عينيه ، بينما كان هو على تهذيبه المعتاد ، ولم يظهر سواء ، بنظرة أو بكلمة ، أن مشهداً كذاك كان قد حدث بينهما . كان آشلي قد أخبرها فيما مضى أن الرجال لا يتذكرون معظم الأشياء المقولة أو المفعولة وهم سكارى ، ولذلك رحبت ميلاني من قلبها أن تكون ذاكرة ريت قد خانته فيما يتعلق بذلك

المشهد . وشعرت أنها تفضل أن تموت على أن تعرف أنه يتذكر تصريحاته . واجتاحها الجبن والارتباك وتخضبت وجنتاها بموجات من الألوان وهو يصعد الممشى . ولكن ربما كان مجيئه فقط ليسأل عما إذا كان بوسع بو أن يقضي النهار مع بوني ، إذ من الأكيد أنه لا ينعم بذوق رديء ليأتي ويشكرها على ما عملته في ذلك اليوم!

ونهضت لتستقبله ، ولاحظت مندهشة ، كما كان الحال دائماً ، خفة مشيته بالنسبة إلى رجل كبير الجثة .

ـ «ذهبت سكارلت؟» .

ـ «أجل ، ستفيدها تارا» قال مبتسماً «إني أفكر أحياناً أنها تشبه العملاق أنتيوس الذي كان يزداد قوة كلما لمس أمه الأرض . كذلك لا يوافق سكارلت أن تظل بعيدة مدة طويلة عن رقعة الطين الحمراء التي تحبها . إن منظر القطن سيفيدها أكثر من كل مقويات الدكتور ميد» .

ـ «ألن تجلس؟» قالت ميلاني ويداها ترتعشان . لقد كان هائل الضخامة ، طاغي الرجولة ، وكان الرجال الفحول يربكونها دائماً للغاية . كان يبدو أنهم يشعون قوة وحيوية ، ما كان يجعلها تشعر أنها أصغر وأضعف حتى مما هي عليه . كان ريت يبدو أدكن لا يقهر ، وكانت عضلات كتفيه القوية تبدو منتفخة داخل معطفه الكتاني الأبيض ، منتفخة بصورة أفزعتها . وبدا لها أن من المستحيل أن تكون قد رأت هذه القوة والجرأة تخضع أمامها . أجل كانت قد حملت ذلك الرأس الأسود في حجرها!

ـ «يا لله!» فكرت في يأس ، واحمر وجهها ثانية .

ـ «آنسة ميلي» قال بلطف «هل يزعجك وجودي؟ هل تفضلين ذهابي؟ أرجوك أن تكوني صريحة» .

ـ «آه» فكرت «إنه يتذكر! وهو يعرف مبلغ اضطرابي!» .

ونظرت إليه متوسلة ، فجأة تلاشى ارتباكها واضطرابها . كانت عيناه فائقتي السكينة ، عظيمتي الرحمة ، بالغتي الفهم ، بحيث أنها تساءلت كيف وسعها أن تكون شديدة الحماقة فتقلق منه . كان وجهه يبدو تعباً ، وفكرت بدهشة أن ما يشوبه كان أكثر من حزن قليل ، كيف وسعها أن تفكر بأنه سيكون سيئ التربية بحيث يتطرق إلى مواضيع كان كلاهما يفضلان نسيانها؟

ـ «يا له من مخلوق مسكين . لقد كان قلقاً جداً على سكارلت» فكرت ، ثم قالت بعد أن تصنعت ابتسامة .

ـ «اجلس يا كابتن بتلر» .

فجلس بتثاقل وراقبها وهي تتناول أدوات الرفإ :

ـ «آنسة ميلي ، لقد جئت لأسألك جميلاً عظيماً جداً و . .» وابتسم «لأُجنِّد عونك في خدعة أعرف أنك ستنقبضين منها» .

ـ «خد . . خدعة؟» .

ـ «أجل في الحقيقة ، لقد أتيت لأتحدث إليك بشأن عمل» .

ـ «يا لله ، إذاً فمن الأفضل أن ترى السيد ويلكس ، لأني جبانة جداً في موضوع العمل . إني لست حاذقة كسكارلت» .

ـ «إني أخشى أن تكون سكارلت بالغة الحذق بحيث تضر بمصالحها» قال «وذلك هو بالضبط ما أريد أن أتحدث به إليك . إنك تعرفين ما كان أشد مرضها . وعندما تعود من تارا ، فإنها ستباشر العمل ثانية في المخزن وذينك المعملين اللذين أرجو بإخلاص أن ينفجرا في إحدى الليالي . إني أخاف على صحتها يا آنسة ميلي» .

ـ «أجل ، إنها تتعب تعباً عظيماً . ينبغي أن تجعلها تكف عن العمل وتعتني بنفسها» فضحك .

ـ «إنك تعرفين ما أشد عنادها ، إني لم أحاول حتى مناقشتها . إنها تماماً كطفلة عنيدة ، ولن تدعني أساعدها ، بل لن تدع أي إنسان يساعدها . لقد حاولت أن أقنعها بأن تبيع حصتها في المعملين ولكنها لن تقنع . والآن يا آنسة ميلي ، لقد وصلت إلى موضوع العمل ، إني أعرف أن سكارلت يمكن أن تبيع بقية ربحها في المعملين إلى السيد ويلكس ، ولكن ليس لأي شخص آخر ، وإني أريد أن يبتاع السيد ويلكس ذلك منها» .

ـ «آه ! سيكون ذلك رائعاً ولكن . .» وصمتت ميلاني وعضت شفتها . لم يكن بوسعها أن تذكر قضايا المال إلى غريب . ورغم ما كان يجنيه زوجها من المعمل ، لم يكن يبدو أبداً أنها كانت وآشلي يملكان نقوداً كافية . وكدرها أنهما لم يكونا قد وفّرا سوى مبلغ زهيد جداً . ولم تكن تعرف أين كان يذهب المال . كان آشلي يعطيها ما يكفي لإدارة البيت ، ولكن عندما كان يصل الأمر

إلى النفقات الإضافية كانا يقتران . طبعاً لقد كانت فواتير أطبائها كثيرة جداً ، ثم إن الكتب والأثاث التي كان آشلي يطلبها من نيويورك كانت من ضمن المصاريف . وكذلك كانا قد أطعما وكسوا جماعة من المتشردين الذين كانوا ينامون في قبوهما . ولم يكن آشلي يشعر بإمكان رفضه تقديم أي قرض لأي رجل كان في جيش الحلف ، و . .» .

ـ «آنسة ميلي ، أريد أن أقرضك المال» قال ريت .

ـ «إن ذلك لطف بالغ منك ، ولكن قد لا نوفيه أبداً» .

ـ «إني لا أريد إيفاءه ، لا تغضبي علي يا آنسة ميلي ! أرجوك أن تسمعيني إلى أن أتم حديثي . إن معرفتي بأن سكارلت لن تنهك نفسها بالركوب أميالاً إلى المعملين كل يوم ، إن معرفتي هذه ستوفيني أكثر من حقي . وسيكون المخزن كافياً ليبقيها مشغولة وسعيدة . ألا تتبيّنين مرادي؟» .

ـ «الواقع ـ أجل ـ» قالت ميلاني مترددة .

ـ «إنك تريدين أن ينعم بو بفرس صغيرة ، أليس كذلك؟ وتريدين أن يذهب إلى الجامعة وإلى هارفرد وإلى أوروبا في رحلة عظيمة؟» .

ـ «ها ، طبعاً» قالت ميلاني ووجهها يشرق ، شأنها دائماً عند ذكر بو «إني أريد أن ينعم بكل شيء ولكن ـ على كل حال ، كل إنسان فقير جداً هذه الأيام بحيث . .» .

ـ «إن بوسع السيد ويلكس أن يجمع مبلغاً من النقود من المعملين في يوم ما» قال ريت «كما أني أحب أن أرى بو ينعم بكل الامتيازات التي يستحقها» .

ـ «آه ، كابتن بتلر ، يا لك من داهية !» صاحت مبتسمة «تلتجئ إلى فخر أم ! إن بوسعي أن أقرأك ككتاب» .

ـ «آمل ألاّ يكون الأمر كذلك» قال ريت ، وللمرة الأولى شعت عيناه ببريق «هل تسمحين لي بأن أقرضك المال؟» .

ـ «ولكن أين تأتي الخدعة؟» .

ـ «ينبغي أن نكون متآمرين ونخدع كلا سكارلت والسيد ويلكس معاً» .

ـ «يا لله ! لا أستطيع !» .

ـ «إذا عرفت سكارلت أني تآمرت من وراء ظهرها ، حتى ولو كان ذلك من أجل مصلحتها ـ على كل حال ، إنك تعرفين طبعها ، كما أني أخشى أن

يرفض السيد ويلكس أي قرض أعرضه عليه . ولذلك ينبغي أن لا يعرف كلاهما من أين ستأتي النقود» .

ـ «ها ، ولكني واثقة من أن السيد ويلكس لن يرفض إذا فهم القضية ، إنه مولع جداً بسكارلت» .

ـ «أجل ، إني واثق من ذلك» قال ريت بنعومة «ولكنه سيرفض رغم ذلك . إنك تعرفين عظم كبرياء الويلكسيين» .

ـ «يا لله !» صاحت ميلاني «إني أتمنى ـ في الحقيقة يا كابتن بتلر ، أنا لا أستطيع أن أخدع زوجي» .

ـ «حتى ولو كان ذلك في سبيل مساعدة سكارلت؟» وبدا ريت متألماً جداً «المولعة جداً بك؟» .

فارتعشت الدموع على جفون ميلاني .

ـ «إنك تعرف أني على استعداد لفعل كل شيء في الوجود من أجلها . إني لا أستطيع أبداً ، أبداً ، أن أوفيها نصف ما تستحق على ما صنعت من أجلي . إنك تعرف» .

ـ «أجل» قال بإيجاز «إني أعرف ما صنعته من أجلك . ألا تستطيعين أن تخبري السيد ويلكس أن النقود قد أورثتيها في وصية أحد أقربائك؟» .

ـ «ها ، كابتن بتلر ، ليس لي قريب يملك سنتاً يجلب له البركة !» .

ـ «إذاً ، إن أنا أرسلت النقود إلى السيد ويلكس في البريد دون تعريفه بمرسلها فهل تحرصين على أن تستعمل لشراء المعملين ، وليس لتبدد على حلفيين سابقين معوزين» .

بدت ميلاني في أول الأمر متألمة من كلماته الأخيرة ، وكأنها كانت تتضمن نقداً لآشلي . غير أن ريت ما لبث أن ابتسم ابتسامة تنم عن فهم بحيث أن ميلاني ردت الابتسامة بمثلها .

ـ «طبعاً سأحرص» .

ـ «تقرر الأمر إذاً؟ سيكون هذا سراً بيننا؟» .

ـ «ولكني لم أكتم سراً عن زوجي أبداً !» .

ـ «إني واثق من ذلك يا آنسة ميلي» .

وفيما هي تنظر إليه ، فكرت كما كانت دائماً مصيبة في موقفها منه ، وكم

كان كثير من الناس مخطئين . لقد قال الناس إنه كان متوحشاً ساخراً سيئ الخلق ، وحتى خائناً ، مع أن الكثير من كرامهم يقرون الآن بأنهم كانوا مخطئين . حسناً ! لقد عرفت منذ البداية ، بالضبط ، أنه كان رجلاً طيّباً ، ولم تكن قد رأت منه أي شيء سوى ألطف المعاملة ، والتفكير الرصين ، والاحترام المطلق ، والفهم العميق . ثم ما كان أعظم حبه لسكارلت ، ما كان أجملها منه أن يداور لتخفيف عبء عن سكارلت ، عبء من الأعباء التي كانت ترهقها !

وبدفق دافع من الشعور قالت : «إن سكارلت محظوظة لنوالها زوجاً طيّباً جداً معها !» .

ـ «أتظنين كذلك؟ إني أخشى أن لا توافقك على رأيك إذا ما تمكنت من سماعك . هذا فضلاً عن أني أريد أن أكون طيّباً معك أيضاً يا آنسة ميلي . إني معطيك أكثر مما أنا معط سكارلت» .

ـ «أنا؟» استوضحت مشدوهة «ها تعني «بو»» .

فتناول قبعته ونهض ، ووقف هنيهة ينظر إلى الوجه الساذج الشبيه بشكل القلب ، ذي الهامة الطويلة الشبيهة بهامة الأرملة ، وذي العينين الوقورتين ، وجه غير دنيوي ولا يملك مقومات دفاعية ضد الحياة .

ـ «لا ، ليس لبو ، إني أحاول أن أعطيك شيئاً أكثر قيمة من بو ، إذا ما استطعت تصور ذلك» .

ـ «لا ، لا أستطيع» قالت مشدوهة ثانية «لا يوجد شيء في الدنيا أثمن من بو في نظري سوى ـ السيد ويلكس» .

فلم يقل ريت شيئاً ، بل نظر إليها ووجهه الأسمر ساكن .

ـ «إنك طيب للغاية ، حتى إنك تريد صنع جميل معي يا سيد بتلر . غير أني في الحقيقة سعيدة جداً إذ أنعم بكل شيء في الدنيا يمكن أن تشتهيه امرأة» .

ـ «هذا رائع» قال ريت وقد تجهم وجهه فجأة «وإني عازم على أن أراك تحتفظين بأشيائك» .

*

كان الشحوب الناجم عن المرض قد غادر وجه سكارلت عندما عادت من تارا ، وكانت وجنتاها متكورتين موردتين قليلاً ، كما كانت عيناها الخضراوان

يقظتين براقتين ثانية . وللمرة الأولى منذ أسابيع ضحكت بصوت مرتفع ، وذلك عندما كان ريت وبوني يستقبلانها وويد وإيلا في المحطة .

وفي طريقهم إلى البيت ، بدت سكارلت زاخرة بأنباء الولاية ، كان الطقس الحار الجاف ينمي القطن بسرعة فائقة بحيث كان بوسع المرء أن يلمس ذلك بوضوح . ولكن ويل قال إن أسعار القطن ستكون منخفضة هذا الخريف . سولين ستضع وليداً آخر . تهجأت سكارلت هذه العبارة كيما لا يفهمها الأطفال . إيلا أظهرت روحاً غير عادية في عض كبرى بنات سولين ، مع أنه ، لاحظت سكارلت ، لم يكن ذلك أكثر مما تستحق سوسي الصغيرة ، لأنها كانت شبيهة بأمها تماماً . غير أن سولين اغتاظت واشتبكتا في شجار كان نظير شجارات الأوقات القديمة . ويد قتل أفعى مائية ، ولقد قام بذلك وحده ، رندة وكاميليا تارلتون أضحتا معلمتي مدرسة ، أولم يكن ذلك مدعاة للفكاهة؟ إذ لم يكن أحد من آل تارلتون قادراً على تهجئة لفظة قطة ! بتسي تارلتون كانت قد تزوجت رجلاً بديناً ذا ذراع واحدة من لفجوي ، وكانا وهيتي وجيم تارلتون ينتجون محصولاً جيّداً من القطن في فيرهل . السيدة تارلتون كانت تنعم بفرس ولأدة ومهر ، وكانت سعيدة وكأنها تملك مليون دولار . كان هناك زنوج في بيت كالفرت القديم ! جماهير منهم ، لقد كانوا يملكونه في الحقيقة ، بعد أن ابتاعوه في مزاد عمدة البلدة .

وظلت سكارلت تثرثر مبتهجة ، إلاّ أنه كان هناك أمور كثيرة عن الولاية لم تصرّح بها ، أمور تؤلم إن هي فكرت فيها . كانت قد تجولت في الولاية برفقة ويل ، محاولة أن تتذكر متى كانت هذه الألوف من الفدادين الخصبة تمتد خضراء بالقطن . أما الآن فإن المزرعة تلو المزرعة تنقلب إلى أحراج وإلى حقول موحشة من نبات الحلفا . وكان السنديان العقيم والصنوبر القصير قد نميا خلسة حول الأنقاض الصامتة ، وفوق حقول القطن القديمة ، فدان واحد فقط كان يزرع الآن حيث كانت مائة فدان تفلح فيما مضى . لقد كانت الجولة بمثابة تنقل خلال أرض ميتة .

ـ «هل حدث شيء هنا؟» سألت عندما بلغوا البيت أخيراً وجلسوا في الشرفة الأمامية . كانت قد تحدثت بسرعة وبتتابع طول الطريق إلى البيت ، خشية أن يخيم عليهما صمت . ولم تكن قد تكلمت مع ريت كلمة واحدة

على انفراد منذ اليوم الذي تدحرجت فيه على السلم ، ولذلك لم تكن متلهفة أبداً على أن تنفرد وإياه الآن .

ـ «هل كل شيء على ما يرام؟» كررت سؤالها «هل اشتريت العوارض للمخزن؟ هل بادلت البغال؟ من أجل الله يا ريت انزع هاتين الريشتين من قبعتك . إنك تبدو أحمق بهما ، ومن المحتمل أن تبقيهما إلى داخل المدينة دون أن تتذكر أن تنزعهما» .

ـ «لا» قالت بوني متناولة قبعة والدها بغاية دفاعية .

ـ «كل شيء كان يسير على ما يرام هنا» أجاب ريت «لقد نعمت وبوني بوقت طيب ، وإني لا أعتقد أن شعرها مشط منذ غادرتنا . أجل إن العوارض مثبتة ، كما أني أجريت مقايضة رابحة على البغال . لا ، لا يوجد أنباء جديدة في الحقيقة ، فكل شيء على حالته السابقة تماماً» .

ثم أضاف كفكرة طارئة «لقد كان آشلي الشريف هنا في الليلة الماضية . كان يريد أن يعرف إن كنت أعتقد أنك يمكن أن تبيعيه معملك ونصيبك من الربح في معمله» .

فما كان من سكارلت ، التي كانت تهتز مع الكرسي الهزاز وتهوي لنفسها بمروحة ، إلاّ أن توقفت عن ذلك فجأة :

ـ «أبيع؟ من أي مكان في الدنيا حصل آشلي على نقود؟ إنك تعرف أنهم لا يملكون سنتاً واحداً ، فميلاني تصرفها حالما يجنيها» .

فهز ريت كتفيه استنكاراً وقال «لقد كنت أعتقد دائماً أنه إنسان مقتصد ، ولكني ، من ناحية أخرى ، لست مطلعاً على التفاصيل العائلية للويلكسيين كما يبدو أنك مطلعة» .وبدا أن تلك الطعنة كانت تحمل شيئاً من أسلوب ريت القديم ، ولذلك ازداد انزعاج سكارلت .

ـ «اذهبي من هنا يا عزيزتي» قالت لابنتهما بوني «فأمك تريد أن تتحدث إلى أبيك» .

ـ «لا» قالت بوني بتصميم ، وصعدت إلى حضن ريت .

فكشرت سكارلت في وجهها ، ولكن بوني ردت بتكشيرة شبيهة تماماً بتهجم جيرالد أوهارا بحيث كادت سكارلت أن تضحك .

ـ «دعيها تبقى هنا» قال ريت مطمئناً «أما من أين حصل على النقود ، فيبدو

أنها أرسلت إليه من قبل شخص كان قد مرّضه في أثناء نوبة جدرية في جزيرة رك ، إن مما يجدد ثقتي بالطبيعة الإنسانية أن أعرف أن ذلك العرفان بالجميل ما زال موجوداً» .

ـ «من ذلك الشخص؟ أتعرفه؟» .

ـ «كانت الرسالة غفلاً من أي توقيع ، وقد جاءت من واشنطن ، وحار آشلي في معرفة من يمكن أن يكون مرسلها . ولكن على كل حال ، إن إحدى طبائع آشلي الأثيرة تدور حول العالم ، تقوم بأعمال صالحة كثيراً ، بحيث لا يسعك أن تتوقعي منه أن يتذكرها جميعاً» .

لو لم تدهش بنبإ حظ آشلي غير المتوقع ، لتحدّت ريت مع أنها كانت قد قررت في أثناء وجودها في تارا ، أنها لن تدع نفسها تتورط في شجار مع ريت بسبب آشلي ، فأرض هذه القضية التي كانت تقف عليها كانت مريبة للغاية ، ولم تكن لتبالي في أن تخرج منها إلى أن عرفت تماماً أين كانت تقف من كلا الرجلين .

ـ «هو يريد شراء حصتي؟» .

ـ «أجل ، ولكن طبعاً ، لقد أخبرته بأنك لن تبيعي» .

ـ «أرجو أن تدعني أهتم بعملي» .

ـ «الواقع ، إنك تعرفين أنك لن تفترقي عن المعملين . لقد أخبرتك بأنه يعرف كما أعرف أنا ، أنك لا تستطيعين احتمال عدم كون أصبعك في فطير كل إنسان ، وإن أنت بعته فلن يكون بوسعك أن تخبريه عندئذ كيف يجب أن يهتم بعمله» .

ـ «هل جرؤت على قول ذلك له عني؟» .

ـ «ولم لا؟ إنه قول صحيح ، أليس كذلك؟ وأعتقد أنه أيدني قلبياً ، ولكن طبعاً ، لقد كان فاضلاً جداً بحيث لم يكشف أو يصرح بذلك» .

ـ «إنها كذبة ! سأبيعها له !» صاحت سكارلت غاضبة .

وحتى تلك اللحظة ، لم يكن لديها أية فكرة عن التخلي عن المعملين ، بل كان لديها عدة أسباب لوجود الاحتفاظ بهما . وكان أقل هذه الأسباب هو قيمتهما المالية ، فقد كان بوسعها أن تبيعهما لقاء مبالغ طائلة في أي وقت خلال السنين القليلة الأخيرة ، ولكنها كانت قد رفضت جميع العروض ، لأن

المعملين كانا الشهادة الحسية على ما كانت قد قامت به دون معين وفي وجه جميع الظروف الشاذة ، ولقد كانت فخورة بهما وبنفسها . وأكثر من ذلك ، لم تكن تريد أن تبيعهما لأنهما كانا الممر الوحيد المفتوح ، والموصل إلى آشلي . فإذا ما ذهب المعملان من تحت إدارتها ، فإن ذلك يعني أنها نادراً ما سترى آشلي ، وربما لن تراه على انفراد أبداً ، بينما كان يجب أن تراه على انفراد ، إذ لم يعد بوسعها أن تستمر على هذه الحالة مدة أخرى ، أن تستمر متسائلة عما كان شعوره نحوها الآن ، متسائلة عما إذا كان كل حبه قد مات في العار منذ ليلة حفلة ميلاني الرهيبة . إن بوسعها في سياق العمل أن تجد فرصاً سانحة كثيرة للحديث معه ، دون أن يظهر لأي إنسان أنها كانت تطلبه . ومع سنوح الوقت ، كانت تعرف أن بوسعها استعادة أية مكانة كانت قد فقدتها في قلبه ، بينما هي باعت المعملين . .

لا ، إنها لا تريد أن تبيع ولكنها ، مدفوعة باعتقادها بأن ريت كان قد كشف عن حقيقتها لآشلي في صدق وصراحة ، أجمعت رأيها فوراً على أنه ينبغي أن يشتري آشلي المعملين ، وبثمن زهيد جداً بحيث لا يسعه إلاّ أن يتبيّن كم كانت كريمة .

ـ «سأبيع !» صاحت حانقة «فما رأيك بذلك؟» .

وبرقت عينا ريت بأبهت شعاع ظفر وهو ينحني ليعقد شريط حذاء بوني .

ـ «أظن أنك ستندمين على فعلتك» .

كانت تشعر بالندم على كلماتها السريعة . لو أنها صرحت بها لإنسان آخر غير ريت ، لسحبتها دون حياء . لماذا انفجرت على تلك الصورة؟ ونظرت إلى ريت بتكشيرة غاضبة ورأت أنه كان يراقبها بنظرته الحاذقة القديمة ، الشبيهة بنظرة قطة تتربص عند حجر فأر . وعندما رأى تكشيرتها ضحك فجأة ولمعت أسنانه البيضاء . وشعرت سكارلت شعوراً غير أكيد أنه كان قد احتال عليها وقادها إلى هذه النقطة .

ـ «هل كان لك أي علاقة بهذا الأمر؟» انفجرت سائلة .

ـ «أنا؟» وارتفع حاجباه في دهشة ساخرة «ينبغي أن تعرفيني معرفة أفضل . إني لا أذهب حول العالم للقيام بأعمال صالحة إذا استطعت تجنب ذلك» .

تلك الليلة ، باعت سكارلت المعملين وكل ربحها فيهما لآشلي ، ولم تتحسر بسبب ذلك ، لأن آشلي رفض أن يستفيد من عرضها الزهيد الأول

ووافق على أعلى ثمن كانت دائماً تذكره أمامهم» .

وبعد أن وقعت الأوراق ، وخرج المعملان نهائيّاً من يدها ، وأخذت ميلاني تقدم كؤوس خمر صغيرة لآشلي وريت ، احتفالاً بعملية البيع ، عندئذ شعرت سكارلت بالثكل وكأنها باعت أحد أولادها .

ـ «آه ، ليلعن الله ريت !» . فكرت وفيما كانت تراقبه ، ازدادت قناعتها بأنه كان في أساس كل هذا الأمر . أما كيف ولماذا فلم تكن تعرف ، كان يتحدث إلى آشلي ، ونبهتها كلماته بحدة :

ـ «أظن أنك ستعيد الأشقياء فوراً» .

يعيد الأشقياء؟ لماذا ينبغي أن تكون هناك أية فكرة عن إعادتهم؟ لقد كان ريت يعرف تمام المعرفة أن الأرباح الطائلة من المعملين كانت تنتج عن عمل الأشقياء الرخيص ! ثم لماذا كان ريت يتكلم بمثل ذلك الوثوق عما ستكون إجراءات آشلي في المستقبل؟ ماذا كان يعرف منه؟

ـ «أجل سيعودون حالاً» أجاب آشلي متجنّباً نظرة سكارلت الساكنة الحائرة .

ـ «هل فقدت عقلك؟» صاحت «ستخسر جميع النقود في عقد الإيجار . وأي نوع من العمال يمكن الحصول عليهم ، على أي حال؟» .

ـ «سأستخدم زنوجاً محررين» قال آشلي .

ـ «زنوجاً محررين ! هراء ! إنك تعرف ماذا ستكلفك أجورهم ! فضلاً عن أنك ستجد الشماليين فوق عنقك في كل دقيقة ليروا إذا كنت تقدم لهم دجاجاً ثلاث مرات يوميّاً وتدفعهم إلى النوم تحت لحف . وإن أنت ضربت زنجيّاً خمولاً ضربتين لتحثه على العمل فإنك ستسمع صياح الشماليين من هنا إلى دالتون ، وستزج في السجن . إن الأشقياء هم الوحيدون الذين . .» .

فأطرقت ميلاني بنظرها إلى حجرها ، إلى يديها المتشابكتين ، وبدا آشلي يائساً ولكنه مصمم ، وظل صامتاً لهنيهة ، ثم قابلت عيناه عيني ريت ، وبدا كأنه وجد فهماً وتشجيعاً في نظرته . . إنها نظرة لم تفت على سكارلت .

ـ «إني لن أشغل أشقياء يا سكارلت» قال بهدوء .

ـ «حسناً يا سيدي» قالت وقد اختنق نفسها «ولم لا؟ هل أنت خائف من أن يتحدث الناس عنك كما يتحدثون عني؟» .

فرفع آشلي رأسه .

ـ «لست خائفاً مما يقوله الناس طالما أني على صواب ، غير أني لم أشعر أبداً أن تشغيل الأشقياء صواب» .

ـ «ولكن لماذا . .» .

ـ «ليس بوسعي أن أجني المال من عمل الآخرين الإجباري وبؤسهم» .

ـ «ولكنك كنت تملك عبيداً !» .

ـ «لم يكونوا بائسين ، بالإضافة إلى أني كنت سأحررهم جميعاً بعد وفاة والدي ، لو أن الحرب لم تكن قد حررتهم قبل ذلك . ومع ذلك فإن الأمر مختلف يا سكارلت . إن نظام تشغيل الأشقياء قابل لانتهاكات كثيرة جداً ، ربما لا تعرفينها ولكني أعرفها . إني أعرف جيداً أن جوني كاليغر قتل رجلاً على الأقل في معمله ، وربما أكثر . . ومن يهتم بشقي واحد ، وبأكثر أو أقل؟ لقد قال إن الرجل قتل وهو يحاول الهرب ، ولكن ذلك ليس ما سمعته في مكان آخر . كما أني أعرف أنه يشغل الرجال الذين يكونون مرضى جداً بحيث لا يستطيعون عملاً . سميها خرافة ، ولكني لا أعتقد أن السعادة تأتي من نقود ناتجة عن عذاب الآخرين» .

ـ «يا لله ! إنك تعني . . يا لله يا آشلي ! أتصدق جميع خوارات الأب المحترم ولاس فيما يتعلق بالنقود المدنسة؟» .

ـ «لم يكن علي أن أرفضها ، فقد كنت أعتقد بها قبل أن يعظ بها بوقت طويل» .

ـ «إذاً ، لا بد أنك تعتقد أن جميع نقودي مدنسة» صاحت سكارلت وقد شرعت في الغضب «لأني شغلت أشقياء وأملك حانة و . .» وسكتت فجأة وقد بدا كلا الويلكسين متضايقين ، بينما كان ريت يبتسم ابتسامة عريضة . . ليلعنه الله ، هجست سكارلت بحدة ، إنه يفكر أني أضع أصبعي في فطائر الناس الآخرين ثانية ، وكذلك آشلي ، إني أرغب في أن أصدم رأسيهما معاً ! وبلعت سخطها وحاولت أن تتصنع مظهراً انعزالياً وقوراً ولكنها لم تنجح إلاّ قليلاً .

ـ «طبعاً ، إن ذلك غير مهم بالنسبة إلي» قالت .

ـ «سكارلت ، لا تعتقدي أني أنتقدك ! لا ، لست كذلك ، وإنما القضية أننا ننظر إلى الأشياء من زاويتين مختلفتين ، والذي هو حسن في نظرك يمكن أن لا

يكون كذلك في نظري» .

وفجأة تمنت أن لو كانا وحيدين ، تمنت أن لو كان ريت وميلاني في طرف الدنيا ، كيما تستطيع أن تصرخ : «ولكني أريد أن أنظر إلى الأشياء من الزاوية التي تنظر منها أنت ! أخبرني فقط ماذا تعني ، كيما أستطيع أن أفهم وأكون مثلك !» .

ـ «إني واثقة من أن هذا هو عملك الخاص يا آشلي ، ولقد غدا من البعيد على أن أخبرك كيف تديره ، ولكن لا بد لي من القول إني لا أفهم نواياك ولا ملاحظاتك» .

آه ، لو أنهما كانا وحيدين ، حتى لا ترغم على قول هذه العبارات الباردة له ، هذه الكلمات التي كانت تشعره بالتعاسة !

ـ «لقد أسأت إليك يا سكارلت ولم أكن أقصد ذلك . ينبغي أن تصدقيني وتسامحيني . لا يوجد شيء غامض فيما قلته ، بل فقط إني أعتقد أن المال الذي يأتي بطريقة معينة نادراً ما يجلب السعادة» .

ـ «ولكنك مخطئ» صاحت بعد أن لم يعد بوسعها كبح جماحها «انظر إلي ، إنك تعرف كيف أتت نقودي ، وتعرف كيف كانت الأحوال قبل أن أجمع نقودي ! إنك تتذكر ذلك الشتاء في تارا ، عندما كان الجو شديد البرودة ، وكنا نمزق السجاد لنصنع منه نعالاً ، ولم يكن هناك ما يكفي للأكل ، وقد اعتدنا على التساؤل كيف سنؤمن للصغير بو ويد تعليمهما ، إنك تتذكر . .» .

ـ «إني أتذكر» قال آشلي تعباً «ولكني أفضل أن أنسى» .

ـ «على كل حال ليس بوسعك أن تقول إن أياً منا كان سعيداً آنئذ ، أليس كذلك؟ ثم انظر إلينا الآن ! إنك تملك بيتاً جميلاً ومستقبلاً طيباً . وهل يملك أحد بيتاً أجمل من بيتي أو ثياباً أظرف أو خيولاً أروع؟ وليس هناك من يقدم مائدة حافلة مثلي أو يقيم حفلات أفخم من حفلاتي ، كما أن أولادي ينعمون بكل ما يريدون . والآن كيف حصلت على المال لأجعل كل ذلك ممكناً؟ من الأشجار؟ لا يا سيدي ! من طريق الأشقياء ومن إيجارات الحانة و . .» .

ـ «ولا تنسي قتل ذلك الشمالي» قال ريت «فقد أعطاك في الحقيقة المبلغ الذي بدأت به» .

فالتفتت سكارلت نحوه بسرعة والكلمات الساخطة على شفتيها .

ـ «ولقد جعلتك النقود سعيدة جداً ، جداً ، أليس كذلك يا حبيبتي؟» سأل بلهجة عذبة مسموعة .

سكتت سكارلت لأنها لم تحر جواباً ، وبدا أنها لسبب ما لم تستطع الكلام .

لاحظت سكارلت، خلال الفترة التي أعقبت مرضها، تغيّراً في ريت، غير أنها لم تكن واثقة تماماً من أنها ارتاحت إلى هذا التغير. لقد أصبح صاحياً هادئاً قلق البال، يداوم على تناول العشاء في البيت أكثر من السابق. وأصبح ألطف مع الخدم وأكثر حدباً على ويد وإيلا ولم يكن يشير إلى شيء في ماضيهما، ساراً كان أم غير سار. وصار يبدو أنه يتحداها بصمت أن تتطرق إلى مواضيع كهذه. وتعلقت سكارلت بالسلام لأنه كان أدعى إلى الطمأنينة أن تركن إلى العافية. وهكذا استمرت الحياة ناعمة إلى درجة كافية، في الظاهر. وغدا لطفه غير الشخصي تجاهها، ذلك اللطف الذي بدأ خلال فترة نقاهتها، يستمر الآن، ولم يعد يقذفها بعبارات لاذعة بطيئة خبيثة، أو يلسعها بتهكمه. وأدركت الآن أنه، مع أن ريت كان قد أغاظها بملاحظاته الحقودة وأثارها إلى حد أن دفعها إلى الرد الجارح عليه، إلاّ أنه كان قد فعل ذلك لأنه كان يهتم بأي شيء كانت تفعله. لقد كان مهذباً عديم الاهتمام، ولذا افتقدت اهتمامه، مع أنه كان اهتماماً شريراً، كما افتقدت الأيام القديمة، أيام النزاع والمشاحنات.

كان ساراً لها الآن كما لو أنها كانت غريبة تقريباً، ولكن، كما كانت عيناه تتبعانها فيما مضى، كانتا تتبعان بوني الآن، وبدا كأن فيض حياته السريع قد حول الآن إلى قناة ضيقة واحدة. وكانت سكارلت تفكر أحياناً أنه لو أن ريت كان قد منحها نصف العناية والعطف اللذين كان يغمر بهما بوني لاختلفت حياتها عما كانت. لقد كان من الصعب أحياناً أن تبتسم عندما كان الناس يقولون: «ما أعظم حب الكابتن بتلر لتلك الطفلة!» ولكن إن هي لم تبتسم، فإن الناس يستغربون ذلك. وكانت تكره أن تعترف، حتى لنفسها، بأنها كانت غيورة من البنت الصغيرة، خصوصاً لأن تلك البنت الصغيرة كانت طفلتها المحبوبة. لقد كانت سكارلت تريد دائماً أن تكون الأولى في قلب المحيطين بها، وكان من الواضح الآن أن ريت وبوني سيكونان أولين في قلب كل منهما للآخر.

كان ريت يعود متأخراً إلى البيت في ليال كثيرة، غير أنه كان يعود صاحياً

في هذه الليالي ، وغالباً ما سمعته يصفر صفيراً ناعماً لنفسه وهو يعبر القاعة ماراً ببابها المغلق . وكان أحياناً يصطحب معه رجالاً إلى البيت في الساعات المتأخرة ليجلسوا ويتحدثوا في غرفة الطعام حول قارورة البراندي . ولم يكن هؤلاء ذات الرجال الذين كان قد شاركهم الشراب في سنة زواجهما الأولى ، إذ لم يكن يأتي البيت بدعوة منه الآن أحد من الكاربت بغرز أو السكالاواغز أو الجمهوريين الأغنياء . وكانت سكارلت تتسلل على رؤوس أصابعها إلى درابزين القاعة العليا وتصغي ، والذي كان يدهشها أنها كثيراً ما كانت تسمع أصوات رينيه بيكارد وهيو ألسنغ وأبناء سيمونز وإندي بونل ، كما كان هناك دائماً غراندبا ميريويذر والعم هنري . ومرة سمعت صوت الدكتور ميد ، الأمر الذي أدهشها . هؤلاء الرجال الذين كانوا يعتقدون فيما مضى أن الإعدام عقاب رحيم جداً لريت .

كانت هذه الجماعة مرتبطة دائماً بموت فرانك في عقل سكارلت . وكذلك كانت الساعات المتأخرة التي كان ريت يظل خارج البيت خلالها ، كانت تذكرها أكثر ، بالأوقات التي سبقت غزوة الكلان ، حينما فقد فرانك حياته . وتذكرت بذعر عبارة ريت من أنه سيلتحق حتى بالكلان في سبيل أن يصبح محترماً . مع أنه كان يرجو أن لا يضع الله كفارة ثقيلة على كتفه . هب أن ريت ، كفرانك . .» .

وفي إحدى الليالي ، عندما تأخر خارج البيت أكثر من المعتاد ، لم يعد بوسعها أن تتحمل توتر أعصابها . وحالما سمعت قرقعة مفتاحه في قفل الباب ألقت على جسدها دثاراً وذهبت إلى القاعة العليا المضاءة بالغاز وقابلته عند أعلى الدرج ، وإذ رآها هناك تحولت سحنته الشاردة المفكرة إلى دهشة :

ـ «ريت ! ينبغي أن أعرف ! ينبغي أن أعرف ما إذا كنت . . إذا كان الكلان . . سبب تأخرك إلى هذا الساعة؟ هل تنتمي . .» .

وفي ضوء الغاز المتماوج ، نظر إليها دونما استغراب ثم ابتسم :

ـ «إنك خلف الأحداث بمسافة طويلة» قال «لا يوجد كلان في أتلانتا الآن ، ربما ولا في جورجيا . لقد كنت تصغين إلى قصص اعتداءات الكلان من أصدقائك السكالاواغز والكاربت بغرز» .

ـ «لا يوجد كلان؟ هل أنت تكذب لتحاول تهدئتي» .

ـ «عزيزتي ، متى حاولت تهدئتك؟ لا ، لا يوجد كلان الآن ، لقد قر رأينا على أن تلك الجمعية ضرت أكثر مما نفعت ، لأنها كانت تبقي الشماليين في حالة هياج ، كما كانت تؤمن مؤونة أكثر إلى مطحنة كذب فخامة الحاكم بولوك ، لأنه يعرف أن بوسعه أن يظل في الحكم طالما أنه قادر على إقناع الحكومة الاتحادية وصحف الشماليين بأن جورجيا تغلي بالثورة ، وبأن هناك كلاني يختبئ خلف كل شجرة . وهكذا في سبيل أن يظل في الحكم فإنه يختلق باستماتة قصص اعتداء الكلان ، حيث لا يوجد شيء منها ، ويدعي أن جمهوريين مخلصين علقوا من إبهاماتهم ، وأن زنوجاً شرفاء اقتص منهم ظلماً بتهمة اغتصاب الأعراض . غير أنه يطلق النار على هدف لا وجود له ، الأمر الذي يعرفه . إني أشكرك على خوفك علي ، ولكن لا يوجد كلان فعلي من بعد أن انقطعت عن حياة السكالاواغز وأصبحت ديموقراطياً متواضعاً بوقت قصير» .

عبر معظم ما قاله عن الحاكم بولوك من إحدى أذنيها ليخرج من الأخرى ، لأن عقلها تملكه الفرح بصفة خاصة إذ عرفت بأن لا وجود للكلان الآن ، وأنه لن يقتل ريت كما قتل فرانك ، وأنها لن تخسر مخزنها أو نقودها . إلا أن كلمة واحدة من حديثه طفت إلى قمة عقلها ، لقد قال «نحن» رابطاً نفسه بصورة طبيعية بأولئك الذين كان قد دعاهم فيما مضى بـ«الحرس القديم» .

ـ «ريت» قالت فجأة «هل لك علاقة بانهيار الكلان؟» .

فرمقها بنظرة طويلة ثم شرعت عيناه في الرقص :

ـ «محبوبتي ، أجل . فآشلي ويلكس ، وأنا هما المسؤولان الرسميان عن ذلك الحدث» .

ـ «آشلي . . وأنت؟» .

ـ «أجل ، حقيقة مبتذلة ولكنها صادقة ، فالسياسة تشكّل ضجعاء غريبين ، ولكن ـ لم يكن آشلي يؤمن بالكلان أبداً ، لأنه ضد العنف من أي نوع ، كما أنني لم أكن أؤمن بالكلان أبداً ، لأنها حماقة ملعونة ، وليست الطريقة لنيل ما نريد ، بل إنها الطريقة الوحيدة لإبقاء الشماليين فوق رقابنا إلى أن تحين الملكوت . وبجهودي وجهود آشلي أقنعنا الرؤوس المتحمسة بأن الترقب

والانتظار والعمل ستوصلنا إلى أبعد مما توصلنا إليه قمصان الليل والصلبان النارية(*) .

ـ «إنك لا تعني أن الشبان أخذوا بنصيحتك حقاً عندما كنت . .» .

ـ «عندما كنت مضارباً؟ سكالاواغ؟ شريك الشماليين؟ إنك تنسين يا سيدة بتلر أنني الآن ديموقراطي في مركز حسن ، مخلص حتى آخر نقطة من دمي لاستعادة ولايتنا المحبوبة من أيدي مغتصبيها . لقد كانت نصيحتي جيدة فقبلوها ، كما أن نصائحي في قضايا سياسية أخرى جيدة كتلك . ونحن نملك أغلبية ديموقراطية في المجلس التشريعي الآن ، أليس كذلك؟ وسريعاً يا حبيبتي سيكون هناك بعض أصدقائنا الجمهوريين الطيبين خلف قضبان السجن ، إنهم جشعون جداً هذه الأيام ، وكرام جداً» .

ـ «أستساعد على زجهم في السجن؟ لقد كانوا أصدقاءك ! سمحوا لك بأن تدخل في تعهد بناء سكة الحديد ، ذلك التعهد الذي كسبت منه ألوفاً !» .

فابتسم ريت فجأة ابتسامته القديمة الساخرة .

ـ «ها ، إني لا أحمل لهم أية نية سيئة ، إلاّ أني في الجانب الآخر الآن ، وإذا كان بوسعي أن أساعد بأي وسيلة على وضعهم حيث يستحقون فسأفعل ذلك ، وما أعظم ما سيعيد إلي ذلك سمعتي الطيبة ! إني أعرف الكثير عن بواطن هذه الصفقات التي ستكون معرفتها قيمة جداً عندما يبدأ المجلس التشريعي في نبشها ـ ولن يكون ذلك في وقت بعيد . أقول ذلك استناداً إلى ظواهر الأمور الآن . سوف يستجوبون الحاكم أيضاً ، وسيزجونه في السجن إذا ما استطاعوا . ومن الأفضل أن تخبري أصدقاءك الطيبين : آل جلرت وآل هدسن ، بأن يستعدوا لمغادرة المدينة عند أدنى إنذار ، لأنهم إذا استطاعوا القبض على الحاكم فسيقبضون عليهم أيضاً .

كانت سكارلت قد رأت الجمهوريين طيلة سنين عديدة يتولون السلطة في جورجيا ، مدعومين بقوة الجيش الشمالي ، بحيث لم يسعها أن تصدق كلمات ريت . لقد كان الحاكم مدعوماً بقوة ، بحيث لن يسع أي مجلس تشريعي أن يقوم بأي شيء ضده ، وبالأحرى ، أن يضعه في السجن .

(*) إشارة إلى ما كان يلبسه الكلان وما يرفعونه في أيديهم .

ـ «كيف أنك تسترسل في حديثك!» .

ـ «إذا لم يوضع في السجن ، فعلى الأقل لن يعاد انتخابه ، سوف ننتخب حاكماً ديموقراطياً بدلاً منه في الدورة القادمة» .

ـ «وأظن أنه سيكون لك علاقة بذلك؟» استوضحت بتهكم .

ـ «أجل سيكون يا مدللتي . إن لي علاقة بالموضوع الآن ، وذلك هو سبب تأخري ليلاً . إني أشتغل بجد أكثر مما كنت أعمل يوم كنت أشتغل بمجرفة في انطلاقة الذهب ، وذلك في محاولة جعل الانتخاب منظماً وـ إني أعرف أن ذلك سيؤلمك يا سيدة بتلر ، ومع ذلك فإني أكرس كثيراً من المال للمنظمة أيضاً . هل تذكرين أنك أخبرتني منذ سنين في مخزن فرانك أنه كان من العار علي أن أحتفظ بذهب الحلف؟ ها لقد وصل بي المطاف أخيراً إلى أن أوافقك على رأيك ، وها هو ذهب الحلف ينفق لإعادة الحلفيين إلى السلطة» .

ـ «إنك تصب النقود في ثقب جرذ!» .

ـ «ماذا! تدعين الحزب الديموقراطي ثقب جرذ؟» وسخرت عيناه منها ، ثم انقلبتا هادئتين عديمتي التعبير «لا يهمني أبداً من سيكسب هذ الانتخاب ، إن ما يهمني هو أن يعرف كل إنسان أني عملت من أجل ذلك ، وأني أنفقت نقوداً في سبيل ذلك ، الأمر الذي سيذكره الناس في صالح بوني في السنين القادمة» ـ «لقد كنت أخاف حديثك التقي القائل بأن قلبك سيتغير ، ولكني أرى الآن أنك لا تدين بأي إخلاص إلى الديموقراطيين أكثر من إخلاصك لأي شيء آخر» .

ـ «لم يتغير قلبي مطلقاً ، بل تغير جلدي فقط . ربما يمكنك أن تمسحي البقع من جلد نمر أرقط ، إلا أنه سيظل نمراً رغم ذلك» .

استيقظت بوني جراء الأصوات في القاعة ، فنادت وهي ناعسة ، ولكن بلهجة آمرة :

ـ «بابا» وأسرع ريت إليها متجاوزاً سكارلت .

ـ «ريت ، انتظر دقيقة . هناك شيء آخر أريد أن أخبرك به . ينبغي أن تكف عن اصطحاب بوني إلى الاجتماعات السياسية في الأمسيات ، لأن وجود بنت صغيرة في مواطن كهذه يبدو عديم اللياقة ، كما أن اصطحابها يجعلك تبدو أحمق للغاية . لم أكن أحلم أبداً بأنك كنت تأخذها معك إلى أن ذكر ذلك

العم هنري أمامي ، وكأنه كان يعتقد أني أعرف و . .» .

فاستدار نحوها بسرعة ووجهه متجهم :

ـ «كيف يسعك أن تخطّئي جلوس فتاة صغيرة في حضن والدها وهو يتحدث إلى أصدقائه؟ يمكن أن تعتقدي أن ذلك يبدو حماقة ولكنها ليست حماقة . إن الناس سيتذكرون طيلة سنين أن بوني كانت تجلس في حضني بينما كنت أساعد في طرد الجمهوريين من الولاية . سيتذكر الناس طيلة سنين» وزال التجهُّم عن وجهه وراح ضوء حقود يرقص في عينيه «هل تعرفين أنه عندما يسألها الناس من تحب أكثر فإنها تجيب : بابا والديموقراطيين ، ومن تكره أكثر ، فتقول : (السكالاواغز) شكراً لله ، إن الناس يتذكرون أموراً كهذه» .

فارتفع صوت سكارلت غاضباً :

ـ «أظن أنك تخبرها أني سكالاواغز !» .

ـ «بابا !» نادى الصوت الصغير ، ساخطاً الآن . وقطع ريت القاعة إلى غرفة ابنته وهو لا يزال يضحك .

*

في تشرين الأول/ أكتوبر من تلك السنة ، استقال الحاكم بولوك من منصبه وهرب من جورجيا ، ذلك أن سوء استعمال الأموال العامة ، والتبذير والفساد ، كانت قد بلغت حداً كبيراً خلال ولايته ، بحيث أن الصرح كاد يقع بحمله . وحتى حزبه انشق على نفسه ، وبلغ سخط الشعب حداً عظيماً . كان الديموقراطيون يتمتعون بالأغلبية في المجلس التشريعي الآن ، الأمر الذي كان يعني شيئاً واحداً وحسب ، ذلك أن بولوك ، وقد عرف أنه سيستجوب وخاف من مناقشة الحساب ، لم ينتظر ، بل أسرع في الهرب سراً ، مرتباً الأمور بحيث لا تعلن استقالته إلاّ وقد أصبح آمناً في الشمال .

وعندما أذيع نبأ الاستقالة ، بعد فراره بأسبوع ، عم الهرج والسرور أتلانتا ، واحتشد الناس في الشوارع ،وراح الرجال يضحكون ويتصافحون مهنئين بعضهم بعضاً ، والسيدات يتبادلن القبلات ويبكين فرحاً . وأقام الجميع الولائم احتفاء ، وظلت دائرة الإطفاء مشغولة في مكافحة النيران التي كانت تنتشر جراء حرائق الصغار المبتهجين .

لقد خرجوا من المحنة تقريباً ! لقد انتهى التجديد على وجه التقريب . فرغم

أن من المؤكد أن الحاكم بالنيابة كان جمهورياً أيضاً ، فإن الانتخاب كان قادماً في كانون الأول/ ديسمبر ، ولم يكن هناك شك عند أي إنسان في ما ستكون عليه النتيجة . وعندما حان الانتخاب ، ورغم جهود الجمهوريين المحمومة ، نعمت جورجيا بحاكم ديموقراطي مرة أخرى .

عم الفرح عندئذ والهرج أيضاً ، ولكن ذلك كان من نوع يختلف عن ذاك الذي تملك المدينة عندما ولى پولوك الأدبار . لقد كان هذا فرحاً قلبيّاً رزيناً ، شعوراً نفسيّاً عميقاً بتقديم الشكر . وامتلأت الكنائس بالمصلين فيما كان القسس يشكرون الله خاشعين على خلاص الولاية . كان هناك اعتزاز أيضاً ممزوج بالعجب والابتهاج ، فخر لأن جورجيا عادت إلى أيدي أبنائها ثانية ، رغم جميع ما كانت تستطيع فعله السلطة في واشنطن ، ورغم الجيش والكاربت بغرز والسكالاواغز والمواطنين الجمهوريين .

سبع مرات ، كان الكونغرس قد صادق على قوانين ساحقة ضد الولاية لإبقائها مقاطعة محتلة ، وثلاث مرات كان الجيش قد جمد القانون المدني ، وكان الزنوج قد عبثوا بالمجلس التشريعي ، والأجانب المسيطرون قد أساؤوا إدارة الحكومة ، والأفراد الخصوصيون قد أثروا من الأموال العامة . لقد كانت جورجيا عاجزة ، معذبة ، منتهكة مداسة ، ولكنها الآن ، رغم أنوف أعدائها جميعاً ، عادت إلى نفسها ثانية ، وبفضل جهود أبنائها .

وعندما تطلعت سكارلت حولها في عيد ميلاد عام ١٨٧١ ، أهنأ أعياد الميلاد التي عرفتها الولاية منذ أكثر من عشر سنين ، أحست بالجزع ، إذ لم تستطع إلاّ أن تلاحظ أن ريت ، الذي كان فيما مضى أمقت رجل في أتلانتا ، أصبح الآن أحد أحب الرجال ، لأنه كان قد استنكر انحرافاته الجمهورية بتواضع ، وكرس وقته وماله وجهده وفكره لمساعدة جورجيا في شق طريقها إلى النصر . ولذا فعندما كان يركب في الشوارع مبتسماً ، ومميلاً قبعته ، وابنته الصغيرة ، الزرقاء الملابس بوني ، مثبتة على السرج أمامه كان كل شخص يرد له الابتسامة ويتحدث إليه بحماسة ، وينظر بحنان إلى البنت الصغيرة . بينما كانت سكارلت . .

59

كانت بوني بتلر تنطلق بطيش وكانت بحاجة إلى يد حازمة ، غير أنها كانت محبوبة جداً من الجميع ، بحيث لم يكن أحد يملك القلب ليحاول الحزم المطلوب . كانت قد خرجت عن السيطرة أول مرة خلال الأشهر التي سافرت فيها مع والدها . فعندما كانت برفقة ريت في نيو أورليانز وشارلستون ، كان قد سمح لها بأن تظل سهرانة إلى الوقت الذي يطيب لها ، فأخذت تنام بين ذراعيه في المسارح والمطاعم وعلى طاولات لعب الورق . منذ ذلك الحين ، لم يكن بوسع شيء ، غير الحزم ، أن يجعلها تأوي إلى فراشها في الوقت ذاته مع إيلا المطيعة . وحينما كانت مسافرة برفقته كان ريت قد سمح لها بارتداء أي ثوب تختاره ، ومنذ ذلك الوقت ، وهي تثور عندما تحاول مامي إلباسها حللاً من البفتة الهندية بدلاً من التفتا الزرقاء والياقات المزركشة .

وبدا أنه لم يكن هناك طريقة لاستعادة الأساس ، الذي كان قد فقد والطفلة بعيدة عن البيت ، وكذلك في أثناء مرض سكارلت فيما بعد ، وانتقالها إلى تارا ، وبينما كانت بوني تزداد سناً ، كانت سكارلت تحاول أن تخضعها للنظام ، تحاول أن تمنعها من أن تصبح عنيدة مفسودة جداً ، ولكن بنجاح قليل ، إذ كان ريت يقف إلى جانب الطفلة دائماً ، مهما كانت رغباتها حمقاء ومهما كان سلوكها مشيناً . كان يشجعها على الحديث ويعاملها كإنسان راشد ، ويصغي لآرائها بجدية واضحة ، ويتظاهر بأنه يسترشد بتلك الآراء . وكنتيجة لذلك ، صارت بوني تقاطع من هم أكبر منها سناً كلما طاب لها ذلك ، وتعارض والدها وتوقفه عند حده ، وكان هو لا يزيد على أن يضحك دون أن يسمح لسكارلت حتى بصفع يدها على سبيل الزجر .

ـ «لو أنها لم تكن مخلوقة محبوبة عذبة ، ، لكانت لا تطاق» فكرت سكارلت ساخطة وقد أدركت أن لها بنتاً ذات إرادة كإرادتها «إنها تحب ريت وبوسعه أن يجعلها تسلك سلوكاً أفضل إذا هو أراد» .

إلاّ أن ريت لم يكن يظهر أي ميل لجعل بوني تحسن سلوكها ، فمهما عملت كان صواباً ، وإن هي أرادت القمر ، فبوسعها نيله إن استطاع الوصول

إليه في سبيلها . لقد كان اعتزازه بجمالها ، بجعدات شعرها ، بغمازتيها ، بإشاراتها الرقيقة الصغيرة لا يحد . كان يحب سلطتها ومعنوياتها العالية ، وطريقتها العذبة في إظهار حبها له . وكانت بوني ، رغم جميع أساليبها العنيدة الفاسدة طفلة محبوبة ، بحيث كان يعوزه القلب ليحاول ردعها . لقد كان هو محور عالمها الصغير ، وكان ذلك الأمر قيماً جداً بالنسبة إليه ، لا يقوى على المخاطرة بخسرانه إن هو عنفها .

وكان مما يطرب سكارلت ويهزها رؤية اليد الحديدية التي كانت ابنتها الصغيرة تحكم بها والدها . من كان يفكر أن ريت ، من بين جميع الناس ، سيتحلى بالأبوّة بهذه الجدية؟ غير أن سكارلت كانت تشعر أحياناً بوخزة حسد ، لأن بوني ، التي كانت تبلغ الرابعة من عمرها ، كانت تفهم ريت أفضل مما فهمته هي ، ولأنها كانت تستطيع أيضاً أن تديره أحسن مما كانت تديره هي .

وعندما بلغت بوني سنتها الرابعة ، شرعت مامي تدمدم عن عدم اللياقة في ركوب بنت على «سرج أمام والدها وثوبها يتطاير» ، وأعار ريت أذناً صاغية لهذه الملاحظة ، كما كان يفعل حيال جميع ملاحظات مامي المتعلقة بتنشئة الفتيات الصغيرات ، وهكذا ظهرت النتيجة في شرائه لمهر اسكتلندي صغير أبيض وبني ذي عرف وذيل ناعمين طويلين ، وسرج جانبي ذي تخاريج فضية . وكان المهر في الظاهر للأولاد الثلاثة ، ولذلك ابتاع ريت سرجاً لويد أيضاً ، على أن هذا كان يفضل كلبه الذي كان من نوع سانت برنارد على المهر ، بينما كانت إيلا تخاف جميع الحيوانات إلى درجة كبيرة . وهكذا أصبح المهر خاصّاً ببوني وسمي «السيد بتلر» . وغدت الثغرة الوحيدة في سرور بوني هي أنها لم يعد بوسعها الركوب مفرشخة كأبيها ، ولكن بعد أن أوضح لها ريت كم كان الركوب الجانبي أصعب من ذاك ، اقتنعت وتعلمت بسرعة وصار اعتزاز ريت بجلستها الصحيحة ويديها الماهرتين عظيماً جداً .

ـ «انتظري إلى أن تصبح كبيرة تستطيع الصيد «كان يتفاخر» لن يوجد أحد مثلها في أي حقل . وسآخذها إلى فرجينيا عندئذ ، هناك حيث يجري الصيد الحقيقي ، وإلى كنتكي حيث يقدرون الراكبين المهرة» .

وعندما وصل الأمر لصنع ثوب ركوبها ، نعمت كالعادة بحقها في اختيار

الألوان ، وكالعادة اختارت اللون الأزرق .

هكذا نعمت بوني بثوبها المخمل الأزرق مع تنورة كانت تتدلى على جانب المهر ، وقبعة سوداء ذات ريشة حمراء ، لأن قصص الخالة ميلي عن ريشة جب ستيوارت كانت قد علقت بخيالها ، وهكذا أضحى من الممكن رؤية الاثنين في الأيام المشرقة الصافية راكبين في شارع بيتشتري وريت يكبح عنان فرسه السوداء الكبيرة ليجاري مشية المهر البدين . وكانا أحياناً ينطلقان بسرعة في الطرقات الهادئة في المدينة ، مفرقين الدجاج والكلاب والأولاد ، بينما بوني تضرب «السيد بتلر» بسوطها وخصلات شعرها المجعدة تتطاير ، وبينما ريت قابض على فرسه بيد حازمة ، بحيث كان يمكن للمرء أن يعتقد بأن «السيد بتلر» هو الذي كسب السباق .

وبعد أن طمأن ريت نفسه عن جلستها ، عن يديها ، عن عدم خوفها المطلق ، قرر أن الوقت قد حان لتتعلم القيام بالقفزات المنخفضة التي كانت في مقدور قوائم «السيد بتلر» القصيرة . ومن أجل هذه الغاية ابتنى ريت حاجزاً من العيدان المشبكة في الساحة الخلفية ، وعين ووش ، أحد أبناء شقيقة العم بطرس الصغار ليدرب «السيد بتلر» على القفز لقاء أجرة يومية مقدارها خمسة وعشرون سنتاً . وبدأ ووش عمله بحاجز مرتفع بوصتين عن الأرض واستمر تدريجاً إلى ارتفاع قدم .

إلاّ أن هذا التدبير قوبل باستنكار الفرقاء الثلاثة المعنيين بالأمر ، أكثر من غيرهم وهم : ووش والسيد بتلر وبوني . فووش كان يخشى الخيل ولم يقنعه بتمرين المهر العنيد للقفز عبر الحاجز عشر مرات في اليوم ، سوى المبلغ الضخم المغري الذي كان يدفع له ، وأما السيد بتلر الذي كان يتحمل ، برباطة جأش ، شد ذيله من قبل سيدته الصغيرة ، وفحص حواجزه باستمرار ، فإنه كان يشعر بأن خالق الأمهار لم يكن قد قصد منه أن يضع جسده السمين فوق الحاجز ، بقيت بوني التي لم يكن بوسعها احتمال رؤية أي إنسان آخر يركب مهرها ، فإنها كانت ترقص جزعاً بينما كان السيد بتلر يتلقى دروسه .

وعندما قرر ريت أخيراً أن المهر صار يعرف عمله معرفة جيدة تكفي لتأمين بوني فوق صهوته ، كان انفعال الطفلة عظيماً جداً ، ثم قامت بقفزتها الأولى بسرور بالغ ، ومن ثم أضحى الركوب مع والدها خارج البيت لا يحمل أي

سحر لها . ولم يسع سكارلت سوى الضحك على كبرياء الأب وابنته وحماستهما . ومهما كان الأمر ، فقد اعتقدت بأنه إذا ما انقضت جدّة هذا الشيء ، فإن بوني ستلتفت إلى أشياء أخرى وسينعم الجيران ببعض الطَمأنينة . غير أن هذه الرياضة لم تفقد بهجتها ، وأضحى هناك ممر مداس يمتد من العريشة في نهاية الساحة الخلفية البعيدة إلى الحاجز ، وطوال الصباح كانت الساحة تتصادى بصيحات ثائرة قال عنها غراندبا ميريويذر ، الذي كان قد قام بالرحلة البرية عام ١٨٤٩ ، إنها كانت كصيحات أحد أفراد قبيلة آباش بعد عملية ناجحة جداً .

وبعد الأسبوع الأول التمست بوني إقامة حاجز أكثر ارتفاعاً ، حاجز يرتفع قدماً ونصف قدم عن الأرض .

ـ «عندما تصبحين في السادسة من عمرك» قال ريت «عندئذ تصبحين كبيرة جداً بحيث تستطيعين قفز قفزة أعلى ، وإذ ذاك سأشتري لك حصاناً أكبر لأن قوائم السيد بتلر ليست طويلة كما ينبغي» .

ـ «بلى ، إنها طويلة . لقد قفزت عن شجيرات وردة العمة بيتي ، التي هي شديدة الارتفاع !» .

ـ «لا ، يجب أن تنتظري» قال ريت بحزم ، ولمرة واحدة ، غير أن الحزم تلاشى تدريجاً قبل إلحاحها وثورتها المتتابعين .

ـ «ها ، حسناً» قال ضاحكاً صباح أحد الأيام . ورفع الحاجز الأبيض الضيق إلى الأعلى .

ـ «إذا ما وقعت ، فلا تبكي وتلوميني» .

ـ «أماه !» صاحت بوني رافعة رأسها نحو غرفة نوم سكارلت «أمي ! راقبيني ، إن بابا يقول إن بوسعي ذلك !» .

فجاءت سكارلت ، التي كانت تمشط شعرها ، إلى النافذة وابتسمت إلى الشخص المنفعل الصغير الذي كان يبدو بالغ الحماقة بثوبه الأزرق الملوث بالتراب .

ـ «ينبغي في الحقيقة أن أخيط لها ثوباً آخر» فكرت سكارلت «مع أن الله وحده يعرف كيف سأدعها تتخلى عن ذلك الثوب القذر» .

ـ «أمي راقبيني» .

ـ «إني أراقبك يا عزيزتي» قالت سكارلت مبتسمة .

وفيما كان ريت يرفع الطفلة ويجلسها على المهر ، نظرت بدفق سريع من الكبرياء إلى الظهر المستقيم وإلى وضع الرأس الفخور .

ـ «إنك رائعة ، قيمة جداً!» .

ـ «وكذلك أنت» قالت بوني ، ثم ضربت صدر المهر بقدمها وانطلقت خبباً في الساحة نحو العريشة .

ـ «أمي ، راقبيني أقفز هذه القفزة!» صاحت وهي تضرب المهر بالسوط .

ـ «راقبيني أقفز هذه القفزة!» .

وقرعت الذكرى جرساً بعيداً جداً في عقل سكارلت . كان هناك شيء مشؤوم يتعلق بهذه الكلمات . ماذا كان ذلك الشيء؟ لماذا لم تستطع التذكر؟ ونظرت إلى ابنتها الصغيرة الجالسة بوزنها الخفيف جداً على المهر المنطلق خبباً ، وقطبت جبينها عندما اخترقت قشعريرة صدرها بسرعة ، ثم أقبلت بوني مندفعة وخصلات شعرها الأسود المجعد تتطاير وعيناها الزرقاوان تتألقان .

ـ «إنهما كعيني والدي» فكرت سكارلت «عينان إيرلنديتان زرقاوان ، كما أنها تشبهه في كل ناحية تماماً» .

وفيما هي تفكر بأبيها ، عادت إليها بسرعة الذكرى التي كانت تبحث عنها ، عادت بصفاء برق الصيف الآخذ بالقلوب ، قاذفة لهنيهة ، ريفاً كاملاً في بريق غير طبيعي . واستطاعت سكارلت أن تسمع صوت إيرلندي يغني ، وأن تسمع الوقع الشديد السريع لحوافر تصعد تلة المرعى في تارا ، وأن تسمع صوتاً طائشاً ، شبيهاً جداً بصوت ابنتها «إيلين ! راقبيني أقفز هذه القفزة !» .

ـ «لا!» صاحت «لا ! قفي يا بوني !» .

وتماماً فيما هي تنحني من النافذة ، سمعت صوتاً رهيباً صادراً عن تحطيم خشب ، وصرخة حزينة من ريت ومزق مخمل أزرق وحوافر جارية على الأرض ، ثم رأت «السيد بتلر» يزحف ليقف على قوائمه وينطلق خبباً بالسرج الشاغر .

*

في الليلة الثالثة بعد وفاة بوني ، كانت مامي تتهادى ببطء وهي تصعد درجات مطبخ بيت ميلاني . كانت ترتدي السواد ، ابتداء من نعليها الشبيهين

بأحذية الرجال والمشقوقين ليمنحا الحرية لأصابع قدميها ، إلى عمامة رأسها السوداء . وكانت عيناها النديتان بالدموع ملتهبتين محمرتي الحدقتين ، وكانت التعاسة تصرخ في كل عضو من جسدها الضخم ، وكان وجهها متغضّناً في حيرة محزنة ، حيرة قرد عجوز ، ولكن كان هناك تصميم في لحييها .

وتحدثت بكلمات رقيقة إلى دلسي التي أطرقت رأسها بلطف ، وكأن هدنة مكتومة فرضت على نزاعهما القديم . وأنزلت دلسي طباق العشاء التي كانت تحملها وسارت بهدوء عبر غرفة المؤنة تجاه غرفة الطعام . وبعد دقيقة ، حضرت ميلاني إلى المطبخ وفوطتها في يدها والقلق في وجهها .

ـ «ليست الآنسة سكارلت . .» .

ـ «إن الآنسة سكارلت تتذرع بالصبر ، ككل واحد منا» قالت مامي بتثاقل «لم أكن أقصد أن أفسد عليك عشاءك يا آنسة ميلي ، وبوسعي أن أنتظر ، إلى أن تفرغي من الطعام كي أخبرك ماذا يدور بخلدي» .

ـ «بوسع العشاء أن ينتظر» قالت ميلاني «دلسي ، قدمي بقية العشاء ، وتعالي معي يا مامي» .

فتهادت مامي خلفها في القاعة ، وتجاوزتا غرفة الطعام حيث كان يجلس آشلي على رأس المائدة ، وإلى جانبه ابنه بو الصغير ، وفي مقابلهما ولدا سكارلت ، والجميع يخرجون قرقعة عظيمة بملاعق الحساء . وكان صوتا ويد وإيلا السعيدين يملآن الغرفة . فقد كان قضاء زيارة طويلة كهذه مع العمة ميلي بمثابة نزهة لهما ، إذا كانت العمة ميلي لطيفة جداً معهما ، وخصوصاً الآن ، ولم يؤثر موت شقيقتهما الصغرى فيهما إلا قليلاً جداً ، كانت بوني قد وقعت عن مهرها وقد ظلت أمهما تبكي وقتاً طويلاً ، وكانت العمة ميلي قد اصطحبتهما إلى بيتها ليلعبا مع بو في الساحة الخلفية وليتناولا كعك الشاي أنى شاءا .

قادت ميلاني مامي إلى غرفة الجلوس المليئة برفوف الكتب وأغلقت الباب وأشارت إليها أن تجلس على الكنبة .

ـ «لقد كنت ذاهبة هناك بعد العشاء فوراً» قالت «الآن ، وقد أتت والدة الكابتن بتلر ، فإني أظن أن الجنازة ستكون صباح الغد» .

ـ «الجنازة ، تلك هي المشكلة بعينها» قالت «آنسة ميلي ، إننا جميعاً في

ورطة عظيمة ، ولقد جئت طلباً لمساعدتك . ليس هناك سوى العبء المنهك يا حلوتي ، لا شيء سوى العبء المنهك» .

ـ «هل انهارت الآنسة سكارلت؟» استوضحت ميلاني بقلق «لم أرها إلاّ نادراً منذ وفاة بوني ـ كانت في غرفتها ، وكان الكابتن بتلر خارج البيت و . .» .

وفجأة طفق الدمع يجري على وجه مامي الأسود ، فجلست ميلاني بجانبها وربتت على ذراعها ، وبعد لحظة رفعت مامي طرف تنورتها السوداء وجففت عينيها .

ـ «عليك أن تأتي لمساعدتنا يا آنسة ميلي . لقد بذلت جهدي ولكن ذلك لم يجد» .

ـ «الآنسة سكارلت . .» .

واستقامت مامي بجلستها .

ـ «آنسة ميلي ، إنك تعرفين الآنسة سكارلت جيّداً كما أعرفها . ليمنح الله الطيب القوة لهذه الطفلة لتتحمل ما ينبغي أن تتحمله . إن هذه القضية الحاضرة حطمت قلبها ، ومع ذلك فهي تستطيع تحملها ، ولقد أتيت من أجل السيد بتلر» .

«كنت شديدة الرغبة في رؤيته ، ولكن كلما كنت هناك كلما كان إما في المدينة أو موصداً باب غرفته مع . . وكانت سكارلت تبدو كشبح ولم تكن لتتحدث . . أخبريني بسرعة يا مامي ، فأنت تعرفين أني سأساعد إذا ما استطعت» .

مسحت مامي أنفها بظاهر يدها .

ـ «إني أقول إن بوسع الآنسة سكارلت أن تحتمل ما قضاه الله ، فلقد كان عليها أن تحتمل الكثير . ولكن السيد بتلر ـ يا آنسة ميلي ، لم يكن عليه أن يتحمل شيئاً لم يرد أن يتحمله ، ولا أي شيء . وهو الذي أتيت لأراك من أجله» .

ـ «ولكن ـ» .

ـ «آنسة ميلي ، عليك أن تأتي إلى البيت معي هذا المساء» كان هناك إلحاح في صوت مامي «فمن المحتمل أن يصغي لك السيد بتلر . إنه دائماً يقدر رأيك كثيراً» .

ـ «ها مامي ، ماذا هناك؟ ماذا تعنين؟» .

فشمخت مامي برأسها .

ـ «آنسة ميلي ، إن السيد ريت ـ إنه فقد عقله . إنه لن يدعنا ندفن الآنسة الصغيرة» .

ـ «فقد عقله؟ ها ، لا يا مامي» .

ـ «إني لا أكذب . . إنها الحقيقة والله . إنه لن يدعنا ندفن تلك الطفلة ، لقد أخبرني ذلك بنفسه ، ليس قبيل أكثر من ساعة» .

ـ «ولكن لا يستطيع . . إنه ليس . .» .

ـ «وذلك هو السبب في قولي إنه فقد عقله» .

ـ «ولكن لماذا . .» .

ـ «آنسة ميلي ، سأخبرك كل شيء . كان ينبغي أن لا أخبر أحداً ، ولكنك قريبتنا ، كما أنك الشخص الوحيد الذي أستطيع إخباره . سأخبرك كل شيء . إنك تعرفين ما كان أعظم اهتمامه بتلك الطفلة . إني لم أر رجلاً ، أسود أم أبيض ، يهتم مثل هذا الاهتمام بأي طفل . وعندما قال الدكتور ميد إن عنقها قد دقت بدا كالمجنون تماماً ، فقد قبض على بندقيته وجرى من فوره إلى الخارج وقتل ذلك المهر المسكين . ويا لله ، لقد ظننت أنه سيقتل نفسه . لقد ذهلت تماماً ، حين كانت الآنسة سكارلت مغمياً عليها ، وكل الجيران يدخلون المنزل ويخرجون منه ، والسيد ريت ما انفك يحمل تلك الطفلة ولا يسمح لي حتى بغسل وجهها الصغير ، حيث كان الحصى قد جرحه . وعندما أفاقت الآنسة سكارلت ظننت ، يا لله المبارك ، ظننت أنهما سيواسيان الواحد الآخر» .

وثانية بدأت الدموع تنهمر على وجنتيها ، ولكن مامي لم تمسحها هذه المرة .

ـ «ولكن عندما أفاقت دخلت إلى الغرفة التي كان يجلس فيها ، حاملاً الآنسة بوني ، وقالت أعطني ابنتي التي قتلتها» .

ـ «ها ، لا ، لا تستطيع !» .

ـ «بلى ، كان ذلك ما قالته . لقد قالت : (إنك قتلتها) وشعرت بالحزن الشديد على السيد ريت بحيث إني انفجرت في البكاء ، لأنه كان يبدو ككلب مضروب ، ثم قلت : «أعط تلك البنت لمربيتها ، فإني لن أسمح بمناقشات كهذه على جثة آنستي الصغيرة» وأخذت الطفلة منه ، وذهبت بها إلى غرفتها وغسلت وجهها . ثم سمعتهما يتحدثان ، وكاد الذي سمعته أن يقتلني . كانت الآنسة سكارلت تدعوه قاتلاً لأنه سمح لها بالقفز عبر ذلك الحاجز المرتفع ،

وكان هو يقول إن الآنسة سكارلت لم تكن تهتم أبداً بالآنسة بوني ولا بأي من أولادها . . .» .

ـ «اسكتي يا مامي ! لا تخبريني أكثر من هذا ، وليس من الصواب أن تخبريني به !» . صاحت ميلاني وعقلها ينكمش بعيداً عن الصورة التي استدعتها كلمات مامي .

ـ «أنا أعرف أنه ليس من شأني إخبارك ، إلاّ أن قلبي طافح جداً بحيث لا أعرف ما لا ينبغي قوله . ثم أخذها بنفسه إلى حانوتي الدفن وأعادها ووضعها في سريرها في غرفته . وعندما قالت الآنسة سكارلت إنها يجب أن توضع في الردهة داخل الكفن ، ظننت بأن السيد ريت سيضربها ، إذ قال وقد بدا في غاية البرودة : «يجب أن توضع في غرفتي» والتفت إليّ وقال : «مامي ، احرصي على أن تظل هنا تماماً إلى حين عودتي» ثم غادر البيت على حصانه بخفة ، ولم يعد إلى حين الغروب تقريباً . وعندما عاد إلى البيت مسرعاً ، رأيت أنه كان شارباً ، وشارباً كثيراً ، ولكنه كان واعياً تماماً كعادته . فانطلق داخل البيت ، ولم يتكلم حتى مع الآنسة سكارلت أو الآنسة بيتي ، بل صعد الدرج بسرعة وفتح باب غرفته دفعاً ، ثم صاح يستدعيني . وعندما أتيت جرياً بأسرع ما أستطيع ، رأيته يقف بجانب السرير ، والغرفة مظلمة جداً بحيث إني لم أكد أراه لأن مصاريع الشبابيك كانت مغلقة ، ثم قال لي وقد بدا شرساً تماماً : (افتحي المصاريع ، إن الغرفة مظلمة) ففتحتها ، ونظر إلي . ويا لله يا آنسة ميلي ، لقد كادت ركبتاي تنهاران ، لأنه كان يبدو بصورة غريبة جداً ، ثم قال : «أحضري شموعاً كثيرة ، وأبقيها مضيئة ولا تسدلي الستائر ولا تغلقي المصاريع . ألا تعرفين أن الآنسة بوني تخشى الظلام؟» .

قابلت عينا ميلاني المذعورة عيني مامي ، التي أطرقت إطراقة الشؤم .

ـ «ذلك ما قاله (الآنسة بوني تخشى الظلام) .

وارتجفت مامي .

ـ «وعندما أحضرت له دزينة شموع قال «اخرجي !» ثم أقفل الباب وجلس هناك مع الآنسة الصغيرة ، ولم يفتح الباب للآنسة سكارلت حتى عندما قرعته وصاحت به . وتلك هي الحال معه منذ يومين . إنه لم يذكر شيئاً عن الجنازة ، كما أنه يوصد الباب في الصباح ، ويركب حصانه ويذهب إلى المدينة ، ثم يعود

عند الغروب مخموراً ويغلق الغرفة على نفسه ثانية ، دون أن يأكل شيئاً أو ينام . والآن أتت أمه السيدة العجوز بتلر . . أتت من شارلستون لتحضر موكب الدفن ، كما أن السيدة سولين والسيد ويل حضرا من تارا ، ولكن السيد ريت لم يتكلم مع أي منهم . آه يا آنسة ميلي ، إن الأمر رهيب ! وستقع فضيحة ، وسيتحدث الناس أحاديث مشينة» .

ـ «وثم ، هذا المساء» وصمتت مامي ومسحت أنفها بظاهر يدها مرة ثانية «هذا المساء ، أوقفته الآنسة سكارلت في قاعة الطابق العلوي ، عندما دخل ، ودخلت الغرفة معه وقالت : (ستقام الجنازة صباح الغد) فأجابها : (افعلي ذلك وسأقتلك غداً» .

ـ «آه ، لا بد من أنه فقد عقله !» .

ـ «أجل يا سيدتي . ثم راحا يتحدثان بصوت خفيض ناعم بحيث لم أسمع ما قاله سوى أنه قال ثانية : (إن الآنسة بوني كانت تخشى الظلام ، وإن القبر مطبق الظلام) ، وبعد هنيهة ، قالت الآنسة سكارلت : (إنه لجميل منك أن تقول هذا بعد أن قتلتها لتشبع كبرياءك) فأجابها : (أليس لديك رحمة؟) وقالت هي : (لا ، ولن أحمل بأي طفل كذلك . كما أني تعبت من الطريقة التي تتصرف بها منذ وفاة بوني . إنك تفضحنا بنزولك إلى المدينة ، كما أنك ثمل طيلة الوقت . وإذا كنت تعتقد بأني لا أعرف أين تقضي أيامك فإنك أحمق . إني أعرف أنك تذهب إلى بيت تلك المخلوقة بيل وتلنغ» .

ـ «آه ، يا مامي ، !» .

ـ «أجل يا سيدتي ، ذلك ما قالته ، وإنها الحقيقة يا آنسة ميلي . إن الزنوج يعرفون كثيراً من الأشياء أسرع من الناس البيض . فقد كنت أعرف أين كان ، ولكني لم أقل شيئاً ، كما أنه لم ينكر ذلك ، إذ قال (أجل ، ذلك هو المكان الذي كنت فيه ، وليس عليك أن تقلقي ، لأنك لا تبالين مثقال ذرة ، إن بيت الفسق هو مأوى يلجأ إليه بعد بيت الجحيم هذا ، كما أن بيل تملك أحد أرحم قلوب الدنيا ، وهي لم تقذفني بتهمة قتل ابنتي) .

ـ «آه» صاحت ميلاني ، وقد أُصيبت في الصميم .

كان الذي أخبرتها به مامي تقريباً يتجاوز إدراكها أو تصديقها ، ومع ذلك فقد زحفت إلى عقلها ذكرى ، صورة أسرعت بإبعادها عنها ، كما كان يمكن

أن تبعد عنها فكرة شخص آخر عريان . كان ريت قد تحدث عن بيل وتلنغ في اليوم الذي بكى فيه ورأسه على ركبتها ، غير أنه كان يحب سكارلت ، ولا يمكن أن تكون قد خدعت ذلك اليوم ، وطبعاً لقد كانت سكارلت تحبه ، فما الذي حدث بينهما؟ كيف يسع زوجين أن يمزق كل منهما الآخر إرباً إرباً بسكاكين حادة كهذه؟

واستأنفت مامي كلامها ببطء :

ـ «وبعد هنيهة ، خرجت الآنسة سكارلت من الغرفة ، وهي شديدة الشحوب ، وعندما رأتني أقف هناك ، قالت (الجنازة ستكون غداً يا مامي ، ثم مرت بجانبي وقد بدت كشبح . ثم أحسست بقلبي يتلوى ألماً ، لأن سكارلت كانت تعني الذي قالته ، وكذلك كان ريت . وكان قد قال بأنه سيقتلها إذا هي فعلت ذلك . ووقعت في حيرة تامة يا آنسة ميلي ، فقد كان هناك شيء في ضميري طيلة الوقت . شيء كان يهدمني . آنسة ميلي ، لقد كنت أنا التي خوفت الآنسة الصغيرة من الظلام» .

ـ «ها ، ولكن يا مامي ، إن ذلك لا يهم . . . ليس الآن» .

ـ «بل إنه يهم ، تلك هي المشكلة تماماً . ولقد خطر لي أن من الأفضل أن أخبر السيد ريت حتى ولو قتلني ، لأن الأمر يثقل ضميري . ولذا انسبتُ عبر الباب بسرعة حقيقية قبل أن يستطيع إغلاقه وقلت : (لقد جئت لأعترف يا سيد ريت) ، فاستدار نحوي بسرعة ، كرجل مجنون ، وقال : (اخرجي!) ويا لله آنسة ميلي ، لم أشعر بحياتي بمثل ذلك الفزع ، ولكني قلت : (أرجوك يا سيدي ، دعني أخبرك ، إنها تكاد تقتلني ، لقد كنت أنا الذي قد خوفت الآنسة الصغيرة من الظلام) ، وبعدئذ يا آنسة ميلي أطرقت رأسي وانتظرت كي يضربني ، ولكنه لم يقل شيئاً ، فأردفت إذ ذاك : (لم أكن أقصد إيذاءها ، ولكن يا سيد ريت لم تكن تلك الطفلة تعرف الحذر ولم تكن تخاف شيئاً ، كما أنها كانت دائماً تظل خارج فراشها بعد أن ينام الجميع ، فتركض حول البيت عارية القدمين ، الأمر الذي كان يزعجني لأني خشيت أن تؤذي نفسها ، ولذلك أخبرتها بأنه يوجد أشباح وشحاذون في الظلام» .

ـ «وعندئذ . . . يا آنسة ميلي ، أتعرفين ماذا فعل؟ بدا وجهه لطيفاً للغاية واقترب مني ووضع يده على ذراعي ، وتلك هي المرة الأولى التي يفعل فيها

ذلك ، ثم قال : (لقد كانت شجاعة جداً أليس كذلك؟ باستثناء خوفها من الظلام لم تكن تخشى شيئاً) وعندما انفجرت في البكاء ، قال : (والآن يا مامي) وربت على كتفي ، (الآن يا مامي ، كفي عن البكاء . إني مسرور لأنك أخبرتني . إني أعرف أنك تحبين الآنسة بوني ، ولأنك تحبينها فإن ذلك لا يهم . إن الذي يهم هو الذي في القلب) والواقع أن ذلك اللطف أنعشني ، ولذلك خاطرت بالقول : (سيد ريت ، سيدي ، ماذا عن الجنازة؟) وعندئذ استدار نحوي كرجل متوحش وعيناه تتوهجان وقال : (يا لله الطيب ، كنت أعتقد أنك تفهمين الحقيقة حتى لو لم يفهمها أي إنسان آخر . هل تظنين بأني سأضع ابنتي في الظلام بينما هي تخاف الظلام خوفاً عظيماً؟ إن بوسعي الآن أن أسمع تماماً الكيفية التي اعتادت أن تزعق فيها عندما تستيقظ في الظلام ، وإني لن أدعها تخاف) . وعندئذ يا آنسة ميلي أدركت أنه فقد عقله . إنه كان مخموراً وكان يحتاج إلى النوم وإلى شيء يأكله ، غير أن ذلك لم يكن كل ما في الأمر . إنه مجنون تماماً . لقد دفعني خارج الباب وقال : (اخرجي من هنا إلى الجحيم !) .

«ونزلت إلى الطابق السفلي ، وكان علي أن أفكر بأنه قال إنه لن تقام جنازة وبأن الآنسة سكارلت قالت إنها ستقام صباح الغد ، وبأنه قال إن عملية قتل ستنجم عن ذلك . كان جميع الأقرباء في البيت وجميع الجيران يثرثرون وفكرت بك يا آنسة ميلي . ولذا فعليك أن تأتي لتساعدينا» .

- «آه يا مامي ، إني لا أستطيع التدخل» .

- «إن أنت لم تستطيعي ، فمن يستطيع إذاً؟» .

- «ولكن ماذا أستطيع أن أفعل يا مامي؟» .

- «إني لا أعرف يا آنسة ميلي ، ولكنك تستطيعين فعل شيء . تستطيعين أن تتحدثي إلى السيد ريت وقد يصغي إليك ، فهو يقدرك كثيراً يا آنسة ميلي . ربما لا تعرفين ذلك ولكنه يقدرك ، فلقد سمعته يقول مرة بعد مرة إنك السيدة العظيمة الوحيدة التي يعرفها .

- «ولكن . . .» .

ونهضت ميلاني على قدميها مضطربة ، وقلبها خائر من فكرة مجابهة ريت . لقد جعلتها فكرة مناقشة رجل مجنون من الحزن ، كذلك الرجل الذي صورته مامي ، تشعر بالبرد . وكذلك كانت تعصر قلبها فكرة دخول تلك

الغرفة المضاءة المتألقة حيث كانت ترقد الفتاة الصغيرة التي أحبتها حباً جماً. ماذا تستطيع أن تفعل؟ ما الذي تستطيع قوله لريت بحيث يخفف من حزنه ويعيده إلى المنطق؟ ولهنيهة، وقفت مترددة، وخلال الباب المغلق طرق سمعها صوت ضحك ابنها المقرون بضحك الولدين الآخرين. وكسكين بارد طعنت قلبها، جاءت فكرة كونه ميتاً. هب أن ابنها بو كان يرقد في الطابق العلوي وجسده الصغير بارد ساكن وضحكته الهانئة خرساء صامتة.

- «آه» صرخت مذعورة بصوت مرتفع، وقد قبضت على ابنها قريباً من قلبها في ذهنها. لقد عرفت كيف كان يشعر ريت. لو أن بو مات فكيف تستطيع أن تدفنه وحيداً مع الريح والمطر والظلام؟

- «آه يا للكابتن بتلر المسكين!» صاحت «سأذهب إليه الآن، الآن فوراً!».

وأسرعت عائدة إلى غرفة الطعام، ونطقت بكلمات قليلة ناعمة لآشلي، وأدهشت ابنها الصغير عندما ضمته أقرب إليها وقبّلت خصلات شعره الشقراء بحنان.

ثم غادرت البيت دون قبعة، وفوطة العشاء ما زالت في يدها، والخطوات التي شرعت تخطوها كانت شاقة على ساقي مامي العجوزتين. وفي قاعة منزل سكارلت الأمامية، انحنت انحناءة قصيرة إلى الجمهور المحتشد في المكتبة، إلى الآنسة بيتي بات المذعورة، إلى السيدة بتلر الوقورة، إلى ويل وسولين، ثم صعدت الدرج بسرعة ومامي تلهث خلفها. ووقفت هنيهة صامتة أمام باب سكارلت المقفل، ولكن مامي همست «لا يا سيدة، لا تفعلي ذلك».

سارت ميلي في القاعة بخطوات أبطأ الآن، إلى أن وقفت أمام غرفة ريت. وقفت مترددة لحظة وكأنها تتوق لأن تولي الأدبار. ثم شدت من عزيمتها كجندي صغير يدخل المعركة، وقرعت الباب ونادت على عجل: «أرجوك اسمح لي بالدخول يا كابتن بتلر. أنا السيدة ويلكس، وأريد أن أرى بوني».

فتح الباب بسرعة، وإذ تراجعت مامي في ظلام القاعة، رأت ريت ضخماً قائماً أمام منظر الشموع المضيئة. كان يترنح على قدميه، واستطاعت مامي أن تشم رائحة الويسكي في نفسه. أما هو فنظر إلى ميلي لحظة ثم أخذها من ذراعها وسحبها إلى داخل الغرفة وأغلق الباب.

وتسللت مامي على رؤوس أصابعها إلى كرسي بجانب الباب، واسترخت

فيه منهوكة ، ففاض عنه جسدها العديم القوام . جلست ساكنة تبكي بصمت ، وتصلي . وبين الفينة والأخرى ترفع طرف ثوبها وتمسح عينيها ، ثم ترهف السمع ما أمكنها ذلك . غير أنها لم تستطع سماع أي كلمة من الغرفة ، سوى صوت خفيض مدمدم متقطع .

وبعد فترة لا نهاية لها ، انشق الباب وظهر وجه ميلي متوتراً شاحباً .

ـ «أحضري لي إبريق قهوة بسرعة ، وبعض السندويتش» .

واستطاعت مامي بعد أن طرد الشيطان أن تغدو سريعة كزنجية رشيقة في السادسة عشرة من العمر . وقد جعلها فضولها لدخول غرفة ريت تعمل أسرع من المعتاد . ولكن أملها انقلب خيبة عندما فتحت ميلي الباب مجرد فتحة ضيقة وتناولت الصينية منها . وظلت مامي مدة طويلة ترهف أذنيها الحادتي السمع ولكنها لم تستطع تمييز شيء سوى قرقعة الملعقة الفضية على الطبق الخزفي ونبرات صوت ميلاني المضطربة الناعمة . ثم سمعت زعيق السرير فيما كان جسم ثقيل يسقط فوقه ، وسرعان ما تلا ذلك صوت حذاء يسقط على الأرض . وبعد فترة قصيرة ، ظهرت ميلاني في الباب . ومع أن مامي بذلت جهدها إلاّ أنها لم تستطع أن تمد بصرها إلى داخل الغرفة عبر ميلاني التي كانت تبدو تعبة والدموع تتلألأ على أهداب عينيها ، غير أن وجهها كان قد عاد إلى هدوئه .

ـ «اذهبي وأخبري الآنسة سكارلت بأن الكابتن بتلر راض تماماً على أن تقام الجنازة صباح الغد» همست .

ـ «يا لله المبارك» تمتمت مامي «كيف استطعت . . .» .

ـ «لا تتكلمي بصوت مرتفع ، إنه ينام . ويا مامي أخبري الآنسة سكارلت أيضاً بأني سأظل هنا طوال الليل . وأحضري لي أنت بعض القهوة ، أحضريها هنا» .

ـ «إلى هذه الغرفة؟ . .» .

ـ «أجل . لقد وعدت الكابتن بتلر أنه إذا ما نام فسأجلس مستيقظة بجانبها طوال الليل . الآن اذهبي وأخبري الآنسة سكارلت كي لا تظل قلقة . .» .

60

بدا أنَّ هناك شيئاً غير طبيعي في الحياة ، وكأنَّ خطباً كئيباً مخيفاً لف كل شيء كضبابة قاتمة لا يمكن اختراقها أطبقت على سكارلت خلسة . كان هذا الخطب أعمق حتى من موت بوني ، لأن عذابها الأول غير المحتمل كان يضعف الآن متحولاً إلى قبول مستكين بخسارتها . ومع ذلك فما انفك ينتابها هذا الإحساس الرهيب بالكارثة ، وكأن شيئاً أسود ذا قلنسوة خافية كان يقف على كتفها بالذات ، وكأن الأرض التي تحت قدميها كان يمكن أن تنقلب إلى وعس وهي تدوس فوقه .

لم تكن سكارلت قد عرفت من قبل هذا النوع من الخوف فطيلة حياتها كانت قدماها مثبتتين ، وكانت الأشياء الوحيدة التي خافتها هي الأشياء التي استطاعت رؤيتها : الإيذاء ، الجوع ، الفقر ، ضياع حب آشلي . ودون أن تكون خبيرة بتحليل الأمور ، كانت تحاول أن تحلل الآن ، ولكن بدون نجاح . لقد فقدت أعز أولادها ولكن بوسعها تحمل ذلك نوعاً ما ، كما كانت قد تحملت الخسائر المدمرة الأخرى ، كانت تنعم بصحتها ، كانت تنعم بما يمكن أن تتمناه من مال ، وكانت لا تزال تحظى بآشلي مع أن تقديرها له كان يقل تدريجاً هذه الأيام . حتى الجفاء الذي وقع بينهما منذ حفلة ميلاني المشؤومة المذهلة لم يكن يضايقها لأنها كانت تعرف أنه سيزول . لا ، لم يكن خوفها من الألم أو الجوع أو ضياع الحب ، فهذه المخاوف لم تضايقها يوماً كما كان هذا الإحساس بالخطب يفعل فيها . . . ذلك الخوف المدمر الذي كان يشبه بصورة مستغربة ذاك الخوف الذي عرفته في حلمها الرهيب : ضبابة كثيفة سابحة كانت تجري خلالها بقلب خافق ، طفلة ضائعة تنشد ملجأ كان مخبأ عنها .

وتذكرت كيف كان ريت قادراً دائماً على جعلها تستهين بمخاوفها ، وتذكرت مواساة صدره الأسمر العريض وذراعيه القويتين . وهكذا التفتت نحوه بعينين كانتا في الحقيقة تريانه للمرة الأولى منذ أسابيع ، ولكن التغير الذي رأته صدمها ، فهذا الرجل لم يكن ليضحك ، ولم يكن ليواسيها .

وعقب وفاة بوني ببعض الوقت ، كانت سكارلت شديدة السخط عليه . غير أن الحزن كان يمتلكها بحيث لم يسعها أن تأتي بأكثر من الحديث المهذب معه أمام

الخدم . لقد كانت مشغولة جداً بتذكر قرقعة قدمي بوني الجاريتين السريعتين وضحكتها المتدفقة بحيث لم يسعها أن تفكر بأن من المنتظر أن يكون هو أيضاً يعيش في هذه الذكريات ، ويألم أعظم حتى من ألمها . كانا قد تقابلا خلال هذه الأسابيع وتحدثا معاً بلطف كغريبين يتقابلان داخل جدران فندق لا يخصهما يتشاركان في السقف ذاته والمائدة ذاتها ولكنهما لا يتشاركان أبداً في أفكارهما .

ولما كانت الآن مذعورة وتفتقر إلى من يؤنسها ، فإنها كانت تود أن تجتاز هذا الحاجز الذي بينها وبينه إذا ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، ولكنها وجدت أنه كان يبقيها على بعد ذراع منه وكأنه كان يرغب في أن لا يتحدث إليها بكلمات تتسم بالعمق . ولما كان غضبها يتلاشى الآن فإنها كانت تريد أن تخبره بأنها تعتبره بريئاً من موت بوني . كانت تريد أن تبكي بين ذراعيه وتقول إنها هي أيضاً كانت فخورة غاية الفخر بفروسية ابنتها ، سموحة منتهى السماح مع مداوراتها . كان من المنتظر الآن أن تخضع نفسها بطيبة خاطر وتعترف بأنها كانت قد قذفته بتلك التهمة بدافع من بؤسها فقط آملة أن تخفف من ألمها من طريق إيلامه ، ولكن لم يكن يبدو مطلقاً أن هناك لحظة سانحة . كان ينظر إليها بعينين سوداوين غامضتين ، عينين لم تتيحا لها أي فرصة لتتكلم فيها ، كما أن التعليل والاعتذارات إذا ما أجلت مرة تصبح عملية استرجاعها أصعب وأصعب ، بل تغدو مستحيلة في النهاية .

وتساءلت لماذا كان ينبغي لمثل هذه الحالة أن تحدث ، فلقد كان ريت زوجها ، وكانت تربط بينهما الوثيقة التي لا يمكن أن تفصم ، الوثيقة القائمة بين شخصين تشاركا السرير ذاته وأنجبا طفلاً محبوباً ، وشاهدا ذلك الطفل يدفن في الظلام في وقت مبكر جداً ، أجل ، بين ذراعي والد ذلك الطفل فقط كان يمكن لسكارلت أن تجد العزاء ، في تبادل الذكريات والحزن الذي يمكن أن يؤلم أول الأمر ولكنه يساعد في لأم الجراح فيما بعد . ولكن الآن ، ونظراً لما كانت عليه الحالة بينهما ، كان يمكن أن تندفع بسرعة إلى ذراعي رجل غريب عنها ، غريب كل الغرابة .

كان وجوده في البيت نادراً ، وكان من عادته أن يكون ثملاً عندما كانا يجلسان معاً إلى مائدة العشاء ، غير أنه لم يكن يشرب كما كان في السابق ، حيث كان يغدو أكثر تهذيباً وأشد لذعاً كلما تمكن المشروب منه ، فيتفوه بأمور

مسلية خبيثة تجعلها تضحك رغماً عنها . لقد كان الآن ثملاً بصمت واكتئاب ، ومع توالي الأمسيات ، غدا سكران مخضل العينين . وكانت سكارلت تسمعه أحياناً في ساعات الفجر الباكرة وهو يدخل الساحة الخلفية راكباً ، ويقرع باب منزل الخدم كيما يساعده بورك في صعود الدرج الخلفي ويضعه في سريره . يضعه في سريره ! ريت الذي كان دائماً يبز الآخرين في الشرب دون أن يبين عليه الكلل ثم يضعهم في أسرتهم .

كان عديم الأناقة الآن ، بينما كان فيما مضى جميل الهندام . وكان الأمر يتطلب كل جدال بورك المفضوح حتى يقنعه بتبديل ثوبه الكتاني قبل الغداء . وكان الويسكي يبدو في وجهه ، وكان التعبير الصارم في لحييه الطويلين مطموساً تحت تورم غير صحي ، وكانت انتفاخات تظهر تحت عينيه الملتهبتين ، وأضحى جسده الكبير ذو العضلات القوية المنتفخة يبدو رقيقاً نحيلاً ، بينما بدأ خصره يغلظ .

كان لا يعود إلى البيت أبداً في أغلب الأحيان ، ولم يكن ليرسل إخباراً بأنه سيظل في الخارج طوال الليل ، طبعاً كان من المحتمل أن يكون يشخر مخموراً في إحدى الغرف فوق إحدى الحانات ، ولكن سكارلت كانت تعتقد دائماً بأنه كان في بيت بيل وتلنغ في هذه الأوقات . وكانت قد رأت مرة بيل وتلنغ في أحد المخازن ، امرأة بدينة جاوزت الآن مرحلة النضارة ، وقد ذهبت عنها معظم مظاهرها الحسنة . ولكن رغم كل طلائها وملابسها الزاهية كانت بشوشة تبدو كأم تقريباً . وبدلاً من أن تغض طرفها أو تحملق تحدياً كما كانت تفعل معظم العاهرات عندما يواجهن السيدات ، بادلتها بيل نظرة بنظرة ، متفحصة وجهها بنظرة متعمدة مشفقة تقريباً ، نظرة خضبت وجه سكارلت بحمرة الخجل .

ولكن لم يكن بوسعها أن تتهمه الآن ، لم يكن بوسعها أن تحنق عليه أو تطلب الإخلاص أو تحاول تخجيله أكثر مما كان بوسعها أن تحمل نفسها على تعليل اتهامها له بقتل بوني . كانت واقعة في قبضة حالة حائرة من فقدان الشعور ، تعاسة لم تستطع فهمها ، تعاسة كانت أعمق من أي شيء عرفته . كانت تحس بالوحشة ، ولم تذكر أنها أحست بوحشة كهذه من قبل . ربما لم تكن قد سنحت الفرصة لتحس بوحشة عظيمة حتى الآن . لقد كانت مستوحشة وخائفة ، ولم يكن هناك أحد تستطيع أن تلجأ إليه ، لا أحد سوى ميلاني ، لأنه في هذا

الوقت ، حتى سندها مامي كانت قد عادت إلى تارا ، عادت إلى الأبد .

لم تقدم مامي أي إيضاح عن سبب مغادرتها المكان إلى تارا . كانت عيناها المسنّتان التعبتان تنظران بحزن إلى سكارلت وهي تطلب أجرة القطار إلى البيت . ولم تجب على دموع سكارلت وتوسلاتها كي تبقى سوى بعبارة «إن الأمر يبدو لي وكأن الآنسة إيلين تخاطبني قائلة : (مامي ، عودي إلى البيت . لقد انتهى عملك) ولذلك فإني عائدة إلى البيت» .

أما ريت ، الذي كان يصغي إلى الحديث ، فقد أعطى مامي النقود وربت على ذراعها قائلاً :

ـ «إنك على صواب يا مامي ، وإن الآنسة إيلين على صواب ، لقد انتهى عملك هنا . اذهبي إلى البيت ، وإن شعرت يوماً بحاجة إلى أي شيء فدعيني أعرف ذلك» . وعندما انفجرت سكارلت فيها مجدداً في أوامر ساخطة ، صاح بها «اصمتي أيتها الحمقاء ! دعيها تذهب ! لماذا ينبغي لأي إنسان أن يرغب في البقاء بهذا البيت . . . الآن؟» .

وشعت عيناه وهو يتكلم بألق براق مخيف ، جعل سكارلت تتراجع مذعورة بعيداً عنه .

عندما عادا إلى البيت ، زارت سكارلت الطبيب ميد .

ـ «دكتور ميد ، هل تعتقد أنه يمكن . . . يمكن أن يكون قد فقد عقله؟» . استوضحت ، وقد ساقها إلى الطبيب إحساسها بالحيرة .

ـ «لا» قال الطبيب «ولكنه يشرب كسمكة ، وسيقتل نفسه إذا ما استمر على ذلك . لقد كان يحب ابنته يا سكارلت ، وإني أظن أنه يشرب لينساها . ونصيحتي لك يا آنسة هي أن تنجبي له طفلاً آخر بأسرع ما يمكنك» .

ـ «ها !» فكرت سكارلت بمرارة وهي تغادر عيادته ، لقد كان ذلك أسهل قولاً منه عملاً ، وكان يمكن أن تنجب بسرور طفلاً آخر ، بل عدة أطفال ، إن كان ذلك سيزيل تلك النظرة من عيني ريت ، ويملأ الفراغ المؤلم في قلبها . حبذا صبي يتحلى بجمال ريت الأسمر ، وبنت صغيرة أخرى ، حبذا بنت أخرى جميلة مرحة عنيدة ، تفيض ضحكاً ، ليست كإيلا الطائشة . لماذا ، آه ، لماذا لم يأخذ الله إيلا إن كان لا بد له من أن يأخذ أحد أولادها؟ لم تكن إيلا عزاء لها الآن وقد ذهبت بوني . ولكن لم يكن يبدو أن ريت كان يريد أي

طفل آخر، على الأقل لم يكن يأتي إلى غرفة نومها أبداً، مع أن الباب لم يكن يوصد الآن، بل كان يشق عادة بصورة غرارة، لا لم يكن يبدو أنه يحفل بذلك، لم يكن يبدو أنه يحفل بأي شيء الآن سوى الويسكي وتلك المرأة البدينة ذات الشعر الأحمر.

لقد غدا ممضاً الآن حيث كان فيما مضى ساخراً ساراً، قاسياً حيث كانت لذعاته تتصف بالفكاهة. وبعد وفاة بوني أضحى كثير من سيدات الجيرة الطيبات اللواتي كان ريت قد ظفر بعطفهن بتأثير سلوكه الساحر مع ابنته، أضحين متحرقات ليظهرن بعطفهن عليه. كن يوقفنه في الشارع ليمنحنه عطفهن وليتحدثن إليه من فوق أسيجة منازلهن قائلات إنهن يفهمن وضعه. ولكن الآن وقد ذهبت بوني، باعث سلوكه الحسن، فإن هذا السلوك قد ذهب أيضاً، وصار ريت يقاطع السيدات ومواساتهن الحسنة القصد بجفاء ووقاحة.

ولكن ما كان يدعو للغرابة أن السيدات لم يكن يستأن منه، بل كن يفهمن وضعه أو يعتقدن أنهن كن يفهمن. وعندما كان يعود راكباً إلى البيت في ضوء الغسق وهو في حالة شديدة من السكر في غالب الأحيان بحيث لا يطيق فوق السرج بقاء، ويعبس في وجوه من يتحدثن إليه، كانت السيدات يقلن: «يا للمخلوق المسكين!» ويضاعفن جهودهن ليكن لطيفات رقيقات معه. كن يشعرن بحزن شديد عليه، وهو الكسير القلب، العائد إلى بيته كي لا يجد عزاء أفضل من سكارلت.

كان الجميع يعرفون كم كانت تفتقر إلى الشعور والرحمة، وكانوا مشدوهين من السهولة الظاهرة التي كانت قد انتعشت بها إثر وفاة بوني، دون أن يدركوا، أو يهتموا في أن يتبينوا الجهد الذي كان يوجد إزاء ذلك الانتعاش الظاهر. كان ريت يتمتع بعطف المدينة الدافق، ولم يكن هو يعرف ذلك أو يحفل به، بينما كانت سكارلت تتردى في كراهية المدينة، وغدا من المنتظر، للمرة الأولى، أن ترحب بعطف الأصدقاء القدامى.

غير أنه لم يكن أحد من أصدقائها القدامى يزور بيتها الآن سوى العمة بيتي وميلاني وآشلي، وكان الأصدقاء الجدد فقط يأتون لزيارتها في عرباتهم الزاهية متلهفين على أن يخبروها بعطفهم عليها، تائقين إلى أن يسلوها بحديثهم عن أصدقاء جدد آخرين لم تكن تحفل بهم أبداً.

وكان من المنتظر الآن ، وهي في وحشتها ، أن تستحسن تبديد الأمسيات مع مايبيل أو فاني أو السيدة ألسنغ أو السيدة ويتنغ أو حتى مع تلك المكافحة العجوز السيدة ميريويذر ، أو السيدة بونل أو . . . أو أي من صديقاتها القديمات ، أو جاراتها ، ذلك لأنهن كن يعرفن ماضيها . لقد عرفن الحرب والرعب والحريق ورأين الأعزاء يموتون قبل أوانهم . لقد جعن ورثت ثيابهن وعشن والذئاب على أبوابهن ، ومع ذلك ، فقد أعدن جميع ثروتهن من الدمار .

أجل ، لقد كان عزاء لها أن تجلس مع مايبيل ، وهي التي كانت قد دفنت طفلاً مات في أثناء الهروب المجنون أمام زحف شيرمان ، وكان هناك سلوان لها بوجود فاني ، وهي تعرف أنها وفاني كانتا قد فقدتا زوجيهما في أيام الحكم العسكري السوداء ، وكانت تشعر بمرح كئيب حين تضحك مع السيدة ألسنغ ، مستعيدة صورة وجه السيدة العجوز وهي تسوط حصانها عبر فايف بوينتس يوم سقوط أتلانتا وأسلابها من مخازن التموين تتساقط متبعثرة من عربتها . وكان من دواعي سرورها أن تتبارى برواية القصص مع السيدة ميريويذر ، التي كانت الآن آمنة ، تعتمد على إيرادات مخبزها ، كما كان من دواعي سرورها أن تقول : «هل تذكرين ما كان أسوأ الأحوال بعد الاستسلام مباشرة؟ هل تذكرين عندما كنا لا نعرف من أين سنحصل على زوج أحذيتنا التالي؟ وانظري إلينا الآن !» .

أجل ، لقد كان كل ذلك من دواعي سرور سكارلت التي فهمت الآن السبب في أنه عندما كان حلفيان سابقان يلتقيان كانا يتحدثان عن الحرب بلذة عظيمة جداً ، بمباهاة ، وبحنين . لقد كانت تلك أياماً أضنت قلوبهم ، ولكنهم كانوا قد تغلبوا عليها . لقد كانوا مجربين ، وكانت هي مجربة أيضاً ، ولكن لم يكن لديها أصدقاء تستطيع أن تعيد خوض المعارك معهم ، آه ليتها تكون مع جماعتها من الناس ثانية ، أولئك الناس الذين خبروا التجارب ذاتها ، وعرفوا كيف كانت تؤلم . . . ومع ذلك ، فأي جزء عظيم منك كانت تلك التجارب !

ولكن ، مهما كان الأمر ، فإن أولئك الناس كانوا قد انسلوا بعيداً عنها ، وتبينت هي أن تلك كانت غلطتها . ولم تكن قد اكترثت بذلك قبل الآن . . . الآن وقد ماتت بوني ، وأضحت هي وحيدة وخائفة ، ورأت عبر مائدة غدائها البراقة رجلاً غريباً أسمر ، مخضل العينين ، ينسحق تحت عينيها .

61

عندما وصلتها برقية ريت المستعجلة كانت سكارلت في ماريتا . وكان هناك قطار مسافر إلى أتلانتا خلال عشر دقائق ، فأدركته دون أن تحمل معها أي متاع سوى كيسها الشبكي ، تاركة ويد وإيلا في الفندق مع برسي .

كانت أتلانتا تبعد عشرين ميلاً فقط ، غير أن القطار كان يسير ببطء شديد خلال بعد ظهر ذلك اليوم من الخريف المبكر ، متوقفاً عند مفرق كل طريق جانبي من أجل الركاب . وكانت سكارلت ، وقد أصابها الذعر من مضمون برقية ريت ، وتولاها الجنون للإسراع ، كادت أن تصرخ عند كل موقف . وتابع القطار طريقه متثاقلاً خلال غابات ذهبية باهتة شاحبة ، وإزاء تلال ما زالت تحمل آثار متاريس لولبية ، وبمحاذاة خنادق قديمة للمدافع ، وحفر تكسوها الأعشاب . تابع سيره على الطريق التي كان رجال جونستون قد تراجعوا عليها بمرارة بالغة وهم يحاربون كل خطوة منها ، وكانت كل محطة وكل مفرق طريق يسميه رئيس القطار ، عبارة عن اسم معركة أو موقع مناوشة ، وكان يمكن لتلك الأسماء أن تثير في سكارلت ذكريات من الرعب ، ولكنها لم تكن لتفكر بها الآن .

كانت برقية ريت كما يلي :

ـ «السيدة ويلكس مريضة . . عودي حالاً» .

كان ضوء الغسق قد غمر المكان عندما دخل القطار أتلانتا ، وكان مطر خفيف مصحوب بالضباب يحجب المدينة ، وكانت مصابيح الشارع الغازية خافتة الأنوار ، كنقط صفراء في الضباب . وكان ريت ينتظرها في المحطة والعربة معه . وقد أفزعها مجرد منظر وجهه أكثر مما أفزعتها رسالة البرقية ، إذ لم تكن قد رأته بمثل ذلك الوجه العديم التعبير من قبل .

ـ «إنها ليست . .» صاحت .

ـ «لا ، إنها ما زالت حية» قال ريت وهو يساعدها في الصعود إلى العربة . «إلى بيت السيدة ويلكس ، وبأقصى سرعة تستطيعها» أمر الحوذي .

ـ «ما خطبها؟ لم أكن أعرف أنها مريضة . كانت تبدو على ما يرام في الأسبوع الماضي . هل أصابها حادث عارض؟ آه يا ريت ، أرجو أن لا يكون

الأمر خطيراً حقاً كما . .» .

ـ «إنها تعاني سكرات الموت» قال ريت ، ولم يكن في صوته تعبير أكثر مما كان في وجهه «وهي تريد رؤيتك» .

ـ «ليست ميلي ! آه ميلي ! ماذا حدث لها؟» .

ـ «لقد أصابها إجهاض» .

ـ «إ . إ . . إجهاض . . ولكن يا ريت ، إنها . .» وتلعثمت سكارلت إذ إن هذا النبأ الذي جاء على رأس أخباره المرعبة سلب نفسها .

ـ «ألم تكوني تعرفين أنها كانت تحمل طفلاً؟» .

فلم تستطع حتى أن تهز رأسها بالإيجاب .

ـ «آه ، لا بأس ، أظن أنك لم تكوني تعرفين . وإني لا أعتقد أنها أخبرت أحداً . كانت تريد أن يأتي الأمر مفاجئاً ، ولكني كنت أعرف» .

ـ «كنت تعرف ، ولكن ، حتماً لم تخبرك هي !» .

ـ «لم يكن عليها أن تخبرني ، إلا أنني عرفت . لقد كانت سعيدة جداً خلال هذين الشهرين الأخيرين ، فعرفت أن الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك» .

ـ «ولكن يا ريت ، لقد قال الطبيب إن إنجابها طفلاً آخر سيودي بحياتها !» .

ـ «ولقد أودى بحياتها» قال ريت ثم خاطب الحوذي «من أجل الله ألا تستطيع أن تزيد من سرعتك؟» .

ـ «ولكن يا ريت ، ليس من الممكن أن تكون الآن تحتضر ! إني . . إني لم . . وإني . . .» .

ـ «إنها لا تملك قوتك ، ولم يكن لديها يوماً أي قوة ، بل لم يكن لديها يوماً أي شيء سوى القلب الطيب» .

ظلت العربة تهتز إلى أن وقفت أمام البيت المنخفض الصغير حيث أنزل ريت سكارلت من العربة ، فقبضت على ذراعه وهي ترتجف مذعورة ، وقد انتابها شعور مفاجئ بالوحشة .

ـ «ألن تدخل معي يا ريت؟» .

ـ «لا» قال وعاد إلى داخل العربة .

وصعدت سكارلت الدرجات الأمامية ركضاً ، وعبرت الشرفة ثم فتحت الباب دفعاً ، وهناك ، في ضوء المصباح الأصفر ، كان يجلس آشلي والعمة بيتي

وإنديا . وفكرت سكارلت «ماذا تفعل إنديا هنا؟ لقد أخبرتها ميلاني أن لا تطأ هذا البيت ثانية» . ونهض الثلاثة عندما رأوها ، وكانت العمة بيتي تعض شفتيها المرتعشتين لتسكنهما ، وإنديا تحدق فيها دون كراهية ، وقد تولاها الحزن ، وبدا آشلي خاملاً كسائر في نومه ، وعندما بلغها ووضع يده على ذراعها ، تكلم كسائر في نومه أيضاً .

ـ «لقد طلبتك» ، «لقد طلبتك» .

ـ «أأستطيع رؤيتها الآن؟» والتفتت نحو باب غرفة ميلاني المقفل .

ـ «لا ، إن الطبيب ميد داخل الغرفة الآن . إني سعيد بقدومك يا سكارلت» .

ـ «لقد قدمت بأقصى سرعة ممكنة» وطرحت عنها قبعتها ومعطفها «إن القطار . . أليست حقاً . . أخبرني ، إنها أحسن ، أليس كذلك يا آشلي؟ تحدث إلي ، لا تبد كذلك ! أليست حقاً . .» .

ـ «لقد ظلت تطلبك» قال آشلي ونظر إلى عينيها ، ورأت هي في عينيه جواب سؤالها ، ولهنيهة ، انقطع قلبها عن الخفقان ، ثم شرع يخفق في صدرها خوف غريب ، خوف أقوى من الجزع ، خوف أقوى من الحزن . لا ، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً ، فكرت بحدة وهي تحاول رفع الخوف عنها ، إن الأطباء يخطئون ولن أفكر أنه صحيح ، فسأزعق إن أنا فعلت ذلك ، ينبغي أن أفكر بشيء آخر .

ـ «إني لا أصدق !» صاحت مهتاجة وهي تنظر إلى الوجوه الثلاثة المتوترة وكأنها تتحداها لتعارضها «ولماذا لم تخبرني ميلاني؟ فلم أكن لأذهب إلى ماريتا لو كنت أعرف» .

واستيقظت عينا آشلي وبدتا معذبتين .

ـ «إنها لم تخبر أحداً يا سكارلت ، وخاصة أنت . كانت تخشى أن تؤنبيها إن عرفت . وكانت تريد أن تنتظر ثلاثة أشهر ، حيث كانت تعتقد أن الأمر سيغدو آمناً وأكيداً ، وبعدها تفاجئكم جميعاً وتضحك قائلة : «ما أعظم خطأ الأطباء !» ولقد كانت سعيدة للغاية . إنك تعرفين ما كان أشد لهفتها على الأطفال ، ما كان أعظم رغبتها في إنجاب بنت صغيرة . وسار كل شيء على ما يرام إلى أن . . وعندئذ ودون أي سبب البتة . .» .

وفتح باب غرفة ميلاني بهدوء ، وخرج الطبيب ميد إلى القاعة ، مقفلاً الباب خلفه ، ووقف هنيهة ولحيته الطويلة متدلية على صدره ، ونظر إلى الأربعة الذين جمدوا فجأة . ثم وقع بصره على سكارلت ، وعندما أتى نحوها ، رأت أنه كان هناك حزن في عينيه ، وكراهية وازدراء غمرا قلبها المرعوب بالإثم .

ـ «وهكذا فقد وصلت أخيراً» قال .

وقبل أن تستطيع الإجابة ، اتجه آشلي إلى الباب المقفل . .

ـ «ليس أنت الآن» قال الطبيب ، إنها تريد أن تتحدث إلى سكارلت .

ـ «أيها الطبيب» قالت إنديا ووضعت يدها على ذراعه . ومع أن صوتها كان عديم النغم ، إلا أنه كان ينطق بتوسل أشد وقعاً من توسل الكلمات «دعني أراها دقيقة واحدة ، فإني هنا أنتظر منذ الصباح ، ولكنها . . دعني أراها دقيقة واحدة ، أريد أن أخبرها . . ينبغي أن أخبرها بأني كنت مخطئة فيما يتعلق . . بشيء ما» .

ولم تنظر إلى آشلي أو إلى سكارلت وهي تتحدث ، ولكن الطبيب ميد سمح لنظراته الباردة أن تقع على سكارلت .

ـ «سأنظر في الأمر يا آنسة» قال باقتضاب ، «ولكن إذا وعدتني فقط أنك لن تستنفدي قوتها بإخبارها أنك كنت مخطئة . إنها تعرف أنك كنت مخطئة ، ولذلك فإن سماعها اعتذارك سيضايقها وحسب» .

وبدأت بيتي بتهيب «أرجوك أيها الطبيب ميد . .» .

ـ «آنسة بيتي ، إنك تعرفين أنك ستزعقين ويغمى عليك» فعدلت بيتي جسدها الصغير البدين وبادلت الطبيب نظرة بنظرة . كانت عيناها جافتين ، وكان هناك كرامة في كل غضنة .

ـ «حسناً ، كما تريدين يا حلوتي ، ولكن ، بعيد وقت قصير» قال الطبيب بلطف أكثر . «تعالي يا سكارلت» .

وسارا في القاعة على رؤوس أصابعهما إلى الباب المغلق ، ووضع الطبيب يده كتف سكارلت في قبضة قوية وقال :

ـ «اسمعي يا آنسة» همس بجفاء «لا نوبات عصبية ولا اعترافات منك على فراش الموت ، وإلا فإني ليشهد الله ، سألوي عنقك ! لا تتطلعي إلي بأي من

نظراتك البريئة ، إنك تعرفين ما أعني . إن الآنسة ميلي ستموت براحة ، ولن تخففي عن ضميرك بإبلاغها أي شيء عن آشلي . إني لم أسئ لأية امرأة حتى الآن ، ولكن إن تفوهت بأي شيء الآن ـ فستكونين مسؤولة عن ذلك أمامي» .

وفتح الباب قبل أن تتمكن من الجواب ، ودفعها داخل الغرفة ثم أغلق الباب خلفها .

كانت ميلاني ترقد في السرير وقد بدا جسدها تحت اللحاف متقلصاً مستوياً كجسد فتاة صغيرة ، وتدلى على جانبي وجهها ضفيرتان من الشعر الأسود ، بينما كانت عيناها المغمضتان غائرتين في دائرتين أرجوانيتين متماثلتين . وعند هذا المنظر وقفت سكارلت وكأن شيئاً ما طعنها . وقفت متكئة على الباب ، ورغم عتمة الغرفة ، استطاعت أن ترى أن وجه ميلاني كان ذا لون شمعي أصفر ، جافاً من دم الحياة يحمل آثار بقع زرقاء حول الأنف . وحتى تلك الدقيقة كانت سكارلت قد أملت أن يكون الطبيب ميد مخطئاً ، ولكنها أدركت الحقيقة الآن . ففي المستشفيات في أثناء الحرب كانت قد رأت وجوهاً عديدة تحمل المظهر ذاته بحيث لم يسعها إلاّ أن تفكر بماذا كان ينذر ذلك ، الأمر الذي لا يمكن تلافيه .

كانت ميلاني تعاني سكرات الموت ولكن ، لهنيهة ، رفض عقل سكارلت أن يتقبل الحقيقة . لقد كان من غير الممكن لها أن تموت ، بل لم يكن من المنتظر أن يدعها الله تموت بينما سكارلت بحاجة ماسة إليها . ولم يكن قد خطر لها من قبل أنها كانت بحاجة إلى ميلاني . ولكن الحقيقة تجلت الآن ، ودخلت إلى أعمق ثنايا روحها . كانت قد اعتمدت على ميلاني ، تماماً كما كانت تعتمد على نفسها ، ولم تكن قد عرفت ذلك مطلقاً . والآن ، وفيما كانت ميلاني تموت ، عرفت سكارلت أنها لن تستطيع متابعة الحياة بدونها ، الآن وفيما هي تخطو عبر الغرفة نحو الجسد الساكن والرعب يقبض على قلبها ، عرفت أن ميلاني كانت سيفها ودرعها ، كانت عزاءها وقوتها .

ـ «ينبغي أن أتمسك بها ! ليس بوسعي أن أدعها تقضي !» فكرت وتهالكت بجانب السرير بحفيف من أطواقها . ثم قبضت بسرعة على اليد النحيلة الراقدة فوق الغطاء ، وثانية انتابها الرعب جراء برودة اليد الهامدة .

ـ «أنا يا ميلي» قالت .

فتحت ميلاني عينيها فتحة ضيقة ثم أغمضتهما ثانية ، وكأنها أقنعت نفسها أن القادم كان سكارلت فعلاً ، وبعد فترة صمت ، سحبت نفساً وهمست :

ـ «أتعدينني؟» .

ـ «آه ، أعدك بأي شيء !» .

ـ «بو . . تعتنين به» .

فلم يسع سكارلت إلاّ أن تطرق بالإيجاب ، وقد أحست بإحساس خانق في حلقها . ثم ضغطت على اليد التي كانت تحملها برفق ، ضغطت عليها بصورة تنم عن الموافقة .

ـ «إني أهبه لك» ورافق ذلك أخف أثر من ابتسامة «لقد وهبته لك مرة من قبل . . أتذكرين؟ من قبل أن يولد» .

هل تذكرت؟ أكان بوسعها أن تنسى ذلك الوقت؟ لا ، فقد استطاعت أن تشعر بحرارة تلك الظهيرة الخانقة من أيام أيلول . استطاعت ذلك بجلاء وكأن ذلك اليوم الرهيب قد عاد الآن . وكذلك استطاعت أن تتذكر رعبها من الشماليين ، وتسمع وقع خطوات الجنود المتقهقرين ، وتستعيد صوت ميلاني وهو يتوسل إليها أن تأخذ الطفل إن هي ماتت . وتتذكر أيضاً كيف كانت قد كرهت ميلاني في ذلك اليوم ورجت أن تموت .

ـ «لقد قتلتها» فكرت في عذاب بالغ «لقد تمنيت مراراً عديدة أن تموت ، ولقد استجاب الله دعائي وها هو يعاقبني» .

ـ «آه يا ميلي ، لا تتحدثي بمثل ذلك الكلام ! إنك تعرفين أنك ستتغلبين على هذه . .» .

ـ «عديني» .

فبلعت سكارلت ريقها .

ـ «إنك تعرفين أني أعد ، سأعامله كأنه ابني» .

ـ «سترسلينه إلى الجامعة؟» أستوضح صوت ميلاني الجلي الخافت .

ـ «آه أجل ، إلى الجامعة وإلى هارفرد وأوروبا وكل شيء يريده . . و . . و . . ومهر صغير . . ودروس موسيقية . . آه أرجوك يا ميلي ، حاولي ! ابذلي جهداً !» .

وران الصمت ثانية ، وبدت في وجه ميلاني أمارات مقاومة لحشد قوة تمكنها من النطق ثانية .

ـ «أجل سأبقيه» قالت .

وبينما كانت تتكلم ، قابلت عينا إنديا الشاحبتان ، العديمتا الرموش ، عينيها بنظرات نفاذة «إنها دائماً تنظر إلي نظرات غريبة جداً عندما أتكلم عن آشلي» فكرت سكارلت .

ـ «حسناً ، أبقيه أطول مدة تستطيعينها بعد الساعة الخامسة» قالت ميلاني «ثم ستركب إنديا إليكما وتأتي به . . . سكارلت تعالي باكراً هذه الليلة ، فأنا لا أريد أن تفوتك دقيقة من هذه الحفلة» .

وبينما كانت سكارلت تركب إلى البيت ، فكرت فجأة «إنها لا تريد أن تفوتني دقيقة من الحفلة ، إيه؟ إذاً ، لماذا لم تدعني لأقوم بالاستقبال معها وإنديا والعمة بيتي؟» .

لم تكن سكارلت ، عموماً ، لتهتم سواء أقامت بالاستقبال في حفلات ميلاني التافهة أم لم تقم ، ولكن هذه كانت أكبر حفلة أقامتها ميلاني ، وحفلة ميلاد آشلي خصوصاً . وكانت سكارلت تتوق لتقف إلى جانب آشلي وتستقبل الضيوف معه . بيد أنها كانت تعرف سبب عدم دعوتها للقيام بواجب الاستقبال ، وحتى لو لم تكن تعرفه ، فإن تعليق ريت على الموضوع كان صريحاً بما فيه الكفاية :

ـ «أيقوم سكالاواغي بالاستقبال في الوقت الذي سيكون هناك جميع الديموقراطيين السابقين البارزين ! إن آراءك مذهلة كما هي مشوشة ، وإن دعوتك إنما تمت بفضل إخلاص السيدة ميلاني فقط» .

لبست سكارلت ثيابها بعد ظهر ذلك اليوم باهتمام أكثر من المعتاد من أجل رحلتها إلى المخزن ومستودع الخشب ، ولذلك لبست ثوب التفتا الأخضر القاتم المتموج الذي كان يبدو بنفسجياً في بعض الأضواء . ثم وضعت على رأسها القبعة الخضراء الفاتحة الجديدة ، المحاطة بريش أخضر قاتم . لو أن ريت يدعها تقص خصلات شعرها وتجعدها متدلية على جبينها ، عندئذ كم تكون هذه القبعة تبدو أجمل مما هي عليه الآن ! ولكن ريت كان قد صرح بأنه سيحلق جميع شعر رأسها إن هي قصت خصلات شعرها الأمامية . وكان ريت هذه الأيام يتصرف تصرفاً شنيعاً جداً ، بحيث كان من الممكن أن ينفذ وعيده فعلاً .

كان النسيم الدافئ الذي يخفق بأوراق الشجر في شارع بيتشتري يرقص

ـ «ها ، أجل» .
ـ «إنه يصاب بالزكام . . بسهولة فائقة» .
ورانت فترة صمت .
ـ «اعتني . . بعمله . . أتفهمين؟» .
ـ «أجل إني أفهم ، سأعتني به» .
وقالت بجهد عظيم .
ـ «آشلي ليس . . عملياً» .
الموتَ فقط كان بوسعه أن ينتزع تلك العبارة غير المخلصة من ميلاني .
ـ «اعتني به يا سكارلت . . ولكن . . لا تدعيه يعرف ذلك مطلقاً» .
ـ «سأعتني به وبعمله أيضاً ، ولن أدعه يعرف مطلقاً . سأقدم له بعض الاقتراحات وحسب» .
واستطاعت ميلاني أن تبتسم ابتسامة صغيرة ، ولكنها بدت ابتسامة ظافرة عندما قابلت عيناها عيني سكارلت ثانية . وختمت نظرتها المتبادلة الاتفاقية المتعلقة بانتقال حماية آشلي ويلكس تجاه دنيا شديدة القسوة من امرأة إلى أخرى ، والناصة على أنَّ كبرياء آشلي ينبغي أن لا تهان بمعرفته بهذا الأمر .
وغادرت المقاومة الوجه المتعب الآن ، وكأن السكينة جاءته بمجيء وعد سكارلتَ .
ـ «إنك ذكية جداً . . شجاعة جداً . . لقد كنت دائماً مخلصة لي . .» .
وبفعل هذه الكلمات بلغت الشهقة حنجرة سكارلت بحرية ، فصفقت يدها على فمها ، وأحست أنها كانت ستزعق الآن كطفلة وستصرخ «لقد كنت شيطانة ! لقد أخطأت بحقك كثيراً ! إني لم أفعل شيئاً من أجلك ! لقد كان ذلك جميعه من أجل آشلي !» .
ونهضت على قدميها فجأة ، وعضت على إبهامها لتستعيد السيطرة على نفسها ، وعاودتها كلمات ريت : «إنها تحبك ولتكن تلك إحدى بلاياك» أجل لقد غدت البلية أثقل الآن . لقد كانت محاولتها انتزاع آشلي من ميلاني أمراً سيئاً جداً ، ولكن بدا أسوأ منه الآن أن ميلاني ، التي كانت قد وثقت بها ثقة عمياء خلال حياتها ، كانت توليها الحب والثقة وهي ميتة . لا ليس بوسعها أن تتكلم ، ليس بوسعها حتى أن تقول ثانية : «ابذلي جهداً كي تعيشي» . ينبغي

أن تدعها تموت براحة ، بدون مقاومة ، بدون دموع ، وبدون أسف .

وانفتح الباب قليلاً ، ووقف الطبيب ميد على العتبة وأشار إليها إشارة آمرة ، فانحنت سكارلت على السرير وخنقت دموعها في عينيها ، وأخذت يد ميلاني ووضعتها على خدها .

ـ «ليلة سعيدة» قالت بصوت أكثر اتزاناً مما اعتقدت أنه يمكن أن يكون .

ـ «عديني . .» ارتفعت الهمسة ناعمة جداً الآن .

ـ «أعدك بأي شيء يا حبيبتي؟» .

ـ «الكابتن بتلر ، كوني لطيفة معه ، إنه ـ يحبك كثيراً» .

ـ «ريت؟» فكرت سكارلت مضطربة ، ولم تعن الكلمات شيئاً لها .

ـ «أجل ، حقّاً» قالت بصورة آلية ، وطبعت قبلة خفيفة على يد ميلاني وأعادتها إلى السرير .

ـ «أخبري السيدات أن يدخلن فوراً» همس الطبيب وهي تخرج من الباب .

وخلال عينين دامعتين رأت إنديا وبيتي تتبعان الدكتور إلى داخل الغرفة وهما تضمان تنورتيهما إلى جانبيهما لتمنعاهما من الحفحفة . وأغلق الباب خلفهما وخيم السكون على المنزل ، ولكنها لم تر آشلي في أي مكان ، فأسندت رأسها إلى الحائط كطفلة شقية تقف في إحدى الزوايا وفركت حنجرتها المؤلمة .

خلف ذلك الباب ، كانت ميلاني تغادر الدنيا . وكانت تغادر الدنيا معها القوة التي كانت سكارلت قد اعتمدت عليها دون أن تعرف ذلك لسنين عديدة عديدة .

ـ «إن ميلي هي الصديقة الوحيدة التي نعمت بها» فكرت بيأس ، «المرأة الوحيدة التي أحبتني باستثناء أمي . إنها كأمي أيضاً ، فلقد تعلق بها كل من عرفها» .

وفجأة بدا كأن أمها كانت ترقد خلف الباب المقفل ، تغادر الدنيا للمرة الثانية . وفجأة شعرت سكارلت كأنها كانت تقف في تارا ثانية ، والدنيا تضج حولها ، وهي تشعر بالوحشة لأنها لا تستطيع مواجهة الحياة بدون تلك القوة الفائقة ، قوة تلك المرأة الضعيفة الرقيقة القلب .

*

كانت تقف في القاعة مترددة مذعورة ، وكان الضوء المنير في غرفة الجلوس يلقي ظلالاً طويلة على الجدران حولها . كان البيت مطبق السكون ، وتساءلت : «آشلي ! أين كان آشلي؟» .

واتجهت إلى غرفة الجلوس تنشده كحيوان مبترد ينشد النار ، غير أنها لم تجده هناك . ينبغي أن تجده ، لقد اكتشفت قوة ميلاني واعتمادها هي على تلك القوة ، فقط لتفقدها في اللحظة ذاتها التي اكتشفتها فيها ، ولكن ، ما زال هناك آشلي الذي كان قوياً عاقلاً مواسياً . وفي آشلي وحبه ، تكمن قوة ، قوة ستسند ضعفها إليها ، كما تكمن شجاعة تعضد بها خوفها ، وطمأنينة تدعم بها حزنها .

لا بد من أن يكون في غرفته ، فكرت وعبرت القاعة على رؤوس أصابعها وقرعت الباب بلطف ولكنها لم تسمع جواباً ، ولذلك دفعت الباب وفتحته . كان آشلي يقف أمام الخزانة ، ينظر إلى قفازي ميلاني المرفوءين . تناول أحدهما ونظر إليه ، وكأنه لم يكن قد رآه من قبل ، ثم وضعه برفق وكأنه كان مصنوعاً من زجاج ، ثم تناول القفاز الآخر .

ـ «آشلي» قالت بصوت متهدج .

فاستدار ببطء ، ونظر إليها . كان الشرود الناعس قد ذهب من عينيه الرماديتين ، وكانت عيناه واسعتين عديمتي القناع . ورأت سكارلت فيهما خوفاً يتوافق وخوفها وعجزاً أشد من عجزها وحيرة أعمق مما عرفت في حياتها . وهكذا عندما رأت وجهه ، تعمق في نفسها شعور الرعب الذي كان قد تملكها في القاعة ، واتجهت إليه .

ـ «إني خائفة» قالت «آه آشلي ، امسكني ، إني مذعورة للغاية !» .

فلم يحرك ساكناً ، وإنما استمر في التحديق ، قابضاً على القفاز بشدة بكلتا يديه . ووضعت هي يداً على ذراعه وهمست «ما القضية؟» .

فتفحصتها عيناه متعمدتين باحثتين ، باحثتين بيأس عن شيء لم يجده ، وأخيراً تكلم ، ولكن بصوت غير صوته :

ـ «كنت أريدك» قال «كنت سأجري وأجدك ، أجري كطفل ينشد العزاء ـ ولكني أجد الآن طفلاً أكثر خوفاً مني ، طفلاً يجري إلي» .

ـ «ليس أنت ، فأنت لا يمكن أن تكون خائفاً ، ولم يحدث أن أخافك

شيء ، ولكن أنا ـ لقد كنت دائماً قوية للغاية . .» .

ـ «إن كنت دائماً قوياً للغاية ، فذلك لأنها كانت تدعمني» قال بصوت متقطع ، ونظر إلى القفاز وملس أصابعه «و ـ وـ وكل القوة التي كنت أملكها قد ذهبت معها» .

كان يشوب صوته الخفيض نغمة يأس مرير جعلها تنزل يدها عن ذراعه وتخطو إلى الوراء . وخلال السكون العميق الذي خيم عليها ، شعرت سكارلت أنها فهمت حقيقته للمرة الأولى في حياتها .

ـ «كيف» قالت ببطء «كيف يا آشلي ، إنك تحبها أليس كذلك؟» .

وأجاب وكأنه ينطق بجهد :

ـ «إنها الحلم الوحيد الذي نعمت به ، الحلم الذي كان يحيا ويتنفس ولم يمت في وجه الحقيقة» .

ـ «أحلام ! همست ، وتحرك فيها انفعال قديم «كنت ولا تزال أحمق جداً يا آشلي . لماذا لم تستطع أن ترى أنها تعادل مليوناً من مثيلاتي» .

ـ «سكارلت ، أرجوك ! لو أنك عرفت فقط ما حلّ بي منذ قال الطبيب؟» .

ـ «ماذا حل بك؟ ! ألا تعتقد أني ـ آه يا آشلي ، كان ينبغي أن تعرف منذ سنين أنك تحبها هي لا أنا . لماذا لم تعرف؟ لو عرفت لغدا كل شيء مختلفاً وـ . آه ، كان ينبغي أن تتبين ذلك ولا تبقيني متعلقة بكل حديثك عن الشرف والتضحية ! لو أنك أخبرتني ، منذ سنين ، لكنت ـ كان يمكن أن يقتلني ذلك ، ولكن كان بوسعي احتماله نوعاً ما . ولكنك انتظرت حتى الآن ، حتى نزاع ميلاني ، لتكتشف الحقيقة ، ولقد فات الوقت لعمل أي شيء الآن . آه يا آشلي ، من المفروض أن يعرف الرجال أموراً كهذه ـ وليس النساء ! : كان ينبغي أن تدرك بوضوح تام أنك كنت تحبها طيلة الوقت ، وأنك كنت تشتهيني فقط كما . . كما يشتهي ريت تلك المرأة وتلنغ !» .

وأجفل من كلماتها ، ولكن عينيه ظلتا تواجهانها ، تلتمسان الصمت والعذاب وهكذا خلال الصمت الذي تلا كلماتها ، زال سخطها ليحل محله شفقة ممزوجة بازدراء . ثم راح ضميرها يقرعها ، لقد كانت تركل رجلاً مغلوباً على أمره ، عديم الحيلة ، ولقد وعدت ميلاني بأنها ستعتني به .

ـ «وحالما وعدتها تماماً ، تفوهت بأمور خسيسة مؤذية له ، ولم يكن بي أو

بأي إنسان حاجة للتفوه بها إذ إنه يعرف الحقيقة ، الحقيقة التي تعمل على قتله الآن» . فكرت باكتئاب «إنه ليس ناضجاً ، إنه طفل ، مثلي . كما أنه شديد الخوف لفقده إياها . لقد كانت ميلي تعرف كيف ستكون النتيجة . . كانت ميلي تعرفه أفضل مما أعرفه بكثير ، وذلك هو سبب قولها أن أعتني به ويبو في النفس ذاته ، كيف يسع آشلي احتمال هذه المصيبة؟ أما أنا فبوسعي احتمالها . إن بوسعي احتمال أي شيء . إن علي أن أحتمل الكثير بينما هو لا يستطيع - لا يستطيع احتمال أي شيء بدونها» .

- «سامحني يا عزيزي» قالت برفق مادة ذراعيها «إني أعرف ما لا بد أنك تقاسيه ، ولكن تذكر أنها لا تعرف أي شيء ، ولم يحدث أن ارتابت بشيء ، لقد كان الله رحيماً جداً بنا» .

فاتجه إليها بسرعة ، وأحاطت ذراعاه بها بلا تبصر ، واشرأبت هي على رؤوس أصابعها لتضع خدها الدافئ على خده مؤاساة له ، بينما راحت يدها تمد مؤخرة شعره .

- «لا تبك يا عزيزي ، لقد أرادتك أن تكون شجاعاً . ينبغي أن لا ترى أنك كنت تبكي لأن ذلك سيزعجها» .

كان يمسك بها بقبضة جعلتها تتنفس بصعوبة ، وكان صوته الغاص في أذنها :

- «ماذا سأفعل؟ إني لا أستطيع - إني لا أستطيع العيش بدونها !» .

- «وكذلك أنا» وفكرت وهي ترتعد من صورة السنين الطويلة القادمة ، السنين التي ستعيشها بدون ميلاني ، غير أنها أمسكت نفسها بقبضة قوية ، فلقد كان آشلي يعتمد عليها ، وكانت ميلاني تعتمد عليها ، وفكرت ، كما سبق وفكرت مرة في ضوء القمر في تارا وهي مخمورة ، منهوكة القوى : «الأعباء للأكتاف القوية التي تستطيع حملها» أجل ، لقد كان كتفاها قويتين بينما لم تكن كتفا آشلي كذلك . وعدلت كتفيها استعداداً للعبء ، وبهدوء بعيد عن الشعور ، قبّلت خده المبلل ، دون حمى ، ودون لهفة أو عاطفة ، فقط بلطف خال من الشعور .

- «سنتدبر الأمر . . بطريقة ما» قالت .

وفتح باب إلى القاعة بحركة عنيفة مفاجئة ونادى الطبيب ميد بإلحاح شديد :

ـ «آشلي ! أسرع» .

ـ «يا إلـــهي ، لقد قضت ! فكرت سكارلت ، ولم يستطع آشلي أن يودعها ! «ولكن ربما . .» .

ـ «أسرع !» صاحت بصوت مرتفع ودفعته ، لأنه كان يقف محدقاً كرجل مشدوه .

وفتحت باب غرفته دفعاً ، وأخرجته منه ، وجرى هو في القاعة متأثراً بكلماتها ، وما زالت يده تقبض على القفاز بحنان . وسمعت خطواته السريعة هنيهة ، ثم سمعت صوت إغلاق باب .

وقالت «يا إلـــهي !» مرة ثانية ، ومشت إلى السرير ببطء ، وجلست عليه ، وأسقطت رأسها بين يديها وقد أحست فجأة بأنها تعبة ، أكثر مما كانت في أي يوم من أيام حياتها ، وبسماعها إغلاقة الباب ، تملص منها فجأة الانفعال الذي كانت تعمل بتأثيره الانفعال الذي كان قد منحها القوة . وشعرت بأنها منهوكة القوى جافة العواطف ، ولم تكن تشعر الآن بحزن أو بتقريع ضمير ، ولا بخوف أو ذهول . لقد كانت تعبة ، وكان عقلها يدق كئيباً ، بصورة آلية ، كساعة فوق رف الموقد .

ومن الكآبة ، برزت فكرة واحدة ، لم يكن آشلي يحبها ، بل لم يحدث أن أحبها حقّاً ، ولم تؤلمها معرفة ذلك . كان ينبغي أن تكون كئيبة ، كسيرة القلب ، على استعداد لتصرخ حزناً على نصيبها هذا . لقد اعتمدت على حبه زمناً طويلاً ، ولقد سندها حبه خلال مواطن مظلمة عديدة ، ومع ذلك ، فتلك هي الحقيقة . لم يكن يحبها ، ولم تكترث هي بذلك . لم تكترث بذلك لأنها لم تكن تحبه . أجل ، لم تكن تحبه ، ولذلك لم يكن بوسع أي شيء يقوله أو يفعله أن يؤلمها .

واضطجعت على السرير ، ووضعت رأسها على الوسادة وهي تعبة . لقد كان من العبث أن تحاول مقاومة الفكرة . كان من العبث أن تقول لنفسها «ولكني أحبه ، ولقد أحببته سنين طويلة ، ولا يمكن أن يتحول الحب إلى انعدام الشعور في دقيقة واحدة» .

غير أنه يمكن أن يتحوّل ، ولقد تحوّل فعلاً .

ـ «إنه لم يوجد قط إلاّ في مخيلتي» فكرت بضعف ، «لقد أحببت شيئاً

خلقته لنفسي ، شيئاً ميتاً تماماً كميلي ، لقد نسجت بذلة ثياب جميلة ووقعت في حبها . وعندما جاء آشلي راكباً وكان يبدو رائعاً جداً مختلفاً كثيراً عما هو الآن ، ألبسته تلك البذلة وجعلته يرتديها سواء أكانت مناسبة أم لم تكن . ولم أكن لأرى ماذا كانت حقيقته ، بل حافظت على حب البذلة الجميلة . . لا حبه أبداً» .

ـ «ما كان أغباني !» فكرت بمرارة ، (وها إني أجبرت الآن على أن أدفع ثمن غباوتي) ، إن الذي كنت أرجوه مراراً قد حدث . كنت أرجو أن تموت ميلي كي أستطيع نيله ، وها هي ميتة الآن ، وغدا هو في حوزتي ، ولكني لا أريده . وسيجعله شرفه اللعين يسألني عما إذا كنت أرغب في أن أطلق ريت وأتزوجه . لن أقبله على طبق فضي ! ولكن مهما كان الأمر فلقد أصبح معلقاً في عنقي بقية عمري . وطالما أنا حية سيتوجب عليّ أن أعتني به وأهتم به وأهتم في أن لا يجوع وفي أن لا يؤذي الناس شعوره . سيكون طفلاً آخر يتعلق بأهدابي . لقد فقدت حبيبي ، وها إني أنال طفلاً آخر . ولو أني لم أعد ميلي لما . . لما أمضّني أن لا أراه مرة أخرى» .



ريت أمام سرير بوني

وعندما توجهت إلى الباب ، سمعت سكارلت أصواتاً هامسة في الخارج ، ورأت الزنوج المذعورين يقفون في القاعة الخلفية : دلسي وذراعاها يهتزان تحت ثقل بو النائم ، العم بطرس يبكي ، كوكي تمسح وجهها العريض المبلل بمنديلها . ونظر الثلاثة إليها يسألون بصمت عما كان عليهم أن يفعلوا الآن . ونظرت هي في القاعة تجاه غرفة الجلوس ، ورأت إنديا والعمة بيتي تقفان صامتتين ، تمسك الواحدة منهما بيدي الأخرى ، وقد بدت إنديا هذه المرة متخلية عن نظرتها العنيدة ، ومشت إلى غرفة الجلوس وأحاطت المرأتان بها .

ـ «سكارلت ، ماذا . .» بدأت العمة بيتي وفمها البدين الشبيه بفم الطفل يرتجف .

ـ «لا تتكلمي معي وإلا فسأصرخ» قالت سكارلت وقد جلبت الأعصاب المنهوكة حدة إلى صوتها ، بينما كانت يداها تضغطان على جانبيها ، لقد جعلت فكرة التحدث عن ميلاني الآن ، فكرة عمل الترتيبات التي تتبع حادث الوفاة ، والتي كان لا بد منها ، لقد جعلت هذه الفكرة حنجرتها تنقبض مرة ثانية .

ـ «لا أريد سماع كلمة من أي منكما» .

وبتأثير اللهجة الآمرة في صوتها تراجعت الاثنتان وعلى وجهيهما أمارات الحيرة والألم «ينبغي أن لا أبكي أمامهما» فكرت «ينبغي أن لا أضعف الآن وإلا فستشرعان في البكاء هما أيضاً ، وعندئذ يشرع الزنوج في الزعيق ونجن جميعاً . ينبغي أن أتمالك نفسي ، فهناك الكثير الذي ينبغي علي عمله . عليّ أن أرى مجهز الدفن وأنظم أمر الجنازة وأشرف على نظافة البيت ، وأبقى هناك لأتحدث إلى الناس الذين سيبكون فوق كتفي . ليس بوسع آشلي أن يقوم بهذه الأمور ، وأيضاً ليس ذلك بوسع بيتي أو إنديا ، وعلي أنا تنفيذه . آه ، أي عبء مضن ! لقد كان هناك دائماً عبء مضن علي ، ودائماً ، عبء إنسان آخر!» .

ونظرت إلى الوجهين المبهورين المتألمين ، وجهي إنديا وبيتي ، واجتاحها شعور بالندم ، إذ لم تكن ميلاني ترغب في أن تتصرف سكارلت بهذه الحدة مع هاتين اللتين كانتا تحبانها .

ـ «إني آسفة لأني كنت حانقة» قالت وكانت تتكلم بصعوبة «إن المسألة هي أني . . إني متأسفة لأني كنت حانقة يا عمتي . سأخرج إلى الشرفة هنيهة ، إذ

لا بد من أن أنفرد بنفسي ، ثم أعود و . .» .

وخطت إلى الشرفة المظلمة ، وأغلقت الباب خلفها ، وأسندت رأسها إلى أحد أعمدة الشرفة ، وأجهشت في البكاء ، ولكن الدموع لم تسعفها ، فلقد كانت هذه مصيبة فادحة جداً ، بحيث لم يسع الدموع أن تنبجس . كان جسدها يرتجف ، وكان صوت تحطم قلعتي حياتها الحصينتين ما زال يتردد في عقلها ، يدوي دوياً ساحقاً حول أذنيها . ووقفت هنيهة تحاول أن تستدعي تعويذتها القديمة «سأفكر بهذا كله غداً ، عندما أستطيع احتماله أفضل من الآن» غير أن التعويذة كانت قد فقدت سحرها . وكان لا بد لها من أن تفكر بأمرين الآن : ميلاني وكم كانت تحبها وتحتاج إليها ، ثم آشلي والعمى العنيد الذي جعلها ترفض أن تراه كما كان على حقيقته . وكانت سكارلت تعرف أن التفكير بهذين الأمرين سيؤلمها ، غداً ، وفي كل غد من حياتها .

ـ «لا أستطيع الرجوع هناك ثانية ، والتحدث إليهما الآن» فكرت «كما أني لا أستطيع مواجهة آشلي ومواساته الليلة ! ليس الليلة ! سآتي صباح الغد باكراً ، وأقوم بالأمور التي ينبغي القيام بها ، وأقول العبارات المواسية التي يجب قولها ، ولكن ليس الليلة ، إني لا أستطيع ، إني ذاهبة إلى البيت» .

وكان البيت على بعد خمس قسائم بناء فقط ، ولم يكن من المتوقع أن تنتظر بطرس الناحب إلى أن يعد العربة ، أو تنتظر الطبيب ميد ليحملها بعربته إلى البيت . لا ، لم يكن بوسعها احتمال دموع بيتي أو لوم إنديا الصامت . وهكذا نزلت الدرجات الأمامية المعتمة بسرعة ، دون أن تأخذ معطفها أو قبعتها ، وانطلقت في الليل الكثيف الضباب ، ثم انثنت عند المنعطف وبدأت تصعد التلة الطويلة باتجاه شارع بيتشتري ، سائرة في دنيا رطبة صامتة ، وحتى خطواتها كانت صامتة كحلم .

وفيما هي تصعد التلة ، كان صدرها يزخر بدموع لم تكن لتنبجس ، وشرع ينتابها شعور كاذب بأنها كانت في هذا المكان البارد المعتم ذاته من قبل ، تكتنفها مجموعة من الظروف المماثلة ، ليس مرة واحدة ، بل عدة مرات من قبل . ما أحمقها ، فكرت باضطراب ، حاثة خطاها . لقد كانت أعصابها تخدعها . ولكن الشعور ذاته ما زال ينتابها ، يتملك عقلها خفية . وحدقت فيما حولها بارتياب ، وقوي الشعور بشكل مرعب ولكنه أليف ، ثم رفعت رأسها

بقوة كحيوان يشم خطراً . إن القضية هي أني منهوكة القوى وحسب . وحاولت تهدئة روعها . كما أن الليلة غريبة جداً . كثيفة الضباب كثيراً . إني لم أر ضباباً كثيفاً كهذا من قبل ، ما عدا . . ما عدا !

ثم عرفت ، وضغط الخوف على قلبها . لقد عرفت الآن . في مائة حلم رهيب ، كانت قد هربت خلال ضباب كهذا ، خلال بلاد تسكنها الأرواح ، لا معالم لها ، كثيفة بضباب بارد مغلف ، آهلة بأشباح ذات مخالب ، وبظلال . أكانت هي في الحلم ثانية ، أم كان حلمها هذا يتحقق؟

ولهنيهة انفصل الواقع عنها ، وترددت في ضياع . وأخذ شعور الحلم الرهيب القديم يجتاحها أقوى من أي وقت مضى ، ثم شرع قلبها يخفق . وأحست أنها كانت تقف ثانية وسط الموت والسكون ، تماماً كما كانت قد وقفت مرة في تارا . كل ما كان يلذها في الحياة كان قد غادرها ، وغدت الدنيا أنقاضاً ، وأخذ الرعب يعوي في قلبها كريح باردة . وكان الهول الكامن في الضباب ، والذي هو الضباب ذاته ، يضع يديه عليها . وبدأت تجري ، وكما كانت قد جرت مائة مرة في الأحلام ، كذلك كانت تجري الآن ، تجري بدون تبصر ، دون أن تعرف إلى أين يسوقها رعب مجهول ، تنشد في الضباب الرمادي الأمان الموجود في مكان ما .

وجرت صعداً في الشارع المظلم ، رأسها منكس ، وقلبها خافق ، وهواء الليل الرطب على شفتيها ، والأشجار فوق رأسها تهددها . في مكان ما ، في مكان ما في هذه الأرض البرية ، أرض السكون البليل ، يوجد ملجأ ! وأسرعت تصعد التلة لاهثة ، وأطواقها المبللة تلتف باردة حول كاحليها ورئتاها تكادان تتفجران ، ومشدها المشدود الشرائط يضغط أضلاعها في قلبها .

ثم لاح ضوء أمام عينيها ، صف أضواء باهتة مرتعشة ، ولكنها حقيقية تماماً ، بينما لم يكن هناك في حلمها أي ضوء ، بل ضباب رمادي وحسب . وقبض عقلها على هذه الأضواء ، فهي تعني الأمان والناس والواقع . وفجأة توقفت عن الجري ، ويداها منقبضتان وهي تكافح لتنتشل نفسها من وهدة الرعب ، تحدق بتصميم نحو صف الأضواء الغازية التي أشارت لعقلها بأن هذا كان شارع بيتشتري ، أتلانتا ، وليس العالم الرمادي ، عالم الضباب والأشباح .

وتهالكت فوق مقعد على الطريق وهي تلهث ، تشد على أعصابها وكأنها كانت حبالاً تنساب بسرعة من بين يديها :

ـ «لقد كنت أركض ـ أركض كشخص مجنون» فكرت وجسدها يهتز جراء خوف يتضاءل وقلبها الخافق يشعرها بالمرض «ولكن إلى أين كنت أركض؟» .

وصارت تتنفس بسهولة الآن ، وجلست ويدها تضغط على جانبها وهي تنظر إلى أعلى شارع بيتشتري ، هناك على قمة التلة ، كان يقع بيتها ، كان يبدو وكأن كل نافذة فيه تشع بأضواء ، أضواء تتحدى الضباب أن يعتم تلألؤها . البيت! لقد كان ذلك حقيقياً! وتطلعت إلى هيكل البيت البعيد الباهت شاكرة ، متلهفة ، وغمر روحها شيء كالسكينة .

البيت! ذلك كان المكان الذي أرادت الذهاب إليه ، ذاك كان المكان الذي جرت إليه ، إلى البيت ، إلى ريت .

وعند تبينها هذا الأمر ، بدا وكأن أغلالاً سقطت عنها ، وسقط معها الخوف الذي كان قد لازم أحلامها منذ الليلة التي راحت تتعثر فيها في طريقها إلى تارا ، لتجد أن الدنيا كانت قد انتهت . فعند نهاية الطريق إلى تارا ، كانت قد وجدت أن الأمان قد ذهب ، وذهبت معه كل القوة وكل الحكمة وكل الحنان الودود وكل الفهم - جميع هذه الصفات ، التي كانت تتجسد في أمها ، والتي كانت حصن فتوتها . ومع أن سكارلت كانت قد حظيت بالأمان المادي منذ تلك الليلة ، إلاّ أنها كانت لا تزال طفلة مذعورة في أحلامها ، تنشد السلامة المفقودة في ذلك العالم الضائع .

وعرفت الآن الملجأ الذي كانت تنشده في أحلامها ، عرفت موطن السلامة الدافئ الذي كان الضباب يحجبه عنها دائماً في أحلامها . لم يكن ذلك الملجأ هو آشلي ـ ها ، لم يكن آشلي مطلقاً ، لأنه لم يكن يوجد فيه من الدفء أكثر مما يوجد في ضوء مستنقع ، ولا من الأمان أكثر مما يوجد في وعس . لقد كان ذلك الملجأ هو ريت ـ ريت الذي كان ينعم بذراعين قويتين لتسنداها ، وبصدر عريض ليوسد رأسها التعب ، وبضحك ساخر ليدفع مشاكلها إلى المنظار الصحيح ، والذي كان ينعم أيضاً بفهم تام لأنه كان مثلها ، يرى الحقيقة كحقيقة ، يراها غير مشوهة بأفكار غير عملية ، أفكار الشرف والتضحية أو الإيمان الرفيع بالطبيعة الإنسانية . لقد كان يحبها! لماذا لم تتبين أنه كان يحبها رغم كل ملاحظاته المعيِّرة التي تظهر عكس ذلك؟ لقد تبينت ميلاني تلك الحقيقة إذ قالت في آخر رمق من حياتها «كوني لطيفة معه» .

ـ «آه» ، فكرت «ليس آشلي هو الشخص الوحيد الأعمى بحماقة . لقد كان ينبغي أن أتبيّن ذلك .

لقد ظلت طوال السنين تسند ظهرها إلى جدار حب ريت الحجري ، ذلك الحب الذي كانت تعتبره أمراً مسلماً به ، كحب ميلاني . كانت تفعل ذلك وهي تمالئ نفسها بأنها كانت تستمد قوتها من ذاتها هي فقط . وتماماً ، كما كانت قد أدركت في أول الأمسية أن ميلاني كانت بجانبها في حملاتها المريرة ضد الحياة ، أدركت الآن أن ريت كان وقد وقف خلفها صامتاً ، وقف محبّاً لها ، فاهماً حقيقتها ، مستعداً لمساعدتها ، ريت الذي وقف في السوق الخيرية يقرأ جزعها في عينيها ، ويقودها إلى حلبة الريل ، ريت الذي ساعد في إخراجها من أسر الحداد ، ريت الذي حرسها خلال النار والانفجار ليلة سقوط أتلانتا ، ريت الذي أقرضها المال الذي مكنها من البدء بمشاريعها ، ريت الذي كان يواسيها عندما كانت تستيقظ ليلاً وهي تبكي مذعورة من أحلامها ـ كيف لا ، وليس هناك رجل يفعل هذه الأمور دون أن يكون محباً لامرأة ، محبّاً لها إلى درجة الهيام .

ـ «إني أحبه» فكرت . وكما هو الحال دائماً ، تقبلت الحقيقة بقليل من الدهشة ، كما يتقبل طفل هدية . «إني لا أعرف منذ متى أحبه ، ولكن الأمر حقيقي ولولا آشلي ، لتبينت ذلك منذ مدة طويلة . أجل ، لم يكن بوسعي أن أرى الدنيا أبداً لأن آشلي كان يقف في الطريق» .

ونهضت مستقيمة القامة ، ونظرت إلى البيت فوق التلة . لقد ظنت منذ نصف ساعة أنها كانت قد فقدت كل شيء في الدنيا باستثناء المال ، كل شيء كان يجعل الحياة مرغوباً فيها . إيلين وجيرالد وبوني ومامي وميلاني وآشلي . لقد كان لا بد لها من أن تفقدهم جميعاً كي تتبين أنها كانت تحب ريت ، تحبه لأنه كان قوياً غير هياب ، عاطفياً دنيوياً مثلها .

ـ «سأخبره بكل شيء» هجست «وسيفهم هو . إنه يفهم دائماً . سأخبره ما كان أغباني ، وما أعظم حبي له ، وسأعوض له عن كل شيء» .

لقد عرفت ملجأها ، وانطلقت بحماسة تصعد الشارع باتجاه البيت ، وبدت أبعاد قسائم البناء طويلة جداً ، طويلة طويلة جداً ، ورفعت أطواقها حتى ركبتيها ، وشرعت تركض بخفة ، ولكنها لم تكن تركض من الخوف هذه المرة ، بل كانت تركض لأن ذراعي ريت كانتا في نهاية الشارع بانتظارها .

63

كان باب البيت الأمامي مفتوحاً قليلاً ، وخبت سكارلت في القاعة منقطعة النفس ، وانتظرت هنيهة تحت بلورات الثريا المنشورية الشكل الملونة بألوان قوس قزح ، ورغم كل إشراقه ، كان البيت عميق السكون ، ليس سكون النوم الخالص ، بل سكوناً متيقظاً تعباً كان ينذر بقليل من الشؤم . وبنظرة واحدة ، رأت أن ريت لم يكن في الردهة أو في المكتبة ، وخفق قلبها . هب أنه كان في الخارج - في الخارج مع بيل ، أو حيث كان يقضي الأمسيات العديدة عندما لم يكن يظهر على طاولة العشاء؟ آه ، لم تكن قد حسبت حساب هذا الأمر .

صعدت الدرجات بحثاً عنه عندما رأت أن باب غرفة الطعام كان مقفلاً . وعند رؤية ذلك الباب المقفل انقبض قلبها بالعار ، لأنها تذكرت الليالي العديدة في هذا الصيف الأخير ، عندما كان ريت يجلس هناك وحيداً يحتسي الخمرة إلى أن تخضل عيناه ، فيأتي بورك ليحمله إلى سريره . لقد كانت تلك غلطتها . ولكنها ستغير هذا الوضع كله . أجل ، ستغير كل شيء من الآن فصاعدا - ولكن أرجوك يا إلــهي ، لا تدعه يكون ثملاً جداً هذه الليلة ، لأنه إذا كان ثملاً جداً فلن يصدقني بل سيضحك مني ، الأمر الذي سيحطم قلبي .

وشقت باب غرفة الطعام بهدوء ، ورنت إلى الداخل . كان يجلس أمام الطاولة ، مسترخياً في كرسيه ، وأمامه قارورة خمر ملأى ، السدادة لم تنتزع بعد ، والكأس لم يستعمل . شكراً لله ، لقد كان صاحياً ! . وفتحت الباب ، وأمسكت نفسها عن أن تجري إليه ، ولكن عندما تطلع نحوها ، أوقفها شيء في نظرته ، كميتة على العتبة ، وجمد الكلمات التي على شفتيها .

راح ينظر إليها بثبات ، من عينين سوداوين ، عينين كانتا مثقلتين بالإعياء وليس فيهما أي بريق وثاب ، ومع أن شعرها كان يتناثر حول كتفيها وصدرها يخفق وهو منقطع النفس وأطواقها ملطخة بالوحل حتى الركبتين ، إلاّ أن وجهه لم ينطق بأي تعبير دهشة أو استفهام ، كما أن شفتيه لم تزما بالسخرية . كان غارقاً في كرسيه ، حلته متجعدة حول خصره بصورة عديمة الأناقة ، وكل تغضنة فيه تعلن عن دمار جسد بديع وعن اخشيشان وجه قوي . لقد فعل

الشرب والفسق فعلهما في وجه قطعة النقود المصقولة ، فلم يعد الآن رأس أمير وثني شاب على ذهب مضروب حديثاً ، بل رأس قيصر متعب خسيس على قطعة نحاس براها طوال الاستعمال . كان ينظر إليها وهي تقف هناك ويدها على قلبها ، ينظر بهدوء ، بطريقة مشفقة تقريباً ، الأمر الذي أفزعها .

ـ «تعالي واجلسي» قال «هل أسلمت روحها؟» .

فأومأت برأسها أن نعم ، وتقدمت نحوه مترددة والريبة تتصاعد في عقلها من هذا التعبير الجديد في وجهه . وبدون أن ينهض ، دفع بقدمه كرسيّاً إلى الوراء ، وجلست هي عليه ، متمنية أن لو لم يتحدث عن ميلاني بهذه السرعة ، إذ لم تكن ترغب في الحديث عنها الآن ، لم تكن ترغب في أن تحيي عذاب الساعة الأخيرة . كان هناك وقت مديد ، طيلة بقية حياتها ، لتتحدث خلاله عن ميلاني . ولكن كان يبدو لها الآن وهي مسوقة من قبل رغبة عنيفة في أن تصرخ «إني أحبك» إنه يوجد فقط هذه الليلة ، هذه الساعة ، لتخبر ريت فيها بما كان يدور في عقلها . ولكن كان هناك شيء في وجهه منعها من ذلك ، وفجأة أحست بالخجل من التحدث عن الحب بينما ميلاني لم تكد تبرد .

ـ «على كل حال ، لقد أراحها الله» قال بتثاقل «لقد كانت الشخص الوحيد الكامل اللطف الذي عرفته» .

ـ «آه يا ريت !» صاحت ببؤس ، لأن كلماتها ذكرتها بوضوح بكل الأعمال اللطيفة التي كانت ميلاني قد عملتها معها «لماذا لم تدخل معي؟ لقد كان الوضع رهيباً ، وكنت بحاجة ماسة إليك» .

ـ «لم يكن بوسعي تحمل ذلك» قال ببساطة . وصمت هنيهة ، ثم تكلم بجهد وقال بلطف «سيدة عظيمة جداً» .

وتجاوزتها نظرته الكئيبة ، ونطقت عيناه بالتعبير ذاته الذي كانت قد رأته في ضوء اللهيب ليلة سقوط أتلانتا ، عندما أخبرها أنه منطلق مع الجيش المتقهقر ـ تعبير عن دهشة رجل يعرف نفسه تمام المعرفة ، ومع ذلك يكتشف في نفسه شمائل إخلاص وعواطف غير متوقعة ، فيحس باستهزاء ذاتي خفيف لهذا الاكتشاف .

كانت عيناه المكتئبتان تنظران من فوق كتفيها ، وكأنهما تريان ميلاني تعبر الغرفة إلى الباب في سكون . ولم يكن في نظرة الوداع في وجهه أي حزن أو

ألم ، وإنما كان فيها دهشة تأملية من نفسه ، وثورة حادة لعواطف ميتة منذ الشباب ، ظهرت عندما قال ثانية «سيدة عظيمة جداً» .

وارتعشت سكارلت ، وغادر الوهج قلبها ، الدفء الرائع البهاء الذي حملها إلى البيت على قدمين مجنحتين . واستطاعت أن تدرك نصف إدراك ، ما كان يدور في عقل ريت وهو يقول وداعاً للشخص الوحيد الذي كان يجله في الدنيا ، وشعرت بالوحشة ثانية ، وبإحساس رهيب من الضياع الذي لم يعد ضياعاً شخصياً . لم يكن بوسعها أن تفهم أو تحلل ما كان يشعر به تماماً ، ولكن الأمر كان يبدو وكأنها هي أيضاً كانت قد مست بتنورة هامسة ، مست برفق في معانقة أخيرة . ولم تكن ترى خلال عيني ريت امرأة ميتة راحلة ، بل كانت ترى فيهما أسطورة ـ أسطورة النساء اللطيفات المنكرات لذواتهن ، ولكن الفولاذيات الإرادة ، اللواتي كان الجنوب قد ابتنى بيته عليهن في الحرب ، واللواتي عاد إلى كبريائهن وأذرعهن المحبة إثر الهزيمة .

ورجعت عيناه إليها وتغير صوته ، وبدا المكان منيراً بارداً الآن .

ـ «وهكذا فقد فارقت الدنيا . إن ذلك يجعل الفرصة سانحة لك ، أليس كذلك؟» .

ـ «ها كيف تستطيع قول أشياء كهذه» صاحت ملسوعة وقد جرت الدموع السريعة إلى عينيها «إنك تعرف كم كنت أحبها !» .

ـ «لا ، إني لا أستطيع أن أقول إني كنت أعرف . إن من أبعد الأشياء المتوقعة ، ومما هو في صالحك ، كونك قد استطعت تقديرها أخيراً ، وذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار عاطفتك نحو الحقيرين البيض» .

ـ «كيف تستطيع أن تقول مثل هذا الكلام؟ طبعاً لقد كنت أقدرها ! أما أنت فلا ـ لم تكن تعرفها كما كنت أعرفها ! وليس من شيمتك أن تفهمها ـ ما كان أطيبها . .» .

ـ «حقاً؟ ربما !» .

ـ «كانت تفكر بكل إنسان ما عدا نفسها . كيف لا وقد كانت كلماتها الأخيرة عنك» .

وشعت عيناه بوميض من شعور أصيل وهو يلتفت إليها :

ـ «وماذا قالت؟» .

ـ «آه ، ليس الآن يا ريت» .

ـ «أخبريني» .

كان صوته فاتراً ، ولكن يده التي وضعها على معصمها آلمتها . لم تكن تريد إخباره ، فلم تكن هذه هي الطريقة التي كانت قد عزمت على أن تقوده فيها إلى موضوع حبها ، غير أن يده كانت ملحة .

ـ «لقد قالت ـ قالت ـ (كوني لطيفة مع الكابتن بتلر . إنه يحبك حباً جماً)» .

فحملق فيها ، وأفلت معصمها ، ثم خفض جفنيه تاركاً وجهه صفحة معتمة مبهمة . وفجأة نهض وذهب إلى النافذة ، وأزاح الستار لينظر إلى الخارج بتعمد ، وكأنه كان هناك شيء للرؤية في الخارج ، شيء غير الضباب الحاجب .

ـ «هل قالت أي شيء آخر؟» استوضح دون أن يدير رأسه .

ـ «طلبت مني أن أعتني ببو الصغير ، فأجبتها بأني سأعتني به وكأنه ولدي» .

ـ «وماذا أيضاً؟» .

ـ «قالت ـ آشلي ـ طلبت مني أن أعتني بآشلي أيضاً» .

وظل صامتاً لدقيقة ثم ضحك برقة .

ـ «من المناسب الحصول على إذن الزوجة الأولى ، أليس كذلك؟» .

ـ «ماذا تعني؟» .

فالتفت نحوها ، وحتى وهي في ارتباكها استغربت أن لا تكون هناك سخرية في وجهه ، كما لم يكن فيه اهتمام أكثر مما يكون في وجه رجل يشاهد الفصل الأخير من هزلية غير مسلية .

ـ «أعتقد أن معناي واضح تماماً . إن الآنسة ميلي ميتة . ومن الأكيد أنك تملكين جميع البينات التي تحتاجين إليها لتطلقيني ، ولم يبق لديك من حسن السمعة ما يكفي ليجعل عملية طلاق أمراً مسيئاً إليك . وكذلك لم يبق لديك أي اعتقاد بالدين ، وهكذا فلن تؤثر الكنيسة . وإذاً . . . فإن آشلي ستظفرين به وأحلامك ستتحقق مع تبريكات الآنسة ميلي» .

ـ «طلاق؟» صاحت «لا! لا!» .

وشعرت بالانسحاق هنيهة ، ووثبت على قدميها ثم جرت إليه وأمسكت بذراعه : «إنك مخطئ تماماً . مخطئ للغاية . إني لا أريد طلاقاً . إني . . .»

وتوقفت لأنها لم تستطع إيجاد كلمات أخرى .

ووضع يده تحت ذقنها ، وبلطف رفع وجهها إلى النور ، وراح ينظر إلى عينيها بتصميم هنيهة قصيرة . ونظرت هي إليه وقلبها في عينيها وشفتاها ترتعدان وهي تحاول التكلم ، ولكنها لم تستطع تنسيق أي عبارة ، لأنها كانت تحاول أن تجد في وجهه بعض العواطف المجاوبة ، بعض نور الأمل الوثاب ، نور الفرح . حتماً ينبغي أن يعرف الآن ! ولكن كل ما استطاعت عيناها الباحثتان المهووستان أن تجداه هو الذهول الهادئ القاتم الذي كان قد حيرها مراراً . ثم أفلت ذقنها واستدار عائداً إلى كرسيه واسترخى فيه ثانية بحركة تدل على الإعياء ، بحيث لامست ذقنه صدره ، وراحت عيناه تنظران إليها من تحت حاجبين أسودين بطريقة تأملية .

وتبعته هي إلى كرسيه ويداها مثنيتان ، ووقفت قبالته :

ـ «إنك مخطئ» شرعت ثانية وقد وجدت الكلمات «ريت ، عندما عرفت هذه الليلة ركضت كل خطوة من الطريق إلى البيت لأخبرك . آه يا حبيبي ، إني . . .» .

ـ «إنك تعبة» قال وما زال يراقبها «من الأفضل أن تذهبي إلى سريرك» .

ـ «ولكن ينبغي أن أخبرك !» .

ـ «سكارلت» قال بتثاقل ، «إني لا أريد أن أسمع . . . لا شيء» .

ـ «ولكنك لا تعرف ما سأقوله !» .

ـ «يا مدللتي ، إنه مسطور على وجهك بوضوح . شيء ما ، إنسان ما ، جعلك تتحققين من أن السيد ويلكس التعيس الحظ لقمة كبيرة جداً من فاكهة البحر الميت بحيث لا يسعك أن تمضغيها . وذلك الشيء ذاته ، وضع مفاتني أمامك فجأة في ضوء جديد جذاب «وتنهد تنهداً خفيفاً» ولا جدوى من التحدث عن ذلك» .

فتنفست نفساً حاداً مدهوشاً . طبعاً ، لقد كان دائماً يقرأ وجهها بسهولة . وفيما مضى كانت تمتعض من قدرته تلك ، ولكن الآن ، وبعد الصدمة الأولى الناجمة عن شفافيتها ، ارتفع قلبها سروراً وتسرية . لقد عرف ، لقد فهم ، ولقد أضحت مهمتها سهلة بطريقة عجيبة . لا جدوى من التحدث عن ذلك ! طبعاً لقد كان قاسياً عليها بسبب إهمالها الطويل له ، طبعاً لقد كان مرتاباً بتحولها

المفاجئ، وكان عليها أن تتودد له بلطف، وتعنفه بدفق غزير من الحب، وما ألذ أن تفعل ذلك!

- «حبيبي، سأخبرك بكل شيء» قالت واضعة يديها على ذراع كرسيه ومنحنية نحوه: «لقد كنت مخطئة جداً، مجرد غبية حمقاء...».

- «سكارلت، لا تتابعي هذا الحديث. لا تظهري ذليلة أمامي، فإني لا أستطيع احتمال ذلك. أبقي لنا بعض الكرامة، بعض الأسرار لنتذكرها عن زواجنا، استبقي لنا هذا الحديث الأخير».

فاستقامت بجلستها فجأة. استبقي لنا هذا الحديث الأخير؟ ماذا عنى بـ«هذا الحديث الأخير؟» الأخير؟.. لقد كان هذا حديثهما الأول، بداية حياتهما الجديدة.

- «ولكني سأخبرك» شرعت بسرعة وكأنها كانت تخشى أن يضع يده على فمها ليسكتها «آه يا ريت، إني أحبك كثيراً يا حبيبي! ولا بد من أني كنت أحبك منذ سنين، غير أني كنت حمقاء ممعنة في الحمق بحيث لم أكن أعرف ذلك. ريت، ينبغي أن تصدقني!».

فنظر إليها هنيهة وهي واقفة أمامه، نظر إليها نظرة طويلة اخترقت رأسها إلى مؤخرة عقلها، ورأت أن هناك تصديقاً في عينيه ولكن قليلاً من الاهتمام. آه، هل سيتصرف بخسة في هذا الموضوع من بين جميع الأوقات؟ هل يعذبها، ليرد لها الثمن بعملتها؟

- «ها، إني أصدقك» قال أخيراً «ولكن ماذا عن آشلي ويلكس؟».

- «آشلي!» قالت وأومأت بإشارة ملول «إني.. إني لا أعتقد أني أهتم به أدنى اهتمام منذ زمن طويل. لقد كان الأمر... كان عادة تعلقت بها منذ كنت فتاة صغيرة يا ريت. ولو أني عرفته على حقيقته لما فكرت بأن أحتفل به أبداً. إنه مخلوق ضعيف الروح عديم الحيلة رغم كل هذيانه عن الصدق والشرف و...».

- «لا» قال ريت «إذا كان لا بد لك من أن تريه على حقيقته، فريه باستقامة أنه ليس سوى سيد أسير في عالم لا ينتمي إليه، يحاول أن يعمل جهده الذي يدعو للإشفاق على ضوء قوانين العالم الذي انقضى».

- «ريت، لا تدعنا نتحدث عنه! ماذا يؤثر الآن؟ ألست سعيداً بمعرفة

أن . . . أعني الآن وقد عرفت أنني . . .» .

وحالما قابلت عيناه التعبتان عينيها ، توقفت عن التحدث مرتبكة كفتاة مع عشيقها الأول . حبذا لو أنه يسهل المهمة عليها! لو أنه يمد ذراعيه كي تستطيع أن تُسقط جسدها في حضنه شاكرة ، وتضع رأسها على صدره . فبوسع شفتيها وهما على شفتيه أن تنبئاه أفضل مما تنبئه جميع كلماتها المتعثرة . ولكن ، وبينما كانت تنظر إليه ، أدركت أنه لم يكن يبقيها بعيداً عنه ليكون خسيساً معها وحسب ، بل كان يبدو مستنزف الحس ، وكأن كل شيء قالته لم ، يكن بذي بال لديه .

ـ «سعيد؟» قال «كان يمكن فيما مضى أن أشكر الله ، أن أصوم من أجل أن أسمعك تقولين كل هذا . ولكن الآن ، إنه لا يؤثر» .

ـ «لا يؤثر؟ ماذا تقول؟ طبعاً إنه يؤثر! ريت ، إنك تحفل بي ، أليس كذلك؟ ينبغي أن تحفل بي . لقد قالت ميلي إنك تحفل بي» .

ـ «الواقع أنها كانت مصيبة بقدر ما كانت تعرف . ولكن يا سكارلت ، هل خطر لك يوماً أنه حتى أخلد أنواع الحب يمكن أن يفنى؟» .

فنظرت إليه دون أن تتكلم ، وفمها مفتوح فتحة دائرية .

ـ «لقد فني حبي» ، تابع كلامه «بسبب آشلي ويلكس وعنادك المجنون الذي يجعلك ككلب سوقي في طلب أي شيء تعتقدين أنك تريدينه . . . لقد فني حبي» .

ـ «ولكن الحب لا يمكن أن يفنى!» .

ـ «إن حبك لآشلي فني!» .

ـ «ولكن في الحقيقة لم أكن أحب آشلي!» .

ـ «إذاً ، فمن الأكيد أنك أحسنت تقليد ذلك . . . حتى هذه الليلة . إني لا أعيِّرك يا سكارلت ، ولا أتهمك ولا ألومك . لقد مضى ذلك الوقت ، ولذلك وفري علي دفاعك وإيضاحاتك . وإذا استطعت أن تصغي إلى دقائق قليلة دون أن تقاطعيني ، فبوسعي أن أوضح لك ما أعني ، مع أن الله يعرف أني لا أرى موجباً للإيضاح ، فالحقيقة واضحة جداً» .

وجلست سكارلت ، جلست تنظر إلى العينين اللتين كانت تعرفهما جيداً ـ وتعرفهما قليلاً جداً ـ ثم راحت تصغي إلى صوته الهادئ ينطق بكلمات لم

تكن تعني شيئاً في بادئ الأمر . كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها إليها بهذا الأسلوب ، حديث إنسان لإنسان آخر ، يتحدث كما كان يتحدث الناس الآخرون ، دون ثرثرة ، ودون سخرية أو ألغاز .

ـ «هل خطر لك يوماً أني كنت أحبك كثيراً ، كثيراً بقدر ما يستطيع رجل أن يحب امرأة؟ أحبك منذ سنين قبل أن أظفر بك أخيراً؟ خلال الحرب ، كان يمكن أن أسافر بعيداً وأحاول نسيانك ، ولكني لم أستطع ، وكان لا بد لي دائماً من أن أعود . وبعد الحرب ، عرضت نفسي للأسر ، فقط لأعود وأجدك . كنت أحفل بك كثيراً جداً بحيث أني أعتقد أنه كان يمكن أن أقتل فرانك كندي لو أنه لم يمت فعلا . كنت أحبك ، ولكن لم يكن بوسعي أن أدعك تعرفين ذلك ، فأنت قاسية جداً ، مع هؤلاء الذين يحبونك يا سكارلت . إنك تأخذين حبهم وتحملينه كسوط فوق رؤوسهم» .

من بين ما نطق به ، لم تفهم سكارلت شيئاً سوى حقيقة أنه كان يحبها . وبفعل صدى العاطفة الخافت في صوته ، عاودها السرور والانفعال . وهكذا ظلت جالسة ، تتنفس وتصغي وتنظر بصعوبة .

ـ «وكنت أعرف أنك لم تكوني تحبينني عندما تزوجتك . وكنت أعرف علاقتك بآشلي ، غير أنني ظننت ، لغباوتي ، أن بوسعي أن أجعلك تحفلين بي ، اضحكي إن شئت ، ولكني كنت أريد أن أعتني بك ، أن أدللك ، أن أمنحك كل شيء ترغبين فيه . كنت أريد أن أتزوجك وأحميك وأطلق لك العنان في كل شيء يمكن أن يجعلك سعيدة ، تماماً كما كنت أفعل مع بوني . ولكنك أبديت مقاومة يا سكارلت ، ولم يكن أحد يعرف أفضل من معرفتي ، ما كان يمكن أن تنزلقي إليه . وكنت أريدك أن تنقطعي عن الكفاح وتدعيني أكافح من أجلك . كنت أريدك أن تلعبي كطفلة ـ لأنك كنت طفلة ، طفلة شجاعة مذعورة عنيدة . وأظن أنك ما زلت طفلة . فلا أحد سوى الطفلة يمكن أن يكون بمثل هذا العناد وعدم الإحساس» .

كان صوته هادئاً تعباً ، ولكن كان هناك شيء في نوعه ، شيء أثار شبحاً من ذكرى في سكارلت . كانت قد سمعت صوتاً كهذا مرة من قبل ، وفي إحدى أزمات حياتها . أين كان ذلك؟ صوت رجل يواجه نفسه ودنياه بدون إحساس ، بدون إجفال ، بدون أمل .

أجل . . . أجل . . . لقد كان ذلك هو صوت آشلي في البستان البارد العاصف في تارا ، يتحدث عن الحياة والظل بهدوء تعب ويعكس من الحسم في نغمته أكثر مما يمكن أن تعكس أي مرارة يائسة . وتماماً ، كما كان صوت آشلي آنئذ قد جعلها تبترد بالرعب من أمور لم تستطع فهمها ، كذلك جعل صوت ريت قلبها يهبط الآن . لقد أزعجها صوته وأسلوبه وجعلاها تتبين أن انفعالها السار منذ لحظات كان في غير أوانه . لقد أثرا فيها أكثر مما أثر الإقناع في كلماته . شيء ما كان خطأ ، خطأ للغاية ، أما ماذا كان ذلك الشيء فلم تكن تعرف . غير أنها كانت تصغي بيأس ، وعيناها مصوبتان إلى وجهه الأسمر ، آملة أن تسمع كلمات تبدد مخاوفها .

ـ «وكان من الواضح جداً أننا خلقنا لبعضنا بعضاً ، كما كان من الواضح جداً أنني كنت الرجل الوحيد من بين معارفك الذي كان بوسعه أن يحبك بعد أن عرفك على حقيقتك ـ قاسية جشعة مستهترة ، مثلي . لقد أحببتك فتزوجتك ، معتقداً أن آشلي سيتلاشى من عقلك . ولكن» وهز كتفيه «لقد حاولت كل شيء كنت أعرفه فلم يجد نفعاً . ومع ذلك فقد أحببتك يا سكارلت . ولو أنك أتحت لي المجال فقط ، لكان يمكن أن أحبك برقة وحنان يفوق حب أي رجل لامرأة . ولكن لم يكن بوسعي أن أدعك تعرفين ذلك ، لأني كنت أعرف أنك ستظنين أني ضعيف وتحاولين أن تستغلي حبي ضدي . ودائماً ، دائماً كان هناك آشلي ، الأمر الذي قادني إلى الجنون ، فلم يكن بوسعي أن أضمك بين ذراعي في الليل وأنا أعرف أنك . . . على كل حال ، إن ذلك لا يؤثر ، وإني لأتساءل الآن ، لماذا كان ذلك يؤلمني ، ذلك الذي قادني إلى بيل . إن هناك راحة بهيمية معينة في كون الرجل مع امرأة تحبه تماماً وتحترمه لأنه سيد جميل ، حتى ولو كانت عاهرة أمية ، لقد كان ذلك يلطف من غروري ، ولم تكوني أنت يوماً ملطفة جداً له يا عزيزتي» .

ـ «ها ، ريت . . .» بدأت وهي تشعر بالبؤس من مجرد ذكر اسم بيل ، إلا أنه أشار إليها أن تصمت وتابع حديثه :

ـ «وبعدئذ ، وفي تلك الليلة ، عندما حملتك إلى الطابق العلوي ـ ظننت ـ أملت ـ أملت كثيراً جداً بحيث أني كنت خائفاً من أن أواجهك في الصباح التالي خشية أن أكتشف أنني كنت على خطإ في ما أملت وأنك لم تكوني

تحبينني . كنت خائفاً جداً من أن تضحكي علي ، ولذلك غادرت المنزل ورحت أشرب حتى سكرت . وعندما عدت ، كنت أرتجف فرقاً . ولو أنك أتيت نصف الطريق لتلاقيني ، لو أنك أومأت إلي بإشارة ما ، لكنت قبّلت قدميك على ما أظن ، غير أنك لم تفعلي شيئاً من ذلك» .

ـ «ها ، ولكن يا ربت ، كنت أريدك آنئذ إلا أنك كنت مقيتاً جداً ! كنت أريدك وأعتقد . . . أجل لا بد أن يكون ذلك عندما عرفت للمرة الأولى أني كنت أحفل بك ، أما آشلي . . . لم أعد سعيدة بعلاقتي بآشلي منذ ذلك الوقت ، إلا أنك كنت مقيتاً جداً بحيث أني . . .» .

ـ «ها ، على كل حال» قال «إن الأمر يبدو وكأننا كنا على هدفين متناقضين . أليس كذلك؟ بيد أن ذلك لا يؤثر الآن . وإني أخبرك بذلك كي لا تتساءلي عن الموضوع أبداً بعد الآن . عندما كنت مريضة ، وكان كل ذلك بسبب غلطتي ، كنت أقف خارج بابك ، آملاً أن تستدعيني ولكنك لم تفعلي ، وعندئذ عرفت ما كان أغباني ، وعرفت أن كل شيء قد انتهى» .

وتوقف عن الكلام ، ونظر عبرها وإلى ما وراءها ، تماماً كما كان آشلي قد فعل مراراً ، يرى شيئاً لم يكن بوسعها رؤيته ، وهكذا لم تستطع الآن سوى التحديق بصمت في وجهه الساهم .

ـ «ولكن بعد ذلك ولدت بوني ، ورأيت أن كل شيء لم ينته مع ذلك . كنت أرغب في أن أفكر بأن بوني كانت أنت ، فتاة صغيرة أيضاً ، قبل أن تفعل الفاقة والحرب فعلهما فيك . لقد كانت عظيمة الشبه بك ، شجاعة مرحة كثيراً ، مفعمة بالمعنويات العالية ، ووسعني أن أدللها فأفسدها ـ تماماً كما كنت أريد أن أدلّلك ، ولكنها لم تكن مثلك ، كانت تحبني وكان من نعمة الله علي أنني استطعت أن آخذ الحب الذي رفضته وأمنحه لها . . . وعندما قضت ، أخذت معها كل شيء» .

وفجأة شعرت بأنها حزينة من أجله ، حزينة حزناً شديداً أزال غمها وخوفها مما كان يمكن أن تعنيه كلماته . وكانت هذه هي المرة الأولى في حياتها ، التي تشعر فيها بالحزن من أجل إنسان ، دون أن يصحب الازدراء شعورها بالحزن ، وذلك لأنها كانت المرة الأولى التي قاربت فيها فهم إنسان آخر . وكذلك استطاعت فهم انغلاقه الأريب ، المماثل كثيراً لانغلاقها ، وكبريائه العنيد الذي

منعه من الإقرار بحبه خشية الصد .

ـ «آه يا حبيبي» قالت وهي تقترب منه آملة أن يمد ذراعيه ويجذبها إلى ركبتيه «حبيبي إني آسفة جداً ، ولكني سأعوض لك عن كل ذلك ! إن بوسعنا أن نكون سعيدين جداً الآن وقد عرفنا الحقيقة . و . . . يا ريت . . . انظر إلي يا ريت ! اسمع . . . بوسعنا أن ننجب أطفالاً آخرين . . . ليس مثل بوني ولكن . . » .

ـ «أشكرك ، لا» قال ريت وكأنه كان يرفض قطعة خبز «لن أخاطر بقلبي مرة ثالثة» .

ـ «ريت ، لا تتفوه بعبارات كهذه ! آه ، ماذا يمكنني أن أقول كي أجعلك تفهم؟ لقد أخبرتك كم أني آسفة . . .» .

ـ «إنما أنت طفلة يا حبيبتي ، إنك تعتقدين أنك إذا قلت (إني آسفة) فإن جميع أخطاء السنين الماضية وإساءاتها يمكن أن تسوى ، تمحى من العقل ، وإن جميع السم يمكن أن يزال من الجراح القديمة . . . خذي منديلي يا سكارلت ، لم أعرفك تحملين منديلاً في أية أزمة في حياتك» .

فأخذت المنديل ، ومخطت به ، وجلست . وكان من الواضح أنه لم يكن ليأخذها بين ذراعيه ، كما كان قد شرع يتضح أن كل حديثه عن حبه لها لم يكن يعني شيئاً ، وإنما كان قصة عن زمن مضى ، وأنه كان ينظر إليه وكأنه لم يكن قد حدث له ، الأمر الذي كان فظيعاً . ثم نظر إليها بطريقة محبَّبة تقريباً ، والتأمل في عينيه .

ـ «كم عمرك يا عزيزتي؟ إنك لم تكوني لتخبريني أبداً» .

ـ «ثمان وعشرون سنة» أجابت بكآبة وقد ستر المنديل وجهها .

ـ «ليس ذلك بالعمر المديد . إنه عمر فتي بحيث لا يسعك الظفر بالعالم كله وخسارة روحك ، أليس كذلك؟ لا تبدي خائفة ، فأنا لا أشير بذلك إلى نار الجحيم تصليك لعلاقتك بآشلي ، بل إني أتحدث حديثاً مجازياً وحسب . منذ أن عرفتك وأنت تطلبين شيئين : آشلي ، وأن تصبحي غنية إلى درجة تمكنك من أن تقولي للدنيا أن تذهب إلى الجحيم . حسناً ، إنك الآن غنية إلى درجة كافية ، كما أنك خاطبت الدنيا بكلمات حادة وها قد حصلت على آشلي إذا كنت تريدينه . على أن ذلك كله لا يبدو كافياً لك الآن» .

فأصابها الذعر ، ولكن ليس من فكرة نار الجحيم . لقد غدت تفكر : «ولكن ريت هو روحي وها إني أفقده ، وإن أنا فقدته فلن يلذ لي أي شيء آخر ! لا ، لا الأصدقاء ولا المال ولا . . ولا أي شيء آخر . وإن أنا ظفرت به فقط فلن أهتم حتى ولو غدوت فقيرة مرة ثانية . لا ، لن أهتم إن أنا ابتردت ثانية أو حتى جعت . بيد أنه لا يمكن أن يعني . . ها ، لا يمكن !» .

ومسحت عينيها وقالت بيأس :

ـ «إذا كنت قد أحببتني هذا الحب العظيم في الماضي ، فلا بد أن يكون قد بقي شيء لي !» .

ـ «لقد بقي من كل ذلك شيئان ، وهما الشيئان اللذان تمقتينهما أشد المقت . . الشفقة وشعور غريب من العطف» .

شفقة ! عطف ! «آه يا إلـــهي» فكرت بيأس . أي شيء إلاّ الشفقة والعطف ، فقد كانت كلما شعرت بهاتين العاطفتين تجاه أي إنسان تجد أنهما تسيران متلازمتين مع الازدراء . أكان يزدريها أيضاً؟ إن أي شيء يمكن أن يكون أفضل من ذلك ، حتى البرود الساخر الذي اتصف به أيام الحرب ، وحتى الجنون المخمور الذي ساقه ليلة حملها على الدرج وأصابعه القاسية تكدم جسدها . أم أن الكلمات المتشدقة المزخرفة التي تبينتها الآن كانت قد سترت حباً مريراً ! أي شيء ، إلا هذا العطف غير الشخصي ، الذي كان مسطوراً على وجهه بوضوح تام .

ـ «إذاً . . إذاً إنك تعني أني دمرت كل شيء . . وأنك لم تعد تحبني؟» .

ـ «إن ذلك صحيح» .

ـ «ولكن» قالت بعناد ، كطفلة ما زالت تشعر بأن تقرير رغبة ما هو نيل لتلك الرغبة «ولكني أحبك !» .

ـ «إن ذلك من سوء حظك» .

فرفعت رأسها بسرعة لترى إن كانت هناك سخرية وراء هذه الكلمات ، ولكن لم تكن هناك أية سخرية ، إنما كان يقرر حقيقة وحسب ، ولكنها كانت حقيقة ما زالت لا تصدقها . . لا تستطيع تصديقها . ونظرت إليه بعينين مائلتين ، عينين كانتا تتوقدان بعناد يائس ، وقد بدأ فكاها الصارمان فجأة خلال وجنتها الناعمة شبيهين بفكي أبيها .

ـ لا تكن أحمق يا ريت ! إن بوسعي أن أعمل . .» .

فطوح يده في رعب ساخر ، وارتفع حاجباه الأسودان في الشكل الهلالي التهكمي القديم :

ـ «لا تبدي بهذا التصميم الشديد يا سكارلت ! إنك ترعبينني . إني أرى أنك تأملين انتقال عواطفك الجامحة من آشلي إلي ، وإني أخاف على حريتي وطمأنينة عقلي . لا يا سكارلت ، إني لن أطارد كما طورد آشلي السيئ الحظ ، هذا فضلاً عن أني ذاهب . .» .

فارتجف فكها قبل أن تضغط على أسنانها لتهدئه ، يذهب؟ لا ، أي شيء إلا ذاك ! كيف يمكن للحياة أن تستمر بدونه؟ لقد ذهب كل شخص ذي قيمة منها سوى ريت . لا يجب أن يذهب . ولكن كيف يسعها أن تمنعه؟ لقد كانت عاجزة أمام عقله الرصين وكلماته الخالية من أي اكتراث بها .

ـ «إني ذاهب ، وقد كنت عزمت على أن أخبرك حين عودتك من ماريتا» .

ـ «أأنت هاجرني؟» .

ـ «لا تكوني الزوجة الروائية المهملة يا سكارلت ، فذلك الدور ليس بالدور اللائق . هل أعتقد إذاً أنك لا تريدين الطلاق ، حتى ولا الانفصال؟ حسناً ، سأتردد عليك بقدر يكفي لمنع لغط الناس إذاً» .

ـ «ليلعن الله اللغط» قالت بحدة ، «إنه أنت الذي أريد ، خذني معك !» .

ـ «لا» قال وفي صوته ما ينبئ بقرار حاسم . ولهنيهة كانت على وشك أن تنفجر دموعها ، انفجاراً عنيفاً كدموع الأطفال . كان يمكن أن تلقي بنفسها على الأرض وتلعن وتصرخ وتخبط بقدميها ، غير أن بقية من كبرياء ، من إدراك ، ثبتتها ففكرت «إن أنا فعلت ذلك فإنه لن يزيد على أن يضحك أو ينظر إلي فقط ، لذلك ينبغي أن لا أصرخ ، ينبغي أن لا أتوسل ، ينبغي أن لا أفعل أي شيء كي لا أتعرض لازدرائه ، ينبغي أن يحترمني حتى . . . حتى إن لم يحبني» .

ورفعت ذقنها ، واستطاعت أن تسأل بهدوء .

ـ «إلى أين أنت ذاهب؟» .

وبدا في عينيه بريق إعجاب خافت وهو يجيب :

ـ «ربما إلى إنكلترا . . أو إلى باريس ، ربما إلى شارلستون لأحاول أن أعقد صلحاً مع أهلي» .

ـ «ولكنك تمقتهم! لقد سمعتك تضحك عليهم مراراً و . .» .

فهز كتفيه .

ـ «ما زلت أضحك . . ولكنني بلغت نهاية المطاف يا سكارلت . إني في الخامسة والأربعين من العمر ، السن التي يبدأ الرجل فيها في تقدير بعض الأشياء التي كان قد ضرب بها عرض الحائط مستخفاً في شبابه : العصبية العائلية ، الشرف والأمانة ، الجذور العميقة . . ها ، لا ، إني لا أتراجع ، ولست نادماً على شيء فعلت ، ولكنني نعمت بوقت طيب طويل جداً . . وقت مديد طويل بحيث أن بهجته بدأت تذوي ، ولذلك فإني أريد الآن شيئاً آخر مختلفاً . لا ، إني لا أقصد أبداً أن أتغير أكثر من تغير إهابي ، غير أني أريد المظهر الخارجي للأمور التي اعتدت معرفتها : السأم التام من المكانة الاجتماعية والاحترام ، احترام الآخرين يا مدللتي ، وليس احترامي . . والكرامة الهادئة التي بوسع الحياة أن تنالها عندما يحياها أناس لطفاء ، السناء البهيج للأيام التي انقضت ، الأيام التي عندما كنت أعيشها لم أكن أتبيّن سحرها البطيء . .» .

وثانية عادت سكارلت إلى بستان تارا العاصف ، ورأت في عيني ريت التعبير ذاته الذي كانت قد رأته في عيني آشلي ذلك اليوم . كانت كلمات آشلي جلية في أذنيها ، وكأنه هو الذي كان ينطق بها لا ريت ، وعادت إليها أجزاء كلمات فنطقت كالببغاء :

ـ «لها سحر . . كمال ، تناسق كفن إغريقي . .» .

ـ «لماذا كنت تنطقين بذلك؟ إن ذلك هو ما كنت أعنيه» .

ـ «لقد كان ذلك شيئاً . . قاله آشلي فيما مضى ، عن الأيام القديمة» .

فهز كتفيه وغادر البريق عينيه .

ـ «دائماً آشلي» قال وصمت هنيهة .

ـ «سكارلت ، عندما تبلغين الخامسة والأربعين فربما ستعرفين عما أتحدث الآن ، وعندئذ ربما تكونين أنت أيضاً تعبة من النبلاء المزيفين ، والأساليب الرثة ، والعواطف الرخيصة . غير أني أشك في ذلك ، وأظن أنك ستكونين دائماً أكثر انجذاباً للبريق منك للذهب . وعلى كل حال ، ليس بوسعي أن أنتظر كل هذه المدة لأرى النتيجة ، كما ليس لدي الرغبة في الانتظار . إن القضية لا تهمني . إني ذاهب لأبحث في المدن والبلاد القديمة ، حيث لا بد من أن يكون هناك

شيء من الأوقات القديمة ، شيء ما زال باقياً . إني ذلك الرجل العاطفي ، وإن أتلانتا فجة كثيراً بالنسبة إلي ، جديدة كل الجدة» .

ـ «اصمت» قالت فجأة ، ولم تكن قد سمعت تقريباً شيئاً مما قاله ، فمن الأكيد أن عقلها لم يستوعب كلمة ، ولكنها عرفت أنه لم يعد بوسعها أن تحتمل بأي جلد صوت حديثه ، وقد انعدم منه أي حب .

وصمت هو ، ونظر إليها باستهزاء .

ـ «على كل حال ، لقد أدركت مقصدي ، أليس كذلك؟» استوضح ونهض على قدميه .

فقذفت بيديها إليه ، وراحتاهما إلى الأعلى ، في إيماءة استعاطفها القديمة جداً ، وبدا قلبها ثانية في وجهها .

ـ «لا» صاحت «كل ما أعرفه هو أنك لا تحبني ، وأنك ذاهب ! آه يا حبيبي ، إذا ذهبت ، فماذا أفعل؟» .

وتردد هنيهة وكأنه كان يناقش في نفسه ما إذا كانت الكذبة اللطيفة ألطف في النهاية من الصدق . ثم هز كتفيه :

ـ «سكارلت ، لم أكن يوماً ذلك الإنسان الذي يلتقط بصبر الشظايا المكسرة ويلصقها معاً ليقول لنفسه بأن الشيء الكامل المرمم نافع كالجديد . إن الذي كسر كسر . . وإني أفضل أن أتذكره كما كان في أحسن حالاته من أن أرممه وأرى مواطن الكسر فيه طالما أنا حي . ربما لو كنت أصغر سناً . .» وتنهد «ولكني بلغت من العمر شأواً كبيراً بحيث لا يمكن أن أعتقد أن مظاهر الحنان هذه هي كألواح الأردواز الجلية ، وأبدأ من جديد . إني أكبر سناً من أن أستطيع حمل عبء كذبات دائمة ترافق الحياة في حالات التيقظ الأريب . وليس بوسعي أن أعيش معك وأكذب عليك ، كما أني لا أستطيع حتماً أن أكذب على نفسي ، بل إني لا أستطيع أن أكذب عليك الآن . إني أتمنى أن لو أستطيع أن أحفل بما تعملين ، أو بالمكان الذي ستذهبين إليه ، غير أني لا أستطيع» .

وتنفس نفساً قصيراً ، وقال باستخفاف ولكن برفق :

ـ «عزيزتي ، إني لا أعدك بكذبة» .

*

النهاية

راقبته بصمت ، وهو يصعد الدرجات ، شاعرة بأنها كانت ستختنق من الألم في حلقها . ومع صوت وقع خطواته التي كانت تتلاشى في القاعة العليا ، كان يتلاشى الشيء الأخير في الدنيا الذي كان يهمها ، وعرفت الآن أنه لم يكن يوجد أي التماس عاطفي أو منطقي بوسعه أن يثني ذلك الدماغ الرصين عن قراره . كما عرفت الآن أنه كان يعني كل كلمة قالها ، مع أن بعض تلك الكلمات كان قد قيل باستخفاف . لقد عرفت ذلك لأنها أحست فيه شيئاً قوياً لا يستسلم ولا يتسامح . . كل الصفات التي كانت نشدتها في آشلي ولم تجدها أبداً .

لم تكن قد فهمت أياً من الرجلين اللذين أحبتهما ، ولذلك فقدتهما كليهما . وعرفت الآن معرفة مريبة أنها لو كانت قد فهمت آشلي لما أحبته ، بينما لو كانت قد فهمت ريت لما فقدته . وتساءلت باستخذاء عما إذا كانت قد فهمت أي إنسان في الدنيا .

ـ «لن أفكر بهذا الآن» هجست ببطء مبتهجة الوجه ، مستدعية تعويذتها «سأجن إن أنا فكرت بفقده الآن ، سأفكر بذلك غداً» .

«ولكن» صاح قلبها ، ملقياً بالتعويذة جانباً ، وشارعاً في الإيلام «ليس بوسعي أن أدعه يذهب ! لا بد من أن تكون هناك وسيلة للاحتفاظ به !» .

ـ «لن أفكر بهذا الآن» قالت ثانية ، وبصوت مرتفع ، وهي تحاول أن تدفع بؤسها إلى مؤخرة عقلها ، وتحاول أن تجد متراساً في وجه موجة الألم الصاعدة . . «أجل سأذهب إلى تارا غداً» . وارتفعت معنوياتها قليلاً .

وشعرت بقليل من العزاء والقوة بتأثير الصورة ، وطرد بعض الألم والندم المهووس من قمة عقلها . ووقفت هنيهة تتذكر أشياء صغيرة : طريق أشجار الأرز الموصل إلى تارا ، أحواض شجيرات الياسمين وهي خضراء زاهية مقابل الجدران البيضاء ، والستائر البيضاء المواجة . أضف إلى ذلك أن مامي ستكون

هناك . وفجأة أرادت مامي بيأس ، كما كانت قد أرادتها عندما كانت فتاة صغيرة ، أرادت الصدر الواسع لتضع عليه رأسها . أرادت اليد المتغضنة السوداء تعبث بشعرها . مامي ، الرابطة الأخيرة مع الأيام القديمة .

وبروح أهلها الذين لم يكونوا ليعرفوا الهزيمة ، حتى عندما كانت تقابلهم وجهاً لوجه ، رفعت ذقنها . إن بوسعها أن تعيد ريت . لقد كانت تعرف أن بوسعها ذلك ، فلم يوجد يوماً رجل لم تستطع الظفر به ، إذا ما صمَّمت على الظفر به .

ـ «سأفكر بذلك كله غداً في تارا ، فبوسعي احتماله عندئذ ، غداً سأفكر بإحدى الوسائل لإعادته ، وعلى كل حال فإن غداً يوم آخر» .



ذهب مع الرّيح



سلخت مرغريت في كتابة هذه القصة المستفيضة ست سنوات كاملة أو أكثر قليلاً، جعلت بؤرتها قصة حب بين شخصيّتين مغامرتين صلبتي العود من الرجال والنساء هما «سكارلت أوهارا» و «ريت بتلر»، وأدارت حول هذا الحب المضطرم المعقّد أحداث الفترة التاريخية والاجتماعية مستعينة بعدد كبير من الشخصيات النابضة بالحياة في البيئة التي عاشت فيها سكارلت. وقصة غراميات سكارلت أوهارا ليست هي المقصودة في المقام الأول، بل المقصود هو ما نُسج حول هذه الغراميات من جو الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب وتأثيرها في حياة الناس وسلوكهم وأحوالهم من جميع الوجوه على نحو مجسّم لا تحيط به كتب التاريخ القائمة على المنهج العلمي الجاف وحده.

«ذهب مع الريح» أجل.. إن ما حدث قبل قرنين لا وجود له اليوم، كما هو الحال بالنسبة إلى جميع الجنوبيين. الأمس.. لقد ذهب بالفعل.. كما تذبل أوراق الشجر وتذهب مع الريح.. لكنّ هذا العمل الوحيد الذي أذاع شهرة مرغريت ميتشل سيبُقي اسمها في أذهان الناس أمدًا طويلاً.


ISBN 978-9953-448-99-2

